نيقولاس أوستلر

إمبراطوريّات الكلمة

تاريخ للّغات في العالم



ترجمة
د. محمد توفيق البجيرمي

دار الكتاب العربي
بيروت - لبنان

علي مولا

نيقولاس أوستلر

إمبراطوريّات الكلمة

تاريخ للّغات في العالم

ترجمة

د. محمد توفيق البجيرمي

دار الكتاب العربي

بيروت - لبنان

إمبراطوريّات الكلمة

تاريخ للّغات في العالم

إمبراطوريات الكلمة
تاريخ للّغات في العالم

ISBN: 978-9953-27-914-5

Authorized Translation from the English Language Edition:

Empire Of The Word

الناشر

DAR AL KITAB AL ARABI

دار الكتاب العربي

Verdun St., Byblos Bank Bldg.

P.O. Box 11-5769

Beirut 1107 2200 Lebanon

شارع فردان، بناية بنك بيبلوس

ص. ب. 11-5769

بيروت 1107 2200 لبنان

Tel (+961 1) 800811 - 862905 - 861178 هاتف

Fax (+961 1) 805478 فاكس

E-mail daralkitab@idm.net.lb بريد إلكتروني

www.dar-alkitab-alarabi.com

www.kitabalarabi.com
www.academia.com.lb

إلى جاين

التي لا غنى عنها

المحتويات

قائمة الخرائط والجداول والرسوم البيانية

الخرائط

الجداول

الرسوم البيانية

إشادات للاعتراف بالجميل

جاءت البذرة الأولى لهذا الكتاب من جون كوتس، العامل في جمعية باث الثقافية BRLSI؛ فقد دعاني لإلقاء محاضرة عن اللغة، كجزء من سلسلة ألفية عن 'تواريخ المستقبل'. ولم أدرك مدى الاتساع والأهمية في الموضوع الذي يفتحه هذا الأمر إلا بعد أن جلست للتفكير في تواريخ بضع لغات كبرى، ومع ذلك فإنه موضوع محذوف من مجال المعرفة العامة إلى حد كبير.

وقادت لولا بوبوش خطواتي الأولى إلى عالم الوكلاء الأدبيين، وهناك كنت محظوظاً بالعثور على ناتاشا فيروازر التي استطاعت أن ترى أفضل طريقة لتقديم موضوعي للناشرين. وبالإضافة إلى ذلك فقد أشارت علي بأعمال أخرى أغنت فهمي لموضوعي. ويعود الفضل لها ولمحرِّرِيَّ الواعين والمساعدين، ريتشارد جونسون، وآندرو بروكتر، وتيري كارتن، في جعل غزوتي الأولى لعالم النشر سهلة ومباشرة. وقد أدهشني زملاؤهم أيضاً بطرق مختلفة - ففي دار النشر "واط" Watt قامت ليندا شوناسي ببيع حقوق الترجمة عبر العالم كله حتى قبل أن أكتب كلمة واحدة، وفي دار "هاربر كولنز" تحملت كيت هايد التعامل مع مواد لم يسبق لها مثيل جاءت من جميع الجوانب، ومع مصممي الغلاف في المملكة المتحدة والولايات المتحدة دومينيك فوربس وروبرتو دي فيك. وقدّم آخرون من أماكن أقرب إلى موطني نقداً صارماً ولكنه مساعد للمسوّدات الأولى، ومنهم ابنتي صوفيا، وحَمَاي ديفيد ثيسن، والأهم من الجميع زوجتي، ومستشارتي الأدبية الأولى، جين دن. وقد جعلهم حسن ظنهم بي يرون أن الأخطاء التي عثروا عليها ليست نتيجة كوني أعمق من اللازم، بل فقط نتيجة كوني معتماً أكثر من اللازم. وعلى أي حال فإن جهودهم قد سهّلت على الآخرين كثيراً أن يروا ما كنت أرمي إليه طوال الوقت.

أما بالنسبة لديوني الفكرية أثناء الكتابة، فهي تشمل مساعدة قدّمها لي باحثون من جميع أنحاء العالم، أعطوني من وقتهم، وأوضحوا لي بكرمهم تفاصيل عن لغات يعرفونها أكثر مني بكثير: ومنهم جلعاد زوكرمان، وجوفري خان (الأكادية والآرامية)، ورشاد أحمد عزمي (العربية)، وحسن عوزات، وسالم مزهود (البربرية) وعبده الإمام (البونية)، وكريستوفر تشايلد (السواحيلية)، وأ. بروس بروكس (الصينية)، وهاركريشنا ساتباثي، ورادا مدهاف داش، وسانغامترا موهانتي، وبراتيفا مانجاري رالت (السنسكرتية)، وإيثر سوسيليا (الجورجية)، وماريا ستيلا غونزاليز دي بيريز (الإسبانية والبرتغالية)، وفرانسيس كارتونين (الناحواتل)، وأورولين لينكس (القيتشوا)، وإيما فولودارسكايا (الروسية)، وديفيد كريستال (الإنكليزية). وقام آندي باولي وداريل ترايون بشحذ معرفتي بلغات المحيط الهادئ، وقام كل من إيفن هوفداغن وفرانسواز دواي بتعريفي بالدراسات اللغوية في أوروبا والشرق الأوسط. وفوق كل شيء فإن بيتر ت. دانيلز، بعد أن أفادني من خبرته العميقة بالآرامية ولغات الشرق الأوسط، استمر في تحسين نص هذا الكتاب كله بطرق متنوعة باعتباره قارئاً متنبهاً ومنضّد حروف شديد التدقيق، حتى في الخط المسماري. ومن بين القراء الآخرين الذين صححوا الأخطاء: فرانك آبيت، وغونزالو كامبومور، وبارت هولاند، ودان هيوز، وتيم نو، وحسين روفي، ونوريكو آكيموتو سوجيموري، ومارك تورين، ولنغ لنغ يو، وأكثر من الجميع ستيفن بنهام، وفران كارتونين. فأنا ممتن لهم جميعاً. ولكن لا حاجة للقول بأنني لا أزال مسؤولاً عن الأخطاء التي بقيت.

وقد حمّلتني الرحلة الفكرية لإكمال هذا الكتاب ديوناً أخرى، أحدثها ما أنا مدين به لطوني ماكنري، الذي دبّر لي رحلاتي إلى الهند في عام 2001، ولجين سيمسون وديفيد ناش، اللذين قاما ـ بعد خمسة وعشرين عاماً من مشاطرتي نفاذ البصيرة حول اللغات والنظريات ـ بتمكيني من زيارة أستراليا عام 2002. فهي اليوم أرض فجر الدراسات اللغوية وتحتوي على مخزونات ضخمة من المعلومات والبيانات اللغوية. وهناك استطعت أن أقدم هذه المادة إلى جموع المستمعين المتعلمين والمتحمسين في بيرث، وسيدني، وآرميديل. ومن بينهم

يتعين علي أن أشكر جون هندرسون وَنِكْ ريد أيضاً على دعواتهما وكرم الضيافة الذي لا ينسى.

وبصورة أبعد، ولكنها ليست أقل أهمية، فإن المعرفة بالخلفية التي حصدت ثمارها هنا قد جاءتني من سلسلة طويلة ومتنوعة من مدرّسي اللغات: أذكر منهم على وجه الخصوص موريس بيكمور، وبيلا طومسون، وكين باتربي، وجيمس هوارث، وجيوفري آليبون، وجاك إند، وروبرت أوجيلفي، وجاسبر غريفن، وبيتر بارسونز، وأوليفر غورني، وآنا موربورغو ديفيز، ووابن أونيل، وبول كيبارسكي، وكين هيل، ودانييل إنغولز، وراما ناث شارما، وسوسومو كونو، وبارت ماتياس، وإدوين كرانستون، وروزالند هوارد، ومارتن بريختل، ودامیان مكمانوس، وكيم ماكون، وستيوفين أوديرين.

إن هؤلاء الأدلّاء يشبهون الأنبياء. ففي بلدنا كثيراً ما يساء تمثيل تدريس اللغة باعتباره كدحاً متعباً مضللاً، والحقيقة أن تعلم لغة أخرى يمكن أن يبدو غالباً مهمة شبه مستحيلة. فليس هناك طريق سهل إليه. ولكن الذهب يلتمع في أماكن غير متوقعة على طول الممر كله. وبالنسبة لي كان هو أضمن طريق إلى عوالم جديدة تقع وراء خيالي.

تمهيد

قوة الإنسان في عقله ولسانه

(مثل عربي)

إذا كانت اللغة هي التي تجعلنا بشراً، فإنها هي التي تجعلنا بشراً متفوقين.

فالعقل البشري غير قادر على التفكير بدون ملكة اللغة. ولكن اللغة المحضة وغير المتميزة هي خيال فلاسفة. فاللغة الحقيقية موجودة دائماً في شكل محليّ: كالإنكليزية، والنافاجو [لغة قديمة للهنود الحمر في شمال أريزونا]، والصينية، والسواحيلية، والبوروشاسكية، وأي واحدة من عدة آلاف من اللغات الأخرى. وكل واحدة منها تربط متكلميها بتقليد ظل باقياً آلاف السنين. فعند تعلّمها في مجتمع إنساني، فإنها تسمح بالنفاذ إلى حشد كبير من المعارف والمعتقدات، وهي أرصدة تمكننا (عندما نفكر، وعندما نستمع، وعندما نتكلم، أو نقرأ ونكتب) من الوقوف على أكتاف كمية كبيرة من تفكير أسلافنا ومشاعرهم. فلغتنا تضعنا في سياق سلسلة ثقافية متصلة تربطنا بالماضي، وتظهر معانينا أيضاً لزملائنا من الناطقين بها في المستقبل.

وهذا الكتاب أساسي. إنه عن تاريخ تلك التقاليد، أي اللغات. ذلك أن المجموعات اللغوية ـ أكثر من الأمراء، والدول، والنظم الاقتصادية ـ هي التي تشكل الفاعلين الحقيقيين في تاريخ العالم، الباقين عبر العصور، فيفهمها الناطقون بها بوعي ووضوح باعتبارها رموزاً للهوية، ومع ذلك فهي تتغير بالتدريج، وربما تنقسم، بل وحتى تندمج، بحسب استجابة الجماعات للحقائق

الجديدة. وهذا التفاعل المتداخل فيما بين اللغات هو جانب من التاريخ طال إهماله أكثر من اللازم.

وبالإضافة إلى كون اللغات رايات وشارات للمجموعات الإنسانية، فإنها تحفظ ذكرياتنا أيضاً. وحتى عندما تكون اللغات غير مكتوبة، فإنها أقوى أدواتنا للحفاظ على معرفتنا الماضية، فتنقلها بين حين وآخر إلى أجيالنا التالية. إن أي لغة إنسانية تربط جماعة بشرية معاً بإعطائها شبكة تواصل، ولكنها تفرغها أيضاً في قالب مسرحي فتعطي وسائل رواية القصص وتذكرها.

وليس من الممكن رواية كل هذه القصص، حتى في كتاب كبير بحجم هذا الكتاب. إن كتاب "إمبراطوريات الكلمة" يركّز على اللغات التي تنامت ـ لسبب أو لآخر ـ خارج مواطنها، وانتشرت عبر العالم. ولكن حتى مع شرط دخول صارم كهذا، فإن اختصار عدد القصص من ألوف كثيرة إلى بضع عشرات، يبقي تنوعها طاغياً كاسحاً. وبطريقة ما فإن هناك عدداً كبيراً من القصص التي تستحق الرواية إلى درجة أن العمل لا يقتصر على رواية قصة واحدة، بل هو يميل إلى سرد حكاية عن اللغات "كألف ليلة وليلة".

ولسوف نقوم بجولة على نطاق من الابتكارات المذهلة، في التعليم والتربية، والثقافة والدبلوماسية، فكّر فيها الناطقون بالسومرية وما تلاها من اللغات في الشرق الأوسط، وصولاً إلى العربية في يومنا هذا؛ والمرونة الخارقة للغة الصينية وقدرتها على استعادة حيويتها خلال عشرين قرناً من الغزوات؛ والتقدم الرائع للسنسكريتية من شمال الهند إلى جاوة واليابان؛ واحترام الذات الأخّاذ في اللغة الإغريقية؛ والصراعات التي ولّدت لغات أوروبا الحديثة؛ وفي وقت متأخر عن ذلك كثيراً التفاصيل غير المتوقعة لكيفية بروزها عبر العالم.

وبالإضافة إلى هذه الإنجازات الملحمية فإن حالات فشل اللغات لا تقل عن ذلك في إثارة الاهتمام هي الأخرى. فالإمبراطورية الرومانية الغربية تعرضت لاجتياح كامل على أيدي الناطقين بالألمانية في القرن الخامس الميلادي. وقد أرست هذه الغزوات أساس بلدان أوروبا الغربية الحديثة: إذن فلماذا تخلفت

وراءها اللغة الألمانية؟ وفي إفريقيا حافظت اللغة المصرية على بقائها طيلة ثلاثة آلاف عام من الغزوات والسيطرة الأجنبية: فلماذا ذبلت واختفت بعد تدفق عربية محمد؟ وفي العصر الحديث، حكمت هولندا جزر الهند الشرقية فترة تعادل فترة حكم بريطانيا للهند: فلماذا لم تعد الهولندية لغة معروفة في إندونيسيا الحديثة؟ وإلى أن تتم الإجابة على مثل هذه الأسئلة فلن يمكن أبداً فهم الانتشار العالمي للإنكليزية.

وعلى صعيد ثقافي فإن هناك ما يذهل أيضاً في الآراء العالمية التي تمشّت مع اللغات المتقدمة والمتراجعة. وتتكاثر المفارقات الساخرة. فاللاتينية لم تفلح في شق طريق إلى الأمام مع محنكي شرقي الأبيض المتوسط الذين كانوا يتكلمون الإغريقية والآرامية. ولكنها سرعان ما لقيت احتضاناً على أيدي سكان بلاد الغال وإسبانيا الأميّين. وفي الأمريكتين أبطأ المبشّرون الكاثوليك انتشار الإسبانية على مدى قرون، ولكن في آسيا كان دور المبشرين البروتستانت حساساً في تبني الإنكليزية. ولعل من الأفضل أن نعترف منذ البداية أن غوامض الجاذبية اللغوية والتأثيرات اللغوية تجري في العمق: فسرد القصة ليس دائماً يعني فهمها.

ومع ذلك فإنني أعتقد أن الدراسة العالمية لتاريخ اللغات، وهذه هي محاولتها الأولى، هي بؤرة للعلم فيها من الاستنارة والصحة قدر يعادل على الأقل ما هو موجود في الاهتمامات العادية الأكثر انتشاراً للدراسات اللغوية التاريخية. إن أهمية مقارنة التأثيرات اللغوية للغزوات الرومانية والجرمانية لبلاد الغال تعادل أهمية مقارنة تراكيب أنظمة الأفعال اللاتينية والجرمانية - بل إن من الممكن فعلاً أن يلقي أحدهما شيئاً من الضوء على الآخر. فاللغات بطبيعتها تحدد المجتمعات، وبذلك تقدم مجموعات مكتملة من الأبحاث أوضح من معظم الدراسات الاجتماعية التي ينبغي أن تُبنى عليها التحاليل المقارنة. فلم يُعْطَ اهتمام كاف لنمو المجتمعات اللغوية، وتطورها، وانهيارها خلال الزمن، والضوء الذي يمكن أن تلقيه هذه كلها على أنواع المجتمع الذي كان ينطق هذه اللغات. وعلى سبيل المثال فإن من الحقائق المسلّم بها أنه في الإمبراطورية الرومانية

كان الغرب يدار باللاتينية، والشرق يدار باليونانية. وقد استمرت الإدارة اليونانية أطول من اللاتينية بقرون كثيرة. إذن فكم هو مدهش، ولكن كم هو كاشف أنه عندما حان وقت انهيار الدفاعات واجتياح مقاطعات الإمبراطورية، بقيت اللاتينية - ولم يحلَّ محلها شيء أبداً - ولكن اليونانية تبخّرت إلى حد كبير ضمن فترة جيلين فقط.

إن تاريخ لغات العالم يمكن أن يعبّر ببلاغة عن الشخصية الحقيقية للشعوب، وحركاتها الماضية، وتغييراتها. كما أنه يقدّم بعض التلميحات العريضة للمستقبل. فعندما سئل المستشار الألماني السابق بسمارك عام 1898 أن يختار واقعة وحيدة محددة في التاريخ الحديث أجاب:" إن أمريكا الشمالية تتكلم الإنكليزية". وكان على حق، كما أظهر القرن العشرون.

فقد تدخلت القوى العظمى لأمريكا الشمالية مرتين لتحسم نتيجة الصراعات التي بدأت في أوروبا. وكانت في المرتين إلى جانب القوى الناطقة بالإنكليزية. بل أكثر من ذلك، فإن ثورات القرن العشرين التكنولوجية في الاتصالات، والهواتف، والأفلام، وامتلاك السيارات، والتلفزيون، والحوسبة، وشبكة الإنترنت كانت قيادتها الغالبة الساحقة من أمريكا الناطقة بالإنكليزية التي راحت تعرض لغتها عبر العالم، إلى أجزاء لم تمسسها حتى الإمبراطورية البريطانية. ويكاد يبدو كأن هناك ثورة لغوية تتبع ذلك كله، تحملها أجهزة الإعلام الجديدة.

ولكن رغم أن انتشار لغة ما نادراً ما يمكن أن ينقلب على عقبه، فإنه ليس آمناً على الإطلاق. فحتى اللغة ذات القاعدة العريضة كالإنكليزية في القرن الحادي والعشرين لا يمكن أن تكون لها مناعة. فهي لا تزال عرضة لتهديد الأسباب القديمة لتعاقب اللغات: كالتغيّرات في نمو السكان وأنماط التجارة والنفوذ الثقافي. ورغم كل السيطرة التقنية الحديثة للإنكليزية، فلا شيء يضمن لها استمرار بروزها على المدى البعيد في النشر أو الإذاعة أو شبكة الوب العالمية (w.w.w). فالتكنولوجيا محايدة كالغابة.

وتاريخ اللغات بحد ذاته لا يشرح الماضي أو يتنبأ بالمستقبل. فهناك

ألوف من التقاليد اللغوية، وأحجامها النسبية تشهد تغيرات كبيرة ومفاجئة. فقد تبرز ابتكارات تجديدية هامة في أي واحدة منها، وفي الظروف الحديثة على وجه الخصوص فإن الابتكارات قد تنتشر بسرعة. ذلك أن لغات كالمصرية والأكادية، والسنسكريتية والفارسية، واليونانية واللاتينية، كانت كلها في أيامها تبدو غير قابلة لمقاومة سيطرتها ونفوذها. ولكن كما اكتشفت أنها دفعت الثمن غالياً، فإن الناطقين بها يمكن أن لا يتعلقوا بها عاطفياً.

إن مستقبل اللغة، كماضيها عرضة للامتلاء بالمفاجآت. ولكن لكي نكتشف ما حدث في التاريخ عموماً، ونعرف الفائزين والخاسرين الحقيقيين بين المجموعات البشرية، فإننا لا نستطيع أن نتجاهل محصِّلات الصراع اللغوي.

ليتل سولزبوري هيل، 28 تموز/يوليو، 2004

مقدمة:

صدام اللغات

في 8 تشرين الثاني/نوفمبر 1519، التقى هرنان كورتيز وعصبة من ثلاثمئة إسباني لأول مرة بحاكم المكسيك المطلق. وكان المكان ممراً مرتفعاً عبر البحيرة المؤدية إلى العاصمة تينوتشتيتلان. فكان كل ما حولهم ماء. وعلى الجانب الشرقي كان يشاهد بركان آخذ في التفجر. وكان كورتيز على ظهر حصانه، وله لحية، ويرتدي درعاً لمّاعاً يشي بمهنته الحديثة كضابط أمن في بلدة صغيرة ومنقّب هاوٍ عن الذهب. وكان موتيكوهزوما(*)، المولود ليجلس على الوسادة الملكية في المكسيك، والمنتصر في حروب كثيرة، محمولاً على محفة، متألقاً في لباس رأس دائري واسع مزيّن بريشٍ برّاق أخضر من طائر الكِتْسال [طائر من طيور أمريكا الوسطى]، وزخارف تزّين أنفه وأذنيه وشفته السفلى، وخلفه حرس من المحاربين يرتدون جلود نمور أمريكية مرقّطة وريش نسور.

وبعد تبادل الهدايا تم اصطحاب الإسبان إلى المدينة، وأنزلوا في قصر كان مسكناً لوالد موتيكوهزوما. وقدّم لهم عشاء من الديكة الرومية والفواكه، والطامال [طعام مكسيكيّ من دقيق الذرة واللحم المفروم مع الفلفل الأحمر]. ثم إن موتيكوهزوما الذي كان لقبه الرسمي طلاطوني، أي 'المتكلّم' عاد لتحية ضيوفه.

فكانت هذه أول لحظة تشارك فيها الزعيمان مباشرة في فهم هذه المقابلة التي صنعت التاريخ: حاكم أكبر إمبراطورية في الأمريكتين، وهو ما يزال في أوج قوته، يأتي ليتقابل وجهاً لوجه مع رجل عيّن نفسه مبعوثاً لملك إسبانيا، ورغم

(*) المعروف بشكل أفضل بالاسم المحرف مونتيزوما. أما لفظه الدقيق لغوياً فكان موتيوكزوما.

أنه كان تحت الحراسة في مدينة جيدة الحماية وجيدة التنظيم، أكبر من أي مدينة يمكن رؤيتها في أوروبا، فإنه كان - على نحو غريب - لا يشعر بالرهبة. وقد حددت كلماتهما مسار كل ما كان سيأتي لاحقاً، وقبل كل شيء الدبلوماسية المأساوية وعدم فهم الأزتيك، وعدوان الإسبان المدبّر والمحسوب والمخادع والمتواصل. فكان الخطوة الأولى نحو اجتثاث لغة الناحواتل كلغة للإمبراطورية المكسيكية وتقدم الإسبانية لتحل محلها كلغة للحكومة والدين أولاً، ثم لكل شيء آخر في العالم الجديد[1].

وقد افتتح موتيكوهزوما الحديث بخطاب وردي مزخرف بلغة الناحواتل، ترجمه المترجمون الذين جاء بهم كورتيز معه. فقامت مالين - تزين، وهي امرأة مكسيكية نبيلة، بترجمة الناحواتل إلى لغة يوكاتيك مايا، وقام فراي جيرونيمو دي آغويلار، وهو قسيس إسباني بنقل المعنى من المايا إلى الإسبانية. وبعد ذلك رد كورتيز بالإسبانية، وسارت عملية الترجمة باتجاه معاكس.

*Totēukyoe, ōtikmihiyōwiltih ōtikmoziyawiltih.**

يا مولانا، لا بد أنك قد عانيت الآلام. ولا بد أنك شديد التعب.

كانت هذه تحية تقليدية، رغم أنه لم يكن هناك أشخاص يخاطبهم "المتكلم" المكسيكي بلقب 'مولانا'.

ō tlāltiteč tommahzītīko, ō īteč tommopāčiwiltīko in mātzin in motepētzin, Mešihko, ō īpan tommowetziko in mopetlatzin, in mokpaltzin, in ō ačitzinka nimitzonnopiyalīlih, in ōnimitzonnotlapiyalīlih ...

(*) في كل فصل، تم اعتماد شكل من التهجئة بحروف لاتينيّة، من أجل إنصاف طريقة لفظ أجزاء من لغة غير معروفة، مع عدم الابتعاد أكثر من اللازم عن أفكار غير اللغويين عن كيفية لفظ حروف الأبجدية اللاتينية. وعلى وجه العموم فإن حروف العلة تلفظ بشكل نقي وبسيط كما هي في اللغة الإسبانية. أما الحروف الصامتة والمجتمعة فتلفظ كما هي في الإنكليزية. كما أن اي خصائص غريبة أو غير عادية يعلن عنها في الحاشية الأولى. وهنا، بالنسبة للغة الناحواتل، لم يتم اتباع التهجئة التقليدية (الشبيهة بالإسبانية) في الحروف الهجائية اللاتينية: وبدلاً من ذلك، فإن الحرف č يمثل الصوت ch بالإنكليزية، والحرف š يمثل الصوت sh بالإنكليزية: كما أن الحرف h يستخدم لتمثيل صوت الحاء الحلقي الساكن، مثل حرف الـ t غير المسموع في لفظ الإنكليز والإسكتلنديين لكلمة "سكوتلاند"، وأما الحرف z فهو هنا أقرب إلى الحرف s الإنكليزي منه إلى z. وحروف العلة الطويلة توضع فوقها علامة المد، مثل، ā وē.. ويمكن تبسيط الكلمات الشائعة، مثل كلمة "تلاهتوني" *tlahtoāni*.

> لقد تفضلت بالمجيء إلى الأرض، واقتربت من مياهك، من مكانك العالي في المكسيك، ونزلت إلى وسادتك، إلى عرشك، الذي احتفظت لك به فترة قصيرة، أنا الذي اعتدت المحافظة عليه لك.

كان هذا غريباً. فقد كان موتيكوهزوما يخاطب كورتيز كتابع لسيده. فتابع كلامه بقوله: 'لأن حكامك قد ذهبوا، الملوك التابعون لك، إتزكوتال وموتيكوهزوما العجوز، وآكسيا كاتل، وتيزوك، وآهوتزوتل، الذين صاروا حراساً لمملكتك، لحكم المياه، والمكان العالي في المكسيك، أولئك الذين تبعهم رعاياك وساروا خلفهم'.

كان هذا شيئاً عجيباً وغريباً وشاذاً. إذ بدا وكأن موتيكوهزوما يضع كورتيز في مكانه كملك حاكم مطلق لهذه الأرض نفسها كان مفقوداً منذ زمن طويل ثم رجع. 'ألا يزالون ساكنين فيما تركوه وخلفوه وراءهم؟ آه لو أن واحداً منهم يستطيع أن يرى ويعجب بما حدث لي اليوم، وما أراه الآن في غياب سادتنا دون علمهم. إنه ليس مجرد خيال، ولا مجرد حلم. فأنا لست حالماً، ولا أتخيل، بل لقد رأيتك، ونظرت إليك'. وبذلك زعم موتيكوهزوما أنه يشاهد رؤيا تتحقق. ولا بد أن كورتيز كان عندئذ يفكر بأن الحظ، أو الله، قد جاء له بالزعيم المكسيكي ووضعه تحت سلطته. وتابع مخاطبة كورتيز قائلاً له: 'لقد مضى عليّ وقت طويل (خمسة أيام، عشرة أيام) وأنا أترقّب متطلعاً بقلق إلى المكان البعيد الغامض الذي جئتم منه، في الغيوم وفي الضباب. وهكذا فإن هذا هو تحقيق ما قاله الملوك، بأنك سوف تتفضل بالعودة إلى مياهك، إلى مكانك العالي، وأنك سترجع لتجلس على وسادتك وعرشك، وأنك سوف تأتي'. فمن السهل الاستنتاج بأن الزعيم المكسيكي كان يعتبر كورتيز مسيحاً موعوداً في البلد الذي كان كورتيز يأمل أن يغزوه ويفتحه: 'والآن لقد تحققت هذه الرؤيا، وتفضلت بالوصول وقد عرفت الألم، وعرفت الإرهاق والتعب. والآن، بما أنك جئت إلى الأرض، فاسترح وادخل إلى قصرك، وأرح أطرافك، ويا ليت سادتنا يأتون إلى الأرض'.

ولم يتوان كورتيز في استغلال هذا المظهر المذهل من الإخلاص والولاء الذي أبداه له الحاكم المكسيكي. ولكنه لم يكتف بمجرد قبول الخضوع الذي قدّم

له شخصياً، كما كان بوسعه أن يفعل. فما هو السلوك الإضافي الذي كان يتوقعه منه الأزتيك لو أنه ادعى أنه إله عائد بعد غياب؟ وكيف كان يمكن أن يكون رد فعل رجال كورتيز على ذلك الادعاء؟ وبدلاً من ذلك فإنه قد عزز ذهول موتيكوهزوما أمام أصل بعثته المعجزة، فنسج شيئاً من التملّق المنافق حول المسافة التي لا بد أن تكون قد وصلت إليها سمعة الحاكم المكسيكي. ولكن كورتيز عاد فوراً إلى التركيز على واجباته إزاء إلهه وملكه كما يراها وفرض تلك الواجبات على مُحاوره. بل لقد اختتم كلامه معه بالإشارة إلى موعظة.

وهذه رواية شاهد عيان:

> لقد رد كورتيز عن طريق مترجمينا [أي ألسنتنا الناطقة] الذين كانوا معه دائماً، ولا سيّما السيدة مارينا [مالينـتزن] فقال له إنه لا يعرف بماذا يكافئه بنفسه أو عن طريق أي واحد منا، على كل أنواع الفضل العظيم التي يتلقاها منه كل يوم، وأننا بالتأكيد قد جئنا من مكان شروق الشمس، وأننا أتباع وخدم لسيد عظيم يدعى الإمبراطور دون كارلوس العظيم، الذي يخضع له أمراء عظام، وأنه قد سمع أخباراً عن موتيكوهزوما، وكيف أنه سيد عظيم. فأرسلنا لنراه ونطلب منه أن يصبح مسيحياً، مثلما هو إمبراطورنا ونحن جميعاً، وأنه يتعين عليه وعلى أتباعه أن ينقذوا أرواحهم. وتابع يقول إنه سيعلن لهم الآن مزيداً من المعلومات عن طريقة ذلك وكيف يجب أن يتم، وكيف نعبد إلهاً حقيقياً واحداً، ومن هو هذا الإله، مع أشياء كثيرة أخرى ينبغي أن يسمعها، كما أخبر سفراءه..

إن هذا الحوار المتبادل بلغة الناحواتل والإسبانية يسجّل لحظة مصيرية عندما تم وضع نمط اقتحام مجموعة لغوية لمجموعة أخرى. وقد حدث أنه تم توثيق هذا الحوار لدى كل من الطرفين، ولكنه ليس فريداً من نوعه. فهذه اللحظات الريادية من التأثير القاتل كانت تحدث طيلة التاريخ البشري، كما حصل في 11 تموز/ يوليو عام 1770 عندما قام القبطان جيمس كوك من الأسطول الملكي لبريطانيا

العظمى بمقابلة سكان أستراليا الأصليين الناطقين بلغة غوغويمدهير فيما هو الآن شمال مقاطعة كوينزلاند، أو في القرن الأول الميلادي عندما جاء شخص من جنوب الهند اسمه كوندينيا إلى ساحل بنام في كمبوديا، وسرعان ما تزوّج ملكتها المسماة سوما (أو ليوي، أي 'ورقة الصفصاف' في التقرير الصيني)، وبذلك قام بزرع الثقافة السنسكريتية في جنوب شرق آسيا.

إن هذا الكتاب يتعقب تاريخ تلك اللغات التي امتدّت إلى أوسع نطاق، كجزء من التاريخ الإنساني الذي نعرفه الآن. وبطريقة ما، ولأسباب متنوعة، فإن المجتمعات الناطقة بتلك اللغات تمكنت من إقناع آخرين بالانضمام إليها، وهكذا توسعت. أما دوافع ذلك الإقناع فيمكن أن تكون شديدة التنوّع - فهي تشمل السيطرة العسكرية، والآمال بالازدهار والإثراء، والتحوّل إلى اعتناق الدين، أو الدوام في المدارس الداخلية، والخدمة في الجيش، وأسباب كثيرة أخرى. ولكن هذا الإقناع في الأساس هو الطريقة الوحيدة التي يمكن أن تنتشر بها اللغة، وهو ليس شيئاً صغيراً، كما يعرف أي شخص حاول متعمّداً أن يتعلم لغة أخرى.

القسم الأول

طبيعة تاريخ اللغات

سمح [الملك إكسيركسيس] لثميستوكليس أن يقول ما يدور في ذهنه بحرية عن القضايا الإغريقية، فأجاب ثميستوكليس بأن كلام الإنسان يشبه السجّادات الغنية التي لا يمكن إظهار أنماطها إلا عند فرشها وفتحها. فعندما تُطوى السجّادات تختفي الأنماط فتضيع، ولذلك فقد طلب منحه وقتاً. فَسُرَّ الملك بهذا التشبيه، وطلب منه أن يأخذ وقته. فطلب إمهاله سنة. ثم بعد أن تعلم اللغة الفارسية بشكل كاف، تكلم مع الملك بلغته...

بلوتارخ، ثميستوكليس، 5:29

1
بساط ثميستوكليس

النظرة اللغوية للتاريخ الإنساني

من وجهة النظر اللغوية، فإن سكان العالم الحاليين ليسوا ستة مليارات، ولكنهم يزيدون قليلاً على ستة آلاف.

فهنالك ما بين ستة آلاف وسبعة آلاف مجتمع في العالم اليوم معرّفون تحديداً باللغة الأولى التي يتكلمونها. وهم ليسوا متساوين في العدد. فمجال الحجم يمتد من لغة الماندرين الصينية التي يتكلمها حوالي 900 مليون ناطق يمثلون وحدهم سُدس سكان العالم جميعاً، وتليها اللغتان الإنكليزية والإسبانية، اللتان لكل منهما 300 مليون متكلم، وتتبعها سلسلة طويلة من المجتمعات الصغيرة: وعلى سبيل المثال فإن أكثر من نصف لغات العالم ينطق بكل منها أقل من خمسة آلاف متكلم، وهناك أكثر من ألف لغة لا يتكلمها سوى بضعة أشخاص. فهذا وقت يحدق فيه الخطر باللغات.

وبالنظر في التاريخ الإنساني نجد أن المجتمع اللغوي وحدة طبيعية جداً. فاللغات بطبيعتها كأدوات اتصال تقسم الإنسانية إلى مجموعات. ولا تستطيع أي مجموعة من الأشخاص أن تتصرف بشكل جماعي منسجم إلا من خلال لغة مشتركة، وبذلك يكون لها تاريخ مشترك. وعلاوة على ذلك فإن اللغة التي تتشارك فيها المجموعة هي بالضبط الأداة التي يمكنها أن تتقاسم بها ذكريات تاريخها المشترك. فاللغة تمكّن الناس أن يعيشوا تاريخاً مشتركاً وأن يسردوه.

ولكل لغة ملمح آخر يجعلها أنسب واسطة للحفاظ على تاريخ المجموعة. وكل لغة يتعلمها الصغار من الكبار، بحيث إن كل لغة حية هي تجسيد لتقليد. والتقليد خالد من حيث المبدأ. فاللغات تتغير عندما تنتقل من شفاه جيل إلى الجيل التالي. ولكن لا شيء في عملية النقل هذه يمثل التلاشي أو الانطفاء. ومثلما يتلقى كلُّ جيل جديد الحياة نفسها، فإنه يستطيع أيضاً أن يتلقى موهبة اللغة من جديد. وهكذا فإن اللغات ـ على عكس أي من الناس الذين يتكلمونها ـ لا يمكن أن تمرض، أو تموت.

ولكل لغة فرصة لتحقيق الخلود، ولكن ليس معنى ذلك القول إنها ستبقى إلى الأبد. فالجينات والأنواع التي ترمّزها تلك الجينات هي خالدة أيضاً. ولكن حالات الانقراض شائعة في علم الأحافير القديمة (المستحاثات). وبالمثل فإن فترة العمر الحقيقي للجماعات اللغوية تختلف اختلافاً هائلاً. فحوليات تاريخ اللغة مليئة باللغات التي ماتت وتلاشت، والتقاليد التي انتهت، فلم تترك وراءها أي ناطق بها على الإطلاق.

إن وجهة نظر اللغة في التاريخ يمكن مقارنتها بالنهج الوراثي في التاريخ الإنساني، الذي يحدث الآن ثورة في نظرتنا إلى ماضينا البعيد. ومثل الفرد في النوع البيولوجي الحيّ وانتماء النسب إلى سلالة الأمهات، فإن الفرد في مجموعة لغوية يقوم على أساس علاقة واضحة. فالفرد يكون عضواً في نوع معين إذا كان يستطيع الإنجاب مع أعضاء آخرين من ذلك النوع، وينتسب إلى سلالة الأم إذا كانت أمه تابعة لذلك النسب. وبالمثل فإنه على الصعيد الأساسي الأولي فإنك عضو في جماعة لغوية إذا كنت قادراً على استخدام لغتها.

إن فائدة هذه الوحدة المحددة لغوياً هي أنها تحدد بالضرورة مجموعة هامة بالنسبة لنا كبشر. فوحدة النوع تثير اهتمامنا في تحديدها لعلاقتنا في عصور ما قبل التاريخ مع المجموعات ذات الصلة بنا كالبشر الذين يقفون منتصبين على أقدامهم *Homo erectus* كنوع وبالبشر من فصيلة النياندرتال. ولكن بعد ظهور الإنسان العارف *Homo sapiens* كنوع بيولوجي فإن هذه الفائدة تؤدي إلى الحقيقة الواضحة بأننا، من ناحية النوع، مشمولون جميعاً في

هذا. كما أن وحدة الانتماء والنسب لها نقاطها هي الاخرى، فهي متميزة على مر الدهور بوجود حمض الدنا DNA المسؤول عن إنتاج الطاقة في الخلية، وعن كروموسومات Y، ويمكنها تقديم دليل مثير للاهتمام عن أصل السكان إذا كان هناك نسب واضح اليوم في السكان ولكنه مفقود في إحدى المجموعات المرشحة للانتماء إلى الأسلاف. وهكذا فقد تم الاستنتاج بأن أهالي بولينيزيا لا يمكن أن يكونوا قد جاؤوا من أمريكا الجنوبية. وأن معظم سكان أوروبا لديهم أسلاف بعيدون عن المصادر الزراعية في الشرق الأدنى، وأن أسلاف معظم سكان المنطقة الوسطى في إنكلترا هم من فريزلاند[1]. ولكن مع معرفتنا بانعدام المعلومات عن أمهات كثير من الناس أو آبائهم فإن ذلك لا يضع حداً على مجموعة من الناس ككل كما تفعل اللغة ذلك.

قارن وحدة مثل عرق عنصري حدوده غير معروفة بما لا يزيد عن مجموعة منتقاة من الصفات، سواء أكانت تشابهات سطحية مثل لون البشرة أو نسب أبعاد الجمجمة، كما كان معروفاً في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، أو عن طريق الدم ومجموعات الأنسجة، وتسلسلات حمض الدنا، كما صار معروفاً مؤخراً. وبالمثل، فإن هناك عقبات لا يمكن التغلب عليها في تحديد النظير الثقافي للعرق العنصري، أي الأمة، وهذا تتبعه أشياء أخرى لا يمكن وزنها بدقة، حول الوعي بتاريخ مشترك، وربما لغة مشتركة أيضاً[2]. وبما أن كثيراً من الخصائص تنسب إلى أفراد مختلفين في أجيال مختلفة، فليست هناك أي أهمية عملية لما يمكن أن نفهمه عن أي مجموعة خصائص لعرق عنصري أو عن أمة[*]. ولكن استخدام أي لغة معينة هو حقيقة وظيفية لا يمكن إنكارها

(*) ليست المشكلة هي كون المواصفات والخصائص المشتركة خيالية دائماً (مثلما كانت المعايير النازية للعرق اليهودي) أو حتى كونها عديمة الأهمية الموضوعية للبقاء (مثل كون امتلاك الجينات الوراثية لفقر دم الخلايا المنجلية وفقر الدم المتوسطي يعرّض الناس بوضوح للأمراض الوراثية بينما يعطيهم مقاومة للملاريا) وهذا ينبع من منطق الإحصائيات. فعند اختيار مجموعة من الناس لدراستها يجب دائماً تحديد مجموعة فرعية من الخصائص لاختيارها من مجموعة أكبر بكثير. ولكن الناس المتشاركين في مجموعة فرعية قد لا يتشاركون في مجموعة فرعية أخرى. وعندئذ فمن الذي يستطيع أن يقول (مسبقاً قبل بدء الدراسة) ما هي الخصائص التي تحدد المجموعة ذات التاريخ المثير للاهتمام؟ ومن الناحية العلمية فإن الخصائص المنتقاة تميل إلى إثبات المفاهيم المسبقة عند الباحثين. وهذا يؤدي

في أي مكان، وفوق كل شيء فإن استخدام اللغة هو إحدى خصائص كل مجموعة بشرية معروفة، وهو مستمر بإلحاح متواصل عبر الأجيال. وبذلك فإنه يقدم مفتاحاً عالمياً لتقسيم التاريخ الإنساني إلى مجموعات ذات معنى.

صحيح أن المجتمع اللغوي هو وحدة أكثر انتشاراً من العرق أو النسب والانتماء: فاللغة تتغير بسرعة أكبر من سرعة تغير سلسلة حمض الدنا، بل إن المرء لا يستطيع حتى أن يتأكد أن اللغة ستظل تنتقل دائماً من جيل إلى الجيل الذي يليه. فبعض الأطفال ينشؤون وهم يتكلمون لغة غير لغة والديهم. وكما سنرى عما قريب، فإنه ليس من الممكن دائماً إحصاء عدد المجتمعات اللغوية أو تمييزها بشكل يمكن الاعتماد عليه. ولكنها ملامح حقيقية لا يمكن إنكارها من الحالة الإنسانية.

إن مهمة هذا الكتاب هي رسم خريطة لبعض تواريخ التقاليد اللغوية التي صارت هي الأكثر شعبية، والتي نشرت نفسها في الفترة التاريخية في مناطق شاسعة من العالم المأهول. وسوف تنحصر رؤيتنا في تواريخ تلك اللغات التي يوجد لها دليل مكتوب ومباشر. وهذا يعني حذف عدد من أقدم اللغات، مثل انتشار لغة البانتو عبر جنوب إفريقيا، أو اللغات البولينيزية عبر المحيط الهادئ، ولكن رغم ذلك فإن القصة تشمل آلاف السنين بشكل دائم تقريباً. وتاريخ الإنسانية منظوراً إليه من لغاتها يعطي منظراً واسع المدى.

حالة الطبيعة

لقد ظلت اللغات العملة المتداولة للمجتمعات الإنسانية طيلة مئات الألوف من السنين، ومن الطبيعي أن نمط المجتمع اللغوي قد تغير في ذلك الوقت. والافتراض هو أنه قبل اكتشاف الزراعة وتوسّعها كانت المجتمعات الإنسانية زمراً صغيرة، تماماً مثل مجموعات الصيد والقطاف الباقية حتى يومنا هذا. وهذه المجموعات

مثلاً إلى جعل التناظر بين التصنيفات الوراثية والتقاليد اللغوية لمجموعات سكان العالم أقل إثارة للدهشة. إن هذا التعسّف الملازم لوضع وتحديد النماذج الإحصائية هو عيب أساسي في مصداقية ترتيب سكان عصور ما قبل التاريخ المرتبط مع لوكا كافالي - سفورزا (في كتابه الصادر عام 2001 مثلاً) وكثيرٍ من اتباعه.

كلها لها لغات ومعارف تقليدية شعبية قديمة وقصص يحكيها الكبار للصغار. ولقد كان من الممكن أن تكون كثافة السكان من البشر أقل بكثير مما هي عليه اليوم، أينما كان الناس يعيشون. ومن البديهي في اللغويات التاريخية أن اللغات المتصلة ببعضها بعضاً تفترق عندما يتوقف الاتصال بين المجموعات، وهكذا نستطيع الافتراض أيضاً بأنه في هذه الفترة المبكّرة فإن كل مجتمع يتمتع باكتفاء ذاتي ويتكون من عدد يصل إلى بضعة آلاف شخص لديه على وجه العموم لغته الخاصة به.

وقد تغير هذا كله في المجتمعات التي اعتمدت طريقة العيش المستقر القائمة على تربية قطعان الحيوانات وعلى الزراعة. وعندئذ صارت المجتمعات أكبر وأفضل تنظيماً. وفي المجتمعات المستقرة فإن جيران المرء في عام ما يظلون جيرانه طيلة أعوام كثيرة، بل طيلة أجيال قادمة. وقد تكون على المرء ضرائب ورسوم ينبغي دفعها، والتفاوض بشأنها مع سلطات أعلى. كما أن الأعياد والأسواق تجمع بين الناس من منطقة واسعة. ولا بد من إنشاء مقاتلين مسلّحين للدفاع عن المجتمعات المحلية، وللسرقة من الآخرين عند الشعور بأنهم أضعف منهم. وبدأت تبرز دوافع للتواصل بين الناس عبر مسافات أطول. ولا بد أن ثنائية اللغة قد زادت بين السكان، كما تنامى عدد المتكلمين بكل لغة؛ ومن المحتمل أيضاً أن يكون العدد المطلق للغات قد انخفض وفقدت المجتمعات الأصغر بعض متكلّميها بسبب الحرب أو الزواج أو الهجرة، أو ببساطة بسبب ميل عملي ذرائعي لاستعمال لغة قوم آخرين.

ومن طبيعة الوضع المتغير نفسه كان يمكننا استخلاص هذه العمليات. ولكن في الحقيقة كان من الممكن مراقبتها. فقد تمت مراقبتها في تطور متسارع في الجيلين الماضيين في بابواغينيا الجديدة، بينما راحت طرق الحياة القديمة المكتفية ذاتياً في القرى والتجمّعات الصغيرة تتراجع أمام طريقة الحياة الوطنية الأكثر اتساعاً. ومن ملامح هذا التحول تضاؤل أهمية كثير من اللغات المحلية وتبديلها عن طريق توسّع اللغات المجاورة، أو على نطاق عالمي أوسع باللغات المرتبطة بالتجارة على الصعيد الوطني أو الحكومي: فالرطانات العملية الهجينة أو

اللهجات المبسّطة بين الناطقين بلغات مختلفة تتحول بسرعة إلى لغات مختلطة تستخدم لأغراض عامة ثم تتوحّد بطرق غير رسمية ولكنها فعالة بين أعداد واسعة من المتكلمين.

معرفة القراءة والكتابة وبداية تاريخ اللغة

طيلة فترة وجود حكاية القصص وتصريف الأحكام القضائية، وطقوس المعالجة، كانت هناك سجلات لغوية يتم الاحتفاظ بها شفوياً في ذاكرة أفراد المجتمع المتعلمين. فعقول الكبار مصدر له وزنه، مليء بالأغاني، والسوابق، والمهارات، والخرائط، والوصفات، والتواريخ.

ولكن كان هناك دائماً عنصر ذاتي في التعلّم نابع من التلاوة، وكذلك حدّ عملي للكمية التي يمكن حفظها ـ إلا إذا كان بالإمكان تنظيم فرق متكاملة من حملة السجلات. وعلاوة على ذلك، فعند الحديث الآن من وجهة نظر المؤرخ المعاصر البعيد عن تلك الأزمنة القديمة، فإنه يظهر دائماً أن هناك ميلاً لعدم الدقة في السجلات القديمة المحفوظة في الذاكرة. وعند الاستعمال، كان هناك دائماً ضغط لتحديث السجلات شيئاً فشيئاً لتلبية حاجات العالم المعاصر: وإلا فبسبب التراكم التدريجي للتغييرات في المؤسسات الاجتماعية وفي اللغة أيضاً، فإن السجلات القديمة فعلاً من شأنها أن تصبح غير ذات صلة وغير مفهومة في وقت معاً. وحتى في يومنا هذا، بينما يمكن العثور على تقاليد شفوية متماسكة، فإن من النادر أن يتمكن المرء من الحصول على معلومات واضحة لا غموض فيها من شهادات المتذكّرين. فاستعادة الذكرى هي عمل منظّم مضبوط من إعادة التخيّل، والماضي البعيد قد يصبح بمنأى عن نطاق معرفة أيّ كان.

وحلّ هذا كله يكمن في معجزة الكتابة. وتقاليد الكتابة تبدأ عادة بنوع من إجراء سجلات المحاسبة ـ وعلى الأقل فإن السجلات والرموز كثيراً ما كانت من أوائل السوابق الواضحة المبكرة للوثائق المكتوبة التي بقيت ـ وكان الهدف منها تقديم إثبات موضوعي للكميات التي تنطوي عليها بعض الصفقات. ولكن مع

الممارسة العملية صار من الواضح غالباً أن الرموز كانت من حيث المبدأ قابلة لتسجيل أي رسالة، ومع نمو سهولة التعامل بالرموز، فإنها صارت قابلة للاستخدام كمساعد مباشر للذاكرة، وحتى للكلام البليغ الطلاقة.

وما أن تصبح ثقافة ما مالكة لوثائق مكتوبة حتى تبدأ بوضع أول الآثار التي سيكون من شأنها لاحقاً أن تساعد على كتابة تاريخ اللغة. فإذا كان لنظام الكتابة صلة واضحة باللغة كما هي محكية، فإن الحجارة الصمّاء أو الألواح الطينية أو جلود الحيوانات المحفوظة - أو أي شيء - تبدأ بأن تكشف لنا شيئاً ربما كنا نظنه سريع الزوال تماماً وهو كيف كانت اللغة تنطق بالفعل، ربما قبل آلوف السنين(*) (ورغم البداية الرمزية المعتادة بالأرقام والمفاهيم العامة فإن من المستحيل عملياً تطوير نظام كتابة يعمل تماماً بدون الإشارة إلى الكلمات باللغة المنطوقة).

إن كل اللغات التي سننظر في سيرتها لها تواريخ مكتوبة تعود إلى الوراء أكثر من ألف سنة، بل أكثر من ذلك أحياناً بمرتين أو ثلاث مرات. وفي كل حالة تقريباً كانت معرفة القراءة والكتابة مهارة تم تعلمها من الزوّار أو الجيران، ثم صارت جزءاً من تقليد اللغة نفسها. وكما يحدث - ما عدا في اللغة الصينية - فحتى اللغات التي نبعت منها الكتابة واستفادت منها في أبكر وقت، تخلت عن نظامها الأصلي واستعارت نظاماً آخر(**).

إن السير الماضية للّغات متنوعة كتنوّع العوالم التي خلقتها كل لغة للناطقين بها. فكان لها أقدار مصائر شديدة الاختلاف: فبعضها (مثل

(*) من سخرية الاقدار أن من بين المشاكل الشائعة أن نزعة المحافظة عند بعض الكُتّاب قد جعلت رموزهم تشير إلى نسخة من اللغة صارت غير مستعملة. فذكريات ما تم تعلمه في مدارس الكتبة قد تكون لها أولوية سابقة لما كان الكاتب أو الناسخ يسمعه بالفعل.

(**) تخلت اللغة المصرية عن الحروف الهيروغليفية، وهي (تعرف الآن بالقبطية) تكتب بأبجدية مشتقة من اللغة اليونانية. أما الاكادية والسومرية فلم تعودا تكتبان على الإطلاق؛ وهكذا فإن الخط المسماري حرف ميت. وقد زالت الفينيقية أيضاً، رغم أن كل أبجدية مستعملة من إيرلندا إلى سيام قد اشتقت من حروفها الاصلية. وقد انقطع استخدام الصور الرمزية المنقوشة النافرة بلغة المايا عند الغزو الإسباني لأمريكا. وتكتب هذه اللغات الآن كلها بالحروف اللاتينية. وفي تلك الاثناء تستمر كتابة الصينية بالحروف التي تم توحيدها لأول مرة على يد الرجل الذي أمر بإحراق كل كتاب في ذلك البلد (انظر الفصل الرابع، 'الوحدة الاولى'، ص 202).

السنسكريتية والآرامية) نمت حتى صار لها سكان ناطقون بها موزعون عبر رقاع شاسعة، ولكنها تقلصت في آخر الأمر حتى عادت بلا أهمية؛ وبعضها (كلغات القفقاس وبابوا) لمعت بشكل مطرد في ملاجئ لا يمكن الوصول إليها؛ وبعضها الآخر لا تزال تُخضِع الناطقين بها إلى تقاليد مختلفة تماماً (كما في كثير من أنحاء الأمريكتين الشمالية والجنوبية وإفريقيا وأستراليا). وبعضها (مثل المصرية والصينية) حافظت على الناطقين بها ألوف السنين في بقعة وحيدة، متحدّية كل الغزاة؛ وبعضها (كالإغريقية واللاتينية) انتشرت بالغزو العسكري، ولكنها خسرت مواقعها لغزاة جدد في آخر الأمر.

وكثيراً ما كان أحد التقاليد يصعد على حساب تقليد آخر ثم يقتلعه في آخر الأمر. فتتطفل لغة كبيرة على لغة أخرى وتعيش عالة عليها، ثم تستولي في هجوم مباغت على قنوات تم بناؤها على مدى أجيال. وهذه خدعة شائعة عندما تأتي إمبراطوريات في أعقاب إمبراطوريات أخرى في كل عصر وفي كل قارة. فالآرامية في بلاد فارس استفادت من الشبكات القائمة للغة ليديا في غرب آسيا الصغرى على تخوم بحر إيجه في القرن السابع؛ وفي القرن السادس عشر، اغتصب الإسبان لغات الأزتيك والإنكا فاستخدموها للتحكم في المكسيك وبيرو؛ وفي أوائل أيام البريطانيين في الهند، وصلت الإنكليزية والأوردو إلى تراكيب السلطة المبنية باللغة الفارسية. ولكن مقاييس الزمن التي تمت خلالها هذه التغيرات في المصائر كانت شديدة الاختلاف والتنوّع إلى حد مذهل. فقد يؤسس عقد واحد من الزمن لنمط يعيش بعده ألف سنة، كما حدث عندما استولى الإسكندر على شرقي الأبيض المتوسط من الفرس؛ وقد يقوم اتجاه معين بتثبيت نفسه رويداً رويداً، ميلاً بعد ميل، في قرية بعد أخرى، على مدى ألوف السنين: فهكذا تسربت الصينية متغلغلة في آسيا الشرقية.

ومعنى ذلك أنه على الرغم من التنوّع المحيّر فإن هذا التاريخ المروي عن طريق اللغات يمكن أن يعطي رؤية مُعمّقة لتأثيرات التغيّرات المفاجئة على المدى الطويل. وهذا صحيح وخاصة عندما يكون الشيء الآخذ في التغير هو طريقة تَحدُّثِ أمّةٍ مع أمة أخرى، كما هو حاصل اليوم.

والواقع أن التأثيرات المعقدة على اللغات عندما تتواصل الثقافات هي أفضل سجل لدينا عن التأثير الحقيقي. قارن بين التحاليل الأكثر شيوعاً والمستندة إلى الغزو العسكري، أو السيطرة التجارية، والتي قد تقدم وضوحاً كاذباً ومزيفاً. فما هو مدى اختراق الغزو الصاعق للإمبراطورية الرومانية الغربية على أيدي القبائل الجرمانية في القرن الخامس الميلادي؟ فمع أن هذا الغزو قد غيّر كل الرؤوس المتوّجة تغييراً أبدياً، إلا أنه ترك فرنسا، وإسبانيا، وإيطاليا الشمالية مستمرة في التكلّم بتنويعات من اللغة اللاتينية، وظلت كذلك حتى يومنا هذا. وما الذي كان يحدث حقاً في آشور في القرن السابع قبل الميلاد؟ في تلك الفترة، كان صعود الحكام مضموناً وكانت هناك فتوحات وغزوات جديدة، ومع ذلك كانت لغة آشور آخذة في التغير من الأكادية، لغة حكامها الطويلة العمر، إلى الآرامية، لغة البدو الرحّل الذين كانت آشور تغزوهم كما هو مشهور.

إن التاريخ اللغوي للعالم يُظهر تأثيرات حقيقية أكثر للحركات الماضية والتغيّرات في الشعوب تتخطى المزاعم العسكرية المعلنة لقادتها الذين يعيّنون أنفسهم في المناصب الرئاسية. وهذه التأثيرات والتغييرات تكشف تداخلاً خفياً في العلاقات الثقافية مع سياسات القوة والنزعة النفعية الاقتصادية.

ويقدّم هذا التاريخ أيضاً بعض التلميحات العريضة إلى ما يخبئه المستقبل. فهو يوحي بقوة بأنه ليس هناك انتشار مضمون وآمن لأي لغة في آخر الأمر: فحتى أكبر اللغات في القرن الحادي والعشرين ستكون عرضة إما للعناصر القديمة التي تقرر التتابع اللغوي أو لعناصر جديدة برزت في القرون الخمسة الماضية أو في السنوات الخمسين الأخيرة. فالهجرات، ونمو السكان، والتقنيات المتغيرة في التعليم، والاتصال - كلها تحدث تحوّلات في ميزان الهويات اللغوية عبر العالم، بينما يتنوع تركيز النفوذ والتطلعات مع تكيف اقتصاديات العالم لنشوء مراكز جديدة للثروة. فالأوضاع في المستقبل قد تكون فعلاً غير مسبوقة، مع إمكانية تحقيق اللغات لاستعمال عالمي حقيقي، ولكنها سوف تبقى إنسانية. والبشر نادراً ما يظلون متحدين لفترة طويلة.

تاريخ متجه للداخل أيضاً

ولكننا يمكن أن نتوقع من التاريخ اللغوي للعالم أن يكون كاشفاً بطريقة أخرى. فالمجتمع اللغوي ليس فقط مجموعة تتميز باستخدامها للغة معينة بذاتها: بل هو كيان متطور بحد ذاته، ونظرته إلى العالم تغذيها معلومات من تقليد لغوي عام مشترك. فاللغة تجلب معها كتلة من المدركات الحسية، والكليشيهات والصيغ الشائعة، والأحكام، والإلهامات. وبمعنى ما إذن فإنه عندما لا تحل لغة محل أخرى فلا بد أن نظرة الناس إلى العالم تتغير أيضاً.

وهكذا فإننا عندما نستعرض التاريخ الخارجي للمجتمعات اللغوية الكبيرة والمؤثرة، في حالات توسعها، وإعادة تمترسها على وجه الأرض، فسنحاول أيضاً أن نبين بعض جوانب الإحساس الداخلي للمجتمعات الناطقة بتلك اللغات.

وهذا شيء يصعب التعبير عنه جداً. ولعل أصعب ما فيه يكمن في اللغة نفسها. وكما لاحظ ويتغنشتاين، فإن حدود لغتي هي حدود عالمي؛ وكان يشعر أن هذه الحدود لا يمكن تعيينها إلا بصورة غير مباشرة، فلا يمكن ذكرها بصراحة على الإطلاق. وهذا الكتاب يحاول بطرق متنوعة غير مباشرة - وباستخدام وفير للترجمة - أن يبين شيئاً من المزاج الفكري الذي كيفته اللغة، حتى عندما كسبت أو خسرت ناطقين بها.

وهذا التزام خطر، ولكنه حاسم الأهمية إذا أردنا لتتابع اللغات التي سيطرت على الثقافات الإنسانية أن يكون لها معنى أكثر من مجرد قائمة من الأسماء والتواريخ في تسلسل زمني. ذلك أن جزءاً مما يؤكده هذا الكتاب هو أن هناك شيئاً أخفّ وأدق بكثير من تغيير الولاء يحدث عندما يبدأ جيل ما بتكلم لغة غير لغة والديه.

ويمكننا الحصول على أول تلميح طفيف عن ماهية هذا الشيء بمقارنة خطابي موتيكوهزوما وكورتيز من حيث الأسلوب أكثر من المضمون. فلغتاهما الناحواتلية والإسبانية تتميز كل منهما عن الأخرى تميزاً تاماً، بطرق تستدعي إلى الذاكرة سمات كل شعب على حدة. وأوضحها أنه مثلما يملك كل شخص

صوتاً يمكن التعرف عليه، فإن لكل لغة نظامها الصوتي أو الكلامي الخاص بها. لاحظ عبارة ’مدينتك مكسيكو‘، فهي بلغة الناحواتل: "إن ماتسين إن موتيبيتسن مهشيكو " وهي بالإسبانية *"Su ciudad de Mexico"*. فالعبارة بلغة الناحواتل تستخدم الصوت "تس" الذي هو غير مستعمل في الإسبانية، تماماً مثلما كلمة *ciudad* الإسبانية تبدأ بالصوت "ث" الذي هو غائب وغير موجود في لغة الناحواتل. وحتى حيث كانت الإسبانية تحاول تقليد لغة الناحواتل مباشرة، كما في الاسم "مكسيكو" (الذي يلفظ مهشيكو)، فقد فشلت في التقاط التوقّف الحلقي الذي يكتب على شكل هاء ساكنة في كلمة "مهْشيكو"، الذي ربما كان النطق به يقتضي تهجئة كلمة مثل "مشيتكو"، أي *"Meshitko"* بالإنكليزية الحديثة.

ولكن قواعد الربط لإيجاد كلمات وجمل أطول تكون مختلفة بين اللغتين اختلافاً جذرياً كذلك. وهكذا فإن الاحترام الضمني في الاستخدام الإسباني لكلمة *Su* الدالة على كاف التملّك في البداية يعبر عنه بلغة الناحواتل بإضافة "تسين" *tzin* في آخر كل من الكلمتين. وفي العبارة نفسها فإن كلمة ’مدينة‘ بلغة ناحواتل هي بكل وضوح تجمع بين *a-tl* أي ’الماء‘ و*tepe-tl* أي ’الجبل‘ ولا يماثلها شيء في الإسبانية، حيث إن في كلمة *ciudad* معانيَ ضمنية عن الوضع المدني أكثر من معاني البروز الجغرافي. وبصورة عامة فإن كلمات الناحواتل هي في الغالب سلاسل طويلة من مقاطع قصيرة تتضمن معنى يعادل ما هو موجود في جملة كاملة بالإسبانية، بحيث تستخدم المقاطع القصيرة لإظهار احترام خاص وزيادة الطابع الرسمي في الكلمات المنطوقة.

ولكن الأصوات الكلامية، والمفردات، وقواعد النحو ليست سوى البداية لما يجعل اللغتين تختلفان. ومثلما يملك كل شخص طريقة كلام متميزة، منفصلة تماماً عن صوته الذي يمكن التعرف إليه، فإن لكل لغة أسلوب تعبير خاص بها. ويمكن تقليص هذا الفرق إلى أدنى حد عندما تكون اللغات متقاربة وكثيراً ما تتم الترجمة من واحدة منها إلى الأخرى، كما هي الحال بين لغات أوروبا الغربية مثلاً. غير أن الفرق موجود دائماً بشكل ضمني، فيبرز بوضوح شديد في المقابلة بين لغة الناحواتل واللغة الإسبانية.

إن أوضح جانب في أسلوب التعبير بلغة الناحواتل هو المزاوجة المطّردة بين الكلمات التي تكاد تكون مترادفة، كما في عبارة: 'لقد عانيت، فأنت متعب' و'وسادتك، عرشك'، و'أنا لا أحلم، ولا أتخيل، لأنني رأيتك، ونظرت إليك'. وعلى عكس ذلك، فإن الأسلوب الإخباري الأوروبي المتميز، حيث تتم تجزئة خطاب كامل باختصار بضمير المفرد الغائب، كما في الرواية الإسبانية لكلمات كورتيز، هو شيء غريب تماماً عن لغة الناحواتل. فلم تأت تلك الكلمات بصيغة: 'قال له: "أنا لا أعرف كيف أكافئك..'، بل بصيغة: 'أخبره بأنه لا يعرف كيف يكافئه...'، إلخ.

هذه أمثلة على الفوارق المتميزة بين اللغات في استخدامها اليومي. ولكن هناك مجال سجل اللغة الماضي، في أذهان الناطقين بها وفي الكتابة كذلك.

لقد كان موتيكوهزوما وكورتيز أسيرين لماضيهما الشفوي. فسرعان ما انهمك كورتيز في إعطاء موعظة فورية مرتجلة ما كانت لتحمل أي معنى بالطبع لأن مستمعيه كانت تنقصهم معرفة النصوص المسيحية التي تربى عليها في إسبانيا الكاثوليكية. ولكن خطاب موتيكوهزوما الموجّه إلى كورتيز لتمجيده كزعيم كان هو الآخر نتاجاً منمّقاً مليئاً بعطور كلام الأقدمين الذي كان جزءاً من مناهج مدرسة شباب النخبة في المكسيك. فكان يحتوي مثلاً على خطاب حول الواجب لإلقائه أمام قائد حديث التعيين: 'إن مولانا صاحب الصفاء الأكبر والإنسانية العظمى، وملكنا ذا الكرم والشهامة الكبيرين، والأنفس من جميع الحجارة الكريمة، وحتى من الياقوت الأزرق المخضرّ! هل ما نراه حلم؟ أيمكن أن نكون قد سكرنا من رؤية ما فعله مولانا لنا بإعطائنا إياك كملك ومولى؟ والحق أن مولانا قد وضع فوقنا شمساً جديدة ذات بهاء وضوءاً كضوء الفجر ...'(3).

فالمواضيع هنا دائماً في هذا النص من المدرسة التقليدية هي نفسها عن قائد جديد يظهر كما في حلم ويشبه ضوءاً من السماء. ولكن ما هو مفقود في تحيات موتيكوهزوما لكورتيز هو أي شيء يشبه الخطاب الذي يسبق هذا في

احتفالات الترحيب بزعيم جديد، وهو خطاب يتم فيه تذكيره بشكل كامل بواجباته وضرورة أن لا يؤدي علوّ شأنه الجديد إلى فقده رباطة جأشه. فهل كان حذف هذه التحذيرات من التحيات الودية الموجهة إلى كورتيز سيبدو غريباً للمستمعين الأزتيك؟

لقد كان من بين ملامح أسلوب لغة الناحواتل على الدوام استخدام العبارات الودية كمصطلحات للتشريف والتكريم. فلاحقة "تسين " التي رأيناها تستخدم للتكريم لا تزال تستخدم في لغة الناحواتل الحديثة كلاحقة مشحونة بالعاطفة: (نوكوكوني ـ تسين: 'يا بني العزيز'). وقد جادل بعضهم بأن هذا هو معناها الأصلي في الحقيقة. ومن المؤكد أن الاستخدام المهذب للغة الناحواتل يتضمن حالات قلب من وجهة نظرنا: فالحاكم الذي يحضر حفل زفاف يمكن مخاطبته بعبارة 'يا بنيّ العزيز'، بينما الخدم والأتباع في بلاط ملكي يخاطبهم مولاهم بكلمة 'أبنائنا'. وفي قواعد التشريفات بلغة الناحواتل يبدو أن الاحترام الأصيل كان يتم إظهاره بتبني جرأة في رفع الكلفة، ولعل العكس صحيح أيضاً. بل لقد اقترح البعض[4] أن لهجة التبجيل العالي وغياب كلمات الحب العاطفية في خطاب موتيكوهزوما لكورتيز تظهر في الواقع أنه كان يحقّر الإسباني، أو يحاول على الأقل أن يؤكد تباعد المسافة بين الاثنين. فإن كان ذلك صحيحاً فإنه كان نهجاً خالفه الصواب على نحو فريد. فقد كان كورتيز نفسه رجلاً عالي الثقافة ـ ولكنه ما كان ليستطيع التقاط هذه الخفايا البلاطية في مثل هذا الخطاب الغريب بلغة أهل القصور.

لقد أظهر هذا التحليل المختصر أن المقابلة بين الناحواتل والإسبانية في المكسيك في القرن السادس عشر قد وضع ثقافتين متطورتين وجهاً لوجه. وكان الانتقال إلى التكلم بالإسبانية لدى الأجيال القليلة التالية ينطوي على تغيير في العواطف القلبية وتغيير في اللسان كذلك، إلى درجة أن الاهمية الاجتماعية للتكلم بلغة الناحواتل في المكسيك (حيث تسمى تلك اللغة أيضاً مكسيكانو) بدلاً من الإسبانية قد استمرت حتى يومنا هذا. فيطلق الناطقون بها تعليقات كهذه:

ليست هناك طريقة لإمكانية اختفاء الناحواتل، فهي إرث من أسلافنا.

إن الذين يتكلمون بالمكسيكانو منا، حسناً إنها تعود لأجدادنا. فيجب أن لا تضيع هذه اللغة أبداً. لقد كان جدي وجدتي يتكلمان بالناحواتل دائماً. فلم يستخدما الإسبانية على الإطلاق.

من المهم ومن الجيد في الوقت نفسه أن يكون المرء قادراً على التكلم بالناحواتل، لأن هذه هي الطريقة الأصلية للكلام في المكسيك. فأنا أعتبرها هامة جداً لأنها تشعرنا بأننا مكسيكيون أصليون، لأن الإسبانية لم تُجْلَب إلى هنا إلا مع الغزو. ومنذ ذلك الحين بدأ الناس يتكلمون الإسبانية في بلادنا. ولكن قبل الغزو كان أجدادنا يتكلمون الناحواتل. ومن الواضح أن الغزو جاء بتغييرات كثيرة. فكان فيه حضارة أكثر؛ ولهذا السبب فإنني أعتقد أن من المهم أيضاً أن نتكلم الإسبانية. ولكننا لم نستطع التوقف عن التحدث بالناحواتل لأن آباءنا كانوا يتحدثون بها، ونحن نتبعهم.(5)

إن كل لغة تحدد هوية مجتمع، فالناطقون بها يفهم بعضهم بعضاً. فاللغة تعمل لا كوسيلة اتصال بينهم فحسب، بل كشعار لهويتهم المتميزة أيضاً. وكثيراً ما يسبب ذلك يأساً للحكومات الوطنية التي تحاول صياغة هوية وحيدة لكل مجتمعاتها اللغوية المختلفة. وقد يكون لذلك تأثيرات معاكسة تماماً. فليس من الصدفة أن تختفي لغة الناحواتل من الاستخدام في الكتابة عند حوالي نهاية القرن الثامن عشر، وتختفي معها إلى حد كبير لغات كثيرة من لغات الأسلاف في المكسيك، بالضبط عندما كانت هناك حركات سياسية يقودها الناطقون بالإسبانية من أهالي المدن تثير الوعي بأن المكسيك بلد منفصل يتطلع إلى الاستقلال. فالتناقض بين أهل المدن الناطقين بالإسبانية وبين 'الهنود' الناطقين بلغات المكسيك القديمة كان ينظر إليه على أنه يلفت الأنظار بعيداً عن بروز هوية المكسيكي الحقيقي. فقد كان يجب أن يتخلص الناس من اعتبار اللغات القديمة باعتبارها 'متخلفة'.

يحاول هذا الكتاب أن ينقل شيئاً من وجهة النظر النموذجية المتميزة حول

عالم كل لغة يحكي قصتها. ومن الواضح أن العيش في لغة معينة لا يحدد فلسفة كلية في الحياة: ولكن بعض الاستعارات المجازية تخطر في الذهن بسهولة أكثر من غيرها؛ كما أن بعض الحالات الذهنية، أو المواقف من الآخرين، يسهل افتراض وجودها في لغة أكثر من غيرها. فلا يمكن النظر بلا مبالاة إزاء أي لغة نتكلمها أو أي اللغات كان أجدادنا وأسلافنا يتكلمون. ذلك أن اللغات تؤطر آراءنا في العالم، وتحللها، وتلونها. 'إن لي ثلاثة قلوب'، هكذا ادّعى كوينتوس إينيوس (239 ـ 169ق.م)، أحد فحول الشعر اللاتيني الأوائل، بشأن قوة طلاقته في اللاتينية، واليونانية، والأوسكانية(6).

2

ما الذي تتطلّبه اللغة لتكون عالمية؛ أو، إنك لا تستطيع أن تخمّن أبداً

إن قوى الدمج والتحصيل التاريخية، التي أنشأت كثيراً من اللغات الأوروبية في أعلى عشرين لغة في العالم على مدى القرون الخمسة الماضية يبدو أنها قد استهلكت نفسها ـ أو وقعت تحت حصار مسدود على الأقل ـ عند حلول نهاية القرن العشرين.

فلم يعد أحد يدافع عن الاستعمار الصريح المكشوف. ولم تعد غاية الاستعمار مقصودة بشكل مفتوح، رغم أن الحربين الجراحيتين اللتين افتتح بهما القرن الحادي والعشرون بغزو أفغانستان والعراق تظهران أن الوسيلة لا تزال مقبولة. وبالمثل، فإن تدفّق الهجرة الواسعة النطاق متوقف حالياً. ففي القرنين الماضيين، أوجدت التدفقات من البلدان الأوروبية جزءاً كبيراً مما يعرف الآن بالعالمين الناطقين بالإنكليزية والبرتغالية، ومعظمهما في الأمريكتين، ولكن أيضاً في إفريقيا، وأستراليا، ونيوزيلندا. ثم حدث تدفق هام في النصف الثاني من القرن العشرين، ولكنه أصغر بكثير، من البلدان التي كانت مستعمرة، فأوجد تجمعات ذات لغة جديدة منعزلة في قلب الأراضي الأوروبية.

إن الاتجاهات التي ستشكل المستقبل لا تزال مبهمة. ففي الوقت الراهن لا يزال هناك حشد من المهاجرين المتطوّعين، يتواجدون في سلسلة من البلدان أوسع بكثير، والكابح الرئيسي لحركتهم وإعادة توطينهم هو عدم استعداد البلدان المضيفة التي يرغبون فيها لقبولهم. وبينما يكتب بعض النقاد الخبراء عن

'صراع الحضارات' الوشيك فيضعون العالمين الناطقين بالعربية والإنكليزية وجهاً لوجه على الفور، يبدو النسيج السياسي الذي تضمنه أمم قوية راسخ ومتماسك.

ولكن المستقبل اللغوي للعالم ليس قضية شؤون حالية راهنة، ولا حتى تحليلاً إخبارياً. فانتشار اللغة شيء طويل الأمد يقاس بما لا يقل عن أجيال، بل يقاس أكثر بالقرون والألفيّات. والسؤال الأساسي الذي يطرحه هذا الكتاب هو: كيف - في أي ظروف وبأي تحرّكات - ازدهرت المجتمعات اللغوية في الماضي، وكيف تدهور بعضها، بل لقي نهايته.

إن أكثر الطرق استقامة لازدهار لغة ما يمكن تسميتها نهج الفلاّح. فكل ما على المجتمع أن يفعله هو أن يبقى متحداً، ويزيد عدد سكانه. وهذا ما يعرف بالنموّ العضوي الذي يعتبر التاريخ النموذجي للغات الكبيرة في آسيا الشرقية والجنوبية. وهو ليس مجهولاً حتى في أوروبا، وخصوصاً باتجاه شرقيها(*). وهو ليس استراتيجية مبادرة فعالة، ولكنه يثير سؤالاً لاحقاً: كيف استطاعت اللغات التي تتبع مثل هذه السياسة أن تدافع عن نفسها ضد المجتمعات الأجنبية، التي قد تتعرض لإغراء مهاجمتها وإحداث خلل واضطراب في نموها المطّرد؟

ومن شأن الخلل بطبيعته أن يأتي من مجتمعات لغوية تتبع ممراً أقل هدوءاً: ويمكن تسميتها مجتمعات الدمج والتحصيل، كنوع من التشبيه بالفاعلين الهجوميين في عالم الأعمال التجارية الحديث. وإذا كان النمو العضوي هو استراتيجية الفلاّحين، فإن هذا البديل يمكن أن يسمى نهج الصياد.

ومثل هذا التغيير، الناتج عن الاتصال المباشر بين المجتمعات، يتميز أحياناً كواحد من ثلاثة أنماط: الهجرة، حيث ينتقل مجتمع لغوي جسدياً، جالباً معه لغة جديدة؛ والانتشار، حيث لا ينتشر الناطقون باللغة بأعداد كبيرة فعلاً، ولكن حيث يقوم الناطقون من أحد المجتمعات بتشريب لغتهم لتستوعبها لغة

(*) وبهذه الصفة، فإن هذا النمو بارز في تشكيل المجتمعات اللغوية العليا العشرين في وقتنا الراهن، التي سيتم النظر فيها قبيل خاتمة هذا الكتاب (انظر ص 713).

مجتمع آخر هم على اتصال به؛ ثم التغلغل، وهو خليط من النمطين السابقين[1]. فتقدم الإنكليزية في أمريكا الشمالية وأستراليا هو حالة هجرة، وفي الهند واسكنديناڤيا هو حالة انتشار، أما في جنوب إفريقيا فهو حالة تغلغل(*). ولا تستطيع لغة ما أن تصبح لغة مشتركة، أي لغة اتصال أوسع، إلا عن طريق الانتشار أو التغلغل: ولهذا يجب أن تكون اللغة قد التقطها أناس ليسوا من متكلّميها الأصليين.

إن مجتمعات الدمج والتحصيل اللغوية هذه هي التي يتطور دورها بسرعة، ومن خلال أعمال متعمدة على الأغلب. ومن الناحية العلمية، ستكون هذه هي اللغات الرئيسية التي نتابع سيرتها لأنها بالطبع هي الأكثر امتلاءً بالأحداث.

فهل هناك أي ملمح عام يجعل مجتمعاً لغوياً يغري الآخرين باستخدام لغته، وبذلك ينضمون إليه؟ إن إحدى طرق النظر إلى موضوع هذا الكتاب هي اعتباره تحقيقاً في جذور النفوذ اللغوي، المحدد بأنه النـزوع إلى اجتذاب مستخدمين جدد للغة. فتحت أي ظروف تملك اللغات القدرة على النمو بهذه الطريقة؟ وهل هناك أي خصائص للعلاقة بين اللغات الجديدة والقديمة تجعل الناطقين بها راغبين في القيام بالقفزة وقادرين عليها؟

هناك اعتقاد ضار واسع الانتشار حتى بين اللغويين بأن هناك جواباً مباشراً لا رحمة فيه لهذا السؤال. ويقدم ج. ر. فيرث، اللغوي البريطاني البارز في منتصف القرن العشرين، بياناً جيداً وبسيطاً لهذا الجواب:

> إن القوى العالمية تصنع لغات العالم ... فالإمبراطورية الرومانية صنعت اللاتينية، وصنعت الإمبراطورية البريطانية اللغة الإنكليزية. وبالطبع فإن الكنائس قوى عظمى أيضاً ... فالرجال الذين لديهم مشاعر قوية موجّهة نحو العالم وقضاياه قاموا بأكثر الأعمال. ومن الصعب تصور ما الذي كان الأنبياء المتواضعون للوحدة اللغوية سيفعلونه بدون العبرية، والعربية،

(*) إن استخدام الإنكليزية الواسع الانتشار في الاتحاد الاوروبي يمكن رؤيته كانتشار يعززه التغلغل (بعد صعود المملكة المتحدة في العام 1973).

> واللاتينية، والسنسكريتية، والإنكليزية. فلغات العالم صنعها الساسة، والجنود، والبحارة، ورجال التبشير الديني، ورجال الفعل، وذوو المشاعر القوية. فاللغات مبنيّة على الدم، والمال، والأعصاب، والمعاناة في السعي وراء القوة[2].

وهذه قبل كل شيء صرخة من القلب يرن صداها منذ العام 1937، من أيام الإمبراطورية البريطانية الميتة، ومسيحية استعراض العضلات، وسيطرة الذكور؛ ويبدو أن فيرث (في رأي المدافعين عنه) مهتم أساساً بالمقارنة بين فعالية رجال الفعل ذوي الشهوات القوية وبين الدارسين الضعفاء في بناء اللغات الدولية.

ومع ذلك، فإن هذه الصرخة لا تصمد أمام النقد. فعند دراسة سِيَر اللغات بصورة جدية - حتى 'العبرية، والعربية، واللاتينية، والسنسكريتية، والإنكليزية' التي يذكرها فيرث بصراحة كأمثلة - يتضح أن رأيه هذا المتشدّد في التعبير عن مشاعره الذاتية ليس دليلاً أبداً على ما يجعل أي لغة قادرة حقاً على الانتشار. كما أنه لا يقدم تفسيراً للمصدر الذي جاءت منه كل لغات العالم، ولا لماهية الأشياء التي تحققها كل القوى العالمية.

ولعل أفضل حالة يمكن التفكير فيها تأتي من الأمثلة التي يوردها فيرث ويستشهد بها، وهي الإمبراطوريات العسكرية المتعددة الجنسيات والتي دامت عدة قرون، مثل المحاولات الرومانية والبريطانية. ولكن رغم استمرار وجود اللغات الرومانسية (التي نشأت عن اللاتينية)، فإن تلك اللغات ذات الأصل المشترك قد نمت في بلدان أزيح عنها الحكم الروماني ليحلّ محله استقرار الغزاة الجرمان. فإن رجال قبائل الفرانك، والبورغونديين، والفاندال، والقوط، الذين أقاموا الممالك في أوروبا الغربية بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية [في العام 476 م] لم يكن تأثيرهم في أقصى درجاته يزيد عن اللكنة التي تنطق بها اللغة اللاتينية، وإضافة كلمات قليلة إلى مفرداتها؛ فلم ينجحوا في فرض لغتهم على رعاياهم الجدد في أي مكان. ومع ذلك فعلى الطرف الآخر من البحر المتوسط لم يتحقق للرومان أنفسهم أي نجاح أفضل في نشر اللغة اللاتينية. ففي العام 395 م، رغم مضي أكثر من خمسة قرون من الحكم الروماني المباشر، كان

الإغريق، والسوريون، والمصريون لا يزالون يتبادلون الحديث فيما بينهم باللغة اليونانية. (وبعد ذلك العام انقسمت الإمبراطورية الرومانية إلى اثنتين، شرقية وغربية، وسرعان ما فقدت اللاتينية حتى دورها الرسمي في الشرق).

وعلى مبعدة من ذلك الميدان، في شمال الصين، فإن الغزوات المتكررة للغزاة الأتراك ـ المغوليين والناطقين بلغة التونغو، والذين حكموا الصين طيلة سبعمئة عام من ألف عام بدأت من القرن الرابع الميلادي ـ لم يكن لهم أي تاثير على بقاء اللغة الصينية؛ وفي آخر الأمر فإن قبائل المانشو الناطقة بلغة التونغو احتلت الصين كلها في العام 1644، ومع ذلك فإن لغتهم نفسها تلاشت واختفت في غضون قرن واحد. فإذا عدنا إلى الشرق الأوسط فسنجد أن انتصارات الفاتحين المسلمين الناطقين بالعربية كانت مؤقتة: فاعتباراً من منتصف القرن السابع الميلادي احتكرت حضارتهم السيطرة على إيران، مع جيرانها في الشرق والغرب. ولكن عندما احتل السلاجقة الأتراك ذلك البلد من الجانب الآخر في القرن الميلادي الحادي عشر، اتضح أن العربية لم تترسخ جذورها هناك أبداً، وعادت اللغة وكل شيء آخر معها ـ ما عدا الدين ـ إلى الفارسية.

فمن الواضح أن الفتح الكلي العسكري وحتى الروحي ليس كافياً دائماً لإحداث تغيير لغوي. ومع ذلك يحدث أحياناً أن يتحقق ذلك على يد مجتمع يبدو أضعف. تأمّل في الآرامية، لغة البدو الرحّل، التي اجتاحت الإمبراطورية الآشورية التي كانت ما تزال في أوج قوتها في القرن الثامن قبل الميلاد، فحلّت محل اللغة الأكادية النبيلة التي كان تاريخها يعود إلى بداية حضارة وادي الرافدين نفسها. أو تأمّل في السنسكريتية، التي تم اعتمادها والأخذ بها في جميع أنحاء جنوب شرقي آسيا في الألفية الميلادية الأولى كلغة تخاطب عند النخبة، رغم أنها جاءت عبر البحر من الهند دون أن يدعمها جندي واحد. بل إنه ليبدو أن القيشوَا التي أصبحت لغة إمبراطورية الإنكا في البيرو في القرن الخامس عشر، قد تم تبنيها عن طريق تسوية مصالحة بين السلالات الحاكمة. فتخلّى الحكام عن لغتهم نفسها كي يضمنوا تأمين قبول نظامي هادئ لامتداد سلطتهم عبر مساحات شاسعة.

أما القوة الاقتصادية، التي كثيراً ما يعتقد الناس أنها تكمن في جذور

انتشار الإنكليزية برعاية بريطانية أو أمريكية، فإنها تبدو أقل لجوءاً إلى الإجبار القسري من القوة العسكرية. وقد سيطرت سفن الشحن الفينيقية على تجارة البحر الأبيض المتوسط طيلة معظم سنوات الألف الأول قبل الميلاد. وخلال جزء كبير من تلك الفترة كانت تدعمها في الغرب سيطرة مستعمرة قرطاجة الفينيقية التي كانت تتكلم اللغة نفسها. ولكن يبدو أن اللغة الفينيقية ظلت غير معروفة خارج مستوطناتها نفسها: فكانت اليونانية هي اللغة المشتركة للخطاب الدولي، ويستعملها حتى الجيش القرطاجي. وعلى مبعدة من ذلك إلى الشرق، فيما بين القرنين السادس والثامن الميلاديين، كانت ملكة طريق الحرير إلى الصين هي مدينة سمرقند الإيرانية: وكانت لغتها هي اللغة الصغدية، ولكن من سمع بها؟ فالتجار الصغديّون، رغم ثرائهم، وجدوا أن من الدهاء واللباقة أن يستخدموا لغات زبائنهم - العربية، والصينية، والأويغور - التركية والتيبتية(3).

وفي النص القوي المقتبس أعلاه، أكد فيرث على البعد الديني للسلطة والقوة، وهذا مهم في أغلب الأحيان، بل لعله ينبغي علينا أن لا نتحدث عن نفوذ اللغة، بل عن جاذبيتها الآسرة. فالسنسكريتية، إلى جانب كونها لغة الهندوسية المقدّسة، كانت مدينة بالكثير لتلاميذ بوذا وأتباعه؛ كما أن العبرانية كانت ستضيع منذ ألوف السنين بدون الديانة اليهودية. وأما العربية فكانت أكثر غموضاً، ففي المدى الطويل، أثبت الإسلام أنه الدافع الأساسي لانتشارها. ولكن الجيوش الناطقة بالعربية كانت هي التي نقلت لغتها بالفعل إلى آسيا الغربية وإفريقيا الشمالية، وخلقت دولاً دخلت إليها الدعوة الإسلامية بعد ذلك. وكان العرب مشهورين أيضاً كتجّار في منطقة المحيط الهندي. ولكن قبول الإسلام في هذه المنطقة لم يعط اللغة العربية أبداً أي شيء أكثر من دورها في الطقوس الدينية. ومن الغريب أن التأثيرات اللغوية على انتشار اعتناق الإسلام كانت شبه مستقلة عن أولويات الوعّاظ: فكان المسيحيون لا يبالون بأي لغة يتم التعبير بها عن عقيدتهم الدينية. كما أن نصوصهم التقليدية في العهد الجديد تسجل أقوال المسيح مترجمة. ومع ذلك فإن المسيحية نفسها أدّت دوراً حسّاس الأهمية في

الحفاظ على لغات كثيرة، بل وعلى نفوذ تلك اللغات، بما فيها الآرامية، والإغريقية، واللاتينية، والقوطية.

والواقع أن التبشير الديني كان عاملاً فعّالاً ليس فقط في سِيَر عدد قليل من اللغات العالمية، بل يمكن الادّعاء بأن الدين هو مجرد مثال على البعد الثقافي للغة، الذي هو المصدر النهائي لنفوذها. وبالطبع فإن الثقافة كلمة غامضة للغاية، فهي تشمل كل شيء، من تشكيل يد الفأس إلى التصريحات الجماعية عن المهمات والبعثات، وكذلك عن تقدير قيمة أشعار شكسبير الغنائية ورسوم هوكوساي؛ وهكذا فإن علاقة الثقافة وصلتها بحاجة إلى اهتمام أكبر وأدق بكثير(*).

وليس هناك امتناع عن دراسة العوامل الثقافية التي يفترض أنها أعطت التميز والنفوذ، عند تحليل حركات الشعوب في عصور ما قبل التاريخ، والقسوة الظاهرة في حلول شعب محل آخر (كما في حالة انتشار الشعوب الناطقة بلغة البانتو عبر الثلث الجنوبي من قارة إفريقيا، وما تلا ذلك من فرض القيود على مجال قبائل الصان والخوي، أو تغلغل البحارة الأوسترونيزيين إلى داخل جنوب شرقي آسيا، واتصالهم مع المالينيزيين). فالفنون الجميلة والتعليم العالي لا تعتبر في العادة من العوامل المساهمة ذات الأهمية الجدية. ذلك أن العوامل الثقافية التي توسع القدرة على دعم السكان الأكثر عدداً (عن طريق أشكال الزراعة الجديدة أو تربية الحيوانات مثلاً) هي التي تعتبر ذات أهمية خاصة. ولكن الابتكارات البسيطة في الممارسات العسكرية يمكن أن تكون فعّالة أيضاً.

وبين الحين والآخر تسيطر البيولوجيا الوحشية على الأمور، فتترك الفوارق الثقافية على الهوامش الجانبية وتصبح غير ذات صلة لفترة من الوقت. فإذا تعرض شعب ما للموت بسبب الأمراض على نطاق واسع، كما حدث لسكان

(*) إن الثقافة أيضاً مصطلح فيه خطورة متأصّلة، ويصعب فصلها عن المحاولات الكاسحة الشاملة لتقييم منجزات شعوب بكاملها (انظر مثلاً الحكم السيئ السمعة الذي يطلقه ماكولي على الثقافات ذات الأسس العربية والسنسكريتية (وانظر الفصل الثاني عشر، المعنون: 'المنظور المتغير: اللغة الإنكليزية في الهند'، ص 674).)

العالم الجديد الذين واجهوا المتطفّلين الأوروبيين الغزاة في القرن السادس عشر، فلن تبقى هناك أهمية لكون أسلحتهم وتكتيكاتهم العسكرية متخلفة تخلفاً كبيراً ـ أو بعكس ذلك لكون محاصيل خضراواتهم (بما فيها البطاطس، والذرة، والطماطم والشوكولاتة) متفوقة على غيرها عالمياً.

ولكن البحث عن أسباب سيادة اللغة ليس في العادة مسألة يمكن حلها بسهولة. ففي السجل التاريخي للاتصالات بين الشعوب ـ وللمنافسات بين اللغات ـ عندما تكون هناك شهادة شهود عيان للحفاظ على نزاهتنا حول ما حدث في الحقيقة ـ فإننا كثيراً ما نعجز عن تحديد الفوارق الثقافية التي كانت حاسمة بوضوح. وعندئذ قد يكون علينا أن ننظر بصورة أعمق، ليس فقط إلى الارتباطات المدركة بين المجتمعات المختلفة، وكيف نظر كل منها إلى الآخر، والسمات الذاتية للمجتمعات اللغوية، وكذلك مزاياها الموضوعية، بل حتى إلى خصائص اللغات نفسها ـ وهذا شيء غير عادي ولا تقليدي وخاصة فيما بين اللغويين.

ومن الغريب أن اللغويين يفترضون بصورة عامة تكاد تكون شاملة أن خصائص اللغات التي يدرسونها ـ كأنواع الأصوات التي تستخدمها اللغة، والترتيب الأساسي لكلماتها، وما إذا كانت تعمل بتصفيف كلمات قصيرة ومستقلة أم بتنسيق أنظمة من الزوائد السابقة واللاحقة ـ لا علاقة لها باحتمالات بقاء اللغات. فهم يعتبرون في آخر الأمر أن كل لغة هي بتعريفها نفسه قابلة لأن يتعلمها الأطفال: فهذا ما يجعلها لغة بشرية. فإذا كان لدى مجتمع ما مشاكل في توسيع انتشار لغته، فلا بد أن هناك سبباً اجتماعياً، وليس لغوياً.

ولكن بالنسبة لنا نحن الذين نرى أن اللغة مميزة للمجتمع الناطق بها، فإنه لا يسعنا سوى التساؤل عن سبب وجود كل هذه البنية اللغوية. فقد يكون لنموذج اللغة قيمة وجودية لبقائها تقرر إن كان السكان الجدد الذين تكلموا بلغة أخرى زمناً طويلاً مستعدين لالتقاطها أم لا. وهذا أحد الابتكارات في هذا الكتاب: أي اقتراح طرق تكون فيها أهمية فعلية لنوعية نمط اللغة التي يتحدث بها المجتمع (انظر الفصل الرابع عشر، المعنون: 'ما الذي يجعل اللغة قابلة للتعلم'، ص 753).

إن خطة حملة الكتاب ككل هي مراجعة تلتزم التسلسل الزمني عموماً لتواريخ اللغات التي تواجدت بشكل بارز في العالم. وهو يبدأ من انطلاق معرفة القراءة والكتابة، لأن هذا هو أول وقت توفّر فيه لنا دليل واضح على ماهية اللغة التي يتكلمها الناس. وكانت سياستنا عند كل نقطة هي طلب دليل صريح، وبالتالي آثار مكتوبة، وهكذا للمرور على أحداث كثيرة يعتقد أنها وقعت في الماضي السابق لمعرفة القراءة والكتابة(*). وتستمر القصة إلى أن نواجه اللغات الكبرى ذات النمو الحديث، مما أطلقنا عليه اصطلاح لغات 'الدمج والتحصيل'.

وكما يتضح، فإن القصة تقع في فترتين كبيرتين تنفصلان عند العام 1492. فهذه هي بداية توسع أوروبا وبعض لغاتها على نطاق العالم كله. قبل ذلك التاريخ، كانت اللغات بصورة شبه دائمة تنتقل عن طريق البرّ فقط، ونتائج ذلك إقليمية: فاللغات الكبيرة يتم التحدث بها عبر مناطق متماسكة وسطى. أما بعد ذلك التاريخ فقد أصبح البحر هو الطريق العام المفتوح لتقدم اللغة الذي يمكن أن يصير عالمياً: إذ أصبح من الممكن التكلم بلغة ما في مناطق متميزة في قارات كثيرة مختلفة لا يرتبط تداولها فيها إلا بروابط التجارة والحكم العسكري التي تمتد عبر المحيطات.

وإلى جانب هذا الفرق الجغرافي، يمكن رؤية أنماط إجمالية بارزة أخرى تميز هاتين الفترتين.

فقبل العام 1492 نجد أن القوى الهامة التي تنشر اللغات هي أولاً معرفة

(*) وقد أدى ذلك إلى حذف كلي لانتشار لغتين هامتين معروفتين، ولغة مركّبة بالتخمين. فالجزر البولينيزية حصلت على عشرات من لغاتها المتقاربة العلاقات على امتداد أربعة آلاف عام بدءاً من العام 3000 ق.م. في عملية استكشاف لعلها أجرأ عملية تم الحفاظ عليها باستمرار. وقد انتشرت لغات البانتو عبر جنوب إفريقيا على مدى جزء كبير من الفترة نفسها، ابتداءً من الكاميرون وانتهاءً برأس الرجاء الصالح. ولهاتين القصتين كليهما أهمية حساسة لفهم النمط الكامل للغات عالم اليوم، ولكنهما مبنيتان فقط على الآثار وعلى المقارنات اللغوية. فليست لدينا كلمة واحدة مسجلة من كل كلام تلك الدهور السحيقة في القدم. أما بالنسبة لمسار اللغة الهندية - الأوروبية، التي هي اللغة السلفية الأمّ المعاد تركيبها لإعطاء معنى للعلاقات المنهجية المنتظمة الواضحة بين اللغات الحثّية، والسنسكريتية، والروسية، والأرمنية، واليونانية، واللاتينية، والغاليّة، والليتوانية، والإنكليزية، وكثير غيرها، فإننا لا نستطيع إلا أن نتكهن بشأنها، وهذه التكهنات هي من مادة اللغويات التاريخية، وليست من تاريخ اللغة.

القراءة والكتابة والثقافة المدنية، وبعد ذلك الدين الموحى به. ولكن عندما يملك مجتمع ما هذه المزايا فإن لغته كثيراً ما تنتشر على حدّ السيف، وبدون هذه المزايا، فإن الانتصارات العسكرية والتنمية الاقتصادية لا تحقق شيئاً يذكر. والطريقة العامة للانتشار هي التغلغل: فالشعوب لا تنتقل وتتحرك بكاملها، ولكن اللغة يمكن أن تبثها مجموعات صغيرة ومستعمرات مجزأة متفرقة. ولكن أساس الإنكليزية، التي تحدث في هذه الفترة، يبدو أنه استثناء من هذا كله.

أما بعد العام 1492، فإن قوى الانتشار كانت في البداية أبسط بكثير: فالأمراض تفتك بالسكان في الأمريكتين وفي أماكن أخرى. والفجوة التكنولوجية بين الغزاة الأوروبيين البيض وضحاياهم في كل مكان أبرز بكثير مما كانت عليه قبل فترة الانتشار الإقليمي. ولكن عند عودة ميزان القوى إلى التوازن، مع استقرار إمبراطوريات الأوروبيين العسكرية العالمية، يصبح من الصعب تمييز السيطرة العسكرية، والتجارية، واللغوية. ففي بادئ الأمر يكون السفر صعباً، وانتشار اللغة بطيئاً ولا يزال قائماً على التغلغل. غير أنه مع انتشار معرفة القراءة والكتابة، والانتقال الصغير تتحول الطريقة إلى الهجرة عندما تبحث جماعات كبيرة من السكان الأوروبيين عن استغلال الفرص الجديدة. وفي القرن العشرين تتراجع هذه الطريقة أيضاً؛ ولكن أشكالاً جديدة من الاتصال تنشأ، فتصبح أسرع، وأرخص وأشمل باستمرار: والنتيجة أن الطريقة الغالبة لانتشار اللغة تتحول من الهجرة إلى التسرّب. والإنكليزية استثناء هنا مرة أخرى، إذ إنها كانت في وضع فريد للاستفادة قبل غيرها من التكنولوجيات الجديدة. ولكن مستقبل إمكانياتها يبقى أقل وضوحاً مع استقرار اللغات الأخرى، كبيرة وصغيرة، وراءها. فهي تواجه مستقبلاً غير أكيد، كمستقبل أي شخص يصبح نجماً شهيراً بشكل فوري مفاجئ، وربما المحصلة النهائية المحتومة ذاتها لمثل هذا المستقبل. وليس السبب الأقل في ذلك هو أن مفهوم المجتمع اللغوي بكامله يأخذ في الانهيار بالنسبة لأبرز لغة مشتركة للعالم.

ولكن بعد الاطلاع على القصص المتنوعة لأكبر لغات العالم، يستطيع بحثنا أن ينتقل ليطرح بعض الأسئلة الوثيقة الصلة بالموضوع.

ما هو مدى كون القوى الحديثة لتسريب اللغة جديدة وغير مسبوقة؟ وهل تتشارك في خصائص هامة مع انتشار اللغة في الماضي؟

كيف ستقوم الخصائص القديمة للمجتمعات اللغوية بتأكيد نفسها؟ وعلى وجه الخصوص، هل ستظل جميع اللغات قادرة على أن تعمل كرموز خارجية للمجتمعات؟ وهل ستتمكن من أن تعمل معاً بشكل فعّال على نسج روابط تنجم عن تجربة مشتركة؟ وهل ستتمكن كل لغة مع ذلك من خلق عالمها الخاص بها؟ وهل سترغب اللغات بذلك عندما يدّعي العلم - وبعض الأديان الموحى بها - امتلاك مصداقية عالمية؟

هذه أسئلة سنرغب في طرحها. ولكن يجب أولاً أن نفحص المواد الهائلة لتاريخ اللغات الإنسانية.

القسم الثاني

اللغات على اليابسة

هناك رأيان إيطاليان، يفصل بينهما خمسة عشر قرناً، عن قيمة اللغة المشتركة المفروضة فرضاً:

> أنا أدرك أن الناس قد يكونون محقّين تماماً في اعتقادهم أنني عاقّ وكسول إذا المحت بشكل خفيف إلى تلك الأرض التي هي طفلة متبنّاة لجميع الأراضي ووالدة لها في الوقت نفسه، والتي تدعوها العناية الإلهية إلى جعل السماء نفسها أكثر إشراقاً، وإلى أن تجمع ممتلكاتها المترامية الأطراف، وتضفي الحضارة على طريقة حياتها، وتوحّد في المحادثة كل الألسنة الوحشية المشاكسة لشعوبها الكثيرة كلها من خلال استعمال لغتها، وتعطي الثقافة للإنسانية، وتصبح باختصار الوطن الواحد لكل أمة على وجه الأرض.
>
> بليني الأكبر (24 ـ 79م.)، التاريخ الطبيعي 39:3

> إن الشعوب المستعبدة تتخلص من نير الأسلحة بسهولة أكثر من تخلصها من نير اللغة.
>
> كلام منسوب إلى لورنزو فالا، العالم الإنساني الإيطالي (1406ـ1457)
> في كتابه 'روعة الحرية' VI

3

الصحراء تزهر:
الابتكار اللغوي في الشرق الأوسط

من يستطيع أن يعرف إرادة آلهة السماء؟
من يستطيع أن يفهم خطط آلهة باطن الأرض؟
أين تعلّم البشر طريقة إله؟
من كان حيّاً بالأمس هو ميت اليوم.
فهو قلق في لحظة، وصاخب في اللحظة التالية.
وينشد أغنية مرحة في لحظة،
وبعد لحظة يندب كأنه في حداد وراء جنازة.
وحالتهم تتغير كفتح [الساقين] وإغلاقهما.
وعند معاناة الجوع يصبحون كالجثث،
وعندما يشبعون يعترضون على إلههم.
وفي الأوقات الطيبة يتحدثون عن الصعود إلى السماء،
وعندما ينزعجون يتحدثون عن الهبوط إلى الجحيم.
هذه الأشياء تحيّرني، فأنا عاجز عن معرفة معناها.

من 'سأمدح رب الحكمة' باللغة الأكادية[1]

إن أسماء الحضارات التي نشأت في الشرق الأدنى القديم يرن فيها صدى قادم من زمان سحيق بعيد. فهناك بضع عشرات من تلك الحضارات عرفت بازدهارها في الألفيات الثلاث منذ بدء السجلات المكتوبة من حوالي العام 3300 ق.م. إلى غزوة الإسكندر في العام 330 ق.م. ومن بينها قوى مثل

بابل، وآشور، وفينيقيا، وليديا، وفارس. وهي تستحضر إلى الذهن رؤىً من الاستبداد الشرقي، والقسوة التي تقطع الأنفاس، والفخامة المبهرجة. ورغم كل تظاهراتها وادعاءاتها، وخصوبتها الثقافية، وقوتها العالمية الحقيقية أحياناً، فإنها لم تترك ورثة وراءها. وقد تنبأ بشيء من هذا واحد على الأقل من كتّابها أنفسهم:

أيها الخادم، استمع إلي.
نعم، يا سيدي، نعم.
سوف أفيد بلدي.
افعل يا سيدي، افعل.
فالرجل الذي يفيد بلده
تكتب أفعاله في [سجل] مرموخ.
كلا، أيها الخادم، لن أفيد بلدي.
لا تفعل يا سيدي، لا تفعل.
اذهب إلى أكوام الخرائب القديمة وطف حولها؛
وانظر إلى جماجم الوضيعين والعظماء.
فأيها جمجمة من فعل الشر، وأيها جمجمة من فعل الخير؟

من "حوار التشاؤم"، باللغة الأكادية[2]

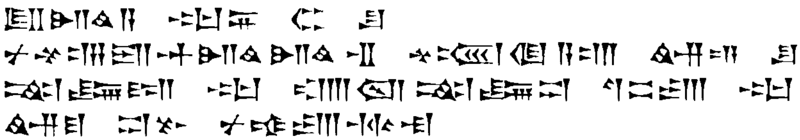
ولكن ربما يكون هناك شيء من القسوة في وزن استمرار بقاء المنجزات السياسية بعد فجوة فراغ امتدت ما بين ألفي عام وأربعة آلاف عام. فبعض أعمالهم قامت فعلاً بتحدي العصور. فالكتابة تم اختراعها هنا، وتطورت من طريقة لأخذ الملاحظات إلى أساس لسجل كامل صريح لحياة البشر وتفكيرهم؛ وكتكملة محظوظة لذلك، تم اعتماد مادة متوفرة بكثرة ولا تتدهور حيويتها لتدوين الكتابة عليها، وهي أقراص من الطين النهري، تتم تسويتها والنقش عليها، وتخبز أحياناً حتى تتصلب. ونتيجة لذلك نستطيع أن نتتبع ليس فقط الخطوط الأساسية العريضة للأحداث، بل وكذلك

الشخصيات، وحتى الحوار الدبلوماسي للأسر الملكية الحاكمة، والأساطير وطقوس آلهة الشعوب، وكذلك صورهم، والقوانين التي كانوا يعيشون في ظلها، وأغاني الغرام التي كانوا ينشدونها، وقبل كل شيء لغاتهم المتعددة الأغراض.

وهذه الهدية الأخيرة نعمة خاصة مرسلة من الله في القرنين الأخيرين من الحفريات الأثرية، لأنه من بين شعوب المنطقة كان العبرانيون في الطرف الغربي والإيرانيون في الطرف الشرقي هم الوحيدين الذين لديهم نصوص وتقاليد بقيت حتى العصر الحديث. ومع ذلك فإن كتابيهم - العهد القديم، وزند آفيستا [مجوسية زرادشت] - تكملهما الأقوال المنقولة عن متفرجين مثل هيرودوتس اليوناني - وكل ذلك كان متاحاً لباحثي القرن الثامن عشر - تعطي رؤية جزئية جداً، وحتى هذه الرؤية لا تشمل إلا المراحل المتأخرة مما تم عمله، وبدون إحساس على الإطلاق بما قاله الذين قاموا بالعمل.

ولولا اكتشاف أوروبا في القرن التاسع عشر بأنها تستطيع القيام بالأبحاث التاريخية عن طريق الحفر، ولولا المهارات الجديدة في فك الرموز وإعادة بناء اللغة ثم تطبيق ذلك تاريخياً على ما تتكشف عنه الحفريات، لما عرفنا أي شيء أبداً عن المدن المؤسسة في سومر وعيلام، والقوة الممتدة باطراد لأورارتو من القفقاس، أو عن بروز تفوّق الحثيين فيما هو الآن تركيا. فكل واحدة من هذه المجموعات كانت تتكلم لغة لا علاقة لها أبداً بلغة جيرانها، مما يشير إلى أصول مختلفة اختلافاً جذرياً، وثروة من القصص غير المعروفة حتى في ماضيها السحيق. وحقيقة هذه اللغات المختلفة تشرق بشكل مذهل من خلال نص مدوّن وحيد استعملته مجموعات كثيرة منها، يقوم على أنماط من العلامات المنقوشة أشكالها بإزميل رغم أنها كانت مصممة في الأصل لتمثل معاني الكلمات وليس كيفية النطق بها.

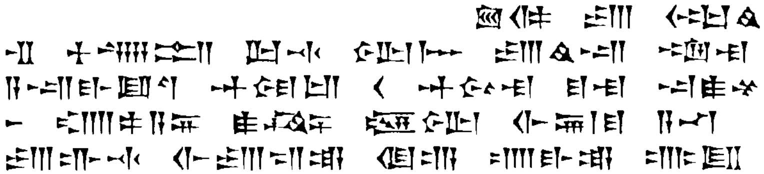
السومرية:



كان فم الرسول كبيراً. فلم يستطع أن يكرر الرسالة. فقام سيد كولاب بتسوية بعض الطين، ووضع عليه الكلمات كما ترسم على قرص. وقبل ذلك الوقت لم تكن توجد كلمات منقوشة على الطين أبداً.

إنمركار وسيد آراتا (حوالي 1800ق.م.)

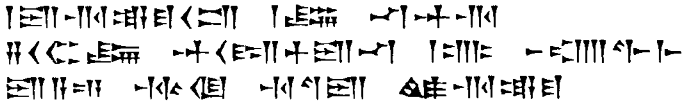
الأكادية:



معالجات من قمة الرأس إلى أخمص القدمين، ومختارات غير شرعية، وتعاليم بارعة، وكل ما له علاقة بالخبرة الطبية لنينورتا وغولا، كتبتها على أقراص، ودققتها ورتبتها ترتيباً صحيحاً، وأودعتها داخل قصري لمراجعتها وقراءتها.

كلمات في ختام مخطوطة نص طبي، في مكتبة آشور بانيبال
(حاكم آشور من 668 إلى 627 ق.م.)

العيلامية:

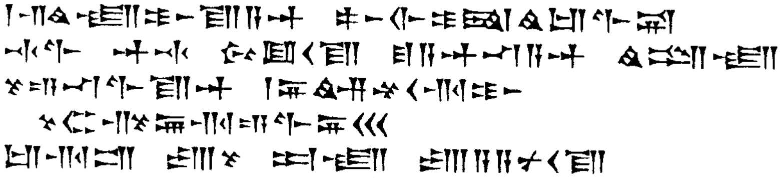


قال الملك دارا: بفضل آهورامازدا، عملت نقشاً آخر باللغة الآرية.

نقش على صخرة في بهيستون، القرن الخامس ق.م.

ست لغات مكتوبة بالخط المسماري
السومرية، والأكادية، والعيلامية، والحوريّة، والأورارتية، والحثيّة

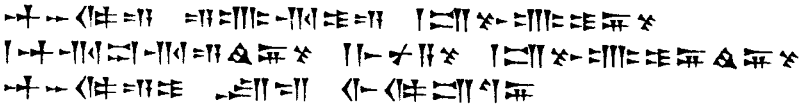
الحورية:



وقال كيليا، رسولي، هذه الكلمة: متكلماً هكذا، أخوك نيموريا، سيّد مصر، قدم هدية عظيمة.

رسالة من توشتراطا، ملك ميتاني إلى ملك مصر،
منتصف القرن الرابع عشر ق.م.

الأورارتية:



لأن السيد هالدي، إشبويني بن ساردوري، ومينوا بن إشبويني قاما ببناء مزار هالدي المقدس.

نقش مزار هالدي في باسيلاليتش، أواخر القرن التاسع ق.م

الحثّية:



ولكن بما أن والدي ظلّ معسكراً في أرض ميتاني وتأخّر في المعسكر، فإن احتفالات سيدتي إلهة الشمس في آرينا مرّت دون أن يتفرج عليها أحد.

حوليات الدولة لمورسيليس الثاني، في بوغازكوي، حوالي 1353 ـ 1325 ق.م.

ست لغات مكتوبة بالخط المسماري
السومرية، والأكادية، والعيلامية، والحوريّة، والأورارتية، والحثّية

هذه منطقة قدّمت للعالم أشياء كثيرة للمرة الأولى في الابتكار اللغوي. وعلى عكس مصر، والصين، والهند، فإن مدن هذه المنطقة ودولها كانت دائماً متعددة اللغات عن وعي، سواء للتواصل مع الجيران المتكلمين بلغات أخرى، أو لأن تواريخها جعلتها تتبنى لغة أجنبية لتكريم بلاطها أو دينها أو تجارتها. فهذه هي المنطقة التي نجد فيها أول استخدام واع للغة تقليدية كلاسكية، ولكن أيضاً وبالعكس، أول استخدام معمّم للغة أجنبية تماماً لأنها مناسبة كأداة اتصال، وكلغة مشتركة، وهذا انتصار ظاهر في وقت مبكر للنزعة الدبلوماسية العملية الذرائعية على العاطفة الوطنية.

وتشمل هذه المنطقة موقع أقدم كتابة معروفة في التخوم السفلية لوادي الفرات. ولكن في منطقتها الغربية، في المدن الساحلية السورية كانت هي الأولى في عمل التبسيط الجذري من الهيروغليفية التي تحدد الكلمات والمقاطع في أبجدية قصيرة تمثل أصواتاً بسيطة. ولقد كانت الآثار السياسية لذلك كثيفة. فلأول مرة صار من الممكن أن تنتشر معرفة القراءة والكتابة لتتجاوز طبقة الكتّاب الأرستقراطية العليا من الناس الذين توفرت لهم في طفولتهم أوقات الفراغ ليتعلموا النظام القديم المعقد، وعندئذ صارت مناصب السلطة والنفوذ في جميع أنحاء الإمبراطورية الآشورية مفتوحة لسلسلة اجتماعية أوسع.

وتحتوي المنطقة أيضاً على أول المتاحف والمكتبات المعروفة، وهي غالباً ما تكون مؤسسات مركزية متعددة اللغات تابعة للدولة. ولكن من سخرية القدر التي فضلت ذاكرة هذا المجتمع المبنية على أقراص الطين أن وثائقه تم الحفاظ عليها على أفضل وجه بالإحراق، وبأبسط طريقة من خلال الحرائق في المباني التي تواجدت فيها. وهذا ظرف لم يكن نادراً في تاريخها العاصف. فكانت كوارث الحرائق معجزات لحفظ مكتبات بكاملها وأرشفتها وهي في مواقعها، وفي بعض الأحيان حتى مع بقاء تصنيفها سالماً متماسكاً. فساعد ذلك على قراءة سريعة لكثير من التاريخ غير المعروف في عصرنا هذا.

ولم تبق جميع دول المنطقة مركّزة ضمن الهلال الخصيب، أي المنطقة

المروية جيداً والتي تمتد من وادي الرافدين، دجلة والفرات، إلى ما حول المنحدرات الجنوبية لجبال طوروس ونزولاً إلى سواحل سوريا وفلسطين على البحر الأبيض المتوسط. وكانت المدن الفينيقية الوقعة على الساحل الغربي لفلسطين ترسل بعثات تجارية إلى كافة أنحاء البحر المتوسط. فكانت إحدى النتائج هي تأسيس قرطاجة، ومن هنا جاءت أول إمبراطورية استعمارية في العالم وهي التجربة الإرهاصية السابقة لنمط المؤسسة التي جعلت الإنكليزية لغة عالمية. وكان من النتائج الأخرى أول دوران ملاحي حول إفريقيا (نيابة عن الفرعون المصري)، واكتشاف الطرق الملاحية إلى بريطانيا للحصول على القصدير، وإلى بحر البلطيق للحصول على الكهرمان. وعلى الطريق نشر الفينيقيون ممارسة الكتابة الأبجدية في جميع أنحاء شبكتهم من الأسواق التجارية. وبذلك قدّموا شيئاً لعله أهم مفتاح فريد لطريق تقدم منافسيهم الكبار من اليونان والرومان الذين سيقتلعونهم فيما بعد من موقع سيادتهم على حوض الأبيض المتوسط.

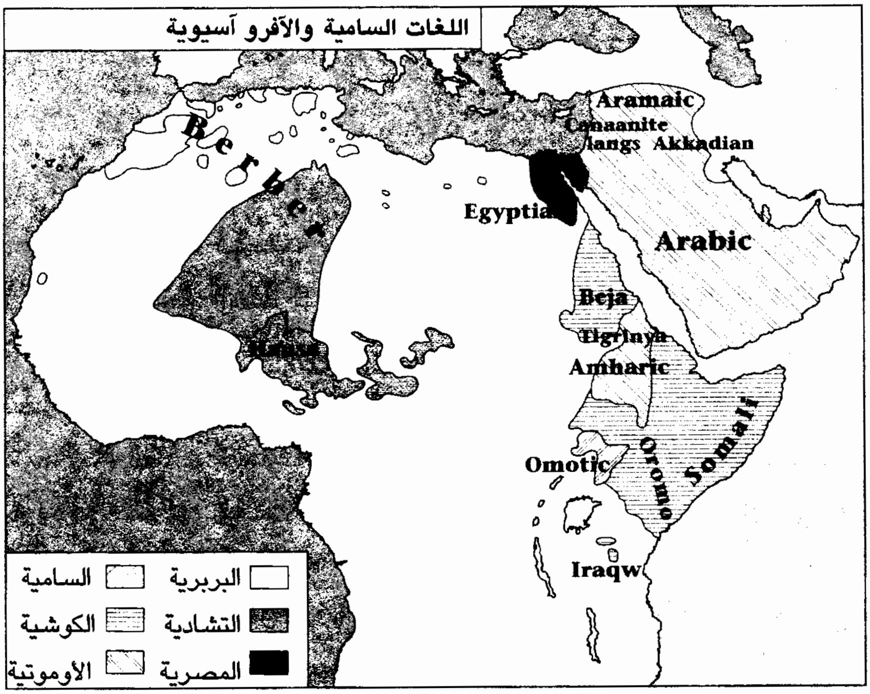
إن أفضل كلمة تصف مجتمع الشرق الأوسط هي أنه عالمي غير محلي، مكوّن من مواطنين عالميين، ولكن عالمهم لم يكن محمياً أو منعزلاً أبداً. إذ إن المواصلات الجيدة وغياب الحدود الطبيعية جعلت من الصعب على أي ثقافة أن تمسك بالقوة والسلطة بشكل مستقر. فنجد سلسلة متلاحقة من الممالك تأتي من كل الاتجاهات المختلفة، (ويتضح فيما بعد) من أسر لغوية مختلفة تستولي على السلطة في المنطقة الوسطى التي هي العراق الحديث. وبعد ثلاثة آلاف سنة موثقة من موازين القوى المتنقلة المتغيرة ضمن المنطقة، سلمت السلطة إلى مجموعات مواقعها بعيدة، هي اليونان، وبعدهم الرومان من الغرب، ثم الفرثيون، من زاوية بلاد فارس الشمالية الشرقية في الشرق. ولكن هذه القوى الأجنبية لم تكن أكثر فعالية في تحقيق الاستقرار: فقد تتابع العرب والمغول والأتراك عبر القرون في العصر الحديث، وكان القرن العشرون من مطلعه إلى منتهاه فترة صراع شديد المرارة على نحو خاص في تاريخ المنطقة.

ثلاث أخوات نَسَجْنَ تاريخ 4500 عام

كان الاستقرار الوحيد الذي تمتع به هذا المجتمع هو في مادة لغته الحاكمة. فالأكادية، اللغة التي كان يتكلّمها سرجون الأول، أول ملك آشوري في العام 2300 ق.م. هي من الأقارب اللصيقين للغة العربية التي يتكلمها خليفته في هذه الأراضي، صدام حسين، في العام 2000 م. ومن الأقارب اللصيقين أيضاً الآرامية، اللغة المشتركة القديمة للشرق الأوسط، التي تردم الهوة فيما بين أفول الأكادية حوالي العام 600 ق.م. وانطلاق العربية مع المسلمين حوالي العام 600 م. فهي كلها أخوات ضمن الأسرة السامية الشديدة التلاصق(*).

وهي تملك نقاطاً مشتركة متميزة كثيرة. ففيها حروف صحيحة تلفظ بتقليص الحنجرة (وهي توصف بأنها حلقية أو بلعومية) [وهي في العربية الهمزة والهاء والعين والحاء والغين والخاء]. والكلمات المؤنثة في هذه اللغات تنتهي بتاء التأنيث. وهناك حالتان أو ثلاث حالات فقط من تصريف الأسماء. وتنتهي بياء النسبة لتصبح صفة، ويزاد عليها في أولها حرف الميم لتتحول إلى اسم للزمان أو المكان. وهناك تمييز في صيغ الأفعال بين الأزمنة المتحركة والساكنة ـ فالمتحركة تبدأ بحروف تدل على شخصية الفاعل والساكنة توضع الحروف الزائدة في آخرها [لعل هذه إشارة إلى حروف البداية في الفعل المضارع وهي الألف والتاء والنون والياء، وضمير الفاعل في آخر الفعل الماضي مثل ذهبت، ذهبنا، ذهبوا]. وقبل كل شيء، فإن اللغات السامية كثيرة التمدد والتصريف بالاشتقاق مستخدمةً نظاماً يكون فيه لهيكل الحروف الصامتة في الكلمة معنى مستقل عن أنماط حروف العلّة المتنوعة التي قد تضاف فيما بين

(*) إن اسم هذه العائلة مشتق من اسم سام، الابن الثاني لنوح، الذي يرد في الآية 18 من الإصحاح التاسع من سفر التكوين. ويعود استخدامها اللغوي إلى آ. ل. شلوسر في العام 1781. وقد استلهمها من حقيقة أن الشعوب المسمّاة متحدرة من سلالة سام في الآيات 21-31 من الإصحاح العاشر من سفر التكوين كانت تتحدث بلغات هذه الأسرة، وخاصة العبرية (عن طريق آرفخشد) وكذلك آشور وآرام. ولكن اختيار الاصطلاح غير جيد التوفيق. فقد كان من بين أبناء سام عيلام ولود، (أبَوَا اللغتين العيلامية والليدية، اللتين لا علاقة لهما باللغات السامية؛ وكذلك كنعان (أول الصيدونيين والعموريين والأرواديين) ونمرود (أول البابليين والأكاديين) الذين يقال إنهم متحدرون من سلالة حام، رغم أن لغاتهم في الحقيقة ذات صلة قريبة بالعبرانية، والآشورية، والآرامية.



تلك الحروف الصامتة: ومن أبسط الامثلة على ذلك في الأكادية جذر الكلمة المكونة من الأحرف الثلاثة *k-š-d* (ق ص د)، ومعناها 'يمسك'، الذي يمكن تمييزه في كلمة *kašādu* (قصدوا) بمعنى 'يمسك'، وكلمة *ikaššadu* (إيقاصادوا) بمعنى 'كانوا يمسكون'، و*kišidtu* (قيصيدو) بمعنى 'الغنيمة' وكلمة *kuššudu* (قصودوا) بمعنى الممسوك به، تماماً كما أن الجذر *š-p-r* سبر (بمعنى الأمر) يتمثل في كلمة šapāru (سابارو)، التي معناها 'يرسل' أو 'يحكم'، أو 'يكتب'، وكلمة *šipirtu* (سيبيرتو) التي معناها 'بعثة' أو 'رسالة'، والجذر *š-l-m* (سَلِم) بمعنى 'يرتاح' الذي يمكن تمييزه في كلمة *šalāmu* (سالامو) بمعنى 'كان سليماً معافى' و*šalimtu* (ساليمتو) بمعنى 'السلام' و *šulmu* (سولمو) بمعنى 'التسليم' و'التحية' و'الراحة' و'غروب الشمس'.

وبالإضافة إلى شمول المجموعة السامية للغات الكبرى في الشرق الأوسط القديم والحديث، فإنها تضم أيضاً بعض أكثر اللغات سكاناً في الحبشة وإريتريا، بما فيها الأمهرية والتيغرية والتيغرينية ولغة الكنيسة الحبشية القديمة 'الجيعزية'.

والواقع أن هذه اللغات السامية تتشارك في معظم هذه الخصائص مع مجموعة أكبر تسمى الآفرو آسيوية، أو الحامية ـ السامية، التي تشمل المصرية، والبربرية، وبعض عوائل اللغات المنطوقة في الجنوب، مثل الكوشية، والأوموتية، والتشادية (بما في ذلك لغة الهاوسا الواسعة الانتشار الآن). وهي لغات يمتد التكلم بها إلى الأجزاء الشمالية من إفريقيا، التي يفترض عادة بأنها هي الموطن البدائي للغات السامية أيضاً. بل إن هناك بعض الأدلة غير المباشرة على حركة كبيرة للقبائل في عصور ما قبل التاريخ، وليس مجرد الانتشار البسيط للغات بين الجيران: وفي بعض الطرق فإن الأكادية والحبشية متشابهتان أكثر من أبناء عمومتهما من اللغات السامية المتداخلة. كما أن تفشّي التصحّر الكاسح في الصحراء في حوالي العام 3500 ق.م. قدم حافزاً دافعاً للانتقال إلى خارج إفريقيا الشمالية[3].

وعلى أية حال فإنه عند حلول وقت مقابلتنا لهم لأول مرة في سجلاتهم التاريخية نفسها، حوالي العام 2400 ق.م.[*]، كان يوجد ناطقون باللغات السامية (وحسب طبيعة الأدلة، يوجد كُتّاب أيضاً) في مراكز موزعة على طول الحافة الشمالية للهلال الخصيب وجزء كبير من حدود سوريا الحديثة، من إيبلا (على بعد 60 كيلومتراً جنوبي حلب) مروراً بالنباضة (تل البيدر، على بعد 20 كيلومتراً شمالي الحسكة)، فنزولاً إلى ماري على نهر الفرات (قرب أبو كمال) وكيش (على بعد 15 كيلومتراً إلى الشرق من بابل). (إن أسماء الملوك الذين حكموا كيش توحي بأنها كانت مستعمرة مختلطة من الساميين مع السومريين). وكانت كل هذه المجتمعات تستخدم الرموز السومرية بثبات كمصدر رئيسي لنقوشها المسمارية، ولكن اللغة كانت سامية بشكل يمكن تمييزه، ومكتوبة بالرموز اللفظية لإظهار نهايات الأفعال والأسماء والكلمات الوظيفية، وبنظام للكلمات مختلف عن السومرية. وهناك أيضاً نصوص مدرسية ثنائية اللغة تحدد على الأقل طريقة لفظ بعض الرموز السومرية. ولا يبدو أن لغة إيبلا كانت

(*) إن الأسماء السامية الأولى (وهي في الحقيقة من الأكادية) تظهر حتى قبل ذلك، في وثائق سومرية يعود تاريخها إلى حوالي العام 2800 ق.م. (كابليس 1988: 3).

مكتوبة بطريقة شديدة الانسجام والتجانس، ويصعب على وجه العموم تمييزها عن أشكال الاكادية المبكرة، الموجودة في كيش، ونزولاً في سومر بعد غزوات سرجون الأول في القرن الرابع والعشرين ق.م.

وهذه الغزوات هي أول دليل تاريخي على التوحيد السياسي. ولكنها كثيراً ما كانت توحّد أقواماً يتحدثون بلهجات سامية شديدة التقارب. فتاريخ لغات الشرق الأوسط يُفتتح وممثله الرئيسي واقف على المسرح: لغات سامية مكتوبة بخط مسماري سومري، ولا ندري كيف وصل الناطقون بتلك اللغات السامية إلى هناك، وكيف انتشرت لهجاتهم (أو لغاتهم) الموحّدة بشكل لافت للنظر لتغطي الهلال الخصيب بكامله. فعلى الخريطة تبدو بادية الشام وصحراء شبه الجزيرة العربية كنقاط مركزية جيدة ليبدأ التوسع منها ـ ولكنها تبدو من غير الممكن تصورها كمناطق ينشأ فيها الفائض السكاني الكبير الضروري.

ومن بين نتائج صمود اللغة السامية يمكن إظهار كون التعداد من واحد إلى عشرة لم يتغير هنا تغيراً يذكر على مدى أربعة آلاف عام، أي مئتي جيل:

العدد	الأكادية، من القرن 23 إلى 6 ق.م	الآرامية، من القرن السادس ق.م. إلى القرن السادس م.	العربية من القرن السادس إلى الحادي والعشرين م.
1	إشتن	حاد	واحد
2	شينا	ترين	اثنين
3	شلاش	تلاتا	ثلاثة
4	إربا	أربعا	أربعة
5	حميس	حميشة	خمسة
6	شيش	شتا	ستة
7	سيبي	شبعا	سبعة
8	سماني	تيمانيا	ثمانية
9	تيشه	تسعا	تسعة
10	إيشر	عسرا	عشرة

العدّ من 1 إلى 10 في العراق من 2300 ق.م. إلى 2000 م.

القصة باختصار: الوثبات اللغوية

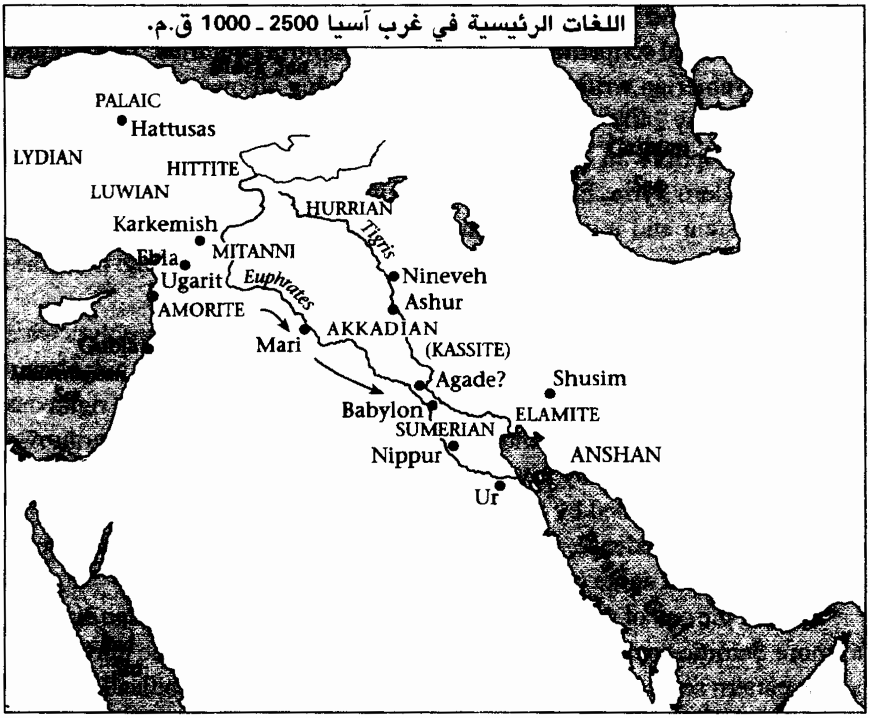
يجب أن لا تُري العربي البحر، ولا الصيدوني الصحراء؛
لأن عملهما مختلف.

من الآرامية: أمثال أحيقار، 110[4]

ليست هناك حاجة لإعادة بناء التاريخ اللغوي للشرق الأدنى - وبعبارة موضوعية أدق: لجنوب غرب آسيا - فهو منكور في وثائقه نفسها، اعتباراً من أواخر الألف الرابع قبل الميلاد. وهو يفيض بتفاصيل مثيرة للاهتمام، وخاصة بأشياء لغوية وثقافية كانت هي الأولى من نوعها في العالم. ولكن هناك التواءات وتقلّبات كثيرة في سرد القصة التي تستغرق خمسة آلاف عام بحيث يصعب على المرء ألاّ يضل طريقه. وسوف نبدأ بإدراج قائمة مختصرة جداً بكبار الفاعلين، من السومرية إلى العربية، فنضعهم حول المنطقة الوسطى من الهلال الخصيب، من العراق إلى فلسطين، ثم نعود لننظر بتفصيل أدقّ إلى إسهاماتهم في فهمنا للغات على مرّ الزمن.

والتركيز العام للقصة ينصب على مركزها النابض عند مصب نهر الفرات في الخليج العربي. فمع مرور القرون يتوسع نفوذ المركز إلى الشمال أولاً، ثم إلى الغرب، ثم تبدأ الشعوب المجاورة بالاهتمام فتنشئ مراكز جديدة، كثيراً ما تكون أقوى، وخاصة بها، حتى تصبح القصة صراعاً بين تأثيرات (ولغات) متنافسة على النفوذ في وادي الرافدين، والأناضول، وفارس، وسوريا، بينما يتسع إطار المرجعية إلى حدود اليونان ومصر في الغرب، وأفغانستان والهند في الشرق. وتأتي الخاتمة مرتين، لا مرة واحدة، بغزوتين كاسحتين تؤديان إلى زلزال لغوي، أولاً باليونانية من الشمال، ثم بالعربية من الجنوب.

فعند بدء القصة كانت هناك ثقافتان تمتلكان مهارة الكتابة، ومتجاورتان عند التخوم العليا للخليج العربي: وهما سومر، أو أرض شنعار المذكورة في التوراة، عند التقاء نهري دجلة والفرات، ثم عيلام، عبر المستنقعات إلى الشرق،



بين جبال زاغروس والبحر. ولم تكن كل منها دولة، بل تجمّعاً من المدن والقرى لأناس يتكلمون لغة مشتركة. وأصل اللغة السومرية مجهول تماماً، غير أن العيلامية يظهر أنها متصلة باللغة الدرافيدية، وبالتالي فهي مرتبطة منذ الزمن القديم باللغة البراهوية، التي لا يزال يتكلمها أكثر من مليونين في غرب الباكستان، وبلغات كثيرة أخرى يتحدث بها أناس في الهند الوسطى والجنوبية[5].

ويبدو أن هاتين الثقافتين قد اخترعتا أنظمتهما الكتابية بشكل مستقل، وفي الوقت نفسه تقريباً (حوالي القرن الحادي والثلاثين قبل الميلاد). ولكن قدّر لسومر أن يكون لها تاريخ مؤثر أكثر بكثير من تاريخ عيلام. وقد حافظت عيلام على لغتها بالفعل لمدة زادت على ثلاثة آلاف عام (فكانت واحدة من وسائط الاتصال الرسمية الثلاث في الإمبراطورية الفارسية في أواخر الألف الأول قبل الميلاد) ومع ذلك توجد اللغة العيلامية مكتوبة بخط مسماري على الطريقة السومرية في حوالي العام 2400 ق.م.، ولكن نقشها المحلي تلاشى واختفى في

القرنين التاليين لذلك التاريخ. فقد كان هذا الانتشار الثقافي للكتابة السومرية يحدث بالفعل في جميع أنحاء الهلال الخصيب. وبالمثل، فعند حلول العام 2400 ق.م. نجد كلمات سومرية ورموزاً مسمارية شائعة في منقوشات إيبلا، على بعد 1000 كيلومتر على ساحل البحر الأبيض المتوسط في سوريا الحديثة. وكانت لغة إيبلا سامية، مثل الأكادية، ولها نظام صوتي وتركيب صرفي نحوي إذا تأمّلناه من وجهة نظر حديثة فإنه يجعل اللغة السومرية غير ملائمة كأساس للكتابة: ورغم ذلك فإن قوة تعبير الرموز السومرية ظلت جذّابة لا تقاوم.

ومن الناحية السياسية، كان النفوذ في الجانب الآخر. فالسومريون أنفسهم لم يلبثوا بعد زمن قليل (2334 ـ 2200 ق.م) أن خضعوا لجيرانهم الشماليين المتكلمين باللغة الأكادية عندما فرض الملك سرجون نفسه عليهم ـ واسمه على وجه الدقة "شاروكين" التي معناها 'الملك العادل'. ورغم أن هذه الإمبراطورية الأكادية قد أسقطت بعد بضعة أجيال على أيدي غزاة من قوطيوم في الشمال الشرقي، واستطاع السومريون بقيادة مدينة أور كرأس حربة أن يستعيدوا استقلالهم بعد ذلك بثمانين عاماً، فإن وادي الرافدين الجنوبي راح يعرف منذ ذلك الحين بالاسم المشترك "أرض سومر وأكاد"(*).

وفي نهاية الألف الثالث قبل الميلاد، سقطت أور، أعظم مدينة سومرية، في أيدي ناطقين آخرين بلغة سامية، هم البدو العموريون من الشمال الغربي، وعندئذ نشأ نمط جديد. فعلى امتداد 1500 عام بعد ذلك كانت الأرض تتوحّد بشكل دوري تحت سلالات ناطقة بالأكادية تحكمها من بابل في الجنوب، أو من آشور في الشمال، ولكن سلطتها كانت تتمزق كل بضعة قرون بسبب التصارع عليها فيما بين تلك السلالات، أو بسبب غزوات من الغرب أو الشرق. ولكن تلك الغزوات لم يكن لها أي تأثير لغوي أبداً، رغم أنها كانت تستمر زمناً طويلاً، ولا

(*) جاء اليونان إلى المشهد متأخرين، فلم يعرفوا أي شيء عن تلك الأصول المبكرة القديمة، فأطلقوا على المكان اسم 'أرض ما بين النهرين'، مما أكد الدور الإطاري لنهري دجلة والفرات، وهما الاسمان الإغريقيان من كلمتي إيديقلات وبوراتو. ولكن في هذه الفترة المبكرة كانت أهمية الفرات أكثر مركزية بكثير لأنه كان يجري عبر بابل وأور، ويروي أراضي أكاد وسومر. أما دجلة، على مبعدة إلى الشرق، فإن أهميته تتزايد مع نهوض آشوريا. وآشوريا هي المحاولة الإغريقية لتسمية آشور.

سيّما أربعمئة عام بعد استيلاء الكاسيين على بابل في العام 1570 ق.م. فمثل الأتراك الذين كانوا يغزون الصين الشمالية، أو الألمان الذين أسقطوا السيطرة الرومانية على أوروبا الغربية، كان هؤلاء جميعاً غزاة يذعنون للغات ضحاياهم. فاعتباراً من حوالي العام 2000 ق.م. صارت الأكادية هي لغة الكلام الوحيدة في جميع أنحاء المنطقة. ولكن السومرية لم تتعرض للنسيان، بل انتقلت إلى مكانة أعلى في السوق وحافظت على نفوذها في لغة الكتابة. وقد استمرت بابل وآشور كقوتين في وادي الرافدين على مدى ألف وخمسمئة عام، وكثيراً ما كانتا تتنافسان في وحشية بلا رحمة، ولكنهما تتحدثان بلهجات من لغة واحدة.

وبينما سيطرت الأكادية على المنطقة الوسطى حتى منتصف الألف الأول قبل الميلاد، فقد كانت مطوّقة من الشرق والشمال والغرب بلغات أخرى لا علاقة لها بها. وكانت الحورية (التي حلت محلها الاورارتية فيما بعد، والتي لا يزال اسمها يعيش في جبل أرارات) هي اللغة الكبرى في الشمال، وهي اللغة المحكية في أرمينيا الحديثة وإلى الجنوب حتى كركوك في العراق الحديث (وقريباتها الباقيات لغات صغيرة مثل لغتي آفار وليزجيا من العائلة القفقاسية الشرقية لا تزال تستعمل في الكلام على السواحل الغربية لبحر قزوين).

وإلى جهة الغرب، في سهل أناضوليا الوسطى، التي هي الآن تركيا، نرى أول الهنود - الأوروبيين المعروفين في التاريخ، وهم الحثّيون، مع أقاربهم اللصيقين الذين كانوا يتكلمون اللغتين اللوية والبالية(*). وقد ازدهر الحثّيون فيما بين القرنين السادس عشر والثالث عشر قبل الميلاد. وخلقوا حضارة فيها معرفة كثيفة كبيرة للقراءة والكتابة. ومكتبتهم الملكية في حاتوساس، التي تم اكتشافها في بوغاز كوي الحديث، على بعد 150 كيلومترا إلى الغرب من أنقرة، كانت تحتوي على مواد ليست باللغتين الحثية والأكادية فحسب، بل وكذلك

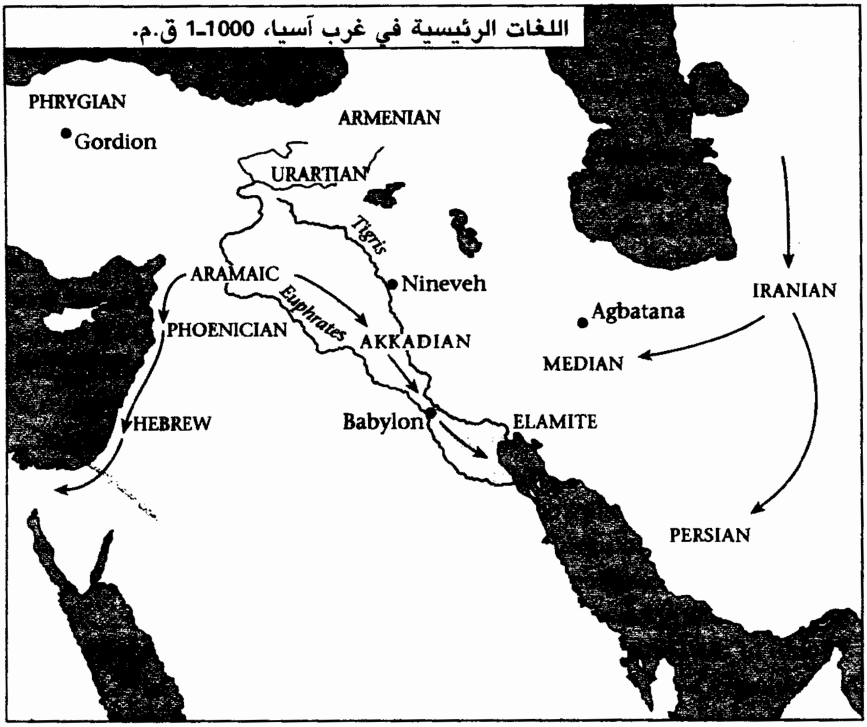
(*) إن تسمية الحثّي (من العبرانية *hitti*) تأتي من مركز قوتهم وسلطتهم في أرض حاتي، حيث كان الأهالي يتكلمون لغة لا علاقة لها بهم، هي الحاتية. وفي الحقيقة كان الحثيون يسمون لغتهم نيسان (نشيلي nešili) على اسم مدينة نيشاش (أو كانيش، وهي كولتيب الحديثة في جنوب شرقي تركيا) ولكن تسمية 'الحثيين' التوراتية الخاطئة بقيت ملاصقة لهم.

باللغات الحورية واللوية والبالية، تتخللها هنا وهناك عبارات بالحاتية والسومرية واللغة الهندية ـ الأوروبية للأرستقراطية الميتانية. وكثيراً ما شكّل الحثّيون تهديداً لسومر وأكاد. ولقد كان الغزو الحثّي الكاسح السريع الذي لم تتم متابعته هو الذي ترك بابل مفتوحة لاستيلاء الكاسيين عليها كما هو مذكور أعلاه. وفي آخر الأمر انهارت الإمبراطورية الحثّية في حوالي نهاية القرن الثالث عشر ق.م. ولكن اللغات المتصلة بها ظلت باقية بعد ذلك بعدة قرون، ولا سيّما اللغة اللوية، وعلى مبعدة منها إلى الغرب اللغة الليدية(*).

وإلى الجنوب من الحثيين، ولكن إلى الغرب تماماً من سومر وأكاد، في سوريا الحديثة، كانت اللغات سامية، من أقارب الأكادية اللصيقين. وقد رأينا أن الغزو العمّوري قد جاء من هذا الاتجاه (وهي تسمية جاءت من اسم المنطقة "آمورو"، أي "الغرب" باللغة الأكادية، في سوريا الشمالية)، وهو الغزو الذي وجّه الضربة القاضية لاستقلال السومريين، وبالتالي للغة السومرية كلغة محكية في حوالي العام 2000 ق.م.

وفي الحقيقة، يبدو أنه كان هناك شيء من التآخي بين هذه المدن الناطقة باللغات السامية، من أوغاريت (على الساحل قرب اللاذقية) عبر آيامحاد (حلب) وقرقميش وقطنا في سوريا الشمالية، إلى ماري على نهر الفرات. وقد تركت كل من ماري وأوغاريت مكتبات ضخمة من الألف الثاني قبل الميلاد. أما بالنسبة للنفوذ الأجنبي في هذه الفترة فقد كان يوجد ههنا اتجاه للتطلّع إلى مركز القوة في مصر، وليس إلى أبناء العمومة اللغويين في وادي الرافدين. فمدينة المرفأ الفينيقية غوبلا (المعروفة عند الإغريق باسم بيبلوس) كانت تغتني وتثرى من تصدير الأخشاب، وعلى وجه الخصوص خشب الأرز اللبناني، إلى المصريين الشديدي التعطش للخشب. وإن المدن العمّورية المذكورة أعلاه قد تركت كلها كميات من المزهريات الملكية، والمجوهرات، والتماثيل المستوردة من مصر. وإلى الجنوب

(*) إن كرويسوس آخر ملوك ليديا الذي يضرب المثل بثرائه، سقط في يد كورش الفارسي في العام 547 ق.م. ومن الناحية اللغوية كانت تلك هي حشرجة الموت الأخيرة للقوة الحثية.



من هذه المدن، في فلسطين، كان المستوى العام من الثراء والتمدّن أقل. وكان المغيرون من الحابيرو (المعروفين عند المصريين باسم عابيرو) يشكلون تهديداً للمجتمعات الأكثر استقراراً. ولعله كان من بين أولئك المغيرين أسلاف الناس الذين أطلقوا على أنفسهم فيما بعد اسم العبري (أي العبرانيين).

وطيلة الألف الثاني قبل الميلاد، كانت أرض سومر وأكاد تتمتع بنفوذ ثقافي متميز الجدية. وهذا منعكس بوضوح في انتشار نظام كتابتها بالخط المسماري بين جيرانها جميعاً، بما فيهم حتى عيلام، التي كانت قد طورت كتابتها البديلة بشكل مستقل. وبالإضافة إلى النصوص المكتوبة المنقوشة كانت الأكادية في هذه الفترة هي اللغة المشتركة للدبلوماسية، حتى في الأماكن التي لم يكن فيها البابليون أو الآشوريون طرفاً في القضايا موضوع المناقشة.

ولكن هذا الوضع التفضيلي المؤاتي قد انقلب في آخر الأمر بفعل أحداث

خارجية. فقد حدثت تطورات في الشرق والشمال والغرب قدّر لها أن تؤثر على وادي الرافدين، وعلى نفوذه اللغوي، تأثيراً عميقاً.

فعند نهاية الألف الثاني وبداية الألف الأول قبل الميلاد، كانت جماعات جديدة من الهنود ـ الأوروبيين تدخل الإقليم الشمالي من بلاد الأناضول. فكانوا يأتون من البلقان، جالبين معهم ناطقين باللغة الفريجية، ولاحقاً باللغة الأرمنية، إلى داخل المناطق الوسطى والشمالية. وقد عرفوا باسم الموشكي بمناسبة اختراقهم المنطقة (في العام 1115 ق.م) ليواجهوا الحاكم الآشوري تغلات بيلسر الأول(*). ولكن فيما عدا ذلك لم يكن لهم تأثير مباشر يذكر على وادي الرافدين، الذي كان محصّناً إلى حد كبير بمملكة عازلة له هي مملكة الأوراراتيين في شرق أناضوليا.

وفي الشرق، في حوالي ذلك الوقت نفسه، جاء غزو آخر واسع النطاق على أيدي شعب ناطق بلغة هندية ـ أوروبية. ولأول مرة، تم التكلم باللغة الفارسية، أو اللغة السابقة لها مباشرة (ذات الصلة الوثيقة بلغة الفيدا السنسكريتية) على هضاب بلاد فارس. فكانت هذه اللغة ابنة عم الكلام الإيراني للناس الذين ظلوا منتشرين بشكل واسع على سهول أوكرانيا وسيبيريا الجنوبية طيلة ألفي عام أخرى على الأقل تحت اسم "سكيثيا" أو "شاكا". أما الذين هاجموا إيران فقد صاروا يتقنون القراءة والكتابة لبضعة قرون فقط من خلال اتصالهم بوادي الرافدين. وهكذا فإن الأدلة المبكرة على وصولهم هي أثرية محضة. ومن بين أسماء القبائل كان هناك اسمان (من السجلات الأكادية) لقبيلتين يبدو أنهما استقرتا بالقرب من الحدود مع سومر وأكاد وهما "ماداي" في الشمال حول آغباتانا (همدان الحديثة)، والقبيلة التي سكنت "بارسوا" (أي أراضي الحدود) في الجنوب (مقاطعة فارس الحديثة): وهاتان القبيلتان صارتا

(*) هذا هو اسمه بالعبرانية. أما اسمه الحقيقي فهو توكلاتي - آبيل ـ إشارا، ومعناه 'إنني متوكّل على ابن إيشار'، أي إله آشور الآشوري. وأما تسمية الموشكي فهي حسب رأي إيغور ياكونوف معادلة لاسم الميسيين، وهم قبائل ثراسيا التي استقرت في الأناضول الغربية، وكذلك الأرمن الذين أطلق عليهم الجورجيون اسم سا-ميخي. وتتحدث التوراة أيضاً عن المشيخ كشعب أجنبي.

الميديين والفرس. وقد طوّقتا عيلام من الشمال والجنوب على التوالي. وفي بادئ الأمر كان يظهر أنهما مجرد تعاقب من البرابرة في جبال زاغروس على الجناح الشرقي، في أعقاب القوطيين واللولوبيين والكاسيين الذين كانوا هناك منذ وقت قديم لا تعيه الذاكرة، ولكن قدّر لهم اعتباراً من القرن السابع أن يقوضوا منطقة وادي الرافدين ثم يدمروها كمركز قوة مستقلة.

ويعتقد كثيرون الآن أن هذه اللغات الهندية ـ الأوروبية قد انتشرت بدون تغير جماعي كثيف بين الناس، ولكن عن طريق الحروب التي جاءت بنخب جديدة إلى موقع السيطرة على الأراضي القديمة، ومعها لغات جديدة راحت تنتشر بين السكان القدامى من خلال نفوذ النظام الاجتماعي الجديد. أما سبب قدرة هؤلاء المتطفلين على الدخول بالقوة، فإن من المفروض أنه ليس صدفة أن هذه كانت هي الفترة التي شهدت أيضاً رسوخ استعمال الحديد.

ولكن كانت هناك مجموعة ثالثة لها أكبر أهمية مباشرة في التاريخ اللغوي للشرق الأوسط، وهم الآراميون، بدو الصحراء الناطقون بلغة سامية من سوريا الشمالية. ونحن نسمع بهم لأول مرة كعدو مستمر الإصرار في نص مكتوب من أيام تغلات بيلسر الأول نفسه عند نهاية القرن الثاني عشر قبل الميلاد. وسرعان ما نسمع بعد ذلك بقليل أن دمشق كانت مدينة آرامية. وعند حلول القرن العاشر قبل الميلاد كان الآراميون قد رسخوا أنفسهم كقوة هامة، وذلك عى حساب المستعمرات الحثّية اللووية المتبقية إلى حد كبير، ثم انتشروا باتجاه الشرق، رغم مقاومة ملوك آشور، وعند نهاية القرن التاسع قبل الميلاد، ظهر أنه كانت لهم مستوطنات في جميع أنحاء أرض سومر وأكاد. ولم يكن التعاقب على عرش بابل روتينياً منتظماً في هذه الفترة. ويظهر أنه كانت هناك سلالة آرامية واحدة على الأقل، هي بيت بازي، في مطلع القرن العاشر قبل الميلاد. وكان الكلدانيون (كالدو) أيضاً قبيلة آرامية استقرت في سومر، واستمرت لتؤسس آخر سلالة بابلية حاكمة فيها بين القرنين السابع والسادس قبل الميلاد، بما فيها نابوبولاسر، ونبوخذنصّر الثاني، ونابونيدوس. وإلى حد كبير جعل الآراميون أنفسهم جزءاً من المؤسسة الحاكمة.

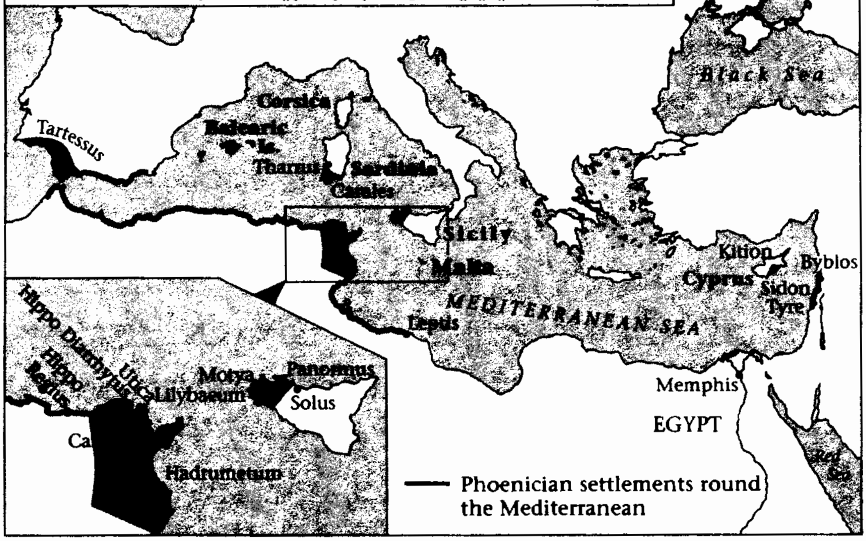
ولا بد أن هذا جزء من تفسير الطريقة التي جعلت لغتهم تحل محل الأكادية كواسطة الاتصال العامة الشاملة في وادي الرافدين، اعتباراً من القرن الثامن قبل الميلاد، وتؤسس نفسها بعد ذلك بوقت قصير كلغة مشتركة للهلال الخصيب كله (عندما غزت آشور كلاً من سوريا وفلسطين). ولم يكن هذا توسّعاً تقوده الثقافة، إذ إن الآراميين لم يكونوا مرتبطين بأي أسلوب متميز أو حضارة خاصة بهم، ومع ذلك فهم الذين جلبوا إلى قلب إمبراطوريتهم الكتابة بالأبجدية البسيطة التي هي اختراع جيرانهم الفينيقيين، حيث تم هناك بناء الثقافة والإدارة كلها على أساس الكتابة بالخط المسماري المعقّد على امتداد ألفي عام. وبذلك أحدثوا ثورة في قدرتها على الاتصال، وربما في تركيبها الاجتماعي كذلك. فصار في إمكان اثنين وعشرين رمزاً حرفياً بسيطاً أن تقوم بالعمل الذي كان في السابق يتطلب ستمئة رمز.

وبينما كان ذلك يحدث في آسيا، كان الفينيقيون أنفسهم، وهم المنتشرون على طول ساحل البحر الأبيض المتوسط فيما يعرف الآن بلبنان، يتوسعون، أو بالأحرى يستكشفون ويستغلون في الاتجاه المعاكس. وفي اللغة، كان الفينيقيون (أو الكنعانيون، كما سموا أنفسهم) شديدي الشبه بجيرانهم الداخليين والجنوبيين، أي العبرانيين، ولكن كان لهم موقف شديد الاختلاف إزاء موطنهم.

إن 'فينيقيا' هي تعبير لغوي، بل أكثر من ذلك، هي تعبير اقتصادي عن المدن التجارية الواقعة على ساحل لبنان(*). وليس هناك سجل لوحدة سياسية تربط بينها، ولا حتى كعصبة أو تحالف؛ ولكن منذ منتصف الألف الثاني قبل الميلاد، كانت هذه السلسلة من عشرات المدن (بيبلوس؛ وصيدا، وصور هي الأشهر بينها) قد رسّخت نفسها باعتبارها المراكز المفضّلة للحصول على إمدادات النحاس والقصدير من قبرص، والأخشاب من لبنان، وسلع الترف الكمالية، ولا سيما الملابس والمجوهرات. وبما أن مورّديها أو زبائنها (وخاصة مصر، التي كانت تشتري منها الأخشاب) كانوا يعيشون في الخارج على الأغلب،

(*) إن الفينيق، وخاصة الصيدونيين، مشهورون في "الإلياذة" بمنسوجاتهم الناعمة ومصنوعاتهم المعدنية، وفي "الأوديسة" باعتبارهم تجاراً دائمي الترحال.

المستوطنات الفينيقية حول البحر الأبيض المتوسط



فإن ذلك قد عزز تطوير سفن الشحن ومعرفة الملاحة. وبمعرفة هذه الأشياء على نحو فريد من نوعه في الشرق الأوسط، كانت هذه المدن تملك كل متطلبات الاستكشاف في الميدان على نطاق أوسع. ولعل الحملات والبعثات الأصلية كانت قبل ذلك (يقترح المختصون بالتاريخ القديم نهاية القرن الثاني عشر قبل الميلاد)، ولكن من الواضح أنه عند حلول القرن الثامن قبل الميلاد، كانت هناك شبكة من المستوطنات الفينيقية على طرفي البحر الأبيض المتوسط، مع تركيز خاص على صقلية وسردينيا، والشواطئ الشمالية الغربية لأفريقيا، وقادس (وهي باللغة الفينيقية غادر، أي "القلعة") وكانت في الغالب موانئ تجارية، وقبل كل شيء منافذ تعدينية، قبل أن تكون مدناً، ولكن في حالة واحدة أصبحت المستوطنة أكثر بكثير من مشروع تجاري. وكانت تلك هي قرطاجة، الواقعة على ميناء طبيعي فيما يسمى الآن تونس الحديثة، وسرعان ما تجاوزت الشبكة التجارية لتصبح إمبراطورية بحد ذاتها في شمال إفريقيا، وصقلّية، وسردينيا.

وقد نشرت المستوطنات الفينيقية بحضورها، وعلى نطاق واسع وعريض، إحساساً بماهية المجتمع المثقف والمتعلم في الشرق الأدنى بالإضافة إلى فتحها تجارة بالمعادن عبر مسافات بعيدة. فقد كان الفينيقيون ناشرين لثقافة وادي

الرافدين على نطاق عالمي. وكان الشيء المادي الملموس أكثر من غيره هو نشرهم معرفة الكتابة بنظامهم الأبجدي بين اليونانيين والإيبريين وربما بين الإتروسكانيين والرومان، وهكذا يحق لهم الادعاء بأنهم قدموا لأوروبا تعليمها الأساسي.

ولقد كان من الممكن سماع اللغة الفينيقية في جميع أنحاء حوض البحر الأبيض المتوسط، ولا سيما في جزره وعلى حافته الجنوبية طيلة معظم الألف الأول قبل الميلاد. ومع ذلك فلم يكن لها تأثير لغوي يذكر على أوروبا على المدى الطويل. فاليونانيون وغيرهم قبلوا بوضوح تام نظام كتابة الفينيقيين كأساس للغاتهم نفسها (مستخدمين مصطلح قواعد النحو الفينيقية)، ولكنهم لم يستخدموا أي عنصر من عناصر لغة الفينيقيين. وربما يكون هذا تعليقاً جزئياً على مدى ضآلة ما أعطاه الفينيقيون من ثقافتهم في الحقيقة لزبائنهم أو شركائهم، حيث كان الفينيقيون يفكرون في أنفسهم بصورة دائمة باعتبارهم أجانب خارجيين وموجودين هناك من أجل الأعمال التجارية فقط(*).

ولكن علاوة على ذلك، فإن هذا يبين كيف أن الأبجدية أداة مجردة أكثر بكثير من نظام الكتابة بالرموز حيث يمثل الرمز والصورة البسيطة كلمة بكاملها. فالأبجدية المفهومة بصورة كافية تمكنك من الحصول على وسيلة لكتابة لغتك نفسها بطريقة نظيفة، بدون مزيد من الحمولة. قارن ذلك مع التاثيرات التي تُحدث نتائج متسلسلة عندما تم الأخذ بأفكار الكتابة المسمارية السومرية. فبعد ذلك بألفي عام، كان الكُتّاب البابليون ما يزالون يستخدمون بعض المقاطع السومرية كرموز للاختزال تدل على ما يعادلها من الكلمات باللغة الأكادية. ولم يكونوا في الحقيقة قد اكتشفوا طريقة للتعبير عن كل الأصوات الأكادية عندما تجاوزوا أصوات اللغة السومرية. ولم يكن هذا ضعفاً خاصاً من جانب الكتاب الأكاديين، فهناك تأثيرات

(*) هناك 6 ملايين طن من الخَبَث القديم، تغطي ثلاثة أرباع كيلو متر مربع في مناجم فضة ريوتينتو، قرب هويلفا (ولعلها موقع طرطيسوس، المعتقد أن اسمه بالعبرانية ترشيش). ورغم هذا النشاط الكثيف، الممتد على مدى قرون، فإن الأدلة الأثرية تميل إلى إظهار أن المستوطنات الفينيقية في إسبانيا كانت زوايا تجارية منعزلة ولم تكن مدناً (ماركو 2000، ص 182-186).

مشابهة يمكن رؤيتها في لغات أخرى تكتب بالخط المسماري، مثل الحثية والأورارتية(*).

فالمفارقة إذن هي أن اللغة الفينيقية لم يكن لها تأثير يذكر في أوروبا، رغم أن تأثير متكلميها على اللغات التي اتصلوا بها كان هائلاً بالفعل. ولكن البونية، وهي الكلمة التي تعرف بها اللغة نفسها عندما يتكلمها القرطاجيون، استقرت ورسخت في شمال إفريقيا. ومن الواضح أنها عاشت زمناً طويلاً بعد سقوط قرطاجة كدولة في العام 146 ق.م. أي بعد 655 عاماً من تأسيسها، وحتى الإدارة الرومانية الناطقة باللاتينية التي أعقبتها لمدة خمسمئة عام أخرى، كان القديس أوغسطين الهيبي (من مدينة هيبو) يستشهد بكلمات من هذه اللغة في القرن الخامس الميلادي، معلقاً على فائدتها لقسيس في أبرشية ريفية في نوميديا[6]. ولكن من الأشياء التي تعذّب المرء وتوجع قلبه أن اللغة البونية لم تستطع أن تضمن بقاء كتاب واحد من العالم القديم، رغم أنها كانت واسعة الاستعمال، وكانت هي الواسطة التي نشرت معرفة القراءة والكتابة الأبجدية في قارة أوروبا.

أما في آسيا الغربية، فاعتباراً من منتصف القرن السابع قبل الميلاد بدا أن إيقاع التغيير أخذ يتسارع. وخلال أربعة عقود امتدت إلى العام 627 ق.م. وسعت آشور قوتها إلى الحد الأقصى، فاستولت على ليديا في الشمال، وفينيقيا في الغرب، ودلتا النيل في مصر في الجنوب، وعيلام في الشرق. ولكن آشور انهارت بعد ذلك بخمسة عشر عاماً. فقد أطاح الكلدانيون في بابل بالآشوريين، وجندوا الميديين لمساعدتهم في ذلك، ثم تقدموا لإعادة بناء إمبراطوريتهم حسب منظورهم الخاص بهم. فكان هذا آخر توهّج لقوة وادي الرافدين تحت حكم آخر إمبراطور عظيم لبابل، هو نبوخذ نصّر الثاني، الذي مات في العام 562 ق.م. وقبل ذلك بخمسة وعشرين عاماً، حتى أثناء غزوه للقدس وأسره ليهودها، كان

(*) كان هناك نظام رموز معبِّرة عن أشياء وكلمات تم اختراعه عند الطرف الآخر من آسيا فكانت له تأثيرات مماثلة. فاللغات اليابانية والكورية والفيتنامية صارت جميعها مقروءة ومكتوبة من خلال استعمال الحروف الصينية، وحافظت على كثير من الأشياء اللغوية (والثقافية) التي اقترضتها من اللغة الصينية، وهي لا تزال موجودة على وجه العموم حتى يومنا هذا.

هناك آخرون يبدؤون عملية تعزيز سياسي سيكون من شأنها أن تمحو عظمة بابل. فقد قام الميديون بدحر الأورارتيين في ثمانينيات القرن السادس قبل الميلاد، وبذلك رسخوا سيطرتهم على معظم الشمال. ولكن الميديين أنفسهم خضعوا في العام 550 ق.م. لانقلاب ملكي نفّذته فارس، جارتهم الجنوبية الغربية، تحت حكم كورش، ملكها الجديد. وتابع كورش فاستوعب ليديا (وبذلك استولى على باقي الأناضول)، ثم الأطراف الشرقية لفارس، حتى طاجيكستان الحديثة، وأفغانستان وبلوشستان. وفي آخر الأمر استدار على الإمبراطورية البابلية نفسها فاستولى عليها دون قتال يذكر. بل إن ابنه قمبيز غزا مصر، ولو أنه مات بعد ذلك بوقت قصير. وعند حلول العام 522 ق.م. كان هناك سيد وحيد مسيطر على كل الأرض الممتدة من الأناضول ومصر إلى تخوم تركستان الحديثة ووادي الإندوس. ولو كان هذا إنجازاً نموذجياً لوادي الرافدين لكان انهياره متوقعاً في غضون جيل واحد. ولكن الفرس استخدموا طرقاً مختلفة. وقدر للإمبراطورية المركزية المتكاملة التي أوجدوها أن تستمر مئتي عام.

وكان اسم سيدها دارا، وكانت له مواهب إدارية يمكن مقارنتها مع عبقرية كورش في كسب الانتصارات والحفاظ على ولاء الذين يغزوهم. ومن أكثر الأشياء إثارة للاهتمام من وجهة نظرنا، أنه قد أصدر مرسوماً يقضي بأن لا تكون لغة الإمبراطورية هي الفارسية، ولا الليدية، بل الآرامية. فكانت نتيجة ذلك الانتشار الفعال لاستخدام هذه اللغة السامية إلى ما وراء جميع الحدود السابقة - عبر ساحل بحر إيجه، والبلقان ومصر في الغرب، وخارجاً حتى هندكوش وضفاف الإندوس في الشرق.

ولا بد أن هذا القرار كان عملياً ذرائعياً محضاً، لأن الآرامية لم تكن هي اللغة التي تتكلمها الأسرة الفارسية الحاكمة من عشيرة الأخمينيين. ولعل العهد نفسه أراد أن يعالج هذه المشكلة، فاضطلع بمحاولة جعل الفارسية لغة أدبية أيضاً لأول مرة، فابتكر أبجدية مقطعية لكتابتها (مبنية على رموز مسمارية) ولاستخدامها مع العيلامية والأكادية في الكتابة المنقوشة على النصب التذكارية (فالأبجدية الآرامية التي كان يمكن استخدامها بسهولة لكتابة الفارسية، كان من

الواضح أنها عفوية أكثر من اللازم وغير رسمية بحيث لا يمكن استخدامها على النصب التذكارية الإمبراطورية). ولكن تلك الكتابات لم تنتشر وتم التخلي عنها بحلول العام 338 ق.م.، حتى قبل سقوط الإمبراطورية الفارسية على أيدي الإغريق. ومع ذلك فقد عاشت لغة الكلام الفارسية الحديثة واللهجات المتصلة بها، المستخدمة في إيران حتى يومنا هذا.

ورغم أن الآرامية لم تستمر في العيش كلغة آسيا الغربية، فإن توحيد اللغة الإدارية على يد الملك دارا، الذي تحقق بصورة جوهرية خلال القرنين التاليين من الإدارة الفارسية، كان له عدد من العواقب الهامة.

فقد أوجد معرفة بالإدارة التي يجري تشغيلها بلغة مشتركة منفصلة عن اللغات العامية الدارجة. وهكذا كانت التراكيب جاهزة في مكانها لإتاحة الانتشار السريع للغة اليونانية، للأغراض نفسها، بعد سقوط الإمبراطورية على يد الإسكندر وخلفائه. فتدفقت اللغة اليونانية عبر قنوات كانت مصنوعة للآرامية لمدة المئتي عام التالية (انظر الفصل السادس، تحت عنوان 'ملوك آسيا: انتشار الإغريقية عن طريق الحرب'، ص 345).

وقد أعطت هذه الوحدة اللغوية السطحية نتائج مختلفة طويلة الأمد في أجزاء مختلفة من الإمبراطورية. ففي الأناضول، يبدو أن اللغة الإغريقية قد تعمقت في قرنيها من الزمن أكثر مما وصلت إليه الآرامية: فقد حلت محل جميع اللغات الأصلية المتبقية (وكانت تلك اللغات هي الليدية إلى حد كبير وقريباتها الأصغر منها، وكذلك الفريجية، لغة الملك ميداس). وفي منطقة إيران وأفغانستان الحديثة، حيث كان التكلم باللغات الإيرانية المتصلة بالفارسية واسع الانتشار فإنها قد اقتلعت الآرامية كلغة مشتركة، ولكنها لم تمس اللغات العامية الدارجة. وكانت المستعمرات الإغريقية، مهما بلغت أطرافها المترامية، مستثناة من ذلك بالطبع[7]. أما في وادي الرافدين، وسوريا، وفلسطين، ومصر، فلم تحرز الإغريقية تقدماً ينكر بين عامة الناس ضد الآرامية. ولكن يبدو أن مجموعات محلية معينة قد أخذت بها، مثل تجّار المسافات الطويلة، ومعهم - بصورة تدعو إلى الدهشة - اليهود المقيمون بالإسكندرية في مصر.

وكان دخول الرومان من الغرب، والفرثيين من الشرق، في منتصف القرن الثاني قبل الميلاد، يعني أن الإغريقية راحت تتعرض للتحدي. وقد ردت على ذلك بطرق مختلفة. فسلمت للاتينية الاستعمالات القانونية والعسكرية، ولا شيء سواها، بحيث وجدت سوريا وفلسطين ومصر أنفسها الآن مناطق تتنافس فيها ثلاث لغات أو أكثر. ولكن أمام اللغة الفرثية، الوثيقة الصلة بالفارسية (والتي كان الناطقون بها يتشاركون في الولاء لنصوص زرادشت المسماة آفيستا) فقد أزيلت الإغريقية بشكل فعال، بينما حصل شيء من الانبعاث للآرامية، كلغة مكتوبة على الأقل. واستمر استعمالها يلهم كل أنظمة الكتابة (عدا نظاماً واحداً) التي راحت تستخدم منذ ذلك الحين اللغات الإيرانية، والفرثية والفارسية (البهلوية) في الغرب، والخوارزمية والصغدية ولغتي السكاثياتيين الشاكا والأوسيتية في الشرق، وكذلك لنصوص الأفيستا نفسها(*).

وفي ذلك الحين لم تكن الآرامية لغة رسمية في أي مكان، ولم تكن لغة غالبية المجتمع إلا في الهلال الخصيب. ورغم ذلك ظلت هي اللغة السائدة على مدى هذه المنطقة الواسعة لمدة ألف سنة تقريباً، حتى القرن السابع الميلادي، عندما تغلبت عليها لغة جديدة تماماً.

كانت تلك هي العربية، التي جاءت مع الإلهام الإسلامي والإرادة القوية المتحمسة لمعتنقي دين النبي محمد. إن تقدم هذه اللغة التي كانت غير معروفة عملياً، حتى شملت في غضون جيلين الشرق الأدنى بكامله حتى حدود فارس، وشمال إفريقيا بكامله حتى أعمدة هرقل، هو أحد أكثر أحداث التاريخ إثارة للذهول. ولكن تقدمها لم يكن كله بدون مقاومة: وعندما نصفها بتفصيل أكبر أدناه فسوف يكون من المثير للاهتمام التأمل في العقبات اللغوية التي ثبت أنها لا تلين.

وبهذا ينتهي استعراضنا السريع المرهق لوثبات اللغة في غرب آسيا،

(*) كان الاستثناء الوحيد هو الباكترية، التي أصبحت فيما بعد لغة إمبراطورية كوشانا (من القرن الميلادي الأول إلى القرن الميلادي الثاني)، والمكتوبة بحروف الأبجدية اليونانية. وهذا يبين التأثير الثقافي المستمر للسلالات الإغريقية المستقلة في الشرق الأقصى، التي اقتلعتها اللغة الكوشانية.

المنطقة اللغوية التي توسعت في آخر الأمر لتضم معظم شمال إفريقيا. ونستطيع أن نتباطأ قليلاً الآن، ونلقي نظرة أقرب على بعض فرادى هذه اللغات: فكثير منها كانت رائدة فريدة من نوعها في تاريخ اللغات المعروف في العالم.

السومرية ـ اللغة التقليدية الأولى: الحياة بعد الموت

أيها الأب إنكي، أجب نينشوبور:
'ما الذي حدث لابنتي! إنني منزعج،
ما الذي حدث لإينانا! إنني منزعج،
ما الذي حدث لملكة الأراضي كلها! إنني منزعج،
ما الذي حدث لخادم معبد السماء! إنني منزعج'.
من أظفور إصبعه أُخرج الوسخ، وصَمّم الكورغارو،
ومن أظفور إصبعه الآخر أخرج الوسخ، وصَمّم الكالاتورو.
لكورغارو أعطى طعام الحياة.
ولكالاتورو أعطى ماء الحياة.
ويقول الأب إنكي للكالاتورو والكورغارو:...
'ستون مرة طعام الحياة، ستون مرة ماء الحياة، رشّ عليها،
ومن المؤكد أن إينانا سوف تنهض'،[8]

تعرف اللغة السومرية أكثر من غيرها سرعة تلاشي حياة اللغة وشهرتها بصورة تسبب العذاب. فقد ظلت كل معرفة بهذه اللغة ضائعة طيلة ألفي عام تقريباً، عندما تم الكشف الأثري عن المكتبة الملكية للعاصمة الآشورية القديمة نينوى، وذلك في العام 1845. فاتضح أن أقدم الوثائق فيها كانت مكتوبة بلغة أقدم من الأكادية، وبالتالي فهي مختلفة عنها إلى درجة أن الآشوريين في القرن السابع قبل الميلاد كانوا يقتربون منها مسلِّحين طلابهم بمجموعة سابغة من قواميس ثنائية اللغة، وقواعد النحو والنصوص المتوازية. ولم يكن هناك شيء في السجل اليوناني أو التوراتي لوادي الرافدين يُهيِّئ الباحثين الجدد لتوقع مثل هذا الأساس

الأجنبي الغريب لتلك الحضارة. غير أن أغلبية الوثائق كانت مكتوبة بلغة شبيهة بالعبرانية والآرامية فيه شيء من التطمين؛ إذ إن كل ما بقي عبر العصور من عظمة آشور وبابل، كان الأساس اللغوي لمنجزاتها قد اندرس وامّحى.

فالسومرية، وهي الكلام الأصلي لسومر، الاسم الذي أطلقوه على الجزء الجنوبي من وادي الرافدين، كان قد مضى على موتها ألف وثلاثمئة عام أخرى عند كتابة تلك الوثائق التي تم استخراجها من مكتبة سنحاريب. ولكن تبيّن أن الطريقة الوحيدة لفهم الأكادية المكتوبة بالخط المسماري هي النظر إليها كمحاولة لإعادة ترجمة نظام الإشارات المصمّم للاستعمال السومري. فقد وصلت الكتابة السومرية المبكرة إلى درجة من التعقيد، وربما من النفوذ المتميز، تجعل أي أناس خارجيين يريدون اعتمادها للغتهم الخاصة مضطرين إلى الأخذ باللغة السومرية معها إلى حد كبير.

ولم تكن هذه مشكلة أكبر من اللازم في حالات كون الإشارات ذات معنى واضح. فالإشارات الرمزية الدالة على كلمات سومرية كاملة أعطيت لها طرق تلفّظ جديدة فقط، بحيث تتم قراءتها مثل الكلمات النظيرة لها في الأكادية. ولكن الأكادية كانت لغة شديدة الاختلاف عن السومرية، في تصويرها لأصواتها الملفوظة وفي تركيب كلماتها كذلك. وبما أنه لم يتم إدخال إشارات جديدة إلى الأكادية، فقد كان من الضروري تجاهل هذه الفوارق إلى حد كبير: وبالنتيجة فقد رضي الأكاديون بأن يكيفوا أنفسهم لكتابة لغتهم الأكادية وكأنما أنتجها شخص له لكنة سومرية ثقيلة. فالإشارات السومرية التي كانت تقرأ كأصوات ملفوظة ظلت تقرأ كما كانت باللغة السومرية، ولكن تم تجميعها معاً لتقارب الكلمات الأكادية، وحيثما كانت لدى الأكادية أصوات غير مستعملة في السومرية، فإنهم تدبروا الأمر بأي شيء هو أقرب ما يكون لتلك الأصوات.

وهكذا عاشت السومرية بعد موتها كلغة حية بطريقتين على الأقل. فقد ظلت تعيش كلغة تقليدية كلاسيكية تم تقديس أعمالها الأدبية الكبرى واقتباس نصوصها من قبل كل الأجيال المتعاقبة من كتاب الخط المسماري. ولكنها عاشت أيضاً كقيد مفروض على التعبير بالأكادية، بل وعلى كلّ لغة لاحقة تتطلع

إلى استخدام نظام الكتابة المسمارية بكامله، كالعيلامية، والحورية، واللووية، والحثّية، والأورارتية، على مدى الألفي عام التالية. فكان الأمر يشبه حكماً إجبارياً على اللغات الأوروبية الغربية الحديثة بوجوب كتابتها على أقرب صورة ممكنة من اللاتينية، مع بعض الحواشي التفسيرية المتناثرة من الأصوات الملفوظة لإظهار كيفية نطق التهجئة الرومانية المقدسة منذ زمن طويل لإعطاء تلفظ له معنى بالهولندية، أو الإيرلندية، أو الفرنسية، أو الإنكليزية(*).

إن أصل اللغة السومرية يحيط به غموض مبهم، وبعض أهالي جورجيا (جنوبي القفقاس على تخوم البحر الأسود) هم وحدهم الذين يدّعون أن لغتهم ذات علاقة بها[9]. ولكن هذا الادعاء ليس مقبولاً على نطاق واسع. ومهما كان تاريخ السومريين السابق، فإن من الواضح أنه كانت هناك مجموعة حيوية من المجتمعات الفعّالة النشاط في جنوب وادي الرافدين منذ الألف الرابع قبل الميلاد راحت تستوعب مكاسب رسوخ الزراعة كمؤسسات كانت حديثة آنذاك، فأخذت تؤسس المدن الأولى، التي يبدو أنها كانت قبل كل شيء تجمّعات يحتفظ كل منها بسلعه باسم إله يترأسه، مع سلطة إدارية فعالة في أيدي طبقة الكهنة. وقد بدئ باستخدام دولاب الخزّاف، والمحراث المتأرجح، والشراع، وكذلك العمل بالذهب والفضة والبرونز. وبما أن الكتابة بالصور وتطويرها إلى الخط المسماري قد اخترعت في هذه الفترة، فإن هذا يعطينا أول شهادة مباشرة على التاريخ اللغوي للعالم. ويبدو أن الاستخدام التجاري جاء أولاً. فنقش الرموز على الطين بدأ باعتبارها بدائل مناسبة لمجموعات من العلاقات المستخدمة في عمليات الجرد وإبرام العقود[10].

وسرعان ما أدّت الثروات غير المسبوقة واللمعان الثقافي في المدن ـ الدول في سومر في الألف الثالث قبل الميلاد إلى اجتذاب اهتمام غير مرحّب به من الشمال. فنجم عن ذلك استيلاء عدواني وتعزيز سياسي تحت حكم ملوك أكاد. ولا بد أن اتصالاً أعظم بين اللغتين السومرية والأكادية قد نتج عن غزو

(*) وهذا هو بالضبط ما نفعله برموز أرقامنا، سواء أكانت الأرقام العربية أم الأرقام الرومانية.

سرجون في القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد والأجيال الخمسة من السيطرة الأكادية التي تلت ذلك الغزو. فكانت ثنائية اللغة السومرية ـ الأكادية ستشيع في صفوف النخبة. ويستطيع المرء أن يرى أدلة على ذلك على أعلى مستوى، ما دامت إنهدوانا بنت سرجون قد نظّمت مجموعتين من الترانيم السومرية. وأشهرها (الترنيمة إلى إينانا) قد عثر عليها في حوالي خمسين نسخة[11].

لقد كانت هذه المشاركة من النساء، وخاصة من الأميرات والكاهنات، في الأدب السومري شائعة وغير مجهولة. فقد كتبن أغنيات ترنيمية جنائزية ورسائل، وعلى وجه الخصوص أغنيات غرامية.

مدينتك ترفع يدها كشخص مشلول، يا مولاي شو ـ سين،
وهي تقبع عند قدميك كشبل أسد ـ يا ابن شولغي.
آه يا إلهي، إن خادمة الشراب العذراء لديها شراب حلو تعطيه،
ومثل شراب التمر حلو فرجها، وحلو شرابها ... [12]

وبين الحين والآخر هناك تهويدة لتنويم الأطفال:

تعال يا نوم، تعال يا نوم،
تعال إلى ولدي،
وعجّل بتنويم ولدي،
ونوّم عينيه المضطربتين،
ضع يدك على عينيه البراقتين،
وأما لسانه المثرثر بالهذيان
فلا تدع هذيانه يحجب عنه النوم.

سوف يملأ حضنكم بالقمح.
وسأصنع لك الأجبان الصغيرة الحلوة،
تلك الأجبان الصغيرة الشافية للإنسان ...
وحديقتي فيها خس جيد التروية...

فلتكن الزوجة داعمة لك،
وليكن الابن من نصيبك،

ولتكن حبّات الشعير المذراة عروسك،
ولتكن آشنان إلهة الفواكه حليفك،
وليكن لك ملاك حارس بليغ،
وليكن عهدك محقّقا لأيام سعيدة ..[13].

إن هذه الأعمال مؤلفة في العادة بـ"الإيميسال"، أي 'اللسان الناعم الرقيق'، الذي هو لهجة سومرية منفصلة، موثقة جيداً في قواميس النصوص المكتوبة. وفي المؤلفات الحوارية تستخدم هذه اللهجة في كلام الإلهات. وهي تختلف عن السومرية الفصحى الموحّدة، المسماة "إيميجير"، أي 'اللسان الأميري'، في المفردات (بما فيها أسماء كثير من الآلهة)، وفي التلفظ كذلك (بحيث تتضح الحروف الصامتة عموماً متقدمة إلى الأمام أكثر في الفم)، وهي لا تختلف أبداً في قواعدها النحوية. وعلى سبيل المثال، فعندما تظهر الآلهة إينانا أنها تزجر مغازلات خاطِب يزعجها بإلحاحه، فإنها تصرخ:

*Kuli **Mulila** šu bamu emeše danen*
amanu lulaše ta munaben
amanu Gašangale lulaše ta munaben

يا صديق إنليل، اتركني حرة! دعني أذهب إلى بيتي!
فأي كذبة سأخبر أمي بها؟
أي كذبة سأحكيها لأمي نينجال؟

وبالطبع فإن إنليل ونينجال إلهان. وبلسان الأمراء فإن ذلك سيكون كما يلي (مع إبراز الفوارق):

*Kuli **Enlila** šu bamu **enuše ganen***
*amanu lulaše **ana** munaben*
*amanu **Ningale** lulaše **ana** munaben*[14]

وهكذا يبدو أن السومرية، مثل لغات كثيرة أخرى في جميع أنحاء العالم، فيها لهجة خاصة لكلام النساء. وما يميز السومرية هو أن هذه اللهجة قد اكتسبت مكانة خاصة وصريحة مسجّلة في كتب قواعد النحو. ويمكن اعتبار ذلك دليلاً آخر على المكانة العالية للنساء في الأدب السومري.

وبالعودة إلى ثنائية اللغة السومرية ـ الأكادية، يتفق المختصون على أن ميزان لغة الحديث في سومر قد انتقل على مدى الفترة من العام 2400 إلى العام 1600 قبل الميلاد من السومرية بشكل كلي إلى الأكادية بشكل كلي. فقد بدأت سومر هذه الفترة كمجموعة من المدن ـ الدول المستقلة، ثم تعرضت للسيطرة الأكادية في القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد ثم للسيطرة العمّورية، فالسيطرة العيلامية (لفترة قصيرة) في القرن التاسع عشر، ثم لحكم حمورابي البابلي في القرن الثامن عشر قبل الميلاد. وانتهى الأمر باستعادة استقلال سومر، أو بالأحرى الفوضى، عقب انهيار هذه الإمبراطورية البابلية الأولى. ولكن اللغة في الشوارع والبيوت صارت عندئذ أكادية.

فكان ذلك مثالاً مثيراً للاهتمام على ثنائية اللغة غير المستقرة، ما دام الوضع يذكرنا من خلال طرق عديدة بالعلاقة بين الإغريقية واللاتينية في الإمبراطورية الرومانية، فقد سيطرت إحداهما على الحياة الثقافية وسيطرت الأخرى على الحياة السياسية. وفي تلك الحالة، فعلى الرغم من عدم الاستقرار السياسي، وسمعة اليونانيين المتذبذبة بصورة عامة، على عكس ثبات الرومان ونفوذهم السياسي، فلم تتراجع اللغة اليونانية أمام اللاتينية في أي مكان. ومع ذلك ففي وادي الرافدين، كانت الشعوب السامية المختلفة هي مصدر الفوضى والتمزيق، رغم كل سيطرتها السياسية، حيث يظهر أنه لم تكن هناك أي حركة سياسية كبرى للسكان السومريين، وحيث لم يتعرض النفوذ الثقافي السومري للتحدي، ولكن السومرية راحت تفقد موقعها باطراد.

وفي بعض الحالات، راح حتى بعض الحكام الساميين يحاولون خوض معركة مؤخرة بالنيابة عن الثقافة السومرية. ففي مملكة إيسين، التي كانت تسيطر على أهم ثلاث مدن سومرية، هي نيبور وأوروك (الوركاء) وإيريدو فيما بين القرنين العشرين والتاسع عشر قبل الميلاد، كانت السلالة الحاكمة من ماري، في شمال وادي الرافدين الناطق بالأكادية، ومع ذلك فإن ملكها أطلق على نفسه لقب 'ملك أور، ملك سومر وأكاد'. وكانت كل نصوصها الرسمية مكتوبة باللغة السومرية، وقد ازدهر إنتاج طبعات أو نسخ جديدة من الأدب السومري الكلاسيكي.

وربما كان بين العوامل الفعّالة ضد بقاء السومرية كلغة حية إلى جانب الأكادية أن القادمين الجدد ذوي النفوذ المؤثّر كانوا يتكلمون لغة سامية، وهكذا وجدوا أن من الأسهل أن يتدبروا أمرهم بالأكادية. فقد كان الأكاديون وحدهم هم الذين عاشوا على مقربة وثيقة من السومرية منذ عصور قديمة لا تعيها الذاكرة، وربما صاروا ذوي لغة مزدوجة. أما الآخرون فلم يكن من شأنهم الصبر على التعقيدات الثقافية التي واجهوها في الجنوب. ومن السهل تخيّل الرجل العمّوري العادي المتنقل وهو يقول: 'بعد كل شيء فإنهم جميعاً يتكلمون الأكادية، أليس كذلك؟' فقد كان الهلال الخصيب كله يعرف لغة سامية واحدة أو أخرى. وكانت تلك اللغات بطبيعتها شديدة التشابه، بل ويسود بينها فهم متبادل إلى حد ما. وبرغم كل نفوذ السومريين الثقافي (الذي كان من الواضح أنه لم يتناقص أبداً)، فقد وجدوا أنفسهم مضطرين إلى التنازل لإجراء تسويات في اللغة في حياتهم اليومية والتجارية.

وبمعنى ما، فإن الأكادية قد اضطلعت بحمل العبء الذي ألقاه الناطقون بالسومرية عن كواهلهم. ومثلما كان الأمر دائماً، فقد ظل تعلّم الأكادية بأي طريقة أخرى سوى كونها امتداداً للسومرية شيئاً لا يمكن التفكير فيه، رغم أن السومرية والأكادية كانتا متباعدتين كلغتين كتباعد القطبين، إذ إن مفرداتهما الأساسية كلها لا علاقة لها ببعضها بعضاً على الإطلاق، ولهما نظامان صوتيان شديدا الاختلاف. فلم يقدّم النظام وسيلة للتمييز المطّرد بين *b* و*p* والدال *(d)* والتاء *(t)* والطاء *(ṭ)*، والغين *(g)* والقاف *(k)* والكاف *(q)* في الأكادية. ويظهر أن الأكادية تنقصها إلى حد ما خفايا ظلال الأصوات المنطوقة التي تميز كثيراً من أخواتها من اللغات السامية. ففيها صوت واحد للهاء *(h)* في حين تملك أخواتها ثلاثة، وثلاثة أصوات للسين *(s)* بينما يصل العدد في أخواتها إلى أربعة. ومن الصعب القول إن كان فقر الأبجدية السومرية في الهجاء فقط هو الذي يسبب هذه الظاهرة.

ويظهر أن الابتكارات الوحيدة التي سمح بها الكُتّاب الأكاديون لأنفسهم هي إشارة جديدة لهاء الوقف الحلقية الساكنة، مع تراخيص كبيرة في رموز

الكلمات أو المنطوقات السومرية: التي كانت متوفرة كأساليب للتورية، قادرة على الرمز للصوت نفسه الدالّ على الكلمة في السومرية، ومن ثم كانوا يستطيعون تطبيق الخدعة نفسها في الأكادية كذلك. وعلى سبيل المثال فإن العلامة السومرية  التي تعني اليد صار بالإمكان قراءتها 'إيدو' التي تعني اليد في اللغة الأكادية. كما أن بإمكانها أن تمثل المقاطع إد (id)، إتْ (it)، إطْ (iṭ) يدْ (ed)، يِتْ (et)، ويطْ (eṭ).

وظلت رموز الكلمات السومرية، وظل الأدب السومري، أساساً للأكادية المكتوبة حتى عندما اجتاحت كافة أنحاء الهلال الخصيب وما وراء ممالك الشعوب الناطقة باللغات السامية، كلغة مشتركة للاتصال الدولي. وقد تمت المحافظة على النظام التعليمي ذاته، القائم على أساس 'الإيدوبا'، أي "بيوت الأقراص الطينية"، وهي المدارس، لمدة ألفي عام على الأقل. إذْ تم العثور على قوائم علامات لتدريس الرموز بالترتيب نفسه في مدينة أوروك (الوركاء) السومرية يعود تاريخها إلى الألف الثالث قبل الميلاد، وفي مكتبة آشور بانيبال في العاصمة الآشورية نينوى من منتصف القرن السابع قبل الميلاد. كما أن إتقان الأعمال التقليدية الكلاسكية في الأدب السومري، وهي مجموعة من النصوص التي لم تمتد إلى ما بعد منتصف الألف الثاني قبل الميلاد، ظل قمة إنجاز البحث الدراسي، وبؤرة التركيز في سنوات الطالب الأخيرة في مدرسته. وحتى في الرياضيّات، كانت معظم المصطلحات باللغة السومرية، رغم أن الكتب المدرسية المقررة كانت مكتوبة بالأكادية. ويظهر أن التكلم بالسومرية قد استمر في الصفوف المدرسية: وقد أدى ذلك إلى جعل التمارين والكتب المدرسية الباقية أقل وضوحاً وصراحة في اللفظ مما كنا نحب أن تكون عليه.

إن حماسة الثقافة الأكادية لكل الأشياء السومرية في الحقيقة هي التي أنقذت ثقافة سومر الراقية وفنونها الجميلة. وتكاد جميع النصوص الأدبية السومرية التي عثر عليها تكون نسخاً قام بها الطلبة على الأغلب في النصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد، بعد موت السومرية كلغة حية؛ وعلى عكس

ذلك، فإن معظم ما وصل إلينا من أيام ما قبل الأكادية، عندما كانت مدن سومر فخورة وحرة (وما زالت تتكلم السومرية) هي كتلة من المخطوطات والوثائق الإدارية.

ولكن هذه الذروة السومرية التي استمرت ستمئة عام، بعد موت اللغة الحية، وصلت إلى نهايتها في آخر الأمر، فأظهرت أن الأكادية لا تستطيع أن تواصل دعمها إلى ما لا نهاية. وبعد سقوط بابل في يد الملك الحثي المغير مورسيليس في العام 1594 ق.م. والاستيلاء على وادي الرافدين من قبل العشائر الكاسيّة الجبلية بعد ذلك، فإن التقدير الحقيقي للثقافة السومرية لم يستعد عافيته أبداً. فاعتباراً من بقية الألف الثاني، ثم الألف الأول قبل الميلاد (بل وحتى الاحتلال الإغريقي في ظل الإمبراطورية السلوقية بعد الإسكندر في العام 323 ق.م.) لم يعد أحد يحاول إنشاء كتابات بالسومرية ولم يعد يتم استنساخ نصوص أدبية سومرية سوى نصين اثنين، هما مآثر نينورتا (التي أوردنا عيّنة منها) وقطعة إنشائية عنوانها "آنجيم"، عن عودة نينورتا من الجبال إلى نيبور. ومنذ ذلك الحين، لم تعد الأعمال السومرية التقليدية الكلاسكية تعرف إلا في الترجمات.

وكما لاحظ شاعر (عن التدمير المبكّر لمدينة أكادية كانت تتطلع إلى إخضاع السومريين لسيطرتها):

> إن الذي قال 'ساعيش في تلك المدينة' لم يجد مكاناً جيداً للسكن هناك.
> والذي قال 'سأنام في أغادي' لم يجد مكاناً جيداً للنوم هناك.
> فقد دمرت أغادي. والحمد لإينانا.(15)

وبما أن الأكادية أيضاً كان مقدراً لها الزوال ـ وعندما حدث ذلك حلت محلها لغة لم تكن معروفة قراءتها وكتابتها تعتمد على التقليد القديم للكتابة بالخط المسماري ـ فقد قدر للسومرية أن تتلاشى. ففيما عدا الألواح الطينية التي تنتظر الاكتشاف في تلال العراق، فإنها لم تترك وراءها أي أثر.

الفترة الفاصلة الأولى: ما الذي حدث للعيلامية؟

يبدو أن العلامات الطينية التي أنشأت النصوص السومرية المكتوبة كانت واسعة الانتشار: وليس ذلك مدهشاً، إذ إنها كانت ستلعب دوراً أساسياً باعتبارها بواليص الشحن لتجارة المسافات الطويلة. فتطورها إلى مجموعات من الرموز المنقوشة على الطين جاء بشكل مستقل في سومر، وعلى مبعدة من ذلك إلى الشرق في شوسيم (المعروفة عند الإغريق باسم سوسه)، وهي أرض عيلام الداخلية. فالرموز المصورة في عيلام لم تذهب بعيداً وراء مرحلتها الأولية كواسطة لعمليات الجرد رغم أن النصوص العيلامية البدائية الأصلية، والتي يظهر أنها كانت مقطعية، كانت مستخدمة في أوائل الألف الثالث قبل الميلاد. غير أن خط التطور هذا تم إجهاضه في منتصف الألف المذكور، عندما تم الأخذ بالنظام السومري الذي كان عندئذ نظام كتابة حقيقي، رغم أنه كان متكيفاً بشكل قوي مع استعمال اللغة السومرية.

وفي الحقيقة، فإن عيلام ذهبت إلى أبعد من استعارة النظام الكتابي: لأن جميع النصوص الرسمية تقريباً كانت باللغة الأكادية طيلة تسعمئة عام تبدأ اعتباراً من العام 2200 ق.م. ولمدة طويلة من هذا الوقت كانت تحت السيطرة السياسية المباشرة لإحدى القوى إلى جهة الغرب، وهي السومرية، والبابلية، والآشورية. ورغم ذلك فلا بد أن العيلامية ظلت لغة الكلام في عيلام، إذ إنها تنهض عائدة للحياة في العام 1300 ق.م. كلغة رسمية تحل محل الأكادية لجميع الأغراض الكتابية، ما عدا اللعنات(16).

وظلت سيرة اللغة العيلامية فيما بعد تظهر إصراراً على الاستمرار طيلة ثمانمئة عام. فاعتباراً من العام 1300م. راحت عيلام تخوض سلسلة من الحروب لم تكن دفاعية دائماً مع جيرانها عبر سبخات دجلة المستنقعية. وخلال تقلبات هذه الصراعات على القوة والسلطة، التي كانت كثيراً ما تنجم عنها فترات من التسلط الأجنبي، استطاعت عيلام أن تحافظ على استقلالها على المدى الطويل من خلال احتفاظها بأرض داخلية واسعة ولكن يمكن الدفاع عنها والوصول إليها، وهي آنشان، في جبال زاغروس على الجنوب الشرقي،

التي لم يتغلغل إليها الناطقون باللغة الأكادية على الإطلاق[17]. ولم تأت الكارثة الحقيقية إلا في القرن السابع قبل الميلاد، عندما خسر العيلاميون مركزهم القوي: فقد استولى عليه الفرس، الذين جاء هجومهم، لأول مرة، من الجنوب. وفيما بعد ذلك التاريخ صارت آنشان تعرف باسم بارشا (والمنطقة تدعى فارس إلى يومنا هذا).

كان العيلاميون قد فقدوا حصنهم المنيع للطوارئ. وعلى الفور تقريباً، قام آشوربانيبال الآشوري بنهب سوسه في العام 646 ق.م. فوضعت هذه الكارثة حداً لآخر مملكة مستقلة في عيلام، إن لم يكن للعيلاميين أو لغتهم. ولكن بالطريقة الآشورية النمطية المتميزة، نفى آشوربانيبال كثيراً من السكان، إلى آشور حسب روايته هو، وإلى أبعد من ذلك، إلى السامرة في فلسطين حسبما هو وارد في التوراة في سفر عزرا (4:9ـ10).

ولكن الأحداث كانت تتحرك إلى ما وراء التأرجحات التقليدية لرقّاص تحولات القوة في وادي الرافدين. فلم يكد العيلاميون يشتفون برؤية آشور نفسها تسقط على أيدي الميديين والبابليين في العام 612 ق.م. حتى وجدوا أنفسهم تحت السيطرة البابلية ثم، في غضون جيل واحد، تحت السيطرة الفارسية. وأدى ذلك إلى وضع عيلام في قلب الأحداث العالمية لأول مرة. وبعد ذلك بجيلين، في العام 522 ق.م. سيطر دارا (دارايافوس)، الوريث الفارسي لآنشان، على الإمبراطورية الفارسية كلها، وكانت عندئذ قد امتدت من مصر والأناضول إلى حدود الهند. وعلى الرغم من تمرّدين عيلاميين فاشلين وقعا بعد فترة قصيرة من اعتلائه العرش، فقد اختار عيلام قلباً لإمبراطوريته، ومعها سوسه نفسها (المعروفة عنده باسم شوشان) كعاصمة إدارية لها، وبارشا، أي آنشان كموقع للعاصمة الاحتفالية الجديدة، التي راحت تعرف لدى الغرب بصورة أفضل تحت اسمها اليوناني بيرسيبوليس (وهي "المدائن" الحديثة).

ولم يكن الفرس أبداً يقدرون معرفة القراءة والكتابة تقديراً عالياً. فمن المشهور عنهم أن قادتهم كانوا يتعلّمون ثلاثة أشياء فقط هي: ركوب الخيل،

وإطلاق السهم بشكل مستقيم، وقول الحقيقة. وهكذا، فإن جيرانهم العيلاميين الذين كان وراءهم ألفا عام من التعليم المسماري، كانوا في وضع جيد جعلهم مفيدين للغاية في الجانب الممل المضجر من بناء الإمبراطوريات.

وعلى النصب التذكارية التي أقامها دارا في أنحاء مملكته (ولا سيّما عند بهيستون، على طريق الحرير)، لم تكن النقوش مكتوبة بالفارسية والأكادية فقط، بل بالعيلامية كذلك. ورغم أن اللغة الرسمية للإمبراطورية قدر لها أن تكون الآرامية، فإن من الواضح أنه حتى حوالي العام 460 ق.م. كانت الإدارة المركزية تتم في الحقيقة باللغة العيلامية، إذ تم اكتشاف أرشيف من عدة آلاف من الوثائق الإدارية في برسيبوليس (المدائن) في ثلاثينيات القرن العشرين. ومن الأرجح أن الفضل في الحفاظ عليها يعود إلى الحرائق المتعمّدة التي أشعلها الغزاة من جنود الإسكندر في العام 330 ق.م. (لأن النيران خبزت ألواح الطين جيداً فثبتت عليها النقوش).

ولكن هذه هي آخر الوثائق العيلامية التي بقيت في أي مكان[18]. فقد حلت محلها الآرامية كلغة للإدارة المكتوبة. ونظراً لأن العيلامية كان ينقصها أي تركيز سياسي للحفاظ على تقاليد الخط المسماري، فالظاهر أن الكتابة بها قد أوقفت. وبعد ذلك بوقت قصير، وربما كان طويلاً، فإن لغة الكلام بالعيلامية قد تلاشت أيضاً. فالعرب الذين كانوا يكتبون في القرن العاشر الميلادي ذكروا أن لغة الكلام في خوزستان لم تكن الفارسية ولا العربية ولا العبرانية: فلم يسجلوا أي كلمات منها، ولذا فلا يدري أحد إن كان ذلك هو آخر العهد باللغة العيلامية[19].

ولقد كانت هناك تكهنات بأن صراعات سومر وأكاد للسيطرة على الجبال التي وراء عيلام، بثرواتها الغنية من المواد الأولية، من الحجر والأخشاب والمعادن، ربما تكون قد انعكست بطريقة نظرية مجردة على أدب الفترة الباقي[20]. ففي القصيدة المعنونة "لوغال وميلامبي نيرغال" المعروفة بالإنكليزية بعنوان "مآثر نينورتا"، يسلم الإله على أمه التي جاءت لزيارته في فتوحاته الجبلية:

بما أنك يا سيدتي قد جئت إلى الأراضي الوعرة،
وبما أنك، أيتها السيدة النبيلة، بسبب شهرتي، جئت إلى أرض العدو،
وبما أنك لم تخافي من معاركي المرعبة،
فأنا البطل، على كومة الاستحكامات التي كدستها
سوف تدعى هرساغ، وستكونين ملكتها،
ومن الآن فصاعداً فإن نين هرساغ ستكون الاسم الذي يطلق عليك -
هكذا سيكون الأمر.
...
وسوف تزوّدك الهرساغ بعطور الآلهة بشكل وفير،
وسوف تزودك بالذهب والفضة بكثرة،
وسوف تستخرج لك النحاس والقصدير وتحملها إليك لتكريمك،
وسوف تُكثر الأماكن الوعرة المواشي الصغيرة والكبيرة لك،
وسوف تأتي لك الهرساغ بنسل كل المخلوقات ذوات القوائم الأربع(21).

والحقيقة أن الملك الذي حقق فتح عيلام وآنشان كان غوديا من لكش (بين عامي 2141 و2122 ق.م): وكان يخدم الإله نينجيرسو وليس نينورتا. ومع ذلك فقد كان نينورتا إله نيبور، التي أصبحت فيما بعد المركز الثقافي للمدن السومرية. وهكذا فإن تغيير الإله المركزي كان سيضفي على المقطوعة الشعرية شيئاً من الأبّهة والفخامة النزيهة التي ناسبتها فأصبحت من المأثورات الأدبية التقليدية الكلاسيكية.

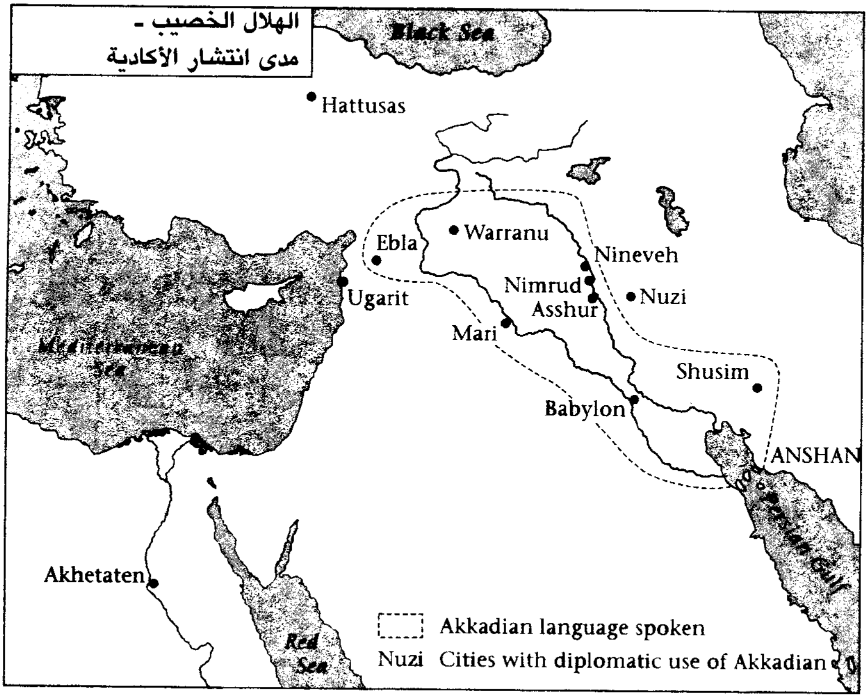
الأكادية ـ تقنية تتغلب على العالم: نموذج من معرفة القراءة والكتابة

وكانتِ الأرضُ كلها لغةً واحدةً وكلاماً واحداً. وكانَ أنَّهمْ لمّا رَحلوا إلى المشرقِ وَجدوا بقعةً في أرضِ شنعارَ فأقاموا هُناك. وقالَ بعضهم لبعضٍ: 'تعالوْا نصنعْ لبناً ولنحرقهُ حرقاً!' فكانَ لهمُ اللبنُ بدلَ الحجارةِ، والحمرُ كانَ لهمْ بدلَ الطينِ. وقالوا: 'تعالوا نبنِ لنا مدينةً وبرجاً رأسهُ إلى السماءِ، ونقمْ لنا اسماً كي لا نتفرَّق على وجهِ الأرضِ كلها'. فنزلَ الربُّ يهوه

> ليَنظرَ المدينةَ والبرجَ اللذينِ كانَ بنو آدمَ يبنونَهما. وقالَ الربُّ: 'هوذَا همْ شعبٌ واحدٌ ولجميعهمْ لغةٌ واحدةٌ، وهذا ما أخذوا يفعلونهُ. والآن لا يكفون عما هموا بهِ حتى يصنعوهُ. هلمَّ نهبطْ ونبلبلْ هناكَ لغتهمْ حتّى لا يفهمَ بعضهمْ لغةَ بعضٍ'. ففرَّقهمُ الربُّ منْ هناكَ على وجهِ الأرضِ كلها، وكفوا عن بناءِ المدينةِ. ولذلكَ سميتْ بابلَ لأنَ الربَّ هناكَ بلبلَ لغةَ الأرضِ كلها. ومنْ هناكَ شتتهمُ الربُّ على كلِّ وجهها.
>
> سفر التكوين: الإصحاح الحادي عشر، 1 ـ 10

إن هذه الأسطورة اليهودية، من الواضح أنها مستلهمة من البناء المعماري الضخم المذهل الظاهر في مدينة بابل العالمية، وتعدد أصوات اللغات التي تُسمع في شوارعها، لا تزال ترمز بشكل عميق إلى الثقافة الأوروبية. ولكن ضاعت فيها بطريقة ما آلية الصراع بين قوة عظمى متغطرسة وإله غيور. وهي تعتبر اليوم قصة حول الطريقة التي تعطي فيها اللغة الوحيدة وحدة، هي الوحدة الضرورية لإنجاز مشروع عظيم ورائع إلى حد استثنائي: فقط اخلط لغاتهم بشكل مربك فيصبح التعاون مستحيلاً. وبهذا الاعتبار، فإن هذه الخرافة ملفّقة بشكل غريب وموضوعة في غير مكانها عن بابل، التي تميزت طوال تاريخها بدور قيادي للغة وحيدة. وكانت هذه اللغة هي الأكادية التي سادت على امتداد ألفي عام تقريباً، رغم أنها خضعت للآرامية في آخر بضعة قرون من إمبراطوريتها، كما رأينا آنفاً.

ولعل الحلم برؤية البابليين مبعثرين وغير منظّمين كان ممارسة مريحة لرغبات يهود القرن السادس قبل الميلاد وتمنياتهم أثناء كونهم مشردين ومطرودين من موطنهم على يد الإمبراطور البابلي نبوخذ نصّر الثاني. وربما يمكن اعتبار هذه الخرافة تعليقاً ساخراً بالمفارقة عن كيفية تمكن آشوربانيبال الآشوري من نهب بابل قبل ذلك في القرن السابع قبل الميلاد. ورغم كل شيء، فإن كثيراً من التقليديين البابليين لا بد أنهم قد تشككوا بانتشار نفوذ الآراميين ذوي الكلام الخشن الغليظ وتكهنوا بأنه لن ينجم عنه أي شيء جيد. ولكن رغم أن بابل كانت ستفقد مجدها مع مرور الزمن ـ بل بعد نبوخذ نصّر بوقت قصير



جداً - فإن تدهورها لا يمكن عزوه إلى انحدار اللغة، أو إلى شيء من الفشل في التواصل. فقد استمر الناس في التحدث باللغة الآرامية، ودراسة الأكادية قروناً كثيرة بعد أن سلبهم الفرس، ثم الإغريق، قوتهم كلها.

ومع ذلك فإن الأكادية في أوجها كانت لغة القوة والنفوذ بشكل بارز، وإذا كانت السومرية قد انتشرت إلى ما وراء سومر باعتبارها محكاً لمقياس تعليمي موحد، فإن الأكادية قد انتشرت عن طريق النفوذ الاقتصادي والسياسي المتميز.

والأكادية تسمية مأخوذة من أغاد، أو أكاد، التي كانت ذات مرة المدينة الكبرى في جنوب وادي الرافدين. ولكن موقعها الآن يشوبه الغموض (ولعلها لم تكن بعيدة عن بابل). فسجلات اللغة تبدأ بشكل جدي في منتصف القرن الثالث قبل الميلاد، بحيث تصل إلى ذروة مبكرة في تلك الغزوات التي قام بها سرجون (الذي تركز عهد حكمه الطويل عند نقطة التحول من القرن الرابع والعشرين إلى القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد). فقد شن حملات ناجحة في كل الاتجاهات.

وبذلك لم تقتصر منجزاته على نشر الاستخدام الرسمي للأكادية في الشمال (في ماري وإيبلا) فقط، بل شملت بداية سيطرة رسمية لتلك اللغة في عيلام إلى الغرب على امتداد ألف عام. وقد رأينا أن هذه النوبة الأولى من الحيوية الإمبراطورية الغزيرة قد تلاها انهيار في الجيل الرابع (عند نهاية القرن الثاني والعشرين قبل الميلاد) وانبعاث لغوي قصير الأجل للشعوب المحكومة، مع عودة السومرية والعيلامية إلى الاستخدام الرسمي لمدة قرن أو نحوه. غير أن العموريين، 'الغربيين' الناطقين بلغة سامية سرعان ما راحوا يبرزون في كافة أنحاء وادي الرافدين(*). ولم تؤدّ تحركاتهم إلى تقوية أكاد سياسياً، ولكن كان يبدو أنها تزاحم الاستخدام الواسع النطاق لأي شيء سوى الأكادية كوسيلة للاتصال؛ وكان السجل المكتوب (خارج نطاق الأدب) مدوّناً بهذه اللغة حصراً منذ بداية الألف الثاني قبل الميلاد.

وفي الأيام المبكرة، كان هناك شيء من التكافؤ، وربما شيء من التخصص في المهمات، كما هو الحال بين الأكادية والسومرية. وقد لاحظنا آنفاً أن ابنة سرجون نفسها كانت شاعرة تتقن النَظْم باللغة السومرية. ولكن ثنائية اللغة أثبتت أنها غير مستقرة. فبينما كانت الأكادية محصّنة باعتبارها اللغة الكبرى في الهلال الخصيب، باستخدامها اليومي لكل أغراض معرفة القراءة والكتابة، مع درجة من الفهم المتبادل مع اللغات السامية السائدة على جهة الغرب فإن السومرية لم يكن يضمنها إلا دورها في التعليم والثقافة. وكانت فترة نشوء بابل ونهوضها (من 2000 إلى 1600 ق. م.) تحتضن ذلك وتغذّيه، ولكن عندما تبعثرت قواعد القوة، وسيطر على الوضع حكام أجانب (هم الكاسيون) فلا بد أن التعلم الجاد للغة السومرية صار يبدو غير ذي صلة. فتم الاحتفاظ بها

(*) لم يكن للعموريين تقليد خاص بهم من معرفة القراءة والكتابة. ولكن لغتهم يمكن إعادة تركيبها جزئياً عند اقتباس أسمائهم بلغات أخرى هي في العادة السومرية. وهذا يعطي صلة باللغات السامية الغربية المتأخرة فيما بعد، مثل الأوغاريتية والفينيقية والعبرانية، التي لا تظهر في السجل المكتوب لمدة خمسمئة عام أخرى أو أكثر. وبما أنه كان هناك ميل لإطلاق أسماء هي جمل كاملة، فإنها تعطي صورة للغة أكمل مما كان متوقعاً: آيا دادو؟ معناها 'أين دادو؟' وشوب آدوو معناها 'عُد يا آدو!' وياشوب - إيلو، ومعناها 'الإله يعود'، وسامسو إيلونا، ومعناها 'الشمس إلهنا'.

فقط كمساعد للدراسات الأكادية، على طريقة الاحتفاظ بقائمة من المقاطع أو الحروف اللاتينية الزائدة التي لا تزال توجد أحياناً في آخر قاموس إنكليزي.

ولقد ثبت أن هذه الفترة 'البابلية القديمة' كانت ذات أهمية بالنسبة للأكادية تعادل أهميتها بالنسبة للسومرية، ولكن بطريقة مختلفة. ففي هذه الفترة هناك فوارق طفيفة في اللهجات يمكن ملاحظتها أولاً بين الجنوب (البابلي) وبين الشمال (الآشوري). كما يبدأ ظهور لهجات مختلفة من الأكادية في مجالات أبعد، في ماري، وفي سوسة، وإلى الشرق في وادي ديالى. فهناك رسائل موجودة من جميع الفترات. وهي تقدم أفضل دليل على اللغة المحكية.

وفي الوقت نفسه، فإن لهجة بابل (التي كان البابليون أنفسهم يسمونها اكادو) ترسخت وأصبحت هي اللهجة الأدبية القياسية، التي سوف تستخدم النسخة الكلاسيكية الفصحى منها للأغراض الرسمية في جميع أنحاء وادي الرافدين. ولقد استمر هذا المركز المتميّز طيلة باقي تاريخ اللغة، وبصورة جوهرية بغضّ النظر عما إذا كانت بابل، أم آشور، أم سواهما، هي المركز السائد للقوة السياسية. والنموذج العظيم للغة البابلية الكلاسكية التقليدية هو قوانين شريعة حمورابي التي تم تجميعها في القرن الثامن عشر قبل الميلاد، عندما كانت هذه اللهجة لا تزال هي العامية الدارجة. ولكن أفضل النصوص الأدبية المعروفة، مثل ملحمة جيلغامش وإينوماعليش (أي 'عندما في الأعالي'، وهي ملحمة الخليقة) هي أيضاً بهذه اللهجة، وقد كتبت بها، عندما لم تعد هي السائدة.

وفي الشمال، قدر للأكادية أن تتلاشى في حوالي العام 600 ق.م. لتحل محلها الآرامية بشكل كامل. ولكن استخدامها استمر في بابل حتى بداية القرن الأول الميلادي؛ ويبدو أنه عند حلول هذه المرحلة كان الجزء الأكبر من معرفة اللغة في أيدي كتاب محترفين، يقرؤون، ويكتبون، ويترجمون حتى الرسائل الشخصية - ولكن بدون تدخل من الآرامية التي كانوا يفكرون ويتحدثون بها بالفعل.

وإلى جانب استخدام الأكادية كلغة محلية من قبل معظم سكان وادي

الرافدين، ودورها التاريخي كأول لغة للساميين لمعرفة القراءة والكتابة في أي مكان، فقد أدت دوراً أوسع كلغة مشتركة بين أناس أجانب تماماً. فكيف صار ذلك ممكناً؟ كان السبب يعود في آخر الأمر إلى ارتباطها بأعقد تقنية في عصرها، أي الكتابة.

والدليل الأول على هذا الانتشار العالمي هو نشاط التجار الآشوريين في أناضوليا الوسطى بعيداً إلى شمال جبال طوروس في مجمع من مراكز التسوق (أو كاروم) مقام بين نيساس وهاتوساس (كولتيب وبوغاز كوي على الخرائط الحديثة). وكان ذلك في الربع الأول من الألف الثاني قبل الميلاد، 1950 ـ 1750 ق.م. وكان التجار يأتون من عوائل آشور الغنية، ويستخدمون قوافل الحمير للتنقل عبر جبال طوروس. وكان دافعهم لذلك المتاجرة بالمعادن: فقد وجدوا مصدراً للفضة، والذهب، والنحاس. وفي الاتجاه المعاكس كانوا يجلبون القصدير، واللباد المصنوع من شعر الماعز، والمنسوجات المحبوكة، والعطور. ويظهر أن التجّار كانوا مستعدين لدفع رسوم للسلطات الحاتّية المحلية. وهذا معروف من المراسلات التجارية (على ألواح طينية في مظاريف طينية) خلّفوها وراءهم، مكتوبة بالآشورية القديمة، وهي إحدى لهجات اللغة الأكادية.

ويبدو أن التجارة قد أنهيت حوالي العام 1750 ق.م. ربما بسبب الغارات الحورّية، وربما بفعل التحركات الأولى للتوسع الحثي، وحملات ملوك كوسارا. غير أن ذلك كان ذكرى بعيدة عند حلول وقت عثورنا عليه موصوفاً في أقدم التواريخ المتسلسلة لدى الحثيين أنفسهم، والمكتوبة في منطقة نيساس ـ هاتوساس بعد ذلك بحوالي أربعمئة عام. وهذه التواريخ بالطبع مكتوبة بالخط المسماري، مع استعمال وفير للعلامات السومرية والأكادية التي تمثل كلمات كاملة، وهي نفسها مشتقة من التقليد الأكادي.

فالحثيّون يقدمون مثلاً واحداً فقط على كيفية الأخذ بالأكادية من قبل الطبقة المتعلمة في الدول المحيطة. ففي الألف الثاني قبل الميلاد، كان هناك تدريس للأكادية واستعمال لها في كل عاصمة ومدينة كبيرة في المناطق المحيطة بوادي الرافدين، بغضّ النظر جوهرياً عن اللغة المحلية السائدة فيها. وبمجرد

تتبع الوثائق التي عثر عليها حتى الآن، والتي يعود تاريخها إلى منتصف الألف الثاني قبل الميلاد، نستطيع أن نرى أن نظام 'إيدوبا' السومري نفسه كان يمارس في سوسه بالنسبة للناطقين بالعيلامية، وفي نوزي (يورغان تيب الحديثة قرب كركوك) بالنسبة للحوريين، وفي هاتوساس بالنسبة للحثيين واللاويين، وفي آلالاه وأوغاريت قرب ساحل الأبيض المتوسط بالنسبة للناطقين بلغات سامية أخرى وكذلك بالحورية، وفي أختاتان (التي صارت عاصمة لمصر فترة قصيرة) بالنسبة للمصريين.

وكانت هناك ظلال فوارق دقيقة في الأوضاع اللغوية للأمم المختلفة: وعلى سبيل المثال، يبدو أن عيلام كان فيها في هذه الفترة قطاعات مختلفة من السكان يستخدمون الأكادية بشكل غالب (في السهل الشمالي) أو العيلامية (في الجبال إلى الجنوب)، بينما كانت هناك ثنائية لغوية على وجه العموم في أوغاريت، بحيث إن النصوص الأكادية الموجهة للاستهلاك المحلي كانت مزخرفة بتعليقات تفسيرية هامشية متفرقة باللغة الأوغاريتية[22]. ولكن مهما كان الوضع المحلي، فقد كان يبدو أن الممارسة العامة هي استخدام الأكادية للمراسلات الدولية، وكثيراً ما كانت تستخدم في المعاهدات.

والمثال التقليدي الكلاسيكي على ذلك هو مراسلات تلّ العمارنة، وهي حشد من الرسائل الدبلوماسية من القرن الرابع عشر قبل الميلاد عثر عليها في موقع العاصمة المصرية آنذاك. فهناك 350 رسالة مع ملحقاتها في هذه المجموعة، وكلها باللغة الأكادية ما عدا ثلاث رسائل (منها اثنتان بالحثية وواحدة بالحورية).

ومن المثير للاهتمام أن يتأمل المرء في طريقة تأدية الأكادية لهذا الدور كلغة دولية مشتركة. ذلك أن منتصف القرن الثاني قبل الميلاد لم يكن فترة مجيدة للناطقين باللغات السامية. ففي العام 1400 ق.م. كانت بابل قد مضى عليها قرنان وهي تحت سيطرة الكاسيين المُحكمة. وكانت آشور قد مضى عليها قرن وهي تابعة للميتانيين. أما في سوريا الشمالية فقد كان الحثيون يصارعون ضد السيطرة الميتانية الراسخة. وكانت بقية فلسطين مجموعة من الولايات التابعة تحت سيادة مصرية.

فلم يكن النفوذ السياسي الحديث إذن هو الذي جعل الأكادية اللغة المناسبة في ذلك الوقت. وكان التفسير الوحيد ثقافياً، وهو على وجه الدقة قضية معرفة القراءة والكتابة، وثقافة كتاب 'إيدوبا'.

وباستثناء مصر، وشركائها الفينيقيين في التجارة، كانت كل واحدة من القوى قد أصبحت عارفة بالقراءة والكتابة في غضون الألفية السابقة عن طريق استيعاب الثقافة المسمارية لسومر وأكاد. وكما رأينا فقد كان نظام الكتابة هذا شديد الالتزام بلغاته الأصلية، وقد اخترقته رموز لفظية لم يكن لها معنى مفهوم إلا في سياق التورية والمجازات اللغوية بالسومرية والأكادية. ويتم تدريسه عملياً من خلال استنساخ واسع النطاق لكلاسيكيات الأدب السومري والأكادي التقليدية. ورغم أن بابل وآشور كانتا تتطلعان لأن تكونا إمبراطوريتين عالميتين ـ وكانت كل منهما ترى نفسها مرة أخرى على الأقل كسيدة للهلال الخصيب بكامله ـ فقد كانت سيطرتهما الثقافية كلها تقريباً هي قضية دورهما القيادي في تكنولوجيا لغوية مشتركة.

إن السؤال الكبير التالي، والأخير، في تاريخ اللغة الأكادية، هو لماذا انتهت سيطرتها، واستخدامها فعلاً. إن أحد الدروس التي يعلمها تاريخ هذه اللغة بالفعل هو أن حياة اللغات وموتها منفصلان من حيث المبدأ عن المصائر السياسية للدول المرتبطة بها. فمن الغرائب أنه عندما بلغت الأكادية ذروة نفوذها وامتدادها أثناء الكسوف الطويل للقوة الآشورية البابلية، فإن أفولها بدأ عندما كانت الإمبراطورية الآشورية في أوج قوتها.

وتتعمق المفارقة كلما تأمل فيها المرء عن قرب أكثر. فلم يقتصر الأمر على حلول لغة أخرى محل الأكادية وهي في ذروة تأثيرها السياسي، بل إن الآرامية التي حلت محلها كان المتكلمون بها هم البدو الرحّل حتى وقت قريب. وهم أناس لم يكن بوسعهم الادعاء بأن لهم أي ميزة ثقافية. ولم يكن من المحتمل أنهم سيقيمون حضارةً منافسة. بل كان المتوقع هو أنه كما حدث للكاسيين في بابل قبل ثمانمئة عام، فإن الناطقين بالآرامية سوف يذوبون لغوياً وثقافياً ليتم استيعابهم في تقليد وادي الرافدين العظيم. فرغم كل شيء كانت

هناك أشياء مماثلة ستحدث لآخرين اقتحموا إمبراطوريات عظيمة - كالجرمان الذين غزوا الإمبراطورية الرومانية أو المغول الذي غزوا الإمبراطورية الصينية.

ولكن أكبر المفاجآت التي جاء بها الناطقون بالآرامية كانت في المجال الثقافي. فقد تم استيعابهم إلى حد كبير فعلاً في الثقافة الأكادية، بالتأكيد. ولكن كان هناك جانب حسّاس الأهمية لم يتم فيه ذلك الاستيعاب، وهو تكنولوجيا اللغة الصانعة لفترات التحوّل الهامة. فمع الآرامية جاء تقليد جديد للكتابة. وهو استعمال النص الأبجدي. ومع هذه الثورة في تمثيل اللغة جاءت مواد جديدة للكتابة: فراح الناس يدوّنون ملاحظاتهم ويكتبون سجلاتهم الرسمية ونصوصهم الأدبية بشكل متزايد على وسائط جديدة هي صفائح البردي أو الجلود المدبوغة.

فتغلغلت هذه التغيرات إلى قلب الثقافة الآشورية والبابلية، إلى درجة أن الرأي التقليدي هو أنها تفسر انتصار الآرامية كلغة. وهكذا فإن جورج رو على سبيل المثال كتب يقول: 'ومع ذلك فقد قدّر لهؤلاء الآراميين البرابرة التميز بفرض لغتهم على الشرق الأدنى بكامله. ويعود الفضل بذلك جزئياً إلى ثقل وزن عددهم من جهة، ومن جهة أخرى إلى أنهم أخذوا بالأبجدية الفينيقية مع تعديل طفيف بدلاً من الكتابة المسمارية الثقيلة المرهقة، وحملوا معهم في كل مكان نصوص الكتابة العملية البسيطة للمستقبل'[23]. وكتب جون سوير: 'إن نجاح الآرامية يعود بشكل أساسي لا شك فيه إلى أنها كانت تكتب بخط أبجدية سهلة نسبياً'[24].

ولا يمكن أن يكون هذا صحيحاً. إذ إن الأنظمة الكتابية بعد كل شيء توجد لتسجيل ما يقوله الناس، وليس العكس. فليس في التاريخ حالة أخرى يؤدي فيها التغير في تقنية الكتابة إلى تغير في كلام الشعب. وحتى لو كان ذلك ممكناً، فإنه بعيد الاحتمال بشكل خاص في مجتمع كالإمبراطورية الآشورية، حيث لم يكن يعرف القراءة والكتابة إلا نسبة ضئيلة من السكان آخذة في التلاشي. فالأهمية الحقيقية للتغير في نظام الكتابة الذي جاء مع الآرامية هي إعطاء بعد إضافي للمفارقة الآرامية: كيف تسنى لمجموعة متنقّلة وخانعة سياسياً كالآراميين أن لا تكتفي بنشر لغتها فحسب، بل أن تجعل نظامها الكتابي مقبولاً في صفوف سادتها الثقافيين والسياسيين الآشوريين والبابليين؟

إن الجواب يكمن في أثر غير متوقع للسياسة العسكرية الآشورية.

فقد لاحظنا آنفاً أولى الاتصالات العدائية بين الآراميين الرحّل وبين الآشوريين عند نهاية القرن الثاني عشر قبل الميلاد. فالآراميون الذين جاؤوا من بادية الشام الشمالية تمكنوا من الاستقرار في جميع المناطق المسكونة في ذلك البلد، والمفروض أن ذلك قد تمّ بقوة السلاح. فلم يحصروا أنفسهم بمنطقة دمشق، بل انتشروا في الشمال، والجنوب، وأهم من ذلك في الشرق. فصارت منطقة أعالي الفرات كلها، فيما بين نهري البليخ والخابور تعرف باسم "آرام نهرايم"، أي 'آرام الأنهار'. وكان تقدّمهم جنوباً نحو بابل ثابتاً: فحطّموا معبد شمش في سيبار في منتصف القرن الحادي عشر قبل الميلاد. وعند حلول القرن العاشر كانوا قد استقروا حول بابل بحيث قطعوها عن ضاحيتها بارسيبا، وبذلك منعوا الاحتفال بمهرجان العام الجديد احتفالاً مناسباً، وهو مهرجان كان يقتضي سير مواكب أصنام مردوخ ونابو من بابل وإليها. وفي تلك الأثناء، لم تستطع المقاومة الآشورية في الشمال أن توقف تقدمهم، وعند بداية القرن التاسع قبل الميلاد كانوا على ضفاف دجلة نفسه.

وجاءت أول مقاومة ناجحة من الملك الآشوري آدد - نيراري (911 - 891 ق.م.) الذي طرد الآراميين من وادي دجلة ومن جبال كاشياري إلى الشمال. وبعد ذلك بدأ الملوك الآشوريون سياسة شن حملات سنوية ضد أحد جيرانهم، فكانت سياسة عدوان غير محدود استمرت أكثر من مئة وخمسين عاماً، فلم تتوقف إلا عندما اتجه العدوان إلى الداخل أثناء الحروب الأهلية الكبرى من العام 827 إلى العام 811 ق.م. ومن العام 754 إلى العام 745 ق.م. وفي غضون مئة عام كان الهلال الخصيب كله تحت سيطرتهم، مع بلاد الأناضول الجنوبية حتى طرسوس، وشرائح واسعة من عيلام في الشرق. وعلى مبعدة في الميدان شنوا حملة عقابية في عمق أورارتو (في أناضوليا الشرقية) وحتى غزوا مصر لفترة قصيرة لم يتعزز فيها ذلك الغزو.

كانت تلك أياماً مجيدة لآشور بحق، ولكن يبدو أن ذلك كان هو الهدف الوحيد من تلك الحروب، فبعد كل انتصار كانوا يفرضون غرامة مدمّرة على

المدينة أو القبيلة المغلوبة. وليس هناك دليل في المراسلات التجارية الآشورية أو في سجل الآثار على أي محاولة لاحقة لنشر الثقافة الآشورية بعد ذلك، أو حتى لإقامة طبقة حاكمة على قاعدة أوسع. فكانت الثروة تنقل في اتجاه واحد، وعلى حدّ السيف. ومن عهد تغلات بيلسر الثالث (744 ـ727 ق.م.) إلى عهد سنحاريب (704ـ681 ق.م.) أضيف تكتيك جديد: فقد راح الآشوريون ينقلون حشوداً كبيرة من السكان المغلوبين إلى منطقة نائية من الإمبراطورية. وتنسب التقديرات سبعاً وثلاثين عملية نفي إلى تغلات بيلسر الثالث (لما مجموعه 368,543 شخصاً) وثمانياً وثلاثين عملية نفي إلى سرجون الثاني (وصل مجموع المنفيين فيها إلى 217,635) وعشرين عملية نفي إلى سنحاريب (مجموع المنفيين فيها وصل إلى 408,150). وينسب إلى الآشوريين أنهم نفوا ما مجموعه حوالي 5.4 ملايين شخص على مدى ثلاثة قرون[25].

وقد انطوت غالبية عمليات النفي هذه على منفيين ناطقين بالآرامية، رغم ان أشهرها تمّت على يد سرجون الثاني ضد السامرة، عاصمة إسرائيل في العام 721 ق.م. وربما تكون قد شملت ناطقين بالعبرانية:

> في بداية حكمي، أخذتُ مدينة السامريين للإله ...الذي أتاح لي تحقيق هذا النصر. فأبعدت 27,290 من السكان مساجين وسلّحت منهم جنوداً ليملؤوا خمسين عربة من حراستي الملكية ... وأعدت بناء المدينة بأفضل مما كانت من قبل وأسكنت فيها أناساً من بلدان كنت قد فتحتها بنفسي. ووضعت واحداً من ضباطي حاكماً عليهم وفرضت عليهم إتاوة كالمواطنين الآشوريين[26].

وتعطي التوراة العبرانية (في سفر الملوك الثاني، الإصحاح 17: 6، 24) تفاصيل أكثر عن الأماكن التي أرسل إليها المسبيّون الإسرائيليون (بما في ذلك آرام نهرايم على نهر الخابور، والطرف الشرقي الأقصى من الإمبراطورية في ميديا) وعن الناس الذين أرسلوا ليحلوا محلهم (وكان من بينهم بعض البابليين).

وبين الحين والآخر تعطي المراسلات نظرة معمقة عن كيفية رؤية الناس

لهؤلاء الأسرى المنفيين عند وصولهم إلى وادي الرافدين[27]. فهناك رسالة إلى الملك تقارن "قنات شا نينوى لابيروتي" أي 'عائلات نينوى المقيمة فيها منذ زمن طويل' مع "ناسي آني"، أي 'محدثي النعمة' و"الشاغلوتي"، أي 'المنفيين'، وهي كلمة ربما كانت تحمل معنى آخر على سبيل التورية هو "شاكلوتي"، أي 'الجهلة'. ولكن من الواضح أن الأشخاص ذوي الأسماء السامية الغربية كانت توكل إليهم على الأغلب مسؤولية هامة.

وهذه البعثرة للشعوب الخاضعة للآشوريين يمكن رؤيتها كسياسة دهاء لتوحيد سكان الإمبراطورية المتنوعين بواسطة فصلهم عن تقاليدهم - وهذا حل بفرض 'بوتقة صهر'[28]. وكما نكر النص المقتبس أعلاه، فإن جميع المنفيين ينبغي 'اعتبارهم آشوريين'، وبهذا الاعتبار فإن من واجبهم أن 'يخافوا الله والملك'.

وكانت هناك سياسة جديدة أخرى تميل إلى هذا الاتجاه، لتحصين وحدة الإمبراطورية، وتجنيد حرس ملكي يتم اختيارهم من مقاطعات أخرى غير مقاطعات وادي الرافدين، لتكميل القوات الآشورية ذات التنظيم الإقطاعي. والواقع أن من الشائع تماماً بروز حملة الأسماء السامية كضباط في الجيش الآشوري. وكانت هناك شهرة خاصة لقوة "إيتو آيا"، المكونة من الآراميين من قبيلة "إيتو"، التي تظهر في كثير من المواقع الساخنة، مكلفة بسحق العصيان ضمن المقاطعات البابلية[29].

وإذن فقد كان الوضع في الهلال الخصيب على مدى الفترة الممتدة من القرن الحادي عشر إلى القرن الثامن قبل الميلاد هو وضع جريان شديد التدفق للسكان. وكان الآراميون قد استقروا في المنطقة كلها قبل قرنين من تلك الفترة. ورغم أنهم في قرنيها الأخيرين كانوا تحت سيطرة الدولة بشكل أكثر فعالية، فقد عملت السياسة الآشورية على توزيعهم بشكل أوسع، وليس على دفعهم إلى الوراء، وذلك عن طريق تهجيرهم بالقوة، أو تجنيدهم في القوات المسلحة. وبما أن الآراميين كانوا أكبر مجموعة تتم بعثرتها بهذه الطريقة، عندما وجد ساميون غربيون آخرون أنفسهم مقتلعين ومزروعين في

أماكن أخرى، مثل الفينيقين والإسرائيليين، فقد وجدوا أنفسهم يتكلمون أكثر فأكثر مثل جيرانهم الجدد(*).

وهكذا فقد تدبر الآشوريون أمر تعزيز انتشار لغة مشتركة جديدة في أنحاء ممتلكاتهم، لغة لا تعتمد على معرفة القراءة والكتابة أو على أي تقليد تعليمي مشترك. فكانت فائدتها الفعّالة تتزايد مع توسّع الممتلكات الآشورية أكثر. كما أن السكان الناطقين باللغات السامية الغربية، الذين كانت غالبيتهم من الناطقين بالآرامية، راحت أعدادهم تزيد أكثر فأكثر عن أعداد سكان وادي الرافدين الأصليين الذين كانوا يتكلمون الأكادية. وقد حافظت الطبقة الحاكمة على الاستمرارية في مدن العاصمة الثلاثية آشور، ونينوى، وكالهو (نمرود)، ولكن في الأماكن الأخرى كان هناك تدفق اجتماعي متزايد، بحيث تعيّن على الناس أن يفسحوا مجالاً لإسكان القادمين الجدد. وفي بابل على وجه الخصوص لا بد أن ذلك قد حدث في وقت مبكر من قبل.

ولم يكن القادمون الجدد يعجزهم نقص الفن الأساسي للحضارة، أي معرفة القراءة والكتابة. ورغم أن الآراميين قد ظهروا في الأصل كبدو رحّل، المفروض أنهم أميون، فإنهم حتى قبل الألف الأول الميلادي كانوا قد بدؤوا يستولون على المدن (وأبرزها دمشق)، وعلى أقطار بكاملها (كآخر مملكة حثّية، عاصمتها زينتشرلي الحديثة، في المقاطعة التركية التي لا تزال تعرف باسم هاتاي)، وهكذا فإن كثيراً من الآراميين بدؤوا يعرفون قيمة الكتابة. وبما أن المدن التي عرفوها كانت في الغرب، فإن نظام الكتابة الذي قدّر لهم أن يتعلموه كان بسيطاً وأبجدياً.

وعند انتقالهم نحو الشرق، لا نستطيع إلا أن نفترض بأن معرفة القراءة والكتابة بالأبجدية قد انتشرت في صفوف بعضهم على الأقل، لأن المواد الجديدة، من الحبر والبردي أو الجلد المدبوغ عرضة للتدهور الحيوي ولا تبقى في السجل الأثري. والواقع أن أقدم الكتابات المنقوشة بالآرامية، التي لا يمكن

(*) كان هذا في آخر الأمر هو ما حدث بالضبط للقبائل المختلفة من الآنغل، والساكسون، والجوت، والدانمركيين الذين استقروا مع الفريزيانيين في بريطانيا في الألف الأول الميلادي. فكانت النتيجة ظهور اللغة الإنكليزية الوسطى التي هي أقرب ما تكون إلى الفريزيانية.

تمييزها بوضوح عن اللغات الكنعانية في ذلك الوقت، تعود إلى منتصف القرن التاسع قبل الميلاد[30]. ولا بدّ أن الفوائد العملية القصيرة الأجل للوسائط الجديدة (الحجم الأقل والقدرة الأكبر) قد أثبتت وجودها. ودرجت في الاستعمال كلمة جديدة من اللغة الأكادية هي "سبيرو"، التي معناها 'الكاتب'، بدلا من الكلمة القديمة "طوبسارو" التي معناها 'الناقش على الطين'، وهي كلمة تعود تماماً إلى الكلمة السومرية، القديمة "دوبسار". وهناك صور للكتبة المنهمكين في عملهم تظهرهم أزواجاً أزواجاً في منتصف القرن الثامن قبل الميلاد، فأحد الاثنين يحمل منقاشاً ولوحاً من الطين، والآخر يحمل ريشة وصفحة من البردي أو الرقّ. وكما كان الحال مع البدء بآلات الحاسوب، لا بد أن الموظفين المكتبيين البيروقراطيين الجيدين قد ضمنوا تواجد القديم والجديد معاً لفترة طويلة: 'فالمكتب الخالي من ألواح الطين' لم يوجد في آشور قبل تدمير إمبراطوريتها على أيدي الميديين في العام 610 ق.م[*].

وكانت النتيجة الصافية على ما يبدو هي أن استعمال الأكادية في الكلام راح يتراجع أمام الآرامية حتى بدون نأمة تذمر أو غمغمة احتجاج. فهناك ضابط في مدينة أور يستأذن في أن يكتب للملك باللغة الآرامية[31]. ولكن لم يتم العثور على شكوى من المتفاصحين أو المتشددين في أي لوح طيني أكاديّ. وأقرب شيء إلى ذلك لدينا مراسلة بين كاتب وبين الملك سرجون (721 ـ 705 ق.م):

> الكاتب: أرجو من مولاي أن يسمح لي بكتابة وثيقة [بالآرامية].
> سرجون: ولماذا لا تكتب بالأكادية؟[32]

والحق أنه حسب دليل نمط الكلمات التي استعارتها الأكادية من الآرامية، في مقابل الكلمات المستعارة بالاتجاه المعاكس، كان هناك زعم ظهر في وقت حدوث التغيير بأن الأكادية هي اللغة الأقل تفضيلاً لأن الذين كانوا يكتبونها كان جوهر

(*) أما في بابل فقد كان بعض المحافظين العنيدين لا يزالون يكتبون بالأكادية على ألواح الطين بعد ذلك التاريخ بستة قرون.

تفكيرهم يتم بالآرامية، بينما كانوا يصارعون (ويفشلون) لإبعاد الأفعال بلغتهم الآرامية عن أذهانهم[33].

إن انتصار الآرامية على الأكادية يجب تفسيره على أنه انتصار الاستفادة العملية على امتياز النفوذ القديم. ولكن الاستفادة جاءت بالدرجة الأولى من أن عدداً كبيراً من الناس كانوا ينطقون بالآرامية. كما أن نظام الكتابة المرتبط بها كان تعلمه أسهل وأسرع، فكانت هذه نقطة تفوّق إضافية أزالت حجة ربما كانت ستدفع قطاعات من السكان الناطقين بالآرامية إلى تعلم الأكادية أيضاً. فما الفائدة من ذلك أصلاً؟ ما دام المرء لن يتم قبوله إلا على أنه "شاغلوتي"، (أي 'من المنفيين والجهلة'). فحتى البلاط الملكي كان يأخذ باللغة الآرامية.

وكما حدث للسومرية ذات مرة، فقد وقعت الأكادية ضحية لغة جديدة جاء بها البدو والقادمون الجدد، وتبعت ذلك حالة من ثنائية اللغة بدون استقرار، ومعها موت اللغة القديمة.

وفي مثل هذه الأوقات، كانت الحجة الوحيدة لصالح التعليم باللغة الأكادية هي الحفاظ على الصلة مع آداب الألفي عام الماضية، ومع تقاليد العظمة والفخامة المرتبطة بالمدن الكبرى في وادي الرافدين. فقد استمرت تلك الآداب والتقاليد بالعيش في بابل كلغة كلاسيكية طيلة ستة قرون بعد موتها المحتمل: فلم يقتصر الأمر على استخدامها من قبل آخر سلالة بابلية حاكمة (625 ـ 539 ق.م.) لتسجيل تسلسل تاريخ حكمها، رغم كونها مستخرجة من أصل كلداني (أي آرامي)، بل إن الغزاة الاجانب، كورش (557 ـ 529 ق.م.) وكسيركسيس (485 ـ 465 ق.م.) الفارسيين، وحتى الإغريقي أنطيوخوس سوتر (280 ـ 261 ق.م)، تركوا كلهم نصوصاً مكتوبة باللغة الملكية لتمجيد عهودهم. ولقد كان هناك بالتأكيد صدى رنان جديد، يصفه البعض بأنه بربري، عندما استطاع ملك يوناني ان يكتب: 'أنا أنطيوخوس، الملك العظيم، الملك الشرعي، ملك العالم، ملك E [بابل]، ملك جميع البلدان، راعي معبدي إيساجيلا وإيزيدا، الابن البكر لسلوقس [المقدوني]، ملك بابل'[34].

ولكن لم يكن هناك سوى قلائل ممن يفهمون هذه الكلمات(*).

الفينقية ـ تجارة بلا ثقافة: كنعان، والتوجه غرباً

מִי כְצוֹר כְּדֻמָה בְּתוֹךְ הַיָּם

mī k̲ə-ṣōr kə-d̲umāh bət̲ōk̲ hayyām

مَن كانَ شَبيهاً بصُورَ في وَسَط البَحْرِ(**)

حزقيال 27: 32

نشأت أخوات كنعان معاً، ولكنهن انطلقن بعد ذلك في دروب للحياة شديدة الاختلاف.

أما فينيقيا (التي لم يكن هذا اسمها الحقيقي، ولكنه يستحضر اللون البرّاق الذي اشتهرت به(***))، فقد اختارت الحياة الراقية، فصارت مرتبطة بالمجوهرات،

(*) وكما يحدث، فإن آخر ما نسمعه عن الأكادية يأتي من قاص سوري يكتب باللغة اليونانية في القرن الثاني الميلادي هو أيامبليخوس (ومن الواضح أن اسمه الغريب آرامي، أو عربي، يا ـ ملك أي 'ليته يملك') الذي قال إنه تعلم اللغة البابلية من معلّمه البابلي الخاص، وهو رجل 'عالم بحكمة البرابرة'. (والمصدر الثالث لهذا الكلام يمكن تعقب آثاره من كتاب ستيفن ووينكلر الصادر في العام 1995، ص 181).

(**) تحتوي العبرانية والفينيقية على بعض التعقيدات النحوية في قواعد التهجئة: فمعظم توقفات الحروف الساكنة تلفظ كاحتكاكات في منتصف الكلمة. ونحن نمثل ذلك في حروفنا الرومانية بحروف تحت السطر أو فوقه: فأصوات الباء والدال والكاف والياء والطاء تلفظ على شكل ثاء، وذال، وغين (كصوت الغرغرة) وخاء، وفاء، وثاء. والنقاط تحت السين والتاء والدال في الفينيقية والعبرانية والعربية تعني أنها تلفظ مع التشديد عليها، مما يعطيها صفة حلقية فاترة.

(***) لم يتم التوصل أبداً إلى اتفاق حول سبب انتقاء اليونانيين لكلمة 'فينيق' لوصف هؤلاء التجار الساميين المتجولين. فمعناها الحرفي هو 'نخيل التمر' (أو حتى الاسم الأسطوري لطائر الفينيق) ولكن ارتباطها بكلمة فونيوس أو فوينيوس، أي 'الملطخ، الأحمر الدامي' ظل دائماً ماثلاً في الأذهان، لأن الفينيقيين كانوا مجهزي البضائع والمنسوجات المصبوغة باللون الأرجواني بامتياز، وكانوا يربون المريق (وهي الرخويات البحرية الصدفية التي تنتج صبغاً أرجوانياً) على نطاق صناعي. وإن ارتباط اللون بهذا الجزء من العالم يتخطى اللغة اليونانية: فالكلمة الأكادية التي تعني الأرجواني، وهي 'كيناعو' مشتقة من المكان المسمى كناعن أي 'كنعان'، (بلاك وشركاه، 2000: sv). ورغم أن العبرانيين أنفسهم عاشوا في كنعان، فقد استخدموا كلمة "كنعاني" كما استخدم الإغريق كلمة 'فينيقي' للدلالة بلا فرق على الفينيقي أو على التاجر. ويبدو أن هذا هو ما أطلقه الفينيقيون على أنفسهم.

والملابس الفاخرة وكل نوع من الفخفخة، وقامت برحلات مترامية وصارت معروفة وحائزة على الإعجاب في أفضل الدوائر الاجتماعية. ويقلدها الكثيرون على نطاق واسع في مهاراتها الصقيلة المعقدة في مجال الاتصالات. وقد أحاطت نفسها بأكثر الناس إبداعاً وذكاءً وثراءً في عصرها. وباعتبارها مضيفة بارعة فقد جعلتهم على اتصال ببعضهم بعضاً. وكانت لها ابنة هي إيليسا التي ربما لم تكن لامعة ومتعددة القدرات كأمها، ولكنها أقامت منزلها العائلي الخاص بها، وتابعت العمل لتوسيع شبكة أمها عندما كانت طاقات فينيقيا آخذة في الأفول.

وأما الأخت الأخرى، جوديث، فكان لها شباب غامض وربما سيئ السمعة، ولكنها استقرت فيما بعد في حياة هادئة في بيتها. فلم تكن تجرؤ على الخروج بعيداً عن حيها المحلي، واقتنعت بالاقتصار على تأدية واجباتها المحلية. ورغم كل ملازمتها للبيت، فقد كان الكثيرون يعتقدون أنها كانت تقدر نفسها تقديراً عالياً أكثر من اللازم، وقد لقيت صعوبات كبيرة مع المتنمرين المحليين: فكانت بين الحين والآخر تتعرض للهجوم في عقر دارها، وجرها منها وهي تصرخ: وفي آخر الأمر فقدت بيتها بالمرة. فكان كل ما يمكنها عمله هو أن تحاول البقاء أينما اقتيدت، بطريقة مثابرة ولكن غير جازمة، معتمدة قبل كل شيء على ذكرياتها عن منزلها كما كانت تديره ذات مرة، وعلى إخلاصها الديني المتفاني الذي لا يتزحزح. ولم يكن لديها أطفال ولكنها كانت تتصرف بين الحين والآخر كحاضنة أطفال أو مربية لا تشعر بالتثبيط حتى ولو لم تتلق أي امتنان أو ولاء ممن هم في عهدتها.

وقد قلب العالم مصائر هاتين الأختين، فعلى الرغم من سيرة حياة فينيقيا البراقة، وطبيعتها المدبرة وكل شعبيتها، فقد اختنقت بطريقة مفاجئة تماماً دون أن تترك وراءها أي ذكرى بين الناس الذين كانت تزورهم أو تحرضهم أو تذهلهم لمدة طويلة، وقد خلدت ابنتها ذكراها فعلاً، ولكن عملها هذا لم يكن له مصير أفضل في آخر الأمر: فقد أصابها أحد منافسيها بجرح قاتل، ففقدت كل جمالها وثروتها، ثم ذوت وتلاشت إلى لا شيء.

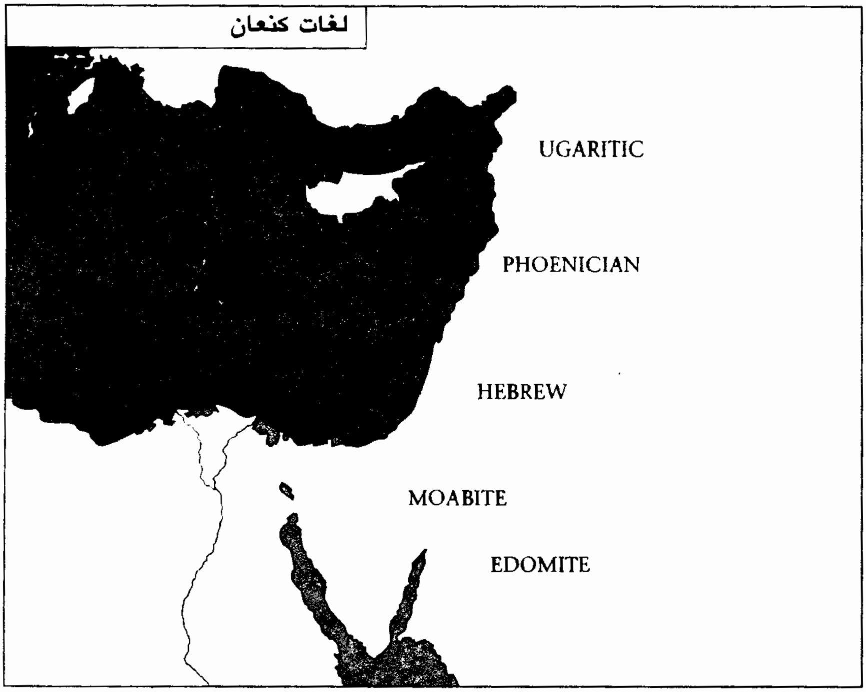
وهكذا بدا الأمر وكأن فينيقيا وابنتها لم توجدا قط. ومع ذلك فإن جوديث لا تزال معنا، وكثيراً ما تتعرض للسخرية والإهانة المخزية - وخاصة من قبل

الأطفال الذين هم في عهدتها والغاضبون منها بصورة غريبة ـ ولكنها كما يظهر ثابتة متماسكة لا تعرف الاستسلام، بل لقد عادت مؤخراً إلى بيتها القديم، ويبدو أنها بذلك كسبت فرصة جديدة للبقاء.

إن هذا المثل الرمزي الصغير يبرز سخرية القدر الغريبة في مصائر لغات أرض كنعان. فالعبرانية (التي كثيراً ما تسمي نفسها "اليهودية"، أي 'ابنة يهودا')، والفينيقية هما اثنتان من لغات كنعان القديمة، واللغات الأخرى هي العمّونية، والمؤابية، والأدومية، وهي اللغات المحكية في شرقي نهر الأردن. وكانت هناك الأوغاريتية أيضاً، وهي لغة محكية على الساحل في شمال فينيقيا. وكلها ربما تكون قد بدأت كلغات للقبائل الرحالة في هذه المنطقة، ومن البدو المغيرين Habiru العابرين. ولكن بعضهم استقروا على ساحل لبنان. وأثناء الألف الأول قبل الميلاد تطورت أنشطتهم التجارية بقوة، وصارت لغتهم الفينيقية أكثر لغة في المجموعة استعمالاً في الكلام. وعلى عكس ذلك فإن العبرانية وغيرها لم تصبح من اللغات الكبرى، إذ إنها كانت مقتصرة على جنوب غرب كنعان، وذلك في الجزء الأول من تلك الألفية فقط. وفي القرن السادس قبل الميلاد أصيبت العبرانية بالضعف، وربما انتهت كلغة عامية دارجة بسبب نفي اليهود بالقوة إلى بابل الذي تصادف مع انتشار الآرامية في جميع أنحاء الإمبراطورية البابلية.

ويظهر أن الفينيقية ظلت لغة الكلام على ساحل لبنان حتى القرن الأول قبل الميلاد (حيث حلّت محلها الآرامية) وفي شمال إفريقيا حتى القرن الخامس الميلادي على الأقل. ولكن رغم أن التكلم بالعبرية كان توقف قبل ذلك بعدة قرون، فإن استعمالها الطقوسي والمكتوب من قبل اليهود باعتبارها اللغة المقدسة لدينهم لم ينقطع أبداً. وهذا الوجود المختفي تحت الأرض حماه تقليد تعليمها في المدارس والإصرار على قراءة النصوص اليهودية وعرضها، واستنساخها، وكان العهد القديم في التوراة جزءاً صغيراً منها(*).

(*) وهي تعرف باسم تاناك (وهي مختصر لكلمات التوراة، والأنبياء، والكتب). ولكن بالإضافة إلى ذلك هناك التعليق على التوراة، المعروف باسم المشناه (من العام 200 ق.م. إلى العام 200 م)، والملحق التكميلي المعروف باسم توسفتا (في العام 300 م). والتعليق على التاناك آية آية، المعروف باسم المدراش (-200 600 م). وهذه كلها توضح أن العبرانية استمرت تكتب وتقرأ كذلك.



إن اللغات الكنعانية هي لغات سامية نموذجية إلى حد كبير. ومن الخصائص المتميزة التي تملكها كلها بشكل مشترك ميلها إلى تدوير حرف الألف الممدود: ومن هنا تأتي كلمة "شيلوم" العبرانية التي هي "سلام" العربية. وفي اللغة الفينيقية (والبونية) يذهب هذا الميل إلى أبعد من ذلك بحيث يتم حتى تدوير الألف القصيرة إلى واو، والألف الطويلة إلى أوُ. وهكذا فإن الكلمة الفينيقية التي تعني الأبدية هي "عولوم" (مقابل العبرية "عولام"، والآرامية "عالم")، وقضاتهم الرئيسيون يحملون لقب "سوفِت"، الذي يعادل بالعبرانية كلمة "شوبِتْ" التي معناها 'القاضي' في التوراة. والأدلة على حروف العلّة الفينيقية هي بالضرورة غير مباشرة لأن نظام كتابتها يتم بوضع علامات على الحروف الصامتة فقط.

وفيما وراء موطن الفينيقية في لبنان، فإن نصوصها المكتوبة توجد في مصر، وفي جنوب الأناضول، وفي قبرص، وشمال إفريقيا، ومالطة، وصقلية،

وسردينيا، وجنوب إسبانيا. وهذه النصوص المكتوبة الموزعة على مناطق مترامية الأطراف تميل إلى ان تكون باللهجة الفينيقية المرتبطة بالمدينتين المتجاورتين صور وصيدا (صيدون). ويشار إلى صور عادة باعتبارها المدينة الأم للمستوطنات الفينيقية في الخارج. وعلى وجه الخصوص فهي الموطن الأسطوري الأصلي لإيليسا، أو ديدو، الأميرة الفينيقية التي يقال إنها أسست قرطاجة، (التي يقال عنها بالفينيقية "قرت هداشت"، أي 'المدينة الجديدة'). وكثير من النصوص المكتوبة ثنائية اللغة، تظهر علاقات فعالة مع اللاويين، والإغريق، والقبارصة، واخيراً الرومان.

كما نقرأ أيضاً عن محفوظات فينيقية رئيسية، أقدمها حكاية مصرية من القرن الحادي عشر قبل الميلاد، عن موظف مصري اسمه وِنْـآمون، يذهب إلى بيبلوس ليقدم طلباً لشراء الخشب، ويضطر إلى الدخول في مساومة هجومية مع الملك زاكار بعل، الذي يقرأ سوابق من صفقات تم عقدها في أجيال ماضية، مكتوبة على لفافات من ورق البردي. وقد احتفظت مدينة صور أيضاً بسجلات، إذ إن المؤرخ اليهودي جوزيفاس يسجل بأن المؤرخ اليوناني مناندر من آفيسوس قد جمع تاريخه عن صور من هذه السجلات.

وكما حدث، فإن أقدم نص مكتوب بالفينيقية هو نقش رثائي لتكريم أحيرام، ملك بيبلوس. ويعود تاريخه (بحسب دلالة لغته) إلى القرن الحادي عشر قبل الميلاد.

> النعش الذي صنعه إيتوبعل بن أحيرام، ملك بيبلوس لأبيه عندما وضعه في دار الأبدية.
> والآن إذا جاء ملك من الملوك، أو حاكم من الحكام، أو قائد لأحد الجيوش، فاصطدم مع بيبلوس وكشف عن هذا النعش فليتمزق صولجان حكمه، ولينقلب عرش مملكته، وليهرب السلام من بيبلوس! وليندثر نقش ضريحه...

وبالرغم من تاريخ فينيقيا المدوّن الممتد ألف عام، ليس هناك أدب فني باق

باللغة الفينيقية. غير أن اكتشافاً في العام 1929 قد أظهر أدباً قديماً في المدينة المجاورة إلى الشمال، وهي أوغاريت، يعود تاريخه إلى القرن الرابع عشر أو الثالث عشر قبل الميلاد(*). والشخصيات المركزية في الأساطير والملاحم المسجلة هنا هي آلهة معروف عنها أنها قد برزت في طقوس المدن الفينيقية، ولا سيما شخصيات مثل هدد وبعل (التي معناها ببساطة "الرب" أو "المولى")، وأبيه داغون، وإلهة جميلة هي زوجة لها أسماء متنوعة، منها عشتروت، وعشيره، وكذلك إيل: الإله العالي الحميد، وكوثار، الحِرَفي والحدّاد الإلهي. وبعد ذلك بألف وثلاثمئة عام، بعد أن كانت الفينقية كلغة قد ماتت وتلاشت إلى حد كبير، ألّف شخص من بيبلوس يدعى فيلو كتاباً باليونانية عنوانه "التاريخ الفينيقي"، زاعماً أنه مستمد من عمل ألفه سانخونياثون من بيروت كان بدوره قد قرأه على "الآمونيات"، وهي أعمدة بعل آمون التي كانت قائمة في المعابد الفينيقية. وبما أن فيلو، حسب أسلوب نموذجي قديم، يعرّف كثيراً من الآلهة الفينيقية بأسماء إغريقية (تحكى عنها حكايات مماثلة)، فإن روايته غير المدعومة للأساطير الفينيقية قد استقبلت (طيلة ما يقرب من ألفي عام) بشيء من التشكك. ولكن فيلو يذكر في الحقيقة إيل باعتباره اسم كرونوس(**)، ويجعل داغون ابنه. وفيما بعد ينجب داغون شخصاً غير معروف، اسمه ديماروس. وبعد كثير من النشاط، فإن ديماروس، وأستراتي (المعروف أيضاً باسم أستريا)، وأبودوس، ينتهي بهم الأمر إلى أن يصبحوا حكاماً للعالم، تحت توجيه إيل. أما خوصور فهو الإله الحِرَفي، المهم في خلق العالم وأصل الاختراعات. وبما أن أستراتي وأسترايا هما ترجمتان يونانيتان لاسمي عشتروت وعشيره، وهدودوس بدون حرفي "وس" في آخر اسمه باليونانية (ومع حرف الواو الطويل) سيكون

(*) وقد كتب على الواح طينية. ولهذا عاش وبقي. ولكنه منقوش بأبجدية مبنية على الخط المسماري. وهكذا فإنه من الناحية التصويرية يلقي ضوءاً مثيراً للاهتمام على الفينيقيين، الذين كانوا مشهورين حتى ذلك الحين بأنهم أول من استعمل أبجدية. وإن الأشكال الأبسط للحروف الفينيقية يعود السبب فيها إلى أنها قد كتبت بالحبر على ورق البردي، بدلاً من أن تكون منقوشة بإزميل حاد على الطين.

(**) إن كلمة إيل El هي، ببساطة، الجذر السامي لكلمة *elohīm*، أي 'إله'، التي نشاهدها أيضاً في الكلمة العبرانية إلوهيم، وهي إحدى الكلمتين اللتين معناهما 'الله' في سفر التكوين، والكلمة العربية 'الله'.

لفظاً طبيعياً بالفينيقية لاسم هدد، فإن طبقة الآلهة الفينيقيين تكون مصطفة في مكانها.

وتعطي النصوص الأوغاريتية أيضاً تلميحاً إلى مدى اقتراب الأدب العبراني من الأعمال الفينيقية المفقودة. ولنتذكر أن العبرانية من الأقارب اللصيقين للأوغاريتية، ولكنها ليست بدرجة قرابة الفينيقية منها. وتأمل الآن كيف تقوم إلهة أوغاريت المسماة آنات بتزيين نفسها كي تلتقي بمبعوثي بعل:

تسحب بعض الماء وتستحمّ،
بندى السماء من دسم الأرض،
برشاش من راكب الغيوم،
والندى الذي رشح من السماوات
ورشّ تسفحه النجوم[35].

إن كلمات 'ندى السماء' و'دسم الأرض' هي بالضبط ما يعد به إسحاق يعقوب (وينكره على عيسو) في مشهد التبريك في سفر التكوين:

فليعطك الله من ندى السماء ومن دسم الأرض[36].

وإذن فإن العبرية والأوغاريتية كانتا متقاربتين بحيث تتشاركان في بعض العبارات الثابتة. فإذا جمعنا بين الشخصيات الفاعلة في الملاحم الأوغاريتية، وصياغة عبارات العهد القديم، والقصص المسرودة في "التاريخ الفينيقي" الذي كتبه فيلو نقلاً عن سانخونياثون، فقد نتمكن من إعادة بناء شيء من الثقافة الشفهية لبيبلوس، وصور، وأخواتهما من المدن.

وهناك مقطع شهير من سفر حزقيال فيه صدى واضح لما كان من الممكن أن يكون عليه شعر مدينة صور. ففي سياق سلسلة من النبوءات عن سقوط جيران يهوذا المختلفين، يعرج النبي على الأمجاد الماضية لمدينة يتنبأ لها بالدمار:

يا صورُ إنَّكِ قلتِ 'أنا كاملةُ الجمال'.

تخومكِ في قلب البحارِ؛
وبانوكِ أكملوا جمالكِ.
بسروٍ من سنيرَ بنوا لكِ كلَّ ألواحكِ؛
وأخذوا أرزَة من لبنانَ ليصنعوا ساريةً عليك.
صَنَعوا مقاذيفكِ (مجاديفكِ) من بلّوك باشان؛
ومتنكِ من عاجٍ مرصعٍ في الشربينِ من جزائر كتيم (قبرص).
البزُّ الموشّى من مِصْرَ كان ما نشرتهِ شراعاً لكِ؛
والسمنجونيُّ والأرجوان من جزائر أليشةَ
كانا غطاءكِ.
سكانُ صيدونَ وأروادَ كانوا قذافينَ لكِ؛
وحكماؤكِ يا صورُ الذين فيكِ هو مدبّروكِ
شيوخُ بيبلوس وحكماؤها
كانوا فيكِ جلافطةً لخصاصكِ.
وجميعُ سفُن البحرِ وملاحوها
كانوا فيكِ لترويجِ بضائعكِ
فارسُ ولُود وفُوط
كانوا في جيشِكِ رجالَ حربكِ
وعلّقوا فيكِ المجنَّ والخوذةَ.
هم أفادوكِ بهاءً.
بنو أروادَ وهيليش مع جيشِكِ كانوا على أسوارِكِ من حولِك،
والأبطال من غاماد كانوا في بروجكِ
وعلّقوا تروسهم على أسوارِكِ من حولكِ.
هم أكملوا جمالكِ
..(*).

(*) وتستمر القصيدة في إدراج المنتجات المتميزة لجميع أمم الزبائن الكبار: ترشيش (المعادن)؛ اليونان، وطوبال، ومشيتش (العبيد، وأشغال البرونز)، وبث طوغارما (الخيول)؛ ورودس (العاج والآبنوس)؛ وآرام (الفيروز، والملابس الناعمة، والمرجان، والياقوت)؛ ويهوذا وإسرائيل (القمح، والعسل، والزيت، والبلسم)؛ ودمشق (النبيذ، والصوف)؛ والدانيون، ويونان أوزال (الحديد المطاوع، والقرفة الصينية، والنبات عطر الجذور)؛ وددان (بطانيات السروج)؛ والجزيرة العربية، قيداح (الخراف،

وكانتْ سفنُ ترشيشَ ناقلةَ بضائعكِ
لقد امتلأتِ وثقلَ حملكِ
في قلب البحار.
القذافون أتوا بكِ إلى مياه غزيرةٍ
فحطمتكِ الريحُ الشرقيةُ
في قلب البحار.
...
وفي نوحهم يرفعون الرثاءَ عليكِ
ويرثونكِ قائلينَ:
'منْ كانَ شبيهاً بصورَ
في وسطِ البحرِ؟'[37]

كان القرطاجيون، مثل الفينيقيين الآخرين، يحتفظون بسجلات ضخمة. وتلك التي كانت محفوظة على ورق البردي ضاعت. ولكن هناك عدة آلاف معروفة من النصوص المدونة، تعطي الحقوق على الضحايا المنذورة، وتقدم إهداءات إلى الإلهة تانيت أو الإله بعل هامون، أو تحيي احتفالات تذكارية. ومن الواضح أيضاً أن قرطاجة قد مررت الاستخدام الإداري للغتها إلى الدولتين المجاورتين لها من جهة الغرب، ماسيليا وماسايسيليا، اللتين تحمل عملاتهما المسكوكة نقوشاً بالحروف البونية، وكذلك حجارة الحدود[38].

بل إن هناك أدلة على أدب بكامله باللغة البونية. ومن المشهور عن القديس أوغسطين أنه قد لاحظ بأنه 'حسب رواية كثير من الدارسين، كان هناك كثير من الفضيلة والحكمة في الكتب البونية'[39]. وهذا رأي يشاركه فيه مجلس الشيوخ الروماني. فبينما كان يجري تدمير قرطاجة بشكل نهائي في العام 146 ق.م. أصدر ذلك المجلس أوامره للقيام بترجمة جديدة وتحرير نسخة من مقالة

والماعز)؛ وسبأ، راما (التوابل، والجواهر، والذهب) حاران، وقانا، وعدن، وآشور، وكيلماد (الملابس، والمنسوجات، والسجاد المزين بالعقد).

عن الزراعة كان الرومان معجبين بها بشكل خاص. 'لقد أهدى مجلس شيوخنا مكتبات المدينة إلى أمراء أفارقة، باستثناء 28 كتاباً من مؤلفات ماغو أمروا بترجمتها إلى اللاتينية.... وقد أعطيت النصوص إلى باحثين يتقنون اللغة البونية'[40]. وهناك أربعون جزءاً منها اقتبسها مؤلفون لاتين متأخرون جاؤوا فيما بعد. ولكن النص الكامل قد ضاع، حتى في الترجمة اللاتينية.

والواقع أنه لم يبق عمل أدبي بوني. وأقرب شيء إلى ذلك ترجمة يونانية من حوالي سبعمئة كلمة لنص بوني منقوش في معبد بعل هامون في قرطاجة يسجل رحلة استكشاف قام بها قائد قرطاجي يدعى هانو (حنّون)، حول الساحل الغربي لأفريقيا (ولعله قد وصل إلى الغابون). وهو ينتهي بما يلي:

> ... وصلنا إلى الخليج المسمى قرن الجنوب. وفي الزاوية كانت جزيرة... وفيها بحيرة فيها جزيرة مليئة بأناس متوحشين. وكانت أغلبيتهم الكبرى من الإناث، والشعر يغطي أجسادهم ويطلق عليهم المتوحّشون اسم 'الغوريلا'. ولم نستطع أن نمسك بالرجال لأنهم كانوا بارعين في التسلّق والدفاع عن أنفسهم بالحجارة. ولكننا أخذنا ثلاث نساء، قاومن بشدة، بالعضّ والخدش. غير أننا قتلناهن وسلخنا جلودهن وعدنا بها إلى قرطاجة. ولم نبحر إلى أبعد من ذلك، لأن إمدادات مؤننا قد نفدت[41].

ويشعر المرء بفضول يعذبه لكون هذا النص واحداً من أشياء قليلة مختصرة بقيت من الأدب البوني تحكي قصة مثل هذه المغامرة الفريدة من نوعها.

فكيف يمكن تفسير الضياع الكامل للغة الفينيقية، واللهجة البونية التي أعقبتها بعد هذا التمدد الواسع الانتشار عبر عالم البحر الأبيض المتوسط؟ إن لدينا هنا سؤالاً آخر لم تتم الإجابة عليه، بل إنه لم يتم طرحه بعد.

بعد نهب الإسكندر لصور، في العام 332 ق.م. ظلت التجارة الفينيقية مزدهرة قروناً كثيرة، بدون كوارث أخرى تهدد استقرار التجار. فلم تمت اللغة البونية على الفور، حتى في مقاطعاتها وراء البحار، حيث انقطعت كل الصلات

الإدارية بقرطاجة عند نهاية القرن الثاني قبل الميلاد: ففي سردينيا، على سبيل المثال، عثر على عدة نصوص مكتوبة 'باللهجة البونية الجديدة' وآخرها في بيثيا، في أقصى جنوب الجزيرة، مدوّنة في آخر القرن الثاني الميلادي. وحتى عندما وضع حد لحياة قرطاجة كمدينة بطريقة وحشية في العام 146 ق.م. فقد أعيد تأسيسها كمدينة رومانية على يد أغسطس بعد ذلك بقرن من الزمن. وعندئذ تمتعت بحياة مزدهرة لاحقة حتى نهاية الإمبراطورية الرومانية في الغرب. ويمكننا التخمين بأن لغتها بقيت تستخدم في شمال إفريقيا حتى القرن الخامس الميلادي. ويخبرنا أوغسطين بأنه مضطر إلى اقتباس أمثاله البونية باللغة اللاتينية لأنه 'ليس كل واحد' سيفهم الأصل[42].

ورغم ذلك، فمنذ أن غزا الإسكندر آسيا الغربية حدث تهديم ثقافي عام في الشرق الأدنى، وانتشرت اليونانية والآرامية على حساب كل لغات الأقليات. ورغم أن الآرامية كانت ذات صلة وثيقة بالفينيقية والعبرية، فقد تم الأخذ باليونانية من قبل جزء كبير من المجتمع اليهودي (وخاصة يهود مصر) في هذه الفترة. وصارت اليونانية أيضاً موضوعاً أساسياً في التعليم لدى الرومان، الذين صار معروفاً بوضوح أنهم القوة الصاعدة عند حلول القرن الثاني الميلادي.

وهكذا فإن التيار الثقافي الكامن تحت السطح كان يجري لمصلحة اللغة اليونانية. والحقيقة أن اللغة الفينيقية ولهجتها البونية - برغم الشجاعة والبراعة التجارية لمستعمليها - لم تكونا أبداً لغة مشتركة واسعة الاستعمال حتى في اللغو التجاري خارج إفريقيا. ذلك أن لغة التجارة هي حتماً لغة الزبون، لا لغة التاجر.

وهذا شيء يوضحه الممثل الهزلي الروماني بلوتوس في مشهد من مسرحيته "بونيولوس"، أي 'الشخص البوني - الساذج'، التي ظهرت في مطلع القرن الثاني ق. م.، بعد وقت قصير من نهاية الحرب البونية الثانية[43]. فيحاول تاجر قرطاجي أن يتحدث باللغة البونية مع زوجين رومانيين، رغم أنه يعرف اللاتينية، فإنه سرعان ما يتعب من تورياتهما وتنكيتهما عليه وعلى لغته باستمرار، فيحاول التغطية على ضعف المهارة اللغوية للشخص الزاعم بأنه خبير

قليلاً باللغة البونية: فيدور الحوار كما يلي:

هانو: **صباح الخير لكما.** ميلفيو: الأفضل لك، لا لي.
آغوراستوكليس: ماذا يقول؟ ميلفيو: يقول إن فكّه يؤلمه.
لعله يظننا طبيبين.
آغوراستوكليس: إذن فقل له إننا لسنا كذلك، فهو غريب، ولا أريده أن يضلّل.
ميلفيو: هل تسمع؟ هانو: **طبيب، لا أحد كامل**
آغوراستوكليس: نعم، أريد بالتأكيد أن يفسر هذا كله لي
اسأله إن كان بحاجة إلى أي شيء.
ميلفيو: إنك بدون حزام. لماذا جئتم أيها الناس إلى هذه المدينة، أو ما الذي تسعون إليه؟
هانو: **ماذا تقصد ؟** آغوراستوكليس: ما الذي يقوله؟
هانو: **ما الذي يسعى إليه عند غريب؟**
آغوراستوكليس: لماذا جاء؟
ميلفيو: ألا تسمع؟ الفئران الإفريقية [نكتة معناها 'الفيلة']
يقول إنه يريد تقديم حرّاس المدينة لاستعراض السيرك(44).

ومع ذلك فإن حقيقة وجود الحوار البوني هنا أصلاً تشير إلى أن وجود كلمات بونية مبعثرة وقليلة لم يكن غريباً على أسماع الرومان في ذلك الوقت. وأنه كان مفيداً لاستثارة قليل من الضحك.

ويقال بأن الجيش القرطاجي (المكوّن أكثره من مرتزقة من جميع أنحاء غرب البحر الأبيض المتوسط) كان يتلقى أوامره باليونانية: ومن المؤكد أن العملة التي سكّها الجنود أثناء التمرد الكبير (241 ـ 238 ق.م) الذي سمي 'حرباً لا هدنة فيها' كانت منقوشة باليونانية. ومن المعروف أن مؤرخَي الحوليّات اللَذْين رافقا هنيبعل في حملته في إيطاليا، وهما سيلينوس وسوسيلوس، كانا يكتبان باليونانية. وعندما وضع هنيبعل لوحة تسجل مآثره في معبد هيرا في صقلّية، كانت مكتوبة باليونانية وكذلك بالبونية(45).

فالفينيقيون والقرطاجيون، المشهورون بأنهم رجال أعمال محنّكون، لا بد أنهم كانوا عمليين ذرائعيين، مثل نظرائهم المحدثين الآن. فقد كانوا سيركزون على الفائدة العملية لوسيلة الاتصال، ثم يختارون اللغة بحسب ذلك الاعتبار. ففي القرنين الأخيرين قبل الميلاد، كان واضحاً أن أكثر اللغات الدولية فائدة بوجه عام في حوض البحر الأبيض المتوسط كانت اللغة اليونانية.

ولقد استمر استعمال اللغة البونية في قرطاجة نفسها وفي مقاطعات شمال إفريقيا في ليبيا (إلى الشرق) ونوميديا (إلى الغرب). ولكن ليس هناك دليل على نشاط أدبي بوني بعد الغزو الروماني (في العام 146 ق.م). ويبدو أن معرفة القراءة والكتابة صارت محصورة في استعمال اللاتينية واليونانية. وتم التوقف عن رعاية التقاليد الثقافية البونية، ولم يستمر السجل المادي طويلاً لهذا المجتمع الذي كان ذات مرة ذا درجة عالية من التعليم.

وكانت الواسطة العالمية المستعملة لتدوين السجلات الإدارية والأدبية هي البردي، وهي مادة تتحمل البقاء الطويل الأمد فقط في الظروف الشديدة الجفاف (مثل ظروف الصحراء المصرية). فالنصوص التي لم تكن منقوشة على واسطة لها صفة الديمومة، كالحجر أو العاج أو الطين، لم تكن لتبقى ما لم يتم استنساخها بصورة متكررة - وهذه خدمة كانوا يحافظون عليها بالنسبة للنصوص ذات الأهمية الواعدة في المستقبل باللغات اليونانية واللاتينية بل والعبرية طيلة أواخر العصور القديمة، والعصور الوسطى، إلى أن جاءت الطباعة فجعلتها سليمة. ولم يكن هناك تقليد للحفاظ على نصوص فينيقية أو بونية. وهكذا هلكت مع أوراق البردي التي كانت مكتوبة عليها.

أما بالنسبة للهجات المنطوقة، فقد كان من المرجح أن تبقى إلى أن تخلفها اللغات المجاورة على نطاق واسع. وفي كلا الحالتين كانت هذه اللغات الجديدة سامية ذات صلة وثيقة باللهجات الكنعانية بل هي في الحقيقة شبيهة بها. فقد قدر للفينيقية في لبنان أن تخضع للآرامية في القرن الأول قبل الميلاد، أما

البقايا الأخيرة للبونية في شمال إفريقيا فربما خضعت للعربية في القرن السابع أو حتى الثامن الميلادي(*).

الآرامية ـ أغنية الصحراء: تداخل لغات آسيا الغربية

وفي السنة الرابعةَ عَشْرَة للملكِ حِزْقيّا صَعِدَ سنحاريبُ ملكُ آشور على جميعِ مُدُنِ يَهُوذا المُحَصّنَةِ وأخذها. أرسل قائده الميداني من لاكيش مع جيش عظيم إلى الملك حِزْقيّا في أورشليم ... فقال القائد إلى [ألياقيم، وشبنا، ويوآح، مبعوثي حزقيا]:

هكذا يقول الملك الكبير، ملك آشور: ما هذا الاتكال الذي اتكلته؟... يهوه نفسه قال لي اصعد إلى هذه الأرض ودمِّرها.

فقال إلياقيم وشبنا ويؤآح لقائد الميدان:

"كَلِّمْ عبيدَك باللغة الآرامية فإننا نفهمها. ولا تكلمنا باليهودية على مسامع الشعب القائم على السور.

ولكن القائد أجاب:

هل إلى سيدك وإليك أرسلني سيدي لكي أتكلم بهذا الكلام. أليس إلى الرجال القائمين على السور المضطرّين إلى أكل بِرازِهم وشُرب بَوْلهم معكم؟

ثم وقف القائد ونادى بصوت عظيم باليهودية وقال:

اسمعوا كلام الملك الكبير، ملك آشور! هكذا قال الملك: لا يخدعكم حزقيّا. لأنه لا يقدر أن ينقذكم!....

سفر أشعيا ـ 36: 1ـ 14 (= سفر الملوك الثاني ـ 18: 17ـ 29)

(*) يقترح إيليمام (1977) أن القصة البونية كانت لها نهاية أسعد، وأن البونية لا تزال حية اليوم، باعتبارها سلفاً للعربية المغربية (فكلمة مغرب تعني الغرب باللغة العربية). صحيح أن هذه اللغة السامية، الموصوفة عادة بأنها لهجة من العربية، تفترق بشكل قوي عن اللغة التقليدية الفصحى للقرآن، ولكن هذا صحيح بالنسبة لجميع اللهجات العربية العامية الدارجة. وحيث بقيت البونية فعلاً بعد الفترة الرومانية، فإن من المرجح جداً أن تكون قد قدمت إسهاماً هاماً للهجة المغربية. ولسوء الحظ، فإن قلة الأدلة المحدودة على الماهية الحقيقية للغة البونية تجعل من الصعب معرفة إلى أي مدى قد حدث ذلك. ويقترح إيليمام نفسه، على أساس أطول خطاب بوني في بوينولوس (وهو مكون من عشرة أسطر، واثنتين وثمانين كلمة)، أن اللغة البونية فيها 62 بالمئة من الأشياء المشتركة مع اللهجة المغربية، وأن نسبة 18 بالمئة أخرى قد تعرضت لتطور في دلالات ألفاظها.

إن هذه الأحداث، التي وقعت في العام 701 ق.م. تظهر أن الآرامية في هذه المرحلة، وإن كانت اللغة المشتركة لكبار الضباط في الإمبراطورية الآشورية ومملكة يهوذا، فإنها لم تكن لغة الجندي العادي في يهوذا.

وقدر لذلك أن يتغير. فسياسة النفي الداخلي التي طبقها الآشوريون بشكل كامل استمر بها خلفاؤهم، وفي هذه المرة كانت الضحية اللافتة للنظر هي اللغة العبرانية، مع كثيرين من الناطقين بها في أرض يهوذا.

وعندما خضعت آشور آخر الأمر في العام 609 ق.م. لتحالف من الميديين في الشرق والبابليين في الجنوب، لم تكن هناك تأثيرات لغوية مباشرة سوى التوقف عن كتابة الأكادية في آشور. واستمرت الآرامية لغة قياسية للكلام في وادي الرافدين الذي راح منذ ذلك الوقت يخضع لحكم بابل (إن خضع لأي حكم على الإطلاق). ولكن آخرين قد لاحظوا التغير السياسي الخطير. فرأت فيه مصر على وجه الخصوص فرصة، فغزت سوريا وفلسطين.

وقد رد على ذلك رداً فعالاً ولي عهد بابل، الأمير نبوخذ نصّر (ومعنى اسمه هو: 'يا نابو، احم نسلي'). فبعد عشرين عاماً، وعندما تم دحر هذا الغزو المصري، وربما غزوتين أخريين، وقعت القدس بالتأكيد في أيدي البابليين، بعد أن كانت قد وقفت مع المصريين مرتين. فذهب معظم سكانها إلى مصر، أو سيقوا كأسرى منفيين إلى بابل.

وهذه على وجه الدقة هي نوعية المعاملة التي تقتل اللغة، كما تشهد على ذلك تجربة كثير من السكان المحليين في القرنين التاسع عشر والعشرين. فيبعدون عن أرضهم على أيدي المستعمرين أو المهندسين الاجتماعيين في مناطق متنوعة كتنوّع كارولينا الشمالية، وكوينزلاند، والحبشة، وسيبيريا، والتيبت. وهناك أغاني تفجّع ورثاء عبرانية، شديدة الوعي بالخطر:

عل نهاروت بابل شام ياشبينو غام باكينو
بيزاكرنو إطْ صهيون

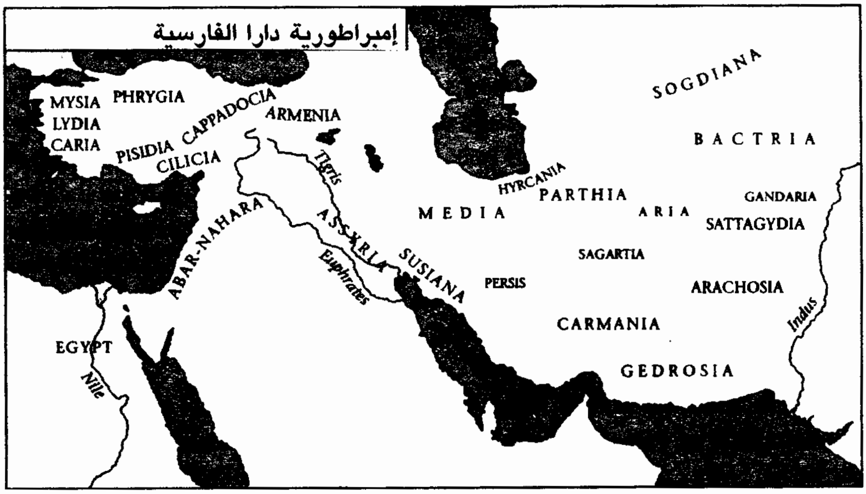
على أنهار بابلَ هناكَ جلسنا، وبكَيْنا
عندما صِهْيُونَ تذكّرنا.
على الصفصاف في وَسَطِها علّقنا كِنّاراتنا
هناك سَأَلَنا الذين أسَرونا نشيداً،
والذين عذّبونا طرباً:
'أنشِدوا لنا من صِهيونَ نشيداً'.
كَيْفَ نُنشِدُ نشيدَ يَهْوَه
ونحن في أرض الغُرْبة؟
إن نسيتك يا أورشليم
فلتشلَّ يميني.
وليلتصقْ لساني بحَنكي
إن لم أذكرك...

المزمور 137: 1 ـ 6

ومع ذلك فقد نسوا، على الأقل، لغة الكلام في أورشليم. فوسط حشود بابل صارت الآرامية لغتهم العامية الدارجة، بعد أن كانت اللغة العالمية للنخبة اليهودية. أما العبرانية، لغة الشعب، فلم تعد معروفة إلا عند المتعلّمين. وكانت قد اختفت من الكلام بعد ذلك بجيلين من الزمن. ففي العام 538 ق. م. قام الملك الفارسي كورش، في واحد من أول إصلاحاته بعد غزو بابل، بالسماح لليهود بالعودة(*).

وفي ذلك الحين كانت اللغة الآرامية ملتصقة بالإمبراطورية البابلية ولا يمكن فصلها عنها، وقد نشأت نوعية قياسية جديدة منها تعرف عادة بالآرامية الإمبراطورية. وقد تطورت في المناطق الشرقية، حيث كان المستوطنون الآراميون قد وجدوا مستقراً لهم في وادي الرافدين. وبهذه الصفة كانت هذه النوعية

(*) هذه العودة مسجّلة بالتفصيل في سفري عزرا ونحميا من التوراة، وهما باللغة العبرانية، رغم أن كثيراً من المراسلات مع الحكومة واردة بالآرامية (كما في سفر عزرا 8:4، و18:6 و12:7 ـ 26). وإن كون العبرية الآن قد عادت لتصبح اللغة العامية الدارجة في شوارع القدس بعد غياب ألفين وخمسمئة عام هو دليل مذهل على قوة الحفاظ على تقليد يتم التمسك به عن وعي متعمد.
[ملاحظة: هذا مديح مبطن مليء بالنفاق للصهيونية وإسرائيل. والشيء الهام الذي يتهرب المؤلف من قوله هو أن التراث الأدبي والعلمي غير الديني بالعبرانية شحيح لا يكاد يرى بأكبر مجهر بعد هذا الزمن الطويل ـ المترجم]



متأثرة بالأكادية أكثر من تأثر نوعيتها القديمة المنطوقة في آرام وباقي أنحاء سوريا - وهي النوعية التي يقول البعض إنها هي الآرامية الأصح في الأصل. ومع ذلك فقد قدر للهجة الجديدة أن تصبح هي اللغة القياسية، ليس للإمبراطورية البابلية فحسب، بل كذلك للإمبراطورية الفارسية التي حلت محلها وكانت أعظم منها بكثير: 'أكثر من مئة وسبع وعشرين كورة ممتدة من الهند إلى كوش' حسب الكلمات المليئة بالرهبة في سفر أستير (9:8)، أي، من هندوستان إلى أرض قوص، في جنوب مصر.

وكانت الآثار المميزة لهذه اللهجة الآرامية عبارة عن أشياء صغيرة، مثل الياء والميم كعلامة للجمع وحلت محلها الياء والنون، والألف الطويلة في الجمع (كما في كلمة "أيا") حلت محلها الياء القصيرة، ومثل حذف الهاء في بداية بعض صيغ الأفعال ليحل محلها حرف حلقي ساكن (مما يذكرنا بلهجة الإنكليزية العامية الدارجة في لندن). والواقع أن نموذج هذا المقياس يبدو أنه كان هو الآرامية البابلية كما ينطقها ويكتبها المثقفون الفارسيون[46]. وإن كون هذا الشيء الناجم عن إعادة الزرع الاستيطاني قد أصبح هو النموذج أو المعيار الفعال ليس مدهشاً أكثر من الشعبية الحالية للهجة العامة الأمريكية التي صارت مقياساً عالمياً للإنكليزية. وقد قدر 'للآرامية الأدبية القياسية' أن تظل بدون أي تغيير جوهري طيلة الألف عام التالية.

والمدهش أكثر هو أن الآرامية كانت تستخدم أيضاً كلغة للاتصال العالمي إلى حد ما. ففي سقّارة، قرب موقع العاصمة المصرية ممفيس، تم اكتشاف نص خطاب من ملك فلسطيني مكتوب على ورق البردي في أواخر القرن السابع قبل الميلاد، باللغة الآرامية، يطلب مساعدة الفرعون المصري ضد ملك بابل؛ وبعد ذلك بوقت قصير، فإن إرميا، مستشار ملوك يهوذا قبل نهب بابل لأورشليم، يقطع خطابه المسهب العنيف بالعبرانية ليتكلم بالآرامية، مطلقاً شعاراً يرمي به في وجه عبدة الأوثان الأجانب صارخاً:

هذه الآلهة التي لم تصنع السماوات والأرض،
تُبادُ من الأرض، ومن تحت هذه السماوات.

إرميا ـ 11:10

وكان ما حدث بالفعل هو أن الناطقين بالآرامية المؤمنين بتلك الآلهة قدر لهم أن يرثوا الأرض، على الأقل من الهند إلى قوص. غير أن الآرامية كانت صالحة للاستعمال عبر هذه المسافات الشاسعة ليس لأن سكاناً مختلفين كانوا يتكلمونها، بل لأنها عملت كوسيط مكتوب بين اللغات، مفهوم من قبل شبكة من المترجمين والمفسرين المتعلمين، من الطبقة المسماة "سبيرو". فكان الحاكم أو المسؤول يملي رسالة بلغته الخاصة به، فيكتبها السبيرو أي 'المترجم' بالآرامية. وعندما تصل الوثيقة إلى المرسلة إليه ـ كان مترجم آخر يقرؤها بصوت عال بلغة سيّده أو سيّدته، مهما كانت تلك اللغة ـ ولقد كانت فارس مشهورة أيضاً بخدمتها البريدية الممتازة ـ. وكانت هذه العملية تدعى بالآرامية "باراش" ومعناها الحرفي 'الإعلان'، أو تسمى بالفارسية "أوزفاريشن"، أي 'التفسير'[47].

وفي سفر عزرا (4: 18)، يتلقى الملك الفارسي أرتاكسيركسيس ترجمة شفوية لرسالة بالآرامية من بعض المسؤولين الحكوميين المحليين من الضفة الأخرى لنهر الفرات. فيبدأ بالرد عليها كما يلي (يرد ذكر الرد بالآرامية، ولكن لا شك أنه قد أملي بالفارسية):

سلام، وبعد:
إن الرسالة التي بعثتم بها إلينا قد ترجمت وقرئت بين يدينا جَهْراً ...

وكان هذا النظام العملي ذاته مستخدماً على نطاق دولي، رغم أنه كان - ولا بد - مقيداً بتوفّر مترجمين مزدوجي اللغة للغات السائدة فيما وراء المملكة الفارسية. وفي الحرب البيلوبونيزية في اليونان (بين أثينا وإسبارطة من العام 431 إلى العام 404 ق.م) اعترض الأثينيون طريق رسول من الملك الفارسي إلى إسبارطة في العام 428 ق.م، فكانت هناك حاجة لترجمة رسائله "من الكتابة الآشورية". ولم يكن من المحتمل أن يفهم الإسبارطيون الموجهة إليهم تلك الرسائل بدون ترجمة الرسول الحامل لها[48].

وبما أن هذا النظام كان مناسباً، فلا بد أنه قد عمل كحافز على انتشار اللغة، وعلى دخولها إلى بعض الأماكن المذهلة، ولا سيما النصوص اليهودية. فبالإضافة إلى الرسائل الآرامية في سفر عزرا فإن هناك مقاطع طويلة في سفر دانيال (الذي كُتِبَ في القرن الثاني قبل الميلاد) مكتوبة باللغة الآرامية، وهذا شيء مناسب لأنها تحكي قصص المغامرات المختلفة ورؤى هذا المستشار اليهودي في البلاط البابلي تحت حكم ملوك بابليين ثم فارسيين متعاقبين. ويبدأ هذا السفر بوصف عبراني لتدريبه كمترجم بعد أن استخدمه الملك البابلي لمدة ثلاثة أعوام في دورة لتعلم 'الكتابة بلغة الكلدانيين'[49].

إن هذا الاستخدام الحذر المتحفّظ للغة مشتركة متنكرة وراء ترجمات، أو "إعلانات" متعددة اللغات كان متناسباً تماماً مع استمرار استعمال اللغات المحلية في مهمات رسمية أخرى (وهو يذكرنا بذلك النوع الساذج من الخيال الذي يتمكن بموجبه المسافرون من الذهاب إلى أي مكان، والدخول فوراً في محادثات جدية مع الناس المحليين دون أن يلاحظوا أبداً وجود حاجز لغوي). وأحد الأمثلة على ذلك الشعارات المنقوشة على قطع العملة المسكوكة: والواقع أن وسيلة الدفع هذه مع ضمانة حكومية لم تكن آنذاك قد اخترعت إلا قبل وقت قصير (في ليديا، في أناضوليا الغربية). ولم تنتشر في الإمبراطورية الفارسية

إلا ببطء، ومعظم قطع العملة المعاصرة آنذاك تأتي من المقاطعات الغربية. وهكذا فإن هناك قطعاً نقدية من الفترة الفارسية، وعليها نقوش باليونانية وجميع لغات بلاد الأناضول الجنوبية (الليدية، والسايدتية، والكاريانية، والليسية - وكلها ذات علاقة بالحثية واللوية)، أما الآرامية فتستخدم في الأجزاء الشمالية من بلاد الأناضول (حيث قد تكون اللغة الفريجية ما تزال قيد الاستعمال)، وفي كيليكيا (التي كانت جزءاً من الإمبراطورية البابلية، وكانت لها علاقات قوية مع فينيقيا)، وفي وادي الرافدين. وفي مصر كانت هناك أيضاً قطع عملة مسكوكة بالخط المصري القديم المستعمل في الحياة اليومية[50].

ومع ذلك، فقد أصبح المصريون مستعملين للغة الآرامية بشكل قوي، رغم تأخر زمن إلحاق مصر بالإمبراطورية الفارسية. فقد كانت اللغة ستدخل سلفاً، مع العدد الكبير من السكان اللاجئين أو المهاجرين من آرام، وفينيقيا، وإدوم، ويهوذا، وبلدان أخرى تهددها أو تسيطر عليها بابل، مع لغة الأمر الواقع بالآرامية. ولكن مصريين كثيرين انجذبوا إلى هذا المجتمع أيضاً، كما يظهر من الأسماء المصرية الواردة في النصوص الآرامية. وعندما حل البطالسة محل الفرس، استمر المصريون في استخدام الآرامية في الوثائق القانونية[51].

ولقد قدمت مصر - بسبب مناخها الجاف - كل النصوص الآرامية الباقية من هذه الفترة، مكتوبة على ورق البردي، أو على الجلد المدبوغ، وخاصة المراسلات مع حاكم فارسي (مرزبان: حاكم ولاية) يدعى آرازميس، وعلبة من الرسائل من عائلة موزعة بين الأقصر وسيين (أسوان) في وادي النيل الأعلى والأدنى. وفي أسوان أرشيف محفوظات الحامية العسكرية اليهودية، بما في ذلك عدد لا بأس به من الوثائق القانونية، والرسائل التجارية إلى أورشليم. وهذا يشمل ايضاً أمثال الحكيم أحيقار، وهو مستشار أسطوري في بلاط الملكين الآشوريين سنحاريب وأسرحدّون في أوائل القرن السابع قبل الميلاد، يظهر أحدها كعبارة افتتاحية تتصدر القسم الثاني من هذا الفصل. فبما أن له تجربة في الحياة في بلاط ملكي، فإنه قلق بشكل خاص من قوة التسريبات والإشاعات الخبيثة:

يا بني:

لا تثرثر أكثر من اللازم وتتفوه بكل كلمة تخطر ببالك، لأن عيون الناس وآذانهم في كل مكان مدرّبة على تلقي ما يخرج من فمك، فاحذر أن يكون في ذلك هلاكك. وراقب فمك أكثر مما تراقب أي شيء. وحول ما تسمع عوّد قلبك على قوة التحمل.
فالكلمة كالطير: إذا انطلق فلن يستطيع أحد الإمساك به. أولاً: احسب عدد أسرار فمك، ثم أخرج منه الكلمات بقدر محدود. لأن تعليم الفم أقوى من تعليم الحرب.
ولا تستخفّ بكلمة ملك: بل اجعلها شفاء لجسدك .....[52]

وتكشف الرسائل أن بعض اليهود، كما قال إرميا في مراثيه متفجعاً، كانوا فعلاً على علاقة حميمة مع آلهة أجنبية غريبة. لنتأمل النص التالي من خادم خصوصي، وهو مكتوب على قطعة فخّار مكسورة: 'إلى مولاي ميكايا، من خادمك جيدل. أرسل لك الرخاء والحياة، وأباركك بياهو [أي يهوه] وخنب [إله محلي]. والآن أرسل لي الثوب الذي ترتديه، وسوف يصلحونه. وسأرسل الفاتورة إلى ضمانك الاجتماعي'[53].

وعلى مبعدة إلى الشمال، في بلاد الأناضول، لا بد أن لغات الكلام كانت متنوعة كتنوع نقوش قطع العملة على الأقل، ومع ذلك فقد تم العثور على نقوش باللغات اليونانية، والليدية، والليسية، مصحوبة بترجمة إلى الآرامية، وخاصة منقوشات القوانين التذكارية.

كما أن تغلغل الآرامية يتضح أيضاً على الجانب الآخر من الإمبراطورية عن طريق ثلاثة نصوص دعائية عن الإمبراطور الهندي آسوكا (انظر الفصل الخامس: 'السنسكريتية في الحياة الهندية'، ص 269) وتعود هذه النصوص إلى عصر متأخر، وهو القرن الثالث قبل الميلاد، عندما كانت الآرامية قد اقتُلعت لتحل محلها اليونانية كلغة رسمية للإدارة في أنحاء إيران. ومع ذلك فقد رأى آسوكا أن من المناسب أن يقدم هذه النصائح الدائمة التي تحثّ على الفضيلة

بالآرامية - مع التوصية بشكل محدد على الاقتصار على أكل النباتات - وكذلك باليونانية، بعد ثلاثة أجيال من التغيير أو أربعة.

.... ويمتنع

الملك عن الحيوانات، كما أن الباقي
من الرجال وكل الصيادين، وصيادي السمك
التابعين للملك، قد توقفوا عن الصيد...

وبالإضافة إلى ذلك، فيما يخص الطعام. لمولانا الملك، حيوانات قليلة
يتم ذبحها: وعندما رأى الناس ذلك توقفوا؛ حتى صيادو السمك، أولئك
الناس يخضعون للحظر ... (54)

وكانت هناك ثلاثة نصوص آرامية تم اكتشافها حتى الآن في منطقة الحدود هذه، في قندهار، وفي لاغمان، شرقي كابول (لامباكا)(55)، والمركز الأكاديمي تاكسيلا (تاكصاسيلا)، وكلها كانت ستكون في المقاطعة الفارسية الحدودية عند غاندارا، وبالمصطلحات الحديثة فهي على حدود أفغانستان، ولكن على حدودها البعيدة المتاخمة لباكستان، مما يبين تغلغل الآرامية إلى أقاصي حدود السيطرة الفارسية نفسها وربما إلى ما وراء ذلك، والمفروض أن ذلك تحقق للآرامية بزخمها الخاص بها(*).

وعندما وصلت الآرامية إلى نهاية مجدها، فإن ذلك لم يكن عن طريق التغلغل الذي أنهت به الآرامية عهد الأكادية الطويل، بل كان عن طريق الغزو المباشر والمفاجئ.

فبعد خمسة أجيال من فشل محاولات الملكين الفارسيين دارا وأكسيركسيس لإنهاء استقلال المدن - الدول الإغريقية عبر بحر إيجه (رغم أنهم

(*) كان هذا الزخم معروفاً على أية حال، ما دام النصّان الهنديان الأصليان خاروشتي وبراهمي، مشتقين كليهما من الكتابة الآرامية. وبما أن نص براهمي بدوره هو أصل كل أبجدية أخرى في جنوب وجنوب شرقي آسيا، فإن الملك الفارسي دارا كان بالنتيجة يؤسس نظام الكتابة لغالبية آسيا على مدى الألفين وخمسمئة عام التالية عندما اختار الآرامية كلغة قياسية موحدة لإمبراطوريته.

كانوا قد دجّنوا المدن اليونانية المتاخمة للأناضول بسهولة تامة)، نجحت قوة أخرى حيث فشلت فارس. فقد أخضع فيليب المقدوني اليونان الأوروبية كلها زاعماً أنه هو نفسه يوناني. وهذا زعم مبني على أساس اللغة والثقافة، ولكن المدهش أنه يصعب تأييده والحفاظ عليه، وخاصة لأنه لم تبقَ من اللغة المقدونية كلمة واحدة[56]. ولكن ابنه الإسكندر، بنزعته العدوانية التي ربما نبعت من انعدام شعور بالأمن(*)، قرر أن يثبت انتماءه إلى اليونان عن طريق اضطلاعه بالانتقام للإهانة التي تعرض لها اليونانيون عندما حاول الفرس غزوهم. (ولكن ذلك لم يمنع الإسكندر، بعد اغتيال الملك الفارسي الحاكم على يد أبناء شعبه أنفسهم، من الادعاء للفرس أنه هو الخليفة الشرعي لملكهم).

وفي غضون عشر سنوات (333 ـ 323 ق.م) حقق الإسكندر نجاحاً كلياً. فرغم أنه لم يشن حملته في كل مقاطعة، إلا أن الإمبراطورية الفارسية الشاسعة، بما في ذلك أطرافها القصوى في مصر وأفغانستان، قد سقطت في قبضة الأسرة الملكية المقدونية. وظل المقدونيون مسيطرين على فارس ووادي الرافدين قرابة مئتي عام، إلى أن استسلموا إلى الأرزاسيين، الذين كانوا أول الفرثيين، وذلك فقط في العام 140 ق.م.

ومن المحتمل أنه في هذه الفترة "الهلينيستية"، كان الشرق الأوسط في الحقيقة محكوماً بخليط من اللغات، بحيث كانت الإغريقية، لغة السادة الجدد، تتنافس مع الآرامية، لغة السادة القدامى (انظر الفصل السادس: 'ملوك آسيا: انتشار الإغريقية عن طريق الحرب'، ص 345). ومن الواضح أن الآرامية قد صمدت في مواقعها في وادي الرافدين، وفلسطين، وسوريا، حيث كانت وراءها أرضية عمرها خمسمئة عام على الأقل، بطريقة أفضل بكثير من صمودها في الأناضول وفارس، حيث لم تكن مستعملة كلغة حكومية إلا بترخيص من ملك الملوك قبل ذلك بمئتي عام فقط. وبالإضافة إلى ذلك، فإنه بعد فتوحات الإسكندر، كان الاستيطان الإغريقي في الأناضول سيصبح أثقل بكثير مما هو

(*) إن المؤرخ الفرنسي فرناند برودل لا يستطيع أن يسامح الإسكندر على تفويته الفرصة للتوجه بدلاً من ذلك إلى الغرب للسيطرة على حوض الأبيض المتوسط (برودل 2001: 'غلطة الإسكندر'، ص 284-277).

عليه في فارس، لأن بلاد الأناضول كانت محاطة بالمستعمرات اليونانية على سواحلها، بينما كانت فارس بعيدة وراء جبال طوروس وزاغروس، حتى ولو أن طريق فارس الملكي من ساردیس في ليديا إلى بيرسيبوليس (المدائن) كان يعني أن المنطقة كانت تتمتع بمواصلات أفضل مما في أي مكان آخر في العالم المعروف.

وقد أدى ذلك إلى سِيَر حياة مختلفة للغة اليونانية في هذه الأجزاء المختلفة من إمبراطورية الإسكندر. فالإدارة اليونانية هنا أنهاها صعود الفرثيين (من فارس الشرقية، وهم يتكلمون لغة قريبة من الفارسية) في القرن الثاني قبل الميلاد، وقد وضع هذا حداً للمكانة الرسمية للغة اليونانية. ويبدو أنه ربما كانت هناك عودة إلى وضع لغوي يشبه السنوات الأولى للإمبراطورية الفارسية، حيث كانت الآرامية مستمرة لكل الأغراض العملية في وادي الرافدين، ولكن مع استخدام شكل من أشكال الفارسية على مبعدة إلى الشرق.

وأما في الغرب، فعلى عكس ذلك كانت اللغة اليونانية قد حلت تماماً محل اللغات السابقة (ولا سيّما الليدية، والليسية، والآرامية). وعندما تولى الرومان زمام الأمر في القرن الأول قبل الميلاد احتفظوا باليونانية كلغة الأمر الواقع في الإدارة. وأصروا على استخدام اللاتينية في المحاكم وفي الجيش فقط (وعلى أي حال، كان الرومان المثقفون جميعاً يعرفون اليونانية). وكان معنى ذلك أن بلاد الأناضول صارت وحيدة اللغة باستخدامها لليونانية فقط، أما في سوريا وفلسطين فقد كانت اليونانية مستخدمة لحكم أناس لا يزالون يتكلمون الآرامية على الأغلب. وفي مصر كان الوضع معقداً ببقاء اللغة المصرية، وكذلك المجتمع ذي الطابع العالمي للغاية بتشجيع من البطالسة حول عاصمتهم، وفي الإسكندرية، حيث كانت الجالية اليهودية مثلاً تتكلم اليونانية إلى حد كبير.

وهكذا فإن دخول اليونانية كلغة وحيدة عبر الإمبراطورية الفارسية التي كان من المفروض أنها موحدة في ظل الآرامية، كان له أثر لافت للنظر في جعل الفوارق اللغوية تظهر طافية على السطح.

الفترة الفاصلة الثانية ـ درع الإيمان

كان يسوع الناصري يتكلم الآرامية، رغم أنها لم تكن أفضل آرامية بحسب مقاييس شعبه نفسه. فقد كان موطنه الجليل يعتبر بأنه يتكلم نوعاً دون المستوى من هذه اللغة، يترك صدى لكنةٍ في آذان المثقفين في القدس ويهوذا، ومن المشهور عن حواريه بطرس أن لكنته قد فضحته في لحظة حسّاسة، وحتى في التلمود ذي الطابع الثقافي هناك نكت تظهر بين الحين والآخر على حساب طريقة اللفظ الجليلية(*).

وكانت لغة المجموعة التي تشكلت بعد موت يسوع آرامية بوضوح. وقد استمر المسيحيون السامريون يتكلمونها حتى اليوم (والسامرة جنوبي الجليل تماماً). ولكن الدين الجديد كانت له تطلعات عالمية. وكان أول أحداثهم العامة (وهو مسجل في الإصحاح الثاني من أعمال الرسل) الاحتفال بيوم الخمسين الذي أصبح فيه رجال هذا الدين قادرين بمعجزة على الوعظ بكل أنواع اللغات. ولكن موهبة اللغات المفاجئة هذه لم تستمر. وهكذا كان من الضروري إيجاد وسيلة مناسبة لنشر الأناجيل. وبما أنهم كانوا في الإمبراطورية الرومانية، ومتركزين على سواحل البحر الأبيض المتوسط، فقد كانت اليونانية اختياراً معقولاً. وكانت أيضاً متحررة من الارتباطات اليهودية العالقة باللغة الآرامية، والتي كان من الممكن أن تقلص جاذبية المسيحية لأبناء الأمم الأخرى. وبموجب ذلك كانت اليونانية هي اللغة التي ألفت بها الأناجيل المسيحية التي سميت 'العهد الجديد' فصارت أول لغة للكنيسة في الغرب.

ورغم ذلك، فقد كان العالم أكبر من روما 'ودائرة الأراضي' المحيطة ببحرها. ومن المهم أن أول الأجانب المذكورين كشهود على معجزة يوم الخمسين هم الفرثيون والميديون والعيلاميون وساكنوا ما بين النهرين، الذين لم يكن أي منهم تحت حكم روما في ذلك الوقت. وكما رأينا أنه بحلول ذلك الوقت

(*) إنجيل متى، 26: 74. ويستشهد سوير (1999، ص 84)، بكثير من الأدلة على الموقف من اللهجة الجليلية.

(بعد سبعة أجيال من سقوط الإمبراطورية السلوقية في الشرق) فقد كان من المرجّح بشكل كبير أنهم سيفهمون الآرامية أكثر من فهمهم لليونانية.

وقد استغرقت اليونانية مئتي عام حتى ترسّخت. ولكن الكنيسة المسيحية المبكرة حصلت على ذراع كبرى موجهة نحو الشرق. كانت قاعدة انطلاقها في إيديسا (أورفة الحديثة والقديمة(*))، وهي مدينة على الطريق العام من إنطاكية على ساحل البحر الأبيض المتوسط إلى نصيبيس (نصيبن) في آرام نهارايم (أرض الأنهار)، وإلى آغباتانا (همدان) في ميديا. وكانت لغة إيديسا ومؤمنيها هي الآرامية، المعروفة هنا بالسريانية. وهذا هو مثالنا الأول على دافع جديد بشكل جذري لنشر اللغة، وهو الحافز على كسب متحوّلين إلى الإيمان بدين جديد. ورغم أن الأناجيل الأصلية كانت باللغة اليونانية، فإن العهد الجديد ومعظم الأدب المسيحي المبكّر قد ترجمت إلى السريانية وأصبحت أساساً لأدب خاص بها من الترانيم والمواعظ والخطب الأوسع، واستمرت بصورة فعالة حتى القرن الثالث عشر الميلادي، رغم دوامات الفتوح الإسلامية التي مرت حولها وبالقرب منها.(**)

كما يقطر العسل من قرص شهد،
وكما يتدفق الحليب من امرأة مليئة بالحب لأطفالها،
كذلك أملي معقود عليك يا إلهي.
وكينبوع يتفجر ماؤه باندفاع،
هكذا يتدفق قلبي بمدح الرب
وتكيل شفتاي الثناء عليه،
ولساني حلو من التحدث إليه،
ويتهلل وجهي بالفرح الذي يجلبه لي،

(*) ربما يكون اسم أورفا مشتقاً من كلمة حورّي (قارن مع الاسم اليوناني للمقاطعة المحيطة بها (أورهوين)، وله تاريخ يعود إلى الفترة الميتانية.

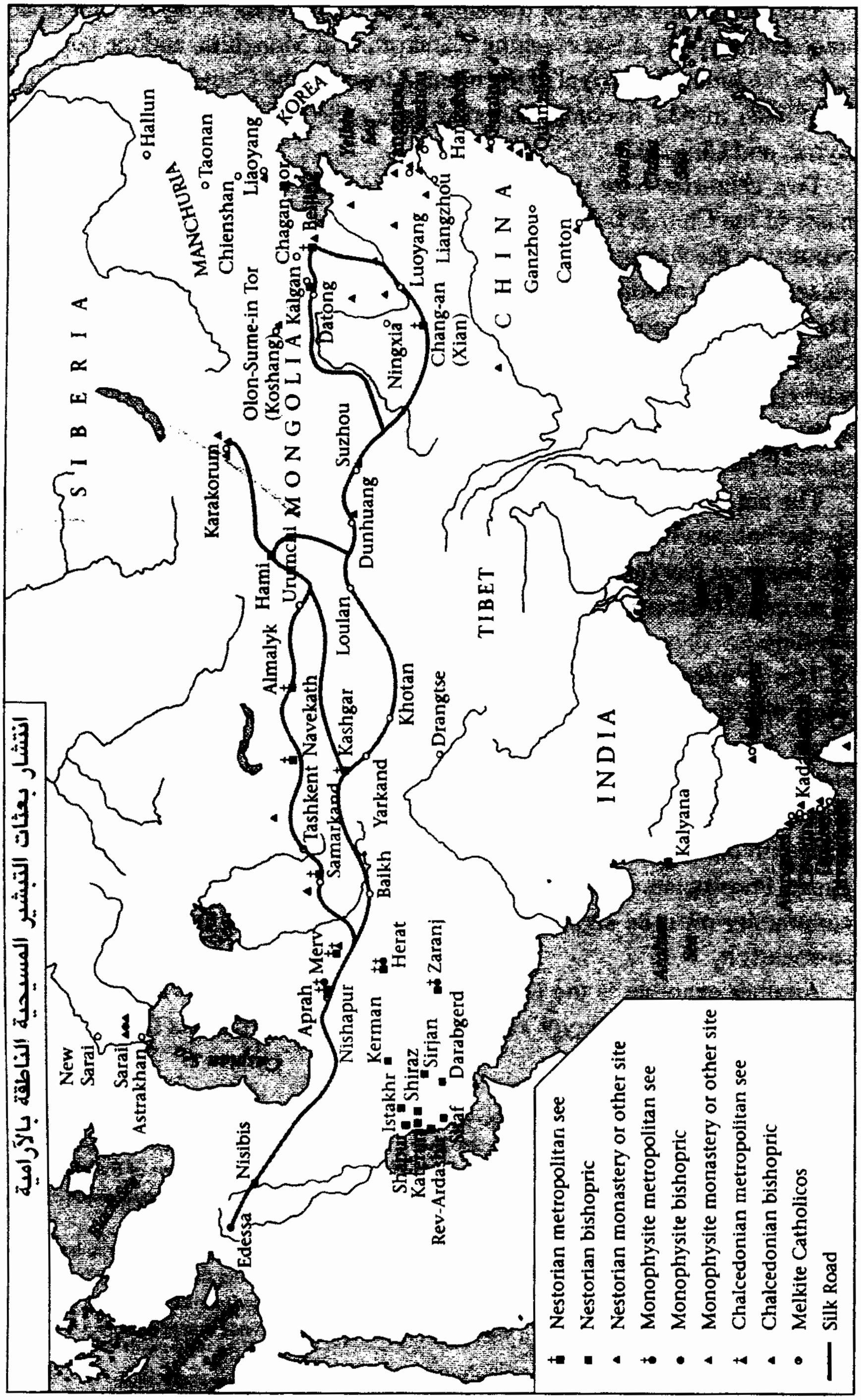
(**) لم يشكل المسلمون بأنفسهم أي تهديد مادي أبداً للناطقين بالآرامية، لأنهم اعتبروهم في كل مكان من الملل، أي الجنسيات المتميزة... المنفصلة، ولكنها محترمة. ولكن كان لدى الناطقين بالآرامية في كل مكان ميل للتخلي عن الاستعمال اليومي للغتهم لصالح اللغة العربية.

وروحي مبتهجة بحبه
وبه تتنور روحي.
ومن يخش الله يكسب الثقة،
لأن خلاصه أكيد ومضمون؛
وسوف ينال الحياة الأبدية،
والذين يتلقون هذا لن يفسدهم شيء. الشكر لله!

أناشيد سليمان، النشيد الأربعون(57)

إن انتشار لغة ما يجب تمييزه عن انتشار الدين طبعاً. فمثلاً، كانت إيديسا مصدراً للمسيحية التي وصلت إلى أرمينيا في العام 303 م. ولكن الأرمن لم يُغْرَوْا بالتخلّي عن لغتهم حتى عندما كانوا يقيمون أول كنيسة وطنية في التاريخ، وحتى لو أن الأسقف مصروب ماشتوتز ما كان بوسعه أبداً أن يصمم الأبجدية الأرمينية بدون النص الآرامي، وهي الأبجدية التي لا تزال مستخدمةً اليوم.

ومع ذلك فقد انتقلت اللغة، على الأقل بالشكل الطقوسي والمكتوب، مع الوعّاظ. فالمسيحيون من المذهب النسطوري، الذين حكم عليهم بأنهم هراطقة، فتم نفيهم من إيديسا بأمر إمبراطوري في العام 489 م، حملوا معهم السريانية إلى فارس، حيث كانت الآرامية لا تزال مستوطنة إلى حد كبير كما رأينا آنفاً. فكانت قاعدتهم التالية على الطريق تماماً في نصيبيس. ولكن النساطرة لم يتوقفوا هناك. فقد تابع مبشروهم طريقهم إلى الهند، حيث أقاموا أسقفية في كالايانا (قرب مومباي)، ومجموعة من الأديرة على مبعدة إلى الجنوب، وخاصة في كيرالا. فضموا قوتهم إلى قوة مسيحيي القديس توماس، الذين يفترض بأن تاريخهم يعود إلى الفعاليات التبشيرية لتوماس الحواري الرسول [الذي يقال إنه استشهد في الهند قرب مدراس] ـ وكان من الناطقين الأصليين بالآرامية بشكل طبيعي. وعندما أعيد اكتشاف النساطرة على أيدي الأوروبيين في القرن التاسع عشر كانوا لا يزالون يملكون أناجيل ومخطوطات دينية مكتوبة بالسريانية، رغم أنه يظهر أن تلك اللغة لم تعد مستخدمة في العبادة.



انتشار بعثات التبشير المسيحية الناطقة بالآرامية

وقد تابع النساطرة رحلاتهم شرقاً من فارس على طول طريق الحرير إلى داخل آسيا الوسطى، فوصلوا في آخر الأمر إلى قراقورم في منغوليا، والمدن الشمالية في الصين. وهناك عمود حجري يحمل نقشاً ثنائي اللغة بالسريانية والصينية أقيم في العام 781م لإحياء ذكرى وصول الراهب آلوبين إلى العاصمة الصينية تشانغان (إكسيان) في العام 635[58].

وبعد ذلك بقرنين كانوا قد اختفوا من الصين إلى حد كبير، كما أن بقايا الكنيسة على مبعدة إلى الغرب قد أبيد معظمها في القرن الرابع عشر على يد القائد العسكري تيمورلنك. ولكن النساطرة ظلوا باقين في مناطق تأسيسهم، في وادي الرافدين، وإلى الشمال في كردستان. كما أن تقاليدهم، واستخدامهم للسريانية، تعيش باقية في الكنائس الآشورية والكلدانية. وبقيت كذلك أعداد صغيرة من الناطقين الآخرين بالسريانية من التابعين لما يسمى الكنيسة اليعقوبية السورية قريبين من موطنهم حول أنطاكية وإيديسا، وكان نشاطهم التبشيري أكثر استهدافاً لطرق القوافل في الجزيرة العربية[*].

وكانت النتيجة الصافية لكل هذا التبشير البطولي متواضعة: فقد بقيت الآرامية أو السريانية في جيوب صغيرة، قريبة تماماً من مواطنها الأصلية[**]. ولكن اللغة ظلت حية. وهي مدينة بحياتها إلى تصميم الناطقين بها على الحفاظ على مجتمعاتهم. وتلك المجتمعات كلها كانت مبنية على أساس الدين.

(*) كان المسيحيون هم الناس الوحيدين الذين استمروا يتكلمون الآرامية، رغم أنهم كانوا أطول الناس بقاء. وكانت الطائفة الغنوسطية في جنوب وادي الرافدين تتكلم أيضاً لهجة أخرى من الآرامية تعرف باسم المندائية، حتى القرن الثامن على الأقل. ولمدة بضعة قرون ميلادية استمر يهود بابل وفارس أيضاً، فانتجوا التلمود البابلي الضخم اللافت للنظر بشدة. ولقد كان هذان المجتمعان منتجين للكتابات الأدبية بغزارة. [الغنوسطية هي الاعتقاد بأن المادة كلها شرّ وأن الخلاص يأتي عن طريق المعرفة الروحية].

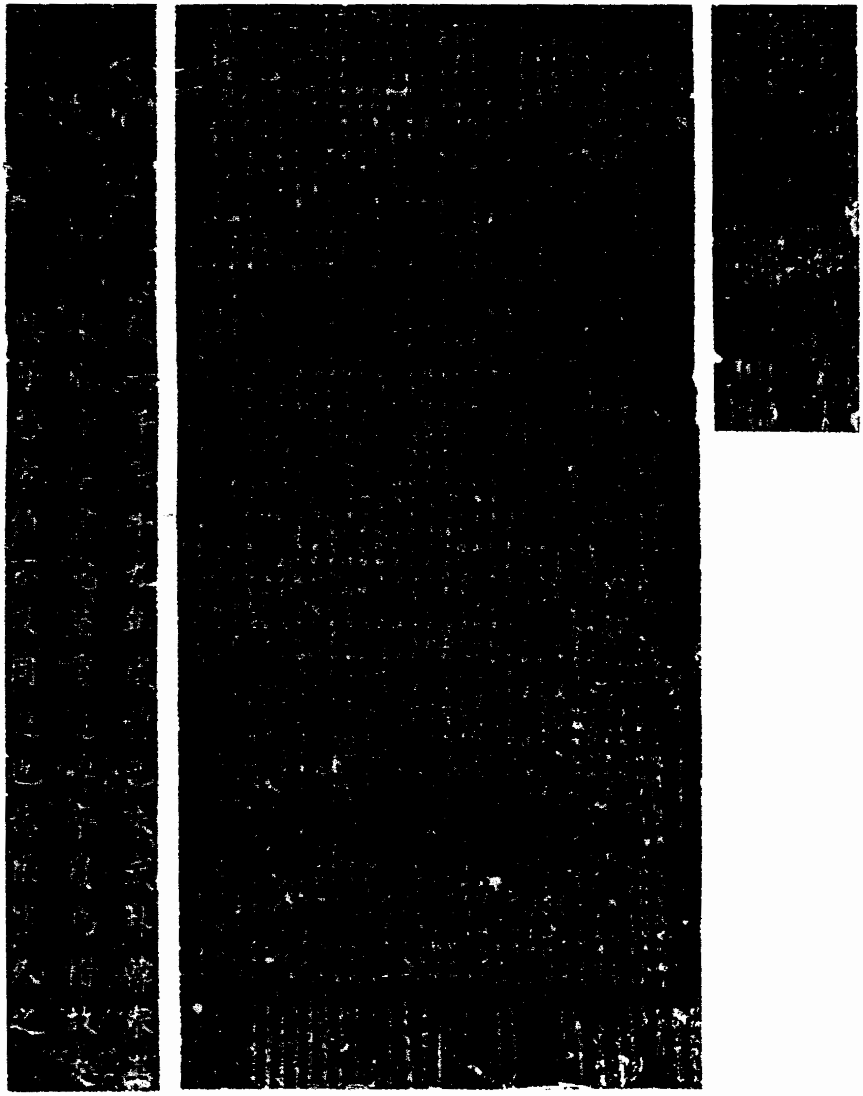
(**) وهناك عدد كبير منهم أيضاً في الشتات في العصر الحديث، في المدن الكبرى في فلسطين المحتلة، ولبنان، وسوريا، والعراق، وإيران، وتركيا. ويقال بأن كثيرين منهم قد هاجروا إلى أرمينيا وجورجيا بعد الحرب الروسية - الفارسية في العام 1827، وقد تجمع منهم عدد كبير في الولايات المتحدة الأمريكية. وقد قامت مكلور بدراسة استخدام شبكة الإنترنت لربطهم معاً (2001). وهي تستشهد بتقديرات لأعدادهم حول العالم تقول إنها تتراوح بين مليون وثلاثة ملايين.

وهذا الطريق "الطقوسي" المذهبي للبقاء عمره على الأكثر ألفان وخمسمئة عام، ويبدو أنه من الخصائص المميزة للغات الشرق الأدنى، وخاصة اللغات الآفرو آسيوية. والعبرانية أكثر اللغات لفتاً للأنظار في بقائها عن طريق هذه الاستراتيجية. وقد لاحظنا آنفاً كيف أن تمسكها بهويتها الخاصة، المتميزة بقانون ديني هو الذي يفسر بقاءها على عكس شقيقتها الفينيقية التي طواها النسيان كلياً قبل ألفي عام. ولكي تنجح هذه الاستراتيجية، لا بد أن يكون دين المجتمع اللغوي شديد الاختلاف عن دين السكان المحيطين بذلك المجتمع.

وهناك مثال آخر هو اللغة القبطية، الباقي الأخير من اللغة المصرية. وكانت ببساطة هي لغة أسلاف مصر(*) باعتبارها متميزة عن مداخلات الآرامية واليونانية اللتين دخلتا من الشرق الأدنى. ولكن بعد الفتح الإسلامي صارت تلك اللغة مرتبطة أكثر فأكثر بسكان مصر المسيحيين، ذلك أن المسيحيين في معظم أجزاء الإمبراطورية الرومانية صاروا هم الأكثرية بعد اعتناق الإمبراطور قسطنطين لدينهم في أوائل القرن الرابع الميلادي.

وقد ساءت معاملة المسلمين للأقباط بالتدريج. ولا يعرف أحد مدى سرعة انخفاض النسبة المئوية للمسيحيين من السكان. ولكنها انخفضت فعلاً، وخاصة في جنوب البلد، بحيث صار الأقباط أقوى في الجنوب على مدى بضعة قرون. ومن القرن السابع إلى آخر القرن التاسع تم ضمان الحرية الدينية والاستقلال الذاتي للأقباط، رغم أنهم خضعوا لدفع ضرائب خاصة، مثل غير المسلمين في كل مكان. ولكن في العام 829 ثار الأقباط ضد جامعي الضرائب، فتم قمعهم بقسوة. وبعد ذلك كانت الأوضاع تسوء بشكل متفرق وتتحسن بين الحين والآخر في ظل حكم سلالات مسلمة مختلفة، ولكن الاتجاه المطرد كان نحو تناقص عدد السكان الأقباط، وتناقص استخدام لغتهم خارج الطقوس الدينية. واستمرت كتابة الأعمال اللاهوتية إلى العام 820 م. واستمر نَظْم الترانيم الجديدة

(*) اسم مصر مشتق من الكلمة العربية "قبط" وتعني 'مصري' أي 'إيجبتشان'، وهي مختصر لكلمة إيجبتيوس الإغريقية.



نصب آلوبينّ التذكاري في تشانغ - آن

تلخص كتلة النص الصيني العقيدة المسيحية (المذهب المشرق من داقين) وتاريخ الكنيسة تحت الرعاية الإمبراطورية في الصين. والجزء السرياني (في الأسفل على جهة اليسار) مكتوب بأسطر عمودية، مثل اللغة الصينية، وترجمته: 'في العام 1092 من التقويم اليوناني، قام مولاي يازيد بوزيد، القسيس والأسقف النظامي لمدينة كوادن الملكية، ابن المرحوم ميليس، أسقف بلخ، المدينة في طهورستان، بتشييد هذا النصب التذكاري الذي كتب فيه قانون مخلصنا، ووعظ أسلافنا لحكام الصينيين'.

وعلى الجانبين قوائم أسماء بالصينية والسريانية

حتى أوائل القرن الرابع عشر. وكان في المجتمع اللغوي من الحيوية ما يكفي في الحقيقة لجعل لهجة الدلتا في الوجه البحري تقتلع لهجة الصعيد في الوجه القبلي لتحل محلها كلهجة قياسية معترف بها. وكرّسها البطريرك غابرييل الثاني للاستعمال في الطقوس الدينية بين العامين 1132 و1145م. ورغم وجود حالات انبعاث ثقافي بعد القرن الرابع عشر، فإن اللغة لم تعد إلى الحياة اليومية. ولكنها بقيت في الطقوس الدينية حتى يومنا الحالي، وهناك علامات على محاولات جادة لإعادة إحيائها.

فالقبطية إذن مثال على لغة في الشرق الأدنى تمّ الحفاظ عليها صامدة في فترة من الشدّة المتزايدة، من خلال ارتباطها بإيمان متميز. ويمكن مقارنتها ببقاء اللغة الجعيزية على مبعدة قليلة إلى الجنوب، وهي لغة الكنيسة الحبشية، وهي لغة تقليدية كلاسيكية (لها علاقة باللغات القديمة في جنوب الجزيرة العربية، وهي مدينة تدين بمكانتها في آخر الأمر لغزو جاء عبر البحر الأحمر في عصور ما قبل التاريخ). ورغم أنها قد بقيت، مثل القبطية من خلال دورها في الطقوس الدينية المسيحية، فإن مصيرها أكثر شبهاً من القبطية بمصير اللاتينية والسنسكريتية. فالحبشة لا تزال بلداً مسيحياً، والجعيزية محاطة بلغتين هما ابنتها وابنة أختها، وهما اللغة التيغْرِينية والتِغْريّة والأمهرية. وقد بقيت الجعيزية عن طريق النزعة العاطفية واللغوية المحافظة، ولكن التقليد اللغوي الذي تمثله لا يزال حياً ولا يتعرض لأي تهديد لغوي أو اجتماعي أو ديني من الخارج.

وعلى عكس ذلك، فإن ما يمكن أن نسميه استراتيجية "درع الإيمان" للحفاظ على بقاء اللغة قد تم استخدامه كثيراً في القرنين الأخيرين من الزمن، وبعيداً عن الشرق الأدنى أو اللغات الأفرو آسيوية. فقد كان هذا، رغم كل شيء، هو الذي حافظ على لغة 'بنسلفانيا الهولندية'، أي الألمانية، في صفوف المجتمع المنفصل من الأيميش Amish في الولايات المتحدة الأمريكية[59] وهذا هو الذي حافظ على اللغة الويلزية منذ العام 1865 في جماعة المنشقين عن الكنيسة الإنكليزية في الأرجنتين، وعلى سهول باتاغونيا التي تجتاحها الرياح[60]. ويمكن الادعاء بأن هذه الاستراتيجية يعاد تطبيقها بشدة مفرطة في إعادة بناء اللغة

العبرانية في دولة إسرائيل الجديدة في فلسطين المحتلة.

ولكن علينا الآن، في الجزء الأخير من استعراضنا لهذه المنطقة، أن نلتفت إلى لغة أخرى استثمرت ارتباطاتها المذهبية بلا هوادة، ليس لمجرد البقاء، بل من أجل التوسع، والتوسّع السريع بشكل مستمر أكثر من أي لغة معروفة أخرى.

العربية ـ البلاغة والمساواة: انتصار 'التسليم'

أحبوا العرب لثلاث: لأني عربي، والقرآن عربي، وكلام أهل الجنة عربي.
حديث منسوب للنبي محمد ﷺ[61]

العربية لغة سامية أخرى ذات صلة وثيقة بالآرامية والأكادية اللتين سبقتاها في الشرق الأدنى. وتعود سجلاّتها في الحقيقة إلى نصوص في شمال الجزيرة العربية من القرن الرابع ق.م. ولكن الناطقين بها، وهم بشكل رئيسي بدو صحراويون ورعاة، ظلوا خارج نطاق السيطرة الفعالة (وربما الاهتمام) لجميع الإمبراطوريات السابقة في المنطقة.

وعندما أظهروا قوة همتهم، كانت النتائج مذهلة حقاً. ففي غضون خمسة وعشرين عاماً بعد وفاة النبي محمد في العام 632 م. وكانوا قد فتحوا كل الهلال الخصيب، وفارس، واندفعوا إلى داخل أرمينيا وأذربيجان. بل إن تقدمهم الصاعق كالبرق كان أكثر اختراقاً نحو الغرب: فسقطت مصر في أيديهم في العام 641 م. وتبعها شمال إفريقيا حتى تونس في السنوات العشر التالية. وبعد ذلك بجيلين، عند حلول العام 712 م، كانت العربية قد صارت وسيلة العبادة والحكم في شريط متواصل من الأراضي المفتوحة من طليطلة وطنجة في الغرب إلى سمرقند والسند في الشرق. ولم يستطيع أحد أبداً أن يقدّم تفسيراً واضحاً للطريقة أو السبب اللذين مكّنا العرب من القيام بذلك[62]. فيلجأ البعض في العادة إلى التفسير القائل بوجود فراغ في القوة في الشرق (عندما كانت الإمبراطورية الرومانية/البيزنطية

والإمبراطورية الفارسية الساسانية تتعافيان من الحروب التي أرهقتهما)، مع غياب أي قوة تنظم المقاومة في الغرب.

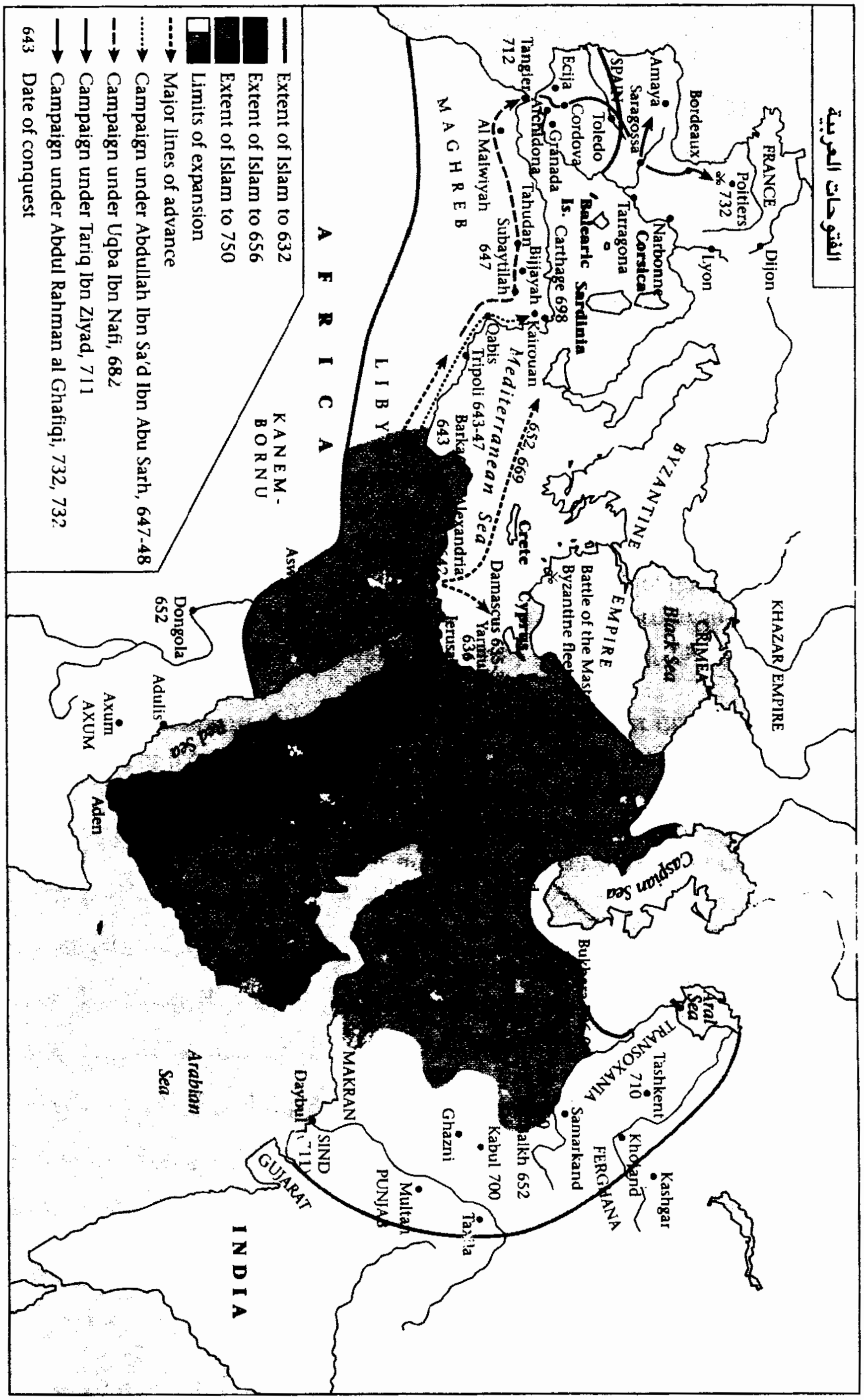
ومهما كان السبب الذي أضعف الدفاعات، فإن سلسلة من الغارات العربية الناجحة أصبحت موجة منسجمة من الغزو وراح جريانها يتلاحق بزخم إعصار التسونامي. وكان أصل ذلك دولة صغيرة جديدة قامت على مدينتي مكة والمدينة في الجزيرة العربية وقوّاها مؤخراً وحي إلهي، فاعتنقت عقيدة جديدة فيها تجريد مذهل:

لا إله إلا الله، محمد رسول الله

وهذه الشهادة التي يعلن فيها المسلم إيمانه، والمحترمة باعتبارها أول أركانه، لها قوة أساسية عظمى، فكانت إيماناً تحوّل من درع إلى سيف. ومع ذلك فإن اسم هذا الإيمان "الإسلام" يترجم عادة على أنه يعني 'التسليم' (لله)، وجذره السامي "سلم" (وفاعله مسلم)، وهو أساس كلمة 'السلام' (كما في التحية العربية 'السلام عليكم'). فمن المفارقة المزدوجة إذن أن هذا الدين الذي يعني اسمه القبول السلمي قد انفجر على العالم هكذا بقوة عاصفة.

ولكن أهمية اللغة في الإسلام تذهب إلى ما هو أبعد بكثير من إنتاج شعار شديد الأثر. فالبلاغة، قوة الكلمة المحضة كما أنزلها الله وخوطب بها كل من يسمع، كان لها الدور الأول في كسب المؤمنين بالإسلام، دون أن يترك ذلك للسامعين أي تفسير لجمال كلمات محمد سوى أنها وحي إلهي. والمثال التقليدي الكلاسيكي على ذلك عمر بن الخطاب، المعاصر لمحمد، والحجة المعترف بها في معرفة الشعر المنقول شفهياً، والذي صمم على معارضة محمد، وربما حتى اغتياله. فعندما واجهته كلمات النبي مباشرة لم يستطع إلا أن يصيح: 'ما أجمل هذا الكلام وأنبله!' وهكذا أسلم.

ولقد استعملت اللغة بطريقة فذة في نشر هذا الدين أيضاً. فالأحاديث الصحيحة للنبي، وهو الرجل الأمي، سرعان ما تم تدوينها كتابياً بحيث أصبح نصها الذي تم التوصل إليه مقدساً وصحيحاً بصورة مطلقة، فلم يعد بالإمكان


الفتوحات العربية
Extent of Islam to 632
Extent of Islam to 656
Extent of Islam to 750
Limits of expansion
Major lines of advance
Campaign under Abdullah Ibn Sa'd Ibn Abu Sarh, 647-48
Campaign under Uqba Ibn Nafi, 682
Campaign under Tariq Ibn Ziyad, 711
Campaign under Abdul Rahman al Ghafiqi, 732, 732
643 Date of conquest
FRANCE
Poitiers
732
Bordeaux
Dijon
Lyon
Narbonne
Corsica
Amaya
Saragossa
SPAIN
Toledo
Cordova
Ecija
Granada
Tarragona
Balearic Is.
Sardinia
Tangier
712
Carthage 698
Bijjayah
Kairouan
Tahudah
Subaytilah
647
Al Malwiyah
MAGHREB
Qabis
Tripoli 643-47
Barka
643
Mediterranean Sea
652, 669
Crete
Cyprus
Damascus 635
636
BYZANTINE EMPIRE
Battle of the Masts
Byzantine fleet
Black Sea
CRIMEA
KHAZAR EMPIRE
Caspian Sea
LIBYA
AFRICA
KANEM-BORNU
Dongola
652
Adulis
Axum
AXUM
Red Sea
Aden
Arabian Sea
Aral Sea
TRANSOXANIA
Tashkent
710
Samarkand
FERGHANA
Kashgar
Khokand
Balkh 652
Kabul 700
Ghazni
MAKRAN
Daybul
SIND
711
Multan
PUNJAB
GUJARAT
INDIA

تغييره، رغم أنه كان من المسموح (كما في النصوص العبرانية) أن توضع على حواشيه بعض النقاط والخطوط كعلامات على حروف العلة بالنسبة لمن تكن العربية لغتهم الأم، والذين قد يحتاجون نتيجة لذلك إلى بعض المساعدة في قراءة الحروف الصامتة غير المشكلة(*). وكان هذا معروفاً بأنه "تلاوة" القرآن. والقرآن كلمة جذرها قـ ر ـ أ. وهو الجذر السامي للكلمة التي تعني القراءة بصوت عال، والمشهورة بأنها بداية الوحي الذي جاء به جبريل لمحمد بالآيات:

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾(63).

إن هذه النصوص المتميزة، وهي مجموعة مغلقة إغلاقاً كلياً، هي كنز الإسلام العظيم، يفكر فيها المؤمنون ويتلونها باستمرار. ويبدو أن وجودها قد أخذ به المسلمون باعتباره الشارة المميزة للدين الصحيح الموحى به، لأن حملة الديانات التوحيدية الأخرى الموحى بها والمقيمين في ديار المسلمين، أي اليهود ونصوصهم المعروفة بمجموعها باسم التناخ، والنصارى وأناجيلهم، والزرادشتيين في فارس وكتابهم الأفيستا، قد أطلق عليهم بالمثل اسم "أهل الكتاب"، وبذلك تم إعفاؤهم من اعتناق الإسلام بالقوة(**).

إن التأثيرات اللغوية للحملة العربية الخاطفة الكاسحة لا يمكن مقارنتها إلا بتأثيرات الاقتحام الإغريقي الجامح للممتلكات الفارسية قبل ذلك بتسعة قرون. وقدّر لتأثيرات الحملة العربية في آخر الأمر أن تدوم أكثر من التأثيرات الإغريقية. ولكن، مثل انتشار الإغريقية عبر الشرق، فإن الأخذ بالعربية لم يصل إلى درجة انتشار السلطة الزمنية التي سببت تقدمها.

(*) وقد سبب هذا بعض المشاكل في فقه اللغة، لأن لهجة محمد العربية كانت تختلف اختلافاً طفيفاً عن اللغة السائدة، فكانت تنقصها الوقفة الحلقية المعروفة بالهمزة (وهي الوقفة المسموعة في مكان حرف التاء المشددة في كلمة better عندما ينطقها أهل لندن فيقولون بَأْرْ بدلاً من بَتَرْ)، وكذلك فقدت نون التنوين في آخر الكلمة في حالة الرفع، وقلبت تاء التأنيث إلى هاء ساكنة عند الوقف. وكان الباحثون يريدون الاحتفاظ بالنص كما هو مكتوب بالضبط، ولكنهم يتلونه حسب قواعد العربية الفصحى. ونتيجة لذلك، كان يجب إدخال كل هذه الحروف العربية الساكنة في النص المكتوب مع علامات تشكيل خاصة بالنبرة وكأنها حروف علة. وصارت هذه العلامات الآن قياسية موحدة في التهجئة العربية.

(**) [ملاحظة: إن البشرية كلها معفاة من اعتناق الإسلام بالقوة، وليس هؤلاء فقط، بدلالة قوله تعالى 'لا إكراه في الدين' ـ المترجم]

فمن الناحية السياسية، قامت الحملات العربية بتدمير قبضة الإمبراطورية الرومانية (التي صارت آنذاك هي البيزنطية) على شرقي البحر الأبيض المتوسط كله باستثناء بلاد الأناضول. ورغم محاولات العرب أخذ القسطنطينية، فإن مركز القوة الروماني هذا عاش مستمراً في تحديه المسيحي ثمانية قرون أخرى. وعلى مبعدة إلى الشرق، اجتاح العرب أرمينيا، ولكنهم لم يحوّلوها إلى الإسلام. وكان الشيء الأهم هو إنهاء العرب للقوة الساسانية في فارس وجبال أفغانستان. فكانت هذه بداية نهاية الزرادشتية، التي حلت محلها الديانة الإسلامية في العبادة الشعبية. وهي باقية اليوم فقط في صفوف الأقلية البارسية الصغيرة التي قدر لمنتسبيها أن يهربوا إلى الهند بعد ذلك بثلاثة قرون.

ومن الناحية اللغوية، كانت التأثيرات اللغوية مشابهة للتغيرات السياسية. فقد رسّخت العربية نفسها كلغة للدين حيثما تم قبول الإسلام أو فرضه(*). وفي مجال ما هو مقدس، فإن الإسلام، على عكس المسيحية، لم يبحث عن فهم له باللغات العامية الدارجة، ولا عن ترجمة إلى لغات أخرى. كان الوحي بسيطاً، ومعبراً عنه باللغة العربية فقط. وعلاوة على ذلك، فإن الإسلام دين يصر على تأدية الصلوات بالعربية، حيث يصدح صوت المؤذن يومياً داعياً المؤمنين إلى الصلاة مراراً بنداء عربي: 'الله أكبر'.

وفي العام 700 م. استدعى الخليفة بدمشق، عبد الملك، مستشاره اليوناني يوحنا الدمشقي ليخبره بأنه قرر اعتباراً من ذلك الحين أن يحظر استعمال اليونانية في كل شؤون الإدارة العامة. فقال المستشار لزملائه: 'من الأفضل أن تبحثوا عن مهنة أخرى لكسب عيشكم، فإن عملكم الحالي قد سحبه الله'، ثم أمضى بقية حياته الطويلة (655 ـ 749) كراهب[64].

كان هذا هو التطلع الطموح. فمن الناحية العملية، وعلى امتداد الأجيال القليلة الأولى، ظلت الأعمال الإدارية تتم باللغات السابقة، اليونانية، والفارسية، وإلى حدٍ ما الآرامية والقبطية، ليس على الأقل لأن الفاتحين لم يكونوا قادرين

(*) [ملاحظة: مرة أخرى نقول للمؤلف: الإسلام لا يفرض على أحد، بدلالة 'لا إكراه في الدين' ـ المترجم].

على تشغيل الأنظمة المكتبية البيروقراطية المعقدة التي سيطروا عليها، ولأن طرائق التعيين في وظائفها كانت في معظمها تقوم على محاباة المقربين. فقد ظلت الأسر نفسها هي التي تقدم طبقات الكتّاب. ولكن عند حلول القرن الثاني من العصر الإسلامي كانت تلك الأسر تقرأ وتكتب بالعربية. ويمكن متابعة العملية وفق خط سير أوراق البردي في مصر. ففي القرن الأول الذي تلا الفتح الإسلامي ظلت جميع الوثائق باليونانية، ثم دخلت ثنائية اللغة إليها. ولكن العربية حلت محل اليونانية بشكل كلي في أواخر القرن الثامن الميلادي فقط، أي بعد مئة وخمسين عاماً من دخول الإسلام[65].

ولكن التكلم بالعربية لا يمارس إلا في منطقة داخلية ضمن "دار الإسلام" ككل. فما الذي جعله يتراجع؟ على المدى الطويل كان هناك حد لغوي خفي لنجاح العرب، أو بالأحرى لنجاح العربية. فقد تقدمت العربية من كونها لغة المسجد لترسّخ نفسها بشكل دائم كلغة دارجة عامة بين الناس فقط في البلدان التي كانت في السابق تتكلم لغة لها بعض الصلة بالعربية، وتنتمي إلى أسرة اللغات الأفرو آسيوية (أو الحاميّة ـ السامية)(*).

وقد شملت هذه المنطقة الآسيوية الهلال الخصيب، الذي حلت فيه العربية محل الآرامية، ومصر التي تغلبت فيها العربية على القبطية، وليبيا وتونس اللتين اقتلعت العربية البربرية منهما وحذفت البونية ـ أو اندمجت فيها ـ والمغرب (شمال الجزائر ومراكش الحديثتين)، حيث قامت العربية أيضاً بإرجاع البربرية إلى مجموعة من الجيوب الصغيرة. كما أن جزيرة مالطا الصغيرة، ذات الخلفية

(*) لقد تبين أن الأبجدية العربية كانت لها جاذبية عالمية أكثر من لغتها، فقد تم الاخذ بتلك الأبجدية حيثما تم قبول الإسلام. وذلك برغم نقاط ضعفها الوظيفية، كعدم وجود علامات لحروف العلة وتشكيلات لطريقة لفظها، والحاجة إلى لهجات أو نبرات واضحة التفاصيل لتمييز كل الحروف الصامتة. ومع ذلك امكن التوصل إلى تسويات، مع تطبيقها على لغات منفصلة وغير ذات علاقة بالعربية، كالفارسية، والتركية، والكشميرية، والبربرية، والأويغورية، والصومالية، والهوسا، والسواحيلية، والملايوية، وكذلك الإسبانية والصربو - كرواتية. ويعود نجاح الأبجدية هذا إلى أن معرفة القراءة والكتابة في البلدان الإسلامية تجد مبدأها ومنتهاها في النص المقدس للقرآن بالحروف العربية، وهكذا فإن أي نظام كتابي آخر لن يكون سوى تعقيد إضافي.

البونية من أصلها في الإمبراطورية القرطاجية، راحت تتكلم العربية بعد الفتح العربي في العام 870 م. وتنكرت لسيطرة روما عليها ألف عام منذ العام 218 ق.م. وقد شملت منطقة التقدم الدائم للغة العربية أيضاً منطقة هامشية، أو أكثر ميلاً إلى الجنوب فيما بعد، في إفريقيا، في موريتانيا غرباً، وفي تشاد والسودان شرقاً، فقد انتشرت العربية هناك في وقت لاحق عن طريق التجارة، وكانت ستحل محل بعض اللغات التشادية والكوشية.

وفي جميع هذه المناطق التي أصبحت العربية فيها هي اللغة السائدة، دخلت حالة يمكن تسميتها 'التفسير المختلط'، بحيث صار شكل وحيد من العربية الفصحى هو لهجة النخبة، ولكن معه لهجات محلية مختلفة ليس فهمها المتبادل أكثر من فهم اللغات الرومانسية (ذات الأصول اللاتينية) في أوروبا. فالعربية الفصحى قريبة من لغة القرآن، ولكن ليست متطابقة معها تماماً.

إن تفسير محدودية انتشار العربية لا بد أنه لغوي - اجتماعي، وليس سياسياً أو دينياً أو ثقافياً، ما دامت الأوضاع التي انطبق فيها كانت شديدة التنوع.

فبلاد فارس، التي ظلت ألف عام تحت سيطرة الأخمينيين، والمقدونيين، والفرثيين، والساسانيين، كانت قلعة متغطرسة للزرادشتية. ومع ذلك فقد أخضعها العرب إخضاعاً عسكرياً كلياً في عشرين عاماً اعتباراً من العام 634 م. وبعد ذلك انتشر الإسلام فيها بالتدريج، رغم أن الثورات الدينية ظلت تحدث فيها حتى مضي وقت كبير من القرن التاسع الميلادي. ثم أصبحت في قلب ديار الإسلام، بل والحصن المنيع للمذهب الشيعي، وبقيت مسلمة منذ ذلك الحين.

وبحلول منتصف القرن الثامن، أصبحت العربية هي اللغة الرسمية للحكومة في جميع أنحاء فارس، فحلت محل لغات الفرثيين البهلوية في الغرب، والصغد في أقاصي الشرق[66]. وفي أوائل تلك الفترة كانت ثنائية اللغة العربية - الفارسية واسعة الانتشار حتى في بلاط الخليفة، ولا سيّما في أيام هارون الرشيد (786-809 م.)، الذي تحول إلى شخصية أسطورية من خلال ظهوره المتكرر في "ألف ليلة وليلة". ويحكي الجاحظ (المتوفى في العام 869 م) قصة

فقيه كان يتلو القرآن، ثم يفسره بالعربية للجالسين على يمينه، وبالفارسية للجالسين على يساره. وكان الشعراء من بلاد فارس، مثل أبي نواس وبشار بن برد، شخصيات هامة في تاريخ الأدب العربي(67). وكانت هناك مستوطنات استقر فيها الفرس في الجزيرة العربية، وسوريا، ويدّعي الجغرافي العربي المقدسي أن أصفى لغة عربية عند نهاية القرن التاسع الميلادي كانت هي المحكية في خراسان، في شمال شرق فارس، لأن الباحثين هناك بذلوا جهوداً كبيرة لتعلمها بشكل صحيح(68). وعلى مستوى النخبة، لا بد أن العربية قد حققت انتشاراً عالمياً شاملاً ضمن بلاد فارس.

ومع ذلك، فإنها لم تتغلغل داخل أي جزء من بلاد فارس كلغة للحياة اليومية(*). وبمعنى ما، فإن الإصرار على امتياز العربية المنطوقة في فارس يكشف عن كونها لم تترسخ بصورة جذرية، ولم تأخذ طابعها كلهجة محلية، كما فعلت في كل مكان من العالم الناطق بالعربية. فالجغرافيون الذين يصفون المدن الكبرى في الغرب في القرن التاسع الميلادي يقولون إنها كانت تتكلم الفارسية. ويذكر ابن حوقل أن جميع سكان قمّ كانوا شيعة، ومعظمهم عرب، ورغم ذلك فقد كانوا جميعاً يتحدثون بالفارسية(69). ومن المفارقة أنه يبدو أن تقدم الإسلام قد دعم انتشار اللغة الفارسية إلى الشرق: فالفتوحات العربية في آسيا الوسطى البوذية في القرن الثامن نشرت الفارسية، على حساب اللغات المحلية، وخاصة لغة الصغد. والمفروض أن معظم القوات كانت من فارس الشرقية، حيث كانت اللغة المشتركة ما تزال هي الفارسية(70). وهذا هو سبب كون طاجيكستان، والنصف الشمالي الغربي من أفغانستان تتكلم الفارسية حتى يومنا هذا. وبعد ذلك بخمسمئة عام، عندما تغلغل جيش إسلامي إلى ما وراء ذلك في الهند، وأقام سلطنة دلهي، فإنه جاء في أعقابه باللغة الفارسية، وليس العربية.

وعلى بعد ستة آلاف كيلومتر، في الطرف الآخر من ممتلكات الإسلام، في شبه جزيرة إيبيريا، انتشر الإسلام على حدّ السيف على أيدي جيش يتكون

(*) [ملاحظة: يستخدم مؤلف الكتاب اسم "إيران" وهذا خطأ، لأن هذا الاسم لم يؤخذ به رسمياً إلا في العام 1926 تحت حكم رضا بهلوي الذي استولى على السلطة من أسرة قاجار ـ المترجم].

معظمه من البربر الذين أسلموا(*). فتحت إمرة قائدهم طارق بن زياد، عبروا مضيق جبل طارق في العام 711 م (رمضان عام 92 هـ) وبعد أن دحروا الملك القوطي رودريك، وجدوا أنفسهم سادة للبلد(**). (وقد حاولوا بالفعل شن غارة كبرى إلى الشمال من جبال البيرانيس بعد ذلك بعشرين عاماً، فوصلوا إلى بواتييه في فرنسا الوسطى في العام 732 م ولكنهم أُبعِدُوا عنها)(***) وكانت أمامهم سبعمئة وخمسون عاماً من الحضور الإسلامي في أسبانيا والبرتغال، حيث كان البلد يعرف نفسه باسم "الأندلس". وكان تاريخه قصة أمراء مختلفين يتنازعون على السلطة. وأصبحت قرطبة على وجه الخصوص إحدى الجواهر الثقافية للإسلام كله، وموطناً للشعر العربي خاصة. بل إن الأمير عبد الرحمن الثالث [الناصر] قد اعتبر نفسه عظيماً وقوياً بما فيه الكفاية لإعلان نفسه خليفة، أي "أميراً للمؤمنين" في العام 929 م (317 هـ) للمسلمين جميعاً. ورغم ذلك، فإن منطقة سيطرة المسلمين راحت تنضوي بعد ذلك بالتدريج، عندما صار الملوك النصارى أقوى في ليون، ونافار، وبعد ذلك في قشتالة وآراغون. فسقطت في أيديهم طليطلة في العام 1085 م (375 هـ)، مما سبب غارة جديدة للبربر من المرابطين استدعيت لإعادة التوازن بين المسلمين والنصارى. ولكن، بعد ذلك بفترة عاود المدّ انتشاره ضد المسلمين، فسقطت قرطبة في العام 1236م، وأشبيلية في عام 1248، واختتمت عمليات الاستعادة بسقوط غرناطة في العام 1492م.

وأثناء هذه الفترة الطويلة لا بد أن إيبيريا كانت منطقة ثنائية اللغة ـ وربما ثلاثية طيلة احتفاظ الغزاة البربر بلغتهم الأصلية. وقد ادعى البعض بأن الإسبانيّة، أو سلفها اللغة الرومانسية، كانت قد تلاشت تقريباً في المنطقة

(*) [هذه فرية أخرى يصر عليها المؤلف: لم يسلم أحد في الدنيا بحد السيف: 'لا إكراه في الدين'، ويشهد على ذلك نصارى الأندلس ويهودها... مثل إلفارو أسقف قرطبة في العام 845 م والحاخام أبراهام بن عزرا في القرن الثاني عشر الميلادي ـ المترجم].

(**) [وكان معهم يوليان حاكم سبتة، وغيطشة ملك إسبانيا الشرعي الذي كان رودريك قد اغتصب منه الحكم ـ المترجم].

(***) [تلك هي واقعة بلاط الشهداء، التي احتل المسلمون مرسيليا بعدها بثلاثة أعوام في العام 735م ـ المترجم]

الإسلامية عند حلول القرن الثاني عشر، وحلت محلها العربية "الأندلسية"، وليس الفصحى. فقد أظهرت طبيعة لهجتها أن الناس قد أخذوا بها على نحو جدي. ومن المؤكد أنه بعد أكثر من مئة عام من عودة السلطة المسيحية إلى طليطلة، كانت أعداد كبيرة من الوثائق لا تزال مكتوبة ومعلنة باللهجة الأندلسية(71)، على أيدي كتّاب العدل. فقد كتب فريدريكو كورينت، الخبير بالأندلسية: 'إن ثنائية اللغة تطورت بسرعة إلى لغة أحادية، وهذه عملية اكتملت في القرن الثالث عشر، مما يجب أن لا يجعلنا ننسى بأن الجيوب الثنائية اللغة لم تكن سوى بقايا في القرنين الحادي عشر والثاني عشر'(72).

وقد تم اتخاذ خطوات تنفيذية وتشريعية من قبل السلطة الجديدة لإزالة الكلام العربي على امتداد ثلاثة أجيال على الأقل بعد العام 1492 م. ففي العام 1501 و1511 تم سن قوانين ضد امتلاك معظم الكتب العربية. وفي العام 1511 صدر مرسوم (بلا جدوى، كما يظهر) لم تعد بموجبه العقود المكتوبة بالعربية صحيحة. وفي العام 1526 كان شارلس الخامس لا يزال يجد أن من الضروري أن يأمر في مجلسه باستخدام اللغة القشتالية الإسبانية فقط في الكلام، وفي كتابة العقود، وفي الأسواق. وحتى في العام 1566 كان فيليب الثاني يصدر مرسوماً بأنه في غضون ثلاث سنوات يجب عدم السماح للمور (أي المسلمين "المدجّنين") بأن يتكلموا العربية، بل القشتالية فقط.

ففي بلاد فارس إذن، لم تستطع العربية ـ برغم نفوذها الديني ـ أن تتغلب على الخمول الثقافي؛ أما في إسبانيا، فعلى الرغم من نجاحها الكبير في بادئ الأمر، فإنها خضعت في النهاية للقمع السياسي، والعسكري، والديني. وأما في المنطقة الوسطى بين هاتين، أي في شمال إفريقيا، فقد كانت الصورة أبسط. إذْ رسّخت اللغة العربية نفسها أوّلًا في المدن، حيث كانت اللاتينية منافستها الرئيسية المباشرة ـ وتليها في ذلك إلى حد ما اللغة البونية، كما شاهدنا آنفاً. وبالنسبة للبربر، الذين قبلوا الإسلام بسهولة تامة، كانت العربية بادئ الأمر قد أخذ بها باعتبارها لغة الإيمان. فكان لذلك تأثير كبير تماماً، بسبب دور العربية في تعليم الإسلام، وتأثير أكبر عندما بدأ رجال النخبة يرسلون أبناءهم إلى الشرق لدراسة الفقه والقانون والشريعة.

وحافظ بربر الممالك الداخلية على استقلالهم بقدر ما استطاعوا، ولكن ليس هناك دليل على أي محاولة لهم لإبعاد الإسلام بحد ذاته.

ويبدو أن العربية لم تحرز تقدماً حقيقياً إلا في القرن العاشر الميلادي، بعد تدمير المجتمع البربري على أيدي بني هلال، من مجموعات البدو الرحل[73]. إذ يبدو أنهم قد انقضّوا على المجتمع المغربي بصورة سريعة مفاجئة أثناء نزاع بين الإمارات بينما كان الفاطميون يحاولون جعل خليط من أتباعهم الزيريين يستقرون هناك، وهم عشيرة من البربر محكومة من تونس. وبعد ذلك بمئتي عام، جاء ابن خلدون، المؤرّخ ذو الأصل البربري، (مع جذور أندلسية) فكتب بالعربية وشبّه بني هلال 'بسرب من الجراد': 'بل إن الأرض نفسها قد غيرت طبيعتها كما يبدو. فكل الأراضي التي فتحها العرب في القرون القليلة الماضية قد رحلت عنها حضارات، كما رحل منها سكانها ...'[74].

غير أن ذلك قد وضع المدن الناطقة بالعربية في موقع تُقدم منه إمدادات لهذا العالم الجديد في شمال إفريقيا: 'عندما يكون هناك تغير كلي في الظروف، فكأن الخليقة كلها قد تغيرت، وكأن العالم كله قد تحول. وكأنه قد حدث خلق جديد، أو إعادة ولادة، أو كأن عالماً جاء إلى الوجود من جديد'[75].

كان البربر ذات مرة هم المجتمع اللغوي المسيطر في جميع أنحاء شمال إفريقيا. فصاروا الآن مرتبطين بمناطق نائية، وبحياة غير مستقرة. ولا تزال لغتهم باقية مع ذلك، وهي أقوى ما تكون في المنطقة الغربية من المغرب، التي لم يصل إليها بنو هلال أبداً في تغلغلهم، وبين قبائل الطوارق الرحّالة في الصحراء، رغم وجود جيوب كبيرة ما تزال على سواحل البحر الأبيض المتوسط.

وأخيراً تأمل في الأتراك، القوى البدوية الرحّالة التي اتصلت باللغة العربية، ليس عن طريق غزو الناطقين بها لهم، ولا عن طريق التبشير العربي للأتراك، بل عن طريق أخذ الأتراك لزمام المبادرة وغزوهم العرب. فقد جاء الأتراك من الشمال الشرقي، فسيطروا أول الأمر على المناطق الشرقية من السلطة

الإسلامية، ثم تحركوا للاستيلاء على المركز في بغداد، وبعد ذلك توسعوا حتى أمسكوا بالسيطرة الفعلية على "دار الإسلام" كلها. وبعد انتصارهم، لم يكن هناك من يعادل تمسكه بالإيمان الإسلامي تمسك الأتراك به. ومع ذلك فقد تمسكوا بلغتهم حتى عندما اعتنقوا هذا الدين.

وكان لهم تأثير لغوي آخر: فقد أرخوا قبضة اللغة العربية على فارس ككل. وكان الأتراك قد التقوا بعالم الإسلام عن طريق المنطقة الناطقة بالفارسية في آسيا الوسطى. وبمعنى ما فقد رأوا الإسلام من خلال قناع من الشاش الفارسي فقط. وهكذا فبعدما بدأ الأتراك يمارسون نفوذهم، عادت الفارسية إلى بلاد فارس كلغة إدارية رسمية، وأخذت العربية تنحصر أكثر فأكثر في المهمات الدينية.

إن مجيء السيطرة التركية تحت حكم السلاجقة(*) في القرن الحادي عشر يوضح للمرة الأولى ظهور تقسيم المهمات بين مسؤوليات الخليفة الروحية، والمسؤوليات الزمنية للسلطان، الحامي الوطني للخليفة، فقد كان السلطان يعتمد على جيش تركي، ولكنه استفاد بشكل كامل من خبرة الإداريين الناطقين بالفارسية[76]. فلم يقيّض للعربية أن تنتشر عبر اتساع مناطق الشعوب الناطقة بالتركية الممتدة إلى قلب آسيا، حتى عندما اعتنقت تلك الشعوب الإسلام. فقد كانت للأتراك لغة مشتركة لاستخدامها مع رعاياهم الجدد، وكانت هي الفارسية. فقد كانوا جميعاً يتكلمون الفارسية. أليس كذلك؟ فلم تكن هناك حاجة إلى العربية إلا لمخاطبة الله وحده(**).

وكان هذا بالفعل هو نمط كل الحالات الأخرى لانتشار الإسلام في الألف الميلادي الثاني، ولا سيّما من شمال إفريقيا جنوب الصحراء، ومن مصر والجزيرة

(*) قد يكون من الجدير بالملاحظة أن حرف الجيم في هذه الكلمة ينطق جيماً كما في كلمة judge الإنكليزية.

(**) ولكن المرء يظل متسائلاً لماذا كان نهج الألمان، ولا سيما عشائر القوط، مختلفاً إلى حد كبير عندما سيطروا على الحضارة الأعلى المجاورة لهم في العام 410 م (عندما نهبوا روما) ليضعوا أنفسهم على الفور تقريباً في موقع حماة الإمبراطورية الرومانية. ولكن في الحالة الأوروبية، كانت هناك لغة ثالثة تؤدي الدور الذي قامت به اللغة الفارسية: فقد كانت اللاتينية ما تزال لغة السلطة الزمنية، وكذلك لغة الكنيسة الرومانية.

العربية نزولاً على طول الساحل إلى شرق إفريقيا ومدغشقر، ومن بغداد وبخارى إلى سيبيريا وآسيا الوسطى، ومن أفغانستان إلى الهند فجنوب شرقي آسيا؛ فتم قبول العربية كلغة مقدسة، ولكن لم يكن هناك اتجاه لانتشارها كلغة عامية دارجة، ولا حتى كلغة اتصال مشتركة بين السكان المسلمين الجدد. وباستثناء الناطقين بلغة الهوسا في غرب إفريقيا، لم يكن أي من المجتمعات التي اعتنقت الإسلام يتحدث باللغات الأفرو - آسيوية، وهكذا فإن ذلك يتمشى مع القيود اللغوية(*).

وقبل أن نترك موضوع انتشار العربية والقيود التي حدّت منه، فإن من الصحيح أن ننظر في طريقة أخرى ربما كان من المتوقع انتشار العربية بواسطتها ولكنها في الحقيقة لم تنتشر. فعلى الأقل منذ بدء القرن الأول الميلادي حتى مجيء المغامرين الأوروبيين في القرن الخامس عشر كان من المعروف أن البحّارة العرب، ربما مع بعض المنافسة من الفرس، قد اضطلعوا بمعظم التجارة البحرية بين الشرق الأدنى وسواحل إفريقيا والهند.

تعود الشهادة الأولى بتاريخها إلى القرن الأول الميلادي، في الدليل اليوناني للبحارة المعنون "الرحلة حول المحيط الهندي".

> (16§) وعلى مسافة يومين في البحر بعد ذلك تقع آخر مدينة للتسوق في قارة آزانيا [إفريقيا الشرقية] وهي تدعى رابتا، واسمها مشتق من القوارب

(*) إن الهوسا، المتركزة في كانو، في نيجيريا الشمالية، هي أكثر من مشكلة، بالنسبة للقيود والمحدودية. فلها ملامح معينة تذكرنا بالعربية. ففيها مثلاً جنسان، مذكر ومؤنث، ويتميز المؤنث بفتحة (تشبه الفتحة الهاء الساكنة بالعربية)، ويغيب عنها الحرف -p- كما في العربية، فتضع مكانه حرف f في الكلمات المستعارة من لغات أخرى. وقد ملأها الناطقون بها (وغالبيتهم العظمى من المسلمين) بكلمات مستعارة من العربية، بما ذلك معظم الأرقام التي تزيد على عشرة، وأيام الأسبوع، وحتى بعض حروف سوابق المشتقات، مثل السابقة "ما" (فالمدرسة هي ماقارانتا، مشكّلة من كلمة قارانتا التي معناها 'يقرأ' والتي لها علاقة بكلمة قرآن. وباللغة العربية فإن المدرسة هي "مكتب" أو "مدرسة" وفيها الحروف السابقة نفسها (التي تستعمل لاشتقاق اسم مكان حدوث الفعل)، ولكن جذر الفعل ك ت ب، الذي معناه 'كتب' ودرس، الذي معناه 'دَرَسَ'، تضاف إليهما الميم السابقة نفسها لاشتقاق اسم مكان حدوث الكتابة والدراسة)، ولكن الهوسا فيها ملامح كثيرة أكثر تمييزاً مأخوذة من جاراتها اللغات الافريقية، مثل النبرات الثلاث المتناقضة، والحروف الصامتة المتفجرة. وربما كان استعمالها بشكل واسع كلغة مشتركة في إفريقيا الغربية، وليس بين المسلمين وحدهم، قد عمل على الحفاظ على استقلالها.

> المخيطة المذكورة آنفاً، ويوجد فيها العاج بكمية كبيرة، وكذلك قوقعة السلحفاة. ويعيش على طول هذه السواحل أناس لهم عادات قرصانية، وهم طوال القامة جداً ويحكمهم رئيس منفصل لكل مكان. فالرئيس المافاريتي يحكمها بموجب حق قديم يخضعها لسيادة الدولة التي أصبحت الأولى في الجزيرة العربية. ويحتفظ بها أهالي موزا الآن تحت سلطته، ويرسلون إلى هناك كثيراً من السفن الكبيرة، مستخدمين القباطنة العرب كوكلاء لهم، وهم يعرفون الأهالي ويتزاوجون معهم، ويعرفون الساحل بأكمله ويفهمون اللغة ...
>
> (21 §) وفيما وراء هذه الأماكن، وفي جزء رئيسي عند سفح الجانب الأيسر من الخليج يوجد مكان بجانب الشاطئ يدعى موزا؛ وهي مدينة تسوّق تأسست بموجب القانون، وهي بعيدة تماماً عن برينيس [راس باناس] بالنسبة لمن يبحرون باتجاه الجنوب بحوالي 12,000 ستاديا (الستاديوم وحدة قياس يونانية طولها يتراوح بين 607 و738 قدماً إنكليزياً - ومعنى ذلك أن هذه المسافة تقرب من 2,500 كيلومتر) والمكان كله مزدحم بحشود من البحّارة وأصحاب السفن العرب، ومشغول بقضايا التجارة. فهم يتاجرون مع الطرف البعيد من الساحل ومع باريغازا [بروش، في غرب الهند]، فيرسلون سفنهم إلى هناك(77).

وأينما كانت مواقع رابتا (دار السلام؟) أو موزا (مخا؟) أو مافاريت (معافير؟)، فإن من الواضح من هذا أن المشاركة التجارية العربية مع جانبي المحيط الهندي يعود تاريخها إلى ما قبل محمد بأكثر من ستمئة عام. كما أن من الصفات المعروفة عن السفن العربية أنها حتى العام 1500م كانت أبدانها تخاط معاً فلا تلصق بالمسامير أو الملاقط(78). فقصص رحلات السندباد البحري في "ألف ليلة وليلة" لها أساس قوي في حقائق التاريخ العربي(*) (وقد كان السندباد تاجراً بحرياً أكثر من كونه بحاراً).

(*) بل كانوا يذرعون الطرق البحرية إلى جنوب شرقي آسيا والصين وخاصة في القرون المبكرة. فقد كتب أبو زيد السيرافي أن المرور البحري في العام 851 م كان منتظماً بسبب التبادل الكبير بين التجار والأسواق في العراق والهند والصين. والواقع كما قال أن مستعمرة تجارية فيها مئة وعشرون ألفاً من

ومعنى هذا أن اللغة العربية كانت مسموعة في جميع الموانئ على طول سواحل المحيط الهندي، من موزامبيق إلى مالابار وكوروماندل في جنوبي الهند. أفليس من المؤكد أن ذلك كان له أثر لغوي، على الأقل في خلق رطانة من المصطلحات التجارية الهجينة؟ فهناك على أية حال سوابق وفيرة، كما رأينا في طريقة انتشار اللغة الفينيقية حول حوض البحر الأبيض المتوسط، وفي القرون الأحدث من ذلك في كيفية جلب الأوروبيين لغاتهم على أجزاء العالم التي ذهبوا إليها للتجارة. فالتجارة تعتبر عادة العامل الأول الذي وضع الإنكليزية على طريق تحولها إلى لغة عالمية.

والواقع أن الجانب الوحيد لمثل هذا التأثير للغة العربية موجود في شرق إفريقيا، حيث تُظهر السواحلية، وهي لغة البانتو الكبرى، علاماتٍ على تأثير عربي كثيف. بل إن اسمها نفسه مشتق من الكلمة العربية "سواحل". فعند العد إلى عشرة نجد أن الأرقام 6 و7 و9 مستعارة من العربية: ستة، وسبعة، وتسعة. وعلى عكس كل لغة بانتو أخرى تقريباً، فإن السواحلية ليست فيها نبرات طويلة مميزة، بل إنها تستخدم أصواتاً معينة من العربية غير معروفة في لغات البانتو الأخرى، ولا سيما التمييز بين حرفي الراء واللام، واستخدام الحرفين الصحيحين الثاء والخاء، ونظيراهما الحرفان الصوتيان الذال والغين.

ومع ذلك تبقى السواحلية لغة بانتو نموذجية. ففيها أصوات وقف كثيرة تخرج من الأنف (نْدْ nd، نْغْ ng، مْبْ mb، نْتْ nt، نْكْ nk، مب mp) وتشكيلة متنوّعة من حروف السوابق الدالة على نوع المفهوم المخصص له الاسم للتعبير عنه، وحروف سابقة ملصقة بالأفعال تؤدي الوظائف التي تقوم بها الضمائر، وانثناءات الأفعال والأفعال المساعدة في لغات كالإنكليزية، بل والعربية؛ مثال:

الغربيين (مسلمين، ويهود، ومسيحيين، وزرادشتيين) قد تعرضت لمجزرة في كانتون في العام 878 م (حوراني، 1995: ص76-77).

وا ـ زي	ها ـ وا ـ جو ـ إي	آ ـ لي ـ كويندا
’كبار السن‘	’لا هم لا يعرفون‘	’هو ـ أين ـ ذهب‘

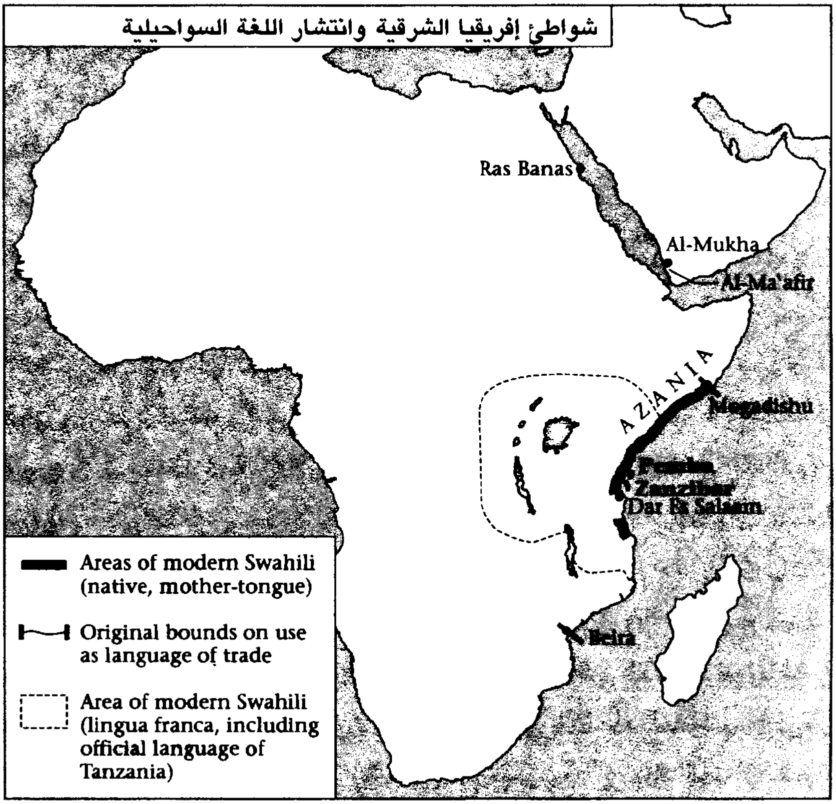
فتصبح الجملة كلها:

"كبار السن لا يعرفون أين ذهب"

والمعتقد هو أن انتشار لغات البانتو من منطقة البحيرات الإفريقية العظمى قد وصل إلى منطقة زنجبار(*) في وقت مبكر من الألف الأول الميلادي بحيث كان من المحتمل جداً أن نسخة مبكرة من تلك اللغة قد تعلمها الزوّار العرب المذكورون في الكتاب اليوناني "رحلة حول المحيط الهندي". وعندما وصل الأوروبيون إلى هذا المكان لأول مرة (وهم البرتغاليون في العام 1498م) كانت السواحيلية هي اللغة المحكية لغة الكلام في شريط ضيق على طول الساحل من مقديشو في الصومال إلى بيرا في موزامبيق. وإن أقدم نص عربي باق في المنطقة مأخوذ من جامع تم بناؤه في العام 1107م، ومن الواضح أن العربية كانت كثيرة الاستعمال كلغة للتجارة هنا، مخلوطة على الأغلب مع لغات أخرى تلاشت منذ ذلك الحين. وربما كان هناك تأثير في الاتجاه المعاكس، إذ يقال بأن بعض اللهجات الساحلية من العربية في العراق وشبه جزيرة العرب تظهر تأثير اللغة السواحيلية(79).

وكيفما يكن الأمر، فإن السواحيلية هي الآن اللغة الرسمية في دولتي تانزانيا وكينيا، كما أنها مستخدمة على نطاق واسع في البلدان المجاورة، في أوغندا، وموزامبيق، ورواندا، وبوروندي، والكونغو، ومدغشقر، وجزر القمر. ومنذ مجيء المستعمرين الأوروبيين، لعبت السواحيلية دوراً كبيراً كلغة مشتركة لإمبراطورياتهم، ودوراً أقل نزاهة كلغة سرية مصطنعة لتجّار الرقيق وضحاياهم. ورغم ضخامة عدد مستخدمي السواحيلية (الذي يقدر بأربعين مليوناً) فإنه لا يتم تعلمها كلغة أهلية محلية إلا في الجزر القريبة من زنجبار وعلى سواحلها. وكما هو الحال دائماً فلعل الأكثرية الساحقة من متكلميها (حوالي 90 بالمئة)

(*) زنجبار هي في الحقيقة كلمة معرّبة عن الفارسية "زانجي - بار"، أي ’أرض الزنوج السود‘.



يلتقطونها في وقت لاحق من حياتهم. فبدون التجارة العربية ما كانت لتكون هناك لغة سواحلية كما نعرفها، ولكن تأثير العربية عليها قد توقف منذ زمن طويل.

الفترة الفاصلة الثالثة: التركية والفارسية، المسلمون الخارجيّون

قلت لنفسي، فلأنهض من مقعدي وأقف،
قلت لنفسي، فلأركب حصاني الكازليك ذا العرف الأسود،
قلت لنفسي، فلأذهب بين حشود الأوغوز،
قلت لنفسي، فلأبحث عن كنّتي ذات العينين الكستنائيتين،
قلت لنفسي، فلأنصِب خياماً بيضاء على الأرض السوداء،
قلت لنفسي، فلأقد ولدي إلى غرفة عرسه،

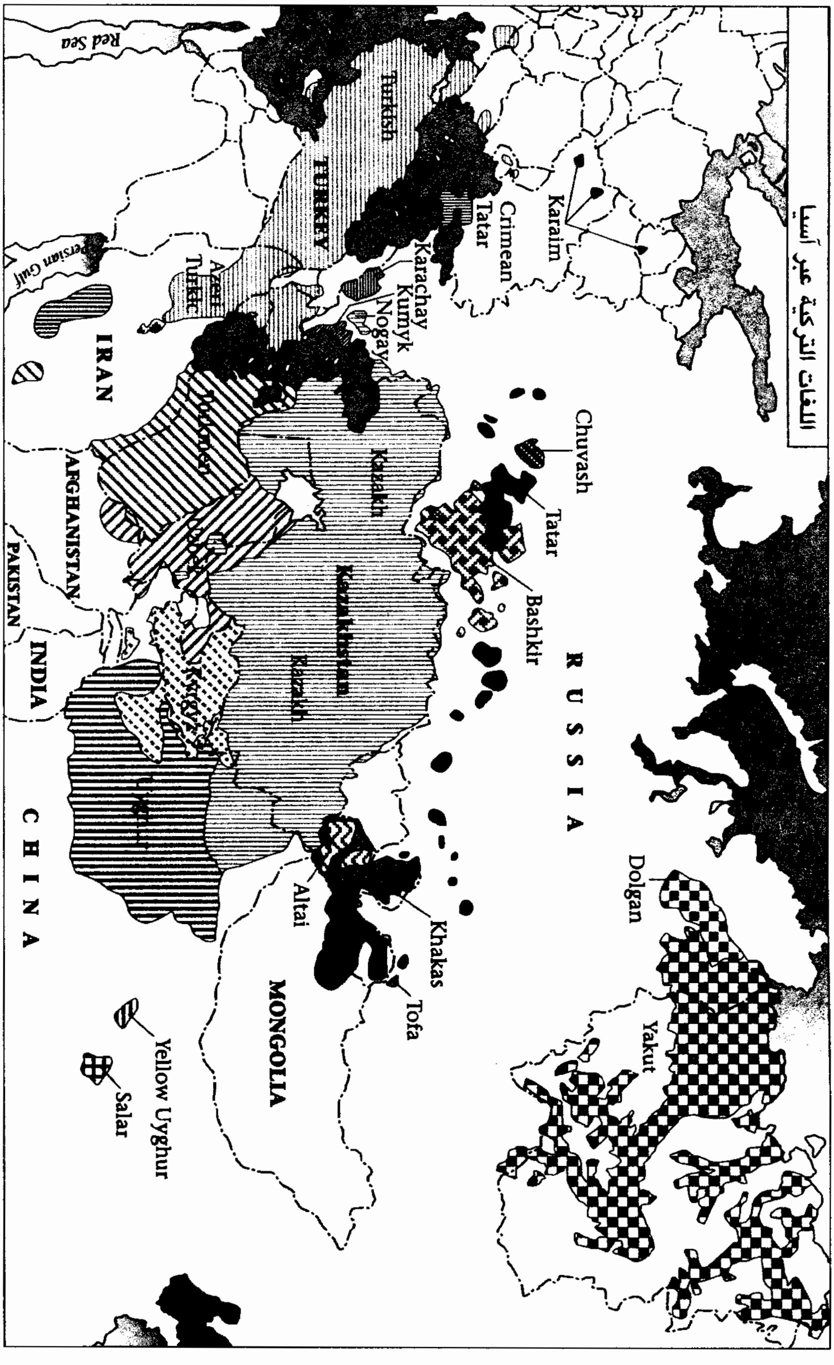
قلت لنفسي، فلآخذه إلى أمنيته، إلى بغيته،
ولكنك لم تدعني أحصل على أمنيتي،
فلتمسك بك لعنة الرأس الأسود، يا قازان!(*)

ديد قرقوط، نَسَب أوزون السجين، ابن قازان باي
(امرأة توبخ زوجها على فقد ولدهما في غارة)

هناك لغتان كبيرتان، هما التركية (المنطوقة بأشكال متنوعة، ولكنها كلها شديدة القرب من التركية الحديثة) والفارسية، من المعروف جيداً أنهما لغتان إضافيتيان مساعدتان للحضارة الإسلامية. وقد اضطررنا إلى المرور مروراً عابراً بدوريهما في تاريخ اللغة العربية، وليس هذا منصفاً لهما: فلكل منهما تاريخ مثير للاهتمام يعود إلى ألف سنة قبل القرار المصيري للناطقين بهما باعتناق الإسلام. وقد أسهمتا بطابعهما اليوم وفي الماضي.

فاللغات التركية منتشرة فوق منطقة شاسعة من منغوليا الغربية إلى بحر إيجه. ومثل لغتي كسيونغنو وتابغاش، فإن الناطقين بالتركية قد أغاروا على الصينية وأنهكوها واجتاحوها في القرنين الميلاديين الثالث والرابع. وفي القرن الخامس كانوا يرعبون الهند الشمالية تحت اسم الهونا، وأوروبا الشرقية تحت اسم الهوني. بل إنهم أغاروا على الخيل مع آتيلا ضد فرنسا لفترة قصيرة في العام 451 م. وكان الخزر يحكمون جنوب روسيا من البحر الأسود إلى بحر قزوين من القرن السادس إلى القرن الحادي عشر. وكان المجنّدون الناطقون بالتركية يشكلون غالبية جيوش جنكيز خان المغولي في أوائل القرن الثالث عشر. وكأعضاء في الجحفل الذهبي، كانوا هم الذين نهبوا كييف في العام 1240 فأحدثوا تحولاً دائماً في مركز القوة الروسية (انظر الفصل الحادي عشر 'أصول اللغة الروسية'، ص583). وهناك أتراك آخرون: السلاجقة، ثم العثمانيون فيما بعد، أسقطوا الإغريق البيزنطيين واستقروا في جميع أنحاء بلاد

(*) في التهجئة التركية (التي ادخلتها أتاتورك عام 1929-1928) فإن حرف الكاف هو "جيم" في النطق، وحرف الشين هو تْشْ في النطق، والياء تنطق بإعادة جذر اللسان إلى الوراء كما في كلمة kirk الاسكتلندية، والغين إما صوت مغرغر كما في كلمة gamma الإغريقية أو الغين العربية، أو مجرد إطالة في حرف العلة السابق لها، كما في كلمة German.



اللغات التركية عبر آسيا
Red Sea
Persian Gulf
TURKEY
Turkish
Azeri Turkic
Crimean Tatar
Karaim
Karachay
Kumyk
Nogay
IRAN
Chuvash
Tatar
Bashkir
RUSSIA
Kazakh
Kazakhstan
Kazakh
AFGHANISTAN
PAKISTAN
INDIA
CHINA
Altai
Khakas
Tofa
MONGOLIA
Yellow Uyghur
Salar
Dolgan
Yakut

الأناضول، من القرن الحادي عشر إلى القرن الخامس عشر. وفي القرن السادس عشر كان الروس لا يزالون يرون أن التتر الناطقين بلغة تركية في قازان وأستراخان هم العقبة الكبرى في وجه التوسع الروسي، وهي عقبة يتعين على الروس زحزحتها؛ وفي القرن الثامن عشر كان تتر شبه جزيرة القرم هم أكبر الواقفين في وجه الروس.

وفي القرنين الثامن والتاسع، كان الأتراك يكتبون نصوصاً جنائزية في وادي أورخون في منغوليا الخارجية بأبجدية مفتعلة اصطنعوها لأنفسهم. ثم أخذوا بالكتابة بلغة الصغد، فحوّلوها إلى الخط العمودي للغة الأويغور في آسيا الوسطى. وفي القرن الحادي عشر التقوا بالفرس فأخذوا منهم الحروف العربية، بل كتبوا قاموساً بلغتهم وقصيدة إهداء طويلة عنوانها "كوتادغو بيليغ" أي 'سعادة المعرفة'. وفي القرن الرابع عشر في فارس وسمرقند كان نوع اللغة التركية المعروف باسم جغطاي - على اسم الابن الثاني لجنكيز خان - هو لغة الثقافة في بلاط خانات منغوليا[80]. وعندما انقضّ بابر، أول ملوك المغول من أفغانستان، ليفتح الهند في العام 1505، كانت تلك هي اللغة التي تحدث بها لرجاله، رغم أنه كان يفضل أن يكتبها بالفارسية[81].

ولقد يكون من الإنصاف تقريباً أن نعتبر نهج بابر هو روح التركية العثمانية حتى مطلع القرن العشرين. فقد كانت اللغة التركية الرسمية دائماً مخلوطة بمزيج كثيف من زخارف الفارسية الأدبية حتى جاءت محاولات أتاتورك لإصلاحها في ثلاثينيات القرن المذكور[82].

***

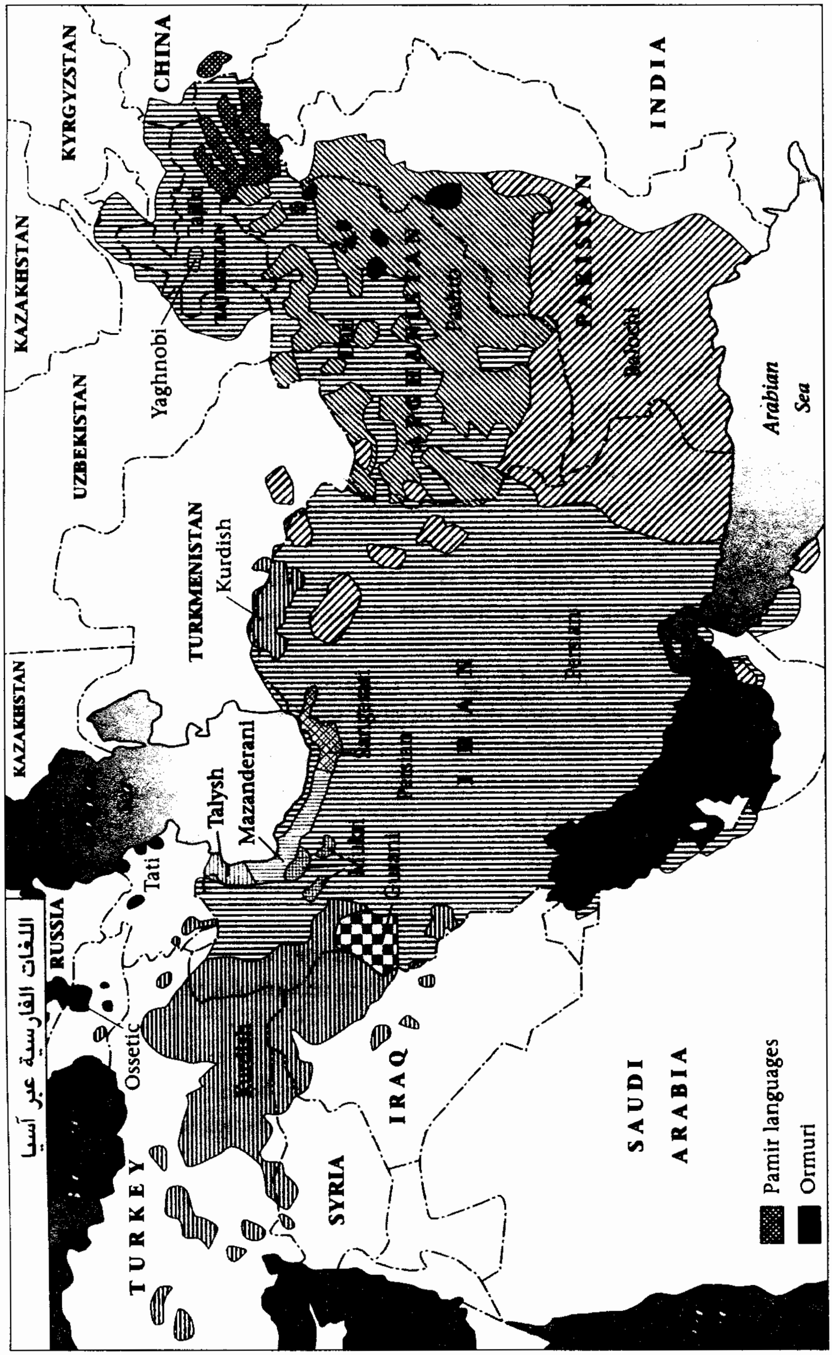
وإذا كانت التركية تستحق دراسة تعالجها بحد ذاتها، فهذا ما تستحقه أيضاً أختها الثقافية الكبيرة: الفارسية، التي هي لغة المتعلمين جيداً منذ القرن السادس قبل الميلاد. ولا يزال الأوروبيون غير المتعلمين حتى يومنا هذا يرون فارس كجزء غير متميز من شرقي العالم العربي: ومع ذلك فإن الفارسية كلغة لها أشياء مشتركة مع لغات أوروبا وشمال الهند أكثر مما تشترك به مع العربية أو التركية. فرغم ألف ومئتي عام من الممارسة، فإن الفوارق اللفظية في العربية بين

السين والزاي والتاء والدال في مقابل الصاد والجيم والطاء والضاد، وكذلك الألف في مقابل العين، التي يجد الغربيون صعوبة في إتقانها، هي صعبة على الناطقين بالفارسية أيضاً. والكلمة الفارسية المقابلة لـ 'is' لا تزال هي *ast*، مثل اللاتينية *est*، والألمانية *ist*، والروسية *yest*، والسنسكريتية *asti*.

ورغم أن 'it is' لم يتوقف النطق بها في بلاد فارس على مدى الألفي عام الماضية، فقد كانت سيئة الحظ من الناحية الثقافية، فقد غشيتها وأضرّت بها سلسلة من النكسات السياسية. فأولاً: قرر دارا في القرن السادس قبل الميلاد أن يجعل الآرامية اللغة الرسمية للإمبراطورية الفارسية، وفي القرن الرابع قبل الميلاد، عندما غُزِيت الإمبراطورية، حاول السلوقيون أن يفرضوا اللغة اليونانية. ولكن الفرثيين والساسانيين أعادوا تأكيد احترام الفارسية لذاتها اعتباراً من العام 140 ق.م. لمدة ثمانية قرون. ثم جاء انتشار القوات الإسلامية بشكل استثنائي ضخم في القرن السابع الميلادي فرفع اللغة العربية إلى موقع النفوذ المتميز في الدين، والبحوث الدراسية، والحكومة؛ طيلة ثلاثة قرون. وتلقى الكتّاب أمراً 'بعدم التماس المعونة من الوثنيين في عمل الإدارات والمكاتب'[(83)].

وبدأ انبعاث للفارسية في القرن العاشر الميلادي، ولكنه تعرّض للخنق بشكل فوري تقريباً عن طريق غارات الناطقين بالتركية (من الذين يحملون اسم المغول) من القرن الحادي عشر إلى القرن الخامس عشر. ورغم ذلك، بقيت الفارسية لغة ذات نفوذ، وبفضل سلطنة دلهي وحكامها المغول المسلمين الذين جاؤوا بعد ذلك، صارت الفارسية أيضاً اللغة الرسمية الرئيسية في الإدارة الهندية، من القرن الثالث عشر حتى خضعت للإنكليزية في القرن التاسع عشر.

وكانت اللغات القريبة من الفارسية ذات أهمية أيضاً في آسيا الوسطى. فقد تم الأخذ باللغة السكايثية عبر معظم سهوب أوراسيا في الألف الأول ق.م. (وهي باقية في الأوسيتية، التي هي لغة قفقاسية). وفي الألف الأول بعد الميلاد كانت لغة الشاكا ـ خوتانية لغة ثقافية هامة للبوذية. أما اللغة الباكترية، التي كانت لغة الكلام إلى مبعدة إلى الغرب، فقد أخذ بها ملوك كوشانا عبر الهند الشمالية في القرنين الميلاديين الأول والثاني. وكانت الصغدية، المتركزة في



اللغات الفارسية عبر آسيا

سمرقند، هي اللغة المشتركة على طريق الحرير إلى الصين فيما بين القرنين الثامن والعاشر الميلاديين (وهي باقية في اللغة الياغنوبية التي لا يزال الناس يتكلمونها في جبال بامير).

ورغم كل حالات الصعود والهبوط التي تعرّضت لها الفارسية فهي لا تزال مستخدمة فيما وراء حدود فارس في النصف الشمالي من أفغانستان (تحت اسم "الدارية"، أي 'لغة البلاط') وفيما وراء ذلك في طاجيكستان (باسم لغة الطاجيك). ورغم أن الناطقين بها كثيراً ما تنقصهم السيطرة السياسية حتى على أرضهم نفسها فقد ظلت أينما عُرِفت هي لغة النفوذ الثقافي الرفيع، واشتهرت بشعرها على وجه الخصوص:

ثلاثة أشياء تشكلت من ثلاثة أشياء فيك ـ
الوردة من خدك، والعُنّاب من شفتك، والجمال من وجهك.
وثلاثة أشياء تؤخذ كل عام من ثلاثة أشياء لي ـ
الحزن من قلبي، والدمع من خدي، والخيال من عيني.

(أبو القاسم 'العنصري' (ولد في بلخ بآسيا الوسطى، حوالي العام 968، وتوفي في العام 1040م)

إرث من الشرق الأوسط:
بريق بدويّ الصحراء

إن الدنيا المعولمة اليوم مليئة بالعربية، فهي اللغة التي يشعر كل الراغبين في أن يكونوا ثوريين إسلاميين في أوروبا والولايات المتحدة بأن عليهم أن يتعلموها ليعطوا مصداقية موثوقاً بها لنضالهم، وإن مفارقة شبهها بالعبرية، التي تم إحياؤها حديثاً في أرض كنعان، هي تذكير قائم لنا بالطريقة التي تؤدي بها أَمَرُّ الصراعات إلى جعل أبناء العمومة الذين افترقوا عن بعضهم طويلاً يمسك كل منهم بخناق الآخر(*). "فالسلام" يتصارع مع "الشالوم"، ولكن معناهما

(*) [هذه مغالطة أخرى من المؤلف. فيهود العالم الآن ليسوا أبناء عمومتنا، لأن 85% منهم هم من قبائل الخزر ذات الأصل التتري التي تهوّدت في العام 742 م، ولا علاقة لهم ببني إسرائيل القدامى الذين تلاشوا كما تلاشى الرومان ـ المترجم].

المشترك، وهو 'السلام'، يستمر في الابتعاد عنهما. وفي هذه الأثناء تستمر تلاوة اللغة الفصحى يومياً في الصلاة الإسلامية، وتذاع على مستمعين يزيد عددهم على 200 مليون نسمة، وكلهم يعتقدون أنهم عندما يتحدثون، بطرقهم الشديدة الاختلاف، أنهم ينطقون العربية.

فالتقليد اللغوي للغات السامية المتكاملة على نطاق واسع، والذي ورثوه جميعاً، يعود تاريخه بشكل يمكن إثباته إلى خمسة آلاف عام. ففي ذلك الوقت كانت هناك فرصة لكثير من الابتكارات. وقد رأى العالم في تقليدهم أول اعتماد للغة أجنبية كنموذج تقليدي كلاسيكي للأدب، وأول نظام للكتابة له تطبيقات بلغات متعددة، وأول لغة مشتركة للدبلوماسية الدولية، وأول مكتبات للمحفوظات، وأول استبدال للغة إلى أخرى بدون تحطيم أي تقليد ثقافي معرفي، وأول تعيين لسجل مكتوب للغة محددة بأنه كلمة الله غير القابلة للتغيير، وأول استخدام للغة كطلّسم لفئة أقلية دينية.

وهذا سجل كبير من الأوائل ينتمي إلى تقليد وحيد، حتى ولو تبدّلت لغته المسيطرة مرتين، أو تجددت، بتعبير لعله أفضل. وسننظر في مكان آخر في أهمية هذه الأمثلة كلها في النمط العام لتطور أنظمة اللغة الإنسانية.

وهناك تأمل أخير مناسب هنا ربما يكون إمكانية وجود أي استمرارية متميزة الطابع في هذا التقليد القديم. فهل في اللغة العربية شيء تتشارك فيه مع الآرامية والأكادية؟ أم هل أدت الابتكارات الكثيرة في الطريق من العالم السحيق القدم، والعصور الوسطى حتى عالم العصر الحديث، إلى مراجعة أي جوهر جذري مشترك وإلغائه؟

وحسبما يرى فرناند بروديل، فإن النجاح الكلي للتقدم الإسلامي المفاجئ وغير القابل للتفسير هو إعادة طبيعية لتأكيد تقليد في الشرق الأدنى، بعد مقاطعة إغريقية ورومانية استمرت ألف عام[84]. فقد رأى فعلاً أن اللغة العربية هي أضمن برهان مؤكد بأن البلدان جزء حقيقي من الحضارة الإسلامية[85]. ومع ذلك فإن الأمثلة التي يقدمها على استمرارية حضارة الشرق الأدنى -

كالملابس، والأطعمة، والهندسة المعمارية المحلية، وحتى الديانة التوحيدية ـ لا علاقة لها باللغة[86].

وعلى أوضح صعيد فإن القيم التي يجري تعزيزها في الإسلام هي على طرفي نقيض مما كان يعتنقه كبار المستعمرين الآشوريين السابقين. فقد قدّم المسلمون تصورهم الفريد لله كسبب للقبول بحكمهم وهم يؤكدون طيلة الوقت رحمته غير المحدودة. أما الجيوش الآشورية فقد تدحرجت فوق جيرانها لتثبت الجبروت الأعظم لملوكها، وأظهرت قوتها من خلال عربدات لقسوة لا رحمة فيها، وجاءت آلهتهم في أعقابهم، وإذا كان كثيرون قد اختاروا أن يعبدوها فلم يكن ذلك سوى اعتراف منهم بقوة أكبر لما كانت تمثله تلك الآلهة، وعمل من أعمال الحكمة المتعقلة والدبلوماسية، وليس نتيجة قبول بوحي، ولا كعمل من التسليم المخلص الخضوع.

فالعرب الذاهبون لخوض المعارك في سبيل الإسلام يمكن رؤيتهم في الحقيقة كمزيج من ثلاثة تقاليد سابقة شديدة الاختلاف بين زملائهم الناطقين بلغات سامية، وهي: لاهوت اليهود المجرّد، وشمولية المسيحيين الآراميين، وزخم الآشوريين العسكري. بل إن المرء إذا ضم إلى ذلك كله نزعتهم إلى الأسفار البحرية الطويلة المدى وتجارة المضاربات فسيمكنه أن يصنفهم أيضاً مع الفينيقيين.

ولكن هناك شيئاً واحداً في الخلفية الثقافية يوحّد بالفعل كل الساميين، مهما كان دينهم أو مستوى الثراء الذي يرغبون فيه. فمهما بلغ نجاح مدنهم، ومهما كانت أديانهم وفلسفاتهم متطورة، فإنهم لم يغفلوا أبداً من تذكر أنهم جميعاً قد نشؤوا من البداوة الصحراوية. وكانت العربية لغة البدو الرحّل. وتأسس الإسلام باندفاع من بدو الجزيرة العربية. واخترقت اللغة الآرامية الإمبراطوريتين الآشورية والبابلية فترسّخت، وانتشرت من آرام عن طريق البدو. وطوّر العبرانيون والفينيقيون مدنهم وثقافاتهم عندما استقر البدو العابرون آخر الأمر في أرض كنعان؛ فالتوراة تتحدث بوضوح عن بني إسرائيل التائهين في يباب سيناء أربعين عاماً. وما كان الأكاديون ليستولوا على الأمور من السومريين

بدون غارات البدو المجهولين من الغرب، أي العموريين، وأخيراً فإن من المؤكد أن البدو لا بد أن يكونوا هم الذين أخرجوا اللغات السامية في عصور ما قبل التاريخ من إفريقيا وأدخلوها إلى الهلال الخصيب(*).

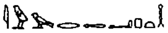
وقد يكون من الصعب العثور على بدو رحل في العالم الساميّ الحديث. ولكن بعض جوانب البداوة لا تزال مركزية في مشاكل العرب غير المحلولة: فتشرّد الفلسطينيين، والقلق الأخلاقي الموسوس بخصوص الثروات التي لم يفعل أحد شيئاً لكسبها وهي تتدفق من فيافي الصحراء العربية، ورجال القاعدة المتوحّشون الذين فرضوا النفي على أنفسهم بينما هم يخططون لتدمير مدن الظلم. وفي هذا كله، فإن الناطقين بالعربية صادقون مع تقاليدهم. والحق أن تواريخ اللغات الأكادية، والفينيقية، والآرامية، والعربية، هي برهان عمره خمسة آلاف سنة على فوائد الصحراء كمكان يجيء منه الناس إلى الداخل.

(*) [ملاحظة: هذه مغالطة أخرى من المؤلف، لأن من المعروف أن الجزيرة العربية، لا إفريقيا، كانت هي الخزّان القديم الذي فاضت منه الهجرات السامية على الهلال الخصيب - المترجم].

4

انتصارات الخصوبة: المصرية والصينية

لأن السيد العظيم جداً هو بتاح،



*j^{o}w wār ʿar ptaḥ**

الذي أعطى الحياة لكل الآلهة



sabaš ʿanḫ na nāṭ^{ʕ}ūraw nibuw

ولأتباعهم



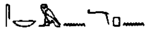
karuw-sin

من خلال هذا القلب



s nib m ḥārtj p^{o}n

من خلال هذا اللسان،



s nib m nis p^{o}n

الذي اتخذ به حورس شكله،



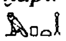
ḫāpir-na ḥōruw j^{o}mf

الذي اتخذ به ثوث شكله،



ḫāpir-na dj^{o}ḥowtij j^{o}mf

مثل بتاح ...



m ptaḥ

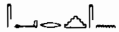
(حورس (حورو) يمثل الملكية
وثوث (جِيحوتي) إله العقل
هو أيضاً راعي الكتّاب.)

(*) لمصلحة الواقعية وقابلية القراءة، أعطيت الكلمات المصرية حسب إعادة تركيب لوبرينو في العام 1995 بالنسبة لأوائل اللغة المصرية الوسطى، مع إضافة كون حروف العلة التي يعتقد أنها غير ممكنة التمييز ممثله هنا بعلامة ^{o}، وحرف الراء هو حرف الحلق الفرنسي (R) كالغين، والجيم (J) يلفظ كما في كلمة German، والياء (y) كما في كلمة yet الإنكليزية، والهاء (ḥ) حرف حلقي عميق كالنفخ على النظارات، والخاء (ḫ) كما في كلمة loch أو Bach وعلامة(ʿ)، هي حرف العين المشهور في اللغات السامية والقريب من عملية النحنحة عند الإنكليز قبل بدء الكلام. غير أنه يجب التذكر بأن الكلمات المصرية عند كتابتها بالهيروغليفية هي خالية كلياً من حروف العلة.


mārar īјruwy — بصر العيون،

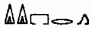

sādjim m^{o}sdj^{o}rwy — سمع الآذان،

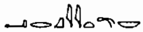

s^{o}s^{o}n^{o}w f^{o}rdj — تنفس الأنف

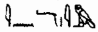

sa ʿar-sin — وهي تقوم بتبليغ


ḫar jib, — القلب،

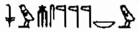
^{o}ntaf — وهو

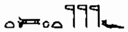

dadaj paraj — يقوم باستخراج


ʿ^{o}rq^{o}y^{o}t nib — كل فهم.

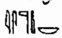

j^{o}n nis j^{o}m — أما بالنسبة للسان،

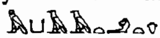

karat m ḥārtj — فهو يقول ما في القلب

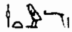

suw masjaw nāt^{s}ūraw nibuw — وهكذا ولد جميع الآلهة


tam pisīdjat-^{o}f — فاكتمل تاسوعه (آلهته التسعة)


s^{o}k ḫāpir-na — وانظر! من ههنا


j^{o}s nāt^{s}ar maduww nib — جاءت كل كلمة من الله


m karrt hārtj — من خلال ما ابتكره القلب


wadj nis — وأمر اللسان.

لاهوت ممفيسي (’حجر شبكه‘)، السطران 53، 56

(بالمصرية القديمة، منتصف الألف الثالث ق.م، معاد نسخها في العام 710 ق.م)[1]

子路曰：「衛君待子而為政，	*zǐlù yuē: 「wèi jūn dài zǐ ér wéi zhèng,*
子將奚先？」	*zǐ jiāng xī xiān?」*
子曰：「必也正名乎！」	*zǐ yuē: 「bì yě zhèng míng hū!」*
子路曰：「有是哉？子之迂	*zǐlù yuē: 「yǒu shì zāi? zǐ zhī yū*
也！奚其正？」	*yě! xī qí zhèng?」*
子曰：「野哉，由也！君子	*zǐ yuē: 「yězāi, yóu yě! jūn zǐ*
於其所不知，蓋闕如也。	*yú qí suǒ bù zhī, gài qùe rú yě.*
名不正，則言不訓；	*míng bù zhèng, zé yán bù xùn;*
言不訓，則事不成；	*yán bù xùn, zé shì bù chéng;*
事不成，則禮樂不興；	*shì bù chéng, zé lǐ lè bù xīng;*
禮樂不興，則刑罰不中；	*lǐ lè bù xīng, zé xíng fá bù zhōng;*
刑罰不中，	*xíng fá bù zhōng,*
則民無所措手足。	*zé mín wú suǒ cuò shǒu zú.*
故君子名之必可言也，	*gù jūn zǐ míng zhī bì kě yán yě,*
言之必可行也。君	*yán zhī bì kě xíng yě. jūn*
子於其言，無所苟而已矣！」	*zǐ yú qí yán, wú suǒgǒu ér yǐ yǐ!」**

قال زي لو: 'إذا كان الأمير وي ينتظرك يا سيدي لتتولى أمور إداراته، فماذا ستكون أولوية السيد؟'

فأجاب السيد: 'الشيء الذي هناك حاجة إليه هو تصحيح الأسماء'!

فقال زي ـ لو: 'هل أنت بعيد عن الهدف إلى هذا الحد يا سيدي؟ لماذا هذا التصحيح'؟

فرد السيد: 'كم أنت ساذج! إن الرجل العاقل إزاء الأشياء التي لا يفهمها يحافظ على موقف فيه تحفظ. فإذا كانت الأسماء غير صحيحة فإن البيانات لا تتمشى مع الحقائق، وعندما لا تتطابق البيانات والحقائق لا يمكن إجراء العمل التجاري بصورة مناسبة. وعندما لا يتم العمل التجاري بصورة مناسبة، فإن النظام والانسجام لا يزدهران. وعندما لا يزدهر النظام والانسجام فإن العدالة تصبح عندئذ عشوائية اعتباطية. وعندما تصبح العدالة عشوائية اعتباطية لا يعرف الناس كيف يحركون يداً أو رجلاً. ومن هنا فإن أي شيء يقوله الرجل العاقل يستطيع دائماً أن

(*) إن تهجئة لهجة بِنْيِنْ بالحروف اللاتينية هذه تمثل اللفظ بلهجة الماندارين الحديثة لهذا النص من القرن الخامس قبل الميلاد. وهي بذلك تمثل الكلمات وتركيب الجمل. ولكنها لا تمثل الأصوات التي كان كونفوشيوس سيستخدمها.

يحدده. وإن ما يحدده هكذا فإنه يستطيع دائماً أن ينفذه عملياً، لأن الرجل العاقل لا يمكن أن يترك أي شيء في تحديداته مهملاً أو غير متقن بأي حال من الأحوال'.

كونفوشيوس (المنتخبات الادبية) 3:13(*)
(باللغة الصينية، في أوائل القرن الخامس ق.م.)(2)

هاتان لغتان قديمتان، متباعدتان كثيراً في أراضيهما وفي عصريهما، ومع ذلك فإن من الغريب أنهما متشابهتان في سيرة حياتهما. كما أنهما مع صفاتهما المميزة لا تتناسبان إلا مع بعضهما بعضاً.

فالمصرية والصينية أداتان لتقاليد ثقافية فريدة ذات امتياز هائل. وقد كان لكل منهما دور لا ينازع في وطنهما باعتبار كل واحدة منهما لغة عالمية. وعند حلول فجر تاريخهما المدون كانتا قد رسختا على المنطقة المركزية من الأراضي التي استخدمتا فيها للكلام. وقد حافظت كل منهما على موقع سيطرة وحيدة وغير متغيرة بشكل أساسي لفترة هائلة من الزمن زادت على ثلاثة آلاف عام، أو مئة وعشرين جيلاً. ومع ذلك، ففي كل حالة، رغم شهرتهما ونفوذ ثقافتهما بين جيرانهما الذين كثيراً ما خضعوا سياسياً لهذه القوى، فإن اللغتين لم تضطلعا بأي دور كلغة مشتركة فيما وراء الإقليم الذي كانتا تعدانه وطنهما.

وهناك تناظر آخر يخص نصوصهما. فقد ابتكرت كل منهما أصلاً نظام كتابتها الفريد، المبني على الرموز التصويرية بأسلوب معين. ومنذ وقت مبكر اتخذت كل من هذه النصوص شكلاً لم يتغير. كما أن كلاً منهما قد أخذ بها شعب آخر فيما

(*) في هذا الكتاب تكتب الصينية باستخدام نظام 'الأبجدية الكلامية الصوتية'، المعروفة عادة باسم بِنْيِنْ، التي بدأت الحكومة الصينية بنشرها رسمياً منذ العام 1958. وفيها تشير نبرات الحرف v المختلفة على أنماط صوتية وليس على أصوات حروف علة. وبين الحروف الصامتة فإن الحرف س (c) هو الصوت تْسْ (ts) بالإنكليزية. وحرف الجيم هو حرف j بالإنكليزية. وكذلك الصوت تْشْ أو ch بالإنكليزية. وكذلك الحرف x يمثل ش أو sh بالإنكليزية. وترى فيها أيضاً zh وch وsh، وهي تلفظ بطريقة تشبه لفظ j وq وx ولكن مع إرجاع انعكاس اللسان إلى الوراء، كما لو كان بعدها مباشرة حرف ر "r". وإن معظم الصينيين خارج منطقة الشمال الغربي عاجزون عن التمييز بين هذه الأصوات. ولهجة بْنِينْ تتميز بأنها متماسكة، ودقيقة، ومتجانسة، (بدون الفواصل العليا المزعجة في الأنظمة الإنكليزية القديمة، ويد - جايلز وبيل) ولكنها لا تستطيع سوى الادعاء بأنها تمثل التهجئة الملفوظة الحديثة. وهذا قد يكون مضللاً عند تطبيقه على الكلمات أو الأسماء الشديدة القِدَم.

بعد، وتم تبسيطها لتعطي أساسا لنظام كتابة صوتية: فكانت الهيروغليفية المصرية نقطة البداية لانطلاق الأبجدية الفينيقية. كما استمد اليابانيون أبجديتهم المقطعية المسماة "كانا" من الحروف الصينية. ولكن في كلا الحالين فإن ثقافة اللغة الأصلية تجاهلت الابتكار وحافظت على نظامها القديم بشكل جوهري دون تغيير، رغم الجهد الإضافي الذي كان يتطلبه استمرار تعليم نصوص مطوّلة.

وهناك تناظر في سيرة اللغتين. وبالنسبة لنا فإن الشيء الرئيسي الذي يثير الاهتمام يكمن في النظر في كيفية تحقيق اللغة لحالة ثابتة، أي لنوع من السكون المتجانس الذي يبدو فيه أنها تمتص أي اضطراب قد يؤثر عليها. وهذا الثبات مثير للاهتمام على نحو خاص في حالتي مصر والصين، ما دامت لغتاهما لم تصمدا في العزلة فحسب، بل يمكن رؤيتهما أيضاً وهما تتحملان غارات البشر لفترة طويلة من تاريخهما، وتحتل كل منهما مساحات كبيرة تكفي لإثارة مصاعب أمام حكومة موحدة.

ومن الجوانب الأخرى لهذه الوحدة المحيّرة، وخاصة في حالة الصين، التلاحم الغريب للغة نفسها. فمن المؤكد أن اللغة الصينية فيها لهجات، وهي كثيراً ما تكون مختلفة بحيث يمكن اعتبارها لغات متميزة. ولكن هذه الحقيقة الشهيرة أقل إثارة للاهتمام من حقيقة أخرى أقل لفتاً للأنظار، وهي أن أكثر من 70 بالمئة من الناطقين بالصينية يتكلمون نوعاً واحداً يعرف باسم الماندارين أو بوتونغهوا(*)، وهذه اللغة الرسمية في الدولة الصينية هي لغة الكلام في أكثر من 75 بالمئة من مساحة البلد. وفيها بعض اللهجات المحلية، ولكن ليس فيها من حيث الجوهر أي تغيير داخلي. وبما أن سكان الصين ومساحتها هائلان، فإن درجة التجانس التي تتحقق هكذا لا يوازيها شيء في أي لغة معروفة أخرى. ونحن بحاجة إلى النظر في كيفية تحققها.

كما أن اللغتين لهما دلالات مباشرة بالنسبة للعالم الحديث.

(*) إن كلمة "ماندارين" ليست صينية على الإطلاق، بل هي تحريف للكلمة السنسكريتية "مانترين"، التي معناها 'مستشار'، مع شيء من تأثير الفعل البرتغالي *mandar* الذي معناه 'يأمر'، وأما كلمة "بوتونغهوا" فمعناها اللغة العامة الشائعة، وهو اصطلاح فيه شعور شامل حل محل مصطلحات أقدم، مثل *guanhua* أي 'اللغة الرسمية' (وهي أقرب شيء إلى ما يعادل كلمة "ماندارين" الصينية) أو *guóyŭ* أي 'اللغة الوطنية'، التي تشير إلى الشيء نفسه إلى حد كبير، كما أن هناك اصطلاحاً مستعملاً آخر هو *Hànyŭ* أي 'لغة هان'.

فاللغة المصرية، بعد كل شيء، خضعت في آخر الأمر لغارات جيرانها التي شنت بديمومة متزايدة الثبات على شكل موجات من الآشوريين، والفرس، والإغريق، والرومان، والعرب، وهي باقية الآن، إن كان لها أي بقاء، على شكل اللغة القبطية في طقوس ما كان ديانة غريبة، أي المسيحية. وهنا دليل على ما الذي يتطلبه محقق تقليد يبدو خالداً في أرض موطنه. فكيف يمكن إلغاء الخلود؟

وعلى عكس ذلك، فإن اللغة الصينية، رغم كل الانتكاسات السياسية والفظائع التي عانى منها شعبها على أيدي أجانب متحجري القلوب في القرنين الأخيرين، لم تكن أبداً أقوى مما هي عليه اليوم. فالناطقون بها يشكلون سدس سكان العالم. وأهلها الأصليون ثلاثة أضعاف الناطقين بالإنكليزية. ومع ذلك يعيش أكثر من 99 بالمئة منهم في الصين، وهكذا فلا يمكن اعتبارها لغة عالمية - إلا إذا كانت الصين هي عالمك. وكثيراً ما يسميها الناطقون بها "جونغ غوو هوا"، 'أي كلام مركز المملكة' من حيث أن مركزية العرق الصيني لا يتضاءل شأنها. ولا يزال هناك متسع من الوقت للنظر في تلك القوى التي أبقت المملكة الصينية متمركزة بثبات وتماسك كبيرين في وطنها التقليدي: فهل ستظل هذه القوى سائدة في العالم الحديث؟

سِيَرُ الحياة المتناظرة

إنّ التشابه اللافت للنظر في سيرة حياة اللغتين المصرية والصينية يمكن عرضه أولاً على شكل جدولين لتسلسل الأحداث التاريخية. والغارات الأجنبية والتأثيرات الثقافية موضحة بطبعها بالخط الغامق.

فتاريخ هاتين اللغتين مؤلف من فترات طويلة من الحكومة الموحدة المستقرة، تتخللها فترات من الاضطراب المدني، أو عدم الوحدة على الأقل، عندما كانت هناك سلالات متنافسة على الحكم في أجزاء مختلفة من البلاد. فكانت في مصر ثلاث فترات كهذه من الحكم الذاتي المستقر، هي الممالك القديمة، والوسطى، والجديدة، تبعتها فترة متأخرة كان فيها الحكم الأجنبي هو

القاعدة وليس الاستثناء. وكان في الصين أيضاً ثلاث فترات طويلة من الحكم الأهلي، هي العصر الإقطاعي لسلالتي شانْغ وجوُ، والإمبراطورية الأولى لسلالتي كين وهان، والإمبراطورية الثانية لسلالات سوي وتانغ وصونغ، التي طغت عليها بعد ذلك سلسلة من الغزوات الأجنبية الجزئية أو الكلية.

وقد تشكّلت كلا الحضارتين في الأصل على طول وادي نهر وحيد هو النيل(*) وهوانغ - هي ('النهر الأصفر') على التوالي، ولو أن الصين توسعت لتضم وادي النهر الكبير التالي في الجنوب، اليانغ تسي كيانغ(**). وأظهرت الحضارتان أنهما رغم عدم قدرتهما على الدفاع عن حدودهما إلى ما لانهاية، فإنهما قادرتان على امتصاص الغزاة الناجحين على المدى الطويل. والنظير اللغوي لذلك هو أن الغزاة الأجانب لم يفرضوا لغتهم على السكان، بل ولم يتمكنوا من المحافظة على لغتهم نفسها أكثر من جيل واحد بعد سيطرتهم على البلد (إلى أن استولى الفرس، ثم الإغريق على مصر).

فهاتان قصتان من النمو الصلب والصيانة البطولية، بدلاً من الانتشار الكثيف. وهذا الفصل يرسم أولاً مخططاً لتاريخ كل لغة، ملاحظاً بشكل خاص المواجهات مع لغات يتكلمها متطفلون أجانب كثيراً ما جاؤوا ليبقوا، ولكنهم لم يميلوا إلى اقتلاع مضيفيهم. وبعد التسلح بالحقائق، يمكننا النظر في أسرار مثل هذا الاستقرار اللغوي.

(*) يبدو أن أصل هذه التسمية هي محاولة يونانية مبكرة لتمثيل مصطلح 'الأنهار العظيمة' باللغة المصرية المتأخرة، إشارة إلى تفرعات النيل الكثيرة في منطقة الدلتا. ولهذا علاقة بكلمة ياطرو (jatruw)، أي 'النهر' التي كانت دائماً هي اسمه باللغة المصرية التقليدية الكلاسيكية (لوفت 1992).

(**) كان الاسم الأصلي "كيانغ" (kiang) وحدها، وهي كلمة أسترالية - آسيوية لها علاقة بكلمة "سونغ" (sông) التي معناها 'نهر' باللغة الفيتنامية (التي كانت ذات مرة تلفظ "كرونغ" krong)، وكذلك لكلمة مون "كرونغ" (krum)، التي تبين نوع اللغة التي كانت منطوقة هنا قبل مجيء الصينية من الشمال (نورمان، 1988: ص 18).

مصر	السياسة	الأحداث اللغوية
5000	أقدم المستوطنات	
3150		أول الكتابات الهيروغليفية على اللوحات الجدارية
3000	الفترة القديمة (3 قرون)	
2700	المملكة القديمة (6 قرون)	
2100	عدم الوحدة (نصف قرن)	
2050	المملكة الوسطى (3 قرون)	
1750	عدم الوحدة (قرنان)	
حوالي 1639		**ملوك الهوكسي في الدلتا (1 قرن)**
1550	المملكة الجديدة (5 قرون)	
1180 ـ 1174		**صدّ الليبيين (والأقوام البحرية)**
1050	عدم الوحدة (3 قرون)	

الصين	السياسة	الأحداث اللغوية
؟	أقدم المستوطنات	
2800؟		أول الحروف المكتوبة على جرار النبيذ؟
2100	سلالة إكسيا (5 قرون)	
1766	سلالة شانغ (7 قرون)	
حوالي 1300		حروف على عظام في هياكل المعابد
1027	سلالة جو (3 قرون)	
721	عدم الوحدة (5 قرون)	
221	سلالتا كين وهان (4.5 قرون)	
210 ق.م.		توحيد حروف الكتابة
65 م.		**أول دخول البونية**
220	عدم الوحدة (3.5 قرون)	
311		**هون (اكسيونغنو، اكسيان بي) يشنون غارات في الشمال**
386		**تابغاش (واي) يهاجم الشمال**
401		**كوماراجيفا يقيم ترجمة بونية في تشانغ آن**

مصر	السياسة	الأحداث اللغوية
945	**السلالة الليبية (قرنان)**	
750	**السلالة الكوشية (قرن)**	**الغزو الكوشي**
664_671		**الغزو الآشوري**
664	سلالة سايت (1.4 قرن)	
525	**الحكم الفارسي (قرنان، يتخللهما حكم مصري)**	**الغزو الفارسي**
332	**السلالة اليونانية (3 قرون)**	**الغزو اليوناني**
30 ق.م.	**الحكم الروماني/البيزنطي (7 قرون)**	
300 م.	**انتشار المسيحية (3 قرون)**	

الصين	السياسة	الأحداث اللغوية
511		**ليانغ وودي يدعون الرهبان البونيين إلى ناجينغ**
589	سلالتا سوي وتانغ (3.3 قرون)	
610		القناة الكبرى تربط بين تشانغ آن وهانغجو
635		**الترحيب براهب نسطوري في تشانغ - آن**
645		**الترحيب بعودة كسوان - زانغ لبلده في تشانغ - آن؛ تاسيس البونية في بلاط تانغ**
845		وو زونغ يلغي الأديرة البوذية والمسيحية النسطورية
907	عدم الوحدة (نصف قرن)	
960	سلالة صونغ (3.2 قرون)	
916		**خيتان (لياو) يغزون الشمال**
1115		**جورشين (جين) يغزون الشمال**

مصر	السياسة	الأحداث اللغوية
394		آخر استخدام للهيروغليفية
641	**الحكم العربي (6 قرون)**	**الفتح العربي**
1260	**المماليك (2.6 قرون)**	
1520	**الحكم العثماني (3.5 قرون)**	
حوالي 1550		الفقدان الأخير للتكلم بالقبطية، واستمرار بقائها في الطقوس المسيحية

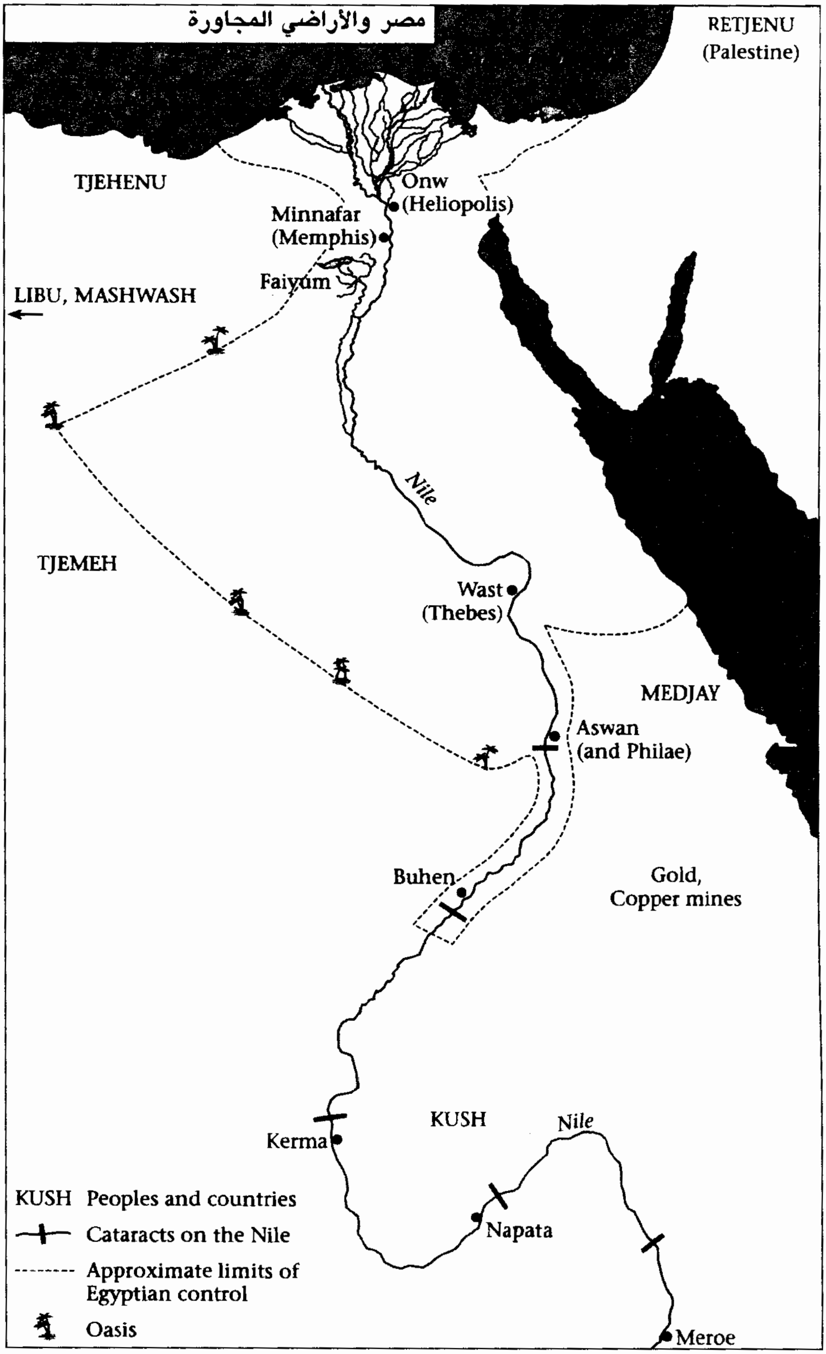
الصين	السياسة	الأحداث اللغوية
1200		الطاعون (؟) يخلي سيشوان من سكانها
1211		**المغول يغزون الشمال**
1279		**المغول يغزون الجنوب**
1271	سلالة يوان (قرن واحد)	**المغول يغزون يونّان**
1368	سلالة مينغ (3 قرون)	
1644		**غزو مانشو**
1644	سلالة كنغ (2.5 قرون)	إعادة الإسكان في سيشوان
1911	عدم الوحدة	
1949	جمهورية الصين الشعبية	

اللغة على طول نهر النيل

كن محترفاً في الكلام، فقد تصبح قوياً، فلسان الرجل سيف، والكلام فيه بسالة أكثر من أي قتال.

تعليمات للملك مريقار، السطر 32 (باللغة المصرية، منتصف القرن العشرين ق.م.)(3)

إن أصل اللغة المصرية يجب العثور عليه في مكان قريب في متناول اليد، في الأسرة الأفرو آسيوية أو السامية ـ الحاميّة التي كانت اللغات المتحدرة منها


مصر والأراضي المجاورة
RETJENU
(Palestine)
TJEHENU
Onw
(Heliopolis)
Minnafar
(Memphis)
Faiyum
LIBU, MASHWASH
Nile
TJEMEH
Wast
(Thebes)
MEDJAY
Aswan
(and Philae)
Buhen
Gold,
Copper mines
KUSH
Nile
Kerma
Napata
Meroe
KUSH Peoples and countries
Cataracts on the Nile
Approximate limits of
Egyptian control
Oasis

تشمل معظم شمال إفريقيا والمناطق المجاورة من الهلال الخصيب (من فلسطين إلى العراق) والجزيرة العربية. وليس للغة المصرية أقارب في هذه الأسرة الكبيرة، ولكن أصولها العائلية تفسر بعض الملامح المميزة لها، وهي أشياء دنيوية مثل انتهاء الأسماء المؤنثة بتاء التأنيث(*).

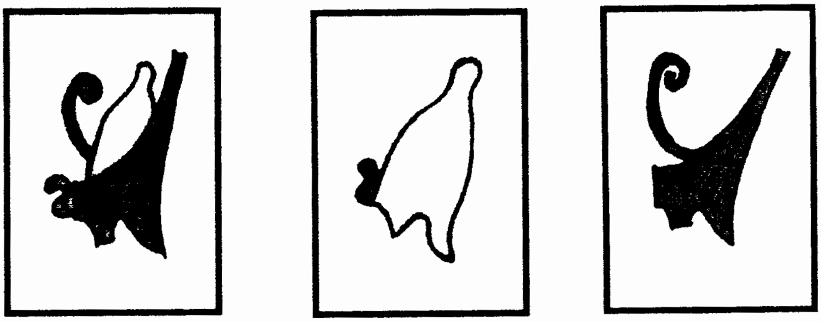
تقدم جليل

تظهر الحفريات الأثرية أن الدولة المصرية قد تأسست لأول مرة في أواخر الألف الرابع قبل الميلاد، في المنطقة المحيطة بالنتوء البارز الكبير من نهر النيل التي سيطرت عليها فيما بعد مدينة "واست" (المعروفة عند الإغريق باسم طيبه)، وهي منذ ذلك الحين في القسم الجنوبي من مصر، أي مصر العليا. ومن الواضح أن المصرية كانت عندئذ هي لغة الكلام، نظراً لوجود عناوين هيروغليفية سهلة القراءة على لافتات وقدور فخارية في المقبرة الملكية في المنطقة، في أبيدوس، تعود إلى أوائل الألف الثالث قبل الميلاد. وفي الحقيقة فقد تم اكتشاف مواقع لهذه الثقافة المسماة ناغادا، من عصور ما قبل السلالات على طول وادي النيل كله من أسوان إلى الدلتا، بما في ذلك الفيوم، وكلها تظهر أن منطقة مصر القديمة بكاملها كانت مأهولة.

وبما أن الصحراء المحيطة بها ظلت غير قابلة للسكن، فإن المملكة المصرية كانت دائماً مؤلفة من تطوير تنمية شريط على طول نهر النيل. ومن الناحية التقليدية فإن تاريخها يبدأ عندما قام الملك مينا بتوحيد شطري مصر القبلي والبحري، أي مصر العليا والسفلى، وجعل مقر عاصمته في "مين نفر" (أي ممفيس) في الوجه البحري، أي مصر السفلى(**).

(*) قارن كلمة "سان" التي معناها 'أخ' بكلمة سانات، التي معناها "أخت". ومعظم الأسماء المجردة تشترك بتاء التأنيث في آخرها، مثل كلمة "مارات" التي معناها "الأحقّية" (والتي يتصورونها دائماً كآلهة). انظر ص 68 وما يليها من أجل وصف أطول لملامح اللغات السامية.

(**) إن اسم "ممفيس" يشير في الحقيقة إلى هرم الملك خوفو الذي بني هناك بعد مينا بحوالي سبعة قرون، ومعناه 'المستقر في جماله.' وإيجيبت هو الاسم غير الدقيق لمصر، فهو يعكس الكلمة اليونانية إيجبتوس، فهو في الحقيقة لقب لممفيس، وتحريف لعبارة معبد طاقة 'كا' للإله بتاح. و'كا' معناها الحفاظ على قوة الحياة بالطعام والشراب وتقديم الأضاحي.



تيجان مصر: العليا، والسفلى، والمندمجان معاً

وهذا إنجاز ظل قضية أسطورية أكثر من كونه تاريخاً. لأن اسم الملك لا تنطبق عليه أي أدلة هيروغليفية، وليس هناك دليل مكتوب على انفصال الملوك في الشمال والجنوب. ومع ذلك، فقد كان هناك تقليد لتيجان مختلفة الأشكال والألوان لمملكتين موحّدتين بشكل رسمي بالتاج التاريخي لفرعون(*) (بطريقة تذكرنا بطابع تركيب العلم البريطاني). وإن الاسم الذي كان المصريون يعرفون به بلدهم هو "طارويج" الذي يعني 'نوعي الأراضي'.

وفيما بعد ذلك ليس للغة المصرية تاريخ بعد تحقق مملكتها التاريخية على طول وادي النيل من الشلال الأول إلى البحر. ورغم أن القوة المصرية كانت تتمدد بين فترة وأخرى ثم تنسحب مرة ثانية، من أعالي النيل إلى كوش، وإلى الشمال الشرقي إلى داخل فلسطين وسوريا، فإن اللغة لم تكن تنتشر مع هذا التمدد. ولمدة تقرب من أربعة آلاف عام، ظل مداها على حاله.

ومع ذلك، فإن المصرية المنطوقة قد تغيرت علامات تصوير ألفاظها وتراكيبها اللغوية مع مرور الزمن المذكور. فاللغة التقليدية الكلاسيكية للأدب المصري تم صقلها وترسيخها في الألف الثالث قبل الميلاد، حيث عرفت باسم 'اللغة المصرية الوسطى' وأخذت تستخدم في الكتابة بقدر المستطاع قبل كل شيء في النصوص الرسمية والطقوسية حتى نهاية الحضارة المصرية. ولكن

(*) هذه الكلمة الشائعة كلقب لملك مصر ترسخت باستخدامها في التوراة العبرانية. وهي تمثل الكلمة المصرية "فرّ"، (التي معناها البيت العظيم)، وهذا يشبه استخدام كلمة 'القصر' للإشارة إلى العاهل في بريطانيا.

من الواضح أن اللغة تغيرت بالتدريج على شفاه الناطقين بها. ومن بين الفترات الأفضل صقلاً، يميز اللغويون بشكل عريض بين العصر القديم (3000 ـ 1300ق.م.) والعصر المتأخر (1300 ق.م. ـ 1500 م). واعتباراً من منتصف الألف الثاني قبل الميلاد، من الواضح أن اللغة المحكية قد حققت تقدماً هاماً.

وعلى أبسط مستوى، فإن أصوات اللغة تتغير. فحرف الراء وتاء التأنيث في آخر الكلمات اختفيا. وصوت تْشْ والجيم (كما في لفظة judge) تم تبسيطهما فاختفيا وحلّ محلهما حرفا التاء والجيم البسيطان. ولكن هناك أيضاً تغييرات تركيبية تذكرنا بالطريقة التي صارت بها اللغة الإيطالية تختلف عن اللاتينية، أو الإنكليزية الوسطى عن الأنغلوساكسونية. ففي الفترة الأقدم، كانت اللغة المصرية متأثرة كثيراً بالتغيرات الصرفية عن طريق مجموعة من الحروف اللاحقة لتحديد العدد والجنس، ولم يكن فيها أداة تعريف أو تنكير (تماثل the أو a بالإنكليزية)، وكان الترتيب النموذجي للكلمات يضع الفعل في أول الجملة، يليه الفاعل ثم المفعول به. أما في الفترة المتأخرة لاحقاً فتميل نهايات الأسماء إلى الاختفاء، ولكن تظهر أدوات عاملة تعبر عن الفوارق المميزة بطريقة مختلفة. وتصبح منظومة الفعل أكثر اعتماداً على الكلمات المساعدة، وأقل تغيراً من الناحية الصرفية. وعلاوة على ذلك يميل الفاعل إلى المجيء أولاً في الجملة (كما هي الحال في اللغة الإنكليزية الحديثة).

ولنأخذ مثالاً واحداً: إن الترجمة المصرية لعبارة 'فليتقدس اسمك' كانت في الفترة القديمة:

> 'سوف يتقدس اسم لك' فتغيرت في الفترة الأحدث إلى 'فليحدث لاسمك كون القداسة'

ففي الحالتين نجد مقاطع اللغة المصرية الكلاسكية موجودة ولكنها صارت تصفف معاً بطريقة مختلفة تماماً .

ومن الأشياء الفاتنة أن أول لمحة تظهر للغة المتأخرة في السجل هي أسلوب الكتابة الأكثر شعبية تحت حكم المصلح الديني الفرعون أخناتون. وقد



أخناتون مع زوجته وابنتيه

جاء هذا الإصلاح الكتابي مع الصور الرسمية التي راحت للمرة الأولى تؤكد على حياة الفرعون المنزلية، مع زوجته الملكة نفرتيتي وابنتيهما في حوالي العام 1330 ق.م.

ورغم أن دين الدولة، واللياقة في صنع الأيقونات الرسمية قد تمت إعادتهما بعد عهد حكمه، فإن الأسلوب العتيق للتعبير المكتوب لم يعد بصورة تامة أبداً. غير أن النصوص الدينية (الطقوس، والأساطير، والترانيم) ظلت تكتب بالشكل التقليدي الكلاسيكي للغة؛ بل استمرت حتى نهاية الكتابة الهيروغليفية في القرن الرابع الميلادي. ولكن الأدب الشعبي والنصوص المدرسية والوثائق الإدارية تظهر أن نوعية مختلفة من اللغة صارت تستخدم عندئذ بصورة عامة .

وبقيت اللغة في مصر كوسيلة رئيسية للحياة اليومية طيلة ألفي عام أخرى بعد أخناتون. وإزاء هذه الاستمرارية الكامنة، فإن إثارة الاهتمام الرئيسية جاءت من الاتصال بلغات أخرى جاء متكلموها ليعيشوا في مصر. فكانت هناك أربع من هذه اللغات هي: الليبية، والكوشية، والآرامية، واليونانية.

المهاجرون من ليبيا وكوش

مارس الليبيون ضغطاً على مصر لأول مرة في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، بعد جيلٍ من سقوط أخناتون. فنقرأ عن حملات صحراوية شنها الفرعونان سيتي الأول ورمسيس الثاني، ولكن يظهر أنه كان هناك تدفق للهجرة هزيل ولكنه ثابت. فقد تم قبول جماعات من الجنود الليبيين المتطوعين كجنود احتياط في الجيش المصري[4]، وكانوا على وجه الخصوص من القاهاق، والشاردانا، والمشواش. فالفرعون منفتاح (1211 ـ 1202)، خليفة رمسيس، يذكر نصراً كاسحاً على جيوش من عشائر المشواش والليبو وتجهينو الليبية كانت ستهاجم مصر. وبعد ذلك بجيل يخبرنا رمسيس الثالث عن أعمال دفاعية مماثلة حوالي العام 1179 والعام 1176 ق. م. ومع ذلك فقد استمر التسلل إلى مصر باطراد، وصار الوجود الليبي ثابتاً في منطقة الدلتا. فقد كان رمسيس الثالث نفسه يملك عبداً ليبياً اسمه ينين، يخدمه في بلاطه[5]. وبعد ذلك بمئتين وسبعين عاماً، كانت الطائفة الليبية قد رسخت نفسها باستقرار كاف للتزوج من العائلة المالكة. كما أن الأسرة الثانية والعشرين التي حكمت ليس من ممفيس ولكن من تنيس في الدلتا قد أسسها محدث النعمة شوشنك من عشيرة مشواش. وقد دام حكم تلك الأسرة مئتين وثلاثين عاماً رغم أنها تمزقت بنـزاعاتٍ عائلية، وأرغمت على قبول مملكة مشتركة (تحت سيطرة ليبية متساوية)، مع أسرة منفصلة مقامة في مدينة أخرى في الدلتا هي تاريمو (ليونتوبوليس).

وكان القادمون الليبيون يتحدثون لغة لها علاقة بالبربرية الحديثة أو الأمازيغ، التي لا تزال منطوقة في كثير من أنحاء شمال إفريقيا. ولكن التأثير اللغوي لوصولهم كان ضئيلاً إلى حد بعيد. وكان لدى الفرعون إنيوتيف في القرن الحادي والعشرين ق. م. كلب اسمه "عباقيرو"، ويبدو أن هذه هي التسمية التي يطلقها بربر الطوارق على كلب الصيد السلوقي "آبيقور"[6]. ومن بين الأرقام المصرية، فإن الكلمة المستخدمة للرقم عشرة، وهي "مادجو"، تذكرنا بكلمة "مارو" البربرية[7]. وليس هذا بالشيء الكثير.

وفي جنوبي مصر كانت أرض كوش (قوص). وهنا تدفق العدوان في

اتجاه معاكس للاتجاه الآتي عبر الحدود الليبية. ويمكن استخلاص الحافز المصري عليه من الأصل التاريخي الشفاف للاسم الذي يطلقونه على كوش، وهو النوبة ـ من كلمة "نابو"، التي هي الكلمة القبطية "نوب"، أي 'الذهب' ـ رغم أن المناجم الرئيسية كانت في موقع غير ملائم في الصحارى الشرقية. ولكنها مثل مصر، يمكن رؤيتها كجزء مكمل لـ "كومات"، أي 'الأرض السوداء' المكونة من طمي النيل الخصب، المملكة الموجودة فقط من نمو شريط على النهر العظيم. وكانت مصر تعمل إلى الجنوب من الحد الطبيعي عند الشلال الأول، طيلة أيام المملكة القديمة، في استخراج الذهب وإقامة مستوطنة عند بوهن، بجانب الشلال الثاني. فحققت سيطرة كاملة على النوبة في القرن التاسع عشر ق. م. ثم خسرتها مرة أخرى في القرن الثامن عشر، ثم أعادتها في القرن السادس عشر وظلت محتفظة بها خمسمئة عام. وأُعطي نائب الملك فيها لقب 'ابن الملك في كوش' لتأكيد مكانته المركزية في الحكومة. وفي حوالي العام 1087 ق. م. أساء حامل هذا اللقب استخدام منصبه باحتلال العاصمة المصرية طيبه، ثم انسحب إلى الجنوب معلناً استقلال النوبة فعلياً.

وبعد ذلك لم يعد أحد يسمع شيئاً عن النوبة لمدة مئتين وستين عاماً. ولكن في حوالي العام 728 ق. م. كان مقر حاكم كوش في ناباتا، ولكنه كان يعطي لنفسه كل فخامة المنصب الفرعوني. فأكد على المطالبة بعبادة الآلهة في طيبة، وممفيس وعون (هليوبوليس) واستطاع تنفيذ مطالبته هذه. وشهدت الأعوام الستون التالية سيطرة الكوشيين (بشكل رخو فضفاض) على مصر. فعانت وحدة الأرض السوداء كهاجس ينتاب سادتها السابقين.

ولكن ما حدث هو أن هذه الوحدة قد أنهاها الغزو الآشوري الواسع النطاق الذي جاء من أقصى الطرف الآخر من البلاد في العام 664 ق.م. وفي أعقابه قامت أسرة مصرية جديدة بإعادة السيطرة الأهلية ضمن حدودها التقليدية(*)، بينما عاد ملوك النوبة إلى أرضهم ونقلوا عاصمتهم من ناباتا إلى

(*) وكان مقرها في سرو (سايس) في منطقة الدلتا، ويشاع أن أجدادها كانوا من ليبيا.

ميرو، على بعد 400 كيلومتر جنوباً على مجرى النيل. وهناك أسسوا حضارة ميرو التي دامت حتى حوالي العام 250 م، وكانت لها أبجدية مبنيةٌ على الرموز الهيروغليفية. ولم تكن اللغة التي كتبوها بهذه الطريقة ذات علاقة باللغة المصرية، ولا تزال حتى اليوم غير مفهومة بشكل كامل.

ومرة أخرى ليس هناك تأثير معروف للغة المصرية كما هي مستعملة في مصر نفسها، رغم طول مدة وجود مصر في النوبة وتعايشها معها. فمن الصعب الحكم على تفاصيل التأثير ما دمنا لا نملك دليلاً مباشراً على لغة الكلام في كوش في ذلك الوقت. وأثناء فترة السيطرة المصرية على كوش، لا بد أن اللغة المصرية كانت تستخدم على نطاق واسع على مستويات النخبة في مناطقها الشمالية، ولكن استخدامها لم يبق مستمراً بعد تراجع العلاقات بين البلدين، رغم الحماس الواضح لكل الأشياء المصرية الذي أصر على البقاء جنوبي الحدود. فالمغامرة الإمبراطورية المتبادلة ظلت مستمرة، بشكل متقطع، طيلة أكثر من ألفي عام، ولكنها تركت كلا طرفيها بدون علاقة لغوية دائمة.

وكان من البلدان الأخرى التي حاولت مصر غزوها أرض كنعان في الشمال الشرقي. فقد كانت لها منذ أقدم العصور علاقات تجارية مع فلسطين. وهي علاقات صارت قوية بشكل خاص في حوالي منتصف الألف الثاني قبل الميلاد مع مدينة بيبلوس الفينيقية، التي كانت تزود مصر بخشب الأرز المقطوع من لبنان. وفي حوالي العام 1830 ق. م. غزا أحد الفراعنة جنوب فلسطين. ولكننا لا نعرف شيئاً يذكر عن دوافعه، ولا عن أي عواقب لغزوه. وطيلة عدة قرون بعد ذلك كانت هناك حملات متواصلة للسيطرة على فلسطين كلها حتى حدود 'ميتاني'. وقد فُسر ذلك على أنه محاولة لتخليص مصر إلى الأبد من التهديد بسيطرة أجنبية، وهي سيطرة عانت منها مصر تحت حكم ملوك "الهكسوس" (وهي تسمية مأخوذة من اليونانية ومعناها 'الحكام الخارجيّون'). ولكن ليس هناك دليل لغوي أو غير لغوي على أن هذه السلالة، كائنة ما كانت، قد جاءت من الشمال الشرقي.

ومهما كان الدافع، فقد نجحت مصر في فرض سيطرتها على سائر أنحاء

فلسطين وسوريا حتى أوغاريت في الشمال. وهذا شيء تؤكده مراسلات العمارنة الدبلوماسية التي يعود تاريخها إلى ما بين العامين 1345 و1330 ق. م. وهي مراسلات تمثل إلى حد كبير رسائل متبادلة بين الملك الفرعوني وكثير من نوابه الكنعانيين، وخاصة ربحادا، حاكم بيبلوس. وهذا الجزء من المراسلات مكتوب باللغة الأكادية حصراً. والرسائل من الجانب المصري مكتوبة بأكادية جيدة تماماً، ولكن أجوبتها العائدة كانت بلهجة متأثرة تأثراً ثقيلاً باللغات الكنعانية(8). ولم يكن الجانبان يتقنان هذه اللغة المشتركة بشكل مريح. ولكن النقطة بالنسبة لنا هي أن مصر، بعد قرن من سيطرتها السياسية، لم تنقل معرفة فعالة بلغتها، حتى إلى الملوك والمسؤولين الذين كانوا يتظاهرون بأنهم خدم موالون لسيدهم المصري(*). وبدلاً من ذلك فإنهم كانوا يتصلون بمصر بلغة القوة الرئيسية في الشرق.

المنافسة من الآرامية واليونانية

كانت تلك القوة مركزة أول الأمر في آشور، ثم في بابل، وأخيراً في فارس، وقد استمر نفوذها يتنامى على مدى الألف عام التالية. وعندما فقدت مصر سيطرتها على فلسطين (التي كانت آخر فورة لها هي حملة الفرعون الليبي شوشنق عبر فلسطين حوالي العام 925 ق. م)، ثم شهد القرن الثامن قبل الميلاد تمديد آشور لسيطرتها على المنطقة ذاتها، وبدأت مصر تجتنب اللاجئين والمنفيين. وكانت اللغة التي يتكلمونها هي الآرامية، التي كانت في هذا الوقت قد انتشرت في جميع أنحاء الشرق الأوسط الناطق باللغات السامية، بل إنها قد حلت محل الأكادية في جميع أنحاء الإمبراطورية الآشورية.

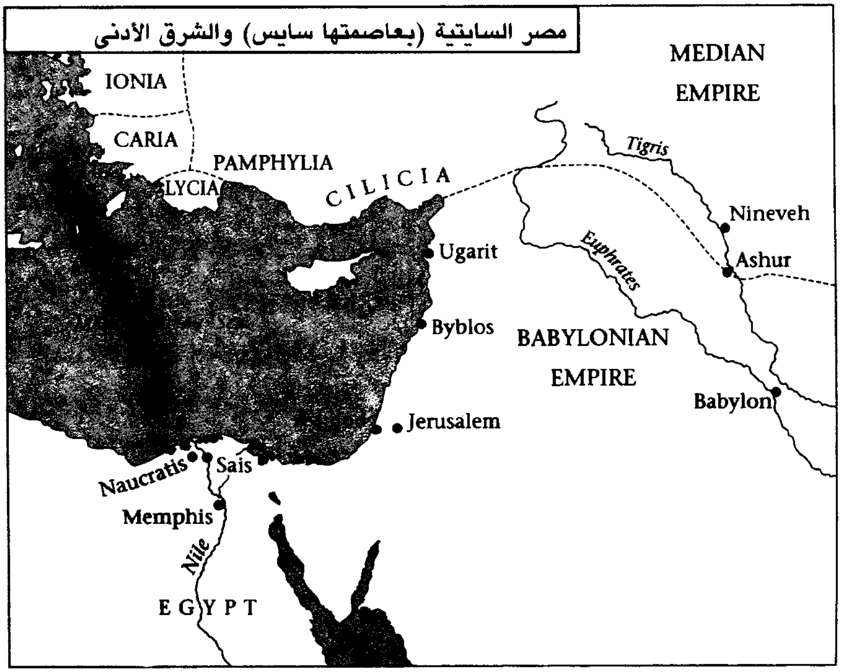
وفي القرن السابع قبل الميلاد دخلت الآرامية إلى مصر بشكل جدي

(*) ومع ذلك فعندما وصل بطل رواية "سنوحي" المصري الخيالية إلى رتجينو في فلسطين الشمالية (وكان الزمن الموضوع لأحداث الرواية هو القرن العشرون قبل الميلاد، وكانت رتجينو مصنفة مع أعداء مصر) قيل له: 'إنك ستكون سعيداً هنا، فسوف تسمع لغة مصر'. وكما يروي سنوحي، فقد كان هناك مصريون مع حاكم رتجينو، يتحدثون بالنيابة عنه (القصيدة 30 من الرواية). وكان اسم ذلك الحاكم هو آمولاناساي، ومن الواضح أنه اسم عمّوري.

حملتها قوة الغزو الآشورية التي نهبت طيبه بين العامي 671 و667 ق. م. ونصبت على مصر فرعوناً دمية. ولكن السيطرة الآشورية ثبت أنها مؤقتة. فقد استطاع بسامتيك، ابن الفرعون الدمية نكو، أن يستعيد استقلال مصر عند حلول العام 639 ق.م. وسرعان ما بدأ يعيد التأكيد على دور مصر في فلسطين، فاحتل العاصمة الفلسطينية أشدود في العام 630 ق. م. ودحر جوزياه ملك يهوذا وقتله في العام 610 ق.م. وتابع خلفاؤه هذه السياسة مدة خمسة وستين عاماً أخرى، مستغلين فرصة كسوف آشور وبابل، فحولوا فلسطين وسوريا كلها إلى منطقة عازلة لجميع الاشتباكات بين مصر وبابل. وكان نهب أورشليم في العام 587 ق. م. وسبي اليهود ونفيهم إلى بابل واحداً من الأثمان التي دفعها الآخرون لهذه السياسة.

ولعل التأثير الصافي لذلك على اللغة أنه لم يجلب إلى مصر اللغة الآرامية، بل اليونانية. فقد تحالف بسامتيك بشكل انتهازي مع القراصنة الكاريين والأيونيين، فتمكن من التخلص من آشور. فأوجد ذلك طابع أسلوب أسرته في ممارسة العمل بالتوافق مع الإغريق، عسكرياً وتجارياً. فراح أسطول مصري من السفن ثلاثية المجاديف المصنوعة في اليونان يجوب بدورياته البحرين الأحمر والأبيض المتوسط. وكانت فرقة من المرتزقة اليونان مع القوات المصرية التي أرسلت إلى جنوب وادي النيل في آخر مهمة ضد النوبة في تسعينيات القرن السادس قبل الميلاد. وكانت مستعمرة نوكراتيس التجارية اليونانية قد تأسست بالقرب من سايس، في غرب الدلتا كميناء بموجب معاهدة، بطريقة شديدة الشبه بميناء شنغهاي في الصين في القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين. وكانت هناك تجارة مزدهرة، ولا سيما في القمح والكتان من مصر، بالمقايضة مع النبيذ والفضة من اليونان. ويقول باقيليدس، الشاعر اليوناني من القرن الخامس قبل الميلاد، إن اليونانيين عندما يسكرون من شرب النبيذ، كانوا يتركون خيالهم ينطلق في تصوراته عن السفن المصرية المحملة بالقمح[9].

كانت تلك بداية جوّ عالمي شديد الغنى والخصوبة في الدلتا قيض له أن يتحقق في توسع الإسكندرية كميناء يوناني بعد ذلك بثلاثمئة عام. فقد أصبح



صوت اللغة اليونانية مألوفاً في مصر، ولو لم يكن يتعلمها إلا أشخاص قليلون حتى ذلك الحين(*). ولكن قبل أن تصل اليونانية إلى ذروتها، تعرضت مصر لتشرب لغتها باللغة الآرامية بشكل قسري.

فالآرامية، إلى جانب كونها لغة البابليين، كان قد تم الأخذ بها كلغة رسمية للإمبراطورية الفارسية. فكانت هذه هي الحالة التي حققت المهمة التي كانت مستحيلة حتى ذلك الحين، وهي إخضاع مصر لحكم أجنبي دائم. فمصر، بعد أن أسكرها النبيذ الإغريقي، طرحت أرضاً على أيدي الغزاة الفرس الذين اقتحموها في العام 522 ق. م. فأطاحوا بالفرعون بسامتيك الثالث وقتلوه، وأقاموا إدارة فارسية قياسية حولت مصر إلى مقاطعة خاضعة لحكم مرزبان فارسي.

(*) يروي هيرودتس، في الجزء الثاني من تاريخه، ص154 أن بسامتيك عين بعض الصبية المصريين في خدمة الأيونيين والكاريين، كي يتعلموا اليونانية، وبذلك أسس طبقة المترجمين المصريين. وليست هناك أية إشارة إلى يونانيين درسوا اللغة المصرية.

واستمر الحكم الفارسي قرنين، تخللهما إحياء استقلال مصر في القرن الرابع قبل الميلاد، ثم تم سحقه فيما بعد. ورسّخت اللغة الآرامية نفسها ليس كلغة للحكومة والقانون فحسب، بل كذلك كوسيلة واسعة الانتشار للاتصال الشخصي الخاص. والحقيقة أن صدفة مناخية تشوش السجل. فبسبب المناخ الجاف، تقدم مصر كتلة هائلة من الوثائق الآرامية بقيت من هذه الفترة، سواء على أوراق البردي أو الرقوق، أو مرسومة على الحجارة، أو محفورة على المعادن.

كانت الآرامية إذن هي أول لغة في ثلاثة آلاف عام تتمكن من شق طريق للتغلغل بصورة هامة في مصر. وعندما استولى الإسكندر على البلد في العام 332 ق.م.، مفتتحاً ثلاثة قرون من الحكم اليوناني، وجد إدارةً تُشغَّل بالآرامية، وفي بعض الجوانب كالمحاكم القانونية مثلاً، أصرت هذه اللغة على البقاء تحت حكم البطالسة[10]. ولكن الإغريقية حلت محلها في الاستعمال الرسمي بصورة عامة. ورغم أن البطالسة قد تعاملوا بجدية مع دورهم كورثة أو خلفاء للفراعنة، ورغم أن مصر اليونانية صارت بلداً مزدهراً وله حكم ذاتي مرة أخرى، فإن اللغة المصرية قد أبعدت منذ ذلك الحين إلى أقاصي أطراف الاستخدام سواء في مجال التقديس أم في مجال التجديف والتدنيس: في المعابد، وعلى شفاه عامة الناس العاديين. فالإسكندرية التي حلت محل آثينا كمركز علمي أكاديمي للعالم القديم كانت مدينة ناطقة باليونانية. والمشهور عن الملكة كليوباطرة، آخر الحكام البطالسة (51 ـ 30 ق.م.) كانت أيضاً هي أول من تعلم اللغة المصرية ـ ولكن ذلك لم يكن سببه سوى ولعها الشديد باللغات.

> كانت هناك متعة في نغمة صوتها بالذات، فقد كان بوسعها أن تدير لسانها بسهولة للتحدث بأي لهجة تشاء، وكأنه يشبه كثيراً من الآلات الموسيقية ذات الأوتار. وكان الأجانب الذين تحدثت معهم عن طريق مترجم قليلين فعلاً، إذ كانت تجيب معظمهم بكلماتها نفسها، سواء باللغة الحبشية أم التروغودية، أم العبرية، أم العربية، أم السريانية، أم الميدية، أم الفرثية. أما

الملوك المقابلون لها فلم يكن لديهم حتى الصبر على تحصيل اللغة المصرية، بل كان بعضهم تنقصه حتى معرفة لغته المقدونية(*).

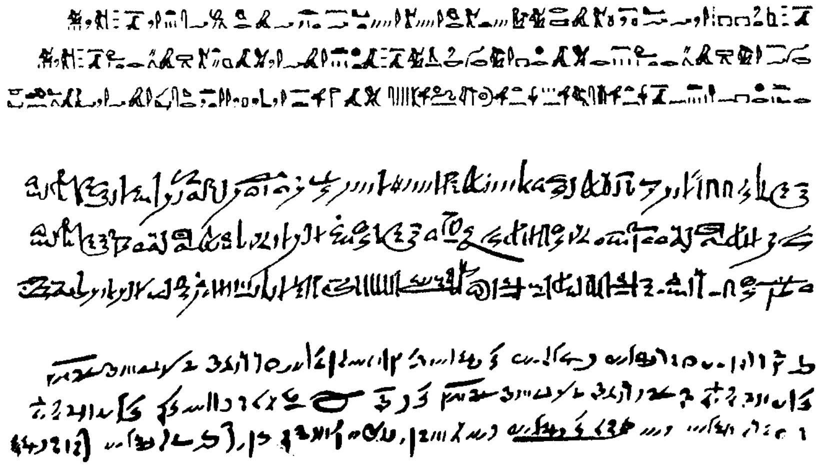
تغييرات في الكتابة

مرت اللغة المصرية بثورات جذرية في شكلها المكتوب أكثر مما مرت به في شكلها الشفهي المنطوق. فالرموز التصويرية الأنيقة الدقيقة المعروفة من النصب التذكارية المصرية أطلق عليها اليونانيون اسم الهيروغليفية، أي 'المنقوشات المقدسة'. وترجموا الاصطلاح المصري "مادو نات سار" إلى 'كلمات الله' (وقد استخدمت العبارة أيضاً لوصف كلمات بتاح الخلاّقة في النص الموضوع على رأس هذا الفصل). وليس لدينا أي إشارة إلى كيفية نشوء هذه التعابير، التي لم تتعرض لأي تحوير جوهري طيلة الثلاثة آلاف وأربعمئة عام التي رأيناها تستخدم فيها، رغم تزايد تأثير المدى الذي أعطاه النظام للرموز والصور في القرون القليلة الأخيرة من تلك المدة، عندما تحول الدين المصري على نحو متزايد إلى ممارسة عتيقة الطراز في بلد متنصّر يغلب عليه الطابع الإغريقي. فقد اخترعت أعداد كبيرة من الصور الرمزية الكتابية التي أظهرت أن النظام لم يعد ملزماً بقيود كونه نصاً علمياً. ذلك أن آخر نص مكتوب يعود تاريخه إلى العام 394 م. فقد قمعته السلطات المسيحية بعد ذلك التاريخ(**).

فقد كان في موازاة تلك الصور الرمزية حروف معادلة لها ولكنها أكثر تقوساً، تدعى الهيرية - أي 'الكهنوتية' - وذلك زمن أول الوثائق غير المنقوشة

(*) بلوتارخ، "أنطونيو"، 27: 4-5. لا بد أن كل هذه اللغات كانت مسموعة في شوارع الإسكندرية في أيام كليوباطرة. فالحبشية كانت لغة كوش، والسريانية شكل من أشكال الآرامية، والتروغودية كانت لغة الكلام على طول ساحل البحر الأحمر، ولعلها هي سلف لغة بجا الحديثة. أما "المدجاي"، المفترض أنها بقيت كما هي، فكانت لغة قوم من الصحراء الشرقية استخدموا كرجال شرطة في مصر من القرن الخامس عشر إلى القرن الثالث عشر قبل الميلاد (غاردنر 1957، ص183 الحاشية رقم 2). وليس هنا أي ذكرٍ للغة الليبية - أو اللاتينية، رغم أن بلوتارخ يضيف بأن كليوباطرة قيل عنها إنها كانت تتكلم لغات كثيرة أخرى إلى جانب اللغات التي ذكرها فعلاً. ومن المرجح أن غرامياتها مع قيصر، وبعده مع أنطونيو، قد جرت باللغة اليونانية.

(**) كان النص الأخير مكتوباً على جزيرة فيلاي المقدسة، فوق شلال النيل الأول مباشرة، وهو أبعد موقع حراسة مصري من الناحية الرمزية. وكان آخر تدنيس لهذا الموقع الديني، وهو آخر وأبعد موقع في مصر قد أقره وصادق عليه الإمبراطور الروماني جوستنيان (جونسون، 1999، ص 229).



ⲥⲉⲛⲁⲣⲓⲕⲉ ⲁⲛ ⲙ̄ⲡⲉⲧⲙⲟⲟⲩⲧ ⲛ̄ⲑⲉ ⲙ̄ⲡⲉⲧⲟⲛϩ ⲥⲉⲛⲁⲙⲉⲉⲩⲉ ⲙⲉⲛ ⲉⲣⲟϥ ϫⲉ ⲟⲩⲣⲙ̄ⲛ̄ⲕⲏⲙⲉ
ⲡⲉ ⲉⲧⲃⲉ ⲧⲉϥⲁⲥⲡⲉ

الهيروغليفية، والهيرية، والديموطية، والقبطية (١١)

على النصب التنكارية (حوالي العام 2600 ق. م.) وقد شكل هذان النوعان من النصوص ما كان من حيث الجوهر نظاماً واحداً، يمكن تدوينه بصور منقوشة على النصب التنكارية أو بالخطوط المقوسة المخربشة، مع حوالي 175 علامة تفسر على أنها حروف صامته أو لواحق تابعة لحروف صامتة، وبضع مئات من العلامات المستخدمة بصحبتها لتحديد المعاني بدقة.

ومن القرن السابع قبل الميلاد، بدئ باستخدام أسلوب جديد من الكتابة يعرف باسم الديموطي، أي 'الشعبي': فبدأ كشكل مبسط تبسيطاً جذرياً من حروف الكتابة الهيرية، ولكنه سرعان ما افترق عن النظام التقليدي عندما تم نسيان العلاقة مع الرموز الهيروغليفية.

ومن بعد الغزو اليوناني عند نهاية القرن الرابع قبل الميلاد، تبدأ بالظهور مسارد يونانية بالكلمات العسيرة مع شرح لها في النصوص الديموطية الشعبية هنا وهناك. فقد أصبحت معرفة القراءة والكتابة باليونانية واسعة الانتشار. ومع ذلك فإن نظام الكتابة البلدي بقي له مشوار طويل جداً ليقطعه. إذْ كان آخر نص

شعبي مؤرخ يعود إلى العام 452 م أي بعد مرور 784 عاماً على الغزو اليوناني، و482 عاماً على استئصال الرومان للبطالسة، و310 أعوام على أول موعظة قيل إن الحواري مرقس قدمها في الإسكندرية التي كانت عندئذ عاصمة مصر. ومثل آخر النصوص الهيروغليفية المكتوبة قبله بثمانية وخمسين عاماً فإن هذا النص الشعبي قد عثر عليه في آخر موقع مصري، على جزيرة فيلاي(12).

مفارقات نهائية

كما رأينا، فقد قدر للمسيحية أن تُنهي الكتابة الهيروغليفية وتنهي معها المجرى المركزي للثقافة المصرية القديمة. ولكن رغم ذلك كان لها أثر فاسد آخر، وهو ضمان بقاء اللغة المصرية نفسها على المدى الطويل. وبحلول القرن الثالث الميلادي كانت اللغة المصرية قد فقدت دورها في الحكومة أو في حياة النخبة منذ زمن طويل، إذ كان ذلك الدور يؤدى آنئذٍ بالإغريقية حصراً. ومع ذلك فعند هذه النقطة بالذات رأت القوة المسيحية الجديدة الصاعدة أن اللغة هي أفضل وسيلة لإحراز تقدم في تنصير الشعب المصري. وبهذه الصفة جعلوها أداةً لنوع جديد من الأدب تستخدم فيه الأبجدية اليونانية لتمثيل اللغة المصرية. وبما أن اللغة المصرية أكثر تعقيداً من اليونانية في نظام أصواتها، فقد أضافوا إليها ستة أحرف جديدة (مستعارة من الكتابة الديموطية الشعبية)، وهكذا أوجدت الأبجدية القبطية. فبدأ التقليد الجديد بترجمات من الإنجيل، ثم توسّع إلى مقالات إنشائية أصلية تحكي قصة حياة آباء الصحراء المصرية، القديس باخوميوس وأتباعه. وصارت القبطية قناة كبرى لتطوير المذهب المسيحي، تكتب بها المواعظ، والرسائل، والمجادلات التي تقرأ كلها على نطاق واسع في الكنيسة المصرية.

وأخذت اللغة المصرية تُكتبُ بهذه الطريقة لمدة ألف عام أخرى. وكانت المفارقة هي أن هذا الارتباط مع الكنيسة المسيحية الذي تحقق في وقت متأخر هو الذي أنقذها، وعلى عكس ذلك فإن انتشار الإسلام بصورة صاعقة كالبرق في القرن السابع سرعان ما محق اليونانية، لغة الأسياد السابقين.

فاللغة المصرية، المعروفة عندئذ بالقبطية، نجت من الهجوم الأول. ولكن التهديد من العربية كان دائماً أشد ضرراً من تهديد اليونانية. فبعد كل شيء فإن الإسلام دين مساواة؛ فعند قبول اللغة العربية لا تبقى هناك عوائق أخرى للتفضيل الاجتماعي في ظل النظام الجديد. فعلى مدى القرون انحسرت حظوظ اللغة القبطية مع الدين الذي ارتبطت به. وكان آخر عمل عظيم كتب بالقبطية عنوانه 'تريادون'، وهي قصيدة طويلة ألفت بعد وقت قصير من العام 1300 م. وحتى بعد ذلك بمئة عام كان يقال إن المسيحيين في مصر العليا (في الوجه القبلي) لم يكونوا يتكلمون شيئاً ينكر سواها[13]، ولكن يبدو أنه عند حلول نهاية القرن السادس عشر كانت المحادثة بالقبطية قد اختفت تقريباً. ولكن ترتيلها في طقوس الكنيسة القبطية قد استمر إلى يومنا هذا.

اللغة من هوانغ ـ هي إلى يانغتسي

قال السيد:
إن التعلّم بدون تفكير غير مفيد. أما التفكير بدون تعلم فهو خطر.
كونفوشيوس، المنتخبات، 2: 15

إن النمط الأساسي لتاريخ اللغة الصينية شديد الشبه بتاريخ اللغة المصرية، وهو الحفاظ على الوحدة والاستقرار اللغوي رغم التدفقات الأجنبية المتكررة.

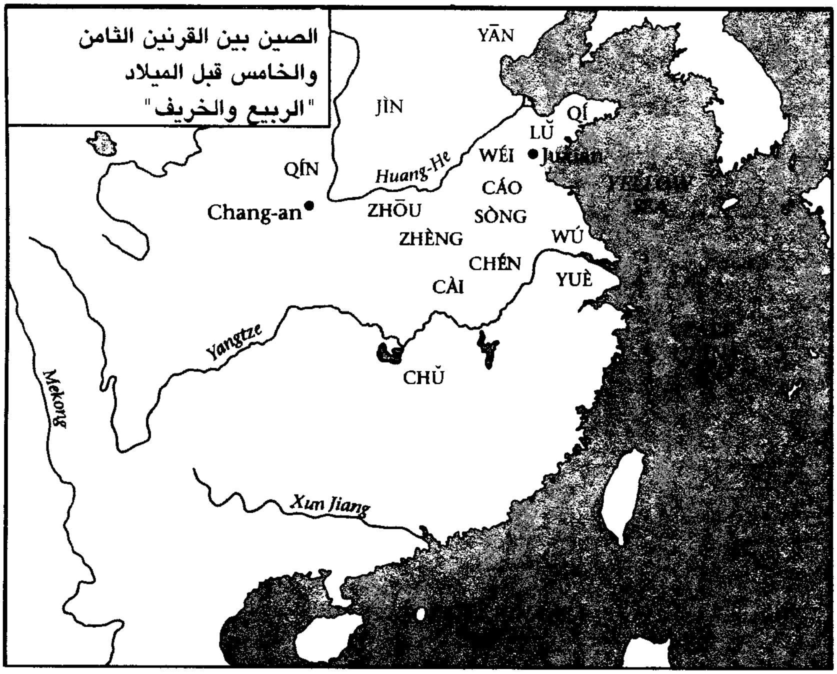
الأصول

إن أقرب أقارب اللغة الصينية موجودون في التيبت وبورما. ولكنهم ليسوا قريبين. فالصينية ينظر إليها عموماً على أنها فرع منفصل من الأسرة اللغوية الصينية ـ التيبتية، بدون أي علاقة خاصة مع أي واحدة من اللغات الكبرى في تلك الأسرة التي تشمل التيبتية والكارنية، وحتى لغات الصين الجنوبية مثل يي، وليسو، وجنغبو. فجميع هذه اللغات متشابهة جداً في التركيب الأساسي، باعتبارها لغات نبرة، إذ إن معظم الكلمات، أو جذور الكلمات، ذات مقطع واحد.

وليس فيها التواءات أو زيادات تصريفية لاشتقاق الأسماء أو الصفات أو الأفعال. ولكن هذا ليس كافياً لتحديد الأسرة: بل إنه يحدد المنطقة، إذ إن هناك لغات لا علاقة لها ومشابهة لذلك في المنطقة أيضاً، مثل لغات ثاي وجوانغ وهمونغ ومين.

لقد وجدت اللغة الصينية أولاً في وادي النهر الأصفر، أي هوانغ - هي. وأول سجل لها هو الآن مسألة جدلية مثيرة للخلاف. فقد تعرف الباحثون الصينيون في العام 2000 على حروف مكتوبة في العلامات على أكواب شراب عمرها 4800 عام، عثر عليها في جوكسيان، في مقاطعة شاندونغ ('جبال الشرق')، حيث يلتقي النهر بالبحر. وسواء أكان هذا التحليل صحيحاً أم لا، فإن أقدم الحروف التالية بعد ذلك طويلة العمر أيضاً وتعود إلى ما قبل 3400 عام. وقد عثر عليها على أوان برونزية، وعلى قواقع السلاحف، وعلى ألواح أكتاف الثيران (تسخن حتى تتشقق، كوسيلة لقراءة البخت)، بالقرب من أنيانغ في مقاطعة هيبي (النهر الشمالي). ورغم أن الرموز هي في الأصل كتابة بالصور، فإن الواضح أن النظام ككل يمثل اللغة الصينية. وتستخدم التوريات البصرية المرئية لإيصال الكلمات التي لها مزيد من المعاني المجردة (مثال: إن الرمز الأصلي لكلمة *Lāi* التي معناها 'قمح' يمثل أيضاً كلمة *Lai* التي معناها 'تعال')، أو في الكلمات الأكثر تحديداً (فإن كلمة *Lang* التي معناها 'ذئب' تركب من كلمتين هما *quan* التي معناها 'كلب' و*Liang* التي معناها 'جيد')(*).

(*) تغيرت مواد الكتابة على مدى آلاف السنين. فبالنسبة للفترة الأقدم فإن معرفتنا بما كان سائداً فيها تعتمد بالطبع على ديمومتها، ومن هنا يأتي البروز المبكر للبرونز والعظم. وفيما بعد (اعتباراً من الألف الأول) استخدمت الفرشاة للكتابة على شرائح الخيزران. أما المواد الأكثر مرونة، وهي اختراعات صينية متميزة، فقد جاءت في وقت لاحق فيما بعد وهي: لفافات من الحرير، من القرن الثاني ق.م.، والورق اعتباراً من العام 105 م. وكانت الطباعة أيضاً إسهاماً صينياً في التكنولوجيا اللغوية العالمية. فقد كان يتم تقطيع كتل ثابتة لطبع صفحات بأكملها منذ نهاية القرن التاسع الميلادي، وتم إدخال الطباعة المتنقلة منذ القرن الحادي عشر. وبالطبع كان هذا عملاً أشد مشقة مع نظام كتابةٍ كان دائماً يستخدم عدة آلاف من الرموز.



والتاريخ اللاحق للغة الصينية القياسية الموحدة كما هي منطوقة ينقسم بشكل اصطلاحي إلى عدة فترات هي: الصينية القديمة (حتى العام 500 ق. م ويمثلها شيجينغ أي 'كتاب الشعر')، والصينية الوسطى (من العام 500 ق. م إلى القرن السابع الميلادي ويمثلها كيون، أي 'قاموس القوافي'، والماندارين القديمة (من القرن السابع إلى القرن الرابع عشر)، والماندارين الوسطى (من القرن الرابع عشر إلى القرن الثامن عشر) والماندراين الحديثة بعد ذلك. وإن بروز الشعر في الجزء المبكر من هذا السجل ليس مسألة جماليات. فبناءً على العلاقة غير المباشرة بين النص الصيني المكتوب وطريقة التلفظ به، فإن الدليل على تطور اللغة المحكية يأتي على الأغلب من التحليل المفصل للشعر، وخاصة بالنظر إلى الكلمات المسجوعة المتقافية الوزن.

إن اللغة المكتوبة نفسها لا تكشف الكثير عن التطور اللغوي في الألفين وخمسمئة عام الماضية، ما دامت اللغة التقليدية الكلاسيكية المعروفة باسم

"وينيان" كانت معرفة في فترة "التشونقيو"، أي 'الربيع والخريف' (770 ـ 476 ق.م.) عندما تمت كتابة الأعمال العظيمة الكلاسيكية، مثل منتخبات كونفوشيوس الأدبية، وبقيت عملياً بلا تغيير منذ ذلك الحين. ولم تتوقف "الوينيان" عن كونها الوسيلة المعتادة للتعبير المكتوب إلا في القرن العشرين الميلادي، حيث تم التعميم الشامل لأسلوب كتابة جديد مبني على كلمات لغة الماندارين وتراكيبها. ولكن لغة "الوينيان" تشكّلت في منطقة الشمال الشرقي، وفي وقت لا يزيد على ألف عام أو نحوها بعد تقدم الصينية المتوالي عبر البلد. وبذلك فإنها تعطي خط قاعدة أساسياً مفيداً للتغيرات التي أثرت على اللهجات الحديثة المختلفة على مدى ألفين وخمسمئة عام منذ أن أصبحت هي اللغة العامية الدارجة. وعلى سبيل المثال، في واحدة من المفارقات النموذجية في التاريخ اللغوي، فإنها تظهر أن أقل لهجة صينية تعرضت للتغيير هي اللهجة الأبعد عن الشمال الشرقي: وهي اللهجة الكانتونية، المعروفة عند الصينيين باسم مملكة "يُوي" 'البربرية' المستقلة منذ زمن طويل.

إن الفجوة بين الأدلة المكتوبة والحقيقة المحكية تعني أن كمية كبيرة من تفاصيل كيفية سير التأثيرات في تاريخ اللغة لا بد أن تظل موضوعاً للحدس والتخمين. فلا نستطيع سوى أن نخمن تخميناً نعجز عن توثيقه توثيقاً كاملاً بشأن القوى التي سوف نصفها، والتي كان بعضها يعمل بشكل متقطع في اللغة الصينية لإنتاج اللهجات المسموعة المتنوعة، وخاصة في الجنوب، ولكن كانت هناك قوى أخرى أبقت الغالبية العظمى من الناطقين باللغة على تواصل وثيق مع بعضهم بعضاً حتى عندما كانت اللغة المحكية القياسية الموحدة تنتقل تدريجياً عبر العصور كلها.

إن درجة الوحدة السياسية في الصين، رغم أن صعودها وهبوطها الدوري هو دقات الساعة المعتادة في تاريخ الصين، فإنها ليست ذات فائدة خاصة في سرد رواية انتشار اللغة الصينية وتحولاتها. فحسب متابعة الأدلة الأثرية، انتشرت الثقافة الصينية إلى جميع الجهات انطلاقاً من منتصف وادي النهر الأصفر، ولكن الانتشار الأهم كان نحو الجنوب. وفي فترة شانغ (من منتصف

الألف الثاني ق. م. إلى أواخره) نجد منتجات من صنع الإنسان جنوبي اليانغتسي، وقد انتشرت عبر أعالي مجرى النهر إلى الصين الوسطى في إقليم جُو (أوائل الألف الأول قبل الميلاد). ولكننا نعرف أن هناك لغة مختلفة عن الصينية كانت لا تزال محكية في مملكة تشو (وهي سيشوان الحديثة تقريباً، في شمال اليانغتسي) في القرن الثالث قبل الميلاد(*).

فمن الناحية الجغرافية، كانت اللغة الصينية تنتقل من السهول الشمالية الباردة الجافة التي يزرع فيها القمح والدخن، إلى الأراضي المرتفعة الأكثر دفئاً ورطوبة حيث كان الغذاء الرئيسي المنتج هو الرز. فبالإضافة إلى الفرق في المناخ، كان هناك فرق في التضاريس، مما جعل التحرك في الجنوب أقسى وأصعب. فكان المثل عندهم يقول: 'القارب في الجنوب، والحصان في الشمال'. ومن الناحية العملية، فإن الممرات المائية، التي تحددها الطبيعة وليس المصدر البشري، هي طريقة السفر السهلة الوحيدة في الجنوب. ولم يكن هذا عائقاً لانتشار الثقافة واللغة الصينيتين. ولكنه كان يعني أنه لم يكن من السهل أبداً فرض التجانس الثقافي أو اللغوي هناك.

ولا شك أن الدافع وراء التحرك نحو الجنوب كان هو البحث عن تربة أخصب، ولا بد أن نجاحه قد دعمته المزايا التكنولوجية التي كان الشماليون يراكمونها، والتي ترمز إليها ملكية لغة مكتوبة، وتنظيم واسع النطاق. وإن أول انعكاس لذلك على السياسة قد جاء في العام 221 ق. م. مع الأمر الذي أصدره شي هوانغ دي، الإمبراطور الأول الذي وحد معظم الصين الوسطى، إلى نصف مليون مستوطن صيني، بأن يذهبوا ليملؤوا أراضيه الجديدة التي غزاها 'بين شعوب يُوي المختلفة'. وفي هذا الوقت كان هناك دافع سياسي يضاف إلى

(*) منسيوس (حوالي العام 250 ق.م حسب رأي بروكس 2002)، 3- 6.B 'افرض أن ضابطاً كبيراً في مملكة تشو أراد أن يتعلم ابنه لغة قي..' من الواضح أن الطموحين كانوا يهيئون أنفسهم لتعلم الصينية. وكانت قي هي شاندونغ الحديثة تقريباً، عند مصب نهر هوانغ - هي، وبذلك فإنها في مراكز انتشار اللغة الصينية. ومن الغريب أن نصاً مكتوباً بعد ذلك بعشرة أعوام أو نحوها يركز على تشو لمقارنتها بلغة شرقية بربرية: 'فلينشأ ابن تشو بين الرونغ، أو ابن الرونغ بين تشو. وسوف يتكلم ابن تشو لغة الرونغ، بينما يتكلم ابن الرونغ لغة تشو' (لوشي تشونقيو، E-4).

الدافع الاقتصادي: كان الحاكم المستبد المطلق للصين الموحدة يرغب في فصل الأسر التقليدية عن قاعدة قوة أجدادها السالفين، وقد راح الدافع السياسي يتجدد بين حين وآخر على مدى الألف عام التالية(*).

الوحدة الأولى

إن شي هوانغ دي ('الإمبراطور الأول')، الذي حول حكمه لدولة كين(**) إلى أول سيطرة شاملة على جميع دول العالم الصيني المعروفة، كان شخصيةً هامةً لأسباب كثيرة. فقد حكم الصين أحد عشر عاماً فقط (221 ـ 210 ق. م.) ولكنها كانت سنوات عجيبة: فبالإضافة إلى إكمال السور العظيم (فقد كان المهاجمون من الشمال مشكلة آنذاك)، وإلغاء سلطة السادة الإقطاعيين، وتنفيذ تطهير فكري في حملة هياج سيئة الصيت من حرق الكتب، ووضع تماثيل الجيش الطينية في قبره في تشانغ ـ آن، التي كانت هي العاصمة آنذاك، فقد اشتهر أيضاً بتوحيد الحروف الصينية، كجزء من برنامج عام لإدخال القوانين العامة، والأوزان والمقاييس والمكاييل. وكان ذلك يعني فرض اللغة الفصحى المحلية لدولة كين (في أقصى الغرب) والتي تصادف أنها أكثر اللغات المستعملة آنذاك في النزوع إلى المحافظة. وكانت موجودة على شكلين هما: "جوناشو" المعتمد على الصور الرمزية بصورة ثقيلة والذي لا يزال يشاهد أحياناً في

(*) يمكن مقارنة هذه التحركات بعمليات الإخلاء السكانية التي كان يأمر بها ملوك آشور وبابل عقب انتصاراتهم العسكرية الكبرى (انظر الفصل الثالث: 'الاكادية - تقنية تتغلب على العالم: نموذج من معرفة القراءة والكتابة'، ص 107) ولكن بما أن ملوك وادي الرافدين كانوا يرون أن أعظم التهديدات تأتي من الأجانب، فقد انتهى بهم الأمر إلى بذر بذور لغة أجنبية في إمبراطوريتهم، وهي الآرامية، وقد رأى الإمبراطور الصيني تهديداً يأتيه من السادة الإقطاعيين الصينيين، فبعثرهم (ومعهم اللغة الصينية) إلى أبعد زوايا مملكته.

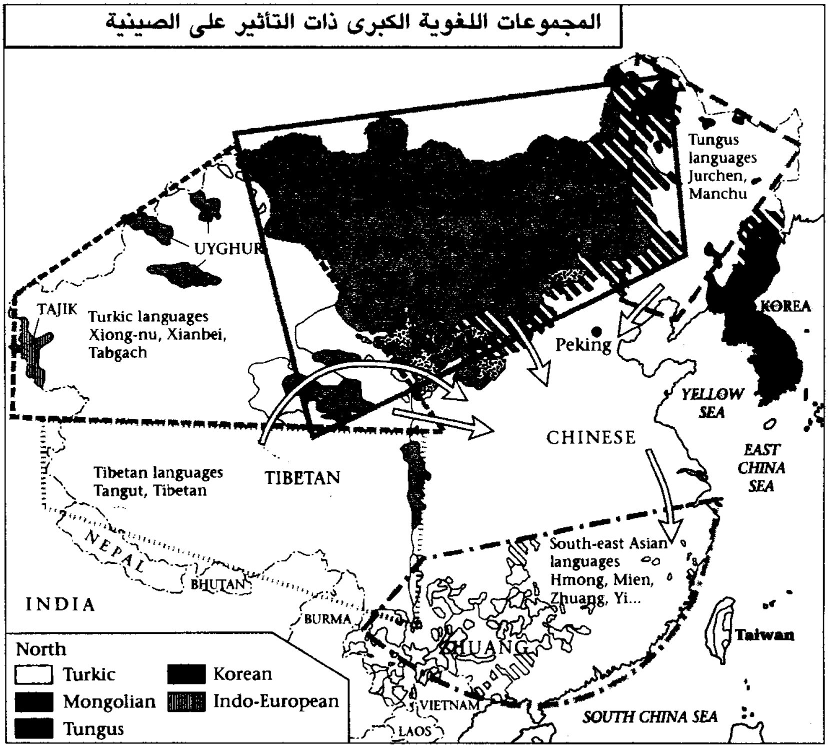
(**) كثيراً ما تقترح هذه الكلمة كأصل لغوي لتسمية الصين. وهي تسمية يبدو أنها وصلت إلى الغرب عن طريق اللغتين الفارسية والإيطالية. ولكن الصينيين يستخدمون بدلاً من ذلك أسماء أسرة هان أو أسرة تانغ كتسمية لأمتهم. ويشير شكل الاسم إلى أنه مشتق من الاسم السنسكريتي "صينا". وهذا ينطبق بالدرجة الرئيسية على منطقة التيبت، ولو أنه كان في بعض الأحيان يشمل آسام وبورما (سيركار 1971: ص 104-105). والصين ككل معروفة عند الهنود باسم "مهاصينا" أي 'الصين العظمى'. وعلى سبيل المثال فهذا هو المكان الذي قال عنه الحاج الصيني كسوان زانغ للهنود بأنه هو بلده عند زيارته في العام 629. سي ـ يو - كي، المجلد الأول (في بيل 1884، الجزء الأول: ص 216).

النصوص المزخرفة والأختام الرسمية، والشكل الأكثر تقويساً والمسمى "ليشو"، أي 'الكتابة الدينية'. وهذه الأخيرة تم الأخذ بها تحت حكم إمبراطورية هان التالية، كما تم تنظيمها وتصنيفها في قاموس في ذلك الوقت. فصار ذلك النظام أساس الكتابة الصينية، "كايشو" ('بالنصوص الفصحى') منذ ذلك الحين.

ومع الوعي بلغة عامة مشتركة في "وينيان"، وحروف كتابة مشتركة في "كايشو"، استغرق الشعب الصيني ألف عام لملاحظة افتراق بعض الناس وتباعدهم: فيتحدث أدب تانغ المبكر (في القرن السابع الميلادي) عن اختلاف الجنوب عن الشمال في "فانغ - يان" (أي كلامه الإقليمي)، وهي الكلمة العادية لوصف لهجة: وقد صار ذلك اصطلاحاً قوياً جداً قيض له أن يطبق (بعد ذلك بزمن طويل[14]) للإشارة إلى لغة أجنبية، مثل الكورية، واليابانية، والمغولية، والمانشو، والفيتنامية.

وكانت اللغات التي يتكلمها جيران الصينيين من الفرسان في شمال البلد وغربه مقطوعة الصلة تماماً بالعائلة التي تضم اللغات الصينية والصينية - التيبتية المذكورة. وعلاوة على ذلك - وفي هذا كانت تختلف عن لغات جيران الصين الجنوبيين - فإنها لم تكن تشبه الرموز الصينية كذلك. ومثل اللغات الحديثة المتحدرة منها، والمسماة باللغات الألطية(*) لآسيا الوسطى، بما فيها الأسر اللغوية التركية، والمغولية والتونغية، كانت كلها لغات متعددة المقاطع إلى حد كبير، فكلماتها، وعلى الأقل الأسماء والأفعال، يتم بناؤها واشتقاقها بشكل نظامي وإلصاقي من خيوط عناصر قصيرة. وهي ليست لغات نبرة، تتوسع في استخدام مبدأ انسجام حروف العلة، بحيث أن أصوات العلة في الحروف الملحقة بآخر الكلمة تردد صدى أحرف العلة في جذر الكلمة. ونظام ترتيب كلماتها يضع الفعل في آخر الجملة. وفي كل هذه الخصائص فإنها مختلفة جذرياً عن الصينية، التي

(*) نسبة إلى جبال ألطاي (Altai) في آسيا الوسطى، التي هي مصدر هذه التسمية، وهي نفسها تحمل هذا الاسم بسبب وجود الذهب فيها. قارن مع كلمة ألطن التركية التي معناها 'الذهب'.



هي لغة نبرة أحادية المقطع ليس فيها اشتقاق للكلمات، ولها نظام أساسي يأتي فيه الفعل كثاني كلمة في الجملة.

كان "الكسيونغنو"(*) هم القبائل البدوية الرئيسية في منغوليا وتركستان في القرن الثالث قبل الميلاد. ورغم دورهم الكبير في التاريخ الصيني، فإن من الصعب جداً العثور على دليل يوضح كيف كانت ماهية لغتهم. غير أنه يوجد نص وحيد من عشرة رسوم رمزية صينية يقدم فيها الكاهن البوذي فوتودنغ نصيحة لأحد ملوك كسيونغنو. وكان يمكن قراءة تلك الرسوم الرمزية في القرن الرابع الميلادي كما يلي:

(*) يبدو هذا شديد الشبه بالترجمة الصينية لكلمة هونو، التي تتيح لهؤلاء الناس أن تحدد هويتهم بما يعرف عند الهنود باسم هونا وعند الأوروبيين باسم هوني. ولكن لسوء الحظ فإن التشابه اللفظي يبقى هو الدليل القوي الوحيد (انظر سينور 1990: ص 177-179).

syog tieg t' iei lied kãng b'uok kuk g' iw t' uk ĩng

إذا تابعنا قراءة لويس بازن في قراءة هذا كما يلي:

أرسل جيشك إلى الخارج أيها القائد الحربي

فسوف نستنتج بأن لغتهم كانت تركية، وليست مغولية أو تونغية(15).

وقد قامت ثلاث ممالك صينية في الشمال، هي كين، وجاو، ويان، ببناء أجزاء من سور لإبقاء الكسيونغنو في الخارج. وقد تم توحيد الأسوار وإطالتها عندما ضم إمبراطور الكين كل الممالك إلى مملكته. كما تعلّم الصينيون كيف يجابهون الكسيونغنو بخطط فرسانهم التكتيكية ذاتها. واستمرت الحروب خمسمئة عام، وطيلة تلك المدة كان الصينيون ناجحين في إبقاء البرابرة خارج الصين، والحفاظ على سياسة هجومية تؤمن لهم السيطرة في جميع أنحاء المناطق الغربية المعروفة الآن باسم غانزو وكنغهاي؛ وبهذه الطريقة أمكن تأمين طريق الحرير، والوصول إلى أراضي تربية الخيول البعيدة في فرغانة على أيدي البامير، وهي حيوية للدفاع الصيني. غير أن دفاعهم كان يعتمد أيضاً على إبقاء حامية حدود فعالة، وكان إبقاء الإمدادات لحراسها عملية باهظة الكلفة. وعندما انهارت حكومة الصين المركزية بعد سلالة هان فشلت عملية الإمداد هذه. فصار من الممكن لعشائر كسيونغنو أن يخترقوا السور.

التراجع إلى الجنوب

وتلت ذلك فترة من الفوضى وسفك الدماء المتزايد، فأدت في القرن الرابع الميلادي إلى تنافس مفتوح بين عدد من الحشود التركية والمغولية للسيطرة على الشمال وفضح العجز الكلي للحكومة التقليدية هناك. فكان من أثر ذلك إبعاد مركز اللغة الصينية إلى الجنوب. وفي العام 317 م تأسست سلالة جديدة في نانجينغ 'العاصمة الجنوبية'، بينما راحت حشود تركية ومغولية مختلفة تتنازع على الشمال. وفي آخر الأمر سيطرت عشائر تابغاش على الشمال طيلة القرنين

التاليين حتى العام 557 م(*). فأثبتوا على الأقل أنهم قادرون على الدفاع عما كسبوه. وكان هؤلاء السادة الجدد ناطقين بلغة تركية، ولكنهم سرعان ما حاولوا الأخذ بأشكال محلية، فتبنوا الاسم الصيني "واي". ويظهر أن هذه السياسة كانت تحتاج إلى تعزيز، أو على الأقل إلى تشجيع: وبعد ذلك بستة أجيال في العام 500 م، أصدر حاكمهم كسيا أوين مرسوماً بتحريم اللغة والملابس والعادات التركية واعتبارها خروجاً عن القانون.

وكان ذلك شبيها من الناحيتين السياسية واللغوية، بما كان يحدث في الإمبراطورية الرومانية القديمة في الوقت ذاته، مع احتلال القبائل الجرمانية لقلب أراضيها في أوروبا الغربية، وتغيير لغتها، ولكن مع عدم اقتلاعها عندما راحوا يحاولون الأخذ بها، بينما أعاد ورثة السلطة الرومانية القديمة تمترسهم في الأراضي التي لم تكن رومانية تاريخياً في المناطق الشرقية، في البلقان، واليونان، والأناضول. ومع ذلك فلم تواجه اللغة الصينية منافسةً من مساوٍ محتمل لها، كما واجهت اللاتينيةُ اللغة اليونانية في شرقي البحر الأبيض المتوسط. فقد سادت اللغة الصينية في جميع أجزاء البلاد، حتى ولو أن الناس أخذوا بشكل زائد يتكلمونها بلكنات شديدة الغرابة.

وفي الجنوب استمرت سلالة صينية موحدة؛ فهناك كان عدد كبير من المهاجرين الصينيين الأغنياء يوسعون نطاق اللغة الصينية بالتدريج. فقد انتقلوا للهرب من الغزاة، ولكن أيضاً ليسكنوا الأرض الأخصب التي تجففت بجوار نهر يانغتسي. وكانت لغات السكان الأصليين هناك، سواء أكانوا من الأسر الطاوية، أو الصينية - التيبتية، أو الهمونغ - مينية كلها من نمط متشابه تماماً مع الصينية ولو أنه غير متصل بها على الأغلب. فكانت النتيجة أن أخذ المتعلمون بالصينية في الجنوب بسهولة: وكانت بعض اللهجات الصينية الجديدة

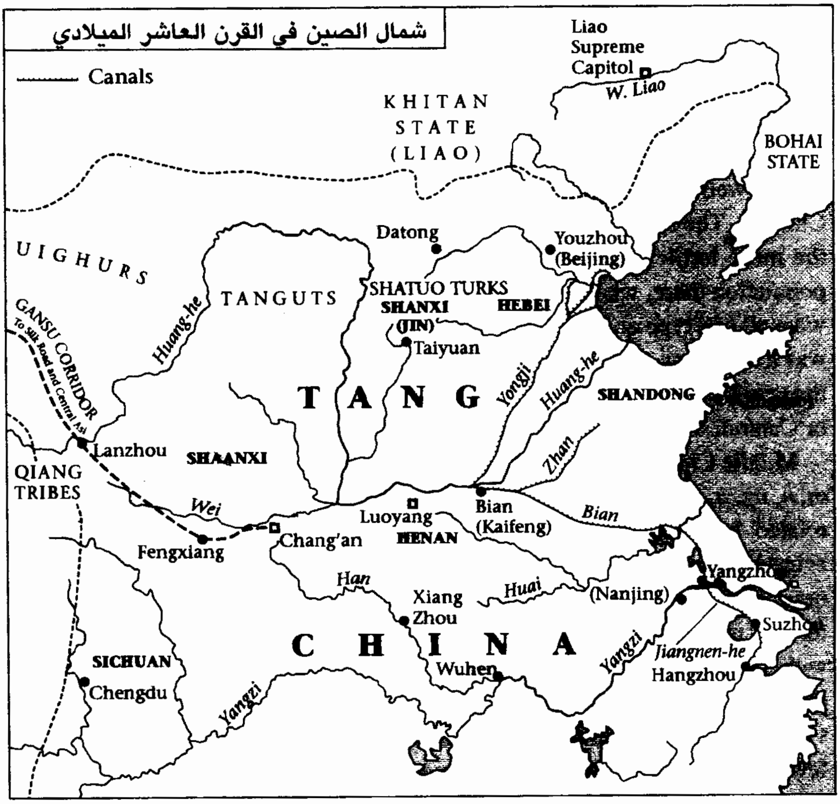
(*) يطلق عليهم باللغة الصينية الحديثة اسم "طووبا"، باستخدام حروف كانت الكلمة ستلفظ بموجبها "طاك - بؤات". وصار الاسم هو "تشوفاش" في العصر الحديث. وهو لا يزال يحدد شعباً ناطقاً بالتركية يوجد منه 1.5 مليون شخص، مبعثرين عبر روسيا وسيبيريا. (كلوسون 2002 [1962]: ص 38، وكذلك دالبي 1998: ص 134-135).

التي نشأت، وخاصة في أقاصي الجنوب، (وتدعى يُوي، أو الكانتونية)، شديدة الشبه بأصلها.

وكانت الصينية الوسطى في القرن السابع الميلادي فيها كلمات يمكن أن تنتهي بأصوات الحروف *m*، *n*، *ng*، *p*، *t*، *k*، أو بحرف علة، وكذلك هو الحال في اللغة الكانتونية الحديثة، تماماً مثل لغة جوانغ الجنوبية (المنفصلة عنها ولكنها مجاورة لها)؛ وفي لهجة الماندارين انقلبت الميم الأخيرة إلى نون، وألغيت أصوات الحروف *p* و*t* و *k*. ومرة أخرى، يتم الاستنتاج بأن اللغة الصينية الوسطى فيها ثلاثة التواءات محيطية في النبرة، ونمط منفصل لما يسمى 'بالدخول' في الكلمات المنتهية بأصوات الحروف *p* أو *t* أو *k*، . وقد انقسمت هذه فيما بعد إلى ثماني نبرات، مع بداية مرتفعة أو منخفضة، تعتمد على ابتدائها بحرف صحيح صائت أو غير صائت (أي *b-d-g-z-j* في مقابل *p-t-k-s-c*). فهذا هو أساس النظام في اللغة الكانتونية الحديثة، وكذلك في لغة جوانغ، أما الماندارين فقد سلكت طريقاً آخر، فقسمت واحدة فقط من النبرات الأصلية. ولكنها عندما ألغت الأصوات الـ p وt و k الأخيرة أحالت كل الكلمات التي تأثرت بذلك إلى واحدة من النبرات الأخرى. وانتهى بها الأمر إلى أن تكون لها أربع نبرات، بينما الكانتونية (والجوانغ) لها ثماني نبرات(16).

وفي العام 589 م ثبت أن من الممكن إعادة توحيد البلد. فبدأ عصر صيني ذهبي جديد من الازدهار، ولو لم يكن السلام فيه دائماً، تحت حكم سُوِي صُوِي ثم سلالة تانغ. وطوال تلك الفترة، استمرت اللغة الصينية بالانتشار في اتجاه الجنوب.

وقد استمرت سلالة تانغ حتى نهاية القرن التاسع الميلادي، عندما تدهورت أمورها إلى صراع على السلطة بين قادة حربيين إقليميين. ووصلت إلى الصين بعثات أجنبية كثيرة في هذه الفترة، شملت بوذيين من الهند، ومسيحيين نساطرة، وزرادشتيين ومانيكائيين ومسلمين. فكان من شأن ذلك نشر أصوات اللغات السنسكريتية، والآرامية، والفارسية، والعربية إلى المراكز الكبرى، ليتم استخدامها في العبادة، ولكن أعداد الناطقين بها فعلاً لا بد أنها ظلت ضئيلة. وعلى أية حال فعند



حلول نهاية حكم سلالة تانغ كانت تلك البعثات قد تلاشت من الوجود باستثناء البوذيين والمسلمين، وأثناء القرنين الميلاديين الثامن والتاسع كان هناك تهديد متزايد بغارات من التيبت في الغرب، ومقاومة عنيفة من أهالي نانجاو في إقليم "يونان" ('جنوبي الغيوم' في الجنوب الغربي)، ولكن لم تحدث خسارة أراضٍ على المدى الطويل. وشهدت هذه الفترة أيضاً (اعتباراً من العام 847 م) مجموعة أخرى ناطقة بالتركية، الأويغور، تستقر في مقاطعة غانزو الشمالية. تقيم فيها مملكة مستقلة، صديقة للصينيين، في الغرب الأقصى (كسينجيانغ الحديثة).

أما انهيار الحكومة المركزية فقد تم إصلاحه بعد ذلك بنصف قرن على أيدي سلالة صونغ (عام 960)، ولكن ليس قبل استيلاء قبيلة خيتان المغولية على أقاصي الشمال، أي منشوريا والأراضي الواقعة في شمال السور العظيم؛

وقد تمت خسارة غانزو أيضاً في الشمال الغربي، فقد غزاها التانغوت الذين كانوا يتكلمون لغة لها علاقة بالتيبتية. وتمسك التانغوت بهذه المنطقة ولكن الخيتان في عام 1115 م. تغلبت عليهم مجموعة أخرى من مكان أبعد إلى الشمال هم الجوركين، الناطقون بلغة تونغو، والذين اتخذ الصينيون قراراً خاطئاً بمساعدتهم. ورغم أن الجوركين تبنوا الاسم والأسلوب الصيني "جين" (أي 'الذهبي')، فقد انقلبوا على حلفائهم على الفور تقريباً، وبعد أن غزوا أجزاءً كبيرة من الجنوب، وكذلك من الشمال، سيطروا على وادي هوانغ - هي (النهر الأصفر) بكامله، في قلب الأرض الصينية التقليدي. وقد تمسكوا به (مثل التانغوت) حتى شرّدهم شخص أعظم منهم، هو جنكيز خان نفسه، الذي قاد غزواً مغولياً في العام 1211.

وكما حدث كثيراً، فقد ثبت للغزاة أن اجتياح الشمال أسهل عليهم كثيراً من اجتياح الجنوب. ولمدة جيلين حافظت سلالة صونغ على الدفاع عن الإمبراطورية الجنوبية، من موقعهم على هانغجو، حتى تمكّن المغول من أخذهم من الخلف في العام 1279 م بعد أن احتلوا يونّان أولاً (وكذلك شمال فيتنام فعلاً) في الجنوب الغربي.

ولأول مرة، سيطرت سلالة غير ناطقة بالصينية (هم المغول، الذين صاروا يعرفون آنذاك بـ"اليوان"، أي 'الأصائل') على امتداد الصين كلها. وبما أنهم كانوا في ذلك الوقت يسيطرون على معظم آسيا الباقية، فقد كان من الممكن الاعتقاد بأن من حسن حظ الصين أن الحاكم المغولي قبلاي خان قرر أن ينقل عاصمته من كارا كورم في منغوليا إلى بيجينغ (العاصمة الشمالية)، لأنه لو لم يفعل فربما كانت بيجينغ ستعاني مصير كل المستعمرات وهو تجاهل حاكمها؛ ولكن على أية حال فإن وحدة الإمبراطورية المغولية قد ضاعت في العام 1295 م. ذلك أن الخانات الغربيين الذين كانوا قد اعتنقوا الإسلام حديثاً آنذاك رفضوا قبول سيادة خلف قبلاي خان في بيجينغ، لأنه كان بوذياً.

ولم تستمر سيطرة المغول على الصين طويلاً بعد ذلك. فرغم أن قبلاي كان مشهوراً بلطفه وكياسته، فإن خلفاءه كانوا أقل تميزاً بذلك. وممن يستحق الذكر

الحاكم الأخير من هذه السلالة طوغان تيمور (1333 ـ 1369) لأنه من بين تشريعات كثيرة معادية للصين سن قانوناً يمنع الصينيين من استخدام اللغة المغولية أو كتابتها. ومن الواضح أنه كان يجري اتباع سياسة عنصرية صارمة. ولكن بالمقارنة مع المانشو الذين قدر لهم أن يأتوا بعد ذلك بوقت طويل جداً ـ أو بالإنكليز المعاصرين في إيرلندا، الذين كانوا بالطبع غير معروفين آنذاك(*) ـ فقد كان المرء يتوقع من النخبة أن يسنوا قوانين تمنع أتباعهم من الأخذ بلغة الشعب المغلوب.

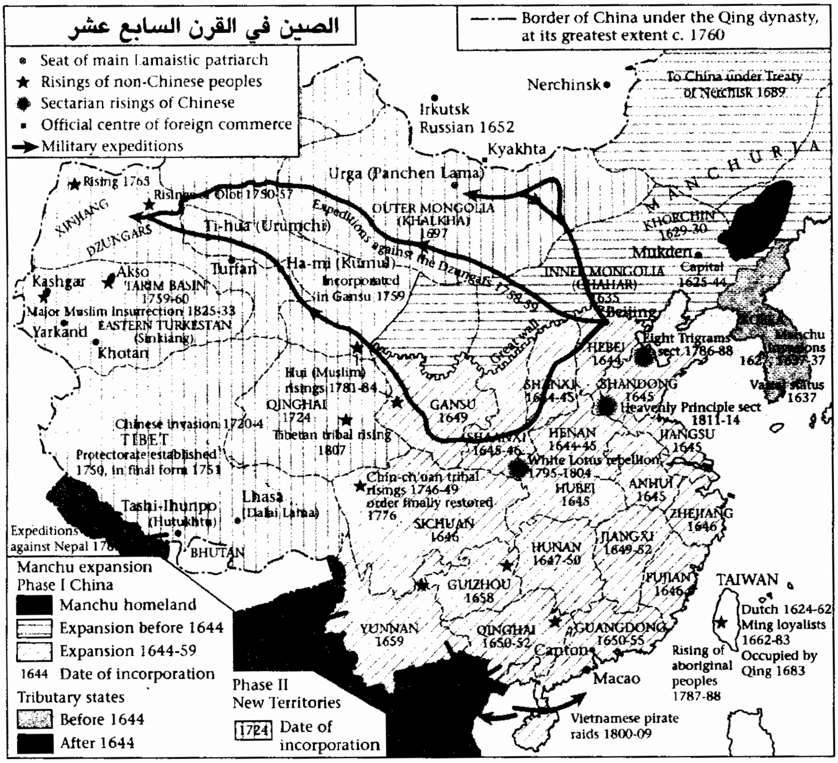
وفي العام 1369 م انتهى الأمر بطوغان تيمور وأتباعه المغول مطاردين على يد قائد حربي شعبي صيني تحوّل إلى بطل وطني نصّب نفسه كأول إمبراطور من أسرة مينغ. وبعد ذلك لم يعد هناك خارجيون يتدخلون في حكومة الصين لمدة ثلاثة قرون.

التأثيرات الشمالية

ثم حصل الجوركيون الناطقون بلغة تونغو على فرصة ثانية للسيطرة على الصين وكانوا يعرفون عندئذ باسم المانشو. فكان هذا الغزو آخر اختراق دائم للصين يقوم به ناطقون بلغة أجنبية.

ففي أوائل القرن السابع عشر الميلادي، كان المانشو قد أعيد تنظيمهم تحت إمرة قائديْن قديريْن. فتقدموا إلى داخل التخوم الشمالية للأراضي الصينية، ليؤسسوا عاصمة في موكدن. ثم شاء لهم حسن حظهم، في العام 1644، أن يتلقوا دعوة إلى بيجينغ كحركة تكتيكية في صراع بين ضابطين كبيرين برتبة لواء كانا يتنافسان على الحلول محل 'مينغ'. فاستغل المانشو الفرصة لتنصيب أنفسهم، فأضفوا على سلالتهم الجديدة اسم كنغ (أي الأنقياء)، وبحلول العام 1651 كانوا قد أخمدوا كل مقاومة لهم في باقي أنحاء الصين. ورغم أنهم جاؤوا وهم يتكلمون لغتهم الخاصة بهم، ورغم أنها ظلت لغة رسمية مكتوبة للدولة

(*) تم سن قانون كيلكني (مقاطعة في جنوب شرقي إيرلندا) في العام 1366 م، لمطالبة المستعمرين الإنكليز (في القسم الثالث) 'باستخدام اللغة الإنكليزية، وإطلاق أسماء إنكليزية على أنفسهم، والتخلّي كلياً عن طريقة التسمية التي يستخدمها الإيرلنديون...'



الصينية حتى نهاية سلالتهم في العام 1911، فإنها كانت قد تلاشت كلغة للكلام حتى في البلاط عند حلول القرن الثامن عشر. فلم تستمر تلك اللغة حيةً حتى في منشوريا نفسها، فكانت ضحية غريبة لنجاح أهلها في الاستيلاء على الصين وطريقة حياتها. وهي اليوم لغة كلام فقط، تحت اسم كسيبو، يتحدث بها المتحدّرون من كتيبة من الجنود أرسلت في مهمة من العاصمة المنشورية موكدن إلى كسينجيانغ في العام 1764 ـ فهي لغة شمالية شرقية مستعملة في الكلام الآن في شمال غرب الصين فقط.

فإلى داخل الشمال جاء الغزاة، واستمرت اللغة الصينية المحكية في الشمال لتصبح لغة البلد القياسية الفصحى. ولكن رغم أن اللهجة الشمالية تعرضت لتغيرات هامة، فلا يمكن عزوها إلا جزئياً فقط للصعوبات التي كان سيواجهها الكسيونغنو، أو التابغاش، أو الجوركيون، أو المغول، أو المانشو، عند

محاولتهم تدبر أمورهم باللغة الصينية(*). فهناك الحقيقة المثيرة للاهتمام، وهي أن الصينية الماندارينية يمكنها تمييز كلمة "ويمن"، أي: 'نحن (ما عداكم)' من كلمة 'زانمن' أي 'نحن (وإياكم)'، تماماً كما تفعل اللغتان المغولية والمانشوية؛ وهذا تجديد حدث منذ أيام اللغة الصينية الوسطى. وقد يستطيع المرء أن يشير إلى غياب عناقيد الحروف الصامتة في الصينية الحديثة؛ مع أن بعضها كان مسموحاً به في الصينية الوسطى. وعلى سبيل المثال؛ فإن كلمتي شْنيور (أي يهدئ) وتْأنورْ (أي: يُؤمن) صارتا "شْيوي" و "توُو". واللغات الألطية لا تستطيع أن تتحمل أكثر من حرف صامت واحد في بداية أي مقطع(**).

وليس هناك سوى بقايا أثرية قليلة من نوع اللغة الصينية التي كانت محكية في إحدى الفترات البينية الوسيطة قبل أن يتم امتصاص الغزاة واستيعابهم. فالترجمة الصينية لكتاب "التاريخ السري للمغول"، في القرن الثالث عشر، مليئة بالأنماط الألطية، مثل حروف الجر اللاحقة بدلاً من حروف الجر السابقة، والأفعال اللاحقة للمفعول به، والأفعال الوجودية في نهاية الجملة، وهذه كلها غريبة وغير معتادة في اللغة الصينية التي لها نظام ترتيب أساسي للكلمات أكثر شبهاً بنظام الترتيب الإنكليزي:

مثال: "عموماً ابنة ولدت لك دائماً تبقى في بيت الـ"

فهذه الجملة معناها: 'ليس هناك سبب يوجب أن تبقى ابنتك المولودة لك في البيت دائماً'.

(*) باختصار، فإن اللغة الصينية الشمالية فقدت كل حروفها الصحيحة الأخيرة؛ فأصبح كثير من الكلمات التي كانت في السابق حرة وأحادية المقطع متحجرة ومتخثرة ضمن كلمات أطول. ولا أحد يعرف لماذا. ولكن بعض التفسيرات لهذه التغييرات قد اقترحت، ولعل غموض دلالات بعض الحروف الصرفية المضافة إلى الكلمات الصينية، بعد فقدان كثير من الحروف الصامتة المميزة، كانت تعني ضرورة تعزيز كلمة بكلمة أخرى للحصول على اتصال فعال. وربما كان الضعف اللفظي الصوتي المجرد للمقاطع الجديدة الأقصر يعني وجوب حدوث الزيادة المضاعفة لإعطاء اللغة إيقاع كلام مقبول (فنغ 1998). ولعل دخول البوذية مع الترتيل بالسنسكريتية والبالية التي أدخلت كلمات أطول، والتعابير المعقدة التي نشأت عند ترجمتها إلى الصينية، قد عوّد الناس على تعدد المقاطع. وإن الاتجاهات المختلفة والتأثيرات المحتملة يناقشها ويلكنسون بوضوح في كتابه الصادر في العام 2000، (ص 31-40).

(**) ولكن هذا الاتجاه نفسه يمكن رؤيته في كل اللهجات الصينية (بل كذلك على مبعدة إلى الجنوب في لغة يي واللغة الفيتنامية).

وهناك أدلة وفيرة على حالات اختلاط بين لغتي الماندارين والمانشو في كتب الأولاد التي هي سجلات مكتوبة للمتعة القصصية التي كان المانشو يحصلون عليها في أيامهم المبكرة الأولى في بيجينغ (1736ـ1796)، رغم أنها مكتوبة أكثر بترتيبٍ صينيٍ للكلمات تبعثرت فيه مفردات من لغة المانشو.

ولا يزال هناك اتجاه في اللهجات الشمالية لمجيء المفعول به المباشر قبل الفعل، ولمجيء كلمة "مِن" التابعة لأفعل التفضيل قبل الصفات المقارنة. وهذه ملامح قد تعزى إلى تأثير اللغة الألطية. ولكن على وجه العموم فإن أسلوب اللغة الصينية المختلط هذا لم يرسخ نفسه[17]. إذْ إن الأجيال اللاحقة من أُسَرِ الغزاة التقطت الصينية وأخذت بها بشكل طبيعي من الأمهات الصينيات، والمربيات ومدراء المدارس، ولعل الأنماط الألطية كانت معاكسة للصينية إلى درجة لم تسمح بتطور أي تسوية. وهذا نموذجي بما يكفي في العلاقات اللغوية الصينية. وبصورة عامة ليست هناك كلمات مستعارة كثيرة في الصينية مقترضة من لغات أخرى في أي اتجاه. وبالتأكيد ليست هناك تأثيرات تركيبية، فكلمة "دو" (أي: عِجْل) يبدو فعلاً أنها جاءت من اللغة الألطية، فهذه خاصية مميزة لهم ما دام الشعب الألطي كان يعيش من تربية الحيوانات (قارنها مع كلمة "تويول" المغولية، وكلمة "توكشان" المانشوية، وكلمة "توكوشيو" الإيفنكية، وكلها تعني 'العجل'). ولكن الكلمات الكثيرة الموجودة في مسرحيات سلالة يوان قد ضاعت مرة أخرى منذ ذلك الحين[18].

ما وراء البحر الجنوبي

رغم أن اللغة الصينية قضت عمرها المؤلف من ثلاثة آلاف وخمسمئة عام محصورة في شرق آسيا، فإنها قد مدت إلى الخارج مجساتٍ عبر البحر إلى الجنوب. وقد أدى ذلك في الألف عام الأخيرة إلى سكنى أناسٍ صينيين في الخارج، وكان ذلك في القرنين الماضيين جزئياً رد فعل على الاستيطان الأوروبي ـ أو استغلالاً له ـ فقد تنامت التجمعات الجادة القادمة من وراء البحار، وقد يكون لذلك أهمية في نشر اللغة في المستقبل.

وكانت أول معرفة طفيفة باللغة الصينية في نان ـ يانغ، (أي المحيط الجنوبي) وهي التسمية التي أطلقها الصينيون على شواطئ بحر الصين الجنوبي، قد جاءت من زيارات التجار إلى تونكين (في فيتنام الشمالية) في القرن الثالث قبل الميلاد[19]. وقد تبعهم الجنود في العام 111 ق. م. وقامت الصين بضم تونكين، مع نان يُوي[*] (غوانغسي وغوانغدونغ الحديثتين). وقدر للصين أن تتمسك بتونكين أكثر من ألف عام، حتى العام 938 م في الحقيقة، رغم المقاومة المتفرقة والمتزايدة. وحاولت الصين أن تمتصها ثقافياً، عن طريق أخذ النخبة المحلية باللغة الصينية الفصحى الكلاسيكية، وامتحانات التنافس للإداريين، والاستعمال الرسمي للهجة "وينيان". وكانت هناك هجرة صينية، وتزوج بعض الصينيين من عوائل الأمراء، فأنجبوا كثيراً من القادة فيما بعد. وأصبحت بوذية ماهايانا، التي أدخلت تحت حكم سلالة تانغ، هي ديانة الأغلبية[20]. وبرغم هذا كله فإن اللغة الصينية لم تنتشر بشكل دائم إلى هذا الجزء من العالم.

وفي وقت متأخر إلى حد ما عن التقدم داخل تونكين، كانت اللغة الصينية قد انطلقت على مبعدة إلى الجنوب، رغم أن الغريزة الدافعة لهذا التحرك كانت كما يظهر علمية أكثر منها مادية. وفي القرن الثالث الميلادي كتب المبعوثان الصينيان كانغ تاي وجو يينْغْ تقريراً عن تأسيس فونان (في كمبوديا الحديثة)[21]. وليس هناك المزيد مما يقال عنها، أو عما كان الصينيون يفعلونه هناك، ولكن الطريق عبر سري فيجايا (في سومطرة) إلى الهند أصبح مطروقاً جداً من قبل الدارسين والباحثين البوذيين الصينيين بعد ذلك بوقت قصير، من القرن الخامس إلى القرن الثامن الميلاديين. (انظر الفصل الخامس، 'آراء أشخاص خارجيين' ص 277).

وبعد القرن الثامن، تبرز التجارة إلى الواجهة كدافع. ولكن يبدو أن العلاقات قد حافظ عليها تجار أجانب من العرب، والفرس، والهنود. وفي

(*) 'يُوي الجنوبية'، و'نان - يُوي' بلغة الماندارين، و'فييت - نام' باللغة الفيتنامية الحديثة، وهي الكلمات نفسها ملفوظة بطرق مختلفة ومسجلة. وهكذا فإن الاسم باقٍ بشكل قوي على مدى ألفي عام، وقد تحرك إطلاقه 750 كيلومتراً إلى الجنوب الغربي.

القرن الحادي عشر فقط نجد التقارير الأولى عن تجميع التجار الصينيين رأسمال لتمويل إرسالياتهم الخاصة بهم. وكان ذلك تحت حكم سلالة صونغ التي دعمت التجار بشكل فعال. وبعد ذلك، راح دعم الحكومة للتوسع في الخارج يتذبذب ويضطرب. فكان أهل يوان المغوليون مؤيدين للتوسع بصلابة، بل لقد بذلوا جهداً لغزو جاوة في العام 1293م وفشلوا، بينما كان أهل مينغ الذين جاؤوا بعدهم في العام 1368م يفضلون العزلة: فمنعوا التجارة الخاصة. وفرضوا وجوب القيام بكل الاتصالات عن طريق القنوات الدبلوماسية. وحدث إحياء قصير الأمد لنزعة التوسّع أثناء الرحلات البحرية العالمية الشهيرة للأميرال جانغ ـ هي (في الفترة من العام 1405 إلى العام 1433)؛ ولكن بعد تلك الواقعة اضطر التجار الصينيون المقيمون إلى الاختفاء لفترة من الزمن.

وكان معظم الصينيين الذين اعتادوا على هذه الحياة من فوجيان، ومعهم فريق أصغر من غواندونغ، وهذه حقيقة مسجلة بوضوح في تقرير من القرن الخامس عشر بعنوان "المسح الاستطلاعي لشواطئ المحيط" كتبه ماهْوانْ، أحد البحّارة الذين كانوا مع جانغ ـ هي. وفيه يقول عن دولتين في جاوه: 'ويقيم هناك كثير من أهالي غواندونغ وجانغجو'، ويذكر منفيين كثيرين آخرين من فوجيان وغيرها في تلك الجزيرة[22]. وتبرز صحة هذا الكلام بوضوح من سيادة اللهجات الجنوبية الشرقية، وهي مين وهاكا ويُوي، في كلام الصينيين في الخارج حتى يومنا هذا(*).

(*) يوجد نصف مليون صيني في الفليبين، و1.8 مليون في تايلند، وكلهم تقريباً يتحدثون بلهجة مين الجنوبية. ومن بين 4.5 ملايين ناطق بالصينية في ماليزيا نصفهم يتحدثون بلهجة مين الجنوبية أو الشرقية، وربعهم بلهجة هاكا، وسدسهم بلهجة يوي. والباقي (وهم نصف مليون) يتحدثون بالماندارين. وقد تلاشت اللغة الصينية إلى حد كبير عن شفاه الستة ملايين من أصل صيني في إندونيسيا. فلم يبق سوى ثلثهم يتكلمونها في البيت، ولكن أكثر من ثلث هؤلاء يتحدثون بلهجة مين، وأقل من الثلث بقليل يتحدثون بلهجة هاكا، وأقل من العشر بلهجة يوي. والربع الباقي يتحدثون بلهجة الماندارين (غرايمز 2000).

التعامل مع الشياطين الأجانب

من القرن السادس عشر حتى اليوم الحالي، تزايد اتصال الحكومة الصينية مع اليابان ومع سلسلة من القوى الأوروبية، وتوجتها بأولى حالات التقارب مع الولايات المتحدة الأمريكية؛ فنجمت عن ذلك حروب، وزرع تجمعات أجنبية في مستعمرات تجارية. وبالنسبة للتجمعات الصينية في الخارج، كانت التأثيرات معقدة: فقد كانت تعاني أحياناً من إجراءات الصين الهادفة إلى إفقار الأجانب ونزع سلاحهم، ولكنهم استفادوا أيضاً من الفرص التي أتاحتها لهم مشاريع الأجانب الإنمائية الجديدة، وخاصة مشاريع بريطانيا. ففي أوائل القرن السادس عشر، كان القراصنة اليابانيون مشكلة ملحة. ففرضت الصين حظراً على اليابان. واستكمالاً لذلك، فإنها حظرت أيضاً كل الرحلات التجارية البحرية إلى نان - يانغ في العام 1522، وبذلك حوّلت كل الصينيين في الخارج إلى مهرّبين وقراصنة. وفي تلك الأثناء كان المستكشفون الأوروبيون يتلصصون حول بحار الصين، باحثين عن امتيازات تجارية. وفي العام 1557، مُنح البرتغاليون موطئ قدم في ماكاو على الساحل، فثبت أن ذلك كان كافياً لإبعاد اقتحاماتهم في المدى الطويل. ولكنه أضاف مزيداً من الأعباء على كاهل الصينيين في الخارج، فظهروا في وضع غير مؤات حتى في مواجهة الفرنجة الأوروبيين الغادرين ذوي الخسّة(*)؛ وفي آخر الأمر تم رفع الحظر عن الرحلات البحرية الصينية إلى نان - يانغ في العام 1566.

ورغم أن مجيء الإسبان والهولنديين في أعقاب البرتغاليين قدم أسواقاً واسعة جديدة للتجار الصينيين الذين كان قد مضى عندئذ زمن طويل على إقامتهم في جزر الهند الشرقية، فقد كان نقص الدعم لهم من الصين يعني بقاء التجار الصينيين دائماً في وضع غير مؤاتٍ. ففي لوزون، في مستعمرة الإسبان الجديدة في الفلبين، تعرّض السكان الصينيون لمجزرة في العام 1602، ومجزرة أخرى العام 1639 دون أي عقاب لمرتكبي المجزرتين على الإطلاق. ورغم ذلك،

(*) إن كلمة الفرنجة التي أطلقت أول الأمر على البرتغاليين مشتقة من الكلمة العربية - الفارسية "فرنجي" التي يعود أصلها إلى كلمة "فرانك".

فقد راحت المجموعة التجارية تعتبر قوة مفيدة: فعندما أطاح المانشو بسلالة مينغ في العام 1644، كانت آخر المرتكزات الحصينة الموالية موجودة في المجتمعات البحرية في جيجيانغ، وفوجيان، وغواندونغ، وفيما بعد، حتى العام 1682 على مبعدة من الساحل في فيتنام والفليبين. وبالطبع فقد عانوا بسبب ولائهم، مع قيام المانشو 'بتطهير الشواطئ' من جميع سكانها بدقة تامة، فنقلوهم لمسافة أميال إلى الداخل لمنع أي دعم للبحارة، وبما أن الغزاة المانشو صاروا هم السلطة الشرعية من خلال انتصارهم، تحت حكم سلالة كنغ، فلعلهم أرسوا أيضاً أساساً لشيء من عدم الثقة التي راحت حكومة الصين المركزية تشعر بها منذ ذلك الحين إزاء جاليتها المقيمة في الخارج. فكان هذا وقت بذور الجماعات الإجرامية الصينية والجمعيات السرية.

ولكن كانت هناك قوى أخرى طليقة في نان - يانغ، وكان الصينيون جاهزين للاستفادة منها. فعندما مُنع الأوروبيون من دخول تايلند في العام 1688 صار الصينيون شركاءها التجاريين ومستشاريها الاقتصاديين الرئيسيين طيلة القرن الثامن عشر. وكانوا مستقرين بشكل آمن ومريح أيضاً في مملكة جوهور بالملايو. ولكن في الفترة نفسها وجدوا فرصاً وفيرة للربح من التواطؤ مع الشركة الهولندية الجديدة (شركة الهند الشرقية)، إلى درجة أنهم تعرضوا لمجزرة كبرى أخرى على أيدٍ هولندية، في جاوة، في العام 1740. وعندما بدأ الإنكليز مشروعهم الخاص بهم في الهند الشرقية، على جزيرة بانانغ الخالية التابعة للملايو في العام 1785 كان الصينيون هم الذين تطوعوا ليأهلوا تلك الجزيرة. وبالمثل، كانوا في مقدمة عملية تنمية 'رافل' بالاشتغال بالحِرَف الوضيعة في سنغافورة بعد العام 1819. وعندما راحت السلطة البريطانية تنتشر عبر الملايو وبورنيو الشمالية والسلطة الهولندية تنتشر على مبعدة إلى الجنوب، لحقت بهما المصالح الصينية. فكان الصينيون شديدي المحبة لإقامة البريطانيين للموانئ الحرة.

وراح الضغط عندئذ يتزايد على الصين نفسها من المصالح التجارية في فرنسا وبريطانيا. فتركز الاهتمام الفرنسي على الممتلكات الصينية في فيتنام،

ولكن البريطانيين أخذوا يتعاملون بشكل مباشر أكثر شراسة مع حكومة كنغ، دفاعاً عن متاجرتهم بالأفيون المجلوب من البنغال: فكانت النتيجة فصل هونغ كونغ عن جسم الصين (في العام 1842 وتوسيعها في العامين 1860 و1898) ووصول الأجانب إلى خمسة موانئ أخرى مشمولة بالمعاهدة بما فيها شنغهاي (عام 1842). ورغم أن أبرز هذه لم تكن في فوجيان التي هي منطقة تجنيدها للعمالة التقليدية الكلاسيكية، فقد ضمن الصينيون المقيمون في الخارج عندئذٍ الوصول إلى البر الصيني الرئيسي. وتنامت العلاقات، ولأول مرة منذ القرن السابع عشر فإن الشراكة المباشرة مع البر الرئيسي صارت جزءاً هاماً من تجارة الصينيين المقيمين في الخارج. كانت نان ـ يانغ آخذة في المجيء إلى وطنها.

الأسباب والعلل

أما وقد استعرضنا المسيرة الكاملة لتاريخي اللغتين المصرية والصينية، فقد صار بوسعنا أن ننظر في ماهية الخصائص الكبرى التي قد توضح استقرارهما الذي لم يتزعزع في وجه الزمن والغزو.

هناك إمكانيات معينة واضحة يمكن إزاحتها جانباً على الفور، ما دامت المصرية والصينية فيها على طرفي نقيض.

ففي أوضح جانب لغوي، وهو النمط التركيبي للغتين، فإنهما كانتا دائماً شديدتي الاختلاف بصورة جوهرية، وقد تطورتا في اتجاهات مختلفة على مدى تواريخهما المسجلة. وعند النظر إليهما بطريقة أكثر تجريداً، فإننا نستطيع أيضاً أن نرى أنهما كانتا مختلفتين تماماً في جانب آخر من بيئاتهما اللغوية: أي درجة التشابه أو الاختلاف بينهما وبين اللغات المجاورة لهما.

فقد ظلت اللغة المصرية طيلة تاريخها كله لغة كثيرة التصاريف؛ فيها تصريفات معقدة للأفعال، ومرونة في نظام ترتيب كلماتها، رغم أنها تطورت على مدى آلاف السنين إلى حد ما ليصبح لها تركيب أكثر قابلية للإعراب، مع

أدوات وضمائر شخصية منفصلة تصبح من مكوّنات الجمل والتعابير الاسمية والفعلية، وذات نظام لترتيب الكلمات أكثر ثباتاً. وعلاوة على ذلك، فإن اللغات التي كان من المتوقع أنها قد تؤثر عليها أو تحل محلها، وخاصة الليبية والآرامية، كانت شبيهة لها في رمزيتها، تماماً كما كانت العربية تشبهها وكانت هي هلاكها النهائي. ولا يبدو أنه يوجد في التركيب اللغوي المطلق أو النسبي أي سبب يفسر استقرارها.

وعلى عكس ذلك، فإن الصينية القديمة كانت مثالاً على العزلة المفرطة، فجذورها أحادية المقطع ومتميزة بأنماط نبرات هامة تعمل ككلمات مستقلة، ونظام ترتيب كلماتها هو أهم جانب في تركيبها. ومرة أخرى كان هناك شيء من التغيير المرئي على مدى آلاف السنين: ولكن الصينية اتجهت نحو تقليل التأثر بحالات الإعراب، وتطورت فيها كلمات أطول على أساس اشتقاقها من جذور كانت في السابق قابلة للانفصال، وتغيرت بعض الجذور إلى زيادات صرفية في النحو، كي تدل على أشياء مثل صيغ الجمع، أو الأفعال الرابطة بين المبتدأ والخبر، أو الكلمات الدالة على الجمل الموصولة والفرعية أو الثانوية. وعلى عكس اللغة المصرية التي واجهت تحديات من لغات من نمطها نفسه، فإن التهديد للغة الصينية قد جاء من اللغات الألطية، التي كانت كما رأينا، من أنماط مختلفة اختلافاً جذرياً. والواقع أنه في الأماكن التي اتصلت فيها الصينية بلغات من نمط مشابه لها (في الجنوب) فقد كانت الصينية هي اللغة الداخلة إليها وكانت تميل إلى الحلول محل تلك اللغات.

إن وجهة النظر الدينية جانب هام آخر من جوانب الثقافات حيث يمكننا البحث عن أدلة على استقرارها قد تنعكس بعدئذ في اللغة. وقد رأينا (في الفصل الثالث: 'الفترة الفاصلة الثانية: درع الإيمان'، ص 138) أن الارتباط بالدين، وخاصة في الشرق الأوسط، يمكن أن يحافظ على اللغة ضد الأخطار. ولكن هنا أيضاً تفترق مصر والصين.

كان الإيمان بالحياة الأخرى هاماً عند المصريين: فكانوا يتعمدون أن يجعلوا قبورهم الجزء الأكثر ديمومة وثباتاً في بيئتهم المبنية. ونجدهم في أدبهم

شديدي الاهتمام بما يمكن أن يعرفوه عن الحياة بعد الموت، وصدور الحكم، والنجاة الفردية. ومن المؤكد أنهم حافظوا على دينهم طيلة معظم مدة حياة لغتهم، ولم يبشروا به في الخارج بقدر ما حاولوا نشر لغتهم عندما وسعوا حدود سلطتهم. ومع ذلك فإن بعض جوانب إيمانهم قد انتشرت بدون اللغة: فإلهتهم الأم إيزيس صارت واحدة من الآلهة التي لقيت أوسع تبجيل في الإمبراطورية الرومانية، وصارت تعتبر جذر الطقوس المسيحية الخاصة بمريم أمّ المسيح. ومن المفارقات أنه عندما قمع المسيحيون الطقوس المصرية، اتخذت المصرية طريقاً جديداً في الحياة باعتبارها اللغة المحلية للديانة المسيحية. ومن المؤكد أن الديانة المصرية كانت مؤاتية لبقاء اللغة المصرية ولكنهما انفصلا عن بعضهما قبل زمن طويل من النهاية.

وكان الموقف الصيني من الدين مختلفاً جداً. فكان يتميز إلى أقصى حد بأنه واقعي عملي ملتصق بالأرض. فكان هناك تقليدان رئيسيان كبيران، أحدهما يتبع كونفوشيوس (كونغ فو - زي، أي 'الملك السيد')، فيعطي للفضيلة تعريفاً اجتماعياً ودنيوياً إلى حد كبير. وكان التقليد الآخر يتبع داو (أي "طريق") لاو - زي وجوانغ - زي، بالسعي للاندماج مع الأنماط المتميزة في الطبيعة. وباستثناء الاعتقادات الشعبية الروحية، فإنه لم تكن هناك أي استجابة لأي أشواق صينية متلهفة على عالم آخر، حتى بدأت البوذية تتغلغل من الهند في الألف الأول الميلادي (فكانت البوذية بالنسبة للصينيين ديانة غربية). وقد ازدهرت في الأوقات المضطربة في القرون الثالث والرابع والخامس بعد الميلاد، ثم صارت هي العقيدة الثابتة لسلالة تانغ التي أعادت الحكومة العالمية القوية للصين، وترجمت الأعمال الكلاسيكية من لغة بالي ومن السنسكريتية إلى الصينية، فأصبحت البوذية هي العقيدة الطبيعية الصينية.

ولكن البوذية، مع تأكيدها على تحمّل الألم، والاستكانة، وعدم أهمية الجولة اليومية من الحياة، لم يكن لها أبداً تأثير إيجابي على الملوك الذين يجب عليهم أن يحافظوا على ممالكهم ضد العدوان الخارجي. فلم يستطع أي ملك بوذي في موطن البوذية في الهند، ولا حتى آسوكا، أن يؤسس سلالة تدوم أكثر من

جيلين. كما أن جاذبية البوذية الغربية للشعوب الألطية، وخاصة التابغاش، ومغول جنكيز خان، قد وضعت نهاية مبكرة لفضائلهم العسكرية كجنود عندما استقروا في الصين. وكما يلاحظ غروسيه، فإن 'هؤلاء المقاتلين الشرسين، بمجرد أن مسّتهم نعمة البوذية صاروا خاضعين للمبادئ الإنسانية في تعاليم "السراماتا" [أي الكهنة البوذيين] إلى درجة أنهم لم ينسوا صفتهم الحربية الأصلية فحسب، بل أهملوا أيضاً دفاعهم عن أنفسهم[23]'.

ولكن كان هناك جانب ديني متشابه عند المصريين والصينيين، ولعله متصل بقدرة لغتيهم على البقاء الكثيف المركّز في مواضعهما الطبيعية الأصلية على مدى آلاف السنين. وكان هذا هو الموقف الذي اتخذه كل منهم إزاء إمبراطوره، وعلاقته بأرضه، وشعبه، وآلهته.

فقد حققت كل من هاتين الإمبراطوريتين وحدة مبكرة في ظل حاكم وحيد، مصر تحت حكم المينيين Menes الأسطوريين، والصين تحت حكم الإمبراطور التاريخي شي هوانغ دي. ورغم حدوث كثير من الانقسامات بعد ذلك، وتنافس بين الممالك المختلفة، فإن الحضارتين لم تجدا أبداً أن عدم الوحدة هذا يمكن تحمّله: فتاريخهما، كما رأينا، كان يميز بصلابة بين الفترات المزدهرة، التي كان فيها بيت ملكي وحيد يسيطر على البلد بكامله، وبين فترات خلو العرش، التي ربما كانت سلمية تماماً ولكنها كانت تعاني من الخلل الأساسي المتمثل في انقسام البلد. فقد كان هذان البلدان مركزيين إلى حد كبير، وكان المركز في كل منهما بلاطاً ملكياً، ولم يكن مكاناً (فقد كان لكل منهما عدة عواصم إمبراطورية مختلفة - مثل طيبه، وممفيس، وتانيس، وليونتو بوليس، وسايس في مصر، وتشانغ - آن، ولويانغ، ونانجينغ، وهانغجو، وبيجينغ في الصين). وفي كل حالة، كان موقع الملك مقدساً في الإيمان الوطني[*]. فقد كان الفرعون المصري يعتبر

(*) كانت الإمبراطوريتان في أحيان قليلة جداً تسمحان لامرأة أن تتولى منصب العاهل، ولا سيما حتشيبسوت (1473-1458 ق. م.) وكليوباطرة (51-30 ق. م.) في مصر، والإمبراطورة وو (690-705 م)، وسي إكسي (1895-1908 م) في الصين. ومن الغرائب المخيفة، أن حكم المرأة في المملكتين هو الذي أودى بهما إلى النهاية بعد عدة آلاف من السنين.

تجسيداً للملكية، محتفظاً بعلاقة مباشرة مع الآلهة نيابة عن كل شعبه في أراضي الوجهين البحري والقبلي. وبالمثل، كان الإمبراطور الصيني هو ابن السماء، الذي يضمن النظام في المملكة الوسطى.

وكان الحاكمان مطلقين مستبدين في البلدين، لا يستمدان السيادة من الشعب، بل من الآلهة. ومع ذلك فقد كان كل منهما خاضعاً لقيد معنوي واضح صريح، يسمى 'مارآت' في مصر، أي 'نظام' أو القانون الأخلاقي والطبيعي. فكان على الفرعون واجب وضع هذا القانون في محله في مملكته بدلاً من 'جازفات'، أي الخطأ. وكان على الإمبراطور الصيني واجب الحكم بالعدل والامتناع عن الظلم: فلا يستطيع أن يحتفظ بتكليف السماء له (تيان مينغ)، أي بشرعيته إلا إذا قام بواجبه هذا حسب مذهب مينسيوس (مينغ - زي) النافذ السائد: فالحاكم الظالم يكون قد تخلى عن حقه في الحكم، ويمكن للشعب أن يكون على حق في إسقاطه.

إذن فقد كان لدى مصر والصين كليهما المذهب السياسي البسيط نفسه للحفاظ على النظام، والذي أقام هوية البلد على أساس حكم إمبراطور وحيد، وأقام سيادة الإمبراطور على الحق. ولذلك فإن الفلسفة الوطنية كانت تشمل المبدأ المتأصل في داخلها لإثبات كون الله محقاً وعادلاً: فكان برهان أحقية الحاكم هو نجاحه في الحفاظ على سلالة حاكمة. وكانت الآلهة تضمن أن النجاح سيكون من نصيب الملوك المحقّين فقط، وهكذا فقد كان كل شيء صحيحاً في العالم سواء كان الملك فاشلاً أم ناجحاً، وكان المواطن المصري أو الصيني، سواء أكان دخيلاً حديث القدوم، أم مقيماً منذ زمن طويل قادراً على إعطاء ولائه للنظام.

هذا المذهب كان مناسباً بشدة لثقافة تتمتع باستقرار طويل الأمد، مع العواقب اللغوية التي رأيناها. ولكن يمكن الإصرار على أنه كان نتيجة الاستقرار الثقافي وليس بسببه.

ومن ناحية الحجم المجرّد، كانت مصر والصين مختلفتين جداً. فرغم

تشابههما من حيث الديمومة، فقد كان سكانهما ومناطقهما من نوعيات مختلفة تماماً. فسكان مصر في العصور القديمة كان عددهم يقدر بمليونين في المملكة القديمة، ثم ازدادوا إلى 8 ملايين على مدى ثلاثة آلاف عام حتى الغزو الروماني. وكانت المنطقة المأهولة في وادي النيل والفيّوم تضم مساحة قدرها ثلاثون ألف كيلو متر مربع. وعلى عكس ذلك، كانت أرقام إحصاء السكان في الصين (التي أتيحت لأول مرة في العام 2 بعد الميلاد) تظهر أن عددهم 57 مليوناً، فزادوا إلى أكثر من 80 مليوناً في العام 1000م وإلى أكثر من 1,200 مليون عند مطلع الألفية الحالية. أما منطقة 'الصين داخل السور' (باستثناء منغوليا الداخلية، ومنشوريا، والمناطق الغربية مثل غانزو وكنغهاي، القليلة السكان دائماً) فكانت مساحتها تصل إلى حوالي 5.4 ملايين كيلو متر مربع[24]. فاللغة الصينية، والتاريخ الصيني كان عدد المنتسبين إليهما أكثر من المصريين بخمسين مرة، وكانت مساحة عملهما تعادل المساحة المصرية بمئة وخمسين مرة.

غير أن هذا يؤدي إلى جانب آخر مشترك بينهما ـ وهو الكثافة السكانية العالية. ومن الأرقام المنقولة عن مصر، فإن كثافة السكان كانت 65 نسمة، وارتفعت إلى 250 نسمة في كل كيلو مترمربع على مدى تلك الفترة. ولكن الصين كانت ذات بيئاتٍ أكثر تنوعاً، غير أن أرقام إحصاء سكانها تجعل من الممكن الابتعاد قليلاً عن الوضع في البلد ككل: ففي فترة حكم سلالة هان تظهر هذه الأرقام كثافة قدرها 58 نسمة في كل كيلومتر مربع في وادي هوانغ ـ هي (أي النهر الأصفر) و12 نسمة لكل كيلو متر مربع في وادي يانغتسي الأكثر انخفاضاً. وبعد ذلك بألف عام، في العام 1250 م ربطت القنوات نظامي النهرين، ولكن الأهم من ذلك أن الشمال قد تحمل غزوات من حشود كسيونغنو، وتابغاش، وخيتان، وجورتشين، والمغول: وفي هذه الفترة تناقص سكان الوادي الأسفل للنهر الأصفر بنسبة 45 بالمئة، بينما ازداد عدد سكان الضفة الشمالية لنهر يانغتسي بنسبة 176 بالمئة، وبضعف هذه النسبة (أي 337 بالمئة) على ضفته الجنوبية. وهذا يضع منطقتي الصين على مستوى متكافئ، بكثافة قدرها 30 ـ 40 نسمة في كل كيلومتر مربع في كل منهما، أي أقل من نصف الكثافة

الموجودة على نهر النيل[25]. قارن هذا مع الكثافة في عصر قسطنطين (في القرن الرابع الميلادي)[26] المقدرة بعشرين شخصاً لكل كيلومتر مربع في إيطاليا ـ و19 شخصاً في الأناضول الشرقية(*).

وحسب المقاييس القديمة، فإن كثافة السكان في مصر والصين كانت شيئاً استثنائياً حقاً. ولا بد أن ذلك قد دعم استقرار لغتيهما على المدى الطويل أيضاً. فالأعداد المحضة للناطقين بهما في مناطقهما المأهولة أعطتهما مناعة ضد إغراقهما بقادمين يتكلمون لغات أجنبية، حتى عندما عجزتا عن منعهم من الدخول. فالقوة في الأعداد عززت اللغتين اللتين كانتا محصنتين بنفوذهما الثقافي كذلك، وبمؤسسة ملكية قوية ترعاها وتؤيدها السماء.

وإن طابع الاكتفاء الذاتي والمرونة وسهولة التكيف في اللغتين المصرية والصينية يتكشف في أوضاع كثيرة اضطرت فيها اللغتان، أو الناطقون بهما، إلى التفاعل مع الأجانب وتقاليدهم اللغوية. فهذان المجتمعان الكثيفان والمركزيان لم يكونا منيعين دائماً على التأثير الأجنبي، حتى في تمثيل لغتيهما واستعمالهما. ولكن طيلة آلاف السنين كان فيهما توازن كاف، أو خمول كافٍ لإبقاء الخارجيين تحت سيطرتهما الثقافية.

وفيما تبقى من هذا الفصل، سننظر في ثلاثة جوانب من ثقافتهما لا بد أنه كان للأجانب تأثير فيها: وهذه الجوانب هي تاريخ الكتابة، ومعرفتهما بالقوى الأجنبية وموقفهما حيالها، ورد فعلهما على الغزو. وفي كل حالة، كانت استمرارية اللغتين الثابتة تعتمد على رفضهما الصارم على رؤية نفسيهما، أو التصرف بنفسيهما، حسب شروط الآخرين.

(*) من أجل المقارنة، فإن كثافة السكان الحديثة في الولايات المتحدة الأمريكية هي 27 نسمة لكل كيلومتر مربع، وفي إيطاليا 192 نسمة لكل كيلومتر مربع، وفي المملكة المتحدة 235، وفي اليابان 328.

التمسك الشديد بنظام للكتابة

قلّد أباك وأجدادك ... انظر إلى بقاء كلماتهم في الكتابة. وانفتح عليها، كي تتمكن من قراءة حكمتهم وتقليدها. فالرجل البارع يصبح متعلماً.

تعليمات للملك مريقار، السطر 35 (باللغة المصرية، منتصف القرن العشرين ق. م.)[27]

الكتابة لا تستطيع أن تعبر عن كل الكلمات، والكلمات لا تستطيع أن تشمل كل الأفكار.

"الأثر التقليدي للتغيرات"، الملحق التاسع والثمانون (منسوب إلى كونفوشيوس)،

1: 12 (باللغة الصينية، قبل القرن الخامس ق. م.)

إن نظام مصر الكتابي غريب في كونه ليست له إرهاصات معروفة سبقته. فأول النصوص الهيروغليفية، على الأختام، واللوحات التجميلية، والنقوش والنصب التذكارية، رغم أنها قد تكون قصيرة، فإنها متشكلة جيداً في النظام الذي قيّض له أن يستمر طيلة الثلاثة آلاف وخمسمئة عام التالية. وهذه النصوص تستخدم الصور لإعطاء دلالات لفظية، فتجعل الحروف الصامتة المميزة للكلمة الموضحة تؤدي وظائف متعددة، وكأن صورة السكين بالإنكليزية لم تعد تؤدي معنى كلمة 'knife' فقط، بل صارت أيضاً تعطي معنى 'niffy' أي شديد الجاذبية، أو 'nephew' أي ابن الأخ، أو 'enough' بمعنى الكافي. ومع ذلك، فإن الأسلوب النموذجي متصور مسبقاً في رسوم توضيحية كان الفنانون يصنعونها قبل دخول الكتابة، مما يوحي بأن النظام قد أقيم على أساس أهلي محلي[28].

والافتراض العادي هو أن الإلهام قد جاء من وادي الرافدين، حيث كانت الكتابة قد تطورت من سجلات المحاسبة وباستخدام المبادئ المستعملة في علامات اللفظ نفسها، قبل ذلك ببضع مئات من السنين. فقد كانت هناك طرق تجارية قديمة على طول وادي عربة تربط وادي النيل مع البحر الأحمر. وحسبما نعرف، فإن أصل الكتابة قد يكون من عبقرية كعبقرية الباحث الهندي الأحمر، سيكويا، الذي كان أمياً من عشيرة شيروكي (1760ـ1843 م) ولكنه في القرن التاسع عشر اعتبر معرفة القراءة والكتابة بالإنكليزية برهاناً على مفهوم أو فكرة عامة، ثم انطلق ليطور أبجدية مقطعية للغته نفسها من المبادئ الأولى.

وكيفما كان الأمر، فإن النظام سرعان ما تم توحيده في أسلوب مصري للتوضيح. ورغم أن الأشكال المقوّسة من الرسوم الرمزية الهيروغليفية قد تم تطويرها للاستعمالات اليومية، فقد تم الإبقاء على رسوم صارمة الدقة وثابتة لاستعمالها في النصوص المنقوشة على النصب التذكارية. وقد تمت المحافظة على ذلك رغم أن المواد التي استخدمها المصريون، سواء أكانت صباغاً ملونة على الجدران، أم حبراً على ورق البردي يوضع بالفرشاة، كانت تسمح بحرية كاملة في الأسلوب. ولكن ممارسة التخطيط المتدفق الرشيق لم تبدأ في مصر على الإطلاق. فالكتاب المصريون في نهجهم الثابت باطراد كانوا مختلفين جداً عن أساتذة أنظمة مثل الحروف الصينية أو صور المايا الرمزية المنقوشة النافرة.

علاوة على ذلك، وعلى الرغم من إضافة رموز هيروغليفية جديدة بين الحين والآخر فلم يتغير المبدأ الأساسي للنص المكتوب، واستخدام المعنى المزدوج في التورية في الحروف الصامتة في الكلمات المصورة موضحةً باستخدام مزيد من الصور لتحديد مدى المعنى والصوت. ونجد استخدامات تجريبية للرموز الهيروغليفية لتأسيس أبجدية في مواقع الحفريات الأثرية في شبه جزيرة سيناء؛ وكذلك الاستخدامات الجديدة بشكل جذري في آخر الأمر لمجموعة صغيرة من الرموز على أيدي الفينيقيين، شركاء مصر التجاريين، لتأسيس أبجديتهم، التي هي الجدّ الأعلى الظاهر لكل الأبجديّات في العالم اليوم. ولكن بينما كان هؤلاء الأجانب يأخذون إلهاماً منحرفاً من المصريين، فإن المصريين أنفسهم لم يحوّروا نظامهم الهيروغليفي لكتابة لغتهم نفسها.

إن هذه المقاومة لإصلاح النص المكتوب، وهي خاصية يشتركون فيها مع الصينيين، لا تبين في الحقيقة أكثر من أن هاتين الثقافتين ـ اللتين كانتا مبكرتين جداً حسب المقاييس الإقليمية والعالمية ـ قد حققتا دمجاً مستقراً للكتابة في طريقة حياتهما. فلم يكن طلب تبديل نظام الكتابة في مثل هذه الإدارة المتعلمة قابلاً للممارسة العملية أكثر من المحاولات المختلفة لإدخال إصلاح في التهجئة على اللغة الإنكليزية الحديثة. ولم يكن ذلك ليصبح عملياً وملائماً إلا إذا تعرضت أنظمة التعليم والإدارة إلى تمزق شديد القسوة إلى درجة تعطيل التتابع،

بحيث يمكن القيام ببداية جديدة. ولم يحدث هذا في مصر أبداً إلى أن استولت على البلد ثقافات لها تقاليد إدارية منافسة، هي الفارسية، والإغريقية، والرومانية. وعندئذ تقوّض استخدام اللغة المصرية في الإدارة وحلّت محلها الآرامية واليونانية. ولكن رغم ذلك فإن اللغة المصرية لم تستطع القفز إلى الكتابة بنصوص ألفبائية جاهزة إلا عندما قدمت المسيحيةُ استخداماً جديداً بكليته لمعرفة القراءة والكتابة. أما في الصين، فإن التحول إلى الكتابة بالأبجدية لم يحدث على الإطلاق، رغم إلغاء نظام الامتحانات الإمبراطوري في العام 1905، وهو النظام الذي كان بالفعل المؤسسة التعليمية والإدارية المركزية، ورغم أن التكهنات الأساسية الجذرية عن مستقبل نظام الحروف في النصف الأول من القرن العشرين، والتي شملت حتى سماح جمهورية الصين الشعبية بنظام جديد لرسمها بالحروف الرومانية، هو نظام البنْين pinyin (المستخدم في هذا الكتاب كله).

كان الكاتب المصري يمثّل منذ أقدم الأزمنة الموثقة ذروة الطموح. وهذا ما تؤكده بشكل وفير أنواع النصوص التي كانت تستنسخ في مدارس الكتّاب:

> انظر ليست هناك مهنة غير محكومة، إن الرجل المتعلم هو وحده الذي يحكم نفسه[(29)].

> ابدأ بالعمل وصر كاتباً، لأنك عندئذ ستكون قائداً للرجال. فمهنة الكاتب مهنة أمراء، ومواده الكتابية ولفافات كتبه تجلب المسرة والثراء[(30)].

وفي هجاء الحِرَف، يتفاخر الكاتب:

> لم أر نحاتاً أُرسل في سفارة، ولا سبّاك برونز يقود بعثة.

وقد ولّد هذا الرضا عن النفس نزعة محافظة شديدة لعلها كانت في آخر الأمر سبب خراب مصر. فقراءة اللغة المصرية وكتابتها ظلت محصورة في طبقة صغيرة وعالية التعليم زمناً طويلاً بعد هلاك آخر دولة مصرية مستقلة، بل إلى أن كيفت المسيحية الأبجدية الإغريقية للغة: وقد اتخذت هذه الخطوة بعد ألف عام كاملة من تبني باقي أنحاء البحر الأبيض المتوسط، بما في ذلك الآشوريين والبابليين للكتابة الأبجدية.

ولكن النظام الصيني، كأنه أراد أن يظهر أنه ليس هناك حد لحياة النظام التصويري في عصر أبجدي، ظل باقياً حتى خلال هياج دوامة القرن العشرين. فقد استمر بدون أي تغير جوهري رغم بعض التبسيط في فن الخط منذ أن فرض شي هوانغ دي توحيداً قياسياً لنظام كان عمره أكثر من ألف عام، وذلك في القرن الثالث قبل الميلاد. فأسس هذا النظام صورة خاصة ذات أسلوب معين، أو مجموعة من التوريات اللفظية، مضافاً إليها علامات تحديد المعنى، في صندوق وطني مربع، لكل كلمة أو جذر في اللغة. وبعد التأسيس، صارت أقل اعتماداً على رموز اللفظ من النظام المصري، وهكذا صار استخدامها العملي أقل تأثراً بالتغيرات اللفظية التي طرأت على اللغة على مدى الألفين وخمسمئة عام التالية. وراح الباحثون والدارسون الصينيون يراقبون بشيء من التسلية وعدم الاهتمام عمليات التحوير، والتشذيب، والإضافة، التي تصورها الأجانب لإنتاج رموز "كانا" اليابانية، وهي مجموعتان من ثمانية وأربعين رسماً محيطياً مبسطاً تمثل المجموعة الكاملة للمقاطع اليابانية - وكذلك الأبجدية اللفظية الكورية الحقيقية المسماة "هان - غول"، ولكنها مصممة بحيث تنسجم على الصفحة مع الحروف الصينية. وكانت كل من هاتين الحالتين حلاً أصلياً لقلة التطابق والتلاؤم بين الحروف الصينية، وبين لغتيهما المتعددة المقاطع والحاويتين على حروف زائدة ملصقة بالكلمات، وغير المعتمدتين على النبرات الصوتية - ولا بد أن هذا لم يكن يظهر كمشكلة للغة الصينية نفسها.

والواقع أن اللغة الصينية في الألفين وخمسمئة عام الماضية صارت تعي وجود عدد من النصوص الكتابية الأبجدية، التي تم تصورها بشكل مستقل تماماً عن حروفها. فالبوذيون قد جلبوا نسخة 'سيدْها' المعدلة من الأبجدية البراهمية من الهند، والمسلمون الذين أسلم على أيديهم كثير من الناس الغربيين جلبوا تنويعات من النصوص الآرامية والعربية. بل إن الإمبراطور المغولي قبلاي خان أمر باستخدام نص أبجدي لإمبراطوريته كي يُستعمل رسمياً لتعليم قراءة وكتابة كل لغاتها، المغولية، والصينية، والتركية، والفارسية. وقد أطلق على ذلك النص الأبجدي اسم 'فاغسبا'، وكان مبنياً على أساس النسخة التيبتية من اللغة

البراهمية. وقد تم الإعلان عنه في العام 1269. وكان نسخة من النص التيبتي محوّلة بحيث تكتب بشكل عمودي (رغم اختلافها عن الحروف الصينية في الأعمدة من اليسار إلى اليمين)، ولكن بشكل مربع، احتراماً ومراعاةً للذوق الصيني. غير أن هذه الأبجدية لم تنتشر، وانقطع استمرارها مع انتهاء حكم السلالة المغولية بعد ذلك بقرن واحد فقط.

إن الميزة العظمى للنظام الصيني هي تمثيله المتقن لأعلى عامل مشترك للتركيب والمعنى اللذين تتشارك فيهما كل اللهجات الصينية التي ليس في كثير منها فهم متبادل. فكل اللهجات الحديثة، وكذلك "وينيان"، مبنية على مجموعة مشتركة من المقاطع ذات المعنى، يمكن لفظها وتصفيفها معاً بترتيبات مختلفة في اللهجات المتنوعة، ولكنها مع ذلك يمكن التعرف عليها بالشكل التصويري المرسوم. وبصورة عامة، فإن كل واحد من هذه المقاطع يتمثل في الكتابة بحرفٍ وحيد، وهكذا فإن معنى نص صيني مكتوب سيكون واضحاً نسبياً لأي متعلم ناطق بأي لهجة. وعندئذٍ لم يعد هناك نص أبجدي مبني بحكم الظروف على أصوات اللغة يمكن أن يكون محايداً بشكل مناسب إزاء جميع اللهجات الصينية المختلفة، إلا إذا كان مصمماً حسب مبادئ تاريخية، مع معرفة بكل تنويعات اللغة الصينية. ومثل هذا العمل الدالّ على الألمعية لا بد أن يكون معجزة من الخفاء والغموض. وهكذا تعيش وتبقى الحروف التقليدية.

ورغم صعوبة تعلّم النظام، فإن معرفة القراءة والكتابة في الصين لم تبق إنجازاً قاصراً على النخبة وحدها كما كان الحال في مصر على الدوام. فقد كانت هناك مستويات مختلفة من التحصيل حسب ثروة العائلة والفرص المتاحة لها، ولكن العائلات الفقيرة استمرت في إنجاب نجم فكري بين حين وآخر. وكانت مهارات القراءة والكتابة لا تزال تحظى بالتقدير في الصين، ولكن على مستوى وظيفي أعلى. وهكذا فإن مكانة الكاتب في مصر تتماثل أكثر في المجتمع الصيني مع مكانة خرّيجي المستويات العليا من الامتحانات التنافسية الإمبراطورية. وكانت الامتحانات بصورة عامة تجرى مرة كل ثلاث سنوات، من عام 622 إلى عام 1905.

إن الشيء الوحيد الذي يمكن أن يتبناه الصينيون من الأجانب فيما يتعلق

بالكتابة ليس الكتابة نفسها، بل إعراب اللفظ وتحريكه. فنظام "فانقي " التقليدي يصنف لفظ الحرف حسب الحرف الصائت الأول، ووزنه، مضافاً إلى النبرة، ولكن 'دراسة الأوزان السجعية المتدرجة'. تصنف هذه الأجزاء المكونة لفظياً. إن هذا الاختراع للباحثين الصينيين في القرنين الميلاديين السابع والثامن قد جاء إلى حد كبير تحت تأثير حركات الإعراب الصوتي الخفية للفظ السنسكريتي المستمدة من التقليد البوذي[31]. ومع ذلك فإن إعراب الجزء السجعي المقفّى من الحرف المقطعي ضمن مكوناته من أشباه حروف العلة، وحروف العلة والحروف الصائتة كان عليه أن ينتظر تعميم النهج الأبجدي الأكثر شمولاً واكتمالاً، وعلى وجه الدقة اعتماد الحروف الرومانية في القرنين التاسع عشر والعشرين[32].

وإذن فقد كان هناك تمنّع واضح عن الاستمرار في تطوير الأنظمة التصويرية المصرية والصينية نحو تقليل تعقيدها، برغم الوعي بالأنظمة الأبسط التي كان الأجانب يستعملونها. فالحضارات تُبنى على احترام التقاليد، ولا سيّما الصعوبات التقليدية في الانضمام إلى الطبقة المتعلمة التي تمسك بزمام الأمور في الحكومة.

العلاقات الخارجية

كان لدى مصر والصين في معظم الأوقات نقص في اتخاذ موقف فعال إزاء جيرانهما وإزاء الأجزاء الأخرى البعيدة من العالم.

فقد اعتمدت مصر منذ وقت مبكر على التجارة الخارجية للحصول على بعض سلعها الرئيسية، ولا سيما الأخشاب، ولكنها كانت تؤمّن ذلك عن طريق الوسطاء الفينيقين بشكل رئيسي في الألفين الثالث والثاني قبل الميلاد، ثم عن طريق اليونانيين فيما بعد. وكانت لها سيطرة على فلسطين وسوريا في حوالي أواخر الألف الثاني وبداية الألف الأول ق. م. ولكنها كما رأينا لم تنشر لغتها (أو ثقافتها) بشكل فعّال لبناء صلات دائمة هناك. فلم تنتشر أبداً على طول ساحل البحر الأبيض المتوسط باتجاه الغرب: بل كانت تحركات السكان كلها في الاتجاه المعاكس. وكانت مدينة سيرين عند تأسيسها حوالي العام 630 ق. م.

مشروعاً يونانياً، وليس مصرياً. ولعل مصر كانت أكثر نشاطاً في اتجاه الجنوب، في محاولتها لضم جزء كبير من كوش (ومناجم ذهبها) بصورة دائمة، وفي إرسالها بعض حملاتها جنوباً عبر البحر الأحمر للمتاجرة مع أراضي بانت punt الخرافية، ربما في الصومال. ورغم رؤية فائدة ثقافية في توحيد الأراضي السوداء التي كان يفيض عليها نهر النيل، والمحاطة باليباب الصحراوي على الجانبين كليهما، فإن التأثير الصافي لهذه الجهود كان قليلاً. فقد كان السكان الآهلون لهذه المناطق القاسية شديدي الندرة. ومن الناحية السياسية كانت أعجب نتيجة لافتة للنظر هي الغزو المعاكس لمصر في أواخر القرن الثامن قبل الميلاد على أيدي الكوشيين المتحمسين للثقافة المصرية.

وكانت الصين في وضع مختلف جداً عن مصر. فمن سخرية القدر أنها كانت مضطرة للدفاع عن حدود مفتوحة فعلياً في الشمال والغرب، ولكنها انهمكت بشكل فعّال في التنمية والاستعمار عبر حدود مغلقة بشكل طبيعي في الجنوب. وكانت الشواطئ إلى الشرق تعتبر حداً آخر، مما ترك الصين عرضة لهجوم القراصنة، بدلاً من تقديم فرصة للتوسع البحري.

ولكن فيما وراء مناطق البرابرة المطوّقة للصين، كان هناك شعور بأنه على مبعدة إلى الغرب، في الهند وفي الإمبراطوريتين الفارسية والرومانية يوجد أجانب يستحقون احتراماً أكثر إلى حدّ كبير. والواقع أن البلاط الصيني قد أرسل مبعوثاً أو اثنين لاستكشاف هذه الحضارات الغربية والإبلاغ عنها؛ كما أن البوذية، والزرادشتية، والمسيحية النسطورية، والإسلام، تغلغلت كلها في الصين تحت حكم تانغ إلى درجة أن الديانات الثلاث الأولى منها عانت من الاضطهاد الرسمي في العام 845 م. (ولم يصمد ويستمر بعد ذلك الاضطهاد سوى البوذية والإسلام). ومن المشهور أن الإمبراطور الصيني يي زونغ أثار إعجاب الزائر المسلم ابن وهب في العام 872 م. بمعرفته الحقائق الرئيسية عن اليهودية، والمسيحية، والإسلام. ولكن الصلات المادية الوحيدة مع البلدان التي أنتجتها جاءت عن طريق التجّار الأجانب الذين كانوا يزورون الموانئ الصينية. وحتى القرن السادس عشر كان هؤلاء جميعاً من اقتصادات المحيط الهندي، ومن جزيرة العرب، وفارس، والهند.

وكانت حالة الهند مختلفة. فعند وصول البوذية إلى الصين (في القرن الأول الميلادي، عن طريق مبادرة هندية) وبداية ترسيخ نفسها، فإن الكهنة الصينيين، بدءاً من فا-كسيان في أواخر القرن الرابع، قد انجذبوا للقيام بالرحلة من الصين بأنفسهم، عن طريق تجاهل القانون خلسةً في بعض الأحيان. وقد اضطر أشهر واحد فيهم، وهو كسوان زانغ إلى المغادرة خلسةً وبشكل غير قانوني في العام 627، ولكنه تمكن من العودة ليلقى ترحيباً رسمياً من الإمبراطور تاي زونغ في العام 644(*). وشاع أسلوب تمويل مراكز واسعة النطاق لترجمة الأدب البوذي. وكانت هناك أيضاً سلسلة من بعثات الكهنة الصينيين المرسلين لدراسة الأدب وتجميعه في الهند ـ فمن المعروف أنه كانت هناك ست وخمسون من هذه البعثات قبل القرن العاشر، سافرت أربع وثلاثون منها بحراً من غوانغ ـ جو (كانتون) واثنتان وعشرون براً عبر صحراء تاكلاماكان وهندوكوش[33]. وهذا كله لا بد أنه كان يمثل أكبر مبادرة مدعومة باستمرار اتخذتها الصين قبل العصر الحديث للاتصال بحضارات خارجية.

وكان هناك تأثير دائم على اللغة الصينية من ألوف الاصطلاحات الجديدة الكثيرة التي أنتجتها الترجمات، التي كانت في العادة تبنى على كلمات صينية بسيطة موجودة، ولكن تربطها بطرق جديدة. وهناك ثلاثة أمثلة نموذجية لذلك وهي: "غْوو- كو" أي 'الماضي' و"كسيان زاي" أي 'الحاضر' و"وي ـ لاي" أي 'المستقبل'. فكل منها مبنية من عنصرين، وهما على التوالي في الكلمات الثلاث: المرور/يذهب، والظاهر/كونه ـ هناك ولم يأت/بعد. وكل منها تعكس بدقة المجاز المماثل لكلمة من لهجة بالي pali: "آتيتا، باكوبانا، آناغاتا"(**). وصارت مثل هذه الكلمات مركزية للمفردات الصينية الفعالة.

وتوجد مفارقة ههنا، أو بالأحرى تماثل هام بين القواعد النحوية وبين الحكومة. فربما تكون البلدان واللغات الأخرى قد استعارت ببساطة بعض

(*) إن آراءهم في الهند يوجد بحث لها في صفحة 277 وما يليها أدناه.

(**) هذه الكلمات السنسكريتية الثلاث معناها على التوالي: 'مر وانقضى' و'حاصل في الوقت الحاضر'، و'لم يأت بعد'.

النسخ المشوهة أو المبتورة من كلمات اللغة السنسكريتية أو لغة بالي، وأكملت اللغة بهذه الطريقة. وكان هذا هو ما يحدث في جميع أنحاء جنوبي شرقي آسيا، رغم أن لغاتها كانت تختلف عن اللغات الهندية كاختلاف الصينية عنها (انظر الفصل الخامس، ص 263). ولكن حقيقة كون الكلمات الجديدة تراكيب معادة في الصينية من المفاهيم المستمدة من السنسكريتية أو من لغة بالي هي حقيقة منسجمة مع استراتيجية الصين العامة في إدارة علاقاتها الخارجية: أي محاولة إبقاء تلك الكلمات تحت السيطرة المحلية دائماً.

وكانت هذه المحاولة للحفاظ على السيطرة أيضاً إحدى ملامح إدارة الصين لأبوابها الأمامية والخلفية، لطريق الحرير حول صحراء تاكلاماكان إلى دنهوانغ والموانئ على طول ساحلها الشرقي. ورغم أن الصين كانت مهيأة للدفاع عن أمن طريق الحرير ضد البرابرة المجاورين لها من أيام الرومان فصاعداً، فإن أهمية الطريق تعرضت لكسوف تدريجي من تنامي التجارة البحرية. وكان الطريق البحري مغلقاً فعلياً أمام التجارة الخاصة أثناء القرون الثلاثة من حكم سلالة مينغ، من حوالي العام 1368، ولكن عند السماح لها تركزت هذه التجارة إلى حد كبير في غوانغ - جو (كانتون)، مع السماح لشيء من المنافسة لها من الميناء الأبعد إلى الشمال، وهو ميناء كوانغجو في فوجيان. ومن العام 1757 إلى العام 1842، ومن العام 1949 إلى العام 1979، تمتع ميناء كوانغجو بالاحتكار فاستمر يحظى بتفضيل الحكومة الصينية من أجل المراقبة وسهولة فرض الضرائب. ولكن هذا الاحتكار كسرته المصالح الأوروبية والأمريكية وفتحت الباب بالقوة في غضون القرن الواقع بين هاتين الفترتين.

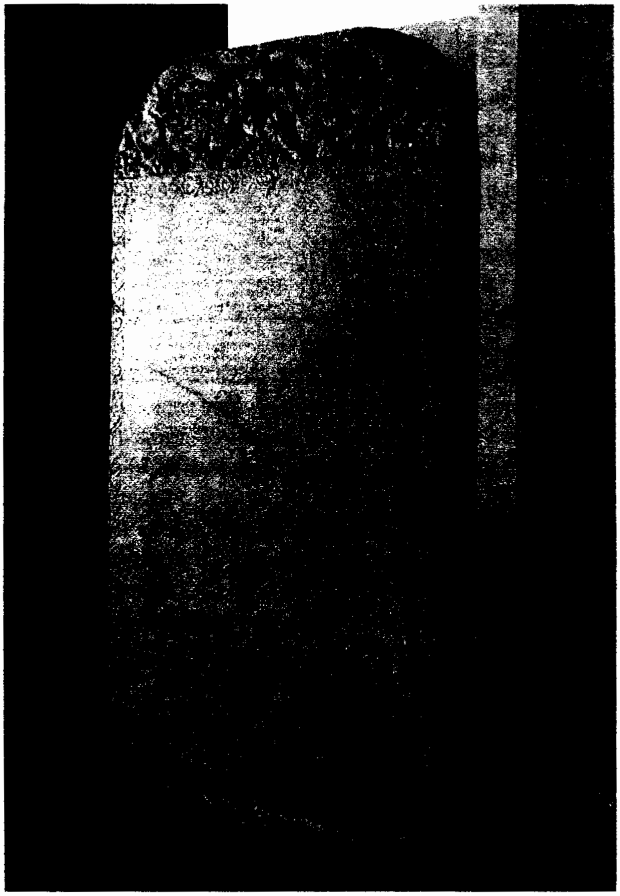
وهناك استثناء غريب من سياسة الصينيين العامة التي قدّر لها أن تسمح بالتجارة الأجنبية وفق شروط، ولكن دون أن تبادر إليها أو تسعى للاتصال السياسي بالقوى الأجنبية، وجاء هذا الاستثناء في حالة يبدو أنها فريدة، هي حالة الأميرال جنغ–هي الذي قام بسبع رحلات بحرية حول المحيط الهندي بين العامين 1405 و1433، فوصل إلى البحر الأحمر ومقديشو.

وفي شبه القارة الهندية تركز انتباه جنغ-هي على سريلانكا، حيث من المعروف أنه في رحلته الثانية في العام 1411 ترك نقشاً بثلاث لغات على لوح حجري (محضّر سلفاً في الصين) بالصينية، والتاميلية، والفارسية.

وكان ذلك النقش ينقل تحيات إمبراطور مينغ الصيني، ويعبر بلغاته الثلاث عن احترامه للبوذية، وللإله تينافاراي - نيناقار ولله على التوالي، ويدرج ذكر تقديم نذور كثيفة لها من الذهب، والفضة، والحرير ...... إلخ. ولم تكن هذه البعثات بوضوح مجرد زيارات مجاملة. بل كان فيها شبه كبير بسلوك الأوروبيين الشائن في الخارج: فعندما واجه الصينيون مقاومة، خطفوا ملك سريلانكا وأخذوه بالقوة إلى الإمبراطور في نانجينغ، ولكنهم أعادوه بعد ذلك ومعه أقدس أثر في الجزيرة، وهو ضرس بوذا المقدس. ونجم عن ذلك مطالبة الصين بالسيادة على سريلانكا، التي احترمها أهالي سريلانكا بالفعل عن طريق دفع جزية حتى العام 1459.

ورغم نجاح الصينيين الظاهري، فإن مثل هذه المبادرات الإمبراطورية توقّفت فجأة بعد رحلة جنغ-هي الأخيرة، ولم تتجدد على الإطلاق. ولا أحد يعرف لماذا في الحقيقة. فقد عادت سياسة الصين الخارجية إلى موقفها النموذجي من التركيز على أوضاعها الداخلية واتخاذ موقف الدفاع.

ومع ذلك، وكما رأينا أعلاه (تحت عنوان 'ما وراء البحر الجنوبي'، ص 213)، فإن المهاجرين الصينيين قد أعطوا الصين، واللغة الصينية، رأس جسر إلى داخل جنوب شرقي آسيا لم تكن حكومتها تسعى إليه - بل كانت تثبطه على مدى قرون كثيرة. وفي جميع البلدان الكبرى في جنوبي شرقي آسيا الآن، فإن المجتمعات الناطقة بالصينية هي المصدر الرئيسي لرأس المال الاستثماري.



لوح جنغ - هي الحجري

وفي الفليبين، يشكل المهاجرون الصينيون المقيمون واحداً بالمئة من سكان البلد، ولكنهم يسيطرون على نصف سوق الأوراق المالية. أما في إندونيسيا، فإن النسبتين هما 4% و75% على التوالي، وفي ماليزيا 32% و60%. وفي تايلاند يملك المهاجرون الصينيون نصف الثروة على الأقل ... وحسب أحد التقديرات فإن الصينيين المهاجرين في الخارج، والبالغ عددهم 51 مليوناً، يسيطرون على اقتصاد قيمته 700 مليار دولار - وهذا يكاد يصل إلى حجم سكان البر الصيني الرئيسي البالغ عددهم 1.2 مليار نسمة[34].

إن الأعمال التجارية المتنامية التي يسيطر عليها الصينيون سوف تعطيها فرصة الاتصال ببعضها بعضاً بالصينية، سواء بلهجة الماندارين، أم بلهجة مين الجنوبية، وهكذا فللمرة الأولى ستكون لدى اللغة الصينية إمكانية الانتشار خارج البر الرئيسي. ولم تعد الصين تبعد نفسها عن أتباعها الصينيين الذين اختاروا كسب عيشهم في الخارج، ومن الممكن أن يصبح هذا الوجه الصيني الجديد الأكثر دبلوماسية مؤثراً بشكل مفتوح، وربما حتى مهيمناً.

تلاميذ الصين

رغم أن الصين كانت دائماً متحفظة في قبول أي تأثير من الأجانب، فإن جيرانها الأصغر الذين حققوا مستوى معيناً من الحضارة المستقرة والاستقلال الدولي لم يكن لديهم شيء كهذا التحفظ في قبولهم للتأثير من الصين. وهذا موقف اتخذته دول كوريا، واليابان، وفيتنام، وشعوبها، فكل منها ناطق بلغة لا علاقة لها بالصينية. وقد اضطرت كل دولة منها إلى مقاومة محاولات الغزو الصينية المتقطعة (ولو أن اليابان عانت من ذلك في الفورة الأولى للاستعمار المغولي فقط). ولكن كلاً منها لم تتعلم القراءة والكتابة لأول مرة بلغاتها، بل باللغة الصينية الفصحى التقليدية الكلاسيكية. وقامت كل منها بتطوير أنظمة للغاتها الخاصة عن طريق تحويل استعمال الحروف الصينية أو استكمالها.

وعلى عكس تعامل الصينية مع السنسكريتية ولغة بالي، فإن كل واحدة من لغات هذه البلدان تبنّت المفردات الصينية كما هي، بغض النظر عن عدم انطباقها بشكل جيد مع الأنظمة الصوتية في لغتها الخاصة. فبعد كل شيء، كانت الصين بالنسبة لهذه البلدان تمثل رأس ينبوع الحضارة المتقدمة(*).

(*) بصورة عامة فقد وصل إعجاب شعوب هذه الدول بطريقة عمل معاصريهم الصينيين للأشياء إلى درجة أن كوريا واليابان أدخلتا في القرن السابع الميلادي نظام الامتحانات العامة للدخول في الحكومة. (وفي تلك الأثناء كانت فيتنام تمضي الألف الميلادي الأول بكامله تحت حكم الصين المباشر). ولكنهما فعلتا ذلك على سبيل المحاكاة والتقليد، وبالتأكيد ليس لتقديرهما هدف النظام: فلم يكن اليابانيون يسمحون لأحد بتقديم الامتحان سوى للنبلاء. وفي كوريا كان أبناء أسر الطبقات الأعلى يعفون من تقديم الامتحان أصلاً.

ونتيجة لذلك صارت لغاتهم ملأى بمفردات مستعارة من الصينية، محوّرة لتناسب طريقة لفظهم، وبقيت هناك منذ ذلك الحين. وسرعان ما صار لديهم إدراك واضح يعادل إدراك الصينيين الكامل لمعاني المقاطع التي استعاروها والحروف المرتبطة بها - بل ربما كان إدراكهم أوضح ما داموا قد استخدموا الحروف نفسها لتمثيل الكلمات في لغاتهم الخاصة، المتصلة بواسطة المعاني فقط.

إن هذا التبنّي المخلص للغة الصينية ودمجها قد أعطى فسحة زمنية مفيدة من نوع ما لإجراء بحث مقارن في تاريخ اللغة الصينية. فهذه اللهجات الثلاث الأجنبية "المتلاقحة مع الصينية": الصينو - كورية، والصينو - يابانية، والصينو - فيتنامية، مكونة من مقاطع وكلمات مستعارة من الصينية. وهي كاملة إلى درجة أن من الممكن استخدامها لقراءة نصوص بكاملها بلهجة "وينيان". وبهذه الصفة، فإنها قد حافظت على صدى من الصينية كما كانت تلفظ عندما استعيرت منها تلك الكلمات. والحقيقة أنه في حالة اليابانية - المعقدة كما هي دائماً - هناك ثلاثة أصداء متميزة، هي: "غو - أون"، و"كان - أون"، و"تون - أون"، اعتماداً على ما إذا كانت الكلمة قد استعيرت في القرن السادس الميلادي، أم في القرن الثامن، أو في أوائل الألف الميلادي الثاني. وهكذا فإن كلمة "ني" nèi الماندرانية، التي معناها ‘ضمن‘ صارت تكتب الآن "نوي" noi وتلفظ في النبرة السادسة في الفيتنامية، وتكتب "ناي" nae بالكورية و "داي" dai أو "ناي" nai باليابانية. وقد أثبتت هذه الأساليب العتيقة أنها حيوية عندما اضطلع الباحث السويدي برنارد كارلغرن في العام 1954 بعملية إعادة تركيب لأصوات اللغة الصينية في القرن السابع الميلادي[35].

وهذه التلمذة الشديدة التلهّف للصين من قبل جيرانها يمكن اعتبارها انتشاراً ثانوياً كبيراً للغة الصينية. وكثيراً ما تقارن بدور اللاتينية ضمن الإنكليزية واللغات الأوروبية الحديثة الأخرى، أو العربية ضمن الفارسية والتركية، ولكنها في الحقيقة أكثر شبهاً بالدور الأساسي للسومرية ضمن الأكادية. فقد كانت الصينية منقطعة الصلة تماماً باللغات التي تبعتها وتتلمذت عليها، وكانت مخالفة لها كلياً في التركيب. ومع ذلك فقد أصبح نظام كتابتها هو جذر تعلمهم،

وصارت كلماتها غير قابلة للانفصال عن أي نوع من المخاطبة بين المتعلمين، وتم الأخذ بأدبها كأساس لنظامهم التعليمي ذاته.

ومع نظرة الرهبة والإجلال التي حظي بها الصينيون من جيرانهم فلا بد أنه كان من الصعب عليهم أن يعتبروا تفوّقهم هذا أي شيء سوى كونه حقيقة موضوعية عالمية.

تحمل الغزوات: ثلمة في اللغة المصرية

الأجانب من الصحراء صاروا أناساً في كل مكان ... الحق أن الصحراء منتشرة في كل الأراضي. والمناطق المزروعة مدمرة. لقد جاء برابرة من الخارج إلى مصر .... فلم يعد هناك شعب في أي مكان...

نصائح إيبوار، السطور 5.1، III ص 1 وما يليها
(باللغة المصرية، أواخر الألف الثالث ق.م.)[36]

هذا النص من تحليل متشائم للمجتمع المصري، وقد أصبح نموذجاً أدبياً كلاسيكياً (والمخطوطة الوحيدة الباقية منه قد نسخت عنه بعد كتابته بألف عام تقريباً.) وهو يبين أنه حتى في وقت مبكر من تاريخه المسجل كان المحافظون يندبون التدفقات البربرية إلى داخل مصر، وحسب رأيهم فإن ذلك قد مزّق النظام الاجتماعي: 'العبيد الأقنان صاروا ملاّكين ... والتي كانت تنظر إلى وجهها في الماء صارت تلك مرآة الآن ...' وكلمة "بربري" بالمصرية القديمة هي "بيدجيتي"، أي 'النبّال' الذي يجلب موطنه الصحراوي معه، وهو يقارن بحدةٍ عدائيةٍ مع الناس الحقيقين، مع المصريين الأصلاء.

وهذا النص يسبق تاريخ أي غارات أجنبية نعرف عن دخولها إلى مصر. ولكن من الواضح أن المهاجر، وهو شخص غير مرحّب به، خاصة إذا كان ناجحاً اجتماعياً، قد صار شخصية عادية مألوفة في مصر. ومع ذلك فإن هذه النزعة إلى الانعزال في مصر القديمة تخبرنا عن المواقف الدائمة أكثر مما تخبرنا عن أي أزمة حقيقية في وجود الناس الوطنيين: فصمود اللغة المصرية

يبين أن البلد كان قادراً على امتصاص كل الهجرة الأجنبية في الألفي عام التالية بدون فقدان شخصيته المركزية وتقاليده.

ومن الملامح المثيرة للاهتمام في تاريخ مصر أنه حتى مجيء المسلمين لم يتعرض المصريون لغزوات بدوية ساحقة كاسحة تشبه مجيء العمّوريين والآراميين إلى وادي الرافدين. ومع ذلك فإننا نعرف أن الهجرة الليبية كانت هامة على مدى قرون كثيرة، ومن بين الأسر المصرية الحاكمة، فإن ملوك الهكسوس والكوشيين على الأقل كانوا أجانب نصبوا أنفسهم بالقوة. فلماذا إذن لم يكن لهم تأثير ينكر على لغة مصر وثقافتها؟ لا بد أن جزءاً من السبب كان هو كثافة المصريين على الأرض: فقد كانوا كثيرين، مستفيدين من كرم نهر النيل بحيث كان من المحتم على المتطفّلين أن يذوبوا فيهم.

وهكذا فبرغم الغارات، والانقسامات، وانقطاع الاستمرار في تقاليد الأسر والسلالات، بقيت مصر متمسكة بدينها وبمبدأ حكم الفرعون عن طريق "مارآت" أي "النظام والقانون الطبيعي والأخلاقي".

ولكن الغزوات حطّمت اللغة المصرية فعلاً في وطنها في آخر الأمر: فمصر اليوم بعد كل شيء بلد غالبيته مسلمون، مع أقلية مسيحية، وجميع الناس فيه يتكلمون العربية. فكيف فقدت اللغة المصرية في النهاية قبضتها على الناطقين بها؟

أولاً وقبل كل شيء، لا بد أنه كان هناك ضعف متواصل وتخفيف في القسم الناطق باللغة المصرية من السكان. فقد صار المجتمع بالتدريج متعدد اللغات إلى حد كبير. فقد تعرضت مصر لغزوات كثيرة في القرون الخمسة الأخيرة من وجودها المستقل، على أيدي الآشوريين، والفرس، واليونان، والرومان. وفي الفترة الإغريقية (332 ـ 30 ق.م.) كان هناك فيض كبير من اليهود أيضاً، وكانت لغتهم المشتركة هي اليونانية. ولم يأت أي من هؤلاء الغزاة بلغة قدّر لها أن تحقق مكانة اللغة العامية الدارجة في مصر. ولكن كما رأينا، فإن الآرامية المرتبطة بالآشوريين والفرس قد انتشرت فعلاً في صفوف المصريين فيما هو أبعد من المجال الرسمي. وقد جلبت كل واحدة من هذه

القوى المتعاقبة وغذّت ورعت مجموعات جديدة كانت تنطق بشيء غير اللغة المصرية.

ومع ذلك، فعندما استولى العرب على البلد في فورة اندفاع الإسلام الأولى في منتصف القرن السابع الميلادي، كانت المصرية لا تزال هي اللغة الرئيسية المحكية في الشوارع والحقول.

ولم يكن العرب أول قوة من البدو الرحّل تتغلغل في مصر. فقد قام بذلك الليبيون، وربما الهكسوس قبل ذلك بكثير في الألف الثاني قبل الميلاد. وربما كانت هناك غارات كثيرة أخرى بأحجام أصغر على مدى الفترات الوسطى الثلاث الضعيفة التدوين في التاريخ المصري. ولم يكن العرب أول قوة تستخدم لغة أجنبية في الأغراض الحكومية: فقد فعل ذلك قبلهم جميع الفرس، واليونان، والرومان. ولم يكن العرب أول قوة كبيرة ذات مركز في الخارج تستولي على مصر وتحكمها كمستعمرة: بل لقد حدث ذلك من قبل على أيدي الفرس لمدة قرنين، وعلى أيدي الرومان لمدة سبعة قرون. بل إن العرب لم يكونوا حتى أول من أدخل ديناً جديداً: فقد قام المسيحيون بمحاولة ناجحة لذلك في فترة حكم الرومان.

فلماذا إذن كانت العربية أول لغة تنجح في الحلول محل اللغة المصرية في بلد موطنها؟ لا بد أن الجواب يكمن في مجموعة من كل هذه الظروف. فقد تم تدمير نقاط القوة في اللغة المصرية واحدة بعد واحدة.

أولاً، أوجدت الحروب الآشورية والبابلية في فلسطين مجتمعاً كبيراً من المهاجرين الناطقين بالآرامية في منطقة الدلتا. فكان ذلك نهاية احتكار اللغة المصرية في البلد، ولم يكن هذا حدثاً هاماً جداً في حد ذاته. ولكن البلد بعد ذلك اخترقه وتغلغل فيه كثير من اليونانيين ذوي العقلية التجارية الذين أدخلتهم أسرة سايت لتقوية تحالف ضد قوى أخرى في الشرق الأدنى، ثم منحت الناطقين باليونانية مركزاً تجارياً لتوزيع سلعهم في نواكراتيس في الدلتا. فأصبحت مصر عندئذ مجتمعاً متعدّد اللغات إلى حد كبير. وراحت لغات الأجانب ترتبط أكثر فأكثر بنفوذ وامتياز عالٍ. فالغزو الفارسي، ثم تعاقب سلسلة من الحكام الأجانب

من فارس، وفي وقت لاحق من اليونان (بعد الإسكندر)، كان معناه آنذاك أن المستوى الأعلى من الإدارة صار يشغل بلغة أجنبية غريبة عن مصر: باللغة الآرامية لمدة مئتي عام، ثم باليونانية لمدة ألف عام(*).

من الناحية اللغوية لم يتغير شيء كبير عندم قام الرومان بطرد اليونانيين في العام 30 ق.م. سوى تدفق صغير للناطقين باللاتينية ممن كانوا جنوداً بشكل رئيسي. ولكن هذا التغيير في الحكومة قدّر له أن يثبت بأنه كان أعمق نقطة تحول في مصير اللغة. فلم تعد مصر محكومة من قبل ملوكها أنفسهم ولمصلحتها نفسها بل صار يحكمها حكّام إقليميون باعتبارها سلة خبز مفيدة لروما. وصارت مصر (على نحو متزايد؟) مقصداً للسياح الأثرياء.

وكان الشيء المشترك بين جميع الغزوات هو أنها لم تكن حركات بدوية لقبائل رحّالة: بل كانت أموراً عسكرية تتولاها جيوش جيدة التنظيم تسعى وراء أهداف سياسية عالمية لقوّادها. فكان الهدف من السيطرة على مصر هو الارتباط بمجدها القديم والاستيلاء على ثروتها الزراعية الحالية. وفيما عدا ذلك تركت مصر محافظة على تقاليدها، وهكذا فإن الحركات السكانية الوحيدة كانت حركات النخبة ومجموعات صغيرة مثل اليهود. غير أن الحضارة المصرية قد أصبحت مظهراً أجوف. فلم يعد هناك فرعون يمسك بالبلد عن طريق 'النظام والقانون الطبيعي الأخلاقي'، ويقوم بتقديم الأضاحي، إلا إذا تصادف قيام الإمبراطور الروماني بزيارة للبلد. وعند حلول القرن الثالث الميلادي كان حتى هذا التظاهر قد تم تركه.

(*) فيما عدا أداء كليوباطرة اللغوي المعروف بالبراعة والثقة بالنفس، لا يجد بيريمانز (1964) أي دليل على ثنائية اللغة في مصر البطالسة، بل يجد أدلة كثيرة على تمسك الإغريق وسكان مصر المحليين كل بلغته الخاصة. غير أن بعض مشاهير المصريين مثل مانيثو، كبير الكهنة ومؤرخ مصر باللغة اليونانية، قد وصلوا إلى مكانة عالية فيما بقي إلى النهاية طبقة عالية في التسلسل الهرمي ناطقة باليونانية. ولكن كثيراً من الوثائق العامة كانت ثنائية اللغة (وكان أشهرها حجر رشيد، ولكن منها أيضاً البلاغات والإشعارات القضائية المتصلة بالقضايا والدعاوى الخاصة) بحيث لا يمكن القول إن عامة السكان لم يكونوا ثنائيي اللغة. وينقل بيريمانز في كتابه نصاً عن رسالة مؤثرة: "لقد كنت سعيداً بالنسبة لك ولنفسي لمعرفة أنك تتعلم الكتابة باللغة المصرية، لأنك تستطيع الآن أن تأتي إلى المدينة، وتعلم أطفال فالو...طبيب الحقن الشرجية، وبذلك تحصل على وسيلة لكسب عيشك تعينك في شيخوختك"(ص57). ورغم ذكر الكتابة فإن من المفروض أن المعلّم الخصوصي المذكور هنا كان مستخدماً لتعليم اليونانية لأطفال الطبقة الوسطى المصرية، وليس العكس.

وكان النشاط النخبوي الوحيد الذي حافظ عليه المصريون هو الدين. وقدمت لغتهم صلة بين الكهنة وبين عامة الشعب. ومع ذلك، فبعد ثلاثة قرون من الحكم الروماني قدّر لهذه الصلة أن تضعف. كانت الجماعة المسيحية المحلية قد نمت في وجه الاضطهاد الروماني أولاً، وبعد ذلك عن طريق الدعم الرسمي، وأخذت بالمصرية بدلاً من اليونانية كلغة لها. وبهذه الطريقة قدمت بؤرة تركيز جديدة للولاء المصري، من نوع روحي. ولكن نمو هذه الجماعة تميز بنزعة نمونجية من عدم التسامح، وخاصة إزاء الدين القديم. فكيف كان بوسع المسيحيين أن يعرفوا أنهم بتدميرهم لذلك الدين القديم سوف يزيلون بالتشذيب أعمق الجذور التي ارتكزت عليها وتعززت هويتهم المنفصلة؟ فعند حلول القرن الرابع الميلادي، كانت مصر قد أصبحت بلداً مسيحياً يتكلم سكانه اللغة المصرية، ولكن إدارتهم وحياتهم الثقافية كانت تتم باللغة اليونانية. وكان لا يزال صحيحاً أن النشاط النخبوي الوحيد في مصر هو الدين، ولكنه كان عندئذ هو النسخة المحلية من الإيمان المسيحي.

وفي العام 641 م، عندما انتقلت السيطرة السياسية إلى الناطقين بالعربية، لم تعد هناك نسخة للأنشطة النخبوية باللغة اليونانية. وسرعان ما ذبلت هذه اللغة وأنشطتها، رغم أن بعض الاستخدام الرسمي لليونانية قد استمر بعد ذلك لمدة زادت على قرن. أما الدين فقد قدر له أن يخضع ببطء أكبر من ذلك بكثير. ولكن هذا لم يكن مجرد غزو سياسي آخر: فالإسلام، على عكس الإسكندر وأغسطس قيصر، كان يتطلع إلى كسب كل شيء. وعندما فعل تمت إزالة آخر دافع للاحتفاظ باللغة المصرية. فقد انتقل معتنقوه إلى مجتمع عقائدي إيماني آخر، ناطق بالعربية وعالمي. وتركت المصرية كلغة طقوس للذين صمّموا على التمسك بإيمانهم المسيحي، وهم أقلية راحت تتقلص بالتدريج.

وحتى عند إعادة النظر في الأمور بعد وقوع الأحداث، فإن من الصعب القول إن كانت المسيحية نعمة أم نقمة على اللغة المصرية. فقد قدمت بؤرة تركيز على الطقوس للمجتمع الناطق باللغة المصرية تحت الحكم الروماني العلماني، ولكنها كانت متصلبة في قطع صلات تلك اللغة بماضيها الوثني،

وقدمت هوية جديدة مركبة، هي هوية 'المسيحي المصري'، أو القبطي، لتحل محل الهوية القديمة. وقدر لهذه الهوية الجديدة أن تستمر عدة قرون، ولأقلية صغيرة حتى يومنا الراهن. ولكن الدافع اللاهوتي لطائفة مصرية منفصلة من المسيحية، التي كان يجري نشرها وتعزيزها كعقيدة إيمانية عالمية، كان معدوماً تماماً. وبالمثل، كانت اللغة المصرية أضعف عندما واجهت تحدي اعتناق المجتمع الناطق بالعربية: فأي أساس بقي للحفاظ على الهوية المصرية بعد أن تم نسيان آلهة أرض مصر وطقوسها منذ زمن طويل؟

وفي آخر الأمر لم تستطع اللغة المصرية أن تحافظ على نفسها عندما لم تعد لغة الأكثرية في بيئتها الوحيدة، وهي أرض مصر. فقد كانت تلك اللغة، مثل الديانة الفرعونية، رمزاً للهوية المصرية. وكان باستطاعتها البقاء في ظل حكومة تتكلم بلغة أجنبية، ما دامت ديانتها مستقرة بمصر. ولكنها لم تستطع البقاء في ظل حكومة أجنبية وديانة عالمية حقاً، لأن الناطقين بالمصرية لم يبق لهم شيء وطني كمرتكز لهويتهم. فمن الأفضل أن يصبحوا مسلمين عرباً، كبقية الناس جميعاً(*).

تحمّل الغزوات: فقدان الاستقرار في اللغة الصينية

'رسن ولجام'
'استخدِم البرابرة لمهاجمة البرابرة'
'استخدِم البرابرة للسيطرة على البرابرة'
'حوِّل البرابرة إلى صينيين'
'المصالحة والألفة الحميمة: اتحاد بالزواج'

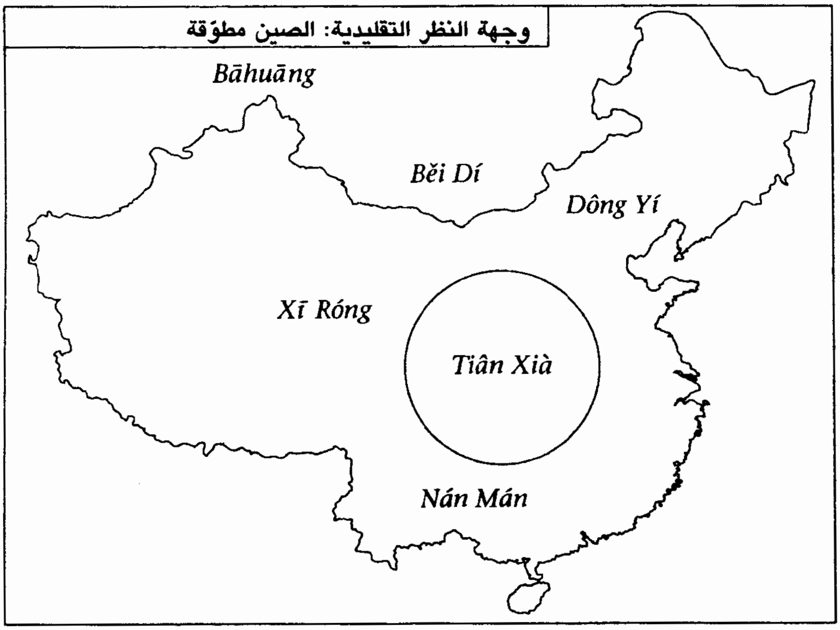
استراتيجيات صينية معترف بها لإدارة الحدود[37]

(*) [ملاحظة: يبدو أن أهم نقطة يتجنب المؤلف ذكرها هنا هي كيفية تنصير مصر. لقد فرضت عليها المسيحية بالقوة والعنف والعدوان في القرنين الرابع والخامس. وكان هناك سفك دماء على نطاق واسع، لعل أبرز ضحاياه الفيلسوفة اليونانية هيباشيا، ابنة عالم الرياضيات ثيون. فقد قاد أسقف الإسكندرية سيريل مظاهرة من الغوغاء قتلتها وقطعت جثتها إرباً ـ المترجم].

يمكن فهم الانحطاط الأخير للغة المصرية على أنه أثر طويل الأمد لفقدان الشعور بمركزها ذاته.

فبعد الغزو الروماني كانت مصر في أفضل الأحوال شيئاً غريباً على حافة عالم روما في حوض البحر الأبيض المتوسط، ولم تعد مسؤولة بنفسها عن مصيرها، بل أخذت تنظر بأمل إلى الغرب. وبعد ذلك بأربعة قرون، لم يكن هناك أي تأثير يذكر لتغير بؤرة التركيز من روما إلى بيزنطة، فقد تمت المحافظة على هوية مصر بواسطة إسهامها في العقيدة المسيحية الجديدة الآخذة بالنمو. وبعد ذلك بثلاثة قرون أخرى، تعرضت هويتها المنفصلة لصدمة أكبر مما تستطيع تحمله، وهي اندماجها في إمبراطورية غريبة مختلفة تماماً، وهي إمبراطورية كان مركزها إلى الشرق من مصر (في دمشق، ثم في بغداد بعد ذلك). ولأول مرة ولآخر مرة، أخذت اللغة المصرية بالانحطاط.

وكانت الصين ترى نفسها دائماً كمركز لعالمها، وتقليدياً باعتبارها "السماء في الأسفل"، محاطة من كل جانب بأناس أقل شأناً منها، ومتخلّفين عنها في الثقافة والأخلاق. وقد بدا أن الكلمة الحديثة للبلد: "جونغ - غوو"، أي 'المملكة الوسطى'، تصف ذلك كله. ولكن كانت هناك طريقة أخرى للإشارة إلى البلد ككل وهي: "سيهاي جيني"، أي 'ضمن البحار الأربعة'، وذلك بالعودة إلى أيام كونفوشيوس على الأقل. فقد كان الصينيون يرون أنفسهم بأنهم يعيشون في تسع قارات ضمن أربعة بحار. وكانوا يرون أن كل واحد من تلك البحار الأربعة هو مأوى شعب بربري هو ما يسمى "سييي". وكانت تلك البحار هي 'في الشرق يي، وفي الشمال "دي"، وفي الغرب "رونغ" وفي الشرق "مان"'. وهذه الفكرة التي تعتبر السهوب المحيطة بأرض الصين الداخلية بحاراً، برغم غرابتها لدى أي شخص ينظر إلى خارطة حديثة، كانت لها حقيقة مؤكدة عندما كانت تلك السهوب مأهولة ببدو رعاة يجوبون السهوب المعشبة ليفترسوا الفلاحين المستقرين الذين يعيشون حول الواحات، التي هي جزر في هذا المحيط. وفيما وراء البرابرة في وجهة النظر التقليدية إلى العالم كانت تقع "الباهوانْغْ"، أي 'مفاوز اليباب الثماني'، وهكذا كان من المفهوم أن الصينيين التقليديين لم يكن



وجهة النظر التقليدية: الصين مطوّقة

لديهم ما يغريهم بالاكتشاف أبعد إلى الخارج(*).

وضمن هذه الحلقة من الأعداء كان الصينيون يرون أنفسهم في مركزها،

(*) يختلف الصينيون عن معظم المجتمعات اللغوية المسيطرة الأخرى المبحوثة في هذا الكتاب بطريقة واحدة. فهم لم يجمعوا كل الناطقين بلغات أخرى تحت اسم سلبي واحد ينتقص من قدرها. فمصطلح 'البرابرة' الوحيد لا مهرب منه في الترجمة الإنكليزية. ولكن اللغة الصينية فيها كلمات كثيرة، وكلها ذات دلالات مختلفة من حيث المبدأ. فهناك في القاموس الذي ظهر في القرن الثالث قبل الميلاد مصطلح "إيريا"، أي 'أمثلة على الاستعمال المصقول'، ومصطلح "سيهاي" يعرف بانه: 'الـ 9 يي، والـ 8 دي، والـ 7 رونغ، والـ 6 مان' ("إيريا"، تحت كلمة *"sidi"* في ويلكنسون 2000، ص 710). وكان هناك مصطلح آخر هو "فان"، وهو منقسم من وجهة النظر الصينية إلى "شينغفان"، أي 'النيء' و"شوفان"، أي 'المطبوخ'، وذلك يعتمد على كون مستخدميه قد بدؤوا يستقرون ليعيشوا حياة متحضرة حسب الطرق الصينية. ولم يكن تعدد المعاني هذا يشير إلى أي تمييز خاص أو احترام للأجناس أو السلالات المتخلفة. ورغم أن الكلمات المختلفة كانت جزءاً من اللغة، فإنها كثيراً ما كانت تكنس معاً، مثل "رونغدي، ييدي" *Rongdi, Yedi*، أو تستخدم بلا تمييز. والحقيقة أن المصطلحات الشاملة ذات المقطع الواحد تستكمل بمصطلحات أدق لكل قبيلة معينة. وكثيراً ما كانت كتابتها كلها، كنوع من النكتة الصينية الخاصة، بحروف ذات طابع مهين، مثل كلمة nú أي 'العبد' في كلمة كسيونغنو، وwō، أي 'قزم' في كلمة wōgūo أي 'مملكة الأقزام' أي اليابان. ومع الخبث الحضري، فقد تصادف أن هذه الكلمة تلفظ في اليابانية مطابقة لكلمة و wa أي 'الانسجام'، وهو المصطلح الذي يفضله اليابانيون عندما يشيرون إلى أنفسهم.

مع مفهوم مشترك عن القيم المتحضّرة، وتطلع ثابت وملحّ لضم الجيران الراغبين إلى حظيرتهم.

وكانت هناك ثلاثة ملامح للوضع الصيني لم تُبقِ مجتمعهم الكبير مركزياً فقط، بل أبقته كذلك متحداً، اجتماعياً ولغوياً. فكان الملمح الأول "حقيقة" عن بيئتهم البشرية، وهو ملمح جاء حرفياً مع الإقليم الذي سكنوا فيه. وكان الملمح الثاني 'مؤسسة' اخترعها الصينيون بشكل متميز تماماً، فأثبتت أنها ثابتة بشكل رائع لافت للنظر. وكان الملمح الثالث هو "النتيجة المتناقضة" للغزوات البربرية عندما جاءت.

فكانت الحقيقة هي الفورة الدورية من البدو المغيرين المعادين من الناطقين بلغات مختلفة جذرياً عن الصينية، والذين يغزون الفلاحين الصينيين المستقرين. فكان لذلك تأثير موضوعي على اللغة، وتأثير ذاتي على وعي الصينيين. ومن الناحية اللغوية، فإن الفورات الدورية أبقت سكان الصين الشمالية متحركين، ومنعتهم من الاستقرار في مناطق لهجات متميزة، ولكن حتى عندما جوبه التهديد البربري مجابهة فعالة طيلة قرون في كل مرة، كما حدث في العصور الذهبية لحكم سلالتي هان وتانغ، فإن الوعي بوجود البرابرة عند البوابة ظل قائماً رغم ذلك، فكان من الطبيعي أن يسبب لدى السكان شعوراً أعظم بالوحدة. فالتهديد الخارجي بالغزو أبقى الصينيين مركّزين على ما لديهم من أشياء معرضة للخسارة؛ كما أن حالات الفشل الجزئي المتكررة في دفاعات المركز ضد هذا التهديد أبقت شمال الصين في حالة تدفق مائعة، وبذلك حافظت بشكل معاكس على تلاحم لغتها المحكية وتماسكها.

أما المؤسسة فكانت هي نظام الامتحانات العامة، الذي بقي مستمراً على مدى ثلاثة عشر قرناً، وكان النجاح فيها مفتاح حياة مهنية في الحكومة. وكان معنى ذلك أنه منذ فترة مبكرة جداً كان بوسع الصين أن تتفاخر بخدمة مدنية متشكلة رسمياً. وعندما كانت تعمل كان لها تأثير على النظام الاجتماعي شبيه بتأثير تدفقات الغزاة على النظام اللغوي. فكان التأثيران يميلان إلى تقليل المجموعات المحلية والتأكيد على ولاءاتٍ أعلى مستوى. فالخدمة المدنية التي

تعطى فيها أوسع سلطة لصاحب أعلى كفاءة تبني ولاءات للدولة، وتقلص الولاءات الشخصية التي تميل، عند ضعف الحكومة المركزية، إلى النمو وتمزيق البلد إلى قواعد قوى لقادة حربيين متنافسين. ولكن الخدمة المدنية كان لها تأثير آخر، مرتبط باللغة الصينية.

كان المنهج أدبياً بصورة كلية تقريباً، يشمل نظم شعر كلاسيكي فصيح (تم إدخاله تحت حكم الإمبراطورة وو (Wu) عند نهاية القرن الثامن)، و'المقالات ذات السيقان الثمانية' سيئة الصيت، التي كانت تستدرج بقوة تعبيراً واضحاً عن أفكار من نصوص كلاسيكية وتطبيقها على مشاكل معاصرة. وبهذه الصفة كانت نتيجتها الوحيدة تعزيز المستويات الوطنية للغة الكبرى التي ألّفت بها، أي "ونيان" اللغة الصينية الفصحى).

وبهذا المعنى فإن من الإنصاف أن نقول إن الدولة الصينية، خارج البلاط الإمبراطوري، كانت مؤلفة كمظهر سياسي للنخبة الأدبية الصينية. وقد لاحظ كاي كسيانغ، وهو نفسه نتاج لامع للنظام، بصورة سلبية في منتصف القرن الحادي عشر:

> في هذه الأيام، عند تعيين الناس، يمكن الملاحظة بأنهم يتقدمون بشكل رئيسي على أساس مهاراتهم الأدبية. فحملة أعلى المناصب أدباء، والذين يخدمون العرش أدباء، والذين يديرون الشؤون المالية أدباء، والقادة الرئيسيون لدفاعات الحدود أدباء، وجميع مفوضي المواصلات الإقليمية أدباء، وجميع الحكام في المقاطعات أدباء[38].

وكانت أوصاف نظام الامتحانات مليئة بتوضيحات تحذيرية عن المسافة الفاصلة بين نظرية إعطاء أعلى المناصب لأكفاء الناس وبين حقيقتها الأرستقراطية والبلوتوقراطية (أي إعطاء تلك المناصب للأثرياء). وما كان الأمر غير ذلك في مؤسسة دامت أكثر من ألفي عام، وكانت تهمل بين مدة وأخرى ثم يعاد تركيبها. ومع ذلك ومهما قد تكون غير مرضية في أحيان كثيرة للعدد الكبير من الأفراد اللامعين الذين عجزت عن تفضيلهم (وعلى سبيل المثال فقد

كانت النساء كلهن مستبعدات)، فإنها لم تكن أبداً مؤسسة مهملة أو غير فاعلة: بل كانت موجودة دائماً كوسيلة محتملة يمكن إحياؤها أو إصلاحها لتجلب موهبة جديدة إلى السلطة والنفوذ، وكانت محرضاً متأصلاً لرواسب المؤسسة الصينية الحاكمة، وحبّة رمل دائمة في محارة الحكومة.

ومثلما كان غزو الحشود الألطية يبقى سكان الصين الشمالية في حالة غليان واستعداد، كان نظام الامتحان، والتعيينات المبنية على أساسه، يبقي تركيبات السلطة مفتوحة. ولذلك فإنه قد عزز تلاحم الكيان السياسي ككل، بلغة مشتركة كانت مستوياتها بوضوح يحددها منهج الامتحان.

فكانت النتيجة المتناقضة أنه رغم عجز الصين في آخر الأمر عن كبح الضغط من البدو الرعاة المتعسكرين، واضطرارها إلى تسليم العرش للمغول وللمانشو، فقد بقيت الصين صينية. فقد كان الصراع مع البرابرة، في التحليل الأخير، نتيجته هي الخسارة ـ ومع ذلك لم تؤثر تلك الخسارة على مستقبل اللغة، ولا على الثقافة التي نقلتها. وبطريقة ما، أظهرت اللغة الصينية أنها تستطيع أن تسمو على أقسى اندحار أساسي وتتجاوزه.

ومن الناحية الاستراتيجية، فإن هذا يمكن وصفه ـ في المصطلحات الصينية كما يلي:

اسرقوا الدعائم، غيّروا الأعمدة(39).

إن هذا المبدأ الأساسي من "الخدع الحربية الستة والثلاثين" الصينية يشير إلى أسلوب تخدير الخصم تدريجياً بحيث يشعر بثقة زائفة، ويظن أن هياكله التي يعتمد عليها لا تزال سليمة رغم أنها في الحقيقة قد تقوضت وخانته. ومن الواضح أنه لكي يتحقق ذلك، يجب على الاستراتيجي أن يكون على علاقة وثيقة بتنظيم عدوه، وقد يكون كذلك فعلاً بعد أن يكون قد عانى من اندحار يبدو كاملاً وقَبِلَ الاستسلام لذلك العدو. وفي حالة المغول (الذين لم يقبلوا الاستخدام الجاد لنظام الامتحان، وهكذا صاروا عرضة لنمو زعامات محلية) ثبت أن من الممكن في غضون قرن من الزمن بناء قواعد قوة إقليمية كافية للإطاحة بالحكومة

المركزية(*). أما في حالة المانشو، فقد كان الأمر أصعب، إذ إنهم كانوا واعين بقلة أعدادهم، فاستخدموا المؤسسات الصينية استخداماً فعالاً، مثل نظام الامتحان، لتجنيد كوادر موظفين موالين لهم. وركزوا أنفسهم في المناصب العسكرية أيضاً. ورغم ذلك، ونظراً لأنهم لم يكونوا يشكلون سوى اثنين بالمئة من السكان، فقد ثبت أن من المستحيل عليهم أن يعيشوا مع الصينيين دون أن يمتصهم الصينيون. فقد منعهم القانون من التزاوج مع الصينيين أو الأخذ بالعادات الصينية، ولكن دون جدوى. وأرغموا قسراً على التعلم بلغة المانشو، ولكن دون جدوى، رغم أن تلك اللغة بقيت في أوراق الحكومة حتى سقوط سلالة المانشو في العام 1911: ومع ذلك، ففي غضون قرن ونصف من نجاح غزوهم للصين، كان جميع المتحدرين من أجداد من المانشو يتكلمون اللغة الصينية[40].

وهذا يقودنا كذلك إلى الاستجابة الصينية الحالية للتحدي من العالم الغربي. فمن الغريب أن الصين تعود مرة أخرى إلى تبني هذه الاستراتيجية التقليدية، وهذا أمر له دلالته الكاشفة.

فبعد تجربتها الجارحة المؤلمة على أيدي القوى الغربية في القرن التاسع عشر، ألغت الصين نظام الامتحان في العام 1905، وألغت الملكية الإمبراطورية نفسها في العام 1911. وساد جوّ لمحاولة تحديث البلد على الطراز الأوروبي. بل كان من بين المقترحات التي تم بحثها اقتراح بإلغاء اللغة الصينية نفسها لصالح لغة الإسبرانتو المصطنعة التي ستصبح دولية، والتي ابتكرها بولندي وشكّلها من جذور كلمات أوروبية مشتركة في أواخر القرن التاسع عشر، وشاعت لها شعبية رائجة آنذاك. وفي آخر الأمر أثناء عشرينيات القرن العشرين وثلاثينياته، أعيد تحديد الشكل الرسمي للغة الصينية: ففي مكان لهجة "الونيان"، التي تعود إلى القرن الخامس ق.م. جاءت لهجة "بيهاو"، أي 'كلام البيض'، وهو الشكل العامي الدارج للهجة الماندرين كما هي محكية في بيجينغ. وهي تكتب بالحروف، وتمثل

(*) [ملاحظة: ويمكن أن نضيف في هذا الصدد بأن هؤلاء المغول أنفسهم بعد أن أسقطوا الدولة العباسية ودمّر هولاكو بغداد في العام 1258م، اعتنقوا الإسلام في غضون عشرين عاماً فقط، في العام 1278م، ثم أسسوا إمبراطورية إسلامية في الهند عاشت أكثر من أربعة قرون ـ المترجم].

القواعد النحوية للغة العامية ومعجمها، ولكنها بالطبع محايدة في اللفظ الفعلي. ولم تكن تلك صدمة كبيرة أكثر من اللازم، ما دامت اللهجة دارجة، بل ومستخدمة في الأدب الشعبي(*) منذ منتصف الألف الميلادي الأول على الأقل، ولكن لم يكن أحد في السابق يشعر أنها لغة القضايا الجدية(**).

إن الصين تمر الآن بفترة من التطور الاقتصادي السريع للغاية، وقد تبنت الطرق الغربية عن وعي. وبمعنىً ما، فإن هذه هي الثورة الثالثة المستلهمة من الغرب خلال قرن منذ تأسيس الجمهورية في العام 1911، فالثورة الشيوعية في العام 1949، والشروع في الإصلاحات الرأسمالية بعد وفاة ماو كانت كلها تطبيقات لأفكار غربية. وكل هذا في بلد لم يأخذ في الداخل بأي فكرة غربية كبرى منذ أخذه بالبوذية الواسعة الانتشار في القرنين السادس والسابع الميلاديين. وإذا نجحت الصين في تبنّي هذه الأفكار والتكيّف معها حسب مصالحها الخاصة الطويلة الأمد، فإنها ستكون قد قلبت انتصار خصمها الحاسم في الظاهر إلى انتصار لها على المدى الأبعد. إنها دعامات وأعمدة جديدة حقاً.

ولكن إذا عدنا ثانية إلى مقارنتنا مع الحالة المصرية، فإن مستقبل اللغة الصينية على المدى البعيد قد يكون معلقاً في الميزان. فالسمة المشتركة التي وجدناها، والتي تفسر استمرار بقاء اللغتين المصرية والصينية على امتداد عدة آلاف من السنين، هي الحفاظ على مركز متميز للهوية والولاء ضمن المجتمع اللغوي.

(*) لقد كتبت بهذه اللهجة من اللغة الصينية كل القصص المشهورة فيما بين القرنين السادس عشر والثامن عشر، ولا سيما قصة "هونغلومنغ" 'حلم الغرفة الحمراء' من تأليف كاو كسوقين، و"سانغوجي يانيو" 'قصة الممالك الثلاث' من تأليف لو غوانجونغ، و"إكسيوجي" 'رحلة إلى الغرب'، من تأليف ووتشنغ- إنْ.

(**) كان هناك أيضاً عدد من المحاولات لإحلال الحروف الرومانية محل الحروف الصينية، ولكن مع الاعتراف بصعوبة العثور على نظام يمكنه أن يكون محايداً فيما يتعلق باللهجات المختلفة، فلم تنجح أي محاولة منها في أن تصبح أي شيء أكثر من مجرد مساعدة للمتعلمين والأجانب. وإن حروف بِنْيِنْ pinyin الرومانية المستخدمة في هذا الكتاب تمثل لهجة الماندارين الفصحى الموحدة، وهي الآن على وشك أن تصبح مقياساً دولياً. وقد تم تطويرها بمساعدة باحثين روس، وتم طبعها ونشرها رسمياً في العام 1957.

فاللغة المصرية فقدت تدريجياً جوانب من مركزها التاريخي، أولاً في شكل ملكيتها، ثم في استقلالها السياسي، ثم في ديانتها الوطنية الخاصة بها، وأخيراً في مسيحيتها بشكلها الوطني، وراحت تضعف باطراد مستمر عبر العصور، فأصبحت الآن، كلغة تتلى في الطقوس الدينية فقط، قريبة من الاختفاء كلياً. فإذا كان القياس صحيحاً، فإن اللغة الصينية، رغم وجود مليار من الناطقين بها، قد تعتبر نفسها أنها دخلت الآن في ممر خطر. فمن أجل التعامل مع التحدي من العالم الحديث المستلهم من أوروبا، تخلت هذه اللغة عن العلاقة مع نظامها الملكي الذي كان مثالاً حددت بموجبه هويتها طيلة أكثر من ألفي عام. ولم تتخلَّ عن استقلالها السياسي، ولكنها تخلت عن ديانتها الخاصة، رسمياً على الأقل: فمنذ سقوط الملكية لم تعد الصين تحافظ بشكل فعال على قيمة الأفكار الكونفوشيوسية ـ كما أن محافظتها على الأفكار الطاوية أقل حتى من ذلك.

إن استقلال الصين السياسي قد ينقذ لغتها من الانزلاق إلى الدرك الذي تعرضت له اللغة المصرية. فحتى تحت الحكم الأجنبي، أظهرت الصينية أن فيها مرونة تمكّنها من النهوض، ومن الامتصاص أكثر بكثير مما كانت عليه اللغة المصرية في سنواتها الألفين الماضية. فقد كان لدى الصينية ميزة لم تمتلكها اللغة المصرية أبداً، وهي ليست فقط ميزة الكثافة العالية، بل كذلك حجم السكان الواسع المطلق. ففي نموذج اللغة الصينية المكتوب، ليس هناك شيء في تاريخها يشبه فقدان اللغة المصرية لنظام كتابتها الأهلي البلدي وأخذها بالحروف الإغريقية، رغم أن الأخذ بالحروف الرومانية قد يأتي في وقت لاحق.

والخلاصة أن حالات التراجع الثقافي التي حددنا أنها أدت إلى هلاك اللغة المصرية لها نظائر شبيهة بها في تاريخ الصينية الحديث، باستثناء الغزو السياسي. وربما كانت النذر واضحة من الآن ضد اللغة التي يتكلمها اليوم خُمْس سكان المعمورة من البشر.

5

شيء جذّاب كنبات معترش: المستقبل الثقافي للسنسكريتية

भाषा प्रशस्ता सुमनो लतेव
केषाम्न चेतांस्यावर्जयति।

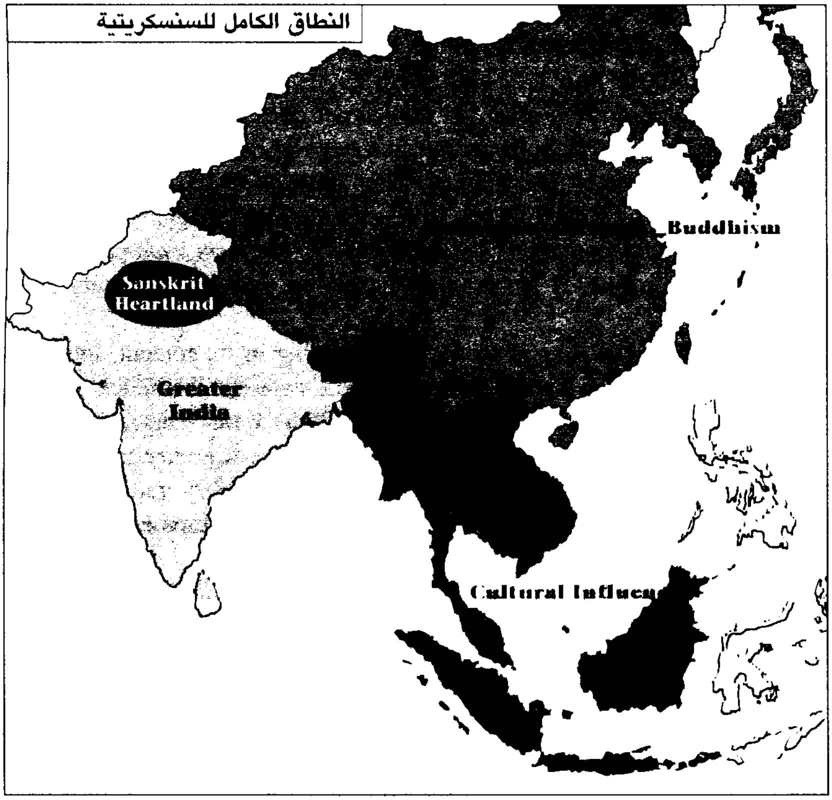
bhāṣā praśastā sumano lateva
keṣām na cetāṃsy āvarjayati

اللغة، سعيدة، فاتنة، كنبتة معترشة، فما هي العقول التي لا تكسبها؟(*)
(سوكتا ـ حكمة تقليدية)

القصة باختصار

هناك صورة ثابتة بإصرار للسنسكريتية، كنبتة تعريش زاحفة، خصبة مترفة، ومتفتحة الأزهار بشكل تام. فعلى مدى ألفي عام نشرت نفسها حول المراكز السكانية الآسيوية، من شمال شبه القارة الهندية إلى جنوبيها، ومن هناك إلى جنوب شرقي آسيا وجزر الهند الشرقية، إلى هضبة التيبت وإلى الشرق الأقصى.

(*) في الحروف الرومانية المستخدمة لكتابة السنسكريتية، فإن الحرف c يلفظ تْشْ كما في كلمة *church* الإنكليزية، وحرف الجيم J كما في كلمة *judge* الإنكليزية. ووضع نقطة تحت الحرف t أو d أو n يعني أنها يجب أن تلفظ بإرجاع اللسان إلى الوراء في انثناء خلفي. والنقطة تحت الحرف h معناها أنه متبوع بصدى حرف العلة السابق... والنقطة تحت حرف r أو حرف l معناها أنه يلفظ مستقلاً، كما في كلمتي *bitter* و*little* ملفوظتين باللهجة الإنكليزية الأمريكية. والنقطة تحت حرف الميم m معناها أنه يلفظ مع إخراج حرف العلة السابق له من الأنف كما في كلمة *aham*، وحرف الـ l يشبه اللفظة الأمريكية uhuh؟ وكل حروف الوقف الحلقية الصحيحة (k,g,c,j,t,d,p,b) يمكن لفظها بملء النفس كحرف الهاء h وهذا موضح بجعل حرف h يتبعها. وهناك ثلاثة أحرف صافرة هي الشين ś والسين ṣ والصاد s، والأولان منها قريبان من صوت *sh* الإنكليزي كما في كلمتي *sheet* و*push* على التوالي.



وكلمة سنسكريت (سمسكرتا) معناها 'المؤلَّفة' أو 'المركَّبة'. إنه اصطلاح عن اللغة كما هي مصاغة في كتب القواعد النحوية، بعكس اللهجات العامية الدارجة المعروفة باسم براكريتس (براكرتا)، أي 'الطبيعية'. وهو اصطلاح يميزها عن الشكل القديم، الذي يسمى أحياناً 'الفيدي' المأخوذ من استخدامه في "الفيدا"، وهي ترانيم للآلهة يظهر أنها تعود إلى أقدم أيام اللغة كما هي محكية في الهند، في القرون الأخيرة من الألف الثاني قبل الميلاد، ولكنها لا تزال ترتل بلا تغيير في الطقوس الهندية اليوم. ومعظم اللغات الحديثة في الهند الشمالية والوسطى متحدرة من السنسكريتية، وهي نسخ مطورة من البراكريتية، تشبه كثيراً اللغات الرومانسية المتطورة من أشكال عامية من اللاتينية. ولكن السنسكريتية خارج شبه القارة الهندية لم يؤخذ بها أبداً كلغة شعبية؛ فبقيت

مجرد وسيلة اتصال بين المثقفين المتعلمين، وتعبير مقدّس هو أقوى ما يكون حيث يكون الدين السائد قادماً من الهند.

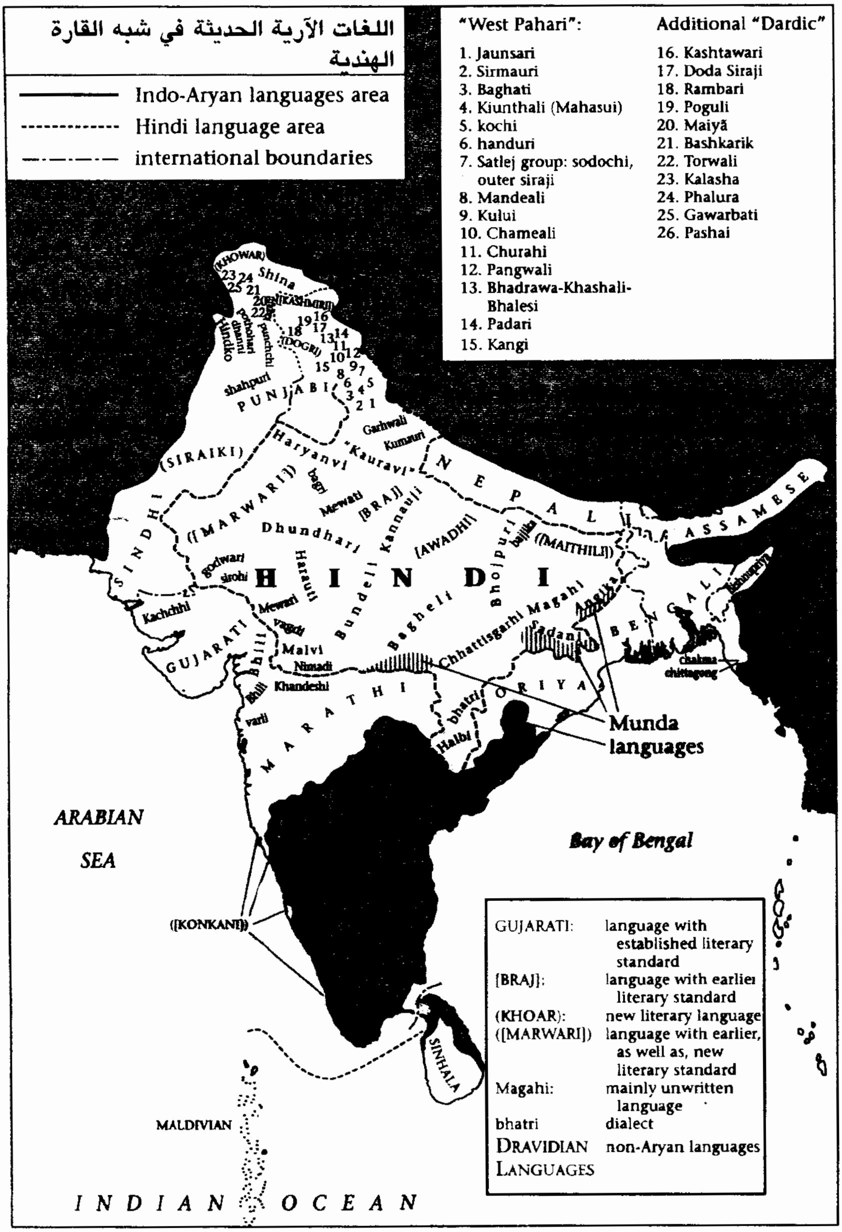
ورغم أن التقليد الديني هو الذي أثبت أنه أفضل ما يعوّل عليه لحفظ السنسكريتية في كثير من "الآفاتارا" (أي الأشياء 'المنزّلة'، مثل كائن إلهي من السماء)، ورغم الارتباط الثقيل للغة في الغرب اليوم بالنزعة الروحية المتسامية، فإن السنسكريتية لم تكن أبداً مجرد لغة طقوسية.

فحتى المجموعة الفيدية الكاملة تحتوي على استحضار مرح، ومع ذلك فإنه ساخر "للماندوكاه"[1]، أي 'ضفادع'، بما يشبه بشكل مضاعف طبقة الكهنوت البراهمانية: فهم يحلفون يميناً بالتزام الصمت لمدة عام (حتى موسم المطر). وحتى عندما يشرعون في الكلام فإن 'كل واحد منهم يعيد حديث الآخر، مثلما يعيد المتعلم كلام معلمه'. وذلك يجلب لنا الإشفاق على الذات بطريقة ساخرة عند المقامر المدمن[2] الذي تستعبده حبّات الجوز البنية اللون التي كانت آنئذٍ تستخدم كنرد . "فحتى الملك ينحني أمامها"، ويتابع معتذراً، وأنا أريه يدي الفارغتين: "أنا لا أخفي عنك شيئاً - فهذه هي الحقيقة، كما أقول لك".

وفيما بعد صارت السنسكريتية واسعة الانتشار جداً في قارتها فشملت أعمالها المعروفة على أوسع نطاق ملهاةً خياليةً رومانطقية، ولغوياتٍ نظريةً، واقتصاداً، وشيئاً من الجنس (ولا سيّما "كاما سوترا")، وأشعاراً غنائية، وتاريخاً، وخرافات أخلاقية، إلى جانب إنتاج مستمر من شعر الملاحم، وكراسات دينية وفلسفية. وهو تقليد أدبي شديد الوعي بالنفس، ومليء بالإشارات المثقفة، وقبل كل شيء أعقد تطوير مصقول للتورية معروف في أي مكان على وجه الأرض.

ونبدأ بتخطيط بياني لكيفية نشر السنسكريتية عبر آسيا.

كانت لهجة هندية - فارسية قد سُمعت أولاً في منطقة سوات الحدودية الشمالية الغربية وشمالي البنجاب (في باكستان الآن) يحكيها أناس من الواضح



أنهم جاؤوا من الشمال أو من الغرب، ويحبون أن يطلقوا على أنفسهم لقب "آريا" (وهي كلمة عامة صارت فيما بعد تعني ’السيد النبيل‘، وكلمة البوذيين

المفضلة دائماً والتي تعني نبل الروح المحض). وبطريقة ما، انتشر المتحدّرون منهم، بل وانتشرت لغتهم أكثر عبر سهل الإندوغانج الشاسع، وكذلك عبر التخوم الجنوبية لجبال الهملايا (بيت الثلج). وهكذا فعند بداية القرن الخامس قبل الميلاد، كانت اللغة محكية في منطقة تمتد شرقاً حتى بيهار، وجنوباً ربما حتى النارمادا. والأدب السنسكريتي من هذه الفترة، وبصورة رئيسية الملحمة الشعرية "مهابهاراتا"، أي 'بهاراتا العظيم'، و"الرامايانا"، أي 'مجيء راما'، مليء بالمنجزات العسكرية والغزوات.

والنتيجة هي الوضع الحالي في يومنا هذا: أرض داخلية هندية شمالية، تمتد من البحر إلى البحر، من لغات تتصل بطريقة أقرب أو أبعد بالسنسكريتية. وهذا المركز معروف في الهند دائماً باسم "آريافارتا"، أي (موطن الآريين). كما كسبت السنسكريتية، فرعاً ممتداً في سريلانكا في الجنوب البعيد، بإيجاد مجتمع "سيمهالا"، أي 'الأسود' هناك: فحسب التقاليد، جاءت هذه الجماعة من غوجارات، على الساحل الشمالي الغربي، في القرن الخامس ق.م. ويستمر تقدم اللغة الآرية إلى هذا اليوم في المناطق الشمالية، في آسام ونيبال، حيث اللغتان الرسميتان (الآسامية، والنيبالية أو الغوركالية) هما آريتان، ولكنهما لم تصبحا بعد اللغتين العاميتين الدارجتين لأغلبيات كبيرة من السكان.

ولم يكن كل انتشار السنسكريتية عن طريق الأخذ الكامل بها كلغة دارجة. وعندما صمدت اللغات الموجودة قبلها في مواقعها، مثل لغات تيلوغو، وكانادا، والتاميل، فقد تخللتها في العادة مصطلحات من السنسكريتية. ومن الممكن تماماً لهذه الكلمات المستعارة (المسماة "تات ـ ساما"، أي 'تلك بنفسها') أن تكون كثيرة بصورة ساحقة في لغات قواعدها النحوية غير آرية. وعلى عكس ذلك، ففي الأوردو، وحتى الهندي، وهما لغتا الأغلبية في الهند الشمالية، فإن الجذور الآرية ربما تكون خفية تحت التأثير القوي لاستعارات لاحقة من الفارسية والعربية (وقد كانت هذه الاستعارة الواسعة الانتشار التي اجتلبتها الثقافة نقمةً على الدراسات اللغوية التاريخية الهندية لأنها شكلت أكبر صعوبة لعملية غربلة الجزء الموروث من اللغات لفصله عن الاستعارات الأجنبية، من أجل تجميع تاريخ هذه اللغات).

ولم تتوقف عملية تعميم السنسكريتية عند حدود شبه القارة. فعلى مسار الألف الميلادي الأول، هبط التجار البحريون أو المبشرون الهنود على بر الأرض اليابسة، ليس في سريلانكا فحسب، بل كذلك في أماكن كثيرة على طول سواحل جنوب شرقي آسيا. فانتشرت السنسكريتية هناك قبل كل شيء كلغة للنخبة الحضارية والدينية (سواء أكانت هندية أم بوذية)، ولكن التأثير كان عميقاً، وكذلك دراسة السنسكريتية باعتبارها أداة لحضارة عليا. فالمنطقة معروفة باسم الهند الصينية، وهي تسمية صحيحة تماماً، لأنها صارت بوتقة للتأثيرات الثقافية الهندية والصينية المتنافسة.

ولكن عندمت أخذت السنسكريتية طريقها نحو الشمال، حول جبال الهملايا إلى التيبت، والصين، وكوريا، واليابان، فإن جاذبية التعاليم البوذية قبل كل شيء كانت هي التي سبّبت انتشار اللغة. وقد عاش بوذا في القرن الخامس قبل الميلاد، في الوادي الأسفل لنهر الغانج، ناطقاً بلغة براكريت تعرف باسم ماغادي. وفي القرنين التاليين، انتشرت العقيدة التي أسسها في جميع أنحاء الهند وسريلانكا، وكذلك في داخل بورما، وكتبت نصوصها إلى حد كبير بلغةٍ وثيقة الصلة بالبراكريت، وهي لغة بالي، ولكنها كتبت أيضاً بالسنسكريتية الكلاسكية بشكل متزايد أكثر فأكثر مع مرور الزمن، وإلى جانب الانتشار في جنوب شرقي آسيا، كان أكثر الطرق تأثيراً هو الطريق الذي سلكته البوذية إلى كشمير ثم رجوعاً إلى موطن السنسكريتية نفسها في البنجاب وسوات.

ومن هنا، فإن البوذية، مع نصوصها الدينية المرافقة لها، راحت تنتشر إلى الشمال في القرن الأول الميلادي. ولعلها راحت تتحرك مرة أخرى ببطء ومشقة على الطريق التاريخي الذي كان قد استخدمه الناطقون بالسنسكريتية لدخول الهند قبل ذلك بأكثر من ألف عام. ولكن بعد عبور باكتريا فإن البوذية بدلاً من الاتجاه يساراً إلى داخل سهوب آسيا الوسطى، استدارت إلى اليمين، والتقطت طريق الحرير متجهة إلى داخل الصين. فاستقبلتها سلالة تانغ الناشئة وراحت تنشرها في آخر الأمر، فأخذت البوذية تتمدد وتتسع متعايشة مع الثقافة الصينية، ومن ثم انتقلت، ومعها نصوصها باللغتين السنسكريتية والبالية، إلى

كوريا واليابان، كموطنين لها في أقاصي الشرق، فوصلت عند نهاية القرن السادس الميلادي.

أما المناطق الأخرى الأقرب فقد استغرقت وقتاً أطول حتى تلقت هذا المذهب الذي حملته إليها ـ كما هو المعتاد على الدوام ـ الأداتان اللغويتان البالية والسنسكريتية، فكانت نيبال جزءاً من الانتشار الهندي المبكر للبوذية تحت حكم آسوكا، في القرن الثالث قبل الميلاد. ولكن أول راهب هندي دعي إلى التيبت، وهو سانتاراكسيتا، جاء في النصف الثاني من القرن الثامن الميلادي، أي بعد ألف ومئتي عام كاملة من معيشة بوذا على بعد مئتي ميل فقط إلى الجنوب (عبر الهملايا) في ماغادها، ولم تترسخ البوذية بثبات في التيبت إلا في القرن الحادي عشر الميلادي.

وكانت آخر منطقة تتعرض للبوذية (وبالتالي للسنسكريتية المقدسة) على نطاق واسع هي منغوليا، آخر موطن لها في أقصى الشمال. فطيلة قرون عديدة كانت هناك صلات قوية بين التيبتيين والمغول، الذين حققوا هيمنة على الصين من العام 1280 إلى العام 1368م. وعلى سبيل المثال فإن قبلاي خان، إمبراطور الصين المغولي المعروف في الغرب باعتباره مضيف الرحّالة الإيطالي ماركو بولو، كان حريصاً على نشر البوذية إلى موطنه المغولي في أوائل القرن الرابع عشر. ولكن هذا الهدف لم يتحقق بشكل دائم إلا بعد ذلك بوقت طويل على أيدي مبشّرين صينيين: ففي العام 1578 تقبل حاكم منغوليا ألطاي خان نسخة من التقليد البوذي التيبتي، نيابة عن مملكته بكاملها.

فللسنسكريتية إذن تاريخ مترامي الأطراف. فقد كانت على اتصال بثقافات تدار بلغات أخرى في جميع أنحاء آسيا الجنوبية والشرقية والوسطى. ويبرز تعميم مثير للاهتمام. وهو أن هذا الاتصال اللغوي لم يؤدِ إلى فقدان أو تبديل لتقليد لغوي في أي مكان، رغم أن السنسكريتية كانت دائماً مركزية في التطورات الثقافية الجديدة حيثما وصلت. وهذا سجل يقدم نقيضاً مدهشاً للتأثير المدمّر في الغالب الأعم من لغات الحضارات ذات الحملات الواسعة النطاق، مثل الإغريقية، واللاتينية، والعربية، والإسبانية، والفرنسية، والإنكليزية.

ولكن بطريقة أخرى، فإن هذا الاعتناق الواسع النطاق للثقافة الهندية يذكرنا كثيراً بالحماسة للأشياء الأمريكية الذي أَسَرَ العالم بكامله، وسيطر بالتأكيد على منطقة جنوب شرقي آسيا، في النصف الثاني من القرن العشرين. ففي ذلك التقدم المندفع أيضاً كانت الحوافز الأساسية الأولى هي تنامي الأرباح عن طريق التجارة، والشعور بأن ثقافة الترابط العالمي وحرية التجارة التي جاءت مع الأجانب كانت سترفع مستوى المعيشة لكل الذين يأخذون بها. وكما حدث في تقدم نزعة تعميم تقليد الهند في الزمن القديم، فلم يكن هناك أي استخدام يذكر للقوة العسكرية لتعزيز تقدم انتشار مايكروسوفت، أو مايكل جاكسون، أو ميكي ماوس. فلم يكن هناك أي شعور بأن هذا التقدم قد خططت له أو نسقته قوى سياسية في مركز الابتكار سواء في الهند في ذلك الزمان أم في الولايات المتحدة الأمريكية اليوم. والتأثيرات اللغوية متشابهة أيضاً: فالإنكليزية، مثل السنسكريتية، تقدمت كلغة مشتركة للتجارة، والأعمال التجارية الدولية، وتعزيز الانتشار الثقافي.

ومن الفوارق الكبرى غياب أي عنصر ديني في الحركة الأمريكية. فليس فيها أي شيء موضوع في مواجهة طقوس الآلهة الهندية، أو حقائق بوذا النبيلة الأربع، أو الطريق النبيل ذي الشُعَب الثماني. وقد تكون لهذا أهمية بالنسبة لمستقبل اللغة الإنكليزية، ما دمنا سنرى بأن الدين وحده، سواء أكان هندياً أم بوذياً، هو الذي قدر له في آخر الأمر أن يحافظ على دور السنسكريتية في خارج الهند. ولكن مع هذا التوضيح التحذيري، يبدو أن المقارنة ستكون مفيدة أكثر منها مضلّلة بين تصاعد المدين الفائضين - مد الثقافة الهندية في أوائل الألف الميلادي الأول، ومد الثقافة الأمريكية عند نهاية الألف الثاني.

إن القسم الباقي من هذا الفصل ينظر بتعمّق أكثر في نوعية اللغة السنسكريتية، وكيف تم تلقيها بهذا الحماس عبر آسيا الجنوبية والشرقية.

شخصية اللغة السنسكريتية

حقاً لقد تركت نباتات الغابة المعترشة عرائش الحدائق متخلّفة وراءها في الفضائل

كاليداسا، التعرف إلى شاكنتالا، 17:1

الصفات الجوهرية

إن الثقافة الهندية فريدة من نوعها في العالم في إعرابها القوي للغتها الخاصة بها، التي جعلتها أيضاً هي النظام المركزي الضابط لثقافتها. فالكلمة السنسكريتية التي تعني 'قواعد النحو' هي "فياكارانا". وبدلاً من أن تكون مبنية على كلمة "الكلمة" أو "الكتابة"، مثل كلمة "غراماتيك" اليونانية، فإنها تعني "الإعراب" فقط: وهكذا فإن اللغة هي موضوع الإعراب بامتياز.

إن باتانجالي، العالم النحوي البارز في القرن الثاني ق.م. قد كتب في بداية كتابه المعنون "مهابهاسيا"، أي (التعليق العظيم)، أن هناك خمسة أسباب لدراسة النحو: هي الحفاظ على الفيدا [كتب الهندوس الدينية الأربعة]، والقدرة على تحوير الصياغات من الفيدا لتناسب وضعاً جديداً، وتحقيق الالتزام الديني، وتعلم اللغة بالسهولة المستطاعة، وحل الشكوك في تفسير النصوص[(3)]. وهكذا فإنه من الواضح أنه حتى في هذه المرحلة، أي بعد ألف عام كاملة من تأليف كتب الفيدا، عندما كانت اللغة قد تغيرت كثيراً، كان توسيع استعمال اللغة لأغراض دينية لا يزال يعتبر هو النقطة المركزية في النحو.

وقد ظلت الاستعمالات الدينية موجودة دائماً بشكل كبير في طابع شخصية اللغة السنسكريتية في العالم. فالطقوس الهندوسية كانت ترتل بهذه اللغة على مدى فترة استمرت متواصلة ثلاثة آلاف وخمسمئة عام، لعلها عمر أقدم الترانيم في فيدا ريغ Rig. والآلهة الذين اختيروا ليكونوا بؤرة تركيز العبادة تغيروا عبر آلاف السنين من آغني، (أي 'النار')، وسافيتري، (أي 'الشمس') وفارونا ورودرا في كتب الفيدا إلى سيفا، وكريشنا، وغانيشا وكالي (وآخرين

كثيرين) اليوم، ولكن بعض الآلهة لا يزالون معنا (وخاصة فيشنو)، بينما لم يحدث في اللغة تغيير يذكر. والحقيقة أن فيدا Rig فيه ترنيمة واحدة هي استحضار ڤاك، أي 'الكلام' نفسه. وههنا اثنان من أشعاره:

[1]
عندما قام سيد العالم الحكيم بتأسيس
مبدأ اللغة الأول الذي يعطي الأسماء
فإن ما هو ممتاز فيها، وما هو نقي،
كامن في أعماق داخلها، خرج إلى الضوء من خلال المحبة.

[4]
كثير من الناس المبصرين لا يرون الكلمة
وكثير من الناس السامعين لا يسمعونها
ومع ذلك فإنها تكشف نفسها لآخرين، مثل
عروس متألقة تستسلم لزوجها.

تكشف الكلمات الأخيرة امتزاجاً للصور الجنسية والصوفية الموجودة كثيراً في السنسكريتية؛ ولكنها تبين أيضاً أن مهارات اللغوي قد تم إدراكها في وقت مبكر. وهذا مثير للاهتمام على وجهٍ الخصوص لكون علم النحو كما تطور لم يكن بالدرجة الأولى إعراباً للغة الدينية في كتب الفيدا، بل كان إعراباً للهجة مختلفة أبسط منها قليلاً، ولذلك يفترض أنها جاءت فيما بعد، في وقت لاحق. وإن "بانيني" العميد الأصيل لعلم النحو السنسكريتي في القرن الخامس ق.م.، قد اضطر لوضع قواعد إضافية لتوليد الصيغ المستعملة في كتب الفيدا (والمسماة "تشاندا") من قاعدة في السنسكريتية العادية (توصف باسم "بهاسا" - أي 'لغة الكلام') (ولعل بانيني قد عاش في المجتمع العلمي الأكاديمي في "تاكصاشيلا"، المعروفة عند الإغريق باسم تاكسيلا، قرب روالبندي الحديثة، في أقصى الشمال الشرقي من شبه القارّة، وهي الآن جزء من باكستان).

وعلاوة على ذلك، فإن علم النحو الذي حدده التقليد كان نظاماً واسعاً من القواعد المجردة، مكوناً من مجموعة من المبادئ الأساسية والحكم السائرة المليئة بزبدة المعاني الجوهرية (المسماة "سوترا"، ومعناها الحرفي هو

'الخيوط') المكتوبة برطانة مصطنعة. وهذه الخيوط لا يشبهها شيء أكثر من القواعد في علم نحو محوسب للغة حديثة، كالذي يمكن استخدامه في نظام ترجمة آلية: فبدون أي عنصر صوفي أو طقوسي، فإنها تطبق حسب المبادئ الرسمية المجردة(*).

وقد أصبحت الصياغة في الخيوط من الملامح الأساسية في النصوص الأكاديمية السنسكريتية، ولكن باستخدام الحكم والأمثال في السنسكريتية

(*) ليس هذا مجازاً، ولا مفارقة تاريخية في تفسير قواعد النحو السنسكريتي في الزمن غير الصحيح، ولكنه وصف مباشر بسيط لعمل الخيوط في نظام بانيني. تأمل تطبيق خيط واحد:

إيكو يان آسي iko yan aci

فالكلمات الثلاث التي تكوّن الخيط ليست كلمات من السنسكريتية نفسها، بل من لغة ماورائية مصطنعة تشير بإيجاز جامع إلى خيوط أخرى من النحو. ومع ذلك فإنها تعامل وكأنها أسماء من جذور حروف صحيحة، مع النهاية المنتظمة الدالة على الجنس (as-) وحالة الرفع (النهاية العارية) والظرف المكاني (i-). (وهناك تعقيد بسيط، في كون النهاية في الحالتين هي جزء ظاهر الصوت في النطق، فالنهاية as- تتحقق بلفظها على شكل o-. وهذا مبدأ منتظم للوصل والربط في السنسكريتية، وهو نفسه جزء شديد التعقيد من النحو). وهكذا فإن الخيط يمكن إعرابه وظيفياً كما يلي:

[ik] دالة على الجنس [yan] في حالة الرفع [ac] الظرف المكاني

وفي سياق الخيط (سوترا) فإن هذه الحالات الإعرابية لها تفسير خاص، يشير على التوالي إلى المدخل، والمخرج، وسياق اليد اليمنى من قاعدة صوتية كلامية. ولذلك فإن الخيط يجب فهمه كما يلي:

[ik] → [yan]/_[ac]

ولكن ما هو مرجع إشارة الكلمات الغريبة نفسها؟ ينبغي فهمها على أنها تطبيقات لمجموعة أخرى من الخيوط (المعروفة باسم خيوط سيفا) وهي مجموعة تلعب دور نظام لتحديد طبقات الصوت الطبيعية في السنسكريتية. وهو يبدأ كما يلي

a i u N; r l k; e o N; āi āu ā C; h y w r T; l N ...

وليس هناك تمييز بين الحالة الإعرابية العليا أو الدنيا في السنسكريتية وليست فيها فواصل منقوطة، ولكن استخدام تنضيدات الطباعة الرومانية المناسبة هو لإظهار ما يتعلمه دارس النحو البانيني عن طريق الأمثلة، وهو أن الحروف المكتوبة هنا بالبنط الكبير الأعلى تعمل كحروف ضبط. فأي مصطلح يتكون من أحد الحروف الصغيرة الدنيا a متبوعة بأحد حروف الضبط b يشير إلى سلسلة من الأصوات الكلامية البادئة بحرف a والمنتهية قبل الحرف b مباشرة. وهكذا فإن 'aC' مثلاً تشير إلى مجموعة علة، و'haT' تشير إلى مجموعة من أشباه حروف العلة باستثناء الحرف l. وهكذا يمكن أن نرى أن الخيط الذي يجري إعرابه ليس أقل من بيان للقاعدة:

(i, u,r, l)→ (y, w, r l) before (a, i, u, r, l, e, o, āi, āu)

وهذا مختصر فعلاً. ولكن يجب التذكر أن هذا المستوى من التلخيص المركّز هو ممكن فقط لأن عدداً من المبادئ الضابطة يمكن اعتبارها تحصيل حاصل، مثل التفسير الضمني داخل الأقواس: فالأصوات الكلامية الأربعة الأولى ترسم خريطة على التوالي على الأصوات الكلامية الأربعة الثانية، ولكن هذا يحدث قبل أي من الأصوات التسعة في البيئة. وإن قسماً من وظيفة تقليد التعليق التي تتابع ما كتبه بانيني هو توضيح الطبيعة الدقيقة للباريبهاسا، أي (المبادئ المساعدة) التي يرتكز عليها التفسير الصحيح للخيط (السوترا).

الدارجة، وليس في هذه اللغة المعقدة المتسامية إلى الأعالي. وبينما كانت النصوص التعليمية الغربية حتى العصر الحديث تصاغ في تقليد إغريقي كمجموعة من البديهيات والنظريات (على غرار إقليدس) أو في حالات أكثر على شكل شعر تعليمي (على غرار هسيود) فقد كان النهج المفضل في التقليد السنسكريتي هو تغليف الرسائل كسلسلة من الحكم والأقوال المأثورة السهلة الحفظ، مصوغة في العادة على شكل بيتين من الشعر. وقد ساد هذا النهج إلى درجة أن هناك خيطاً يحدد مواصفات الخيط الجيد (سوترا)، وهي أن يكون:

مختصراً، وغير غامض، وفيه معنىً مركز، وعالمي
وبلا حشو زائد، وبلا عيب هو الخيط الذي يعرفه الحكماء.

وكان هذا النهج إلى حد كبير جزءاً من جانب متميز آخر من جوانب الثقافة اللغوية السنسكريتية، وهو ازدواجية قوية حول قيمة الكتابة. فقد كان الاعتماد على اللغة في صيغتها المكتوبة يعتبر معيقاً، ولا يعطي سيطرة حقيقية على المحتوى اللغوي. ومن هنا جاء المثل:

المعرفة في كتاب - مال في يد شخص آخر(4)

هكذا كانت الهند القديمة مثل ثقافات كثيرة، مقسمة كانقسام الكهنة القدامى في بلاد الغال في القرن الأول قبل الميلاد(5) وانقسام غواتيمالا الحديثة (حيث يلاحظ أهلها الأصليون من هنود المايا أن الأشخاص الخارجيين يدوّنون ملاحظاتهم عن الأشياء لا ليتذكروها بل لكي لا يضطروا إلى تذكرها)(6). فحتى سقراط يتذكر قصة عن الإله توت عندما عرض حرفة الكتابة على ملك مصر، فلم يعجب ذلك الملك، فوصف الكتابة بأنها 'سوف تضع النسيان في أذهان المتعلمين، بسبب نقص ممارسة التمرين في الذاكرة'(7). وقد أخذ عمداء الثقافة الهندية هذا التأثير الجانبي للتعلم من الكتب على محمل الجدّ إلى حد كبير.

ورغم أن اللغة كانت قد تعرضت لإعراب كامل للأصوات الكلامية عند حلول القرن الخامس قبل الميلاد، وهو إعراب اندمج حتى في نظام الترتيب الرسمي للحروف الهجائية، فإن الاعتماد على النصوص المكتوبة للوثائق الهامة (وخاصة

الهامة من الناحية الروحية) كان عرضةً للشجب القاسي، ومن هنا جاء قول آخر:

إن بائعي الفيدا، والمسيئين في قراءة الفيدا،
وكتّاب **الفيدا**، يذهبون جميعاً على الطريق إلى جهنم[8].

وعلى نقيض ذلك، كان الوضع المثالي هو تعلم جميع النصوص الرئيسية بحفظها عن ظهر قلب، من خلال استخدام أساليب تقوية الذاكرة. وعندئذ فإن هذا الحفظ يجعل التعامل مع جميع جوانب النصوص ممكناً، بما في ذلك تأليف نصوص وتعليقات جديدة، قد تستفيد حقاً من تدوينها كتابةً.

إن طابع شخصية اللغة التي لقيت هذا الاهتمام قد تم عرضه في النصوص المقتبسة. كانت لغة هندية ـ أوروبية قديمة نموذجية، فيها أسماء، وصفات، وضمائر، وأفعال، كلها متأثرة كثيراً بالتصريف الإعرابي في نظام مليء بشواذ استثنائية خاصة، رغم تأثره بالإعراب البارع (كما أوضحه بانيني وتقليده النحوي). وكانت الكلمات تميل إلى أن تكون متعددة المقاطع، وكثيراً ما كان طولها يزداد بسبب ميل اللغة إلى التسامح مع كلمات مركبة لها طول يكاد يكون غير محدود. وهذا أحد الملامح التي صارت شديدة في السنسكريتية (في جميع أجناس الأدب) مع مرور السنين بالقرون والألوف من الأعوام.

ومفردات اللغة واسعة: ففيها أكثر من عشرة آلاف جذر اسمي (أي غير فعلي) في موسوعة الشعراء التقليدية ("آماراكوصا"، أي 'المخزونات الخالدة'، وهي منظمة بالطبع في خيوط سوترا لتسهيل حفظها في الذاكرة). وعند السماح بإدخال الأفعال والكلمات المركبة، فإن عدد البنود المدرجة في قاموس مونيه وليامز (المطبوع في العام 1899) يصل إلى مئة وثمانين ألف مادة(*). ومعنى هذا أن هناك موارد واسعة من الكلمات المترادفة أو ذات المعاني المتقاربة: ففي الجانب الأقصى، يدّعي جون بروف أن هناك خمسين اسماً مترادفاً لزهرة النيلوفر، وهي من المفاهيم المفضلة في الشعر السنسكريتي بمعناها الحرفي

(*) قارن هذا مع 215,000 مادة في آخر طبعة من قاموس تشيمبرز الإنكليزي، وأكثر من نصف مليون مادة في آخر طبعة من قاموس اكسفورد الإنكليزي.

والمجازي[9]. وعلى أية حال فإن الكلمات تميل إلى أن تكون لها معانٍ متعددة. فأبسط كلمة مباشرة عن زهرة النيلوفر هي "بادما"، وبادما هذه لها أحد عشر معنى إضافياً في الجنس المحايد (الزخرفة الشبيهة بزهرة النيلوفر، نوع من النيلوفر، جذر زهرة نيلوفر، العلامات الملونة على وجه فيل وخرطومه، تشكيل عسكري لجيش، العدد تريليون (10^{12})، الرصاص، طاقة روحية صوفية، ثؤلول أو شامة على الجسم، بقعة أو لطخة، جزء من عامود) وثمانية معانٍ أخرى بصيغة المذكر (معبد، ربع فيل، جنس من الثعابين، راما (بطل ملحمي هندوسي)، كنز كوبيرا، طراز من المتعة الجنسية، وقفة تأمل، كنز له علاقة بالسحر). فهذه الموارد المعجمية تستغل استغلالاً كاملاً في الشعر السنسكريتي، الذي هو مليء بالإشارات والحشو المسهب، ومدمن على استخدام التورية.

ولكننا قد لاحظنا من قبل أن إحدى المواصفات الخاصة للغة السنسكريتية هي النظام المعقد من الزوائد المرتبطة بالكلمة. وهذا شيء معروف باسم "ساندهي"، أي "التجميع". ومعناه أن حدود الكلمات كثيراً ما تمحى ليصبح هناك مسيل وحيد من المقاطع المتدفقة كما هي ملفوظة أو حتى مكتوبة، وعرضة لتفسيرات متعددة. إن النتيجة المركبة من هاتين الخاصيتين من خصائص السنسكريتية هي فرصة لاستخدام التورية على نطاق لا يكاد يكون تصوره ممكناً. وهي فرصة استغلت بشكل كامل وفير في المؤلفات الأدبية. وقد تحقق الحد الأقصى في هذا المجال على يد الشاعر "كافيراجا" ('الشاعر الملك')، الذي وضع لنفسه مهمةً في قصيدته "راغافابادافيا" (في القرن الثاني عشر الميلادي) هي إعادة رواية قصة الملحمتين الهنديتين العظيمتين "الرامايانا" و"المهابهاراتا" في الوقت نفسه في أشعار غامضة (وكثيرة الزخارف). وبطريقة ما، يمكن اعتبار ذلك إطلاقاً للمعنى من التعبير عنه بكلمات، لأن من الصعب تصور الطريقة التي يمكن بها فهم هذا العمل في أي واحد من معنييه بدون معرفة المستمعين المسبقة والفعّالة والمفصلة بالحكايات التي تروى فيه. فالمؤلف والمستمعون يتشاركون في القصص، ولكنهم يركزون حصراً على التفاصيل الحرفية الشفوية للتعبير عنها. ومن الناحية العملية فإن ذلك لا يوجب استخدام

مصطلحات غامضة فحسب، ولكن يوجب أيضاً عقد مقارنة قياسية بين تدفق السرد القصصي في الملحمتين. وهكذا نقتبس بيتين من الشعر:

عند طوافه حول **مملكة**/قوات العدو، وصل إلى **أجمة من أشجار الآسوكا**/ عكس الحزن:
وكأنما في لحظة، تحققت مهمته، برؤيته **لبنت الأرض**/للأبقار

إن أولى الترجمتين المختلفتين هنا (بالحرف الأسود الغامق) تنطبق على شخصية هانومان الباحث عن سيتا. أما الترجمة الثانية (بالحرف المائل) فتنطبق على آرجونا في حملته لسرقة المواشي خلف خطوط العدو. ولكن من أجلِ الحفاظ على سرد قصصي متماسك تبقى العبارات ترجمة غير غامضة.

إذن فالسنسكريتية لغة خصبة الزخارف بكل معنى الكلمة. فالسير وليام جونز، قاضي قضاة الهند ومؤسس الجمعية الآسيوية الملكية، وصفها وصفاً جديراً بالذكر في العام 1786: 'إن السنسكريتية مهما كان مدى قدمها، ذات تركيب رائع، فهي أكثر كمالاً من اليونانية، وأكثر وفرة من اللاتينية، وأكثر صقلاً وعذوبة من كليهما'.

السنسكريتية في الحياة الهندية

اجتماعياً:

إن مسألة من الذي، أو ما الذي، يقدم نموذجاً لأفضل ما في السنسكريتية قد تمت الإجابة عليها بطرق مختلفة على مدى حياتها الطويلة. فقد كانت هذه المسألة مشحونة ومليئة أكثر من مسألة مستوى اليونانية أو اللاتينية، لأن هاتين اللغتين لم تحملا عبء المعاني الإضافية الدينية التي بقيت مع السنسكريتية طيلة حياتها.

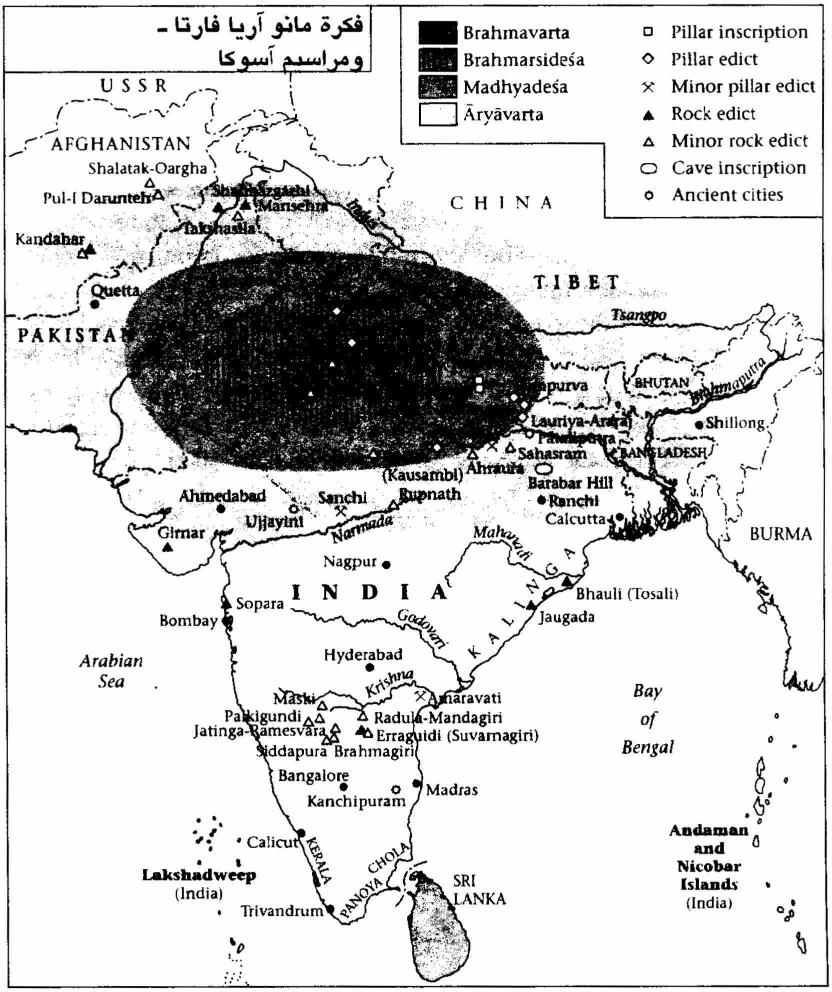
ففي الأصل، كما رأينا، كان التركيز دينياً محضاً، وكان الهدف المروّج له هو تلفظ أشعار كتب الفيدا بشكل واضح ومناسب. أما ما يعتبر الآن

قضية لياقة اجتماعية وتقوى فقد كان متمثلاً بطريقة أخرى في الهند القديمة. فرغم كل شيء، كانت تراتيل أشعار الفيدا تقام لإعطاء قوة خارقة للطبيعة. وقد أعطى العالِم باتانجالي مثالاً على خطورة النحو السيئ الذي قد يهدد الحياة: فالشيطان فريترا قدم أضحية للحصول على ولد يكون قاتلاً "لإندرا"، عدوه اللدود من بين الآلهة. ولسوء حظه فإنه لفظ عبارة "قاتل" إندرا بنبرات مغلوطة، مشدداً على المقطع الأول منها بدلاً من المقطع الأخير، وهكذا أوجد ولداً سيقتله إندرا[(10)].

وهذه الحكاية من باتانجالي في القرن الثاني قبل الميلاد تبين أن بعض ملامح اللغة على الأقل حسبما حددتها قواعد بانيني النحوية كانت قد توقفت عن كونها شيئاً روتينياً. وقد عاش بانيني في القرن الخامس ق.م. في أقاصي الشمال الغربي من المنطقة الناطقة بالسنسكريتية أو البراكريتية. وعند مجيء عصر باتانجالي كانت تلك المنطقة قد سقطت تحت سيطرة شعوب "المليكا"[(*)] وهم أجانب غير ناطقين بالهندية (ولا السنسكريتية)، وهم "اليافانا" (أي اليونانيون) و"الساكا" (أي السكان الناطقون بلغة فارسية شبيهة بالباشتو) من الغرب ومن الشمال.

إن الدوافع الدينية التي أكد عليها باتانجالي لضمان صحة استخدام المرء للسنسكريتية تطورت بصورة طبيعية في مجتمع الهند ذي المراتب الكهنوتية المتسلسلة هرمياً، فأصبحت معالم اجتماعية، بل رموزاً للمكانة. وقد شعر باتانجالي بالقلق من وجود تداول في رغبته الطبيعية لتحديد أفضل استخدام يقوم به المتعلمون لما تصفه القواعد النحوية. فبعد كل شيء، كيف يعرف النحوي ما الذي يتعين عليه أن يصفه؟ وهكذا فإنه يلجأ إلى استخدام "الآريافارتا" المحددة جغرافياً: ويتضح أن هذه المنطقة هي الهند الشمالية، التي تحدها الهملايا في الشمال وجبال فنديا في الجنوب، والبنجاب في الغرب والله آباد في

(*) هذه بالضبط هي الكلمة السنسكريتية التي تعادل كلمة "باربار وس" عند الإغريق، وهي تحدّد أو تعرّف الشخص غير الناطق بالسنسكريتية.



فكرة مانو آريا فارتا - ومراسيم آسوكا

الشرق[11]. وقدر لهذا أن يكون هو الرأي الوارد من المركز الآري، رغم وجود تحسينات عليه في مدونة قانون مانو، التي ربما تكون قد كتبت بعد ذلك بسبعمئة عام، أي في حوالي العام 500 م. والأراضي الوسطى محددة بهذا التعريف - وهي من الناحية الفعلية هاريانا وأوتر براديش الحديثة -، بينما توسعت "آريافارتا" لتضم شمال شبه القارة بكامله. وفي تلك الأثناء فإن منطقة صغيرة حول دلهي (بين النهرين المقدّسين "ساراسفاتي" و"درصادفاتي")،

حددت باسم "براهمافارتا"، حصلت على الجائزة العليا: 'إن جميع الناس في العالم يجب عليهم أن يتعلموا السلوك اللائق من كاهن براهماني مولود في ذلك البلد'[12]. [براهما معناها الذات العليا لروح الكون وجوهره في الفلسفة الهندوسية].

سياسياً

يضع باتانجالي حدود "آريافارتا" بطريقة مناسبة على وجه العموم عند حدود إمبراطورية صونغا التي كان هو أحد مواطنيها[13]. ولكن ذلك لم يكن مناسباً إلى هذا الحد قبل ذلك بقرن من الزمن، عندما كان العالم السياسي يدور حول إمبراطورية الموريا، التي كانت أوسع بكثير، ولكن موقعها كان أقل مركزية. وكان مركزها في "باتاليبوترا" (باتنا الحديثة) التي هي في الهند الشرقية، وراء تخوم ما كان "آريافارتا" آنذاك. وعلاوة على ذلك فإنها كانت تمتد إلى الشرق حتى براهمابوترا، وإلى الشمال والغرب حتى الجزء الجنوبي من أفغانستان، وإلى الجنوب حتى تصل إلى ميسور الحديثة وتلال نلجيري. وهذه الحدود معلّمة بنقوش على نصب تذكارية مقامه على أعمدة، أو محفورة في الصخور الرواسي. وقد وضعها أعظم أباطرة موريا، وهو "آسوكا" (أي 'غير الحزين' - أو، كما كان يحب أن يسمي نفسه "بياداسي"، وبالسنسكريتية "بريادارسين" التي معناها 'ذو الجانب الودّيّ').

أما دور السياسة في انتشار السنسكريتية عبر الهند فإنه يظل غامضاً. ومن المحتمل جداً أن عملية الغزو العسكري والإخضاع لحكم السلالات في القرن الثالث ق.م. لم تنشر السنسكريتية بحد ذاتها، بل نشرت لغة ماغادي براكريت، التي كانت لغة بلاط موريا؛ أما السنسكريتية فقد اتخذت موقعها فيما بعد، فرسّخت نفسها هناك، وفي أماكن أخرى بلا شك، كلغة مشتركة للخطاب المثقف لجميع الناطقين بإحدى لهجات البراكريت الهندية كلغة يومية دارجة. وقد ظل هذا هو موقعها في الهند منذ ذلك الحين، رغم أن لغات أخرى، ولا سيما الفارسية (تحت حكم المغول) والإنكليزية (تحت حكم البريطانيين) قد دخلت شبه القارة وراحت تنافس على هذه المكانة كلغة أساسية أولى للمثقفين المتعلمين.

والواقع أن نوع التقدم اللغوي الذي تحقق بالغزو العسكري يبدو أنه كان مؤقتاً على وجه الخصوص وغير دائم. فهناك مجموعة من مراسيم آسوكا حول ريتشور، على حدود كارناتاكا وآندرا براديش الحديثة؛ ولكن هذه الآن هي ذات قلب المنطقة التي تحكى فيها لغتا كانادا وتيلوغو، وكلاهما لغتان درافيديتان لا علاقة لهما بلغة ماغادي، أو بالسنسكريتية. وفيما بعد، نشأت وسقطت سلسلة من الإمبراطوريات الناطقة بالآرية على الضفاف الدنيا لنهر الغانج (مثل إمبراطورية آسوكا): وقد حدث ذلك في القرن الثاني قبل الميلاد، وبعد كل سقوط كانت بيهار، المنطقة المتمركزة على الجانب السفلي لنهر الغانج تنتكس وتعود إلى لغة موندا (وهي بالمثل غير ذات صلة). ويبدو أن شرق الهند ووسطها لم يخضعا للاتجاه الآري إلا تدريجياً وبشكل متقطع: فخضعت البنغال في القرن الرابع الميلادي، وأوريسا في القرن السابع. وعلى مبعدة أكثر إلى الغرب لم يتم الخضوع إلا في القرن الرابع عشر، وكانت النصوص الرسمية "لمهاراشترا"، أي 'المملكة العظيمة'، لا تزال بلغة كانادا، ولكنها أصبحت بعد ذلك منطقة ناطقة بالآرية كلياً، وبلغة تعرف باسم ماراثي(*). ويبدو أن الطبقات الاجتماعية لا بد أنها كانت تتكلم بلغات مختلفة لفترة من الوقت، بحيث كانت اللغة الآرية (في هذه الحالة على الأقل) هي المفضلة كثيراً في صفوف الطبقات الأدنى.

إن نصوص أوساكا المدونة، وهي أقدم نصوص اللغة الآرية الباقية التي يمكن تفكيك رموزها، ليست بالسنسكريتية بل بلغة ماغادي براكريت. وإن هذا الغياب للسنسكريتية عن النصوص، أو بالأحرى اقتصار حضورها على الزخرفة الأدبية، مع إعطاء محتويات الرسالة الداخلية بلغة براكريت، قد استمر قروناً عديدة، بحيث لا نعثر على النصوص الأولى بالسنسكريتية إلا بعد ذلك بمئتي عام، على مبعدة إلى الغرب، في آيوديا وماثورا (جنوب دلهي). وهناك تقسيم واضح للوظائف بين السنسكريتية والبراكريت يمكن مشاهدته في هذه النصوص المكتوبة المحتوية على النوعين: فالسنسكريتية مستعملة في الشعر، والبراكريت

(*) من الغريب أن هذا لم يحدث إلا بعد الغارات الإسلامية التي جاءت بالفارسية الغريبة تماماً وجعلتها اللغة الجديدة للنخبة.

للتخصصات النثرية. وفي آخر الأمر قدر للسنسكريتية أن تسيطر بل وأن تصبح لغة النصوص بشكل حصري. ولكن هذا التقليد لم يترسخ بصورة تامة إلا بعد مئتين وخمسين عاماً أخرى، بدءاً من العام 150م. بالنصوص المنقوشة على الصخر عن ملك صغير الأهمية هو "رودرا دامان" في "جوناغاد"، أي 'القلعة اليونانية' على الساحل الغربي في غوجارات.

وهناك شيء من تقسيم الوظائف نفسه بتخصيص السنسكريتية بالاستخدامات العليا، والبراكريت بالاستعمال اليومي تظهره التقاليد اللغوية في المسرحيات الدراميّة السنسكريتية. فقد كانت كل تمثيلية متعددة اللغات أو متعددة اللهجات. ومن القرن السادس الميلادي كان الرجال النبلاء يتكلمون السنسكريتية، والسيّدات يتكلمن "السوراسيني" (لهجة ماثورا براكريت) ولكنهن يغنين بلغة "مهاراشتري"، وفي تلك الأثناء كانت الشخصيات الأدنى تكتب النصوص بلهجة ماغادي (ومن سخرية القدر أنها متحدرة من اللغة التي كانت لها معان إضافية ملكية قبل ذلك بتسعمئة عام). ولا يسعنا إلا أن نفترض بأن النكسات السياسية التي وقعت بين هاتين الفترتين (مثل صعود ملوك "ستافاهانا" في منطقة مهاراشترا على مدى القرون الأولى قبل الميلاد والقرون الأولى بعد الميلاد) كان لها على وجه العموم تأثير دائم على المكانة المتصورة للهجات(*).

وعندما وضع "راجاسيخرا" توصياته في حوالي العام 900 م حول الشاعر المثالي قال إنه يجب أن يكون لديه خدم يتكلمون بطلاقة لهجة "آبابرامسا" (لغة الهبوط والتلاشي، وهو اصطلاح شائع الاستخدام تماماً ويعطي صفة سلبية لصيغ متأخرة من لهجة سوارسيني البراكريتية، التي كانت آنذاك في

(*) هناك قصة مشهورة حقاً عن الحرج الذي وقع عندما تبين أن ملكاً يدعى ساتافاهانا كانت معرفته بالسنسكريتية أقل من معرفة إحدى السيدات: ففي معركة مائية، توسلت به إحدى ملكاته أن يكف عن قذفها بالماء (موداكايه، من ما أوداكايه، أي 'ليس بالمياه'). ولكنه ردّ برشقها بالحلويات (موداكايه، أي 'بالحلويات'). وعندما أوضحت له غلطته، أصيب بخزي جرح مشاعره إلى درجة أنه لزم فراشه، ثم شرع في دورة عاجلة مكثفة لدراسة القواعد النحوية (سومادیفا، في كتاب كاثا - ساريت – ساغارام، المجلد الأول - القسم السادس، ص 108-122).

طريقها لكي تصبح اللغة الهندية الحديثة)، وخادمات يتكلمن لغة ماغادي وما شابه، ولكن على زوجاته أن يتكلمن السنسكريتية، وإلا فالبراكريتية، التي بالنسبة له تعني اللغة المهاراشترية، وأما أصدقاؤه فليتكلموا كل اللغات[14]. فقد صار الموجب الاجتماعي للسنسكريتية شيئاً لا مهرب منه، رغم تحمس الشاعر نفسه للغته البراكريتية المحلية. ولكن مكانة اللهجات يبدو أنها صارت إلى حد كبير منفصلة تماماً عن الوعي بأصولها المحلية، أو تاريخها.

دينياً

ومن المثير للاهتمام أن الماغادي ربما كانت هي لهجة غواتاما، مؤسس البوذية، ولو قبل ذلك بحوالي ألف عام (وقد عاش في تلك المنطقة أيضاً معاصره "ماهافيرا"، مؤسس الجانية Jainism). وكانت ماغادا أيضاً هي منطقة أقدم المجالس البوذية، التي أسست الخطوط العريضة لهذه العقيدة من أجل الأجيال اللاحقة. وكان أشهر المعتنقين المبكرين للبوذية وأكثرهم نفوذاً هو الملك آسوكا نفسه، وكان هو الآخر من سكان ماغادا، في مدينتها الرئيسية "باتاليبوترا" (باتنا الحالية في ولاية بيهار على نهر الغانج).

إن هذه الصدفة الجغرافية ربما كان من المتوقع أن تجعل البوذية تفضل اللغة الماغادية. فقد نصح بوذا كهنته أن يعلموا بلغتهم نفسها (سكايا نيروتيا). ويبدو أن رأيه هنا لم يكن ينطوي على احترام اللغة العامية الدارجة فقط، بل كذلك على اعتقاد إيجابي بأن طبقته الاجتماعية الوراثية المغلقة، طبقة "الكساتريا" المحاربة، متفوقة على الطبقة الكهنوتية البراهمانية بارتباطاتها بالسنسكريتية. وكان ذلك جزءاً من إعادة تحديده المُقْنِعَة لنظام الطبقات بكامله، ومعنى أن يكون آرياً حقيقياً ـ رغم أن هذه الكلمة تترجم في البوذية الإنكليزية على أنها تعني "النبيل" ـ بناء على قيمة المرء الذاتية، وليس عن طريق الولادة.

ولكن الكهنة بدورهم لم يضفوا صفة الامتياز على الكلام العادي لبوذا ومنطقته. بل لقد أعلنوا أنهم يفضلون أي شكل من اللغة العامية الدارجة. وهناك قصص عن كون ذلك قد سبب شيئاً من القلق بين الكهنة البراهمانيين الذين

خشوا أن القواعد النحوية واللفظية سوف تشوه أقوال بوذا. غير أنه مع مرور الزمن جاءت لهجة معينة من البراكريتية لتفرض سيطرتها فعلاً: وكانت تسمى "بالي" pali (أي 'اللهجة القانونية الكهنوتية القويمة'). وكانت لهجة مختلطة. ورغم ادعاءات التقليد البوذي (الذي زعم أيضاً أن هذه اللغة قد تكلمها بوذا، وأنها كانت إلى حد كبير هي اللغة الأصلية لكل الكائنات: "سابا‌ساتانام مولابهاسا")(*) فلم تكن لغة ماغادي هي الغالبة على لهجة بالي، بل كانت تلك اللهجة تحتوي على عناصر غربيّة متميزة، تذكرنا بلهجة سوراسيني: ولا بد أنها نشأت كلغة بوذية آرية مختلطة عن طريق عملية من التسوية فيما بين الكهنة الناطقين بلهجات براكريتية متنوعة.

وفيما بعد، عندما تطورت العقيدة، وصارت قائمة على المؤسسات بشكل أثقل، راحت بالتدريج تتبنى أسلوب لغة أرقى وأفخم بصورة متزايدة، أقرب في صياغته إلى السنسكريتية الفصحى الكلاسيكية، المعروفة بأنها السنسكريتية البوذية الهجينة. وهذا ينطوي نموذجياً على الأخذ بالتراكيب النحوية للبراكريتية، التي هي أبسط وأكثر إعراباً من تراكيب السنسكريتية، وعلى إعادة كسوة الكلمات بعلامات التصاريف الإعرابية ونهايات الأفعال التي تذكرنا بالسنسكريتية الفصحى الكلاسيكية، ولكنها كثيراً ما يساء تطبيقها من وجهة نظر علم النحو الكلاسيكية التقليدي.

وعلى وجه العموم، فطوال التاريخ اللغوي الهندي ظلت مكانة السنسكريتية تميل إلى الارتفاع في استخدامها الدنيوي والديني معاً بحيث إن التفضيل السابق للغة الدارجة على أيدي ملوك موريا، والبوذيين، والجينيين Jains، خضع في آخر الأمر للاحترام الذي كانت تحظى به السنسكريتية. فقد كانوا يعترفون بها على أنها لغة "سامسكرتا" مصطنعة، ولكن ذلك إن نجم عنه أي شيء فقد أدى إلى رفع مكانتها، وصار استخدامها يعتبر محكاً لغوياً لاختيار نوعية النص.

(*) يحصل المرء على فكرة عن مدى كثرة أو قلة اختلاف لغة البالي عن السنسكريتية بمقارنة المعادل السنسكريتي لهذه العبارة، وهو: "سارفاساتام مولابهاسا".

آراء أشخاص خارجيين

إن من المثير للاهتمام إجراء مقارنة مختصرة لبعض الملاحظات الحسية الخارجية على السنسكريتية ودورها في المجتمع. فهناك تقليدان من أناس خارجيين تركوا سجلات عن مواجهتهم مع هذه اللغة: فبالنسبة للقرون الثلاثة الأخيرة قبل الميلاد لدينا تقارير من اليونانيين، وبالنسبة لمنتصف الألف الأول الميلادي، تقارير من الصينيين في الشمال الشرقي.

إن نظرة إلى الخريطة تبين أنه في عصر السفر براً ومشياً على الأقدام، لا بد أن مبعوثي الحضارتين الإغريقية والصينية كانوا مضطرين لتمييز أنفسهم فيما يتعلق بتصميمهم حتى قبل أن يتمكنوا من الوصول إلى مراكز الثقافة الهندية: فقد كانت اليونان على بعد أكثر من خمسة آلاف ميل (رغم أن اليونانية كانت قد ترسخت كلغة مشتركة في معظم تلك المسافة). أما الصين فرغم أنها كانت أقرب حسب أقصر المسافات بخط مستقيم، فقد كانت عملياً منقطعة عن الهند، ليس بصحراء تاكلاماكان فحسب، بل كذلك بالجبال الممتدة من بامير إلى أقاصي جبال الهملايا البعيدة.

اليونانيون

لم يكن اليونانيون يعرفون شيئاً يذكر عن الهند إلى أن أوصلتهم حملة الإسكندر إلى حدودها في العام 327 ق.م. وفيما بعد كانت هناك مبادلات دبلوماسية بين بعض حكام الهند العظام في الشمال وبين السلوقيين، الحكام اليونانيين الذين سيطروا على شرق ما كان يدعى الإمبراطورية الفارسية. ومن العام 302 إلى العام 288 ق.م. خدم ميغاستينيز كسفير للسلوقيين عند الملك تشاندراغوبتا في باتاليبوترا (باتنا) التي قدمها للعالم الإغريقي باسم باليبوثرا. وترك دراسة استطرادية عن الطرق الهندية بعنوان "إنديكا". وعند أخذها مع بعض تقارير أونيسكريتوس ونيركوس، الضابطين اللذين كتبا مذكرات عن خدمتهما مع الإسكندر، يتشكل منها جوهر المعرفة اليونانية بالهند حتى نهاية العالم القديم (في العام 476 م).

ولم يعش كتاب "إنديكا "، ولكن من الممكن إعادة تركيبه من الاقتباسات المستفيضة الظاهرة في أعمال مؤلفين آخرين، مثل سترابو وبليني، اللذين كانا يكتبان (في إيطاليا) بعده بقرنين. وليس فيه شيء يذكر عن الجوانب السياسية والأدبية في الحياة الهندية. ولكنه يحتوي فعلاً على تحليل لنظام الطبقات الاجتماعية المغلقة عند الهندوس، محدداً ما لا يقل عن سبع 'قبائل'، أو 'أنساب'، يمكن رسم خريطة جيدة لها على التقسيم الرباعي الذي ظل محترماً منذ أبعد الأزمنة، والمكون من البراهمانيين (الكهنة والفلاسفة)، والكاشاتريين (الملوك والمحاربين) والفيزيين (التجّار) والسودرا (العمال). ويبدو أن هذه الدراسة تلحظ سيادة طقوس سيفا وكريشنا، ولكن باستخلاص غير مباشر: فبالطريقة الإغريقية - الرومانية المعتادة، فإن الدراسة لا تعطي سوى أسماء الآلهة اليونانية التي اعتبرها المؤلف متماثلة مع الشخصيات الهندية، وهكذا يقال إن الهنود يعبدون هيراكليس (ما دام يحمل هراوة مثل كريشنا) وديونيسوس (ما دام يشبه سيفا في ارتباطه بحياة النبات المزدهرة النمو، وبجبل ميرو، حيث ولد ديونيسوس من فخذ زيوس في ميرو الإغريقية، وما دام شخصية وحشية جامحة، تُعْبَدُ مع الموسيقى والرقص).

ويتعامل ميغاستينيز بصراحة أكثر مع الجوانب الأكثر عقلانية للديانات الممارسة في إمبراطورية موريا في زمانه، فيميز البراهمانيين ("البراخماني " أو "البراغماني ") والصرامانيين ("سارماني ") باعتبارهم نوعين مختلفين من الفلاسفة. فالصراماني هي بالفعل كلمة سنسكريتية تستخدم أحياناً كوصف دقيق للكهنة البوذيين، ولكن ليس هناك ذكر صريح للبوذية، التي كان عمرها مئتي عام في ذلك الوقت. (إذا إنها تأسست بالضبط في نفس المنطقة التي كان ميغاستينيز يعيش فيها).

ويميل التعليق إلى التركيز على مستوى شديد السطحية. وعلى سبيل المثال، فإنه يذكر وجود الحكماء العراة، وكون الطلبة الذكور والإناث على قدم المساواة كأتباع للصرامانيين. والظاهر أن ميغاستينيز لم يفهم أبداً أن البراهمانيين هم في الحقيقة إحدى القبائل، أي الطبقات الاجتماعية المغلقة التي

كان قد ميّزها، ولا أن "سكان الغابة" (الذين كان مضيفوه يسمونهم "فانابراستا") لم يكونوا جنساً من الصرامانيين، بل هم الذين بلغوا فترة معينة من الحياة سواء أكانوا براهمانيين أم صرامانيين.

ولقد ظلت الهند مصدراً خرافياً للمنتجات الغريبة بالنسبة لليونانيين وبعدهم للرومان. والواقع أن أصحّ عناصر المعرفة التقليدية السنسكريتية التي امتصوها كانت أسماء بعض موادهم المفضلة، مثل قماش القنّب canvas (اليونانية karpasos، و'القطن'، من karpasa)، والزنجبيل (اليونانية zingiber من srangavera، المأخوذة من اسم مدينة على نهر الغانج)، والفلفل pepper (اليونانية peperi من pippali التي هي ثمرة 'عنبية' berry)، والسكر (اليونانية سكهرون، من sarkarā، أي 'الحُبَيْبَات الخشنة') - التي وصفها الأميرال نيركوس، أحد أتباع الإسكندر، بأنها عسل يأتي من القصب بدون مساعدة النحل[15].

إن مذكرات ميغاستينيز، التي قدر لها أن تشكل معرفة أوروبا بالهند حتى عصر النهضة، كانت بطريقة ما تفتقر إلى الفهم، ولم تقدم أبداً أي تقدير للفلسفة، أو اللغة، أو الأدب. وفي إحدى الحالات نكّت أحد الحكماء بأن المحادثة ما دامت تجري عن طريق ثلاثة مترجمين، فإن احتمال الحصول على فكرة واضحة عن الفلسفة المعروضة يشبه احتمال تنقية الماء عن طريق إمراره عبر الطين[16].

ولكن هذا لم يكن يعني أن اليونانيين الذين كانوا يعيشون على مقربة أكثر كانوا يفتقرون إلى الفهم بالمِثْل. والواقع أن أحد ملوك البنجاب اليونانيين، وهو الملك مناندر (في القرن الثاني ق.م.) قد خلّده اهتمامه الثاقب بالبوذية على شكل كراس بلغة بالي الكلاسكية عنوانه "ميلندا بانها"، أو 'أسئلة الملك ميلندا': 'كثيرة كانت هي الفنون والعلوم التي يعرفها - التقليد المقدس والقانون الدنيوي العلماني، وأنظمة الفلسفة، والحساب، والموسيقى، والطب، وكتب الفيدا الأربعة، والبورانا [الأعمال الأسطورية الهندوسية المقدسة المدونة بالسنسكريتية] والإيتهاساس *Itihasas* والفلك، والسحر، والعلل والمعلولات، ... وفن الحرب، والشعر، ونقل الملكية، - وبكلمة واحدة: العلوم التسعة عشر كلها'[17].

وهناك هندي - إغريقي من الفترة ذاتها يعلن عن نفسه باسم هليودورس،

السفير اليوناني ("يونادوتا") من الملك آنطيالكيدياس. وقد ترك نصاً منقوشاً بلغة براكريت كاملة على عمود لا يزال قائماً في بيزناغار في ماديا براديش. وهو ينتهي بالمبدإ الروحي القائل:

ثلاث خطوات إلى الخلود، عند اتباعها بشكل صحيح،
تؤدي إلى السماء: الانضباط، والكرم، والاهتمام.

الصينيون:

على عكس الكتّاب اليونانيين، الذين كانوا في الهند إلى حد كبير باعتبارهم تجاراً، أو غزاة، أو ممثلين للسلطة، فإن الصينيين قد جاؤوا كطلاب جادين لدراسة ثقافة انهند، ولا سيّما البوذية. ومن الواضح أن بعضهم قد تعلموا السنسكريتية (مع البالي وماغادي براكريت) بتعمق أثناء إقامتهم. ولذلك فإن أوصافهم فيها قوة حجة واختراق أكثر مما في الشهادة اليونانية بكثير. فهم يقدمون في حالات كثيرة أفضل الأدلة التي نملكها عن تفاصيل الحياة الهندية في ذلك الوقت، إذ إن من اللافت للنظر أن الهنود أنفسهم لم يهتموا بوضع أوصاف مباشرة وصريحة لحياتهم اليومية نفسها.

وتأتي الشهادة الصينية من أربعة حجّاج باحثين عن نصوص دينية بوذية أصلية صحيحة. وقد كافح معظمهم عبر صحراء تاكلاماكان وعبر جبال هندوكوش لدخول الهند من خلال هذا الطريق الشمالي. وجاؤوا على فترات مدتها حوالي قرن. وقد أحضر كل منهم كميات من المخطوطات البوذية التي عكفوا بعدئذٍ على ترجمتها، وتابع كل واحد منهم إلى جانب ذلك فكتب مذكرةً عقب عودته إلى الصين.

أما فا-كسيان، الأول الذي بقيت حكايته منهم، فقد سافر إلى الهند عبر هندوكوش من العام 400 إلى 414 م. وعاد عن طريق البحر. ولمدة ثلاثة من هذه الأعوام كان في باتاليبوترا 'يتعلم قراءة الكتب باللغة السنسكريتية(*)

(*) وقد أطلق عليها اسم فان fan، ولعل ذلك تحريف صيني لكلمة براهمان.

والتحدث بها، واستنساخ تعاليمها،[18]. (وقد أعجب رفيقه دو ـ جينغ بالحياة المقدسة للصرامانا الهنود إلى درجة أنه قرر أن لا يعود إلى موطنه). ثم انتقل فا ـ كسيان نزولاً إلى وادي الغانج إلى مدينة كبرى أخرى، هي تشامبا (قرب باغالبور الحديثة)، حيث أمضى عامين آخرين وهو يسعى بصورة رئيسية للحصول على نصوص بوذية[19]، قبل أن يبدأ رحلة مليئة جداً بالأحداث عائداً إلى وطنه عبر 'يي ـ بو ـ تي'، أو يافا ـ دفيبا (جاوه). وهو يقول إنه أقام في الهند مدة مجموعها ستة أعوام[20].

وفي العام 518 م جاء صونغ ـ يون. فلم يتغلغل إلى أبعد من "ناغاراهارا" (جلال آباد) و"بوروشابورا" (بيشاور) على طرفي ممر خيبر، الذي يصل أفغانستان وباكستان الآن، وعاد إلى الصين من الطريق نفسه بعد ثلاثة أعوام.

ثم في العام 629 م وصل أشهرهم جميعاً، كسوان ـ زانغ إلى الهند خلسةً (فقد كانت الحدود مع الصين مغلقة آنذاك)، وبعد رحلة مدتها ثلاثة أعوام أقام عشرة أعوام قضى معظمها كطالب في جامعة "نالاندا" خارج باتاليبوترا، ولكنه اضطلع أيضاً برحلة حول معظم جنوب شبه القارة.

وبعد ذلك بجيل من الزمن، في العام 671 م اتبع كسوان ـ زانغ حاجّ يدعى يي ـ جينغ، الذي سافر عن طريق البحر من كانتون، ولكنه توقف في مملكة سري فيجايا المهنّدة (بالمبانغ) في سومطرة الجنوبية لمدة عامين لدراسة السنسكريتية (وقد كتب: 'إذا رغب كاهن صيني في الذهاب إلى الغرب ليفهم ويقرأ هناك، فإن من الحكمة أن يقضي عاماً أو عامين في فو- شي [فيجايا]، ويتدرب على القواعد اللائقة هناك، وبعد ذلك يمكنه متابعة سفره إلى الهند الوسطى'). ثم تابع هو رحلته إلى جامعة نالاندا، حيث درس لمدة عشر سنوات. وبعد ذلك عاد عن طريق البحر إلى سري فيجايا، حيث أمضى وقته حتى العام 695م في تنظيم ترجمة نصوص بوذية من السنسكريتية إلى الصينية، وفي كتابة مذكرتين هما: "حول الكهنة البارزين الذين بحثوا عن القانون في الغرب"، و"حول القانون الروحي المرسل من البحار الجنوبية"[21].

كانت الهند بالنسبة لهم هي مواطن الاستنارة البوذية، لكنها كانت أيضاً بلداً فاتناً آسراً بحد ذاته. وروايتهم عن وقتهم هناك يستغرقها وصفهم لرحلاتهم، ولكن كسوان ـ زانغ على وجه الخصوص أورد تفاصيل عن الحياة الفكرية التي التقى بها، والتي أسهم فيها أثناء إقامته؛ فكتب:

> إن حروف أبجديتهم قد رتبها "براهماديفا"، وأشكالها انتقلت بالتوارث من البداية حتى الآن. وعددها سبعة وأربعون. وهي مجموعة بحيث تشكل كلمات حسب المفعول به، وحسب الظروف [أي الأزمنة، والحالات المحلية]: وهناك صياغات مستعملة أخرى [أي التصاريف الإعرابية]. وقد انتشرت هذه الأبجدية في مختلف الاتجاهات، وشكلت فروعاً متنوعة حسب الظروف؛ ولذلك فقد كانت هناك تحويرات طفيفة في أصوات الكلمات [أي اللغة المحكية]، ولكن في ملامحها الكبرى لم يكن هناك تغيير. وتحافظ الهند الوسطى على طابع اللغة الأصلي بتمامه سليماً. فاللفظ هنا ناعم ومؤاتٍ، ومثل لغة الديفا [أي الآلهة(*)]. ونطق الكلمات واضح ونقي، ومناسب كنموذج لجميع الناس. وإن أهل الحدود قد التقطوا عدة طرق خاطئة في اللفظ، لأنه بحسب عادات الناس في عدم الالتزام بالقواعد سوف تتشوه طبيعة لغتهم[22].

وعند الحديث بشكل صارم ودقيق، فإن تصور مانو المعاصر للأرض الوسطى، كما رأينا، سوف يستبعد ماغادا ومنطقة وادي الغانج الأدنى باعتبارها بعيدة إلى الشرق أكثر من اللازم، ولكننا من الناحية العملية نستطيع أن نستخلص من كسوان ـ زانغ أن كلام الهند الوسطى في أيامه كان يشمل لغة باتاليبوترا، العاصمة القديمة لعدة إمبراطوريات هندية، ولغة نالاندا، التي كانت حتى في ذلك الوقت الجامعة البارزة في المنطقة.

(*) إن أوسع الأبجديات استعمالاً في هذه المنطقة من الهند لا تزال تعرف باسم ديفاناغاري، أي [نص] الآلهة الحضري.

انتشار السنسكريتية

السنسكريتية في الهند

تبدو السنسكريتية لنا، مثل معظم أخواتها من اللغات الهندية ـ الأوروبية، باعتبارها كلام محاربين غزاة قادرين جيداً على استخدام الخيل والعربات ذات العجلات، لترسيخ سيطرتهم على جيرانهم وتحويلهم إلى أقنان ورعايا. وطريقة الحياة معروفة من الشعر البطولي للشعوب الهندية ـ الأوروبية في كل اتجاه: رجال يقاتلون من المركبات، ويتكلمون بشكل مباشر وفوري، ويهتمون بشرفهم الشخصي أكثر من الحياة نفسها. وفي ملحمة "مهابهاراتا" السنسكريتية، عندما يقوم كريشنا بإعلام آرجونا حول واجبه في ذلك اليوم، فكأنه يخاطب آخيل اليوناني عند مهاجمة طروادة (قبل ذلك الهجوم بألف عام) أو الإيرلندي كوهولين الواقف ضد مضيفية في كوناخت (بعد "المهابهاراتا" بألف عام):

وعند النظر إلى واجبك أيضاً، يجب أن لا تحجم،
لأنه ليس عند الكشاتريا شيء أفضل من قتال محق.
ومباركون هم الكشاتريون الذين يكسبون قتالاً كهذا،
فيقدمون دون طلب، يا بارثا، كباب مفتوح إلى السماء.
ولكن إذا اخترت أن لا تخوض هذا الصراع المحقّ،
ثم أهملت الواجب الشخصي والمجد، فستقع في الخطيئة
وسوف تتحدث الكائنات عن عارك الأبدي
وعند الرجل المحترم، فإن العار أسوا من الموت.

البهاغافاد جيتا، 2:31-4

وبما أن كريشنا إله هندوسي، فإنه يتابع بإرساء هذا العرض لقانون البطولة ضمن لاهوت إعادة التقمص ونظرية للمعرفة تحيل عالم العمل إلى تمثيلية من ظلال المظاهر. ولكن الأخلاق الأساسية للبطولة، المعبر عنها من خلال الشجاعة والبسالة العسكرية، واضحة.

ويفترض في العادة أن هذا الموقف من الحياة، ومعه التقنيات السائدة للخيول الحربية، والمركبات ذات العجلات، والأسلحة المعدنية، هو الذي نشر السيطرة الآرية ولغتها عبر الهند الشمالية، ثم أبقى الممالك المختلفة في دوامة عكرة من الحروب المتبادلة بشكل يكاد يكون دائماً على امتداد هذه الفترة. (وبرغم كل شيء، فإن هذا النموذج من انتشار اللغة مشهود عليه جيداً في كثير من أنحاء العالم في العصور التاريخية المدوّنة، كما حدث عندما جاء النورمان باللغة الإسبانية إلى أمريكا الوسطى والجنوبية).

ولكن إلى جانب المعارك المروية حكاياتها في الملاحم السنسكريتية ليس هناك دليل يذكر من الآثار، أو النصوص المكتوبة، أو حتى من التقاليد الأهلية، على أن اللغة قد نشرت بالنار والسيف. وفي الهند على وجه الخصوص، هناك اعتقاد متأصل بأن الهندوسية والسنسكريتية ليستا نتيجة غزوات غريبة، ولكنهما تطورتا بشكل كلي ضمن شبه القارة. بل لقد كانت هناك محاولة حديثة لإعطاء هذه القصة دعماً كاملاً شبه أسطوري، بتطوير النظرية القائلة بأنه إذا كانت هناك علاقات لغوية ووراثية مع باقي الأسرة اللغوية الهندية الأوروبية، فإن ذلك يعود إلى انتشار الآريين حول أوروبا قبل عودتهم إلى موطنهم الحقيقي في الهند[23].

ومهما كانت حقيقة تجوال الآريين في عصور ما قبل التاريخ، فإن هناك الكثير مما يبين أن الخيول كانت هامة عندهم منذ البداية. ففي المكتبات الحثية في أناضوليا الوسطى (على بعد 2500 ميل إلى الغرب من نهر الإندوس) نجد كتيباً يدوياً عن الفروسية وسوق المركبات، كتبه كيكولي الميتاني في منتصف الألف الثاني ق.م: وفيه يذكر أن مهنته هي "آسوساني"، التي يمكن معادلتها بكلمة "آسفاساني" السنسكريتية الواردة في كتب الفيدا، ومعناها 'الذي يحرز الخيل أو يقودها'(*). ونص هذا الكتيب مليء بالكلمات المستعارة التي من

(*) [ملاحظة: اليست "اسوساني" هذه اقرب إلى كلمة "سايس" العربية؟ إن هناك أدلة على أن أصل الخيل في العالم كله من جزيرة العرب، وأن العرب هم أول من دجّن الحصان في تاريخ العالم - المترجم].

الواضح أنها هندية ـ آرية. فمضمار الخيل قد يكون مؤلفاً من شوط واحد، أو ثلاثة أشواط، أو خمسة، أو سبعة، أو تسعة. وهذه باللغة الحثية هي يكاوارتانا، تيراوارتانا، بانزاوارتانا، ساتاوراتانا، وناورتانا، وهي بالسنسكريتية بالضبط: إيكا، تراي، بانيسا، سابتا وناقا فارتانا. وكان معظم الميتانيين يتكلمون لغة مقطوعة الصلة بالسنسكريتية تماماً، هي اللغة الحورية. ولكن في نص آخر مكتوب بهذه اللغة في الوقت نفسه تقريباً (من مدينة نوزي ـ يورغان تيب ـ في شمال العراق) فإن ألوان الخيل معطاة بكلمات قريبة من السنسكريتية: "بابرو" (بابهرو)، أي 'الكستنائي'، "باريتا" (باليتا)، أي 'الرمادي'، و "بنكارا" (بنغالا)، أي 'الأغبر' (الأحمر المشوب ببياض).

فهنا نجد أن ثقافة الفارس النخبوية الآرية قد فرضت على أناس يتكلمون لغة أخرى. وتنبع الأدلة من زمن طويل سابق ومن مكان نائي البعد، ولكن وضع الأيام المبكرة من اللغة الآرية في الهند ربما كان شديد الشبه بهذا الوضع. ويمكن رؤية ذلك حتى ضمن تركيب السنسكريتية نفسه.

إن السنسكريتية واللغات الهندية ـ الآرية المتصلة بها تختلف عن جميع أقاربها في الشمال والغرب، في فارس وروسيا وأوروبا، بامتلاكها لسلسلة إضافية من الحروف الصامتة المعروفة عند نحاة السنسكريتية بأنها أصوات "موردانيا"، أي 'أصوات في الرأس'، وهي عند الغربيين وقفات مع الانثناء إلى الخلف حسب وضع اللسان عند النطق بالحروف التالية: الطاء والذال، والثاء والضاد والنون، حيث يكون اللسان منطوياً إلى الوراء على سقف الحلق، على عكس حروف التاء والدال، والثاء والضاد والنون، حيث يلمس اللسان مؤخرة الأسنان الأمامية. وهكذا فإن كلمة "باطاتي"، أي 'يشق' مختلفة عن "باتاتي"، أي 'يسقط'. وكلمة "منضاح"، أي 'الرغوة، أو القشدة'، تختلف عن "منداح"، أي 'الغبي، أو الباهت'. وهذه الأصوات هي أيضاً من خصائص اللغات الدرافيدية المحكية الآن إلى الجنوب من اللغات الآرية في الهند، وكذلك الجيران الآخرين، مثل لغات موندا المنتشرة حول شمال شرق الهند. وبينما لا تملك لغة هندية ـ أوروبية أخرى هذه الأصوات (مما يجعل من غير المحتمل أن تكون من ملامح أي لغة قد

نبعت منها كلها)، فإن هذه الأصوات موجودة بانتظام في اللغة الدرافيدية إلى درجة أنها قد تكون قديمة كقدم الأسرة. فيظهر إذن أنها قد رسخت نفسها في السنسكريتية والآرية 'كطبقة سفلية' من ترسبات ملامح اللغات التي يتكلمها أول الآخذين باللغة السنسكريتية، فلم يستطيعوا التخلص منها عندما تعلموا اللغة الجديدة.

وهناك أيضاً بعض الأدلة الثقافية في فيدا Rig تشير إلى كيفية شعور الغزاة الآريين بأنهم مختلفون عن شعوب "داسا" و"داسيو"(*) الذين جاءت لغة الغزاة لتسيطر عليهم، لأنهم اعتبروهم ذوي بشرات داكنة أكثر 'من أصل أَسْوَد'، "كراصنا يونيح"[(24)]، وهذا ينطبق مع الكلمة السنسكريتية المستخدمة تقليدياً للتقسيم الرباعي إلى طبقات اجتماعية وراثية مغلقة، هي البراهما، والكشاتريا، والفيشيا، والشودرا، (أي الكهنة والفلاسفة، ثم الملوك والمحاربون، ثم التجار، ثم العمال، على التوالي). وهذه الكلمة السنسكريتية هي "فارنا"، أي 'اللون'. والداسيو يمثلهم في ملحمة المهابهاراتا الولدان الأصغران لباندو (أي 'الشاحب')، وهما ناكولا وساهاديفا، اللذين ولدتهما زوجته الثانية مادري، التي يقال إن عينيها كانتا سوداوين، وبشرتها داكنة. وطيلة الملحمة، يتصرف هذان الوالدان كمؤيدين مخلصين (ولكن ينقصهما الخيال) لإخوتهما الأكبر غير الأشقاء الذين يظهر أنهم أنبل منهما لأنهم آريون، وهم يودهشيترا ('الثابت في القتال') وبهيما ('الرهيب')، وآرجونا ('المتألق').

وقد رأينا أن عملية الاستيعاب وامتصاص مختلف المجموعات المحلية قد استمرت حتى وقت طويل من الألف الميلادي الثاني، ويبدو أنها قد شملت تعاقباً من اللغات المختلفة الأشكال والألوان في بعض أنحاء الهند الشمالية والوسطى. ومن أجدر اللحظات بالتذكر - من الناحية السياسية على الأقل - في هذه

(*) هذان المصطلحات صار معناهما على التوالي 'العبد الرقيق' و'الشيطان، اللص، قاطع الطرق'. قارن كلمة *slave* الإنكليزية من *slav* والطريق المعاكسة التي يظهر أن كلمة صرب Serb قد سلكتها من الأصل اللاتيني *servus*. أما مؤنث كلمة *dâsa!* وهي *dâsi* فصار معناها 'عاهرة' (فكلمة *devadasi!* أي أمة الإله، كانت هي مومس المعبد)، وإن من أكثر الإهانات وروداً بشكل روتيني في السنسكريتية عبارة "داسيا بوتراه" التي تعادل عبارة 'ابن العاهرة'، أو 'ابن المومس'.

السلسلة الطويلة من الأنماط المتغيرة لحظة حدثت في حوالي العام 260 ق.م. عندما غزا أسوكا مملكة كالينغا الشرقية (وهي منطقة أوريسا الحديثة تقريباً). فكان هذا الغزو هو أقصى حدٍّ لامتداد الوحدة الإمبراطورية في الهند، وهو حدّ لم يتم تجاوزه طيلة ألفي عام. وقد كتب آسوكا ما يلي عن تجربته إلى جميع باقي أنحاء إمبراطوريته (بثلاث لغات هي الماغادية والآرامية واليونانية): ‘في السنة الثامنة من عهده، قام بياداسي بغزو كالينغا. فأسر مئة وخمسين ألف شخص هناك وأبعدهم، وقتل مئة ألف آخرين، وهلك عدد يكاد يساويهم. ومنذ ذلك الحين، سيطرت عليه الرحمة والشفقة، فقد سحقته تلك التجربة..‘

فوضعت هذه الرحمة نهاية لحروب غزواته، وجعلته يلتفت بدلاً منها إلى تعزيز "الدهاما" ("دهارما" بالسنسكريتية) التي لها ترجمات متنوعة هي ‘الفضيلة‘، أو ‘الواجب‘ أو ‘القانون‘. ويقال إنه وقف على التلّ في دهولي ورأى نهر دايا يجري محمراً من الدماء. فكتب إلى أهالي كالينغا بالذات في نقش على صخرة في تلك البقعة، كما قال، بدلاً من سرد قصة حملته: ‘كل الرجال أبنائي. وكما أرغب لأطفالي أن يتم تجهيزهم بكل أنواع الرفاهية والسعادة في هذه الدنيا وفي الدار الآخرة، فإني أرغب بالشيء نفسه لكل الناس. ولكنكم لا تعرفون إلى أي مدى تذهب نيتي في هذا الصدد. ولعل قلة من بينكم تفهم ذلك، ولكن حتى هؤلاء يفهمونه جزئياً وليس كلياً ...‘

والواقع أن التأثير اللغوي لغزو آسوكا لكالينغا - إن كان هناك أي تأثير - يظل مبهماً وغير واضح.

فأوريسا الآن هي منطقة ناطقة بالآرية بصورة رئيسية (مع رشّات قوية من لغات "آديفاسي"، أي لغات ‘السكان الأصليين‘ غير ذات الصلة): وأقدم النصوص المكتوبة بهذه اللغة تعود بتاريخها إلى القرن العاشر الميلادي. واللغة هي أوريا، الوثيقة الصلة بالبنغالية المحكية على مبعدة إلى الشمال. ولكن لا يعرف شيء يذكر عن تاريخها المبكر. ولقد اقتُرحَ بأن أوريسا كانت لا تزال غير آرية، حتى في القرن السابع الميلادي[25]. وقد تعرف الحاج الصيني كسوان - زانغ على ثلاثة بلدان متميزة في هذه المنطقة: هي "أودرا" (أصل اسم

أوريسا)، التي قال إن فيها 'كلمات ولغة مختلفة عن الهند الوسطى'، و"كونيودا" 'التي حروفها هي نفس الحروف المكتوبة في وسط الهند ولكن لغتها وطريقة لفظها مختلفة تماماً'، و"كالينغا"، حيث 'اللغة خفيفة ورشيقة، ولفظهم متميز وصحيح. ولكنهم في المجالين، أي في الكلمات والأصوات المنطوقة، مختلفون جداً عن وسط الهند'[26]. وهذا النوع من الأدلة مثال واحد فقط على ما يجعل من الصعب جداً إعطاء أي وصف مفصل للخريطة اللغوية للهند في القرون الماضية.

وقد تغلغل نفوذ السنسكريتية مسافة أبعد إلى الجنوب، مع الانتشار الثقافي للهندوسية، حتى اتْخمَت السنسكريتيةُ بالكلمات المستعارة ثلاثاً من اللغات الكبرى غير الآرية هي لغات تيلوغو، وكانادا، ومالايالام. أما لغة التاميل، في أقصى الجنوب الشرقي، فكانت أقل تأثراً من الناحية اللغوية، رغم أن مجتمعها في آخر الأمر لم يكن أقل هندوسية. وإلى جانب هذا التصدير التدريجي للكلمات كان هناك في منتصف الألف الأول قبل الميلاد عملية نقل وإعادة زرع لمجتمع بكامله، مع لغته الآرية، إلى أقصى الجنوب. وهذا يفسر وجود سنهالا في سريلانكا. وإن تاريخ حركة الشعب الذي جاء بهذه اللغة غير مدون، ولكنه قد يكون منعكساً من خلال الأسطورة في ملحمة "رامايانا"، التي تصل إلى ذروتها في حملة عسكرية إلى هذه الجزيرة(*). وبعد ذلك بحوالي مئتي عام، في أواخر القرن الثالث ق.م. تعززت العلاقات بين سريلانكا والشمال الآري عندما أرسل آسوكا ابنه ماهندا إلى الجزيرة كمبشّر بوذي، وبذلك أسّس مذهب 'ثيرافادا' البوذي الذي استمر حتى يومنا هذا.

السنسكريتية في جنوب شرقي آسيا

يمكن اعتبار الحركة إلى سريلانكا بداية لانتشار السنسكريتية إلى ما وراء الشواطئ الهندية. وهذا التوسع المنقول بحراً يجعل أهميته أكبر بكثير للقصة

(*) كان الهدف هو إنقاذ سيتا؛ زوجة راما المخطوفة - وهذا شبيه بدافع الحرب الطروادية في ملحمة هوميروس، حيث ينطلق أسطول يوناني لإنقاذ هيلين، زوجة مينيلاوس.

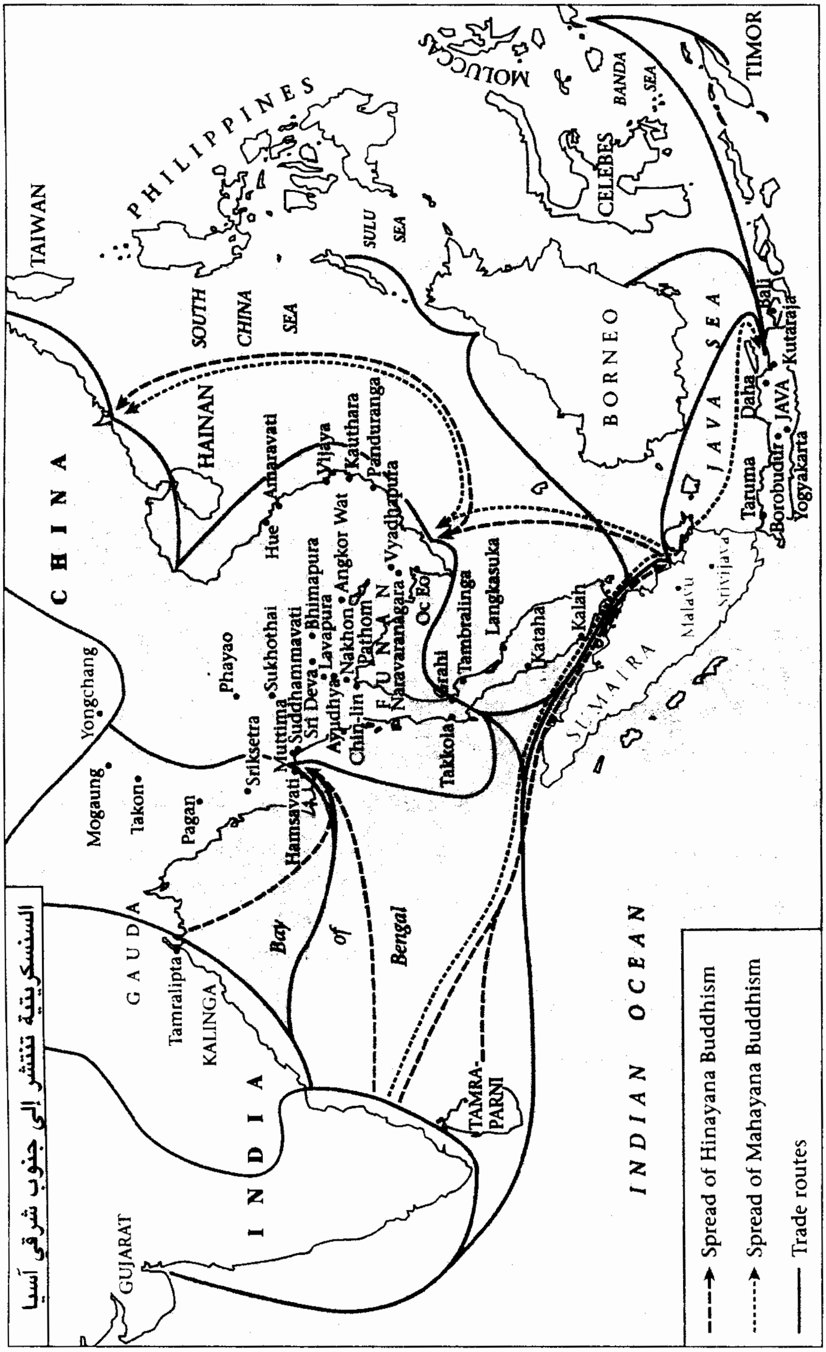
العالمية، لأن السنسكريتية هي أول مثل في التاريخ للغة تنتقل على شبكة بحرية من خلال إقامة صلات تجارية وثقافية مع الشعوب على الجانب الآخر. وفي هذا يمكن اعتبارها بشيراً بانتشار اللغات الأوروبية الغربية في القرون الخمسة الأخيرة.

فعند حلول منتصف الألف الأول الميلادي، كانت السنسكريتية قد ترسخت باعتبارها السمة الرسمية المميزة لحضارة مدموغة بالطابع الهندي، بما في ذلك في جميع أنحاء جنوب شرقي آسيا، بما فيها الجزر الرئيسية في ماليزيا وإندونيسيا الحديثتين. وليس هناك سجل واضح عن كيفية حدوث ذلك. ولكن أحد جوانب انتشار السنسكريتية واضح: لم يكن التوسع عسكرياً. فلم تكن هناك أي حركة للهنود تشبه الحرب إلى داخل آسيا، حتى من قبل الإمبراطوريات الهندية النموذجية في قصر عمرها، والتي لم يكن يبدو أنها تعيش أكثر من بضعة أجيال، حتى في شمال الهند.

ولكن إذا تركنا الطموح العسكري جانباً، فإن الدوافع المقترحة لحالات النجاح الهندية تستغرق كل إمكانية أخرى: اللجوء من الحروب الإمبراطورية، من أباطرة موراي وآسوكا فصاعداً، وغارات القراصنة، وروح المغامرة، والسعي السلمي للتجارة، والرغبة في نشر التعليم المقدس، والبوذية بالتأكيد، وربما حتى الهندوسية قبل ذلك(*).

فكل واحد من هذه الاحتمالات فيه شيء يزكيه. وهي لا تستبعد بعضها بعضاً بصورة متبادلة. فلا بد أن هناك معنى ما - على سبيل المثال - لكون اسم الهند الشائع بين الملايويين والكمبوديين هو "كلنغ"، أي كالينغا، المملكة الساحلية في شرقي الهند، التي تعرضت لغزو دموي على يد آسوكا. وهناك، وخاصة في منطقتها الشمالية، "تامراليبتا" (أي 'الملطخة بالنحاس'، تاملوك الحديثة في البنغال الغربي)، كان هناك تقليد لإنتاج "سارتافاها"، أو "سادهافا"،

(*) على عكس ذلك كلياً، قدر للهندوسية فيما بعد أن تتخلى حتى عن إمكانية السفر بحراً إلى الخارج. فقد كانت تعتبر جالبةً لدناسة لا تمحى على الطبقات العليا. كما في مجموعة القوانين في أواخر القرن التاسع عشر من قبل "همادري" (3-2: ص 667).



السنسكريتية تنتشر إلى جنوب شرقي آسيا

أي 'التجار' الذين كان يجري الخلط الخاطئ بينهم وبين "الساهاسيكا"، أي 'القراصنة' الذين كان يضرب المثل بشجاعتهم وعنفهم باللغة السنسكريتية. وفي محفوظات الحكمة العملية من القرن السادس الميلادي المعنونة "بانكاتانترا"، هناك ملاحظة تقول:

> إن التجار ـ القراصنة يعتبرون الخوف الذي يبثه ذوو النفوذ الثقيل خفيفاً مثل القشة(27).

إن حكايات "جاتاكا" الشعبية عن حيوات بوذا السابقة، والتي تم تأليفها في حوالي هذا الوقت، مليئة أيضاً بالتجار الباحثين عن الثراء في "سوفارنابهومي".

وهناك تلميح إلى الدافع التجاري أيضاً في الأسماء السنسكريتية التي أعطاها الهنود لأجزاء من هذا العالم الشرقي. فسريلانكا كانت معروفة باسم "تامرادفيبا"، أي 'جزيرة النحاس' أو "تامرادبارني"، أي 'رقائق النحاس'. والأرض التي وراء المحيط الشرقي كان اسمها "سوفارنادفيبا" أو"سوفارنابهومي" أي 'جزيرة الذهب' أو 'أرض الذهب'. وعاشت هذه الأسماء حتى أخذ بها المستكشفون اليونانيون أو ترجموها. فأعطوا سريلانكا اسم "تابروباني"، وأعطوا جنوب شرقي آسيا اسم "خريسي خرسونيسوس"، أي 'شبه جزيرة الذهب'. وليس هناك شيء في جيولوجيا هذه البلدان يوحي بأن هذه التسميات كانت في محلها. ولكن من الواضح أن البحث عن المعادن النفيسة كان جزءاً من أسطورة مثل هذه الملاحة القديمة. وإن إحدى أكثر الحكايات إيحاءً في السنسكريتية عنوانها "كاثاساريتساغارام"، أي 'قصة محيط الجداول'، وهي تعادل "ألف ليلة وليلة"، وهي تحكي عن بحث كاهن براهماني عن أحبابه المفقودين في "كاناكابورتي"، أي 'مدينة الذهب' الواقعة في مكان ما وراء "الجزر". وأحد التجار الذين يلتقي بهم في طريقه له أب يعود غنياً من رحلة بحرية طويلة إلى جزيرة نائية، وقد حُمِّلت سفينته بالذهب على وجه التحديد.

وبصورة أكثر واقعية، كان هناك مجال لتحقيق ربح هائل في أعمال

المراكز التجارية لتوزيع السلع، بمبادلة الصمغ العطري الهندي (بما في ذلك الكُنْدُر والمُرّ) بالحرير الصيني، أو بالحصول على منتجات محلية مثل الكافور من سومطرة، أو خشب الصندل من تيمور، أو القرنفل من جزر ملقة الإندونيسية[28].

وقد انطلق الهنود إلى أرض الذهب من جميع أنحاء شبه القارة. ومن الواضح أن أقصر رحلة كانت من "غودا" (البنغال الحديثة) وكالينغا: فنحن نعرف أن فا ـ كسيان ويي ـ جنغ قد ركبا السفينة من تامراليبتي، ولكن الرياح السائدة في خليج البنغال من حزيران/يونيو إلى تشرين الثاني يكون اتجاهها جنوبياً غربياً، وهكذا فإن أسهل إبحار مباشر يجب أن ينطلق من السواحل الجنوبية، وهذه هي منطقة جميع الموانئ التي يذكرها اليونانيون[29]. وهناك حفنة من النصوص باللغة التاميلية ظهرت في سومطرة وشبه جزيرة الملايو تؤكد هذا الطريق. وكانت هناك حصة لموانئ الساحل الغربي أيضاً كمنطلقات للمغادرة باتجاه الشرق: وهناك مَثَلٌ قديم في غوجارات يذكر ثراء البحارة العائدين من جاوة[30].

وهناك شيء يثير اهتمامنا أكثر من دوافع التجار الهنود، وهو كيف كانوا يبدون للناس الذين يستقبلونهم، والذين كان الهنود يعرفونهم باسم "دفيبانتاراه"، أي 'أهالي الجزر'. وكان هؤلاء الناس، وهم البورميون في الشرق، والأستراليون ـ الآسيويون في الجنوب (من عشائر مون، أو الخمير، أو التشام)، والملايويّون في الجزر، يستعملون البرونز، والأبقار والجواميس المدجّنة. وكانت لهم سفنهم وقواربهم الخاصة بهم. ولم يكونوا يعرفون القراءة والكتابة. وكان الهنود يقدمون أنفسهم للزعماء المحليين على أنهم شخصيات زائرة رفيعة المقام، وربما كانوا يزعمون أن لهم علاقات ملكية في موطنهم عبر المحيط، ويقدمون هدايا، وربما أدوية وتعاويذ سحرية. وعندما يكسبون حظوة عند رجال النخبة، كان بعضهم يتزوج من بناتهم، وبذلك بذروا بذور سلالات جديدة.

BURMESE: ပါဠိအရေးအသားသည် မြန်မာစာအရေးအသားကို အတော်ပင် လွှမ်းမိုးခဲ့ဟန်တူသည်။
palí- 'əjè 'əθàði mjãmasa 'əjè 'əθàgo ətɔbĩ hlũmmògɛ́hãtuði
يبدو أن الكتابة البالية كان لها أثر كبير على الكتابة البورمية (في ميانمار).

THAI: คำภาษาไทยให้เขียนตามหลักเกณฑ์นิรุกติศาสตร์
kham pha:sǎ: thay hây khǐan ta:m làk ke:n nirúktisà:t

إن الكلمات باللغة التايلاندية يجب كتابتها على أساس مبادئ أصل الألفاظ وتاريخها.

LAO: ຄຳພາສາລາວໃຫ້ຂຽນຕາມສຽງເວົ້າ
khám pha:sǎ: law hây khǐan ta:m sǐaŋ

إن الكلمات باللغة اللاوسية يجب كتابتها حسب طريقة اللفظ.

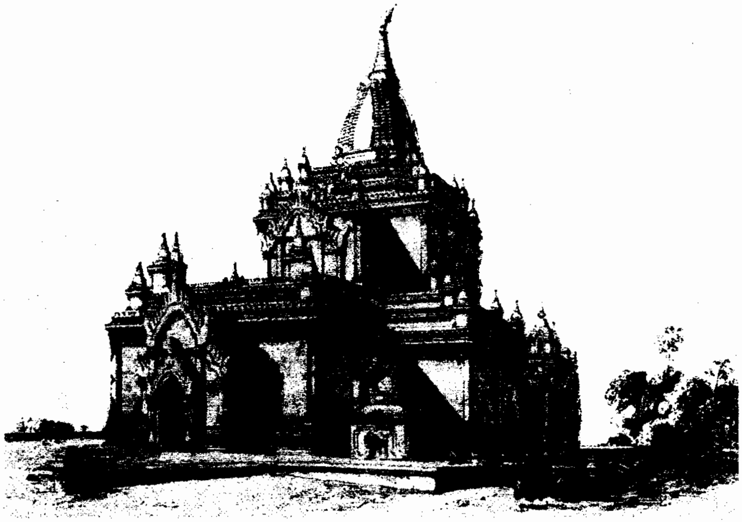
KHMER: ពេលនោះគាត់រុតបានត្រីរ៉ស់មួយហើយនិងបានទន្សាយលង់ទឹកមួយ
pe:l nuh koạt rut ɓa:n trəi rɒh muəy haəj nəŋ ɓa:n toạnsa:j loəŋ tɨk muəj

بلغة الخمير: في ذلك الوقت، صاد تري - راه (وهي نوع من السمك)، وبعد ذلك حصل على أرنب كان قد أخذ يغرق في الماء.

نصوص من جنوب شرق آسيا هندية الأصل

وقد جلب الهنود معهم معرفة القراءة والكتابة، وثقافة قديمة تملك مجموعة كبيرة من القواعد (وهي حِكَمٌ دينية هندوسية مختصرة أو محاورات تحتوي على تعاليم بوذا) تصلح لكل مناسبة. وكانت هناك الأساطير الهندوسية كلها، فصارت شخصياتها (مثل آغاستيا وكريشنا وراما والإخوة باندافا) تظهر كأسماء شائعة يتكرر ذكرها في بيوت العائلات في جنوب شرقي آسيا منذ ذلك الحين. وكانت هناك الفكرة المتميزة عن تكامل الأدوار بين الملك والكاهن، ولو بشكل محير بلا نظام أو ترتيب، غير أنه كان في آخر الأمر يعطي دلالة أعلى على علاقة واضحة من الدعم المتبادل. وهذه العلاقة يمكن أن تضمن شرعية الحكام وتجعلها دائمة. وهكذا فإن الحكام الذين كان الهنود يلتقون بهم كان يسعدهم أن يصبحوا أصدقاءهم، أو شركاءهم التجاريين، أو أصهارهم. وكان الجيل الذي نشأ من هذه الزيجات المختلطة هو أول جيل يتلقى تعليمه بالسنسكريتية بشكل تام.

وكانت إحدى خصائص الحضارة الهندية التي جلبها التجار معهم هي الاتجاه إلى تحوير الأبجدية وتعديلها حسب حاجات الزبائن. وبالضبط مثلما



الهندسة المعمارية لمعبد في جنوبي شرق آسيا

يوجد الآن عشرة نصوص مكتوبة كبرى على الأقل(*)، مستمدة من الحروف البرهمية في الهند (منتشرة في جميع أنحاء شبه القارة من أيام آسوكا)، فإن هناك تسعة أخرى تطورت في جنوب شرقي آسيا، وإندونيسيا، والفليبين(**)، وكلها مشتقة من نصوص هندية، والعديد منها عن طريق نصوص بلغة بالافا من الجنوب. وإن أصل هذا التنوع يكمن في تنوع مواد الكتابة المتوفرة في أماكن مختلفة، ولكن من الواضح أن الأساليب المختلفة قدّر لها أن تصبح أيقونات وطنية. وعلى الأعمدة الكمبودية التي تحمل قواعد تنظيم الأديرة، كانت السنسكريتية المكتوبة بحروف لغة الخمير على أحد الجوانب، تقابلها على الجانب الآخر سنسكريتية مكتوبة بحروف النصوص الهندية الشمالية، فربما كان يقيم هناك أتباع من شمال الهند، وكذلك من الخمير[31].

(*) باللغات الدفاناغارية، والغوجاراتية، والبنجابية، والبنغالية، والأوريائية في الشمال؛ والتيلوغية، والكانادية، والتاميلية، والمالايالامية، والسنهالية في الجنوب. وهناك أبجدية أخرى ذات علاقة بها، مستخدمة على مبعدة في الشمال من أجل اللغة التيبتية.

(**) هي البورمية، واللاوية، والتايلاندية، والخميرية (في كمبوديا) على البر الرئيسي، والجاوية، والبالية، والطاغالوغية (في الفليبين) والباتاكية (في سومطرة) والبوغية (في سولاويسي).

وهذه علامة واحدة فقط من علامات كثيرة على وجود مرور ثقافي مزدحم يتحرك في الاتجاهين بين الهند والهند الصينية أثناء هذه الفترة. وكان هناك مثال آخر قدمته حياة آتيشا، وهو راهب ولد في البنغال العام 982 م، ثم أصبح واحداً من مؤسسي البوذية في التيبت في الستينيات من عمره. وكان قد قضى أيام دراسته كطالب في سري فيجايا، في سومطرة.

وبطريقة ما، فإن الثقافة، كما جاء بها الهنود، ستظل غامضة بالنسبة لنا. إن فخامة تألق شوي داغون في بورما، وبوروبودور في جاوة، وآنغكوروات في كمبوديا، وكذلك الروائع الجميلة في باغان، وتشامبا، ولاوس، وبالي، وسومطرة، التي بنيت على مدى ألف عام، اعتباراً من حوالي العام 500 م، كانت كلها نابعة من أفكار الهنود المنطوية على بذور تطور مبشرة في المستقبل، ولكن فيما يتعلق بالهندسة المعمارية على الأقل، ليس هناك شيء مثل هذه الروائع في الهند نفسها الآن. ولا نستطيع سوى أن نتكهن بأن طرازات العمارة التي نفذت في الحجارة في بورودوبور وأنغكوروات ربما كان فيها صدى من الهندسة المعمارية للمباني الخشبية التي اختفت من الهند الجنوبية منذ زمن طويل.

ومع ذلك، فإن التعداد التفقدي للغات والحضارات التي أخذت بداياتها من الهند يذكرنا بمدى اتساع هذا التأثير، وتنوعه، وطول بقائه. بل إن هذا التأثير كان أكثر لفتاً للنظر لأنه لم تطبق أي قوة عسكرية في أي مكان لإدخال هذا المجتمع الهندي الجديد الأكثر تنظيماً. وهذا يتناقض تناقضاً حاداً مع سجل الغارات من الحضارات المتطورة الأخرى إلى جهة الشمال. فمنذ القرن الأول الميلادي، كانت الصين تمارس ضغطاً مستمراً على المملكة الآنامية لفيتنام الشمالية، وتغزوها بين فترة وأخرى، وتصر على اعترافها بإمبراطور الصين كسيد أعلى لها.

إن أقدم مملكة مهنّدة يرد ذكرها في الوثائق - والتوثيق صيني - قد أقيمت في القسم السفلي من وادي الميكونغ، في كمبوديا وفيتنام الجنوبية الحديثتين، ربما في القرن الأول الميلادي. وفيتنام معروفة في العادة باسم فونان، الذي هو النسخة الصينية من اسمها. وكانت تسمى بلغة الخمير "بْنَامْ"، أي 'الجبل'(*)،

(*) تلفظ الكلمة نفسها "فنوم" كما في اسم العاصمة الكمبودية "فنوم بينه".

وكان ملكها يسمى "كورونغ بنام"، وهو لقب يعني ʻملك الجبلʼ. وكان سيقيم طقوساً للإله سيفا، في مكان عال، وبذلك يوفق بين شرعيته كملك هندي، وبين الروح الأهلية البلدية للأرض[32].

وهذا ما تؤكده أسطورة تأسيس فونان، عند قراءتها من نص سنسكريتي مكتوب في تشامبا[33]. فقد تلقى برهمي يدعى كوندينيا (وهو اسم مشتق من "كوندين"، أحد ألقاب سيفا) رمحاً من برهمي آخر، بطل من المهابهاراتا اسمه "آسفاتامان"، وقذف به ليعرف الموقع الصحيح للمدينة. وقد تزوج أميرة محلية اسمها سوما، ابنة ملك "الناغاس"، وهي أفاعي الكوبرا المتعددة الرؤوس التي كانت معبودة باعتبارها حارسة لثروات الخمير.

وبعد ذلك، أقيمت دول كبرى ناطقة بالسنسكريتية في جميع أنحاء جنوب شرقي آسيا وسومطرة، وجاوا[*]. وكانت أسماؤها نفسها بالسنسكريتية، وهي تُظْهِر إما علاقة عاطفية مع أماكن هندية مقدسة بعيدة، أو محاولة لإضفاء طابع هندي على أسماء محلية. وكثيراً ما يكون من الصعب الآن تحديد مواقعها بالضبط. ففي الملايو، هناك "لانكاسوكا"، التي تُشرف على الطريق الوحيد الكثير الاستعمال من خليج البنغال إلى خليج سيام، إلى جانب "تامبرالنغا" (ليغور) و"تاكولا" (تاكوابا) و"كاطاها" (كيداه)؛ وفي تشام، جنوب فيتنام الحديثة، هناك "آمارافاتي" (دونغ ديونغ) و"فيجايا" (بينْهْ دينْهْ)، و"كوثارا" (نها - ترانغ) و"باندورانغا" (فانرانغ)؛ وفي جاوا، هناك "طاروما" (حول جاكارتا) و"كوتاراجا" في الشرق؛ وفي سومطرة هناك "مالايو" (جامبي) و"سري فيجايا" (بالمبانغ)؛ وفي بورما هناك "سودهامافاتي" (ثاتون)، و"شريكسترا" (بروم أو ثايخيطايا)،

(*) اسم جاوا مشتق من "يافادفيبا"، أي ʻجزيرة الشعيرʼ، وسومطرة: "سامودرا"، ʻالبحرʼ، ومالايا في الحقيقة من كلمة درافيدية، "مالاي"، أي ʻتلʼ في جنوب الهند قرب مالابار. أما كمبوديا (كامبوجا) فهي توحي باسم مملكة في ممر خيبر، ولكن للفظها تفسير آخر منافس وهو: المولود من كامبو سفايامبهوفا، وهو ناسك اتحد مع الحورية السماوية ميرا ليؤسسا عرق الخمير (كوديز 1968، ص66). وتشامبا تشترك في اسمها مع مملكة وادي الغانج الأسفل، ولكنها قد تكون من الاسم العرقي تشام بصيغة سنسكريتية. ونهر إراوادي في بورما فقد دعي باسم "إرافاتي" أي ʻالذي فيه ماء للشربʼ، وهو الاسم القديم لنهر رافي في البنجاب. [وهو قريب من عبارة ʻوادي الريʼ بالعربية - المترجم].

و"هامسافاتي" (بيغو)، و"سري ديفا (سي ذيب)؛ وفي منطقة تايلاند الحديثة هناك "دفارافاتي"، شمال بانكوك.

كما أن أسماء الحكام سنسكريتية بصورة نموذجية. ومن الأمثلة الجيدة على ذلك أن أكثر من ثلاثين ملكاً كمبودياً تنتهي أسماؤهم بكلمة "فارمان"، أي 'المعقل'، من "جايافارمان"، الذي مات في العام 514 م، إلى "سريندرا جايافارمان" (1307 ـ 1327)، وملوك ماجاباهيت في إندونيسيا، من "راجاسا" في 1222 ـ 1227 إلى "سوهيتا"، 1429 ـ 1447(*). وقد أدى هؤلاء إلى مزيد من أسماء الأماكن بالسنسكريتية، إذ كانت هناك عادة تسمية مدينة ما باسم الملك الذي أسسها. ونعطي مثالاً من عشرات الأمثلة، فإن مدينة "شريستابورا" (التي معناها الحرفي: 'أحسن المدن')، عاصمة كمبوديا، قد سميت على اسم مؤسسها، الملك "شريستا فارمان" (أي 'أحسن معقل'). ومن المحتمل كذلك أن "سري فيجايا"، المملكة المسيطرة في سومطرة الجنوبية قد سميت على اسم الملك "فيجايا"، أي 'المنتصر'.

وهذه مجرد عينة من الأسماء المعروفة أكثر من غيرها، وكما يمكن توقعه، فإن تاريخ علاقات هذه المدن وهؤلاء الملوك على مدى ألف عام هو موضوع واسع ومتشعب، وهو لن يطرح هنا.

ومن السهل تجاهل مدى التغيير الكبير الذي لا بد أن إدخال السنسكريتية قد أحدثته في حياة الشعوب المحلية. فالسنسكريتية، كنمط لغوي، كانت مختلفة عن اللغات المحلية بصورة مخيفة، المصنفة الآن على أنها بورمية، وأسترالية ـ آسيوية، وأسترالية ـ أندونيسية. فالسنسكريتية لغة متعددة المقاطع، وكثيرة التغير بالصرف والإعراب. ولها نظام معقد من الحروف الصامتة لا ينفر من عناقيد الكلمات الطويلة. ونظام ترتيب الكلمات حرّ. وكان يأخذ بهذه اللغة ناطقون بلغات أخرى كلماتها قصيرة، وكثيراً ما تميزها النبرة، وهي مكونة من مقاطع بسيطة، بحرف صحيح واحد في بدايتها ونهايتها. وكانت تصاريف الإعراب فيها

(*) وهذا مستمر الآن إلى حدٍ ما، وهكذا فإن ميغاواتي سوكارنو بوتري، رئيس إندونيسيا أثناء تأليف هذا الكتاب له اسم ترجمته هي: 'الغائمة، ابنة الرحيم'.

غائبة، ولكن ترتيب الكلمات ثابت جامد. فكان التغيير جذرياً إلى درجة تعادل جذرية إدخال اليابانية كلغة نخبوية في مكان لا يعرف فيه الجميع في السابق سوى الإنكليزية أو الهولندية. أما مدى كون إدخال السنسكريتية انقلاباً عنيفاً مفاجئاً فيمكن رؤيته في البقايا المشوهة لبعض الأسماء السنسكريتية: فقد تغيرت تسمية "شريكسيترا" إلى 'ثايخيتايا'، وصارت "سري ديفا": سي ذيب.

ورغم ذلك فإن نوعية السنسكريتية المكتوبة التي حصل عليها أهالي هذا الجزء من العالم لم تكد تنحرف أو تبتعد عن نوعيتها في الهند. فنحن لا نرى 'تأثيراً مادياً سطحياً' في النصوص المكتوبة هنا. وعند الحديث عن كمبوديا، يلاحظ ر. ك. ماجومدار أن نصوصها المعروفة من العام 475 إلى العام 1327 'مؤلفة بأسلوب شعري لا يكاد يكون فيه أي عيب ـ وبعضها نصوص مطولة جداً ... وقد استخدمت كل الأوزان العروضية السنسكريتية تقريباً في هذه الأشعار. وهي تعرض معرفة تامة بأكثر القواعد والتقاليد تطوراً في الخطابة والعروض السنسكريتيين'[34]. كما أن النصوص مليئة بالإشارات المثقفة، وحتى البارعة الذكاء، على كتب الفيدا وكل فروع المعرفة الثقافية الهندية، وخاصة القواعد النحوية.

وكانت هناك براعة وضلاعة على نحو خاص لدى الملكة إندراديفي، زوجة الملك جايافارمان السابع (الذي حكم كمبوديا من العام 1181 إلى حوالي العام 1218): فقد كانت بوذية ورعة، ودرّست الراهبات البوذيات في ثلاثة أديرة. وقد تركت نصاً مكتوباً فيه مدح لشقيقتها الصغرى، وهي باحثة أخرى من المحزن أنها ماتت وهي شابة. وهذا النص مؤلف من مئة بيت وبيتين من الشعر في عدة أوزان عروضية مختلفة[35].

إن بعض الأعمال الأدبية المكتوبة في الهند الصينية قد انضمت إلى مجموعة المؤلفات السنسكريتية التقليدية الكلاسيكية. فقصيدة "مجموعة الأشياء الجوهرية" التي ألفها فاراروسي يمكن اعتبارها نقداً قوياً فعالاً: فلكي يبين كيف يمكن أن تختلف الآراء، يستحضر صورة نهد امرأة ـ كما يبدو في عيني طفلها، وفي عيني زوجها، ثم يصور جسدها الميت كما يراه زاهد، ثم كما يراه عشيقها،

ثم كما يراه كلب. وفيما بعد، يستبق فاراروسي رهان باسكال، بنصيحته للملحد المنكر لوجود الله والعالم الآخر: إذا لم يكن هناك عالم بعد الموت، فليس هناك شيء مخيف على أية حال. أما إن كان هناك عالم بعد الموت، فإن الملحدين هم الذين سيعانون العذاب[36] .

ويظهر أن النصوص السنسكريتية قد لعبت دوراً هاماً في تأسيس طوائف هندوسية جديدة ربما تكون قد أقيمت لتحصين دول حديثة الاستقلال: وهكذا فعندما حرّر جايافارمان كمبوديا من السيطرة الجاوية في القرن الثاني عشر، دعا كاهناً برهمياً اسمه "هيرانياداما" (أي 'الحبل الذهبي') لإجراء طقوس تانترية لضمان هذا التحرير تحت حكمه. فنتجت عن ذلك طائفة "ديفاراجا"، أي 'الإله - الملك' التي دامت مئتين وخمسين عاماً، وكانت تقوم بوضوح على أربعة نصوص "شاسترا" مسمّاة. ولم يكن ذلك ممكناً بدون السنسكريتية، والوصول إلى الحكمة القديمة المنطوية عليها ضمنياً.

وبين حين وآخر، فإن الشعور بقوة روحية خارقة للطبيعة تنشر السنسكريتية كان يؤدي إلى حنين روحي غير سويّ. إذ يقال أن غانغاراجا، أحد ملوك تشامبا قد تنازل عن عرشه كي تتاح له فرصة لفظ أنفاسه الأخيرة على ضفاف نهر الغانج المقدس. وفي مجال روح عامة أكبر، هناك دليل من نص عُرِضَ في فات لونغ كاو في لاوس يذكر أن ملكاً يدعى "سري ديفانيكا" قد خطط لإقامة "كوروكشيترا" جديدة في موطنه كبديل عن القداسة المحضة "للكوروكشيترا" الحقيقية في شمال دلهي. وباعتبار هذا المكان موقع معركة "المهابهاراتا" العظيمة، فقد كان مزاراً مقدساً لا نظير له بين المزارات، ولكن المحزن أن الوصول إليه كان مستحيلاً. ويستشهد هذا الملك بنص مقتبس من الملحمة:

> على الأرض هناك نيميشا المبارك، وفي الأثير هناك بوشكارا
> ولكن في العوالم الثلاثة فإن كوروكشيترا تمسك بالتاج[37].

ولم تصل سنوات التأثير الهندي الطويلة إلى نهايتها إلا بعد ألف عام كاملة. وكانت قد حدثت صدمة كبرى في القرن الثالث عشر، عندما نهب المغول باغان

والممالك البورمية الأخرى في الشمال. ولكن أحد الباحثين البارزين قد اقترح، دون أن يغيب عنه الحنين إلى الماضي، بأن الحضارة الهندية كانت ضحية شعبيتها المتزايدة نفسها: 'إن الأسباب الكامنة وراء هذا الانحطاط كانت قيام أعداد كبيرة ومتزايدة من الأهالي الأصليين بتبني الحضارة الهندية، فدمجوا فيها عاداتهم الأصلية بصورة أكثر فأكثر، وكذلك الاختفاء التدريجي للأرستقراطية المصقولة المهذبة، حارسة الثقافة السنسكريتية'[38].

وعلى أية حال، فإن فيتنام في القرن الخامس عشر وسعت نفوذها إلى داخل تشامبا، وضمت إليها جنوب الهند الصينية بصورة دائمة، وفي الوقت نفسه تقريباً، قامت مجموعات من الشعوب الجبلية، مثل الشان في بورما، والتايلانديين في سيام، بتأسيس ممالك جديدة أزاحت جانباً القوى القديمة في باغان وآنغكور. ومع ذلك، فعندما أسس التايلانديون عاصمتهم الجديدة لم يستطيعوا أن يمنعوا أنفسهم من تسميتها آيوتهايا، في تكريم مباشر لآيودهيا، التي كان يقيم فيها راما، البطل الهندوسي.

السنسكريتية تنقلها البوذية: آسيا الوسطى والشرقية

لقد تحدثنا عن السنسكريتية حتى الآن إلى حد كبير كأداة للهندوسية. ويبدو أن هذا كان إلى حد كبير هو ما نقلته أول الأمر إلى جنوب شرقي آسيا. فعندما عاد فا ـ كسيان إلى الصين عن طريق ييبوتي (يافادفيبا) في جزر الهند الشرقية في أوائل القرن الخامس الميلادي أبدى ملاحظة قال فيها: 'في هذا البلد يزدهر الهراطقة والبراهمة، ولكن قانون بوذا ليس معروفاً كثيراً'[39].

وحتى يومنا هذا، لا تزال الهندوسية باقية في جزيرة بالي، إلى الشرق من جاوة. غير أن الصورة في أماكن أخرى من جنوب شرقي آسيا مختلفة جداً الآن، فقد حلت البوذية محل الهندوسية منذ زمن طويل. وكانت هذه نتيجة تاريخ طويل ومعقد ولو أنه ليس دموياً على وجه الخصوص، من الصراعات المذهبية بين العقيدتين. فالعلاقات الوثيقة للطوائف الهندوسية بالسلالات الحاكمة راحت تعمل ضد تلك الطوائف في آخر الأمر عندما سقطت تلك السلالات. ولكن كانت

هناك أيضاً منافسات بين سلالات بوذية، منها "التانترا"، التي تعني في الأصل 'النول'، أو 'الإطار' و"المهايانا"، أي 'المركبة العظيمة'، و"الثيرافادا"، أي 'مذهب الكبار'. وفي آخر الأمر فإن الثيرافادا، محصنة بعلاقات مع السنهالا في سريلانكا، انتصرت في جنوب شرقي آسيا. ومع ذلك فإن كل هذه الصراعات وقعت على أرضية خلفية من الثقافة الهندية لم تلق تحدياً.

فالمبشرون البوذيون جاؤوا في الحقيقة بعد وقت قصير جداً من التجار والقراصنة الهنود الأوائل، إن لم يكونوا معهم. فالمسارد التاريخية السيلانية الزمنية تذكر أن آسوكا بعث راهبين هما "صونا" و"أوتارا" إلى "سوفانابهومي" في القرن الثالث ق.م.[40]، رغم أن أول السجلات الأثرية للنشاط البوذي في جنوب شرقي آسيا (في مناطق بورما وتايلاند الحديثة) تعود إلى القرن الخامس الميلادي. وقد كانت الهندوسية دائماً ديانة يحتمل أن تعجب الملوك والنخب الحاكمة، ولكنها لم تكن تعجب الطبقات الدنيا طوعاً، مثل السودرا، والمنبوذين، المسحوقين بشكل فريد في نظام الطبقات الهندوسي؛ وعلى العكس، فإن البوذية، بتأكيدها على المساواة الشخصية في السعي إلى الاستنارة، كان من الممكن أن تعجب الناس على نطاق أوسع من حيث المبدأ. ويبدو أن من المحتمل أن الديانتين كانتا ممثلتين في أوائل التقدم الهندي إلى داخل المنطقة؛ بل إن جاذبيتيهما المتبادلتين قد عملت كل منهما على دعم الأخرى، بينما كانتا تعززان الترويج للثقافة الهندية بين الأجانب.

وكان للتميز الديني دائماً بعض التبعات اللغوية الضمنية، فكان الهندوس يفضلون السنسكريتية الفصحى الكلاسيكية، بينما كان البوذيون يفضلون لهجة بالي ذات الصلة الوثيقة بها ولكنها أبسط إلى حد ما. ومع مرور الزمن كان هناك أيضاً توجه لإعادة إلباس لهجة بالي صيغاً سنسكريتية عتيقة، مما أوجد أسلوباً خاصاً من السنسكريتية المهجنة بالبوذية. وكانت الثقافة الحقيقية والابتكار الإبداعي بالسنسكريتية الفصحى الكلاسيكية تميل إلى أن تكون في أفضل حالاتها في المناطق الهندوسية، مثل تشامبا، وكمبوديا، وجاوة، وبالي.

ورغم أن بوذا كان في الأصل يحث أتباعه على أن يتركوا وراءهم القوانين

اللغوية الصارمة، وأن يعملوا بأي لهجة عامية دارجة من أجل إيصال رسالتهم إلى الناس، فإن النصوص الدينية البوذية بقيت بلهجة بالي في جنوب شرقي آسيا، حيث لم تكن هناك أي محاولة كبرى لترجمتها إلى اللغات المحلية ـ على عكس الحالة في الصين والتيبت. فصارت الباليّة لغة طقوسية سرية تقتصر معرفتها على قلة من الناس ولا يعرفها عامتهم، ولكن دون أن يكون لذلك تأثير ضار على انتشار البوذية كما يبدو.

كما لم يكن هناك أي ميل معاكس للأخذ بالبالية أو بشكل من أشكال السنسكريتية كلغة للاتصال العام خارج نطاق الطقوس والمناقشات البوذية. فليس هناك أدب دنيوي علماني بالبالية، رغم أن حكايات "جاتاكا"، التي تروي اسمياً حيوات بوذا السابقة تشبه الكتب القصصية الأخرى مثل خرافات إيسوب، أو العمل الهندي المعادل لها والمعنون "بانكاتانترا". وفي جنوب شرقي آسيا، حيث يستمر بقاء البالية كلغة طقوسية، ليس للهجة المحلية الدارجة علاقة بها: فاللغات البورمية، والتايلاندية، والخميرية، والآسيهينية، والملاوية، والجاوية، كلها لا علاقة لها بالبالية، رغم أن هذه اللغات مثقلة بالكلمات المستعارة من اللغات الهندية.

لقد أثبتت البوذية أنها عقيدة ذات جاذبية لافتة للنظر من الهند إلى الخارج، نحو الشمال والشرق، وهكذا فإن البالية والسنسكريتية معروفتان بصورة جيدة للغاية في هذه الأصقاع الشاسعة. ولكنهما بقيتا كلغتين للطقوس لا أكثر. ونتيجة لذلك، فإن التأثيرات اللغوية للبوذية كانت أضعف بكثير من تأثيرات المسيحية والإسلام. فبرغم كل شيء، فإن اللاتينية، لغة المسيحية الغربية، قدمت الأساس لنمو لغة مشتركة في الأديرة، ثم في جامعات أوروبا في هذه الفترة نفسها (500ـ1500م). كما أن الإسلام عزز نشر العربية في جميع أنحاء شمال إفريقيا، والجزيرة العربية، وفلسطين، ووادي الرافدين، فاستمرت إلى يومنا هذا، بشكلها غير المتغير كلغة مشتركة للمثقفين، وكأساس لعدة لهجات عامية دارجة، مع تحويرات محلية. وليس هناك اتحاد لغوي مماثل للبوذيين في لغاتهم اليومية.

أما بالنسبة لكيفية استخدام اللغة في هذا الجزء من قصة السنسكريتية فليس هناك الكثير مما يمكن أن يقال. ففي الهندوسية، فإن الفضيلة الضمنية

الكامنة في صوت كتب الفيدا نفسه قد انفصلت منذ زمن طويل عن الحاجة لفهم معناها. ومرة أخرى بالنسبة للبوذيين الآن، بعدما لم تعد اللغة مفهومة على نطاق واسع، ولكنها لا تزال مسموعة على نطاق واسع في الأناشيد والاحتفالات، فإن مادتها وصوتها راحا يكتسبان قيمة صوفية بحد ذاتهما. وصارت السنسكريتية لغة تراتيل دينية، وتعاويذ، و"مندالة" (دائرة تطوق شكلاً مربعاً كرمز مقدس للكون عند الهندوس والبوذيين). وفي اليابان في العصور الوسطى، كان تكرار ترنيمة "نامو آميدا بوتسو"، وهي صيغة من تعويذة "ناما آميتابها بوذا"، التي معناها: 'أنحني لك أيها المتألق المستنير'، وسيلة لا تخطئ للوصول إلى الأرض الطاهرة بعد الموت. وحتى يومنا هذا ينشد ملايين التيبتيين ترنيمة "أوم ماني بادمي هوم"، أي 'تحية للجوهرة في وردة النيلوفر'، وهي عبارة صوفية من البوذية التانترية، وقد صارت صورتها الجنسية الأصلية الآن منسية تماماً.

ومن ناحية عملية أكثر نزوعاً إلى الذرائعية، فان التكنولوجيا والأنظمة المرتبطة بكتابة السنسكريتية وإعرابها قدمت أساساً لتعلم القراءة والكتابة بلغات أخرى. وبهذه الطريقة، فإن اللغات المقدسة، غير المتاحة للاتصال المباشر بين الناس، يمكنها مع ذلك أن تستمر في إلهام تطورات في اللهجات الدارجة المحلية.

إن مجيء السنسكريتية المعروفة باسم "فانوين"، أي 'الكتابة البراهمانية' إلى الصين، ومجيء "البونغو"، أي 'الكلام البراهماني' إلى اليابان لم يكن له سوى تأثير ضئيل على نظام الكتابة القائم على الحروف والمستعمل في شرق آسيا، إذ إن النظام كان قد ترسخ جيداً في الصين على مدى أكثر من ألف عام، بل إن الحروف الصينية هي التي كثيراً ما تستخدم (ولو بطريقة لفظية فقط) لتمثيل اللغة السنسكريتية نفسها في الممارسة البوذية لهذه البلدان.

وكان من آثار السنسكريتية الفعلية تأثيرها على الطريقة الصينية لتصوير الألفاظ الكلامية. فالباحثون الصينيون في فترة حكم تانغ (في القرنين الميلاديين السابع والثامن)، بمعرفتهم للتقليد الأبجدي السنسكريتي، كانوا قادرين على تحديد الحروف الصامتة في بداية الكلمات، فأطلقوا عليها اسم "زيمو"، أي

’أمهات الكلمات‘، وهي تسمية يظهر أنها محاكاة للاصطلاح السنسكريتي "ماتركا"، أي ’الأمومة‘، وهو أيضاً أحد حروف الأبجدية. وكانت هذه الحروف مستخدمة للتنظيم المنهجي للممارسة التقليدية للدلالة على اللفظ في القواميس. فقد كانت المعاجم الصينية تقوم بذلك دائماً عن طريق ما يسمى "فانكي"، بربط حرف مع حرفين آخرين، أحدهما له الحرف الصحيح نفسه في البداية، والآخر له النغمة المسجوعة أو القافية نفسها في النهاية. فكان وضع هذا في خريطة ترتيب منهجية خطوة متواضعة جداً في الفهم اللغوي، ما دام لم يتخذ أي تصريف إعرابي آخر للجزء المسجوع في القافية (لتحويلها إلى حروف علة وحروف صحيحة مثلاً)[41].

وهناك أيضاً غرابة مثيرة للاهتمام في أحد الأنظمة الكتابية الأخرى المستخدمة في هذه المنطقة الشاسعة من آسيا[*]. فاليابان مدينة في ترتيب رموز مقاطعها اللفظية، المسماة "كانا"، أو "غو - جو - أون" أي ’الأصوات الخمسين‘ لترتيب الحروف في الأبجديات الهندية. فترتيب الحروف السنسكريتية هو تقليدياً كما يلي:

a ā i ī u ū ṛ ṝ ḷ
e āi o āu
ḥ ṃ
k kh g gh ŋ
c ch j jh ñ
ṭ ṭh ḍ ḍh ṇ
t th d dh n
p ph b bh m
y r l v
ś ṣ s h

وهذا ليس ترتيباً اعتباطياً كترتيب أبجديتنا الإنكليزية... A B C D[**]، بل إنه

(*) هناك تنويع بديل يدعى "سِيْدها ماتركا"، أي ’الأبجدية المستقرة‘، أو فقط سِيدْها ببساطة، هو نسخة الألفباء المكتوبة المستخدمة عموماً في التقاليد البوذية في آسيا الشرقية، (المسماة ماهايانا).

(**) إن الدافع لذلك هو تاريخي محض. فهذا الترتيب في آخر الأمر يعود إلى طريقة الترتيب العشوائية التي عينها الفينيقيون على شكل آَلِفْ بَيْت، جَيمْل، دَالِتْ، (اي الف باء جيم دال او ’أبجد‘).

يحتكم إلى خصائص متنوعة لفظية محضة للأصوات الممثلة. وهكذا فإن جميع الحروف الصامتة مثلاً توضع بترتيب يتقدم فيه اتصال اللسان من الخلف إلى الأمام في تجويف الفم. فالحروف الصامتة الأنفية (كالميم والنون إلخ) تأتي دائماً مباشرة بعد الحروف الصامتة الأخرى التي تتشكل في مكان التمفصل نفسه. والترتيب الغريب لحروف العلة يتكيف جزئياً بحقيقة كون معظم أمثلة حرفي الـ e والـ o في السنسكريتية مشتقة من إدغامِ حرفَيِ عِلّة لصياغة صوت واحد، مثل ai وau، وهكذا فإنها تصنف في الترتيب مع حروف العلة الطويلة المعادلة لها.

والآن فإن رموز "كانا" اليابانية تمثل مقاطع كاملة، وليس حروفاً صحيحة مفردة. وقد تغيرت طريقة لفظها بالتأكيد على مدى الألف عام الماضية. ولكن باستخدام أقدم لفظ يمكن إعادة تركيبه نستطيع أن نقول إن الترتيب التقليدي لها هو كما يلي:

a	i	u	e	o
ka	ki	ku	ke	ko
sa	si	su	se	so
ta	ti	tu	te	to
na	ni	nu	ne	no
fa	fi	fu	fe	fo
ma	mi	mu	me	mo
ya	(yi)	yu	(ye)	yo
ra	ri	ru	re	ro
wa	wi	(wu)	we	wo*

ونلاحظ على الفور أن الترتيب العشوائي لأحرف العلة (a i u e o) هو بالضبط كتركيبها في السنسكريتية، رغم أن ذلك ليس له دافع في القواعد النحوية اليابانية. وعلاوة على ذلك فإنه رغم وجود عدد من الحروف الصامتة في

(*) البنود الموضوعة بين قوسين غير موجودة بشكل منفصل في التهجئة أو في اللغة، وذلك لأسباب لفظية كلامية.

اليابانية أقل بكثير مما في السنسكريتية، فإنها تقع بالترتيب نفسه تقريباً كما هي في الألفباء السنسكريتية. والواقع أنه ليس هناك سوى استثناء واحد ظاهر هو حرف السين s الذي يقع حيث يجب أن يكون الحرف c أو الحرف t، فهو ليس في الأخير، كما هي الحال في الحروف الصافرة في السنسكريتية. والحقيقة أن هناك سبباً للاعتقاد بأن لفظ هذا الصوت هو مثل "sh" أو الـ "ch" بالإنكليزية عندما تم وضع الترتيب التقليدي، مما يعني أنه أقرب ما يكون إلى حرف c السنسكريتي [الذي يعادل ch بالإنكليزية]

إن هذا الاقتراض العقلي الكامل تماماً عند جذور نظام الكتابة يبين أن انتشار السنسكريتية إلى اليابان لم يرافقه انتشار صوت الأناشيد البوذية فقط، بل كذلك العناصر التقليدية للتصاريف الإعرابية في اللغة.

ومن الأمثلة الأخرى على تأثير السنسكريتية الفكري على تكنولوجيا الكتابة الحروف الهجائية التيبتية، التي نراها مستعملة لأول مرة في القرن الثامن الميلادي، مستمدة مباشرة من أبجدية سِيدْها. وإن أول استخدام معروف لها على عمود حجري في زول، قرب لهاسا يعود إلى العام 764 م[42].

وليس من الواضح تماماً إن كانت التيبتية مدينة في معرفة القراءة والكتابة للبوذية أم لمحاولات تحديث الإدارة. فإن فترة أول نصوص باقية من هذه اللغة هي بالضبط وقت مجيء البوذية إلى التيبت مع الراهب "سانتاراكسيتا". ولكن ليس هناك ذكر للبوذية فيما هو منقوش على العمود الحجري في زول، الذي هو سجل لمنجزات وزير ملكي[43].

ومهما يكن الدافع، فإن من الواضح أن الألفباء التيبتية فد استلهمت من نموذج هندي، وهو نموذج كان يستخدم لكتابة السنسكريتية أو البراكريتية(*).

(*) ومع ذلك فقد تم تحوير الحروف برشاقة كي تمثل بفعالية اكبر ملامح التيبتية الغريبة عن اللغات الآرية التي كلف بها الراهب البرهمي وكل خلفائه. ومن الملاحظ أنها تستطيع تمييز حروف العلة الأولية التي لها وقفات حلقية أمامها والتي ليس لها مثل هذه الوقفات (ففي السنسكريتية مثل الإنكليزية، يتم إدخال رعشة حلقية بصورة تلقائية عندما يبدأ أي لفظ منطوق بحرف علة) وقد استعار الصينيون التيبتية فيما بعد (في القرن الثالث عشر)، في بلاط قبلاي خان، ليخلقوا منها نصوص فاغسبا للغة

وعندما ترسخت التيبتية، تم الأخذ بها إلى حد كبير مع ترجمة النصوص البوذية التقليدية الكلاسيكية من السنسكريتية أو البالية. وصارت هذه صناعة هامة بحيث كانت هناك في أوائل القرن التاسع الميلادي لجنة ملكية تيبتية لإقامة قواعد دقيقة للمعادلات (مقارنة 'باللغة الخاضعة للسيطرة' المستخدمة في بعض الترجمات الصناعية اليوم). فكانت النتيجة انخفاض البراعة الأدبية المعروضة في الترجمة. ولكن العمل المنجز كان شديد الدقة إلى درجة أن من الممكن في كثير من الحالات إعادة تركيب الأصول السنسكريتية المفقودة بالاعتماد ببساطة على أساس نسخها التيبتية.

إن هذه الأسس الدينية لثقافة التيبت السنسكريتية ارتفعت عليها بنية فوقية من أدب كلاسيكي أوسع نطاقاً في القرن الثالث عشر، إذ إن الفاتحين المسلمين عندئذ دمروا كل مراكز التعليم العالي في الهند الشمالية، فهرب كثير من الباحثين إلى الشمال، إلى داخل التيبت مع كتبهم. وقد رافق تسعة علماء سنسكريتيين "الخاتشي بانتشين ساكيا سريباندرا" إلى التيبت في العام 1206م. وبعد ذلك بخمسين عاماً كان هناك تعاون على تأليف المسرحيات، والأشعار، والدراسات النقدية للشعر بالسنسكريتية بين العالم الهندي "لاكشميكارا" والباحث التيبتي "صون - ستون ردو - ردجي رغيال مستان"[44].

إن من المطمئن إلى حد ما التفكير بأن التيبت كانت قبل ثمانمئة عام ملجأ للبوذيين الهاربين من المغيرين على الهند الشمالية - وهذا بالضبط عكس ما عرفناه في الجزء الأخير من القرن العشرين.

اقتلاع السنسكريتية

بدأت الغزوات الإسلامية من غزنة في أفغانستان في أواخر القرن العاشر. وقد

المغولية. بل إنهم أعلنوها أبجدية رسمية للإمبراطورية في العام 1269. وقد استخدمت أيضاً لكتابة الصينية (انظر الفصل الرابع: 'التمسك الشديد بنظام للكتابة'، ص 225).

استغرقت "سلطنة دلهي" الإسلامية ثلاثمئة عام للسيطرة على السهل كله من الإندوس إلى الغانج، وقرناً آخر للاستيلاء على معظم باقي شبه القارة. ولم تكن وحدة المسلمين مدعومة أو طويلة البقاء. ولكن وجودهم في الهند استمرت أهميته، وخاصة بعد العام 1505، عندما قاد بابور جيشاً آخر من أفغانستان، وأسَّسَ الإمبراطورية المغولية.

وقد عرف الهنود هؤلاء القادمين باسم "توروشكا"، أي 'الأتراك'. فقد جلبوا معهم حضارة جديدة واثقة من نفسها. وكانوا يتحدثون بنوع من اللغة التركية الشرقية (جغطاي)، ويؤدون صلواتهم بالعربية، ولكنهم قبل كل شيء كانوا يجيدون القراءة والكتابة بالفارسية. إن ثقتهم بأنفسهم من الناحية الثقافية، ومفاهيمهم الغريبة كلياً عن السلوك اللائق والمحتشم وعن غاية الحياة، وقبل كل شيء أنظمتهم الإدارية المتقدمة التي تعمل بالفارسية، كانت كلها تعني أنه كان لديهم تأثير لغوي أكبر بكثير من تأثير الغارات السابقة غير المذهبية التي جاءت من الاتجاه نفسه، من شاكا، وكوشانا، وهونا، ولأول مرة، تم اقتلاع السنسكريتية كلغة للنخبة في الهند.

ومن المفارقات أن نجاح المسلمين في غزو القارة كان إلى حد كبير نتيجة مهارتهم في الفروسية، والخيول الأفغانية المؤصلة التي جلبوها معهم. وهكذا استطاعوا في آخر الأمر أن يتغلبوا على الأحفاد البعيدين للغزاة الآريين القادمين على صهوات الخيل في الألف الثاني بعد الميلاد وفي اللعبة التي عُرِفَ الآريون بإتقانها.

وفي حوالي هذا الوقت نفسه، فإن بعض حضارات جنوب شرق آسيا الناطقة بالسنسكريتية راحت تعتنق هذا الدين الجديد نفسه ولكن لدوافع مختلفة تماماً.

فلم يكن هناك غزو عسكري، ولا ثورة اجتماعية لصالح الطبقات الدنيا. ومع ذلك فإن بعض الموانئ في سومطرة الشمالية اعتنقت الإسلام في أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر. وفي أوائل القرن

الخامس عشر أسلمت مَلقَا، أهم مركز تجاري واقع في شبه جزيرة الملايو(*). وانتشر الإسلام على نطاق واسع بين شركائه التجاريين، وبصورة ملحوظة في جاوا، وسيليبس، وجزر أرخبيل ملقا الإندونيسية وميندناو. ومن المفترض أن التأثير قد جاء من التجار المسلمين الذين خرجوا من الهند، ولعله كان كتأثير تساقط أحجار الدومينو، بحيث إن مملكة إثر مملكة راحت تقدر أنه لن يتاح لها الحفاظ على علاقاتها بالهند إلا إذا اعتنقت الإسلام - أو ربما كان اعتناقها له استجابة لاندفاعة إسلامية يائسة للتبشير به قبل وصول البرتغاليين[45]. ومهما كانت الصلة، فإن الدين الجديد خلق مناخاً اجتماعياً جديداً ووضع نهاية لعهد سيادة السنسكريتية كلغة ممثلة للثقافة هناك(*).

جاذبية السنسكريتية

جذور جاذبية السنسكريتية

السوارات لا تزين الإنسان، ولا القلائد البراقة كالقمر،
ولا الاستحمام، ولا مستحضرات التجميل، ولا أكاليل الورد قادرة على أن تضيف ذرّة.
إن زينة الإنسان الحقيقية الوحيدة هي الحفاظ على لغة كاملة:
فالحليّ لا بد أن تفنى. وما يخلد هو صقل اللغة الجميلة.

بهارترهاري، 2: 17-20

(*) إن دور ملقا كمركز تجاري لتوزيع السلع قد رسخ اللغة الملايوية بقوة كلغة مشتركة للمنطقة. واستمر ذلك حتى يومنا هذا (انظر الفصل الحادي عشر: 'المتطفلون الهولنديون'، ص 549). وكانت ملقا نفسها مستعمرة لسري فيجايا (بالمبانغ) على سومطرة، وهي الأخرى مركز تجاري كبير. وهناك تم العثور على أقدم النصوص المكتوبة بالملايوية (من القرن السابع الميلادي)، وكان أحدها نصاً خاصاً من مدينة جامبي، المعروفة سابقاً باسم ملايو (هول 1981، ص 47 -48). ومن المفارقات أن كلمة "بهاسا" ليست سوى الكلمة السنسكريتية بهاشا، أي 'اللغة'.

(**) [ملاحظة: لا يريد المؤلف أن يعترف بأن الإسلام في جنوب شرقي آسيا، وخاصة في إندونيسيا وماليزيا قد انتشر بالقدوة الحسنة، والأخلاق الطيبة، والصدق والإخلاص في التعامل مع الناس. وموقفه هذا يدل على تعصب حاقد إذا رأى حسنة دفنها وإذا رأى سيئة أذاعها! - المترجم].

هناك لغة بدأت كفرع من اللغات الهندية ـ الأوروبية، فاستقرت في زاوية هادئة من العالم بالتأكيد هي سفوح هندكوش، وانتشرت كلغة دارجة في جميع أرجاء السهل الهندي ـ الغانجي، وكلغة للنخبة حملها الدين الهندوسي إلى باقي شبه القارة الهندية. ومن هناك انتشرت شرقاً عبر البحر عن طريق التجارة، وصارت طيلة ألف عام الإلهام الثقافي لشبه قارة جديدة وأرخبيل بكامله. كان هذا هو النمو الذاتي المستقل للغة السنسكريتية.

ولكن أحد الأديان التي بدأت في الألفية الأولى للسنسكريتية استمر ينمو خلال ألفيتها الثانية فالثالثة: فقد انتشرت البوذية أولاً بالسنسكريتية واللهجات البراكريتية عبر الهند والهند الصينية. ثم أظهر هذا الدين أنه قادر على تجاوز الدولة الوطنية، موطنه في الثقافة الهندية فتحرك نحو الشمال، وفي آخر الأمر نحو الشرق. فكسب أتباعاً وازدهر في مجتمعات صينية، وكورية، ويابانية، وتيبتية، ومغولية. ورغم أن الدين تعرض لتغيرات صارخة أثناء تقدمه عبر العالم، فإن السنسكريتية والبالية قد رحلتا معه دون أي تغير هام، كملحقين مساعدَيْن للتعليم البوذي العالي حيثما أخذهما ذلك الدين. فكانت هذه هي التوصيلة المجانية للسنسكريتية، وكانت وسيلتها هي البوذية بأشكالها الكثيرة.

لقد حان الوقت الآن للنظر في الأسباب التي جعلت السنسكريتية تنمو، وما إذا كانت البوذية نفسها مدينة بشيء لهذا الشكل الكامل الجاذبية من أشكال التعبير الإنساني.

فللسنسكريتية مزايا كثيرة. فقد كانت لغة النخبة الواعية بذاتها من البراهمة والكشاتريين الذين كانوا يعتبرون أنفسهم مستحقين للسيطرة على الشعوب الأخرى التي اتصلوا بها، وأن لديهم الوسائل التقنية لفرض هذه السيطرة. وعلاوة على ذلك كانت لغتهم في قلب صورتهم عن ثقافتهم نفسها، ما دامت قواعدهم النحوية هي ملكة علومهم. فقد كانت البراعة بالسنسكريتية تعتبر السمة الرسمية المميزة للوجود المتحضر، ولمكانة المرء في العالم كإنسان آري نبيل، ولكنها كانت أيضاً شيئاً قابلاً للتدريس، فكانت تُدَرَّس.

وقد تغيرت المعتقدات حول القيمة الحقيقية لهذه المعرفة تغيراً تدريجياً على مدى القرون، من الحاجة إلى ضمان دين الآلهة، إلى صيانة النظام الاجتماعي، ثم إلى توسيع تقدير العراقة الثقافية التي يزيدها القِدَمُ جمالاً.

وقد روّجت بعض القوى الاجتماعية أشكالاً من السنسكريتية أقل نخبوية، على المستوى الدنيوي (كما في ممارسات ملوك مثل آسوكا)، وعلى المستوى الروحي (كما في مواقف بوذا مثلاً)، ورغم ذلك فقد خسروا أمام جاذبية اللغة الكاملة، المثقفة، الواعية بذاتها، وصاحبة الأسلوب الخاص بها: فنظراً لأوصافها المتقنة المحكمة وقدرتها على الإعراب عن نفسها، كانت قادرة على الدوام على إظهار الأفضل وتفسير سبب أفضليته. وبذلك جعلت نفسها جذّابة بشكل لا يقاوَم للمؤسسات المتحركة إلى الأعلى: مثل الممالك الهندوسية (كمملكة رودرادامان) الساعية للحصول على اعتراف أوسع في الهند، والسلالات الحاكمة في الهند الصينية (مثل "سيلندرا" في بنام) الساعية إلى إظهار شرعيتها، والمدارس البوذية الراغبة في إضفاء الهيبة والاحترام على نصوصها الإيمانية.

وكانت النزعة الطبيعية إلى المحافظة في المؤسسات تعني أن رموزها سوف تميل إلى التحجر ـ ويشهد على ذلك مصير اللغة البالية بين البوذيين. فقد بدأت كلغة مشتركة منفتحة واسعة الأفق لكل الناس وانتهى بها الأمر إلى أن تصبح لغة كلاسيكية تقليدية أخرى. كما أن الهند، بنظام الطبقات المغلقة السائد فيها لم تكن سوى موطن للمؤسسات المحافظة. وكانت مثل هذه النزعة المحافظة تفيد السنسكريتية دائماً وتضرّ بنفسها، لأنها كانت تدافع عن نفسها من خلال تعاليمها ومستواها اللغوي الجامد الذي تعتبر أي تغيير فيه مؤدياً إلى التدهور والانحطاط.

أما السنسكريتية فكانت محددة بشكل ملموس في كتب القواعد النحوية، فكانت سهلة التعلم بصورة بارزة، بل كان من الممكن الاعتقاد أنه ما دام المستوى واضحاً جلياً، ولو كان معقداً وعميقاً، فإنه يشجع الاستعراضات الصريحة لذكاء كذكاء المحامين، ولو في مجال غير عملي إلى حد غريب،

ومنفصل عن العقوبات الإلزامية المعتادة، وعن الملكية والقوة العسكرية. فلم تكن هناك حروب قائمة على نتائج مجادلاتها، رغم أنها كثيراً ما كانت تثير خصومات ساخنة (ولا تزال كذلك). فقد كانت تصاريف الإعراب النحوي تقدم منبراً طبيعياً للرياضة الفكرية ومناقشة الحجة بالحجة، مع الاهتمام ببساطة بإقرار ما هو صحيح في عالم اللغة، وأفضل سبيل لإعطائها الصيغة الرسمية. فكانت هناك مقولة تؤكد:

إن النحويين يبتهجون بإنقاذ نصف قاعدة قياسية كفرحهم بولادة ابن لهم.

وكانت إحدى النتائج أن المهارات البراهمانية لا يمكن أن تهبط أبداً لتصبح مجرد تعلم روتيني قائم على الحفظ بلا فهم وعلى الاشتراط، ما دامت مبنية على تركيب فكري محكم بقوة.

ومثلما هو الحال في العلوم اللغوية، كان الحال في السلسلة الكاملة للعلوم الهندية. فالحضارة القائمة على السنسكريتية، في لجوئها إلى المبدأ المجرد بدلاً من اعتمادها على تقليدها الثقافي بالذات مختلفة عن الحضارتين الإغريقية والرومانية الواقعتين إلى الغرب منها. والثقافة الهندية لا تدور حول ملاحمها ومنجزاتها الأدبية الكلاسيكية رغم إعزازها لهذه المدخرات. كما أن فلسفتها لا تؤكد على نظريات ذات فائدة اجتماعية، كالسياسة، والأخلاق، أو فن الإقناع. بل إنها تضع نظريات حول الأوضاع الحياتية القائمة وأساليب الإدراك الحسي. وهناك شعور معين بأن التنظير السنسكريتي يعجز عن الارتباط بالعالم العملي. وكما يلاحظ باشام، فإن:

... المعرفة الجغرافية لدى المتعلمين تتصف بأشد أنواع الغموض. فحتى ضمن الهند نفسها، فإن المسافات والاتجاهات، كما هي واردة في النصوص، هي عادة غير دقيقة، وغامضة جداً. فالغزاة الذين قادوا جيوشهم ألوف الأميال في حملاتهم، والتجار الذين كانوا يحملون بضائعهم من أقصى الهند إلى أقصاها، والحجاج الذين كانوا يزورون الأماكن المقدسة من الهملايا إلى رأس كومورين لا بد أنهم كانوا يملكون معرفة سليمة بالجغرافية الهندية، في حين أن المعرفة التي كانت لدى المبحرين

> من سوقطرة إلى كانتون كانت معرفة أوسع، ولكن ليست هناك أصداء تنكر لهذه المعرفة في أدب ذلك العصر[46].

كانت اهتمامات السنسكريتية معنويّة غير مادية، فوق الولاءات المحلية والتفاصيل الشخصية، فحققت مكانةً لا تزال تتمتع بها ضمن الحضارة الهندية كلغة شبه عالمية، رغم أن في بعض أنحاء الهند الآن أصواتاً ملحةً تتنكر لها، وتؤكد على أصولها كلغةٍ محلية للشمال. وقد تمتعت شقيقتها الصغرى، اللغة البالية، بشيء يشبه هذه المكانة، ولو بين البوذيين فقط، وإلى حد كبير خارج الهند نفسها. وإن إحدى علامات كون كل من هاتين اللغتين ذات مكانة في عموم الهند، بل في عموم آسيا تقريباً هي أنهما ـ على عكس جميع اللغات الأخرى في الهند والهند الصينية، يمكن كتابتهما بكل الأبجديات المختلفة المتحدرة من البرهمية بلا فرق. وهكذا فإن كلاً منهما 'لغة محلية عالمياً' ضمن السياق الهندي، فهي في موطنها لغة مقدسة، مهما كانت العامية الدراجة.

ولكن من الغريب أنهما كلغتين تقليديتين كلاسيكيتين كانتا دائماً غير مباليتين بوجود مكتوب، بأية أبجدية. وقد لاحظنا الصفة النموذجية لعدم الوثوق بالكتابة في الثقافة الهندية. وهذه في الحقيقة لا تنطبق على هذه اللغات الآرية فقط بل هي صفة عامة: والواقع أن أول نص مقدس مكتوب في أي مكان في الهند هو كتاب السيخ المعنون "غورو غرانت صاحب"، الذي أنتج في القرن السابع عشر. (والعقيدة السيخية تعتبر الإسلام ـ بتقديسه لنص القرآن المكتوب ـ مصدراً كبيراً للإلهام).

ولعل هذا الاحترام الزائد للنصوص المحفوظة والمتناقلة شفهياً قد أبقى السنسكريتية سهلة الوصول لجمهور واسع من عامة الناس كلغة للصلوات والورع، وكذلك كلغة للأعمال الأدبية القديمة. ويمكن التقاط مثال واحد: ترنيمة شعبية محلية: 'أنا أحييك، أيتها الأم أوريسا'، وهي ترنيمة معبّر عنها بالسنسكريتية، رغم أن الذين ينشدونها لا يكادون يلاحظون ذلك.

وفي هذه الأثناء، فإن حفظ السنسكريتية بوسيلتين، عن طريق تدوينها مباشرة في تقاليد المخطوطات المكتوبة، وكذلك بشكل متميز من خلال التقليد

الشفهي للنحاة، ربما تكون طريقة لفظها قد منعتها من التعرض لأي تغير يذكر على مدى أكثر من ثلاثمئة عام من حياتها في مجال الطقوس(*).

وأحد جوانب هذه القصة يشبه بقاء اللغة العبرية: تقليد مقدس، مبني على ترتيل نصوص لغة لم يعد أحد يتكلمها، حفظ اللغة متماسكة على وجه العموم. ولكن الجانب الآخر لا يشبهه شيء على وجه الأرض. فكأن التقليد العبري لحساب الجمّل، الذي يعين قيماً رقمية للحروف، وبذلك يضيف إليها عند جمعها أهمية صوفية للعبارات(**)، قد حدد، في مجموعة من المعادلات، وسيلة بديلة لتمثيل اللغة العبرانية كلها، وبذلك حافظ على قواعدها النحوية، وطريقة لفظها بشكل مستقل تماماً عما هو مكتوب في التوراة والتلمود.

ورغم هذا كله فإن جاذبية السنسكريتية والثقافة الهندية التي تعبر عنها عند الأجانب تبقى محيّرة. فقد سألت بعض الأصدقاء الهنود عن ذلك، وأشرت إلى الاستعداد الذي يبدو غير معقول عند المونيين والمونديين والمغول لتقبل الثقافة واللغة، والديانة الآرية عند عرضها عليهم بدون إكراه. فأشاروا إلى ضآلة ما كان يطلب من المتقبّلين أن يأخذوا به كعادة جديدة، أو أن يتركوه جانباً من عاداتهم القديمة. فالنذور تقدم للآلهة، ولكن الواجبات الواضحة للملتزمين بالهندوسية أو بالبوذية قليلة. ويظهر أن الهندوسية تستطيع أن تجد ضمنها مكاناً لكل العقائد الإيمانية الأخرى: فالولاءات القديمة يمكن دمجها ببساطة، كما في حالة أسطورة تأسيس فونان. وكانت بوذية ماهايانا قادرة على الاستيعاب كالهندوسية، بحيث كان في نطاق نشاطها عدد لا ينتهي من العوالم والآلهة. وكانت هناك أشكال أخرى من البوذية ذات توجّه مختلف عن ذلك اختلافاً كاملاً، فتقدم إرشادات حول الأخلاق والتنوّر الشخصي، ولكنها تترك الاعتقادات والولاءات القديمة كما هي فلا تمسها.

(*) رغم أننا نعرف أن بعض الملامح قد فقدت على الطريق، مثل لهجة النبرة الصوتية، وطريقة لفظ حروف العلة الشديدة الطول.

(**) وأشهر مثال على ذلك عبارة NRWN KSR (أي 'نيرون الإمبراطور') فمجموعها 666، وهو رقم الوحش في كتاب رؤيا يوحنا اللاهوتي.

ولكن هذا هو مجرد غياب العائق: فهو لا يفسر لماذا اختار الناس في سياقات كثيرة مختلفة أن يتبعوا المثال الهندي بدلاً من التمسك بطرائقهم القديمة. ولا شك أن قرار الأخذ بثقافة جديدة منقولة بالسنسكريتية كثيراً ما كان يتخذه المنتمون إلى النخبة، ثم يفرضونه على عامة الناس أو يقنعونهم به. أما قرار اعتناق البوذية فقد كان اتخاذه في أغلب الحالات متروكاً للأفراد. ولكن مهما كان مستوى اتخاذ القرار فلا بد أن صنّاع القرار قد شعروا بأنهم يقومون بخطوة نحو عالم أرحب وأكثر انفتاحاً ـ فيقيمون صلات مع الثروة المقدرة للهند والعالم الغربي، وحكمتها القديمة الواسعة.

ولا يتخذ القرار بشكل نهائي حاسم، ولا بمعرفة مسبقة بالتغييرات الجذرية التي سيحدثها في الهند الصينية، والصين، والشرق. ولكن القرار على وجه العموم، وحيثما اتخذ، كان يظل ثابتاً. وإن غياب أي إقناع عسكري، سواء في البداية، أم بعد سنوات وقرون، عندما يكون الهنود ومقلدوهم واعين ببعضهم بعضاً هو دليل يثبت أن الاستيعاب الثقافي كان معترفاً به على نحو ما على أنه شيء له قيمة جيدة، ويستحق المتابعة والتطوير.

تحديد نقاط الضعف

ومع ذلك فإن العالم الإنساني للسنسكريتية لم يكن خالياً من العوائق أو العيوب.

فهي عسكرياً لم تنشئ مركزاً يمكن الدفاع عنه، بل كانت تميل إلى الاعتماد على العوائق الطبيعية التي كان الغزاة يخترقونها من الشمال الغربي بين حين وآخر. واجتماعياً، ظلت السنسكريتية محافظة ومرتبة على شكل طبقات منغلقة، وتفضل التنظير بأن أفضل شيء للمجتمع هو أن يكون منغلقاً وجامداً، بدلاً من استخدام مواهبها للابتكار عسكرياً واقتصادياً وسياسياً. وفي الدين، كانت الهندوسية والبوذية تميلان إلى خلق نظام قيم للعالم الآخر، وبذلك تنتقصان من الاهتمامات العملية الخاصة بالولاء، والتلاحم الاجتماعي وتعقّدان نقاط الضعف الأساسية في الدفاع والمرونة.

وكان المجتمع السنسكريتي ينطوي ضمنياً على كل هذه المشاكل. فقد

انتشرت نبتة التعريش بشكل أخّاذ، ولكنها مع الزمن راحت تميل إلى التصلب لتصبح شبكة شديدة التعقيد من الأغصان القاسية بلا مرونة وفي الوقت المناسب تشذبها أيد قاسية غير متعاطفة.

ونبدأ بمجالات الحرب، والدبلوماسية، والحكومة.

لقد رأينا (من سجلات النصوص) أن السنسكريتية، التي كانت في أول الأمر لغة مقدسة لم ترسخ نفسها كلغة خارجيّة للبيانات السياسية إلا في منتصف القرن الثاني الميلادي، بعد 650 عاماً من تأسيس النحوي بانيني لقواعدها. ففي السابق، يبدو أن لغة الحكومة كانت هي اللهجة الدارجة في المدينة الحاكمة، ولا سيّما البراكريتية الماغاديّة في باتاليبوترا: فبعد بانيني بمئتين وخمسين عاماً، عندما أقام آسوكا نُصُباً تذكارية في جميع أنحاء الهند الشمالية والوسطى، كتبت النقوش عليها بهذه اللغة البراكريتية الماغادية. ومع ذلك فهناك بعض الأدلة على تغلغل السنسكريتية إلى أعلى المستويات في الدولة: فالكتيّب العظيم "آرثاشاسترا" عن فن الحكم الهندي الذي ألفه كوتيليا مكتوب بالسنسكريتية، وليس بالماغادية. وهو منسوب تقليدياً للوزير الرئيسي كاندرا غوبتا (ʻسرّ القمرʼ) موريا، جدّ آسوكا، الذي كان قد أسس إمبراطوريته الهندية الشمالية بعد وقت قصير من غزوة الإسكندر المختصرة على طول وادي الغانج. ولكن هذا الكتيّب كان يمكن كتابته في أي وقت في القرون الخمسة الممتدة حتى العام 150م. فعند حلول ذلك العام، كانت أولية مكانة اللغة السنسكريتية في السجلات السياسية قد تأكدت[47].

وبغض النظر عن الوحدة الثقافية التي أشارت لها السنسكريتية، فإن الهند لم تكد تصل إلى النجاح الذي حققته روما وفارس في غربها، أو الصين في شرقها، في تأسيس وحدة سياسية واسعة النطاق تستطيع الدفاع عن حدودها، وتأمين تعاقب الحكّام بانتظام على مدى بضعة أجيال على الأكثر. فمن القرن الخامس قبل الميلاد إلى القرن الخامس الميلادي، فإن السلالات الحاكمة الأهلية مثل آل ناندا، وموريا، وشونغا، وستافاهانا، وغوبتا، نهضت وسقطت بإيقاع ملحّ، وكانت عاصمتهم غالباً هي باتاليبوترا، ولكن بدون إحساس بتعاقب مباشر: ففي

العادة، كانت هذه الإمبراطوريات الأكبر تنهار في جيلين من الصراع اللامركزي الإقطاعي الصاخب، قبل أن يأتي "مدير العجلة" التالي الذي يسمونه "كاكرافارتين"، أي 'الملك العالمي'. وفي بعض الأحيان، كانت غارات كبرى من الشمال الغربي تصل إلى باتاليبوترا، وعلى سبيل المثال فعندما قام ملوك يافانا (مثل مناندر ـ ميليندا البوذيين) بالانقضاض من سواتْ، أو عندما قام كانيشكا، الفارسي الناطق باللغة الباكترية، بتأسيس إمبراطورية كوشان من القرن الأول إلى القرن الثاني للميلاد، فإنهم جميعاً لم يستمروا أطول من ذلك أبداً(*).

وكان كل الغزاة في هذه الفترة ـ ومن بينهم أيضاً السكيثيانيون ("شاكا") الناطقون بالفارسية وكسيونغنو ("هونا") الناطقون بالتركية ـ يشبهون نمط المغول في الصين، أو القبائل الجرمانية في أوروبا الغربية. فهم لم يؤسسوا حضارتهم الخاصة بهم، واستقروا كأرستقراطية جديدة، بدون تأثيرات لغوية دائمة. وهكذا فإن السنسكريتية واللهجات البراكريتية قد نقلت إلى أجيال جديدة وشعوب جديدة، ولم يكن التقليد موحداً من الناحية السياسية، رغم أن "الآرثاشاسترا" تظهر أنه كان عالي التنظيم وواعياً بنفسه، قانونياً واقتصادياً.

ولم يكن هناك أي تجديد أو ابتكار تقني أو عسكري في هذه الفترة. ولا بد أن الاتصالات ظلت صعبة. وهذان سببان يفسران لماذا احتفظت المدن والمناطق المختلفة بهذا القدر الكبير من الاستقلال بحيث ظلت السلطة المركزية "للكاكرافارتين" إلى حد كبير حلماً غير متحقق.

وكان "للآرثاشاسترا" نظرية معقدة التفاصيل حول السياسة الخارجية، تنطوي ضمناً على عدد كبير من الدول الصغيرة. وكانت معظم الدول ملكية، ولكن كانت هناك في الحقيقة جمهوريات كذلك تحكمها مجالس من الرجال ذوي الحيثيات والممتلكات. فجماعة الليتشافي التي كانت تعيش في "فيسالي"، في شمال الغانج كان يقال إن فيها 7,707 "راجات"، أو 'ملوك'، كلهم في مجتمع

(*) ومن المفارقات أن أكثر إسهامات حكم كانيشكا ديمومة كانت فترة "شاكا"، وهي نظام تاريخ لا يزال مستعملاً في الهند، يجري من العام 78م، بل إنه مستعمل في كثير من النصوص السنسكريتية في جنوب شرقي آسيا.

القبيلة العشائري. بل إن بوذا نفسه قد نشأ في مجتمع كهذا، غير بعيد بين "الساقيا" على سفوح الهملايا. ويقال إن هذا التقليد قد ألهم إلى حد كبير الممارسة الديمقراطية لدى "السانغها"، أي التجمع الكامل للرهبان البوذيين.

أما بالنسبة للقيود الاجتماعية في المجتمع الهندي فيجب النظر إليها باعتبارها مرتبة بصورة ساحقة على شكل طبقات منغلقة، بحيث إن طبقة المرء، وبالتالي مكانته، تتحدد بالولادة. وإن المنظّرين الناطقين بالسنسكريتية الذين يشيرون في مراجعهم إلى كتب الفيدا لم يكونوا يجيدون أي صعوبة في تبرير وعقلنة حالات عدم المساواة السافرة - حتى ولو حدث بين حين وآخر أن قام القادة الطبيعيون الذين يتصادف أنهم من طبقات دنيا بتنصيب أنفسهم ملوكاً دون تردد أكثر من اللازم إزاء قوانين الحظر والتحريم الهندوسية. كما أن أوضاع النساء لم تكن موضوعاً للنقاش. فكلمة "ساتي" السنسكريتية هي في الأصل الصفة المؤنثة التي تعني 'الصادقة، والصحيحة، والطيبة' صار من المفهوم أن أفضل تطبيق لها هو على الزوجة التي تقبل أن تحرق نفسها على ركام الحطب الجنائزي مع جثة زوجها.

وكان الإسهام الأهلي الحقيقي في تحطيم جمود نظام الطبقات المغلقة هو البوذية. وهذا صحيح في النوعين المختلفين من البوذية اللذين تطورا في هذه الفترة. فتقليد "الهينايانا" الأقدم منهما كان يشجع كل شخص على السعي لتنوير نفسه، ولو أنه يتوجب على الناس أن يتخلوا عن الدنيا كرهبان أو راهبات من أجل تحقيق هذه الاستنارة. وقبل ذلك كانت البوذية قد منحت النساء مكانة متساوية مع الرجال أو شبيهة بمكانتهم على الأقل في السعي لتحقيق حياة من التأمل. وكانت بوذية المهايانا اللاحقة فيما بعد أقل تقشفاً، باعتبارها أقرب إلى كونها دين الحياة اليومية. فسمحت لأتباعها بتنمية علاقة شخصية مع الشخصيات البوذية المقدّسة (بوذيساتفا). كما كانت هناك جاذبية في أخلاقها الاجتماعية الأقوى القائمة على الرحمة العامة، والإيثار.

ولا يبدو أنه كان هناك شيء كبير من العنف أو عدم التسامح الديني بين العقائد المختلفة. وحيثما كان الناس يشعرون بالكراهية فالظاهر أنها كانت نتيجة

العناد والخرافات أكثر من كونها قائمة على الورع أو التقوى. ففي المسرحيات والقصص الخيالية السنسكريتية التي كُتِبت في ذلك الحين كان اللقاء صدفة بكاهن يعتبر علامة على سوء حظ قادم. وفي الفترة ذاتها كان البوذيون يبنون لأنفسهم سمعة رهيبة من الدقة العقلية الصارمة وكذلك السمو الفكري.

وكان الدير الأعظم في نالاندا، على بعد مسيرة يومين على الأقدام إلى الجنوب من باتاليبوترا، هو الصرح الأعلى للتعليم البوذي. وقد أسس آسوكا الجزء المركزي من الدير على موقع كان بوذا يفضل التردد عليه في القرن الثالث قبل الميلاد. وقامت جميع السلالات الكبرى التي ازدهرت أثناء فترة حياة هذا الدير بمنحه أوقافاً وإعادة بنائه كمقر للتعليم: وكان من هذه السلالات آل غوبتا في القرن الخامس، والملك هارشا في القرن السابع، وآل بالا في القرن التاسع. وبالإضافة إلى نصوص بوذية المهايانا، وطوائف الهينايانا الثماني عشرة، كانت مواضيع التدريس تشمل القواعد النحوية السنسكريتية، والمنطق وما وراء الطبيعة، والطب، والتكنولوجيا، بما فيها الميكانيك، والين yin واليانغ yang (أي مبدأ الأنوثة والذكورة في الفلسفة الصينية، فالأنوثة مظلمة وسلبية وخاملة، والذكورة مضيئة وفعّالة وإيجابية، وهما يتحدان ليؤثرا على كل شيء في العالم) وكذلك التقويم، وكتب الفيدا كما يظهر، و'الدراسات المتنوعة'، التي يفهم منها عموماً الأدب الدنيوي العلماني. وقد قام كسوان ـ زانغ، الذي سجل كطالب ثم أصبح بعد ذلك معلماً في القرن السابع، بوصف هذه المؤسسة بطريقة شديدة التذكير بجامعة نخبوية حديثة:

> إن الكهنة الذين يبلغ عددهم عدة آلاف لديهم أعلى القدرات والمواهب. فتميزهم عظيم جداً في الوقت الراهن. وهناك مئات منهم انتشرت شهرتهم بسرعة عبر مناطق نائية... وهم ينهمكون في المناقشات من الصباح إلى الليل؛ والعجائز والشباب يساعد كل منهم الآخر بشكل متبادل. والذين لا يستطيعون أن يناقشوا مسائل من "التريبيتاكا" لا يحظون بالاحترام، ويرغمون على إخفاء أنفسهم خجلاً. أما الرجال المتعلمون من مدن مختلفة لهذا الغرض، والراغبون في اكتساب شهرة سريعة في المناقشة، فإنهم

يأتون هنا بأعداد كبيرة لإيجاد حلول لشكوكهم، ثم تفيض جداول حكمتهم في أماكن بعيدة وعريضة. ولهذا السبب فإن هناك بعض الأشخاص الذين يغتصبون أسماء طلبة نالاندا. وبترددهم جيئة وذهاباً يحظون بالتكريم لاحقاً. وإذا أراد أشخاص من أحياء أخرى أن يأتوا ويشاركوا في النقاش، فإن حارس البوابة يطرح عليهم أسئلة صعبة، فيعجز كثيرون عن الإجابة ويتراجعون. فعلى المرء أن يكون قد درس بتعمق كتباً قديمة وحديثة قبل أن يسمح له بالدخول. ولذا فإن هؤلاء الطلبة الذين جاؤوا إلى هنا كغرباء عليهم أن يظهروا مقدرتهم بمناقشة صعبة؛ وتصل نسبة الفاشلين إلى الناجحين إلى سبعة أو ثمانية من عشرة[48].

ورغم أن هناك إنتاجاً مستمراً لأعمال جديدة، أو لتعليقات على أعمال قديمة على الأقل، فإن مثل هذه التركيزات الواسعة النطاق على قوة النيران الفكرية (مثل حالة معاصريها في أوروبا والعالم الإسلامي) كانت نزعتها محافظة بشكل عميق: كانت تهدف إلى الحفاظ على الأمر الواقع الديني والسياسي، رغم أنهم قد يدافعون عنه بحجج جديدة[*].

وفي آخر الأمر لم تعد "المهافيهارا" (أي 'الأديرة الكبرى') تغذي البونية وتعززها في الهند. وكانت البوذية قد أخذت تخسر الأتباع في أيام كسوان ـ زانغ. فمن القرن العاشر امتصتها الهندوسية واستوعبتها، وكأنها طائفة أخرى. فقد تمت إعادة قولبة بوذا بصورة خيالية وكأنه مظهر أرضي لفيشنو، على قدم المساواة مع البطلين الهندوسيين راما وكريشنا. فأدى ذلك إلى إغلاق الفجوة في نظام الطبقات المغلقة، وإلى إبقاء الطبقات الدنيا والمنبوذين محكومين بالبقاء في وضع النقص والتخلف. فصار الكثيرون منهم مستمعين متلهفين عندما بدأ المسلمون غزواتهم، جالبين معهم أخباراً عن عالم جيد يتساوى فيه الجميع أمام الله.

(*) إن مكتبات نالاندا الخرافية الثلاث: "راتنودادهي " ('بحر الجواهر')، "وراتناساغارا" ('محيط الجواهر')، "وراتنا رانجاكا" ('المزدانة بالجواهر') قدّر لها أن تحترق بكاملها. ولعل من المهم أنه حسب الروايات البوذية التيبتية عن نهاية هذه المكتبات فإن الحرائق نجمت عن تعاويذ سحرية القاها عليها زوار شعروا بالإهانة من المعاملة الغليظة غير المهذبة التي استقبلهم بها الباحثون الدارسون في نالاندا.

ولم تبق الأديرة الكبرى سليمة عندما اجتاح الغزاة الهند الشمالية ونهبوا كنوزها عند نهاية القرن الثاني عشر. وقد احتفظت السنسكريتية بجوانب جاذبيتها، ولكنها مثل كثيرين ممن يملكون هذه الميزة لم تستطع الدفاع عن نفسها جسدياً ضد الذين لم يستطيعوا تقدير جوانب تلك الجاذبية.

إن السيدات البارعات المصقولات كهؤلاء، يجب عدم الإمساك بهن من شعرهن؛
لأن العرائش النامية في البساتين لا تستحق تقطيع أوراقها.
سودراكا: العربة الطينية الصغيرة، 8: 21

السنسكريتية لم تعد وحدها

بعد الفتوحات الإسلامية، صارت الهند مكاناً مختلفاً جداً.

من الصعب تصور ماهية النقائص المتعارضة المتصارعة بقسوة، في الحياة اليومية وفي القيم التي تحظى بإيمان عميق، التي يجب التوفيق بينها لخلق الهند المعروفة لدينا الآن.

فقد تصور الهنود أنفسهم أنهم في مركز عالمهم بشكل ثابت، وأن آلهتهم تديره، وأن نظامهم الاجتماعي معقد ولكنه ثابت لا يمكن تغييره، لأنه مقدر على أعلى المستويات. وحتى محلل نفسي متقشف مثل بوذا أطلق على أعلى الممرات اسم طريق آريا (أي الطريق النبيل). وكان الهنود يعلمون فكرياً أنهم ليسوا وحيدين في العالم. ولكن الدور الوحيد الذي رأوه للأجانب هو كونهم خارجيين وأفضل أمل لهم هو المشاركة في النعم المباركة التي تستطيع الهند تقديمها سواء في التجارة أم في التبني. وكانوا يلبسون ملابس خفيفة، كما هو مريح في مناخهم، ولكنهم كانوا يزخرفون أنفسهم بزينة مبهرجة بقدر ما تسمح به مداخيلهم وطبقاتهم. وكانت علاقاتهم بآلهتهم قضية ولاء شخصي كبير، إلّا في أوقات الأعياد. وقد بنوا نصبهم التذكارية بعناية محبة بالتفاصيل المعقدة، وتزيين واضح السخاء في زخارفه. وكانت أديانهم صريحة في تقلبها لكل جوانب الحياة

والطبيعة، مع كون التدمير على قدم المساواة مع الخلق، والناحية الجنسية معترف بها بشكل مفتوح باعتبارها مركزية لكل شيء.

وكان حكامهم حينئذٍ أجانب ولهم رؤية غريبة وحاسمة بدون مساومة. فقد كانوا ذوي إيمان ثابت بأنه لا يوجد إلا إله واحد له السيطرة على الكون كله. وأن عبدة الأصنام لا يصلحون إلا لاعتناق دينهم أو الموت. وكانوا يعتقدون أن الناس جميعاً سواسية روحياً أمام الله، وأن عليهم أن يعبدوه علانية وبشكل جماعي. وكان طراز لباسهم تغطية الجسم بكامله، وكانوا يؤمنون بأن التواضع يتطلب ذلك. وكانت مبانيهم متقشفة، وكانوا يعتقدون أن كل تصوير منحوت أو منقوش يعادل الكفر. وكانت فكرتهم عن أعمال الدنيا متقشفة ومجردة: فليس للجنس أي دور في الخلق، والإناث (والمتع المرتبطة بهن) يجب أن يبقين بعيدات عن الأنظار باحتشام وراء الستارة والحجاب.

وبطريقة مّا، في حوالي منتصف الألف الميلادي الثاني، تم التوصل إلى تسوية، أو طريقة تعايش مؤقتة على الأقل بين هذه الأشياء الكائنة على طرفي نقيض.

فمن الناحية اللغوية، كان أثر ذلك مرئياً في اللغة الوحيدة المحكية والأوسع انتشاراً في الهند الآن، وخاصة في مناطقها الشمالية. ولها اسمان هما الهندية والأوردو، لأن هناك شعوراً بأنهما لغتان مختلفتان. فالهندية تكتب بحروف ديفاناغار، التي تشبه 'نشر الغسيل على الحبل' والمشتقة من التقليد البرهمي، وهي تحب استعارة الكلمات من السنسكريتية. أما الأوردو فهي تكتب بالحروف الفارسية (التي هي عربية في الأصل)، وتستمد من اللغتين الفارسية والعربية. والأوردو هي اللغة الرسمية لدولة باكستان، بينما الهندية والأوردو معاً مكرمتان كلغتين رسميتين في الدستور الهندي.

ولكن أياً منهما لا تستطيع التمسك بمثلها الثقافي الأعلى في الحصول على مفرداتها، وعند التكلم بهما فإن الهندية والأوردو هما عملياً لغة واحدة(*).

(*) إن تسمية الأوردو هي اختصار لعبارة فارسية هي "لغة المعسكر المعلّى" حيث تكون الكلمتان الأولى والأخيرة من أصل عربي، والكلمة الوسطى تركية وحرفا الـ e الرابطان هما فارسيان صافيان في هذه العبارة *zaban e urdu e mualla*. أما الهندية، فهي اختصار لكلمة هندي أو هندفي التي معناها

وهذا الحفاظ على تميز بدون فرق هو تعبير بليغ عن الحضارة الهندية بعد الغزوات الإسلامية، مع اعتقاد كل جانب بأنه يحافظ على مقاييسه بينما هو في الحقيقة يتمشى مع مقياس مشترك أوسع يوحد الجانبين في مجتمع مشترك.

وقد حافظ الغزاة الأتراك بقوة وتصميم على مثلهم الإسلامية ـ وعلى الاستخدام المثقف للغة الفارسية إلى أن استولى الإنكليز على الهند من المغول بعد مضي جزء كبير من القرن التاسع عشر ـ ومع ذلك فإن هؤلاء الغزاة الأتراك وقعوا في آخر الأمر في النمط القديم لفاتحين أخذوا بلغة البلد المفتوح وصاروا يتكلمونها. فإذا كانت التسميتان "الهندية" و"الأوردو" قد أخذتا من الجانب الفارسي من تراث اللغة، فإن مادة اللغة نفسها اتضح أنها آرية صرفة، بحيث إن المفردات الأساسية، والنهايات الإعرابية للأفعال، والصفات، والأسماء يمكن تتبع أصلها إلى شيء يشبه السنسكريتية، ولو مع تبسيط جذري لها. ومن الناحية التاريخية، فإن من الواضح أنها استمرار للغة البراكريتية، المحكية حول دلهي، والتي كانت تعرف على التوالي باسم "سوراسيني" ('لغة سوراسينا'، المنطقة الواقعة إلى جنوب المدينة، و"آبابهرامسا" ('اللغة الساقطة')، و"كاري بولي" ('الكلام الدارج').

وبطريقة مختلفة وغير متوقعة، فإن سقوط السنسكريتية في عالم لم يعد يعتبرها المقياس الأوحد للتميز اللغوي قد جاء لإغناء فهم العالم كله للغة. فالسادة المسلمون الجدد، رغم معرفتهم المستقلة للعربية والفارسية والتركية، لم يميزوا أنفسهم بكونهم باحثين لغويين. ولكن عندما خلفهم الإنكليز في القرن الثامن عشر، فإن حضارة جديدة غريبة قد تعرفت على الثقافة الهندية، ومن خلالها على السنسكريتية. فقد اقتربوا منها عن طريق منظور جديد من معرفة لغات أوروبا الكلاسيكية، واليونانية، واللاتينية، واندهشوا فيما بعد من شبه السنسكريتية بهاتين اللغتين إلى حد لافت للنظر. بل إن السير وليام جونز، قاضي القضاة في الهند، تجرأ على إطلاق حدس عشوائي جامح في العام 1786

'الكلام الهندي' وهي كلمة استخدمها المسلمون في الأصل، إذ إن كلمة هند نفسها هي نسخة فارسية لاسم نهر سندهو المعروف عند الإغريق (والأوروبيين) باسم الإندوس.

بأن اللغات الثلاث كلها قد 'نبعت من مصدر مشترك، ربما لم يعد موجوداً'.

وكان هذا أصل علم اللغويات التاريخي المقارن. وكان تطبيقه على اللغات في جميع أنحاء العالم إحدى المغامرات الفكرية العظيمة في القرنين التاسع عشر والعشرين. وكانت النتيجة المباشرة لذلك أننا نعرف الكثير عن تدفق اللغات البشرية، وبالتالي عن التاريخ البشري، قبل زمن طويل من الوثائق المكتوبة. وعند إعطاء ثلاثة أمثلة فقط فإن هذه هي الطريقة التي نعرف بها أن الهنغاريين قد جاؤوا من سيبيريا الشمالية، وأن مدغشقر قد تم استعمارها من بورنيو، وأن الغجر الأوروبيين أصلهم من مكان بعيد هو الهند.

وبرغم كل امتياز تقليد السنسكريتية النابع من ذاتها، فإنها لم تكن تستطيع التحرك في هذا الاتجاه الجديد وحدها. فقد كانت تحتاج إلى مواجهة مع لغات أخرى بعيدة خارج نطاق المشهد الهندي، وإلى القدرة على النظر إلى هذه اللغات أيضاً على قدم المساواة مع السنسكريتية بطريقة مّا. وهذا شيء آخر كان التقليد سيجده غير قابل للتصور.

وكان تاريخ السنسكريتية اللاحق بعد ذلك هو تاريخ البقاء، وليس تاريخ انتصار جديد. فهي في الهند لا تزال لغة النخبة التقليدية، ولكن هناك الآن إنكاراً لدورها القديم ودورها في العصور الوسطى باعتبارها الأداة الرئيسية للخطاب الفكري في الهند. فهذا الخطاب يجري الآن باللغات العامية الدارجة، أو بالإنكليزية بشكل أكبر. فثقافة اللغة السنسكريتية كانت تقوم دائماً على الرأي الملطف بأهميتها نفسها، وهو الرأي الذي يعتبر الهند الجزء الهام الوحيد من العالم. فلم تتكيف مع عالم ينبذ هذا الرأي ولا يعترف به حتى في الهند نفسها. فهذا العالم الذي أثر فيه الهنود، وكل آسيا الشرقية والجنوبية، كان ذات مرة ينظر إلى الهند حسب تقييمها لنفسها، ولكن هذا الرأي لم يعد قائماً.

ولعله كان من الممكن رغم ذلك تحقيق ثورة في وجهة النظر التي تحتاج إلى دمج المعرفة والثقافة الغربية. فحتى أوائل القرن التاسع عشر كانت شركة الهند الشرقية، مثل المغول من قبلها، تقدم رعاية أبوية للثقافة الهندية كما

وجدتها، بالعربية/الفارسية والسنسكريتية معاً. وعندما تشكلت لجنة للتعليم العام في العام 1823 لصرف مبلغ قدره مئة ألف روبية على ’إحياء الأدب وتحسينه وتشجيع الأهالي الهنود وإدخال وتعزيز المعرفة بالعلوم بين سكان المناطق البريطانية في الهند‘ حصل انقسام لمدة عشر سنوات حول ما إذا كان ينبغي على هذا المشروع أن يتوجه إلى التعليم التقليدي أم إلى الدراسات الحديثة باللغة الإنكليزية. وفي آخر الأمر كان القرار لصالح الإنكليزية. فكان ذلك نقطة انفصال ثقافية حاسمة. ولم تجر بعد ذلك أي محاولة جادة لسد الفجوة بين تقاليد الهند وبين العلوم الآخذة في التطور بسرعة، والعقائد والتقنيات التي أوجدت العالم الحديث في العصر الفكتوري [1837 ـ 1901]. وتحولت السنسكريتية أكثر فأكثر إلى رمز لأديان معينة، وثقافات معينة، وفلسفات معينة ـ مثيرة لاهتمام المختصين بالدراسات الإنسانية، ولكنها بطريقة ما لم تعد تقدم تحدياً لعالم العلماء(*).

وتستمر السنسكريتية في التمتع بمكانة محسودة كلغة وضعت قواعدها وقوانينها قبل 2500 عام، ولم تتعرض لأي تغيير هام سوى قبولها لكلمات جديدة منذ ذلك الحين. وفي العام 1947، تم تبنيها كواحدة من لغات الهند الرسمية. وادعى مئتا ألف شخص أنهم لا يزالون يتكلمونها في الإحصاء السكاني الهندي للعام 1971 ـ ولو من بين سكان وصل تعدادهم آنذاك إلى 400 مليون نسمة.

وفي مفارقة أخيرة، كسبت السنسكريتية قيمة رمزية جديدة في العقد الأخير من القرن العشرين، عندما تبناها ’حزب الشعب الهندي‘، الذي كثيراً ما كان في الحكومة، باعتبارها طوطماً للهوية الهندوسية. وهكذا فعلى سبيل المثال، تم الإعلان عن العام 1999 باعتباره عام السنسكريتية في الهند. وعقد ’مؤتمر السنسكريتية العالمي‘ في نيودلهي بتمويل من الحكومة. وهناك شيء شديد الغرابة في ذلك بالتأكيد. إذ إن السنسكريتية، خارج استخدامها في الصلوات

(*) للإطلاع على وجهة النظر من الجانب الإنكليزي، انظر الفصل الثاني عشر ’منظور متغير - الإنكليزية في الهند‘، ص 681.

والتراتيل المتكررة في المعبد كما رأينا، كانت دراستها على الدوام اختصاصاً نخبوياً. كما أن التسلسل الصارم للهندوسية الذي يحرم الطبقات الدنيا من أي مكانة، قد شجعهم على هجر تلك اللغة لصالح الإسلام دين المساواة الكلية. أما الآن، فإن هذه الشارة للمفكرين البراهمانيين يجري استعراضها كشعار وراية لحركة شعبية جماعية كثيفة تهدم المساجد كي تؤكد السلطة الهندوسية بطريقة بسيطة وغبية ولا تعبأ بمشاعر الآخرين.

ولم تنته سيرة حياة السنسكريتية، رغم أن النظرة الهندية الحصرية إلى العالم، التي تكمن تحت طابعها المتميز طيلة الثلاثة آلاف وخمسمئة عام الماضية، ربما تكون قد انتهت. ومع ذلك فإن السنسكريتية تتعايش في الهند مع أسرة كبيرة من بناتها من اللغات، وتستمر بحد ذاتها كلغة مقدسة لديانتين عالميتين، هما الهندوسية والبوذية.

إنها لغة تناقص ظاهري. فربما تكون قد انقرضت من الناحية التقنية، ما دام لا يوجد سوى عدد ضئيل من الأطفال الذين يلتقطونها باعتبارها لغتهم الأولى. ومع ذلك يستمر نقلها إلى الجيل التالي بواسطة نظام مصطنع من التعلم الاستظهاري بالحفظ عن ظهر قلب، وبالتصريف الإعرابي في قواعد النحو الذي أثبت أن له قوة كقوة الطريقة الطبيعية - وأنه أقل قابلية بكثير لإدخال التغيير.

لقد كانت السنسكريتية دائماً نوعية عادية مبتذلة من اللغات. ولكنها في المناخ المداري الذي ازدهرت فيه، كان المهتمون بها دائماً يختارون تشجيع جانبها الخصب المنمق المترف.

> حقاً تلمع شفتها السفلى كورقةٍ طرية، وذراعاها يشبهان أغصاناً مرنة والشباب، ساحر كبرعم، يشرق في كل أساريرها وقسماتها.
>
> كاليداسا: التعرف على شاكونتالا، 1: 21

6

ثلاثة آلاف عام من الأنانة:
مغامرات اللغة الإغريقية

الإسبارطيون للأثينيين (يحثون على تحالف لمقاومة الفرس، 480 ق.م):

ليس لدى البرابرة شيء جدير بالثقة أو صادق.

الآثينيون للإسبارطيين (كجواب):

لا يوجد في أي مكان ذهب كثير أو بلد متفوق في الجمال والقيمة بحيث نرغب في الحصول عليه كجائزة لقاء الانضمام إلى الميديين وبالتالي استعباد اليونان. والواقع أن هناك أشياء هامة كثيرة تمنعنا من ذلك حتى لو أردناه ... ثم هناك أيضاً كوننا يونانيين، من الدم نفسه واللغة نفسها، مع اشتراكنا في المزارات المقدسة، وطقوس الآلهة، والعادات نفسها، التي لن يكون من الصحيح أن يخونها الآثينيون.

هيرودوتس 8: 142 _ 144

والآن ماذا سيحل بنا بدون البرابرة؟ لقد كان هؤلاء الناس نوعاً من الحل.

قسطنطين كافافيس، بانتظار البرابرة، 1949، المجلد الثاني ص35ـ36

بعد مهابة السيطرة على الذات في اللغتين المصرية والصينية والإسهاب الحسي في السنسكريتية، والتجريد الابتكاري المطلق في لغات الشرق

الأدنى، فإن اللغة الإغريقية تترك انطباعاً مألوفاً أكثر، إن لم نقل عصرياً أكثر. فهذه لغة الناس الذين جلبوا النبيذ، وزيت الزيتون، ومعرفة القراءة والكتابة إلى عالم البحر الأبيض المتوسط، والذين اخترعوا المنطق، والمسرحيات المأساوية التراجيدية، والحكومة المنتخبة، والذين اشتهروا بالألعاب التنافسية والفنون الرمزية المجازية للواقعية المدهشة. وقد أصبحت أوروبا كلها من تلاميذ اللغة الإغريقية بصورة مباشرة أو غير مباشرة. فمعاجم اللغات الأوروبية كلها مليئة بالكلمات المستعارة من الإغريقية للتعبير عن مفاهيم إغريقية أو صناعات إغريقية. كما أن قواعد تلك اللغات، عندما تمت كتابتها، نظمت حسب مبادئ إغريقية.

ومع ذلك، فإن تاريخ اللغة الإغريقية نفسها معقد ومضلل أكثر مما يوحي به تأثيرها الصافي. إذ إنه فَقَد قوته في الشرق الأدنى كما في حوض البحر الأبيض المتوسط، في مناطق تم تطهيرها تقريباً من أي آثار من آثار اللغة الإغريقية. ومثل الإنكليزية، انتشرت الإغريقية بوسائل متنوعة - مثل تجارة المضاربة، والاستعمار السافر، والإغراء الثقافي، وكانت الوسائل مختلفة جداً عما حققته من حيث الديمومة على المدى الطويل.

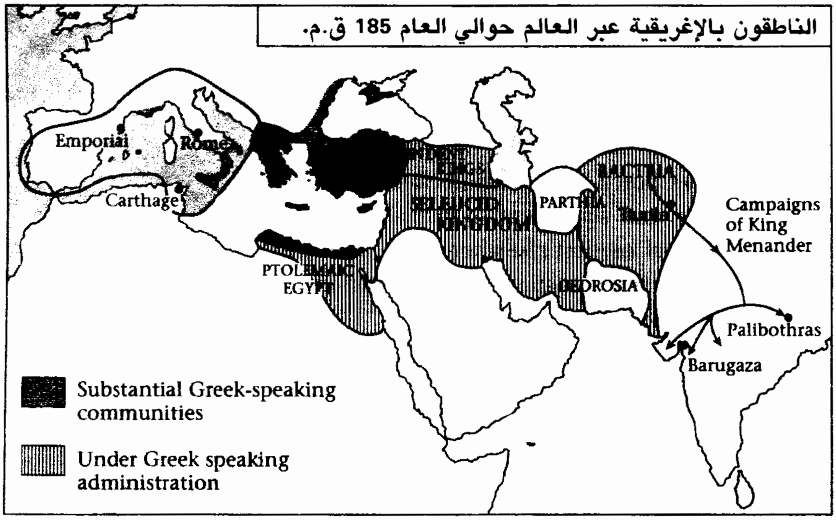
وقبل كل شيء، تقف الإغريقية كمثال على لغة كلاسيكية اتخذت مجراها الطبيعي، معززة بغطرسة من احترام الذات التي ظل جيرانها أكثر من ألف عام سعداء بتأييدها، يقدمون لها دعمهم العسكري أثناء تقبلهم لفوائد ثقافتها وتقانتها الأكثر تقدماً. وكان هؤلاء الجيران الأقوياء، ولكن المعجبون بها، يشملون الإمبراطورية الرومانية والكنيسة المسيحية. ولم ينكسف تأثير الإغريقية إلا عندما لم يعد لديها حلفاء جدد، فأرغمت على أن تواجه وحدها عدواً غير متعاطف يستمد دعمه الثقافي من مكان آخر. وهذا مثل فيه تثقيف وتنوير على ما يمكن أن يحدث للغة متميزة النفوذ عندما يتوقف مجتمعها عن الإبداع والابتكار، فيلحق به باقي العالم.

الإغريقية في أوجها

إن النقطة العليا في توسع الإغريقية جاءت لمدة قرن أو نحو ذلك قرب نهاية الألف الأول قبل الميلاد. ففي ذلك الوقت كان يمكن سماع هذه اللغة على شفاه التجار، والدبلوماسيين، والجنود من إمبورياي (آمبورياس الحديثة)، وهي مركز تجاري في الزاوية الشمالية الشرقية من إسبانيا الحديثة، إلى باليبوثراس ("باليبوترا"، باتنا الحديثة) في الهند، وهذه مسافة طولها 8,000 كيلومتر، أي ما يقرب من ربع محيط الكرة الأرضية. وضمن هذا المدى، وعلى طول أكثر من 80 بالمئة من امتداده، كان هناك شريط متواصل من الأرض تحت إدارة ناطقة بالإغريقية، وكله إلى الشرق من الوطن اليوناني، في جنوب البلقان ويمتد إلى ما هو اليوم باكستان. وهذا الامتداد الكلي لليونان العظمى، للعالم الهيلينستي على مدى حوالي سبعمئة عام، بدون الاستفادة من أي تكنولوجيا سوى السفينة، والحذاء، والعجلة، والطريق، والحصان، والكتابة.

وكانت لغة الأمر الواقع العالمية هذه متداولة في حوالي بضع إمبراطوريات وممالك متميزة في ذلك الوقت. فالإغريقية الفصحى، لهجة مدينة آثينا الخاصة والمعروفة بأنها 'اللغة الشائعة لعامة الناس' أصبحت شائعة في جميع أنحاء شرق الأبيض المتوسط. وفي اليونان أيضاً راحت تحل تدريجياً محل جميع اللهجات العشرين التي كانت قد ازدهرت حتى القرن الرابع ق.م. ولعل عملية هدم تلك اللهجات بدأت عن طريق النفوذ التجاري لآثينا نفسها، بحيث إن ميناءها بيرايوس أعطي صبغة لغوية من لهجة آتيكا لمحور التجارة اليونانية الداخلية. كما أن بريكليس، الذي ترأس أيام آثينا المجيدة في منتصف القرن الخامس ق.م. كان قد تفاخر لقومه الآثينيين بازدهار أتاح لهم الاستفادة من إنتاج الكرة الأرضية كلها. وعندما شعر مزيد من الناس الخارجيين بالحاجة إلى تعلم اللغة اليونانية، وبدأ اليونانيون أنفسهم يملكون تطلعاً أوسع من مدينتهم نفسها، بدأت اللهجة الإغريقية الآتيكية تنتشر.

ورغم الوسائل المختلفة التي حققت انتشارها، فإنها كانت تستدعي مواقف مماثلة لتلك التي تستحضرها الإنكليزية اليوم. وقد زعم كتيب سياسي من القرن



الناطقون بالإغريقية عبر العالم حوالي العام 185 ق.م.

الخامس أنه بينما كان اليونانيون على وجه العموم يستخدم كل منهم لهجته الخاصة، فإن أهل آثينا كانوا يتكلمون خليطاً من اللهجات كلها، وجميع اللغات البربرية أيضا[1]. وفي مسرحية هزلية كتبت في القرن الثاني ق.م. من تأليف المقدوني بوسيديبوس، يوجه شخص من ثيساليا (من شمال اليونان) اللوم للآثينيين على اعتبارهم اللغة الإغريقية كلها آتيكية. وكانت للآثينيين مشاكل تمنعهم من أخذ باقي اليونان على محمل الجد تشبه تماما المشاكل التي تمنع اليونانيين عموماً من أخذ باقي العالم على محمل الجد. فإذا فشلوا في النطق باليونانية الصحيحة، فإنهم، رغم كل شيء، ليسوا أفضل حالاً من البرابرة(*).

من هو الإغريقي؟

ما هو أحدٌ مّا؟ ما هو لا أحد؟ حلم ظِلٍّ هو الإنسان

بندار: قصائد بيثيا الغنائية، 8: 95 ـ 96

حتى استقلال اليونان في العام 1821 م، لم يكن اليونانيون يتحدون سياسياً

(*) وبالصدفة، فإن هذا التفوق للهجة آتيكا كان نتيجة سيطرة ثقافية وتجارية، لا عسكرية. فقد كانت آثينا منذ زمن مبكر مركزاً تجارياً كبيراً. ولكن حتى القرن الخامس الميلادي كان الأدب الإغريقي هو الإنتاج المشترك لكثير من اللهجات المختلفة.

على الإطلاق إلا في أعقاب غزو مشترك يتعرضون له معاً على يد بعض الأجانب الخارجيين. وقد حدث ذلك لأول مرة في القرن الرابع ق.م. عندما كان الخارجي هو فيليب، ملك مقدونيا على حدودهم الشمالية. ومع ذلك فعلى مدى ألف عام قبل ذلك التاريخ كانت الحضارات الأخرى التي تواجه الإغريق تعتبرهم على ما يبدو أفراداً في مجموعة عرقية واحدة.

وبطريقة ما، فقد كان هذا شيئاً غريباً، ما دام الخارجيون كانوا يعرفونهم ببساطة بالاسم القبلي للمجموعة التي يتصادف أن يقابلوها. وكان الاسم المشترك الذي يطلقه الإغريق على أنفسهم: "الهيلينيون" غير منتشر خارج اليونان أبداً(*). فكان الفرس يعرفونهم باسم "يونا"، لأن مواجهتهم كانت مع الإغريق الآيونيين، الذي يسمون *láwones* في أشعار هوميروس، أقدم إغريقي في هذا التقليد(**). وعلى الطرف المقابل من العالم الإغريقي، فإن الرومان قد عرفوا الإغريق باسم *Graii*. فقد كانوا يلتقون بمستعمرين إغريق من إيبويا بويوتيا، وهم يقيمون مدينة كايم الجديدة في إيطاليا (التي عرفها الرومان فيما بعد باسم كوماي). والحقيقة أن *Graii* كانت كما يبدو إحياء لذكرى مدينة صغيرة في بويوتيا الجنوبية تدعى "غرايا"(***). وتأتي كلمة "إغريق" من خلال غريكوس اللاتينية *Graecus* التي هي صفة مباشرة صيغت من هذا الاسم (من كلمة *Grai-icus*) ثم حلت محل الأصلية *Graii*(****).

فما هو الإغريقي إذن بموجب أي تسمية من هذه التسميات؟ فرغم أن

(*) كان هذا هو اسم بعض قوم آخيل في إلياذة هوميروس (2: 684)، وبما أنه كان أعظم بطل في أعظم الأعمال الشعرية اليونانية هذه، فربما كان هذا كافياً لإطلاق الاسم على العرق بكامله عن طريق الترابط.

(**) إن حرف w الذي يكتب على شكل *F* في بعض الأبجديات الإغريقية قد سقط من اللفظ (وبالتالي من التهجئة) في معظم اللهجات. ومن هنا فإن الحرف w في هذه الكلمة الهوميروسية هو تخميني بالمعنى الدقيق. وإن *Iōnes* هي الكلمة نفسها، مع تقليص شائع لحرف العلة الطويل a+o ليصبح ô. وفيما بعد صار الهنود يسمون الإغريق *yavana* أيضاً. رغم أن أول مواجهة كبرى لهم كانت مع قوة حربية مقاتلة يقودها المقدونيون

(***) قرب أوربوس، الكائنة على الساحل المواجه لإريتريا، حسبما يقول المؤرخ الجغرافي اليوناني سترابو (9 - 2: 10)

(****) هناك تسميتان عرقيتان أخريان للإغريق، يبدو أنهما أقدم من هذه التسميات بكثير وهما *Danaoi* و*Akhaioi*. وهما الكلمتان اللتان يستخدمهما شاعر العرق اليوناني هوميروس، الذي كان يكتب في

اللغة هي المعيار الأساسي، فقد كان هناك شعور عام بان الإغريق لديهم أشياء مشتركة أكثر من اللغة بكثير. ففي قطعة مشهورة لهيرودوتس فإنه يجعل الآثينيين يوضحون لماذا يخونوا اليونان أبداً[2]. فهم يعلنون عن إغريقيتهم ("تو هيلينيكون") التي يحددونها بامتلاكهم الدم نفسه، واللغة نفسها، والمزارات المقدسة والآلهة المشتركة، والطقوس المشتركة، والعادات المتشابهة. وبالطبع فإن الدم المشترك لم يكن شيئاً يمكن إثباته أو التأكد منه موضوعياً، ولو أن هناك شعوراً بملامح السحنة، ولون البشرة بلا شك. أما اللغة المشتركة فكانت واضحة من خلال إمكانية الفهم المتبادل لكل اللهجات الإغريقية. وأما بالنسبة للعبادة المشتركة للآلهة المشتركين، فإن الهيكل المكرس لكل الآلهة على الجبال الأولمبية قد اثبت صحته السرد القصصي في ملاحم هوميروس، وذكره في ترانيم دينية أخرى، حتى عندما قد تكون الممارسة الفعلية للعبادات في أماكن مختلفة فريدة من نوعها تماماً. وكانت هناك مؤسستان كبريان أخريان تربطان الإغريق معاً، وهما احترام العرّافين المشتركين الذين يمكن البحث عندهم عن نبوءات متعمقة، ولا سيما عراف آبولو في دلفي، وحضور الألعاب الأولمبية كل

وقت ما من أوائل الألف الأول ق.م. فتسمية *Danaoi* لها ارتباطات مع مدينة آرغوس، التي كانت مدينة كبرى في زمن وصف هوميروس لليونان. وكان داناوس ملكاً أسطورياً عليها. أما *Akhaioi* فعند استخدامها بدقة فإنها إما أن تشير إلى أهل منطقة إلى الشمال من البيلوبونيز، بدون أي ادعاء معين لمكانة تمثيلية خاصة، أو أنها تشير إلى أهالي فثيوتيس، الوارد ذكرها عند هوميروس أيضاً باعتبارها جزءاً آخر من مملكة آخيل (الإلياذة 2: 684). ويظهر من صيغتها اللاتينية *Achivi* أنه كان فيها حرف W في آخر جذع الكلمة (ومن هنا فإن الكلمة هي في الحقيقة *Akhaiwoi*). ولكن في هذه الصيغة، مع قلب الـ A والـ ا كما في *Ahhiyawa* يبدو أنها تظهر فعلاً كمصطلح لمملكة كبرى في وثائق أخرى هي المراسلات الملكية (بخط مسماري على الواح طينية مخبوزة) من الحثيين الذين كانوا يسيطرون على بلاد الاناضول في الألف الثاني قبل الميلاد. وهكذا يبدو أنه في وقت مبكر، كان الإغريق معروفين في الخارج باسم آخر كذلك. وربما استخدم المصريون هذين المصطلحين كليهما. فهناك نص مكتوب. في حوالي العام 1370 ق.م. (على قاعدة تمثال في معبد جنائزي للملك آمنوفس الثالث) يذكر الـ TNY مع تشكيلة متنوعة من الأسماء الأخرى التي يمكن تحديد مواقعها في جزيرة كريت. فالأبجدية الهيروغليفية في العادة تحذف حروف العلة. وحرف الـ ا أو الـ y بين حروف العلة كثيراً ما تفقد في اللغة الإغريقية. وهكذا فإن هذه قد تكون إشارة إلى الـ *Danaioi*. وفي نص آخر من حوالي العام 1186 ق.م. فإن الـDNYN مذكورون باعتبارهم أحد شعوب البحار التي تهاجم مصر. ولكن في نص مكتوب آخر من حوالي العام 1218ق.م. يأتي ذكر الـ IKWS الذين يمكن أن يكونوا بالضبط هم الـ *Akhaiwoi* أو *Ahhiyawa* باعتبارهم حلفاء في المقاومة ضد شعوب البحار (سترينج 1980، وكذلك موهلي وشركاه، 1982).

أربع سنوات (حيث تعود سجلات الفائزين فيها إلى العام 776 ق.م.)(*)

والواقع أن الإغريق كانوا يشعرون أن هناك أساساً عقلانياً يفصلهم عن البرابرة، أي بقية البشر، الذين يمكن اعتبار كلامهم المختلف مجرد 'بربرة' ضوضائية لا تستحق التمييز بينها وبين أصوات ضجة الحيوانات(**). فكان الإغريق يشعرون أن أي شيء أجنبي هو بطريقة ما شيء سخيف.

وهكذا فإن المؤرخ هيرودوتس يصف لغة "سكان الكهوف" في أثيوبيا بأن صوتها يشبه زعيق الخفافيش[3]. وفي وسط مسرحية تراجيديا مأساوية جادة[4]، تتكهن كليتامنسترا (ملكة إسبارطة)، وهي صورة من الغطرسة المتعالية، بأن كاساندرا أميرة طروادة ربما تتكلم لغة غير معروفة تشبه أصوات السنونو. وحتى سترابو نفسه، الجغرافي العالمي لحوض الأبيض المتوسط في أيام يوليوس قيصر، يكتب في وسط معجمه الجغرافي عن شعوب إسبانيا (3 ـ 7:3): 'إنني أكره أن أستمر في الحديث عن الأسماء، لأنني أعي بشاعتها عند كتابتها، إلا إذا كان هناك شخص ما يستمتع بسماع أسماء مثل بليوتوريو، أو بارديتاي أو آلوتريغيز أو غيرها من الأسماء الأكثر حتى من هذه عفونةً وعدم معنى'.

إن هناك نصوصاً تقليدية كلاسيكية ذكر فيها اليونانيون مثلهم العليا. ومن أبرزها رواية ثوسيديديس لخطاب بريكليس لقتلى الحروب الذي ألقاه في العام 431 ق.م[5]. كان بريكليس قائد آثينا الذي بنى البارثينون (معبد الإلهة آثينا) وقاد المدينة في حربها العظمى ضد إسبارطة. وكان خطابه هذا محاولة لتلخيص إسهام آثينا في الحضارة، وليس الادعاء بأن المدينة كانت تشبه المدن الأخرى، ولكن بتقديم النموذج القدوة لها. وفيه يتحدث عن نهج للتعامل مع السياسة

(*) لم تكن هذه الألعاب الهيلينية الجامعة الشاملة الوحيدة. بل كانت هناك مباريات بيثيا في دلفي (على اسم كاهنة معبد أبولو) والمباريات البرزخية، التي كانت تنظم في كورينث.

(**) إن الحالة الوحيدة المعروفة التي لم يعبر فيها الإغريق عن وجهة نظر عنصرية مركزية في لغتهم كانت في مصر. فهناك خربشات سوداء يعود تاريخها إلى العام 591 ق.م. كتبها مرتزق يوناني على ساق تمثال في أبي سنبل، يشير إلى اليونانيين في فريقه على أنهم "يتكلمون لغة أخرى"، أي غير اللغة المصرية. كما أن هيرودوتس يستعمل هذا المصطلح أيضاً لوصف الإغريق في مصر (2: 154). قارن ذلك مع الموقف النموذجي لسترابو (4 - 1:2) الذي يعتبر الرومان في إيطاليا لا يزالون برابرة، على عكس اليونانيين هناك.

مفتوح للجميع، مهما كانوا فقراء، وعن التسامح في الحياة الخاصة، وعن التمتع بوسائل الترفيه العامة. ويتفاخر بأمجاد منجزات المدينة العسكرية، ولكنه يتفاخر بالدرجة نفسها بأن أهل آثينا (على عكس عدوتهم الرئيسية إسبارطة) لا يجعلون الجاهزية العسكرية صنماً معبوداً. فكل شيء يكمن في الحفاظ على التوازن الصحيح، وبعبارة يونانية جداً يقول بريكليس:

نحن محبون للجمال مع شعور بالاقتصاد، ومحبون للحكمة بدون تساهل.

وقال، إن مدينة آثينا على وجه العموم هي تثقيف لليونان[6]. فالفن، وقيمة المال، والحكمة، والشجاعة المادية، هي الأشياء التي تحب آثينا أن تعتقد أنها تمثلها. (وأما بالنسبة لحب الحكمة، فإن اللغة اليونانية لا تميز بسهولة بين الفلسفة وبين تقدير البراعة).

ومن الواضح أن هذه العبارات كانت تعكس بياناً متفائلاً عن المثل الآثينية العليا. فلم تكن الأعمال الجميلة والحكيمة بارزة للعيان في إدارة الحرب التي أعقبت ذلك الخطاب، والتي استمرت فيها آثينا حتى خسرتها. ورغم ذلك فقد كان بريكليس على صواب في رؤيته لآثينا كثقافة لليونان؛ فرغم أنها خسرت أهميتها السياسية بالتدريج في غضون القرن الذي تلا خطابه، فإنها لم تخسر مكانتها أبداً كمركز للثقافة الإغريقية. فقد بقيت المدينة التي يأتي إليها الطلبة الجادّون ليدرسوا فيها طيلة الألف سنة التالية، ودائماً باللغة اليونانية، حتى ولو جاؤوا من أي مكان في الإمبراطورية الرومانية أو ما وراءها.

والواقع أن قيادة آثينا الفكرية استمرت حتى جاءت المسيحية لتسخط على استمرار ثقة آثينا بنفسها وعلى ولائها لانفتاحها العقلي الذي سبق المسيحية. وقد أغلق الإمبراطور الروماني جستنيان مدرسة آثينا في العام 529 م. ولكن تفوق لغتها في جميع أنحاء شرقي البحر الأبيض المتوسط بقي بعد ذلك حوالي ألف عام(*).

(*) [ملاحظة: لو كان هذا صحيحاً لما احتاجت أوروبا كلها ـ ومنها اليونان ـ إلى تسمية هذه "الألف عام": عصور الظلام ـ المترجم].

ما نوع اللغة؟

نوعية الإنسان تتميز من كلماته

مناندر(7)

الشخصية بالنسبة للإنسان هي القدر

هراقليطس(8)

إن اللغة التي وحّدت العالم (الغربي) المعروف، وخاصة أبناءه المتعلمين طيلة كل هذه القرون كانت كائناً عضوياً معقداً لا يقدم أي تنازلات تذكر للمتعلمين الأجانب. فكلماتها متعددة المقاطع، مع عناقيد معقدة من الحروف الصامتة (مثل: "*pʰtʰárthai*" أي: 'يجب تدميره'، و"*tlẽmonéstatos*" أي 'تعيس جداً'، و"*spʰrãgídion*" أي: 'الخاتم المنقوش' و"*stengís*" أي: 'المكشطة التي تستخدم مع الزيت وقت الاستحمام' و"*gliskʰrós*" أي: 'لاصق').

وكان الناطقون بهذه اللغة محتاجين إلى تمييز حروف العلة الطويلة من القصيرة، والحروف الصامتة البسيطة من الحروف الحلقية التي تخرج مع النَفَس، وأن يكونوا قادرين على إدارة أنظمة معقدة من السوابق واللواحق التي تزاد على الكلمة، بحيث إن 'الاسم' العادي تصبح له تسع صيغ مختلفة، والصفة تصبح لها تسع عشرة صيغة، والفعل تصبح له أكثر من مئتي صيغة. وكانت هناك بالطبع قياسات ثابتة باطراد في النظام، ولكنها كانت تخوض معركة خاسرة. فقد كانت هناك عشرة أنماط كبرى للأسماء، وعشرة أنماط أخرى للصفات، بالإضافة إلى عشرة أنماط مختلفة للأفعال، كان هناك أكثر من ثلاثمئة وخمسين فعلاً شاذاً عن القواعد القياسية في مكانٍ مّا. وهذه التصاريف الإعرابية المعقدة، عند أخذها مع الميل لتأليف المصطلحات وتركيبها (كما رأينا في ملاحظات بريكليس المقتبسة أعلاه) كانت تعني أن الكلمات يمكن أن تصبح طويلة جداً، وهذه خاصية كانت أحياناً تسلي اليونانيين أنفسهم: وكانت أطول كلمة مسجلة مؤلفة من ثلاثة أسطر طويلة مليئة بالحروف المتلاصقة يزيد عددها على

مئة وستين حرفاً، وهي اصطلاح عن 'فن حسن الأكل'، وقد وردت في ملهاة مسرحية في القرن الخامس ق.م[9]:

lopadotemakhoselakhogaleokranioleipsanodrimhypotrimmatosilphiok arabomelitokatakekhumenokikhlepikossuphophattoperisteralektruono ptokephalliokinklopeleiolagōiosiraiobaphētraganopterúgōn.

ولكن هناك كلمات طول الواحدة منها عشرة أحرف أو تزيد ترد في كل جملة من كل نص تقريباً. وأسماء الأعلام، التي من الواضح في حالات كثيرة أنه يمكن إعرابها باعتبارها كلمات مركبة، هي نفسها من الوزن الثقيل على وجه الخصوص.

وإلى جانب تعقيد الكلمات المفردة تأتي مرونة الأسلوب الإغريقي: فضمن عبارة واحدة كان ترتيب الكلمات حراً بشكل كلي تقريباً، وهكذا كانت نهايات الأسماء، والصفات، والأفعال، التي تشير إلى الجنس، والحالة الإعرابية، والعدد، والشخص، هي التي تحدد العلاقات بين معاني الكلمات إلى حد كبير. فكان الشيء الذي يقال عملياً هو: مَنْ فَعَلَ ماذا بمن. وهنا بدأ الفن يحل محل الطبيعة. فكان إتقان أسلوب النثر الإغريقي على أيدي السفسطائيين (أي الأشخاص الحكماء ـ كما كان البارعون يسمون أنفسهم) يعني أن الجملة، وخاصة في الكلام البليغ الصقل تميل إلى أن تطول وتتشعب أكثر، بعبارات متوازنة فنياً فيما يسمى 'الأسلوب المقيّد' الذي كان المستمعون الإغريق يعجبون به على نطاق واسع.

إن لغة تلك القرون قبل الميلاد يختلف صوتها كثيراً عن الإغريقية المحكية اليوم. والسبب الرئيسي في ذلك أنها كانت نغمية، فكانت كل كلمة تعطى لحناً متميزاً من الأنغام العالية والمنخفضة، بطريقة هي أقرب ما تكون شبهاً اليوم بالنبرة في اللغة اليابانية. وقد تحطم هذا النظام تدريجياً في القرون الميلادية القليلة الأولى، ولكنه تحوّل بدلاً من أن يختفي: ففي هذه الأيام يشدد اليونانيون على لفظ المقطع نفسه الذي كانت تعطى له نغمة عالية.

وعلى وجه العموم، يبدو أن تعقيدات تركيب الصوت، وليس قواعد النحو، هي التي كانت أشد وطأة في ضغطها على المتعلمين. فمعظم الأخطاء التي نجدها في المراسلات من حوالي بداية الألف الميلادي الأول (عادة على صفائح من البردي محفوظة في مصر) هي في الإملاء. فقبل كل شيء، كان المتعلمون يجدون صعوبة في التفريق بين حروف العلة العالية وحروف العلة المدغمة من حرفين لتشكيل صوت واحد *(i, ei, e, oi, u)*. ومن المؤكد أن كل هذه الأصوات المتميزة قد اندمجت لتصبح هي الـ i في اللغة الحديثة. وقد صمدت أنظمة الأسماء والأفعال بشكل لافت للنظر. فقد تم تبسيطها إلى حد مّا، ولكن حتى يومنا هذا لا يزال للاسم النموذجي باللغة الإغريقية خمس أو ست صيغ، أما الفعل فله عشرون صيغة(*).

إن أحد ملامح المجتمع اللغوي حتى القرن الثاني قبل الميلاد كان عدم وحدته. ففي الألف الثاني وأوائل الألف الأول قبل الميلاد، تطورت اللغة اليونانية في مجتمعات صغيرة في جميع أنحاء جنوب البلقان، وجزر بحر إيجة وخطه الساحلي. وكانت كثير من هذه المجتمعات معزولة بالبحر والجبل، ولا بد أن حجمها ظل صغيراً حتى بدأت بتطوير اقتصاديات متخصصة. فكان الاتجاه هو نحو تطور اللهجات الفردية وتحركها في اتجاهاتها الخاصة بها، وهذا نمط ازداد تعقيداً عندما أدت هجرات واسعة النطاق إلى خروج الإغريق الدُوريين *Doric* من الشمال إلى وسط البيلوبونيز (شبه الجزيرة التي تشكل البرّ اليوناني الرئيسي). وبقي اليونانيون قادرين على التواصل فيما بينهم طيلة تلك المدة. ولكنهم ظلوا مستقلين إلى أن وقعت أحداث القرن الخامس ق.م. في مجتمعاتهم الفردية، فازدهر بينهم التفاخر بالأصل المحلي، ومعه الوعي الذاتي باستخدام اللهجات المحلية. وقبل أن يكون هناك تهديد خارجي مشترك، أو أي قوة ذات تفوق عسكري يكفي لإغراق استقلالهم، ظلت الروابط بين اليونانيين على مستوى شعورهم بأجداد مشتركين وديانة مشتركة. وكانت حفلات أعيادهم المشتركة

(*) قارن هذه الأرقام مع أرقام الإنكليزية الحديثة: صيغتان لمعظم الأسماء هي المفرد والجمع (كلمة، كلمات) وأربع صيغ لمعظم الأفعال (نتكلم، يتكلم، تكلّم، يتكلمون).

وأدبهم المشترك تنكرهم بتراثهم المشترك، ولكن زمام المبادرة ظل في أيدي فرادى المدن، ولكل مدينة أرضها الداخلية من المزارع، والمراعي، ومصائد الأسماك الخاصة بها.

وبصورة نموذجية، فعندما كان إغريق العالم القديم يبحثون عن معرفة تاريخهم، كانوا يتجهون إلى الشعر، وخاصة إلى هوميروس، الذي كانت "إلياذته" و"أوديسته"، ومعهما عدد كبير من الترانيم الدينية الموجهة إلى آلهة معينين، هي التي تحدد تصورهم عن ماضيهم إلى حد كبير. وهناك المزيد من أمثال هذا الأدب منسوباً إلى هسيود Hesiod، الذي كانت شخصيته أقل إحاطة بظلال الغموض من حوالي 700 ق.م. ولكن كان هناك تنازع كبير في العالم القديم حول الشخصية الأقدم. إذ يقال أن هيلين، الجدّ الرمزي الأعلى للإغريق، كان له ثلاثة أولاد، هم آيولوس، وكزوتوس، ودورس. وقد كتب هسيود[10]:

> وللملك المحب للحرب هيلين وُلِد ثلاثة أبناء: دوروس، وكزوتوس، وآيولوس المحارب ذو المركبة.

ثم أنجب كزوتوس ولدين، هما إيون وأخايوس. وهذا يفسر بشكل متقن أصل مجموعات اللهجات الأربع الكبرى المعترف بها في العالم القديم. وهي الأيولية، والدورية، والأيونية، والأخايوية. فكان هناك شعور بأن التجمعات الكبرى تحدد أعلى مستوى من القرابة بين اليونانيين ككل، ولديهم شيء مشترك باللهجة التي تعترف بها علاقات القرابة عند بداية الدراسات الموضوعية للنصوص الإغريقية المكتوبة، وذلك في العصر الحديث: وعلى الأقل، فإن الأيونية، والأيولية، والدورية هي مجموعات كبرى. والتكملة الرئيسية المطلوبة هي الاعتراف بالمجموعة الأركادية ـ القبرصية، ما دامت اللهجتان الأركادية في شبه جزيرة بيلوبونيسيا والقبرصية متطابقين تقريباً، ومختلفتين كثيراً عن اللهجات الدورية في إسبارطة وكريت. أما النظريات حول طريقة احتلال المجموعات المختلفة لأجزائها المختلفة من بلاد اليونان فتبقى مجرد تكهنات محضة.

وكان من بين الملامح الهامة للثقافة الإغريقية الاتجاه نحو إضفاء الطابع

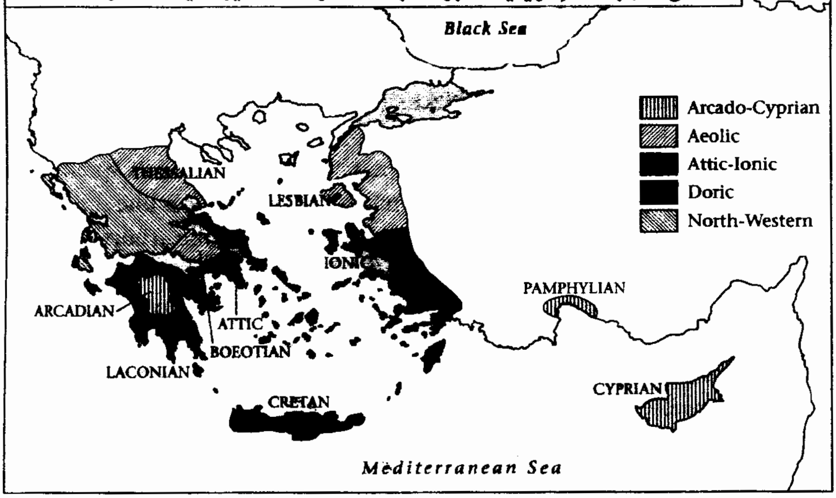
الرسمي على منتجاتها اللغوية، وبذلك يتم خلق أساليب وأجناس يتابع الكُتّاب تآليفهم بموجبها وعلى غرارها عن وعي. وهكذا تم تجميع أغاني البطولة ودمجها، مما أنتج الأسلوب الملحمي الذي نفذه هوميروس فعلياً. وتم تنظيم حكايات الرحالة ثم تقديمها على أنها أول الأعمال في مجالي الجغرافيا والتاريخ. أما أغاني الكورس الجماعية التي كانوا ينشدونها لبث الحماسة في التجمعات العامة، مثل دورات الألعاب الرياضية، فقد تم الاحتفاظ بها كأشعار غنائية. كما أن الطقوس الدينية التي كانوا يؤدونها بانتظام لتفسير وتمثيل أساطير آلهة معينين فقد تحولت إلى مسرحيات درامية، بحيث إن المحتفلين بها يظهرون كممثلين، ولم تعد كلماتهم طقوساً وشعائر، بل حالات تفحص للأوضاع التي أوجدتها القصص القديمة. وأدى هذا إلى نشوء التمثيلية المأساوية الأولى. وقبل كل شيء، فإن مناقشات سياسة المدن، والتحقيقات مع المشتبه بارتكابهم جرائم، أصبحت منتظمة في ممارسة الخطب العامة: فأخذ المهتمون بهذه الأمور يقدمون تدريبات عليها، وبذلك تم إيجاد ميدان الخطابة، الذي ربما كان أكثر علوم الفكر تأثيراً في تاريخ الغرب القديم. أما الأحاديث الأخرى، حول المواضيع العامة، فقد أصبحت عند كتابتها وتدوينها هي أساس الفلسفة(*).

ومن بين الملامح المثيرة للدهشة في معظم منتجات الأدب الإغريقي المبكرة هذه طابعها 'العام' (وكانت كلها قد ترسخت عند حلول نهاية القرن الرابع ق.م.): فهي نابعة من لغة مستخدمة في سياق عام، وهي إلى حد كبير مختصة بمسائل ذات اهتمام عام(**). وهذا متجانس مع السياق السياسي

(*) إن انقسام الكلام الإغريقي في ذلك الحين إلى لهجات متفرقة كان له تأثير مثير للاهتمام على هذه الأساليب والأجناس. فبعد بضعة قرون من بدء الأدب المكتوب، صار كل أسلوب أو جنس منها مرتبطاً بلهجة معينة وبصورة نموذجية بممارسيه الفعليين الأوائل، حتى ولو كان الأدب مشتركاً إلى حد كبير. وهكذا صار من اللازم كتابة الشعر الملحمي بلهجة هوميروس التي هي خليط من اللهجتين الأيونية والأيولية، والشعر الغنائي باللهجة الدورية، والتاريخ بالأيونية في أول الأمر، والمسرحية المأساوية بلهجة أتّيك (Attic). وهذا ما لعب دوراً في إدامة المعرفة باللهجات. حتى بعد تزايد وحدة العالم الإغريقي التي راحت تدفعهم على استخدامها الفعلي في الحديث. وهذا مثال جيد على نحو خاص على كمية النكهة اللغوية التي تأتي من مجرد الربط.

(**) إن مجال اللغة اليونانية المبكرة مختلف جداً عن أجناس الأدب الأوروبي في العصور الوسطى والحديثة. فلم يكن فيه قصص، ولا مقالات، ولا أدب خيالي، ولم يكن فيه أي أدب مخصص للورع

مناطق اللهجات الإغريقية الكبرى قبل انتشار اللغة اليونانية المشتركة



للتاريخ اليوناني القديم. فرغم أن تكوين المجموعات المختلفة كان شديد التنوع، وكانت قلة قليلة منها ديمقراطيات تسودها المساواة، فإن الخاصية المشتركة لهذه المجتمعات كانت الانفتاح. فكانت الاجتماعات العامة المفتوحة كثيرة الحدوث. وكان التوقع هو أن جميع المواطنين سيشتركون فيها بشكل فعال (مع استبعاد النساء، والأطفال، والعبيد، والأجانب) - حتى لو كانوا من الدهماء من عامة الناس - للإسهام في حياة المجتمع السياسية. ولذا فإن اللغة اليونانية بدأت انتشارها كلغة لذوي الروح العامة. وبطريقة تشبه كثيراً ما يراه المرء في وسائل الإعلام السياسية في الديمقراطية الحديثة، فإن متابعة الشؤون العامة تصبح هي مادة المتعة والتسلية الجماعية: ففي إحدى المناسبات المشهورة اتهم أحد الخطباء في

الديني. وكان ما حدث هو أن الأنواع الثلاثة الأولى من هذه الأجناس كانت كلها اختراعات يونانية أيضاً، ولكن من فترة متأخرة كثيراً بعد العصر القديم، وفي القرون الميلادية الأولى، عندما كانت اليونان جزءاً منضماً بالقوة إلى الإمبراطورية الرومانية، ولم يكن هناك أي توقع جاد لمهنة عامة في الكتابة أو لمسؤوليات عامة. فكان الأفراد من ذوي الغِنى والبحبوحة أحراراً في استكشاف اهتماماتهم الشخصية أكثر، وفي كتابة القصص والحكايات الخيالية، ووصف المغامرات الشخصية. وبالمثل، فقد كانت حالات استكشاف التجربة الدينية الفردية غريبة عن الروح الإغريقية في تلك الأيام المبكرة، رغم أن هذه الحالات صارت فيما بعد مركزية الأهمية في انتشار المسيحية. فالتدفقات الدينية من الفترة الأقدم تتخذ شكل ترانيم للآلهة الأولمبيين، مع التركيز على رواية أساطيرهم.

الجمعية الآثينية عامة الناس المستمعين بأنهم مجرد 'مشاهدين للخطب، ومستمعين للأحداث'، أي أنهم يُبدون اهتماماً بما يقال لهم، وبالأسلوب الذي يقال به، أكثر من اهتمامهم بأفكارهم البديهية وإحساسهم العام[11].

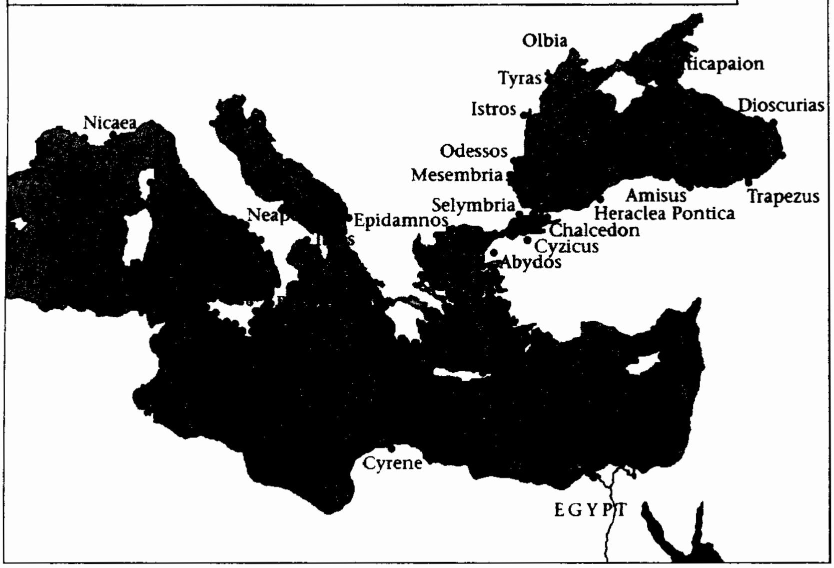
إن طبيعة التطلع إلى الخارج في المجتمع الناطق بالإغريقية جديرة بالمقارنة مع لغة أخرى ذات نفوذ متميز كانت آخذة بالانتشار في الوقت نفسه - وهي السنسكريتية. فقد طورت اللغتان نظريات هامة حول استخدام اللغة. ولكن نظرية السنسكريتية، كما رأينا، كانت تهدف إلى الحفاظ على تفاصيل النصوص الدينية. وبهذه الصفة، فإنها كانت تركز على تفاصيل قواعد اللغة النحوية وطريقة لفظها، فلم تقدم شيئاً يذكر لتحسين الاتصال مع الشعوب الأخرى. أما النظرية اللغوية الإغريقية، فقد بقيت (حتى سيادة المتطلبات المدرسية في الإمبراطورية الرومانية(*))، مركزة قبل كل شيء على الاستخدام الفعال للغة لإقناع الآخرين: مع الميل إلى الافتراض بأن الناطقين الأهليين بلغة يتقنون تفاصيل قواعدها، بينما يتحدث المنظرون بدلاً من ذلك عن كيفية بناء قضية أمام القانون، أو (إذا كانت ميولهم فلسفية) عن صيغة الحجة الجدلية الصحيحة. ويستطيع المرء أن يقول إن النظرية اللغوية الهندية هي ممارسة للإعراب بصورة موضوعية محايدة، ولكن النظريات الإغريقية هي دائماً قريبة من التطبيق العملي.

أوطان من الوطن: انتشار الإغريقية عن طريق الاستيطان

انتشرت اللغة اليونانية من موطنها التاريخي في شبه جزيرة البلقان الجنوبية وجزر بحر إيجه عن طريق عمليتين، إحداهما متقطعة، وطويلة الديمومة، ومتفشية في اتجاهها، والأخرى منظمة، وفجائية، ومتماسكة بطريقة تبهر الأنفاس. وتعرف إحداهما عادة بالحركة الاستعمارية الإغريقية، أما الأخرى فهي غزو الإسكندر للإمبراطورية الفارسية.

(*) كان إعراب قواعد اللغة قد اكتمل بصورة جوهرية عندما كان ديونيسيوس الثراسي، الباحث الدارس في الإسكندرية، هو المركز الفكري لليونان في ذلك الوقت، وقام بنشر مجموعة أعماله الرواقية والإسكندرية تحت عنوان "تيخني غراماتيك" في بداية القرن الأول قبل الميلاد.

المستعمرات الإغريقية حول البحرين المتوسط والأسود



أما العملية الأولى، وهي استعمار سواحل البحرين المتوسط والأسود بالمدن اليونانية، فقد استمرت من منتصف القرن الثامن إلى أوائل القرن الخامس قبل الميلاد. ولم يجب أحد أبداً عن السؤال التالي: من بين كل سكان هذه السواحل، لماذا كان الإغريق والفينيقيون فقط هم الذين أقاموا مراكز مستقلة بهذه الطريقة؟ من الواضح أن الأسس خدمت تشكيلة متنوعة من الأغراض، فعملت كصمامات أمان سياسية ومواقع تجارية للمواد الأولية، وفرص لتطبيق الزراعة اليونانية على تربة أوفر وأقل سكاناً، ومن الجدير بالذكر أن هذه المراكز ساحلية حصراً، فلا تنتقل إلى الداخل أبداً، إلا في جزيرة صقلية. وقد جاء التوسع اليوناني بعد فترة المستوطنات الفينيقية (من القرن الحادي عشر إلى القرن الثامن قبل الميلاد)، وهكذا فربما كان العامل الأهم هو مَنْ يسيطر على البحر. ورغم أن جميع سواحل الأبيض المتوسط المتاحة تقريباً كانت مأهولة عند نهاية هذه الفترة، فقد كان الطرف الغربي هو الأبرز في التصور الإغريقي لما تم تحقيقه: فإيطاليا الجنوبية وصقلية شكلتا بامتياز 'اليونان العظمى'، التي أطلق عليها باللاتينية عادة لقب "ماغنا غريسيا".

وكانت المدن المختلفة تميل إلى التخصص بقطاعات مختلفة من الخط الساحلي. فمن بين الأيونيين، ذهب التشالسيون والإريتريون إلى جنوب غرب إيطاليا وشمال شرق صقلية، أما فوكايا (التي كانت هي نفسها مدينة على حافة ليديا)، فقد أخذت سواحل إسبانيا الحديثة، وكورسيكا وفرنسا، بما فيها ماساليا (التي هي الآن مرسيليا)(*). وقامت مدينة ميليتوس الإيجيّة الجنوبية بتغطية محيط حوض البحر الأسود كله بتسع عشرة مستعمرة.

وقد استولى الأخايَوِيُّون على ساحل إيطاليا الجنوبي الشرقي إلى حد كبير. بل إن هناك فرضية شائعة شعبياً بأن الإغريق هم الذين أعطوا هذا البلد اسمه. فكلمة "إيطاليا" تعني بالإغريقية أرض "ويتالوي" *(w)italoi*، أي 'صغار البقر التي عمرها عام'، وهي لهجة تنويعية من كلمة "إيطالوي" *etaloi*، التي استعارتها اللغة اللاتينية فيما بعد فحرفتها إلى "فيتولي" *vituli* التي لا تزال موجودة معنا في كلمة *veal*، أي "العجل".

ومن بين الدوريين، قامت كورينث، وميغارا، ورودس باستهداف صقلية مرة أخرى، ولكن من الجنوب الشرقي والجنوب هذه المرة. فوضعت إسبارطة مستعمرة واحدة فقط عند مدخل إيطاليا (هي تاراس، أي تارانتو الحديثة)(**). أما ميغارا، فبالإضافة إلى دورها في صقلية، فقد تخصصت أيضاً بجنوب شرقي البحر الأسود، بما في ذلك أكثر المدن التأسيسية، "بوزاس" (عند مضيق البوسفور)، التي اختيرت بعد ألف عام كعاصمة جديدة للإمبراطورية الرومانية

(*) ولفوكايا أيضاً مستعمرة على الساحل الأناضولي للبحر الأسود، اسمها آميسوس، وهي سامسون الحديثة.

(**) رغم أن التأثير القرطاجي أو الفينيقي لم يفرض حظراً على بحر الأدرياتيك، فإن المستعمرين الإغريق لم يولوا هذا البحر اهتماماً يذكر. فلم يعرف باسم حاضرة معينة أو مدينة أو مستعمرة. غير أنه كان منطقة دورية بحكم الأمر الواقع. وكانت توجد هنا ثلاث مدن كبرى هي إبيدامنوس، التي صارت فيما بعد ديراكيوم (وهي الآن دورازي في البانيا)، وقد تأسست على أيدي كورينث وجزيرة كورسيرا المجاورة في حوالي العام 625 ق.م. وكذلك مدينة أتريا في دلتا نهربو، التي تأسست في أواخر القرن السادس قبل الميلاد على يد آيجينا (وهي مدينة دورية قامت آثينا فيما بعد بإخلائها وإعادة إسكانها)، ثم مدينة أنكونا وهي مدينة لأهالي بيسيني الأصليين أعيد تأسيسها فيما بعد على أيدي لاجئين يونانيين من سيراكيوز في العام 387 ق.م. (لم يتم استغلال وعد بحيرة مدينة البندقية الضحلة في العصور القديمة.)

باسم بيزنطة(*) أو القسطنطينية. وكان من الأشياء الفريدة أن ثيرا اتجهت جنوباً لتؤسس مستعمرة سيرين على الساحل الإفريقي(**).

ورغم أن المستعمرات ("أبويكياي" - ومعناها الحرفي "أوطان من الوطن") كان يقودها عموماً 'باني وطن' من 'المدينة الأمّ'، أو "المتروبوليس" - توجد معه رابطة تاريخية أو عاطفية، ولو لم تكن رابطة سياسية أو عسكرية - فإن سكانها المؤسسين يمكن تجنيدهم وجلبهم من عدد من المدن، بحيث إن الأسس الجديدة يمكن أن تكون مأهولة بخليط متنوع من السكان، رغم أن اللهجة أقل تنوعاً. وتوحي النصوص المدونة بأن اللغة المحكية كانت قريبة من لهجة المدينة الأم بشكل يكاد يكون دائما(12). ويستطيع المرء أن يقارن السيطرة المستمرة للغة الإنكليزية في أمريكا الشمالية رغم أن الناطقين بلغات أخرى كانوا متفوقين عددياً على المستعمرين الإنكليز في القرن التاسع عشر (انظر ص 668).

ومن الممكن أن يجادل المرء بأن التأثيرات المباشرة لهذه الحركة كانت ثقافية أكثر منها لغوية. فالمناطق لم تكن غير مأهولة قبل وصول القادمين الجدد. كما أن سكانها المحليين (ومن بينهم أهالي بلاد الغال - أي فرنسا الحالية - والإتروسكانيون، والرومان، والسكايث، والأرمن) لم يتلاشوا مع مرور الزمن(***). ورغم أن الإغريق قد سيطروا على مناطقهم الساحلية، ورغم أن

(*) رغم كل فخامة صوت الاسم الرنان (بوزانطيون) فإنه ليس سوى الاسم المصغر لمدينة بوزاس، مثلما أصبحت كلمة هونكرز هي الاسم الرسمي لهونغ كونغ.

(**) إن سيرين، التي تأسست حوالي العام 630 ق.م. تخصصت في تنمية وتصدير السيلفيون، وهي نبتة طبية. ولكن اللغة الإغريقية كانت مسموعة أيضاً على مبعدة إلى الشرق منها على الساحل الإفريقي، حيث تم تأسيس نوع مختلف من المشاريع. فمدينة نوكراتيس، أي 'ملكة البحر' كانت مركزاً تجارياً كبيراً لليونانيين عموماً في دلتا النيل، للمتاجرة مع السوق المصرية، في امتياز تجاري سمح به الفرعون. وقد جاءت المبادرة هنا من الإغريق الأيونيين، من ميليتوس وساموس، الواقعتين إلى الشمال تماماً بشكل مناسب (انظر الفصل الرابع من هذا الكتاب).

(***) كانت صقلية استثناءً لهذا الاتجاه لبقاء السكان الأهليين الأصليين بعد الاستيطان اليوناني. فلا بد أن الحضور اليوناني فيها كان كثيفاً على وجه خاص. فقد كانت لليونانيين على الجزيرة ثلاث عشرة مستعمرة منفصلة. وكان طرف الجزيرة الغربي في يد قادم أجنبي آخر هو قرطاجة التي كانت لها ثلاث مستعمرات. ومع ذلك فإن السكان السابقين من السيكانيين والإيليميانيين والسيسيليين كانوا عاملاً هاماً إلى حد كبير عند البحث عن الأرض لإقامة مدن جديدة فيها.

مستعمرات كثيرة قد خرجت منها فروع لإيجاد مستعمرات جديدة في المنطقة نفسها، فإنها لم تصبح بؤرة مركزية لدول على نطاق أوسع. (قارن هذا مع تضخيم الذات القوي الذي قامت به قرطاجة، التي كانت ذات يوم مستعمرة فينيقية، على مدى هذه الفترة وفيما بعد). كانت المستعمرات، وخاصة في صقلية وإيطاليا الجنوبية مشهورة بثرائها وبثقافتها العملية. إذ إن بارمنيدس، وزينون، وفيثاغورس، وكزينوفانيس، وإمبدوقليس، وآرخميدس، كانوا كلهم يونانيين من الغرب. فلم يكن الإبداع السياسي نقطة قوة على وجه خاص(*).

والواقع أن المستعمرات صارت رؤوس جسور للثقافة الإغريقية إلى غرب الأبيض المتوسط والبحر الأسود، واستمر هذا الحضور الإغريقي المنفصل المبعثر ما يقرب من ألف عام. فقد كتب سترابو عن نهاية القرن الأول ق.م: 'ولكن الآن تمت سيطرة البرابرة(**) على [اليونان العظمى كلها] باستثناء تاراس وريجيون ونابوليس [تارانتو وريجيو ونابولي]"، وبعض الأجزاء أخذها اللوسيان والبروتيان، وأجزاء أخرى أخذها الكامبانيان، ولكن بالاسم فقط، والواقع أن المسيطرين هم الرومان، فهذه المناطق صارت رومانية'[13]. والمدن الثلاث المذكورة يفترض أنها احتفظت بإغريقيتها بعد ذلك بقرنين من الزمن. ولا تزال الإغريقية محكية حتى هذا اليوم في منطقتين محصورتين عند أقصى طرف إصبع القدم والكاحل الإيطاليين: وهما بوفيسيا وكالابريا (جنوب شرق ريجيو)، والقريتان كاليميرا ومارتانو، جنوبي لِيْس في بوغليا.

وقد لعبت المستعمرات دوراً أساسياً في تعريف الشعوب المجاورة بالكتابة في بلاد الغال وإيطاليا: فمن ماساليا على الريفييرا الفرنسية تعلم أهل الغال أن يكتبوا لغتهم نفسها بحروف إغريقية. وقامت كل من بيثوكوساي (إسكيا) وكوماي

(*) كانت الشهرة السياسة التي حصلت عليها هذه المستعمرات مرتبطة بتجارب من جنون العظمة الاستبدادي، وخاصة على أيدي كل من ديونيسيوس السيراكيوزي (367 - 430 ق.م.) وأغاتوكليس من أكراغاس (284 - 361 ق.م.)، فقد نظما حروباً إغريقية ضد قرطاجة كانت حصيلتها الصافية صفراً.

(**) 'إكبيباربباروستاي': في القرن الأول ق.م. كان قد مضى مئتا عام على غزو روما لليونان، ومحاولة الرومان امتصاص الثقافة الإغريقية. ومع ذلك فإن شخصاً يونانياً - تثقف في روما - (وهو سترابو) كان لا يزال عندئذ يصنف الرومان كبرابرة.

على الساحل الجنوبي الغربي بتعليم الأتروسكيين من كامبانيا أولاً، ومن ثم إيطاليا الوسطى والشمالية بكاملها، وعلى مبعدة ميلٍ إلى الجنوب، استطاعت بيستوم (بوسيدونيا) أن تمرر معرفة القراءة والكتابة على الأوسكان في لوكانيا. وفي الكعب الإيطالي، مررت تاراس هذه المعرفة إلى الميسابيين في كالابريا. وكان الأهم من هذه كلها الممر غير المباشر لهذا التعليم، وكذلك ممرات أخرى كثيرة في شمال إيطاليا (مثل الغاليين من أهالي إنسوبريا على سفوح جبال الألب). فقد استمر الإتروسكان فعلموا خصومهم الكبار من الرومان القراءة والكتابة. وخلال سلسلة مدروسة مفصلة من الغزوات وحالات التغلغل التجاري على مدى سبعة وعشرين قرناً بعد ذلك، صارت الأبجدية الرومانية هي الأوسع استعمالاً في العالم كله.

إن الأبجديات التي تم تمريرها بهذه الطريقة لم تكن هي الأبجدية الإغريقية اليوم، التي قدر لها أن تصبح قياسية موحدة بشكل فعال في آثينا في العام 403 ـ 402 ق.م(*). ثم الأخذ بها في جميع أنحاء اليونان في الجيل التالي(**). وفي هذا الوقت الأبكر من التاريخ اليوناني (من القرن الثامن ق.م.)، كانت لا تزال هناك تنويعات بديلة متنافسة تفضلها لهجات مختلفة. فكانت معظم المدن ذات المستعمرات في إيطاليا تفضل ما يسمى الأبجدية الغربية، التي كان فيها حرف H يمثل حرفاً صحيحاً يلفظ بملء النفس 'إيتش' (aitch)، وحرف X يمثل الصوت [ks]، وقد أسقطت الحروف الإغريقية Ω Ψ ϕ Ξ Θ ولكن حرفي F وQ تم الاحتفاظ بهما(***). فكانت هذه هي الأبجدية التي اخذ بها الإيطاليون ولو بنسخ محلية متنوعة، كما كانت العادة في عصر ما قبل إنتاج

(*) كانت تلك سنة هامة بالنسبة لآثينا. فهي أول سنة من إعادة الديمقراطية بعد انحدار آثينا الحاسم على يد إسبارطة في حرب بيلوبونيزيا.

(**) اخذت آثينا بالأبجدية الآيونية كما هي مستعملة في ميليتوس، ففضلتها على أسلوبها الاتيكي Attic الذي لم يكن يميز حرف E (مثل H-eta) وحرف O الطويل (Ω -omega) من نسختيهما القصيرتين.

(***) كان الحرف Q (كما في qoppa) في الأصل [k] خلفي، يستعمل قبل حرف علة خلفي مثل [o] و[u]. وتستخدم النصوص المبكرة FH لتمثل الصوت [f]، لأن f كانت في الأصل رمزاً للحرف [w] أو [v]. ومعظم اللهجات الأيونية (بما فيها لهجتا ميليتوس واثينا) قد فقدت هذا الصوت، ومن هنا جاء اختفاؤه من الأبجدية الإغريقية الرسمية. ولكن هناك التواءٌ شديد الغرابة هنا. فإن تشالسي وأريتريا، اللتان أسستا بيثيكوساي وكوماي، كانتا في الحقيقة تتكلمان اللهجة الأيونية، وهكذا فربما كان من المتوقع أن تسقطا حرف F في الكتابة أيضاً.

الكتابة بكميات كبيرة بالجملة (فقد كانت الليبونتية، والإتروسكانية، والأوسكانية، والأومبرية، والفالسكية، والميسابية، كلها لهجات لها أبجديات متميزة عن اللاتينية).

وكان النبيذ نعمة ثقافية واقتصادية أخرى من نعم انتشار الإغريقية، فقد راح يمرّر آنذاك إلى مكان شديد الترحيب به هو غرب البحر الأبيض المتوسط، ومعه سائل مترف آخر هو زيت الزيتون. ويتصور جوستين (43: 4) أن الفوكائيين الذين أسسوا ماساليا لم يعلّموا الفرنسيين المحيطين بهم الحياة المدنية والحضرية فحسب، بل علموهم أيضاً كيف يهتمون بكرومهم(*). وهنا أيضاً ربما كان التأثير غير المباشر أقوى من المباشر، لأن من المعروف أن الرومان قد تعلموا زراعة الكروم من اليونانيين الذين كانوا فعالين جداً في تعزيزها وترويجها عندما انتقلوا إلى بلاد الغال، وتفوقوا على اليونانيين بإيصالها إلى أماكن بعيدة فيما وراء ساحل الأبيض المتوسط.

وعلى الطرف الآخر مما كان يشكل آنذاك العالم الإغريقي، يظهر أن المستعمرات حول البحر الأسود لعبت دوراً أكثر تكاملاً في الحياة اليونانية على البرّ الإغريقي الرئيسي، لأنها راحت تزوده بالقمح (المزروع في حقول سكيثيا/أوكرانيا الشاسعة) ومادة 'الأوبسا' أي توابل النكهة المصنوعة من السمك المجفّف، والتي تستهلك بكميات كبيرة، فكانت من أكثر التوابل رواجاً لدى الهيليين الذين يسعون بجدٍ للحصول عليها.

وراح اليونانيون يشعرون خلسة باحترام لأهالي سكيثيا البدو المتنقلين: فهم مثلهم قد دحروا محاولة غزو فارسية. وكانوا بصورة عامة منيعين تماماً أمام التأثر بالطرق اليونانية، ولكن هيرودوتس يستذكر اثنين كانا يتذوقان الأشياء اليونانية وهما أناكارسيس (الذي أصبح حكيماً أسطورياً)، وسكايليس. وفي كلتا

(*) من حيث المبدأ من الممكن أن تكون حضارة استعمارية عظمى أخرى هي التي جلبت هذا الإنتاج المتميز من شرق الأبيض المتوسط، وتلك حضارة الفينيقيين. ولكن البلدان التي برزت (وظلت بارزة حتى يومنا هذا) في صنع النبيذ يتصادف أنها في منطقة النفوذ الإغريقي: وهي إيطاليا وبلاد الغال/فرنسا، وليس شمال إفريقيا وإسبانيا.

الحالتين، فقد خضع الرجلان لجوانب الفتنة المحرّمة في الاحتفالات الدينية اليونانية فلم يكن الإغريق في ذلك الزمان منظوراً إليهم تحت ضوء عصرنا الحاضر باعتبارهم أكثر الناس عقلانية في العالم القديم.

ملوك آسيا: انتشار الإغريقية عن طريق الحرب

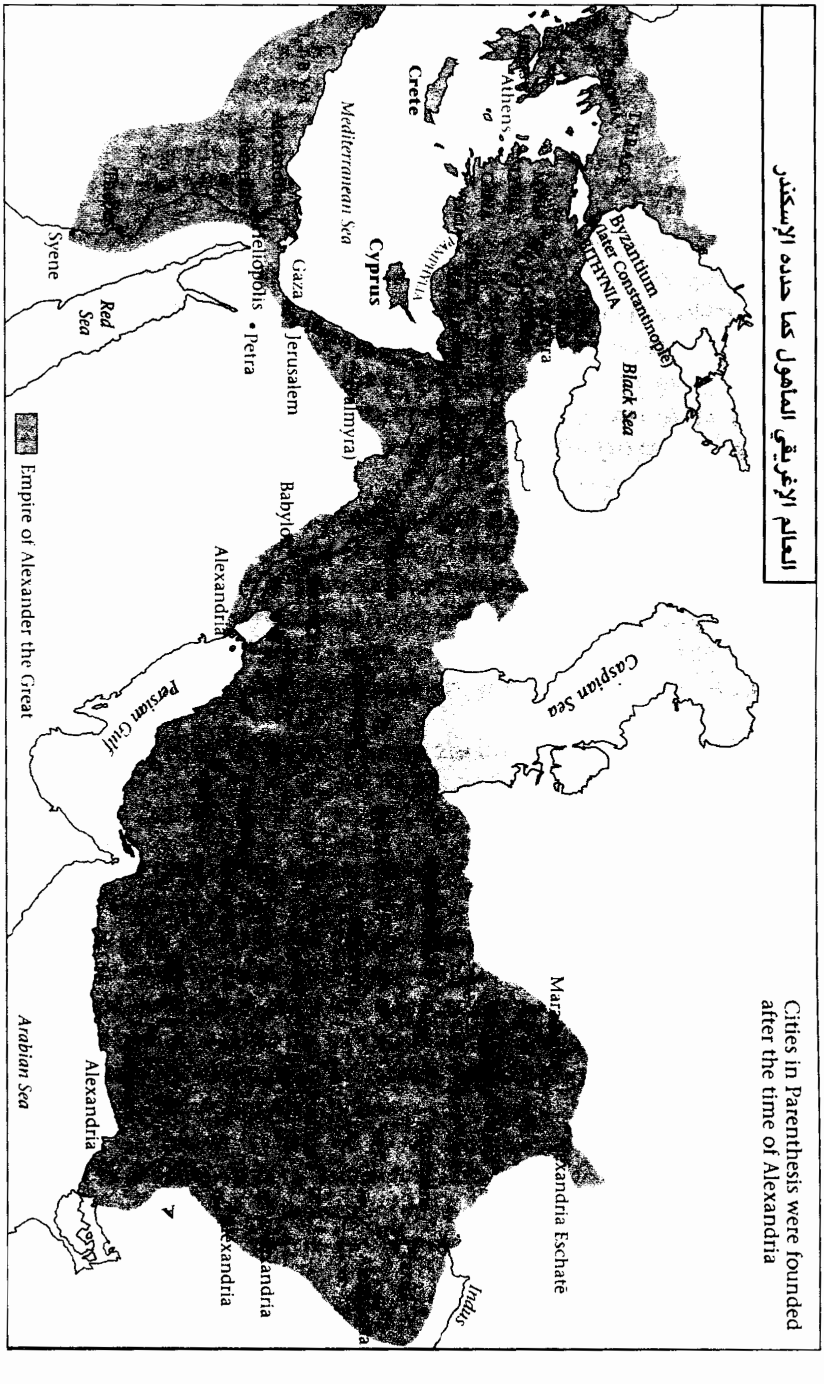
إن أجدادك الذين دخلوا مقدونيا وباقي اليونان ظلمونا دون سابق ظلم منّا لهم. ولكنني أنا، المنصَّب كقائد لليونانيين، والراغب في الانتقام من الفرس، قد عبرت إلى داخل آسيا، وهذا شيء أنتم الناس الذين بدأتموه ... وفي المستقبل، عندما تراسلني، راسلني باعتباري ملك آسيا، ولا تراسلني على قدم المساواة معي، بل باعتباري سيد كل ما هو لك، وأخبرني إن كنتَ محتاجاً إلى أي شيء...

الإسكندر إلى داريوس ملك فارس، 332 ق.م: آريان، 14:2

عند حوالي ربع المسافة الزمنية الممتدة ثلاثة آلاف وخمسمئة عام من تاريخ اللغة الإغريقية المدوّن جاء عقد واحد من الزمن غيّر كل شيء.

فعلى مدى السنوات العشر من 334 إلى 325 ق.م. قام جيش يوناني تحت إمرة الإسكندر الثالث، ملك مقدونيا، بإزالة الإمبراطورية الفارسية بصورة تامة تقريباً من المنطقة التي تشمل حالياً الدول الحديثة التالية: تركيا، سوريا، فلسطين، مصر، الأردن، العراق، الكويت، أرمينيا، إيران، أفغانستان، باكستان. وكان دافع الإسكندر المعلن هو الانتقام من العدوان الفارسي في الحروب الفارسية، التي كانت لا تزال حاضرة جداً في أذهان اليونانيين، رغم أنها كانت تجربة لأجداد أجدادهم قبل الإسكندر بقرن ونصف قرن، وكانت اليونان عندئذٍ على الأقل تحت إدارة مختلفة جداً. فحسب مثل هذا الميزان الزمني يتعين على بريطانيا الآن أن تكون منهمكة بالاستعداد لانتقام روسيا منها بشكل جدي لحرب شبه جزيرة القرم [1853 ـ 1856].

وكانت نتيجة هذا التقدم الصاعق بسرعة البرق، واستيلاء الإداريين العسكريين اليونانيين بالجملة على إمبراطورية متعددة الأعراق كانت قد عاشت



العالم الإغريقي المأهول كما حدده الإسكندر

قبل غزوهم أكثر من مئتي عام، هو الزيادة الفورية على ثلاثة أضعاف للمساحة التي تسمع فيها اللغة اليونانية وتعرف فيها وتُقَدَّر التقاليد الثقافية اليونانية. وعلى عكس التقدم الاستعماري حول البحرين المتوسط والأسود، فإن هذا التقدم لم يحتضن خط الساحل بل فرض سيطرة سائدة على كل المراكز الحضرية الراسخة الكبرى. ورغم أن السيطرة الأحادية لحاكم وحيد لهم لم تستمر (فقد مات الإسكندر بعد عامين من حملته الهائلة، وانقسمت إمبراطوريته إلى ممالك تحت حكم مارشالاته المختلفين)، فإن السيادة اليونانية بقيت فعلاً. فاستمرت قرناً في فارس الوسطى، إلى أن قامت قوة أخرى ناطقة بالفارسية، وهم البارثيون من جنوب شرقي بحر قزوين، بإعادة فرض السيطرة. ولكن الأمر استغرق ثلاثمئة عام قبل أن تتراخى القبضة الإغريقية عن مصر أو سوريا أو بابل. ورغم أن حق الإسكندر في الضفة الغربية لنهر الغانج قد أُلغي على الفور تقريباً بتقدم الإمبراطور الهندي تشاندرا غوبتا، ذي الفخامة المعادلة لأبهة الإسكندر، والذي كان يحكم من باتنا، فإن ملوك الإغريق المستقرين في باكتيريا (بأفغانستان) ظلوا يسيطرون على ممتلكات مستقلة لفترة تعادل فترة سيطرة خلفاء الإسكندر على سوريا. فانتقلوا جنوباً إلى غاندارا (سوات)، والبنجاب (فيما هو الآن باكستان)، ورغم أنهم فقدوا باكتيريا نفسها، فإنهم وصلوا لفترة من الوقت في الشرق حتى باتنا على نهر الغانج(*). والواقع أن الممالك اليونانية دامت أطول مما دامت اليونان نفسها، إذ إن الملوك المقدونيين سلموا السيادة على اليونان لروما بعد الإسكندر بقرنين، في العام 146 ق.م.

إن عملية إضفاء الصبغة اليونانية الهيلينية على الممالك التي غزاها الإسكندر قد أوجدت الأرضية الداخلية لمجتمع واسع ناطق بالإغريقية قدر له أن يسيطر على

(*) إن هذه الحادثة (ومعها أدلة أخرى، إغريقية وهندية) قد خلدها مثالان لجملتين أوردهما العالم النحوي السنسكريتي باتانجالي في القرن الثاني قبل الميلاد (3 -2: 111). والجملتان هما: 'لقد حاصر اليونانيون ساكيتا' (وهي مدينة قريبة من فيزآباد على نهر غاغرا) و: 'لقد حاصر اليونانيون مادياميكا' (وهي مدينة قريبة من تشيتورغار، جنوبي صحراء راجستان). وفي كل واحدة من هاتين الحالتين، يجب أن تكون الجملة حقيقية صادقة غير وهمية، بدلالة زمن الفعل المستخدم فيها على أنها واقعة ذات أهمية عامة حدثت في الماضي القريب ولم يشهدها مؤلف الجملة. ونظراً لأن ساكيتا وحدها كانت على الطريق إلى باتنا من البنجاب، فالظاهر أن اليونانيين قد شنوا حملات على مبعدة إلى الجنوب والغرب في راجستان.

شرقي الأبيض المتوسط مدة زادت على ألف عام. وكان قد مضى عليه نصف هذه المدة عندما تم الاعتراف به رسمياً في العام 286 م، عند تقسيم الإمبراطورية الرومانية إلى إمبراطوريتين شرقية وغربية. وبعد ذلك تحولت الإمبراطورية الشرقية بشكل تدريجي وعن وعي إلى إمبراطورية يونانية: بل لقد كان من المناسب أن الكلمة التي استخدمتها هذه الإمبراطورية لوصف نفسها، وهي كلمة "رومايوس"، أي 'رومانية' صارت كلمة شعبية معناها الآن 'يونانية'(*).

ورغم أن اليونانيين كانوا بارزين سياسياً لفترة طويلة - ولكن ليس كديمقراطيين على الإطلاق - في جميع أنحاء هذه الممتلكات الشاسعة، فإن الانتشار الفعلي للغتهم كان متفرقاً ومتقطعاً. فلمدة قرنين من الزمن كانت اللغة الآرامية، التي هي في الأصل اللغة المشتركة لبابل وكنعان، المقياس المناسب السائد في الإمبراطورية الفارسية كلها. وكما رأينا، فإن الأخذ بها لم يكن متجانساً. ولكن رعايا الإسكندر الجدد لا بد أنهم قد توقعوا لغة عامة ومنفصلة للإدارة الإمبراطورية. وإن الانتقال الفعال من لغة كهذه إلى لغة أخرى، إن كان قد حدث على الإطلاق فإنه لا يمكن أن يكون فورياً.

وعند مراجعة الأدلة من الشرق والغرب نستطيع أن نبدأ باللغة اليونانية المحكية في الهند. ففي منتصف القرن الثالث ق.م. عندما كان الإمبراطور آسوكا يعلن مراسيم تحثّ على أهمية 'الفضيلة' في جميع أنحاء الهند الشمالية والوسطى باللغة المحلية الدراجة، اختار قندهار ليكتب النص بالآرامية والإغريقية. وكانت قندهار معروفة عند اليونانيين باسم إسكندرية الأراكوسيانيين، أسسها الإسكندر في العام 329 ق.م. ولم يكن مرسوم آسوكا هو النقش الإغريقي الوحيد على الصخر الذي عثر عليه هناك(14). فكان هذا، عند حافة ملكه، أو فيما وراءه. أما الأدلة من قطع العملة المسكوكة فهي وفيرة من الممالك اليونانية في الهند، وفي هذا زعم بوجود نوع من ثنائية اللغة، إذ إن قطع العملة عليها كتابة إغريقية على أحد جوانبها، وهندية براكريتية، مكتوبة بأبجدية خاروشتيةٍ (وهي

(*) وهي أيضاً أصل تسمية الولد الرومانسي الخيالي روميو.

اشتقاق آخر مستمد من الآرامية) على الجانب الآخر. وفي الحقيقة فقد استمر نقش الأساطير الإغريقية على قطع العملة لمدة قرن بعد وفاة آخر ملك وملكة يونانيين، هرمِيوس وكاليوبي اللذين لم يكونا يحكمان أكثر من بيشاور وممر خيبر، وقد ماتا في حوالي العام 30 ق.م. وبما أن الحكومة آنذاك في أيدي ساكا/السكيثيان، وبالافا/البارثيين، وكوشانا، الذين كانت لغاتهم (الفارسية) تنبع من شمال هندكوش، فإن هذا قد يكون حجة على استمرار وجود بعض عامة الناس الناطقين باليونانية، ولكن النقوش الهندية الكاروشتية على قطع العملة قد استمرت أيضاً، وهكذا فربما كانت هذه محاولة لوضع وزن التقاليد واستمراريتها وراء العملة، حتى عندما انتقلت السلطة الحقيقية إلى أيدي حكام أميّين.

وعلى وجه الإجمال، فإن الصورة العامة هي لحكومة ناطقة باليونانية ليس لها تأثير يذكر على سكان يصرّون على التكلم بلغات هندية. ورغم أن الجانبين كانا متعلمين يعرفان القراءة والكتابة، فليس هناك سجل لقواعد نحوية أو معاجم ثنائية اللغة، وليست هناك رواية عن ماهية اللغة التي استخدمت عندما قام الملك اليوناني الأشهر ميناندر (ميليندا عند الهنود) بالاشتباك مع الرجل الحكيم ناغاسينا في مجادلة حول البوذية مسجلة في كتاب "ميليندابانها". ولعل اليونانيين الناطقين بالبراكريتية لم يكونوا استثناءً كبيراً في ذلك الوقت. فبعد ذلك بزمن غير طويل، تم نصب عمود (في بسناغار في ماديا براديش الحديثة) على يد هليودورس سفير الملك أنتيالكيداس في تاكسيلا، والنقش عليه كله باللغة البراكريتية[15]. وبعد ذلك بمئة وخمسين عاماً، كان ميغاستينيز يخدم كسفير يوناني (أرسله الملك سلوقس) في بلاط تشاندراغوبتا في باتنا منذ العام 302 ق.م. وتبعه ديماخوس مرسلاً من الملك التالي (أنطيوخوس الأول)، وكذلك ديونيسوس الذي أرسلته المملكة الإغريقية المنافسة في مصر، وقد ألفوا كلهم كتباً عن تجاربهم صارت متداولة في الإسكندرية على النيل، التي كانت عندئذٍ مركزاً للثقافة اليونانية آخذاً في البروز بسرعة.

وبالعودة إلى مملكة خلفاء الإسكندر السلوقيين (في فارس، والهلال الخصيب، وبلاد الأناضول) فإن هناك أدلة على أن اللغة اليونانية صارت

منغرسة هناك بصورة أوسع وأعمق من انغراسها في الهند، رغم أن الصورة ليست متجانسة. فمثلاً، تراجعت قوة اللغة اليونانية في المنطقة الشرقية من فارس أمام قوة البارثيين المتصاعدة (من حوالي العام 230 ق.م.)، ورغم ذلك استمر الحكام الجدد في إصدار عملاتهم باللغة اليونانية (وبالآرامية أيضاً في بعض الأحيان)، فلم ينتقلوا منها إلى الأساطير البارثية (البهلوية) إلّا في القرنين الميلاديّين الأول والثاني، عندما أصبحت الأساطير اليونانية الباقية محرفة ومشوهة على نحو متزايد. وهناك وثائق رسمية مكتوبة بالإغريقية حتى القرن الرابع الميلادي[16]. ولكن على مبعدة إلى الجنوب، على الخليج العربي، كانت مملكة برسيس الصغيرة (التي ظلت موجودة من العام 280 ق.م. إلى العام 224 م.) تصدر قطع عملتها دائماً باللغة الآرامية.

وفي الهلال الخصيب، وبابل، ووادي الرافدين، وسوريا وفلسطين، وهي الأراضي الناطقة بالآرامية في قلب الإمبراطورية الآشورية، والتي أصبحت مركز الثقل الفعلي في الحكومة السلوقية الجديدة، كان تغلغل الإغريقية هاماً بالمثل، ولكن يبدو أنه قد أدى إلى وضع من ثنائية اللسان المستقرة أو شبه المستقرة، وأناس يستخدمون لغات مختلفة في مجتمعات مختلفة، ولأغراض مختلفة. فبابل، رغم أهميتها الاستراتيجية للسلوقيين، ربما لم يكن فيها أبداً أكثر من جالية يونانية صغيرة. وليس من المحتمل أن يكونوا هم ولغتهم قد ازدهروا بعد تسليم المدينة إلى بارثيا في العام 126م. أما إيديسا، وهي أورفا الحديثة، التي كانت على الحدود مع بارثيا فقد حافظت على تقليد أدبي آرامي (سريانيّ) طوال الفترتين اليونانية والرومانية.

غير أن سلوقس الأول قام بمحاولة جادة حول سوريا الشمالية لتأسيس مستعمرات إغريقية بقيت مستمرة حتى اليوم، وهي أنطاكية، وأفامية وحماة، وسلوقية (سليفكيه) ولاوديكيا (اللاذقية). وقدر لأنطاكية، على ساحل الأبيض المتوسط، مستقبل مجيد كعاصمة لسوريا الرومانية، فقد بدأت بنواة من 5,300 أثيني ومقدوني نقلوا من مستعمرة يونانية قريبة ووزعوا في هذه المدينة. ومع ذلك، فقد كان معهم دائماً مجموعة كبيرة من الناطقين بالآرامية وكذلك مجموعة

يهودية. ويبدو أن تدمر القريبة كانت مدينة بوجود الناطقين باليونانية فيها (و كذلك باسمها 'بالميرا') لمجيء السيطرة الرومانية (بين عامي 17 و19 م)، وهناك نص إغريقي - آرامي مشهور عن التعريفات عثر عليه هناك (وهو يعود إلى العام 137م) يُظْهِرُ أن كلا اللغتين كانت لها مكانة. ولكن بعد تسعمئة عام، عندما وضع الفتح العربي نهاية للسيطرة اليونانية، يظهر أن اللغة الإغريقية لم تعد تنتشر أبداً خارج تلك المدن القليلة(17).

وفي القدس، وقع اضطراب كبير بدأ في العام 168 ق.م. بقيادة جوداس مكابيوس(*)، وشمل مقاومة للإجراءات التي تصورتها الحكومة السلوقية لإضفاء الصبغة اليونانية الهلينية على اليهود، رغم أن الطقوس الدينية، وليس الناحية اللغوية، هي التي كانت في مقدمة الواجهة. فأدى ذلك الاضطراب إلى إقامة الحكومة الهاسمونائية التي حكمت يهودا من العام 142 إلى العام 63 ق.م.، مع تقليل التأثير اليوناني إلى أقصى حدّ. وبقيت الآرامية هي اللغة المسيطرة في فلسطين، مع حصر العبرانية في الاستعمال الطقوسي، بينما كان من المثير للاهتمام أن اللغة اليونانية قد أعطيت دوراً في الجانب الأكثر عالمية من الديانة اليهودية، بالإضافة إلى كسب غير متوقع، مثل معتنقي المسيحية. ولكن كما توضح رواية الإصحاح الثاني من أعمال الرسل، فإن كل لغة لا تزال محكية في الإمبراطورية الرومانية كان من الممكن سماعها في شوارع القدس وقت الاحتفال بعيد الفصح عند اليهود(**).

وفي الحقيقة فإن النصوص اليونانية للكتب العبرانية المقدسة كان الذي أمر بإعدادها هو بطليموس الثاني(***) ثاني ملك في السلالة اليونانية التي

(*) لقد كان سيكره المفارقة الساخرة لأنه معروف بهذه الصيغة اللاتينية لاسمه الإغريقي. فقد كان يعرف باسم جوداس المطرقة (يهودا مقبّة).

(**) لقد أمكن التمييز بوضوح لزوار من بارثيا، وميديا، وعيلام، وما بين النهرين، واليهودية، وكبدوكيا، وبنطس، وآسيا الصغرى، وفريجيا، وبمفيليا، ومصر، وليبيا حول القيروان، مع الرومان، واليهود الأجانب، والكريتيين والعرب (أعمال الرسل: الإصحاح الثاني: 9 - 10).

(***) المعروف باسم فيلادلفوس، أي 'عاشق أخته'. بل إنه تزوجها فعلاً، فكان ذلك تبنّياً إغريقياً مذهلاً لأحد التقاليد المصرية الفرعونية.

حكمت مصر بعد موت الإسكندر (وقد حكم من العام 308 إلى العام 246 ق.م.) والطريقة التي تحقق بها ذلك مفصلة، مع تراكمات أسطورية، في 'رسالة آريستياس' الإسكندرية. مهما كانت التفاصيل الحقيقية، فإن الترجمة السبعينية صارت هي النص الإغريقي المعتمد من التوراة. وصارت مستعملة على نطاق واسع من قبل اليهود خارج فلسطين. وكذلك من قبل الحركة المسيحية التي جاءت بعد ذلك (وقد أطلق عليها اسم السبعينية ـ باللغة اللاتينية ـ لأن المفروض أنه قد تم استدعاء اثنين وسبعين باحثاً من القدس للعمل على إنجازها). ولذا فقد أصبحت اللغة اليونانية أداة لثقافة كبرى خارج تقاليدها نفسها، متحررة من ارتباطاتها مع الفخامة الأثينية (أو ما كان عندئذٍ الفخامة المقدونية)، وبمعنى ما بالتالي فقد أصبحت بذلك لغة دنيوية علمانية. وعلى أسس عملية ذرائعية، ففي القرون المتأخرة التالية فيما بعد، عندما ظهرت حاجة إلى نصوص مسيحية جديدة لنشرها في العالم الأوسع، تمكنت اليونانية من كسب مكانة تعادل مكانة الآرامية، ثم تفوقت عليها.

وفي مصر بأسرها، رغم أن البطالسة كانوا، مثل جميع ورثة الإسكندر اليونانيين الهيلنيين، يعتمدون على جيوشهم لضمان سلطتهم، فقد أطلقوا مشروعاً ثقافياً كبيراً لإثبات صحة تلك السلطة فأقاموا متحفاً (وكلمة "موزيون" اليونانية تعني معبد الإلهات الشقيقات التسع الحاميات للغناء والشعر والعلوم والفنون) كمعهد للبحوث تموله الحكومة، وأقاموا معه المكتبة الشهيرة الخالدة، قرب القصر الملكي في الإسكندرية، المدينة العاصمة التي كانت حديثة التأسيس آنذاك. فاجتذبت هذه المكتبة وهذا المتحف الدارسين الناطقين باليونانية من جميع أنحاء العالم المأهولة. وتم إصدار قطع العملة مسكوكة باللغة اليونانية من دار وحيدة لسَكّ النقود، في الإسكندرية أيضاً. وتم إدخال اليونانية بالتدريج كلغة جديدة للإدارة في هذا البلد مع أطول تقليد للإدارة المركزية في العالم.

ويبدو أن اليونانية قد بقيت لغة للنخبة الحاكمة في مصر. ورغم أن الأدب الذي خرج من الإسكندرية (وهو وفير) قد طوّر أجناساً جديدة من التحدث بالنثر

والشعر عن ملامح فاتنة من الحياة اليومية، فإن هذه الحياة اليومية كان يبدو أنها في مكان آخر أقرب إلى كونه مكاناً تقليدياً يونانياً، مثل جزر بحر إيجه، أو ربما في سيراكيوز. ويقال إن آخر ملوك البطالسة، وهي كليوباطرة، التي حكمت من العام 51 إلى العام 30 ق.م. كانت أول ملكة منهم تتعلم اللغة المصرية[18]. وإذن فقد كانت تلك اللغة لا تزال جديرة بالتعلم، فالمصرية كانت هي اللغة الشعبية حتى بعد ثلاثمئة عام من الحكم اليوناني لمصر.

إن توثيق المراسلات الفعلية القديمة هنا هو أكثر وفرة منه في أي مكان آخر من العالم القديم، بسبب شيوع الاستخدام العام لورق البردي، وقوة الحفظ في الأتربة الجافة، بعيداً عن وادي النيل. وبين الحين والآخر، تعطي هذه المراسلات لمحة عن كيفية تصور استخدام اللغة اليونانية من خارج الدائرة المسحورة من المهاجرين الهلينيين. وهكذا ففي منتصف القرن الثالث ق.م. بعد جيلين من الغزو اليوناني لمصر، نجد رسالة إلى زينون من مدير مزرعة في الفيّوم يشكو (باليونانية) من كونه محتقراً لأنه لا يستطيع التكلم باليونانية أو (حرفياً) بالهيلينية.

وبطريقة ما، كانت الأناضول أقل المناطق تغيراً على الفور بهذا الانتشار الجديد للغة اليونانية. ولكنّ أَخْذَ الأناضول بهذه اللغة قُدِّرَ له أن يكون الأدوم والأطول عمراً بين مناطق الإسكندر الجديدة. ونحن نعرف من النصوص المكتوبة والمسكوكات أن تغلغل الآرامية هنا كان متنوّعاً: فكان أقوى ما يكون في كيليكيا (المنطقة الجنوبية الشرقية المتاخمة لسوريا موطن الآرامية)، وأضعف ما يكون على السواحل الجنوبية الغربية، في ليديا وفريجيا، مع حضور بصورة ثنائية مع اليونانية على البحر الأسود (انظر الفصل الثالث: 'الآرامية ـ أغنية الصحراء: تداخل لغات آسيا الغربية'، ص 127). فقد كان للإغريق حضور مؤثر على المحيط لمدة ثلاثة آلاف عام على الأقل. وكانوا عندئذ مستقرين في المنطقة كلها، فيما يسميه د. موستي 'ملكية عسكرية'، ولكنهم كانوا يسمحون بعلاقة متميزة مع المدن، وباحترام للحرية والديمقراطية طنطنوا به كثيراً[19].

ورغم أنه لم يقيض لإدارة السلوقيين اليونانية أن تدوم أكثر من مئتي عام قبل أن تستسلم للرومان، فإن وضع اللغة كان أكثر تماسكاً. فعل امتداد الألف عام التالية توسعت اللغة اليونانية بشكل كبير مقتلعة اللغات المحلية على الساحل الجنوبي وفي المناطق الداخلية. ومن الأمثلة على ذلك أننا رغم استمرار عثورنا على نصوص مكتوبة باللهجة الفريجية حتى القرن الثالث الميلادي، فإن ألواح النذور التي كان يقدمها الفلاحون المحليون لزيوس (رب الأرباب عند الإغريق وهي متوفرة حتى للفقراء بسبب وجود بقايا قطع من الرخام من المقلع في دوكيميون) كلها مكتوبة باللغة اليونانية[20].

وكان هناك تناظر خفي في هذا الانتشار المفاجئ للغة اليونانية إلى الشرق، لأن الآرامية التي ظلت هي المنافس الرئيسي لليونانية في جميع أنحاء الإمبراطورية الفارسية القديمة، كانت قريبة لصيقة للغة الفينيقية، أو البونية كما هو اسمها اللاتيني، المنافسة الرئيسية لليونانية في عالم الاستعمار على الشواطئ الغربية للأبيض المتوسط. بل إن هاتين اللغتين الساميتين الشقيقتين كانت المسافة بين أصولهما لا تزيد على مئة ميل بين مركزيهما في صور ودمشق، في غرب سوريا ووسطها. فكأنما كانت المنطقة بأكملها من قادس وراء أعمدة هرقل (فأسبانيا عبر مضيق جبل طارق الحالي) إلى ضفاف نهر الغانج مجالاً لمنافسة بسيطة بين طرفين هما اللغة اليونانية وتحالف اللغتين الساميتين الشقيقتين.

وكما يمكن أن يتوقع المرء من الإغريق المتمركزين على ذواتهم، فإنهم لم يلاحظوا ذلك على الإطلاق(*).

(*) إن ليبانيوس، اليوناني الذي كان يسكن في أنطاكية بسوريا في القرن الرابع الميلادي، كتب أربعة وستين خطاباً تتراوح مواضيعها بين قضايا بلدية، وتعليمية، وثقافية، كما ألف سيرة ذاتية عن حياته، وقصيدة مدح للمدينة. وفي هذا كله لا يذكر وجود الآرامية إلاّ مرة واحدة فقط، رغم أنها كانت محكية حوله في كل مكان (مانغو، 1980: الفصل الأول).

ترحيب روماني: انتشار الإغريقية عن طريق الثقافة

اليونان، عند الاستيلاء عليها، استولت على غازيها المتوحش، وغرست الفن
في روما الجلفة...

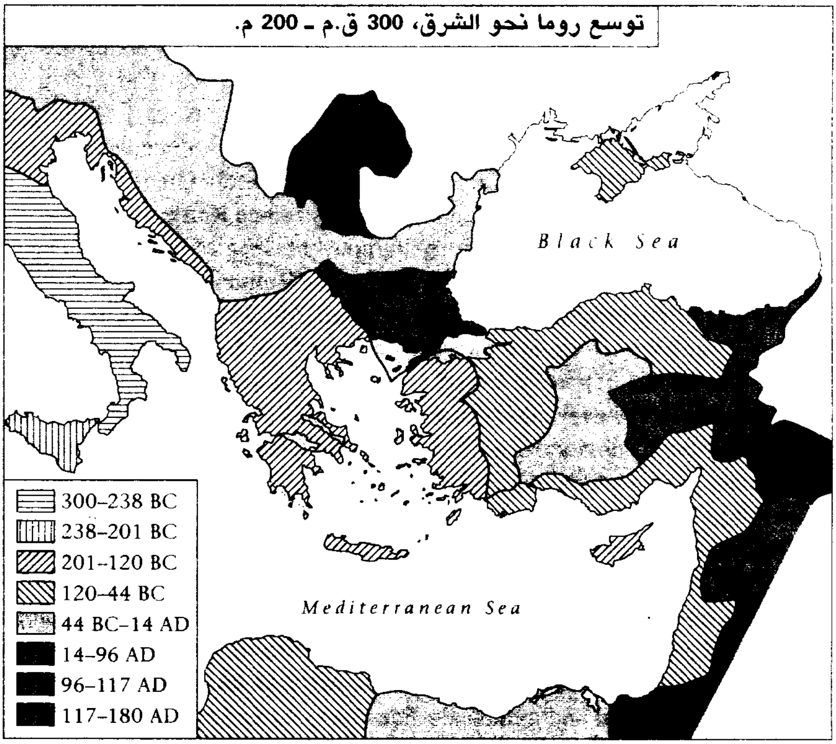
هوراس، الرسائل، 2 ـ 1: 156

في هذين الانتشارين الكبيرين للغة اليونانية عن طريق الهجرة والتغلغل، واستعمار سواحل الأبيض المتوسط، ونتائج غزو الإسكندر الصاعق للشرق، أدى نفوذ اللغة وثقافتها دوراً شديد الضآلة، إن كان لها أي دور أصلاً. فقد استكشف اليونانيون واستقروا، وقد غزوا واستوطنوا. ولكن السكان الجدد الذين سمعوا الإغريقية لأول مرة لم يكن لهم خيار في الأمر. فقد حدث بهذه الطريقة تمدد شاسع للعالم الذي تُحْكى فيه اللغة اليونانية، ولكن في خارج بلاد الأناضول وسوريا ومصر ليس هناك دليل يذكر على انتشار استعمالها اليومي خارج نطاق تجمع المهاجرين الإغريق.

غير أن اللغة اليونانية كانت مهيأة لموجة كبرى من التوسع عن طريق الانتشار. ففي جميع أنحاء حوض الأبيض المتوسط، وقبل كل شيء بين رجال النخبة في قوة روما الآخذة بالصعود، كانت الثقافة اليونانية على وشك أن تصبح مركز المنهج التعليمي.

لقد بدأ الإغريق بميزة ثقافية حتمية على سواحل الأبيض المتوسط، بعد أن جلبوا الأبجدية(*) ومعها عرض لما ينبغي أن يكون عليه المجتمع المتعلم الذي يعرف القراءة والكتابة، والأسلوب الإغريقي، ومعه التعليم الرسمي، ومنهج مبني على مجموعة كاملة من الأشعار الكلاسيكية (وخاصة هوميروس) ومهارات تدريبية فعالة في إلقاء الخطب العامة. ثم، في القرن الثالث قبل الميلاد، أدى عدد من الأحداث السياسية إلى جعل شرقي الأبيض المتوسط الناطق باليونانية يتصل اتصالاً فعالاً بالغرب. ففي العام 280 ق.م. حاول بيروس (قادماً من إيبروس، في اليونان الغربية) أن يغزو إيطاليا وصقلية: فكانت انتصاراته الأولية مضرب المثل

(*) [ملاحظة: لم "يجلبوها"، بل استعاروها من مخترعيها الفينيقيين ـ المترجم].



في ضخامة الخسائر التي تكبّدها. في غضون خمسة أعوام تم طرده على يد المقاومة الرومانية المتواصلة. ولكن تم وضع حاميات رومانية في جميع المدن اليونانية في إيطاليا الجنوبية. وفي العام 273 ق.م. عقد بطليموس الثاني ملك مصر معاهدة مع روما، فرسّخ مكانة الرومان الجديدة كقوة قادمة في حوض البحر الأبيض المتوسط.

وبدأ المؤلفون الثنائيو اللغة يقيمون جسوراً بين الأدب الإغريقي والروماني. وصارت المسرحيات اليونانية (مترجمة إلى اللاتينية) تمثل في روما من العام 240 ق.م. وحاول آخرون، مثل ليفيوس آندرونيكوس، أن يكيفوا الأعمال اليونانية الرئيسية، مثل "الأوديسة" للجمهور الروماني، ولكن مع استخدام أنماط الشعر واللغة الرومانية التقليدية. وفي وقت متأخر من القرن الثالث ق.م. جاءت الأيام المتوترة من الحرب مع هنيبعل: وبعد النصر جاء شيوع الثقافة الإغريقية (فقد كان القائد الروماني المنتصر، بوبليوس كورنيليوس شيبيو، متحمساً شهيراً

للأشياء اليونانية). وكان من الشخصيات القيادية الشاعر إينيوس، الذي ترعرع في إيطاليا الجنوبية وهو يتكلم اليونانية، ولكنه تعلم اللاتينية أثناء خدمته في الجيش: فأدخل الأعمال والقيم الأدبية الإغريقية إلى قلب التعليم اللاتيني، بدءاً من إعادة صياغة الأدب اللاتيني على غرار الطرق والأساليب اليونانية تماماً.

وقد عززت السياسة الخارجية الاهتمام بالثقافة. إذ إن روما قد تدخلت في اليونان بشكل حاسم في القرن التالي، فاستغلت بشكل رائع أحد التجمعات الرياضية لعموم اليونانيين. وفي العام 196ق.م. أعلن القائد الروماني في حشد غير مصدق لما يسمع كان قد تجمع لحضور دورة الألعاب البرزخية في كورينث، أن جميع المدن اليونانية حرة من ذلك الوقت فصاعداً، بفضل الشعب الروماني ومجلس شيوخه. وقد تبعت ذلك سلسلة معقدة من الحروب التي تورطت بها روما في الشؤون اليونانية بشكل أعمق فأعمق، وهي حروب أدت إلى سقوط خلفاء الإسكندر في اليونان كلها والأناضول الغربية تحت الحكم الروماني المباشر.

فكانت المحصّلة تغلغلاً كاملاً وكلياً للغة اليونانية في الثقافة الرومانية. وهكذا فعلى مدى القرون الخمسة التالية، وحتى انفصال الشرق اليوناني عن الغرب الروماني من الإمبراطورية، صار من الممكن الاعتماد على كون الرومان الجيدي الثقافة ثنائيّي اللغة وعارفين باليونانية. وصار تعليم الرومان يتم وفق نمط إغريقي بصورة أساسية، ولكن مع تركيز قوي على الشعر وممارسة الخطابة العامة. وتم إهمال الجوانب الموسيقية والرياضية الجمبازية، وكان المعلمون الخصوصيون ومدراء المدارس ثنائيي اللغة بشكل نموذجي، ومن أصول يونانية. وكان أحد التأثيرات هو الطلب الدائم ليونانيين مثقفين جذّابين ذوي مظهر حسن، قادرين على العثور على وظائف في جميع أنحاء الحوض الأبيض المتوسط. وعلى وجه العموم، كان الوضع يشبه الإمكانيات المتاحة لخريجي البلدان الناطقة بالإنكليزية في البلدان الغنية غير الناطقة بالإنكليزية اليوم. وكثيراً ما كان اليونانيون المثقفون يجدون أن لغتهم هي ثروتهم.

إن أحد الأمثلة على ذلك هي أن الناس الوجهاء في بلاد الغال في القرن

الأول للميلاد كانوا يرسلون أطفالهم ليتعلموا باللغة اليونانية في ماساليا (مرسيليا). ويقول سترابو: 'إن السوفسطائيين كانوا يستخدمون، بشكل خاص أو على حساب المدينة، تماماً مثل الأطباء'[21]. وفي تلك الأثناء، تعوّد نخبة الرومان من الأسر الغنية على إرسال شبابهم إلى أثينا أو رودس لإكمال تعليمهم. ولكن هذا لا يعني أن معرفة اللغة اليونانية كانت محصورة في الطبقات العليا فقط. وكان بلوتوس يكتب التمثيليات الهزلية في أوائل القرن الثاني ق.م. فكان يضع معظم كلماته اليونانية المستعارة والعامية المبتذلة في أفواه العبيد والمنتمين إلى الأنماط المتدنية ـ الصورة الكاملة للعبد الرقيق[22].

وكان بوليبيوس يكتب بعد ذلك بجيل، ولعله كان يريد إضفاء صورة على الأشياء، فاستطاع أن يعطي الملاحظة التالية: 'إن رجالنا العاملين في اليونان قد تخلصوا من ضغوط المطامح السياسية والعسكرية، وهكذا فلديهم فرص كثيرة لمتابعة استطلاعاتهم أو أبحاثهم'[23].

وبعد ذلك بقرن، فإن الاختصار الضمني المحكم عبّر عنه فرجيل بصراحة من وجهة النظر الرومانية[24]:

سيقوم الآخرون بطرق برونز يتنفس بطريقة ألطف
(لا أشك في ذلك)، وسيرسمون من المرمر وجوهاً حية،
وسيدافعون عن القضايا في المحاكم بطريقة أفضل، ويستخدمون عصاً
لقياس التحركات في السماء، وطلوع أبراج النجوم الثابتة،
أما أنت أيها الروماني، فاهتم بحكم الناس الذين تحت إمرتك
(فهذه الفنون ستكون ملكك)، وافرض طريق السلام،
وكف عن المغلوبين، وقاتل المتكبرين لإسقاطهم.

وكان عالم الفنون والعلوم مجال اختصاص يوناني بامتياز. ولكن عالم السلطة والنظام كان تابعاً لروما. فصارت حضارة عالم الأبيض المتوسط مزيجاً إغريقياً ـ رومانياً(*).

(*) من المثير للاهتمام من وجهة النظر الحديثة، بل أيضاً من وجهة نظر هندية كلاسيكية مهتمة بتمييز

ويستحق الأمر لحظةً للتأمل في الجاذبية الحقيقية للغة اليونانية والثقافة المرتبطة بها، وشخصيتها وروحها. ومن المؤكد أن الرومان لم يكونوا يعتقدون أن لديهم الكثير ليتعلموه عن الفضائل التقليدية كما تظهر في الحرب، والقانون، والسياسة من الثرثارين والمبتكرين الأجانب(*). فالفن اليوناني، الذي صار مألوفاً من خلال حملات الجيش في إيطاليا الجنوبية واليونان، كان جذاباً بحد ذاته، ولكن يبدو أن اليونانيين أيضاً كانت لهم ميزة في متابعة الملذات بصورة عامة أكثر: مثل الطعام المطبوخ الراقي، والنبيذ، والموسيقى، والمرح العابث مع أي من الجنسين، فكان الإغريق سادة الترف والفخفخة. فلم يستغرق الأمر مزيداً من التمييز لطلب المزيد من هذه الأشياء. فالكلمة اللاتينية "بيرغرايكاري" *pergraecārī* معناها الالتزام، ليس بالتفكير العالي، بل بالتمتع العالي بالحياة، والاحتفال، والعربدة، وشرب الخمور[25].

وفي الوقت نفسه، فإن المعرفة المحضة لدى الإغريق كانت تثير إعجاب الرومان: فقد كان الإغريق يعرفون تاريخهم، وكذلك تاريخ جيرانهم، وكانوا قادرين على التنظير حول أي موضوع، وتقديم اقتباسات من أشعار عمرها مئات السنين. وقبل كل شيء، كانوا طليقين في الكلام وقادرين على الإقناع، فقد تدربوا على كيفية الإمساك بجمهور المستمعين، وجعل الناس يفعلون ما يرغبون به. وهذه المهارة الصريحة في الخطابة كانت مطلوبة كثيراً في الجمعيات المدنية الأهلية التي أوجدها الرومان، والتي كان الناس فيها يرشحون أنفسهم للمناصب على كل مستوى، من مجلس القرية إلى الجمهورية نفسها، وكانت الإجراءات تقدم شفوياً للجمعيات كي توافق عليها.

وقبل كل شيء، نستطيع أن نرى الرومان (وبالتالي عالم الأبيض المتوسط

الأدوار المتكاملة للباحث/البرهمي، والمحارب - الملك/كشاتريا، والفيسيا/التاجر - ومسألة من هم القادة في مجال الأعمال التجارية، هو أن هذه الأمور لم تخطر على بال الإغريق أو الرومان أبداً. ومن المؤكد أنه كان يتم تكديس ثروات، ولكن هذا كان يعتبر مناسبة لإشباع الرغبات وليس للمجد.

(*) كان هناك مجالان لم يستخدم فيهما الرومان اللغة اليونانية على الإطلاق، وهما المجال القانوني والمجال العسكري. وكان هذا صحيحاً حتى في قلب الأرض الداخلية للغة اليونانية في شرق البحر الأبيض المتوسط، حيث لم تحرز اللاتينية اي تقدم يذكر كبديل.

كله) وقد اجتذبهم الإحساس بمعرفة العمل الذي تولده ثقافة واسعة النطاق، شديدة الإتقان، واثقة بنفسها إلى حد الأنانة (أي النظرية القائلة بأن لا وجود لشيء غير الأنا). وقدر لشيء مشابه جداً أن يحدث عندما وصلت السنسكريتية وعجائب الهند التقليدية الكلاسكية إلى شواطئ جنوب شرق آسيا (انظر الفصل الخامس: 'انتشار السنسكريتية'، ص 288)، أو عندما صارت الفرنسية لغة التهذيب والرقي في جميع أنحاء أوروبا، وخاصة في روسيا، بين القرنين السابع عشر والثامن عشر (انظر الفصل الحادي عشر: 'الفرانكوفونية'، ص 563). ويمكن رؤية شيء مشابه من جاذبية الثقة بالنفس الوقحة المتهورة الواسعة النطاق اليوم وهي تعزز تذوق الأشياء الأمريكية، ومعها اللغة الإنكليزية، على نطاق عالمي. وكما تبين هذه الأمثلة، فإن الامتياز وراءها هو شيء غير الارتباط بجيش ناجح، أو باقتصاد ناجح.

أزمة منتصف العمر: محاولة بداية جديدة

لم تقل أي من الكلاسيكيات "يوخارشتاين" (بمعنى 'شكراً')، ولكن "خارين إيديناي".

فرينيكوس آرابيوس، المجلد 6 (القرن الثاني الميلادي)

إني أشكر إلهي دائماً في أمركم على ما أوتيتم من نعمة الله في يسوع المسيح.

رسالة القديس بولس الأولى إلى أهل كورنثوس، 1: 4 (القرن الأول الميلادي)

كان الناطقون باليونانية شديدي التمسك دائماً وعلى نحو خاص بتراثهم الأدبي، وكان هذا أحد الأسباب التي جعلت لغتهم تبقى مركزية ومتكاملة على مدى قرون عديدة، رغم انتشارها ذات مرة بهذا الشكل الواسع حول العالم. ولكنهم كانوا دائماً يفسرونها بشكل ضيق للغاية، ليس كتقليد حيّ بقدر ما هي مجموعة ثابتة لا تتغير (ولا تُدْرَك) من المؤلفين التقليديين الكلاسكيين، والكتاب الأثينيين الرئيسيين (بلهجة الأتيك Attic) في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد(*).

(*) كان المؤلفون في الحقيقة قليلين للغاية. وهم لا يزالون معترفاً بهم كجوهر التعليم التقليدي

إن هذا يقدم أساساً واضحاً للتعليم، ونموذجاً للكتابة والكلام الرسمي ولكنه يعني أن الأسلوب الجيد فعلاً هو شيء لا يمكن إدراكه (وهو غير مفهوم بشكل متزايد) عندما تبدأ اللغة بالتغير، وبالطبع فإنها تغيرت على الفور هكذا. فمن القرن الثالث قبل الميلاد، لم يعد الإلقاء الصحيح قابلاً للتمييز أبداً عن أسلوب التفاصح العتيق. وإلى حدّ ما يمكن اعتبار ذلك سياسة قائمة على إعطاء أكبر سلطة لأكثر الناس قدرة في لغة كانت تستخدم في جميع أنحاء الأبيض المتوسط والشرق الأدنى: فكان المتكلمون الأهليون ومتعلمو الإغريقية كلغة ثانية متساوين أكثر عندما لم يكن هناك أحد يتكلم بأفضل لغة يونانية بشكل طبيعي. ولكن الأهم هو أن هذا كان يعني أنه ليس هناك أحد يمكن اعتباره وقبوله كمثقف أبداً بدون أرضية خلفية واسعة مستفيضة في ميدان الأدب. وقد ظلت اللغة اليونانية دائماً تغذي ثقافة مثيرة للنزاع، كما ظلت الطائفة ذات النزعة 'الأتيكية' (Atticism) تتعرض للمساءلة، والانتقاد، والمحاكاة التهكمية، والشتائم طيلة الألفين والخمسمئة عام الماضية - ولكن بلا جدوى.

وكما رأينا، فإن ذلك لم يكن سببه عدم وجود قاعدة أخرى ذات طبيعة شعبية أكثر علاقة بالأمر الواقع. فاللهجة الأتيكية الإغريقية أدت بشكل فوري تقريباً إلى نشوء اللهجة الشعبية الأسهل وصولاً والقريبة من اللهجة الأتيكية في صياغاتها، والمحددة في استخدامها، والمفهومة حيثما كانت الإغريقية محكية. ولكن رغم كل فوائد استعمالها، فإنها لم تكن ذات منزلة رفيعة. وفي العالم ما قبل الحديث، حيث المنزلة مرتبطة بمعرفة القراءة والكتابة - وبدون التعليم العام الشامل كانت هذه المعرفة حكراً على القلة - فقد كان لذلك تأثير هام.

غير أن نوعاً من العجرفة المقلوبة كان يسود في بعض الأحايين. فاللغة الإغريقية في الإمبراطورية الرومانية كانت قد انتشرت إلى أناس آخرين غير

الكلاسيكي في أوروبا الغربية. وهم كتّاب المسرحيات الدرامية آسخيلوس، وصوفوكليس، ويوريبيديس وأرسطوفانيس، والمؤرخ ثيوسيديديس، والفيلسوف أفلاطون، وحفنة من الخطباء، يتوّجهم ديموستين، ندّدوا تنديداً شديداً بتهديدات فيليب المقدوني. وكانت المواقف التقليدية اليونانية التي يعود تاريخها إلى الإمبراطورية الرومانية لا تزال بشكل فعال تحدد المنهج المدرسي البريطاني الذي درسته في ستينيات القرن العشرين.

النخبة المثقفة. فالجماعة اليهودية في روما ظلت تتكلم اليونانية حتى القرن الرابع الميلادي[26]. وفي القرون الأولى من الألفية الميلادية الأولى، كان عدد من الأديان الغامضة ينتشر من الولايات الشرقية، من مصر، وسوريا، وآسيا، وأشهرها طقوس عبادة إيزيس، وميتراس، وعيسى المسيح، وقد أخذت كلها بالإغريقية كلغة لطقوسها[27]. وكانت تجتذب معتنقين بين الفقراء والمسحوقين في الإمبراطورية في أول الأمر. وبالنسبة لهم جميعاً، فإن سلطة الأعمال الإغريقية الكلاسيكية، في جبل الأولمب، لم تكن سلطة على الإطلاق.

ومع ذلك، فبالنسبة للمسيحية على الأقل، لم يكن معنى ذلك أن أتباعها كانوا يرفضون سلطة الأدب المكتوب. وبما أن أصول العقيدة المسيحية كانت في التقليد اليهودي، فإنها سرعان ما راحت تكتب نصوصها المقدسة الخاصة بها وتعترف بهذه النصوص، باللغة اليونانية بشكل رئيسي أول الأمر، ثم كانت هناك نصوص عامية دارجة كتبت فيما بعد بالآرامية في سوريا، وبالقبطية في مصر، وبالجعيزية في الحبشة، ـ وباللاتينية طبعاً. ويبدو من الناحية العالمية أن المسيحيين الأوائل كانوا يختارون اللغة بغرض زيادة الوصول إلى أقصى حد، وبدون تفكير في مكانة متميزة لأي مدونات بعينها. ولكن هذا كان يعني أن هناك بداية معيار جديد للأدب اليوناني، وهو معيار يقوم ـ لأول مرة في أربعة قرون ـ على الاستخدام الشعبي(*).

لقد أبدينا ملاحظات على ظاهرة ’درع الإيمان‘، وهي الطريقة التي أسهمت بها الأديان ـ ولا سيّما التي أصلها من غرب آسيا ـ في الحفاظ على اللغات التي كانت أدواتها. فلم تكن الإغريقية بحاجة إلى أي مساعدة تذكر من المسيحية في تلك السنوات المبكرة، ولكن لا بد أن كثيرين قد أخذوا بالإغريقية كلغة ثانية

(*) وكان من الملامح الأخرى للكتابات إلى جانب أسلوبها أنها كانت تجديدية مبتكرة فكان المسيحيون مهتمين في ترويج شعبية التصميم الجديد للكتب، ’المخطوطات‘، ذات الصفحات المليئة بالكتابة على جانبيها والموصولة بعمود فقري، على عكس الرقعة أو اللفيفة التقليدية. وقد ثبت هذا شكل القطع العام للكتاب طيلة الألفي عام التالية على الأقل. والتخمين هو أن ذلك قد جعل الوصول إلى الكتب أكثر سهولة عند صنعها وتجليدها، كما سهل اقتباس مقاطع هامّة منها (هاريس 1989: ص 296).

لكسب وصول أفضل لأدبها. وقد نفذت المسيحية فعلاً بعض الامتدادات إلى مجال الأدب اليوناني محولةً الخطابة إلى عظة دينية أو أخلاقية(*)، والفلسفة إلى لاهوت.

والواقع أن هذه الامتدادات كانت تميل إلى إبطال التحوّل إلى المعنى اللغوي الإغريقي الذي أحدثه الأدب الجديد غير الرسمي. وهنا كانت المسيحية ضحية نجاحها نفسه. ففي وقت نموها، كانت تزداد شيئاً فشيئاً صعوبة النضال للحفاظ على صرح الإمبراطورية الشاسع تحت إدارة واحدة لأوروبا الغربية والبحر الأبيض المتوسط ككل. وكان الحكام يبحثون عن وسيلة جديدة لتأمين الولاء على امتداد ممتلكات شاسعة. وكانت البصيرة المتعمقة النفاذ للإمبراطور قسطنطين تشير له بأن هذه الوسيلة يمكن أن توجد في المسيحية. وفي العام 330 م أعاد تنظيم الإمبراطورية الآخذة بالانقسام إلى أقاليم حول عاصمة جديدة في بيزنطة، التي راحت تعرف منذ ذلك الحين باسم القسطنطينية (كونستانتينوبوليس، أي مدينة قسطنطين)، وجعلها مؤسسة مسيحية.

وهذا ما جعل التاج يشرع في دفع المسيحية للتقدم الاجتماعي. وكانت قد بدأت تجتذب معتنقين من نوع جديد لمدة زادت على قرن من الزمن. وعلى سبيل المثال، فإن كليمنت الإسكندري (المولود في العام 150 م) استخدم ثقافته الكلاسيكية المستفيضة ليؤلف كرّاساً بعنوان "المشجع"، في محاولة لإقناع الإغريق بالحجة للخروج من وثنيتهم واعتناق المسيحية، ثم تابع عمله ليقيم نظاماً منطقياً فوق المبدأ المسيحي القائل بأن المسيح كلمة الله. وكان أوريجين (185 ـ 255) ناقداً لنصوص الإنجيل، وكان يوسيبيوس (260 ـ 339) أول مؤرخ للكنيسة. ومثل هؤلاء الأكاديميين الإغريق النموذجيين كانوا يتقنون جيداً الكتابة بالأسلوب الكلاسيكي الفصيح. ولكن الكنيسة عندئذ راحت تجتذب أيضاً الطبقات العامة من الناس الساعين لتحسين أحوالهم في العالم الدنيوي الزائل، أو الساعين ببساطة لتأكيد حقهم كأفراد أسر متميزة. فكانت النتيجة عودة كاملة مندفعة

(*) كانت كل من الكلمة الإغريقية "هوميليا" homilia والكلمة اللاتينية "سيرمو" sermō، تعني في الأصل محادثة غير رسمية، أي "دردشة" بلا كُلفَة.

للاتجاه القديم للأخذ باللهجة الأتيكية Attic. فأعيد ترسيخ اللغة الكنسية اليونانية بثبات في التقليد الكلاسيكي الفصيح، ولم تعد بعد ذلك تخضع لإغراء الانحراف عنه أبداً. كما أن ميل الإمبراطورية المتزايد لتحريم الوثنية، المحددة بأنها تشمل كل فلسفة ما قبل المسيحية، توّج بإغلاق جستنيان لمدرسة أثينا [المسماة أكاديمية أفلاطون] في العام 529 م. ولكن بقاء الأسلوب الأتيكي Attic لم يكن قط موضع شك.

إن اقتناع اليونانيين هذا بأن الطرق الشديدة القدم في الكتابة هي أفضل الطرق ثبت أنه عميق الجذور مثل الإمبراطورية نفسها. وعندما سقطت مدينة القسطنطنية بيد الأتراك بعد ذلك بألف سنة أو تزيد، في العام 1453، كان الناس مستمرين في محاولة الكتابة بصيغة مقبولة من صيغ اللهجة الأتيكية.

تلميحات عن التدهور

إن قصة اللغة اليونانية في الألف سنة التالية هي قصة حالات من التمترس قليلة التكرار، ولكنها مفاجئة وكثيفة، كما حدث للتمدد الشاسع الذي أقيم في أواخر الألف الأولى قبل الميلاد، عندما دُفِعَ إلى الوراء عند حافاته. ففي غربي الأبيض المتوسط حيث لم تكن إمبراطورية اللغة اليونانية أبداً دنيوية زمنية، فإن هذا الفقدان لأقسام من المجتمع اللغوي الإغريقي قد حدث ببساطة لأن بؤرة مركز الثقافة قد تحولت. فلم يعد التعليم باليونانية جزءاً من التعليم الأوروبي الغربي، وصارت الاتصالات مع الشرق أندر بكثير. ولكن هذه الانسحابات في أماكن أخرى قد نتجت بشكل مباشر من الاندحارات العسكرية.

ففي الإمبراطورية الرومانية الغربية، حيث كانت اللاتينية سائدة، فإن الهزائم العسكرية التي قلصت الإمبراطورية وسرعان ما قضت عليها سياسياً قُدّر لها أن تكون آثارها على اللغة محدودة جداً (انظر الفصل السابع 'السقوط: حالات تقدم الألمانية والسلافية'، ص 429)، ولكن في الشرق كانت نتيجة الهزائم

أبسط بكثير. فقد تولت الأمر قوات معادية، وبعد فترة انتقالية مقبولة ـ من عدة أجيال على الأغلب ـ لم تعد اللغة اليونانية مسموعة أو مرئية.

باكتريا، وفارس، ووادي الرافدين

كانت أول منطقة تفقدها اللغة اليونانية واقعة إلى أقصى الشرق: وتشمل فارس، وأفغانستان، نزولاً إلى وادي الإندوس. فالسيطرة السلوقية هنا لم تكن آمنة فترة طويلة. ولكن طيلة القرن الأول بعد وفاة الإسكندر (عام 323 ق.م.) جاءت المنافسة بصورة رئيسية من ملوك آخرين مقدونيين ويونانيين لم يعارضوا انتشار اللغة اليونانية. فعند حلول العام 260 ق.م. كان الإغريقيون ـ الهنود في باكتريا، بقيادة ديودوتوس أول الأمر، قد أعلنوا أنفسهم كمستقلين. وفي حوالي هذا الوقت نفسه (وربما بسبب هذا التمرد)، اندفع البارثيون الناطقون بالفارسية جنوباً من الشواطئ الشرقية لبحر الخزر إلى الهضبة الفارسية. وبعد ذلك بقرن، في العام 146 ق.م. أكمل ميثراداتا الأول ملك بارثيا هذه المهمة وطرد السلوقيين من باقي بلاد فارس، واستولى على وادي الرافدين بالإضافة إلى ذلك. وتصادف بعد ذلك بعشر سنوات أن غلبت ملوك باكتريا الإغريق ـ الهنود على أمرهم أمام غزو سكيثي (ساكا) من الشمال تبعه بعد وقت قصير غزو من جيوش كوشانا (المعروفين أيضاً باسم التوتشاريانيين أو اليوجيين) من الشمال الشرقي.

ولم يكن انطفاء اللغة اليونانية فوق هذه المنطقة الشاسعة فورياً. ففي الشرق، كانت هناك حقيقة أن الباكترية، اللغة الرسمية لإمبراطورية كوشانا، التي استمرت من منتصف القرن الأول الميلادي إلى نهاية القرن الثاني، كانت تكتب بالحروف اليونانية. وهذا شيء فريد بين اللغات الفارسية، وهو يظهر أن أهالي كوشانا قد أمضوا فترة غير قصيرة من التفاعل الثقافي مع الإغريق. ففي العام 44 م، بعد 190 عاماً من سقوط الملوك الإغريقيين ـ الهنود، يقال بأن الحكيم أبولونيوس، من تيانا لم يجد صعوبة في التفاهم باللغة اليونانية أثناء رحلة أخذته طيلة الطريق كلها عبر هندكوش إلى تاكسيلا، حيث استقبله وأضافه (باللغة اليونانية) ملك بارثي أسهب في الحديث عن ثقافته ذات الأسلوب الإغريقي[28].

ونحن نعرف من نصوص رسمية مكتوبة أن المجتمعات الناطقة باليونانية في المناطق الغربية استمرت ضمن الإمبراطورية البارثية عدة أجيال. وهناك مخطوطات إغريقية في سوسه، التي كانت هي العاصمة الإغريقية تحت اسم 'سلوقيا على اليولايوس'، وإحدى هذه المخطوطات من العام 21 م، وعلى مبعدة إلى الغرب، في وادي الرافدين، في مدينة سلوقيا على نهر دجلة هناك نص ثنائي اللغة بالبارثية واليونانية مؤرخ بوضوح في العام 151 م، يسجل نصراً بارثياً على ميسين (المفروض) بأنها ناطقة باليونانية، على الخليج العربي، قرب البصرة الحديثة. (ومما له دلالة أن هذا النص منقوش على خاصرتي تمثال لهرقل بلغة مختلفة على كل خاصرة)[29]. وكانت ميسين أيضاً هي موطن إيزيدوروس من كاراكس، وهو يوناني معاصر للمسيح تقريباً، وقد ألف كتاباً بعنوان "المحطات البارثية"، يصف الطريق عبر بارثيا من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي.

وكانت سياسة البارثيين اللغوية الخاصة بهم هي قلب التاريخ. فقد أعادوا تثبيت الآرامية كلغة مشتركة لإمبراطوريتهم، وتركوا عدة نصوص ونقوش مكتوبة بها، واستخدموا نظامها الكتابي في لغتهم (الفارسية). وإن إمكانية ذلك تثبت أن اليونانية لم تحل محل البارثية تماما أثناء قرنين من الحكم السلوقي.

ولكن البارثيين لم يكونوا متلهفين إلى إزالة تراث الحكم اليوناني في فارس. فمسكوكاتهم النقدية كلها تحمل نقوشاً من الأساطير الإغريقية:

لملك الملوك، آرساكيس، الرحيم، العادل، البارز، المحبّ لليونانية.

ويروي بلوتارخ قصة الملك البارثي أوروديس عندما تلقى الدليل الرهيب على انتحار القائد الروماني كراسوس في العام 53 ق.م. وهي رأس القائد المقطوع، وذلك عندما كان الملك يحضر تمثيل مسرحية يوريبيديس المعنونة "باخوس"(*).

(*) وكان مضيفه آرتافازديس ملك ارمينيا دارساً للغة اليونانية أيضاً على ما يبدو، إلى درجة أنه كتب بها مسرحيات من تأليفه (بلوتارخ، كراسوس).

وبما أن اليونانية ظلت لغة قوة عظمى مجاورة هي الإمبراطورية الرومانية، فربما كان ذلك سبب بقاء نفوذها في بارثيا زمناً طويلاً بعد أن تلاشى استخدامها هناك فعلياً. وقد دامت المملكة البارثية في بلاد فارس خمسة قرون. وفي العام 224 م. استسلم آخر ملوكها لأردشير، أول ملك من السلالة التالية، وهي سلالة آل ساسان، الذين كانوا يتكلمون الفارسية. ومع ذلك فعندما أراد ابنه سابور أن تنقش منجزاته على صخرة في نقشي - رستام، في مواجهة قبور ملوك الفرس في بيرسيبوليس [المدائن الحالية]، كتبها بثلاث لغات هي الفارسية، والبارثية، والإغريقية[30].

سوريا، وفلسطين، ومصر

لم تكن فارس أبداً جزءاً من الإمبراطورية الرومانية، التي لم تحتل سوى جزء صغير من وادي الرافدين(*). وهكذا فإن هذين البلدين لم يكن فيهما أبداً شعور بممتلكات يونانية دائمة كالتي ميزت سوريا، وفلسطين، ومصر، التي ضمت إلى إمبراطورية الإسكندر، ومن هنا تم إضفاء الصبغة الإغريقية الهيلينية عليها، في العام 332 ق.م. وفي العام 64 ق.م. ضم القائد الروماني بومبي سوريا وفلسطين كإقليم تحت حكم الإمبراطورية المباشر، وفي العام 30 ق.م. ضم إليها أغسطس مصر بعد أن أطاح بحكم كليوباطرة، آخر سلالة البطالسة. وكما رأينا فإن الغزوات الرومانية لم يكن لها أي تأثير لغوي، سوى إدخال استخدام شيء من اللغة اللاتينية في الجيش والمحاكم. ولكنها لم تؤكد الإحساس بأن هذا الجزء من العالم في أقصى جنوب شرق الأبيض المتوسط سيبقى دائماً، وبأكبر قدر ممكن من الاستقرار، تحت السيطرة الغربية. وظلت اليونانية محكية من قبل رجال النخبة الأجانب، وفي بعض المدن الخاصة مثل تدمر وغزة والإسكندرية من قبل آخرين كثيرين.

(*) على مدى السنوات الثلاث 114 - 117 م استولى الإمبراطور تراجان على المنطقة كلها ثم خسرها ما عدا الجزء الشمالي الغربي منها المسمى أوسروين، الذي تم ضمه لمدة قرنين بعد حملة رومانية في العام 164م.

ويقدم إيجيريا، الذي زار القدس في العام 400 م، شعوراً بالوضع اللغوي في مركز للحج الدولي في المنطقة:

> كان الناس في ذلك البلد يعرفون اللغتين اليونانية والسريانية، وفي جزء منه كانوا يعرفون اليونانية فقط، وفي جزء آخر يعرفون السريانية فقط. رغم أن الأسقف كان يعرف السريانية فإنه كان يتكلم باليونانية فقط ولا يتكلم بالسريانية أبداً، وكان إلى جانبه دائماً قسيس يترجم كلامه اليوناني إلى السريانية كي يفهم الجميع. وبالمثل بالنسبة للدروس المقروءة في الكنيسة، فكان من اللازم أن تقرأ باليونانية، وهناك دائماً شخص يترجمها إلى السريانية لفائدة الناس كي يتلقوا التعليمات. أما بالنسبة للاتين الموجودين هناك، والذين لا يتكلمون السريانية ولا اليونانية فتقدم لهم ترجمة أيضاً كي لا يثور سخطهم، لأنه كان هناك إخوة وأخوات يتقنون اللغتين اليونانية واللاتينية. فكانوا يقدمون شروحاً باللاتينية(31).

لقد نظرنا في سلسلة الحملات السريعة الصاعقة التي شنها المسلمون الجدد، والتي قلبت هذه الأوضاع، وخلقت الوضع اللغوي الذي استمر حتى يومنا هذا (انظر الفصل الثالث ’العربية ـ البلاغة والمساواة: انتصار "التسليم"‘، ص146). كان عقد واحد من السنوات بعد وفاة محمد في العام 632 م كافياً لوضع خط رفيع ولكنه لا يمحى تحت 950 سنة من السيطرة اليونانية واللغة اليونانية لإنهائهما، وقلب صفحة من السيطرة العربية على هذه الأراضي مضى عليها 1300 عام حتى الآن. فكان ذلك صدمة لجميع المعنيين، وخاصة لأنها جاءت بعد سنتين من قيام الإمبراطور هرقل بإعادة تثبيت دفاعات الإمبراطورية وحملاته التي استغرقت أربع سنوات لرد الغزو الساساني لهذه المناطق نفسها التي حرم منها الإغريق منذ مطلع القرن السابع الميلادي(*).

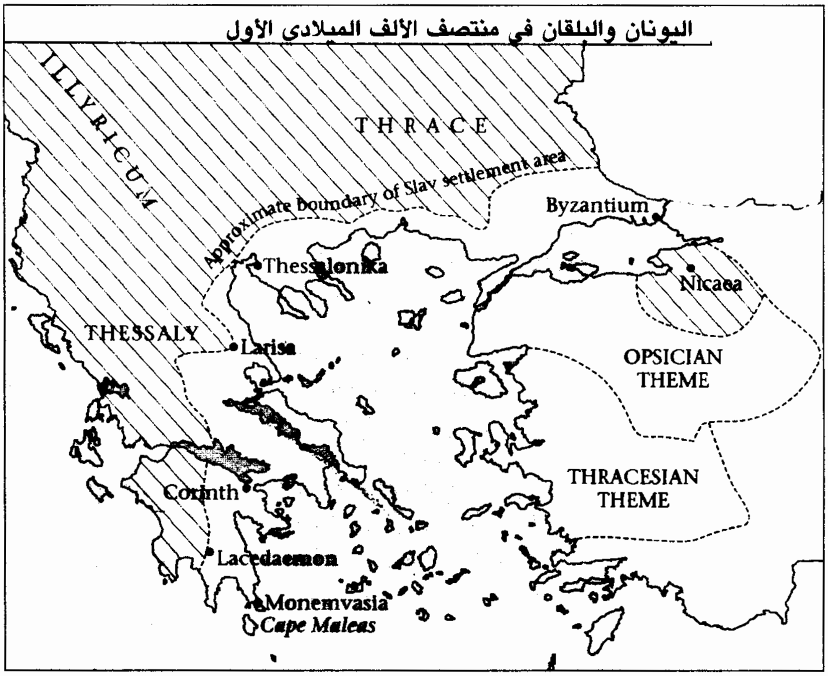
كانت تلك ضربة مدمّرة للإمبراطورية، سياسياً واقتصادياً، فقد شملت

(*) [ملاحظة: لماذا يعتبر المؤلف السيطرة العربية على بلاد الشام "صدمة لجميع المعنيين" ولا يعتبر السيطرة الرومانية "صدمة"؟ ومن هم هؤلاء "المعنيون؟" الجواب عند تعصبه الحاقد علينا ـ المترجم].

خسائرها مصر، التي كانت مورد الحبوب الأكبر للعاصمة الإمبراطورية طيلة 650 عاماً. وتشير أفضل التقديرات(*) إلى أن الفتوحات العربية قد حرمت الإمبراطورية من أكثر من نصف سكانها. ولكن الأمور كان من الممكن أن تكون أسوأ. فقد فشلت محاولات العرب المتكررة لأخذ القسطنطينية نفسها، كما فشلت في فصل الأناضول، رغم استمرار الغارات عليها كل عام طيلة القرنين التاليين[32]. فقد أعاد هرقل تنظيم المنطقة، فدمج الإدارتين المدنية والعسكرية بشكل فعال وفرض الأحكام العرفية. إذ إن التصور الواضح لوجود العدو على الأبواب قد فرض هذا النظام وأبقى الإمبراطورية مستنفرة بصورة فعالة للدفاع.

إن هناك نمطاً مثيراً للاهتمام في الخسائر البيزنطية في منتصف القرن السابع الميلادي. فالأماكن التي صمدت بصلابة هي تلك التي كانت اليونانية فيها لغة الأغلبية، يتكلمها الناس عموماً، وليس النخب فقط. فكان لذلك تأثير على صورة الإمبراطورية الرومانية أمام نفسها (فقد كانوا ما يزالون يعتبرون أنفسهم من الرومان). وكانت اللاتينية آخذة بالسقوط من الاستعمال لبعض الوقت، حتى إنها فقدت حصنها في القانون: فمنذ زمن جستنيان، قبل ذلك بقرن كانت مسودات معظم التشريعات تصاغ باللغة اليونانية. وكان الآمر الثاني بعد الإمبراطور، الحاكم التابع للحرس الإمبراطوري، رجلاً لا يعرف اللاتينية في أغلب الأحيان. وقد ظلت الإمبراطورية محتفظة بجزء كبير من إيطاليا الجنوبية، بل وتمسكت بأجزاء منها لمدة أربعمئة عام أخرى حتى منتصف القرن الحادي عشر. ولكن لأول مرة في ذلك الوقت اعتبرت اليونانية، وليس اللاتينية، هي اللغة الموحدة للمجتمع كله. ومما يثير الحيرة والارتباك عند أهل العصر الحديث أنهم أطلقوا على اللغة اليونانية اسم "رومايكا"، أي 'الرومية' باعتبارها عكس "لاتينيكا" وبالنظر إلى الوراء من منتصف القرن العاشر، فإن الإمبراطور

(*) يقدر مانغو (1980: الفصل الأول) عدد سكان مقاطعات شرقي البحر الأبيض المتوسط في منتصف القرن السادس بثلاثين مليوناً، منهم ثمانية ملايين في مصر، وتسعة ملايين في سوريا - فلسطين - وادي الرافدين، وعشرة ملايين في الأناضول و3-4 ملايين في البلقان. ولاحظ أيضاً أن بلاد الأناضول كان فيها ضعف سكان اليونان والمقاطعات الأوروبية.



قسطنطين السابع بروفيروجنيتوس قد لاحظ أن الرومان كانوا في زمن هرقل قد 'اصطبغوا بالطابع اليوناني الهيليني ونبذوا لغة آبائهم، اللسان الروماني'،[33].

اليونان

رغم أن حركة المنفاخ المثيرة للاضطراب وعدم الاستقرار على الحدود الإمبراطورية لم تتوقف، فإن استنزاف المناطق الناطقة باليونانية توقف طيلة القرون الأربعة التالية. ولكن ذلك لم يكن واضحاً آنذاك، فبينما خسرت الإمبراطورية الرومانية المناطق الجنوبية في بلاد الشام، كانت المناطق الشمالية في حالة اضطراب أيضاً.

فكانت الأمور موشكة على انفجار يهدد بقاء اللغة اليونانية على أراضيها الداخلية نفسها. فبعد غزوات قبائل القوط الناطقة بالجرمانية في العام 378، وقبائل الهون الناطقة بالتركية في الأعوام 441 ـ 447، وقبائل الأوستروقوط الجرمانية في الأعوام 479 ـ 482، وقبائل البلغار الناطقة بالتركية في العام 493،

استمر الضرر في القرن السادس. وبعد خمسين عاماً من هذه الأزمة يروي المؤرخ البيزنطي بروكوبيوس:

> إن إيليريكوم وثريس كلها، أي جميع الأراضي من الخليج الآيوني [الأدرياتيك] إلى ضواحي بيزنطة، بما فيها اليونان ومناطق تشيرسون كانت تجتاحها في كل عام تقريباً قبائل الهون، والسلاف، والأنتاي منذ أيام الإمبراطور جستنيان. وقد أحدثت هذه القبائل الغازية أضراراً لا تحصى بين سكان تلك الأجزاء. لأنني أعتقد أنه في كل غزو كان أكثر من مئتي ألف روماني يقتلون أو يؤسرون ...[34].

ثم في العام 581، كما يسجل جون من إيفيسوس، فإن 'شعباً ملعوناً يسمى السلافونيين اجتاح اليونان كلها، وبلاد ثيسالونيا، وكل منطقة ثريس، واستولوا على المدن، وأخذوا قلاعاً عديدة، ودمروا وأحرقوا، وحولوا الناس إلى عبيد، وجعلوا أنفسهم سادة على البلاد كلها، واستقروا فيها بالقوة المحصنة، وسكنوا فيها كأنها ملك لهم'[35].

ولم تكن هذه ظاهرة مؤقتة، وقد أدت إلى هجرة اليونانيين على نطاق واسع. وحسب مسرد مونيمفازيا التاريخي، فإنه عند حلول العام 587/588 لم يكن هناك أي جزء في اليونان فيه مناعة ضد الكارثة السلافية، التي جاءت هذه المرة من الآفار (وهم مجموعة أخرى ناطقة بالتركية): 'إن الجزء الشرقي وحده من شبه الجزيرة البيلوبونيسية، من كورنث إلى خليج ماليا، هو الذي بقي ناجياً من السلافونيين، بسبب وعورة أراضيه وصعوبة الوصول إليها".

وربما كان من المتوقع أن يؤدي هذا إلى انتشار دائم للغات السلافية، كما حدث فعلاً في صربيا وبلغاريا على مبعدة إلى الشمال (انظر الفصل السابع: 'الفجر السلافوني في البلقان'، ص 435). ولكن تمت استعادة تغلب الناطقين باليونانية على الناطقين بالسلافية بطريقة ما في الجنوب. وفي القرون السابع والثامن والتاسع، نظمت الإمبراطورية سلسلة من برامج إعادة التوطين وحملات التبشير، فأزاحت السلاف إلى الأناضول الشمالية، وجلبت آخرين إلى اليونان الجنوبية. فنحن نسمع أن نقفور الأول قام في العام 805 'بإعادة بناء مدينة لاسيدايمون من جديد، وأسكن

فيها خليطاً من الناس هم الكفيريون، والثراسيون، والأرمن، وغيرهم تم جمعهم من أماكن ومدن مختلفة، وجعلها أسقفية'،[36].

وبالمثل في ستينيات القرن التاسع الميلادي كان باسيل الأول منهمكاً في العمل الجدي لتنصير الصرب في الشمال: 'فبعد أن أضفى عليهم الطابع الإغريقي، أخضعهم لحكام حسب العادة الرومانية، وشرّفهم وأكرمهم بتعميدهم، وأنقذهم من ظلم حكامهم'،[37].

إن من المستحيل توضيح التفاصيل إذا كان الهدف هو تفسير سبب تحول بعض المجتمعات إلى النطق باليونانية وإلى اعتناق المسيحية كذلك، فمن المؤكد أن الطقوس التي تعلموها كانت باللغة اليونانية. وفيما بعد فإن الخدمة في الجيش قد عملت على جلب كثير من السلاف إلى العالم الناطق باليونانية. ولكن النتيجة الصافية واضحة. فقد بقيت الإغريقية، أو أعيد ترسيخها باعتبارها اللغة المسيطرة في موطنها التقليدي.

الأناضول

استمرت سيطرة اللغة الإغريقية في بلاد الأناضول حتى العام 1071م. ففي ذلك العام خسرت الإمبراطورية معركة منزيكرت (مالازغيرت الحديثة، شمال بحيرة فان) لقوة جديدة مسيطرة على العالم الإسلامي، هي سلطنة السلاجقة الأتراك[*]. ورغم ذلك، كان بوسعها أن تتجنب خسارة كل أرضها الداخلية التي نجمت عن ذلك: فالسلطان السلجوقي ألب أرسلان، الذي كانت أمامه حروب أخرى يخوضها، حاول أن يعيد تنصيب الإمبراطور المدحور رومانوس ديوجين وفق شروط كانت ستقيم تحالفاً بين القوتين، وتتيح للأتراك وصولاً إلى البحر الأبيض المتوسط عن طريق إيديسا وهيرابوليس وأنطاكية في سوريا الشمالية. ولكن رومانوس تم رفضه، ورفض الشروط المعروضة كذلك، فكانت عاقبة ذلك التقدم السلجوقي السريع خلال معظم

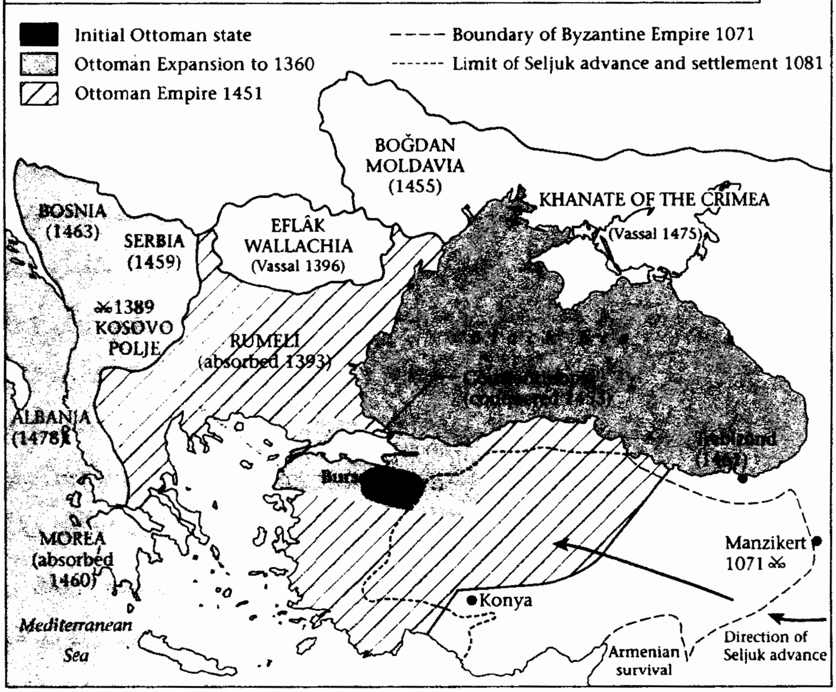
(*) كان مصير البيزنطيين قد أصبح معروفاً في ذلك العام (1071م). وقد وصلت أيضاً أخبار بان النورمانديين قد استولوا على باري، وبذلك أنهوا 535 عاماً من إمبراطورية الرومان في إيطاليا.

بلاد الأناضول، وهي أرض سيطر عليها الناطقون بالتركية منذ ذلك الحين - مما يُذكّر على نحو غريب بأصول الإمبراطورية القديمة في إيطاليا - فصارت تركيا تعرف باسم سلطنة الروم.

وهذا الانتشار للجحافل التركية التي تحولت بسرعة إلى مستوطنين أتراك في غضون مئة عام أدى إلى حرمان المجتمع اللغوي اليوناني من قلب إقليمه الكبير. ولذلك فإن السكان الناطقين باليونانية على نطاق عالمي كانوا مهيئين للسقوط السريع، سواء عن طريق الهجرة، أم ببساطة عن طريق خسارة الجيل التالي من المتعلمين. بل إن بعض مجتمعات الناطقين باليونانية قد غادروا كلهم بالجملة، وترك أفراد كثيرون بيوتهم للعثور على أفضل منها في أماكن أخرى، كما إن أطفال بعض العائلات اليونانية قد امتصتهم واستوعبتهم البيئة الجديدة، فنشؤوا يتكلمون التركية.

كانت هذه ضربة لبقاء اليونانية كلغة كبرى. وبعدها بخمسة أجيال، تلقت ضربة مزقت نفوذها الباقي. ففي العام 1204، انحرفت الحملة الصليبية الرابعة، المكونة من فرسان أوروبا الغربية عن مهمتها المحددة، وهي مهاجمة القوى الإسلامية التي كانت تمسك بفلسطين، واحتلت تلك الحملة القسطنطينية، وكذلك أجزاء من اليونان والساحل الأناضولي. ثم تابعت تلك الحملة الصليبية الاحتفاظ بمكاسبها باعتبارها 'إمبراطورية لاتينية' يديرها البنادقة، وعاشت بلا هدف قرنين من الزمن قبل أن يمتصها الأتراك. فالحملة الصليبية الرابعة مسخت الإمبراطورية الرومانية الشرقية إلى مجموعة من خمس دويلات منفصلة، ورغم أن إحداها تدبرت فعلاً أمر إعادة الاستيلاء على القسطنطينية في العام 1261 وإعادة تركيب نفسها كبقية إمبراطورية فلم تعد أي دولة يونانية بعد ذلك أبداً أكثر من قيد ثانوي على قوة الأتراك المتنامية. وأخيراً أطفأ الأتراك الإمبراطورية في العام 1453 وأطفؤوا آخر دويلة إغريقية، وهي تريبيزوند، في العام 1471. وقد استغرق الأتراك أكثر بقليل من 380 سنة للتقدم من منزيكرت إلى القسطنطنية - وهي تعادل الفترة التي كان اليونانيون سيمضونها فيما بعد تحت حكم توركوكراتيا - كما سمّوا السيطرة التركية.

تقدم الأتراك عبر الأناضول وبحر إيجه



لقد تحولت اليونانية من كونها إمبراطورية عالمية ذات تطلعات كونية شاملة إلى درجة أنها لم تكد تلاحظ إن كانت لغتها إغريقية هيلينية أم رومانية، فأصبحت لسان شعب مغلوب، هم المسيحيون الأرثوذكس، مجرد واحدة من "الملل" ('الأمم' - وفي الحقيقة: التجمعات الدينية) التي لها مكان في الإمبراطورية العالمية للأتراك العثمانيين. فبعد أن تم إذلال اليونانيين في آخر الأمر، بدؤوا يلاحظون ماهية اللغة التي يتكلمونها، فهي غير قابلة للانفصال عن عقيدتهم الأرثوذكسية، وصارت رمزاً لهويتهم في القرون الطويلة التي حرموا فيها من حريتهم.

وبما أن الأناضول في أواخر الألف الأول قبل الميلاد كانت تتكلم اليونانية بشكل لا يقل عن شبه جزيرة البلقان التي تتوجها بيلوبونيزيا، المكان الذي نعتقد الآن أنه أبعد امتداد طبيعي لليونان، فإنه يكاد يكون من باب المصادفة أن

ينتهي الأمر بالمجتمع الناطق باليونانية متركزاً في نفس المكان الذي انتشر منه قبل ألفين وخمسمئة عام. وعند النظر إلى الوراء نستطيع أن نرى أن ذلك إنما يعكس حقيقة أن القوى الإسلامية التي كانت تهدد من الشرق، أي العرب، وقبل كل شيء الأتراك، كانت أفضل تنظيماً وأكثر تماسكاً في المدى الطويل، من التهديدات التي جاءت من الشمال، أي من القوط، والآفار، والسلاف. فالسلاف كان من الممكن امتصاصهم؛ والأتراك لا يمكن امتصاصهم.

المؤاساة في الشيخوخة

أستيقظ فأرى فوراً فوقي
آثينا نفسها تنتظر بصراحة،
وبهذه الكلمات من الأعالي تخاطبني:
'إن شهرة اليونان القديمة
لا زمن سوف يطمسها أبداً:
لأن الحكمة لا تهلك'.

أندرياس مياريس (حوالي العام 1708)

لقد خُرِّبت اللغة اليونانية: فلم تعد لغة مجتمع له تطلعات عالمية. وعندما ترسخت النهضة في أوروبا، تمتعت هذه اللغة بانبعاث كمصدر حكمة للباحثين الدارسين. وهكذا فإن القدرة على قراءتها ومعرفة آثارها الكلاسيكية (المتركزة في القرنين الخامس والرابع ق.م. كما كانت دائماً - ولكن مع اهتمام أكثر بأرسطو آنذاك) صارت محكاً مفيداً لمعرفة مدى جدارة الباحثين بالثقة. ولكنها لم ترتفع قط إلى مستوى لغة مشتركة بينهم: فهذا الموقع كانت تحتله زميلتها القديمة، اللاتينية.

ولكن اللغة اليونانية نفسها، كلغة حية، كانت عندئذٍ (في عصر النهضة الأوروبية) ملكاً لعدد من التجمعات الصغيرة التي لم يكن لها حق أو سلطة لتؤثر على الآخرين تأثيراً فعالاً. كما أن شعورهم بالوحدة فيما بينهم قد قلصه انهيار أي علاقة مع التعليم الأدبي اليوناني التقليدي، وهذا تطور كان قد بدأ في القرن

الثالث عشر، قبل قرن ونصف قرن من الانتصار التركي، عندما سيطرت القوى اللاتينية على الكثير من ممتلكات الإمبراطورية القديمة.

وفي هذه المجموعات البيتية، لم تمت اللغة اليونانية. إذ كان نقلها محمياً بدورها في الطقوس الأرثوذكسية: ولكن الحقيقة أنها حتى باعتبارها لغة شعب خاضع، لم تكن مهددة. فلم يكن هناك أي ضغط على المسيحيين لاعتناق الإسلام. ورغم أن التقدم السلجوقي كان يفضل انتشار المستوطنين الناطقين بالتركية عبر الأناضول في القرنين الحادي عشر والثاني عشر، فإن التقدم السياسي للأتراك العثمانيين، الذي بدأ في أواخر القرن الثالث عشر كان غرضه الرئيسي عسكرياً، وهو إعادة تنظيم السكان الأتراك إلى مقاتلين مدمرين. ورغم أن الإمبراطورية العثمانية اجتاحت الشرقين الأدنى والأوسط بشكل عاصف بعد ذلك تبدو مسترخية كلياً - بل إنها لم تكن منظمة بشكل منهجي لأي غرض سوى الغزو العسكري - وقد أتاحت حكماً ذاتياً وفيراً للشعوب ("الملل") التي خضعت لها(*).

ومع ذلك، فإن اليونانية تتوقف بالفعل عن كونها لغة عالمية عند هذه النقطة. فرغم كل الاهتمام الممتع بتقاليدها في أوروبا الغربية، فإنها بعد أن لم تعد سيدة في بيتها نفسه، فإن المجتمع الناطق بها لم يعد يستطيع أن يرى نفسه كمركز ذاتي لعالمه الخاص به. وبدأ اليونانيون يرون أنفسهم كشعب صغير لا يقدر على التصرف إلا عن طريق التفاوض مع آخرين أقوى منه بكثير. فقد انتهت مشاعرهم بأنه لا يوجد أحد سواهم. وسوف لا نتتبع تاريخ هذه المشاعر أكثر، رغم أن هناك الكثير مما يمكن سرده. إن مركز الثقل الجديد في المجتمع اللغوي هو ريفي لأول مرة، وليس محملاً بواجب الحفاظ على ماضٍ قديم أو شعور أوسع بمكانة اليونان في العالم. وقد أدى ذلك إلى تأليف أغانٍ شعبية وقصص خيالية غير مثقلة بمعيقات كلاسيكية عتيقة. وكان هناك شعور

(*) بل إن بطريركية اليونانيين الأرثوذكس حصلت على مكاسب من الغزو التركي لأن السلطان محمداً الفاتح أعاد تنظيم رعاياه الأرثوذكس بعد فتح القسطنطينية، فضم البطريركية البلغارية والبطريركية الصربية إلى سلطة بطريركية القسطنطينية، ولكن البطريركيات ظلت منفصلة من الناحية اللغوية بالطبع.

باللغة اليونانية مبني على روح المتمرد الخارج على القانون الذي لا يقبل بالظلم الأجنبي. ولكن عندما قامت القوى الغربية، المتعاطفة مع الحركة الرومانسية، بضمان تحرر اليونان من العثمانيين في العام 1821، تجدد النقاش حول ماهية المقياس الحقيقي الذي يجب وضعه للغة اليونانية. ومرة أخرى أصدر رجال النخبة اليونانيون حكمهم لصالح سياسة العودة الواعية للتمسك بالألفاظ والأساليب القديمة المهجورة.

ومع ذلك، فللمرة الأولى في أكثر من ألفي عام فإن هذه السياسة لم تنجح. فقد كان هناك شيء قد تغير، ربما بسبب الانقطاع في السيطرة الحضرية للمدن، وبالتالي للتعليم التقليدي الكلاسيكي أثناء فترة الحكم التركي لليونان. وكان ذلك قد أدى إلى ترسيخ أسلوب شعبي في اللغة اليونانية المكتوبة له علاقة باللغة اليومية الدارجة، فصار من الممكن التأكيد على دوره في هذا الوقت. وقد شهد القرنان التاسع عشر والعشرون صراعات أخرى. ولكن منذ سقوط حكم العقداء العسكري (1967 ـ 1974)، وقانون التعليم الصادر في العام 1976، تم قبول مقياس كتابي موحد جديد مبني على شيء قريب من اللغة اليونانية المحكية العادية.

استعادة الماضي: دورة حياة شيء تقليدي

عليك أن تكون الأفضل دائماً، وأن تتفوق على الآخرين،
وأن لا تخجل من سلالة الآباء الذين كانوا هم الأفضل...

هوميروس، الإلياذة، 4: 208 (نصيحة أبوية وداعية لبطل هوميري)

إن استعراض توسّع المجتمع اللغوي اليوناني وتقلصه على مدى ثلاثة آلاف عام إنما يجعل سؤالاً أساسياً أكثر إلحاحاً: ما هي الصفات التي جعلت الناطقين باليونانية جديرين بالثناء أكثر من معاصريهم الفينيقيين، والمصريين، والفرس، والإتروسكان، والغاليين، والقرطاجيين، وغيرهم؟ وما الذي جعل الإغريق يعتقدون أن مجموعتهم وطريقة حياتهم أكثر تحضراً من كل هؤلاء الآخرين، وما الذي

أقنع هؤلاء 'البرابرة' المختلفين عموماً بالأخذ بوجهة النظر اليونانية في هذه المسألة؟ ومع سير علاقات القوة خلال العالم القديم فإن السؤال الأهم هو: ما الذي جعل الرومان محبين للأشياء اليونانية بدلاً من أن يعجبوا بالطرق الاتروسكانية، أو البونية، أو المصرية؟

إن أوروبا الغربية تحب أن تعتبر نفسها وريثاً غير مباشر للإغريق، ولكن الروايات الحديثة التي لا تحصى عما كان عليه اليونانيون لا تطرح هذا السؤال، ولا تجيب عليه بالأحرى. بل إنها ببساطة تقوم بمتابعة عمليات إنتاج اليونانيين للمساهمات الطليعية الرائدة في الحضارة الغربية، في الأساطير، والسياسة، والأدب، والفنون، والهندسة المعمارية، والفلسفة والعلم. وهكذا فإن جزءاً من الجواب معطى بصورة ضمنية: وهو أنه ليس بين معاصري الإغريق من ترك سجلاً واسعاً من إنتاجه الثقافي كسجلهم ـ إلا إذا عدّ المرءُ الرومان الذين اختاروا أن يبنوا فوق العمل اليوناني بدلاً من أن يحلوا محله. ويمكن اعتبار معرفة القراءة والكتابة سلاح الإغريق السري.

ولكن هذا لا يمكن أن يكون هو الجواب الكامل. فبعد كل شيء، فإن معرفة القراءة والكتابة كانت هدية لهم من الفينيقيين، الذين كانوا هم ممثلي المبيعات المتنقلين في سلسلة واسعة من المجتمعات المتعلمة في الشرق الأوسط، من مصر في جانب إلى بابل وعيلام في الجانب الآخر. ولكن اليونانيين، بخلاف الفينيقيين، اختاروا أن يستخدموا معرفتهم بالقراءة والكتابة في تسجيل ثقافتهم: فالقدرة على قراءة اللغة اليونانية جلبت في أعقابها سلسلة واسعة من الأعمال الأصلية. فكانت النتيجة كسب اليونانيين الوصول إلى 'فنون الحضارة' بطريقة لا يمكن إلا أن تثير إعجاب الآخرين الذين اتصلوا بهم. فالحضارة، بعد كل شيء، قابلة لأن تكون جذابة عندما ترتبط مع أشياء سارة وممتعة مثل زيت الزيتون، والنبيذ.

ويمكن العودة بالسؤال مرحلةً إلى الوراء: لماذا استطاع الإغريق، الذين يعيشون على الأرض المتاخمة لبحر إيجه، على طرف البحر الأبيض المتوسط، أن يطوروا ويروجوا فنون الحضارة بهذه الطريقة. إن أي جواب على هذا السؤال

يصبح تكهنياً للغاية. ولكن من الملاحظ أن اليونانيين كانوا هم المجتمع اللغوي الوحيد حول البحر الأبيض المتوسط الذي كانت التجمعات فيه كبيرة إلى حد يلغي تكوين مدن. ولكن برغم كونهم متعلمين لم يكن لديهم ميل للتكتل في دول أكبر، وبالتالي للتوحد في إمبراطورية. وربما كان هذا نتيجة للبيئة الجبلية المرصعة بالجزر التي كانوا يعيشون فيها، مما جعل إطعام المجتمعات الصغيرة والدفاع عنها أسهل من حالة المجتمعات الأكبر، ولكن هذا لا يعني أن اليونان قد أصبحت ساحة تنافس شائعة للتطورات الثقافية التي يمكن أن تمتد إلى اليونانيين الآخرين إذا كانت ناجحة أو جذابة ... (كما في حالة الأدب الأتيكي Attic مثلاً)، ولكنها لا تميل إلى إزاحة بعضها بعضاً إلى الخارج. وبهذا المعنى يمكن اعتبار تاريخ اليونان المبكر شبيهاً بتاريخ أوروبا بعد النهضة - أي رؤيته كزواج خصب بين الاستقلال التنافسيّ وبين الاتصالات الجيدة.

وكثيراً ما يبرز - بطريقة خيالية نوعاً ما - زَعْمٌ بأن أعظم مساهمة لليونان في الحضارة اللاحقة هو الديمقراطية، أعلى آلية مخترعة لتحقيق 'الحرية'، وهي فضيلة يزعم اليونانيون دائماً أنهم يهتمون بها. وهذا زعم زائف بالتأكيد: زائف كنظرية عما أعجب الأجانب في اللغة اليونانية التي واجهتهم، وزائف كتفسير لما جعل اللغة اليونانية قادرة على الانتشار بعيداً عن موطنها إلى الشرق والغرب. وقد أشرنا من قبل إلى أن معظم المدن - الدول اليونانية لم تكن أي واحدة منها ديمقراطية أبداً، كما أن الدول الأكبر التي كانت اليونانية لغتها الرسمية والتي تأسست في جميع أنحاء مصر وكثير من أنحاء آسيا بعد غزوات الإسكندر كانت كلها ملكية بلا استثناء. وكانت دولاً بيروقراطية، ليست السيطرة ممكنة فيها للمواطنين المدنيين المعنيين، بل وليست هدفاً مثالياً. وكانت تلك الدول أكبر من أي مدينة - دولة. وعندما انتشرت اللغة اليونانية فإنها لم تحمل معها الخصائص المحتمل أنها حساسة الأهمية في خلق ثقافتها الأصلية المرافقة لها.

والحق أن الخاصية الكبرى للثقافة الإغريقية عبر تاريخها الطويل المستمر منذ القرن الثالث ق.م. كانت هي الرغبة في العودة إلى منتجاتها التقليدية الكلاسيكية، وتقليد شكلها اللغوي، وكذلك أسلوبها ومحتواها بقدر

المستطاع، ولكن ليس إثارة الابتكار والأصالة التي لا بد أنها صاَحَبَتْ كتابتها في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد. إن أي شيء ثبت أنه دائم في التقليد اللغوي اليوناني كانت له علاقة بالنزعة المحافظة الجامدة أكثر بكثير من العلاقة بالانفتاح على الأفكار الجديدة المثيرة ـ هذا مع التخلي جانباً عن مسألة ما إذا كانت الأعمال الكلاسيكية هي فعلاً أفضل الأشياء التي كتبت على الإطلاق. إن تاريخ المجتمع اللغوي اليوناني إن لم يظهر شيئاً آخر، فإنه يظهر أن النزعة المحافظة يمكن أن تكون جذابة أيضاً إذا كان هناك شيء جذاب تتم المحافظة عليه.

ويمكننا أن نرى أن ما كان لدى اللغة اليونانية لتعطيه كان شديد الجاذبية في سياق العالم القديم. فحتى أولئك الذين كرسوا حياتهم العملية المهنية للحدّ من تأثير اللغة اليونانية وإنقاصه أخذوا منها بقدر ما استطاعوا: ومنهم ملوك كوشانا الأفغان، الذين ظلوا يستخدمون اللغة اليونانية على عملاتهم المسكوكة بعد أن أطاحوا بالملوك اليونانيين، والبلدان البارثية والأرمنية التي ظلت تمتع نفسها بالمسرحيات المأساوية الإغريقية، حتى عندما كانت جيوشها تتفوق على طلبة الإغريق من الرومان، والقادة القرطاجيون الذين كانوا يستخدمون اللغة اليونانية للتواصل مع قواتهم ومرتزقتهم. لقد كان اليونانيون بلا شك المتواصلين العظام في عالم البحر الأبيض المتوسط.

ولكن الوكلاء الذين نشروا هذه البضاعة التي لا شك في جاذبيتها في العالم المأهول لم يكونوا يونانيين بالفعل إلا نادراً. بل إن نشر اللغة اليونانية هو درس موضوعي في فعالية الحصول على توصيلة مجانية. فمقدونيا كانت خارج نطاق المجتمع اللغوي اليوناني، ومع ذلك فإن ملوكها زرعوا مستعمرات ناطقة باليونانية على طول الطريق حتى حدود الهند. وكانت الآرامية لغة أكبر عدو للإغريق، وهي الإمبراطورية الفارسية، ومع ذلك فإن استخدام اليونانية لمدة مئتي عام كلغة لأرشيف المحفوظات عبر تلك الإمبراطورية كان يعني أن هناك نموذجاً واضحاً لليونانيين كي يتبعوه في بذر بذور شبكة اتصالات قائمة على اللغة اليونانية حول ممتلكاتهم الجديدة التي حصلوا عليها. وبعد ذلك بمئتي عام كانت

روما، ومعها اللغة اللاتينية، تجتاح حافة الأبيض المتوسط بشكل عاصف، ومع ذلك فإن اليونانية، لغة المستعمرات في إيطاليا الجنوبية تم قبولها بنوع من المساواة مع اللاتينية، واستمرت لتصبح هي البيئة الثقافية الحقيقية للإمبراطورية الرومانية، بمعنى أنه لم يكن أحد من سكان الإمبراطورية قادراً على الاستغناء عنها. وبعد مئتي عام أخرى، كانت المكانس التي تمسح الإمبراطورية ديانات غامضة، وخصوصاً المسيحية، ومع ذلك فرغم أنه لم تنبع أي من هذه الديانات أصلاً من اليونان، فقد كانت لغتها المفضلة هي اليونانية. وهكذا أقامت اليونانية صلةً لا تنفصم مع أعظم حركة في أواخر الإمبراطورية الرومانية، وهي الكنيسة المسيحية. وبضربة حظ سعيد أخيرة فإن هذه الحركة، المتخصصة الآن كمسيحية أرثوذكسية، صارت مفتاح الحفاظ على اللغة اليونانية خلال أربعة قرون من السيطرة التركية، بعد انحلال الإمبراطورية الرومانية في الشرق. وهكذا فإن اللغة اليونانية مدينة بسيرة حياتها اللافتة للنظر إلى المساعدة من أصدقائها عند كل نقطة تحول حساسة طيلة الألفين وثلاثمئة عام الأخيرة.

ومع ذلك فإن من الغريب أنه برغم كل العلاقات الوثيقة مع القوى الثقافية الأخرى (في المجالات العسكرية والإدارية والروحية)، فإن اللغة اليونانية كانت شديدة المقاومة للتأثير من الآخرين الذين اتصلت بهم أو احتكت معهم. وقد رأينا أنه في أقصى التخوم الشرقية، كانت اليونانية مستعدة لأخذ كلمات مستعارة لمواد جديدة مثيرة للاهتمام من الهند(*)، ولكن تأثير الآرامية، شريكتها في الفراش، كان ضئيلاً إلى درجة أنه يمكن إهماله. وفي الغرب فإن مساكنتها للاتينية كلغة رئيسية للإمبراطورية الرومانية أدت إلى حصيلة من الاستعارات المخصصة للقضايا الرسمية والعسكرية، والأمور الإدارية والمالية (مثل أسماء الشهور، وقطع العملة، والتصانيف، والرتب العسكرية، والضرائب) ولكن لم تكن بينها كلمات من الحياة اليومية(**). وكثير من الكلمات التي يتوقع فيها المرء

(*) مثل: "زنجبري"، اي 'الزنجبيل'، و"سكارون"، اي 'السكّر' (انظر الفصل الخامس: 'شخصية اللغة السنسكريتية'، ص 276).

(**) يبدو أن الكلمات التالية قريبة من القائمة الكاملة: "سبيتي"، اي 'البيت' (من الكلمة اللاتينية

استعارات، مثل: "قنصل، سناتوس، أغسطس، إمبراطور" هي في الحقيقة مترجمة في العادة: "هوباتوس" (ومعناها الحرفي 'الأعلى')، "جيروسيا"، أي 'اجتماع كبار السن'، "سيباستوس"، أي 'المبجل' و"أوتوكراتور"، أي وبالمثل فإن الأخذ باللغة اليونانية في المسيحية وأديان الغموض الأخرى قد تركها سليمة بشكل مثير للدهشة، إذا استثنى المرء أسماء الناس والأماكن وكلمات التعجّب والانفعال التهليل، مثل "آمين" و"المجد لله"(*).

ولقد تغيرت الأشياء بعد أن قامت الحملة الصليبية الرابعة بنزع السلطة من اليونانيين. فقد دخلت إلى اللغة اليونانية عناصر لاتينية والتصقت بها، مثل "بانيو"، أي 'الحمّام'، و"باستارو"، أي "النغل ابن الحرام"، و"بيرا" أي 'الجعة'. وبعد ذلك، ضمن العالم الذي يديره الأتراك، أخذت اليونانية تتصرف بالفعل كلغة خاضعة للاستعمار، فامتصت حشداً كاملاً من الكلمات التركية، ليس فقط لمفاهيم جديدة، مثل "تزامي"، أي 'المسجد'، "حاتزيس"، أي 'الحاج إلى مكة'، 'وتاليسسكي'، أي 'المحظية' (من الكلمة التركية أوضا ـ ليك أي المساكنة في الغرفة ـ مربوطة مع حرف تصغير يوناني)، ولكن أيضاً كلمات دنيوية ولا مبرر لها على ما يبدو، مثل "بويجي"، أي 'الدهان' و"تمبليز"، أي 'الكسول'، و"ياقة"، أي 'القبة'، و"بوليكوس"، أي 'الوفير' 'وزقاقي' أي 'الزقاق.' ومنذ ذلك الحين تم إسقاط كثير من أمثال هذه المفردات، أو قمعها بسياسات تخطيط لغوية منذ استقلال اليونان. ولكن التسامح الجديد مع الكلمات المستعارة منذ انهيار الإمبراطورية [البيزنطية الشرقية] هو بحد ذاته دليل على أننا كنا على حق في رؤية التغير في تصور اللغة اليونانية لنفسها في حوالي ذلك الوقت: فبعد

"هوسبيتيوم"، أي 'الخان')، سكامنيو، أي 'المقعد الطويل' (سكامنوم)، "بورتا"، أي 'الباب'، "كامارا"، أي 'الغرفة'، "فيرغا"، أي 'العصا' وربما "آسبروص"، أي 'الأبيض' (من اللاتينية "آسبر"، أي 'الخشن'). قارن مع قائمة الاستعارات الأطول بكثير التي أخذتها اللغة الويلزية (التي كانت على اتصال وثيق باللاتينية طيلة نصف الوقت) (انظر الفصل السابع: 'التشاور: الأساس المنطقي لسيادة اللغة الرومانية'، ص 427).

(*) لقد اقترح بأن الخيار المفضل للكلمة المسيحية المعبرة عن 'المحبة'، وهي كلمة "أغابي"، متأثر بكلمة "أحب" العبرانية (التي يتصادف أن فيها ظلالاً جنسية أكبر مما في الكلمة الإغريقية)، وأن الكلمة اليونانية "سكين"، أي 'الخيمة' متأثرة بالكلمة العبرية "سكين"، أي 'السَّكَن' (مول 1959، ص 186).

تخليصها من مسؤولياتها في الحفاظ على النظام في ممتلكاتها التاريخية، وفي الوقوف كحصن للمسيحية الأرثوذكسية، لم تعد اللغة محفوظة في عزلة واعية كهذه عن جيرانها.

وبعد أن تطورت اليونانية بشكل ذاتي مستقل كمنطقة ثقافية مرتبطة بشكل أساسي بلغة مشتركة، ومجموعة من الآلهة مشتركة، وشعور عام بالقرابة، فرض الامتداد العالمي عليها: فكانت هذه جائزتها على إثارتها لإعجاب القوى الإمبراطورية المقدونية والرومانية بمثل هذه القوة. فمع مرور القرون انحسرت هذه القوى وابتعدت، تاركةً في أعقابها وحدات سياسية واسعة النطاق، والناطقين باليونانية كحرّاس للأمر الواقع لحكم سياسي ليس من صنعهم. فكان رد فعلهم التمسك بجوهر تقاليدهم الخاصة بهم، التي تبين في التحليل الأخير أنها ليست سياسية، ولا حتى فكرية، بل لغوية. إذ إن نهجهم المدني المتميز في الحكومة قد تساقط عندما واجهته وحدات أكبر من المدن - الدول. فقد استسلمت فلسفاتهم العقلانية أو متعددة الآلهة للمسيحية، ولكنهم لم يفقدوا الإيمان أبداً بالقدرات الخطابية لليسياس أو ديموستين، ولا بشعر أسكيلوس أو يوريبيديس، ولا بنثر أفلاطون وكزينوفون. كان ذلك إيماناً غريباً واجهته إمبراطورية متعددة الجنسيات متعددة اللغات. ولكنه خدمهم بشكل مفيد.

وبالنتيجة فإن أنانة اللغة اليونانية وصلت إلى نهايتها مع سقوط إمبراطوريتها المرتبطة بها. فبعد ألفي عام من التركيز الثابت الصامد، فإنها لم تعد مقيّدة بالحفاظ على وحدتها بالتمسك بالاعتقاد بأن معيار الامتياز الثابت الذي لا يتغير في المجال اللغوي إن لم يكن في المجال الروحي هو لغة مدنية إغريقية واحدة في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد. ومن منظورنا في القرن الحادي والعشرين وخاصة في مجتمع لغة كالإنكليزية التي حررت نفسها من عبادة الكلاسيكيات القديمة، سواء أكانت بلغتها أم بأي لغة أخرى، فإن من الصعب رؤية قيمة حقيقية في هذه الأسطورة المركزية. ولكن الإنجاز الإغريقي يقف كنصب تذكاري مثير للاهتمام لإحدى طرق الإبقاء على تقليد لغوي، حتى ولو كان واسع الامتداد، وموحداً عن وعي بالذات. إن غياب أي انقسام خطير في

اللغة اليونانية مثير للدهشة تماماً حتى يومنا هذا. فاللغة اللاتينية خلفتها حفنة من التقاليد اللغوية الوطنية المنفصلة التي ابتعدت عن جذورها المشتركة في لاتينية روما، لنقل في القرن الثاني ق.م. ولكن اليونانية ـ حتى كما هي محكية على الشواطئ التركية للبحر الأسود أو في القرى النائية في جنوب إيطاليا ـ تعرف ما هو مركزها المشترك. فالتزلف للهجة الأتيكية Attic نجح فعلاً، في البرنامج الأكبر لضمان بقاء اليونانية لغة لمجتمع وحيد.

7

الصراع على أوروبا:
الكلت، والرومان، والألمان، والسلاف

[أهل بلاد الغال] مختصرون وغامضون في محادثتهم، وغالباً ما يتكلمون بألغاز فيها إشارات تلميحية.

ديودورس الصقلي، 31:5

ثلاث نُدُرات من الوفرة: نُدْرة الكلمات الرقيقة، ونُدْرة الأبقار في المرج، ونُدْرة الندامى عند شرب الجعة.

ثلاثيات إيرلندة، تحرير: كونو ماير، ص 93

ولم يكن مناسباً لحكومة الرومان ... إذ كان يسيطر عليهم أكثر من أي كان مقت لطبيعة القوة المطلقة نفسها ولاسمها ('الاستبداد').

آريان، حملة الإسكندر، 7 ـ 15: 6

ولكن هذه ملكية، ولا يمكن التسامح معها بأي طريقة.

شيشرون، رسالة إلى أتيكوس، 2 ـ 12: 1

السلام مكروه عند الأمة [الألمانية]، فهم يميزون أنفسهم أكثر في الأزمة ولن تراهم بأعداد كبيرة إلا وقت الحرب.

تاسيتوس، جرمانيا، 14: 2

خلع من ذراعه سواراً ملتوياً مشغولاً بذهب مسكوك، أعطاه إياه
الملك، سيد الهون: 'أعطيك هذا الآن، عربون صداقة'.
فأجاب هادوبراند، ابن هيلدبراند:
'تؤخذ الهدايا، نقطة مقابل نقطة'.

هيلدبراندسليد، 33 ـ 8

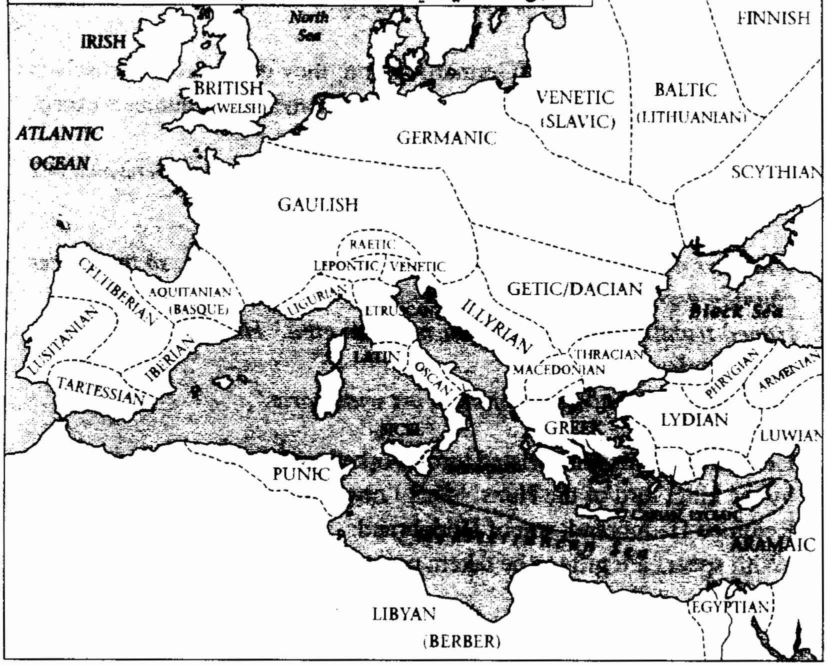
تقلّبات الحظ

إن تاريخ أوروبا، على مدى الثلاثة آلاف عام التي نملك عليها أدلة، تسيطر عليه الحظوظ المتغيرة لأربع أسر لغوية وثيقة التقارب، هي: الكلتية، والإيطالية، والجرمانية، والسلافونية. ففي كل عصر، كان تقدمها عبر القارة حربياً أو شبيهاً بالحرب. وهناك وحشية مثيرة للاكتئاب في البطوليات التي يتمجدون بها جميعاً. ولكن مثل اللغات نفسها، فإن الثقافات التي يرعونها تميز شعوباً مختلفة، كل منها لديه قيم مختلفة.

يركز هذا الفصل على الجزء الحساس العصيب من ذلك التاريخ، الذي شهد تحولاً كبيراً في اللغة المحيطة به، في جميع أنحاء أوروبا الغربية، من الكلتية إلى اللاتينية. وكان هذا التحول اللغوي يعود بشكل لا غموض فيه إلى الغزو العسكري. كما أن وضوحه المحض يعيش مستمراً حتى يومنا هذا في التصور اليومي لما يغير اللغات: وهو السيطرة المدعومة بقوة عسكرية واقتصادية. ومع ذلك، فإن هذا الغزو نفسه قد تم سحقه، وكأنما كان ذلك لتقديم درس موضوعي هادف في عدم كفاية هذا الرأي البسيط. فبعد خمسمئة عام من الاستقرار، انقلب الميزان العسكري في كارثة عسكرية لم يكن منها شفاء: بل إنها أقامت نمط الحدود السياسية والوطنية التي استمرت حتى يومنا الحاضر. ومع ذلك، فبينما كانت النتيجة اللغوية لهذا كله صفراً في الغرب، فقد ثبت أنه حاسم في بريطانيا وفي البلقان.

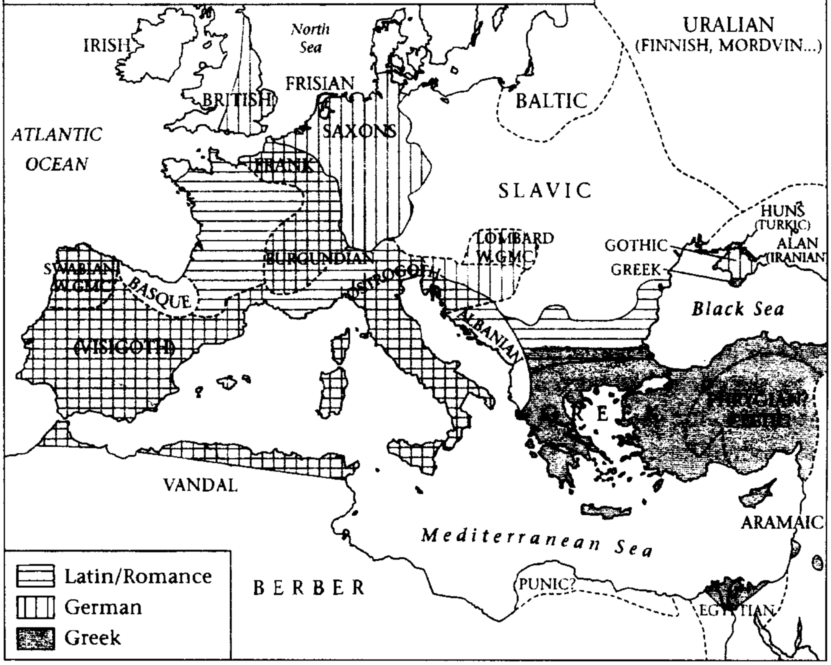
وعند النظر إلى الأمر ككل، فإن تاريخ الألف عام العصيبة هذه، من حوالي العام 500 ق.م. إلى العام 500 م فيه تناظر معين. فهو يبدأ وينتهي بانتصار مجتمعات عسكرية متنقلة منظمة في علاقات قرابة. وفيما بينهما نرى انتصار مجتمع مدني وحّد أوروبا، ونظم دفاعاتها وزودها باتصالات جيدة طيلة الوقت، من خلال طرق محفوظة جيداً، وطرق بحرية محروسة بالدوريات جيداً.

التوزع اللغوي في أوروبا ـ 500 ق.م.



ففي أول قرنين ونصف القرن، سيطر على القارة ثم استقر فيها مُغِيرون من بلاد الغال (تدعمهم أفضل تكنولوجيا الأسلحة المتوفرة، في الحديد). ولعلهم قد شاركوا حينئذ في تجارة واسعة النطاق في أعالي وأسافل الساحل الأطلسي، فانتشرت لغتهم كذلك. ثم، على مدى فترة من مئتين وخمسين عاماً تم سحقهم تدريجياً ولكن بشكل منهجي ثابت على يد عدو أفضل تنظيماً، ويعي ذاته من الناحية الاستراتيجية، وهم الرومان. ومن المفارقات أن هؤلاء المغيرين لا يمكن سحقهم بشكل نهائي حاسم إلا عندما يبدؤون في توحيد وتنظيم أنفسهم بشكل مشترك للدفاع (تحت إمرة فيرسينجتوريكس). وتتبع ذلك أربعمئة سنة من الاستقرار، بينما تقاوم الإمبراطورية الرومانية بشكل فعال ضغطاً مستمراً للهجرة من ألمانيا. وتحت ضغط أعظم (نابع في شمال آسيا وشرقها)، تفشل المقاومة، بصورة متقطعة في أول الأمر، ثم بصورة كلية. وينقضي القرن الأخير من هذه

التوزع اللغوي في أوروبا ـ 500 م.



الألفية في مراقبة نتائج السماح لمجموعات جديدة من المغيرين بالعبور كما يشاؤون خلال الممتلكات الإمبراطورية القديمة.

وعلى وجه العموم فإن التغيرات اللغوية الكبرى في هذه الفترة، ومنها انتشار اللاتينية عبر إيطاليا، وإلى داخل بلاد الغال وإيبيريا، وانتشار الإنكليزية في بريطانيا، والسلافية في البلقان، هي أفضل علامات تغير ثقافي جدي خطير. وإن الحالات التي فشل فيها التغير اللغوي الجدي في المجيء في أعقاب الغزوات تفضح كون كثير من المجد العسكري شيئاً أجوف ـ كالغزوات التي شنها في أوروبا الغربية كل من الفرنجة، والفاندال، والفيزيقوط، وحتى غزوات الرومان والنورمان في بريطانيا.

ونلتفت الآن لننظر إلى هذه الحكاية بمزيد من التفصيل. إن نسيان القرون الحديثة المعروفة جيداً، ورؤية هذه اللغات كما ظهرت في البداية يتطلب

بعض الجهد. ولعل أفضل طريقة للبدء هي التأمل في كيفية ظهورها للمتفرجين اليونانيين، الفضوليين دائماً، ولكنهم في هذه الحالة لم يكونوا متورطين.

المتصارعون: الآراء اليونانية والرومانية

الكلت

في البداية رأي اليونانيون الكلت كإحدى الأمم التي تؤطّر العالم. فهيرودوتس الذي كان يكتب في القرن الخامس قبل الميلاد يقول إنهم كانوا يعيشون عند منبع نهر إيستروس (الدانوب) وإلى أبعد مكان في الغرب من جميع الأمم الأوروبية، ماعدا السنيتيين Cynetes[1]. فيضعهم وراء أعمدة هرقل، وبالنتيجة على الشاطئ الأطلسي حيث تقع البرتغال اليوم، تماماً كما فعل المؤرخ إيفورس[2] بعده بقرن، الكلت في الغرب والسكيثيون Scythians في الشمال. وكان هناك شيء من الأسطورة العادية المألوفة في هذه القصة يذكرنا بالصورة الصينية للعالم، التي كانت ترى العالم المعروف، المتحضر محاطاً من جميع الجهات ببرابرة مجهولين (انظر الفصل الرابع: 'العلاقات الخارجية'، ص 230). ولكن إن كان ذلك كذلك، فإن هذه الصيغة المألوفة كانت تخميناً محظوظاً. فقد كان في ذلك الوقت ناطقون بالكلتية على طول الطريق عبر أوروبا، من منبع الدانوب إلى شمال شبه جزيرة إيبيريا.

كان أول ظهور حقيقي لهم في حكاية استقبال الأمير الشاب الإسكندر المقدوني لسفراء كلتيين من ساحل البحر الأدرياتيكي في العام 335 ق.م. ويظهر أن راوي الحكاية كان صديقه بطليموس، الذي تصادف أن أصبح ملك مصر فيما بعد[3]. فهو يقول إنهم كانوا رجالاً كباراً، في حجم أجسادهم وكذلك في رأيهم بأنفسهم، وقد أظهروا ذلك بعبارة مشهورة. فقد عرضوا صداقتهم على الإسكندر - ولم يكن قد بدأ ببناء إمبراطوريته بعد - ولكن عندما تحداهم بأن يقولوا إن كانوا خائفين، أعلنوا أن هناك شيئاً واحداً فقط يملؤهم بالفزع، وهو فكرة أن

السماء قد تسقط عليهم ذات يوم. فظلت هذه العبارة متداولة كوضع سخرية من الكلام الكلتي المضخَّم الطنان. ولكن يبدو أنها كانت سوء فهم لصيغة يمين يحلف به الكلت. فبعد ألف سنة من تلك الواقعة، كان الإيرلنديون لا يزالون يلزمون أنفسهم بصيغة قسم تقول: 'ما لم تسقط القبة الزرقاء بوابل من نجومها على الأرض، أو ما لم يطلع البحر من حدوده الزرقاء المليئة بالأسماك ليغمر وجه العالم، أو ما لم تهتز الأرض بزلزال ...'[4].

وقد اكتسب الكلت فيما بعد سمعة معينة (وهم معروفون أيضاً باسم الغال: "غالاتاي" باليونانية، و"غالي" باللاتينية - ويعلق قيصر بالقول إن "كلتاي" هي كلمة الغاليين أنفسهم)[5]. وهي سمعة يرويها بالتفصيل المؤرخ ديودورس الصقلي، الذي كان يكتب في أواخر القرن الأول ق.م. ولعله كان يتبع البحوث الشخصية التي قام بها العالم الإغريقي بوسيدونيوس الواسع الإطلاع[6]. فمن الناحية الجسدية كان من المفروض أن يكون الكلت طوالاً، ورشيقين، وشقراً، ووسيمين. وكثيراً ما كانوا يبيّضون شعرهم بالكلس بشكل مصطنع. ويربي نبلاؤهم شوارب تغطي أفواههم وتعمل كمصفاة طبيعية للنبيذ (وهذه النكتة بالذات عمرها ألف سنة). وكان صوت لغتهم عميقاً وخشناً تماماً. ولم تكن تنقصهم حاسة التمييز أو الدهاء، ولكن كان ينقصهم الثبات على الهدف. وكانوا يستمتعون بالكلام الموجز الجامح والتحدث بالحكم والأقوال المأثورة والألغاز. ومع ذلك، كانوا يتحدثون بإسهاب عندما يحين وقت تكبير أنفسهم وتصغير أحد خصومهم، عند التمهيد للقتال. وكانوا يرتدون ملابس فاقعة الألوان، مع معاطف فضفاضة رسمت عليها أنماط من المربعات، وكان مما يميز العصر القديم في العالم أن الرجال كانوا يرتدون سراويل، بنطلونات يسمونها "براكاي"(*).

الألمان

أما بالنسبة للألمان، فقد كان الإغريق يميلون للخلط بينهم وبين الكلت: فبعد كل

(*) الواقع أن هذه الكلمة مستعارة من الجرمانية، فبالإضافة إلى كلمة "بريكس"، أو "بريتشيز"، فإنها كامنة تحت الكلمة الكلتية "بروغز"، أي 'الحذاء'.

شيء فإنهم كانوا جميعاً يعيشون في مكان مّا إلى الشمال الشرقي. ولم يكن أحد قد فكر بعد في البحث عن فروق هامة بين مثل هذه الألسنة البربرية التي لا يمكن التغلغل إلى لغاتها(*). وبالنسبة للأقدمين، فإن الملامح المميزة بوضوح، لم يكن من الممكن أن تكون سوى ثقافية. أما من الناحية اللغوية فإن أفضل ما يمكن تحقيقه هو ملاحظة كون كل قبيلة تجد صعوبة في فهم قبيلة أخرى.

وحتى سترابو اليوناني، الذي كان يكتب في القرن الأول الميلادي، بعد أن كان قيصر قد أخضع بلاد الغال حتى نهر الراين، لم يستطع أن يعطي وصفاً مطولاً للألمان(7). فقد كانوا يعيشون إلى الشرق من حوض الراين. وكانوا أكثر توحشاً وضخامةً وشقرة من الكلت. ولكنهم يشبهونهم جداً فيما عدا ذلك. والواقع أنهم ظهروا لسترابو متشابهين بشكل جوهري إلى درجة أنه علل أصل تسميتهم "الجرمان" بأنها هي المقابل اللاتيني لصفة [الكلت] 'الخارجين البعيدين'. ويبدو أن يوليوس قيصر كان هو المسؤول عن وضع الراين كخط فاصل. ولكن لا توجد أدلة تذكر، في الآثار أو في النصوص الخطية المكتوبة، لدعم تمييزه هذا. ولعله اعتبر النهر حداً طبيعياً ملائماً لغزواته. ومع ذلك فإنه سرعان ما أصبح فعلاً هو الحد الدائم للإمبراطورية الرومانية. وكان معنى هذا أنه منذ ذلك الحين سينقسم الغاليون والجرمان على طول هذا الخط، سياسياً إن لم يكن عرقياً.

وكان رأي قيصر هو أن المجتمع الجرماني أبسط من مجتمع بلاد الغال. فهو بدون زراعة، ولكنه مستقطب أكثر حول البسالة والبراعة العسكرية، وهو أقل قدرة على تشكيل مجتمعات واسعة النطاق. ولعل قيصر قد كشف بهذا سر نجاح الجرمان على المدى الطويل في صدّ الغزو الروماني.

وبعد ذلك بمئة وخمسين عاماً أعاد تاسيتوس تأكيد الفصل بين الغال والجرمان عند نهر الراين، وذلك في مقالته المعنونة "جرمانيا"، رغم أنه لاحظ بأن

(*) الواقع أنه لم يتم البحث عن هذه الفروق إلا في العام 1599، عندما صنف جوزيف جوستوس سكاليغر اللغات اللاتينية، واليونانية، والجرمانية، والسلافونية، من خلال الكلمات المختلفة التي تستخدمها كل لغة لتعني "الله".

بضع قبائل جرمانية قد عبرت نهر الراين. وقدم أيضاً دراسة تقليدية كلاسيكية لشخصية المجتمع الجرماني كما فعل بوسيدونيوس وقيصر من قبله لشخصية مجتمع بلاد الغال. فرأى الجرمان كمجتمع من الأسر الصغيرة المنعزلة، التي تشعر بالازدحام إذا رأت الدخان يتصاعد من مدخنة جيرانها، ولو من على بعد. وهم لا يجتمعون إلا لغرض نبيل هو كسب المجد في الحرب. وقد أعجب كثيراً بنشأتهم القائمة على المساواة، واللياقة البدنية في الظروف الخشنة القاسية، والأخلاقية البسيطة.

ونحن نعرف الآن، على أساس النصوص المكتوبة المعاصرة من بلاد الغال، ومن التطور اللاحق للغات إلى أسر متميزة من الكلتية والجرمانية، أنه كانت هناك انقسامات لغوية كبيرة وملموسة بين الكلت والجرمان. فهناك نصوص على نصب تنكارية بلغات كلتية متميزة (بأبجديات إيبيرية، وإغريقية، وإتروسكانية، ورومانية) من القرون الأولى قبل الميلاد والقرون الأولى بعد الميلاد، من جميع أنحاء إيبيريا الشمالية، وبلاد الغال، وإيطاليا الشمالية، وحتى من ألمانيا الجنوبية (ولو أنها بأسماء كلتية فقط)، في مانشنغ على الدانوب. وبالمثل هناك نصوص جرمانية متميزة (مكتوبة بأبجدية رونية runic) عثر عليها على أشياء صغيرة محمولة كالأسلحة والدبابيس، من سلوفينيا في القرن الأول قبل الميلاد إلى الدانمرك بعد ذلك بمئتي عام. ومن الأدلة القليلة المتفرقة للغاية يبدو أن تمييز قيصر بين الغالية والجرمانية كان حقيقياً. ولكن كان هناك تداخل كبير بين مجال اللغات في المنطقة التي تشكل اليوم ألمانيا الغربية والنمسا.

الرومان

إن الشيء المثير للاهتمام أكثر من عجز الإغريق عن تمييز جوهر ما هو غالي وما هو جرماني هو موقفهم المتطور إزاء الرومان المنافس الثالث على الانتشار اللغوي على امتداد أوروبا الغربية.

ليس هناك شيء يعطي تصوراً مسبقاً عن مصير روما في الأدب الكلاسيكي اليوناني. ويعود تاريخ أول ذكر باق لها إلى القرن الرابع قبل الميلاد،

وفي مقطوعة لأرسطو[8]. وهو يذكر أيضاً جيرانها الأوسكان ("أوبيكوي" المعروفين أيضاً باسم "الأوسون")، في مناقشة عالمية عن أصول العشاء الجماعي، مستشهداً بمؤرخي المستعمرين اليونانيين. ولكنه لا يذكر الدستور الجديد جذرياً الذي كان الرومان قد تبنوه في القرن الماضي، والذي يزيل الممالك، ويقيم جمهورية تحت المساواة المتوازنة لقنصلين منتخَبَيْنْ.

ومن الواضح أن أول اليونانيين الذين التقوا بناطقين باللاتينية كانوا المستعمرين. ولعلهم اعتبروهم شيئاً من اللون المحلي بين صفوف الأتروسكان الذين كانوا يسيطرون على جانب الأرض اليابسة من المستوطنات اليونانية في بيثكوزاي (إيشيا) وكايم (كوماي). وإذن فقد كان المستعمرون اليونانيون هم الذين شهدوا البروز التدريجي لروما على مدى خمسمئة عام، باعتبارها المدينة الرئيسية في منطقة لاتيوم، من السيطرة الإتروسكانية إلى الاستقلال، ثم إلى النفوذ القيادي الآمر بين الأمم الأهلية في إيطاليا. وهناك قصة[9] تقول إنه في العام 323 ق.م. أرسل الرومان واحداً من مفوضيهم الكثيرين فذهب إلى بابل لتهنئة الإسكندر، السيد الجديد للإمبراطورية الفارسية. فإن كان ذلك صحيحاً، فإنه يظهر بأن الرومان ربما سمعوا إشاعات بأن الإسكندر كان يخطط فيما بعد للتوجه باهتمامات غزوه إلى الغرب. وكان ذلك قبل مئة وخمسين عاماً من إظهار الرومان أي اهتمام جاد بشرقي البحر الأبيض المتوسط.

كان اليونانيون مسحورين بطرق روما للفوز في السياسة العالمية، فبدؤوا على نحو نموذجي بالتنظير لنوع من التفسير. وكان بوليبيوس قد استفاد إلى أقصى حد من نفيه من اليونان إلى إيطاليا في العام 167 ق.م. (وكان أبوه سياسياً أخايوياً بارزاً) فراح يتعرف على رجال النخبة الرومان. ثم كرس جزءاً كبيراً من حياته حول 'الطريقة ونوع الحكومة التي مكنت روما من إخضاع العالم المأهول كله لحكم الرومان..'[10]. وفي آخر الأمر، فبالرغم من معرفته كثيراً للأحداث والدوافع بتفاصيل شديدة الدقة اعتباراً من العام 220 ق.م. فإنه لا يقدم جواباً بسيطاً على سؤاله. ولكنه يركز فعلاً على الانطباع الأخلاقي المعنوي الذي تركه الرومان: 'إن الإيطاليين عموماً لديهم امتياز طبيعي على الفينيقيين والأفارقة

في القوة الجسدية والشجاعة الشخصية، ولكن في الوقت نفسه فإن مؤسساتهم تسهم بقوة كبيرة في تغذية روح الشجاعة في شبابهم'[11]. وهو يستشهد أيضاً بخوف الرومان من العقاب الإلهي بعد الموت، ولو أنه قد يكون ما ورائياً، للحث على رعاية الشرف والنزاهة: 'وعلى أي حال، فإن النتيجة أنه بين اليونانيين، بمعزل عن أي شيء آخر، فإن حَمَلة المناصب العامة لا يمكن الوثوق بهم للحفاظ على موهبة واحدة، حتى ولو كان عندهم عشرة محاسبين وعشرة أختام، وضعف هذا العدد من الشهود، أما بين الرومان فإن قضاتهم يتعاملون مع مبالغ كبيرة من المال ويؤدون واجبهم بدقة ويقظة لأنهم قد أعطوا على ذلك كلمتهم وحلفوا اليمين'[12]. فقد يكون الرومان أقل صقلاً، ولكن كان فيهم شيء أثار إعجاب الإغريق.

وبعد ذلك بمئتي عام، كانت مصر وسوريا وآسيا الصغرى وبلاد الغال قد أضيفت إلى الممتلكات الرومانية. ولا بد أن السيطرة الرومانية قد بدأت تظهر كحقيقة من حقائق الطبيعة. ومع ذلك فلم يفكر اليونانيون بالرومان باعتبارهم على قدم المساواة مع أنفسهم. ففي وسط استعراض لجغرافية العالم ككل، يستمر سترابو في رؤية إيطاليا الجنوبية خارج القطاعات اليونانية المحصورة في تارنتوم ونابولي وريجيوم باعتبارها المنطقة البربرية، والسبب في ذلك بصراحة هو استيلاء الرومان على جنوب إيطاليا[13].

ومن المفارقة أن هذه المنطقة الجنوبية في إيطاليا هي التي احتفظت بلغتها الخاصة بها حتى القرن الأول قبل الميلاد، وهي لغة عرفها الرومان باسم أوسكان، وعرفها الإغريق باسم أوبيك. وهذه اللغة لها صلة باللاتينية ولكنها تختلف عنها كاختلاف الألمانية عن الإنكليزية، وكانت ذات مرة محكية على نطاق أوسع من اللاتينية بكثير، فقد كانت مثلاً لغة السابين sabines، منافسي الرومان في وقت مبكر (والذين اشتهر عن الرومان بأنهم سرقوا نساءهم) وكذلك لغة السامنيين Samnites.

والواقع أن اليونانيين، عندما كانوا يريدون الحطّ من قدر سادتهم الرومان، كانوا يحبون أن يشيروا إليهم باعتبارهم "أوبيكوي" opikoi. وقد تذمر من ذلك

السناتور الروماني ماركوس كاتو الذي يضرب المثل بتشدده، فقال عن الإغريق: 'إنهم يستمرون في تسميتنا برابرة، ويهينوننا ببذاءة أكثر من الآخرين بإطلاق اسم أوبيك *opic* علينا'[14]. وكانت النقطة في هذا المطعن هي نقص التعليم، لأن الكلمة كانت قد أعيدت استعارتها إلى اللاتينية باعتبارها رمزاً للسخرية من الجهل والأمية. ويتحدث شاعر الهجاء الروماني جوفينال عن سيدة متعالمة توبّخ صديقتها بكلمة *'opic'* لأنها استخدمت الكلمة الخطأ[15]. فكانت *'opic'* كلمة أسيء استعمالها. وكانت هذه مفارقة قاسية. فهل نسي الرومان أن أول شاعر كيَّف الأوزان اليونانية للاستعمال في الشعر الروماني كان هو نفسه ناطقاً بلغة الأوسكان، وهو كوينتوس إينيوس؟ ولقد كان إينيوس يحب أن يتفاخر بأن لغاته الثلاث تعطيه ثلاثة قلوب[16]. كان لسان أمه هو الأوسكان، عندما نشأ في كالابريا، في كعب إيطاليا، وكان يعرف اليونانية لأن مدينته المحلية الكبيرة كانت تارنتوم، وكان تعلم اللاتينية أثناء خدمته في الجيش الروماني في الحرب ضد هنيبعل. وبعد ذلك بمئتين وخمسين عاماً، كانت آخر أصداء لغة الأوسكان الخافتة لا تزال مسموعة في العروض السنوية لفن التمثيل الساخر بالحركات والإيماءات في روما[17].

السلاف

إن محاولة الحصول على رأي يوناني في الرومان لمقارنته برأيهم في الكلت أو الألمان هي - بطريقة ما - غير مجدية. فربما كان الكلت والألمان غرباء ممتعين. ولكن بعد القرن الثاني ق.م. أصبحت العلاقة بين اليونانيين والرومان أشبه بزواج (انظر الفصل السادس: 'ترحيب روماني: انتشار الإغريقية عن طريق الثقافة'، ص 355). ومن جهة أخرى فإن السلاف لم يصبحوا عاملاً في خريطة أوروبا اللغوية إلا عندما فرضوا الشعور بوجودهم بالقوة على اليونانيين. ومن المفهوم أنه لا توجد نظرة متعمقة متعاطفة معهم في الأوصاف اليونانية المبكرة، التي كتبت بعد ذلك بوقت طويل على أية حال، عندما كان السلاف يضغطون على البلقان وعلى اليونان نفسها (انظر الفصل السادس: 'تلميحات عن التدهور'، ص

371). غير أنه قبل ذلك كانت لدى تاسيتوس بعض الملاحظات التي أبداها (في كتابه "جرمانيا"، في العام 98 م) حول أسلافهم، الفينيتي (الذين عرفوا فيما بعد باسم الوند، أو الصرب) والفني (الذين أعطي اسمهم فيما بعد للفنلنديين ولكنهم ربما كانوا من السلاف). يقول تاسيتوس:

> إن قبائل بيوسيني، وفينيتي، وفيني، أتردد في تصنيفهم كجرمان أم سارماتيان ..[18]. فالفينيتي جلبوا كثيراً من العادات من السارماتيان: فهم يغزون مجال الغابات والجبال كله بين البيوسيني [في الجنوب] والفيني [في الشمال]. ولكنهم أكثر شبهاً بالجرمان، إذْ إنهم يبنون بيوتاً، ويستخدمون الدروع ويحبون أن ينتقلوا مشياً على الأقدام وبسرعة: وهذا كله مختلف جداً عن السارماتيان، الذين يعيشون في عربات وعلى ظهور الخيل. إن وحشية الفيني مذهلة، وفقرهم مخيف: فليس لديهم أسلحة، ولا خيل، ولا بيوت: وهم يعيشون على العشب، ويرتدون الجلود، وينامون على الأرض، وموردهم الوحيد هو السهام، يشحذونها بالعظم لانعدام الحديد. والصيد يقيم أود رجالهم ونسائهم. وهم يرافقون بعضهم بعضاً في كل مكان. وليس لأطفالهم مأوى من الوحوش أو زخات المطر سوى الأغطية المصنوعة من الأغصان، وهي التي يعود إليها الشباب، ويلجأ إليها العجائز. ولكنهم يعتقدون أن هذا أسعد من التأوّه والمعاناة في الحقول والعمل في البيوت، والبحث عن حظوظهم وحظوظ الآخرين في أمل وخوف. وهم لا يهتمون بالناس ولا بالآلهة، ولكنهم حققوا شيئاً فيه صعوبة بارزة، وهو عدم الحاجة إلى الرغبة في أي شيء[19].

ويظهر الفينيتي أيضاً في صفحات بطليموس، في منتصف القرن الثاني الميلادي، تحت اسم "الوينيداي"، باعتبارهم 'أمة كبيرة جداً، تحتل سارماتيا على طول الخليج الفينيتي كله' والظاهر أنهم كانوا يعيشون عندئذٍ على ساحل بحر البلطيق[20].

الرون: البروز المندفع للكلت

الرون: (أ) شيء خفي أو سحري، غامض، معنى مخبأ، (ب) سر، (ج) أفكار أو رغبات سرية، أو نية، وغرض، (د) وعي كامل، معرفة (هـ) عزيز، محبوب.

الأكاديمية الملكية الإيرلندية، معجم اللغة الإيرلندية

إن أصول الكلتية مبهمة، ولكن عند السماع بها للمرة الأولى، كانت هذه الثقافة قابعة في قلب أوروبا الغربية.

من الناحية الأثرية فإن هوية الكلت متطابقة مع الثقافة، أو بالأحرى مع الثقافات المتعاقبة المتمثلة أولاً في موقع هالشتات في النمسا (الذي يعود تاريخه إلى الفترة من القرن الثالث عشر إلى القرن السادس ق.م.) ثم في موقع لاتين على بحيرة نوفشاتل بسويسرا (من القرن السادس إلى القرن الأول ق.م.). وهذان الموقعان مع مواقع مشابهة يحددان طريقة الحياة في العصر الحديدي كما عاشتها أوروبا الوسطى. وبضائعهم المادية، المحفوظة جيداً بالملح والأرض المستنقعية السبخة على التوالي في الموقعين، تشمل الأسلحة، والأواني البرونزية والخزفية، والمجوهرات، والملابس، والأدوات الخشبية، والدبابيس والأبازيم، والأمواس، والمركبات ذات العجلات. ويظهر فيها كثيراً أسلوب الزخرفة بالتواءاته ودوائره اللولبية المعقدة التي لا نزال نعتبرها كلتية.

هذا إذن هو ما يحدد موطن الكلت عندنا. فماذا عن وجودهم اللغوي؟

آثار من اللغات الكلتية

إن أطول الأدلة ديمومة على انتشار اللغات الكلتية وأوسعها ذيوعاً هي أسماء الأماكن عندهم. ففيها إحساس معين. فالمدن التي أقامها الكلت كثيراً ما تلحق بأسمائها زوائد مثل "دونم"، أي 'قلعة'، و"بريغا"، أي 'تل'، و"ماغوس"، أي 'سهل' و"بريفا"، أي 'عبور'، و"بونا" أي 'مستوطنة' أو 'ينبوع.' ولدى الكلت أيضاً نزعة متميزة لمدح الذات: "سيغو"، أي 'القوي' و"أوكسيلو" أي 'العالي'. ومثل هذه الأسماء يمكن العثور عليها من شمال بريطانيا (مثل أوكسيلودونم

وسيغيندونم على جانبي سور هادريان) إلى أقصى جنوب إيبيريا (مثل كايتوبريغا ـ سيتوبال، جنوب لشبونة تماماً)، ومن القنال الإنكليزي (مثل روتوماغوس ـ روين) إلى الدانوب (مثل فندوبونا ـ فيينا، سينجيدونم ـ بلغراد). ولكن العقبة هي أن مثل هذا التعليل لأصل الأسماء سهل إلى درجة أنه ربما يكون قد جعل بعض المدن تُعْطىَ أسماء كلتية لأسباب عاطفية صدفة. ومن الملاحظ أن كثيراً منها قد أوجدت تحت الحكم الروماني: مثل إيوليوبونا، أوغستودورم، وقيصاروماغوس في بلاد الغال، وفلافيوبريغا، وإيوليوبريغا في إسبانيا. إن اسم المكان وحده ليس دليلاً كافياً على أن اللغة التي اشتق منها كانت محكية عندما أطلق ذلك الاسم.

ومن الممكن أيضاً أخذ شهادة الناس، وهم في العادة يونانيون أو رومانيون، الذين قابلوا الكلت أو عرفوهم في أجزاء مختلفة من أوروبا. ويسجّل سترابو أن ثلاث قبائل من الغال، هي البويي(*)، والتورسكي، والسكورديشي، كانت مختلطة مع التراسيين، مما يجعل موضعهم نحو البلقان. وهو يقول أيضاً إن السكورديشي كانوا يعيشون حيث يمتلئ نهر نوروس قرب كولابيس فيتدفق إلى الدانوب[21]. وإن نظرة إلى الخريطة الآن تبين أن النهر الذي يمتلئ قرب كو(لـ)با هو في الحقيقة نهر سافا، وهو يتدفق إلى الدانوب عند سينجيدونم، أي بلغراد الحديثة. وسترابو حريص تماماً على تمييز أهل الغال من الأعراق الأخرى، فيلاحظ مثلاً أن الباستارناي يمكن اعتبارهم من الجرمان (7 ـ 3: 17)، وأن الداسيان والجيتاي يتكلمون اللغة نفسها (7 ـ 3: 13). ورغم أنه لا يشير صراحة إلى لغة أهل الغال هؤلاء، فإنه يبدو أن نوعاً من اللغة الغالية كان محكياً في القرن الأول الميلادي، ليس فقط في ألمانيا الجنوبية، بل أيضاً نزولاً فيما هو الآن كرواتيا وصربيا(**).

(*) كان البويي Boii معروفين جيداً كقبيلة مترامية الأطراف في بلاد الغال، لهم علاقات مع بوهيميا (التي أخذت اسمها منهم 'Boii - home' بالألمانية وليس الكلتية)، ولهم مستوطنة كبرى في شمال شرق إيطاليا (حول مدن حديثة مثل بولونا وبارما ومودينا). وبطريقة ما ظهروا كحلفاء لقبائل هالفيتي في بلاد الغال الجنوبية. وقد هزمهم قيصر في بيبراكت في العام 58 ق.م. واسمهم معناه 'الضاربون' حسبما يقول لامبرت (1997، ص 44).

(**) ليس من الواضح أبداً كيف كانت لهم علاقة مع الكلت في أوروبا الغربية، فإن يوغوسلافيا

وأخيراً فإن هناك الأدلة على ما هي اللغات المحكية اليوم، وأين، في يومنا هذا. فاللغات الكلتية المحكية في الجزر البريطانية حتى اليوم هي السليلة المباشرة للألسنة التي سمع عنها الرومان على مدى القرون الأربعة التي كانوا يحتلون بريطانيا أثناءها، وقيامهم بزيارة إيرلندا بين حين وآخر. وهناك أيضاً تقليد مستمر من اللغة الكلتية في زاوية بريتون في شمال غرب فرنسا، حتى إذا ظل غير واضح إن كانت هذه غير محكية، أي إن كانت بريتون استمراراً للغة بلاد الغال أو إعادة استيراد للغة من كورنويل في الألفية الأولى بعد الميلاد. ربما كان الأمران معاً، في عملية إعادة للخلط والمزج.

ولذا فمهما كانت الأسفار التي جاءت بالناس إلى هناك عند حلول القرن الثالث قبل الميلاد، فإن لدينا دليلاً على أن خليطاً متنوعاً من الناس الناطقين بالكلتية على الأرجح قد سيطروا على أوروبا الغربية وجزرها، ولكنهم توسعوا بالضبط حول جبال الألب شمالاً وجنوباً حتى دالماسيا. وكانت أغلبيتهم من السكان المستقرين، الذين يعيشون في قرى زراعية، مع طرق تربط بينها. وقد أظهرت اللاتينية واحدة من خصائص بلاد الغال المعاصرة عن طريق استعارةٍ (تمت على وعي تام على ما يبدو) لكلمات كثيرة من لغة الغال للدلالة على العربات ذات العجلات، مثل "بِنّا"، أي 'عربة بمقعد وحيد يجرها حصان واحد' و"كاروس"، أس 'عربة يدوية'، و"سيزيوم"، أي 'مركبة ذات عجلتين وحصان واحد'، و"كاربنتوم" أي 'عربة' و"إيسيدوم"، أي 'مركبة حربية'، و"رائدة"، أي 'مركبة كبيرة'. والواقع أن العربات الفخمة ذات الأربع عجلات هامة كعربات جنائزية في كثير من قبور لاتين. وهكذا فعلى الرغم من أن مجتمع بلاد الغال كان مستقراً بصورة أساسية، فإنه كان بوسعه أن يصبح شديد التنقل عندما يشاء.

وهنغاريا هما في الحقيقة قلب ما يسمى ثقافة أورنفيلد، التي يرجعها علماء الآثار إلى النصف الأول للألفية الأولى قبل الميلاد. وهكذا فإنها تسبق النقاط العليا في هالشتات ولاتين. وكانت ثقافة أورنفيلد على طريق انتشار حضارة العصر الحديدي من منطقة بحر إيجه، وهكذا فإن من الممكن تماماً أن يكون الكلت موجودين في المنطقة فترة أطول حتى من وجودهم في أوروبا الغربية. ولكننا كمؤرخين للناطقين باللغة الكلتية لا نستطيع إلا أن نقول إننا لن نعرف شيئاً عن العلاقة بهذه الثقافات المادية لعصور ما قبل التاريخ.

ولكن بالنسبة للغويين، فإن أقوى دليلٍ على المكان والزمان اللذين استُخدمت فيهما اللغة يأتي من الكتابة. وبما أنه لم يكن لدى أي أحد من الكلت تقليد أدبي مكتوب حتى القرن الخامس الميلادي، في إيرلندا، فإن هذا يعني أننا نعتمد إلى حد كبير على النصوص الخطية. وهذه تأتي من أماكن مختلفة كثيرة. ويظهر أن الكلت لم يكونوا متعلمين عارفين بالقراءة والكتابة إلا حيثما كان لديهم جيران قادرون على تعليمهم. والأماكن التي حدث فيها ذلك متباعدة حقاً، رغم أنها تميل بشكل طبيعي على أن تكون على هوامش المناطق الناطقة بالكلتية. ومن المحزن ولكنه غير مدهش أنها لا تشمل مواقع ثقافات هالشتات أو لاتين La tène.

كيف يمكن تمييز الكلتية؟

إن تمييز نصّ ما على أنه كلتي يعني معرفة شيء ما عن خصائص اللغات الكلتية القديمة. ويتضح أن إحدى الخصائص الهامة للغة الكلتية هي فقدانها للصوت (p). فالكلمات اللاتينية الأساسية مثل *pro, super, plenus, piscis, pater* التي تعادلها بالإنكليزية على التوالي كلمات *father* (أب) و*fish* (سمكة) و*full* (مليء)، و*over* (أعلى) و *before* (قبل) لا تزال تظهر في لغة Gaelic الإيرلندية في الكلمات الآتية على التوالي: *athair, iasc, lan, for, roimh*. ويمكن رؤية ظاهرة مماثلة في بعض الآثار الباقية من الغالية أو البريطانية: فعبارة *Cambo - ritum*، الاسم البريطاني للاكفورد في صفّولك يبدو أنها تعني 'الجدول المتلوي'، فالعنصر الأخير يشبه كلمة *rhyd* الويلزية، التي تعني 'الجدول' أو 'المخاضة' (قارن مع *poros* اليونانية و*portus* اللاتينية). وهناك تخمين بأن أصل الاسم هو من 'الغابة السوداء' سيئة الصيت التي يذكرها قيصر وتاسيتوس (ولكنها تمتد على طول الطريق عبر المرتفعات الألمانية إلى مدينة لايبزغ الحديثة) ولا بد أن هذا المصدر جاء من ناطق بالكلتية التي سقطت منها حروف الـ p: ولو كان اسمها الحقيقي *perkun* فإن هذا سيجعلها شبيهة ببعض الكلمات الألمانية التي تعني 'الجبل' (*fairguni* باللغة القوطية، و*firgen* بالإنكليزية القديمة)، ولكنه سيسمح أيضاً بربطها بشكل لطيف مع أصل الكلمة

اللاتينية *quercus*، أي 'شجرة البلوط.' ومن الطبيعي أن تشتق هذه من كلمة *perquus*(*) (قارن مع شبيهات معروفة لها مثل *quinque*، أي 'خمسة'، من *penque*(*) و*caquo*، أي 'طباخ'، من pequo(*)). ومن ثم فإنها تبدو شديدة الشبه باسم الإله الليتواني Perkunas، المعروف بارتباطه بأشجار البلوط(*)!

وبطرق أخرى فإن اللغات الكلتية من هذه الفترة شبيهة باللاتينية إلى حد لافت للنظر. فنظام التصريف الإعرابي للأسماء باللغة الغالية كان أعقد بقليل جداً من النظام اللاتيني، ففيه سبع حالات بالمقارنة مع ست حالات باللاتينية، ولكنه قريب منه تماماً. وهكذا مثلاً فإن الاسم *EQVOS* أي 'حصان' له حالة التملك *EQVI* أي 'للحصان' - وهما الكلمتان نفساهما باللاتينية والغالية. وعبارة 'لقد أعطى لأمهات نايمز' تأتي على صيغة *DEDE MATREBO NAMAUSIKABO*، وفي اللاتينية يمكن أن تكون *DEDIT MATRIBUS NEMAUSICABUS*(*). إن قطعة يومية من اللغة الغالية الأصلية الحقيقية يمكن أن تكون قريبة الشبه جداً بما يعادلها في اللاتينية. وخذ مثلاً نصين نمونجين مرحين على فلكة مغزل دوار:

MONI GNATHA GABI BVOOVTON IMON

NATA VIMPI CURMI DA

(*) (هذه العلامات النجمية تظهر صيغاً أعاد تركيبها اللغويون، ولكنها ليست موجودة في بعض النصوص فعلاً). وغياب حرف p ليس غريباً بقدر ما يظهر. ويبدو أيضاً أنه قد أصاب اللغة الأهلية الأصلية في إيبيريا، وحتى لغة الباسك المبكرة، وهو غياب نموذجي في العربية الحديثة. ولكن الكلتية لم تبق زمناً طويلاً بدون هذا الحرف. فبعض تنويعاتها على الأقل، بما فيها معظم لهجات لغة الغال، وكذلك اللهجات البريطانية (المؤدية إلى لهجات ويلز، وكورنويل، وبريتون) راحت فيما بعد تلفظ الصوت qu مثل لفظ الحرف p. ومن هنا يأتي وجوده في الكلمتين اللتين معناهما "أربعة" و"خمسة" *pedwar* و*pump* في الويلزية الحديثة، وربما تكونان *petuar** و*pinpe** في لغة بلاد الغال، بناء على دليل من سجلات مخبورة، مذكورة في الحاشية رقم 22 من حواشي الفصل السابع). ونتيجة لذلك، حيثما ورد الحرفان qu في البداية فهما علامة كلمات استفهامية في اللغة الأصلية (قارن الكلمات اللاتينية المحافظة *quando, quid, quis* التي معناها على التوالي "من" و"ماذا" و"متى")، وإن حرف الـp في البداية له هذا الدور في هذه التشكيلة المتنوعة من اللغة الكلتية (قارن مع الكلمات الويلزية *pwy* و*pa* و*pam* التي معناها على التوالي "من" و"أي" و"لماذا "، والمفروض أن هذا كثير الشبه بما في لغة بلاد الغال).. كما أن اللغات الكلتية الأخرى غيرت حرفي الـ qu، ولكنها بسّطته ليعطي الصوت k. ومن هنا تأتي الكلمتان الويلزيتان ceithir وcoic (أي أربعة وخمسة على التوالي) وكذلك الكلمات ce وcad وca (أي من وماذا وأين على التوالي). والدليل الموجود بالنسبة للغة كالتبريان [في شمال إسبانيا] يوحي بأنها كانت تشبه الإيرلندية أكثر من شبهها بلغة بلاد الغال في هذا الصدد.

فترجمتها باللاتينة هي

MEA NATA, CAPE MENTVLAM MEAM

NATA BELLA, CERVISIAM DA

ومعناهما على التوالي: 'يا ابنتي، خذي ملابسي' و'أيتها البنت الحلوة أعطيني بعض الشراب'[22].

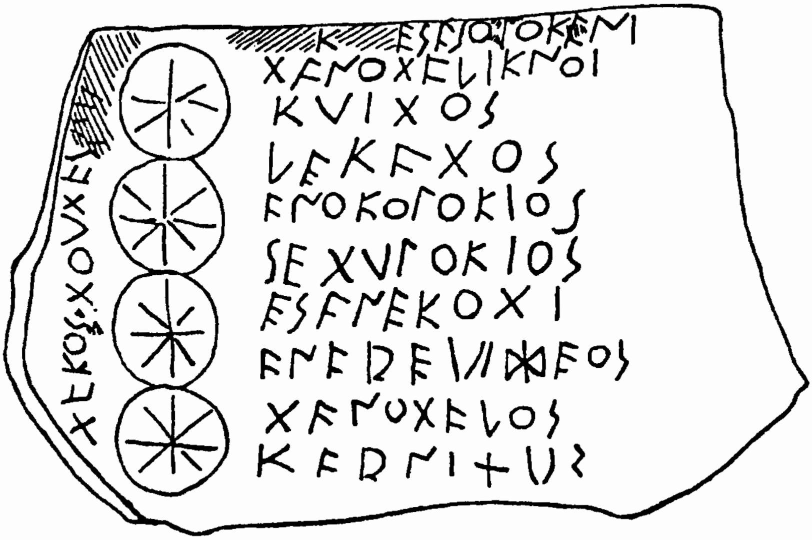
وحسب تقدير حديث، فإن هذه الفوارق أو التباعدات تمثل شيئاً يشبه ألفاً وخمسمئة عام من التطور المنفصل، أو ستين جيلاً. ورغم أن الطرفين كانا يتكلمان تنويعين من لغة كانت واحدة ذات مرة، فإن هذا زمن يكفي لكي يتطور تقليدان شديدا الاختلاف في كل تنويع منهما.

معرفة القراءة والكتابة بالكلتية

إن أقدم النصوص المعروفة بالكلتية (من حوالي العام 575 ق.م. إلى 1 ق.م.) عثر عليها في السفوح الجنوبية لجبال الألب قرب البحيرتين كومو وماغيور. فهنا كان موطن ليبونتي. ومن هنا فإن لغة هذه النصوص معروفة باسم الليبونتية، وهي مكتوبة بأبجدية 'لوغانو'، ومن الواضح أنها مستعارة من الإتروسكان الذين كانوا هم الشعب المتعلم المسيطر في إيطاليا الشمالية[*]. وطول كل نص في العادة كلمتان أو ثلاث كلمات، مما يجعل الترجمة صعبة، ومن المحتمل أن معظم الكلمات أسماء أعلام.

ولم يصنف أي مؤلف كلاسيكي الليبونتي باعتبارهم من الكلت (رغم وجود شائعات غامضة عن مستوطنة غالية قديمة جداً في هذه المنطقة في بوليبوس وليفي)[23]. ومع ذلك فإن هناك أساساً لاعتبار اللغة الليبونتية نوعاً من الكلتية. ويبدو أنها فقدت الصوت P، وامتلكت *latu* و*uer* لتحل محل الكلمتين

(*) إن أقدم النصوص الإتروسكانية المعروفة يعود تاريخها إلى ما قبل ذلك بحوالي قرن، إلى حوالي العام 700 ق.م. فالإتروسكان أنفسهم كانوا قد تعلموا الكتابة من اليونانيين، ولو من خلال اتصالات أبعد بكثير إلى الجنوب، حول كوماي في خليج نابولي.



نقش نص إنسوبري في بريونا

الهنديتين الأوروبيتين *uper*، أي 'فوق' و*platu*، أي 'مسطح'، وفيهما أيضاً بعض أسماء الأعلام التي تذكرنا كثيراً بسكان بلاد الغال، مثل *Alkouinos* التي تشبه Alkovindos التي تحتوي على الجذر *windo*، بمعنى 'الأبيض'، التي نشاهدها أيضاً في *Winchester* (التي تدعى بوضوح مرة أخرى *Vindobona*)، وكذلك *Guinevere*.

وبعد ذلك بأكثر من أربعمئة عام، من حوالي العام 150 ق.م، استخدمت أبجدية لوغانو نفسها في صورة مرآة (من اليسار إلى اليمين آنذاك) على مبعدة إلى الجنوب حول نوفارا، من أجل تسجيل لغة غالية بوضوح أكبر. فكان ذلك من آثار الإنسوبريين الذين كانوا قد هاجموا شمال إيطاليا في فترة العصر التاريخي. ويلاحظ ليفي (5 ـ 34) أن مدينة ميديولانون (ميلانو ـ وهي كلمة غالية تعني 'وسط السهل') قد أسسها القادمون من بلاد الغال، الذين سَرَّهُمْ أن يجدوا أن الاسم إنسوبريان (المعروف عندهم كاسم مقاطعة في موطنهم عبر جبال الألب) كان مترسخاً بجوارهم المحلي.

وكان النص النموذجي المكتوب يقول:

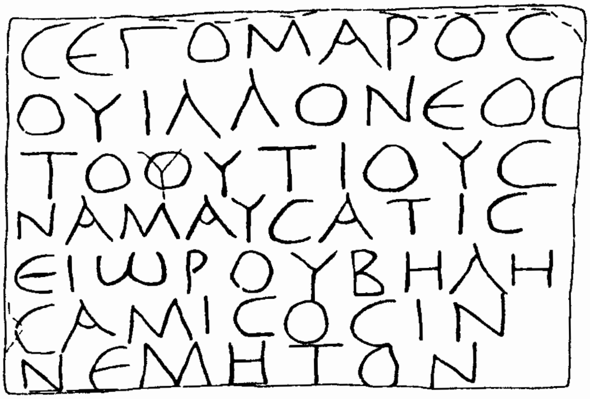
إن دانوتالوس ـ ابن كوينتوس، الموفد الرسمي،
وآندوكومبوجيوس سيتوبوجيوس (أبناء) إيساندكوتوس
أنداروبسيوس دانوتالوس، بنوا ركام التراب فوق القبر
مع ملاحظة عمودية على الجانب تقول:

قرار القبيلة.

ولكن قيصر يلاحظ أن النص المألوف أكثر من غيره عند الغاليين هو الكتابة اليونانية، وبالتأكيد فإن النصوص الغالية المكتوبة باليونانية التي عثر عليها تعود بتاريخها من العام 300 ق.م. إلى العام 50 م. وما هو اليوم الريفييرا الفرنسية كان عندئذٍ شاطئاً يونانياً إلى حد كبير، مع مستعمرات مثل نيسيا (نيس) وأنتيبوليس (أنتيب) تتركز كلها على المدينة الأم ماسيليا (مرسيليا) التي كانت قد تأسست حوالي العام 600 ق.م. وهناك حوالي سبعين من أمثال هذه النصوص المنقوشة على الحجر التي اكتُشِفَت حتى الآن، معظمها حجارة قبور وأوقاف مكرسة، وهناك أيضاً 220 قطعة أخرى من الفخّار المكسور وعليها كتابة: وإن من المرضي أن لها في أغلب الأحيان ديمومة. وهي تعادل فتات الورق وبقايا القناني والعلب القديمة.

'سيغوماروس بن ويلو، المواطن من نيموسوس، وَقْفٌ مكرّس لهذا المزار'

إن هذه النصوص ذات الحروف اليونانية يعثر عليها على طول الساحل وعلى طول الطريق المؤدية إلى أعالي نهر الرون، مع بضعة نصوص أخرى في وسط فرنسا، على التخوم العليا للوار والسين. ويشير قيصر إلى سجلات هالفتية مكتوبة باليونانية ومحفوظة على ألواح خشبية. ولكن هذا ينقلنا إلى زمن طويل بعد فترة غزو روما لبلاد الغال (الذي اكتمل في العام 51 م.). وبعد ذلك نجد فعلاً نصوصاً غالية مكتوبة بحروف رومانية، ولكن لمدة قرن فقط. وهي لا تحل محل النصوص اليونانية أبداً: فهناك ستة عشر نصاً غالياً ـ رومانياً فقط تم اكتشافها حتى الآن. وإن أفخم بقية من هذه الفترة اكتشفت حتى الآن هي أجزاء



نقش غالي - إغريقي عثر عليه في فيزون قرب آروسيو (أورانج)

من تقويم باللهجة الدرُويديّة منقوشة على البرونز عثر عليها في كوليني، غير بعيد عن المركز الإداري الروماني في لوغدونم (ليون).

وإلى الشمال من نهر السين، فإن النصوص الوحيدة التي ظهرت كانت على أختام لصانعي الفخار ربما جاءت من الجنوب أكثر. فالإعلان أيضاً يمكنه استخدام 'حلوى العيون' بطريقة من المؤكد أنها تذكرنا بالقرن العشرين. والنص يقول:

ركستوجينوس (بن) صولا صنع (هذه القِدْر)

وفيما عدا ذلك، فإن الدليل الوحيد من الغالية المكتوبة هو بضعة أسماء شخصية كلتية على قدور فخارية في مانتشينغ في جنوبي ألمانيا، وعلى سيف في بورت في سويسرا الغربية.

ولكن هناك دليلاً قوياً ملموساً على لغة كلتية أخرى تعرف باسم كلتيبريان، مكتوبة في شمال شرق إسبانيا الوسطى. فهناك في الحقيقة خمسة وثمانون نصاً، وعشرون أسطورة منقوشة على قطع العملة من القرنين الأخيرين قبل الميلاد. وليس فيها الكثير مما يثبت بلا نزاع أنها كلتية(*)، وليست سلالة

(*) قارن مع اللغة اللوسيتانية، المحكية على مبعدة إلى الجنوب: إننا لا نكاد نعرف أكثر من كلمتين من



ختم صانع فخار عثر عليه في كوديبك - إن - كوكس قرب روتوماغوس (روان)

أخرى ذات صلة من اللغات الهندية - الأوروبية، رغم ظهور الاسم الطنان ديفوريكس بشكل مناسب: أي 'الملك الإلهي'، مقارنة مع دومنوريكس، أي 'الملك الدنيوي'، الخصم القديم ليوليوس قيصر. ولكنهما في المكان والزمان الصحيحين لجعلهما بلغة كلتيبريان، ولقد كان من الحقائق المقبولة في العالم القديم أن هؤلاء الناس من الكلت: فالشاعر مارشيال، المولود في القرن الأول الميلادي في العاصمة المحلية بلبيليس، كان يحب أن يزعم أن أجداده من الكلت والإيبيريين[24].

غير أنه بحلول العام 50 م. يظهر أن اللغة الغالية، وكذلك لغتي الإنسوبريان والكالتيبريان قد فقدت مكانتها التعليمية إلى حد كبير، حتى في قلب مناطقها الداخلية.

انتشار لغة بلاد الغال

إذن، كيف وصلت هذه اللغات إلى الأجزاء البعيدة في أوروبا حيث كانت محكية؟ إن انتشار الكلتية عبر أوروبا، رغم أنه كان استثنائياً وغير عادي، حدث قبل التاريخ المسجل. والقوى التي دفعت بهذا الانتشار هي مسألة تكهن وتخمين، لا

هذه اللغة، ولكن هاتين الكلمتين كافيتان لإلغاء كونها كلتية. والكلمتان هما "پوركوم تافروم"، أي 'الثور الكبير'، فالأولى فيها حرف P والثانية فيها حرفا V وR بالترتيب الخطأ. قارن مع الكلمة الغالية "تارفوس"، والإيرلندية القديمة "تارب"، والويلزية الوسطى "تارو".

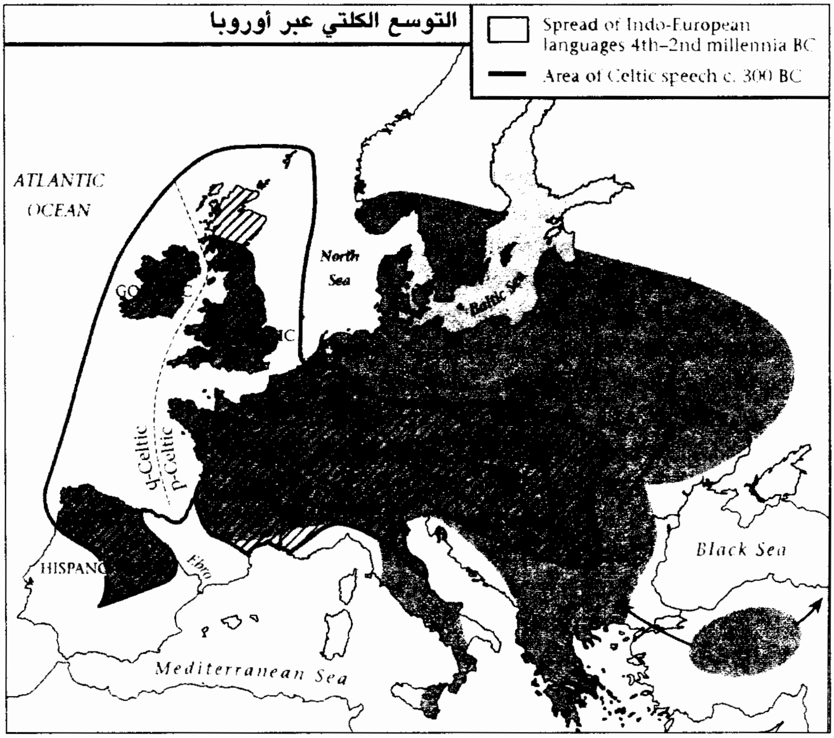
ملاحظة ولا استخلاص. ولكن إذا أخذنا الثقافة حسب تقييمها لنفسها، فإن لغة بلاد الغال مدينة بنجاحها، أو بالأحرى بنجاح الأنساب التي تقيدها، إلى معداتها المتميزة، ولا سيما المركبات ذات العجلات التي تجرها الخيول، وللمنتجات الرائعة لحدّاديها، وخاصة الأدوات الحديدية لسيوف المقاتلين، وخوذهم، وحلقات الزرد في دروعهم.

وهناك ملاحظة لغوية تؤكد ذلك. فالكلمات التي تعني 'الحديد' (iron)، وهي "سيديرون" sidèron باليونانية، و "فيرّوم" (ferrum) باللاتينية و "إيسارنو" (-isarno)(*) بالكلتية لها أصول منفصلة. ولكن الكلمة الجرمانية (مثل "إيسارن" (eisarn) القوطية، و "إيسرن" (isern)، و "آيرن" (iren) بالإنكليزية القديمة) يظهر أنها قد استعيرت من الكلتية[25]. وليس هذا مدهشاً، لأن من الواضح أن الكلت كانوا هم الوسطاء في نقل المصنوعات الحديدية إلى شمال أوروبا (بل إن تاسيتوس يذكر في كتابه "جرمانيا"، 43) أن قبيلة كوتيني الغالية، كانت تدفع الجزية للألمان بالحديد الخام. ويضيف بشكل نموذجي: 'وفي هذا أشد العار عليهم': أي أنهم كان يجب أن يتمكنوا من استخدام الحديد لقلب هذه الأوضاع)(**).

ورغم أن المستوى التقني كان عالياً آنذاك، فإن التطبيق العسكري كان يميل إلى التركيز على بسالة القادة الفرديين، تدعمها وتغذيها هذه المنتجات المتميزة، بدلاً من تطوير منظمة ساحقة واسعة النطاق. فقد ظلت مجتمعاتهم صغيرة، لا تملك حتى تركيباً إقطاعياً من السادة والملوك. ولم تكن معرفة القراءة والكتابة ضرورية، بل كانوا يتجنبونها إلى حد كبير. ومثلما فعل بعض المتحدرين منهم على الجانب الآخر من العالم بعد ألفي سنة، فلعلهم استطاعوا أن يعتمدوا

(*) مسجلة في الاسم الغالي لقرية قديمة في منطقة جورا الفرنسية: "إيسارنودوري فيري أوستي"، أي 'الباب الحديدي': غريم (1876، المجلد الأول، الفصل الرابع، ص 5).

(**) وعلى عكس ذلك، فإن اللغة الألمانية كانت تملك الجذر نفسه الموجود في اللاتينية الكامن تحت كلمة 'برونز' (bronze)، وهو في القوطية "إيز" (aiz)، وفي الإنكليزية القديمة "آر" (ār)، وفي الألمانية العليا القديمة "إير" (ēr)، مقابل اللاتينية "آيس" (aes)، مما يوحي بأن هذه التكنولوجيا كانت تقليداً راسخاً قبل أن ينفصل الأسلاف المشتركون للناطقين بالإيطالية والجرمانية ويذهب كل منهم في طريقه.



التوسع الكلتي عبر أوروبا

على أسلحتهم المتفوقة ويتغلبوا على عقبات كبيرة دون أن يكلفوا أنفسهم عناء التغلب على خصومهم بالعقل والفكر.

ورغم أن المحاربين الكلتيين وقراهم صاروا واسعي الانتشار، فإنهم لم يزيلوا أو يغرقوا المجتمعات التي كانت في طريقهم. (وهم في هذا يتناقضون بشكل بارز مع انتشار "السلام الروماني" ومعه اللاتينية). وإذا ذكرنا فقط بعض المجتمعات القديمة التي نستطيع العثور على بعض آثار لغتها، فإن الناطقين بالكلتية يوجدون متعايشين مع الألمان في شمال جبال الألب، ومع الفينيتي والإتروسكان في جنوبها، ومع الناطقين بالباسك (أكويتاني) في بلاد الغال الجنوبية، ومع الإيبيريين والتارتسيانيين في إسبانيا، ومع المقدونيين والتراسيين في البلقان. فقد كانت هذه ثقافة تُنهك جيرانها وتزيحهم جانباً، ولكنها لا تخضعهم أو تدمجهم.

ولكن إلى جانب الإغارة والغزو العسكري لأرض جديدة، ربما كانت هناك قناة أخرى انتشرت عبرها اللغات الكلتية، بل وتطورت إلى لغات جديدة ومنفصلة. كانت تلك القناة هي الملاحة.

كان من التقاليد المقبولة في أوروبا العصور الوسطى أن إيرلندا كانت مأهولة بأناس من ساحل إسبانيا. والأسس المعتادة المنقولة للاستشهاد بها على ذلك كان فيها خطأ مزدوج في الجغرافيا وفي تفسير أصول الكلمات. فجدول "بوتنجيريانا" المعاد تركيبه يظهر إيرلندا كجزيرة على مبعدة من بريغانتيا (لاكورنيا)، وكتاب سانت إيزيدور الشهير "أصول الكلمات"، الذي يعود إلى القرن السادس يقول: 'هيبرنيا ... تمتد شمالاً من إفريقيا. وأجزاؤها الأمامية تواجه (هـ) إيبيريا والمحيط الكانتابري [أي خليج بسكاي]. ومن هنا فإنها أيضاً تسمى هيبرنيا'[(26)].

غير أنه ربما كان هناك الكثير من المزيد عن هذه العلاقة. فإن آفينوس، الذي كان يجمع معلومات عن الملاحة الساحلية في القرن الرابع يقول عن 'الجزيرة المقدسة': 'إن عرق هيرني يسكنها بشكل بعيد وعريض. ومرة أخرى فإن جزيرة الألبيونيين تقع قريباً منها. وكان التارتسيان معتادين على حمل تجارتهم إلى نهاية الأوستريمنيدز. كما أن القرطاجيين والناس العاديين من حول أعمدة هرقل كانوا يذهبون إلى هذه البحار'[(27)].

وكانت 'إيرنيه' هي التسمية التي شاعت كمصطلح يوناني لإيرلندا. أما الأوستريمنيدز فربما كانت هي جزر سيلي أو كورنويل، ما دام أفينيوس يلاحظ أيضاً أن هذه الجزر 'غنية بمناجم القصدير والرصاص'[(28)]. والمقطع كله دليل على علاقة بين الجزر البريطانية ومنطقة تارتيسوس الإيبيرية الجنوبية المعروفة بأنها بؤرة تركيز للإمبراطورية التجارية القرطاجية.

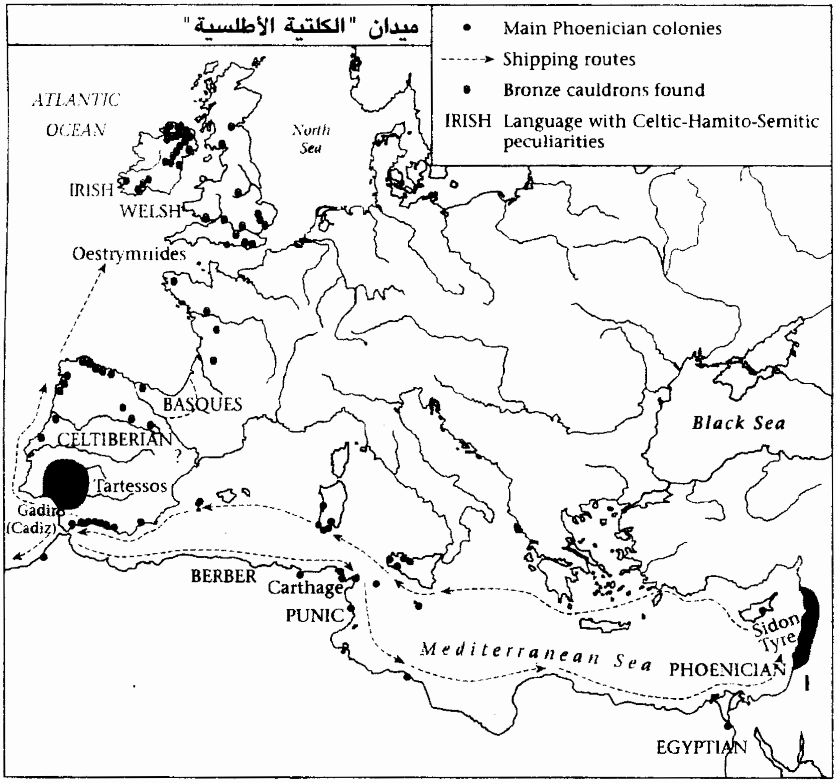
وهذه العلاقة تؤكدها أدلة أثرية وفيرة. فقد أعجب باري كنليف بالغزارة الظاهرة لعلاقات التبادل بين القطاعات المواجهة للأطلسي من السواحل الأوروبية، بما في ذلك إيرلندا، وويلز، وكورنيل، وبريتاني، وغاليسيا، والبرتغال في العصر

البرونزي المتأخر (1200 ـ 200 ق.م.)، فاقترح أن 'الكلتية الأطلسية' ربما تكون قد نمت كلغة مشتركة، أو ربما كلغة للنخبة بين المجتمعات المتنوعة على رقعة الساحل الشرقي[29].

إن هذه الفرضية، ولو أنها مستلهمة من الآثار، فيها جاذبية معينة من وجهة النظر اللغوية والثقافية. فهي تعطي وسيلة لانتشار الكلتية عبر الجانب الجنوبي من جبال البيرينيه عندما لا يكون هناك تقليد عن غزو من الشمال، وكان معظم الإقليم الواقع بين جنوبي بلاد الغال وإسبانيا الوسطى دائماً في أيدي الباسك في الحقيقة. وهي فرضية تعطي أساساً في التاريخ لموضوع ثابت وملحّ في الأدب الإيرلندي القديم، هو حكايات "إمراما" عن الرحلات البحرية المسحورة، مثل رحلة القديس برندان. وهي تقدم تفسيراً لحقيقة من حقائق اللغويات التاريخية الكلتية تتطلب عناية فائقة: وهي تشابه اللهجات بين اللغات الكلتيبريانية والغويدلية في إيرلندا واسكتلندا الغربية.

فاللغات الليبونتية، والغالية والبريثونية (الكلتية ذات الـ p) كلها في العادة تقلب الحرف k^w القديم إلى p، ولكن الكلتيبريانية والغويدلية (الكلتية ذات الـ Q) تحتفظ بالعنصر k. فمن الممكن إذن اعتبار الكلتية ذات الـQ هي الصيغة الأصلية التي انتشرت إلى سواحل بلاد الغال على أيدي المستعملين النهائيين للحديد، ثم عن طريق إقامة علاقات تبادل وتجارة، إلى ما وراء ذلك شمالاً وجنوباً عبر البحر. وبعد ذلك قام الكلت في بلاد الغال وفي الألب بالتجديد بقلب الـ k^w إلى p، وتبعهم ذوو العلاقة الوثيقة بهم في بريطانيا، أما الذين على المحيط، أي الكالتيبريان والغويدليين، فقد احتفظوا بالـ k^w، وأما الذين في الشمال، أي الإيرنيه فقد بسطوها فيما بعد إلى k(*).

(*) الواقع أن عدداً قليلاً فقط من اللغويين يعتبر معيار الـ P/Q هذا عامل تمييز شديد القوة. فالتغيير يمكن أن يحدث في أي مكان: بل لقد حدث في لغة رومانيا الحديثة، وبصورة مستقلة تماماً في اللهجات



والواقع أن تغييرات غريبة طرأت على اللغة الكلتية في الجزر البريطانية، كما لم يحدث في أي مكان آخر: ومنها الفعل ـ فالفاعل ـ فالمفعول به كترتيب أساسي للكلمات، والتحول الأساسي المفاجئ للحروف الصامتة، وحروف الجر المتصرفة، والأساليب الغريبة للتعبير عن المكانة والنشاط مثل 'أنا في طالبي'، 'أنا في قراءة لكتابي') وغير ذلك كثير. وهناك من يعتقدون بأن هذه الغرائب هي في الحقيقة موروثة من لغات سابقة مفقودة كان يتكلمها السكان الأقدمون،

الإيطالية (فمثلاً تغيرت الأوسكانية إلى الـ P، ولكن اللاتينية لم تفعل) وحتى في قلب لهجات الـ P فإنه لم تتغير جميع حروف الـ Q إلى P: فعلى التقويم الكوليني في وادي الرون نجد EQVOS، EQVI. 'الحصان' (حتى ولو كان الاسم المعتاد لإلهة الفرس في اللغة الغالية هو Epona). كما يبدو أن 'السيكواني' لغة الذين يعيشون على نهر 'سيكوانا' (أي نهر السين) لم تتأثر. ولكن الكلتية ذات الـ Pوالكلتية ذات الـ Q موضوع مطروق متكرر إلى حد الابتذال في التقليد بحيث يبدو أن تركه من المناقشة سيكون شيئاً مخادعاً مضللاً.

وربما كانت تتكلمها الحضارات التي أقامت النصب التذكارية الصخرية الضخمة. فعندما فشلوا في تعلم اللغة القادمة بصورة تامة، استمروا ببساطة في كثير من ملامح لغاتهم القديمة. وهذه هي فرضية الطبقات "التحتية"؛ إنها مثيرة للاهتمام، ولكنها لا تفسر شيئاً، ما دمنا لا نعرف أي شيء عن لغات الجزر البريطانية قبل مجيء الكلتية.

والفرضية الأخرى هي اختلاط اللغات، أي استخدام مزيج من اللغات القديمة مع اللغة الجديدة. ويمكن إدخالها مع نظرية انتشار الكلتية عن طريق الملاحة على سواحل المحيط الأطلسي، مع ملاحظة أن الشركاء الكبار في هذه الشبكة طيلة القسم الأكبر من الألف الأول ق.م. كانوا هم الفينيقيين، الذين كان مقر الكثيرين منهم (والقرطاجيين تحديداً) في شمال إفريقيا، فكانوا قادرين تماماً على الحفاظ على العلاقات على طول سواحل البحر الأبيض المتوسط. ويتصادف أن الأسر اللغوية في الشمال الإفريقي، المصرية والسامية والبربرية، فيها أشباه مباشرة لسبع عشرة من هذه الخصائص الغريبة للغات البريطانية والإيرلندية الكلتية ليس لها شبيه في أي لغة هندية - أوروبية، ولا في أبناء عمومتها الكلتيين، وهي خصائص شديدة الندرة عالمياً[30]. فإذا كانت الكلتية قد انتشرت حقاً كلغة ساحلية مشتركة، فلا بد أن هؤلاء الأفارقة الشماليين كانوا من الناطقين بها، وكانوا فعالين في قولبتها.

ولكن ليس هناك دليل على أي شيء من هذا في الوقت الحالي: فبالنسبة لانتشار لغة الغال عبر معظم أوروبا، ولأصول الكلتيبريان واللغات الكلتية في الجزر البريطانية، فإننا لا زلنا في مجال التكهنات وإعادة التركيب. وعلى عكس ذلك، فإننا نملك شهادة مباشرة على مجيء الناطقين بالكلتية إلى إيطاليا وإلى شرقي البحر الأبيض المتوسط.

حالات تقدم لغة الغال في السجل التاريخي

من الواضح أن الغاية من الغارة، التي تبحث فيها فرق من الشباب عن الحصول

على المجد والغنائم، لم تتوقف أبداً عن الاستمرار في المجتمعات الكلتية التي بقيت مستقلة. فالغارات الناجحة، وخاصة عندما يرتكبها الأبناء الشباب الذين ليست لديهم إمكانيات النجاح في وطنهم، يمكن أن تتحول إلى غزو يفرض الأمر الواقع. ونواجه أيضاً أمثلة على قرارات متعمدة تتخذها قبائل كلتية للبحث عن أرض جديدة في هجرة جماعية: ومن هذه القرارات الشهيرة قرار قبيلة هالفيتي، التي قام يوليوس قيصر بإحباط عزمها على الانتقال من الألب إلى جنوب بلاد الغال في بدء الحروب الغالية.

وقد أدت هذه الأنواع من التحرك مرتين إلى تغلغل كبير لمجموعات من أهالي الغال إلى داخل مراكز الحضارة الإغريقية - الرومانية. فكانت المرة الأولى هي قيام برينوس بنهب روما في العام 390 ق.م. وتبعها بشكل فوري تقريباً انسحاب مع غنائم هائلة وفرض دفع إتاوات. ويصف بوليبيوس خصائص الغاليين الذين دخلوا إلى وادي نهر البو في حوالي ذلك الوقت بقوله:

> كانوا يعيشون في قرى بلا جدران أو أسوار، ولا يعرفون شيئاً من تهذيب الحضارة. وبما أنهم كانوا ينامون على القش وورق الشجر ويأكلون اللحم، ولا يمارسون مهناً أخرى غير الحرب والزراعة فقد كانت حياتهم بسيطة جداً. وكانوا جاهلين تماماً بأي فن أو علم. وكانت ممتلكاتهم تتكون من المواشي والذهب، لأن هذه هي الأشياء الوحيدة التي يستطيعون أخذها معهم مهما كانت ظروفهم وأينما أرادوا الانتقال. وكان أهم شيء عندهم أن يكون لهم أتباع. وكان أقوى رجل يخافونه في القبيلة هو الرجل الذي يعتقدون أن لديه أكبر عدد من المرافقين المعتمدين عليه[31].

وكانت المرة الثانية هي نهب دلفي، المركز الديني اليوناني في العام 279 ق.م. الذي قام به برينوس آخر، ولكنه سرعان ما هزم على أيدي اليونانيين الذين احتشدوا لمواجهته. وقد بقيت من المهاجمين بقية كمرتزقة جوالين في مقدونيا. ولكن فرقة منهم (كان عددها عشرين ألفاً نصفهم من النساء والأطفال - أي أنهم لم يكونوا عصابة حرب فقط) دعيت في العام التالي

لعبور بحر مرمرة إلى الأناضول، للقتال نيابة عن نيكوميديس، ملك بيثينيا ضد الملك السلوقي أنطيوخوس. فقدموا خدمة جيدة، ولكنهم أصبحوا بعد ذلك عبئاً إلى أن استقروا بشكل أكثر دواماً في المنطقة المحيطة بأنقيرا. فصارت هذه عاصمة هذا المجتمع المستوطن الجديد، الذي صار يعرف باسم الغلاطيين أو الغالوا ـ إغريق. واستمرت حروبهم مع جيرانهم، وخاصة مع مدينة بيرغاموم، وخدماتهم كمرتزقة (التي امتدت إلى مصر) لمدة قرن آخر من الزمن.

وفي شمال إيطاليا وفي الأناضول، كان الرومان في آخر الأمر هم الذين وطّنوا هذا الخليط غير المستقر من المغيريين الغاليين.

وشن الرومان سلسلة من الاعتداءات على سواحل بحر الأدرياتيك وأسسوا مستعمرات عسكرية في المنطقة بين العامين 330 و270 ق.م. فأكسبهم ذلك احتراماً كبيراً. وتدخلت الحرب البونية الأولى (264 ـ 241 ق.م.) ولكن الرومان طردوا القرطاجيين ثم عادوا إلى المعمعة. ومن العام 232 إلى العام 218 ق.م. تغلغلوا أبعد في قلب إيطاليا الشمالية، مع معارك عنيفة، ومستعمرات جديدة راحوا يقيمونها لمواطنيهم وحلفائهم (ومن هنا جاءت الجيوب الدائمة للناطقين باللاتينية) في بلاسنتيا (بياسينزا) وكريمونا. ومرة أخرى قطع عليهم القرطاجيون عملهم بهجوم مباشر عبر قلب إيطاليا هذه المرة (قام به هنيبعل وفيلته في العام 217 ق.م.)، ومن المذهل أن هذا لم يكن له تأثير ضد تقوية الرومان لقبضتهم على المنطقة. وعند إزالة هنيبعل ـ وكانت هذه بحد ذاتها محنة استغرقت ستة عشر عاماً ـ استأنف الرومان معاركهم بنصر على الإنسوبريانيين في كومو في العام 196 ق.م. مع مزيد من المستعمرات في وادي البو عند بولونيا ومودينا وبارما، فثبتوا بشكل فعلي حدود المنطقة التي تمكن الغاليون من تنظيم الغارات منها في الماضي. ودحر الرومان قبيلة البويي Boii المحاربة الرئيسية وسلبوها نصف أراضيها. وبعد ذلك بخمسين عاماً، زار بوليبيوس وادي البو فكتب ملاحظة قال فيها إن 'غاليا سيزالبينا' لم تعد الآن سوى مجرد اسم: لقد أصبح هذا المكان جزءاً من إيطاليا[32].

وفي الأناضول، بدأ الرومان يحاولون لجم الغلاطيين المستقلين بعد أن أنهوا عملهم ضد أقاربهم في إيطاليا. ففي العام 189 ق.م. وكجزء من حملة لدعم مدينة بيرغاموم (التي كانت لا تزال تعاني من المرتزقة الغلاطيين)، قام قائد روماني بدحر قبائلهم الثلاث كلها، التولستوبوغي، والتروكمي، والتكتوساجيين، وباع أربعين ألفاً منهم كعبيد (كان من الواضح أن القرن السابق كان جيداً بالنسبة لهم، فقد تكاثر سكانهم بشكل جماعي كثيف). ولكن الاستفزاز الغلاطي استمر، ليس ضد بيرغاموم وحدها، بل ضد جيران آخرين كذلك، مثل كابادوكيا في الشرق، وبونتوس في الشمال. وبعد ذلك بقرن، تحت حكم الملك ديوتاروس، تحالف الغلاطيون مع روما على أساس عداوة الطرفين لملك بونتوس الطموح، ميثراداتس السادس. ففي عمل فريد من نوعه من التلاعب السياسي، تدبر أمر بقائه مفضلاً طيلة الحرب الأهلية التي أعقبت اغتيال قيصر، وأن يموت على فراشه في العام 40 ق.م. وبعد ذلك لم يعد أحد يسمع شيئاً يذكر عن طرق الغلاطيين المتهورة غير المسؤولة، ولكن في العام 25 ق.م. جعل أغسطس غلاطيا جزءاً من وحدة أكبر بكثير تشمل كل المقاطعات الواقعة إلى الجنوب منها مباشرة، فأذاب أي هوية كلتية متبقية.

ولم يترك الغاليون الإغريق أي أثر مكتوب باللغة الغالية رغم أنهم قدموا أجمل الاستحضارات الفنية للغاليين في تماثيل منحوتة في بيرغاموم، ودليل أسمائهم صحيح وأصيل جداً (مثل "تكتوساجيس"، أي 'الباحثين عن بيوت'، وديوتاروس *Deiotarus*، أي 'الثور المقدس'(*)). ومع ذلك فقد بقيت ذكرى من هويتهم اللغوية: فعند نهاية القرن الرابع الميلادي، فإن القديس جيروم، المشهور بترجمته اللاتينية للإنجيل، وهي الترجمة التي صارت معتمدة في الكنيسة الكاثوليكية، كان يعلن أنه قادر على التواصل مع الغلاطيين في أنقيرا باللغة نفسها التي كان يسمعها محكية في شبابه قرب ترايِر، على نهر موسيل. ولكن أربعمئة عام مدة طويلة بشكل رهيب لبقاء لغة بلا تقليد مكتوب وسط آسيا

(*) ربما كانت هذه لمحة من اللغة الغالية بلكنة يونانية: فهي باللغة الغالية الطبيعية هكذا: - Deiwo tarwos، ولكن اليونانية كانت قد أسقطت كل حرف [w].

الصغرى المكتسبة للطابع الإغريقي. فلعل جيروم كان يشير فقط إلى شيء قد قرأه.

إن هذه المغامرة إلى داخل آسيا الصغرى، بتأثيرها اللغوي على المرتفعات الوسطى حول أنقيرا، تعطي معلومات عن الطريقة التي يمكن بها نشر لغة كالغالية، وعن شروط بقائها. فقد كانت لغة ذات نسب، فعندما كان الناطقون بها ينتقلون، كان مجالها ينتقل معهم، وإذا تنامى حجم المجتمع، نما معه عدد الناطقين بها. وإذا فقد المجتمع هويته، أو عاداته المميزة، فإن اللغة ستختفي.

التشاور: الأساس المنطقي لسيادة اللغة الرومانية

التشاور : (أ) المداولة، الاستشارة، التباحث معاً، النصيحة (ب) استنتاج يتم بالتأمل، بالتصميم، بالبت، بالقياس، بالخطة، بالغرض، بالقصد، (ج) الأشخاص الذين يتداولون، مجلس.

لويس وشورت، قاموس لاتيني

أثبت الناطقون بالكلتية في بريطانيا بشكل مدهش أن لديهم مناعة ضد التأثر باللاتينية على المدى الطويل، حتى ولو كانت لغة الهيئات الرسمية ولغة التعليم في البلد لمدة أربعمئة عام. فلم تصبح اللاتينية لغة الناس العاديين في بريطانيا على الإطلاق. وهكذا فإن سمعة بريطانيا المثيرة للسخرية عند الرومان هي التي تحققت في آخر الأمر: 'فهم ليسوا شجعاناً في المعركة، ولا مفيدين في السلم'[33]. فيجب أن نسأل كيف أن الغة الغازي هذا قد فشلت في الانتشار.

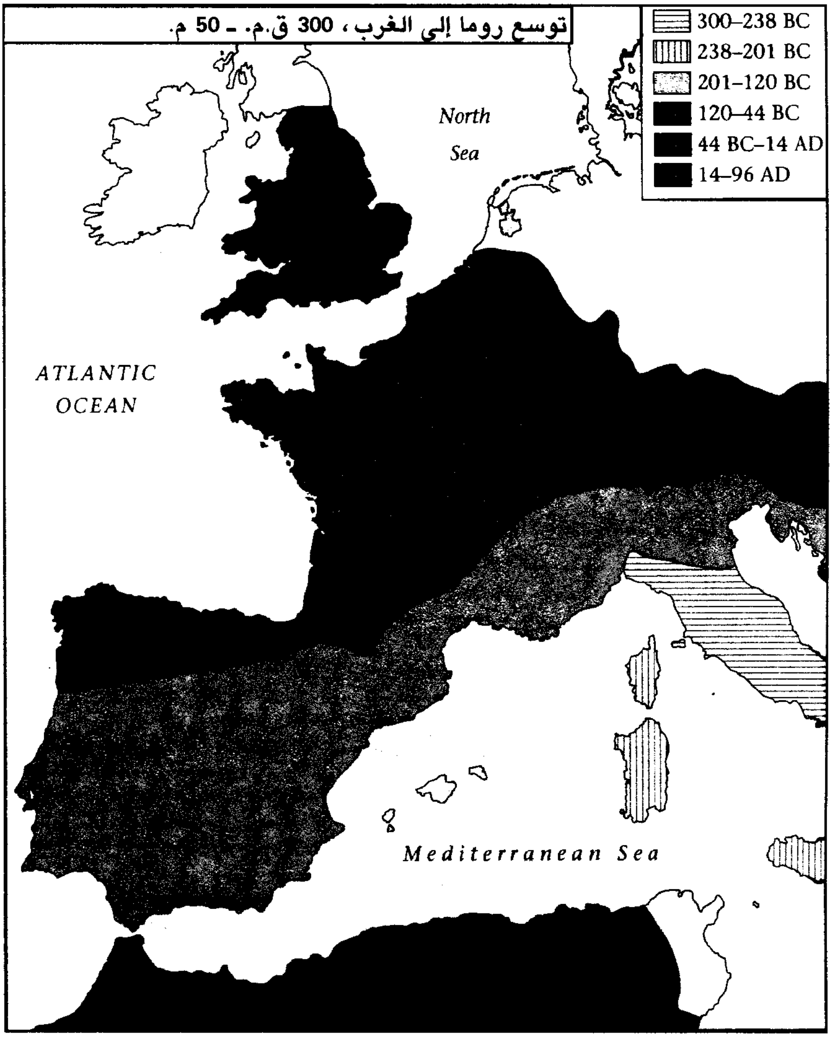
موس مايورام ـ الطريقة الرومانية

ليس سراً أن أساس انتشار اللاتينية كان هو انتشار السيادة imperium الرومانية سياسياً وعسكرياً (وهذه كلمة تعني في الأصل "السيطرة"، ولكنها حملت فيما بعد كل المعاني الضمنية لترجمتها الفرنسية، وهي "إمبراطورية").

وفي هذا السياق كانت اللاتينية على خلاف الكلتية، ولكنها أشبه بالإنكليزية في بداية تطورها الحديث. ولكن الرومان، مثل المتحدثين بالإنكليزية أيضاً، (ومرة أخرى بخلاف الكلت) نادراً ما كانوا عدوانيين أو محاربيين بشكل سافر في إعطاء دافع لحملاتهم. وكان هناك أيضاً بين المجموعتين من بناة الإمبراطوريات عدم رغبة في الحديث علناً عن الفوائد التجارية والمادية لما يتم تحقيقه - وهذا أيضاً مخالف للكلت الذين كانوا يؤكدون على أفراح كسب الغنائم. فما الذي أخرج روما فعلاً ودفعها لغزو كل بلد حول البحر الأبيض المتوسط؟

لقد رأينا أنه منذ وقت مبكر جداً (من القرن الثاني ق.م.) كانت مسألة سبب انتصار الرومان بسرعة، وضد كل القادمين على ما يبدو، تثير فضول اليونانيين للبحث فيها، مثل بوليبيوس. فرغم انه أبدى ملاحظات لاذعة عن الشخصية الرومانية (انظر: 'المتصارعون: الآراء اليونانية والرومانية' ص 393)، فإنه لم يستقر على جواب سهل أو بسيط. وحتى مع فائدة النظر إلى الوراء بألفي عام، فإن مسألة متابعة الأسباب التي جعلت هذه القرية بالذات على منتصف الطريق على ساحل شبه الجزيرة الوسطى في البحر الأبيض المتوسط هي المقدر لها أن تستولي على دائرة سواحله بكاملها هي مسألة مغرية لها نكهة خاصة (أو تعليل لأساس منطقي بطريقة ارتجاعية). ومع ذلك، فإن من الممكن رؤية الفوارق بين طريقة الرومان وطريقة جيرانهم، وخاصة الذين في أوروبا الغربية. وهي ما يهمنا على نحو خاص في هذا الفصل.

كان الرومان مجتمعاً مدنياً بشكل حاد، مع كراهية غلابة وملحة لسيطرة رجل واحد على المدى الطويل. فقد أوصل نظام حكمهم الكوابح والتوازنات إلى مستويات عالية لم يسبقها ولم يأت بعدها مثيل. فمنذ العام 510 ق.م.، وهو التاريخ التقليدي لتأسيس "جمهوريتهم" (وهذا المصطلح اللاتيني لدستورهم وأساس كلمة "جمهورية" عندنا معناه ببساطة 'ملك الجمهور')، وكانوا ينظمون انتخابات سنوية للوظائف الرئيسية في الدولة. وكان كل شاغل منصب يتواءم مع زميل له أو أكثر يجب عليه اقتسام سلطته معه أو معهم. وكان الحاملان لأعلى منصب تنفيذي، وكل منهما يسمى قنصلاً، يعتبران بالنتيجة ملكين مشتركين



لمدة عام. ولكن سلطتهما ليست مطلقة إلا عندما يكونان في حَمَلَة خارج المدينة، وفيما عدا ذلك، فإن أي قرار، مثل قرارات كل حَمَلَة المناصب، يكون عرضة للتحدي ـ أي للاستئناف أمام الشعب الروماني (بل إن هذه الطبيعة المشتركة لوظيفة القنصل أدت إلى جعل القنصلين يتناوبان على ممارسة منصب رئيس الأركان بشكل دوري يومي، مما يمكن أن يسبب الفوضى في أوقات الأزمات). وكانت المؤسسة التنفيذية الوحيدة المستمرة باطراد هي مجلس الشيوخ، المكون

في العادة من حوالي ثلاثمئة عضو، معظمهم ممن شغلوا وظيفة سابقة، فكانوا مسؤولين عن وضع مستوى الضرائب. وكان المجلس دائماً خاضعاً لسيطرة الأسر القديمة التي تحملت مسؤولية الحكم منذ البداية. ومع ذلك فقد كان هناك متسع لرجل جديد بين الحين والآخر، يملك الموهبة (ومعها الموارد المالية الضرورية(*)) كي يخترق الصفوف ويحظى بهذه الرتبة من وقت لآخر.

وكان حاملا المنصبين الأعليين، القنصلان والقاضيان يمكن أن يتوقعا منصب حاكم في الخارج، لممارسة السلطة 'نيابة عن القنصل' أو 'نيابة عن القاضي' لفترة سنوات بعد انتهاء ولايتهما. وقد اضطلع هؤلاء الحكام بكثير من حروب روما الخارجية. وعند حدوث حالة طوارئ وطنية، فإن من الممكن تعليق النظام القنصلي لمدة ستة أشهر في كل مرة. وعندئذ يتم تعيين دكتاتور (وحيد). ورغم وجود مشاكل ملحة اعتباراً من أواخر القرن الثاني ق.م. فصاعداً، مع قادة عسكريين ذوي قوة أكبر وغير مستعدين لقبول الحدود التي يفرضها عليهم النظام، فإن هذه المؤسسات كلها ظلت تعمل على وجه العموم أثناء حصول روما على إمبراطوريتها في الخارج، وهي إمبراطورية اكتملت إلى حد كبير عند حلول العام 44 ق.م.، عندما نُصِّب يوليوس قيصر دكتاتوراً مدى الحياة، ثم اغتيل، مما أدى إلى سقوط الجمهورية. وبقيت المؤسسات كلها موجودة لمدة خمسمئة عام أخرى. ولكنها كانت دائماً منذ ذلك الحين تحت سيطرة 'رجل القمة' كما كان الإمبراطور يدعى، فكان يحكم مدى الحياة (ولو أن هذه الحياة كانت على الأغلب قصيرة فتأتي نهايتها قاسية على الناس أو رحيمة بهم). وقد ظلوا يتجنبون لقب 'ملك'. فكان ذلك من المحرمات الباقية منذ العام 510 ق.م. ولكن روما كانت في الحقيقة قد عادت لتكون ملكية، مهما بلغت مهارتها في النفاق والمخادعة.

ومن الواضح أن هذا النظام كان معقداً أو مفصلاً بشكل محكم، وكان

(*) كان الشيوخ بحاجة إلى أن يكونوا برتبة فارس على الأقل. وقد حددت مواردها المؤهلة (من الممتلكات العقارية) بقيمة 400,000 سسترتيوم. وحسب تقييم عام 1879 في "القاموس اللاتيني" الذي ألفه لويس وشورت، ومع تطبيق معدلات التضخيم منذ ذلك الحين فإن هذا المبلغ يعادل في الوقت الحالي (2003) ما قيمته 186,000 جنيه إسترليني، أو 315,000 دولار أمريكي.

يعمل فقط بفضل وجود احترام متأصل للتقليد والقانون. وقد قدم إطاراً تستطيع من خلاله المدينة ـ الدولة أن تحكم نفسها بأسلوب نظامي، مع إبقاء السيطرة على القوة المنظمة، أي الجيش، في أيدي الطبقات الراسخة الأسس. وكان الرومان يفضلون المبدأ الذي يسهل التنبؤ به على القيادة الفاتنة الآسرة للجماهير. وعندما ازداد تأثيرهم ونفوذهم (لأنه يبدو أن تنظيمهم العسكري المنضبط كان في الحقيقة يعطيهم ميزة التفوق في معظم النزاعات)، صدّروا هذا النمط من الحكم إلى المدن التي غزوها ثم جندوها. وشيئاً فشيئاً، امتدت فوائد المواطنة الرومانية إلى جميع أنحاء إمبراطوريتهم الآخذة في الاتساع، فأعطت بعض رعاياهم الجدد دافعاً قوياً للولاء لهم. وبالنتيجة، فإن الإمبراطورية الرومانية في يومها كانت تمثل فوائد العولمة: مثل الاتصالات الجيدة، والوصول إلى كل ما يمكن أن يقدمه العالم، والتحرر (عادة) من الحكم التعسفي والقمع. وكانت هناك عبارة رومانية مفضلة ومعتمدة هي 'السلام مع الشرف'، أو (بشكل يعادلها) الفراغ مع القيمة الجيدة.

ولكن هذا الاحترام للتقاليد لم يمتد إلى احترام خاص للبقايا الأقدم للغتهم، اللاتينية. ورغم أن أقدم مجموعة قانونية لدى الرومان، وهي الجداول الاثنا عشر المشهورة، كانت مكتوبة باللاتينية، فلسبب ما لم تبق منها نسخة حتى نهاية الجمهورية. فلم يكن الرومان عاطفيين تجاه لغتهم، وحتى كُتُب التنبؤ التي هي أقرب شيء عندهم لنص الإنجيل المقدس، والتي كانوا يستشيرونها للإرشاد والهداية في أوقات الاضطرابات، لم تكن مكتوبة باللاتينية، بل بالشعر اليوناني السداسي التفاعيل.

فكانت اللاتينية ببساطة هي اللغة التي نشؤوا عليها. فعند التعامل مع الأجانب كان من العملي استخدامها، لأن الأساس الصلب للجمهورية الرومانية كان يعني أن الأجانب في المفاوضات هم في موقع الطرف الأضعف المستعطف بشكل دائم تقريباً. وقد أوجدت اللغة اليونانية استثناءً لهذا التفضيل لأن الرومان عندما وسعوا معرفتهم بإيطاليا والعالم الذي وراء سواحلهم، اكتشفوا مستعمرات يونانية في كل مكان، تقوم بأعمال تجارية، وتظهر بصفة عامة موقفاً من الثقة

بالنفس مستمداً من ثقافة متعلمة هجومية وعلاقات 'بأمهات المدن' العالمية في شرق البحر الأبيض المتوسط. وعندما اكتشف الرومان الذرا العليا التي تطورت إليها الثقافة الإغريقية بما يفوق الأحلام، كانوا سعداء (في أول الأمر) باستخدام اللغة اليونانية في أعمالهم الفكرية، بدلاً من الاضطلاع بالمهمة الشاقة لمحاولة بناء اللاتينية كي تنافسها. فكان أول إنتاج أدبي معروف ألفه الروماني فابيوس بيكتور، وهو تاريخ روما (في أواخر القرن الثالث ق.م.)، باللغة اليونانية. ورغم أنه كانت هناك محاولة في وقت مبكر لبناء تقليد أدبي روماني أكثر، مع قيام ليفيوس آندرونيكوس ونايفيوس بكتابة ملاحمها اللاتينية بأوزان الشعر الساخرة، فقد فشلا في جعل هذا الأسلوب يترسخ وينتشر. ومنذ ذلك الحين، راحت كل الأعمال اللاتينية تقولب على غرار الأصول اليونانية بتقليدها بشكل وثيق.

وكان هناك صدى فوري لأحد جوانب الثقافة الإغريقية في روما، وهو احترام فن الخطابة، الذي أطلق عليه الرومان: 'مهارات الإقناع'. وهي مهارات كانت أهميتها تعادل أهمية مهارات القتال والقيادة العسكرية في هذه المدن - الدول (اليونانية والرومانية على حد سواء)، حيث كانت القرارات تتخذها الاجتماعات، وليس الأفراد. فأصبح التدرب على الخطابة هو قلب التعليم الروماني العالي، حيث يعمل الطلبة في المجادلات والمداولات والخطب السياسية بالطريقة التي يكتبون فيها المقالات في أيامنا هذه، فكان تأثير ذلك على اللاتينية كثير التشعب، واستمر زمناً طويلاً بعد تدهور المؤسسات الحرة. وحتى الشعر الغرامي اللاتيني صار من الممكن أن يحمل لهجة التهديد والضغط وكان أحد الأساليب المفضلة في ذلك هو توجيه خطاب إلى جمهور متخيل غير حقيقي. وصارت الأشعار والخطب تعتبر لعبة واحدة إلى حد كبير: وفي القرن الثاني الميلادي كان ماركوس آبر (مارك هوغ)، المحامي المعروف من بلاد الغال، يلاحظ مدى صعوبة كسب المرء لسمعة مشهورة لنفسه عن طريق الشعر بدلاً من طريق الخطابة، ولا سيما في المقاطعات[34].

ولم يكن الجيش أقل العوامل أهمية في نشر اللغة اللاتينية في أنحاء الإمبراطورية. وكان في الأصل مكوناً من المواطنين، ولكن راح يُجَنِّد فيه رجال

من كل مكان بصورة متزايدة. وكانت هناك سياسة رومانية عامة تقضي بإعطاء الجنود أرضاً يستقرون فيها بعد تسريحهم. (وقد لاحظنا من قبل دور الجيش في إضفاء الطابع اللاتيني على واحد من أقدم شعراء الرومان، وهو إينيوس، الذي كان في الأصل ناطقاً باللغة الأوسكانية، وكيف أن المستعمرات ذات المواقع الاستراتيجية قامت في آخر الأمر بتحويل بلاد الغال السيزالبينية إلى جزء آخر من إيطاليا). ولم يكن لهذا أي تأثير كبير في شرقي الأبيض المتوسط، حيث كانت اللغة المشتركة، وهي اليونانية، راسخة بشكل أقوى من أن تهتز. ولكن يبدو أن المستعمرات الرومانية في بلاد الغال وإيبيريا قد أدت إلى انحطاط اللغة الكلتية في هذين البلدين وحلول اللاتينية محلها.

هجر لغة الغال

تلاشت النصوص المكتوبة باللغة الغالية واختفت بعد مئة عام من الغزو الروماني، رغم وجود حكايات مبعثرة تشير إلى بقاء بعض اللغة في الكلام المحكي لمدة قرنين آخرين. وفي القرن الثاني الميلادي، فإن القديس إيرنايوس، الذي جاء إلى الغرب من آسيا الصغرى ليتولى منصب الأسقفية في لوغدونم (ليون) يذكر أنه اضطر إلى تعلم 'لسان بربري' عندما وصل إلى هناك[35]. وفي القرن الثالث الميلادي ذكر المحامي العظيم أولبيان أن هناك عبارات معينة مقولة تحت القسم يمكن تأديتها باللغة الغالية[36]. ثم، قرب نهاية ذلك القرن، يذكر المؤرخ لامبريديوس أن عرّافة درويدية قد استخدمت اللغة الغالية لتتنبأ بموت ألكسندر سفيروس (الذي حكم من العام 222 إلى العام 235). وفي حوار ألفه سولبيشيوس سفيروس (363 ـ 425) هناك شخص من بلاد الغال لا يتكلم اللاتينية يقال له: 'كلمنا بالكلتية، أو بالغاليّة إن كنت تفضل ذلك'. وحتى في القرن الخامس الميلادي، يعلن صيدونيوس آبوليناريس[37] أن نبلاء قبيلة أرفيرني في وسط بلاد الغال الجنوبية قد تعلموا اللغة اللاتينية للتو وتخلوا عن 'الأوزان الثقيلة الخشنة للكلام الغاليّ'.

ولكن من دليل نتاج اللغات (أي الحقيقة المؤسفة لعدم وجود نتاج لها)

يتضح أن الغالية والكلتيبريانية قد انتهتا فعلياً مع دخول الاحتلال الروماني وإدخاله للغة اللاتينية. ورغم احترام أهل بلاد الغال للبلاغة كما لاحظ لوسيان، فإن الثقافة الكلاسيكية لم يكن لديها شيء إيجابي تقوله عن قيمة تقاليد اللغة الكلتية، التي تركوها للتلاشي والنسيان.

وهذا الفقدان الكامل مثير للدهشة، ما دامت أساطير كثيرة جداً قد كتبت باللغتين الإيرلندية والويلزية بعد ذلك بخمسمئة عام أو أكثر، تعيد سرد مغامرات آلهة مثل نوادا ذات اليد الفضية ("نودنز" باللغة الغاليّة)، ولوف صاحب الذراع الطويلة - أو ليو صاحب اليد البارعة - (لوغوس) وبريجيد العالي (بريجيندونا أو بريغانتيا)، وغويبنيو أو غوفانون الحداد (غوبانيو)، وموريغان أو ريانون الملكة العظيمة (ريغانتونا)، ولا ننسى أوغما (أوغميوس) نفسه؛ كما أن صناعة الأيقونات التي بقيت (مثل تلك المنقوشة على المرجل الفخم الذي عثر عليه في غونديستروب) تظهر أن هناك آلهة أخرى، مثل سيرنونوس صاحب القرنين، لها أساطير معقدة. وهذا يبين أنه لا بد أنه كانت هناك ثروة مذهلة من الموضوعات غير المألوفة التي كان بوسع أهل بلاد الغال أن يعيدوا روايتها لو كانت لهم الإرادة.

ولم يكن فقدانها محتوماً، لأن التحول الذي حدث في اللاتينية من أجل دمج اليونانية المتميزة المتنفذة يظهر أنه كان من الممكن للغة قديمة أن تحمل معها ثقافة لغة أخرى دون أن تنقلب(*)؛ كما أن بقاء الإغريقية نفسها في الشرق يبين أنه حتى اللاتينية لم تكن لغة لا تقهر في مواجهة تقليد واثق من نفسه. ولكن أياً من اللغتين الكلتية والكلتيبريانية لم تقم بأي محاولة نعرفها لإعادة قولبة الثقافة الرومانية وفق شروطها الكلتية ذاتها. وبدلاً من ذلك فإنه يبدو أنهما قد سارعتا بنشاط إلى الأخذ بالطرق الرومانية والتكلم باللاتينية. إذ إن مناطق أوروبا الغربية التي كانت تتكلم الكلتية في العالم القديم هي بالذات التي تملك الآن لغات مستقاة من اللاتينية: مثل الفرنسية، والأوكسيتانية، والإسبانية، والقطلانية، والبرتغالية، وكذلك بضع لغات أخرى أصغر مستمدة من اللاتينية.

(*) وفي حوالي ذلك الوقت نفسه تماماً، كانت اللغة الأرمنية تفعل الشيء نفسه مع فيض من اللغة الفارسية المتدفقة فتشرّبته.

وهذا يثير دهشة مضاعفة عندما نقارن طبيعة المجتمع الروماني مع ما كان الغاليون والكلتيبريانيون يعرفونه في الماضي. فقد حل مجتمع مدني، حضري، مركزي، محل حياة القرية الماضية التي كانت مبعثرة وأكثر تنقلاً في بعض الأحيان. فمن الواضح بالنسبة للكلت أنهم شعروا بأن هذا تقدم. إذ لا بد أن الرومان قد كسبوا ولاء الجيل الناشىء، لأن فرسينجيتوركس، منظم آخر نضال خاضته بلاد الغال من أجل استقلالها، لم يستحضر أحد ذكراه أبداً (إلى أن رفع من شأنه نابليون الثالث بعد ذلك بألف وتسعمئة عام)، ولم يحدث سوى تمردين، تم قمعهما بسهولة شديدة، في الجيل الذي أعقب الغزو الروماني لبلاد الغال. وكانت بلاد الغال قد سقطت في يد قيصر في هجوم صاعق لم يستغرق سوى ثمانية أعوام. وعلى عكس ذلك، فقد احتاجت روما إلى قرنين لتفرض سيطرتها الكاملة على إسبانيا (من طرد القرطاجيين في العام 206 ق.م. إلى حروب أغسطس الكانتبريانية التي انتهت في العام 19 ق.م.). ومع ذلك فإن إسبانيا قد هدأت أيضاً في حوالي الوقت نفسه، وقبلت في آخر الأمر أن مصيرها هو الخضوع للسلام حسب مشيئة روما (السِلْم الروماني Pax Romana).

اللاتينية بين الباسك والبريطانيين

كان الاستسلام إذن، بل والأخذ باللاتينية بحماس، هو رأي الأغلبية عندما تم ضم سكان أوروبا الغربية القديمة إلى الإمبراطورية الرومانية. ولكن من المفيد إعطاء لحظة للنظر في حالتين لم يؤخذ فيهما بهذا الرأي.

كانت إحداهما هي حالة الباسك، المفروض أنها لغة أهل أكويتانيا في جنوب غربي بلاد الغال(*) (والفاسكون في إيبيريا) في أيام قيصر. وقد بقيت هذه اللغة بعد تدفق اللاتينية لتحل محل لغات جيرانها الغاليين والكلتيبريان، كما بقيت بعد كل شيء رماها به التاريخ في الألفي عام الأخيرة. وهي الحالة

(*) يبدو أن الأسماء المذكورة في النصوص الأكويتانية لها جذور باسكية، مثل سيزون، وأندير، ونسكاتو، وبيهوكسف، بالإضافة إلى الكلمات الباسكية جيزون ، أي 'الرجل'، وآندير، اي 'السيدة'، ونسكاتو، أي 'الفتاة'، بيهوتز اي 'القلب' (انظر غوروتشاتغوي 1995: ص 38).

الخاصة بامتياز في التاريخ اللغوي الأوروبي، لأنها سابقة لكل اللغات الهندية - الأوروبية. فهناك سجلات لناس من الباسك خدموا في الجيش الروماني (والحق أن مجموعة منهم كانت مسافرة مع الجنرال القوي ماريوس قد سمحت له بإقامة عهد من الإرهاب في روما في العام 86 ق.م[38]. وآخرون عُرف عنهم أنهم خدموا عند سور هادريان في بريطانيا)، ولكن هويتهم أثبتت قدرتهم على تحدي الحكم الروماني. وقد استعاروا الكلمات التي معناها 'زيتون' و'زيت' و'تمثال'، وبذلك أظهروا قبولهم جوانب معينة من الحياة الرومانية كانت جديدة عليهم، ولكنهم فيما عدا ذلك لا يظهرون أي تأثير لحضور الإمبراطورية الرومانية لمدة خمسمئة عام.

أما القضية الأكثر تعقيداً في البقاء اللغوي فكانت في بريطانيا. فقد رأينا من دلالة أسماء الأماكن أنه كانت في بريطانيا وقت الغزو الروماني لغة محكية إما أنها شبيهة جداً باللغة الغالية، أو أنها إحدى لهجاتها. وتحكي الأسماء الشخصية القصة نفسها. فمن بين الأسماء البارزة للملوك والملكات بين البريطانيين لدينا "كاسي - فيلونوس"، أي 'المسيطر على البلوط'، و"تاسيو - فانوس"، أي 'قاتل الغرير'، و"كونو - بلينوس"، أي 'كلب الإله بلينوس' - من مسرحية سيمبلين لشكسبير، و"كاراتاكوس"، أي 'المحبوب'، و"بوديكا"، أي 'فكتوريا' (قارن مع "بوداك" بالإيرلندية، أي 'المنتصرة').

وبعد الغزو في العام 43 م.، الذي أدى إلى احتلال دائم على نطاق واسع، بذل الرومان جهداً واعياً لنشر اللاتينية، والتعليم الروماني في الواقع، بين نخبة البريطانيين. ويعلق تاسيتوس بشكل ساخر على الخطط التعليمية لأغريكولا (حاكم بريطانيا من العام 77 إلى العام 84 م، وهو بالصدفة أبو زوجة تاسيتوس):

> علّم أبناء رؤساء القبائل دروساً في الفنون الحرة، وعبّر عن تفضيله ذكاء البريطانيين وحضور بديهتهم على دراسات الغاليين، بهدف أن يزرع رغبة بالبلاغة في نفوس أناس كانوا في السابق قد رفضوا اللغة الرومانية بالمرة. وهكذا قلدونا في الملابس، وارتدوا الثوب الروماني الفضفاض.

> وبالتدريج انزلقوا في تفسخ، وصار عندهم صفوف من الأعمدة، وحمّامات، وحفلات أنيقة. وسمي هذا كله حياة متحضرة من قبل هؤلاء الأبرياء السذج، بينما كان في الحقيقة جزءاً من استعبادهم[39].

وفي مفارقة مريرة السخرية، فقد انطلقت هذه الدراسات في الشتاء الذي أعقب قيام أغريكولا بإبادة مركز التعليم الدرويدي على جزيرة أنغليسي، مع مذابح كبيرة في آخر الأمر.

ورغم أنهم بدؤوا من اللغة نفسها، فإننا نستطيع، من الملاحظات الغريبة التي أبداها الرومان، أن نتتبع آثاراً تدل على أن البريطانيين، في أخذهم باللاتينية، كانوا محاطين بالغاليين القاريين، ولكنهم لم يكونوا أكفاء تماماً لهؤلاء الغاليين. وفي قصيدة هزلية ساخرة من جنوب العالم، كتب جوفينال (وهو معاصر لتاسيتوس في القرن الثاني الميلادي):

> اليوم يملك العالم كله أثيناه اليونانية والرومانية،
> وقد علم الغاليون البليغون البريطانيين أن يكونوا محامين،
> وثول يتحدث عن استئجار مدرّس خطابة [40].

إن ذكر 'ثول' هنا، وقد تكون القطب الشمالي بالنسبة للرومان، يدل على أن جوفينال كان يفكر بطريقة فيها مبالغة وتطرف. فهذا هو تنازل المؤسسة الرومانية، الذي يظهر الكثير مما هو مشترك بين الاستعماريين القديم والأحدث: فالغزاة قد يقولون للأقليات من رعاياهم إن أملهم الوحيد كامن في تحضير أنفسهم، ولكنهم لن يأخذوهم على محمل الجد عندما يحاولون تحقيق هذا التطلع.

وهناك أدلة مباشرة على أن اللاتينية قد انتشرت إلى أبعد من الاستخدامات الرسمية والحكومية. فهناك قِطَعُ بلاطٍ عليها خربشات عثر عليها في بعض المواقع، وأكثرها إثارة للتسلية والمرح في نيوغيت بلندن: 'إن غاس يتجول مبتعداً كل يوم لمدة ثلاثة عشر يوماً'. وهذا مثال على الوشاية والنميمة في الزمن القديم. أما المياه التي طوّرها الرومان في المنتجع الصحي ومركز قضاء العطلات في مدينة باث فقد أنتجت أكثر من مئة لعنة طقوسية ورمز

للشتائم، مكتوبة بلغة لاتينية خشنة وغير مصقولة (ومكتوبة بالمقلوب أحياناً). مثل: 'فَقَدَ دوسيميدس زوجاً من القفّازات. فليت الذي هرب بها يفقد عقله وعينيه في المعبد الذي تختاره [الإلهة]'.

والويلزية، المتحدرة الحديثة من اللغة البريطانية التي كانت محكية في اللغة اللاتينية العامية الدارجة وبين ثناياها، احتفظت بأكثر من ستمئة كلمة مستعارة منها، مثل الكلمات المنزلية التي معناها (حائط، شبّاك، زجاج، مطبخ، سكين، فرن، صابون، إسفنجة) وكذلك (الكرز، الكستناء، الزنبقة، الوردة، البنفسجة). وهناك مزيد من الكلمات في مجالات فكرية أخرى مثل القانون والمسيحية.

وفي العصر الحديث، كان هناك حجة جدلية مبنية على بعض الخصائص اللفظية لهذه الكلمات المستعارة، بأن اللاتينية كما هي محكية في بريطانيا كانت أكثر نزوعاً إلى المحافظة من أجزاء أخرى من الإمبراطورية الرومانية(41). ومن المتصوّر أن هذا قد يشير إلى أنها كانت أقل رسوخاً في التداول العادي وأنها بدلاً من ذلك بقيت وسيلة جامدة ورسمية من وسائل التعبير. فالقديس باتريك، الذي نشأ على الحدود الاسكتلندية في القرن الخامس الميلادي، شكا من كون لاتينيتِهِ ضعيفة دائماً لأنه عندما أسره المغيرون الإيرلنديون وهو في السادسة عشرة قد فاتته فرصة التعلم في السنوات الحساسة من عمره. ومن الواضح أن اللاتينية لم تكن من صيغ التعبير اليومية، حتى في أسرته الميسورة الحال.

ولكن مهما تكن لمحة الحقيقة التي قد يمكن تتبعها هنا، فإن اعتمادنا على السجلات المكتوبة يشوش إحساسنا بالدور الذي لا بد أن اللغة البريطانية استمرت تؤديه. وهذا الغياب للغة البريطانية المكتوبة مثير للدهشة تماماً، ولم يتم تفسيره. فلغة بلاد الغال كثيراً ما كانت مكتوبة في القارة الأوروبية، ولكن من الواضح أن اللغة البريطانية لم تكن كذلك: ففي بريطانيا، لم يُكتشف سوى نصين اثنين من الفترة الرومانية مكتوبين بلغة غير اللاتينية. وهما من النصوص المنقوشة على صفحة قصديرية/رصاصية من

مياه باث، ويظهر أنهما بلغة تشبه الكلتية، ولكن لا يمكن فك رموزها على الإطلاق[42].

وقد استمرت اللاتينية بعد الغزو الروماني باعتبارها لغة التعليم: في بريطانيا، كما في أماكن أخرى، فلم تتعرض لتحدٍ جوهري حتى زمن النهضة فعصر التنوير في القرنين السادس عشر والثامن عشر، عندما صارت اللغات الأوروبية العامية الدارجة مقبولة الاستخدام في الكتابة الجادة والواقعية. ولكن بطريقة ما، وفي وقت ما في القرن الخامس الميلادي، بين الانسحاب الروماني من بريطانيا والغزو الساكسوني لإنكلترا، ضاعت اللاتينية كلغة للشعب البريطاني.

وليس هناك جدوى من أن نكتفي، كما اكتفى البعض، بدون تفاسير، مثل التراجع العام، المرئي في تلك الفترة، من المدن، وهذا شيء يدل عليه تدهور الخدمات المتطورة، كقنوات جرّ المياه، وجزء من انحطاط الإمبراطورية ككل، قبل الغارات المتغلغلة من الشرق. فلعل ذلك قد حدث حقاً، وربما يكون قد أضعف المناطق البريطانية التي من المرجح أن تكون اللاتينية مستخدمة فيها. ولكنه لا يميز بين الوضع في بلاد الغال والوضع في بريطانيا: فنحن نبقى بحاجة إلى تفسير سبب بقاء اللاتينية لغة للمدن في بريطانيا فقط، تاركة اللغة البريطانية قوية في البلد، بينما انتشرت اللاتينية في كل زاوية من الأرض في معظم بلاد الغال.

وسوف نعود إلى هذه النقطة عندما ننظر فيما آل إليه أمر اللغة البريطانية فيما هو الآن إنكلترا. ولكن مهما بلغ الضعف الذي تكشفت عنه اللغة البريطانية في تنافسها مع الإنكليزية، فيجب التذكّر بأن اللغة البريطانية عاشت عمراً أطول من اللاتينية على هذه الجزيرة، حتى ولو لم تعتبر لغة جديرة بالكتابة والتدوين أبداً. فليس هناك أثر لأي لغة رومانسية تتخذ لنفسها حياة خاصة بها في بريطانيا بعد انسحاب آخر الحاميات الرومانية من بريطانيا للدفاع عن إيطاليا في أوائل القرن الخامس الميلادي.

السقوط: حالات تقدم الألمانية والسلافية

السقوط: (أ) الانهيار، الغور(ب)، في الأرض= غزو (بلد)، (جـ) (الليل) = هبوطه، (الشتاء)= حلوله، (د) (حزمة من الضوء) = أن يكون تابعاً عرضياً، (هـ) (طيور الصيد) = أن تأتي لتجثم وتستقر، (و) الانضمام، المشاركة (في قطعة موسيقية)، التدخل (في محادثة)، (ز) (فكرة) = أن تخطر على بال شخص مّا....

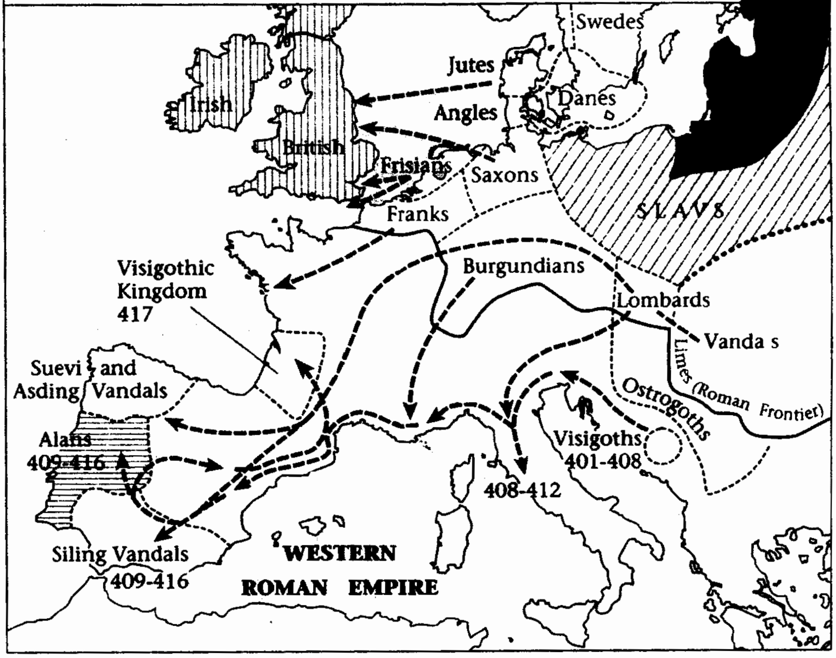
معجم كولنز الألماني

einfallen: ...... ترجمة مستعارة للكلمة اللاتينية *incidere*

الغزوات الألمانية - لا تقاوم وغير فعّالة

عندما جاءت نهاية الاحتلال الروماني لبريطانيا، كانت مصيرية حاسمة ومفاجئة. فقد كان ألاريك، زعيم الفيزيقوط، يهدد بغزو إيطاليا. وفي العام 401 م قام استليكو، وهو نفسه من قبائل الفاندال ولكنه كان القائد العام لقوات الإمبراطورية، بسحب الحامية من بريطانيا كي يعزز قلب الإمبراطورية. وأدى ذلك إلى ترك بريطانيا بلا دفاع ضد الغارات الألمانية المتزايدة باطراد على 'ساحلها الساكسوني'، الشاطئ المواجه لأوروبا. وفي العام 410 م، أرسل البريطانيون التماساً للإمبراطور كي يبعث لهم بقوات تعزز دفاعهم: فكان رده أن عليهم أن يهتموا بذلك بأنفسهم، وبطريقة غير واقعية أضاف بأن تجنيدهم لقوات محلية لن تعتبره روما عملاً عدائياً ضدها. فكان ذلك آخر ما سمعوه منه. وفي غضون جيل واحد، لم تعد هناك مقاطعة بريطانية للدفاع عنها. فقد جاء الساكسون ليبقوا.

وسرعان ما تبعت ذلك نهاية الإمبراطورية الرومانية في الغرب. ففي 31 كانون الأول/ديسمبر من العام 406 م. حدث عبور جماعي لنهر الراين المتجمد: فالسويبيون من الضفة الشرقية للراين، مع الفاندال الذين جاؤوا أصلاً من الشرق على مبعدة، والآلانيين (غير الناطقين بالألمانية أبداً، بل هم من الفرس الذين طردتهم قبائل الهون من سهوب البونتيك)، قطعوا شريحة أرض من بلاد الغال ودخلوا إسبانيا. واستمر الفاندال في زحفهم، فعبروا مضيق جبل طارق (الذي



الغزوات الألمانية في أوروبا الغربية ـ القرن الخامس الميلادي

كان عندئذٍ لا يزال معروفاً باسم أعمدة هرقل)، وبحلول العام 439 م. كانوا قد رسّخوا أقدامهم في قرطاجة بشمال إفريقية (حيث بنو أسطولاً وصاروا قوة جديدة في البحر الأبيض المتوسط).

وكان آلاريك قد نجح في دخول روما في العام 410 م (رغم أن مركز الحكومة كان قد انتقل إلى رافينا)، وارتكب أقصى درجات الإرهاب في نهبها، ولكنه مات بعد ذلك بوقت قصير. واستمر الفيزيقوط في تقدمٍ أوصلهم عبر فرنسا الجنوبية إلى داخل إيبيريا، فحصروا في زواياها السويبيين والألانيين والفاندال الذين سبقوهم إليها. وهناك أسسوا مملكة جديدة استمرت 250 عاماً، حكموها أولاً من طولوز، وبعد ذلك من طليطلة(*). وفي آخر الأمر انتهى عهدهم

(*) تميز صعودهم بصراع لا ينتهي ضد الباسك: وصار كل ملك من ملوكهم يذكر في سجله التاريخي تبجحاً متفاخراً ولكنه فارغ على ما يبدو، بالزعم بأنه 'دجّن الباسك'.

بشيء جديد تماماً على أوروبا، وهو غزو إسلامي (ناطق بالعربية) من الجنوب في العام 711 م.

ولكن في الشرق، شهد الجيل الذي أعقب آلاريك آتيلا، ملك الهون الناطقين بالتركية من العام 435 إلى العام 453، وهو يوسع ممتلكات الهون لتشمل ألمانيا كلها(*). وقد أوقف على مبعدة من بلاد الغال في العام 451، وعندما مات بعد ذلك بوقت قصير تفككت إمبراطوريته إلى فسيفساء من القبائل الألمانية في الغرب، ومنطقة سلافية في الشرق، ولم يعد الهون يسيطرون إلا على منطقة في الخلف حول البحر الأسود.

وبحلول العام 476، كان المركز السياسي في روما قد سقط، وكان الإمبراطور الأخير، القاصر رومولوس أوغستولوس قد أزيح بطريقة إنسانية على يد أودواكر، الذي كان ذات يوم واحداً من أتباع آتيلا ناطقاً بالألمانية، ولكنه صار بعد ذلك واحداً من قادة الإمبراطورية أنفسهم. ثم انتشرت القبائل الجرمانية واستقرت بسرعة مذهلة على جثة الإمبراطورية القديمة. وفي غضون خمسين عاماً كان الفرانك (الذين استقروا مئتي عام في منطقة بلجيكا الحديثة، بل واستخدمتهم الإمبراطورية في دوريات على الحدود) قد تسلموا السيطرة على معظم بلاد الغال، منتشرين من الشمال، مع استيلاء البورغانديين على منطقة كبيرة ولكنها آخذة بالتقلص في الجنوب، أما الأوستروقوط، الذين سرعان ما سيطيح بهم اللومبارديون الجرمان مثلهم فقد أمسكوا بإيطاليا وجنوب غرب الغال ودالماسيا على الساحل الشرقي لبحر الأدرياتيك. وبعد ذلك بدأ غرب أوروبا يستقر، ولكن شرقها كان سيتعرض لغارات متناوبة من الآفار (من العام 550) والبلغار، يتبعهم الخزر بسرعة (من العام 650، والمجر (من العام 750)(**) .

(*) من الغريب أن أتيلا هو اسمه للتحبب في القوطية، ومعناه 'الأب'.

(**) من بين هؤلاء، كانت لغة المجر هي وحدها الواضحة، وهي الهنغارية، ذات العلاقة باللغات الأورالية في سيبيريا الشمالية. أما بالنسبة للغات الأخرى فلعل الآفار كانت مغولية بينما البلغار والخزر كانتا تركيتين. والآفارية القديمة يبدو أنها ليست هي نفسها ما يعرف الآن بالآفارية، التي هي من شمال شرق القفقاس، محكية في داغستان وأذربيجان، ولا علاقة لها بالتركية أبداً. وقد تكون البلغارية باقية في جيوب مبعثرة عبر سيبيريا حتى اليوم، وتعرف باسم كوباش (وهذا الاسم متماثل مع طابغاش، اسم

ومن المذهل أن التأثيرات اللغوية لهذا الاضطراب السياسي السكاني الذي استمر مئة وخمسين عاماً في غرب أوروبا كانت طفيفة. فمن المؤكد أنه قد تم سماع أصوات عديدة للغات جديدة، ولو لمدة قصيرة، في غربي الأورال بين العامين 400 و850. ولكن في غرب الألب لم يكن هناك تغير يذكر في الأوضاع التي أحدثها غزو قيصر لبلاد الغال حوالي العام 50 ق.م.، فيما عدا الأصداء المتلاشية للغات الجرمانية، مثل الساكسونية والألمانية والقوطية، عند مرورها بسرعة عبر السهول الوسطى لبلاد الغال، بعيداً عن الأسماع في المساحات الممتدة على مبعدة إلى الجنوب والغرب.

وعندما انقشع الغبار المنبعث من حوافر الخيل العادية، وتلاشى زعيق العربات المغطاة، وجفّ البريق شبه المذهّب الذي طُليت به قصور العوائل الجديدة التي نصبت نفسها ملوكاً على أوروبا العصور الوسطى، كانت الحدود اللغوية مألوفة بشكل غريب. فلعل حافة الجرمانية انزلقت قليلاً إلى الغرب أثناء الفترة الطويلة التي كانت فيها حدود الإمبراطورية ما تزال محمية، ولم يكن أقل أسباب ذلك دعوة الألمان المجاورين إلى اجتياز تلك الحدود، باعتبارهم 'شعب معاهدة'، أو 'أناساً مرحين'، للخدمة في الجيش، أو على الأرض، لمنفعة المجتمع الروماني. ولكن الخط الفاصل بين اللغتين الجرمانية والرومانسية كان لا يزال يرتسم من الطرف الغربي عند مصب نهر الراين باتجاه جنوبي شرقي. وإن السقوط المتكرر لأجزاء من الغال تحت سيطرة ألمانية، واستقرار قبائل الفرانك فيها بثبات آخر الأمر لم يعمل على ترجمة هذا الخط أو نقله بشكل دوار أبعد أو أكثر.

إن فشل السيطرة الفرانكية في الحلول محل لغة الغال كان هناك ما يوازيه في الممالك الألمانية الجديدة الأخرى. ففي إيطاليا تحت حكم الأوستروقوط واللومبارديين، وفي إيبيريا تحت حكم متعاقب على التوالي من الفاندال والسويبي

الناس المشهورين بغزوهم للصين الشمالية في القرن الرابع عشر) (انظر الفصل الرابع: 'اللغة من هوانغ - هي إلى يانغتسي'، ص 206). وقد حكم الخزر بحر قزوين إلى كييف مدة قرن (من حوالي 650 إلى 750) وهم مشهورون بشكل رئيسي باختيارهم اعتناق اليهودية في العام 861. وقبيلة كارايم اليوم متحدرة منهم. وهناك مجموعة تركية أخرى هم تتر الجحفل الذهبي الذين انتقلوا عابرين في القرن الثالث عشر [ومعهم هولاكو].

والآلان. والفيزيقوط، وفي سواحل شمال إفريقيا تحت حكم الفاندال، فإن اللغة التي تأسست تحت حكم الإمبراطورية الرومانية تشبثت بالبقاء(*). فرغم أن الفيزيقوط حكموا إسبانيا مدة 250 عاماً، لا يستطيع المرء حتى أن يعثر على عدد هام من الكلمات القوطية التي استعارتها الإسبانية من هذه الفترة. وقد كتب ميناديز بيدال، المؤرخ اللغوي الإسباني:

> يظهر أن العناصر الألمانية في اللغة الإسبانية لا تنبع بصورة عامة من سيطرة الفيزيقوط على شبه الجزيرة، كما كان من الممكن توقعه: فعدد الغزاة كان خفيفاً نسبياً بحيث لم يكن لهم تأثير كبير، وعلاوة على ذلك، فإن الفيزيقوط قبل أن يصلوا إلى إسبانيا كانوا قد عاشوا لمدة قرنين على اتصال وثيق مع الرومان، تارة كحلفاء، وتارة كأعداء. وفي داسيا، ومويسيا، وفي إيطاليا نفسها وفي الغال، فكانوا متشربين كثيراً بالثقافة الرومانية(43) .

إن تفسيراتنا لا بد أنها مغالطة منطقية. فلا شك أن غالبية الألمان المتقدمين كانوا رجالاً مقاتلين. ولا شك أنهم قد اخذوا زوجات من السكان الذين استقروا بينهم. فاللغة في البيوت الجديدة، البعيدة عن ألمانيا، لا بد أن تكون الأم المحلية وعائلتها هم الذين وضعوها. ولكن هذا الشيء نفسه يمكن أن يقال عن الغزاة الألمان لبلاد الغال قبل ذلك بخمسة قرون، أو حتى عن المكسيك وبيرو بعد الغزو الإسباني بعد ذلك بألف سنة. ومع ذلك فإن لغة الغزاة التي انتشرت بلا شك عن طريق الفرص التي قدمتها ليصبح الآخذون بها جزءاً من النظام

(*) كانت للاتينية حياة فاتنة مسحورة في شمال إفريقيا لمدة قرن من الزمن (428-533) تحت حكم الفاندال، ثم تحت سيطرة الإمبراطورية الرومانية منبعثة من القسطنطينية حتى العام 696. فسيرة حياة أشهر السكان، أي القديس أوغسطين (354-430)، أسقف هيبو، ما كان يمكن التفكير فيها خارج وسط ناطق باللاتينية. فالملاحظات التي يبديها في بعض مواعظه تقدم دليلاً على أن ثنائية اللغة مع البونية، لغة قرطاجة القديمة، ربما تكون قد استمرت باقية حتى القرن الرابع (سينيسر 1996). ومن الواضح أن الناس العاديين استمروا يتكلمون اللغة البربرية (كما يفعلون حتى يومنا هذا). ولكن الاستيلاء العربي على شمال إفريقيا، يدعمه اعتناق الإسلام في الأراضي الداخلية الناطقة بالبربرية، كان له تأثير في تغيير اللغة العاملة في المنطقة أسرع بكثير من تأثير الفاندال (وربما أسرع حتى من تأثير الرومان منذ الأعوام السبعمئة والخمسين التي مضت على تدمير استقلال قرطاجة).

الاقتصادي الجديد، سرعان ما بدأت تفوز. ويظهر هنا أن الغزاة لم يكونوا يرغبون في شيء سوى وضع النظام القديم تحت إدارة جديدة. ولكنهم بعد أن هزموا المدافعين عن ذلك النظام، اعتمدوا في آخر الأمر على ضحاياهم لتقديم الحياة التي كانوا يبحثون عنها. إنها حكاية مألوفة في الصين أكثر منها في أي شيء من تاريخ الغرب(*).

واعتباراً من هذه النقطة فصاعداً تسمى اللاتينية المحكية رومانسية، إشارة إلى أن لهجات اللاتينية العامية الدارجة الآخذة في الظهور كانت حرة في أن تتطور بشكل تستقل فيه كل منها عن الأخرى (رغم أن أول وثيقة عامية باقية كسلف للغة الفرنسية لم تظهر إلا في العام 842)(**). وكانت الغزوات الألمانية والآلانية إيذاناً بالفشل النهائي، والكلي، للدفاع المدني عن الإمبراطورية الرومانية. وكان من بين تأثيرات التخلخل الاجتماعي الذي جاء في أعقابها انهيار توفر التعليم. والحقيقة أن هناك أدلة على أن الأمية كانت تنمو في كل مكان منذ عدم الاستقرار في القرن السابق. وينخفض عدد النصوص المحفوظة في القرن الثالث الميلادي انخفاضاً شديداً في إيطاليا، وقاسياً في منطقة الحدود، مثل موسيا العليا (البوسنة الحديثة)، وتتلاشى وتختفي في كل مكان في حوالي العام 400م[44]. وعندما كان أوغسطين يكتب في شمال إفريقيا في أوائل القرن الخامس، روى قصة عبد رقيق كان يستطيع القراءة، باعتبار هذه القصة معجزة[45]. وفي منتصف القرن السادس، يدرك سيزاريوس في أريليت (آرل، قرب مرسيليا) أن التجار، وحتى رجال الأعمال، قد يكونون عاجزين عن القراءة[46]. وبدون تعليم واسع الانتشار فإن معايير اللاتينية الفصحى الكلاسيكية لن تعود قادرة على العمل ككابح لاجم للنقل الشفوي.

(*) وآخر مثال على ذلك تماماً سلالة مانشو، الذين حكموا الصين من العام 1644 إلى العام 1911، ولكن شعبهم الخاضع لهم امتصهم واستوعبهم بشكل كلي. ولغتهم الآن على حافة الانطفاء (انظر الفصل الرابع: 'اللغة من هوانغ - هي إلى يانغتسي'، ص 210).

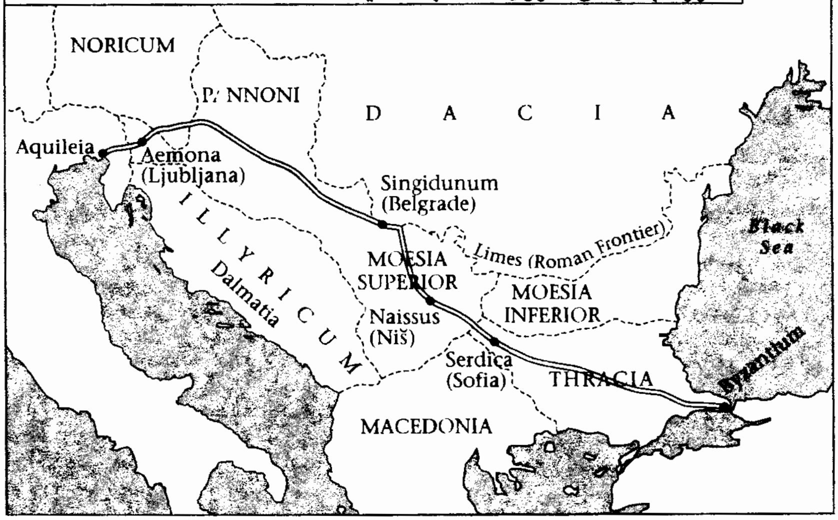
(**) 'أيْمان ستراسبورغ'، معاهدة بين لودفيغ الألماني وتشارل الأصلع. ومن المفارقة أنها لا تأتي إلا بعد إعادة حكومة واحدة عبر معظم أنحاء فرنسا وألمانيا وإيطاليا. (انظر الفصل الثامن، ص 444).

وبالإضافة إلى ضعف التقليد الدراسي والذاكرة، هناك قوتان دعمتا تفتت اللاتينية كلغة وحيدة. إحداهما أن اللاتينية في كافة أنحاء مجالها كان لها ناطقون يشغلون مناصب متميزة ومتنفذة، ولكن أولياء أمورهم قد نشؤوا وهم يتكلمون شيئاً آخر، هو لغة جرمانية في أغلب الأحيان. أما القوة الثانية فكانت تنبع من انهيار الإدارة المركزية المنهجية المنتظمة وصعود المجتمع الإقطاعي: فقد تم تنظيم الأفراد والأسر بشكل كبير في تراتب تسلسل هرمي شخصي، من الملك ومؤيديه النبلاء من البارونات نزولاً إلى صغار الملاّك، وعبيد الأرض. وكل حلقة في السلسلة مرتبطة بالولاءات الشخصية ومبايعة السيد الإقطاعي. وكان هذا يعني أن السلطات المحلية صارت متجهة إلى الداخل أكثر: وظل الناس مستقرين في أماكنهم على نحو متزايد، وعلى اتصال بجيرانهم فقط، فكانت النتيجة انقساماً أسرع للكلام الروماني إلى لهجات ولغات محلية.

الفجر السلافوني في البلقان

ولكن، من وجهة النظر اللغوية، فإن تأثير الانتشار الشعبي الألماني إلى الغرب كان صفراً. فقد كان شركاؤهم في الوقوع ضحايا للغارات من الشرق، وهم السلاف (الذين يسميهم تاسيتوس "الفينيتي") أفضل حظاً منهم بكثير. ففي منتصف القرن الخامس، تدفق الهون من خلالهم إلى ما وراءهم، ثم انسحبوا إلى البحر الأسود، تاركين الفينيتي وأقاربهم ينتقلون بشكل دائم إلى السهول الشرقية لبولندا التي أخلاها الفاندال واللومبارديون، من بين آخرين. أما التدفقات التالية من الآفار والبلغار فقد لقيت مقاومة ناجحة على وجه العموم من قبل الإمبراطورية الرومانية الشرقية. ولكنها عملت على إزاحة الألمان الباقين (من قبائل الجبيد Gepids، والأوستروقوط، واللومبارد) من المناطق الأبعد إلى الجنوب، مناطق الكارباثيان والبلقان، كما عملت على تغطية اندفاع السلاف إلى الجنوب. وفي القرن السادس، استولى السلاف على الطريق الشرياني من أكويليا على بحر الأدرياتيك إلى القسطنطنية، وهو الطريق الوحيد في الشرق الذي أبقى هذا الجزء من الإمبراطورية على صلة قوية بإيطاليا الناطقة باللاتينية. وبهذه الطريقة انتقلوا في آخر الأمر إلى المناطق البلقانية من

غزو البلقان في القرون 5 ـ 7 بعد الميلاد



الإمبراطورية الرومانية، بما فيها اليونان نفسها ـ كما رأينا من قبل (انظر الفصل السادس: 'تلميحات عن التدهور'، ص 370). وفي ذلك المركز التقليدي من العالم المتحضر انتشر السلاف فامتصهم السكان واستوعبهم، ولكن أعدادهم النسبية على مبعدة إلى الشمال كانت غالبة أكثر من ذلك. وبحلول القرن السابع كان السلاف قد استولوا لغوياً على معظم أوروبا الشرقية، حيث هم باقون إلى اليوم(*).

والسؤال الذي يطرح نفسه هو: لماذا رسّخت لغة الغزاة السلاف نفسها، بينما اختفت لغة الألمان إلى حد كبير؟ ولكن ليس هناك جواب واضح. فاللغة اللاتينية بقيت لأنها لغة الرومان على الأقل، وهذا يشير إلى أنه، كما حدث في أوروبا الغربية، تخلى الغزاة السلاف عن لغتهم في منطقة واجهوا فيها ثقافة أكثر تنظيماً. ولكن الجغرافيا لا تطابق ذلك، إذ إن دالماسيا وموسيا (أي يوغوسلافيا السابقة وبلغاريا) هما اللتان كانتا مقاطعتين في الإمبراطورية الرومانية على المدى الطويل بدون أي تحدٍ منذ أن غزا تراجان منطقة البلقان

(*) لقد أحدثوا استثناءً متأخراً بإفساحهم المجال للمجريين في القرن العاشر، وبذلك أوجدوا جيباً هنغارية في وسط أوروبا الوسطى السلافية.

كلها في العام 106 ـ 107 م. وقد تم التخلي عن داسيا (رومانيا الحديثة) لأسباب استراتيجية في العام 271، عندما سيطر الجبيد والفيزيقوط. وصحيح أن تراجان قام أول الأمر بتوطين المستعمرين في داسيا بشكل كثيف[47]. وكان هناك ناطقون باللغة الرومانسية باقون في الأجزاء العليا والدنيا من الساحل الدلماسي، حتى بداية القرن العشرين (وكان الإغريق يعرفونهم باسم "رومانوي"). ولكن يبدو أن التفسير هو أن السكان الناطقين باللاتينية قد زحفوا شمالاً من موسيا إلى داخل داسيا على مدى بضعة القرون التالية، وصار بدو الفلاتش الرحّل هؤلاء من ملامح المشهد في التخوم الشمالية للإمبراطورية حتى القرن الحادي عشر[48].

ومهما كان التاريخ المتداخل بين هذه الأحداث، فإن الثقافة الرومانية لمنطقة البلقان، التي كانت دائماً شيئاً يشبه موقعاً خارجياً، لم تكن على ما يبدو قوية. بما يكفي لإحيائها في ظل حكم الأسياد السلاف الجدد.

ضد الأخطار: مجيء الإنكليزية

وقد حدث شيء لعله شبيه بذلك على الطرف الآخر من الممتلكات الرومانية، لأن بريطانيا أيضاً فقدت لاتينيتها في وجه الغزوات في هذه الفترة. وفقدت لغتها البريطانية كذلك. وحادثة تبديل اللغة هذه، التي كانت أصل اللغة الإنكليزية أيضاً، لم يكن لها شبيه في عصرها ـ فهي المرة الواحدة والوحيدة التي استطاع فيها الغزاة الألمان أن يتمسكوا بلغتهم الخاصة بهم.

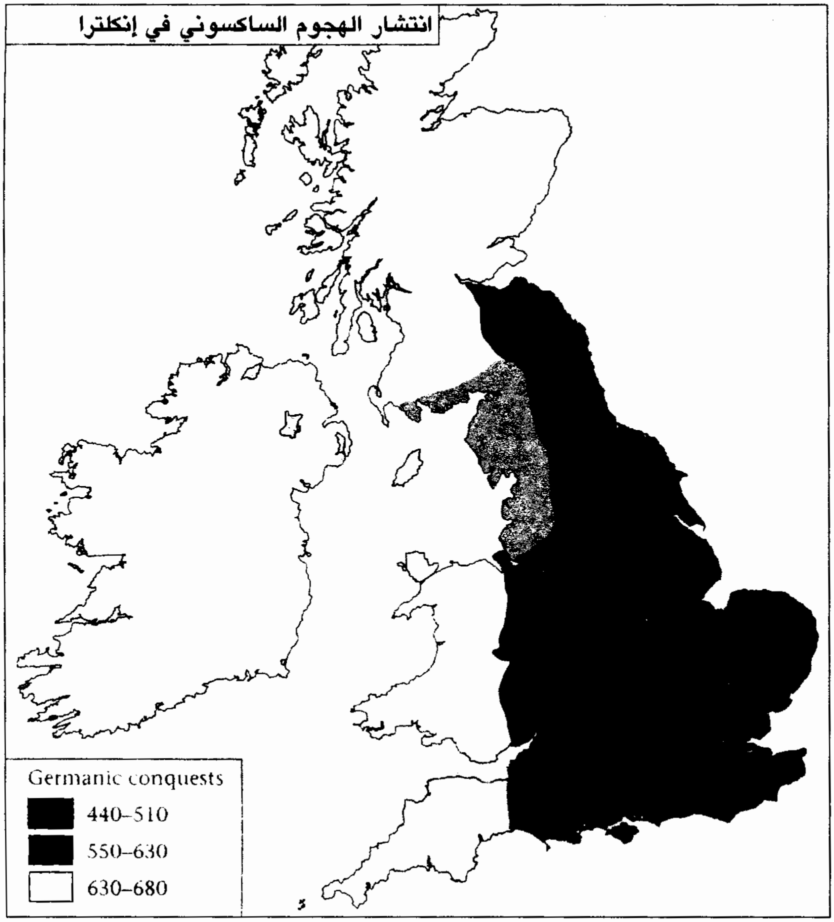
ويبدو لأول وهلة أن مصير بريطانيا كان ينبغي أن يكون مثل مصير بلاد الغال، أو إيبيريا، أو حتى إيطاليا. فالغزاة الألمان، الذين جاؤوا في هذه الحالة من ساحل أوروبا الشمالي الغربي، دخلوا مقاطعة مترنحة مضطربة من الإمبراطورية الرومانية في القرن الخامس الميلادي. ولم يعودوا منها إلى وطنهم أبداً. وعلى ضوء تجربة أوروبا الغربية. فإن هذا كان ينبغي أن ينجم عنه اضطراب يستمر بضعة قرون قبل تأسيس مملكة مستقرة إلى حدٍ ما، أو سلسلة من الدويلات (إذا فشل التوحيد) ينتهي بها المطاف إلى تكلم تشكيلة من اللاتينية. والواقع أن ما حدث كان تقدماً وتوطناً تدريجياً للغزاة (الذين قد نصفهم بطريقة مفرطة

البساطة بأنهم الساكسون(*)، من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي، مع التسليم بأنها عملية لم تكتمل أبداً، ولكنها على الأقل شملت مناطق الأراضي المنخفضة إلى سلسلة جبال البناين ودارتمور عند نهاية القرن السادس، ومعظم إنكلترا الحديثة وجنوب شرق اسكتلندا عند نهاية القرن السابع. وبالتدريج، على مدى الفترة نفسها تناقص عدد الممالك الإقليمية إلى ثلاث، هي نوثمبريا، وميرسيا وويسكس.

ومن الناحية اللغوية، فإن المراحل الوسطى مبهمة، ولكن انتصار اللاتينية كلغة شعبية، بشكل شبيه بما كان يحدث على القارة دائماً، لم يكن يبدو حتى ممكناً على الإطلاق. فليس هناك أي إحساس باستيلاء الساكسون على المجتمع البريطاني، بل إنها هي القصة الكلاسيكية التقليدية لغزاة أجانب يقيمون رأس جسر بالتدريج، ثم ينتشرون منه إلى الخارج، ويبنون نظاماً جديداً وفق شروطهم، كما فعل المستعمرون الأوروبيون في العالم الجديد في الأمريكتين. وليست هناك سجلات باللغة البريطانية من هذه الفترة، ولكن السجلات الباقية باللاتينية (ولا سيما كتاب غلداس المعنون "تدمير البريطانيين" من حوالي العام 540، ومجموعة "مقتطفات نينيوس" حتى حوالي العام 800 م) ترسم صورة معادية للساكسون باعتبارهم مدمرين. وكان الساكسون الغربيون متعلمين من القرن التاسع بلغتهم الخاصة (وهي نفسها شيء غريب مثير للفضول من غزاة جرمان)، ورجال الشمال Norsemen بعد ذلك بقليل. ولا يظهر أي منهم اهتماماً يذكر بأسلافهم البريطانيين.

فكيف أمكن ذلك؟ فبعد كل شيء كان البريطانيون ورثة أربعمئة عام من

(*) هناك في الحقيقة نزاع ضمني في المصادر حول من كان هؤلاء الغزاة. كان من الواضح أنهم ناطقون بلهجة ألمانية دنيا، ولكن غلداس (وهو كلتي كان يكتب قبل العام 550 م) يسميهم الساكسون، (أو بصورة أدق أولئك الساكسون الشرسين ذوي الاسم الرديء الكريه عند الله والناس، 23 -1)، أما بروكوبيوس (وهو يوناني - أقل انغماساً شخصياً في المسألة - وكان يكتب أيضاً قبل العام 550م.، ولعله استخدم معلومات من مبعوثين من الآنغل في مهمة فرانكية إلى بيزنطة) فيقول إنهم كانوا من الآنغل والفريسيين (الحرب القوطية، 20:4). وكان المحترم بيد، في تاريخه المنشور في العام 731، هو الذي سماهم الآنغل والساكسون والجوت (15:1). وقد جاء اسم الساكسون من سلاحهم المفضل، وهو الساكس، أي السكين. وكذلك اسم الفرانك من سلاحهم المفضل، وهو الفرانكا، أي الرمح. ولم يكونوا بين القبائل المعروفة عند تاسيتوس، ولكنهم كانوا يعيشون في المكان الذي يُحدّد فيه وجود قبائل التشاسي والتونغري، عند مصبي نهري ويزر والراين على التوالي.



الحضارة الرومانية، تماماً مثل أهالي الغال، وإن كانت لهم صفة مشهورة فهي بسالتهم الحربية. بل إن حكاماً من بريطانيا (ماكسيموس في العام 388، وقسطنطين في العام 407) كانوا قد قادوا مرتين قوات ناجحة إلى القارة في غضون الخمسين عاماً السابقة. ومع التسليم بأن الرومان كانوا قد سحبوا قواتهم الكبرى إلى إيطاليا، فأتيحت للساكسون فرصة إقامة رأس الجسر، فقد كان على البريطانيين أن يعيدوا تجمعهم في الأجيال التالية، في عمق تسعة أعشار بريطانيا التي ظلوا مسيطرين عليها، وبالاعتماد على خبرتهم إما أن يطردوا القادمين الجدد على أعقابهم، أو أن يفرضوا عليهم تسوية ما.

ولكننا نرى بدلاً من ذلك تراجعاً مطرداً، وانتشاراً غير متمازج عبر البلد من تشكيلات متنوعة من الألمانية الدنيا، والإنكليزية الأنغلية، والساكسونية، والفرنسية، وربما الجوتية. والواقع أن الشبه الوحيد لهذا الانتشار للغة الجرمانية هو ما حدث عندما واجه الغزاة الجرمان أرضاً بكراً، في جزر بحر الشمال وفي إيسلندا. فهناك بالطبع انتشرت لغة الفايكنغ الشمالية القديمة Old Norse لأنه لم يكن لها منافس. فهل ذاب البريطانيون وتلاشوا من الأراضي المنخفضة المتمدنة؟ ليست هناك حاجة إلى شيء أقل من ذلك لتفسير هذا الانتشار السهل والكامل لتلك اللغات الجرمانية ضمن بريطانيا، وقبل كل شيء اللغة الإنكليزية.

وتقول نظرية حديثة من ديفيد كيز إن البريطانيين ربما يكونون قد ذابوا فعلاً[49]. فقد كان منتصف القرن السادس (بالقرب من العام 550) هو الزمن الذي دخل فيه الطاعون الدمّلي من بريطانيا على طول الطرق التجارية من البحر الأبيض المتوسط. ومن المهم أنه قد أصاب بريطانيا (غرب الجزيرة ووسطها) وليس إنكلترا (الجنوب الشرقي)، لأن بريطانيا وحدها هي التي كانت تحافظ على روابط تجارية مع الإمبراطورية الرومانية. فكان احتمال انتشار الطاعون إلى الساكسون أقل لأنهم لم يتزاوجوا مع البريطانيين ولم يختلطوا بهم، وكانوا يعيشون خارج المدن الرومانية القائمة، فربما كانت كثافتهم أقل. فكان الطاعون متزامناً مع " الموت الأعظم"، الذي أصاب إيرلندا، حسبما جاء في "حوليات آلستر"، فدمر الأرستقراطية (وكل طبقة أخرى بلا شك). وقد مات بالطاعونأيضاً ميلغون، ملك غوينيد في ويلز، في العام 547 أو 549، حسبما جاء في "حوليات كامبريا". وقد بقيت ذكرى شعبية عن هذا المرض والتفريغ السكاني الذي سببه في أسطورة الأرض اليباب المرتبطة بالملك آرثر، جمعت بين المجاعة والهزيمة العسكرية، وجرح غامض أصاب الملك في أصل الفخذ - وهو من خصائص الطاعون الدملي.

بل إن هناك دليلاً وراثياً يؤكد ذلك بشكل لافت للنظر. فبمقارنة كروموسوم Y من حمض الدنا DNA الخاص بعيّنات في خط عابر من آنغلسي إلى فريزلاند، وجدت دراسة حديثة أن الويلزيين كانوا حتى يومنا هذا متميزين بوضوح عن الويلزيين في إنكلترا الوسطى، ولكن العينات الإنكليزية والفريزية

متشابهة إلى درجة أنها تشير إلى أصل مشترك لـ 50 ـ 100 بالمئة من السكان (الذكور)؛ وربما نتج ذلك عن هجرة جماعية كثيفة من فريزلاند[50]. وبموجب الافتراض المعتاد بأن عدد سكان الجزيرة في فترة الحكم الروماني قد وصل إلى 3 ـ 4 ملايين، يبدو أنه لا يمكن لأي شيء سوى الوباء أن يزيل البريطانيين إلى هذا الحد من أسلاف إنكلترا الوسطى.

وهكذا فإن الإنكليزية تعرضت لأحداث طارئة غير متوقعة. فلم تملك المناطق الشرقية والوسطى من الجزيرة لنفسها، بل دخلت إلى النظام قوة جديدة في أواخر القرن الثامن، هي مجموعة جديدة من الغزاة الألمان، من رجال الشمال، أي الفايكنغ من شبه جزيرة اسكندنافيا. فتقدموا من غارات ساحلية إلى الاستيطان في غرب اسكتلندا وشرق نورثمبريا، إلى تقاسم الجزيرة مع الساكسون بموجب معاهدة (في حوالي العام 886 م)، وأخيراً إلى غزو سافر مكشوف للمملكة كلها في العام 1013. وكان ذلك على يد سفين فوركبيرد، الذي خلفه ابنه كنوتر، المعروف أفضل باسم الملك كانوت.

وعلى عكس الانقسام البريطاني ـ الإنكليزي، فإن العلاقات بين الأنغلو ـ ساكسون والفايكنغ، وإن كانت عدائية في بادئ الأمر، قد أثبتت أنها متداخلة متخالطة على المدى الأطول. وإن إحدى الطرق لفهم ذلك هي النظر إلى الفايكنغ باعتبارهم غزاة جرمانيين تقليديين كلاسيكيين، مغيريين عسكريين، كسبوا معظم المعارك ولكنهم خسروا السلام، وذلك باستقرارهم ـ ربما مع زوجات إنكليزيات ـ وأخذهم إلى حد كبير بلغة رعاياهم، أو ضحاياهم. ومع ذلك، فبما أن اللغة التي استقروا عليها كانت من أقاربهم القريبين (ولو كان وراءها أكثر من عشرين جيلاً من التطور المستقل)، فقد كان هناك مجال سهل لثنائية اللغة ولدرجة من التفاهم المتبادل. فكانت النتيجة دفقاً وفيراً من الكلمات الشمالية التي استعارتها الإنكليزية، وتأثيراً كبيراً على قواعدها النحوية. وفي الإنكليزية الحديثة هناك حوالي سبعة بالمئة من المفردات الأساسية من أصول شمالية متميزة (بما في ذلك كلمات مثل *take*، *get*، *keep*، *leg*، *sky*، *skin*، *skirt*، أي على التوالي: خذ، احصل، احتفظ، ساق، سماء، جلد، تنورة)[51]، وهذا الخليط من اللغتين هو الذي

نشأت عنه بشكل شاذ وغريب وغير ذي صلة مجموعة ضمائر الشخص الثالث الغائب *(he)* هو، و*(it)* هي، و*(she)* هو أو هي لغير العاقل، و*(they)* هم(*).

وهكذا انتهت المرحلة المبكرة من الغزوات الأوروبية الغربية بتحول الألمان إلى الغرب بطريقة ذات منظور متعدد الأشكال والزوايا، وتحول السلاف إلى الجنوب. ولم يستطع الألمان أن يحتفظوا بلغتهم إلا عندما كانوا يغزون مناطق خالية إلى حد كبير أو خالية كلياً ـ مثل بريطانيا المدمرة بالطاعون، وإيسلندا غير المأهولة سابقاً. فإن غزواتهم في الأراضي الغربية الداخلية من الإمبراطورية الرومانية لم يكن لها أي تأثير لغوي جوهري. فقد بقيت اللاتينية قوية في غرب القارة وجنوبها، فالتأثيرات اللغوية للغزو الروماني هناك لم يتم إلغاؤها أبداً. أما السلاف فقد كان لهم تأثير أكبر بكثير حيث استقروا في البلقان، ربما لأنهم كانوا يغزون مناطق أقل تحضراً وبالتالي فهي أقل كثافة سكانية؛ ولكن السلاف أيضاً تم امتصاصهم أو حذفهم في مناطق الحضارة القديمة التي اجتاحوها، وهي أجزاء من اليونان والأناضول.

كان الأثر الطويل الأمد تقسيماً لغوياً لأوروبا ظل معروفاً مألوفاً منذ ذلك الحين: الرومانسية في الجنوب والغرب، والجرمانية في الشمال والوسط، والسلافية في معظم الشرق، واليونانية في أقصى الطرف الجنوبي الشرقي. وكان الحدث الرئيسي في القرن الخامس هو في الحقيقة تحول بريطانيا في الشمال الغربي من الرومانسية (أو ربما من الكلتية الباقية) إلى المنطقة الجرمانية، أي المجال الألماني. وكان لا يزال هناك تغيير كبير سيحدث في هذه الجزيرة: وهو انتشار الألمانية في المستقبل إلى آخر معقل كلتي حصين على مدى الألف عام التالية، تتخلله وتصحبه محاولة أخيرة للتأكيد على الرومانسية ضد الألمانية، والغزو النورماندي لإنكلترا. ولكن حكاية هذه الأحداث يجب أن تنتظر حتى نلتفت إلى نمو اللغة الإنكليزية نفسها.

(*) قارن هذه الضمائر في الإنكليزية القديمة *(hê, hit, hēo, hīe)* مع اللغة الشمالية القديمة *(hann, that, hon, their/thau/thoer)* باستخدام th الإنكليزية، بدلاً من ȝ الشمالية. إذ إن الاختلاط بين نظامين مختلفين من النهايات حفظتهما جيداً الإنكليزية القديمة والشمالية ربما يكون قد سبب انهيار إعراب الأسماء وحالاتها الصرفية.

8
الموت الأول للاتينية

التفلسف الخطابي يفهمه قليلون، ولكن كلام الرجل العادي يفهمه كثيرون.
غريغوري أسقف تورز، مقدمة للتاريخ الفرنسي (حوالي 575 م)[1]

إن تاريخ أوروبا الغربية عقب الغزوات الجرمانية هو حكاية كيفية تحول الممالك التي أسستها القبائل الغازية إلى أمم متمايزة. فقد اتسعت الفوارق بين اللهجات اللاتينية التي كان الناس يتكلمونها، وصار السفر الواسع النطاق أقل شيوعاً، بينما تدهور واضمحل نظام الطرق، وأصبح تطبيق النظام العام بعيداً عن المدن غير ممكن. فلم يعد هناك جيش روماني له تقليد عام مشترك، وقوات يمكن توقع نقلها إلى أي مكان. وحيثما بقيت معرفة القراءة والكتابة، في الكنيسة بشكل رئيسي، بقيت معها اللاتينية المكتوبة كذلك. ولكن هذا لم يكن كافياً للحفاظ على أي مستوى للغة المحكية. فقد اتسعت الفجوة بين اللغة المحكية والمكتوبة، ولكن دون أن يكون لدى الناس أي شعور بما كان يحدث في الحقيقة، وهو أن اللغة المحكية كانت آخذة في التغير. وشيئاً فشيئاً صارت التهجئة اللاتينية تبدو مضطربة ومنحرفة وغير منتظمة أكثر فأكثر: ولكن هذا الغموض كان مقبولاً، بل مرغوباً فيه، لأن القراءة والكتابة صارت حكراً على نخبة قليلة، أغلبها من المحامين ورجال الدين.

وهذه الحقبة، في النصف الثاني من الألف الميلادي الأول، تعطينا الدليل على ما يحدث للغة عالمية في التقليد الأوروبي الغربي المسيحي عندما تبدأ بفقدان تداولها، عندما يبدأ الناس، رغم استمرارهم في تكلمها، يفقدون رؤية

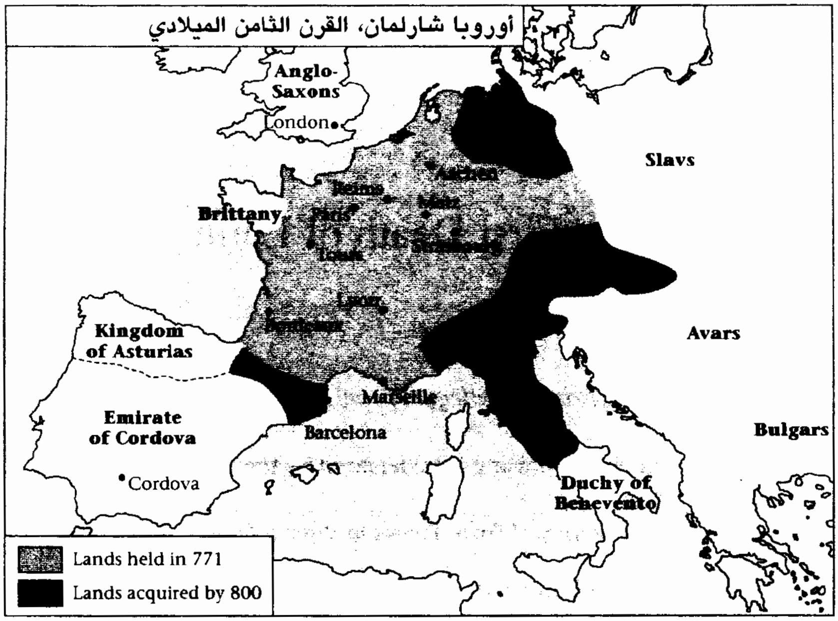
مجالها الواسع، ويعيشون قبل كل شيء في مجتمعاتهم المحلية. فبعد ثلاثمئة عام من اقتسام القوط والألمان لمناطق الإمبراطورية، صار من الصعب جداً على الناس في إسبانيا وفرنسا وإيطاليا أن يفهم كل منهم كلام الآخر عندما يلتقون فعلاً. أما المتعلمون، وهم الواعون الوحيدون للمشكلة، فقد صاروا يسمّون الكلام العادي لأي شخص "إيديوما"، أي غريباً وشاذاً بالمقارنة مع عالمية الكلام الموصوف بأنه "غراماتيكا" أي الكلام الطبيعي المنتظم الذي كانت توصف به اللغة اللاتينية في العصور الوسطى(*).

ومن أوائل القرن الخامس إلى منتصف القرن الثامن، كانت السلطات تنتقل في أوروبا الغربية من جيل إلى جيل، مما سمح بترسيخ الفكرة القائلة بأن الممالك العالمية أو المواطنيات العالمية لا يمكن أبداً أن تكون من هذا العالم. ولكن منذ أواخر القرن الثامن، أخذت سلطات الملك الفرانكي تنمو بالتحالف مع البابوية. ولمدة قرن من الزمن اتحدت مناطق فرنسا، وألمانيا الغربية ومعظم إيطاليا. وكان الملك الفرانكي الذي ترأس ذروة هذا المجد هو شارلمان، الذي حكم من العام 768 إلى العام 814. وكانت تطلعاته ثقافية كما هي سياسية كذلك. وفي العام 781 دعا آلكوين، مدير المدرسة الكاتدرائية في يورك ليترأس أكاديمية جديدة للباحثين في عاصمته بمدينة آخن. فصارت ثمرة هذا الحشد الديني تعرف باسم النهضة الكارولينجية. وفي خلال هذه الدورة، وإلى جانب إصلاحات تعليمية كثيرة أخرى، أسس آلكوين معايير موحدة للتهجئة واللفظ في اللغة اللاتينية(**).

كان آلكوين، باعتباره ناطقاً بإنكليزية البلد الشمالي، يقترب من اللاتينية كلغة أجنبية ينبغي تعلمها من الكتب من البداية، وهو في ذلك ربما كان متفقاً مع أغلب الباحثين في آخن، الذين كان الكثيرون منهم من الشرق الناطق بالألمانية

(*) إن كلمة *idioma* استعارتها اللاتينية من اليونانية، وهي تعني الشذوذ أو الغرابة، أما كلمة *grammatica* فهي بالطبع اسم الموضوع المدرسي الذي كان الجميع يتعلمون به لغتهم اللاتينية.

(**) كان آلكوين هو الذي أسس الفرق المنهجي المنظم بين الحروف الكبيرة والصغيرة في النصوص الرومانية (مثل الفرق الموجود في الإنكليزية)، وقد استمر ذلك حتى يومنا هذا.



أوروبا شارلمان، القرن الثامن الميلادي

في إمبراطورية شارلمان. وقد نجح في تأسيس لفظ مشترك للاتينية، قريب مما نعتقد اليوم أنه هو 'اللفظ الحديث'، فكانت تلك محاولة ذكية لإعادة تركيب صوت اللغة حسب نموذج قديم أصيل وكما عنون عمله:

> فليقرأني كل من يرغب في متابعة صيغ الكلام القديمة؛
> ومن لا يتبعني فهو يرغب في التكلم بدون قانون(2) .

وقد انطوى ذلك على تحول عملي كان هو الأعظم بالنسبة للباحثين الناطقين باللغة الرومانية. فعند قراءتهم نصاً ما، صار عليهم أن يبتعدوا عن لفظهم التقليدي العامي الدارج للغة. فمثلاً كلمة *viridiārium*، أي 'بستان' لم تعد تلفظ *verger* كما كانت عندما كانوا يتكلمون بصورة طبيعية(3). وأدى التحول العملي في آخر الأمر إلى تحول مفهومي. وبالتدريج بدأوا يرون هذا الأسلوب المكتوب بطريقة مختلفة: فكلمة *grammatica* ليست هي فقط الطريقة الطبيعية بل والصحيحة الوحيدة للكتابة للناطقين بلغة الرومانس الغريبة الشاذة *idioma*؛ فعند إعطائها أسلوباً متميزاً للفظ فإنها ستكون لغة منفصلة، تماماً كما كانت بالنسبة

لمواطنيهم الناطقين بالألمانية (والباحثين الناطقين بالإنكليزية والإيرلندية عبر البحار).

وعندما أصبحت اللاتينية المكتوبة راسخة كلغة متميزة، وإن لم تكن أجنبية بعد، بدأت تظهر مناسبات فيها حاجة إلى كتابة شيء يسجل أصوات اللغة العامية المحكية تسجيلاً واضحاً وصريحاً. وكان أقدم مثال معروف لذلك هو ما سمي 'أيْمان ستراسبورغ' في العام 842، عندما اضطر الأخوان لودفيغ الألماني وتشارلس الأصلع، حفيدا شارلمان، إلى حلف يمين بأن يدعم كل منهما الآخر على مسمع من أتباعهما، ولكن في وضع معقد من كون جمهورهما يتكلم لغات مختلفة، ألمانية ورومانسية. وقد سجلت كلماتهما لنا بحرفيتها على يد نيتراد، وهو حفيد آخر لشارلمان[4]، وتقدم النسخة الرومانسية منها أول نص باق منها بالرومانسية وليس باللاتينية. ويبدو أن النصوص قد دونت قبل النطق بها. وكان من غير المعتاد تدوين أي شيء غير اللاتينية الفصحى وشرحه وتفسيره. ومن المفروض أن الغرض من ذلك كان إعطاء قصاصة نسخة لكل واحد من الأخوين[5]. وبالطبع كان بوسع أي ناطق بالرومانسية أن يقرأ علناً نصاً لاتينياً للناس العاديين بلفظ يمكنهم فهمه: فما عليه إلا أن ينطق بالكلمات العامية الدارجة التي يشير إليها أو يوحي بها النص اللاتيني. ولكن المسألة مختلفة جداً لو طلب من ناطق بالألمانية أن يفعل ذلك. وهكذا عُرِضَ على لودفيغ ما يعادل الملقن في القرن التاسع.

إن العبارات الأولى من النص التالي تظهر أن التكلم بالرومانسية لم يعد مسألة تغيير بضعة تفاصيل في اللغة اللاتينية، لأن ترجمته اللاتينية لن تكون شديدة القرب من النص الأصلي، وهو كما يلي:

> من أجل محبة الله والشعب المسيحي وخلاصنا المشترك، ومن هذا اليوم فصاعداً، وبقدر ما يعطيني الله من معرفة وقوة، فإنني سوف أحافظ على أخي بالمساعدة وبكل شيء كما يحافظ أي رجل على أخيه بحق....

إن هذه الحاجة إلى التنقّل بين اللغة المكتوبة واللغة المحكية هي المعضلة الكبرى التي تركتها إصلاحات آلكوين بلا حل. وكان قد قدم صيغة عامة محكية

ومكتوبة من اللاتينية من شأنها توحيد المتعلمين عبر المناطق المسيحية الغربية من دونيغال إلى دلماسيا. ولكن كلفة ذلك كانت هي أن المنتسبين العاديين إلى أبرشية رومانسية لم يعودوا قادرين على فهم قساوستهم أثناء طقوس العبادة في الكنيسة؛ وفي هذه الفترة، ومن أجل ضمان الصحة والاستقامة، صار من الضروري ليس فقط قراءة الطقوس، بل وتلاوة المواعظ أيضاً من نص لاتيني مكتوب، بدلاً من تقديمها بصورة مرتجلة. ونتيجة لذلك، ففي مجلس تورز في فرنسا الوسطى في العام 813، وكذلك في مجلس مينز في ألمانيا في العام 847، تم السماح باستثناء صريح لضمان استمرار الناس في الفهم. '... وعلى كل واحد أن يعمل على تحويل المواعظ نفسها إلى لغة رومانسية أو ألمانية بسيطة، لكي يفهم الجميع ما يقال بسهولة'[6].

إن المحافظة على الوثائق مدة ألف عام ما كان يمكن أن تتم بدون قصد متعمد. وهكذا فإنه ليس عجيباً أن لا توجد سجلات تذكر للغات العامية والدارجة عندما كانت كل السجلات الجدية لا تزال تحفظ باللغة اللاتينية. وهناك قائمة من مكان لحفظ الأجبان في دير إسباني يمكن إعادة تاريخها إلى أواخر القرن العاشر، وقد حفظت لأنها مخربشة على ظهر وثيقة تبرّع[7]. ولكن في القرون التاسع، والعاشر والحادي عشر، كانت النصوص اللفظية باللغات العامية الدارجة توجد في العادة على شكل نتف وقصاصات مدونة على الوثائق اللاتينية. فهناك تصريحات وبيانات حرفية بالإيطالية، مسجلة كما هي تحت القسم لإثبات ملكية أراض تعود إلى أديرة مونتي كاسّينو. وهناك ترويسة واضحة على لوحة جصية على جدار كنيسة سانت كليمنت في روما من أواخر القرن الحادي عشر توضح محاولة مشهورة ولكن فاشلة بدون جدوى لاضطهاد القديس كليمنت، عندما حدثت معجزة ضللت مهاجميه فظنوه عموداً، وقائدهم يصيح بهم:

يا أبناء العاهرات، اسحبوا! يا غوزماريو، ويا آلبرتلّو،
اسحبوا! وادفع إلى الخلف بالعصا، يا كارفونسيلو!

بينما يعلق القديس بلغة لاتينية (غير فصيحة في قواعدها) قائلاً:

إنكم تستحقون أن تسحبوا الصخور القاسية مثل قلوبكم.

ولم تصبح المكانة الحقيقة للغات 'الريفية' واضحة إلا بعد أن بدأت تظهر أعمال أدبية جدية باللهجات العامية الدارجة، فاقتحمت المجال الذي كانت تحتفظ به اللغة المكتوبة. وقد حدث هذا أولاً عند الطرف الآخر من العالم الناطق بالرومانسية، في النورماندي وإنكلترا، حيث بدأ النورمان يكتبون قصائد قصصية وأغنيات شعبية من النوع الذي كانوا يسمعونه من الشعراء المغنين. وكانت "أغنية رولاند"، من أواخر القرن الحادي عشر، أقدم هذه الأعمال وأفضلها، وهي تحكي قصة قتال المؤخرة البطولي الدفاعي ضد فاتحي الأندلس المغاربة في أيام شارلمان. وهي موقعة في سطرها الأخير:

هنا تنتهي المغامرة التي أعاد سردها ترولدوس

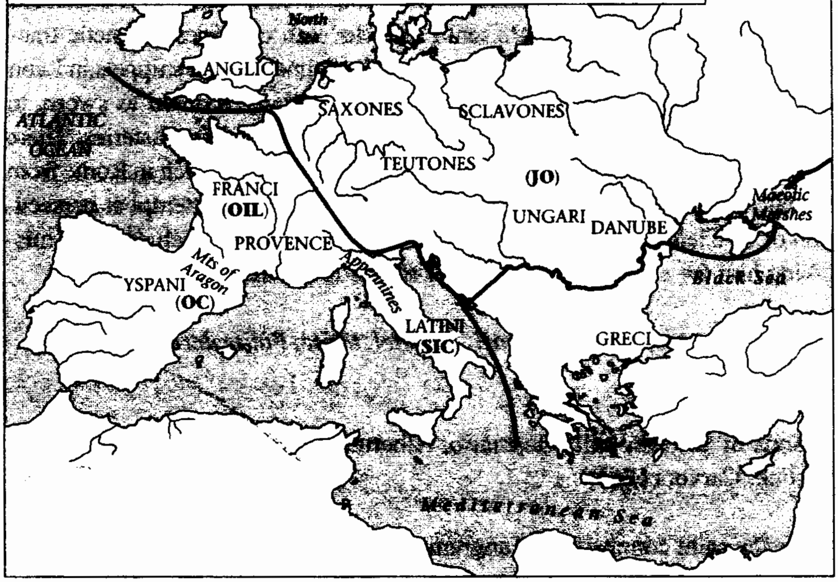
ولا يبدو أن هناك سبباً يمنع من مطابقة اسم ترولد هذا مع شخصية مسماة بشكل خاص تظهر على سجّادة في بايويكس أثناء نقل رسالة إلى وليام الفاتح [الذي غزا إنكلترا في العام 1066م].

وفي القرنين الثاني عشر والثالث عشر بدأ الشعر باللغات الرومانسية يدون في جميع أنحاء أوروبا الغربية، في شمال فرنسا، وفي غاليسيا، وفي قشتالة وقطلونيا، وفي إيطاليا. وقد جاء هذا الاختراق في مناطق لم يكن فيها أبداً تمثيل قوي للغة اللاتينية. وكان هذا الشعر يحتفل بالحب العذري - والمعنى الحديث لكلمة رومانس "أي الخيال الحالم" ليس صدفة - وكذلك بالحكايات البطولية عن الفروسية والحرب. وكانت اللاتينية تدّخر بشكل متزايد باعتبارها لغة المتعلمين في الأديرة والمدارس والجامعات.

ولم يكن المُنظِّر الأول لهذه التطورات اللغوية الجديدة سوى الشاعر الإيطالي البارز دانتي أليغيري الذي عاش من العام 1265 إلى العام 1321. ففي كتابه "بلاغة اللغة العامية" اعترف بأن اللاتينية "الفصحى" هي في جوهرها الصيغة القديمة المحفوظة للغات الرومانسية(*).

(*) في كتاب (بلاغة اللغة السوقية، 1:8) يميز دانتي اليونانية عن اللغات الجرمانية، وعن اللغات الرومانسية كذلك. ومعياره هو أن (الكلمة التي معناها 'نعم -jo' بالألمانية) تميل إلى أن تقسم اللغات الرومانسية إلى ثلاث مجموعات على الأقل (oc, oil, si)، ولكنه يلاحظ أن فيها كمية كبيرة من المفردات

صورة دانتي اللغوية لأوروبا القرن الثالث عشر الميلادي



ويبدو أنه قد وجد صعوبة كبيرة في إقناع جمهوره بأن هذه الفوارق المتوارثة عن الأسلاف كانت هي النتيجة المتوقعة للتغير التدريجي في اللغة واللهجات، بقدر الصعوبة التي لقيها دارْوِن في موضوع وجدول زمني مختلفين بعد ذلك بخمسمئة عام.

> ويجب أن لا يظهر أي شيء نقوله أغرب من رؤيتنا شاباً وقد نما دون أن نكون قد رأيناه وهو ينمو: لأننا لا نلاحظ الشيء الذي يتحرك بالتدريج أبداً. وكلما احتجنا إلى وقت أطول لملاحظة التغير في شيء ما زاد اعتقادنا بأنه مستقر لا يتغير. وهكذا فإننا لا نتعجب إذا كان رأي البشر، الذين ليسوا بعيدين كثيراً عن البهائم، هو أن مدينة معينة قد وجدت دائماً باللغة نفسها، ما دام التغير في اللغة في مدينة ما لا يحدث إلا بالتدريج وعلى مدى زمن متلاحق طويل جداً، كما أن حياة البشر، بطبيعتها نفسها،

المشتركة، لأنها كما يظهر تطلق الكلمات نفسها على أشياء كثيرة: مثل الله، السماء، الحب، البحر، الأرض، يكون، يحيا، يموت، يحب، وكل شيء آخر تقريباً. ومن المدهش أن دانتي يرى أن كلمة oc تدل على الرومانسية الأسبانية، وليس على لغة مقاطعة بروفانس في جنوب فرنسا (المعروفة على أي حال بلغة oc). فلعله قد تأثر بالشبه بين لغة بروفانس ولغة قطلونيا الإسبانية.

قصيرة جداً. ولذلك فإذا كانت اللغة على مدى حياة شعب واحد تتغير كما رأينا على نحو متلاحق مع الزمن، ولا تستطيع أن تقف ساكنة بأي حال من الأحوال، فلا بد أنها سوف تتغير بطرق مختلفة عما يبقى ثابتاً تماماً كما تتغير العادات والملابس بطرق مختلفة، لا تؤكدها الطبيعة ولا المجتمع، ولكنها طرق تنشأ حسب رغبات البشر والذوق المحلي. وقد كان هذا هو دافع مخترعي الفصحى، لأن الفصحى ليست سوى هوية الكلام غير القابلة للتغير مع تنوع الأزمنة والأمكنة[8].

وبالإضافة إلى هذا العمل المكتوب باللاتينية، ألف دانتي كتاباً آخر بالإيطالية، هو: "المأدبة"، وهو ليس قصيدة، بل عمل نثري يهدف إلى شرح أشعاره السابقة، ولكن أيضاً إلى تعليم الناس العاجزين عن قراءة اللاتينية في الوقت نفسه: 'كان يحركني الخوف من العار، وكانت تحركني الرغبة في تقديم تعليم لا يستطيع الآخرون تقديم مثله في الحقيقة'[9].

وكانت هذه بداية نهاية احتكار اللاتينية للمعلومات الثقافية الرفيعة. فمنذ ذلك الحين لم يعد هناك مجال للخطاب أو مهمة للكلام محجوز لها. فاللاتينية، لغة كتب القواعد النحوية، التي كان الناس ذات مرة يشعرون أنها خالدة، ولكنهم في ذلك الوقت أدركوا أنها مصطنعة، راحت تواجه منافسة متزايدة من لغات محكية صارت تدون بالكتابة. فبدأت اللاتينية تموت.

القسم الثالث

اللغات في البحر

ومن يعرف، في الوقت المناسب، أين يمكننا تصريف
كنز لساننا، وإلى أي شواطئ غريبة
سوف يرسل هذا الكسب لأفضل أمجادنا،
لإغناء الأمم غير العارفة بمخزوناتنا؟
وأي عوالم في الغرب الذي لم يتكوّن بعد
قد تصبح مصقولة بالنبرات التي لنا؟

من صاموئيل دانيال، موسوفيلوس (1599)

ديفيد: ما الأخبار؟ ألم تسمع
شيئاً عن مجيء أي سفينة؟
أبراهام: سمعت هدير مدفع، وهذه علامة قدوم سفن.
د: وأنا سمعت أن سفينة جاءت من غويزرات.
أ: وما البضاعة التي تجلبها؟
د: إنها محمّلة بالرز، واللوز، والزبيب، وهي تجلب أيضاً ملابس كثيرة من كل الأنواع، وكثيراً من الحلوى.
أ: هل الأمر كذلك؟ مؤكد أن هذه الأخبار مرغوبة كثيراً.
د: لقد سمعتها مؤكدة كحقيقة.

أوغسطين سبولدينغ

حوارات باللغتين الإنكليزية والملايوية، 1614، ص 1-2[(1)]

9

الموت الثاني للاتينية

إن اكتشاف الأوروبيين الغربيين بأن سفنهم قادرة على عبور المحيطات، وإيصالهم مباشرة إلى أراض نائية، سواء للتجارة أم للغزو الفوري والاستغلال، يفتح عهداً جديداً في التاريخ العالمي لانتشار اللغات. وفي أغلب الأحوال، فإن المجتمعات اللغوية في الأماكن التي قصدتها السفن الأوروبية أثبتت أنها عاجزة عن حشد مقاومة عسكرية أو سياسية فعالة للغزاة المغامرين. وعندما حدث هذا، كان الضحايا في أغلب الأحيان يهلكون بمعظمهم، ويرغمون دائماً على الخضوع لنخبة جديدة. فكان انتشار اللغة عن طريق سيطرة النخب الجديدة أكثر تغلغلاً من أي شيء شوهد من قبل. والنتيجة واضحة اليوم في حضور ست لغات استعمارية على قائمة أعلى اللغات العشر سكاناً في العالم(*).

وكما رأينا، فإن النصف الرومانسي من هذه اللغات كان مديناً بوجوده ذاته للتغيرات التي طرأت على الإمبراطورية الرومانية بعد أن أذابت الغزوات الجرمانية مناطقها الغربية. فتضاؤل التفاهم المتبادل، وإعادة تعريف اللاتينية أو الفصحى المنتظمة القواعد بحيث لم تعد هي الصيغة المكتوبة لهذه اللغات الرومانسية، بل صارت لغة منفصلة عنها، أدى إلى تطورها كأدوات لنوع جديد من المجتمعات.

(*) انظر الفصل 13. كانت اللغات الست هي الإنكليزية والأسبانية والروسية والبرتغالية والألمانية والفرنسية. وكانت لغة سابعة هي الهولندية، التي تحتل المرتبة 21 في مجموعات السكان. إن سيرة الحياة الاستعمارية لهذه اللغات تبحثها الفصول 10 و11 و12.

فكان هذا المجتمع أقل فكراً ولكنه في كثير من الأحيان ذو غنى ثقافي يعادل غنى الكنيسة، التي استمرت تعتمد على اللاتينية، محكية ومكتوبة.

ومع ذلك، فقبل أن تبدأ هذه اللغات تقدمها المتسارع حول العالم، حدث تطور هام أوجد حقبة تاريخية جديدة أكدت وعززت انتشار التعلّم ومعرفة القراءة والكتابة في أوروبا الغربية. ووسعت مدى التنافس بين اللاتينية واللغات العامية الدارجة، بما فيها اللغات الرومانسية، والرهانات الكبيرة الكثيفة التي وضعت على المحك في الصراع. فكانت النتيجة إسقاط اللاتينية عن عرشها كلغة مشتركة للغرب المسيحي: وبالتالي موتها، بعد أن ظلت ألفي عام لغة أي تواصل وإبداع حقيقيين.

وكان هذا التطور الهام هو نشوء سوق جملة كبيرة للكتب المطبوعة. ومثلما تعيد ثورة المعلومات تنظيم العالم في عصرنا هذا، فقد كان هذا التطور في جوهره هو التأثير الاقتصادي لانتشار تكنولوجيا جديدة. فقد طبع يوحنا غوتنبرغ نسخته من الإنجيل في مينز في العام 1450، وسرعان ما نشأت دور الطباعة في جميع أنحاء أوروبا. وبحلول العام 1475 كانت معظم الأعمال الكلاسيكية باللاتينية متاحة ومتوفرة على شكل كتب مطبوعة[(2)]. وعند مجيء العام 1500 كان قد تم إنتاج عشرين مليون مجلد، وقدرت بأنها تمثل ما معدله كتاب واحد لكل خمسة أشخاص في أوروبا الغربية[(3)].

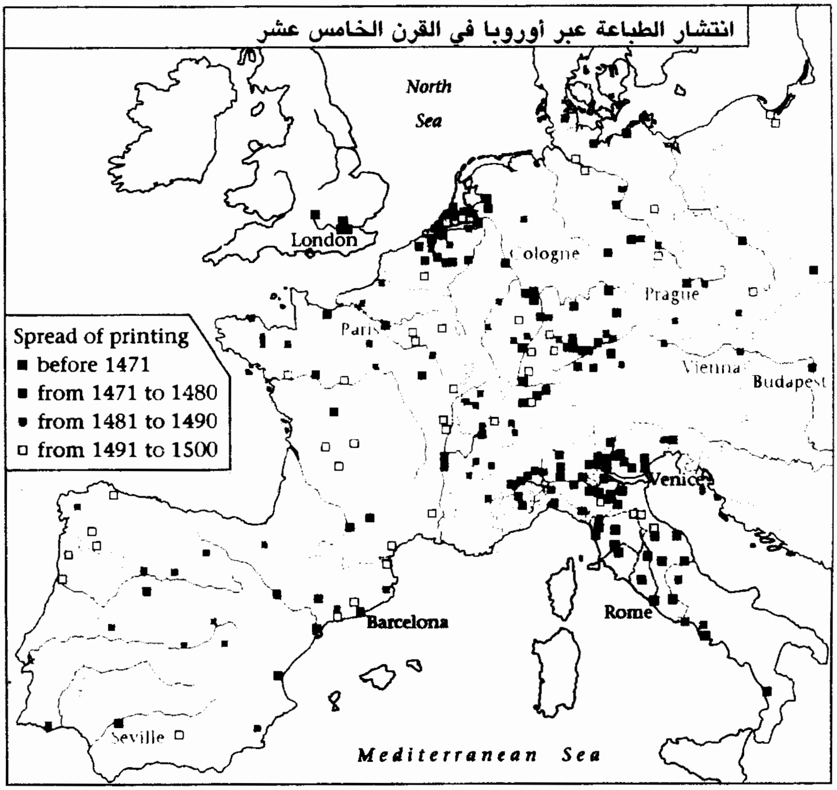
ويأتي بعد ذلك على الفور الإصلاح الديني، ونهوض الكنائس البروتستانتية المعارضة لمؤسسة البابا المسيحية المترسخة في روما. ولم يكن هذا صدفة بالطبع، ولكنه إشارة إلى أن الثورة الجديدة لطباعة الكتب قد فتحت الباب على مصراعيه للوصول إلى وسائل الاتصال الذي كان في السابق مغلقاً وتحت حراسة جيدة. وهكذا فإن أعمال لوثر، التي بدأت بطريقة مسرحية بالمقولات الخمس والتسعين التي علقها بالمسامير على باب كنيسة ويتنبرغ في العام 1517، طبعت ووزعت بترجمة ألمانية. وتبعت ذلك بسرعة ترجمته للكتاب المقدس بكامله (أي العهدين القديم والجديد). فكانت حصيلة دور الطباعة باللغة الألمانية في عشرينيات القرن السادس عشر وثلاثينياته ثلاثة أضعاف ما أنتجته في

العشرين عاماً التي سبقت ذلك. وشكلت أعمال لوثر ثلث كل المطبوعات الألمانية فيما بين العامين 1517 و1524[4].

فكان فيض المعلومات غير المصفّاة أكبر من اللازم بالنسبة لبعض الناس آنذاك. ففي العام 1535 أعلن ملك فرنسا فرنسوا الأول أن طبع أي كتب على الإطلاق جريمة عظمى عقوبتها الموت ـ ولكن ذلك الإعلان كان قصير المدة، وبلا جدوى ـ وبشكل أكثر حذراً أنشأ الفاتيكان "قائمة بالكتب الممنوعة"، وقد أطلق عليها هذا الاسم لأول مرة في العام 1559. ولكن الفيض المتدفق لم يكبح. فكان الأثر الهام هو أن قنوات الخطاب الطويل المدى والعالي المستوى كانت تتحول من النشر الشفوي في المحكمة والجامعة بواسطة الرسائل المخطوطة إلى التوزيع الكثيف بالجملة للنصوص المطبوعة. واحتفظت اللاتينية بسيطرتها باعتبارها أداة الاتصال العتيقة الطراز. ولكنها تحت وطأة الحجم المحض تراجعت أمام الوسيلة الجديدة آنذاك. فالكتب يمكن طبعها باللاتينية بشكل جيد كما في أي لغة أخرى. والكتب التي تم طبعها يمكن أن يتوقع المرء أنها ستحظى بتوزيع وتداول أوسع لأنها مكتوبة بلغة عالمية، ولكن اقتصاديات تجارة الكتب جعلت الكتب اللاتينية الكاسدة تباع بأسعار مخفّضة لإخلاء رفوفها للكتب المؤلفة باللغات العادية الدارجة التي تباع بكميات كبيرة وبالقرب من أماكن إنتاجها[5].

إن ما كان يحدث هو جانب واحد من جوانب سلطة الأمة ـ الدولة الآخذة بالتنامي في أوروبا الغربية، أي إزاحة نخبة فكرية دولية كانت تقدم أرضية مشتركة لحكومات الملوك المختلفة لتحل محلها طبقة بورجوازية أعلى صوتاً وأكبر نفوذاً وتأثيراً [وهي طبقة متوسطة مكونة على الأغلب من التجار سكان المدن] تسيطر على ممالكها المحلية وتجعلها تخدم أغراض التجار الدنيوية. وكان من الآثار اللغوية لذلك إحلال اللغات العامية الدارجة محل اللاتينية، ليس فقط من أجل أغراض محلية، ولكن حتى على مستوى آخر بحث دراسي.

وظلت اللاتينية، نظرياً، أداة متفوقة للخطاب الفكري ذي المستوى العالي: فهي كلغة كانت تملك مفردات تراكمت على مدى أكثر من ألفي عام في ميدان



الفكر والجدل والنزاع والمناظرة، وهي كمجتمع كانت تملك باعاً طويلاً لأن الباحثين من جميع أنحاء أوروبا الغربية كانوا معتادين على التكلم، والتفكير، والكتابة بها. وعلى عكس ذلك، كانت كل لغة دارجة مضطرة لبناء قوة تعادل قوة اللاتينية شيئاً فشيئاً، ومن قاعدة أصغر منها بكثير.

ولكن حيثما كانت هناك مشاغبات، أو سوق، فإن اللهجات المحلية الدارجة كانت تقف إلى جانبها القوة العددية، وقد أظهرت النزاعات والحروب الدينية في القرنين السادس عشر والسابع عشر أن القضايا الفكرية كانت قادرة على توليد ازدهار كبير ومفاجئ في المبيعات، وتوليد شغب واضطرابات، وحروب أهلية على نحو يعادل قدرة الخصومات أو الصراعات بين الأسر والسلالات على توليد هذه الأشياء. ولم يحدث إلا في القرن العشرين أن صارت وسائل الاتصال قادرة على

التغلغل والاختراق إلى عمق كاف لتمكين لغة عالمية من التنافس على الشارع بصورة فعالة مع اللهجات العامية الدارجة. ووجدت اللغة الإنكليزية الحديثة في الإذاعة الجواب على التهديد الذي شكلته طباعة الكتب بلاتينية العصور الوسطى.

وبالتدريج راحت الحياة الفكرية المدارة باللاتينية تبتعد وتتلاشى. واستغرق ذهابها حوالي قرن. وعندما نشر فرانسيس بيكون كتابه "تقدم التعليم" بالإنكليزية في العام 1605 أراده أن يترجم إلى اللاتينية 'كي يقرع جرساً ينادي العقول الأخرى معاً ... وكي يتم سماع ذلك الجرس إلى أبعد مدى ممكن'. ولم يخرج كتابه هذا باللاتينية في الحقيقة إلا في العام 1623، عندما أبدى ملاحظة: 'لأن هذه اللغات الحديثة سوف تؤدي في وقت أو آخر إلى إفلاس الكتب. وبما أنني قد خسرت كثيراً من الوقت مع هذا العمر، فإنني سأكون مسروراً لو سمح الله لي أن أعوض هذه الخسارة في ذريتي من الأجيال القادمة'.

وكان آخر عمل فكري كبير ينشر باللاتينية في إنكلترا هو كتاب نيوتن "الفلسفة الطبيعية لمبادئ الرياضيات"، في العام 1687. ومنذ ذلك الحين صار العلم عموماً مضطراً لأن يدار على نحو أقل مناسبة ولياقة بتشكيلة متنوعة من اللغات. وهذا هو الثمن الذي دفعه العالم الحديث لإبقاء العلماء والمفكرين على تماس أوثق مع المجتمع عموماً(*).

وكان هذا الموت الثاني للاتينية أعمق من موتها الأول. فلم يكن الأمر شبيهاً بالحركات العامية الدارجة قبل ذلك بخمسمئة عام، عندما كانت اللاتينية قد فقدت لتوها استخدامها كقناع مكتوب للغات الرومانسية. فقد راحت اللغات تبتعد عن اللاتينية وتتحرك منفصلة عن بعضها بعضاً في طريقة اللفظ وفي التركيب. فكانت محاولة الوصول بصياغة مكتوبة عن طريق غطاء لاتيني عملاً شاقاً، وبلا فائدة على نحو متزايد. ولكن حتى عندما تراجعت اللاتينية وأفسحت المجال

(*) قارن مع ألكوين الذي كان يروّج لمستواه القياسي الجديد من اللاتينية في القرن التاسع، ويعمل في الاتجاه المعاكس تماماً: لأن المهمة الهامة عندئذٍ كانت هي إعادة اتصال العالم الفكري مع نفسه، ومع تقاليده القديمة ذاتها.

للأدب باللهجات المحلية الدارجة، فإنها حافظت على استعمال هام: فقد ظلت أداة الخطاب الفكرية التي تذهب إلى أبعد من المواضيع الشعبية التي كان يتم إنتاجها (وتقديرها) باللغات الرومانسية. وعندئذ توقف استخدام اللاتينية في أي تفكير جديد على الإطلاق.

وتظهر معلومات مفيدة من مقارنة المراحل النهائية لحياة اللاتينية مع مراحل حياة زميلاتها من اللغات الكلاسيكية التقليدية، اليونانية والصينية والسنسكريتية. فبعد كل شيء، تمثل كل واحدة من هذه اللغات الأهداف اللغوية المتكاملة لمنطقة واسعة بما يكفي للانقسام إلى عدد من التنويعات الشعبية. ولكن اللاتينية وحدها هي التي انتهى بها الأمر إلى أن تحل محلها مجموعة من بناتها من اللغات.

فاللغة اليونانية لم تغرس أبداً جذوراً عميقة في المناطق التي انتشرت إليها، وعندما تعرضت هذه المناطق لغزو من الآخرين بحيث توقفت اليونانية عن كونها النخبة المسيطرة، فإنها قد ضاعت في هذه المناطق. وكانت النتيجة أن اللغة اليونانية انتهى بها الأمر إلى الانحصار في منطقة صغيرة نسبياً، وفي أغلب الأحيان تحت حكومة وحيدة مستبدة. وعندما تناقصت سلطة الحكومة ثم لم تعد موجودة بعد اللاتينية، وخصوصاً الغزوات التركية، ضعفت المبادئ والمعايير التقليدية الكلاسيكية التي كانت تبقي اللغة موحدة. ولكن عندما أعيدت الحكومة المتكاملة، أثبتت أن من الممكن تدريجياً الانتقال إلى مستوى قياسي وحيد جديد للغة بكاملها ككل.

وقد احتفظت اللغة الصينية بدورها كبؤرة سياسية وفكرية عالية المستوى لكل المجتمعات التي تتكلم لهجات تتصل بها (أو هي بناتها اللغوية). وعلى عكس اليونانية، فإن الصينية فقدت وحدتها اللغوية في جميع أنحاء مقاطعاتها الجنوبية الشرقية. ولكن الوحدة السياسية ظلت متماسكة عموماً. وإن عدم الوضوح اللفظي في نظام كتابتها إلى حد ما قد أتاح لها أن تتجاهل الفوارق التي أخذت تظهر بين جوهرها القياسي وبين تلك اللهجات. وهذا الغموض نفسه قد مكّن اللغة الصينية في القرن الماضي من تحويل معيارها من نموذج وينيان

الكلاسيكي إلى نموذج بيهوا البيجينغي دون أن تخسر ولاء المجموعة الكاملة من المجتمعات الناطقة بالصينية. وإذن، فإن نظام الكتابة بالرموز الممثلة للكلمات قد مكّن اللغة الصينية من النجاة من 'الموت الأول'، ودون أن تمنع بناتها اللغويات من الابتعاد والافتراق عنها.

وأما السنسكريتية فإنها مثل اللاتينية، نشأ عنها عدد من بناتها اللغويات (وكانت مرتبطة بها بشكل وثيق)؛ وهذا يشير إلى خاصية مشتركة بين تاريخها وتاريخ اللاتينية، وهي تحطم الوحدة السياسية في منطقة النطق بها لزمن طويل. وكما في حالة اللغة اللاتينية، فإن ذلك أدى إلى قيام البنات اللغوية بترسيخ نفسها كلغات أدبية مستقلة للموضوعات الشعبية. ولكن السنسكريتية احتفظت بدورها طويلاً كمركز فكري عالي المستوى، ولم يحل محلها أي شيء أبداً باعتبارها الأداة الدينية المركزية لغالبية الهنود.

إن الحكاية التالية في هذا التاريخ هي حكاية الانتشار الاستثنائي الكبير لبنات اللغة اللاتينية؛ وسوف ننتقل إليها حالاً. فهذه بعد كل شيء هي قصة مجتمع التكلم باللاتينية. ومع ذلك، فإن اللاتينية كلغة حية وجدت قناعاً جديداً تختفي وراءه.

فمن القرن الثالث عشر إلى القرن الخامس عشر كانت أوروبا الغربية قد استنارت عن طريق معرفة جديدة ومباشرة أكثر باللغة اليونانية القديمة واللاتينية، بمساعدة دفق من الباحثين البيزنطيين بعد سقوط القسطنطنية وإمبراطوريتها. ولأول مرة في ألف عام بدأ الغربيون يملكون معرفة بقراءة اليونانية، وبدأوا يتذوقون المذاهب الأسلوبية المرتبطة باللهجة الأتيكية الإغريقية (انظر الفصل السادس: 'أزمة منتصف العمر: محاولة بداية جديدة'، ص 360). وربما بسبب التناقض، وربما بسبب طبيعة الوعي بالذات في الدراسات الكلاسيكية، فقد بدأ كثير من الباحثين يطوّرون عجرفة لغوية حول معرفتهم باللاتينية، ويريدون العودة إلى أقدم المصادر. فلم يعد يكفيهم إلا أعمال شيشرون. ولكن هذه العدوى لم تصب جميع الباحثين في القضايا الإنسانية: ولا سيما إيرازموس، وهو دارس للعصور الكلاسيكية ذكي كان يكتب في أوائل القرن

السادس عشر. فقد كتب مقالة "حوار شيشروني" للسخرية من التطلع، متصوراً شخصية أسماها نوسوبونس، أي 'العمل مع معاناة المرض'. وقد أجهد نفسه في التعرف على صيغ تصاريف كل من الأفعال الموجودة في أعمال شيشرون، وأيها لم تكن أفعالاً متصرفة (وهذا هو الأهم). وبالنسبة لرجل كهذا، فحتى أحلامه كانت مقتصرة على شيشرون. وقد علق الشاهد الساذج هيبولوغوس بأنه كان يبدو كشبح أكثر منه رجلاً.

وعندما رسخ هذا النوع من الإخلاص للتفاصيل نفسه كشيء محترم، صار من الممكن اعتبار أسلوب التعبير أهم بكثير من المحتوى، واعتبار معرفة ما قيل متفوقة بكثير على القدرة على التجديد والسعي للتقدم. وهكذا فمثلما كان أعلى تطلع للباحثين في اليونانية في الغرب هو قراءة النصوص (وربما كتابة مقطع يحاكيها ـ ولكن بأسلوب كلاسيكي فقط)، صار الناس يفكرون أنهم يحافظون على قيمة اللغة اللاتينية إذا أصبحوا خبراء في اللغة وأدبها القديم الموجود، ومن أجل أنفسهم فقط. وصارت الاستعمالات الأساسية الأولية للغة، والتفكير، والإحساس، والتعبير عن الأفكار وإيصالها، أشياء خاضعة فقط لهذه 'الدراسة الكلاسيكية' المتخصصة(*).

وكان من الأفضل أن يقبل الدارسون المختصون باللاتينية حكم الإذعان المستسلم الذي أطلقه أحد شعرائهم المفضلين:

(*) هذه الروح من النظر إلى الوراء لا تزال مألوفة عندي من أيام دراستي في المجرى الكلاسيكي في مدرسة إنكليزية عامة في ستينيات القرن العشرين. وهناك تعبير عنها في ألف مقدمة لنصوص كتب مدرسية مقررة. وتأمل ما يلي من كتاب ألفه إينغر وويتنل (1890، الطبعة السابعة عشرة، 1963، ص 3): 'إن تأليف الشعر اللاتيني.... هو البرهان على زهرة ذلك البحث الدراسي الذي يحب الكتاب القدامى حباً بلا أنانية، ويستمتع بكسوة الأفكار والتعابير الحديثة بلباس الأوزان والإيقاعات الموسيقية القديمة'. أو تأمل كلام بيم وسيلفر (1952)، اللذين يقولان إن فصلاً 'يوضح استمرار حيوية اللغة اللاتينية في إنكلترا أثناء القرنين الأخيرين'، رغم أن كل محتويات ذلك الفصل هي كلمات رثاء قصيرة، وخطابان في البرلمان (بالإنكليزية) فيهما إشارات إلى الأدب اللاتيني، وقسم من منشور بابويّ عام، وقصيدة نعترف أن فيها (نكاء وحضور بديهة) حول أزمة الوقود في العام 1947، وعدد من مواضيع التنكيت الإنشائية لمسابقات الحصول على جوائز في المدارس وفي جامعة أكسفورد. بل إن عنوان الكتاب نفسه: "حية على ألسنة الناس" هو كذبة فيها مفارقة كبرى، لأنه مجرد ترجمة لعبارة من مرثية ألفها إينيوس الذي مات في القرن الثاني قبل الميلاد.

الشموس يمكن أن تغيب، ويمكن أن تعود ثانية
وبالنسبة لنا فعندما يغيب الضوء القصير
هناك ليل واحد دائم للنوم

كاتولوس

10

مغتصبو العظمة:
الإسبانية في العالم الجديد

عندما أتأمل جيداً، أيها الملكة الشديدة اللمعان، وأضع نصب عيني قِدَمَ جميع الأشياء الباقية المدونة لسجلنا وذاكرتنا، فإنني أجد شيئاً واحداً وأستنتج بكل تأكيد أن اللغة كانت دائماً مرافقة للإمبراطورية، وكانت تتبعها بحيث أنهما بدأتا، ونمتا، وازدهرتا معاً، وكان سقوطهما بعد ذلك معاً.

أنطونيو دي نبريجا، الكلمات الافتتاحية لمقدمة كتابه "قواعد اللغة القشتالية"، 1492

صورة فاتح

إن بدايات الانتشار العالمي للغات الأوروبية جاءت بالضبط عندما كان أصحاب المطابع والناشرون يؤكدون وجود اللهجات العامية الدارجة، الإسبانية، والبرتغالية، والفرنسية، والإيطالية، والإنكليزية، والهولندية، والألمانية، على جثة اللغة اللاتينية التي كانت حياتها آخذة بالاستنزاف بالتدريج. فكانت اللغات التي انتشرت هي لغات الدول التي خلفت الإمبراطورية الرومانية الغربية، وهكذا فإن نخبها المثقفة لم تكن غريبة عن الهدف، ولا عن الخيال الحالم حقاً للإمبراطوريات الواسعة المتعددة الجنسيات. فقد نشأت تلك الدول على تواريخ روما والإسكندر، وكانت تملأ خيالات شعوبها بحكايات الفروسية، والغزو والمغامرة في أراضٍ غريبة، حكايات آماديس من بلاد الغال (بطل القصة الخيالية الشعبية من القرن الخامس

عشر، التي نشرت في سرقسطة في العام 1508)، وولده إسبلانديان (1510)، وآخرين كثيرين(*). وكان التاريخ على وشك تحقيق أحلامهم.

وكان البلد الذي سيؤدي الدور القيادي في غزو الدنيا الجديدة واستعمارها يشعر بأنه يدخل عصره الذهبي. فقد تم حل مشكلة قرن من المكائد والمؤامرات غير المؤكدة عن طريق التوحيد السلمي للمملكتين الإسبانيتين المتنافستين، قشتالة في الشمال والوسط، وآراغون في الشرق: وكانت قشتالة قد وقعت في يد إيزابيلا في العام 1474، وآراغون في يد فرناندو في العام 1479؛ فتزوج الاثنان ورضي عنهما البابا بحيث منحهما لقب "العاهلين الكاثوليكيين"، وقدر لهما أن يحكما معاً لمدة خمسة وعشرين عاماً أخرى، أكملا خلالها الغزو المسيحي لإسبانيا. فسقطت في أيديهما غرناطة، آخر مملكة إسلامية في الأندلس، في اليوم الثاني من بدء العام 1492، ولكن الحرب التي استمرت عشر سنوات كانت قد استنزفت الخزينة الإسبانية إلى أقصى حد لها.

ومن الناحية اللغوية، كانت إسبانيا تحالفاً من ثلاث لغات رومانسية كبرى هي الغاليسية في الغرب، والقشتالية في الوسط، والقطلانية في الشرق(**). والقطلانية كلغة كانت أكثر شبهاً بالأوسيتانية، أو البروفنسالية كما هي محكية في فرنسا الجنوبية. ومن الممكن رؤية جزء من أصول اللغات الإسبانية الثلاث في المجموعات الجرمانية المختلفة التي سيطرت على إيبيريا في القرن الخامس، وهم السويفي في الشمال الغربي، والفيزيقوط في الوسط والجنوب(***)، وعلى أية حال فإن قشتالة قد رسخت نفسها كأقوى دولة في المنطقة، بعد أن امتصت

(*) كانت هذه الخيالات نمواً متكيفاً ناجماً عن الأغاني البطولية للرومانسية المبكرة قبل ذلك بثلاثة قرون، مثل "أغنية رولاند"، بالفرنسية النورمانية وقصيدة "السيد" بالإسبانية القشتالية. وكثير من العناوين الأحدث مدرجة في الفصل السادس من قصة سرفانتس: "دون كيشوت من دي لامانكا" (المطبوع نصفها في العام 1605) حيث يكون معظمها محضراً للإحراق. وكان الحماس لقصة الملك آرثر وفرسان المائدة المستديرة جزءاً من الظاهرة الأوروبية نفسها. فقصة "موت آرثر" لمؤلفها السير توماس مالوري نشرها وليام كاكستون في وسيمنستر في العام 1485.

(**) من الناحية اللغوية، كانت الغاليسية (ولا تزال) تشبه البرتغالية، فلا يفصلها عنها سوى مجرى نهر مينهو، والحقيقة السياسية لكون البرتغال قد استقلت عن قشتالة في العام 1143.

(***) هناك مجموعة ثالثة (غير جرمانية) هم الآلانيون، ذهبوا إلى الجنوب الغربي، وليس إلى الشرق،

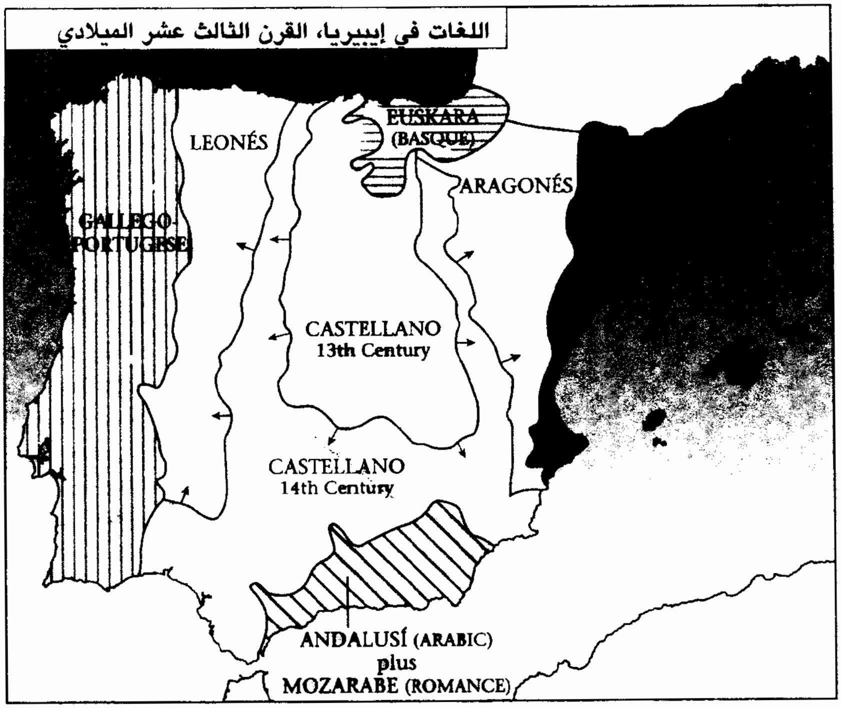
المملكة الغربية (المحكومة من ليون) في العام 1230. وفي موازاة ذلك كانت آراغون قد سيطرت على الغرب واتحدت على قدم المساواة مع قطلونية في العام 1140.

وكانت النتيجة اللغوية لاتحاد قشتالة وأراغون، مع كون أراغون هي الشريك الأصغر، هي جعل اللغة القشتالية المعيار الموحد لإسبانيا كلها، وقبل ازدهار الأدب بالضبط في أوائل القرن السابع عشر. وعندما حلت القشتالية محل المسلمين المغاربة في تخوم الأندلس الجنوبية، أعادوا توطين الناطقين بهذه القشتالية في جنوب إسبانيا. وبالتالي فرغم احتفاظ الغاليسية والقطلانية باستقلالها واستمرار امتلاك كل منهما للتقاليد الأدبية الخاصة بها، فقد أصبحت "القشتالية" مرادفة 'للغة الإسبانية' كما هي اليوم.

وقد أكد النهج الإسباني في المسيحية على السلطة العالية المستوى كضمانة لاستقامة العقيدة وصحتها، وقاد العالم المسيحي كله في القرنين الخامس عشر والسادس عشر لمتابعة هذه العقيدة بقوة. فتأسست محاكم التفتيش في العام 1480. وفي العام 1492 اتخذ الإجراء الاستثنائي بطرد جميع اليهود من المملكة. ثم في العام 1502 تم تحريم كل ممارسة للعقيدة الإسلامية بشكل مفاجئ، رغم أن تلك الممارسة كانت مضمونة في شروط استسلام المسلمين بغرناطة قبل ذلك بعشرة أعوام. فقد كان هناك شعور في الدوائر الإسبانية الحاكمة بأن الحقيقة غير موجودة إلا في التقليد المتوارث؛ وبالمثل فقد كان الهدف السياسي هو وحدة الغرض الكلية بين البابا والملك، بين الكنيسة والدولة.

وقُدِّر لهذا أن يترك بعض الآثار الغريبة على السياسة اللغوية في الأمريكتين. فقد كان التفكير الحر يعتبر خبيثاً ومؤذياً، بل ومعدياً. وكان من

حتى ولو كان الأصل اللغوي الشعبي للقطلانية هو 'القوطية - الآلانية'. فقد ترك الفاندال اسمهم في الأندلس، ولكنهم عبروا إلى تونس، فتمت إزاحتهم من هناك بواسطة الغزو الإسلامي الذي أعقب ذلك.



عواقب ذلك عندما صارت إسبانيا مسؤولة عن التعليم في الأمريكتين أنها فضلت أن يتعلم الطلبة من أبناء الأهالي الأصليين اللاتينية بدلاً من القشتالية: لأن الأدب المحلي الدارج لم يكن ممكناً ضمان خلوّه من التأثيرات المضللة أو الخداعة. ولكن عند نشر الحضارة الإسبانية بين الناطقين بلغات أجنبية سيصبح واضحاً أن الأولويات اللغوية لما هو دنيوي ولما هو مقدس سوف تفترق. فلم يكن هناك شيء يضاهي القوة الرمزية للغة الإسبانية للدلالة على الإمبراطورية ـ ولكنها كانت أسهل وأسرع وأكثر موثوقية لنشر الفهم، وبالتالي العقيدة، في واحدة من اللغات الأهلية المحلية.

وقد تكون العقيدة والحكومة شيئاً، ولكن الحصول على الثروة شيء آخر. وهنا كان يوجد مجال للابتكار. بل إن الابتعاد الجديد الذي سمحت به قشتالة كانت له عواقب بعيدة المدى تجاوزت حتى أغرب الأحلام الخيالية للقرن الخامس عشر. وكان البرتغاليون يقومون بالاستكشاف في الجنوب والشرق في هذه

الفترة للعثور على طريق حول إفريقيا إلى الهند وجزر التوابل. فقد طافوا حول رأس الرجاء الصالح في العام 1488 وقدر لهم أن يصلوا إلى الشرق الخرافي في حملات لاحقة، إلى الهند في العام 1499 وإلى ملقة في العام 1511، وإلى غوانغجو (كانتون) في العام 1514. ولكن في تلك السنة الأساسية 1492، قدم المغامر الجنوي كريستوفر كولومبوس للإسبان عرضاً بالذهاب في طريق محفوف بالمخاطر إلى مقاصدهم هذه نفسها بالسفر باتجاه الغرب تماماً. فأيدته الملكة إيزابيلا. فكانت النتيجة شيئاً مختلفاً تماماً عما كان مأمولاً. إذْ لم تكن باباً اقتصادياً خلفياً إلى الشرق، بل مجموعة جديدة من العوالم لغزوها، وبالتالي جائزة أغنى بكثير.

إمبراطورية لم يسبق لها مثيل

كاليبان لبروسبيرو:

لقد علمتني اللغة، وما ربحته منها هو
أنني أعرف كيف ألعن: فليأخذك الطاعون الأحمر،
لأنك علمتني لغتك!

شكسبير، العاصفة (1611) 1 ـ 2 ـ 1: 1 ـ 321

مما هو جدير بالملاحظة أن الهنود الحمر في بيرو قبل مجيئنا نحن المسيحيين إليهم، كانت لديهم أساليب معينة خاصة باللعن، متميزة عن أساليبنا. فلم تكن لديهم أيمان توكيدية، مثل 'والله' أو 'بحق السماء' بل شجب أو لعنات فقط، مثل: 'إذا لم أكن صادقاً، فلتقتلني الشمس'. وذات مرة، عندما سألت رئيس القبيلة في مقاطعة معينة إن كان مسيحياً، قال: 'إنني لست كذلك بعد، ولكنني قمت بإجراء بداية'. وسألته عما يعرفه عن كون المرء مسيحياً، قال: 'أعرف كيف أحلف بالله، وألعب الورق قليلاً، وقد بدأت أسرق'.

فراي دومنغو سانتو توماس

فن اللغة العام ... في بيرو (1560)، الفصل 23.

كان انتشار اللغة الإسبانية في الأمريكتين أول نتيجة لغوية لتطور جديد كلياً في

التاريخ الإنساني المسجل. فقد اكتشف الإسبان والبرتغاليون في أواخر القرن الخامس عشر، أن تكنولوجيا جديدة، هي السفن التي تبحر في المحيط، بقوة الأشرعة، وتقودها البوصلة المغناطيسية، ومعرفة متطورة بالرياح السائدة، يمكنها أن تعطيهم وصولاً مباشراً إلى أجزاء نائية من العالم. ورغم أن هذا قد جاء كمفاجأة لهذه الأمم الملاحية، فإن الصدمة كانت أقسى وأعظم على الناس الذين يعيشون في تلك الأجزاء التي اقتحموها بشكل متفجر. فعلى الفور خسر عرب المحيط الهندي احتكارهم للتجارة مع الهند والصين، أما الهنود والصينيون وكل الذين بينهم فقد واجهوا تهديداً عسكرياً جديداً من الأوروبيين الجشعين السلاّبين. ولكن بالنسبة لسكان الامريكتين الذين لم يكن لديهم تقليد ملاحة بحرية، وكانوا معزولين آلاف السنين عن أي أخطار من اتصالات من مسافات بعيدة، فقد كانت الصدمة في العادة مميتة.

ولقد سُجِّلت مفاجأة الاقتحام الإسباني للعالم الجديد بطرق كثيرة. فعدم الفهم الإسباني يمكن رؤيته من التسميات المغلوطة دائماً لرعاياهم الجدد، الذين دعاهم كريستوف كولومبوس 'الهنود'(*). ويمكن رؤيته أيضاً من افتراض كولومبوس، الذي تابعه فيه كثير من مؤرخي الأخبار، أن سكان جزر البحر الكاريبي المعادين هم بوضوح من آكلة بني جنسهم *cannibals* (وهذا اصطلاح صار بالنتيجة مرادفاً 'لآكلة لحوم البشر')(**). وهو افتراض لم يثبت على الإطلاق، ولعله من بقايا حكايات الرحالة الأوروبيين عن آخر أطراف الأرض: فقد قال هيرودوتس أنه فيما وراء السكيثيان كان يعيش آكلة لحوم البشر، وكرر

(*) '.... وصلوا إلى جزيرة صغيرة من اللوكايا كانت تسمى غواناهاني بلغة الهنود'. كولومبوس: "المذكرات اليومية للسفينة"، الجمعة، 12 تشرين الأول/أكتوبر سنة 1492، مقتبسة من قبل دي لاس كاساس (1957 [حوالي العام 1530]). كان كولومبوس يظن أول الامر أنه ضمن ممتلكات الخان الأعظم الصيني، ثم (في 12 تشرين الثاني/نوفمبر) وسط 'جزر الهند'. ولم يعد يسمي الناس الذين يلتقي بهم "هنوداً" بعد منتصف كانون الأول/ديسمبر من ذلك العام، ولكن التسمية لصقت بهم (سيل 1990، ص 109).

(**) '.... وهذه الجزر يقطنها اكلة بني جنسهم *canabilli*، وهم عرق متوحش لم يخضعه أحد، ويعيشون على أكل لحوم البشر، وساكون محقاً لو أسميتهم المقتاتين على الإنسان anthropophagi. وهم يشنون حروباً لا تتوقف على الهنود اللطفاء الجبناء ليتزودوا باللحم...'. رسالة من غويليرمو كوما عن رحلة كولومبوس الثانية، عن يوم الأحد 3 تشرين الثاني/نوفمبر 1493.

سترابو سرد القصة نفسها عن السكيثيان أنفسهم، وحتى عن الإيرلنديين[1]. ولكن البحارة الأوروبيين ربما كانوا يسيئون تفسير ممارسة السكان الأصليين لطقوس تقديم الأضاحي البشرية ـ لكي تناسب قصص الرعب التقليدية، حسب الأدلة التي عثروا عليها عن هذه الممارسة التي كان من الصعب تصور صحة حدوثها آنئذٍ.

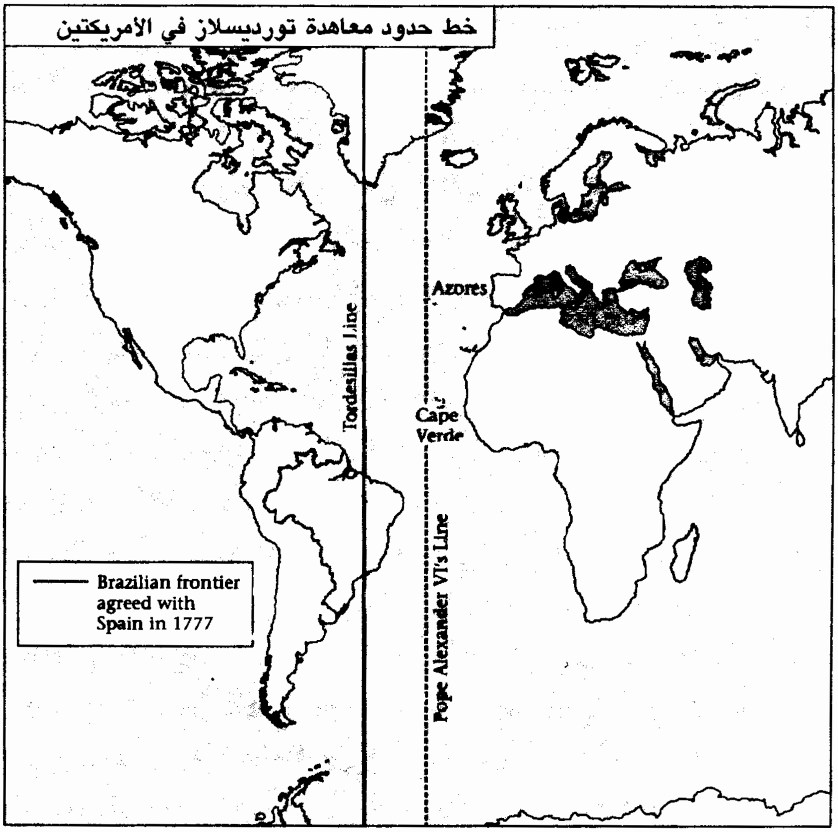
إن الشيء الذي يخدم أغراضنا بشكل مباشر أكثر هو أن عدم الفهم الإسباني يمكن رؤيته عند اللغويين الذين اختار كولومبوس أن يجلبهم على أمل تسهيل الاتصال، مثل لويس دي توريز، الذي كان يعرف العبرانية، والآرامية (ʼالكلدانيةʻ)، وقليلاً من العربية، ورودريغو دي جيريز، الذي ربما زار بعض المستعمرات البرتغالية في غينيا. ورغم أنه قد اعتقد بشكل معقول أنه قد يصادف تجاراً من العرب عند وصوله إلى الصين، فإن اختياره بليغ الدلالة على الجهل المحض بماهية الوضع اللغوي في باقي أنحاء العالم عندما يكون الأجنبي الوحيد الذي يحتمل أن يلتقي به حتى الإسباني المثقف مغربياً أو يهودياً[*]. بل إن الإسبان قد استمروا يطلقون على المراكز الروحية للأمريكيين الأصليين اسم ʼالمساجدʻ. وعلى سبيل المثال فقد كتب كورتيز في رسالة إلى ملكه في العام 1520 عن مدينة في المكسيك لم ير فيها أي مسلم أبداً: ʼوأؤكد لجلالتكم أنني قد أحصيت في مسجد حوالي 430 برجاً في المدينة المذكورة، وكلها تعود إلى المساجدʻ[2].

وبالطبع، فإن عدم فهم مدى الآفاق الجديدة التي كانت آخذة بالانفتاح عندئذٍ لم يكن محصوراً بالإسبان. فقد رأوا أنفسهم بوضوح تام كمبعوثين للعالم المسيحي إلى هذه الممالك الجديدة، فالتفتوا إلى البابا ـ ألكساندر السادس، وكان (بصدفة مناسبة) إسبانياً ـ ليصادق على لقبهم هذا كموفدين إلى تلك المناطق.

(*) كانت رؤية كولومبوس للعالم تغذيها قراءات وفيرة. فلدينا سبعة من كتبه وعليها تعليقاته، محفوظة حتى اليوم في مكتبة بيبليوثيكا كولومبيانا في إشبيلية. وهذه الكتب تشمل أعمال ماركو بولو وكتاب بليني الأكبر: "التاريخ الطبيعي"، وغيرها من الكتب الأكثر خيالاً. وقد حكى ابنه فرناندو قصة قراءات أبيه، في الفصلين السادس والسابع من سيرة حياته (سيل 1990، ص 15).

فكان هذا الوضع مألوفاً لدينا من الاندفاع الحديث للحصول على براءات اختراع للمناطق غير المرسومة خرائطها من تكنولوجيا المعلومات وعلم الوراثة. أما في العام 1493، فبعد أن منح البابا إسبانيا سيادة على مكتشفات كولومبوس في رحلته الأولى تابع فمنحها حقاً في كل الأقاليم على بعد أكثر من مئة فرسخ إلى الغرب من جزر الآزور وجزر الرأس الأخضر، حتى خط الطول 30° غرباً، أي بوضوح على طول الطريق إلى الهند. ولو ترسخ هذا الحق لأعطى إسبانيا السيطرة على الأمريكتين كلتيهما. ولكن لم يكن بوسع أحد أن يعرف ذلك بعد عام واحد من رحلة كولومبوس الأولى. وفي تلك المرحلة كان البرتغاليون هم المنافسين الكبار الوحيدين، وكانوا قلقين في ذلك الحين من تدابير البابا، وكانوا يريدون قبل كل شيء ضمان طرقهم عبر الأطلسي إلى إفريقيا وما وراءها. فنجحوا في التفاوض مع الإسبان لنقل خط الحدود بين الشمال والجنوب مئتين وسبعين فرسخاً أخرى إلى الغرب، وبالنتيجة إلى خط الطول 45°، فتم الاتفاق على هذا الحد الوطني في معاهدة تورديسلاز في العام 1494. ولم يتم تحديده بوضوح من الناحية العملية أبداً. ولم تكن هناك أي حدود حديثة تضاهيها - فالبرازيل مثلاً تمتد أرضها الداخلية على كل الطريق إلى خط الطول 74° غرباً، وحتى على الساحل حتى خط الطول 50° - ولكن هذه المعاهدة عملت فعلاً كقاعدة مختصرة فأعطت البرتغال حقاً ذا أولوية في البرازيل التي كانت السفن الإسبانية والبرتغالية على حد سواء تزور ساحلها الجنوبي الشرقي في العام 1500، ولكنها حظرت مصلحة البرتغال في الأمازون حتى العام 1637.

أما على الجانب الأمريكي، فإن صدمة عدم الفهم قد سجلت بوحشية أكبر، بفقدان أعداد هائلة من السكان. ومن المستحيل إعطاء أي تقدير سليم لعدد سكان الأمريكتين قبل الاتصال بالأوروبيين. فالتقديرات تختلف متراوحة بين 13 مليوناً و180 مليوناً. ولكن في كل مكان دليل على سقوط ضحايا بالجملة وبكثافة في السنوات الأولى عقب وصول الأوروبيين. فأولاً وقبل كل شيء شكا الإسبان من تفريغ أول الجزر التي استعمروها من سكانها، وهي كوبا وهسبانيولا.



وتؤكد الأرقام سبب شكواهم. فعند إحصاء سكان هسبانيولا في العام 1494 بلغ تعدادهم 1.1 مليون نسمة، ولكن بعد ثمانية عشر عاماً فقط سجل إحصاء العام 1514 اثنين وعشرين ألف نسمة. وشهدت المكسيك سلسلة من الأوبئة بدأت بالزيارة الإسبانية لعاصمتها تينوكتيتلان، التي أبعدت عنها غالبية سكانها الأصليين، وانتشرت جنوباً إلى داخل غواتيمالا. وكتب جوزيف دي أكوستا في ثمانينيات القرن السادس عشر عن حوض البحر الكاريبي كله: 'إن سكان سواحله قد تعرضوا للضياع والتشرد بحيث فُقِدَ منهم تسعة وعشرون جزءاً من مجموع ثلاثين جزءاً، ومن المحتمل أن باقي الهنود سيضمحلون بعد وقت قصير'[3].

وقاد هرناندو دي سوتو حملة من خلال فلوريدا والساحل الجنوبي الشرقي لأمريكا الشمالية في منتصف القرن السادس عشر، فوجد زحاماً كثيفاً من السكان الهنود، متكتلين في مدن صغيرة على نهر المسيسيبي قرب ممفيس الحديثة. وفي العام 1682 عند الزيارة التالية للمنطقة من قبل الرجال البيض (وكانوا فرنسيين في هذه المرة) كانت مهجورة.

كانت الأمراض تسافر بسرعة أكبر من سرعة رؤوس حراب الغزو الإسباني: فقد وصل الجُدَري إلى بيرو في العام 1525، وإلى فرانسيسكو بيزارو في العام 1532. وكان قد أودى بحياة هواينا كاباك، من عشيرة الإنكا وكثير من أقاربه، وسبب صراعاً بين السلالات على الحكم استغله الإسبان لصالحهم. وبعد ذلك، وكما في كل مكان، جاءت أوبئة أخرى، كالتيفوس، والإنفلونزا، والدفتريا، والحصبة، وكذلك المزيد من الجُدري فدمرت السكان(*).

ولم يكن الإسبان غزاة إنسانيين على نحو ملحوظ. ولكن لم تكن لهم مصلحة في حرب الإبادة. فمن أول أيامهم في هسبانيولا، كانوا يأملون في استغلال عمل الأهالي الأصليين. ولهذا السبب وحده أفزعهم هذا الانهيار الكارثي في أعدادهم. ومع ذلك، فإن ذوبان السكان السابقين وتلاشيهم كان يساعد مادياً على انتشار لغة الغزاة على الأمد البعيد، مما يغير التوازن العددي بطرح قسم كبير من المجتمعات الناطقة باللغات الأهلية الأصلية.

ومن منظور عالمي، ومع الاستفادة الكاملة من الإدراك المتأخر للأحداث بعد وقوعها، تبرز ثلاثة جوانب من التقدم الإسباني إلى داخل العالم الجديد باعتبارها جديدة على التاريخ تماماً.

أحدها أن هذه كانت أول مواجهة مباشرة لأعراق من البشر من سلالات منفصلة تماماً، تفصل بينها عشرات الألوف من سنوات التطور المستقل. فآخر جد مشترك لكريستوفر كولومبوس وغواكاناغاري، أول ملك قابله في هسبانيولا

(*) [ملاحظة: اليست هذه محاولة لتبرئة الغزاة الأوروبيين من جريمة حرب الإبادة التي شنوها عمداً على السكان الأصليين، أو لتخفيف مسؤوليتهم عن هذه الفظائع؟؟! ـ المترجم].

لا يمكن أن يكون قد عاش قبل أقل من ألفي جيل، وهذه فترة تزيد عشرين مرة على طول الوقت الذي مضى منذ مولد السيد المسيح. وذلك الجد سيكون قد عاش في إفريقيا. وهكذا فإن سلالة نسب الرجلين يجب أن تمتد حول العالم كله قبل أن يمكنهما أن يلتقيا. ومنذ تلك اللحظة فصاعداً لن تعود الاتصالات محصورة في هذا الخط الطولي الجوهري المتأصل في التوطّن البشري في العالم: فتتكلم أمة مع أمة، من أي مكان إلى أي مكان.

وهذا الجانب أساسي بالنسبة للكارثة الخاصة التي أصابت السكان الأمريكيين، كما رأينا، فقد ثبت أن ألوف السنين الطويلة من التطور التي توجت في أمريكا وإسبانيا قد أعطت النسل الأوروبي صفة عملت كسلاح سري: وهي مقاومة تشكيلة متنوعة من الأمراض التي يحتمل أن تنتشر بين أي سكان آخرين قد يتصلون بهم لأنها أمراض وبائية. وقد عملت هذه الصفة (أكثر بكثير من التفوق التقني في أسلحة الأوروبيين الذي كان يعني قدرتهم على كسب معارك ضد كثرة عددية ساحقة) على إزالة حشود عريضة من الأهالي الأصليين قبل أن تتاح لهم فرصة التكيف ثقافياً أو التعافي واستجماع قوتهم على المدى الطويل. إن هذا العامل البيولوجي قبل كل شيء هو الذي يفسر سبب كون غالبية سكان بلدان أمريكا الهسبانية اليوم هم "هجناء" في كل مكان.

والجانب الآخر الذي لم يسبق له مثيل في التقدم الإسباني هو أن هذه هي أول مرة تتعرض فيها قارة أجنبية لغزو محمول بحراً. فمن المؤكد أن الإمبراطوريات البحرية كانت إحدى ملامح البحر الأبيض المتوسط في العصور القديمة والوسطى (وتبرز من بينها إمبراطوريات أثينا وقرطاجة والبندقية)، وفي الألفية الميلادية الأولى كانت الهند قد عرضت حضارتها عبر خليج البنغال، رغم أن ذلك كان بدون أي نية عسكرية ظاهرة. وقبل أن يؤسس الإسبان إمبراطوريتهم بثمانين عاماً فقط، كان الأميرال الصيني جنغ - هي يطوف في المحيط الهندي فارضاً إتاوات على سريلانكا، ومظهراً قدرة الصين على الوصول إلى سواحل إفريقيا الشرقية إذا شاءت. ولكن لم يسبق أن تم كسب إمبراطورية أو الحفاظ عليها من خلال السيطرة على طرق الملاحة المحيطية. أما الآن [في

القرن السادس عشر] فقد صار من الممكن لأول مرة أن يكون الإقليم الخاضع بعيداً عن حكومته مسافة قارّة، مع الحفاظ على الصلة عن طريق قوة أسطول حربي عبر المحيطات.

أما الجانب الثالث، فإن احتلال العالم الجديد كان أول غزو كبير يتم عن طريق عدد من المبادرات المستقلة التي اضطلعت بها على الأغلب المشاريع التجارية الحرة، حتى ولو كانت 'طلائعهم' (كما كان يسمى قباطنة البحر العامّون الرواد، وهو لقب كان في السابق مخصصاً لحكام مقاطعات الحدود المواجهة للمسلمين) كلهم يزعمون أنهم يعملون نيابة عن ملك إسبانيا. وكانت قوات الغزو تميل إلى أن تكون صغيرة (607 جنود مع كورتيز في المكسيك، و160 جندياً مع بيزارو في بيرو) بحيث إن قادة المدافعين كانوا يُضلَّلون عن طبيعة التهديد، فيتأخرون في تنظيم دفاعاتهم بمحاولة التفاوض مع زوارهم الإسبان غير المرغوب فيهم، أو مراقبتهم على الأقل. وهكذا تم غزو العالم الجديد عن طريق خليط مرقّع من حملات متفرقة لجنود مغامرين: كولومبوس في البحر الكاريبي (في تسعينيات القرن الخامس عشر)، وكورتيز في المكسيك، وألفارادو في غواتيمالا، وغارسيا في بوليفيا، وبيزارو في بيرو (في عشرينيات القرن السادس عشر)، وقويسادا في غرناطة الجديدة (كولومبيا في المستقبل)، ومندوزا في الأرجنتين (في ثلاثينيات القرن السادس عشر)، ودي سوتو في فلوريدا، وكورونادو في تكساس، وغابريلّو في كاليفورنيا، وفالديفيا في تشيلي (في أربعينيات القرن السادس عشر)، وهؤلاء هم الأشهر والأنجح فقط. وكان الهدف الأولي الرئيسي لكل حملة هو إثراء المشاركين فيها، حتى عندما كان التبرير الرسمي هو المطالبة بولاء أوسع للملك، وإنقاذ الأرواح بكسب معتنقين جدد لعقيدة الكنيسة الصحيحة.

كانت هذه الجوانب الثلاثة من واقعة الغزو طليعة دخول عصر جديد. وقدر لها أن تصبح ملامح عامة مشتركة للاتصالات اللغوية الكبرى اللاحقة، عندما راحت الأمم البحرية الأوروبية ترسل أساطيلها إلى كل جزء معتدل ومداري واستوائي من العالم له خط ساحلي، وتحاول ضمها إليها كمستعمرات، وضم

أهلها كزبائن أو كرعايا أو كمتنصرين. وصارت هذه السلسلة من الغزوات معلماً من معالم التحول الحاسم في تطور الدنيا المعولمة اليوم حيث إن أي مكان على الكوكب صار محصوراً ضمن سفرة طولها أربع وعشرون ساعة فقط من أي مكان آخر(*).

وكفكرة تالية لاحقة تقريباً، فإن غزو أمريكا قد عمل في آخر الأمر على تحقيق الغرض الذي كان يقصد إليه كولومبوس في الأصل، وهو إقامة صلة مع آسيا. ففي العام 1565، وبناء على تعليمات من الملك فيليب الثاني، قامت حملة من المكسيك بعبور المحيط الهادئ إلى جزر سيبو ولوزون فأسست بداية حكم إسباني فيما كان سيعرف باسم الفليبين. وكانت هناك مستعمرات إسبانية أخرى أصغر حجماً في المحيط الهادئ، شملت جزر ماريانا وغوام. فاستمرت السيطرة الإسبانية ومحاولة نشر اللغة الإسبانية هنا حتى استولت الولايات المتحدة الأمريكية على المنطقة في العام 1898 بعد انتصارها في الحرب الأمريكية الإسبانية.

وبما أن هذه المستعمرات في المحيط الهادئ قد تم الحصول عليها في حوالي وقت غزو الأمريكتين نفسه، ولكنها كانت جزءاً من العالم القديم لجزر التوابل، على حافة مناطق نفوذ الهند والصين، فإنها تقدم مقارنة مفيدة لإبراز ملامح تقدم اللغة الإسبانية في العالم الجديد. فهذه اللغة لم تنتشر على نطاق واسع ولم تحرز تقدماً عميق الجذور في الفليبين أبداً، ورغم حضورها هناك لمدة ثلاثة قرون أو أكثر فسرعان ما أزاحتها الإنكليزية جانباً في أوائل القرن العشرين. وسيكون من المثير للاهتمام أن نفكر في جذور الفرق بينها وبين الإسبانية في الأمريكتين، حيث لا تزال الإسبانية تنمو على حساب الإنكليزية رغم السيطرة الاقتصادية للولايات المتحدة.

ويستطيع المرء أن يقول في البداية إن غزو الفليبين لم يشترك مع غزو

(*) رغم أن الاتصالات على مدى القرون القليلة الأولى كانت تتضمن دائماً عرض لغات البحّارة على الشعوب التي تتلقى طلائعهم على اليابسة، فقد رأينا في العصر الحديث أن الصلات الجديدة يمكن أن تعمل في كلا الاتجاهين، عندما تتجمع مجموعات من المهاجرين من البلدان المستعمرة في موطن القوى التي كانت تستعمرها، وتأتي هذه المجموعات بلغاتها الخاصة معها.

الأمريكتين في كل الخصائص التي لم يسبق لها مثيل. صحيح أنه كان غزواً محمولاً عن طريق البحر، وأن أصله جاء من المكسيك، مثل كثير من حملات الاستكشاف في أمريكا الشمالية، ولكن الأرض المستهدفة كانت جزءاً من العالم القديم، لا الجديد، ومن هنا فإنها لم تكن تعاني من نقص المناعة من الأمراض الأوروبية التي دمرت أمريكا: فدخول الإسبانية في المحيط الهادئ لم يتبعه أي انهيار في السكان الأصليين. وعلاوة على ذلك فإن استيطان الفليبين لم ينطلق من مجموعات فردية انتشرت لتستكشف وتستغل لمصلحتها الخاصة. بل كانت مؤسسة إسبانية حكومية أقيمت أولاً في سيبو، ثم بصورة أكثر ديمومة في مانيلا. وفيما بعد فإن توسع الوجود الإسباني، وبالتالي اللغة الإسبانية، جاء على وجه العموم عن طريق الأنشطة غير المهتمة بالربح التي قام بها المبشّرون. ولم تكن في الفليبين معادن نفيسة كالتي وجدت في الأمريكتين. وكان الوصول إليها من إسبانيا أصعب بكثير لأن الطريق الوحيدة التي لا تكاد تكون عملية إليها هي عبر المكسيك: ولذا فلم يكن في هذه المستعمرة حافز يذكر لنمو وتوسع مجتمع ناطق بالإسبانية هناك.

الشقوق الأولى في حاجز اللغة: المترجمون وثنائيو اللغة والنحاة

حاول القائد قويسادا أن يكتشف ماهية الناس الذين احتشدوا ضده. كان هناك هندي أسروه بكعكتين من الملح فقادهم إلى المكان الذي كانوا فيه في هذه المملكة. وكان من خلال المحادثة يتكلم بضع كلمات بالإسبانية. فطلب منه القائد أن يطلب من بعض هنود البلد الذي استولى عليه أن يعملوا كمترجمين فأجابوا بلغتهم قائلين "موسكا بوينونغا"، التي هي عبارة معناها 'أناس كثيرون'. فقال الإسبان الذين سمعوها: 'إنهم يقولون بأنهم مثل الذباب [موسكاز]' ... فأطلق عليهم [قويسادا] النار من البنادق. وعندئذٍ لما رأى الهنود أن الإسبان كانوا يقتلونهم من دون الاقتراب منهم، هربوا دون أن ينتظروا لحظة. فطاردهم رجالنا وهاجموهم، حتى تشتت جمعهم الكبير واختفى. وفي المطاردة يقولون إن الإسبان قالوا: 'لقد كان

عددهم أكثر من الذباب، ولكنهم فروا كما يفر الذباب'، وبذلك التصقت بهم تسمية [موسكا]. وأنهى هذا الهجوم الحرب كلها.

جوان رودريغز فريل: "غزو واكتشاف مملكة غرناطة الجديدة": الفصل 6 (كتب في العام 1636 لوصف الأحداث في منطقة بوغوتا في العام 1536).

لعل كولومبوس قد خاب أمله بالدعم اللغوي غير الكافي الذي جلبه معه في رحلته الأولى، لأن مقدمي هذا الدعم قد ضللوا، فاختطف حفنة من الناس بينما كان مستمراً في إبحاره في سفنه حول الجزر التي يستكشفها، ثم عاد بهم إلى إسبانيا. 'فقد بدا له أن يأخذ إلى قشتالة من جزيرة كوبا هذه، أو من البر الرئيسي كما كان يعتبرها، بعضَ الهنود [الحمر] لعلهم يتعلمون لسان قشتالة، وكي يعرف منهم أسرار الأرض، وكي يعلمهم في قضايا الإيمان'(4).

فقدّم عدة منهم في البلاط، وتلقوا التعميد، مع عرّابين ملكيين لا أقل. وقد مات معظمهم في إسبانيا، أو هربوا بمجرد عودتهم إلى جزر الهند الغربية. ولم يخدم منهم كمترجم إلا شخص واحد (بعد التعميد) عُرِفَ باسم دييغو كولون. وكان عند كولومبوس في أول الأمر انطباع بأن جميع 'الهنود' الذين لقيهم يتكلمون اللغة نفسها. ولكن محدودية الفائدة التي قدمها له دييغو حتى وهو يطوف بقية جزر الكاريبي أعطته لمحة طفيفة وغامضة عن مدى تنوع المخزون اللغوي لهذه الأراضي بالفعل. فكان أول أوروبي يدرك ذلك.

غير أن هذا النوع من محاولة أسر بعض الأولاد المحتملين وتدريبهم كمترجمين لم يحرز نجاحاً كبيراً على الإطلاق، رغم الإصرار على الاستمرار فيه لمدة ثلاثين عاماً أو نحوها. فقد سبب الغضب عندما كان المرشحون لهذا العمل يؤخذون بالقوة ـ فقد كان للسكان الأصليين من هنود تاينو Taino تجربة مريرة في ثقافتهم نفسها من غارات جيرانهم لاستعبادهم وتقديمهم كأضحيات بشرية ـ وفي كثير جداً من الأحيان كان المتدرب يموت من نوعية الحياة غير الطبيعية التي يعيشها في أوروبا.

فكان الشيء الأكثر فاعلية هو العملية الطبيعية التي بموجبها يأتي شخص إسباني منعزل غرقت سفينته أو هرب من قومه أنفسهم ليعيش في قرية هندية،

فيتعلم لغة أهلها قبل أن يعود ليعمل كمترجم. وهناك ذرينة كاملة مسجلة من مثل هذه الحالات[5]. وقد ثبت أن واحدة منها كانت حاسمة لأول تقدم إسباني إلى داخل أمريكا، في العام 1519، عندما تغلغل كورتيز إلى قلب الإمبراطورية المكسيكية. فأجرى التواصل عن طريق نقل قام به مترجمان، أحدهما جيرونيمو دي أغويلار، وهو إسباني أمضى ثمانية أعوام في إحدى قرى المايا بعد غرق سفينته على ساحل يوكاتان، والأخرى هي مالين ـ تزين الشهيرة، وهي امرأة ناطقة بلغة الناحواتل من كوتزاكوالكوس كانت قد بيعت لجماعة مايا المجاورة، كسيكالانغو، في طفولتها.

وقد ظل كثير من الأهالي الأصليين المتدربين غير كافين كمترجمين للإسبانية، وتنقصهم الأرضية الخلفية لفهم مصالح الإسبان الحقيقية، حتى ولو كان لديهم حافز ذاتي مثل فيليبيلو البيروفي الذي 'كان قد تعلم [الإسبانية] دون أن يعلّمه إياها أحد ... [و] كان أول مترجم حصلت عليه البيرو'[6].

فكان هو المترجم الرئيسي أثناء غزو البيرو، وتوسط في المحادثة الأولى، الحاسمة مع أتاهوالبا، إمبراطور الإنكا، تماماً قبل معركة كاجاماركا الحاسمة. ودُعِيَ فيليبيلو لترجمة خطاب قاسٍ وبليغ للراهب الدومينيكاني فراي فنسنت فالفيرد، تحدث فيه عن المبادئ الأساسية للمسيحية، وعن الواجب الظاهر للبابا والإمبراطور الإسباني تشارلز لتنصير العالم، وبالتالي عن حاجة أتاهوالبا للخضوع لهما دون مزيد من الضجة.

ونُقِلَ رد أتاهوالبا عن طريق إنكا غارسيلاسو، وهو هجين ثنائي اللغة في الإسبانية والقيشوَا لغة الإنكا، ولكنه أيضاً طالب عالي الثقافة يتقن خطابة شيشرون. وقد كتب عن تلك الواقعة بعد مرور أكثر من حياة إنسان كاملة على حدوثها. وحسب روايته، فإنه يبدو أن سوء الترجمة قد أفسد أي فرصة لإمكانية الحفاظ على التفاهم، أو المجاملة على الأقل. فالمفروض أن أتاهوالبا قد أعطى إجابة مطولة، مبتدئاً بتعليق على نوعية الترجمة السيئة:

كان يمكنني أن أشعر بكثير من الرضا ما دمت تنكر علي كل شيء طلبته من

رسلك، لو أنك أعطيتني طلباً واحداً، هو أن تخاطبني عن طريق مترجم بارع ومخلص، لأن تحضّر الناس وحياتهم الاجتماعية يمكن فهمها عن طريق الكلام بسهولة أكثر من فهمها عن طريق العادات. فرغم تمتعك بفضائل عظيمة، فإنك إذا لم تظهرها بالكلمات، فلن أكون قادراً على إدراكها بالملاحظة والتجربة. وإذا كانت هناك حاجة إلى ذلك بين كل الشعوب والأمم، فالحاجة أكبر بكثير بين الذين يأتون من مناطق شديدة الاختلاف مثلنا. فإذا كنا سنتعامل ونتحدث عن طريق مترجمين ورسل يجهلون كلا اللغتين فسيكون الأمر كما لو كنا نتحدث من خلال أفواه حيوانات الحمل[7].

إن خطاباً بهذا المستوى من الإتقان والتفصيل كان سيهزم مترجماً بسيطاً مثل فيليبيلو، ولكنه على الأرجح نتاج خيال غارسيلاسو بحسب أفضل التقاليد الكلاسيكية لكتابة التاريخ. ومع ذلك، فقد زعم غارسيلاسو أن الإسبان 'الذين لم يطيقوا طول الخطاب غادروا أماكنهم وانقضوا على الهنود'. وهكذا فإن عدم التسامح مع طول النفس في خطاب بلغة غير معروفة ربما يكون قد لعب دوراً في العمل الذي تطور بعد ذلك فعلاً.

وبعد تحقيق الغزوات وتنصيب إسبان في مواقع السلطة، لم يكن هناك شيء يذكر في النظام الاقتصادي الجديد، حيث كان السكان الأصليون في كل منطقة يُسْتَغَلُّون للعمل في الأرض أو في المناجم، يمكن أن يشجع الانتشار الواسع للغة الإسبانية. فالواجبات المتكررة بين سكان في حالة سكون وخضوع كان من شأنها تقليل الحاجة إلى الاتصال بين السادة والرعايا. فلم يكن هناك شيء يضاهي الخدمة العسكرية في الإمبراطورية الرومانية، أو انتشار الأديرة والجامعات في أوروبا العصور الوسطى، مما كان سينشر لغة السادة الإسبان في أنحاء ممتلكاتهم. وكان هناك على أي حال تدفق مستمر للناطقين بالإسبانية مهاجرين من إسبانيا نفسها ليزيد عدد السكان الناطقين بها. ومع ذلك فقد كانت هناك حاجة إلى عدد كبير من ثنائيي اللغة لتنظيم عمل الأهالي الأصليين. فنشأ مثل هؤلاء الأشخاص بشكل طبيعي لأن المهاجرين الإسبان، الذين كانت أغلبيتهم الساحقة من الذكور، راحوا يتخذون زوجات أو "عشيقات" هنديات ويؤسسون معهن أُسراً. فأخذ الأطفال المعروفون "بالهجناء" يتعلمون كلا اللغتين من آبائهم

وأمهاتهم: 'ففي وقت مبكر مثل العام 1503 أوصى البلاطُ حاكمَ هسبانيولا بأن يتزوج بعض المسيحيين نساءً هنديات لكي يتصل كل من الطرفين بالطرف الآخر ويعلمه لغته'[8].

إن مثل هذا الحماس "للجنس الجديد" المتولد من هذه الزيجات المختلطة الأعراق هو أحد الملامح التي تميز تمييزاً قوياً بين الاستعمار الإسباني وبين مواقف بناة الإمبراطوريات الأنغلو - ساكسون الذين جاؤوا فيما بعد. فبين "الغزاة" الإسبان كان كل واحد تقريباً لديه أطفال "مهجنون"، ومن عدة نساء مختلفات في كثير من الحالات، وكان معترفاً بهم كورثة لآبائهم. وقد امتثل لهذا التقليد كل من كورتيز، وبيزارو، وبنالكازار، وألفارادو؛ بل إن البابا كليمنت السابع أصدر أمراً بابوياً رسمياً بإضفاء الصفة الشرعية على ثلاثة من أبناء كورتيز في العام 1529، ولو أنه تأخر في ذلك قليلاً: (فجمال 'الفضائل' في الأبناء يطهرهم من لطخة مولدهم، وبالتطهير يمحى عار الأصل).

وقد شاع التزاوج المختلط الأعراق (الذي سرعان ما تعقد باستيراد العبيد السود من إفريقيا) إلى درجة استنباط تصنيف لمراتب أطفال هذا التزاوج وتوضيح مصطلحات طبقاته على نحو مشهور[9]. ويميل المعلقون الهسبانيون المحدثون إلى إضفاء نظرة مثالية على هذه الأوضاع، فيشيرون مثلاً إلى خلفية الإسبان العرقية المختلطة في أوروبا، ولكن الحقائق تقول إن محاولة قد تمت لإبقاء كل شخص خاضعاً للتصنيف، وأن سلطة ومكانة العوائل الإسبانية النقية ظلت عالية إلى نهاية الإمبراطورية - فلم تتفوق عليها إلا سلطة ومكانة المهاجرين من إسبانيا - وهذا كله يشير إلى أن المجتمع لم يكن - كما يُزْعَمُ في بعض الأحيان - خالياً من الظلم القائم على أساس عرقي عنصري. وعلى كل حال، ومهما كانت درجة القبول والتشجيع للأنماط المتنوعة من الزيجات التي حظيت بالشرعية الدينية الرسمية (أم لا)، فليست هناك أدلة وثائقية تذكر على كيفية استخدام اللغة في هذه العائلات.

فالدليل الموجود يأتي من حقيقة لا يمكن تحديها وهي التميز الأدبي في كثير من الأبناء "المهجنين" في وقت مبكر من هذه الفترة. فلم يكونوا

مترجمين فقط، بل مترجمين أدبيين ومؤلفين كذلك، بالإسبانية وباللاتينية أيضاً(*). فهناك فرناندو دي آلفا إختلخوكيتل من نسل ملوك تزكوكو، (حلفاء كورتيز)، الذي كان معروفاً باسم 'ليفي من أناهواك' وقد ألف كتاب "تاريخ شيشيميكا". وابنه بارتولومي ترجم إلى لغة الناحواتل مسرحيتين إسبانيتين من الأدب المعاصر له من تأليف لوبي دي فيغا، ومسرحية أخرى من تأليف كالديرون. ولم يكن هذان وحدهما، بل إن السرد التاريخي للغزو في جميع أنحاء الإمبراطورية في العالم الجديد سرعان ما راح يكتب بالإسبانية على أيدي المواليد الذين أنتجهم ذلك الغزو نفسه(10).

وربما كان أبرز الأدباء الهجناء تميزاً غارسيلاسو دي لا فيغا من قبائل الإنكا (1539 ـ 1616)، المولود في كوزكو عاصمة الإنكا، بعد غزوها بسبعة أعوام. وكان أبوه هو النبيل الإسباني القبطان سباستيان غارسيلاسو دي لا فيغا إي فارغاس، وأمّه بالا شيمبو أوكلو، ابنة عم من الدرجة الثانية لآخر اثنين من حكام الإنكا، وهما هواينا كاباك وأتاهولابا. وقد هاجر إلى إسبانيا في أوائل العشرينيات من عمره، وعاش هناك حتى وفاته. وهكذا فإن سيرة حياته ليس فيها شيء مباشر يذكر عن القوة النسبية للغات في البيرو. ولكنه كان عارفاً بمعنى اللغات المختلفة: فقد تعلم لغة قيشوَا والإسبانية في طفولته، واللاتينية في شبابه. ثم تعلم من الإيطالية ما كان كافياً لتمكينه من ترجمة كتاب عنوانه: "محاورات الحب". وتابع عمله فكتب من تأليفه كتابين تاريخيين طويلين، أحدهما: "فلوريدا الإنكا"، عن حملة دي سوتو عبر فلوريدا، والآخر تاريخ من جزأين معنوين: "تعليقات ملكية من الإنكا"، و"تاريخ البيرو". وفي عمله الأخير كان لديه الكثير مما قاله عن الأدوار النسبية للغتين القيشوَا والإسبانية، وكثيراً ما كان يستشهد بآراء أديب آخر "هجين" مشهور هو الأب بلاس فاليرا (الذي كان قد كتب تاريخاً للبيرو باللاتينية).

(*) الحق أن كلمة *'Ladino'* المنقولة عن تطبيقها على المسلمين المغاربة في إسبانيا كان اصطلاحاً كثيراً ما يستخدم للدلالة على غير الإسبان الذين يتقنون الإسبانية. وقد طبق أول الأمر على الهنود [الحمر] ثم صار يطبق فيما بعد على العبيد الأفارقة.

وكان غارسيلاسو وبلاس فاليرا يريان أن مجيء السلطة الإسبانية إلى البيرو، مع الحروب الأهلية والتمزقات الاجتماعية التي جلبتها في أعقابها، هي التي عطلت الوحدة اللغوية المناسبة التي كان الإنكا قد نجحوا في فرضها على إمبراطوريتهم، والتي كان يجب استغلالها للترويج للعقيدة المسيحية:

> ومن هنا حدث أن كثيراً من المقاطعات التي كان باقي الهنود فيها يعرفون هذه اللغة المشتركة قد نسوها تماماً عندما دخل الإسبان كاجاماركا، لأنه مع نهاية عالم الإنكا وإمبراطوريتهم لم يكن هناك أحد ليتذكر شيئاً مناسباً وضرورياً لإلقاء مواعظ عن بشارة المسيح المقدسة، بسبب النسيان الواسع الانتشار نتيجة الحروب التي اندلعت بين الإسبان، ولأسباب أخرى بعد ذلك زرعها الشيطان الشرير لمنع تشغيل مثل هذا النظام المفيد ... وهناك البعض ممن يظهر لهم أن من المعقول إجبار كل الهنود على تعلم اللغة الإسبانية، كيلا يضيّع القساوسة جهودهم في تعلم اللغة الهندية. ولا يشك أحد يسمع هذا الرأي أنه ناشئ عن فشل الجهد، وليس عن غباء التفكير..... [11].

وكان هناك ادعاء[12] بأن النقطة الكامنة وراء كلام غارسيلاسو هي أن الإنكا فهموا أحسن من غزاتهم النقطة الأساسية عند نبريجا، الذي كان كتابه المبتكر عن قواعد اللغة الإسبانية قد بدأ كما رأينا بمقولة 'أن اللغة ترافق الإمبراطورية على الدوام'. ومن المؤكد أن غارسيلاسو كان له رأي لا يزال واسع الانتشار حتى اليوم، وإن لم يكن في صفوف اللغويين العارفين، أن اللغة المشتركة تمهد للفهم المشترك وللعلاقات الطيبة المتبادلة، 'لأن الشبه والتماثل في الكلمات يميل دائماً إلى التوفيق بين الناس ويؤدي بهم إلى اتحاد وصداقة حقيقيين' [13].

ومهما تكن الحقيقة حول هذه الإيديولوجية، فإن كتابي أنطونيو نبريجا حول قواعد اللغتين اللاتينية (مقدمات للاتينية) والإسبانية المعاصرة ("قواعد اللغة القشتالية") يوضحان أن من الممكن الإمساك 'بفن' اللغة على الصفحة بوضوح. وسرعان ما استفاد المبشرون الذين تدفقوا على العالم الجديد من هذا التوضيح ليؤسسوا علم اللغويات الوصفية لأول مرة في العالم.

فعندما دخل الرهبان الفرانسيسكان، والدومينيكان، والأوغسطينيون المكسيك

كانت أرضاً بكراً للكنيسة، ولم تكن فيها ثنائية لغوية على أي مستوى في المجتمع، فأدركوا أنهم سيضطرون إلى العمل من خلال لغات الناس الأصليين أنفسهم إذا كان لهم أن يحققوا أي تقدم في نشر عقيدتهم(*). فكان هذا يعني أن عليهم أن يتعلموا تلك اللغات. فقد كان عدد الناس الذين يتعين عليهم الاتصال بهم هائلاً. فهم عدة ملايين في مقابل 802 من الرهبان الموجودين في المكسيك في العام 1557[14]. فكان من الواضح أن هذا عمل لعدة أجيال. وبما أنه سيكون هناك بالضرورة تناوب للمبشرين مع تقاعد كبار السن ومجيء متطوعين جدد من إسبانيا ـ أي أنه يجب استمرار التقليد بدون الانتقال الطبيعي للغات من خلال تنشئة الأطفال ـ فإن اللغة يجب تدريسها من جديد، وبصورة مستمرة لكل جيل جديد من المتعلمين الكبار البالغين. ولأول مرة في تاريخ العالم، صار هناك طلب واضح على نصوص كتب مقررة لتعليم اللغة، ولا سيما القواعد النحوية، والمعاجم، وكذلك نسخ من كتب الصلوات والاعترافات للكهنة بلغات الأهالي الأصليين، فتلك هي الأدوات المهنية للتبشير الكاثوليكي(**).

وكان من المناسب عندئذٍ توفر الوسائل التقنية لتلبية هذا الطلب. فأقيمت المطابع في مدينة المكسيك في العام 1535، فكان أول إنتاج معروف إليها كتاباً عن تقديم القداس بصورة جماعية لتعليم العقيدة المسيحية من أجل الاستخدام الكهنوتي نشر في العام 1539، رغم أن عنوانه قد كتب بلغة الناحواتل. وتبعه في العام 1546 كتاب من تأليف الراهب فراي ألونصو دي مولينا عن العقيدة المسيحية بالتقليد اللغوي المكسيكي، وفي العام 1547 كتاب عن قواعد اللغة المكسيكية من تأليف الأب أندريه دي أولموس، ومجلد مرافق له عن مفردات

(*) كان الأهالي الأصليون في هسبانيولا، وكوبا، وباقي جزر الكاريبي التي اكتشفت في الجيل الأسبق واخضعت فوراً للعبودية للأسبان الذين عينوا أنفسهم سادة عليها، يتكلمون لغات أكثر من اللازم ولها ناطقون بها أقل من اللازم، وهي لغات ماتت وتلاشت بسرعة أكثر من اللازم، إلى درجة منعت ترسخ الجهد التبشيري هناك.

(**) حول كون هذا الشيء فريداً من نوعه، انظر أوستلر (2004). كانت جميع المعاجم تقريباً من اللغة الإسبانية إلى اللغات الغربية الأخرى وليس العكس. فكان الهدف هو التدريس، وليس التعلم، وصياغة رموز للفكر الإسباني، وإمراره بالتالي إلى الهنود [الحمر]، وليس حل رموز أي شيء جديد قد يقوله أولئك الهنود.

اللغة المكسيكية(*). وتبعت ذلك مجلدات بلغات البلد الأخرى، بدءاً بالشروح التفسيرية للعقائد المسيحية بلغة الهواستك Huastec في العام 1548، ولغة المكستيك Mixtec في العام 1550. ولم تستطع البيرو أن تنتظر مجيء المطابع. فتم طبع أول كتاب عن قواعد لغة قيشوَا في الحقيقة في مدينة بلد الوليد في إسبانيا في العام 1560. ولكن عندما بدأت الطباعة في ليما (في بيرو) في العام 1583 كان من بين منتجاتها الأولى كتب عن تعليم اللغة الإسبانية للناطقين بلغة قيشوَا، وتعليم لغة قيشوَا للناطقين بالإسبانية، وعن تعليم العقائد المسيحية بلغات أخرى لعامة الناس وذلك في العامين 1583 و1584 على التوالي[15].

ولم يكن هذا سوى خدش على السطح للغات القارة غير المعروفة. إذْ إن الحصاد النهائي للمعرفة اللغوية التي تم كسبها في الأمريكتين من أجل خدمة النشاط التبشيري بالدرجة الأولى كان هائلاً. ففي العام 1892، أدرج الكونت فينيازا قائمة من 493 لغة متميزة حددها وتعرف إليها اللغويون الإسبان في الأمريكتين على مدى ثلاثة قرون ونصف القرن من البحوث، وكذلك عناوين وثائق هامة تصف بعض جوانب 369 لغة منها. وفي تلك الفترة قام 667 مؤلفاً منفصلاً بإنتاج 1,188 عملاً[16].

إن العودة إلى الوراء للنظر إلى هذا التعدد اللغوي الهائل في الأمريكتين الذي كشف عنه تغلغل الإمبراطورية الإسبانية تجعلنا نكاد نرتجف من ضخامة ما اضطلع به الإسبان، لأن نشر اللغة الإسبانية كلغة أولى أو ثانية لأناس ينتمون إلى تقاليد كثيرة ومختلفة لم يكن محتوماً بأي حال من الأحوال.

إن وضع اللغة الإسبانية في إمبراطوريتها في القرن السادس عشر، وحتى في القرنين السابع عشر والثامن عشر، كان شديد الاختلاف عن وضع الإنكليزية في القرنين التاسع عشر والعشرين. فرغم أن الإمبراطورية كانت مؤسسة مفتوحة للإسبان، الذين استمروا يهاجرون إلى المستعمرات إلى أن حققت استقلالها في أوائل القرن التاسع عشر، إلا أنها كانت شيئاً آخر بالنسبة للأهالي الأصليين الريفيين، الناطقين بتلك اللغات الغريبة الـ 493 أو نحوها. فبالنسبة

(*) إن عبارة اللغة المكسيكية تشير إلى لغة الناحواتل، وهي اللغة الرئيسية المشتركة لإمبراطورية الأزتيك (مكسيكا)، وكذلك لإمبراطورية إسبانيا الجديدة التي خلفتها.

لمعظمهم، ممن كانوا على الأغلب يعيشون في مستوطنات جماعية، لم تكن هناك قابلية للحركة جسدياً أو اقتصادياً أو اجتماعياً، إلا ربما عن طريق التسلسل الهرمي في الكنيسة. فمن الممكن أن يعنى بهم القسس الناطقون بلغاتهم. وفيما عدا ذلك، فقد كانوا منفصلين تماماً عن الاتصال بالسادة الأسبان. فقد عُرِضَتْ على الهنود بطاقة للخلاص في العالم الآخر، ولكن ليس لأي نوع من التقدم في هذا العالم. فكان هذا وضعاً شبيهاً بوضع أوروبا العصور الوسطى أكثر من شبهه بعصر الإصلاح الديني. ومن هنا فإنه لم يكن ممكناً إجراء تحول سريع وتلقائي نحو الإسبانية خارج مجتمعات "الهجناء" والمدن.

بل إن المرء يستطيع أن يتكهن بأنه لو جاءت قوة سياسية فانتقصت من السيطرة الإسبانية أو تفوقت عليها في تلك الفترة لتلاشت اللغة الإسبانية بسرعة شديدة. فبعد كل شيء، نستطيع أن نتذكر ما حدث للسنسكريتية في جنوب شرقي آسيا عند نهاية الألف الميلادي الأول، أو ما حدث لليونانية في الشرق الأدنى عندما تقدم البارثيون ومن بعدهم المسلمون: فقد كانت أوضاع هاتين اللغتين شبيهة بوضع الإسبانية: لغات على أعلى مستوى بقيت محجوزة لنخبة صغيرة، بل إن هناك تجربة شبيهة تبرهن على نقطتنا، بعد طرد الإسبان فعلاً من مستعمراتهم في المحيط الهادئ عند نهاية القرن التاسع عشر.

ولكن عندما ننظر في الطريقة التي شددت فيها الإسبانية قبضتها على السكان الأمريكيين الأصليين، فإننا نحتاج إلى النظر في الأرضيات الخلفية لبعض اللغات الأمريكية التي كانت لا تزال محكية بشكل واسع في القرنين السادس عشر والسابع عشر ولم تكد تخسر شيئاً من مواقعها.

الصراعات الماضية: كيف انتشرت اللغات الأمريكية

في وقت مبكر، كما رأينا، شعر كولومبوس بالإحباط والاكتئاب بسبب العدد الهائل من اللغات وعدم التفاهم المتبادل بين الناطقين بها حسبما رأى في رحلاته. فعند تحركه على طول ساحل البر الرئيسي للأرض الأمريكية، لاحظ

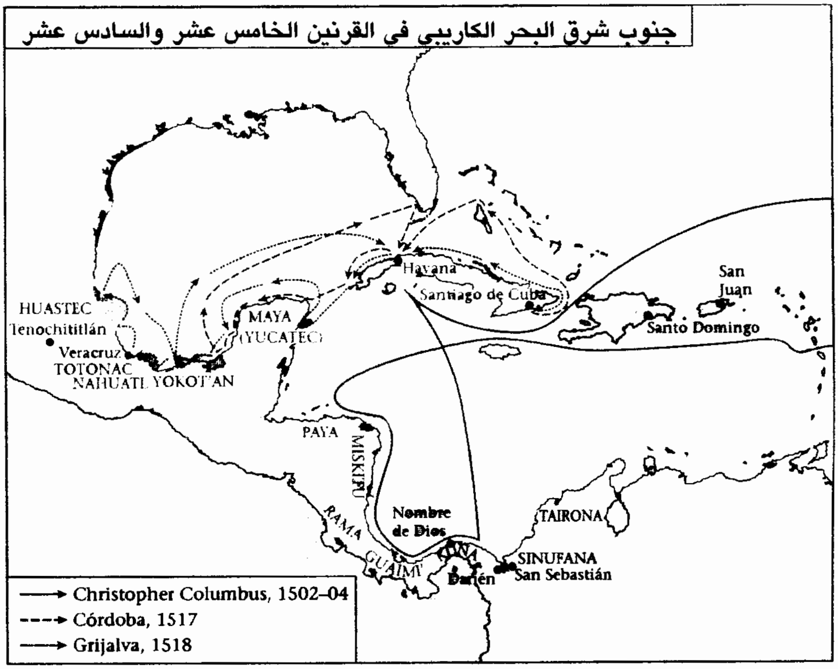
لخيبة أمله أنه 'لا يفهم كل منهم الآخر أكثر مما نفهم نحن العرب'[17]. فالناس الذين التقى بهم أثناء تطوافه عند سواحل ما يسمى اليوم هندوراس، ونيكاراغوا، وبنما، لا بد أنهم كانوا يتكلمون بلغات بايا، وميسكيتو، وغويمي، وكونا.

ولم يكن هناك خلاص من هذه البابل المليئة بلغات يبدو أنها لا تنتهي عندما انطلق الإسبان من قاعدة في سانتياغو دي كوبا لاستكشاف خط الساحل على مبعدة إلى الشمال. وكان هرنانديز دي كوردوبا قد طاف إلى الشمال والشرق من يوكاتان في العام 1517 فالتقى فقط بعشائر مايا الناطقة بلغة يوكاتيك Yucatic عند نزوله إلى البرّ مرتين. وكانت لغة واحدة ولكنها متميزة عن أي لغة إسبانية سبق له أن التقى بها ـ وليست هناك أي إشارة لأي محاولة للتعرف إلى تلك اللغة أو تعلم أي شيء منها[*]. ثم في العام 1518 قام خوان دي غريزالفا برحلة أطول لاستكشاف السواحل، مع مزيد من التوقف في يوكاتان، وتوقف في كسيكالانكو، حيث التقى مع لغة مايا أخرى مختلفة أطلق عليها الإسبان اسم كونتال دي تاباسكو ـ رغم أن الناطقين بها يسمونها الآن يوكوتان ـ ثم قام بتوقفات أخرى في بوتونتشان، حيث كانت اللغة السائدة هي زابوتيك، وتبع ذلك توقفان في منطقة فيراكروز الحديثة، حيث كانت اللغة هناك هي توتوناك. وفي تلك الأثناء ظلت لغة الإشارة هي وسيلة الاتصال الأفضل.

لم تكن هذه بداية مشجعة إن كان الإسبان يأملون في إقامة اتصال واسع مع الهنود [الحمر]؛ ولكنها لم تكن بلا جدوى تماماً: فقد كان في أمريكا ألفان من اللغات المحكية في ذلك الوقت، منها 350 لغة في المنطقة الوسطى من المكسيك والبرزخ الذي استكشفه الإسبان أولاً[18].

ورغم ذلك فعندما نجح الإسبان في الاتصال بالولايات الكبيرة المتعددة القوميات

(*) بالإضافة إلى الخطأ في تحديد بعض العبارات بتلك اللغة، وتطبيقها بشكل دائم على الأراضي التي كان هرنانديز دي كوردوبا 'يستكشفها' (ويدعي الحق بها طبعاً باسم التاج الإسباني)، فقد أصبحت عبارة 'نحن من إيكاب' كابو (أي رأس) قوتوش، هي اسم المنطقة إلى اليوم. وإذا تابعنا كتاب دييغو دي لاندا ("علاقة ساحل يوكاتان"، الفصل الثاني، المكتوب في حوالي العام 1566) فهو يقول إنهم يسمونها 'أرض الديكة الرومية والغزلان' وهكذا انتهى بها الأمر لأن تدعى 'يوكاتان'.



جنوب شرق البحر الكاريبي في القرنين الخامس عشر والسادس عشر

في أمريكا ثم في غزو تلك الولايات، وجدوا أن مقولة نبريجا، بل نظريته النبوئية عن كون 'اللغة هي المرافقة الدائمة للإمبراطورية' تؤيدها وتثبتها الأوضاع في العالم الجديد بشكل كبير. وكانت الإمبراطوريتان الكبيرتان القديمتان، الأزتيك والإنكا، في الأمريكتين، قد نشرتا لغاتهما في جميع أنحاء ممتلكاتهما التي شملت معظم المكسيك وجبال الأنديز الوسطى والجنوبية، نزولاً حتى المحيط الهادئ. وكانت المستوطنات الكاريبية في شمال الأنديز (في وسط ما يسمى الآن كولومبيا) أقل لفتاً للأنظار من حيث التطور السياسي والاجتماعي، ولكنها مع ذلك مرضية كثيراً للإسبان الباحثين عن الذهب. وكانت تتميز بلغة مشتركة وواسعة الانتشار تعرف باسم مويسكا. وعندما وصلت إسبانيا إلى منطقة ريو دي لابلاتا وغران تشاكو في الجنوب، وجدت منطقة شاسعة يتكلم فيها كل واحد لغة توبينامبا أو لغة غواراني(*).

(*) غواراني تسمى هكذا لأسباب تاريخية، لأن أول الناطقين بها الذين التقى بهم الأوروبيون (مع سباستيان كابوت في الأعوام 1526-1529) كانوا هم الغواراني، من الجزر التي في ريو دي لابلاتا والتخوم السفلى لبارانا، وكانت تسميتهم المفضلة هي "آفايني"، أي 'لغة أهل السهل'.

وهما لغتان متقاربتان بشكل وثيق ويمكن فهمهما بشكل متبادل. وعلى مبعدة إلى الجنوب، في أرض أروكانيا الصقيعية والجبلية كان يعيش المابوش، المحاربون الذين ظلوا يقاومون الاستيلاء الإسباني بنجاح حتى منتصف القرن التاسع عشر، وكانت توحدهم أيضاً لغة مشتركة، تدعى مابودونغون.

وكانت هذه اللغات الواسعة النطاق هي الاستثناء إلى حد كبير، فلا يفهمها إلا أقل من عشرة بالمئة من إقليم أمريكا الوسطى والجنوبية، ولكن هذا الإقليم كان مأهولاً بكثافة من قبل أربعين بالمئة من الشعب. وقد أثبتت اللغات الواسعة الانتشار فائدتها الكبيرة لقوة غازية، لأنها عندما تم توحيدها كلغات مساعدة في الإمبراطورية الجديدة صار بوسعها اختصار عملية الاتصال الطويلة والمرهقة. وبضربة حظ مذهلة تبين أن هذه اللغات كلها عدا واحدة (هي لغة توبينامبا) كانت محكية في أجزاء القارة التي سيتملكها الإسبان. فكانت هذه المجموعة الكبيرة من الفوائد والمزايا اللغوية أحد الأسباب التي جعلت التطور الاقتصادي لإمبراطورية إسبانيا في الأمريكتين يبدأ قبل قرن من تطور اقتصادات البرتغال أو فرنسا أو بريطانيا. ذلك أن نظام الدعم الواسع الكامن وراء تعدين الذهب على نطاق واسع في مناجم زاكاتيكس في المكسيك، والفضة في بوتوسي بجبال الأنديز، كان من المستحيل أن يوجد فيه نوع من اللغة المشتركة، ولكن اللغة لم تكن إسبانية في تلك الأيام.

وهذه اللغات الواسعة النطاق لم تكن دائماً واسعة الانتشار هكذا. وقبل النظر في الفائدة التي استخلصتها الإسبانية منها، يجدر بنا أن نتأمل عملية نشوء المناطق اللغوية لهذه اللغات الأصلية.

انتشار لغة الناحواتل

هل سأذهب، تماماً مثل الزهور التي تذبل؟
هل سيصبح مجدي لا شيء ذات يوم؟
وهل ستكون شهرتي لا شيء في الأرض؟
أفلا تكون زهوراً على الأقل، وأغاني على الأقل!
وا أسفاه وما الذي سيفعله قلبي؟
إننا نمر بلا جدوى في هذه الطريق عبر الأرض!

أغنية بالناحواتل (أغان مكسيكية، المجلد 10، القسم 2 ص 23 وما يليها.)

كانت الأولى من حيث الروعة ومن حيث السكان أيضاً هي المنطقة الناطقة بالناحواتل(*). وكانت هذه اللغة معروفة في الفترة الإسبانية باسم "اللغة المكسيكية"، ما دام الأزتيك (انظر المقدمة) يشيرون إلى أنفسهم باسم مكسيكا، وإلى أرضهم باسم مكسيكو(**). ولكن هذه اللغة لم تكن أبداً محصورة في مجتمع الأزتيك وحدهم. وعلى وجه الدقة، عندما وصل كورتيز إلى وادي المكسيك في العام 1519، كانت الناحواتل محكية عند جيرانهم في تلاكسكالان إلى الشرق أيضاً، خارج دائرة الدويلات التابعة للأزتيك، وهم جيران ثبت أنهم كانوا مستعدين للتحالف مع الإسبان ضد زملائهم الناطقين مثلهم بلغة الناحواتل. ولكن هذا كان واحداً فقط من آثار توزيع الناحواتل الذي سبق الأزتيك تاريخياً. والواقع أن هناك دليلاً على أن حضور اللغة في المنطقة العامة للمكسيك الوسطى يعود إلى القرن السابع الميلادي على الأقل، عندما دمرت النيران مدينة تيوتيهواكان التذكارية الضخمة: ففي ذلك الوقت كان من المفروض أن مجتمع بيبيل قد انتقل إلى الجنوب عن طريق شيء من التفاعل مع حضارة تولتيك التي كانت مسيطرة آنذاك. ولم يترك التولتيك أي أثر ملموس سوى ذكرى مقدسة بين الأزتيك، الذين سيطروا على المكسيك الوسطى بعدهم. ولكن من بين سليلي البيبيل الباقين اليوم الذين يعيشون بعيداً إلى الجنوب في السلفادور، هناك عشرون شخصاً أو نحو ذلك لا يزالون يتكلمون أحد أشكال الناحواتل. وإن الافتراض المباشر ببساطة هو أن الناحواتل كانت لغة جميع الناس الذين كانوا يعيشون في وادي المكسيك عند نهاية الألفية الميلادية الأولى، محيطين بما كان آنذاك بحيرة: التيبانك في آتزكابوتزالكو على الشاطئ الجنوبي الغربي، ولايات تيزكوكو وكولهاكان التي يبدو أنها خلفت التولتيك على الشاطئ الشرقي. وكانت هناك مناطق ناحواتل على مبعدة، إلى الغرب في جاليسكو على شاطئ المحيط

(*) هذا الاسم مشتق من الفعل "ناواتي" أي 'الجهر بالكلام'. وسوف نتمسك بالتهجئة التقليدية لهذا الاسم، المبنية على الإسبانية، وهكذا تلفظ نواتل. وهناك لهجات كثيراً ما تسمى نوات ونوال، وهي (كما يبين اسمها) تختلف في لفظ هذا الحرف الصامت الأخير.

(**) إن حرف x يلفظ أصلاً 'ش' مثل sh بالإنكليزية، ويقع التشديد على حرف الياء 'i' متبوعة بوقفة في أعلى الحنجرة. فكأنها مشيكو.

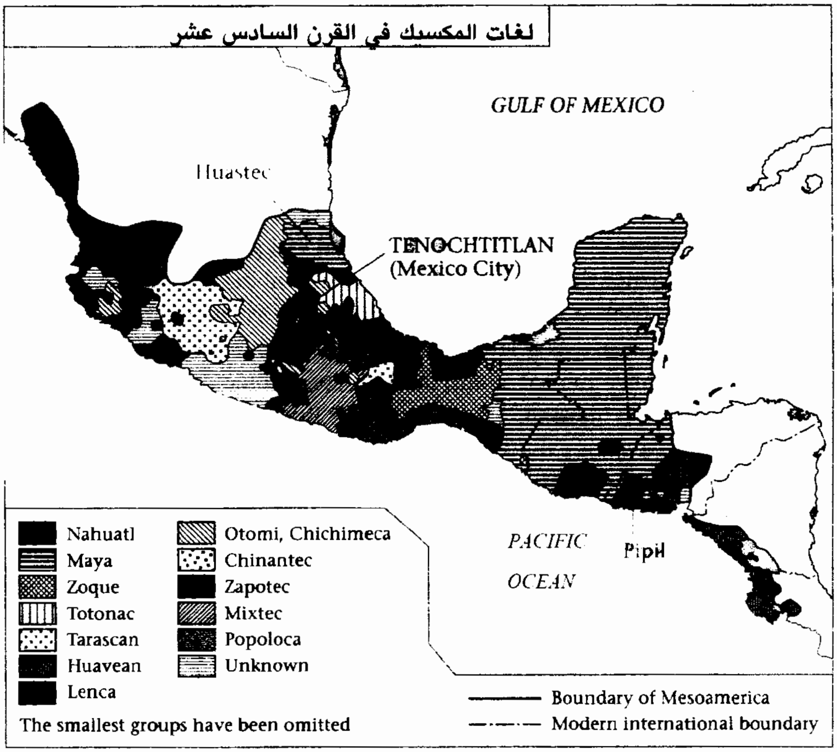
الهادئ، وإلى الشرق في برزخ تهوانتيبيك، ولعلها بقايا إمبراطورية قديمة كانت متركزة على التولتيك أو حتى على التيوتيهواكان.

وقد أظهرت الدراسات المقارنة في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين أن الناحواتل هي تقريباً العضو الجنوبي الأخير في عائلة تعرف باسم أوتو ـ أزتيكان أو يوتا ـ ناوان. وهي تمتد في قطاع عريض يصل شمالاً إلى شعوب الشوشون والبايوت في أوريغون الحديثة. وهذه الجغرافيا اللغوية المعادة التركيب تتناسب مع أسطورة تأسيس الأزتيك، التي يزعمون بموجبها أنهم جاؤوا من أزتلان، أي 'مكان طيور مالك الحزين'، وهي جزيرة في مكان غير معروف في الشمال الشرقي. وهكذا فربما تعلموا لغة الناحواتل قبل مجيئهم إلى وادي المكسيك في العام 1256، حيث كانوا في البداية جوّالين متشردين وباحثين عن الطعام وآكلين للثعابين(*). ومع ذلك كانوا يعتبرون أنفسهم دائماً فرعاً من شعب شيشيميكا، المشهور بأنه مكون من البدو الصيادين القاطنين في الشمال. فإذا صحت هذه القصة، فلا بد أنهم قد تعلموا لغة الناحواتل في وقت متأخر جداً، لأن لغة شيشيميكا أو 'بيم' لها علاقة بلغة 'أوتومي'، المحكية أيضاً في الشمال والغرب من وادي المكسيك، ولكنها لا تشبه الناحواتل أبداً. فالأزتيك ربما كانوا مثل النورمان في فرنسا، أي أنهم استقروا وتعلموا لغة جديدة قبل أن يبرزوها عن طريق الغزو.

فقد استقروا في بادئ الأمر في منطقة تشابولتيبيك الغربية، ثم طردوا منها فتطوعوا كمرتزقة مع الكولهواكان (وهم شعب آخر كان يدّعي أنه من نسل الشيشيميكا)، فقبلوا مأوى متواضعاً جداً على قاع حمم تيزابان المتجمدة.

قال كوكسكوكستلي [ملك كولهواكان] 'حسناً إنهم وحوش، إنهم شرّيرون.

(*) إن التواريخ المقتبسة هي في الحقيقة محددة بدقة تعادل دقة النص الأصلي في سرد وقائع التاريخ المكسيكي. كانت شعوب أمريكا الوسطى الكثيرة والمختلفة متشاركة في نظام متقن ومفصل من دوائر التقويم الزمني المتداخلة التي لا تسمح بالغموض، حتى ولو لم تكن منسجمة دائماً مع بعضها بعضاً.



لغات المكسيك في القرن السادس عشر

فربما يلقون نهايتهم هناك، وتبتلعهم الأفاعي،
لأن هذا مكان إقامة أفاعٍ كثيرة'.
ولكن المكسيكيين فرحوا كثيراً عندما رأوا الأفاعي.
فطبخوها، وشووها، وأكلوها ....

وبعد ذلك بخمسة وعشرين عاماً، أوصلوا الأمور إلى ذروة التأزم. فقد طلبوا أميرةً من الكولهواكان، كعروس كما هو مفترض، ثم ارتكبوا بحقها فظائع نموذجية.

ثم ذبحوا الأميرة وسلخوها،
وبعد سلخها ألبسوا جلدها لكاهن.
وكان الطائر الطنان على اليسار (وهو الإله القَبَلَيّ للأزتيك)، ثم قالوا:
'يا زعماءنا، اذهبوا واستدعوا آكيتومتل [والد الأميرة]'.
فذهب المكسيكيون ليستدعوه
وقالوا: 'يا مولانا، يا حفيدي، يا سيدي، أيها الملك ...
أجدادك المكسيكيون يرجونك، ويقولون،

فليأت ليرى، فليأت ليسلم على الإلهة .
نحن ندعوه'...
وعندما وصل آكيتومتل إلى تيزابان، رحب به المكسيكيون قائلين:
'لقد أتعبت نفسك يا حفيدي، يا سيدي، أيها الملك،
نحن أجدادك، نحن أتباعك، سوف نسبب لك المرض.
فلتشاهد إلهتك، ولتسلم عليها'(*).
فقال لهم: 'حسناً، يا أجدادي'.
وأخذ المطاط، والصمغ، والورود، والتبغ، وتقدمة الأطعمة، وقدمها لها،
ووضعها أمام الإلهة المزيفة التي كانوا قد سلخوها.
ثم قطع آكيتومتل رؤوس طيور السمان أمام إلهته:
ولم يَرَ الشخص الذي قطع رؤوس الطيور أمامه.
ثم قدم البخور، فاشتعل وعاء حرق البخور
ورأى آكيتومتل رجلاً داخل جلد ابنته
فأصابه الرعب فصرخ.
وصاح بأسياده وأتباعه
قائلاً: 'من هم، إيه، أيها الكولهواكان؟
هل رأيتم؟ لقد سلخوا جلد ابنتي!
لن يبقوا هنا، فهم الشياطين!
سوف نذبحهم، سوف نقتلهم بالجملة!
إن الشريرين سوف يُبادون ههنا!'

فرناندو آلفارادو تيزوزوموك: وقائع التاريخ المكسيكي، ترجمة ثيلما د. سوليفان.

ثم سيق الأزتيك إلى البحيرة، فصنعوا بسرعة مرتجلة أطوافاً من أسهمهم ودروعهم، وعندما وصلوا إلى الضفة الأخرى كانوا ملهمين. فقد كانت هناك نبوءة بأنهم يجب أن يستقروا 'حيث يصرخ النسر، وحيث ينشر جناحيه، وحيث يأكل النسر، وحيث يطير السمك، وحيث يتمزق الثعبان نتفاً'. وعلى مبعدة، وفوق

(*) إن صياغة العبارات شديدة الشبه بتحيات موتيكوهزوما الرسمية لكورتيز. انظر المقدمة والفصل الأول: 'تاريخ متجه للداخل أيضاً' ص 15. ولاحظ أيضاً أنه بموجب تصورات قواعد التشريفات الأزتكية المبحوثة هناك فإن الفريق الأصغر، أي الأزتيك، يقدمون أنفسهم على أنهم هم الأجداد.

نبتة صبار شائكة، شاهدوا هذه الرؤيا لنسر يأكل ثعباناً، وصرخ فيهم صوت يقول: 'أيها المكسيكيون، هنا سيكون مقركم!' ولكن لم يَرَ أحدٌ منهم المتكلم. فعرفوا أن الجزر المليئة بالقصب والتي يمكن الدفاع عنها في وسط البحيرة ستكون موطنهم، وهي تينوكتيلان، أي 'مكان الصبارة الشائكة.' وكانت تلك سنة 'البيت الثاني' أي عام 1325.

كان هذا أصل مدينة المعجزة في البحيرة الواسعة، التي سلبت عقول الغزاة الإسبان عندما وصلوا إليها في تشرين الثاني/نوفمبر من العام 1519. كان الأزتيك قد أعادوا تجمعهم وازدهروا في موطنهم على أرض البحيرة مدة مئة عام، ثم بدؤوا يوسعون ممتلكاتهم عن طريق سلسلة من الحروب العدوانية. فأولاً، تحت حكم إتزكوتل أي 'الثعبان الأسود'، 1427 ـ 1440، سيطروا على وادي المكسيك ككل. ثم تحت حكم موتيكوهزوما الأول إلهويكامينا (أي 'مستهدف السماء') طوقوا أرض جيرانهم المقاومين لهم من الغرب في هوتكسوتزينغو وتلاكسالا، كي يصلوا إلى ساحل البحر الكاريبي والمرتفعات الوسطى إلى الجنوب. وأضاف إلى الإمبراطورية حاكمان آخران طال عهدهما، بحيث كان الأزتيك عند بداية القرن السادس عشر قد غزوا حوالي مئة ألف كيلو متر مربع من الأرض في وسط المكسيك الحديثة، من الكاريبي إلى المحيط الهادئ، بما في ذلك مقاطعة كسوكونو تشكو الغربية المحصورة على ساحل المحيط الهادئ عند حدود غواتيمالا.

وقد تزعم وزير واحد، هو تلاكاليل، هذا التوسع الدموي على مدى العقود الخمسة الأولى. فكانت عينه على المستقبل، وكانت سياسته هي إحراق جميع كتب الشعوب التي غزاها كي يزيل ذكريات ماضيها الذي سبق الأزتيك. ورغم أن هوتكسوتزينغو وتلاكسالا قد تم تجنبهما والالتفاف عليهما في التقدم الأزتيكي، فقد فرض عليهما اتفاقاً غريباً لشن حرب مستمرة ولكنها منظمة هي 'حرب الوردة'، وهي اشتباك منظم لأسر سجناء من أجل تقديمهم كأضحيات. وكلمة 'وردة' لها معنى إيجابي خيالي في التصوير بلغة الناحواتل (فهناك مثلاً عبارة 'وردة الغناء'، بمعنى 'الشِّعْر'، كما استخدمت في الأبيات الواردة في بداية هذا القسم، ولكنها لا تأتي أبداً متحررة من الارتباط بدور الورد في حالات تقديم الأضاحي، تماماً كالدم البشري.

وعن طريق عدوان الأزتيك الناجح هذا، انتشرت معرفة الناحواتل في جميع أنحاء المكسيك الوسطى، ولكن يبدو أن ذلك لم يحدث على حساب لغات الناس الفرعيين. بل إن الأزتيك قد نصبوا مسؤولين، وخاصة مراقبين لجباية الإتاوات، في كل المدن الكبرى، وضمنوا أن تقدم الشعوب الخاضعة لهم هيئة من المترجمين كي يضمنوا إيصال رغبات الحكام. فقد كان هناك اثنان من الناطقين بالناحواتل بين المسؤولين من إقليم توتوناك الخاضع لهم التقيا مع كورتيز عند نزوله. ومن الواضح أن لغة الناحواتل قد انتشرت عن طريق تحركات أخرى مجهولة للسكان قبل ذلك. وعلى سبيل المثال، فإن مترجمة كورتيز وهي مالين ـ تزين، كانت من الناطقين الأصليين بتلك اللغة، ولكنها حصلت عليها في كوتزاكولاكوس، على ساحل الكاريبي على بعد 50 كيلو متراً إلى الجنوب من حدود إمبراطورية الأزتيك.

وقبل الغزو الإسباني، يجب اعتبار الناحواتل في أفضل الحالات لغة مشتركة فعالة لإمبراطورية متعددة القوميات واللغات: فقد كانت الإمبراطورية تضم مناطق يتكلم أهلها الأصليون حتى اليوم بلغات زابوتيك، وميكستيك، وتاراسكان، وأوتومي، وهواستيك، وتوتوناك، ولا صلة لأي منها بالأخرى ولا بلغة الناحواتل. ولكن في القرن الخامس عشر لا بد أن الاتصال بين الأراضي الخاضعة وبين المركز في تينوكتيتلان كان كثيفاً على مستوى جباية الإتاوات، وكذلك عن طريق شبكة التجار، الذين كانوا يعملون أيضاً كسفراء وجواسيس، ويحتلون أماكن عليا في التسلسل الهرمي الأزتيكي بحيث كان بوسعهم أن يقدموا عبيدهم كأضاحٍ إلى هوتزيلوبوكتلي مع أسرى الحرب الذين كان يقدمهم المحاربون الكبار.

انتشار لغة قيشوا

أيها الرجل الأحمر المتوهّج مثل النار
وعلى ذقنه يرفع صوفاً سميكاً،
من المستحيل عليَّ تماماً
أن أفهم لغتك الغريبة المشؤومة.

فأنا لا أعرف ماذا تقول لي،
ولا أستطيع أن أعرف بأي طريقة.

(شخص من الإنكا، يخاطب بيزارو، قبل معركة كاجاماركا)
مأساة نهاية أتاوالبا[19]

كان انتشار اللغة عملية أكثر تعقيداً في نمو الإمبراطورية العظيمة الأخرى السابقة لكولومبوس، وهي مملكة الإنكا المعروفة باسم ’الحصص الأربع‘. فعندما وصلت الإسبانية إلى بيرو كانت إمبراطوريتها ولغتها تشمل السهل المرتفع بكامله إلى الغرب من جبال الأنديز، من كويتو في الشمال إلى تالكا في الجنوب، وتربطهما الطريق الملكية الممتدة لمسافة 4000 كيلو متر، وتوحد في ظل حكومة واحدة قطاعات الأنديز والمحيط الهادئ من الأكوادور الحديثة، والبيرو، وبوليفا، وتشيلي الشمالية. وكانت اللغة معروفة لدى الناطقين الأصليين بها باسم "الكلام البشري". ولكن لم يكن لها مصطلح مقبول عندما وصل الإسبان. فالإنكا غارسيلاسو، وهي كتابة ثنائية اللغة جيدة الاتصالات عند نهاية القرن السادس عشر، تشير إليها دائماً باعتبارها ’لغة البلاط في كوزكو‘. غير أن أول كتاب قواعد نحوية منشور من تأليف دومنغو دي سانتو توماس في العام 1560 يطلق عليها اسم "اللغة العامة في بيرو، ... قيشوا"، متبعاً بذلك تقليداً تحت المصادقة عليه لمدة عشرين عاماً على الأقل[20]، فالتصق بها هذا الاسم. ويشير مصطلح "قيشوا" في الحقيقة إلى ’المنطقة المعتدلة‘، أو ’الوادي‘ الذي يتوسط بين الساحل والمرتفعات. وكان الرأي السائد عموماً في ذلك الوقت هو أن المنطقة المعتدلة حول أنداهوايلاس في مقاطعة أبوريماك إلى الجنوب من مدينة كوزكو (أي ’السرة‘ - عاصمة الإنكا) كانت هي الأرض الداخلية للغة[21].

والواقع أن هذا يبدو عقلنةً متأخرة جاءت فيما بعد[22]. فالقيشوا كانت في الأصل لغة منطقة ساحلية حول ليما، ولها عرّاف موقعه في باتشاكاماج، أي ’حاكم الأرض‘، وهي قاعدة مجتمع تجاري محمول بحراً يدعى تشينكا، فنشروا لغتهم أساساً كلهجة تجارية اصطلاحية باتجاه الشمال، وخاصة إلى المرتفعات الشمالية حول كاجاماركا، وإلى داخل الإكوادور، المنطقة التي كانت ستدعى

"تشينكا ـ سويو"، في الجزء الشمالي الأقصى من إمبراطورية الإنكا. وقد حدث هذا كله في الألف الميلادي الأول، قبل زمن طويل من تحول الإنكا إلى قوة يحسب حسابها. فإلصاق اللغة بإمبراطورية الإنكا المتنامية قد جاء على شكل فكرة لاحقة تقريباً، عن طريق عملية شبيهة بتبني الإمبراطور الفارسي الداهية دارا اللغة الآرامية (انظر الفصل الثالث: 'القصة باختصار: الوثبات اللغوية'، ص 84).

وقد بدأت قصة الإنكا على مبعدة إلى الجنوب، على السواحل الجنوبية لبحيرة تيتيكاكا، حيث أقامت مجموعة ناطقة بلغة بوكينا مركزاً كبيراً يعرف الآن باسم تياهواناكو. ويبدو أنهم قاموا في الألف الميلادي الأول، بالتنسيق مع الناطقين بالخاكي، وهي لغة أخرى إلى الشمال (وهي سلف لغة الآيمارا الحديثة، التي لا تزال محكية في بوليفيا) فطوروا معاً منطقة تجارة إلى الشمال والغرب، وهذه التجارة نشرت المعرفة بلغة أيمارا، وشقيقتيها لغتي كاواكي وخاكارو (اللتين لا تزال بعض آثارهما باقية في جنوب شرقي ليما)، فوق جزء كبير من منطقة بيرو الجنوبية. وهي مشاهَدَة في السجل الأثري في طراز متميز من الفخّار، تصور وجهاً تحيط به أشعة أو ثعابين، لعله الإله الخالق [في اعتقادهم] فيراكوتشا. وفي الحقيقة لا يزال من الممكن العثور على أسماء أماكن تنبع من هذه الفترة، مثل كاجاماركا نفسها (ومعناها 'مدينة الوادي').

ويبدو أن حكام تياهواناكو وجدوا أن موطنهم القديم مهدد بالوحول المنـزلفة، فانتقلوا عبر بحيرة تيتيكاكا أو حولها، ليقيموا قاعدة قيادة جديدة في كوزكو: فكان ذلك بدء صعود الإنكا الذي خلدته أساطيرهم باعتباره سيرة حياة ملكهم الأول مانكو كاباك الذي ظهر من البحيرة، حاملاً صولجاناً ذهبياً يريهم أين يجب أن يستقروا. (ولم يكن ممكناً غرس ذلك الصولجان في الأرض رأساً إلا في كوزكو). وقد جاء الملك مع زوجته ماما أوكلو. فقاما معاً (ولكن على التوالي) بتعليم الرجال والنساء فنون الحضارة. وعند هذه النقطة، تقبل الإنكا آيمارا كلغة الأمر الواقع لمملكتهم، وحافظوا على البوكينا كلغة النخبة المستعملة في البلاط (وبالطبع فقد ظلت تستخدم من قبل 'أقاربهم الفقراء' الذين خلفوهم

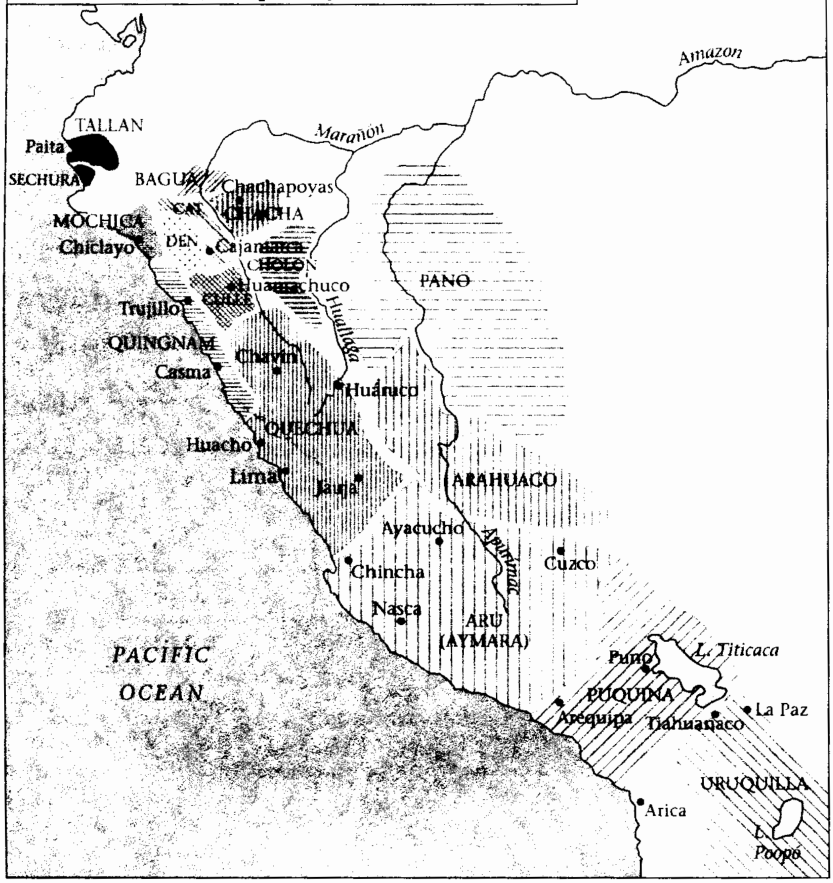
وراءهم جنوبي بحيرة تيتيكاكا.) ولا بد أن كوزكو كانت مدينة ثنائية اللغة. وبقي هذا الوضع بلا تغيير طيلة حوالي تسعة أجيال (من إنكا مانكو كاباك إلى باتشاكوتيك)، بينما راحت مملكة الإنكا تتسع شرقاً وجنوباً ثم شمالاً في آخر الأمر.

ثم بدأ العدوان الخطير في أيام إنكا باتشاكوتيك. فالتوسع نحو الشمال ورط ممتلكات الإنكا في نزاع مع التشينكا: ولكن الحل الذي تم التوصل إليه كان سلمياً، وإيجابياً للغاية. إذ إن باتشاكوتيك (الذي كان متزوجاً من أخته)، قدم ولده توباك يوبانكوي الرهيب للزواج من أميرة من التشينكا. فكانت النتيجة اندماج ممتلكات الإنكا والتشينكا. وأدى ذلك إلى تغيير اللغة الإمبراطورية، من الآيمارا إلى القيشوا. والمفروض أن ذلك كان انعكاساً لحكم على أي اللغتين كانت أوسع انتشاراً وفائدة لممالك الإنكا والتشينكا مجتمعة. ولمدة من الزمن صارت كوزكو مدينة ثلاثية اللغات. وكان ذلك قبل الغزو الإسباني في العام 1528 بأقل من مئة عام بكثير. وكانت لغة القيشوا في مدينة كوزكو، برغم كل أهميتها السياسية، ما تزال تعتبر نوعية دون المستوى يحب المترجمون من الشمال أن يحتقروها. وبعد ذلك تم تقديم اللغة الجديدة مع التغلغلات المفاجئة والحربية للغاية للإمبراطورية التي نقلتها تحت حكم توباك يوبانكوي شمالاً إلى كويتو، وفي طريقها ضمت إليها مملكة شيمو الهامة، وجنوباً إلى داخل تشيلي.

ويصر الأب بلاس فاليرا على سياسات التلاقح اللغوي الثقافي التي تابعها الإنكا ضمن ممتلكاتهم.

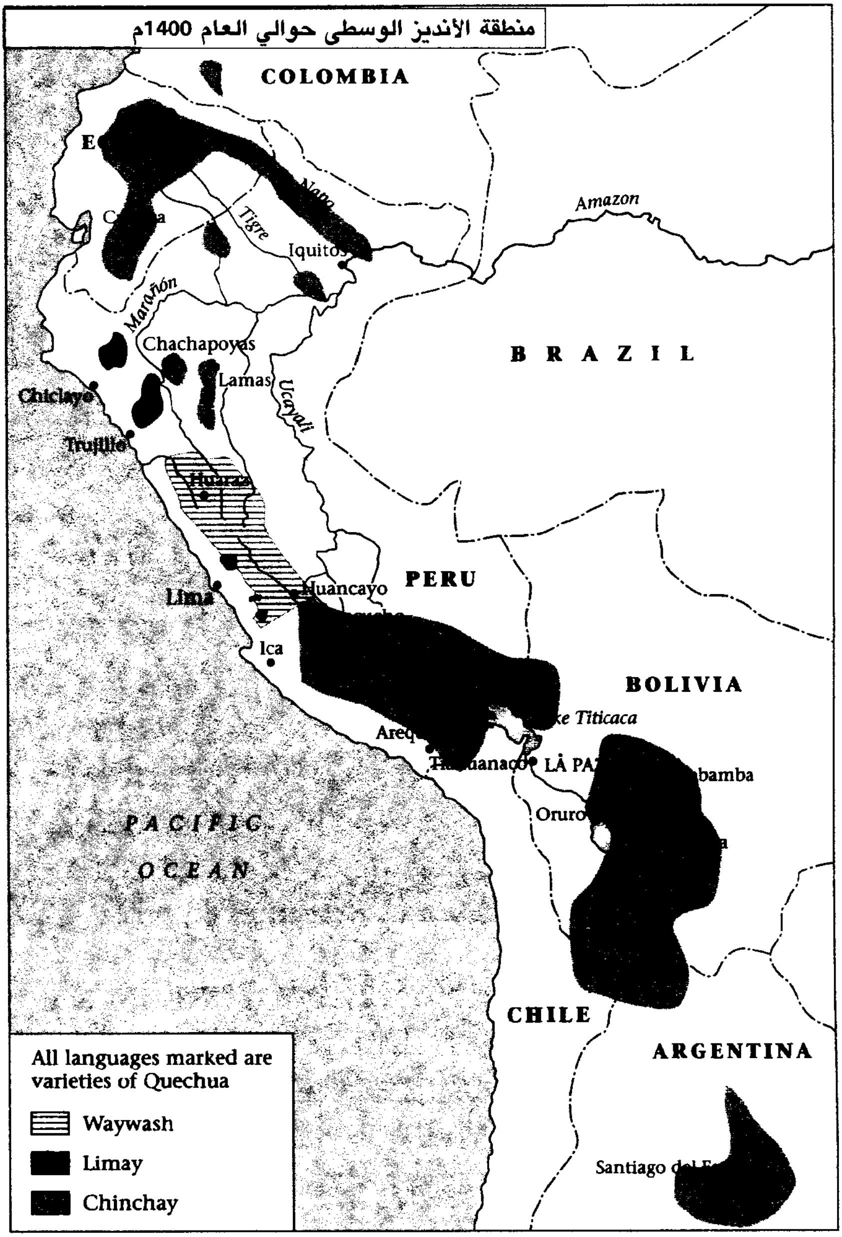
> ويبقى أن نقول شيئاً عن اللغة العامة لأهالي البيرو الأصليين. صحيح أن كل مقاطعة كانت لها لغتها الخاصة بها والمختلفة عن اللغات الأخرى، ولكن هناك لغة جامعة يسمونها كوزكو كانت مستخدمة في أيام ملوك الإنكا، من كويتو إلى مملكة تشيلي ومملكة توكومان. وقد راح يستخدمها رؤساء القبائل والهنود [الحمر] الذين احتفظ بهم الإسبان كخدم لإدارة الأعمال. وكان ملوك الإنكا منذ الزمن القديم كلما أخضعوا أي مملكة أو مقاطعة ... يطلبون من أتباعهم الذين ينصّبونهم لحكمها أن يتعلموا لغة الكوزكو المستخدمة في البلاط وأن يعلموها لأطفالهم، ولكي يتأكدوا أن هذا الأمر ليس عبثاً، كانوا يعطونهم هنوداً ناطقين أصليين بالكوزكو

منطقة الأنديز الوسطى حوالي العام 500م.



ليعلموهم اللغة وعادات البلاط. وفي مثل هذه المقاطعات والقرى كانوا يعطونهم بيوتاً، وأراضي، وممتلكات عقارية، بحيث يعوّدون أنفسهم على العيش بشكل طبيعي هناك ليصبحوا معلمين دائمين لأطفالهم من بعدهم. وكان حكام الإنكا يفضلون في وظائف الدولة، في الحرب وفي السلم، أفضل الناطقين "باللغة العامة". وبموجب هذه الشروط، حكم الإنكا وأداروا إمبراطوريتهم كلها في سلام وهدوء. وكان حكام الأمم المختلفة مثل الإخوة، لأنهم جميعاً كانوا يتكلمون لغة واحدة...[23].

ويضيف إنكا غارسيلاسو:



منطقة الأنديز الوسطى حوالي العام 1400م

أرسل أولئك الملوك ورثة أسياد الأتباع ليتعلموا في البلاط ويقيموا هناك حتى يحصلوا على إرثهم، كي يتثقفوا ويعوّدوا أنفسهم على ظروف الإنكا

وعاداتهم، ويعاملوهم بلطف، بحيث إنهم فيما بعد، وبناء على قوة ماضيهم في التواصل الاجتماعي ومعرفتهم سيحبونهم ويخدمونهم بتعاطف: وكانوا يسمونهم "ميتماك"، لأنهم كانوا قادمين جداً ... وهذه النصيحة سهلت تعلم "اللغة العامة" بمتعة أكثر وبجهدٍ وحزنٍ أقل .... فكانوا كلما عادوا إلى أراضيهم أخذوا معهم شيئاً تعلموه من لغة البلاط، فيتحدثون به بتفاخر بين أبناء شعبهم، باعتباره لغة قوم يشعرون بأنهم مقدسون ومحسودون إلى درجة أن الباقين يرغبون في تعلمها ويكافحون من أجل ذلك .... وبهذه الطريقة، بحلاوة وسهولة، وبدون الجهد الخاص لمدراء المدارس، تعلموا وتكلموا اللغة العامة لكوزكو في مملكة مساحتها أقل من 1300 فرسخ (4000 كيلو متر) من الامتداد الذي كان قد كسبه أولئك الملوك[24].

وإلى جانب هذه الطرق اللطيفة أضاف الإنكا طريقة أقسى في إعادة توطين بعض العائلات المهاجرة الناطقة بلغة القيشوا في بعض مناطق المستعمرات، وقد عرفت تلك العائلات باسم 'المُعاد زرعهم'. وكان الغرض من ذلك إذابة السكان الأصليين وتهدئتهم. وكان هناك عشرة آلاف أو اثنا عشر ألفاً، تم توطينهم بشيء من الدهاء والبراعة[25]: 'فقد تم نقلهم إلى قرى ومقاطعات لها نفس مزاج وعادات القرى التي جاؤوا منها، لأنهم لو كانوا من بلد بارد لتم أخذهم إلى بلد بارد، ولو كانوا من بلد حار فإلى بلد حار ... وقد تم إعطاؤهم ممتلكات في حقول عملهم وأراضيها، مع مكان لبناء منازلهم[26]'.

انتشار لغات تشيبتشا، وغواراني، ومابودونغون

أبو نيامانو الحقيقي، أول واحد .....
وقف مستقيماً
ومن الحكمة التي في رأسه الإلهي
وبفضل حكمته المعطاة
تصور أصل اللغة الإنسانية
وصنعها من جزء من رأسه الإلهي.
قبل أن توجد الأرض

وسط الظلام الأزلي
وقبل أن تكون هناك معرفة بالأشياء
أنشأ ما سيصبح أساساً للغة الإنسانية
الأب الحقيقي الأول لنياماندو
وصنعها من جزء من رأسه الإلهي.

آيفو رابيتا، 'أساس اللغة الإنسانية'
أسطورة مبايا غواراني عن الخلق[27]

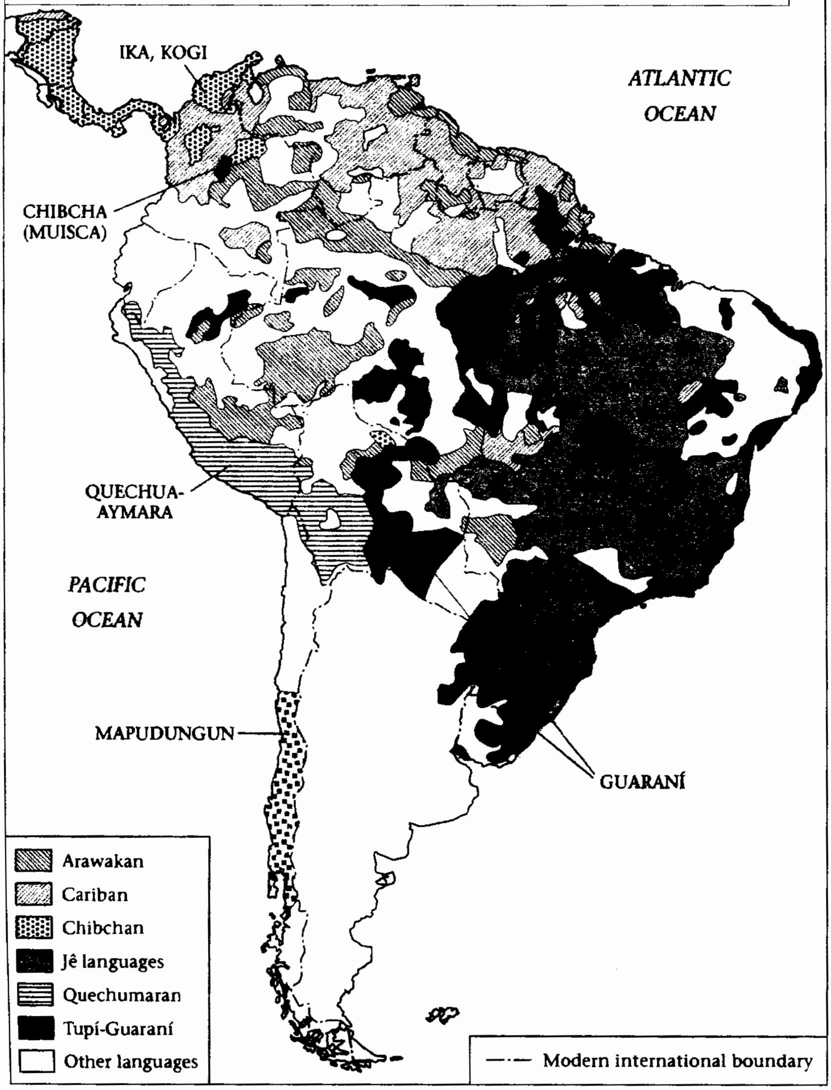
وتدريجياً ابتعدنا عن الحيوانات أكثر فأكثر. فالفرق كان ضئيلاً في العصور الأولى. وكان لجميع الكائنات الحية جسد آشي، أي جسد شخص، وتتصرف على هذا الأساس. وكان الشبه الرئيسي بينها هو امتلاكها للغة.

آشي بيتي، 'بداية آشي'
أسطورة آشي - غواراني عن الخلق[28]

وأقل من ذلك بكثير هي المعلومات المعروفة عن سيرة حياة اللغات الأخرى التي صارت واسعة الانتشار قبل مجيء الإسبان.

إن سهل كانديناماركا المرتفع في الأنديز الشمالية كان أحادي اللغة إلى حد كبير في لغة تشيبتشا (أو 'مُوْيِسْكا') عندما وصل الإسبان في العام 1536، ولم تكن المنطقة موحدة سياسياً في ذلك الوقت على أية حال. ومع وجود ثلاثة مراكز كبرى على الأقل، في تونجا (هونزا) في الشمال، وبوغوتا (مويكيتا) في الجنوب، وسوغاموسو (سوغاموسي)، المركز الديني الكبير في الشمال، كان هناك أيضاً شيء من الفرق في اللهجات. وكان الغازي غونزالو خيمينيز دي قويسادا (وهو محام حر آخر، مثل كورتيز) قد جلب معه مترجمين من الساحل، ولكن نظراً لكون اللغات الساحلية عندئذ كما هي الآن، (مثل الإيكا، والكوجي)، فليس من المحتمل أن يكونوا قد توصلوا بأي شيء مثل لغاتهم نفسها: والأرجح أنه كان لهم إلمام بلغة تشيبتشا من العلاقات التجارية التقليدية بين الجبال والساحل. ورغم أنه كان هناك تسلسل هرمي اجتماعي بين التشيبتشا وتنظيم عسكري مرتبط بالحملات الرسمية بين المراكز المختلفة (وكذلك بين جيرانهم غير الناطقين بلغة التشيبتشا)، فليس هناك دليل على أن اللغة قد انتشرت

مناطق اللغات الكبرى في أمريكا الجنوبية حوالي العام 1500م



بواسطة أي نفوذ أو تأثير سياسي، أو عسكري، أو اقتصادي. والأرجح أن اللغة قد ترسخت ببساطة على أيدي القبائل التي استقرت هناك. ومن الواضح أن مجموعتهم العرقية كانت هناك لبعض الوقت؛ وكانت هناك لغات علاقاتها متقاربة ووثيقة قد تطورت على بعد مئتي كيلو متر إلى الشمال الشرقي في صفوف

قبائل الدويت Duit (المنقرضة الآن) والتونيبو (المعروفة أيضاً باسم أووا) التي لا تزال تعيش وتُحكى لغتها على السفوح الشرقية لجبال الأنديز.

والمعلومات المتوفرة عن توبي - غواراني أقل حتى من ذلك، ولكن اللغة كانت محكية على نطاق أوسع بكثير عبر الأراضي المنخفضة في أمريكا الجنوبية. فقد عُثِرَ على أشكال منها في الشمال حتى سورينام، شمالي نهر الأمازون، وإلى الغرب في جيوبٍ على حدود كولومبيا بين البرازيل وبيرو. وكانت محكية (باسم لغة توبينامبا) في جميع أنحاء البرازيل الوسطى والجنوبية الشرقية، وفي بوليفيا الشرقية (حيث عرفت هناك باسم لغة تشيريغوانو)، وفي باراغواي (باسم غواراني). وربما كان انتشارها مرتبطاً بتقدم الزراعة بأسلوب أمريكا الوسطى عبر القارة لمحاصيل الذرة، والفاصولياء، والقرع، تدعمها وتكملها البطاطس، والمنيهوت، والفستق، والفلفل الحار(29).

والمعلومات المعروفة أو التي يمكن استخلاصها عن ماضي قبائل المابوش أقل حتى من ذلك. فقد حافظوا على استقلالهم حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وهكذا فإن الاتصال الإسباني بهم قد جاء بعد فوات أوان أي استخدام للغتهم، المسماة مابودونغون، كلغةٍ عامة. إن استخدام لغة وحيدة عبر منطقتهم الشاسعة يوحي بأنهم كانوا مجموعة وحيدة استولت على منطقة لم تكن شديدة الخصوبة، وانتشروا فوقها بشكل خفيف غير كثيف.

ويجب أن نلتفت الآن إلى السياسات التي اتبعها الإسبان لتنظيم مستعمراتهم لغوياً. ولكن قبل أن نفعل ذلك يجدر بنا أن نشير إلى أن هناك علاقة ترابط واضحة بين درجة التنظيم السياسي لمجموعةٍ ذات لغة واسعة الانتشار، وبين تطور أدبها بعد اتصال الإسبان بها (والذي استفاد من نقل نظام كتابةٍ بالحروف الرومانية). فهناك أعمال أدبية كثيرة بلغة الناحواتل ولغة القيشوا يعود تاريخها إلى الفترة التي تلت الغزو الإسباني مباشرة، وهي مكتوبة في أغلب الأحيان بأيدي النسل المتحدر مباشرة من النخب التي حكمت المكسيك وبيرو من قبل(*). وعلى عكس ذلك، فإن

(*) يبدو أن شيئاً شبيهاً بذلك قد حدث مع لغات المايا، ولكن بتعاونٍ واعٍ أقل مع الإسبانية أو تقليدها

لغات آيمارا وتشيبتشا وغواراني لم تطور أدباً محلياً أصلياً مكتوباً، رغم أن كلاً منها قد تلقت مقياساً مكتوباً من اللغويين المبشرين بالنصرانية[30]. وبقدر ما نستطيع أن نرى، فإن الأدب بتلك اللغات ظل محصوراً فيما أنتجه الإسبان، ومن أجل دعم عملية التنصير إلى حد كبير.

الحل الكنسي: اللغات العامة

"لقد أمرتم يا صاحب الجلالة أن هؤلاء الهنود يجب أن يتعلموا اللغة القشتالية. وهذا غير ممكن أبداً، إلا إذا كانت اللغة شيئاً غامضاً يتعلمونه بشكل سيئ. فنحن نرى برتغالياً لغته تكاد تكون شيئاً واحداً هي واللغة القشتالية، يمضي ثلاثين عاماً في قشتالة دون أن يستطيع تعلم لغتها. وإذن فهل يتعلمها هؤلاء الناس الذين تختلف لغتهم كثيراً عن لغتنا، ليتكلموها بأسلوب طلق وعذب؟ وإنه يبدو لي أن تأمروا جلالتكم بأن يتعلم كل الهنود اللغة المكسيكية، لأنه يوجد اليوم في كل قرية كثير من الهنود الذين يعرفونها ويتعلمونها بسهولة، وعدد كبير جداً منهم يؤدون طقوس الاعتراف بها. وهي لغة شديدة التألق، متألقة كأي لغة في العالم، وقد كتب لها نحو لقواعدها ومعجم، وترجمت إليها أجزاء كثيرة من الكتاب المقدس، وتم عمل مجموعات من المواعظ بها، وبعض الرهبان باحثون لغويون كبار جداً بهذه اللغة.

الأب رودريغو دي لا كروز، إلى الإمبراطور تشارلس الخامس
المكسيك، رسالة في 4 أيار/مايو [آذار/مارس؟] سنة 1550[31]

نحن أقل من أن نستطيع تعليم الهنود اللغة القشتالية. وهم لا يريدون أن يتكلموها. فمن الأفضل جعل المكسيكية لغة عالمية، فهي واسعة التداول،

في أشكالها الأدبية. ولم يكن الناطقون بتلك اللغات قد اتحدوا تحت حكم قادة أهليين منهم. ومع ذلك فقد طوروا أدباً بالفعل، ولكنه أدب اتبع المبادئ والمعايير والمحتويات المستقاة من تقاليدهم القديمة. وهو يشمل أساطير بوبول فاه البطولية، والمراثي، والحوار المأساوي مع محارب مصيره الموت المحتوم (رابينال آشي)، وكتب تشيلام بالام، التي هي تقاويم روزنامة تقليدية. فكانت أشكالاً وصيغاً من المقاومة السرية للسيطرة المسيحية.

وهم يحبونها. وهناك عقائد ومواعظ، وقواعد نحوية، ومفردات مكتوبة بها.

الأب خوان دي مانسيلا، المفوض العام، إلى الإمبراطور تشارلس الخامس

غواتيمالا، رسالة مؤرخة في 8 أيلول/سبتمبر 1551[32]

إذا كان الإسبان بعقولهم الحادة الذكاء، ومعرفتهم بالعلوم، عاجزين، كما يزعمون، عن تعلم لغة كوزكو العامة، فكيف يستطيع الهنود غير المصقولين وغير المثقفين أن يتعلموا القشتالية؟

الأب بلاس فاليرا

بيرو: منتصف القرن السادس عشر[33]

في الأمر البابوي الرسمي للعام 1493، الصادر من البابا ألكساندر السادس، والذي شكل حق إسبانيا في مستعمراتها، وفي التعليمات الصادرة إلى كولومبوس من الملك فرديناند والملكة إيزابيلا، كان الشيء المأمور به هو تنصير الأهالي الأصليين باعتباره الهدف الأعلى من بناء الإمبراطورية الإسبانية في العالم الجديد. وفي العام 1504 كان الأب بويل، الذي أرسل مع كولومبوس في رحلته الثانية، يشرح لأسياده الملكيين أن نشر البشارة كان يؤخره نقص المترجمين.

ومع ذلك، فقد تحقق تقدم سريع في تنصير منطقة البحر الكاريبي عن طريق اللغة الإسبانية إلى حد كبير. وكما رأينا، فقد كان هناك خليط من اللغات المختلفة المستعملة هناك. ومع عدم وجود لغة مشتركة فقد كان البديل الوحيد هو استخدام كل واحدة من تلك اللغات. وفي العام 1516 طلب الكردينال سيسنيروس حفظةً لغرف المقدسات في الكنائس ليقوموا بتعليم أبناء رؤساء القبائل والناس المهمين القراءة والكتابة، 'ولتعليمهم كيف يتكلمون القشتالية الرومانسية، وكيف يعملون مع رؤساء القبائل والهنود بقدر المستطاع لجعلهم يتكلمون القشتالية'[34]. وتم إيصال عشرين نسخة من كتاب نبريجا: "قواعد اللغة القشتالية" إلى هسبانيولا في العام 1513، أرسلتها الهيئة الحكومية المسؤولة عن شؤون الهنود. فكانت العملية فعالة في تحقيق هدفها المباشر لنشر الإسبانية. وهناك تقارير كثيرة عن رؤساء قبائل السكان الأصليين الذين أتقنوا اللغة وتعلموا قراءتها وكتابتها[35]. ولكن على المدى الأطول قليلاً، فإن الهدف الحقيقي،

وهو تكوين مجتمع جديد من المتنصّرين قد أحبطه الاتجاه المقلق لموت الهنود تحت تأثير الضغط الهائل للاستغلال الإسباني، الذي تبعه استيراد العبيد السود بالجملة من إفريقيا. وعلى أية حال، ففي وضعٍ من الانهيار الكارثي للسكان، وعدم فصل الإسبان عن الهنود، لم يكن عجيباً أنْ تبقى اللغة الإسبانية وحدها.

وأدى انتشار السلطة الإسبانية في القارة إلى خلق وضع مختلف جداً. فبفضل الاندفاع الهائج لحملات الأب دي لاس كاساس من جهة، وحقيقة اختفاء السكان وتلاشيهم من جهة أخرى، كان هناك شعور بالذنب مما فعله الاستغلال الجائح الجامح بسكان جزر الكاريبي الأبرياء، وكان تصميم (في الكنيسة والبلاط الملكي على الأقل) أن ذلك يجب أن لا يحدث. فانتشرت الأوامر والتنظيمات الدينية عبر المستعمرات الجديدة، وحاولت على الفور أن تصل إلى السكان الأصليين بلغاتهم نفسها.

وبسبب أنشطة الهنود السابقة التي استعرضناها، فقد وجد المبشّرون أن التعامل مع الوضع اللغوي في كثير من المناطق كان أسهل بكثير من التعامل مع الوضع في حوض البحر الكاريبي. فقد كانت بعض اللغات منتشرة على نطاق واسع؛ وحتى لو كانت غير معروفة لدى السكان الأصليين جميعاً، فإن كل واحد كان يعرف بأمرها، بل ويجد عادةً أن تحصيلها أسهل من تحصيل الإسبانية الغريبة عنه كلياً.

وبعد جيل من العمل في الميدان، أصدر البلاط الملكي توجيهاً في 7 حزيران/يونيو من العام 1550 يجب بموجبه أن يتعلم رعايا إسبانيا الجدد اللغة الإسبانية بأسرع وقت ممكن:

> بما أن أحد الأشياء الرئيسية التي نرغب بها لصالح هذه الأرض هو الخلاص وتعليم أهلها الأصليين اعتناق عقيدتنا الكاثوليكية المقدسة، وكذلك أخذهم بسياستنا وعاداتنا الحميدة ومعالجة الوسيلة التي يمكن الحفاظ بها على ذلك إلى النهاية، فإن أبرز هذه الأشياء الرئيسية هو إعطاء الأمر الذي يمكن بموجبه تعليم هؤلاء الناس اللغة القشتالية، لأنه بهذه المعرفة يمكن أن تزيد سهولة تعليمهم قضايا البشارة المقدسة وإكسابهم باقي الأشياء المناسبة لطريقة حياتهم(36).

فكانت هناك مقاومة فورية مباشرة من رجال الكنيسة الذين طلب منهم تنفيذ هذا الأمر. وكانت طبيعة حججهم الجدلية واضحة من الأقوال المقتبسة في أول هذا القسم. فقد كانت وسائل نشر العقيدة متوفرة تحت أيديهم كما قالوا. وهي تستخدم اللغات المحكية على نطاق واسع في المراكز السكانية الكبرى. فكان يبدو أنه لا فائدة من إحلال الإسبانية محلها. وحتى في الأماكن التي لم تكن فيها "لغة عامة" مناسبة وفعالة، فقد كانوا يشعرون بأن اللغات المحلية الأصلية هي الأفضل لتحقيق أغراضهم. فكتب رئيس أساقفة بوغوتا إلى الملك في 12 شباط/فبراير من العام 1577:

> وللأخذ بأيديهم وتجميعهم بوسيلة جيدة، توصلتُ إلى أن أفضل طريقة لذلك ولا شبيه لها هي الوعظ وإعلان البشارة المقدسة لهم بلغاتهم الخاصة. وأقول ’بلغاتهم الخاصة‘ لأن كل وادٍ أو مقاطعة لها لغة خاصة بها ومختلفة عن لغات الآخرين. وهي ليست مثل البيرو أو إسبانيا الجديدة، حيث لديهم رغم اختلاف اللغات "لغة عامة" مستخدمة في جميع أنحاء هذه الأراضي"[37].

وكان هناك من يقولون إن الكنيسة لم تكن لامبالية في ترويجها لاستخدام اللغات الأصلية المحلية هنا. فالحفاظ على الاتصال عن طريق ’اللغة العامة‘ أو اللغات الأخرى التي يقل الوصول إليها كان معناه أن القساوسة ظلوا هم قناة الاتصال الوحيدة الفعالة بين الهنود الأصليين ذوي الدم النقي (الذين يشكلون 99 بالمئة من سكان المكسيك عند نهاية القرن السادس عشر، والذين ظلوا يشكلون 55 بالمئة في العام 1810)[38] وبين باقي أنحاء العالم. فبالإضافة إلى الاحتفاظ بهم كنوع من قاعدة للسلطة، فإنهم يستطيعون حمايتهم من مذاهب الإصلاح المؤذية التي كانت متداولة في أوروبا، وحماية الهنود من المصالح الاستعمارية الإسبانية الجشعة. ولكن ليس هناك دليل على أن الكنيسة تعمدت تقييد الوصول للإسبانية: بل لقد جعلتها جزءاً من المنهج، إلى جانب اللاتينية في جميع المدارس. بل إنها عجزت ببساطة عن اللحاق بالتواصل مع جموع الهنود المنعزلين إلى حد كبير

في مستوطنات نائية، أو في مجتمعات منفصلة ليس فيها عدد كبير من الإسبان غير ثنائيي اللغة للتكلم معهم.

وعلى أية حال، فقد كان رد فعل التاج الإسباني مهدئاً. فلم تجر محاولة لفرض "الهوية الملكية" تحت حكم شارل الخامس. وكان بعض رجال الدين في أمريكا مقتنعين بضرورة بذل محاولات لجعل اللغة الإسبانية إجبارية 'ضمن شروط مناسبة'، لأنه لم يكن هناك اصطلاح قياسي معياري موحد وواضح للوعظ[39]. وفي العام 1586 أمر فيليب الثاني نائبه حاكم البيرو بالنظر في المسألة، واتخاذ أي إجراء يبدو له هو الأفضل، ولكنه في العام 1596 رفض مسودة 'الهوية' التي كانت ستنص على تعليم الهنود اللغة الإسبانية بصورة إلزامية في إسبانيا الجديدة، إلى جانب منع أي واحد من رؤسائهم من التحدث إلى شعبه بلغتهم الخاصة. وأضاف إلى ذلك ملاحظة شخصية بقوله: 'استشرني حول هذه القضية بكاملها هنا'. وفي 3 تموز/يوليو عندما تم توقيع الهوية في آخر الأمر احتوت بدلاً من ذلك على تعليمات 'بتعيين مدراء مدارس للراغبين في تعلم اللغة القشتالية بصورة طوعية'، ولكن مع ضمان أن يكون 'رعاة الأبرشيات عارفين جيداً بلغة الهنود الذين يتعين عليهم أن يعلموهم'.

فكانت النتيجة التي ظلت سائدة في القرنين التاليين هي استمرار الوضع الراهن كما هو إلى حد كبير: أي استخدام الإسبانية في المدن، وبصورة متزايدة في المجتمع الهجين؛ ولكن اللغات العامة ظلت تستخدم في الأماكن الأخرى، وعند انعدام وجودها تستخدم اللغات المحلية الأصلية الأخرى. ويبدو أن المحصلة في المدى البعيد صارت تعتمد على وجود مستوطنات هندية مستقلة: وعلى سبيل المثال، ففي غرناطة الجديدة حيث كانت هذه المستوطنات نادرة، فقد تلاشى بالتدريج استخدام لغة تشيبتشا، رغم الاعتراف بها 'كلغة مشتركة عامة' رسمية، فحلت محلها الإسبانية. ومع ذلك فحتى هنا بقيت اللغات الهندية في المناطق النائية. وفي تلك الأثناء ازدهرت اللغات العامة في المكسيك، والبيرو وباراغواي، سواء في مجال الكلام أم في مجال الكتابة، حتى عندما استمرت مجتمعات صغيرة تتكلم لغاتها الخاصة بها.

وكان ما حدث عندئذ هو عملية نقل لمحتويات رؤية إسبانيا للعالم عن طريق اللغات السابقة ذات التداول الأوسع. وهكذا أعفي الإسبان من مشقة تعليم لغتهم على نطاق واسع أو انتظار بضعة أجيال ريثما تنتشر معرفتها؛ وبدلاً من ذلك حصلوا على معرفة اللغات القديمة وحولوها لصالحهم، سواء أكانت تلك اللغات قد نشرتها سلطات حاكمة سابقة - ولا سيما لغات مكسيكا، وإنكا، و(إلى حد ما) تشيبتشا - أم كانت لغات سابقة للتجارة والتواصل - ولا سيما لغة آيمارا في البيرو الجنوبية وبوليفيا، ولغة غواراني في باراغواي.

وكانت أكثر اللغات ازدهاراً في هذين البلدين الأولين في خضوعهما للحكم الإسباني هي لغة الناحواتل بالتأكيد. وبما أن الحكم الإسباني في المكسيك قد أوجد 'جمهورية للهنود' منفصلة عن جمهورية الإسبان وببلاطات منفصلة، فإن الاستخدام الإداري للغة كان منتعشاً. وعلاوة على ذلك، لم يقتصر الأمر على الجهود الكبيرة التي بذلها رجال الدين الإسبان لترجمة المواد الوعظية والطقوسية ونشرها مدعمة - كما رأينا - بملخصات لغوية للمساعدة في تدريب متعلمي اللغة الإسبانية فحسب، بل سرعان ما كان هناك أيضاً أدب أعاد خلق وسرد تاريخ البلد في الفترة السابقة للغزو الهسباني. وقد شمل ذلك قبل كل شيء كتابة التاريخ، والشعر الغنائي. غير أنه قد أضيفت إلى الأجناس القديمة أجناس جديدة، منها تراتيم دينية كالترنيمة التالية التي ألفها الأب برناردو دي ساهاغون الموسوعي بلغة الناحواتل: 'إن حجارة اليشب الكريمة التي أشكلها بشفتي، والتي بعثرتها، والتي نطقت بها هي أغنية مناسبة. وهذه كلها ليست هدية لك وحدها يا بنيّ المحبوب، يا ابن الكنيسة المقدسة، بل إنك تستحق أكثر منها ... إذا اتبعت المسيحية جيداً كطريقة حياة ...'(40)، وكذلك مسرحية دينية عنوانها "أوتو" تتابع التقليد المكسيكي في استعمال الدراما لخدمة العقيدة المسيحية. وموتولينا، واحد من مجموعة بطولية من اثني عشر مبشراً من أول الذين أرسلوا لتنصير المكسيك(*)، يروي بحماسة عدداً

(*) كان "موتولينا" اسماً مستعاراً بلغة الناحواتل، وقد تبناه لأن معناه هو 'الفقير'. وكان الاسم الأصلي لهذا الراهب الفرانسيسكاني هو الأب توريبيو بينافنتي.

من مثل هذه المسرحيات التي تم تمثيلها في العامين 1538 و1539، بما فيها إعلان البشارة، وسقوط آدم وحواء، واستيلاء الصليبيين على القدس، والمفروض أنها كتبت وأخرجت على أيدي الرهبان، ولكن قام بتمثيلها الهنود حصراً[41]. وبعد ذلك بسبعة أجيال كان التقليد ما يزال حياً: ففي العام 1714 قام الكاتب التلاكسكالاني خوان فنتورا واباتا بتأليف عمل أكثر خيالاً إلى حد ما بعنوان "اختراع الصليب المقدس"، وفيه مشهد يواجه فيه إله الأزتيك مكتلانتيكوتلي الإمبراطور الروماني قسطنطين[42]. وحتى يومنا هذا فإنهم يعرضون في مدينة تيبوزتلان مهرجاناً لاعتناق المسيحية في كل عام في الثامن من أيلول/سبتمبر:

> تلاكابايان: يا ساكن الجبال! تلاكابايان يبحث عنك. وها أنذا جئت الآن. لقد جئت لأحيلك إلى طين وتراب، وإلى طين وتراب سأحيلك. فما الذي تخافه الآن عندما تسمع عن شهرتي وكلماتي؟ أين تركت آلهتنا المبجلين؟ لقد سلمت نفسك للأجانب، لأولئك القساوسة السيئين. فاعرف ما الذي يرغب فيه تلاكابايان. فهو لم يفقد رؤيته أبداً. إنك سوف تدمر وتهلك. وقويٌّ قلبي.
>
> تيبوزتيكو: كيف حدث ذلك في هذا الوقت بالذات، ولماذا جئت الآن بالضبط وأنا أستمتع بوقتي، وأرتاح، وأمرح، وأحيي ذكرى العذراء الخالدة، أمّ المسيح، وأمنا الغالية؟ ... ممجدةٌ حقاً هي أمنا الغالية السيدة العذراء، كما يقول المؤلف الإلهي لكتاب الحكماء. فهناك تقول الأغاني المقدسة إن اثنتي عشرة نجمة تحيط برأسها، وأن قدميها يدعمهما القمر المنير، وبذلك فإنه ينتشر فوق كل الأرض والسماء[43].

أما في بيرو، فقد كان الموقف من "اللغة العامة" أكثر تعقيداً. إذ إن لغة القيشوا، مثل الناحواتل كانت مستخدمة على نطاق واسع للتبشير بسيرة حياة المسيح، وأصبحت في الوقت نفسه أداة أدب فيه حنين إلى الماضي يستعيد حياة ما قبل الغزو. ولكن أخذت بها طبقة ملاك الأراضي ذوي الدم الإسباني الصافي، فلم يكونوا متحدرين من

نسل الهنود، كرمز للشرعية المحلية: وهذا يميزهم فوراً عن النخبة الحضرية الناطقة بالإسبانية في مدينة ليما، ولكنه حرم الناس الريفيين من وسيلة لغوية تُبقي سادتهم الإقطاعيين على مبعدة. ومع ذلك فعلى مدى القرنين ونصف القرن اللذين أعقبا الغزو، صارت القيشوا تمثل بشكل متزايد سخط الفلاحين في بيرو؛ وقد انفجر ذلك على شكل تمرد في نصف القرن الأخير، وتوج ذلك بالتمرد العام في العام 1780 تحت حكم الشخص الذي نصَّب نفسه باسم توباك آمارو الثاني (أي 'الثعبان الملكي'). ويقال إنه قبل سحق التمرد، كانت مسرحية "أولانتاي" تمثل على المسرح أمام القادة. وهي معروفة بأنها أفضل عمل في مسرح القيشوا، وهي تحكي قصة حب معذبة تعيشها أميرة من الإنكا تحب محارباً من عامة الناس في ذروة أيام حاكمي الإنكا باتشاكوتيك وتوباك يوبانكي (في منتصف القرن الخامس عشر). وفيما يلي القسم الذي يظهر فيه الإنكا خاصية رحمته بشكل مفاجئ إلى حدٍ مّا.

إنكا يوبانكوي : اختر عقوباتك. تكلم يا ويلاك أومو.
ويلاك أومو : لقد أعطتني الشمس قلباً رحيماً.
إنكا يوبانكوي : يا رومي، إذن يجب أن تتكلم أنت.
رومي نياوي : إن ثمن الذنب يجب أن يكون ميتةً قاسية يا إنكا. فهذا ما يستحقه الرجل صاحب أعظم خطيئة...
إنكا يوبانكوي : هل سمعت تحضير الخوازيق؟ خذوا هؤلاء المتمردين هناك! اقتلوا هؤلاء الرجال الشريرين!

....

أطلقوا السجناء: قفوا أمامي.
لقد أُنِقْذتَ من الموت، فاهرب الآن، يا أيل الجبال.
لقد سقطت عند قدمي، واليوم سيعرف العالم
طيبة قلبي. فعليَّ أن أنهضك.
مئة مرة، أيها العدو المنفي. لقد كنت
حاكم آنتي ـ سويو. وأنا أشهد اليوم
إذا كان ذلك يسرني، أنك ستصل إلى أي مستوى ترغب فيه.
كن حاكماً لآنتي ـ سويو، وأحد قوادي إلى الأبد ....

إن لغة آيمارا، التي ظلت محكية في جنوب بيرو، وفيما هو الآن بوليفيا، تعرضت لنوع من اختلاط مفرداتها مع الإسبانية. فكانت الكلمات الكثيرة التي استعارتها من الإسبانية يعبر معظمها عن أفكار مسيحية أو غربية جديدة. ولكنها في بعض الحالات كانت مكيفة للتعبير عن مفاهيم تقليدية. فكلمة 'العذراء' وعبارة 'الأرض المقدسة' صار معناهما 'الأرض الأم' بلغة قيشوا. وفي كثير من الحالات الأخرى فإن بعض كلمات آيمارا صارت لها معانٍ مسيحية، مثل كلمة 'الذنب' أو 'الخطيئة'. وفي هذا المقطع القصير من موعظة في القرن الثامن عشر، نبرز الاستعارات من الإسبانيه بالحرف الأسود:

> ماذا تقول، أيها **المسيحي**؟ ألا ترتعش عندما تسمع هذا؟ استيقظ وأبعد عنك **خطيئة** السكر. وكإنسان **مفكر**، كن عاقلاً، وعش في الطريق الذي حدده **الله**. ولا تجعل نفسك **حيواناً**. ولا تعد لتصبح شيئاً بدون اسم. وضع نهاية لخطيئة السكر والعربدة. ضع نهاية لها، أيها المحبوب[44].

وكانت لغة غواراني هي اللغة الأمريكية الأصلية الوحيدة التي حصلت على اعتراف دائم بها كلغة وطنية رسمية. وكان تغلغل الإسبانية القليل فيها في السنوات المبكرة سببه البعد الشديد للمناطق الناطقة بلغة غواراني في الأمريكتين، وما نتج عن ذلك من نقص النساء الناطقات بالإسبانية لتأسيس عائلات ناطقة بالإسبانية هناك. ولكن اللغة مدينة بمرونتها وصمودها إلى الاستيطان المثالي لمبشرين يسوعيين ببعثاتهم في باراغواي. وقد أقيمت مجتمعاتهم كرد فعل ديني مقدس ومحب للإنسانية ضد نظام "الإنكوميندا"(*) القمعي الظالم حول آسونسيون، فسيطرت على العلاقات بين الأوروبيين والهنود في الفترة من العام 1609 إلى العام 1767. وقد تعطل عملها بفعل غارات تجار

(*) كانت الإنكوميندا *encomienda* مؤسسة اقتصادية عالية في المستعمرات الإسبانية الامريكية؛ كانت أرضاً مستأجرة يمنحها الملك فيعطي الآمر المعين بموجبها حقوقاً كاملة باستغلال عمل الهنود في إقطاعية عقارية، مقابل تلقي الهنود تعليماً دينياً.

الرقيق (المخيفين المعروفين باسم "مملوكوس") فيما بين العامين 1628 و1640، وبفعل أمراء "الإنكوميندا". وفي مجتمعاتهم كان التدريس كله يتم بلغة غواراني. وبذلك كسبت هذه اللغة أساساً قوياً جداً في الثقافة التنصيرية. وإن الطبيعة المثالية للعالم الذي خلقه الرهبان اليسوعيون بهذه الطريقة يمكن رؤيتها في المعنى الحرفي لبعض الكلمات الجديدة التي صارت متداولة، مثل 'سيد العصا الغليظة'، أي رئيس الشرطة، و'غائط المناجم'، أي المال (وهو شيء لا فائدة منه في المجتمعات)[45].

وكان من الدوافع الواضحة لنظام اليسوعيين اللغوي حماية الهنود من الرذائل الأوروبية. ولكن رعاية الإبهام المحتشم اللائق للغة كلاسيكية، وللاتينية تحديداً، كانت سياسةً يتبعها الآباء المثقفون في الأمريكتين، ولم يكن أقل الأسباب لذلك هو سعيهم لإقامة نظام كهنوتي من السكان الأصليين هناك. وقد فتن بعض الآباء بمنجزات تلاميذهم في التعليم الكلاسيكي. فالأب توريبيو موتولينيا، أحد المبشرين الفرانسيسكان الاثني عشر الأصليين المبعوثين إلى المكسيك، يحفظ الحكاية التالية عن انهيار فريق قوي من قشتالة:

> لقد حدث شيء لطيف لقسيس وصل حديثاً من قشتالة، ولم يكن يصدق أن الهنود يعرفون العقيدة المسيحية؛ ولا صلوات الرب، ولا قانون الإيمان المسيحي، وعندما أخبره إسبانيون آخرون أنهم يعرفونها ظل متشككاً، وفي ذلك الوقت تماماً، خرج طالبان من صفهما، فظن القسيس أنهما من باقي الهنود، فسأل واحداً منهما إن كان يعرف صلاة الرب، فأجابه بأنه يعرفها، فطلب منه أن يتلوها، فتلاها، ثم جعله يردد قانون الإيمان المسيحي، فردده الطالب بصورة جيدة تماماً. فتحدى القسيس كلمة منه كان الطالب قد رددها بشكل صحيح. وبما أن الطالب الهندي أكد صحة ما قاله، فقد أنكر القسيس ذلك، فاضطر الطالب إلى سؤاله عن الطريقة الصحيحة، فطرح سؤاله باللاتينية قائلاً: أيها الأب المبجّل، ما هي الحالة الصحيحة؟ وبما أن القسيس لم يكن يعرف قواعد النحو، فقد شعر بالحيرة والضياع وغلب عليه الارتباك[46].

وفي بعض الأماكن، نشر الإسبان "اللغات العامة" إلى ما وراء نطاق

الإمبراطوريات التي أوجدتها قبل مجيء كولومبوس. وتحت حكم الإسبان، وبمساعدة حلفائهم الناطقين بلغة الناحواتل، ولا سيما من تلاكسكالان، الذين كانوا سعيدين جداً بتجريد الأزتيك من ممتلكاتهم، انتشرت لغة الناحواتل نزولاً إلى غواتيمالا، التي كانت حتى ذلك الحين محجوزة للناطقين بلغة مايا. وهذا هو سبب كون كثير من أسماء الأماكن في غواتيمالا من أصل ناحواتلي: فاسم بحيرة آتيتلان الجميلة معناه 'دائرة الماء'، أو كما سموها بلغة تزوتوجيل المحلية: 'بجانب المياه العظيمة'، أما غواتيمالا نفسها فاسمها هو "قواش ـ تيمال ـ لان"، أي 'الأرض التي تنتشر فيها الأشجار'، وهي ترجمة لكلمة "كايتشي" (التي لا تزال تستخدم للإشارة إلى أكبر مجموعة لغوية في البلد، حيث إن تهجئتها التقليدية هي Quiche). وهناك نهاية شائعة لأسماء المدن، وهي تينانغو، المأخوذة من "تينانكو"، ومعناها 'في قلعة ...'، فعبارة كتزالتينانغو معناها 'في قلعة طير الكتزال' (وهو من طيور أمريكا الوسطى، له ذيل طويل جداً متعدد الألوان)، وهوهويتينانغو معناها 'في القلعة القديمة' وموموستينانغو معناها 'في قلعة الكنيسة الصغيرة'. وشيشيكاستينانغو معناها 'في قلعة نبات القراص المُر'. وهذه كلها فيها نغمة أجنبية بالتأكيد اليوم، حيث لم تعد الناحواتل محكية في شرق برزخ تيبيهوانتيبيك أو جنوبه، على بعد 500 كيلومتر. كما أن عشائر تلاكسكالان أخذوا لغة الناحواتل إلى الشمال، حتى زاكاتيكس على الأقل، وفي الغرب كان المبشرون يستخدمون لغة الناحواتل لوعظ عشائر تاراسكان في ميشوكان (ناحواتل ميشواكان، أي 'مكان الذين يملكون السمك')، التي لم تكن أبداً جزءاً من ممتلكات الأزتيك[47].

وفي البيرو، تشير الأدلة إلى أن القيشوا كانت قد انتشرت، سواء عن طريق غزوات توباك يوبانكي في القرن الخامس عشر أم عن طريق أسفار تجار تشينتشا شمالاً حتى حدود كولومبيا الحديثة قبل زمن طويل من الغزو الإسباني[48]. وكان الإنكا أيضاً قد أقاموا مستوى معيناً من العلاقة الاقتصادية مع منطقة توكومان إلى الجنوب منهم: فكانت هناك طرق، ومحطات للحاميات، وخانات، وربما أعمال سخرة إلزامية بين فترة وأخرى، من النمط المألوف في إمبراطوريتهم. ولكن التأثير

اللغوي لهذا غير واضح. وعلى أية حال، فتحت الوصاية الإسبانية، قدر للغة أن تعزز انتشارها باتجاه الجنوب. فقد كانت هناك هجرة صافية من بيرو جنوباً إلى منطقة بوتوسي في بوليفيا الحديثة، لتعزيز تطوير تعدين الفضة هناك. وفيما بعد، انتشرت لغة قيشوا أيضاً إلى مقاطعات توكومان، وسانتياغو دل إستور، وقرطبة في الأرجنتين الحديثة. وفي كل هذه المنطقة كانت التغلغلات الإسبانية مصحوبة بأعداد كبيرة من الحاضرين من بيرو ومن المهجنين؛ وهكذا فإن التقدم اللغوي للإمبراطورية كان يميل إلى استخدام لغة قيشوا بدلاً من الإسبانية. وكان النشاط التبشيري أحد العوامل أيضاً بعد أن قام مجلس ليما في العام 1582 ـ 1583 بوضع خطة عامة لتنصير الأمريكتين. وكما هي الحال في كل مكان، فقد وجد الرهبان أن الوعظ باللغة العامة أسرع وأسهل، وفي هذه الفترة، كانت لغة قيشوا لا تزال تحمل نكهة من نفوذ الإنكا ملتصقة بها(*). وعند بداية القرن الثامن عشر، كانت توكومان قد فقدت لغاتها السابقة، وصارت بشكل جوهري منطقة ناطقة بالقيشوا[49].

حلّ الدولة: اعتماد الإسبانية

> إن قساوسة الكنيسة الذين لا يحاولون توسيع أثر القشتالية ودفعها إلى الأمام، والاهتمام بتعليم الهنود كيفية قراءتها وكتابتها فيتركونهم منغلقين على لغتهم هم حسب تفكيري الأعداء العلنيون للأهالي الأصليين، ولسياستهم، ولعقلانيتهم ...
>
> أنطونيو دي لورنزانا إي بويترون، رئيس أساقفة المكسيك، 1769[50]

في منتصف ـ القرن الثامن عشر، عندما كانت إسبانيا قد سيطرت على الأمريكتين لمدة عشرة أجيال كاملة، خاب أمل كثير من الإسبان بانتشار لغتهم بشكل أقل من العالمي بكثير. ويقدر روزنبلات بأنه كان هناك ثلاثة أشخاص ناطقين بلغتهم الأصلية الأم في مقابل كل شخص نشأ على اللغة الإسبانية في

(*) إن أصداء هذه الفخامة السابقة واسعة الانتشار. فقد كانت القيشوا واحدة من اللغات الإحدى عشرة التي استخدمها اليسوعيون في بعثاتهم التبشيرية في باراغواي. وهي لا تزال مأخوذاً بها حتى اليوم في مجتمعات صغيرة في شمال تشيلي، وفي آكر في غرب البرازيل.

المستعمرات الإسبانية عام 1810: فكان هناك تسعة ملايين من الهنود الريفيين في مقابل ثلاثة ملايين من البيض ومختلطي اللغات و"المهجنين"[51]. وقد تعامل رئيس أساقفة المكسيك، أنطونيو دي لورنزانا إي بويترون - وهو إسباني بالطبع - مع مسألة اللغة بشكل جدي وبحزن عاطفي عميق:

> هذه حقيقة ثابتة: إن الحفاظ على لغة الهنود حماقة من رجال حظهم وتعليمهم محصوران بتكلم هذا اللسان الذي تعلموه حتى وهم في سن الطفولة: وهذه عدوى تفصل الهنود عن محادثة الإسبان، وهذا طاعون تصيب عدواه عقيدة إيماننا المقدس؛ وهي علامة ضارة تفصل أهالي بعض القرى الأصليين عن الآخرين باختلاف ألسنتهم وتباعدها، وهي تكلفة زائدة للأبرشيات التي تتطلب قساوسة من لغات مختلفة في مجالهم نفسه، وهي مستحيلة بالنسبة لحسن إدارة الأساقفة[52].

وفي العام 1769، في رسالة رعوية إلى أبرشية رئيس أساقفة المكسيك، اقترح إلغاء كل لغات الأهالي الأصلية عن طريق الاستخدام الإلزامي للغة الإسبانية. ولقد كان ابن عصره في فترة التنوير، عندما كان هناك تقدير متزايد الاتساع لفائدة العقل للإنسانية، وكانت تُقْتَرَحُ سياسات جديدة جذرية لإعطائه فاعلية. وكان مما يعادل ذلك في الأهمية أن بويترون كان قريباً من أُذُنِ ملك إسبانيا، كارلوس الثالث. ونتيجة لذلك فرغم رفض اقتراحه من قبل حاكم المكسيك آنذاك، الذي كان يشعر بأن كل ما هو مطلوب هو التنفيذ الأفضل لمعايير تدريس الإسبانية (التي كان عمرها مئتي عام)، ثم رفضه من قبل المجلس الكامل لجزر الهند الغربية، على الأسس التقليدية التي جعلت مجلس ترنت (عام 1545) يطلب بوضوح تدريس التبشير بلغات الأهالي الأصلية، فإن الملك مع ذلك أمر "بالهوية" الملكية المصيرية المميتة ووقعها في 16 نيسان/إبريل من العام 1770 التي كانت عبارتها الحاسمة تقول: 'من أجل أن يتحقق في وقت واحد انقراض اللغات المختلفة المستعملة في الممتلكات المذكورة، واستعمال القشتالية وحدها'....(*).

(*) مقتبسة في كتاب تيريانا إي آنطورفيزا (1987)، ص 511.

وقد لاحظ المرسوم أن التوصيات الملكية للمدارس بترسيخ القشتالية في كل القرى لم تكن مجدية. ولكن كان المطلوب المادي الملموس في الحقيقة هو أن يعين الأساقفة مساعدين لهم في الأبرشيات منذ ذلك الحين دون الاهتمام بكفاءتهم في اللغات الأخرى غير الإسبانية. ولم يكن هذا موجهاً إلى المكسيك وحدها، بل إلى كل جزء من الإمبراطورية الإسبانية بصراحة واضحة، بما في ذلك الفليبين.

وتبع المرسوم في العام 1782 مرسوم آخر يطلب من السلطات المدنية والدينية أن تتبرع لتمويل أساتذة في اللغة القشتالية. ولكن ذلك لم يؤدّ إلى تحسن واسع النطاق في تعليم الإسبانية في الإمبراطورية. بل إن مكاسب الإسبانية، رغم كونها حقيقية قد حصلت من غياب اللغات الأخرى بشكل شبيه تقريباً بما تخيله مرسوم الهوية: فقد كانت هناك ببساطة رغبة بتلاشي استخدام الهنود للغتهم، بينما راحت السلطات الإسبانية تخاطبهم بشكل متزايد بالإسبانية بالقوة والقهر. وتم سحب كل دعم رسمي للتعليم باللغات الأهلية الأصلية، وانقطع تزويد الجامعات بكراسي تعليمها، وتوقف طبع اللغات المكتوبة بها. وتوقفت المحاكم في المكسيك عن النظر في الدعاوي والالتماسات المكتوبة بالناحواتل. وعلاوة على ذلك، فقد شهدت الفترة نفسها هبوطاً في نفوذ الكنيسة وسلطتها ضمن الإمبراطورية، وهي عملية تعزى عموماً إلى انتشار التنوير في أوروبا، ولكن يدل عليها بشكل كبير ومفاجئ جداً طرد اليسوعيين من كل مجتمعاتهم في أمريكا الجنوبية في العام 1767(*). كان الهنود لا يفقدون الدعم المؤسسي للغاتهم فحسب، بل فقدوا أيضاً حماتهم الأوروبيين، الرهبان والقساوسة. وثبت أن هذه الاتجاهات كانت كافية لتسبب انحدار كل "اللغات العامة ".

ولكن التنوير المتحرر لم يتوقف هنا، مع محاولة تسليط ضوء اللغة الإسبانية الدارجة على زوايا عقول يفترض بأنها مظلمة من اللغات الأصلية الأم،

(*) كان التاج البرتغالي قد طرد جميع اليسوعيين من البرازيل في العام 1759. (انظر الفصل 11: 'رواد البرتغالية'، ص 540).

وازدياد تحرر المجتمع المدني من الالتزامات للكنيسة. فكانت خطوته التالية التي فرضتها الحروب الثورية في القرن التاسع عشر هي التوجه نحو الاستقلال السياسي للمستعمرات الإسبانية. ولم يكن من المدهش أن القوى التي اعتبرت استمرار الحكم الإسباني أكثر إزعاجاً هي النخب المتأوربة من المهجنين المختلطي اللغات، الأقرب إلى الطبقات الحاكمة في عاداتها ولغتها، ولكنهم خاضعون لتلك الطبقات إلى الأبد بسبب صدفة ولادتهم في الأمريكيتين. ورغم أنهم كانوا سعداء بتجنيد "المهجنين" والسود والهنود لقضيتهم، فإنهم لم يكونوا أبداً مستعدين لاعتبار اللغات المحلية الأصلية شارات مميزة لأصالة الأمم الجديدة التي كانوا يرغبون في تأسيسها: وبدلاً من ذلك قدم مختلطو اللغة لكل واحد جنسية بلا فروق وبناء على لغة مشتركة، هي الإسبانية. فقد وجدت الحركات الوطنية في أمريكا اللاتينية أن تأخذ باللغات المحلية، لأنها رأت أنه حتى اللغات الأكبر هي مصادر للانقسام، وليست وحدة غريبة عن إسبانيا. ومن الواضح أن المحصلات اللغوية قد اختلفت في وجهة الشروط المحلية ذات الأشكال المتعددة أكثر من اللازم بحيث لا يمكن مراجعتها هنا، فهناك عدد من القصص يساوي عدد أمم أمريكا اللاتينية على الأقل. فيجب أن نكتفي بالنظر في حالتين فقط، وبشكل مختصر وحيث تنافست الإسبانية مع لغة محلية أصلية كبيرة باقية.

ففي المكسيك، منذ استقلالها في العام 1821 كان وجود الهنود يشكل دائماً نوعاً من الإحراج الفكري. فقد كانت هويتهم المنفصلة تعمل كتفنيد قائم لنزعة المساواة التي جاء بها عصر التنوير: 'إن مؤسساتنا السياسية لا تميز بين السود، أو المهجنين، أو الهنود'[53]. وهذا شيء نموذجي في معظم بلدان أمريكا اللاتينية. ففي العام 1813، قام القائد الثوري موريلوس بتوجيه نداء إلى ماضي مكسيكا ليلهم إعلان الاستقلال الجديد: 'يا أرواح موكتيهزوما، وكاكاماتزين، وكواهتيموتزن، وكسيكونكتال، وكاتزونزي، كما احتفلتم بالعمل الذي ذبحكم به سيف ألفارادو الخائن، احتفلوا الآن باللحظة السعيدة التي اتحد فيها أبناؤكم لينتقموا من الجرائم والانتهاكات التي ارتكبت ضدكم ...'[54].

ولكن عند مجيء قانون ليردو في العام 1856، تلاشت الحقوق المجتمعية للهنود في أراضيهم. وفي العام 1916 كتب م. جاميو في كتابه 'صياغة الوطن' أن حل المشكلة الهندية يكمن في 'اجتذاب هؤلاء الأشخاص نحو المجموعة الاجتماعية الأخرى التي كانوا دائماً يعتبرونها العدو. فندمجهم، ونخلط الفريقين معاً، وباختصار نخلق عرقاً وطنياً متماسكاً ومتجانساً وموحداً في لغته وثقافته معاً'[55]. ومن المفارقات أن هذا الرأي في المكسيك يتصف بأنه يقدر اللغة والثقافة الأصليتين، ولكن فقط المجموعتين الكبيرتين المتنفذتين الناحواتل والمايا، وفقط كنوع من الإثبات الوطني لماضٍ ثقافي مجيد. ومما هو أقل إثارة للاستغراب أن الخلفية الفكرية هي التي سببت نمو استخدام اللغة الإسبانية منذ الاستقلال. فإذا كان 6.7 ملايين من السكان في العام 1910، و45 بالمئة منهم إسبان أو مهجنون يفترض أنهم ناطقون بالإسبانية[56]، فعند حلول العام 1995 كان هناك 95.8 مليوناً، مع 88 بالمئة منهم تماماً ينطقون الإسبانية كلغة أولى[57].

وعلى عكس ذلك، وبصورة فريدة من نوعها، فإن ثنائية اللغة التي ترسخت في وقت مبكر بين الإسبانية والغواراني في باراغواي لم تبدأ بالانزلاق أبداً. فهي تعود إلى أيام المستعمرة المبكرة، عندما كانت آسونسيون تعرف باسم 'فردوس محمد'، بسبب النسبة المفضلة كثيراً من الرجال الأسبان والنساء الناطقات بالغواراني[58]. وبصورة فريدة في الإمبراطورية الإسبانية، فإن البلد لم تكن فيه، ولا حتى في مدينته الوحيدة، آسونسيون، نخبة حضرية تعيش من خلال الاتصال مع باقي العالم الناطق بالإسبانية بدلاً من بلدها نفسه. ويبدو أن عزلة الأمة، وانقطاعها بدون خط ساحلي أو جيران ودودين قد جعل ذلك شيئاً دائماً، حتى بعد الاستقلال. فكل رئيس للبلد كان قادراً على تكلم اللغتين. والحقيقة أنهما على ما يبدو قد تطورتا باعتماد كل منهما على الأخرى بشكل متبادل، كتمثيلية مزدوجة على المسرح، بحيث تلعب الإسبانية دور الأخ الذكي، المثقف، بينما تلعب لغة الغواراني دور الشخص المحبوب ولكنه بلا مبادئ ولا ثقافة، ويتصرف بخشونة. وقدمت الغواراني خدمات تابع صغير، فعززت السرية والروح المعنوية في حربين ضد جيران باراغواي في العامين 1864 و1932، وكان لها

في أذهان الناس لزمن طويل ارتباط بالوطنية وبحزب كولورادو ضد فلسفة الليبراليين[59] عن السوق الحرة المؤدية إلى عدم الاستقرار. وتعرضت الغواراني للتثبيط الرسمي أحياناً (عندما كان الليبراليون في السلطة)، ولكنها استمرت على كل المستويات في المجتمع كلغة يتم تعلمها في البيت، بينما ظلت الإسبانية اللغة التي يتم تحصيلها بشكل نموذجي في المدرسة. وفي العام 1967 أعلن المجلس التشريعي أنهما لغتان وطنيتان، ولكنه أفرد الإسبانية باعتبارها اللغة الرسمية. وفي العام 1996 قيل إن 95 بالمئة من سكان باراغواي الخمسة ملايين يتحدثون لغة غواراني بطلاقة، و52 بالمئة منهم يتحدثون بها كلغة وحيدة. ولم يكن هناك إلا 2 بالمئة فقط يتحدثون الإسبانية كلغة وحيدة[60].

إن الحكم العام على تغلغل الإسبانية في الأمريكتين هو أنها نجت من التلاشي بصعوبة. فرغم أكثر من قرنين من الاستقرار والسيطرة النخبوية في القارة، فإن المجتمع الناطق بالإسبانية ـ والذي ظل يتجدد وينتعش بالهجرة من شبه جزيرة إيبيريا ـ لم يغرس جذوراً عميقة في المستعمرات. فحتى أواخر القرن الثامن عشر ظل الإسبان يحافظون على أنفسهم كنخبة غريبة، مع المهجنين ككيانٍ آخذ في النمو. وقد استفادوا من التوحيد اللغوي لممتلكاتهم على أيدي أسلافهم، وخاصة المكسيكا والإنكا واستخدموه للتعجيل بالاستغلال الاقتصادي لغزواتهم والمهمات التبشيرية التي شعروا بأنها تبرر حضورهم. ولكن في الأماكن التي تمتعوا فيها بهذه الامتيازات بالذات فإنهم لم يقدموا لغة عالمية مشتركة خاصة بهم. وهذه حالة تذكرنا بشكل غريب بالممتلكات الإغريقية البيزنطية في الشرق الأوسط. فقد ظلت الآرامية لغة الشعب من البحر الأبيض المتوسط إلى الخليج العربي. وهكذا فإن صدمة الفتح الإسلامي كانت كافية ـ في غضون جيلين فقط ـ لمحو كل الآثار اللغوية لألف عام من الحكم اليوناني (انظر الفصل السادس: 'تلميحات عن التدهور'، ص 364).

القانون: عبر المحيط الهادئ

إن مدى سطحية القبضة اللغوية الإسبانية على مستعمرات إسبانيا يمكن رؤيتها

في حالة الفليبين، حيث وقعت صدمة مماثلة من خلال هزيمة إسبانيا في الحرب الإسبانية ـ الأمريكية (1898). فقد لاحظنا من قبل (انظر: 'إمبراطورية لم يسبق لها مثيل' ص 466)، أن هذه المستعمرة كانت مختلفة عن الأمريكتين بطرق هامة: فهي لم تستجب للغزو الإسباني بانهيار مفاجئ للسكان الأصليين بسبب وباء. ولم تجتذب أبداً أعداداً هامة من المهاجرين ذوي الأعمال التجارية الحرة من إسبانيا ـ أو حتى من المستعمرات الإسبانية الأخرى. وكما في الأمريكتين، تم قبول اللغات المحلية كوسائل للوعظ التبشيري: وكانت الطباعة قد بدأت في الفليبين في نفس الوقت الذي بدأت فيه في المستعمرات الأمريكية الأكثر تقدماً، في المكسيك وبيرو في العام 1593، وكان نتاجها الأول طبعة من كليشيهات خشبية لمجلد عنوانه: "العقيدة المسيحية واللغة الإسبانية والطاغالية"، وهو نصٌّ بالإسبانية بموازاة لغة الطاغلوغ[61]. وبما أنه لم يكن هناك سوى عدد ضئيل من المستوطنين الإسبان، ولم يكن هناك أي تقدم اقتصادي جدي، فلم يكن هناك إغراء كبير لاستخدام اللغة الإسبانية خارج الدوائر الرسمية.

ومع ذلك فقد بذل جهد هام في وقت متأخر لنشر معرفتها. فمرسوم "الهوية" الملكي الذي أصدره كارلوس الثالث في العام 1770 كان ينطبق على الفليبين بمقدار انطباقه على الأمريكتين. وفي 20 أيلول/سبتمبر سنة 1794 أصدر خلفه كارلوس الرابع ملحقاً لذلك المرسوم يجعل تعليم الإسبانية مجانياً وإلزامياً للجميع. ولكن ذلك لم يتغلب على نقص الموارد المطلوبة لجعله يتحقق. واستمرت المراسيم الملكية في الصدور على أية حال، وفي آذار/مارس من العام 1815 تم فرض التعليم الابتدائي الإلزامي باللغة الإسبانية. وفي العام 1860 تم إدخال المدارس في الجيش، وصدرت الأوامر لضباط الصف الإسبان بتعليم جنودهم الفليبينيين. وفي القرن التاسع عشر كان هناك مستوى محترم جيد من الدوام في المدارس: وفي العام 1840 كان هناك طفل يداوم عن كل ثلاثة وثلاثين من السكان، وهذا رقم يشبه معدل التلاميذ في فرنسا في العام نفسه: طفل عن كل ثمانية وثلاثين من السكان (وفي روسيا كان هناك طفل واحد في المدرسة عن كل أربعة آلاف من السكان)[62].

ولكن سلب الأمريكيين لممتلكات الإسبان واحتلالهم للفليبين في العام 1898 كشف مدى هشاشة الثقافة اللغوية التي كان الإسبان قد نجحوا في زراعتها هناك. فقد أظهر الإحصاء السكاني للعام 1903 أنه من بين 7.5 ملايين من السكان كان الذين يتكلمون الإسبانية أقل من ثمانمئة ألف (أي 11 بالمئة). وبعد ذلك بخمسة عشر عاماً كان المتكلمون بالإنكليزية قد زادوا عليهم: فكان هناك 896,258 ناطقاً بالإنكليزية و757,463 ناطقاً بالإسبانية. وبعد ذلك بسبعين عاماً، في العام 1988، قدر "التقويم الأطلسي لأوغسطيني" نسبة الناطقين بالإسبانية بثلاثة في المئة[63]؛ وهذا يمكن مقارنته بـ 51 بالمئة كانوا قادرين على تكلم الإنكليزية في الإحصاء السكاني للعام 1975.

وفي دستور العام 1987، ولأول مرة، لم تعد الإسبانية مدرجةً كلغة رسمية في البلد. بل صارت لغة الطاغلوغ (التي أعيدت صياغتها وتطويرها بشكل فعال تحت اسم اللغة الفليبينية) هي التي تؤدي هذا الدور (بعد أن أصبحت متاحة لاثنين وستين بالمئة من السكان، حسب "التقويم العالمي لعام 1991")، مع الإنكليزية 'إلى أن ينص القانون على غير ذلك'. فالإسبانية الآن، مع العربية، 'يتم الترويج لهما على أساس طوعي اختياري'(*).

إن تقدم اللغة الإنكليزية فوق جثة الإسبانية المطروحة لا يمكن فصله عن التقدم العام للإنكليزية على نطاق العالم كله في القرن العشرين، وهو ما سيتم فحصه في الفصل الثاني عشر ('العالم تجتاحه عاصفة'، ص 686). وهناك شيء آخر أيضاً لا بد أن سببه يعود إلى شبكة المدارس السابقة التي أتيحت للقادمين الأمريكيين. ويقارن ذلك مع الإسبان الذين ظلوا يكدحون قروناً لبناء تلك المدارس من نقطة الصفر. وصحيح أيضاً أن الأنشطة الأمريكية في الخارج قد أتيحت لها أموال أكثر بكثير مما كان متاحاً للأنشطة الإسبانية.

ولكن الوضع يمكن مقارنته على شكل مفارقة مع التنازع بين الإنكليزية والإسبانية في أمريكا الشمالية في الفترة نفسها، حيث إن كان قد حدث أي

(*) الاقتباسات مأخوذة من الدستور الفلبيني للعام 1987 (كما هو مستشهد بها في كتاب كويليس سنة 1992، ص 83).

شيء فهو أن الإسبانية - في نسختها المزروعة في المكسيك، وأمريكا الوسطى، وكوبا، وبورتوريكو - تنمو على حساب الإنكليزية في كثير من المدن الكبيرة، وفي كثير من أنحاء جنوب غربي الولايات المتحدة الأمريكية(*). غير أن جميع هذه التطورات تميل إلى تأكيد العوامل التي تقرر انتشار اللغة: وهي نمو السكان وتنقلاتهم. فعندما تكون اللغة الرسمية شيئاً مصطنعاً خلقته نخبة دولية ونشرته إلى أبعد مدى ممكن بين السكان المحليين، فإن من المفهوم أن الميزانية الأكبر هي التي تخلق اللغة الأكبر. ولكن عندما يبدأ السكان في التكاثر، كما حدث في العاصمة مانيلا، فإن لغتهم (الطاغلوغ) هي التي تسيطر على البلد، تماماً كما يسيطر الناطقون بها، سواء وجدت الإنكليزية أم لم توجد.

وعندما يبدأ السكان بالتحرك نحو جاذب لا يقاوم، مثل الاقتصاد الأمريكي، كما يفعل سكان المكسيك وحوض البحر الكاريبي الأوسط الآن، فإن مجتمعات جيدة ناطقة بالإسبانية سوف تبدأ في الاحتشاد والتزاحم، حتى إذا كان ذلك يعني اقتحام قلب الأرض الداخلية للإنكليزية، التي هي أكثر لغات العالم حيوية وأوسعها انتشاراً.

(*) إن أرقام الإحصاء السكاني للعام 2001 تقدر نسبة سكان الولايات المتحدة الهسبان بسبعة وثلاثين مليوناً، أي 13 بالمئة من المجموع، فهم أكبر أقلية في البلد، فقد زادوا لتوّهم على عدد الأمريكيين الأفارقة، الذين هم 36.1 مليوناً. والهسبانيون هم الأقلية الوحيدة في أمريكا التي تحتفظ بالاستخدام الروتيني للغتهم الإسبانية المتوارثة. ولديهم قناتان تلفزيونيتان هما يونيفيزيون وتيليموندو، وأكثر من مئتي مطبوعة مجموع نسخها المتداولة 12 مليوناً (جريدة إلباييز *Elpais*، مدريد، 23 آذار/مارس 2003).

11

في أعقاب الإمبراطورية: لغات أوروبا في الخارج

عند استعراض أعلى عشر لغات متداولة في العالم بحسب عدد السكان (علماً بأن اللغات الكاملة العشرين الأولى محددة ومناقشة في الفصل الثالث عشر)، نلاحظ أن ما لا يقل عن ستٍ منها قد انتشرت من خلال توسع الإمبراطوريات الأوروبية العالمية في القرون الخمسة الماضية: وهي الإنكليزية، والإسبانية، والبرتغالية، والروسية، والألمانية، والفرنسية. وقد استعرضنا لتوّنا انتشار الإسبانية، الأبكر من هذه اللغات، الذي تميز بالدور القيادي للكنيسة الكاثوليكية - ولو أن هذا الدور كان مفسداً إلى حدٍ ما. أما انتشار الإنكليزية، وهو أكثرها لفتاً للأنظار، حيث يبدو أن الحماسة للسوق العالمية قد سيطرت على الأمور من حيث تركتها السيطرة الوطنية، فإننا نحجزه للفصل التالي. وقبل ذلك نحتاج إلى النظر في سيرة حياة اللغات الأخرى، التي فيها حالات كلاسيكية تقليدية كثيرة من التوسع الإمبراطوري الحديث، يدفعه التعطش العنيف للثروة، والاستكشاف، والمجد الوطني، الذي كثيراً ما كانت تصحبه حماسة المبشّرين بالمسيحية.

إن قصة اللغات أكثر غموضاً، ومن هنا أكثر إثارة للاهتمام مما تُصوره غالبية روايات الكُتّاب الأوروبيين الحديثين، التي هي في العادة مليئة بتهنئة النفس والرضا عنها. فتوسع اللغة المحلية في أعقاب القوة الاستعمارية المتنامية لم يكن مؤكداً أو مضموناً بأي حال من الأحوال. وعلى سبيل المثال، فإن علينا أن نفسر الحقيقة الغريبة لكون اللغة المشتركة في إندونيسيا الحديثة هي شكل

من أشكال الملايوية، وليس الهولندية التي ظلت لغة سادتها لمدة زادت على قرنين، كما أن التأثيرات اللغوية لبعض حالات الحضور الاستعماري، مثل حضور فرنسا في الهند الصينية، أو روسيا في آسيا الوسطى الإسلامية، أو اليابان في منشوريا وكوريا، تبدو أقل ديمومة بكثير من تأثيرات الآخرين. فنحن بحاجة إلى التساؤل عن ماهية جوانب الغزو التي جعلت انتشار اللغة دائماً كما يظهر، كانتشار البرتغالية في البرازيل، والفرنسية في الكونغو، والروسية في سيبيريا. ذلك أن مقولة نبريجا المرتجلة بأن 'اللغة مرافقة للإمبراطورية، تتبعها بطريقة تجعلهما تبدآن، وتنموان، وتزدهران بشكل مشترك، وبعد ذلك يكون سقوطهما معاً بشكل مشترك' هي مقولة سطحية مبسطة أكثر من اللازم - في كل مزاعمها.

إن مواقف هذه القوى الاستعمارية من اللغة، ودرجة اعتقادها بوجود صلة بين اللغة والثقافة، كانت تميل إلى احترام الذات أكثر من موقف الاستعماريين الإسبان الكاثوليك: فقد كان ذلك أحد ملامح عصرهم. لقد كان الكهنوت الكاثوليكي عالمياً، ولم يكن بأي حال محتكراً أو مصنوعاً من قبل الإسبان الذين كان من حظهم أنهم نقلوه إلى الأمريكتين. وعلى عكس ذلك، فإن المغيرين الأوروبيين الشماليين كانوا يشعرون أنهم يملكون موهبة وطنية خاصة تفسر قدرتهم على السيطرة على هؤلاء 'المتوحشين الذين كانوا غارقين في الظلمات' من قبل. ولكن، بما أن مؤسسي الإمبراطوريات كانوا رجالاً عمليين، وقساةً في أغلب الأحوال، فإن من المحتوم أن تقديرهم لدور اللغة كان عملياً أيضاً، بل سطحياً كذلك. فاللغة من شأنها أن تنتشر في بادئ الأمر كلغة مشتركة، وربما بشكل مقيد تماماً، كرطانةٍ مبسّطة مختلطة، تقدم كل أنواع التنازلات للغات الأولى للذين يلتقطونها ويأخذون بها. فقد كانت اللغة تعتبر أداة لإتمام صفقات الأعمال التجارية. فاللغات الأوروبية كانت - ولا تزال طبعاً - تستعمل كلغات ثانية في التجارة وفي الحكومة، بينما استمرت اللغات التقليدية ثابتة في سياقات معروفة مألوفة. وعلى هذا الأساس، فإن انتشار مثل هذه اللغة تصعب رؤيته كانتشار المجتمع اللغوي الذي جاءت منه.

ولهذا فإن من المعقول النظر إلى انتشار كل هذه اللغات كمجموعة،

بصورة مقارنة، بدلاً من الغوص عميقاً في قصص لغات معينة في بلدان معينة. وبهذه الطريقة نستطيع أن نأمل بأن الملامح الحاسمة لهذه الظاهرة العالمية للاستعمار الأوروبي سوف تتكشف بصورةٍ واضحةٍ شفافة. وبالطريقة نفسها فإن من الصعب نقل النكهة الفردية لمواجهة لغة معينة لبيئة غريبة عنها.

روّاد البرتغالية

ضده تكلمت فينوس الجميلة؛
بمحبة للجنس العرقي البرتغالي،
لكل المواصفات التي رأتها فيه
من روما، التي أحبتها كثيراً من زمن قديم؛
في قلوبهم الشجاعة، ونجمهم العظيم،
الذين أظهروه في أرض سبتة [في غزوهم الأول]،
وفي لسانهم، الذي جعلها خيالها
تظنه لاتينياً فيه شيء من التحريف.

كامويس،(*) أوس لوسياداس ١ ـ 33

كان البرتغاليون أول قوة أوروبية تبرز نفسها، ولغتها، عبر المحيط الأطلسي، وبالتالي في العالم ككل. فكان خطهم الساحلي الطويل يتاخم البحر المفتوح ويرتكز عليه، ويبدو أن أساطيلهم لصيد السمك وقراصنتهم، وليس تجارهم، كانوا أول المستفيدين من الاختراعات البحرية العظيمة في القرن الرابع عشر، وهي الدفة المركزية المركبة على عارضة المركب الرئيسية، والبوصلة المغناطيسية، والخريطة البيانية التي تعطي توجيهات محسوبة سلفاً من نقطة إلى نقطة. وقد مكنتهم هذه المخترعات من خوض غمار المحيط الأطلسي على نطاق واسع،

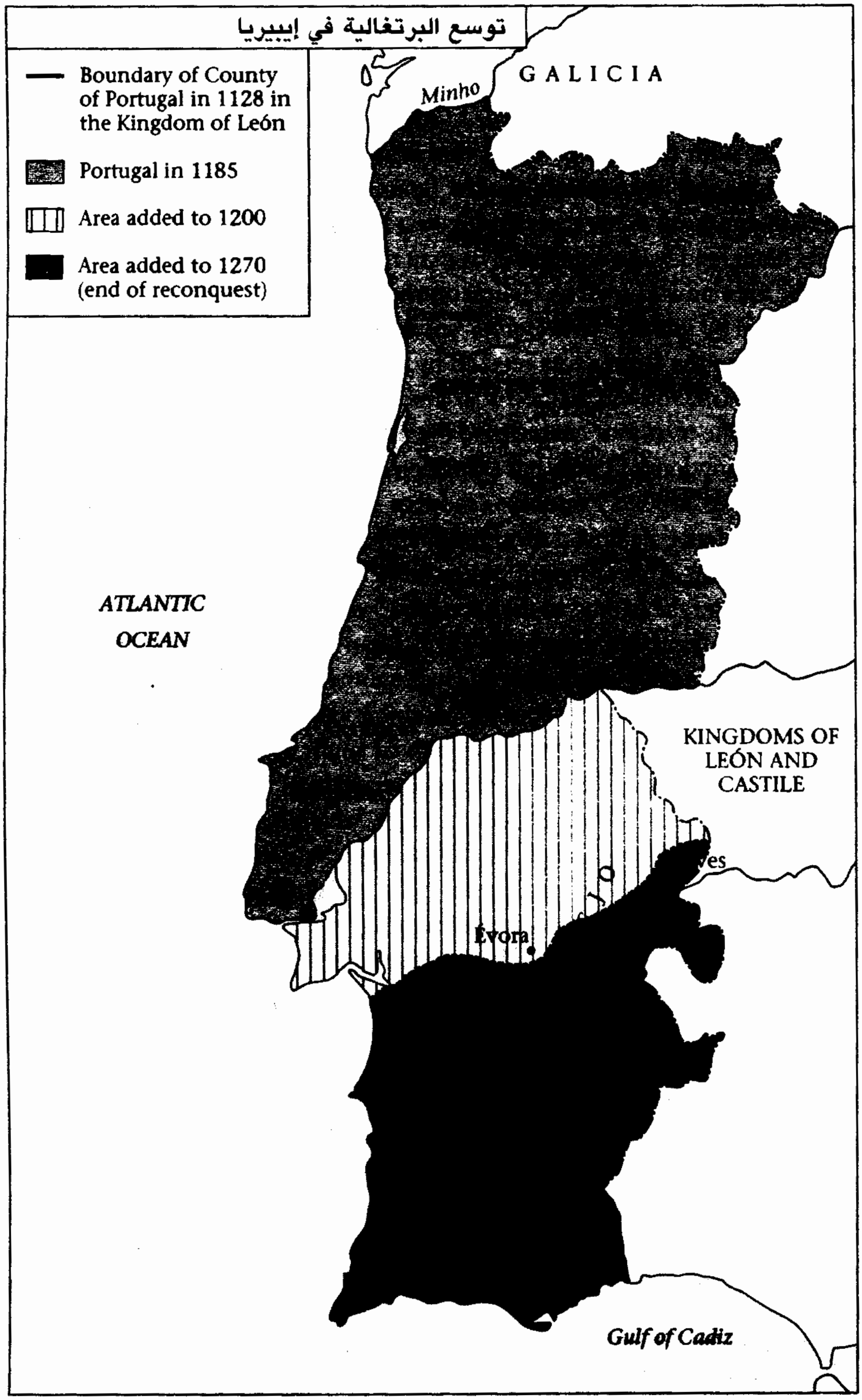
(*) كامويس هو عميد الأدب البرتغالي، وأعماله العظيمة تحتفل بمنجزات البحارة البرتغاليين. واسم "لوسياداس"، رغم أنه يذكر بالإلياذة، يعادل 'البرتغالي'، بمعنى سليل لوسوس، المؤسس الأسطوري لهذا الجنس الذي عاش في لوزيتانيا. وقد ألف هذا العمل في الجزء الأكبر منه في غوا، وهكذا فإنه نتاج أولترامار، وكذلك تمجيد لها واحتفال بها. وقد تم طبعه ونشره في العام 1572.

والإغارة على موانئ سواحل شمال إفريقيا. وبالتدريج صارت هذه قضية هامة للتاج البرتغالي. فغزا خليج سبتة في شمال إفريقيا في العام 1415، واحتل الجزر الرئيسية غير المأهولة في شرقي المحيط الأطلسي مثل ماديرا (أي 'الخشب' أعيدت تسميتها بترجمة برتغالية من اسمها الإسباني السابق "لغنيم" *Legname*) في العام 1419، وجزر الآزور (غوسهوكز) في العام 1427. وبعد ذلك قام الأمير هنري (هنريك الصغير) المعروف بلقب الملاّح، بإرسال سلسلة من الحملات الاستكشافية إلى الجنوب على طول ساحل المحيط الأطلسي، وزرع المستوطنات جنوباً حتى نهر جيبا (في غينيا بيساو الحديثة) على بعد أربعة آلاف كيلو متر (800 فرسخ) إلى الجنوب من لشبونة، قبل أن تحين وفاته في العام 1460.

وكانت اللغة التي يتكلمها جنوده وبحارته (وتجاره) هي اللغة الرومانسية المتميزة المحكية على الجناح الغربي من إيبيريا، وهي من أصل واحد مع اللغة الغاليسية، التي تطورت (ربما من أيام الرومان) بشكل مختلف عن نسخ المركز (القشتالية) والشرق (القطلانية). وكانت ولا تزال تتميز بنطق الحروف الصافرة من الحنك (ش [š] وج [ž] بدلاً من الـ (س) والـ (ز))، وإظهار أصوات الحروف الصافرة عند وقوعها بين حرفي علة، ونطق حروف العلة على نطاق واسع من الأنف عندما يتبعها حرف النون [n] أو الميم [m] (وهاتان الصفتان الأخيرتان هما من خصائص الفرنسية أيضاً). وهي أيضاً تختصر حروف العلة عندما تكون غير مشددة، بل إنها تحذف مقاطع بكاملها.

وهناك مثال يُظهر جزءاً كبيراً مما يميز البرتغالية، وهو ما يعادل عبارة 'أعطني بيضاً حاراً وخبزاً'. فهذه العبارة تلفظ بطريقةٍ مختلفة عما هي باللغة القشتالية.

توسع البرتغالية في إيبيريا



وعلى وجه العموم، فقد صارت أصوات لفظ البرتغالية شديدة الاختلاف عن جارتها اللغة القشتالية، مع نتيجة غريبة هي أن البرتغاليين والبرازيليين لا يزالون بصورة عامة قادرين على متابعة الإسبانية المحكية بينما يعجز معظم الإسبان والناطقين بالإسبانية في الأمريكتين عن اختراق اللغة البرتغالية.

وكان موطنها شريطاً عريضاً من شمال جزيرة إيبيريا إلى جنوبها، وشمل المنطقة المعروفة الآن باسم غاليسيا في إسبانيا الحديثة. وكان المغاربة (الناطقون بالعربية والبربرية) قد استولوا على المنطقة كلها في العام 713، ولكن النصارى أعادوا أخذ الجزء الشمالي إلى دورو عندما اختلف البربر مع العرب في أربعينيات القرن الثامن. وأما باقي المنطقة فقد أخذ يخضع بتدرج شديد على مدى القرون الأربعة التالية للتقدم العسكري لما أصبح مملكة ليون النصرانية. ولكن ملك هذه المملكة قسمها في العام 1128، وخصص المقاطعات التي حول بورتوكال (بورتو الحديثة) لصهره، لأغراض دفاعية ضد تهديد مرهق جديد هو هجوم المرابطين المغاربة من إفريقيا. فثبت أن لذلك التقسيم عواقب طويلة الأمد جداً. فقد استمرت البرتغال، من مينهو إلى مونديغو في سعيها لترسيخ استقلالها الذاتي (1143)، وصار نبلاؤها الدوقات ملوكاً (1179)؛ ولكن طيلة القرن التالي كان توسعها إلى الجنوب فقط (على حساب المغاربة). فقد انقسم البرتغاليون والغاليسيون بشكل دائم، رغم أنهم كانوا ما يزالون يتكلمون اللغة نفسها. فانتقلت العاصمة إلى الجنوب في العام 1248 من بورتو إلى لشبونة (أوليسيبو باللغة الرومانية). ولعل اللهجات البرتغالية قد تلقت تأثيراً من اللغة اللوزيتانية القديمة، التي كانت محكية في جنوب دورو حتى أيام الرومان، وتأثيراً من لغة المستعربين التي تطورت تحت خمسمئة عام من الحكم المغربي. ولكن ليس هناك دليل مكتوب يذكر على الملامح المحلية للغة العامية الدارجة. وقد راحت البرتغالية تظهر على الصفحة المكتوبة من القرن الثاني عشر إلى القرن الرابع عشر، فارتبطت بالشعر الغنائي على نحو خاص، وهو يستخدم لهذا الغرض، حتى من قبل أحد ملوك قشتالة:

وهكذا فإن القديسة ماريا	*E assi Santa Maria*

ساعدت أصدقاءها،	*ajudou a seus amigos*
رغم أنهم كانوا من قانون آخر،	*pero que d'outra lei eran*
على تشتيت أعدائهم،	*a britar seus eemigos*
فرغم أنهم كانوا كثيرين،	*que, macar que eran muitos*
فإنهم لم يعيروهم أي اهتمام،	*nonos preçaron dous figos,*
وهكذا فإن رحمتها	*e assi foi ssa mercee*
صارت معروفة للجميع.	*de todos mui connçuda*

ألفونسو العاشر ملك قشتالة (1221 ـ 1284)، أغانٍ للقديسة ماريا، رقم 181، المقطع الأخير.

من بداية القرن السادس عشر، بدأت هذه اللغة تُسْمَع في جميع أنحاء سواحل إفريقيا وجنوب شرقي آسيا، وللمرة الأولى على شواطئ البرازيل.

إمبراطورية آسيوية

توقف الاستكشاف بعض الوقت بعد وفاة هنري الملاح في العام 1460. ولكن في العام 1488 أنهى بارتولوميو دياز سنوات البرتغال الطويلة من الزحف حول ساحل إفريقيا، بإظهاره أن امتداده إلى الجنوب له نهاية. ومن يعرف ماذا يوجد وراء رأس الرجاء الصالح؟ وكانت هناك فترة قصيرة أخرى، من العام 1488 إلى العام 1498 قبل اتخاذ الخطوة التالية. ولكن قضايا الاستكشاف لم يطوها النسيان. والحقيقة أن البرتغال بدأت في ذلك الوقت بالذات تتحدى حق قشتالة في الأراضي التي اكتشفها كولومبوس حديثاً في رحلته الأولى إلى الغرب (في العام 1492). ولم تتمسك البرتغال بادعائها، ولكنه كان مفيداً جداً في آخر الأمر، لأنه عندما حل النزاع بمعاهدة توردسيلاس (وهي تاردسيلهاس بالبرتغالية) في العام 1494 منحت البرتغال كل الأراضي الواقعة إلى الشرق من خط طول رسم على بعد 370 فرسخاً إلى الغرب من جزر الرأس الأخضر. وهذا في آخر الأمر ضمن حقها في البرازيل.

ولكن هذا الاحتمال لم يَلْقَ سوى تقدير ضئيل، إن كان هناك أي تقدير أصلاً، في حينه. وكان الأغرب من ذلك بكثير، للوهلة الأولى، هو إنجاز فاسكو

دي غاما بعد ذلك، بأربعة أعوام، عندما دار حول الرأس الأخير وأبحر بانتصار وغطرسة في المحيط من بعده، وحقق في آخر الأمر هدف قرن من الملاحة البرتغالية، فاكتشف طريقاً بحرياً إلى الهند. فاتضح أن هذا الإنجاز يحقق أكثر أحلام القرن السابق له إسرافاً، لأنه بالإضافة إلى عثور البرتغاليين على طريقهم إلى الهند فقد اكتشفوا أن لديهم أيضاً قوة كافية لضمان وصولهم المباشر إلى بضائعها الخرافية، وبذلك يكسرون احتكار الوسطاء المسلمين لها على مدى عدة قرون. وبعد ذلك وبصورة سريعة لا تكاد تصدق. وقعت في أحضانهم جائزة عظيمة أخرى. فقد تصرفوا بسرعة شديدة لاستغلال فرصتهم الهندية الجديدة، فتصادف أن اتخذوا طريقاً التفافية حول طرف إفريقيا الجنوبي: فكانت النتيجة اكتشاف البرازيل في 22 نيسان/إبريل من العام 1500. فصارت عندهم قاعدة لإمبراطورية في العالم الجديد، ووصول حصري إلى أفخم سوق باذخة في العالم القديم. كان الحظ يبتسم ابتساماً حقيقياً للمشروع البرتغالي.

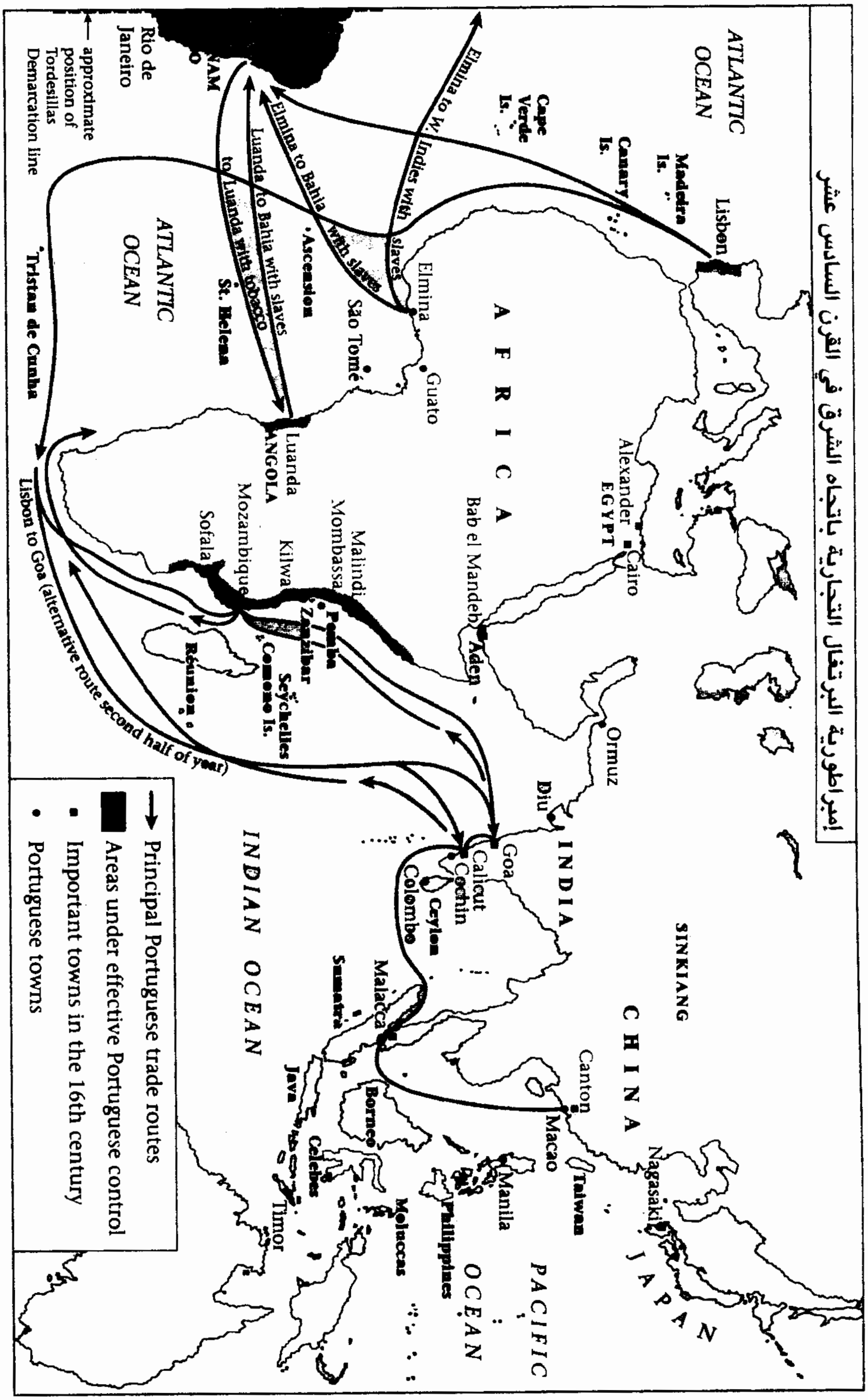
وظل يبتسم طيلة الجزء الأكبر من باقي القرن السادس عشر، وعند نهايته، كانت هناك مستوطنات برتغالية تجارية مربحة، محمية بقلاع وأساطيل، على طول ساحل المحيط الهندي، وفي النقاط الاستراتيجية فيما وراءه، في الملايو وبحار الصين الجنوبية. وكانت هناك سبع مستوطنات في إفريقيا الشرقية، وستٌّ على خليج عُمان، وخمس عشرة على ساحل الهند الغربي، وأربع في سيلان، واثنتان على ساحل الهند الشرقي، بالإضافة إلى ملقا، ومكاسّار، وتيرنيت، وتيدور، وتيمور، وماكاو، التي كانت كلها ممتلكات برتغالية. ورغم أن البرتغاليين لم يحققوا الاحتكار التجاري الكامل الذي كانوا يسعون إليه، فإن المحيط الهندي ظل بعد ذلك لمدة قرن أو قرنين بحيرةً برتغالية تقريباً. ومثل الفينيقيين والإغريق في الألف الميلادي الأول، فإنهم لم يحاولوا السيطرة على الأراضي الداخلية.

ولكنهم على عكس الفينيقيين والإغريق، كانوا مهتمين بشيء بعيد عن الربح والمغامرة: فبعد التوسع العسكري والتجاري جاء الدافع للتنصير الديني، فأقيمت أسقفيات كاثوليكية في موزامبيق في العام 1512، وفي غُوَا في العام 1534، وفي كوشين العام 1558، وفي ملقا في العام 1558 أيضاً، وفي ماكاو في العام 1575،

وفي مليابور (في شرقي الهند) في العام 1606، بل كانت هناك محاولة لنشر العقيدة بعيداً عن مأوى المواقع التجارية البرتغالية الآمنة، في إثيوبيا في العام 1555، وفي فوناي (أي اليابان) في العام 1588، وتونكين (أي فيتنام) في العام 1659. ومثل أبناء عمومتهم الإسبان في ذلك الوقت في مناطق العالم الجديد الأكثر انكشافاً وتعرضاً للعطب، كان البرتغاليون مصممين على تبرير إيمان البابا بهم، وعلى تبرير إيمانهم بالدين المسيحي.

وإلى جانب المحاولة المتعمدة لنشر كلمة الله، كان البرتغاليون يحاولون بشكل حتمي أيضاً أن ينشروا كلمتهم هم. وكانت الآثار اللغوية لهذا التوسع الذي تقوده التجارة وتعززه العقيدة معقدة. ولكنها تعطي تذوقاً مسبقاً لنوع الانتشار الذي سيولده هذا الاستعمار المحمول بحراً عندما بدأت الأمم الأوروبية الأخرى تأتي في أعقاب البرتغاليين.

فأولاً وقبل كل شيء، كانت البرتغالية هي اللغة المستعملة في القلاع والوحدات التجارية التي أقيمت كوكالات دائمة، ومجتمعات صغيرة من المهاجرين في مدن الموانئ وما حولها. ولم يكن هذا مهماً بحد ذاته، فبعد كل شيء، فإن المهاجرين يستمرون حتماً باستعمال لغتهم الخاصة بهم مع بني جنسهم، ثم يورثونها لبعض أطفالهم وخدمهم على الأقل عندما يرسخون أنفسهم في بيوت يستقرون بها في مواطنهم الجديدة، وخاصة عندما يحافظون على اتصال منتظم بمواطنيهم - وكانت المتاجرة مع أوروبا هي سبب وجود كل هذه المستوطنات البرتغالية بذاته، وحيث تمت المحافظة عليها بشكل فعال ضد منافسة متصاعدة، حتى منتصف القرن السابع عشر (وقد استمرت هذه الرحلات إلى الهند بمعدل خمس سفن سنوياً من العام 1550 إلى ثلاثينيات القرن السابع عشر)[1]. وإن قيمة الصدمة المبكرة لوصولهم والنفوذ المرافق لهم ربما شجعت الآخرين لفترة ما على الارتباط بهم، والتعلم منهم. وبالطريقة نفسها، أثبتت المسيحية أنها جذابة جداً مدة الجيلين الأولين بعد أول تبشير بها في آسيا، ولكن هذا النمو سقط وتلاشى بعد أن صارت المسيحية معروفة جيداً كالمؤسسات الهندوسية، والبوذية، والإسلامية التي كانت تحاول أن تحل محلها.



إمبراطورية البرتغال التجارية باتجاه الشرق في القرن السادس عشر

غير أن البرتغالية انتشرت من هذا الأساس المحلي الأصلي كأداة للتجارة والاتصالات الدولية، أي كلغة مشتركة. وعندما انتشرت المستوطنات البرتغالية على نطاق واسع في البقاع التي يسهل الوصول إليها من سواحل إفريقيا وآسيا، كان من الحتمي أن يبدأ شركاؤها التجاريون والمرتبطون الآخرون بها باكتشاف فائدة إضافية نافعة أخرى في اللغة التي حصلوا عليها لتسهيل الاتصالات والعلاقات مع البرتغاليين. وهذه الفائدة هي التعامل مع آخرين من شركائهم والمرتبطين بهم - الذين قد لا يملكون لغة أخرى مشتركة معهم. والحقيقة أن هذه الفائدة للغة البرتغالية عاشت أطول من سيطرتها التجارية بمئة عام على الأقل، فاستمرت حتى القرن الثامن عشر، عندما ارتأى رجل فرنسي 'أن تجار الهندوس، والمغاربة، والعرب، والفرس، والبارسيين (الزرادشتيين)، واليهود، والأرمن الذين يتاجرون مع المعامل الأوروبية وكذلك السود الذين يرغبون في العمل كمترجمين، كلهم ملزمون بتكلم هذه اللغة؛ وهي تعمل أيضاً كواسطة اتصال بين الأمم الأوروبية المستقرة في الهند'[(2)].

وفي العام 1551، كان الإنكليزي توماس ويندهام يزور ساحل الذهب مع مرافق برتغالي هو أنطونيو بينتيدو، فوجدا أنهما يمكن أن يتحدثا بالبرتغالية مع ملك بنين، والذي كان يعرفها منذ طفولته[(3)]. وفي العام 1600، عندما استقبلت اليابان أول زائر إنكليزي على الإطلاق، وهو القبطان ولْ آدامز، لم يستطع التواصل إلا عندما دبر مضيفه المندهش طوكوغاوا إياسو العثور على مترجم ناطق بالبرتغالية[(4)]. وفي العام 1606 فإن الأخ غاسبار دي سان برناردينو عندما اضطر إلى النزول في فارس بسبب نقص المياه، أصيب بالذهول عندما خاطبه القائد العسكري المحلي بالبرتغالية قائلاً: 'أيها الأب، ما الذي جاء بك إلى هذه الأرض بعيداً عن الهند إلى هذا الحد؟'[(*)]. وفي العام 1638 كتب رحالة آخر: 'نادرون هم زوار غومرون[(**)]، ولو أنهم في الغالب من الفرس، والعرب، والهنود، الذين لا يتكلمون البرتغالية ولا يفهمونها، من التجارة التي كانت لهم مع

(*) القصة مذكورة في كتابه: تفاصيل رحلة إلى الهند عن طريق البر، مقتبسة في كتاب لوبيز (1936)، ص 33 - 35.

(**) هي الآن بندر خميني، على مضيق هرمز.

البرتغاليين في السنين الماضية، وعندما كان البرتغاليون يسيطرون على مدينة هرمز زمناً طويلاً'[5]. وبعد ذلك بقليل، عند منتصف القرن السابع عشر كان ملوك سيلان وأراكان، على الجانب الآخر من خليج البنغال (بورما الشمالية) يصرون على استخدام البرتغالية للمراسلة مع الهولنديين - رغم أن إمبراطور كاندي، راجاسينا الثاني كان يعرف الحقيقة متحالفاً معهم ضد البرتغاليين.

وسرعان ما حولت البرتغالية نفسها من لغة مشتركة مفيدة للأمراء ونخبة الرحالة إلى لغة مفهومة بصورة عامة لطبقة الخدم وأوائل المعتنقين للمسيحية (الذين كانوا غالباً من الطبقة نفسها). وفي تلك الأيام المبكرة، ربما كانت عبارات قليلة بالبرتغالية هي كل ما يكسبه المتنصرون. وإن فرنايو منديز بينتو، في زيارته لمدينة في جنوب الصين، قابل امرأة ترتدي فستاناً من الحرير الصقيل كانت تنتقد شرور الرحلات البحرية الطويلة بحماسة شديدة، ثم رفعت كمها لتكشف عن صليب أنيق كوي على ذراعها:

> .... صرخت ورفعت يديها إلى السماء قائلة بصوت عال:
> يا أبانا الذي في السماوات، ليتقدس اسمك...
> وقالت ذلك باللغة البرتغالية، ثم عادت إلى التكلم بالصينية، لأنها لم تكن تعرف من البرتغالية غير تلك الكلمات، وضايقتنا بطلبها كي نقول لها إن كنا مسيحيين.

وتابعت كلامها لتكشف أنها قد ورثت العقيدة عن أبيها الذي مارسها سبعة وعشرين عاماً، فقام بتنصير ثلاثمئة شخص، وأنهم كانوا يجتمعون للعبادة في منزلها كل يوم أحد[6].

أما الهولنديون، القوة الرئيسية التي خلفت البرتغاليين في المنطقة، فقد قبلوا الأمر الواقع اللغوي كما وجدوه. وفي العام 1692 طلبوا من القساوسة الواصلين إلى مدراس أن يتعلموا البرتغالية في غضون سنة من وصولهم بالإضافة إلى اللغة المحلية في أماكن إقامتهم (وهي عادة لغة التاميل) 'كي يتمكنوا من تدريس الديانة البروتستانتية للوثنيين الذين هم خدم أو عبيد للشركة أو لوكلائها'[7]. وفي العام

1704، لاحظ كورنيليوس جان سيمونز، حاكم سيلان (التي هي سريلانكا الآن) أن المتكلم بالبرتغالية يمكن فهمه في أي مكان على تلك الجزيرة. وفي عام 1807، كتب المبجّل جيمس كوردينر في كتابه "وصف سيلان": 'إن تحريفاً للغة البرتغالية لا يزال محكياً في جميع أنحاء السواحل البحرية. وتعلمها سهل جداً، وتثبت بأنها ذات منفعة عظيمة للرحالة الذي ليس لديه الوقت لدراسة لهجة الأهالي الأصليين لأنها أصعب'(*).

ومن المفارقات أن واحدة من أقوى قلاع اللغة البرتغالية كانت عاصمة القوة الهولندية نفسها في باتافيا على جزيرة جاوة. وقد كتب جين برون في العام 1675 أنه من أجل الوعظ التبشيري بسيرة السيد المسيح 'كانوا يحصلون على أناجيل برتغالية وكتب للعبادة باللغة البرتغالية واللغات الهندية، ويرددون التعاليم الدينية بهذه اللغات، لأنها مفهومة عند معظم الهنود.....'[8]. وفي العام 1708 ناشد الأساقفة البروتستانت الحاكم العام أن يُبقي على الاستخدام الحصري للبرتغالية في بعض الكنائس، قائلين في طلبهم:

> إن اللغة البرتغالية هي لغة كل يوم واستعمالها مألوف لدى العبيد في العائلات السيلانية والتي من ساحل [كوروماندل]، ولدى كل أسياد العبيد، وأطفالهم في تعاملهم اليومي مع العبيد، والمسيحيين من السكان الأصليين، ولدى الأشخاص القادمين من سيام، وملقا، والبنغال، وساحل كورومانديل، وجزيرة سيلان، وساحل مالابار، وسورات، وحتى من بلاد فارس؛ كما أن الوثنيين القيابيين الذين يسكنون في هذه المدينة ويتاجرون مع النصارى أو عبيدهم يتعلمون التكلّم بالبرتغالية[9].

ولكن اللغة غيرت توزعها، فتحولت إلى عامية دارجة. ولا يزال شيء من البرتغالية يُسمع في معظم أنحاء هذه المنطقة حتى اليوم. ولكن في خارج معظم

(*) صارت لغة التخلف الأوروبية في جزر الهند الشرقية، وكذلك في جاوة الغربية على ما يظهر، وفي منطقة برينجر، وحتى الهولندية كانت تعرف شعبياً باسم البرتغالية الدارجة *basa Perteges*، وهذا خلط لغوي مثير للاهتمام لتسميات في غير محلها. فكلمة *basa* أصلها ملايوي مشتق من السنسكريتية *bhasa*، كما أن كلمة *Perteges* محرفة عن كلمة *Portugues* التي معناها "برتغالي" (مذكورة في كتاب لوبيز: 1936، ص viii).

مستعمرات البرتغال الهامة الطويلة الأمد (أنغولا وموزامبيق في إفريقيا، وغوا في آسيا) فإن اللغة صارت صيغتها مهجنة متأثرة كثيراً باللغات المحلية المنافسة لها. وعلى سبيل المثال، ففي البرتغالية ـ الهندية التي لا تزال محكية في مجتمعات متفرقة على طول ساحل مالابار لشبه القارة، من دامان وديو في ولاية غوجارات إلى سريلانكا في الجنوب، فإن حرف العلة الطويل المركب ei الغائب من اللغات الهندية، قد اختصر إلى حرف e فقط، وهو مختلف جداً عن البرتغالية الحديثة، حيث يلفظ على شكل [ai][*]. والتغيرات الصرفية المعقدة الموروثة من اللاتينية حلت محلها تراكيب أقل تعقيداً. ففي منطقة ديو فإن كلمة 'كلب' لا تزال *cão*، وكلمة 'ابن' لا تزال *filho* ولكنهما في الجمع صارتا الآن *cão-cão* وfi-fi بدلاً من *cães* و *filhos*. كما أن أزمنة الفعل صارت معربة، كما في الفعلين 'أنا ذاهب' و'سوف أذهب' و'أنا أكلت' و'سوف آكل' بدلاً من الصيغة القياسية الجامدة السابقة (وغير المنتظمة) *vou,comi,irei*. وفي سريلانكا استوعبوا حتى استخدام حروف الجر من اللغتين السنهالية والتاميلية، كما في المثال 'جئت عن طريق البر'[10]. وهناك تنويعات مماثلة من البرتغالية المتحولة لا تزال محكية في ملقا وماليزيا (حيث تعرف اللغة باسم كريستانغ، مما يشير إلى ظلال من المعاني الدينية، مستمدة من كلمة "كريستا" البرتغالية، التي معناها 'مسيحي' في كل من ماكاو في الصين الجنوبية وتيمور عند أقصى الحافة الجنوبية من جزر الهند الشرقية.

أما النوع الثالث من انتشار البرتغالية، وهو النمط الأهم الآن، فقد حدث عندما تم الأخذ بها، بدون أي تغيير جوهري، من قبل سكان جدد، وقد بدأ ذلك يحدث لتوه في أنغولا وموزامبيق (حيث تقول التقديرات إن عدد الناطقين الأصليين بلغة 'لوسوفون' هم 57,600 وأكثر من 30,000 على التوالي، أي 0.5 بالمئة و0.2 بالمئة من مجموع السكان في سبعينات القرن العشرين وثمانينياته ـ

(*) بالمقارنة مع اللهجات الإنكليزية، فإن البرتغالية - الهندية تلفظها E كما في الاسكتلندية الصافية لكلمة Edinburgh، وأما في البرتغالية القياسية فهي أقرب إلى لفظ حرف العلة في وسط كلمة mate في لهجة الكوكني السائدة في أحياء لندن الفقيرة.

ولكن مصادر أحدث تقترح 30 بالمئة و6 بالمئة. في كلا البلدين هناك 30 بالمئة الآن يعرفون البرتغالية أيضاً كلغة ثانية)[11]. وهناك أيضاً بقية صغيرة من البرتغالية في غُوَا(*). ولكن حدث بطريقة فيها انتصار أن البرازيل، أكبر مستعمرات البرتغال، يصل عدد سكانها الآن إلى 166 مليوناً، أن 95 بالمئة منهم، أي 158 مليوناً، لغتهم الأولى هي البرتغالية. ومعنى ذلك أن الناطقين بها في البرازيل الآن يفوق عددهم سكان البرتغال نفسها بنسبة ستة عشر إلى واحد.

البرتغالية في أمريكا

إذن، فكيف تمت زراعة هذه اللغة بشكل فعالٍ في البرازيل ولكن ليس في أي مكان آخر؟ إن الأسباب تاريخية طبعاً، ولكنها سياسية أيضاً، واقتصادية قبل كل شيء. وباختصار، فإن البرازيل كانت المستعمرة الوحيدة التي وجدت البرتغال فيها مصدراً هاماً للإثراء كان جذاباً للمهاجرين، ولم تجد فيها قوة سابقة ذات قدرة كافية لمقاومة السيطرة البرتغالية.

من المؤكد أن الهند كانت مصدراً للإثراء من المتاجرة بسلسلة واسعة من السلع. ولكن القوى المحلية التي واجهها البرتغاليون هناك قاومت بشكل فعال أي انطلاق للبرتغاليين من مستوطناتهم على السواحل. وفي سريلانكا، المعروفة عندهم باسم "سيلاو"، كانت للبرتغاليين في بعض الأوقات سيطرة فعالة، وكان بمقدورهم أن يرسخوا وجودهم، وربما وجود لغتهم في المدى الطويل لو لم يسارع الهولنديون إلى طردهم. وعلى مبعدة إلى الشرق، في جزر الهند الشرقية، بحث البرتغاليون عن الربح من المتاجرة بالتوابل، ولكن أرضية سوق هذه السلع تقوضت بسرعة كبيرة. وعلى أية حال، فإن من الممكن المجادلة ـ ليس على الأقل من مقارنة مصير الإمبراطوريات الأوروبية في آسيا ـ بأن نوعية الإثراء المستمد من المتاجرة مع هذه البلدان لم تكن لتجتذب أعداداً كبيرة من المهاجرين، وبالتالي أن تبني مجتمعاً كبيراً ناطقاً باللغة البرتغالية. فالتجارة

(*) ومع ذلك فقد أعلنوا في العام 2000 أن اللغة الرسمية للدولة هي الكونكانية، وهي لغة آرية لها علاقات قرابة مع الماراثية والهندية.

تتطلب رأس مال، أو على الأقل قوة عسكرية هامة لفرض الشروط؛ ونتيجة لذلك تملك الحكومات والمنظمات الواسعة النطاق ميزة ساحقة. وحيثما تكون التجارة، وليس الإنتاج، هي مصدر الثروة، فإن الطريقة الوحيدة لإشراك أعداد كبيرة من المهاجرين وعدد قليل من الأشخاص الخارجيين في العملية هي أن يصحبوا قراصنة.

وفي إفريقيا، كانت للبرتغال مستوطنات صغيرة على طول الساحل الغربي منذ القرن الخامس عشر، كموانئ انطلاق لتسيير السفن إلى الهند. ورغم ذلك لم يتم اكتشاف أي مصدر للإثراء أبداً سوى تجارة العبيد. فلم تجتذب هذه المستوطنات أبداً أعداداً كبيرة من المستوطنين الناطقين بالبرتغالية. ولكن هذه التجارة أسهمت بقوة في نشر البرتغالية في أمريكا الجنوبية في إحدى المراحل. فمن بين عشرة ملايين عبد إفريقي شحنوا إلى الأمريكتين بين العامين 1526 و1870، أُرسل 3.6 ملايين إلى البرازيل وحدها[12]، وذلك لتقديم قوة عاملة في مزارع السكر في أول الأمر، ثم في مزارع القطن والتبغ فيما بعد. ومثل المشاريع الاقتصادية الأخرى القائمة على تسخير الأرقاء في الأمريكتين، فإن الأفارقة لم يستطيعوا أن يجلبوا معهم لغاتهم. فكانت اتصالاتهم قليلة جداً مع جيرانهم السابقين بحيث لم يستطيعوا التكلم بلغاتهم، لأن أسواق الرقيق وزعتهم على جميع أنحاء المستعمرات من دون أي اعتبار لأصولهم، وهكذا أجبروا على تعلم لغة أسيادهم الجدد. وكثيراً ما صار أولئك الأسياد أنفسهم أيضاً هم آباء أطفالهم. وفي غضون أجيال قليلة أصبح معظم السكان ذوي دماء مختلطة، ومع ذلك لا يتكلمون إلا البرتغالية.

كما أن هجرة البيض إلى البرازيل كانت أكبر منها إلى أي مكان آخر من الممتلكات البرتغالية. ومنذ وقت مبكر، فإن البلاط البرتغالي وشعبه لم يبديا كبير اهتمام بمستعمرتهم الأمريكية، لأنها ـ بطريقة غير مفهومة ـ لم تقدم أي شيء وفير كالذهب والفضة التي كان الإسبان يستخرجونهما من مستعمراتهم في المكسيك وبيرو.

ولكن الاهتمام المعادي الذي أظهرته القوى الأوروبية الأخرى، والجهد

المطلوب لكبحها، ركزا في البرتغال شعوراً بأن هناك شيئاً يستحق الامتلاك. فقد احترم الإسبان الحقوق البرتغالية بموجب معاهدة توردسيلاس في العام 1494 ـ بل إن إسبانيا والبرتغال كانتا متحدتين تحت حكومة (إسبانية) واحدة من العام 1580 إلى العام 1640 ـ ولكن القوى الأخرى التي لم تكن طرفاً في تلك المعاهدة كانت أكثر خطراً. فقد شكل الفرنسيون التحدي الأول في العام 1555 بغارات ومحاولات للاستيطان استمرت بإلحاح حتى العام 1615. ثم جاء التحدي الإنكليزي (الأقل خطراً) من العام 1582 إلى العام 1595. وكان الهولنديون هم الأكثر عدوانية. فبعد هجمات غير مجدية في العام 1598 ـ 1599، نجحوا من عشرينيات القرن السابع عشر إلى العام 1641 في الاستيلاء على كل الجزء الشمالي الشرقي من البرازيل، من ساو لويس إلى أراكاخو، وظلوا مسيطرين عليه إلى العام 1654. بل لقد استولوا لفترة قصيرة في العام 1624 على قلب المستعمرة البرتغالية نفسه، أي على عاصمتها الأولى بايا (التي تسمى أيضاً سالفادور). ويبدو أن البرتغاليين لم يجدوا التصميم، وبالتالي الموارد، لاسترداد ما خسروه إلا بعد أن أقرّوا في آخر الأمر بخسارة معظم مستعمراتهم في الهند وما وراءها. (بل إن هذه أصبحت ـ كما سنرى ـ هي الهدف التالي للهولنديين).

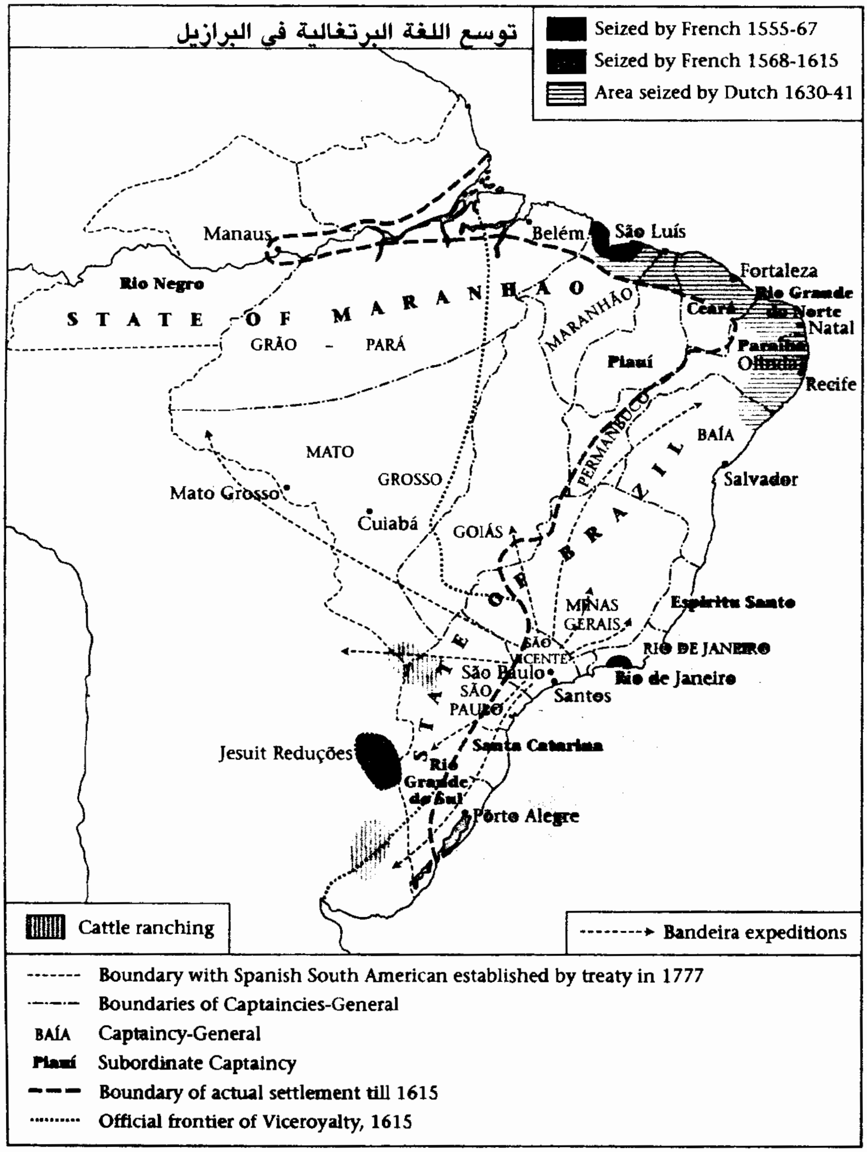
وكانت سلسلة من الحملات القوية التصميم قد رسمت خرائط لمعظم القسم الداخلي من هذه المنطقة عند حلول منتصف القرن السابع عشر. وقد عرفت تلك الحملات باسم 'الأعلام' وكان دافعها الملهم لها هو البحث (غير المجدي على الأغلب) عن الذهب والفضة، والمجوهرات، أو أسر السكان الأصليين واستعبادهم كرقيق. وكان نجاحها الرئيسي يكمن في استباق تخطيط الحدود مع المستعمرات الإسبانية التي كانت تتعرض لاستكشاف أقل فعالية، من الجانب الآخر من القارة. (وقد تم الاتفاق على الحدود فعلياً بعد ذلك بمئة عام في معاهدات مدريد في العام 1750، وباردو في العام 1761 وإلديفونصو في العام 1777 التي حذفت الخط الوهمي لمعاهدة توردسيلاس في آخر الأمر).

ورغم هذه الاستكشافات، فإنه حتى النصف الثاني من القرن السابع عشر

كان البرتغاليون الوحيدون الذين استوطنوا على بعد أكثر من 400 كيلومتر من الساحل هم المبشرين، وخصوصاً اليسوعيين. وكما في المستعمرات الإسبانية، فقد وجدوا أن من الأسهل أن يعظوا بلغة غير لغتهم، وأطلقوا على معظم اللغات المحلية لقب 'الألسنة المقيدة'، مما يوضح أنهم لم يكونوا متحمسين لها. وفي موعظة مشهورة لتوديع بعثة من المبشرين عند مغادرتها إلى العالم الجديد في العام 1657، قال الأب أنطونيو فيريا إنه سمع شخصاً يطلق على الأمازون لقب "نهر بابل" لأن فيه ثمانين لغة: 'فكيف يجب أن يكون تعلم لغات نينغيبا، أو جورونا، أو تاباخو، أو تيرميمبي، أو مامايانا التي يبدو أن أسماءها نفسها مرعبة؟ ... لقد أعطى الله الرسل ألسنةً من نار، ولكنه أعطى خلفاءهم ناراً من الألسنة. وقد انتهى دور ألسنة النار، لكن دور نار الألسنة لم ينته، لأن هذه النار، وهذه الروح، وهذه المحبة لله تجعل المرء يتعلم هذه اللغات، ويدرسها ويعرفها'[13].

ورغم كل هذا الربط الحماسي المندفع بين تعلم اللغات ومحبة الله (أو مخافته)، فقد تبين في البرازيل أن توبينامبا (وهي لغة شديدة الصلة بلغة غواراني في بيرو) يمكن استخدامها في كل مكان (انظر الفصل العاشر: 'الصراعات الماضية: كيف انتشرت اللغات الأمريكية'، ص 484)، وصارت تدعى "اللغة العامة". وفي أوائل أيام المستعمرة، كانت هي وسيلة الاتصال الرئيسية مع الأهالي الأصليين. وقد كتب شاهد يسوعي في حوالي العام 1560: 'إن جميع الذين يأتون إلى المملكة تقريباً ويستقرون فيها ويتواصلون مع الهنود يتعلمونها في غضون وقت قصير. كما أن أولاد البرتغاليين الذكور والإناث الذين يولدون هنا يعرفونها أكثر من آبائهم، وبشكل رئيسي في قيادة مقاطعة ساو فيسينت'[14].

وقد نظم اليسوعيون الهنودَ في قرىً ومناطق محمية، وبذلك قاوموا تغلغل المزيد من المستوطنين البيض. وقدِّر لهذه المقاومة للتطور الاستعماري المحدد في المناطق الداخلية أن تستمر إلى منتصف القرن الثامن عشر. فكان من نتائجها أن استعمال البرتغالية ظل محصوراً في المقاطعات الساحلية أثناء القرنين الأولين من وجود المستعمرة. ولم يفقد اليسوعيون قدرتهم على حماية



توسع اللغة البرتغالية في البرازيل

الهنود وتنظيمهم بهذه الطريقة إلا في العام 1759 عندما جُرِّدوا من سلطاتهم وأبعدوا من البلد(*). وبالإضافة إلى ذلك فإن الاستمرار في استخدام 'اللغة العامة' قد تم حظره في الوقت نفسه.

(*) كان هذا جزءاً من التأثير العالمي لعصر التنوير على الحكومات الكاثوليكية (انظر الفصل العاشر: 'حل الدولة: اعتماد الإسبانية'، ص 514).

ولكن البرازيل كانت قد أصبحت إمكانية أكثر جاذبية للمستوطنين. فبعد إعادة تعزيز السلطة البرتغالية في العام 1654، تمت سلسلة من التطورات الاقتصادية قدمت في آخر الأمر حافزاً لهجرة واسعة النطاق من أوروبا ولانتشار اللغة البرتغالية معها. وتم العثور في أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر على طبقات أرضية فيها خامات الذهب، والزمرد، والماس وغيرها من الأحجار الكريمة، وبشكل رئيسي في المنطقة الجنوبية الوسطى التي صارت تعرف منذ ذلك الحين باسم المناجم العامة. ولكن عثر على هذه النفائس أيضاً في المنطقة الداخلية، في بايا، وغوياس، وماتوغروسو. فكانت النتيجة أول هجمة عالمية على الذهب جاءت على الأغلب من البرتغال، وجاء بعدها في القرن الثامن عشر اقتصاد وعائدات حكومية تم بناؤهما على الذهب بشكل آمن. وعندما نضب الذهب في آخر ذلك القرن حلت محله أرباح التصدير من مزارع تربية المواشي، وخاصة من بيع الجلود المدبوغة، وهي صناعة استفادت من فتح مروج الرعي الشاسعة في تلك المناطق الجنوبية والوسطى نفسها.

فكانت النتيجة زيادة في عدد السكان الناطقين بالبرتغالية في البرازيل، وهي زيادة تمت المحافظة عليها وتغذيتها فيما بعد. وقد جاءت من الهجرة (بما في ذلك استيراد العبيد) ومن النمو الطبيعي. وبعد أن كان ذلك النمو يشكل أقل من مئة وخمسين ألفاً في العام 1650، صار يزيد على مليون ونصف المليون عند حلول العام 1770، وذلك في فترة كانت فيها بقية الأمريكتين (الناطقتين بالإسبانية والإنكليزية معاً) قد ضاعفت عدد سكانها فقط. وفي الفترة نفسها صارت البرازيل تضم الدرجتين الثانية والثالثة من أكثر المدن ازدحاماً بالسكان الناطقين بالبرتغالية في العالم كله. فكانت لشبونة وحدها هي المدينة الأكثر سكاناً من بايا (سلفادور) وريو دي جانيرو. وهذا التدفق من المهاجرين الأغنياء والكثيري التوالد من أوروبا، والذي عزز تدفق العبيد المقتلعين من جذورهم الإفريقية، شكل زحاماً حاشداً أزاح لغة توبينامبا العامة السابقة، واقتلع معها اللغات الصغيرة التي كانت تتكلمها فرادى القبائل. وأظهرت تقديرات العام 1985

أن عدد البرازيليين الناطقين بلغات أصلية لم يكن يزيد على مئة وخمسة وخمسين ألفاً، أي بنسبة تقرب من شخص واحد في مقابل كل ألف من الناطقين بالبرتغالية[15].

إذن، فإن نمو البرتغالية إلى مكانتها الحالية في آخر الأمر (176 مليون ناطق أصلي، مما يجعلها في المرتبة السابعة في العالم، تسبق الألمانية، والفرنسية، واليابانية) مدين بكل شيء تقريباً للنمو الاقتصادي، وتكاثر السكان التالي له في البرازيل على مدى القرون الثلاثة الماضية، وليس مديناً بشيء يذكر للانتشار من البرتغال كلغة للإرادة الاستعمارية أو كلغة مشتركة في آسيا، فهاتان الحالتان كلاهما بلغتا الذروة قبل أكثر من أربعمئة عام.

المتطفلون الهولنديون

جاء سيدجا إلى باتافيا. فطلب من رجل لطيف أن يستخدمه ليعمل عنده، فأجابه الرجل اللطيف إلى طلبه حالاً، لأنه لم يكن يفهم لغة سيدجا. لأن الناس في باتافيا كانوا يحبون الخدم الذين لم يكونوا بعد يتكلمون الملايوية، وبذلك فإنهم ليسوا فاسدين كالذين طال اتصالهم بالحضارة الأوروبية. وقد تعلم سيدجا الملايوية بسرعة، ولكنه كان حسن السلوك ...

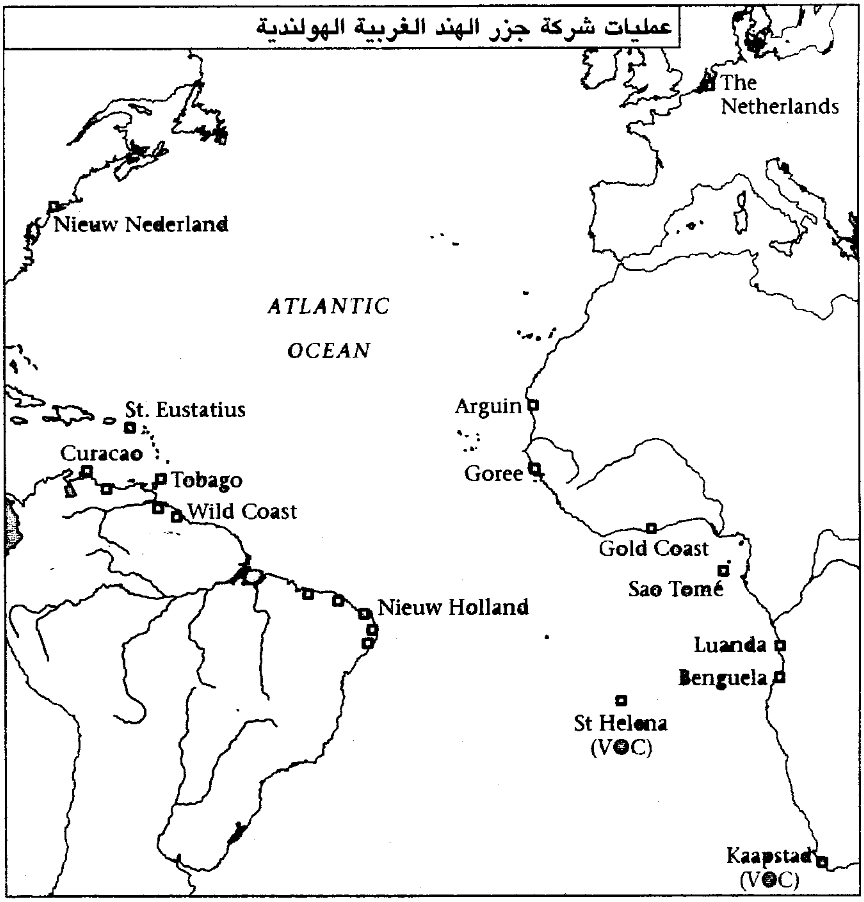
مولتاتولي، ماكس هافلار (أمستردام 1860) الفصل 17

انتهت حصة التموين، ولم تهزم بالمبانغ.

مَثَلٌ من الملايو(*)

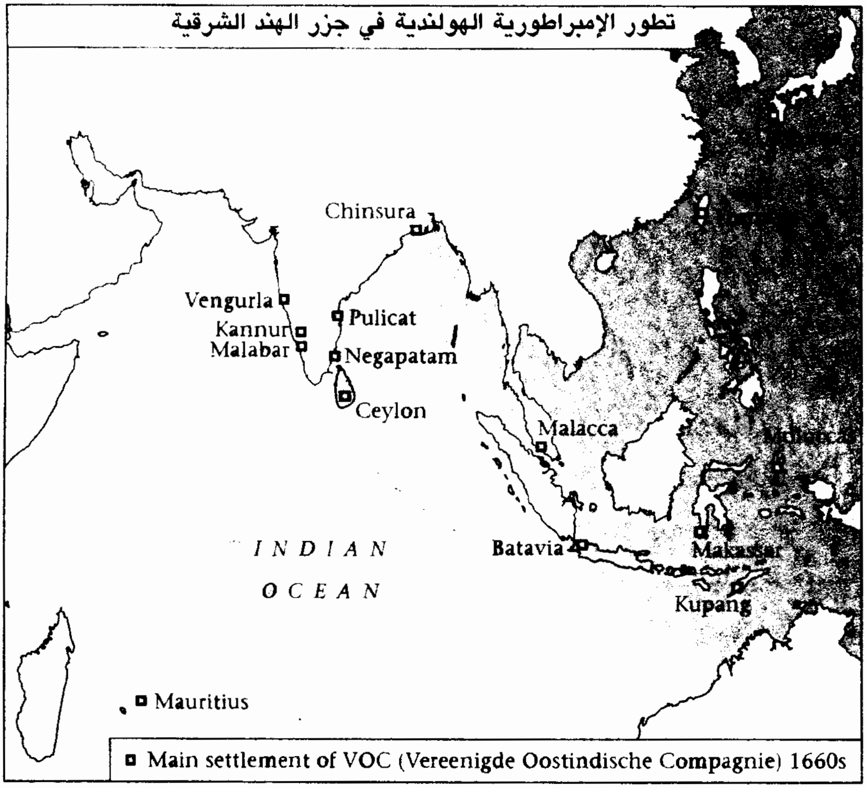
بعد مئة عام من الاستقرار، من منتصف القرن السادس عشر إلى منتصف القرن السابع عشر، خسرت البرتغال إمبراطوريتها التجارية بسرعة تكاد تعادل سرعة إقامتها. ويرجع ذلك بشكل حاسم إلى جهود قوة أوروبية صغيرة أخرى هي

(*) كانت بالمبانغ في سومطرة المدينة الرئيسية لسري فيجايا، الدولة القديمة المرجح أنها المسؤولة عن نشر اللغة الملايوية في أسواق جزر الهند الشرقية. ويقال إن هذا المثل عن الجهود الضائعة يشير إلى المحاولة الهولندية الفاشلة للسيطرة على بالمبانغ، التي كانت في حينها مصدراً أساسياً للفلفل (هاملتون 1987، ص 60).



هولندا(**). فقد جرد الهولنديون البرتغال بسرعة من مصادر دخلها الآسيوية، وصاروا شيئاً راسخاً في جزر الهند الشرقية لمدة ثلاثة قرون. ولكن في تاريخنا للغات العالم لا يلعب الهولنديون سوى دور سلبي. فسيرة الحياة الهولندية تبين أن قوة استعمارية أوروبية ناجحة يمكن مع ذلك أن لا تترك أي أثر لغوي يذكر في ممتلكاتها ـ وهذا في الحقيقة دليل آخر على أن نبريجا كان مخطئاً.

(*) كان لكل من هولندا والبرتغال عدد يتراوح بين مليون وربع ومليون ونصف من مواطنيهما في جزر الهند الشرقية في القرن السابع عشر (بوكسر 1969، ص 114).



إن سيرة حياة الإمبراطورية الهولندية بدأت في مواجهة ظروف غير مؤاتية، وكانت تقريباً بمثابة خط جانبي للنشاط التجاري، أثناء حرب الاستقلال عن إسبانيا التي خاضها الهولنديون بشكل متقطع استمر من العام 1568 إلى العام 1648. ولكنها في الحقيقة أتاحت لسكان مدن الجمهورية الجديدة من المقاطعات الهولندية المتحدة حرية كبيرة للعمل اعتباراً من العام 1588. ورغم الأوقات الحرجة والمضطربة، فإن تزويد أوروبا الشمالية بسلع الرفاهية الباذخة (من آسيا على الأغلب وفي حالات كثيرة بإعادة تصديرها من البرتغال) صار مضرب المثل في 'التجارة الغنية' للتجار الهولنديين في العقد الأخير من القرن السادس عشر. ثم في العام 1598 تمت مقاطعة التجار الهولنديين وبضائعهم وسفنهم في جميع موانئ الإمبراطورية الإسبانية/البرتغالية. ولذلك ركز الهولنديون تفكيرهم

فكانت النتيجة الفورية انبثاق مشروعهم التجاري الكبير مع جزر الهند الشرقية. وبحلول العام 1601، أبحر ستة عشر أسطولاً هولندياً بخمس وستين سفينة تعمل نيابة عن ثمان شركات مختلفة[16]. ومثل هذه المنافسة المتبجحة اللافتة للأنظار لا تؤدي إلا إلى مشاكسة ضارة في المصدر في جزر الهند الشرقية وكذلك في أسواق الزبائن الأوروبيين. وهكذا ففي العام 1602، وبتواطؤ كل الشركات المعنية، تأسست شركة الهند الشرقية المتحدة كاحتكار لهذه التجارة تابع للدولة الهولندية. وبعد ذلك ببعض الوقت، في العام 1624 تأسست شركة الهند الغربية للسيطرة على المصالح الهولندية في نصف الكرة الغربي.

ومن بين هاتين الشركتين، كانت شركة الهند الغربية هي الأقل نجاحاً بكثير على المدى الطويل في الحصول على ممتلكات عقارية وعلى مجموعات سكانية مستعمرة. ولقد بدأت بشكل جيد؛ فمنذ العام 1623، استولت على شريحة من أمريكا الشمالية (شملت ما يعرف الآن بنيوجيرسي، وديلاوير، وبنسلفانيا والنصف الجنوبي من ولاية نيويورك) وأطلقت عليها اسم 'الأراضي المنخفضة الجديدة'. وتبعت ذلك فوراً غزوات من البرتغال لساحل غينيا في 1637 ـ 1642، ولشمال البرازيل (فسمتها 'هولندا الجديدة') في العام 1631، ولأنغولا في العام 1641، وحصلت كذلك على ممتلكات أقل أهمية في بحر الأنتيل وغويانا. وفي العام 1640 كانت شركة الهند الغربية تسيطر على الأسواق الأطلسية في السكّر، وتجارة الرقيق، والفراء. وعند حلول العام 1665 كانت قد فقدت كل شيء ما عدا جزر الأنتيل وغويانا. فإلى جانب استعادة البرتغال لمستعمراتها، فإن إنكلترا استولت بالقوة على الأراضي المنخفضة الجديدة (وجعلت من نيو أمستردام نيويورك) في العام 1664. فتقلصت شركة الهند الغربية وعادت إلى التمترس بموقعها كشركة تجارية بسيطة تعمل لكسب معيشة جيدة حيث كانت تطمح إلى الحكم في السابق. وكان في غينيا كثير من الذهب وما يزال، وكذلك طلب على العبيد الأفارقة في هولندا. وقد بقيت اللغة الهولندية في المستعمرات الصغيرة كلغة إدارية. وفي أيامنا هذه لا يكاد يوجد ألف شخص من الناطقين الأصليين بالهولندية في جمهورية سورينام (غينيا الهولندية)، بينما قد يصل عدد الذين يستخدمونها كلغة ثانية إلى

ربع السكان البالغ عددهم نصف مليون. وظلت جزر الأنتيل معتمدة على هولندا إلى حد كبير، ولكن أقل من عشرة بالمئة من سكانها البالغ تعدادهم 185,000 يتكلمون الهولندية كلغة أولى.

ومن جهة أخرى فإن شركة الهند الشرقية وصلت إلى عظمة استعمارية حقيقية. ففي جزر الهند الشرقية، مصدر تجارة التوابل، أزاحت البرتغال نهائياً من أمبون، وفيما بعد من تيرنيت وتيدور في منطقة ملقا (1605 ـ 1662)، ومن ملقا في الملايو (1641) ومن ماكاسار (يوجونغ باندانغ الحديثة) في سولاويسي (1667). وتعدت هذه الشركة إلى ما وراء نطاق الممتلكات البرتغالية فاستولت على جاكرتا في جاوة الغربية (1619) وجعلتها مركز عملياتها (مثل غوا بالنسبة للبرتغاليين) وأعادت تسميتها فصارت باتافيا(*). وعن طريق التآمر بدلاً من الحرب حلت محل البرتغاليين في احتكار التجارة مع اليابان، وصارت لها قاعدة دائمة في ناغازاكي(**). وفي شبه القارة الهندية حصلت شركة الهند الشرقية على موطئ قدم للهولنديين في العام 1613. وفيما بين العامي 1638 و1661، أخذوا من البرتغاليين سيلان وسلسلة ممتلكاتهم كلها في جنوب الهند، من كانور إلى نيغاباتام. وفي إفريقيا عجزوا لفترة طويلة عن زحزحة البرتغاليين من أنغولا وموزامبيق، ولكنهم أسسوا مستعمرتهم الخاصة بهم في جنوب إفريقيا في كيب تاون في العام 1652. ولاحظ ويليم بوسمان في العام 1704 أن البرتغاليين كانوا

(*) كانت باتافي قبيلة جرمانية تعيش في منطقة هولندا الحديثة، شمال شيلدت في نهاية القرن الأول ق. م. وبداية القرن الأول الميلادي. فاستعار الهولنديون المهتمون بالتاريخ اسم هذه القبيلة، ولم يقدّر ذلك أهل جاوة الذين استقر الهولنديون بينهم بالطبع.

(**) كان أحد الدوافع الكبرى هو ارتباط البرتغاليين بالمسيحية، التي كانت حكومة طوكوغاوا إيميتسو اليابانية مصممة على اقتلاعها بالمرة ضمن السواحل اليابانية. ولذلك فإن الهولنديين، المستعدين لحصر اهتماماتهم بقضايا التجارة الدنيوية فقط، ظلوا طيلة القرنين التاليين هم القوة الأجنبية الوحيدة المتصلة باليابانيين. وأدى ذلك إلى حادثة لغوية مشهورة في التاريخ الياباني (تشبه استخدام البرتغالية المذكور أعلاه ['إمبراطورية آسيوية'، ص 533]. ففي العام 1853، عندما قام القائد البحري الأميركي ماثيو كالبريث بيري بدخول ميناء أوراغا مع 'سفنه السوداء' مصمماً على إنهاء عزلة اليابان، كان أحد أول اليابانيين الذين اقتربوا منه هو هوري تاتسونوسوكي، فقال بلغة إنكليزية جيدة: 'أنا أستطيع أن أتكلم الهولندية'. وبما أن أحد الأميركيين، ويدعى السيد بورتمان، كان يعرف الهولندية أيضاً، فإن أول تبادل للحديث المستمر بين الأميركيين واليابانيين تم في الحقيقة باللغة الهولندية. (هوكس 1954، ص 48-49).

"كالكلاب المستعدة للانقضاض على الفريسة، وما أن بدأ السباق حتى استولى الآخرون عليها"،[17].

ومن الأشياء الغريبة ولكنها هامة أن التدخل الاستعماري الهولندي كانت له ثمرة لغوية في إفريقيا فقط. فقد انجذب المستوطنون الهولنديون إليها، تماماً مثلما اجتذبت البرازيل في آخر الأمر مستوطنين من البرتغال. ولم يكن المستوطنون الهولنديون تجاراً، ولا عاملين في المناجم، بل مزارعين (أي "بوير" باللغة الهولندية). وكانت لغتهم مبسطة تبسيطاً خفيفاً من الهولندية، وتعرف باسم "الأفريكان". فتطورت ونمت مع سكانهم، حتى بعد أن كسب البريطانيون السيطرة على البلد[*]. وفيما بعد، عندما ملوا من الحكم البريطاني، انطلقوا في المسيرة العظمى في العام 1836 إلى شرقي ما يعرف اليوم باسم جنوب إفريقيا ليؤسسوا دولة الأورانج الحرة والترانسفال. وقد تقلص تأثيرهم مؤقتاً بعد اندحارهم على يد البريطانيين في حرب البوير (1899 ـ 1902). ولكن أعدادهم سادت في المجتمع الأبيض ـ كما قدر لها أن تسود فيما بعد بين الأبيض والأسود ـ وفي نصف القرن التالي صارت الأفريكان بوضوح لغة الأكثرية الحاكمة في جنوب إفريقيا. فكان الناطقون بها هناك في العام 1991 يبلغون 6.2 ملايين متركزين في بريتوريا وبلومفونتين، ومنهم مليون شخص ثنائيو اللغة من الأهالي الأصليين يتكلمون الأفريكانية مع الإنكليزية، مع أربعة ملايين آخرين يستعملون الأفريكانية كلغة ثانية أو ثالثة. وعند أخذهم معاً، فإن العشرة ملايين الذين يعرفون هذه اللغة فيهم شبه كبير من العشرين مليون نسمة الذين يتكلمون الهولندية على مستوى العالم (وهم 13.4 مليوناً في الأراضي المنخفضة، و5 ملايين آخرون في بلجيكا)[18].

وعلى مبعدة إلى الشرق، ثبت أن فترة الوجود الهولندي كانت أقصر. فقد انتقلت سيلان والهند الجنوبية، مثل مستعمرة الكاب، إلى الأيدي البريطانية عند نهاية القرن الثامن عشر كنتيجة جانبية للتغيرات السياسية في أوروبا. وبذلك انتهى التأثير الهولندي الذي دام قرناً ونصف القرن ومن الصعب تمييزه الآن.

(*) دخل البريطانيون في الأصل ليسيطروا مسبقاً على الممتلكات الهولندية عندما احتلت فرنسا الأراضي المنخفضة في العام 1795، ولكنهم ضموا إليهم مستعمرة الكاب بشكل دائم في العام 1806.

وبالمثل فقد كان هناك حركة أخذ ورد في جزر الهند الشرقية - أصبح خلالها ستامفورد رافلز في سن الثلاثين مساعداً لحاكم جاوة لمدة خمسة أعوام، وعثر على مدينة بوروبوور البوذية العجيبة المفقودة. ولكن تلك الحركة انتهت باكتفاء البريطانيين بالسيطرة على شبه جزيرة الملايو وبورنيو الشمالية، وحافظ الهولنديون على سيطرتهم على الجزر في آخر الأمر حتى الحرب العالمية الثانية، بعد ثلاثمئة عام من سلبها من البرتغاليين.

وإذن، فلماذا لم تعد الهولندية الآن لغة الحكومة الرسمية، أو لغةً مشتركة على الأقل في دولة إندونيسيا، خليفة شركة الهند الشرقية الهولندية؟ وبما أن الهولندية لغة جرمانية أخرى، فإن هناك ما يكاد يغري المرء بتتبع وجود 'لعنة جرمانية'. ولنتذكر أنه برغم الغزوات الرهيبة في أوروبا الغربية وشمال إفريقيا في القرن الخامس الميلادي، فإن الفرنك، والفاندال، والقوط، هم وحدهم من بين كبار الغزاة في تلك الفترة الذين لم ينشروا لغتهم عبر ممتلكاتهم. وفي العصر الحديث، من القرن السابع عشر إلى القرن العشرين، فإن أحفادهم الهولنديين لم يكونوا أقدر على كسب ناطقين جدد بلغتهم، بينما كان الإنكليز من حولهم ينشرون لغتهم في الملايو، وكانت البرتغالية متشبثة بزاويتها المحصورة في تيمور، وكان الإسبان يحاولون تنشئة الفليبين على النطق بالقشتالية، بل وكان الفرنسيون يحاولون زرع النطق بالفرانكفونية في معقلهم بالهند الصينية.

وكان السبب الرئيسي لهذا الغياب الغريب للغة الهولندية هو النزعة العملية الذرائعية لدى الناطقين بها في جزر الهند الشرقية(*). فقد كانوا موجودين هناك،

(*) يقترح أندرسون (1991: ص 110) دافعين آخرين، هما غياب النزعة الوطنية بحد ذاتها في أوائل القرن السابع عشر (فقد كانت شركة الهند الشرقية بعد كل شيء شركة وليست قومية)، وكذلك نقص الثقة بالنفس لدى الهولنديين بلغتهم. وليس أي واحد من هذين الدافعين مقنعاً على نحو خاص على ما يبدو، ولا سيما بالمقارنة مع المنافسين البرتغاليين الذين كان الهولنديون يتفوقون عليهم عملياً مع الوعي بالذات. وفي الصفحة 133 يقترح أندرسون كذلك أن الأراضي المنخفضة، التي لم تكن لها سوى مستعمرة كبيرة واحدة، كان بوسعها أن تتبنى لغة غير أوروبية للإدارة. ويقول أندرسون إن مثل هذه اللغة كانت ستظل مجهولة عند قوة إمبراطورية ذات ممتلكات في عدة قارات كالإمبراطورية البريطانية. ولكن الإمبراطورية الهولندية أيضاً كانت متعددة القارات هي الأخرى في سنواتها المئة والخمسين الأولى.

ومن جهة أخرى فإنه قد يكون على حق في إشارته (في الصفحة 110) إلى السياسة اللغوية كوسيلة لإبقاء السكان الأصليين متخلفين. 'ففي العام 1940، عندما كان عدد السكان الأصليين يزيد كثيراً على 70

بعد كل شيء، بدافعين، أولهما هو كسب المال، وثانيهما ـ وهو أقل أهمية بكثير ـ هو نشر المسيحية البروتستانتية حسب صيغتهم الكالفنية العزيزة عليهم. وبالمحصلة، كان كلا الدافعين يتطلبان استخدام لغة اتصال أجنبية، بدلاً من لغتهم الأم. فبالنسبة للتجارة مثلاً، كان من الواضح أن هناك حاجة لاستخدام أي لغة مناسبة في متناول اليد. وقد تبين أن هناك لغة مشتركة لدى المجتمع التجاري في جزر الهند الشرقية مضى على استخدامهم إياها قرنان من الزمن على الأقل، وربما أطول من ذلك بكثير.

كانت تلك هي اللغة الملايوية (أو كما تكتب بالتهجئة الهولندية *Bahasa Melajoe*)، ولكنها كانت تعرف بأنها رطانة التجار الذين لهم معاملات في مراكز تخزين البضائع وتوزيعها في ملقا. ولم تكن ملقا قد تأسست إلا في بداية القرن الخامس عشر. ولكنها نمت بسرعة شديدة، من خلال استكشاف موقعها المسيطر على المضيق، وبرعاية الإمبراطور الصيني. ومن المحتمل أن يكون انتشار اللغة قد بدأ قبل ذلك. وقد تأسست ملقا على يد أمير متمرد من سري فيجايا، وهي دولة كانت ترعى مصالح تجارية واسعة من القرن السابع إلى القرن الثالث عشر الميلاديين. وكانت جامبي، إحدى مدنها الرئيسية، تسمى أيضاً ملايو. ومهما كانت أصول الملايوية، فإنها كانت لغة في متناول اليد يستطيع بها أي تاجر هولندي أن يقوم بأعمال تجارية في جميع أنحاء جزر الهند الشرقية(*)، وتلك ميزة إضافية مفيدة ما دامت شركة الهند الشرقية الهولندية مهتمة دائماً بالتجارة في جميع أنحاء المنطقة، وليس مجرد عملية التصدير البسيطة من مصادر الإمداد إلى الأراضي المنخفضة(19).

وبالمثل فمن أجل نشر عقيدة كنيسة الإصلاح الهولندية وممارساتها كان

مليوناً، لم يكن يوجد منهم في الكليات سوى 637 طالباً، ولم يتخرج منهم بدرجة البكالوريس- أي الليسانس - سوى سبعة وثلاثين'.

(*) كان الإيطالي بيغافيتا يرافق البحارة الإسبان الذين يطوفون حول العالم في العام 1521، وقد استطاع أن يجمع 450 كلمة ملايوية في تيدور في منطقة ملقا. ومع ذلك فإن الملايوية لم تكن قد ترسخت هناك بعد، فحتى الكُتّاب الذين كان عليهم أن يكتبوها لسلطان تيدور الطفل في العامين 1521 و1522 أظهروا أن معرفتهم بها كانت 'بالتأكيد ناقصة وغير كاملة' (هوفمان 1979، ص 66 - 67: الحاشية رقم 9).

من الأسهل والأسرع تنصير الناس عندما لا يكون جهد المرء مقتصراً على الذين يعرفون اللغة الهولندية أو المستعدين لتعلمها، وكانت هناك محاولات لإقامة مدارس بالهولندية في أمبون، وكان هناك تشغيل لست عشرة مدرسة منها في العام 1627. ولكن لم تكن هناك فرص تذكر للأطفال الذين يتعلمونها كي يستخدموها بعد تخرجهم، وهكذا كانوا يميلون إلى نسيانها[20]. ولعل هذه إحدى الملامح الشائعة المشتركة لجماعة المتقنين للغة، عندما لم تكن الفرصة قد أتيحت لهم بعد كي ترتقي مرتبتهم في النظام، وهكذا فإنهم يتعاملون على الأغلب مع كبار بالغين لا يشاطرونهم اللغة. ولكن الذرائعيين العمليين الهولنديين لم يكونوا مستعدين للانتظار، فتم إنهاء التجربة. وصارت الملايوية ذات هوية محددة بارتباطها بديانة الكنيسة الإصلاحية أيضاً، باعتبارها 'اللغة المشتركة الشائعة للكنيسة المحلية للسكان الأصليين'[21].

وقد نتساءل باختصار عن سبب عدم امتداد النزعة العملية الذرائعية الهولندية للاستفادة من لغة مشتركة سابقة كانت سائدة في ممتلكاتهم، وهي البرتغالية، التي لاحظنا آنفاً أنهم كان مطلوباً منهم استخدامها في معاملاتهم في سيلان، وكانت بالفعل قد انتشرت طوعاً أو كرهاً إلى داخل مركز عملياتهم في باتافيا. إذ إن من المؤكد أن بعض القساوسة الهولنديين، ولا سيما فرانسوا فالنتاين في ثمانينيات القرن السابع عشر، كانوا ميالين إلى تفضيلها على اللغة الملايوية في عمل الكنيسة[22]. ومن الملاحظ أن معتنقي عقيدة الكنيسة الإصلاحية لم يكونوا كثيرين أبداً، وكان معظمهم ممن سبق أن نصرتهم الكنيسة الكاثوليكية البرتغالية. ذلك أن الهندوس، والبوذيين، والمسلمين قد ثبت أن لديهم مناعة كبيرة ضد التأثر بالعقيدة الجديدة. ولكن الترابط بين البرتغالية والكاثوليكية ظل قوياً في قلوب الهولنديين الكالفنيين، وفي أوساط العمل التجاري لا بد أنه كانت هناك بقية من كبرياء تقاوم إعطاء أي مكان للغة أعدائهم المندحرين - وذلك في الحقيقة حتى العام 1640 وانفصال إسبانيا والبرتغال - أسيادهم المغضوب عليهم في آلية تنظيمهم الخاص بهم.

وهكذا صارت الملايوية لغة جزر الهند الشرقية الهولندية، وذلك كإجراء

عملي على المدى القصير في بادئ الأمر، ولكن عن طريق السياسة الرسمية عند حلول القرن الثامن عشر(*). ففي العام 1731 ـ 1734، صدر الإنجيل بترجمة ملايوية قام بها ميلكوار ليدكر وجورج هنريك ويرندلي، ونشر الأخير منهما كتاباً عن القواعد النحوية للغة في العام 1736. ولكن رغم محاولات الوعظ بها، فإن معرفتها لم تتغلغل بشكل عميق، بل كانت الملايوية وسيلة اتصال بين الإداريين والمدراء والتجار والحكام، وهكذا بقيت. ونظراً لطبيعة الإدارة الإمبراطورية الهولندية العالية التطور، التي أبقت سلطة الزعامات المحلية للسكان الأصليين في موقعها المتواضع وجعلتهم وسطاء لها، فقد نجح هذا الترتيب وعمل جيداً في بادئ الأمر.

ولكن التاريخ اللاحق للغة كما استُخدمت في جزر الهند الشرقية الهولندية لم يكن سهلاً ناعماً. ففي منتصف القرن الثامن عشر، عندما راحت الأسواق العالمية تقدر القهوة من جاوة بصورة أفضل من التوابل من أمبون، زادت الحاجة إلى التعامل مباشرة مع حكام جاوة الذين لم تكن معرفتهم باللغة الملايوية جيدة على الإطلاق. فكانت عودة الإدارة الهولندية بعد فترة الوصاية البريطانية تحت حكم ستامفورد رافلز (1811 ـ 1816) على أساس جديد. كانت شركة الهند الشرقية الهولندية قد ألغيت في العام 1795 بعد الانهيار في ربحيتها، وكان هناك اهتمام جديد للإداريين ليكونوا على اتصال مع رعاياهم من السكان. فصدر مرسوم في العام 1811 يدعو المسؤولين إلى معرفة اللغة الجاوية. وكان رافلز نفسه شديد التأييد لذلك عندما تسلم السلطة فعبر عن رأيه بالقول: 'حتى الآن كان الاتصال مع سكان البلد يتم بشكل رئيسي عن طريق مترجمين جهلة، أو عندما يكون مباشراً فعن طريق وسيلة من لهجة ملايوية بربرية متوحشة يزيدها تعقيداً واضطراباً إدخال البرتغالية والهولندية'[23].

(*) كان هناك دائماً تكهن بأن رفض الهولنديين الغريب لتشاطر لغتهم مع رعاياهم في مستعمراتهم كان نوعاً من العجرفة، لتعزيز نفوذهم وامتيازهم بين السكان الأصليين الذين لا يعرفون الهولندية. وقد ثبطت الإدارة الهولندية ذلك تماماً باعتباره موقفاً مؤذياً. ومع ذلك فقد كان هذا الاعتقاد سائداً على نطاق واسع بين المراقبين الأجانب (مثل بوسكيه 1940، ص 88-89)؛ وقد تصادف أنه يتناسب مع جانب معين من آداب السلوك في جاوة، حيث تتميز المكانة الاجتماعية بواسطة أساليب اللغة.

ولكن عندما عاد الهولنديون إلى تولّي الأمور، تبع عودتهم نزاع استمر طيلة القرن التاسع عشر، حول الوزن النسبي الذي ينبغي إعطاؤه لكل من اللغتين الجاوية والملايوية، وصدرت قرارات في الأعوام 1827 و1837 و1839 لتعزيز الملايوية مرة أخرى. ولقد كانت القيمة العملية لمعرفة اللغة الفعلية لغالبية الناس واضحة، ولكن الحقيقة المحرجة بقيت وهي أن اللغة الجاوية بنبراتها المحكمة والمفصلة، وعلاماتها اللغوية التحتية الدالة على مستويات مختلفة من التهذيب، تجعل تعلّمها إلى حد مقبول من الإتقان أصعب بكثير من تعلم الملايوية. ولم تكن النتائج جيدة أبداً. فعاد معظم المسؤولين إلى معرفتهم المكسرة وغير المحترمة بلغة 'الخدمة الملايوية'، ولكنها معرفة يمكن تشغيلها رغم أن تلك اللغة كانت تسمى باحتقار لغة 'الهذيان المبهم' أو 'الملايوية الباردة'[24].

ورغم كل عيوبها (لم تحدد لها تهجئة قياسية موحدة بالحروف الرومانية إلا في العام 1901)[25] فإن هذه اللغة الملايوية هي التي أصبحت اللغة الرسمية لدولة إندونيسيا، تحت اللقب المحترم "بهاسا أندونيسيا". وحتى يومنا هذا، ورغم أنها لغة أولى عند 17 ـ 30 مليون نسمة فقط، فإن هذا الرقم ربما يعادل عشرة بالمئة من الذين يستطيعون استعمالها كلغة ثانية. قارن ذلك مع الخمسة وسبعين مليوناً الذين لغتهم الأولى هي الجاوية، ومع اللغات الـ726 المدرجة كلغات محكية في مكان ما ضمن إندونيسيا. وهكذا نجح الهولنديون بسياستهم المتشنجة المتقطعة في إعطاء لغة مشتركة لمستعمرتهم القديمة، ولكنها لم تكن لغتهم.

الفرانكوفونية

اللغة الفرنسية امرأة. وتلك المرأة جميلة، ومتكبرة، ومتواضعة، وجريئة، ومؤثرة، وشهوانية، وعفيفة، ونبيلة، ومألوفة، ومجنونة، وحكيمة، إلى درجة أن المرء يحبها بكل روحه، فلا يغريه شيء بأن يخونها.

أناتول فرانس (1844 ـ 1924)

إن هذا النص، المعروف على نطاق واسع لدى الناطقين بالفرنسية والمحبين لها، فيه وعي للذات واحترامها بشكل بارز، ولكنه نموذجي(*). فقد اعتاد الفرنسيون بحماسة على فكرة كون لغتهم ذات مزايا خاصة، وحتى كونها أكثر عقلانية من اللغات الأخرى - وهذا غريب بالنسبة لمثل هذه الفكرة العاطفية التي تعتبر العرف الفرنسي ذا مكانة مركزية. ولعل الفرنسيين راحوا يؤكدون، بإخلاص أكثر من غيرهم من المصممين على القيام بغزوات عالمية، أنهم يؤدون "مهمة حضارية" تتجاوز الحصول على أرباح خارجية لأنفسهم وعلى مؤمنين أجانب بإلههم.

ولقد كانت المحصلة، من حيث التوسع الفعلي للمجتمع الناطق بالفرنسية كلغة أصلية وكلغة ثانية - أي ما يسمونه الفرانكوفونية - متواضعة، على الأقل بحسب مقاييس منافسيها المباشرين (وجيرانها)(**): فالفرنسية يمكن أن تعد الآن 77 مليون ناطق أصلي بها على مستوى العالم (ثلثاهم في فرنسا نفسها) و51 مليوناً آخرين يتكلمونها كلغة ثانية(***). وهذا يضعها في المرتبة العاشرة في قائمة اللغات بحسب عدد السكان، وبالنتيجة فهي الأصغر بين اللغات الأوروبية الكبرى، وأقل سكاناً حتى من الألمانية، التي لا يكاد أحد ينطق بها خارج قارة موطنها.

(*) وهو نص يمكن للأنغلوساكسوني غير المتعاطف معه أن يعتبره مثالاً على 'ذلك الكلام الشعري - النثري المنتشي الخفيف الذي هو أحد المظاهر الأكثر إثارة للملل في الروح الفرنسية'، وهذه عبارة قالها بيتر في مراجعة نقدية له لكتاب تيلار دي شاردان المعنون: "الظاهرة الإنسانية"، يمكن الوصول إليه على العنوان: http://cscs.umich.edu/crshalizi/Medawar/phenomenon-of-man.html

(**) مصطلح الفرانكوفونية اخترعه الجغرافي أونيسيم ركلوس في العام 1880 للإشارة إلى المجتمع الناطق بالفرنسية في العالم. وهو اليوم يشير (على الأقل في العالم الناطق بالفرنسية) بشكل أفضل إلى رابطة طوعية من الدول بموجب ميثاق، وليست كلها مستعمرات فرنسية سابقة، وهي في روحها كثيرة الشبه بالكومونولث البريطاني (انظر: www/france.diplomatie.fr/francophonie).

(***) هذه الأرقام من غرايمز (2000). ويزعم موقع وزارة الخارجية الفرنسية على شبكة الإنترنت المسمى الفرانكوفونية أن هناك 160 مليون ناطق أصلي بالفرنسية كلغة أولى وكلغة ثانية. ويذكر لوكلريك (2000) أن 145 مليوناً من الناس قد دخلوا مدارس تعلّم بالفرنسية. وإن أي واحد من هذين الرقمين قد يرفع مرتبة الفرنسية فوق الألمانية من حيث عدد السكان، ولكنه لن يصل بها إلى مستوى البرتغالية.

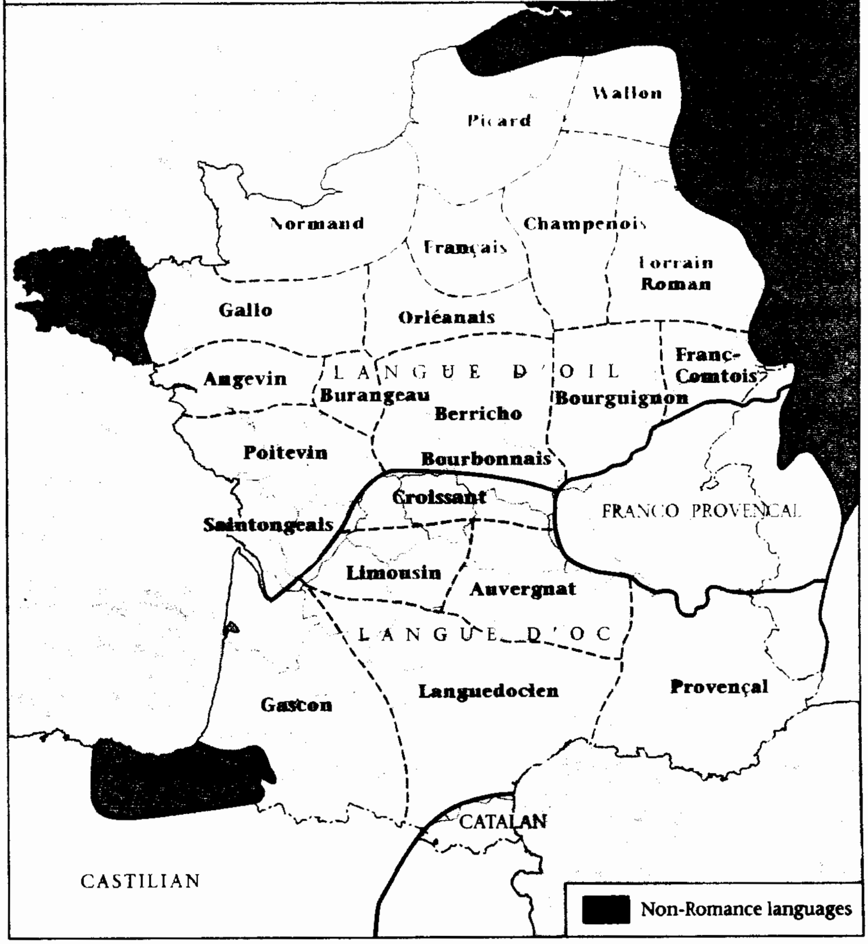
الفرنسية في أوروبا

إن الفرنسية في أصلها هي جنس اللغة الرومانسية المحكية في بلاد الغال، التي كانت تعتبر بشكل واسع مملكة الفرنجة. أما تسميتها الحديثة لنفسها "الفرنسية" فهي مستمدة من الصفة الألمانية "فرنكيسك" عن طريق التسمية اللاتينية "فرانسيسكوس". ولأسباب سياسية وطوبوغرافية صارت مميزة ومقودة من قبل لهجة منطقة إيل دي فرانس في الشمال الشرقي. وهي منطقة ذات أنهار كثيرة صالحة للملاحة تسير في اتجاهات مختلفة، ومن هنا فهي نقطة تقاطع طرق طبيعية. وهكذا صارت مكاناً يلتقي فيه الناطقون بلهجات كثيرة، فتمت تسوية الفوارق بينها. وعلاوة على ذلك، فمنذ وقت كلوفيس (في أواخر القرن الخامس) كان لها على الأغلب بلاط من الفرنجة في مكان ما في داخلها. وقد ازدهرت واضمحلت مدن مختلفة. ولكن عند حلول القرن الثالث عشر كان واضحاً أن مدينة باريس تتمتع بطابع خاص، فقد كتب أحد الشعراء:

اعذرني على لغتي
فهي جلفة، غليظة، متوحشة
لأنني لست من سكان باريس[26].

وكان من المعالم البارزة في تاريخ الفرنسية الأمر البلدي لفيلر كوتيريت الذي طلب بموجبه الملك فرانسوا الأول ـ من بين عدة نصوص أخرى ـ أن يتم إنتاج جميع الوثائق الرسمية، سواء من دوائر البلاط أم من سجلات الأبرشيات، باللغة الفرنسية الأم وليس بغيرها، وليس باللاتينية على وجه التحديد[27]. ولكن برغم كون النص طبيعياً مألوفاً، فإن الملك كان يشير في الحقيقة إلى لغته هو، لغته الأم، وليس إلى لغة رعاياه: وقد ترجم هذا الأمر على أنه يعني استخدام الفرنسية الباريسية، وهكذا فقد أثار شكاوى عجيبة من الجنوب الناطق بلغة بروفانس[28]. ومنذ ذلك الحين صار على المركز السياسي الفرنسي أن يكون واعياً باللغة، وأن يتخذ إجراءات لفرض تجانس وتماسك على المستوى الرسمي، رغم إصرار لغات مختلفة على البقاء محكية في ممتلكاته.

التشكيلات الرومانسية المتنوعة في فرنسا في القرن الثالث عشر



أي نوع من اللغات كانت الفرنسية؟ بالنسبة للأذن، كانت الخاصية الكبرى للفرنسية من بين بنات عمومتها اللغات الرومانسية هي فقدان كل حروف العلة تقريباً في المقاطع الأخيرة. وفيما بعد فقدان أصوات الحروف الصامتة في أواخر الكلمات. (وقد بقي حرف a في آخر الكلمات في العادة، ولكنه صار ينطق بصوت خافت غير متميز على شكل [ə] أو uh). وأدى هذا اللفظ الرخو المخفف إلى بعض التغييرات الكبرى في القواعد النحوية بسبب انهيار النظام اللاتيني من النهايات ذات المعنى في الكلمات (تصاريفها في الإعراب)، على الأقل

بقدر ما كانت تشير إلى وظائف الأسماء في الجمل، وفي الضمائر الشخصية اللاحقة بالأفعال (أنا مقابل أنت مقابل هو/هي/هو أو هي لغير العاقل). وهكذا صار ترتيب الكلمات في اللغة الفرنسية جامداً إلى حد ما، مع سلسلة من الضمائر القصيرة في الأقسام الأمامية من الجمل. وحيث كانت صيغة الجملة اللاتينية 'أنا أخبرك بأن' صارت معادلتها الفرنسية هي 'أنا لك أقول'. كما أن حرف o ـ اللاتيني اللاحق بآخر الفعل ليدل على الفاعل (الذي هو الضمير 'أنا' في هذا المثال) حل محله الضمير المنفصل "أنا" "*je*" باللغة الفرنسية(*). ولكن كانت الفرنسية بطرق أخرى أكثر شبهاً بالبرتغالية، فهي تحول صوت النون (n) والميم (m) في آخر المقاطع إلى غنةٍ أو رنةٍ أنفية، وغيرت صوت الـ y إلى جيم، وأعطت حرف الـ [z] صوت السين عندما يأتي بين حرفي علة. وتبدل حرف L بعد حرف العلة في معظم الحالات إلى الحرف w (كما هو منطوق في لهجة أحياء لندن الفقيرة ولهجة مصب نهر التايمز) وصار يكتب على شكل *u*، كما في *maledictum* أي 'الملعون' التي تلفظ *maudit*، وكلمة *pellem*، أي 'الجلد' التي تلفظ *peau*، وكلمة *collum* أي 'الرقبة' التي تلفظ *cou*.

وقد وقعت الفرنسية أيضاً ضحية عملية خنق شديد لأحرف العلة، وخاصة ما تسمى أحرف العلة الوسطى، الـ e والـ o، إلى درجة أن اللفظ الدقيق قد تغير كثيراً على مر القرون، فأعطى ذلك بالطبع مجالاً كبيراً للعجرفة اللغوية إذا لم تخرج أصوات حروف العلة الطويلة بشكل صحيح على ألسنة الناس. وهذه عمليات أحدثت تخريباً في التهجئة الفرنسية، كما في كلمات هذه العبارة: 'السادة الملكيون المشهورون يجب أن تكون لهم قصور جميلة'، فقد تغيرت طريقة تهجئة كلماتها وطريقة نطقها.

وفي أوائل الألف الميلادي الثاني، بدأت هذه اللغة تنتشر خارج فرنسا. وخاصة في العام 1066 عندما تم زرعها في شمال القنال الإنكليزي على أيدي الغزاة النورمان، الذين لم يكن قد مضى عليهم في نطقها سوى جيلين (انظر

(*) إن كلمة *je* هي بقية مما كان ذات مرة ضميراً لاتينياً للتوكيد: *ego* (فتم اختصاره بوحشية إلى شيء مثل *eieu* . قارنه مع ما يعادله في لغة بروفانس: *eu, ieu*).

الفصل 12: 'اختبار تحمّل: توديع الفرنسية النورمانية'، ص 624). ثم تبين فيما بعد أن تقدم اللغة لم يكن دائماً. فقد ازدهرت لمدة زادت على قرنين كلغة للنخبة في إنكلترا، ولكنها فقدت الصلة مع إيل دي فرانس بالتدريج، كما كتب تشوسر عن رئيسة ديرٍ للراهبات قرب نهاية القرن الرابع عشر:

وكانت تتكلم فرنسية جميلة تماماً وبشغف شديد
على طريقة مدرسة ستراتفورد في باو
لأن الفرنسية الباريسية لم تكن معروفة عندها(29).

ثم جاء الطاعون الذي عرف باسم الموت الأسود، وأعقبه ثورة اجتماعية مكنت الناس العاديين الناطقين بالإنكليزية من الانتقال إلى مواقع أكثر نفوذاً وتأثيراً في المدن الإنكليزية. فتلاشت الفرنسية في إنكلترا(*).

وفي حوالي الوقت نفسه، كانت الحروب الصليبية أيضاً قد نشرت اللغة الفرنسية خارج ترابها الوطني، ولكن في الاتجاه المعاكس. وقد استمدت هذه المغامرات العسكرية الطائشة معظم دعمها من فرنسا، ولم تنجح في إقامة ممتلكات متفرنجة في فلسطين التي صمدت لها طيلة القرن الثاني عشر. ومع ذلك، فإن مجتمعاتها اللغوية لم تبق طويلاً بعد تحرير المسلمين فلسطين في القرن الثالث عشر. فكان من النتائج الطويلة الأمد إيجاد رابطة خاصة من 'الفرنجة' مع فكرة الأوروبي الموجود وحده بشكل منفصل في الشرق، كما نرى في انتشار المصطلح العربي الذي يصف الأوروبي بـ 'الفرنجي'، ومصطلح 'اللغة الفرنجية' الذي لا يزال مفيداً لأنه يعني اللغة المشتركة المستخدمة للاتصال الواسع، وهو مصطلح استعمل لأول مرة في بلاد المشرق(**).

وقد انتشرت الصيغة الباريسية من الفرنسية إلى البلدان المجاورة قبل أن

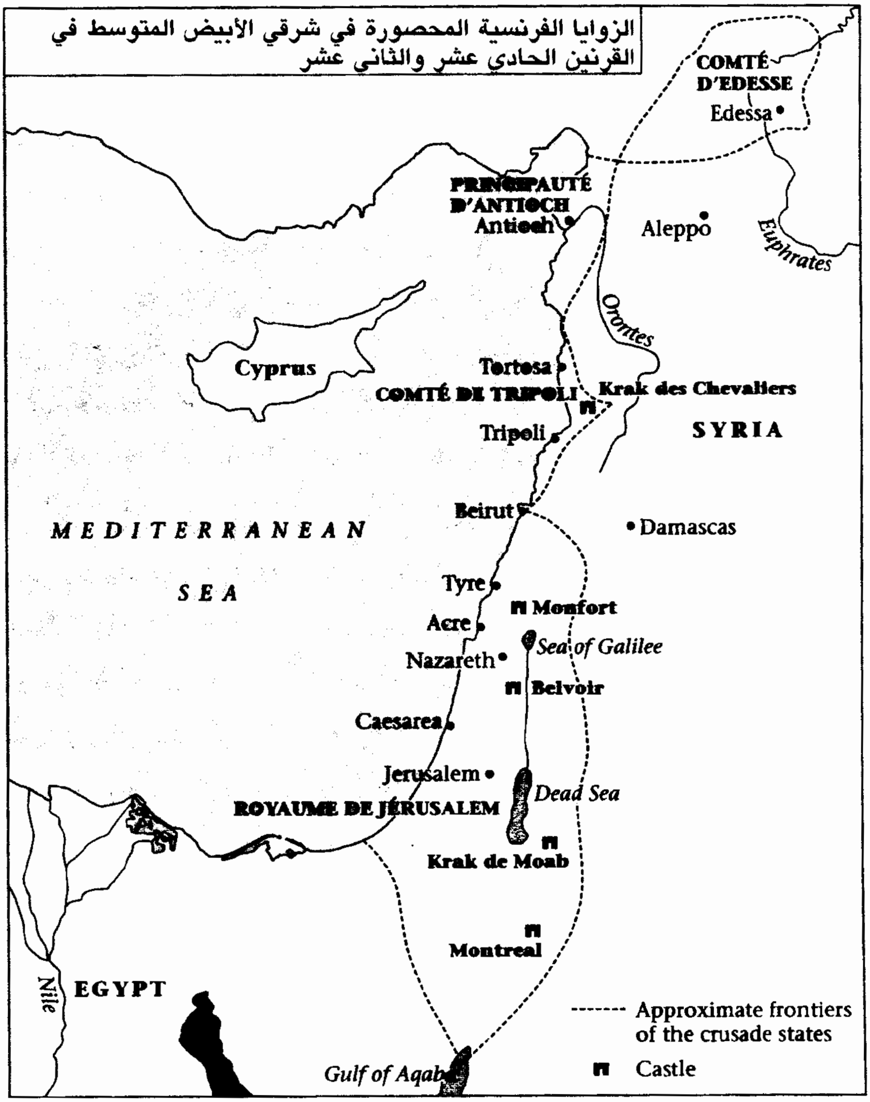
(*) سيكون هناك المزيد مما يقال عن هذا التراجع للفرنسية، من وجهة نظر اللغة التي استفادت منها، في الفصل التالي.

(**) إن المصطلح، والمؤسسة، قد استمرا في منطقة البحر الأبيض المتوسط حتى القرن التاسع عشر، ولكن اللغة الفعلية المستخدمة لم تكن قائمة على أساس الفرنسية، بل الإيطالية، ربما بسبب التأثير المتأخر لتجّار البندقية في وقت لاحق.

تبدأ الدولة الفرنسية محاولاتها الجدية لنشر قوتها ولغتها في الخارج. ولم يتم إنشاء مقياس وطني تنافسي أبداً في بلجيكا ولا في سويسرا اللتين كانت حدودهما تضم دائماً ناطقين باللغات الرومانسية طيلة وجود الحدود واللغة. فمدينة جنيف كانت لها لهجتها الرومانسية المميزة الخاصة بها، وهي لهجة سافوي، ولكنها كانت تستخدم الفرنسية للأعمال التجارية الرسمية منذ القرن الثالث عشر. وكانت هي العاصمة الفعلية للبروتستانت الفرنسيين أثناء حروب الإصلاح الديني. وعلى مبعدة إلى الجنوب هناك سافوي، ونيس، وموناكو، وكلها كانت لها صلات تاريخية عبر الألب، وقد قاومت طويلاً فكرة الانضمام إلى العاصمة الفرنسية العالمية، ولكنها قبلت لغتها إلى حد كبير.

لماذا كسبت الفرنسية مثل هذا الارتباط بالثقافة العالية في أوروبا، وخاصة الانتشار باتجاه الشرق؟ كان السبب الأساسي هو تنامي سكان فرنسا وثروتهم الزراعية. فكان الأغنياء في فرنسا قادرين على الحصول على الأفضل. وكان ذوقهم مؤثراً(*). فكانت فرنسا أكثر البلدان ازدحاماً بالسكان في أوروبا العصور الوسطى وأوائل العصر الحديث، وهكذا كانت تتجه إلى وضع المعيار القياسي للآخرين. وصارت الفرنسية لغة الأعمال للتجار الأوروبيين. كما أن مبدأ المركزية الجغرافية الذي جعل باريس عقدة ملتقى طرق فرنسا هو نفسه المبدأ الذي جعل فرنسا عقدة ملتقى طرق مسيحية أوروبا الغربية. ففي العام 1164 كتب جون سالزبوري إلى توماس بيكيت: ’عرجت في طريقي على باريس. وعندما رأيت وفرة الأطعمة، وسعادة الناس، والاعتبار المعطى لرجال الدين، وجلالة الكنيسة كلها ومجدها، وأنشطة الفلاسفة المتنوعة، خِلْت نفسي أنظر بإعجاب إلى سلّم يعقوب تصل قمته إلى عنان السماء، والملائكة يمرون عليه صاعدين ونازلين‘(30).

(*) لعبت إليانور (إلينور) أكويتين (1122-1204) دوراً رئيسياً كراعية ثقافية. فقد كانت علاقاتها في المجتمع ممتازة جداً، كانت زوجة لملكين، وامّا لملكين، وحماة لملكين آخرين. ولكنها في منتصف القرن الثاني عشر جعلت بلاطها في بواتييه مركزاً للأشعار الغرامية والقصص التاريخية [تحت التأثير الثقافي الكبير للأندلس وموشحاتها التي تعلم منها شعراء التروبادور الجوّالون - المترجم].



الزوايا الفرنسية المحصورة في شرقي الأبيض المتوسط في القرنين الحادي عشر والثاني عشر

ولم يتغير هذا الوضع حتى القرن التاسع عشر. فقد ظلت فرنسا أغنى بلدان أوروبا وأكثرها ازدحاماً بالسكان. ولم يستطع أحد أن يتحدى مزاياها الجغرافية إلى أن انتشرت قواعد السلطة السياسية الأوروبية خارج نطاق أوروبا الغربية. ومن المؤكد أن السيطرة الثقافية للفرنسية قد اهتزت بنشوء المدن ـ الدول الإيطالية أثناء النهضة في القرن الخامس عشر، وبالإصلاح الديني في القرن السادس عشر، ما دام الملك الفرنسي قد اختار أن يربط فرنسا بشكل

حاسم مع الكنيسة الكاثوليكية. وقد توقفت فرنسا عن كونها مركز العمل فترة من الوقت، ومع ذلك فإن الإصلاح الديني قد دفع كثيراً من ذوي النفوذ والتأثير الناطقين بالفرنسية إلى الهرب نحو الشرق. فاستقر البروتستانت الفرنسيون المعروفون باسم الهوغونوت في الأراضي الناطقة بالهولندية - والألمانية، وحدث انفجار في النشر والطبع باللغة الفرنسية، وخاصة عبر الحدود مع الأراضي المنخفضة بالضبط. وهكذا أضاف الإصلاح الديني زخماً إلى قوة اللغة الفرنسية المندفعة شرقاً كلغة للثقافة.

وفي القرن السابع عشر، وصلت قوة فرنسا وتأثيرها في أوروبا إلى ذروتهما أثناء العهدين الطويلين للملكين لويس الثالث عشر (1610 - 1643)، ولويس الرابع عشر المشهور بلقب 'الملك الشمس' (1643 - 1715). وتزايد رضا فرنسا عن نفسها، فبدأت تتأمل في خصائصها الثقافية. وكما تفعل كل الأمم عندما تتمتع بتفوّق بارز، بدأ الفرنسيون يبحثون عن فضائل خاصة يمكنها أن تفسر نجاحهم. فرأوا بشكل متزايد دليلاً على ذلك في امتياز لغتهم نفسها. فقام الكردينال ريشيليو، رئيس وزراء لويس الثالث عشر، بتأسيس الأكاديمية الفرنسية في العام 1635، مع اهتمام تجاوز ما هو عملي: كانت مهمتها الرئيسية بموجب نظامها الأساسي هي 'إعطاء قواعد معينة للغتنا لجعلها نقية، وبليغة، وقادرة على البحث في الفنون والعلوم'.

فكانت هذه خطوة جديدة في الوعي اللغوي، وأول أكاديمية في العالم مكرسة لرعاية اللغة(*). وفي ذلك الوقت تبلور اهتمام الفرنسية بالدقة والاختصار. والواقع أن المادة التي حثت على استخدام الفرنسية في مراسيم فيلر - كوتيريت في العام 1539 قد سبقتها مباشرة مادة طالبت بوضوح التعبير في أحكام المحاكم: فيجب 'إصدارها وكتابتها بوضوح يمنع أي غموض أو عدم

(*) ظلت الأكاديمية تتمتع بأعلى مستوى من رعاية الحكومة الفرنسية منذ ذلك الحين، فلم تنقطع تلك الرعاية إلا أثناء الثورة الفرنسية، من العام 1793 إلى العام 1803. وكانت مهمتها الأولى هي تجميع معجم. فاستغرقت نسخته الأولى في التجميع ما يقرب من ستين عاماً وظهرت في العام 1694، وظلت تحدّث بشكل دوري منتظم منذ ذلك الحين. وقد ظهرت آخر طبعة لهذا المعجم في العام 1992، وكانت هي الطبعة الثامنة.

تأكد، ولا يترك أي مجال لطلب التفسير'. وفي العام 1637، نشر الفيلسوف رينيه ديكارت، الذي كان مشهوراً آنذاك، كتابه المعنون: "مقالة عن الطريقة". فكان من الملامح اللافتة للنظر في هذا الكتاب أنه كتب بالفرنسية، وليس باللاتينية، وربما كان ذلك عملاً بالروح الجذرية الأساسية لنظام الأكاديمية. ولم يكن ديكارت ثورياً من تلقاء نفسه بل إن أحد مبادئه الأساسية في كتابه المذكور كان 'اتباع أكثر الآراء اعتدالاً وبعداً عن التطرف وكما يفعل أعقل الناس الذين يعيش معهم في المجال العملي العام'، وكذلك 'تغيير رغباته بدلاً من تغيير نظام العالم'[31]. ولكنه هنا في قلب المناقشة الفكرية الأوروبية، اقترح وجوب قيام المعرفة على أفكار واضحة ومتميزة حصراً[32]. وقد ألغى هذا النهج الحاجة إلى الوحي الإلهي، فكان نهجاً جديداً وجذرياً وصار يعتبر نهجاً فرنسياً بصورة جوهرية[*]. وهو كثيراً ما يعتبر بداية الفلسفة الحديثة والعلم الحديث، رغم أن ديكارت كان يفضل السلامة دائماً، وهكذا فإن نهجه هذا قد ترك جميع القضايا العملية للإيمان والأخلاق دون أي تغيير.

أما إيمان الفرنسيين بمزايا لغتهم فسرعان ما شاركهم فيه آخرون لم يكن لهم مثل حظ الفرنسيين. فخليفة ديكارت العظيم، ليبنيز (1646 ـ 1716)، رغم أنه ألماني من لايبزيغ، كتب مؤلفاته الكبرى كلها بالفرنسية. وأصبح التفوق العقلي للثقافة الفرنسية نبوءة حققت نفسها. فلكي يضمن المرء أن يقرأ منتسبو النخبة كتبه على نطاق واسع في هذه الأيام، فإن عليه ببساطة: أن يكتب بالفرنسة.

وفي أواخر القرن السابع عشر تمتعت الثقافة الفرنسية، ممثلة على الخصوص بكتّابها المسرحيين كورنيه وراسين وموليير، بشعبية رائجة في جميع أنحاء أوروبا. وصارت فرساي هي التي تضع المعيار القياسي في كل مكان لأسلوب البلاط، والسلوك الاجتماعي. وصارت القصص الفرنسية في كل مكان هي التسلية المفضلة للسيدات الشابات الثريات. وقد أعطى رجال النخبة قيمة عالية لمعرفة الفرنسية بطلاقة على وجه الخصوص في المناطق الأوروبية الأقل

(*) ومن هنا جاءت الكلمة الطيبة لأنطوان دي ريفارول في كتابه المعنون: مقالة عن عالمية اللغة الفرنسية، في العام 1784: "إن ما ليس واضحاً ليس فرنسياً!".

ثقة بالنفس في المجال الثقافي: مثل السويد، وبولندا، وقبل كل شيء روسيا حيث صارت الفرنسية، بدءاً من عهد كاترين الكبرى (1762 ـ 1796)، راسخة باعتبارها لغة المجتمع المهذّب. وقد اشتهر عن فولتير مفكر عصره الموهوب أنه قد فرح لوجود ناطقين بالفرنسية في أستراخان، ومدرسين للغة الفرنسية في موسكو[33]. وفي قصة تولستوي "الحرب والسلام"، التي تدور أحداثها في الجيل التالي، هناك أجزاء هامة من الحوار، بما فيها السطور الافتتاحية(*)، كتبت بالفرنسية وليس بالروسية؛ والمفروض أن ذلك كان تمشياً مع الواقعية.

وفي هذه الفترة حلت الفرنسية محل اللاتينية كلغة للدبلوماسية، مما أعطاها اتصالاً آخر مع الأناقة والنفوذ المؤثر. فعند حلول العام 1642، كانت حكومة ريشيليو تتراسل بالفرنسية مع معظم جيرانها الشماليين: ولكن إسبانيا وإيطاليا وسويسرا حافظت على مقاومتها للفرنسية، مفضلة عليها لغاتها. وفي النصف الثاني من ذلك القرن، في المفاوضات مع الإمبراطورية الرومانية المقدسة (التي كانت لغتها المحلية هي الألمانية)، أقنعها الفرنسيون تدريجياً بتحويل لغة الاتصال من اللاتينية إلى الفرنسية. وفي القرن التالي اعتباراً من معاهدة راستات في العام 1712، تحول الجانبان إلى استخدام الفرنسية حصراً. فصارت المعاهدات تكتب بالفرنسية، حتى من قبل قوىً ليست لها علاقات مباشرة بالفرنسية. فقد استخدمها الدانمركيون لمعاهدتهم التجارية في كوبنهاغن في العام 1619، والروس والأتراك العثمانيون في معاهدة السلام التي أبرمت بينهم في العام 1774 في كوتشوك كينارتشي (التي هي الآن كينارجا في بلغاريا)[34]. ولقد كان واضحاً أن الشعبية العامة لفرنسا نفسها قد هبطت بعد محاولات نابليون غزو القارة الأوروبية كلها في أوائل القرن التاسع عشر. ولكن اللغة الفرنسية لم تتوقف عن أداء دورها التوسطي العام إلا في القرن العشرين، وكان

(*) "حسناً، يا أميري، إذن فإن جنوى ولوقا الآن ليستا أكثر من ممتلكات عقارية لأسرة بونابرت. كلا، إنني أحذرك. إذا لم تقل لي أن ذلك معناه الحرب، وإذا سمحت لنفسك مرة أخرى أن تصفح عن جميع أعمال العار الشائنة والفظائع المخزية التي ارتكبها عدو المسيح ذاك (ولعمري إنني لاعتقد أنه عدو المسيح)، فإنني لن أتعرف عليك في المستقبل، ولن تعود صديقاً لي، أو 'عبدي المخلص'، كما تقول!".

ذلك في فرساي نفسها، ومن خلال مفارقة أثناء مؤتمر السلام الذي انعقد فيها في العام 1919 بعد الحرب العالمية الأولى، عندما أصر الأمريكيون والبريطانيون على العمل بلغتهم الخاصة، وبذلك ضمنوا صياغة المعاهدة وطبعها ونشرها بالفرنسية والإنكليزية معاً.

الإمبراطورية الأولى

وماذا عن الفرنسية فيما وراء البحار؟ لقد كانت التطورات هنا مختلفة جداً عن الانتشار الثابت القوي للفرنسية في أنحاء أوروبا الذي جعلها عن طريق الترحيب العفوي تقريباً لغة النفوذ المتميز للنخبة. إن عرض الفرنسية فيما وراء البحار كان إلى حد كبير نتيجة سياسة ملكية. وجاءت تلك السياسة في نوبتين من التوسع الاستعماري بإدارة الملك الفرنسي، وبينهما اندحار وانكماش شاملان في النصف الثاني من القرن الثامن عشر. وكانت نوبتا التوسّع كلتاهما طموحتين للغاية - ففي العام 1714 ومرة أخرى في العام 1914، كانت فرنسا تسيطر على ثاني أوسع إمبراطورية استعمارية في العالم من حيث المساحة البرية(*)، ولكن بالإضافة إلى ممتلكات أقطاب السكر في حوض الكاريبي، فإن كل واحدة من هاتين النوبتين نتج عنها إقليم واحد فقط قدّر له أن يجتذب هجرة فرنسية كبيرة: أي كندا في القرنين السابع عشر والثامن عشر، والجزائر في القرن التاسع عشر. وفي الحالتين لم تستطع فرنسا ولا مستوطنوها أن يحافظوا على السيطرة السياسية لفترة طويلة. وهكذا فإن الاستعمار الفرنسي كان أشبه بالهولندي أكثر من أي استعمار أوروبي آخر من منافسيه، من حيث نتائجه اللغوية. ومعنى ذلك أن اللغة الفرنسية لم تصمد إلا حيث حافظ مستوطنوها على هوية صلبة، وعدد كبير من السكان، حتى تحت سيطرة أجنبية (بريطانية على وجه التحديد): فبقيت الفرنسية ونمت في كندا، تماماً كما بقيت الهولندية (من نوعٍ ما) قوية في جنوب إفريقيا. أما الوضع في الجزائر فقد خيمت عليه

(*) في القرن الثامن عشر لم تكن تتفوق عليها في المساحة سوى إسبانيا، وفي القرن العشرين، لم تكن تتفوق عليها في المساحة سوى بريطانيا.

غيوم السياسة(*). ولكن اللغة الفرنسية بقيت في المستعمرات الأخرى - إن كانت صمدت على الإطلاق - كلغة مشتركة للنخبويين فقط.

ورغم أن فرنسا كانت قوة كبرى في القرن الخامس عشر، فإنها لم تكن فاعلة في أول رحلات الاستكشاف. ومع ذلك فقد كان هناك جزء كبير باق من أمريكا الشمالية لوضع اليد عليه وادعاء الحق فيه في الأجيال القليلة التالية. ذلك أن جاك كارتييه، الذي أرسله ملك فرنسا لاستكشاف الممر الشمالي الغربي إلى الشرق، اكتشف بدلاً من ذلك نهر الهدسون، واستطلع الأراضي حتى كويبك ومونتريال (وكان اسماهما في ذلك الحين ستاداكونا وهوتشيلاغا) فيما بين العامين 1534 و1536(**) وفيما بعد، قام تجار الفرو والمبشرون بتوسيع ذلك الجزء من القارة الذي يمكن أن تدعيه فرنسا لنفسها: ففي 1603 - 1615 دخل صاموئيل دي تشامبلين البحيرات العظمى، وفي العام 1673 وجد بيير ماركيت ولويس جولييت طريقهما نحو الجنوب إلى المسيسيبي؛ وفي 1678 - 1682 قام روبرت كافلييه دي لاسال بتخطيط مسار ذلك النهر كله نزولاً إلى خليج المكسيك. وبذلك طوقت فرنسا المستعمرات الإنكليزية المرصوفة على طول ساحل المحيط الأطلسي من جانبيها في الشمال والجنوب.

غير أن ذلك الوضع لم يكن مستقراً لأن عدد المستعمرين الإنكليز كان يفوق الفرنسيين بشكل كثيف، ربما أربعين إلى واحد في منتصف القرن السابع عشر. وبعد ذلك بقرن كانوا ما يزالون يفوقونهم بعشرين ضعفاً، رغم أن عدد

(*) تختلف تقديرات عدد السكان الناطقين بالفرنسية في الجزائر، من 110,000 وهو العدد المنخفض إلى حد غير معقول أورده كتاب "علم الأعراق البشرية" (من بين سكان مجموعهم ثلاثون مليوناً)، إلى 25 بالمئة من هؤلاء السكان (أي 7.5 ملايين). ويعتقد كثيرون أن هذا العدد يمثل أكثر الناطقين بالفرانكفونية في العالم، فهم أكثر من سكان كيبك البالغ عددهم 6.7 ملايين وبلجيكا البالغ عددهم 4 ملايين. (وهذان الرقمان الأخيران أيضاً مأخوذان من الكتاب المذكور أعلاه من تأليف غرايمز، عام 2000). ومن المعتقد على نطاق واسع أن محاولة الحكومة الجزائرية للتعريب منذ العام 1962 قد أدت بالعكس إلى زيادة استخدام اللغات الأخرى، وخاصة البربرية والفرنسية. ولكن لا تتوفر بيانات لمسح استطلاعي.

(**) كانت إحدى القرى التي زارها كارتييه قرب مدينة كيبك تعرف باسم غاناداً، أي 'المستوطنة' بلغة هورون، التي كانت مستخدمة كلغة مشتركة على طول مجرى النهر. وهذه القرية هي أصل اسم البلد "كندا".

المستوطنين الفرنسيين صار عشرة أضعاف ما كان عليه[35]. ويمكن أن يجادل المرء بان طرد البروتستانت الفرنسيين أثناء الإصلاح الديني وفيما بعده كان السبب الجذري لعدم التوازن بين القوتين. وكما رأينا فإن مغادرتهم كانت بذرة انتشار الفرنسية باعتبارها لغة الثقافة والتفكير العالي في أوروبا الوسطى والشرقية. ولكن فرنسا في الوقت نفسه خسرت كتلة سكانها من المهاجرين الطوعيين، من نوعية المتطهرين المتشددين والمغامرين والمثاليين [الطوباويين] الذين شكلوا العمود الفقري لمستعمرات بريطانيا الثلاث عشرة. وكانت فرنسا الجديدة تفخر بالارتفاع الكبير لمعدل الولادات بين أولئك الذين جاؤوا ليبقوا، ولكنها لم تصبح أبداً مغناطيساً جذاباً للمهاجرين بما يعادل نيو إنغلاند (إنكلترا الجديدة).

وفي الفترة نفسها، وأثناء حكم ريشيليو في الوطن إلى حدٍ كبير، كانت المستوطنات تزرع أيضاً على جزر الكاريبي، في مارتينيك (1625) وغوادالوب (1635)، وعند كايين على البر الرئيسي في غويانا (1637)؛ وعلى الجانب الآخر من المحيط الأطلسي، استولى الفرنسيون على السنغال، على ساحل إفريقيا الغربي (1639)، وعلى مدغشقر شرقي إفريقيا (1643). وأبعد من الجميع استطاع مبشّر يسوعي فرنسي، هو ألكساندر دي رودس أن يصل في العام 1624 إلى جنوب شرقي الهند الصينية، التي كانت تعرف آنذاك باسم كوشان الصينية(*).

غير أن الأجزاء الوحيدة من هذه الأقاليم الواسعة التي وضعت فرنسا يدها عليها والتي تلقت استيطاناً هاماً على أيدي مستعمرين ناطقين بالفرنسية كانت هي منطقة نهر سانت لورانس فقط، وقد عرفت باسم "فرنسا الجديدة"،

(*) ازدهرت هذه البعثة التبشيرية، رغم أنها لم تؤد إلى أي استيطان فرنسي في ذلك الحين، والواقع أن دي رودس كان الفرنسي الوحيد في فريق من اليسوعيين مؤلف من ستة أوروبيين وياباني واحد. غير أن الحاجة إلى حماية البعثات قد استغلت فيما بعد كذريعة لغزو فرنسي كثيف للهند الصينية جاء في العام 1859. ودي رودس نفسه شخصية هامة لأنه الرجل الذي استنبط حروف اللغة المعروفة باسم "كوك- نغو " (أي اللغة الوطنية) باستخدام الحروف والنبرات الرومانية. وقد صممها لمساعدة المبشرين الأجانب على تعلم اللغة الفيتنامية. ولكن تم الأخذ بها في القرن التاسع عشر، حتى من قبل الوطنيين الأصليين، كمفتاح لتعليم الناس القراءة والكتابة بصورة جماعية كبيرة، وهي الآن مستخدمة بشكل عام شامل في فيتنام.

الفرنسية في أمريكا الشمالية: فرنسا الجديدة ولويزيانا



ونوفاسكوشيا، التي كانت تعرف آنذاك باسم "الأكادي" L'Acadie (وأصلها "لاكادي" *La Cadie*، مشتق من اسم هندي)(*). وكانت السياسة الفرنسية

(*) لقد قدر للاكاديين الفقراء المساكين أن يقعوا ضحية سياسة القوى الكبرى، فقد تمت المتاجرة بأراضيهم مع إنكلترا بموجب معاهدة أوترخت في العام 1713 في مقابل امتيازات وتنازلات تجارية في الهند. وفي آخر الأمر تمت بعثرتهم على طول الساحل، وخاصة في ولاية مين وعلى مصبات نهر

الأصلية هنا هي الأمل بأن 'أبناءنا سيتزوجون بناتكم، ونصبح شعباً واحداً'. ولسوء الحظ، فإن ذلك لم يحدث بطريقة تناسب الفرنسيين، لأن الذكور الواصلين منهم كانوا يميلون منذ وقت مبكر للاستيطان إلى أن يصبحوا من الأهالي الأصليين وأن يربّوا أطفالهم على لغات أمهاتهم "الوحشية". وفي العام 1666، بعد ثلاثة أجيال من الحضور الاستعماري الفرنسي، تذمر جين - باتيست كولبرت، وزير لويس الرابع عشر، من أن الفرنسيين الراغبين بالمتاجرة - بالفراء في غالب الأحيان - "لا يزالون" يضطرون إلى التواصل بلغة الأهالي الأصليين[36].

وكان جزء من حل هذه المشكلة هو إرسال فتيات فرنسيات جيدات التربية كي يتزوجن المستوطنين ويؤسسن معهم بيوتاً ناطقة بالفرنسية. وكان من بينهم «بنات الملك» المشهورات، ومعظمهن يتيمات من أسر برجوازية كانت الخزينة تتحمل تكاليف سفرهن وإعالتهن، بل ومهورهن في بعض الحالات. وقد تم إرسال تسعمئة منهن فيما بين العامين 1665 و1673، من أجل زيادة عدد السكان (الذين كان تعدادهم 3215 بموجب إحصائية في العام 1665)، ولتحسين تناسب الجنسين (ذكرين مقابل كل أنثى). ورغم أن جين تالون، المشرف على المستعمرة، قد أخبر كولبرت بأنه كان يفضل فتيات ريفيات مستعدات للعمل كالرجال، بدلاً من هؤلاء السيدات الشابات الرقيقات، إلا أنه يبدو أنهن كن استثماراً جيداً. وقد وصل عدد سكان فرنسا الجديدة إلى عشرين ألفاً في العام 1713، وإلى خمسة وخمسين ألفاً في العام 1755. ووصل معدل الخصوبة الإنجابية إلى مستوى ضخم هو 7.8 أطفال لكل امرأة. ورغم أن 40 بالمئة من المهاجرين فقط كانوا يتكلمون "فرنسية جيدة"، فقد كانت النسبة بين النساء أكثر من النصف. ويبدو أن تنوّع لهجات أسر المهاجرين قد تمت تسويته وتوحيده في القرن السابع عشر لصالح الفرنسية القياسية الفصحى التي يتعلمها الأطفال في أحضان أمهاتهم. وفي العام 1698 أبدى القائد العام للأسطول ملاحظة: 'إن الناس هنا يتكلمون بشكل جيد تماماً وبدون أي لكنة رديئة. ورغم

المسيسيبي (حيث صاروا يعرفون باسم 'كاجون')، وبعضهم في جزر الأنتيل، وأعيد كثير منهم إلى المقاطعات البحرية. وأينما ذهبوا كانت تنبع مجتمعات ناطقة بالفرنسية، لفترة من الوقت على الأقل.

أن هناك خليطاً من جميع مقاطعات فرنسا تقريباً، فإنه لا يمكن تمييز أي واحدة من لهجاتهم في المقاطعات الكندية'[37].

وإن الماركيز مونتكالم، القائد الفرنسي الذي خسر مدينة كيبك للبريطانيين في العام 1759، كان قد اعترف في السابق بأن 'الفلاحين الكنديين يتكلمون الفرنسية بصورة جيدة جداً'[38].

وكانت معاهدة باريس في العام 1763 تعني نهاية إمبراطورية فرنسا في أمريكا الشمالية. فقد خضعت فرنسا الأمريكية للأعداد الساحقة في المستعمرات البريطانية، رغم أن "رصاصة الرحمة" قد جاءتها من سيطرة الأسطول البريطاني في المحيط الأطلسي(*). غير أن الانحدار الفرنسي لم يضع حداً نهائياً للتكلم بالفرنسية في الشمال الشرقي. ورغم أن كندا سرعان ما أصبحت مقصداً لأعداد كبيرة من الرعايا الناطقين بالإنكليزية الذين جاؤوا من المستعمرات الثلاث عشرة، الراغبين في عدم العيش في الولايات المتحدة الأمريكية بعد استقلالها(**)، فقد كان الفرنسيون لا يزالون متفوقين عددياً بنسبة تقرب من سبعة أضعاف في مناطق الاستيطان في إقليم لا يزال عدد سكانه الأوروبيين قليلاً. ففي العام 1791 كان عدد الفرانكوفونيين في كندا يقدر بمئة وأربعين ألفاً، وعدد الأنغلوفونيين يقدر بعشرين ألفاً فقط(***). ومنذ ذلك الحين أقام الفرنسيون دفاعاً مهيباً عن وجود مجتمعهم، متمركزاً حول الكنيسة الكاثوليكية، والقانون المدني الفرنسي، واستمرار استعمالهم للغتهم.

غير أن أعداداً متزايدة راحت تنضم إليهم من المهاجرين الناطقين

(*) لا يمكن أن يكون هذا سبباً أساسياً، لأن القوة البحرية الفرنسية تمكنت، بعد ذلك بعقدين من الزمن، من حرمان البريطانيين بشكل حاسم من الوصول إلى أمريكا عندما كانوا يحاولون الاحتفاظ بمستعمراتهم نفسها [أثناء الثورة الأمريكية التي ساعدها الفرنسيون].

(**) كان الفرنسيون راضين بتقديم فرساي كمكان للمؤتمر الذي جرد بريطانيا من مستعمراتها الأمريكية، بعد عشرين عاماً فقط من مؤتمر باريس، عندما سلبهم الإنكليز فرنسا الجديدة.

(***) هذه الأرقام مستمدة من مصدر فرنسي هو ليكليرك، 2001 على العنوان <HISTfrQCs2Britannique.htm>. وهناك تباين مذهل في بعض الأرقام الإنكليزية: فمثلاً يقول ماكي (1998) إن مئة ألف من رعاياهم قد انضموا إلى سكان موجودين، منهم خمسة وستون ألف فرنسي وتسعة آلاف إنكليزي.

بالإنكليزية أو الآخذين بها. ومن المؤكد أنه عند منتصف القرن التالي، عندما كان عدد السكان الأوروبيين يبلغ مليوناً ونصف المليون، لم يعد الناطقون بالفرنسية هم الأغلبية. ولم تكن تحركات السكان قد وصلت إلى ذروتها بعد. فقد سمح بدخول 2.3 مليون نسمة آخرين بين العامين 1821 و1910[39]. وفي العام 1998 وصل عدد سكان البلد إلى 30.5 مليوناً، منهم 6.7 ملايين، أي 22 بالمئة، يتكلمون الفرنسية كلغة أصلية في مقابل 60 بالمئة تربوا على تكلم الإنكليزية.

ورغم هذه النهاية المخيبة للآمال، فإن كندا هي قصة النجاح الرئيسية للغة الفرنسية كما هي مزروعة فيما وراء البحار. ولكن من المؤكد أنها لم تكن القصة الوحيدة. فقد قامت فرنسا بعمل كبير في تجارة السكّر. وطوال القرن السابع عشر كانت أكثر المستعمرات الفرانكوفونية سكاناً هي في الحقيقة جزر الأنتيل الفرنسية: غوادالوب ومارتينيك: فبحلول العام 1700 كانت موطناً لخمسة وعشرين ألف فرنسي، وسبعين ألفاً من العبيد السود[40]. ولا يزال أحفادهم هناك، بعدد سكان يزيد على مليون، وكلهم يتكلمون الفرنسية، أو الفرنسية المهجنة. وقد أصبحت جزيرة هاييتي فرنسية أيضاً في العام 1697 من خلال عمل القراصنة، واغتنت من العمل نفسه، رغم أن فترة المالكين الفرنسيين انتهت بشكل عنيف بثورة العبيد في العام 1804. وهناك أيضاً لا تزال الفرنسية والفرنسية المهجنة محكيتين حتى يومنا هذا من قبل حوالي 7.5 ملايين. أما مستعمرات التاج الفرنسي الأخرى فكانت إما مواقع تجارية في مناطق مأهولة بازدحام سكاني شديد (تشاندرناغور، ويانام، وبونديتشري، وكاريكال، وماهي، على سواحل الهند)، أو محطات على الطرق البحرية إلى الهند (السنغال، وجزر ريونيون، وموريشيوس، و(لفترة قصيرة) مدغشقر)، أو بقايا غزوات واسعة النطاق لم تنجح أبداً (غويانا الفرنسية)(*). ولم تجتذب أي واحدة منها أبداً

(*) تأسست كايين في العام 1643، وكانت بوجود سكر الكاريبي الوفير جزءاً من خطط كولبرت للاستعمار المنهجي المنظم، واستخدمت زمناً قصيراً بعد الثورة الفرنسية كمنفىً للسجناء السياسيين (1794-1805). ولم تستعد عافيتها الاقتصادية من إلغاء فرنسا للرق في العام 1848، وكانت شهرتها منذ ذلك الحين تعود بشكل رئيسي إلى معسكر الاعتقال فيها، والمسمى جزيرة الشيطان، الذي بقي شغالاً من 1852 إلى 1946.

استيطاناً كبيراً من أوروبا، رغم أن كل واحدة منها ظلت تستضيف مجتمعات فرانكفونية صغيرة حتى يومنا هذا، وخاصة 40,000 لا يزالون في بونديتشري، و160,500 من القادرين على التكلم بالفرنسية في ريونيون، وسط نصف مليون (90 بالمئة منهم من سكان الجزيرة) يتكلمون لغة فرنسية مهجنة[41].

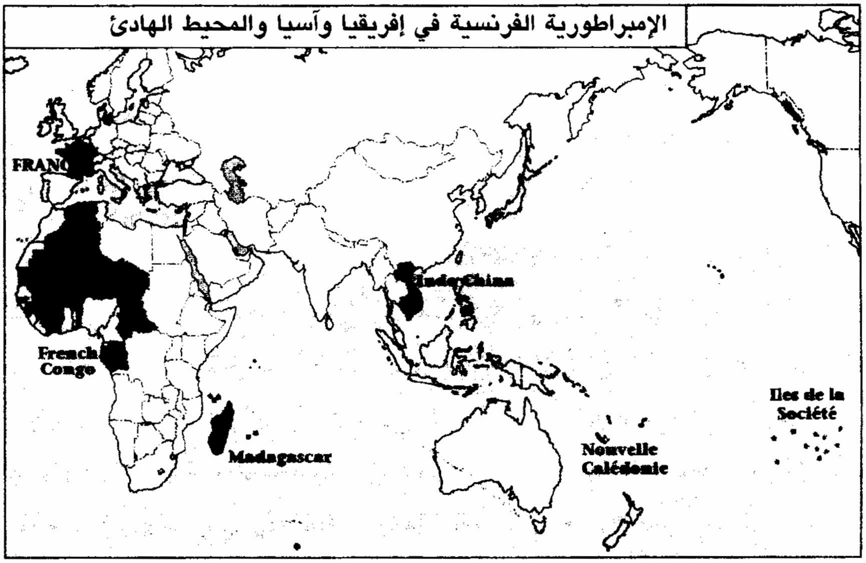
وقد جلبت الثورة الفرنسية مرحلة جديدة من الحروب الاستعمارية، ولكنها - باستثناء غزوة نابليون لمصر، التي كانت خيالية إلى حد ما في العام 1798 - 1799 - خيضت ضمن قارة أوروبا، وكانت نتيجتها كلها لا شيء على الإطلاق في أقل من جيل واحد. ومن المفارقات أن أسباب شهرة فرنسا العظيمة في أوائل العصر الحديث، وهي الثورة وعهد نابليون، لم يكن لها أي إسهام يذكر في نشر اللغة الفرنسية، برغم إرسال جنود ناطقين بالفرنسية إلى جميع أنحاء أوروبا.

ولكن، مع إعادة الملكية في العام 1815، دخلت فرنسا في نوبة جديدة من الاستعمار فيما وراء البحار(*).

الإمبراطورية الثانية

كانت دوافع الفرنسيين مختلطة. وفي إحدى الحالات الهامة، تصرفت فرنسا مثل روما القديمة عندما قامت في العام 1830 بمحاولة لتخليص البحر الأبيض المتوسط من القراصنة فانتهى بها الأمر إلى غزو كامل واسع النطاق للجزائر، وفصلها عن مقاطعات الإمبراطورية العثمانية. وعلى غرار النموذج الروماني، فقد تبع هذا الغزو تدفق للمستوطنين بأعداد كبيرة: فكان هناك مئة وعشرة آلاف منهم في العام 1847، وارتفع عددهم إلى أقل من مليون بقليل في القرن التالي[42]. ولكن هذه كانت حالة استثنائية، ولو أنها كانت تلوح كأكبر شيء في تصورات الفرنسيين عن إمبراطوريتهم الجديدة. وفي حالات كثيرة أخرى كان العمل الفرنسي تقوده الرحمة التبشيرية أو الحماس التبشيري، كما في حالة المحميات المدعاة ملكيتها في المحيط الهندي (جزر كومورو [القمر]، 1840) وفي

(*) وبصدفة سعيدة، أثناء عهد نابليون الثالث (1852-1870) الذي يعرف باسم الإمبراطورية الثانية.



المحيط الهادئ (في جزر المجتمع، 1843، وتاهيتي، 1846، وكاليدونيا الجديدة، 1853). ويبدو أن دوافع مماثلة، على مستوى ما، قد أدت إلى توسيع السيطرة الفرنسية من قاعدتها القديمة في السنغال في السنوات الخمسين التي تلت العام 1817، وتدريب مشاة من الأهالي الأصليين، وقساوسة، ثم اتخاذ إجراءات ضد الملاريا، وبناء مدارس وطرق. وكان اضطهاد البعثات المسيحية هو الذي أعطى فرنسا ذريعة لتبرير غزوها لكوشان الصينية في العام 1859: وبحلول العام 1887 كان "اتحاد الهند الصينية" الفرنسي يسيطر على جميع ما يسمى الآن فيتنام، وكمبوديا، ولاوس.

ولكن هذه المكتسبات الاستعمارية جاءت في وقت كان فيه الأوروبيون قد بدؤوا يعجبون كثيراً بتفوقهم التقني على الشعوب في أي مكان من العالم. ومرة أخرى بدأت فرنسا تبحث عن تفسيرات لنجاحها: وبصورة نموذجية، صارت تعتبر نفسها قوة قادرة على إيجاد فرق في العالم بتوجيهه نحو الأفضل، فلا تكتفي بنشر المسيحية الكاثوليكية، واحترام القانون، بل تنشر أيضاً الماسونية وسياسة صناعية سانت سيمونية، وباختصار: "الحضارة الفرنسية". وكان من السهل جمع ذلك مع طموح للبقاء بصحة جيدة أثناء عمل الخير. وهكذا لم يكن

هناك شعور بأية تحفظات تذكر عندما انضمت فرنسا وبلجيكا إلى "المسيرة الاستعمارية" التي عرفتها بريطانيا باسم 'الاندفاع نحو إفريقيا'.

كان الفرنسيون والبريطانيون هم الرابحين الكبار في حجم الأراضي التي حصلوا عليها. فقد نمت الإمبراطوريتان بشكل كثيف وكبير في العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر. فتوسع الفرنسيون من ممتلكاتهم الموجودة في الجزائر والسنغال، ولكنهم أقاموا أيضاً رؤوس جسور في ساحل العاج (1842) والغابون (1843). فأولاً، من العام 1876 إلى العام 1885، تم نحت إفريقيا الاستوائية الفرنسية من شاطئ الغابون، فشملت ما سيصبح الغابون، والكونغو، وجمهورية إفريقيا الوسطى، وتشاد، ثم من العام 1883 إلى العام 1894 تم الاستيلاء على إفريقيا الغربية الفرنسية من الغرب والجنوب الغربي فشكلت السنغال الحديثة، وموريتانيا، ومالي، وغينيا، وساحل العاج، وبوركينا فاصو، والنيجر، وبنين.

ولم يكن الفرنسيون هم الفرانكوفونيين الوحيدين في السباق، ففي العام 1877 ـ 1879 قام ملك بلجيكا ليوبولد باعتماد المستكشف البريطاني السير هنري ستانلي كوكيل شخصي له، ثم ادعى بوقاحة ملكية المنطقة المعروفة الآن باسم الكونغو، وهو ادعاء قبلته القوى الأوروبية الأخرى في العام 1885. ثم في العام 1886 تبعه الفرنسيون فأطاحوا بملكة مدغشقر، وبرروا فعلتهم هذه بإلغاء الرق فوراً في مملكتها القديمة. وفوق ذلك كله ادعت فرنسا أن الدول المجاورة للجزائر على ساحل البحر الأبيض المتوسط هي محميات لها فسيطرت على تونس في العام 1881 وعلى المغرب في العام 1912.

وبحلول العام 1913، أصبحت الفرنسية لغة الحكام في أكثر من ثلث المناطق في إفريقيا، بدءًا من جبال أطلس على المحيط الأطلسي في الشمال وحتى البحيرات الكبرى في وادي الرفت. وهذا التوسع يمكن مقارنته بفتوحات الإسكندر، أو بحروب الجهاد في الإسلام في القرن السابع. فقبل ذلك بخمسين عاماً، لم تكن هذه اللغة تسمع في إفريقيا خارج الجزائر والسنغال.

وبطرق عديدة، أجهد الفرنسيون أنفسهم ليثبتوا أنهم يستحقون ممتلكاتهم

الجديدة المفاجئة فجلبوا إليها الطرق، وسكك الحديد، والتلغراف، والهجمات العلمية على الملاريا والأمراض الاستوائية الأخرى، بالإضافة إلى العقيدة المسيحية، واللغة الفرنسية، وكذلك ـ بالنسبة لبعض القلة من المحظوظين المتميزين ـ تقدير العقلانية الديكارتية. ويبدو أنهم نجحوا فعلاً في أن ينقلوا إلى رعاياهم شعوراً بأن الطريق العملية الوحيدة للقوة والاستقلال تكمن في إتقانهم لمهاراتهم الخاصة: وكان هذا النوع من الإقناع أحد أهدافهم المثالية، وقد أطلقوا عليه اسم "الإشعاع". وقد تصارعوا ـ أكثر بكثير مما فعلت الإمبراطوريات الأوروبية الأخرى ـ مع مسألة ماهية مصلحتهم الحقيقية في المواضيع التالية: الاستكشاف، الذوبان، التبشير، التثقيف، أو مجرد الترابط السياسي. فهل كانت فرنسا تبحث عن "المجد"؟ أم عن "رسالتها الحضارية"؟ فقد كان الفرنسيون يأخذون ثقافتهم نفسها على محمل الجد بحيث لم يستطيعوا أن يعتبروا ممتلكاتهم أي شيء سوى أنها أجزاء من فرنسا: "فالحضارة الفرنسية" لا تتجزأ. فقد كانت الفرنسية مستخدمة للإدارة في كل مكان، ومثبتة مؤسسياً كلغة للتعليم في المدارس الثانوية والمعاهد العليا، حتى في الأماكن التي كان فيها تقليد قديم من الثقافة والتعليم بلغة أخرى ـ كالهند الصينية وشمال إفريقيا(*). وكان أبناء المستعمرات في معظم الأماكن قادرين على التطلع إلى الحصول على مواطنية فرنسية كاملة.

ولكن باستثناء الجزائر ـ حيث كان السكان الأصليون المسلمون أقل استعداداً لاعتبار غزاتهم النصارى نموذجاً يحتذى ـ كان الفرنسيون قليلين على الأرض بحيث لا يستطيعون تعزيز مجتمعهم ذاته. فلم تكن هناك أسباب اقتصادية صلبة تذكر لاجتذاب الفرنسيين إلى هذه البلدان، أو لإبقائهم فيها. وسرعان ما ظهر ذلك. فعلى عكس ما حدث في الإمبراطوريات الأوروبية الأخرى، فإن الفرنسي النموذجي في الخارج ظل رجلاً عسكرياً أو طبيباً، أو مبشراً، أو مدرساً. فالعسكري الفرنسي البارز نابليون قد اشتهر بازدرائه للإنكليز بتسميتهم 'أمة من أصحاب الدكاكين'. ولكن نقص مثل هؤلاء الناس بالذات في المستعمرات الفرنسية هو الذي أبرز مدى عدم

(*) إن البلجيكيين الذين اعتمدوا أكثر على الخبرة الأجنبية لإدارة إمبراطوريتهم استخدموا الفرنسية أيضاً بصورة أقل كلغة متغلغلة في إدارتهم. وكما في المستعمرات البريطانية، كان هناك استخدام واسع النطاق لأي لغة مشتركة موجودة في السابق، وبخاصة السواحيلية ولنغالا.

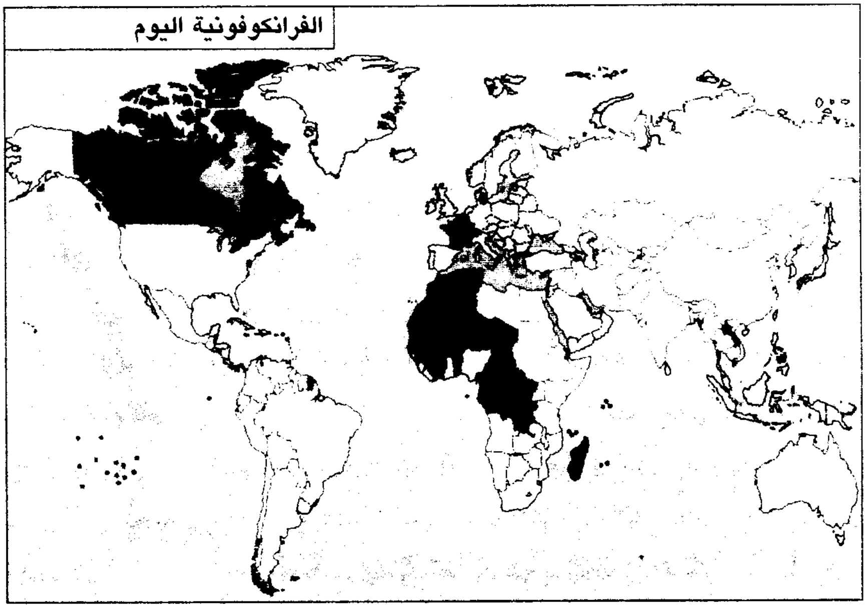
استقرار الفرنسيين هناك. فعلى عكس الممتلكات البرتغالية، والإسبانية، وحتى الهولندية، لم يكن هناك جزء في الإمبراطورية الفرنسية اجتذب هجرة كثيفة. كما أن الحكومة الفرنسية في القرنين التاسع عشر والعشرين، لم تكن قادرة ولا راغبة في تمويل أي هجرة، كما كانت تفعل في القرن السابع عشر. ونتيجة لذلك ظلت الفرنسية في كل مكان عدا الجزائر لغة النخبة الحاكمة فقط، حتى عندما قد يكون باقي السكان متطلعين بلهفة إلى قيمها - كما في إفريقيا السوداء على الأقل.

وقد ازداد عدد المستعمرات الخاضعة لإدارات ناطقة بالفرنسية بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، عندما تم اقتسام الممتلكات الألمانية والعثمانية. فكانت الكاميرون وتوغو من نصيب إنكلترا، ورواندا وبوروندي من نصيب فرنسا. كما وُضعت سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي كذلك. ولكنها جميعاً حصلت على الاستقلال في الأعوام الخمسة عشر التي تلت الحرب العالمية الثانية. فبلدان الشرق الأدنى العربية تأسست كجمهوريات مستقلة كجزء من التسوية المباشرة فور انتهاء الحرب. أما الهند الصينية، وشمال إفريقيا، وكذلك مدغشقر وجزر القمر، فقد اضطرت إلى كسب حريتها بقوة السلاح؛ وفي جنوب الصحراء الإفريقية، مُنحت البلاد استقلالها بناء على مطالبتها الجادة في العام 1960. وأما الأمم الصغيرة في المحيط الهادئ والبحر الكاريبي وأمريكا الجنوبية، فهي لا تزال عملياً جزءاً من الإمبراطورية: ولكنها الآن جزء من الاتحاد الفرنسي: طبقاً للدستور الذي تبناه الاستفتاء الشعبي في 27 تشرين الأول/أكتوبر من العام 1946:

> تشكل فرنسا مع شعوب ما وراء البحار اتحاداً يقوم على المساواة في الحقوق والواجبات، من دون تمييز بسبب العنصر أو الديانة.

وكل أبنائه (عندما يأتون إلى فرنسا) مواطنون فرنسيون. ومن الملاحظ أن اللغة غير مشمولة كجانب يتحرر الاتحاد فيه من التمييز: وسبب ذلك هو أن لغة كل شخص في الاتحاد من المتوقع أن تكون هي الفرنسية.

وتمشياً مع احترامها الصريح للوضوح والعقلانية، فإن مجتمع اللغة الفرنسية يسعى لتنظيم نفسه، ولديه تصور شامل عن نفسه أكثر من أي مجتمع آخر على ما يبدو. وهكذا فإن من خصائصه النموذجية أنه أعطى نفسه تنظيماً



دولياً سياسياً وتقنياً وثقافياً، يعرف باسم "الفرانكوفونية". وإنه مما يرضي الحكومة الفرنسية أن المبادرة لذلك لم تأت من فرنسا، ولكن جاءت من عدد من الناطقين المميزين بالفرنسية كلغة ثانية. ومع ذلك فربما كان هناك دافع سياسي معين: فقد كان المؤسسون هم: الرئيس الحبيب بورقيبة من تونس، والأمير نوردوم سيهانوك من كمبوديا، والرئيس ليوبولد سنغور من السنغال، وشارل حلو من لبنان، وهاماني ديوري من النيجر. ورغم ذلك فإن فرنسا تقدم فعلاً ما يصل إلى ثلثي ميزانية المنظمة. وقد تأسست الفرانكوفونية في 20 آذار/مارس من العام 1970 في نيامي عاصمة النيجر في إفريقيا الوسطى، وعقدت مؤتمرات قمة بانتظام بحضور أعضاء في مجالس الوزراء، وكانت القمة التاسعة في بيروت في العام 2002. وليست العضوية محصورة بمستعمرات فرنسا السابقة، بل إن مصر قدمت للمنظمة مؤخراً أمينها العام، بطرس بطرس غالي: فهي بصورة نموذجية تختار التوكيد على بعض العلاقات المفهومية والمعنوية وليس التاريخية.

ومن المدهش إلى حدٍ ما أن تأييدها الحديث يتركز على حماية التنوّع وتمكينه، وهذه بالتأكيد مسألة مبتكرة تشغل أذهان الفرانكوفونيين، وهي لا تخلو

من نفحةٍ من "النزوع إلى الأذية" والضرر الموجه من بلاد الغال إلى منافسيها الدائمين "الأنغلوساكسون". ولكنها تقع ضمن الاعتبار القاطع الواضح المعالم والنزيه أحياناً لحقوق الإنسان. غير أن المصالح السياسية لا بد أن تظهر. ولقد كان من الصعب على الدولة الفرنسية في السنوات الأخيرة، حتى أن تحمي وتغذي التنوع اللغوي المتبقي ضمن ممتلكاتها نفسها. وعلى سبيل المثال، فإن عمل وزير التعليم في العام 2002 الهادف إلى دمج مدارس اللغة البريتونية في نظام الدولة، وبالتالي تمويل هذه المدارس وطنياً، يخالف مادة تم إدخالها في الدستور الفرنسي في العام 1992 ـ وتنص على أن لغة الجمهورية الفرنسية هي الفرنسية(*).

روما الثالثة، والروسيات كلها

> لكن الابتعاد عن النافذة المطلة على أوروبا شيء صعب، وهذه حقيقة. ولكن بعد أن نقول ذلك، فإن آسيا في الحقيقة يمكن أن تكون هي مخرجنا في المستقبل ـ وأنا أكرر التعبير عن ذلك! فإذا استطعنا أن نتقن هذه الفكرة، ولو جزئياً، فيا له من جذر يتم إحياؤه عندئذ! آسيا، روسيانا الآسيوية ـ فهذا هو أيضاً جذرنا المريض، الذي لا نحتاج إلى إنعاشه فقط، بل إلى بعثه وإعادة بنائه! إنه مبدأ، مبدأ جديد، ورأي في القضية، فهنا ما هو ضروري!.
>
> فيودور دوستويفسكي، ما هي آسيا بالنسبة لنا؟ 1881[43]

إن الروسية، آخر لغة أوروبية كبرى تنتشر عن طريق الإمبراطورية، تختلف عن اللغات الأخرى بطرق عديدة. فممتلكاتها لم تتوسع عن طريق الحملات البحرية، بل بواسطة الحملات العسكرية البرية في أغلب الأحيان، ومن هنا فقد احتلت مناطق في شريط شاسع متلاصق يتاخم حدود موطنها من الجنوب والشرق في السهل الأوروبي الشمالي. وقد توسعت حدودها في

(*) المادة 2 من الدستور: "لغة الجمهورية الفرنسية هي الفرنسية". وهي مادة تنفذ بموجب قانون 4 آب/أغسطس من العام 1994 (مطبقة في الفقرة L، 121-123 من قانون التعليم).

القسم الأكبر ليس على أيدي التجار أو المبشرين، بل بأيدي القوزاق شبه الرحالة المتنقلين، والمستكشفين والعسكريين، وليس بدافع إقامة المشاريع أو كسب المعتنقين للنصرانية، بل لأسباب السلب والنهب، ولتعزيز المصالح العالمية لدولتها. فقد بدأت روسيا وجودها الواعي بانعدام الدفاعات الطبيعية ضد التتر الناطقين بلغة تركية على تخومها الجنوبية، وبقيت بدون دفاعات طبيعية ضد أبناء عمومتها الناطقين بلغات سلافية في بولندا إلى جهة الغرب. وكانت على محيط المنطقة الثقافية التي كانت تشبه هويتها وتتمشى معها، وهي أوروبا المسيحية، ولكنها كانت تحتل سهلاً يسهل وصول الغزاة إليه على ظهور الخيل، وتقطعه أيضاً شبكة من الأنهار الصالحة للملاحة. وكانت الثلوج تحرمها من الوصول إلى البحر المفتوح معظم أيام السنة. فكان دفاعها الطبيعي الوحيد هو قسوة فصل الشتاء، ولزوجة أرضها في الربيع والخريف، والمسافات الشاسعة التي يتعين على أعدائها قطعها للتغلغل فيها. فكانت ظروفها ملائمة لتنمية قوة وحيدة وتعزيزها، مع الدفاع في العمق: وهذه القوة نسميها روسيا(*).

ومع ذلك كانت هناك نقاط تشابه مع بناة إمبراطوريين آخرين ناجحين في أوروبا. فقد كان هناك دافع تجاري للتوسّع شرقاً إلى داخل سيبيريا، وهو خروج الرجال إلى الهواء الطلق لاصطياد الحيوانات من أجل فرائها، كما قدر للفرنسيين ثم للبريطانيين أن يفعلوا فيما بعد في أراضي كندا القفراء. وكانت الكنيسة الروسية الأرثوذكسية طيلة معظم الألف الأخير من التقويم الميلادي رمزاً قوياً

(*) الاسم (Russia) صيغة لاتينية من كلمة روسي (Rusʸ) التي سُمعت لأول مرة في القرن التاسع. وأصولها مبهمة (يناقشها فرانكلين وشيبارد 1996: ص 27-32). ولكن الفنلنديين كانوا يسمون السويديين روتسي (Ruotsi) (التي قد يكون معناها الأصلي "المجدفين")، وأول استعمال مسجل للكلمة (كما في روس (Rhōs) عن طريق اليونانية) هو في الرواية الحولية التاريخية عن زيارة لبلاط فرنجي قام بها في العام 839 ’رجال معينون فقالوا إنهم يسمون الروس (Rhos) وأن ملكهم المعروف بلقب خاقانوس [أي لقب خاقان التركي!] هو الذي أرسلهم... واكتشف الإمبراطور [لويس - الذي حلف أيمان ستراسبورغ، انظر الفصل 8].... أن أصلهم من السويد‘. ولكن مصدراً معاصراً هو كتاب "المسالك والممالك" العربي (حوالي العام 846)، يخبرنا بأن ’الروس هم قبيلة من السلاف، يجلبون فراء القنادس والثعالب السود‘ (ميلنر - غولان 1997: ص 53-55). وهناك أيضاً نهر صغير يدعي روسي، يصب في نهر الدنيبر إلى الجنوب من كييف تماماً.

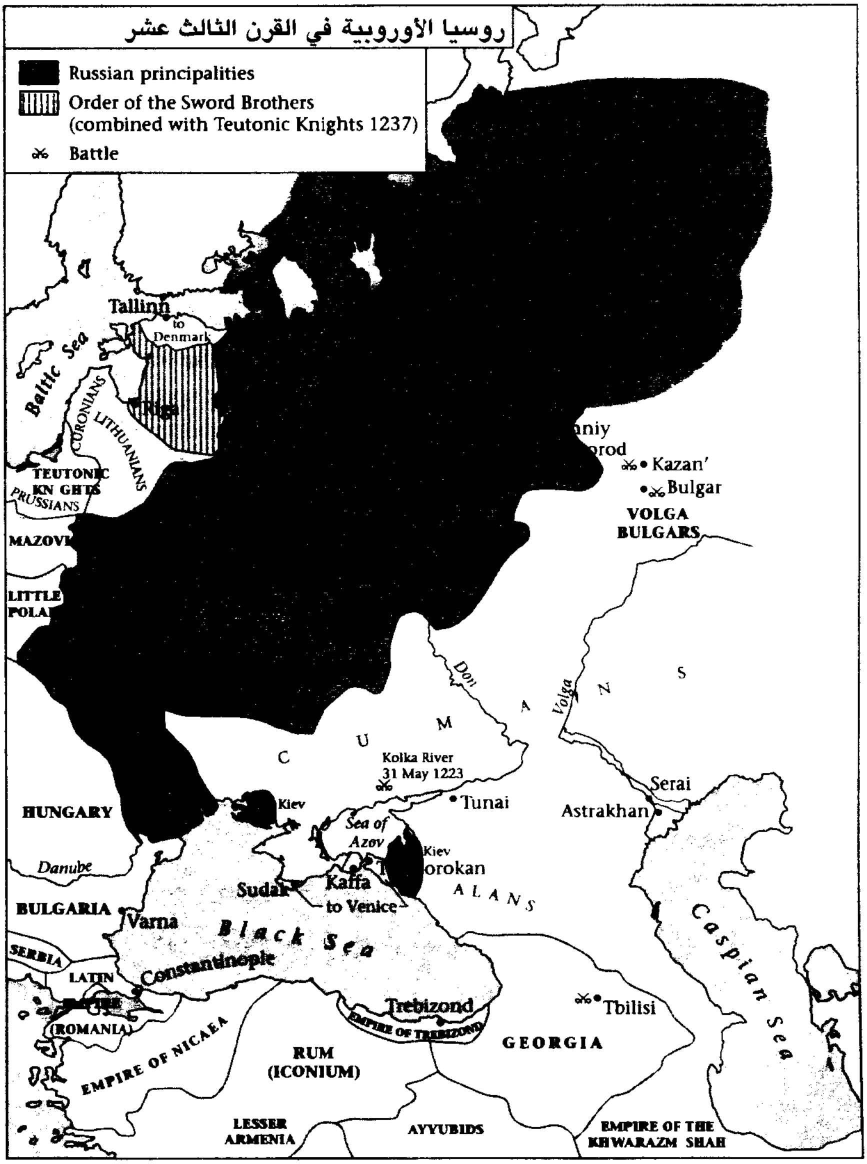
فعالاً للهوية الروسية(*) التي رافقت تقدم قوات روسيا عبر أوروبا الجنوبية الشرقية، وآسيا الشمالية والوسطى حتى المحيط الهادئ. وبما أن اللغة كانت صيغة قديمة من روسيا نفسها، فإن هذا يشبه قبل كل شيء الممارسة الإمبراطورية لكنيسة إنكلترا. ومثلما فعل البريطانيون والفرنسيون تماماً في القرن التاسع عشر، خططت الحكومة الروسية عن وعي للمراحل التالية من توسعها العالمي. فقامت في الأعوام 1871 - 1881 بغزو آسيا الوسطى، أي على وجه التحديد منطقة 'طريق الحرير' من تركستان، جنوبي بحر آرال، من أجل حماية الحدود الجنوبية، وباعتبارها مصدراً أساسياً للقطن. وقبل كل شيء، فإن نشر اللغة الروسية ضمن هذه الحدود الممتدة الشاسعة قد ضمنه على المدى الطويل تدفق مهاجرين ناطقين بالروسية من الشمال الشرقي إلى داخل المناطق الروسية الجديدة: فبعد إلغاء الرق الذي كان يربط العبيد بالأرض، في العام 1861، راح نصف مليون منهم يبحثون عن حظوظ أفضل إلى الشرق في داخل سيبيريا فيما تبقى من القرن التاسع عشر(**).

أصول اللغة الروسية

إن السلاف الشرقيين الذين أسسوا روسيا كانوا من بين المتحدرين من الفينيتي Veneti الذين كانوا كما رأينا (انظر الفصل السابع: 'السقوط: حالات تقدم الألمانية والسلافية'، ص 429) يسكنون على سواحل بحر البلطيق في أوائل الألف الميلادي الأول، وكان هناك عدد كبير منهم لم يرحلوا جنوباً ليسكنوا في

(*) إن كلمة أورافوسلافني الروسية التي معناها أرثوذكس هي ترجمة مستعارة من الإغريقية. ولكن مما له دلالة أنها قابلة للتأويل بحيث تعني 'السلافي الحقيقي' أو 'المجيد الصحيح القويم'.

(**) باراكلاف (1978، ص 209، 230). في أوائل القرن العشرين كانت هناك تدفقات كبيرة إلى داخل تركستان كذلك، وكانت في بعض الأحيان تسبب نزوحاً للأهالي المحليين نحو الشرق إلى داخل الصين على نطاق واسع (هوسكنغ 1997، ص 389-390). وفيما بعد، وخاصة تحت حكم ستالين فإن هذه التدفقات زادتها عمليات طرد جماعي متعمد لأسباب ظاهرها أمني، مما يذكرنا بتغلات بيليسر وخلفائه في الإمبراطورية الآشورية (انظر الفصل 3: 'الأكادية - تقنية تتغلب على العالم..' ص 109). ولكن السكان الذين طردوا إلى قازاخستان وسيبيريا كانوا يتكلمون لغات غير الروسية، فمنهم 200,000 تتري ناطقون بالتركية من القرم و1.8 مليون ألمان من الفولغا. وبعضهم، مثل شيشان - إنغوش، وكابارد بالكار، وكالميك، سمح لهم بالعودة فيما بعد، ولكن يوجد الآن 300,000 كوري في أوزبكستان الحديثة وقازاخستان (دالبي 1998، ص 616، 223، 329، وكومري 1981، ص 30).



روسيا الأوروبية في القرن الثالث عشر

البلقان ويغزوا اليونان (انظر الفصل السادس: 'تلميحات عن التدهور'، ص 364)، ولكنهم بدلاً من ذلك استقروا باتجاه الشرق، في تنافس قلق وغير سهل مع القبائل البلطيقية إلى الشمال الغربي منهم، والقبائل الأورالية، التي كان من بينها الفنلنديون إلى الشمال الشرقي. والواقع أن هناك زعماً بأن السكان الأصليين

الروس كانوا من أصل فنلندي، وبالتالي فلغتهم فنلندية. وقد استقر السلاف بينهم في القرون الأولى من الألف الميلادي الثاني.

وكان هؤلاء الناس يتكلمون لغة لها علاقة بلغة جيرانهم الألمان من جهة الغرب، ولغة جيرانهم البلطيقيين (اللاتفيين، والليتوانيين، والبروسيين) من جهة الشمال، ولكنها ذات لهجة أنعم بشكل ملحوظ، بحيث إن حروفها الصامتة كانت حلقية وكثيراً ما تلفظ بطريقة احتكاكية قبل الحرف e والحرف i(*). ونتيجة لذلك يكثر ورود الأصوات ش [š]، وتش[č] وج [ž]، ويلاحظ ذلك من مقارنة القسم الأوسط من الصلاة للرب في أقدم أشكال لغاتهم وصياغاتهم القوطية (أقدم لغة جرمانية) والليتوانية (أقدم لغة بلطيقية)، والسلافونية الكنسية (السابقة للروسية).

وكان السلاف الشرقيون مزارعين وليسوا متنقلين، رغم أن البحث عن القراءة كانت له أولوية دائمة على حدودهم الشرقية؛ وقد استمرت لغتهم فشكلت الروسية الحديثة، والأوكرانية، والبيلوروسية، وكلها متقاربة بما يكاد يكفي لاعتبارها لهجات. وعند نهاية الألف الأول الميلادي كانت قد ترسخت في منطقة غابات شاسعة تمتد من ساحل البلطيق قرب نوفغورود إلى الجنوب من كييف تماماً، وإلى الشرق حتى كازان. ورغم أن هؤلاء الناس كانوا يتكلمون الروسية فإن طبقتهم الأرستقراطية كانت تتكون من الفايكنغ (المعروفين باسم "فارياجي" أو الفارنجين)، وكانوا ملاحين قاموا بغزوات على الطرق المائية من البلطيق، وكانوا في بادئ الأمر يتكلمون لغة نورس الشمالية، ولكنهم كانوا قد تخلوا عن لغتهم نفسها، كما فعل كثير من الغزاة الجرمان. وقد نظموا الروس على أساس العواصم بالابتعاد إلى الجنوب باستمرار، في نوفغورود، وسمولنسك، و(في العام 882) في كييف. وكانت دفينا وفولخوف مرتبطتين بنقل المراكب والسلع عبر نهر الدنيبر، وبذلك أقيمت المواصلات مع البحر

(*) قارن ذلك مع ما يحدث للحرفين t وd في الإنكليزية البريطانية قبل حرف u الطويل: فالكلمتان *tune* و*dune* تلفظان 'تيون' و'ديون' ولكنهما بالاحتكاك تتحولان إلى 'تشون' و'دجون' في لفظ اللغة اليومية المحكية الدارجة.

الأسود، وبالتالي مع الإمبراطورية البيزنطية. وفي العام 988، أدت هذه الرابطة إلى تحول فلاديمير (غازي العالم) وبلاطه في كييف إلى اعتناق المسيحية الأرثوذكسية. وفي القرون الأربعة التالية لذلك انتشرت هذه الديانة لتشمل المدى السلافي الشرقي كله.

وإلى الجنوب من ممتلكات كييف كانت هناك سهوب معشوشبة سيطرت عليها في النصف الثاني من الألف الميلادي الأول سلسلة من الشعوب الرحّالة على ظهور الخيل والناطقة بلغة تركية، ظلت تصل تباعاً من الشرق، تغزو ثم تستقر باعتبارها الأسياد الجدد: وهي قبائل آفار، والخزر، والبلغار، والمجر، والبيشينيغ، وكيبتشاك ـ بولوفتسيان، وآلان، وأخيراً، مغول جنكيز خان. وكانت هناك حروب متواصلة على مدى تلك الفترة، خلدها أول عمل باقٍ من الأدب الروسي عنوانه "أغنية حملة إيغور" عن أحداث وقعت في العام 1054، والظاهر أنها كُتبت في القرن الثاني عشر:

أيها الأمير، لقد أسر الحزن عقلك الآن،
لأن صقرين قد طارا من عرش أبيهما الذهبي
ليفوزا بمدينة تموتوروكان،(*)
أو ليشربا من نهر الدون، من قريتهما الصغيرة.
وقد قصقصت سيوف الكفرة الآن أجنحة الصقرين،
وهما مكبلان بأصفاد من حديد ....

وفي آخر الأمر، فإن المغول، الذين شكلوا خانات الجحفل الذهبي، نهبوا كييف، وأنهوا هيمنة المدينة على روسيا في العام 1240. وإن سيادة المغول، التي استتبعت عبئاً ثقيلاً على شكل إتاوة، تم الاعتراف بها في جميع أنحاء الأقاليم الروسية، حتى من قبل الأمير ألكساندر نيفسكي في الشمال في نوفغورود في العام 1242، برغم انتصاراته الحديثة آنذاك على السويديين والفرسان التيوتونيين.

(*) قلعة فارانجية على المضيق بين بحر آزوف والبحر الأسود: ومن الواضح أن الصقرين كانا يحاولان شق طريق إلى الشرق من كييف.

وكانت هناك تقديرات تقول بأن هذا الإخضاع المبكر، الذي استمر قرابة قرنين ولم ينتهِ بشكل حاسم إلا بانتصارات إيفان الرابع ('الرهيب')، قد زرع تشاؤماً دائماً في الروح الروسية، وأسس تقليداً عميق الرسوخ من العبودية في قاع المجتمع، والاستبداد المطلق في قمته.

وعندما جاءت الحكومة الروسية التالية، لم تكن قاعدتها تقوم على كييف، بل على موسكو، على بعد 800 كيلومتر (وبالمقياس الروسي 750 فيرست) إلى الشمال الشرقي. وفي عام 1328 نقل المطران الآرثوذكسي مقره إلى هناك كذلك. كان لموسكو موقع مركزي جيد ضمن روس. وكان انتصارها على المدن ـ الدول الروسية الأخرى يعود جزئياً إلى بقائها موحدة، وكانت محظوظة بإنتاج وريث ذكر وحيد في كل جيل في القرن الرابع عشر. وقد قام أمير موسكو الكبير، ديمتري دونسكوي، بدحر المغول في العام 1380. وفي العام 1480 قام إيفان الثالث بإبطال سيادتهم في آخر الأمر. كانت مكانة أمراء موسكو ترتفع في العالم: فقد تزوج إيفان صوفيا باليولوغو، ابنة أخ الإمبراطور البيزنطي الأخير (الذي أطاح به العثمانيون في العام 1453) وادعى بأنه قد ورث مكانة إمبراطورية عن طريق شارة نبالة خاصة منحها الإمبراطور البيزنطي قسطنطينوس مونوماخوس إلى فلاديمير مونوماخ (أمير كييف) في القرن الحادي عشر. وصارت موسكو تُمَثَّلُ على أنها روما الثالثة. وكتب الراهب فيلوفي من بسكوف إلى إيفان الثالث في نهاية القرن الخامس عشر: 'إنك الإمبراطور الوحيد لجميع المسيحيين في العالم كله ... لأن روما الأولى والثانية سقطتا، والثالثة قائمة ولن تكون هناك رابعة'[(44)].

وفي العام 1547، كان إيفان الرابع أول حاكم يُتَوَّج، ليس كأمير بل كقيصر ("تساري" باللفظ الروسي)[(*)]. وقد تابع عمله ليثبت أنه يستحق اللقب بغزو الجزأين الكبيرين الباقيين من الجحفل الذهبي، وهما خانات قازان الأتراك (في العام 1552) وأستراخان على بحر قزوين (في العام 1556) وضمهما

(*) كان لقب كنيازي: 'الأمير' القديم مستعاراً بالمثل من مصطلح غربي. فهو تحوير من لقب "كونينغاز" الألماني، الذي يعني حرفياً 'الرجل ذا النسب الرفيع'، وهو أيضاً لقب "كنغ" الإنكليزي، أي 'الملك'.

كليهما إلى ملكه. وتم استيعاب النبلاء المحليين ضمن النبلاء الروس، وبدأت عملية هضم وامتصاص. وبهذه الخطوات، بدأ الروس سيرة حياتهم لفرض أنفسهم على المجتمعات اللغوية الأخرى، وتوسيع إمبراطوري لمجال لغتهم قُدِّر له أن يستمر بعد ذلك ثلاثة قرون ونصف قرن انتهت في القرن العشرين بتغطية اسمية للنصف الشمالي من كتلة البر الآسيوية للقارة بكاملها.

الروسية شرقاً ثم غرباً

إن القسم الأعظم من هذا الانتشار جاء من دون مبادرة فعالة من القيصر، أو حكومته، أو جيوشه. بل كانت النتيجة الفورية لغزو كازان وأستراخان هي إزالة الحواجز أمام تغلغل الروسية في الخارج باتجاه الشرق؛ وسرعان ما تم استغلال هذه الفرصة. فقد تصادف أن أسرة ستروغانوف كانت تحتكر تجارة الفراء واستخراج الملح: فاستأجرت آنذاك جيشاً من القوزاق من منطقة نهر الدون، من أجل حمايتها من الخان في سيبيريا الغربية، ثم لمهاجمة عاصمة الخان في منطقة إتريش السفلى. فسقطت العاصمة في العام 1582. وعلى مدى سبعة وخمسين عاماً بعد ذلك تقدم القوزاق بسرعة وثبات. وفي العام 1639 وصلوا إلى المحيط الهادئ، وأقاموا مدينة أوخوتسك في العام 1648، وتحركوا جنوباً على الساحل إلى نهر آمور، ولكن سرعان ما أرغمهم الصينيون على التخلي عن المنطقة المتاخمة لمنشوريا. فتحددت الحدود الصينية ـ الروسية لمدة قرنين لاحقين بصورة فعلية، بموجب معاهدة نيرتشينسك في العام 1689.

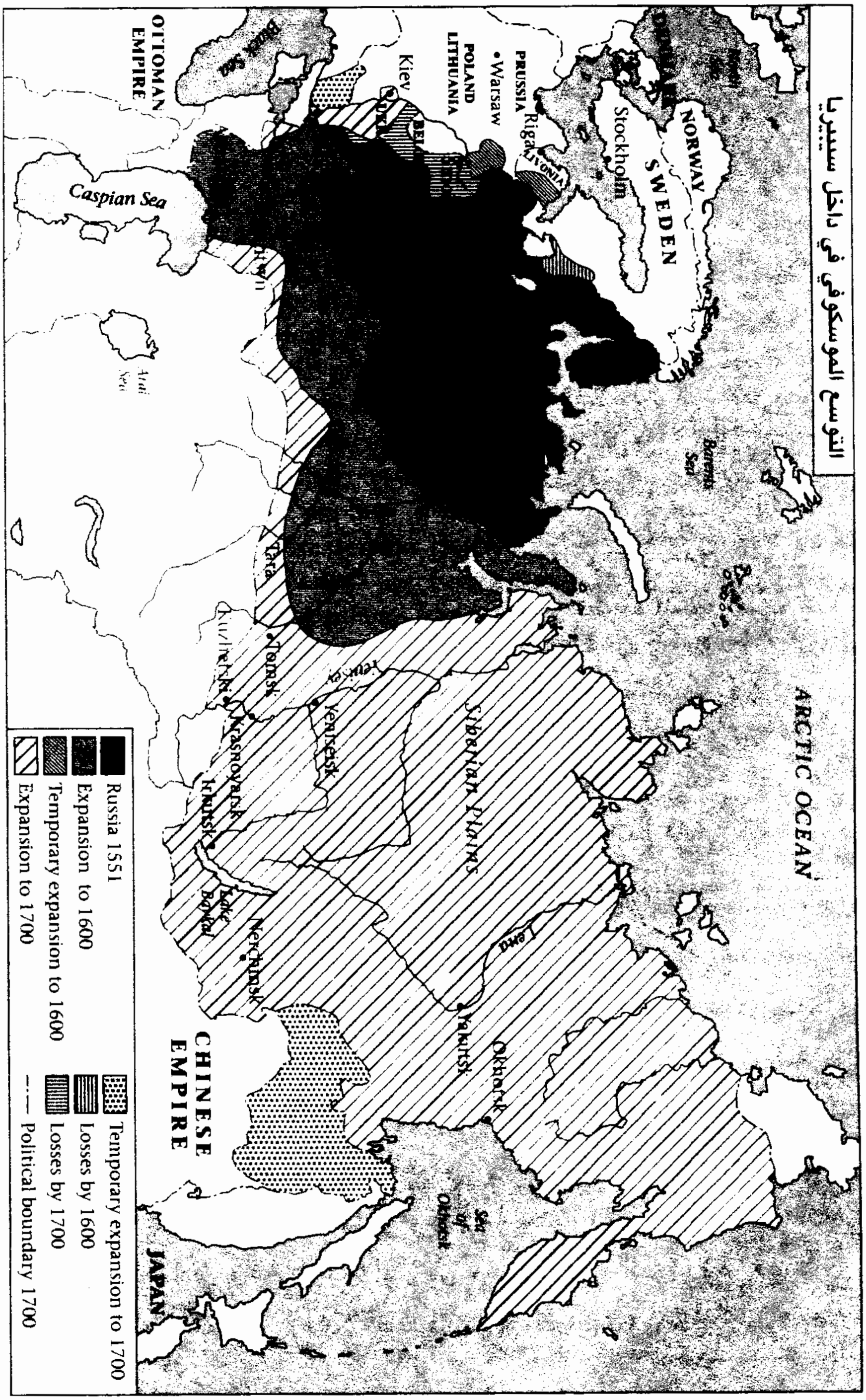
ورغم أن اسم القوزاق تركي(*) فإنهم كانوا يتكلمون الروسية. كانوا مجموعة كبيرة ولكنها متنوعة من الفرسان، والمسيحيين المتشددين، وكانوا غير منظمين ولكن لديهم كبرياء، وكانوا قد أخذوا بعادات البدو الرحّل في القرون

(*) "القوزاق" (بلغة القرم تتر، وبالتركية جغطاي) معناها 'رجل حر، جوال، قاطع طرق'. وبلغات تركية أخرى (مثل القرغيزية، والآذرية، والبشكيرية) فإن كلمة "قازاق" لها معان مثل 'رجل مستقل'، أو 'باحث عن المغامرات'، وكلها مستمدة من الفعل "قيز" باللغة التركية القديمة، ومعناه: 'يمشي، يتجول، يترحل'.

الطويلة التي تعرضوا فيها لتهديد البدو الرحل الأتراك. وكانوا موجودين في جميع أنحاء منطقة السهوب الجنوبية من بولندا وأوكرانيا وحتى قازاخستان. وأثناء تقدّمهم عبر سيبيريا بنوا قلاعاً على معابر الأَنهار الكبرى، بعضها الآن مدن كبرى (من بينها طومسك في العام 1604، وكرانسويا راسك في العام 1628، وياكوتسك في 1632)؛ ولكنهم لم يستقروا في الأراضي التي تقدموا خلالها إلا بشكل خفيف. وقد تبعهم بعض الجنود والمبشّرين وجباة الضرائب (الذين كانوا يفرضون إتاوة تدعى باسمها التركي "ياساك" وتدفع بجلد الفرو) وعدد قليل جداً من المستوطنين الروس، إما من الفلاحين الباحثين عن أرض، أو المنفيين السياسيين الذين ترسلهم الحكومة: ولكن التأثير اللغوي كان خفيفاً في بادئ الأمر. فقد ظل الروس متجمعين على ضفاف الأنهار الكبرى، محاطين في البداية بمختلف الشعوب السيبيرية القديمة. وعلى مدى القرون الثلاثة التالية، عندما بدأت الصناعات الاستخراجية تنمو وتتطور، انضم إليهم مزيد من المستوطنين الذين جاؤوا من الغرب.

إن هذا التوسع المبكر لاحتلال سيبيريا، ومعها الأراضي الروسية الداخلية في شمال السهل الأوروبي، يفسر ما حدث في معظم المنطقة التي هي الآن جزء من روسيا. فقد كان السكان غير الروس هناك دائماً قليلي العدد وبعيدين جداً عن أي مصدر حضاري غير روسي بحيث لم يستطيعوا تنظيم دول مستقلة.

ولكن هذا بالتأكيد لم ينطبق على جيران روسيا الآخرين، الذين وجد أغلبهم أنفسهم خاضعين للغزو الروسي طيلة أربعة قرون من توسع روسيا. وهم أربع مجموعات هي: الدولة الناطقة بالسلافية في الغرب؛ والدول البلطيقية الناطقة باللغة الأورالية في الشمال الغربي؛ والدول القفقاسية في الجنوب؛ ودول آسيا الوسطى في الجنوب الشرقي. وكان ما حدث وقت تأليف هذا الكتاب في أوائل القرن الحادي والعشرين، هو أن معظم هذه الدول قد حصلت على استقلالها، وأخذت تسعى لإعادة بناء علاقاتها مع ماضيها فيما سبق السيطرة


التوسع الموسكوفي في داخل سيبيريا
ARCTIC OCEAN
Barents Sea
NORWAY
SWEDEN
Stockholm
Riga
LIVONIA
PRUSSIA
•Warsaw
POLAND
LITHUANIA
Kiev
Black Sea
OTTOMAN
EMPIRE
Caspian Sea
Tara
•Tomsk
Kuznetsk
•Krasnoyarsk
•Yeniseisk
Siberian Plains
•Irkutsk
Lake Baykal
•Nerchinsk
•Yakutsk
•Okhotsk
Sea of Okhotsk
CHINESE
EMPIRE
JAPAN
Russia 1551
Expansion to 1600
Temporary expansion to 1600
Expansion to 1700
Temporary expansion to 1700
Losses by 1600
Losses by 1700
Political boundary 1700

الروسية؛ أما الدول التي لم تستقل، وخاصة الشيشان والإنغوش في قفقاسيا، فهي تسعى للانفصال بصورة عامة دون سفك الدماء. ومن الحقائق اللافتة للنظر عن مستعمرات روسيا القديمة أنها لا تعطي قيمة للعلاقات التاريخية التي يرمز إليها استخدام اللغة الروسية، ولا حتى الاحتمالات الكامنة في قبولها للروسية كلغة مشتركة. وهذا يستحق البحث عن السبب الذي جعل اللغة الروسية، وحدها من بين اللغات الإمبراطورية الأوروبية، تترك هذا الإرث الشديد التسمّم.

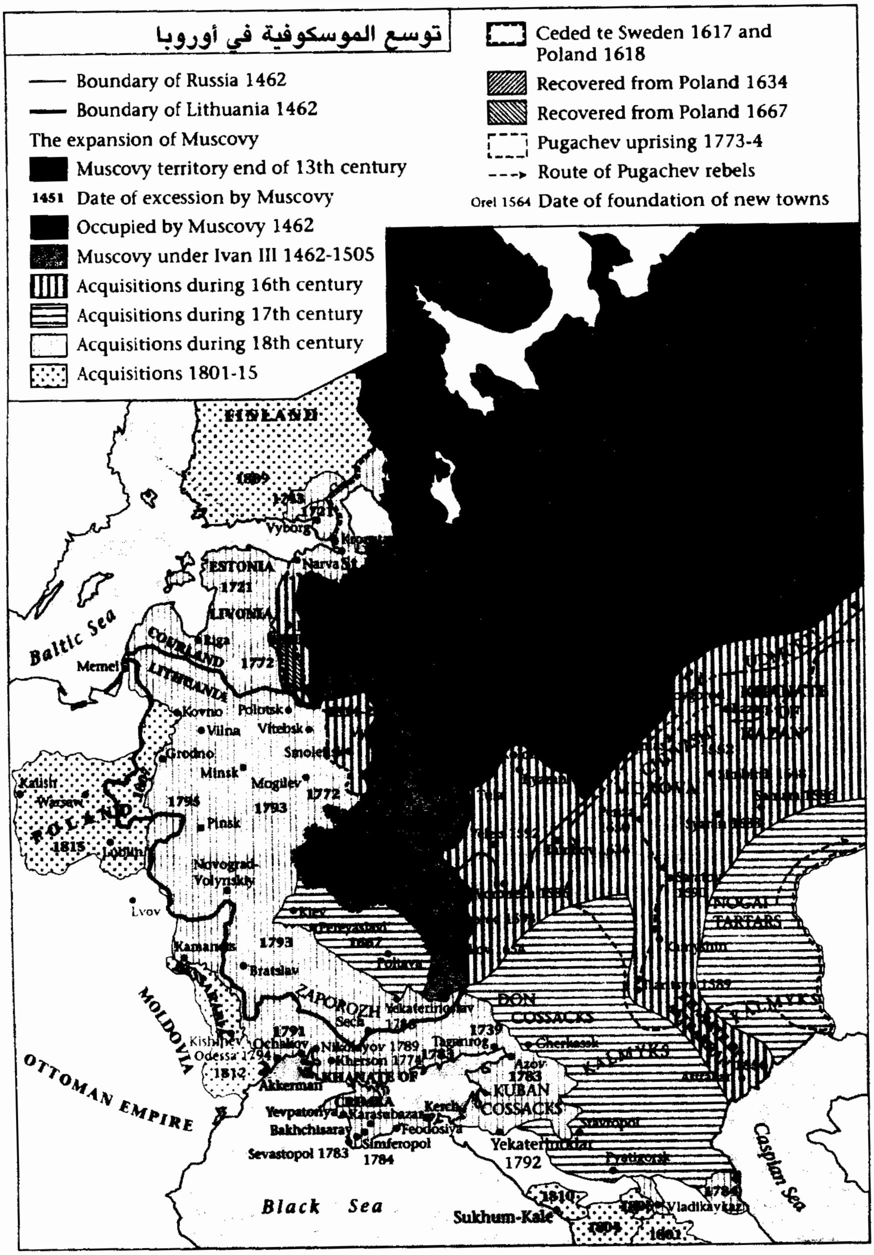
إن الدول الناطقة بالسلافية في غرب روسيا لا تشمل أوكرانيا فقط (وأوكرانيا معناها 'على الحدود')، وبيلاروسيا (أي روسيا البيضاء)، بل تشمل أيضاً بولندا 'أي السهول المفتوحة'(*). وإن التوسع الروسي المبكر في هذا الاتجاه لم يوسع مناطق الناطقين بالروسية في أول الأمر، لأن مملكة ليتوانيا كانت قد استغلت تدمير كييف في العام 1240 لتستولي على معظم أراضي روسيا الغربية. وفيما بعد، في العام 1385 دخلت ليتوانيا في تحالف وثيق مع بولندا عن طريق تزاوج بين السلالات الحاكمة، فشكل البلدان اتحاداً في العام 1569، وهكذا فإن مركز السلطة الجديد في موسكو، عندما حاول استعادة الروس الغربيين، كان يواجه صراعاً حقيقياً مع بولندا. وعندما لجأ إيفان الرهيب إلى السلاح في القرن السادس عشر، فإن نجاحه في التوسع ضد هذه المملكة المسيحية إلى الغرب منه كان أقل بكثير من نجاحه ضد التتر إلى الشرق منه. ذلك أن خمسة وعشرين عاماً من الحروب الليفونية من العام 1558 لم تكن نتيجتها سوى إفقاد روسيا موطئ قدمها على البلطيق وهز استقرار نظامها الملكي. وفي "الأوقات المضطربة" التي أعقبت ذلك، غزت بولندا موسكو واستولت عليها فترة قصيرة من العام 1610 إلى العام 1612. ومن ذلك فعندما أعيد النظام في روسيا تحت حكم سلالة آل رومانوف الجديدة في العام 1613، عاد التأكيد على الضغط باتجاه الغرب وزادت سطوة موسكو بالتدريج. وفي

(*) لم تكن هذه طبعاً هي المجموعات الوحيدة الناطقة بالسلافية في أوروبا الوسطى. ولكن مجموعات أخرى، من بينها الوند، والتشيك، والسلوفاك، والسلوفينيون، والصرب. والكروات، والبوسنيون لم يكونوا جاهزين للاندماج مع روسيا الحديثة المبكرة. ولغاتهم، كالبولندية، لم تكن مفهومة بشكل متبادل مع الروسية، وقد ظلت شعوبها خاضعة بكل ثابت ضمن حدود إمبراطوريات أخرى.

العام 1667 كسب القيصر آليكسي سمولنسك، وكييف، وأوكرانيا الشرقية، أما بقية أوكرانيا وروسيا البيضاء فقد كسبتهما القيصرة كاترين الكبرى في العامين 1772 و1793.

وعند هذه النقطة كان معظم الناطقين بالروسية قد أعيدوا إلى سيطرة الحكومة الروسية، ويمكن المجادلة بأن ذلك تم لأول مرة منذ العام 1240، ولكن تمرد بولندا ضد تسوية العام 1793 أدى إلى حرب كسبتها روسيا بشكل حاسم. فكانت النتيجة الفورية تقريباً، في العام 1795 هي فوز روسيا بالسيطرة على شرق بولندا كلها حتى نهري نيمان والدنيستر. وظل هذا الوضع سائداً حتى أعيد رسم خريطة أوروبا عقب الحرب العالمية الأولى، في العام 1918. ومن الناحية اللغوية، فإن هذه السيطرة لم يكن لها أثر يذكر. فرغم أن اللغة البولندية لها علاقة قرابة وثيقة بالروسية، فإن هذه العلاقة أقل من علاقتها مع اللغتين الأوكرانية والروسية البيضاء. وقبل كل شيء، فإن تاريخ بولندا السياسي والديني (كأمة كاثوليكية) كان متميزاً تماماً، والحقيقة أن معرفتهم وثقافتهم ومستوى معيشتهم العام كانت متفوقة كثيراً على روسيا. ففي البداية، كان القيصر الإسكندر الأول قد منح بولندا دستوراً منفصلاً. ولكن القيصر وجد صعوبة في احترام بنوده؛ وفيما بعد، وخاصة بعد العامين 1863 ـ 1864 (عندما تمردت بولندا) جرت محاولات لإضفاء 'الطابع الروسي'. ومن بين إجراءات أخرى، تم فرض الروسية كلغة رسمية للأعمال التجارية. وطولبت جامعة وارسو ومعها كل المدارس البولندية بالعمل باللغة الروسية حصراً. ولكن ذلك لم ينجح عملياً، وبقيت اللغة البولندية.

وعلى عكس ذلك، ففي حوالي الوقت نفسه، في العام 1863 تم سن القانون اللغوي الأوكراني الأقسى بكثير، فمنع طبع كل الكتب بالأوكرانية، فيما عدا الفولكلور، والشعر، والقصص الخيالية. وتبع ذلك في العام 1867 فرض حظر على استيراد مثل تلك الكتب من الخارج. ومنع استعمال الأوكرانية على المسرح أيضاً. فكان هذا أكثر فعالية. وتم تشجيع الأوكرانيين على أن يروا أنفسهم 'كروس صغار' ـ فكان ذلك مؤاتياً للروس، لأنهم ما كانوا يستطيعون أن



توسع الموسكوفية في أوروبا

يشكلوا غالبية سكان الإمبراطورية إلا إذا تم تصنيف الأوكرانيين معهم(*). وقد

(*) في الإحصائية السكانية للعام 1897، شكل الأوكرانيون 18 بالمئة، وبقية الروس 44 بالمئة.

كتب وزير الداخلية في العام 1863: 'لم تكن هناك أبداً لغة روسية صغيرة متميزة، ولن تكون. فاللهجة التي يستخدمها عامة الناس العاديين هي روسية ملوثة بتأثير بولندي'[45]. وفي العام 1867، استطاع رئيس جامعة موسكو أن يصدر نداءً يقول: 'فلتسد لغة أدبية واحدة في كل الأراضي من بحر الأدرياتيك وبراغ إلى أرخانجلسك والمحيط الهادئ، ولتأخذ كل أمة سلافية مهما كان دينها بهذه اللغة كأداة اتصال مع الآخرين'[46].

إن الهوية المنفصلة للأوكرانية كلغة لها ثقافتها الخاصة بها، وجمهوريتها ضمن الاتحاد السوفييتي، بل ودولتها الخاصة بها اعتباراً من العام 1990، كانت في الحقيقة مدينةً بالكثير لكون هذه الوثائق القانونية لم تعبر الحدود إلى داخل غاليسيا، الزاوية المحصورة الناطقة بالأوكرانية (إلى الجنوب من لفوف) التي ظلت بطريقةٍ ما خارج روسيا، وداخل الإمبراطورية النمساوية ـ المجرية. وكانت تضم عشرين بالمئة من الأوكرانيين كلهم. فاستطاعت التهجئة والتعابير الأوكرانية أن تزدهر بلا عائق على الصفحة المطبوعة، لتذكير الأوكرانيين جميعاً بما يمكن أن يكونوا عليه. ولقد أنهى ستالين استقلال المنطقة في العام 1945، ولكن ذلك لم يكن له تأثير بعيد الأمد. واستمرت غاليسيا حتى أصبحت مركز الحركة الوطنية الأوكرانية في ثمانينيات القرن العشرين، ومفتاح انفصال أوكرانيا عن الاتحاد السوفييتي[47].

الروسية شمالاً ثم جنوباً

وفي الشمال الغربي تمكنت روسيا أيضاً من كسب السيطرة على المناطق الرئيسية للغتين البلطيقية والأورالية. فالمناطق الأورالية في الشمال الشرقي، وبصورة رئيسية كارليا، كانت منطقة تصيّد للروس، على الأقل منذ أن قامت موسكو بغزو إمبراطورية نوفغورود في العام 1472. فقد كان الناس هنا من الأهالي الأصليين، كما أن اتصالهم مع الروس، رغم أنه بدأ قبل السيبيريين الآخرين بقرن، كان من النمط نفسه بصورة جوهرية. وقد تم تجاهلهم بشكل أساسي.

ولم تأتِ إستونيا وليفونيا إلا بعد ذلك بكثير. وجلبتا معهما كمية كبيرة من التجربة الأوروبية من المستعمرين الألمان الذين كانوا قد احتلوهما في القرنين الثالث عشر والرابع عشر، فقد تم انتزاعهما من السيطرة السويدية على يد جالب الحداثة القيصر الروسي بطرس الأول (بطرس الأكبر) في العام 1721، كجزء من حملته المستمرة الطويلة للحصول لروسيا على وصول آمن إلى بحر البلطيق. وعلى مبعدة إلى الجنوب تم الحصول على ليتوانيا ولاتفيا إلى جانب بولندا في العام 1795؛ وعلى مبعدة إلى الشمال، قام الإسكندر الأول بضم فنلندا في العام 1809، وفق شروط مؤاتية جداً للفنلنديين بعد حرب ناجحة أخرى ضد السويديين.

ومن بين هذه المناطق، فإن تغلغل المهاجرين الروس واللغة الروسية كان هاماً في مناطق البلطيق فقط، وخاصة في إستونيا ولاتفيا. ولكن التأثير الألماني هنا، على العكس، ظل قوياً جداً، بل إن تركيب القوة التقليدي "لمنظمات الفروسية" الناطقة بالألمانية قد بقي ثابتاً كمستوىً متوسط من الحكومة حتى قيام ثورة العام 1917. فإلى هذا الحد ظل "الفرسان" الألمان موالين للقيصر. ولكن تحمّل هذا الصمود غير الروسي بدأ يتضاءل بالفعل في أواخر القرن التاسع عشر؛ فقد تم إدخال الروسية في الإدارة والمحاكم في ثمانينيات ذلك القرن، وتشجيع مدارس اللغة الألمانية، مع محاولة لجعل اللغة إلزامية في كل المستويات عدا المستوى التمهيدي. وفي العام 1893، تم تحويل جامعة دوربات، في تارتو، إلى يوريف، كمؤسسة للغة الروسية بشكل صارم. ولكن في العام 1899، عندما حاول القيصر التالي، نيقولا الثاني، أن يتخذ إجراءات لغوية مماثلة في فنلندا، كانت هناك مقاطعة عامة للمؤسسات الروسية. وفي العام 1904 اغتيل الحاكم العام الروسي. وبما أن روسيا كانت في حرب مع اليابان آنذاك، فقد اختارت سبيل السلامة، وأعادت إلى الفنلنديين حرية استعمال لغتهم كما هي مكفولة بالدستور الذي كان الروس أنفسهم قد أعطوه إياه.

وكان الدافع وراء استيلاء الروس على المناطق البلطيقية هو حاجتهم إلى الوصول إلى منفذ للتجارة. وقد أدى هذا الدافع كذلك دوراً في بدايات اندفاع

روسيا إلى الجنوب، ولكن ذلك الاندفاع لا يمكن وصفه بأنه اعتداء سافر، لأن الغارات إلى داخل أرضهم على يد آخر الخانات الأتراك، تتر شبه جزيرة القرم، كانت مستمرة منذ القرن السادس عشر. وقد نمت قوة الروس في القرن السابع عشر، حتى شعروا بأنهم قادرون على عمل شيء ما، ولكن الأمر استغرق قرناً آخر من المحاولات حتى تمكنت كاترين الكبرى أخيراً من قمع التتر ودحرهم وتدمير مملكتهم في العام 1783. وبعد ذلك تمكنت في العام 1792 من تأسيس ميناء روسيا الرئيسي على المياه الدافئة، في أوديسا على البحر الأسود. وسرعان ما اكتسبت هذه المنطقة طابعاً روسياً إلى حد كبير، باستمرار هجرة الروس إليها، وخروج التتر منها، على نطاق واسع كثيف. فذهب معظم التتر إلى الغرب والجنوب، إلى داخل الإمبراطورية العثمانية، التي كانت ما تزال تطوق معظم سواحل البحر الأسود(*).

ولكن في انتشار إمبراطورية روسيا إلى الجنوب، كانت هذه الدرجة من تغلغل اللغة الروسية استثنائية. وكان السبب الأكبر لتمدد الروسية في هذا الاتجاه هو التحالف الغريب مع جورجيا.

وفي جنوب جبال القفقاس، كان الشعبان المسيحيان في جورجيا وأرمينيا، وكل منهما متميز بوضوح تام بلغته الفريدة من نوعها، يواجهان إمبراطوريتين إسلاميتين إلى الجنوب منهما، وهم العثمانيون والفرس. وفي السنة ذاتها التي تغلبت فيها كاترين الكبرى على تتر القرم، أقنعت إيراكلي ملك إمارة كارتلينا ـ كاخيتيا في جورجيا الشرقية بالدخول في معاهدة جورجيفيسك، حيث تضمن روسيا بموجبها وحدة أراضي جورجيا ضد أعدائها (المسلمين) في مقابل سيطرتها على سياستها الخارجية. كانت جورجيا تعتبر منطقة عازلة مفيدة على حافة الجنوب المسلم. وماتت كاترين في العام 1796، ولكنها هي وخلفاءها فسروا المعاهدة من جانب واحد إلى أقصى حد: فلم يساعدوا الجورجيين ضد

(*) وبعد ذلك بكثير، في العام 1944، وفي أعقاب الفظائع النازية في المنطقة، أبعد ستالين المئة والتسعين ألفاً الباقين من تتر القرم إلى آسيا الوسطى بصورة جماعية. وفي تسعينيات القرن العشرين عاد خمسون ألفاً منهم (دالبي 1998، ص 616).

الغزو الفارسي في العام 1795، ولكنهم شرعوا منذ العام 1801 إلى العام 1806 في ضم كارتلينا ـ كاخيتيا أولاً، ثم جميع الإمارات الجورجية الأخرى، فوحدوها وبذلك عززوا قوتها، ولكن كمقاطعة روسية. وشنوا الحرب على فارس نفسها أيضاً، فضموا إليهم إقليم أذربيجان المجاور (الناطق بالتركية) في العام 1805. وصار الأرمن كذلك أعضاءً متحمسين في الإمبراطورية الروسية، وخاصة عندما دحرت روسيا الفرس والعثمانيين معاً وضمت مقاطعة يريفان الأرمنية (1828) واحتلت لوقت قصير الربع الشمالي الشرقي من أناضوليا (1829). وقد ضمن هذا تدفقاً كثيفاً من الأرمن إلى جميع أجزاء القفقاس، ولكن خصوصاً إلى منطقة ناغورنو ـ كاراباغ في أذربيجان.

وقد يبدو أن هذه التدخلات كانت غير مفيدة استراتيجياً، لأن سلسلة جبال القفقاس كانت إحدى الحدود الطبيعية القليلة التي تملكها سهوب روسيا. أما عندئذ فإن روسيا كانت تقدم رهائن مجانية للحظوظ والأقدار فيما وراءها. ولكن الاستراتيجيين الروس، المعتادين على الدفاع عن سهول لا حدود لها، كانوا على ما يظهر سعداء بأن تكون لهم سياسة للاندفاع إلى الأمام فقط. وقد علق الجنرال روستيسلاف فادييف في العام 1860 قائلاً: 'إذا انتهت آفاق روسيا على قمم سلسلة القفقاس المثلوجة، فإن النصف الغربي من القارة الآسيوية بكامله سيكون خارج منطقة نفوذنا، وبما أن تركيا وفارس عقيمتان الآن، فإن هذا النصف لن ينتظر سيداً آخر لزمن طويل'(48).

وكان ثمن تلك المقاطعات عبر قفقاسيا هو 'حروب الستين عاماً القفقاسية'، الذي كان عنوان كتاب الجنرال فادييف. وكان المطلوب لا يقل عن الغزو الروسي لسلسلة الجبال كلها، فقط لضمان وصولها إلى الجنوب المسيحي. فكان القتال مريراً على نحو خاص من أجل الحصول على ميزة دينية: فقد كانت المنطقة كلها تقريباً إسلامية (وبقيت كذلك). ولقد تحقق الغزو، ولكن من خلال وحشية هائلة. وإن الصراعات الحالية في الشيشان تبين أن كثيراً من فورات الغضب هناك لم تهدأ بعد مئة وخمسين عاماً.

وأصبحت الروسية لغة الإدارة والتعليم في كل هذه المقاطعات ـ وبالطبع

ليست لغة الكنيسة أو المسجد. ولكنها على وجه العموم لم تقتلع لغات الأهالي الأصلية في المنطقة، التي هي واحدة من أكثر المناطق اللغوية تنوعاً في العالم. وهذا ينطبق على الشعوب الجبلية في الشمال كما ينطبق على الجورجيين والأرمن المفرطي الثقافة والصقل في الجنوب. وقد طور الآذريون في مجتمعهم أيضاً لغة أدبية خاصة بهم. ولم تكسب الحكومة الروسية أصدقاء، وخاصة في أواخر القرن التاسع عشر، في محاولتها لجعل السكان روسيين أكثر وذلك بقيامها - على سبيل المثال - بإغلاق مدارس الأبرشيات الأرمنية، وإحلال مدارس روسية محلها في العام 1885، ثم إلغاء هذا الأمر فيما بعد. والآن، عندما استقلت جورجيا وأرمينيا وأذربيجان بعد قرنين، يمكن أن نرى أن تغلغل الروسية (بقياسه حسب النسبة المئوية لعدد الناطقين بها كلغة أولى) قد ظل منخفضاً جداً. فهم في أرمينيا 2 بالمئة؛ وفي جورجيا 7 بالمئة، وفي أذربيجان 6 بالمئة(49).

أما قصة توسّع الروسية في آسيا الوسطى الإسلامية فيمكن سردها باختصار، لأنها في ذلك الوقت كانت قد صاغت نفسها بقوالب تشبه قوالب القوى الأوروبية الكبرى الأخرى، بالحرص على ضمان أعلى درجة ممكنة من السيطرة ضمن 'مناطق نفوذها'. فهذه المنطقة الشاسعة التي كانت دائماً ذات أغلبية إسلامية ساحقة يبدو أنها كانت ذات مكانة مختلفة أبعد من أي جزء آخر من الإمبراطورية: فكان الروس يسمون سكانها 'غرباء'. وإن غزو أراضي سهوب قازاخستان(*)، الذي بدأ في عهد كاترين الكبرى في أواخر القرن الثامن عشر، استكمل في العام 1848: وبذلك تم فتحها للمستوطنين، على غرار نموذج الغرب الأمريكي الذي كان يجري استعماره في الوقت ذاته.

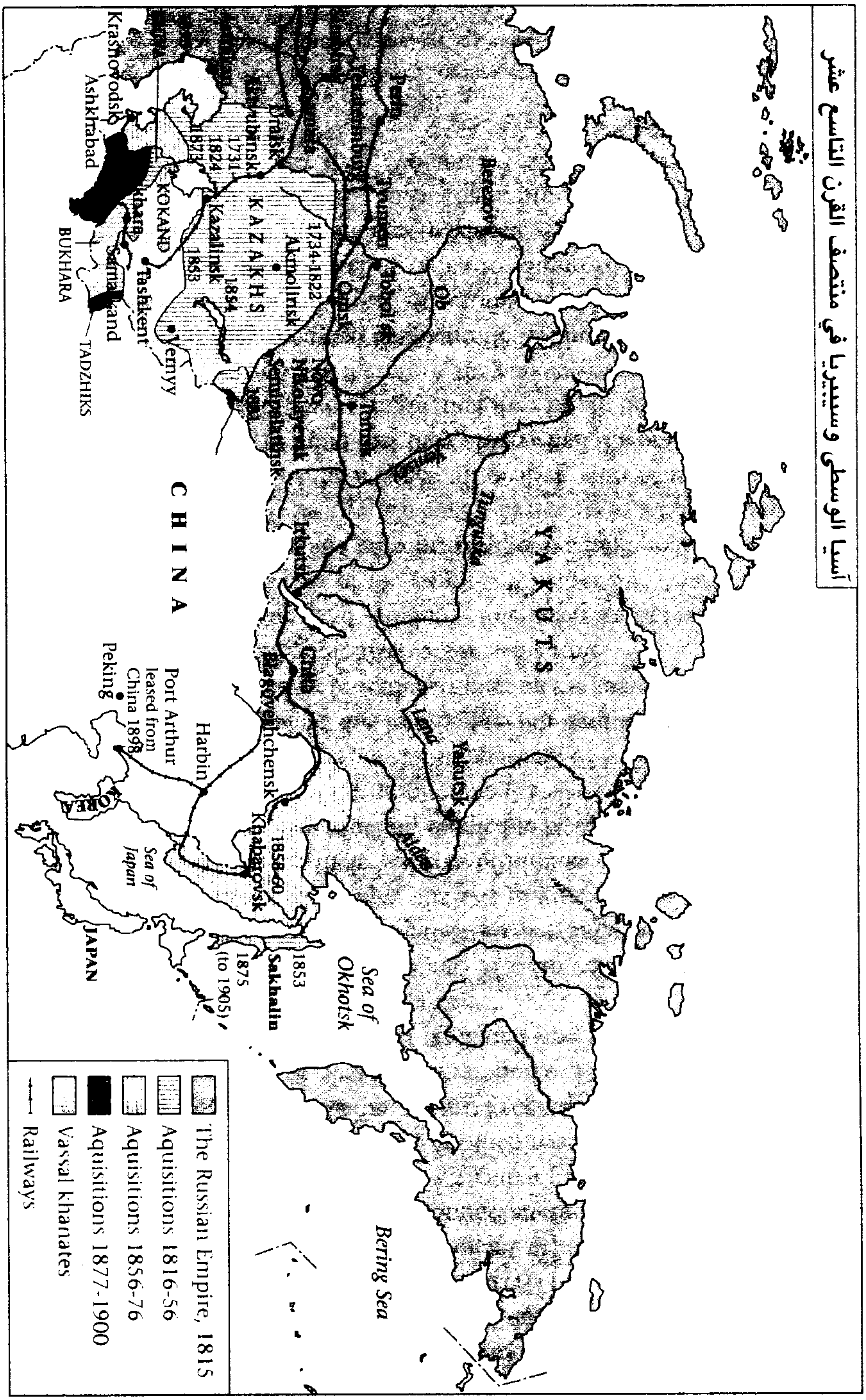
ومن حيث المبدأ، فإن التسامح اللغوي (والديني) كان من ملامح النهج الروسي إزاء هذا الجزء من الإمبراطورية. وسواء قبل التتر العقيدة النصرانية (فقد كان الإنجيل وتعليمات عقيدته الشفهية متوفراً باللغة التترية في العام

(*) إن كلمة قازاق لها الأصل التاريخي اللغوي نفسه لكلمة قوزاق التركية؛ ولكنها تشير هنا إلى قبيلة تركية حقيقية من البدو الرحّل، الذين لهم علاقة وثيقة مع القرغيز.

1803)، أم ظلوا مسلمين، فإن التترية (أي لغة جغطاي التركية) قد تم الأخذ بها كلغة للإدارة في السهوب. وفي التعامل مع البدو المسلمين المتنقلين، كان على الروس أن يبقوا في أذهانهم أن لهؤلاء دائماً خيار نقل مخيماتهم عبر الحدود، أو خياراً آخر يسبب قلقاً أكبر، وهو أن يتحولوا إلى طابور خامس للعثمانيين. ولذلك فإن الروس بصورة عامة بذلوا جهداً لتقديم خيار جذاب لهم إذا قبلوا الحكم الروسي. وإن قانون المجمع الكنسي المقدس للعام 1773، في عهد كاترين الثانية، أسس مديرية دينية للمسلمين في روسيا، هي دار الإفتاء. كما أعطت حقوق مرور للمسلمين السنة الذين يريدون تجنب المرور بإيران في طريقهم للحج إلى مكة، بل إنها مولت مدرسة دينية إسلامية في بخارى. وكان المسلمون يدخلون الأكاديميات والكليات العسكرية الروسية، ولهم أفواجهم الخاصة بهم (من المتطوعين)، بل كانوا يخدمون كضباط في الأفواج الروسية العادية. وكان هذا شيئاً مختلفاً جداً عن الممارسة المعاصرة له في الإمبراطورية البريطانية أو الفرنسية[(50)].

ولكن برغم هذا كله، فإن السهوب اكتسبت الطابع الروسي بشكل فعال. وكانت واقعة المستوطنين الأوروبيين هي التي غيرت الصورة اللغوية في الحقيقة، فقد كانت النسبة 20 بالمئة في العام 1887، و40 بالمئة في العام 1911، و47 بالمئة في العام 1939[(51)]. كما أن سياسة الأرض البكر التي اتبعها خروتشيف في خمسينيات القرن العشرين أضافت إلى الناطقين بالروسية مليوناً ونصف مليون نسمة (إن عدد الناطقين الأصليين باللغة الروسية في قازاخستان هو الآن 6.23 ملايين، أي 38 بالمئة)[(52)].

وفي العام 1854، اندحرت روسيا في القرم على أيدي نظرائها الإمبراطوريين، بريطانيا، وفرنسا، والعثمانيين. ولعل روسيا كانت تبحث عن شيء من العزاء، فانطلقت لغزو آسيا الوسطى، إلى الجنوب تماماً من سهوب قازاخستان، إذ إن الحروب الاستعمارية ضد الأهالي الذين لا يملكون أسلحة حديثة كان كسبها أسهل بكثير، كما أنه مشجع للأوروبيين، كما يظهر لنا من النص المقتبس عن دوستويفسكي في أول هذا الفصل.


أسيا الوسطى وسيبيريا في منتصف القرن التاسع عشر
CHINA
YAKUTS
KAZAKHS
Sea of Okhotsk
Bering Sea
Sea of Japan
JAPAN
KOREA
Sakhalin
1853
1875 (to 1905)
Khabarovsk
1858-60
Harbin
Port Arthur leased from China 1898
Peking
Yakutsk
Lena
Aldan
Irkutsk
Tomsk
Omsk
Ob
Perm
Akmolinsk
1734-1822
Kazalinsk
1853
1854
Tashkent
Samarkand
Vernyy
KOKAND
BUKHARA
TADZHIKS
Krasnovodsk
Ashkhabad
The Russian Empire, 1815
Aquisitions 1816-56
Aquisitions 1856-76
Aquisitions 1877-1900
Vassal khanates
Railways

وكانت القوى الرئيسية الباقية في هذه المنطقة هي إمارات خيفا، وبخارى، وكوكاند. ورغم المزايا التقنية التي كان الغزاة يتفوقون بها على الأهالي، فإن الحرب استغرقت اثنين وعشرين عاماً، وانتهت في العام 1876. فتم ضم كوكاند في الشرق، ولكن الإمارتين الأخريين، بخارى التي تضم سمرقند الأسطورية، وخيفا على شاطئ بحر قزوين، تركتا كقوتين تابعتين. وتم إيجاد 'تركستان' كظرف ريفي محلي للحفاظ على المكتسبات الجديدة. وصار الهم الرئيسي لروسيا هو تنمية زراعة القطن الكثيفة في وادي فرغانة، فاجتذب هذا أعداداً كبيرة من المستوطنين إلى المنطقة، التي هي جزء من أوزبكستان الحديثة. ومع ذلك، فإن الاستيطان في هذه المناطق لم يصل أبداً إلى مستويات تشبه ما وصل إليه في سهوب الشمال. فالدول الحديثة المتناظرة، وهي (من الغرب إلى الشرق) تركمانستان، وأوزبكستان، وطاجكستان، وقرغيزستان [كيرجستان]، وسكانها 39 مليوناً، ليس بينهم سوى تسعة بالمئة من الناطقين الأصليين بالروسية[53].

حالة اللغة الروسية

بهذا يكتمل عرضنا لكيفية نشر إمبراطورية القيصر للغة الروسية. ويبقى النظر في سبب عدم تحولها أبداً إلى لغة النفوذ والهيبة: لماذا لم تصبح رمزاً لتطلع الشعوب المغزوّة إلى المشاركة في مستقبل عالمي متغرب كاللغات الإمبراطورية الأخرى التي رسخت نفسها بعيداً عن أوروبا. لقد انحلت الآن كل إمبراطوريات القرن التاسع عشر الأوروبية: ولكن لغاتها لا تزال مستعملة على نطاق عالمي. فلماذا بقيت الروسية وحدها من بين أعلى اللغات العشر الحالية هي المعرضة لفقدان الناطقين بها في القرن الحادي والعشرين؟

لقد كانت هناك أهمية حاسمة لأربع مؤسسات كبرى في الإمبراطورية الروسية لنشر لغتها فيما وراء موطنها في شمال شرق أوروبا. وهي الكنيسة الأرثوذكسية، والجيش، وبيروقراطية الدولة، والنخبة المثقفة الفكرية. وكلها لا تزال موجودة بشكل ما، ولكن في مطلع القرن الحادي والعشرين لا يبدو من المحتمل أن يظل لأي منها نشاط حيوي كقوى مسيطرة أو كمصادر للإلهام على مستوى عالمي.

فالكنيسة ربطت نفسها منذ وقت مبكر بلغتها المحلية، المعروفة الآن باسم السلافونية الكنسية القديمة، ولكن كان هناك دائماً شعور بأنها روسية في نسخة محترمة لائقة. ولكن حتى في وسط إصلاحات طقوسية كبرى، كان بوسع مؤيد للأساليب القديمة أن يكتب للقيصر: 'قل بلغة روسية جيدة "يا رب ارحمني"، واترك رطانة كيري إليزون للإغريق، فتلك لغتهم. ابصق عليهم! فأنت روسي يا أليكسي، ولست يونانياً. تكلم بلغتك الأم ولا تخجل منها، سواء في الكنيسة أم في البيت!'[54]. وتعطي قبابها البارزة الارتفاع فوق أكواخها أكبر الرموز المتميزة لروسيا مع انتشار ممتلكاتها عبر سيبيريا. وقد بقيت مدارس الكنيسة هي المصدر الرئيسي لمعرفة القراءة والكتابة بالروسية زمناً طويلاً من القرن الثامن عشر. ولكنها لم تُشْفَ أبداً من إصلاحات 'المجمع المقدّس' التي أدخلها بطرس الأكبر في العام 1721، عندما جعل نفسه حامي الكنيسة الأعلى، فألغى ديمقراطيتها الداخلية، من الأبرشيات فصاعداً، وبذلك جعلها ذراعاً للدولة بشكل فعال. وبذلك فإن القيصر والكنيسة، رغم تبادلهما الدعم، أصبحا منقطعين تماماً عن القواعد الشعبية للمجتمع الروسي، وعاجزين بشكل متزايد عن تحمل مخاطر أي مشاركة شعبية. وقد ظهر مثال له دلالة في أعقاب غزو نابليون لروسيا في العام 1812، عندما فضل القيصر المصلح ألكساندر الأول تأسيس جمعية إنجيلية إمبراطورية روسية، كفرع من الجمعية البريطانية للأناجيل الأجنبية: وتم وضع خطة لنشر الأناجيل بلغات متعددة. ولكن المشروع لم ينجح في اقتراح توزيع الإنجيل بكلام بسيط، أي بلغة روسية عادية. وتم تصوير المبشرين بذلك على أنهم 'وكلاء نابليون السريون' الذين يقوضون الاحترام الذي تستحقه كلمة الله. وفي العام 1821، أحرقت الأناجيل الروسية بأمر المجمع المقدس(*).

وكان الجيش مؤسسة أخرى قامت بطبيعتها بنشر الروسية بشكل عريض وبعيد. وكان ذلك متميزاً بين المتنافسين الإمبراطوريين على وحدته العرقية

(*) كان الإنجيل في الحقيقة متوفراً بالكالميكية والتترية (هذا إذا لم نذكر الفنلندية والإستونية، واللاتفية، والليتوانية، والبولندية، والأرمنية، والجورجية) قبل نصف قرن من ظهوره بالروسية. ولم يكن من الممكن السماح بنشر الإنجيل الروسي حتى العام 1876، عندما تصادف ذلك بعد الطبعة الروسية الأولى من كتاب كارل ماركس "رأس المال" (هوسكنغ 1997، ص 138 - 142، 233 - 234).

واللغوية. فبالنسبة للجنة العسكرية في العام 1762 ـ 1763 'كانت قوة الجيش تتكون، بصورة أساسية قبل كل شيء، من وجود لغة، ودين، وعادات، ودماء مشتركة'. وبعد ذلك بمئة عام، أكد المعلقون العسكريون الروس في حرب العام 1859 وحرب العام 1866 على الروسية النقية لجيشهم، بعكس خليط الأعراق واللغات عند النمسويين، وفي ذلك الحين، كان 90 بالمئة من الجنود من منطقة موطنهم روسيا، وروسيا البيضاء، وأوكرانيا، وكان معظم المسلمين معفيين من الخدمة العسكرية[55]. غير أن النقاء العرقي للقوة قد انتقص من تأثير اللغة الوحيدة بطريقةٍ ما: فلو كان المزيد من غير الروس قد أرغموا على الانضمام إلى الجيش، لكان المزيد منهم قد اضطروا إلى تعلم الروسية. ذلك أنه لم يكن هناك مجال كبير للمحاربين الروس القدامى للعودة إلى الحياة المدنية بعد قضاء خمسة وعشرين عاماً أو أكثر في الخدمة العسكرية، لأن الأمر سينتهي بهم في المدن كسائقي عربات، أو خدم محليين، أو معلمي مدارس[56]. وبهذه الطريقة فإنهم أقل قدرة من جنود روما القديمة المتقاعدين مثلاً على بذر بذور انتشار لغتهم.

أما البيروقراطية، الذراع المرئية لحكومة القيصر، فقد كانت في كل مكان طبعاً. ولكن تأثيرها في مجال نشر الخطاب الروسي كان أقل مما يمكن توقعه. فقد كانت مستوياتها العليا مليئة بشكل غير متناسب بالناطقين بالألمانية من البلطيق (الذين كانت نسبتهم تصل إلى عشرين بالمئة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر)، منذ أن أدرك بطرس الأكبر قدرتهم الخاصة المحتملة على تنفيذ إصلاحاته[57]. ولا بد أن المجال الأدنى لمهمات البيروقراطية قد حدَّ من دورها وتفاعلها مع المجتمع، فقد اقتصرت تلك المهمات على جباية ضريبة الرؤوس، وتجنيد العسكر.

وأخيراً، كانت هناك النخبة الفكرية. وبمعنىً ما، فقد كانت هذه المجموعة وحدها هي التي وضعت الروسية على الخريطة الثقافية العالمية، بالازدهار الأدبي الذي حققته في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. وكان بطرس الأكبر هو الذي أشعل شرارة هذا الازدهار بإصلاحاته الهادفة إلى إيجاد روسيا دنيوية

علمانية، مستلهماً مما رآه في زياراته لبريطانيا، وقبل كل شيء لألمانيا. وكان ميخائيل لومونوسوف (1711 ـ 1775)، أعظم أستاذ باحث في هذه الفترة، قد تمكن من رفع نفسه من بين صفوف عائلة من صيادي السمك في أركانجل، يجمع بين الكيمياء واللغويات. وقد بدأ بمهمة تحديد لغة أدبية روسية، التي ستدمج الاستعارات الأجنبية مع الكلام العامي الدارج في الأسلوب الثقيل الموروث عن اللغة السلافونية الكنسية. وفي العام 1783 تأسست أكاديمية روسية على غرار نموذج الأكاديمية الفرنسية، فقامت بتجميع معجم كبير فيما بين العامين 1789 و1794، وحددت قواعد نحوية روسية تم طبعها في العام 1802. وكما رأينا عند النظر في تاريخ اللغة الفرنسية، فقد ظل التأثير الأجنبي قوياً في الحياة الاجتماعية للنخبة الروسية، ورغم ذلك، فإن جيل المؤلفين الروس الحديثي التثقيف نهض لمواجهة التحدي للغتهم الجديدة، فشملوا بوشكين، وغوغول، وتولستوي، ودستويفسكي، وتورجنيف، وهؤلاء هم الأشهر فقط. وقد أخذوا على محمل الجد مهمة تحديد ما يستطيع الأدب الروسي أن يفعله لروسيا وللعالم. وكان أشهر ما في ذلك أن تورجنيف ودستويفسكي عادا بعرض أفكارهما إلى بوشكين في الاحتفالات بذكراه في العام 1880: فقال تورجنيف إن بوشكين كان يتحدث إلى النخبة المثقفة التي أوجدتها إصلاحات بطرس، ولكن الشعب الروسي سوف يتفتح وعيه عن طريق تعلم كيفية قراءته. ورد دستويفسكي بأن بوشكين كان فيه شيء متأصل (وفريد من نوعه) يثير إعجاباً عالمياً، وهو شيء يعطي روسيا ميزة هائلة، 'فتحول المرء إلى روسي أصيل يعني محاولة التوفيق بين نقائض أوروبا، وجعل الروح الروسية الإنسانية الشاملة الحاضنة لكل شيء تقدم لأوروبا خلاصاً من معاناتها'[58].

وبطريقة مذهلة، نجح الكتّاب الروس في الوصول إلى جمهور في جميع أنحاء أوروبا، ولو كان ذلك بين نخبة تورجنيف أكثر مما هو في صفوف جماهير دستويفسكي من عامة الناس. ولكن إدراك تطلعاتهم الكونية في وطنهم كانت تحد منه القاعدة الفكرية الشديدة الضيق ضمن روسيا نفسها، المنفصلة تقريباً عن أكثرية الشعب الساحقة. ففي أوائل ثمانينيات القرن التاسع عشر لم يكن التعليم

العام بين سكان روسيا يزيد على عشرة بالمئة، رغم أنه تزايد بسرعة بعد ذلك حتى وصل إلى ثلاثين بالمئة بين الذين تقل أعمارهم عن الخمسين عاماً عند نهاية ذلك القرن[59]. وبالطبع فإن الذين كانوا يعرفون القراءة لم يكونوا يتذوقون أعلى الأعمال، بل كانوا يفضلون قصص المغامرات، والغراميات الخيالية وأبراج الحظ[60].

ولكن المثقفين الروس لم يبذلوا أي جهد ليفسحوا مجالاً ضمن أهدافهم المثالية للجموع الآسيوية التي أجهدت قواتهم المسلحة نفسها طويلاً، وبصورة دامية، لضمها إلى ممتلكات القيصر. فمن غزوات إيفان الرهيب لقازان حتى أوائل القرن التاسع عشر، كان النبلاء الأجانب يحظون بالاعتراف ويحصلون على حقوق للملكية ضمن النظام الروسي عند إخضاعه أراضيهم؛ ولم تبذل أي محاولة أبداً لإشراكهم فعلياً في المجال الثقافي. وبين الحين والآخر، كان المثقفون من تقاليدهم نفسها، ممن استطاعوا الحصول على ثقافة غربية، يحاولون أن يدبروا تسوية توفيقية. وأفضل مثال على ذلك هو المربّي التتري من شبه جزيرة القرم، إسماعيل بيه غاسبيرالي (الذي تبنى اسم غاسبرينسكي). فقد تعلم أولاً في مدرسة القرية (وهي مدرسة دينية إسلامية)، ثم ذهب إلى سانت بطرسبرغ ليتعلم الروسية، وإلى باريس ليتعلم الفرنسية. وبعد أن أمضى أربع سنوات في اسطنبول (1871 ـ 1875)، عاد إلى شبه جزيرة القرم مقتنعاً بأن مسلمي روسيا يجب أن يقاربوا الحداثة عن طريق الروسية. فألف أول كتبه العامة: "الإسلام الروسي"، وتولى طويلاً تحرير مجلة "المترجم" (باللغتين التترية والروسية). ولم تكن آراؤه السلمية تلقى قبولاً سهلاً في مجتمع تتر القرم. ولكن عند حلول العام 1905، كانت مجموعته قد نجحت في إقامة 350 مدرسة ثنائية اللغة بالروسية والتترية. وكان لرد الفعل الروسي على ذلك دلالة كاشفة. فبدلاً من تشجيع عملية بناء الجسور هذه على يد حليف محتمل، فإن السلطات الروسية رفضت السماح لغاسبرالي أن يجمع مؤتمراً كله من المسلمين، بل عملت على تقليص المشاركة السياسية لغير الروس (وكذلك للعمال والفلاحين)، واقترحوا قانوناً انتخابياً لمجلس الدوما الثاني (البرلمان) في العام 1907، يبدأ

بديباجة تقول: 'إن مجلس دوما الدولة، الذي أوجد لتقوية الدولة الروسية، يجب أن يكون روسياً في روحه كذلك'. وهكذا لم يحرز غاسبرالي مزيداً من التقدم[61].

إن ما كان ينقص روسيا قبل كل شيء هو البرجوازية: طبقة من التجار والحرفيين ذوي المكانة والموارد المستقلة تستطيع أن تعمل كحلقة وصل للحركة الاجتماعية وتدفق الدخل معاً بين الطبقة الحكومية والعاملين على الأرض. فالتجارة والتنمية الصناعية على نطاق واسع نادراً ما اضطلع بها الروس في فترة ما قبل الثورة؛ والطبقات الصغيرة لم تؤسس أي نقابات أو روابط مهنية. فظلت روسيا كياناً سياسياً تسيطر عليه سلطات القيصر الاستبدادية وغير المحدودة من حيث المبدأ. فكانت النتائج اللغوية لذلك أن اللغة الروسية لم تطور في أي مكان قاعدة قوية في مجتمع له تطلعات ونفوذ مؤثر.

باختصار، وحتى القرن العشرين على الأقل، فإن روسيا لم تكن موحدة رغم وحدتها السياسية والعسكرية في ظل حكومة القيصر بل لم تكن تنمو معاً كمجتمع لغوي. ففي مقاطعات البلطيق في الشمال الشرقي، وفي الأراضي الإسلامية في الجنوب، فإن اللغة الروسية ببساطة لم تتغلغل إلى أبعد من مرتبة المستوطنين، والعدد الصغير من الإداريين.

التجربة السوفييتية

تركز هذا السرد عن انتشار الروسية على إمبراطورية القيصر، لأن الثورة الروسية في العام 1917 والفترة السوفييتية التي تلتها لم يكن لها تأثير صافٍ يذكر على الوضع اللغوي. وعلى الرغم من التوقعات المبكرة، ومحاولات الانفصال في جميع المناطق غير الناطقة بالروسية (بما فيها روسيا البيضاء وأوكرانيا)، فإن الحكومة الجديدة أثبتت قدرتها على تأكيد سيطرتها في كل مكان. واستطاعت فنلندا بقوة السلاح أن تفصل نفسها بصورة دائمة، وأما الدول البلطيقية الأخرى التي أمضت فترة وجيزة من الاستقلال في عشرينيات القرن

العشرين وثلاثينياته، فقد وجدت نفسها تعود إلى السيطرة الروسية. وعادت باقي أجزاء الإمبراطورية كلها إلى الحظيرة بحلول العام 1922.

وكان الشيء الذي تغيّر فعلاً تحت حكم السوفييت هو السياسة اللغوية. فبينما كانت سياسة القياصرة، حتى في آخر عقود حكمهم كما رأينا، هي 'تقوية الدولة الروسية، وإبقاءها روسية في روحها'، فإن السياسة السوفييتية الرسمية للاتحاد كانت على طرف النقيض من ذلك تقريباً. فمن حيث المبدأ كانت جميع شعوب الاتحاد متساوية، فلن تكون هناك لغة رسمية. وعلاوة على ذلك كان للجميع الحق، ليس فقط في استخدام لغتهم الخاصة بهم، بل للتعليم بها أيضاً. وبقيت الروسية بوضوح هي الخيار الوحيد للاتصال بين أجزاء الاتحاد المختلفة. وكان الشيء الذي لم يتغير بعد الثورة هو السيطرة المركزية على البلد ككل.

كانت السياسة العملية الفورية هي تعليم الناس القراءة والكتابة بشكل جماعي كثيف. وكانت هذه العملية قد بدأت تحت حكم القياصرة، ولكن استمرارها نجح بزهو، كما أظهرت الإحصائيات. ففي العام 1897، كان 28.4 بالمئة ممن هم بين التاسعة والتاسعة والأربعين من العمر قادرين على القراءة؛ وفي العام 1920 ارتفع الرقم إلى 44.1 بالمئة، وبحلول العام 1926 كان قد وصل إلى 56.6 بالمئة، وفي العام 1939 صار 87.4 بالمئة، وفي العام 1959 أصبح 98.5 بالمئة؛ وفي العام 1970 صار 99.7 بالمئة[62]؛ وبما أن ذلك كان يشمل معرفة القراءة والكتابة بلغات أخرى غير الروسية، فقد كان من الشروط المسبقة الضرورية لذلك تقديم نظام كتابة فعال للغات البلد (فحتى في العام 1970، كان 77.5 بالمئة من السكان يدّعون أن الروسية هي لغتهم الأولى أو الثانية)[63]. فقد تم تبسيط التهجئة الروسية في العام 1918 لتكون أكثر انطباقاً مع اللفظ، وخاصة الحروف التي لم يكن لها لفظ مميّز. كما أعطيت أبجديات للغات الاتحاد الأخرى التي لم يكن لها تقليد كتابي. وفي عشرينيات القرن العشرين كانت تلك الأبجديات مبنية إلى حد كبير على الحروف اللاتينية، لأن ألفباءها كانت متطورة بشكل كامل على أيدي المتخصصين باللفظ. وقد انطوت الأنظمة في الأغلب على مهارة كبيرة للغويين سوفييت في تثبيت المعايير

القياسية الموحدة من بين اللهجات، بالتوازن بين اعتبارات استخدام غالبية الناس وبين الفهم المتبادل وسهولة التحصيل. وبصورة عامة تم تحقيق الاستقرار وإيجاد عشرات من 'اللغات الأدبية'. ثم بدأت طبيعة وضع السلطة السياسية تفرض نفسها بشكل ملموس.

وقد ظل الاتحاد السوفييتي، مثل روسيا الإمبراطورية قبله، محكوماً بثبات من المركز، وبتحديد أكثر من موسكو اعتباراً من العام 1918. ولذا فإن سيطرة الروسية بموجب الأمر الواقع ـ مع التسليم بأنها كانت ممزوجة بقدرة حركية اجتماعية وسياسية أكبر بكثير من ذي قبل ـ بدأت تأخذ أولوية على المساواة النظرية بين الجميع، خاصة عندما صار واضحاً في ثلاثينيات القرن العشرين أن الاتحاد السوفييتي هو وحده الذي أقام نظاماً ثابتاً ماركسي التوجه، وكان محاطاً بالأعداء من جميع الجهات. فبدأت أهمية اللغة الروسية تتخذ طابعاً أكبر، بل ومريحاً أكثر. وفي الثلاثينيات أعلنت جميع القوميات المختلفة طوعاً أو كرهاً (عدا البلطيقيين، والجورجيين، والأرمن، والييديش) أنها تفضل تحويل تهجئاتها إلى نوع من الأبجدية السلافية القديمة المستعملة للغة الروسية. وإن الحقيقة الغريبة لكون حدود العالم الاشتراكي تتطابق مع حدود الإمبراطورية الروسية القديمة تظهر الآن مغمورة بضوء مختلف تماماً. كما قال أحد المدافعين عنها فيما بعد:

> بما أن [الروسية] هي لغة أكثر أمم الاتحاد تطوراً، والتي قادت البلد عبر تحولاته الثورية، وكسبت حب جميع الشعوب الأخرى واحترامها، فإن اللغة الروسية تتحول بصورة طبيعية إلى لغة الاتصال والتعاون لجميع شعوب الدولة الاشتراكية. وقد تحقق ذلك ... بإزاحة الحواجز النفسية السابقة لتحل محلها روابط الصداقة الأخوية، والثقة المتبادلة، والمساعدة المتبادلة(64).

وهكذا أصبحت الروسية في موقع يمكنها من اتخاذ خطوات كبرى. فقد صار التعليم العام لكل الناس حقيقة واقعة، وأدخلت الروسية كموضوع إلزامي في جميع المدارس. وكان من الممكن لها أن تصبح معروفة ومستعملة من قبل

الجميع في كل أنحاء البلد. ولكن ذلك لم يحدث، لسببٍ ما. فكما لاحظنا، ففي العام 1970 كان هناك 22.5 بالمئة من الناس الذين يقولون إنهم لا يتقنونها بصورة فعالة. وسواء عن طريق بقاء المجتمعات التقليدية ـ وخاصة في آسيا الوسطى ـ أم من خلال الحفاظ على السخط من السيطرة الروسية ـ ولا سيما في منطقة البلطيق ـ فقد ظل الكثيرون يستنبطون طرقاً ليعيشوا حياتهم بدون اللغة الروسية.

وعندما انحلّ الاتحاد السوفييتي في 1 كانون الثاني/يناير 1992، انفصلت عنه كل الجمهوريات المكونة له ـ بما فيها أوكرانيا وروسيا البيضاء ـ لتصبح دولاً مستقلة. فتناقصت على الفور إمكانيات بقاء الروسية في التعليم، وبالتالي كلغة مشتركة بين الأجزاء القديمة من الإمبراطورية.

ولكن رغم أنه لم يعد بالإمكان فرض اللغة الروسية عبر امتداد الاتحاد القديم، فقد صارت بشكل محتوم رمزا سياسياً له دلالات مختلفة بحسب التاريخ المحلي. فمن بين دول البلطيق، وضعت لاتفيا وإستونيا اختبارات لغوية لإرغام الروس المقيمين فيها على إثبات كفاءتهم في لغتيهما؛ وهذه الاختبارات غير ضرورية في ليتوانيا، حيث الأقلية الناطقة بالروسية أصغر بكثير(*). وحافظت حكومة روسيا البيضاء على الروسية كلغة للعمل، بعد تحول جذري في السياسة في العام 1995، وصغّرت من شأن لغتها الوطنية نفسها(**). أما الجمهوريات ذات الأقليات الكبيرة الناطقة بالروسية والمقيمة في منطقة واحدة، وخاصة في مولدوفا وقازاخستان، فهي مضطرة إلى أن تكون شديدة الحذر في موازنة مدى قدرتها على التأكيد على لغة الأكثرية. وفي قازاخستان، فإن الروسية معترف بها كلغة للاتصالات الرسمية. ولا تزال هناك نكتة قائمة عن مدى ضعف إتقان

(*) في العام 1994، كان هناك 436,600 روسي في إستونيا، يشكلون 29 بالمئة من مجموع السكان: وفي لاتفيا، كان هناك 849,000 يشكلون 33.1 بالمئة. وفي تلك الأثناء كان السكان الروس في ليتوانيا 316,000، أي 8.5 بالمئة فقط (الكتاب السنوي العالمي لأوروبا، 1995).

(**) أدى استفتاء شعبي أجري في أيار/مايو من العام 1995 إلى منح الروسية مكانة لغة رسمية، إلى جانب الروسية البيضاء. فاللغة الروسية هي لغة التعليم في كل الأقسام الجامعية فعلياً في روسيا البيضاء. وبينما كانت 220 مدرسة في عاصمتها مينسك تدرس بالروسية البيضاء في العام 1994، فبعد عامين فقط كانت أقل من عشرين مدرسة فقط تفعل ذلك.

الساسة للغتهم القازاخية. وعلى عكس ذلك ففي آسيا الوسطى تم إحياء استخدام اللغات الوطنية - وتضاءلت الروسية - بين الطبقات السياسية التي كانت من أكبر الناطقين بالروسية تكاثراً قبل الاستقلال[65]. فهنا، كما في البلطيق، يتنامى استخدام الإنكليزية كلغة ثانية(*). وفقط في سيبيريا، أقدم مستعمرة روسية، يمكن القول بأن استخدام الروسية آمن، وربما لا يزال يكسب ناطقين بها. ومن المحزن أن سبب ذلك هو كون مجتمعات اللغات الأصلية هناك مهددة بالانقراض، وطريقة حياتهم التقليدية قد مزقها وجود أعداد كبيرة من الروس الأوروبيين بينهم. فصارت تلك المجتمعات صغيرة جداً، ومنعزلة جداً، وضعيفة جداً بحيث لا تستطيع أن تتصور أي مستقبل سوى التعاون مع الروس .

وفي كل مكان، فإن أهمية استخدام الروسية كرمز للمشاعر حول ماضيها السوفييتي، وحول تطلعات المستقبل، أكبر من أهمية اختيارها عملياً كوسيلة اتصال مع الجيران. فالروسية، حتى بعد سقوط الشيوعية، تظل لغة عقائدية إلى حد كبير.

استنتاجات

هناك أربعة أسباب رئيسية تجعل لغة إمبراطورية تتابع العيش بعد انحلال الإمبراطورية التي نشرتها.

السب الأول هو أنها تبقى لغة الناس الذين حلوا الإمبراطورية. وهذا يمكن تسميته "التهجين". وهو ينطبق على جميع المستعمرات الأمريكية التي قاتلت ونالت استقلالها من بلدانها الأم في أوروبا. وفي كل حالة، في مستعمرات بريطانيا العظمى الثلاث عشرة، وفي المكسيك، وفي جمهوريات أمريكا الوسطى والجنوبية، وفي مملكة البرازيل، فإن الناس الذين قاموا بالثورات لم يكونوا هم

(*) قامت كل من تركمانستان، وأوزبكستان، وأذربيجان، الناطقة بلغات تركية، بتحويل أبجديتها من السلافية القديمة إلى اللاتينية في السنوات العشر التي أعقبت استقلالها، وذلك بكلفة باهظة، ولكن بمغزى رمزي مشكوك في قيمته. ولكن لكل منها نظاماً مختلفاً قليلاً، ولم تأخذ أي واحدة منها بتقاليد التهجئة التركية المعمول بها منذ العام 1928.

الأهالي الأصليين، بل المتحدرين من نسل المستعمرين الأوروبيين، الذين كانوا متعلقين باللغة العالمية في العاصمة كتعلق البلد الأم نفسه. وبالمثل فقد تم الاحتفاظ بلغة الأفريكان في جنوب إفريقيا، وبالفرنسية في كندا والجزائر. وبمعنى ما، فإن مجتمعات المستوطنين اللغوية استمرت سليمة بلا تفتيت.

والسبب الثاني هو أن البلدان الحديثة الاستقلال تريد الحفاظ على علاقة من التجارة أو الثقافة، وربما حتى الدفاع مع القوة العالمية المستعمرة. ويمكن تسمية هذا السبب "الحنين إلى الماضي". وهو جزء من السبب الذي جعل الفرنسية تتشبث بالبقاء في إفريقيا جنوب الصحراء. ولهذا السبب لا يزال هناك أثر من الإسبانية في الفليبين، ولهذا السبب أيضاً فإن تيمور الشرقية، المستقلة في العام 2003، اختارت أن تستمر فيها البرتغالية، أو بالأحرى أن تبعث بعثاً.

وكثيراً ما يوجد السبب الثاني بالتحالف مع سبب ثالث يمكن تسميته سبب "الوحدة". فالقوة الاستعمارية تفرض حتماً لغة وحيدة على ممتلكاتها فينتهي بها الأمر إلى أن تصبح لغة من الضروري الحفاظ عليها كوحدة متجانسة. وعندما تتغير القوة، فقد تتغير اللغة أيضاً (كما حدث مثلاً عندما حلت الإسبانية محل الناحواتل والقيشوا في ممتلكات مختلفة من الإمبراطورية الإسبانية). ولكن هناك احتمالاً حقيقياً بأن لا تتغير اللغة، وخاصة حيث لا يكون هناك غازٍ جديد، بل تتويج لنضال من أجل الاستقلال. وفي هذه الحالة، قد تبقى اللغة الاستعمارية فترة قصيرة. وهذا سبب آخر لتشبث الفرنسية بالبقاء في كثير من بلدان إفريقيا جنوب الصحراء: فلن يكون من العملي إدارة الكاميرون بأي واحدة من لغات الأهالي الأصلية التي يزيد عددها على 270 لغة. وعلى عكس ذلك فهذا هو السبب الذي جعل الهولنديين، وكذلك الحكومة الإندونيسية التي جاءت بعدهم، يأخذون جميعاً بالملايوية كلغة توحيد لـ 'باهاسا أندونيسيا'.

وهناك سبب رابع، هو سبب "العولمة". فقد يستمر بلد ما في استخدام لغة إمبراطورية، ليس لأنها تقيم علاقة مع قوة إمبراطورية قديمة، ولكن لأنها تقدم وسيلة لتجاوزها. وهذا صحيح على نطاق واسع بالنسبة للبلدان التي تحافظ على الإنكليزية أو تأخذ بها في الفترة الحالية؛ ولكن من الصحيح أيضاً

أن هذا هو الدافع الذي جعل النخبة الروسية تأخذ بالفرنسية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

إن الفشل الظاهر للغة الروسية بالبقاء بقوة حيث لم تعد إمبراطورية الناطقين بها موجودة يمكن النظر فيه بوضوح أكبر على ضوء هذه الأسباب الأربعة.

فسبب التهجين ينطبق على سيبيريا فقط، لأنها على وجه العموم هي المكان الوحيد الذي استقر فيه المستعمرون الروس بأعداد كبيرة كافية لسحق الأهالي الأصليين. وهم يقتربون من هذا النوع من التركيز في إستونيا ولاتفيا، وأقل من ذلك في قازاخستان: ولكن السلطة هناك - وبالتالي المستقبل اللغوي - بقيت في أيدي السكان السابقين.

والحاجة إلى إبقاء علاقات عاطفية مع الروس على أساس الحنين إلى الماضي ليست واسعة الانتشار في الممتلكات السوفييتية القديمة. فمن المحزن أنه يبدو أن رعاياهم القدامى لا يتذكرون شيئاً يذكر مع العاطفة من قرون طويلة من السلطة الروسية. ولكن هناك استثناءً واحداً: هو روسيا البيضاء، التي تسعى حكومتها إلى التحسين عن طريق علاقات أوثق مع الروس، كما أن حماستها للغة الروسية قوية كذلك.

وعلى وجه العموم، تستطيع الجمهوريات المختلفة أن تحقق وحدة مادية كبيرة ملموسة، كل على أرضها، من خلال استخدام لغتها الخاصة، وليس هناك سبب وحدة للتشبث بالروسية إلا في روسيا نفسها، التي تعتبر مناطقها السيبيرية هي الأكثر تعدداً للغات في الإمبراطورية القديمة. وكما رأينا، فإن المجتمعات اللغوية الصغيرة أضعف من أن تعبّئ مقاومة لقبضة التنظيم الموحِّدة في روسيا.

وأخيراً، بالنسبة للعولمة: إن من المحزن للروس أيضاً في العصر الحالي من الاتصالات العالمية أن من الواضح أن أكثر الصلات ربحاً لا يجب إقامتها مع عمداء الثقافة الروسية ؛ بل إن هناك أراضي تبدو أكثر حرية، ولياقة، وقوة، وقبل كل شيء أكثر غنىً.

غير أن المفارقة هي أن الروسية قد تعود ذات يوم على هذا الأساس بالذات. فكما أظهر القرن التاسع عشر، فإن طبقة المثقفين الروس قادرة على الإقلاع بتحليقات رائعة للخيال؛ وكما أظهر القرن العشرون، فإن علماءهم، عندما يتلقون دعماً مالياً محترماً - حتى وهم تحت سيطرة الدولة المحكمة التي تضع غمامات على عيونهم - هم مساوون لأي علماء آخرين في العالم. فإذا حصلت الثقافة الروسية على حكومة مستقرة ومتحررة أكثر مما عرفته حتى الآن، فإنها قد تنمو إلى صيغة تجعل مستعمرات روسيا القديمة سعيدة باحتضانها ورعايتها هي ولغتها.

* * *

إن استعراضنا السريع لسيرة الحياة اللغوية لمعظم القوى الإمبراطورية الأوروبية قد كشف التنوع المذهل للطرق التي يمكن بها كسب الإمبراطوريات، وممارستها، وفقدانها، مع تحول لغة المستعمر أو بدون تحولها على المدى الطويل. فالنشر الجدي للغة الإسبانية بدأ بعد قرنين من تأسيس إمبراطوريتها. ويبدو أن اللغة البرتغالية كانت تنتشر في المحيط الهندي بشكل يكاد يكون مستقلاً عن تقدم الناطقين بها؛ وفي آخر الأمر، نمت كأقوى ما تكون حيث كانت تملك أقل مجال لموهبتها العظيمة، وهي التجارة. وعلى عكس ذلك فإن اللغة الهولندية لم تكد تنتشر على الإطلاق، رغم أن الهولنديين أنفسهم كانوا أكثر فعالية وأكثر ديمومة كمستعمرين من البرتغاليين. وأما الغزوات الفرنسية فيما وراء البحار فكانت تميل إلى أن تختفي بسرعة تكاد تعادل سرعة بنائها. ولكن الفرنسية كانت تبقى هناك أحياناً، حتى تحت حكم سادة جدد. وكان هناك اتجاه بارز عند الذين تعرضوا مرة للغة الفرنسية للبقاء على اتصال بها بعد طردهم للغزاة. وفي معاكسة أخرى، نشرت الروسية نفسها على مدى خمسمئة عام في كل اتجاه، من سهلها الأوسط في شمال شرق أوروبا بشكل جوهري إلى أن واجهت قوة قادرة على مقاومتها. فحتى العام 1992، كان انتشارها يبدو غير قابل للارتداد إلى الوراء. ومع ذلك فإنها قد أظهرت في العقد الماضي مدى قلة الأصدقاء الذين كسبتهم في كل تلك القرون من التقدم المستقر.

ولكن هناك تحاملاً تبسيطياً يبدو أنه غير قادر على الصمود: فإن أي إمبراطورية أجنبية تميل فعلاً إلى نشر شيء من لغتها. وقد تكون لغة محلية، وليست لغة قوة مسيطرة، كما قدر للغة الملايو أن تسيطر على جزر الهند الشرقية الهولندية. وقد لا تبقى طويلاً بعد مغادرة السيطرة الأجنبية، مثلما تتسرب الروسية بعيداً عن مستعمرات روسيا السابقة. ولكن اللغة المشتركة ضرورة عملية في أرض خضعت لسيطرة مشتركة خارجية. وهذه الضرورة تميل إلى تغذية انتشار اللغة إذا استمرت السيطرة صامدة مع الزمن، مع تجنيد الأهالي المحليين ليمثلوا القوة الأجنبية ويترابطوا معها في أجيال لاحقة.

وبهذا المعنى، كان نبريجا على حق.

غير مؤثرة بشكل غريب ـ الطموحات الألمانية

مع الغباء، يقاتل الآلهة أنفسهم بلا جدوى.

فردريك فون شيللر، المرأة الشابة من أورليانز 1801، 3: 6

لقد أهملت صفحاتنا لغة أوروبية كبرى إلى حد كبير، رغم مكانتها الثقافية الكبرى، والمحاولات الأصيلة لنشرها حول العالم في القرن التاسع عشر. إنها الألمانية، لغة مارتن لوثر لا غيرها، اللغة التي قادت الإصلاح الديني عن طريق ثورة في الكلمة المطبوعة (انظر الفصل التاسع، ص 454). وهناك شيء يعرّض اللغة الألمانية للعثرات المفاجئة تقريباً باعتبارها لغة عالمية محتملة، فيسبب لها خيبة الأمل مرات كثيرة.

ففي السنوات الأولى من القرن الخامس (انظر الفصل السابع: 'السقوط: حالات تقدم الألمانية والسلافية'، ص 429) اجتاح الناطقون بها الإمبراطورية الرومانية الغربية بكاملها، من بريطانيا إلى شمال إفريقيا، ونصّبوا قادتهم بشكل دائم كعواهل وارثين في كل بلد استولوا عليه. ومع ذلك فإن المكسب اللغوي الوحيد الذي حققوه كان في إنكلترا. وفيما عدا ذلك بقيت الألمانية محصورة إلى

حد كبير في منطقتها الأصلية في شمال أوروبا، بل إنها في هذه الفترة المبكرة فقدت أرضاً للغة السلافونية في الأجزاء الشرقية نزولاً حتى البلقان(*) (انظر الفصل السابع: 'الفجر السلافوني في البلقان'، ص 435). ولكن في القرن العاشر، ومرة أخرى في القرنين الثاني عشر والثالث عشر كانت هناك هجرات جرمانية كبيرة نحو الشرق عبر نهر الإلب صعوداً إلى الحدود البولندية الحديثة وما وراءها على نهر الأودر، فحولتها إلى مناطق غالبيتها الساحقة ناطقة بالألمانية. وانتشرت الألمانية أيضاً إلى داخل مدن كثيرة في جنوب شرق أوروبا، على شفاه التجار واليهود.

وعلى مبعدة إلى الشمال في تلك الأثناء، كان يجري شيء أكبر تنظيماً وتركيباً وتوجهاً نحو الحرب. ففي العام 1226، قام فردريك الثاني، عاهل الإمبراطورية الرومانية المقدسة، بإهداء بروسيا الشرقية إلى الفرسان التيوتونيين، الذين استدعاهم لمقاتلة الوثنيين. فأثبتوا جدارة ملكيتهم بالسيف والمحراث. ولم يوقفهم عن التوغل إلى داخل روسيا سوى ألكساندر نيفيسكي الشهير في العام 1242(**). ومن العام 1280 إلى العام 1410 قام أتباعهم بتأسيس 1400 قرية وثلاث وتسعين بلدة على شواطئ البلطيق[66]، وترسخت اللغة الألمانية من بروسيا إلى إستونيا. ونجح مالكو الأراضي الألمان في الاحتفاظ بمكانتهم النخبوية لمدة خمسة قرون، عبر تقلبات السيادة السويدية والروسية، وحتى الاضطراب الكبير في العام 1917.

وفي تلك الأثناء كانت أحداث جسام قد هزت موطنهم الألماني. فقد كان ذلك الموطن قد صمد طيلة العصور الوسطى تحت اسم 'الإمبراطورية الرومانية

(*) كانت هناك لغة جرمانية أخرى، هي لغة نورس الشمالية، التي نقلها المتكلمون بها بعيداً في الميدان في القرون الأخيرة من الألفية الميلادية الأولى: فقد أخذها النورمان إلى نورماندي، والفارانجيون إلى الروس، والفايكنغ إلى إنكلترا، واسكتلندا، وإيرلندا، وآيسلندا. وفي جميع الحالات، عدا واحدة، تخلّوا عن لغتهم نفسها وأخذوا بلغة الناس الذين استقروا معهم: وكان الاستثناء الوحيد هو آيسلندا، حيث وجد مستوطنو النورس الشماليون أنهم أول بشر يصلون إلى هناك.

(**) إن المعركة الفاصلة على بحيرة بيبوس المتجمدة خلد ذكراها سيرجي أينشتاين بتصويرها في فيلم سينمائي.

المقدسة'، مترابطاً في أغلب الأحيان مع قسم كبير من إيطاليا، وبدون أي خسارة للغته الألمانية ـ ولكن عندما جاء الإصلاح الديني وتفتّتت الهياكل القديمة، وجدت ألمانيا نفسها مكشوفة وعرضة للعطب. وفي القرن السابع عشر دُمّر البلد على نطاق واسع بفعل حرب الثلاثين عاماً (1618 ـ 1648) التي اقتتل فيها الكاثوليك والبروتستانت [فحولوا ألمانيا إلى صحراء]. ولكن الناطقين بالألمانية بعد ذلك ورغم استمرار عجزهم عن الظفر بالاستقرار السياسي والأمن العسكري، كوفئوا على جديتهم الابتكارية ـ وعلى رومانسيتهم الخيالية الحالمة بعد ذلك ـ بعصر ذهبي في العلم، والفنون، وكل أنواع البحوث الدراسية، فحققت اللغة الألمانية وآدابها بروزاً عالمياً متفوقاً يضاهي الفرنسية في مجال كسب الاحترام العالمي لأول مرة. فقد كان القرن الثامن عشر عصر ليسنغ، وغوته، وشيلّر، وموزارت، وبيتهوفن، وهردر، والأخوين همبولدت، وكانط، وهيغل، مما ضمن أن كثيراً من الأفكار الأساسية الهامة في التنوير قد تم التعبير عنها لأول مرة باللغة الألمانية.

ومنذ تحطم الإمبراطورية الرومانية المقدسة، ظل الناطقون بالألمانية متحدين نسبياً في مملكة النمسا ("أوستر ـ رايخ": أي 'المملكة الشرقية')، تحت حكم آل هابسبرغ. ولكن في القرن التاسع عشر، تم توحيد معظم أراضي الألمان إلى الشمال من النمسا بالقوة، تحت حكم القيادة البروسية القوية ذات النزعة العسكرية الصلبة الثابتة التي أطلقت على خلق هذا الكيان اسم "دويتش رايخ"، أي 'الإمبراطورية الألمانية'. وباعتبارها قوة أوروبية في القرن التاسع عشر، كان طبيعياً أن تشعر هذه الألمانيا الجديدة بحاجتها إلى مستعمرات في الخارج؛ فاستولت في الحال على أربع مناطق في إفريقيا، هي توغولاند، والكاميرون، وجنوب غرب إفريقيا (ناميبيا)، وشرق إفريقيا (تنجانيقا) ـ في ثمانينيات القرن التاسع عشر، وشمال شرق بابوا ومعظم جزر ميكرونيزيا في المحيط الهادئ في تسعينيات ذلك القرن. وكان جميع رعايا القيصر الجدد هؤلاء قد بدؤوا للتو يتلقون دروساً في اللغة الألمانية عندما خرجت ألمانيا مدحورة من الحرب العالمية الأولى؛ وفي مؤتمر فرساي في العام 1919، خسرت اللغة الألمانية كل

مناطقها فيما وراء البحار، وتحولت إداراتها إلى الفرنسية، والإنكليزية، و(في ميكرونيزيا) إلى اليابانية.

وقامت روح التوسع الألمانية برميةٍ مفاجئة يائسة أخيرة في العام 1939، ففرضت لوقت قصير إمبراطورية "رايخ" جديدة وكبيرة على معظم تخوم القارة الأوروبية الشمالية والوسطى من المحيط الأطلسي إلى جبال الأورال. ولكن السنوات الست من 'الحرب الشاملة' التي شكلت الفترة الكاملة التي استطاعت فيها أن تحافظ على قبضتها كانت أقصر من أن تُظْهِرَ إن كانت المكاسب اللغوية للألمانية سوف تتبع ذلك الغزو. ومن المؤكد أن أسلوب ألمانيا في غزو جيرانها الأوروبيين لم يكن مكيفاً لكسب أصدقاء ومعجبين. ولكن ربما كانت ستوجد مستوطنات للألمان بعد الحرب إلى جهة الشرق، بهدف إزاحة الناطقين باللغات السلافونية، وربما نمت لغات هجينة مختلطة قائمة على أساس ألماني بين خليط نزلاء الشبكة الواسعة من معسكرات أعمال السخرة القسرية. ولكن ما حدث هو أن اندفاع الساسة الجنوني للحصول على المجد العسكري انتهى به الأمر إلى ما يقرب من مسح النفوذ اللغوي الذي كانت الألمانية قد حققته في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. ففي ثلاثينيات القرن العشرين، راح العلماء، والفنّانون، والمثقفون الجادون في كل مجال، وخاصة اليهود الناطقون بالألمانية، يغادرون في حشود جماعية إلى المنافي في الخارج - وخاصة إلى الولايات المتحدة، حيث أصبحوا ناطقين بالإنكليزية. وفي فترة ما بعد الحرب، كانت تداعيات الذكريات الطازجة التي تربط الألمانية بالنازية تثبط كثيراً استخدام هذه اللغة خارج بلدان موطنها.

وكان من الرحمة للإنسانية أن توجّه هتلر المؤلم والمباشر لفرض سيطرته على العالم قد تم دحره بسرعة. ولكن هذا التوجه قد أثبت أنه يدحر نفسه بنفسه من الناحية الثقافية. وسيكون من المثير للاهتمام أن نرى إذا كانت الألمانية تستطيع أن تبدأ باحتضان نفوذها في ظروف القرن الحادي والعشرين المتغيرة، حيث تلعب ألمانيا والنمسا الآن أدواراً قيادية كديمقراطيتين راسختين جيداً في وسط أوروبا التي تسعى، ولو بصورة اسمية على الأقل، إلى 'تشكيل اتحاد أوثق من ذي قبل'.

خاتمة إمبراطورية: كومينكا

كومينكا: استعمار الشعوب الخاضعة..... بدون هذا الإحساس بالامتنان العميق بنزعة الإمبراطور الخيرية التي لا حدود لها، فإن الرعايا المؤقتين لا يستطيعون أن يفهموا المعنى الحقيقي لماهية كونهم يابانيين ... وبينما تبدو 'الكومينكا' كمفهوم شيئاً مجرداً وعسير الفهم، فإن مبادئها الأساسية هي نفسها مبادئ المرسوم الإمبراطوري حول التعليم، وإن فهم أحدهما هو فهم للآخر.

واشيسو آتسويا، ذكريات عن الحكومة في تايوان (تايبيه، 1943)، ص 339

أيها الرعايا، أطيعوا آباءكم كأبناء، وأحبوا إخوتكم وأخواتكم؛ وكونوا منسجمين كأزواج وزوجات، وصادقين كأصدقاء؛ وتصرفوا بتواضع واعتدال؛ ومدوا إرادتكم الخيّرة إلى الجميع؛ واسعوا للتعلم ورعاية الفنون، وبذلك تنمون ملكاتكم الفكرية وقواكم الأخلاقية الكاملة، وعززوا المصالح المشتركة بشكل طوعي؛ وفي القضايا العامة احترموا الدستور دائماً وأطيعوا القوانين؛ وعند نشوء حالة طوارئ، اخدموا بشجاعة؛ وبذلك تساعدون ازدهار العرش الإمبراطوري الخالد كالسماء والأرض.

من (المرسوم الإمبراطوري حول التعليم) في 30 تشرين الأول/أكتوبر 1890، معروض في كل المدارس اليابانية، بجانب صورة الإمبراطور.

لقد أنشأنا إمبراطورية جديدة، على الطراز الأوروبي، على حافة آسيا

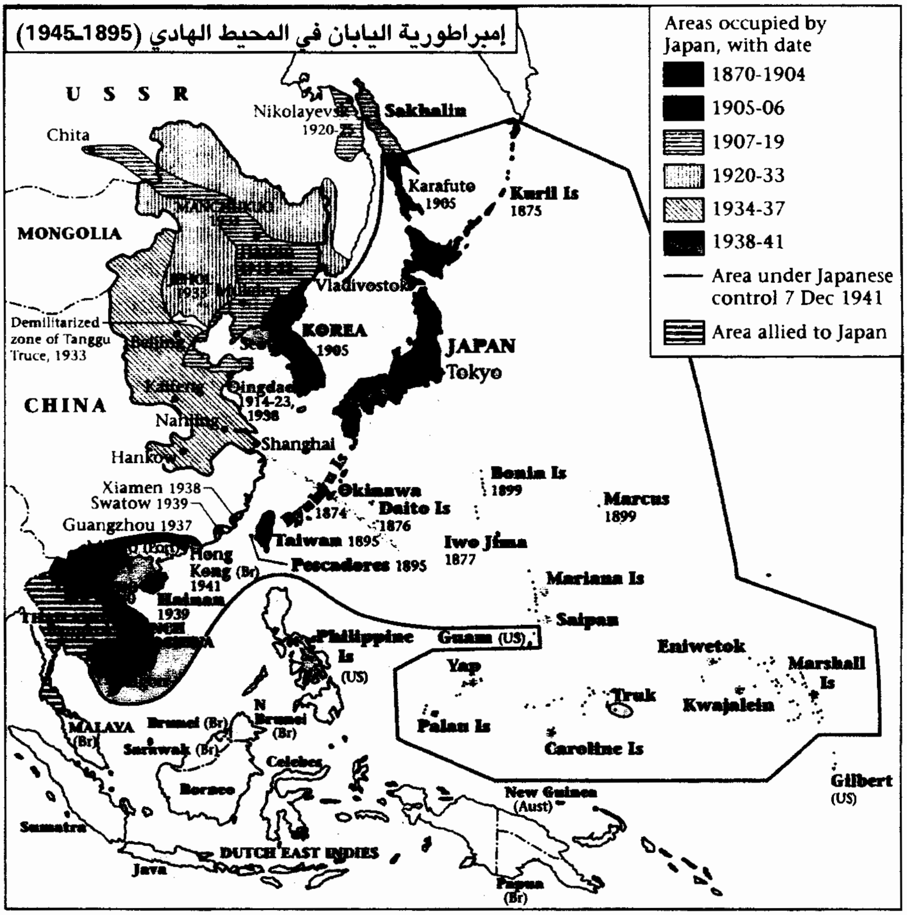
إينوي كاورو، وزير خارجية اليابان، 1887[(67)].

من الواضح أن اليابان ليست قوة أوروبية. ولكن الدافع الذي حصلت به لنفسها على إمبراطورية فيما وراء البحار كان مستلهماً من أوروبا. وعند النظر إليه كملحق لبناء أوروبا للإمبراطوريات، فإن القصة المختصرة لهذه المغامرة تبين مسببات هذا النوع من نشر اللغة، وأساليبه، وتفاهته في آخر الأمر.

كانت اليابان دولة انعزالية بشكل متشدد، إلى أن زارتها 'السفن السوداء' للقائد البحري الأمريكي ماثيو كالبريت بيري في العام 1853؛ وبحلول العام 1858، كانت قد أرغمت على إبرام معاهدات تجارية مع القوى الأوروبية الكبرى. وقد أدى عدد من الأحداث العنيفة إلى هز استقرار الحكم التقليدي لسلسلة حكومات طوكوغاوا العسكرية. وهي أحداث أثارت إعجاب بعض اليابانيين بالقوة العسكرية للأجانب، ولا سيما الأسطول البريطاني. وفي العام 1868، راح هؤلاء المتشددون يصرخون بشعارات مثل: 'أكرموا الإمبراطور؛ اطردوا البرابرة'، و'بلد غني؛ جيش قوي'(*)، ثم أطاحوا بالحكومة القائمة على أسس إقطاعية والتي كانت قد استمرت قرنين ونصف قرن، وأقاموا حكومة جديدة ذات نظام متغير جذرياً على الطراز الغربي تحت الإشراف الاسمي للإمبراطور الشاب ميجي الذي كان قد اعتلى العرش في العام 1867، فكان ذلك مناسباً لأولئك المتشددين اليابانيين. فأرسلوا بعثات إلى أوروبا والولايات المتحدة للتعرف على طرق التنظيم فيها. وعند حلول العام 1889 كانت اليابان قد تبنت دستوراً جديداً، مع برلمان ذي مجلسين (أحدهما وراثي والآخر تنتخبه الأسر الغنية)، وحكام تابعين يتم تعيينهم بشكل مركزي، وهيئة أركان عامة للجيش مسؤولة أمام الإمبراطور مباشرة (وبالتالي فهي منيعة على السيطرة المدنية)، وخدمة مدنية وطنية، وقوة شرطة، ونظام مصرفي وتعليمي. وفي غضون جيل واحد، كانت اليابان قد وضعت نفسها على قدم المساواة مع القوى الغربية القيادية البارزة، وانطلقت لتظهر استقلالها.

وكانت كوريا هي الدافع الاستراتيجي الرئيسي لحروب اليابان الاستعمارية، فقد كانت اليابان تتعلم من الغرب دروساً في الجغرافيا السياسية. وكان ميجور ميكل، المستشار الألماني للجيش الإمبراطوري، قد وصف كوريا بأنها 'خنجر موجه لطعن اليابان في قلبها'، مفكراً في قيمتها لقوة معادية. وكان الساموراي المجردون من ممتلكاتهم، وهم طبقة الفرسان القديمة التي كانت هي الخاسر

(*) ليست هذه كلمات يابانية بقدر ما هي سلسلة من الحروف الصينية بلفظ ياباني. ولكن ذلك لم يكبح فعاليتها.



الرئيسي في عملية تحديث اليابان، قد أثاروا ضجة بالدعوة إلى غزو كوريا في أوائل سبعينيات القرن التاسع عشر. ولكن الصين قد دعيت إلى كوريا في العام 1894 للمساعدة على قمع تمرد. فجاءت اليابان أيضاً؛ متذرعة بحق بموجب معاهدة لضمان حياد كوريا. وشرع اليابانيون يلقون بوزنهم هنا وهناك، فاختطفوا ملك كوريا وملكتها لإثبات مقصدهم؛ وأثبتت المقاومة الصينية أنها ليست عقيمة فحسب، بل وباهظة الكلفة كذلك. وعند تسوية الحرب في العام 1895، أرغمت الصين على التنازل لليابان عن جزر تايوان والبيسكادور: فأصبحت هذه الجزر أول مستعمرة يابانية.

واستمرت اليابان بالاستثمار في كوريا، ومارست ضغطاً متزايداً على

حكومتها للإسهام في التحديث. وفي العام 1902 أقامت اليابان حلفاً مع بريطانيا العظمى قُدِّر له أن يستمر عشرين عاماً. فشجعها ذلك على مقاومة التحركات الروسية نحو كوريا، وعلى إشعال الحرب الروسية ـ اليابانية في العامين 1904 ـ 1905. ومثلما فعلت الصين، اكتشفت روسيا أنها قد قللت بشكل خطير من قوة اليابان العسكرية. وكانت المعارك البرية (ومعظمها في منشوريا) دامية ولكن غير حاسمة، ولكن روسيا لم تخسر عندئذٍ أسطولها في المحيط الهادئ فقط، بل وكذلك في بحر البلطيق. وفي اتفاقية السلام التالية لتلك الحرب، حصلت اليابان على شبه جزيرة لياودونغ في منشوريا، مع مرفأيها الممتازين: بورت آرثر ودالنيان، وعلى النصف الجنوبي من جزيرة سخالين، التي سميت باليابانية "كارافوتو". وفي تلك الأثناء صار الضغط الياباني المستمر على كوريا بدون منافسة من روسيا أو الصين: فخضعت كوريا، وأصبحت محمية في بادئ الأمر، ثم مستعمرة بعد ذلك، في العام 1910.

ولم يتوقف توسع اليابان عند ذلك الحد. فقد انضمت إلى الحلفاء في الحرب العالمية الأولى. وسارعت إلى الاستيلاء على أقرب الممتلكات الألمانية إليها، وهي مدينة كينغادو في شمال شرق الصين، وجزر ميكرونيزيا. وفي مؤتمر فرساي في العام 1919 ـ عندما خضع الفرنسيون دبلوماسياً للإنكليز في بادئ الأمر ـ أرغمت اليابان على التخلي عن كينغادو، ولكن سيطرتها تأكدت على الجزر، التي صارت منذ ذلك الحين تعرف باسم 'جزر المحيط الجنوبي'.

ونتيجة لهذا كله، فإن اليابان في سنوات ما بين الحربين في القرن العشرين قد احتفظت بإمبراطورية كبيرة فيما وراء البحار حول شمال غرب المحيط الهادئ: تايوان، ومنشوريا الجنوبية، وسخالين الجنوبية، وكوريا كلها، وجزر ميكرونيزيا. فكان لديها فترة طولها بين خمسة وعشرين عاماً وخمسين عاماً، أي جيل واحد أو جيلان كاملان، لتفرض نفسها ولغتها. وسنلقي الآن نظرة مختصرة على النتائج(*).

(*) كان الاستعمار الياباني بالطبع قوة عديمة الاستقرار للغاية، فلم يتوقف هنا. فقد سيطرت اليابان أيضاً لفترات قصيرة على سيبيريا الشرقية حتى إركوتسك (1918-1922)، وسخالين الشمالية، وآمور

إن الدوافع التي وسعت الإمبراطورية اليابانية كان لها شيء من التأثير على استخدام اليابانية في المناطق الناجمة عن ذلك التوسع. ففي هذه الجزر في المحيط الهادي لم يأت اليابانيون للتجارة، ولا للاستغلال الصناعي. ونتيجة لذلك فإنهم لم يرسلوا سوى عدد قليل من المستوطنين أو المقيمين المدنين: بل كانت الأغلبية الساحقة من القادمين الجدد جنوداً وإداريين. فلم يكن هناك سوى تفاعل قليل نسبياً من أجل الأعمال اليومية، واتخذ الجزء الأكبر من الاتصال صيغة تلبية الأهالي المحليين للتعليمات اليابانية.

وفي المستعمرات الجديدة، كان الموقف الياباني من الحياة بعيداً عن حرية الأعمال التجارية. وكانت كل من تايوان وكوريا، بطرقهما المختلفة، جزأين من منطقة نفوذ الصين منذ زمن طويل. وكان لكل منهما نظام تعليمها المثبت الخاص بها؛ ولكن السياسة اليابانية كانت هي التقويض التدريجي للمدارس المشغلة محلياً والتي بقيت من الفترة السابقة وإحلال مؤسسات لغوية يابانية محلها - على حساب الأهالي المحليين. وفي ميكرونيزيا، حيث كانت معرفة القراءة والكتابة والحياة الحضرية مكتسبات أحدث بكثير، كانت الأهداف أكثر تواضعاً، وسنوات التعليم أقصر: ومع ذلك فإنها ظلت تستهدف التعليم الأساسي باليابانية. وكانت مواقف اليابانيين من الشعوب المستعمرة تركز بشكل متزايد على تضامنها الطبيعي باعتبارهم جميعاً أعضاء في 'منطقة الازدهار المشترك الكبرى في جنوب شرق أسيا'. ولكن الضغط الفعال عليهم قد تزايد ليصبحوا أعضاء في مجتمع اللغة اليابانية.

وكان هذا قد بدأ يحدث مفعولاً عندما عرّضت الحرب العالمية الثانية الإمبراطورية اليابانية كلها للخطر. ويقول أحد التقديرات إنه في العام 1942، كان 62 بالمئة من سكان تايوان قادرين على فهم اليابانية، وكذلك كان 20 بالمئة من

السفلى (1920-1925)، ومنشوريا (1931-1945)، وشمال شرقي الصين (1934-1945)، ثم سيطرت أثناء الحرب العالمية الثانية على جنوب شرق آسيا كلها، وجزر الهند الغربية، وغينيا الجديدة، والفلبين وبورما (لفترات مختلفة بين العامين 1941 و 1945). ولكن هذه المناطق كانت موضع نزاع، فاحتفظت بها اليابان على أساس عسكري مؤقت. فلم يتح لليابانيين شيء يشبه فرصة لغرس جذورٍ للغتهم إلا في 'الإمبراطورية الرسمية' الأقدم.

الكوريين[68]. ولكن عندما سيطرت اليابان على تايوان لأول مرة في العام 1895، اختارت أن تتبع النصيحة النموذجية الفرنسية وليس البريطانية، فاستهدفت دمج الإقليم دمجاً كلياً في اليابان(*). وقد تم اتباع هذه السياسة عندئذ بدون نقاش عند الاستيلاء على المستعمرات الأخرى. وعلى مدى أوائل القرن العشرين، أثبتت هذه النصيحة أنها كارثية في المستعمرات الكبيرة المتقدمة، وخاصة في كوريا: فرعايا الإمبراطور الجدد لم يحظوا أبداً بثقة كافية للسماح لهم بالإسهام مباشرة في صنع السياسة في طوكيو، ولكن لم تكن لديهم وسيلة لتأكيد سيطرتهم الجزئية على الأقل على مصيرهم محلياً. وقد اتضح ذلك بشكل وفير في مظاهرات الكوريين المتشددة في العام 1919، التي قمعها اليابانيون بطريقة دامية، وفي العام 1925 كان المحلل الياباني آوياجي تسوناتارو ينظر إلى الوراء مستذكراً، فلاحظ: 'أن جميع المثقفين الكوريين تقريباً، حتى الذين يتكلمون اليابانية بطلاقة - وحتى الذين درسوا في اليابان - رفضوا الحكم الياباني'[69].

وقد أصبح من المقبول بمرارة لدى الحكام أن الكوريين 'يجري تثقيفهم ليكونوا معادين لليابان'. وفي العامين 1929 - 1930 حدثت سلسلة متلاحقة جديدة من الاضطرابات الطلابية ضد التفوق الياباني المفترض. وكان هناك إضراب أقل، وسخط أقل، على ما يبدو، في تايوان، حتى عندما صار تعليمهم يابانياً بشكل متزايد. وصارت الدراسات الصينية هناك اختيارية في العام 1922، ثم ألغيت في العام 1937، ومن المفارقات أن هذه الدراسات استمرت موجودة على المنهج - إلى جانب اللغة الكورية - في مدارس كوريا.

وفي تلك الأثناء، فإن ميكرونيزيا لم يكن لديها تقليد من المعرفة المتطورة بالقراءة والكتابة كي يمسحه اليابانيون، فكانت أكثر استقبالاً للتعليم الجديد.

(*) جاءت النصيحة الفرنسية من مايكل لوبون، الذي اقترح أن تصبح تايوان 'ولاية تابعة لليابان في المستقبل، إن لم يكن الآن' وأن تخضع فوراً للدستور الإمبراطوري الياباني، وهو حل يذكرنا بالنهج الفرنسي إزاء الجزائر. أما النصيحة البريطانية، من مونتاغيو كيركوود، فقد اقترحت النظر إلى تايوان كمستعمرة لها مجلس تشريعي خاص بها، فيه أكبر عدد ممكن من التايوانيين كمشرعين، وقضاة، وإداريين. ولكن هذه النصيحة رفضت لأسباب عديدة على أساس أن اليابانيين والتايوانيين ينتمون إلى العرق نفسه، ويستخدمون الأبجدية نفسها (تشين 1984: ص 249 - 251).

وعلاوة على ذلك فإن سكانها الأصليين البالغ عددهم خمسين ألفاً، انضم إليهم بسرعة عدد يساويهم من المستوطنين اليابانيين، الذين وصلوا لزراعة قصب السكر. وقد أقيمت المزارع في عشرينيات القرن العشرين. وفي أوائل ثلاثينياته كانت تعطي أكثر من 60 بالمئة من عائدات الحكومة هناك. ولولا الحرب في المحيط الهادي لكانت الأغلبية الساحقة في ميكرونيزيا من الناطقين باليابانية حتى اليوم(*).

غير أن خطط اليابان الإمبراطورية لمجالها الآسيوي للازدهار المشترك، وما ينطوي عليه ضمنياً من نشر اليابانية، مزقها الانتصار السياسي للعسكريين وحرب المحيط الهادي التي فرحوا بقيادة اليابان لخوضها. ولذلك فإن أي قلوب أو عقول ربما تكون اليابان قد كسبتها خلال خمسين عاماً من الاستعمار السلمي (نسبياً) قد تمت خسارتها تماماً في العربدات النهائية للجيش الياباني عبر شرق آسيا وجنوب شرقها. ورغم أن اليابانيين كسبوا كل الساحل الغربي للمحيط الهادي لفترة قصيرة، فقد انتهى الأمر باليابان في العام 1945 وهي محصورة في الجزر التي كانت تسيطر عليها في العام 1868، بل إنها فقدت جزر كورايل على تخومها الخارجية في الشمال، والريوكيوس في الجنوب. وقد أعيدت تايوان إلى الحكم الصيني، واستقلت كوريا. أما سخالين وميكرونيزيا، المأهولتان بشكل خفيف أكثر، فقد وضعتا تحت سيطرة روسيا وأمريكا على التوالي. ولم يسمح لأي إدارة يابانية بالبقاء في أي مكان من مستعمراتهم التي حصلوا عليها بشق الأنفس. وأعيد ستة ملايين ونصف مليون ياباني إلى اليابان. وحدث توقف قسري للنفوذ الياباني كله في آسيا والمحيط الهادئ لمدة خمسة عشر عاماً كاملة.

فما الذي يبقى إذن من مجتمع الناطقين باليابانية فيما وراء البحار بعد

(*) كان ما حدث هو أن هذه الجزر صارت جزءاً من جزر المحيط الهادئ الواقعة تحت وصاية الولايات المتحدة (وحصلت على استقلالها في العام 1986)، ولا تزال لغتها الخاصة هي السائدة، وفي العام 1998 قدرت الأمم المتحدة عدد سكانها بمئة وأربعة عشر ألفاً، منهم حوالي 3,500 من الناطقين بالإنكليزية (غرايمز، 2000).

نصف قرن من طرد اليابان من هناك؟ إن كثيراً من الباقين من الأجيال التي درست في المدارس اليابانية لا يزالون قادرين على التحدث بهذه اللغة. ولكن يبدو أنها لا تكاد تستخدم كوسيلة اتصال، حتى بين أبناء هذا الجيل[70]. فالاحتقار الذي أثاره اليابانيون قد استمر طويلاً إلى درجة أنه منع الاستفادة من هذا التراث عندما بدأت المصالح الصناعية اليابانية تنتشر مرة أخرى. فالإمبراطورية اليابانية القديمة لم تعمل بأي حال من الأحوال كمنصة إطلاق لنشر المنتجات اليابانية على نطاق عالمي، ولا لنشر متأخر للثقافة اليابانية في العقود الأربعة الأخيرة من القرن العشرين.

إن نشر اليابان للغتها لمدة خمسين عاماً يمكن رؤيته كعرض مصغر لسيرة حياة لغة إمبراطورية. ومثل القوى الاستعمارية الأخرى فقد استغلت اليابان ميزة تفوقها التقني والعسكري على البلدان الأخرى - وفي هذه الحالة، على جيرانها الأقربين - لكي توسع أراضيها. ثم واجهت مشكلة ما يجب عمله مع الأهالي الأصليين، وهم أناس لا يعتقدون أنهم يابانيون. فحاولت اليابان في كل مكان أن تحولهم إلى أعضاء في مجتمعها، وبالتأكيد فإنها لم تثق في أنهم سيرتبطون بها طوعاً، ولكنها راكمت مخزوناً كبيراً من التثقيف باللغة اليابانية. وكما حدث في كل مكان، فإن عملية التحويل هذه فشلت.

كان هناك نجاح معقول في نشر اللغة، ولكن عندما اختفى الدافع السياسي لاستخدامها، تبين أن اللغة ليست لها قوة إسناد مستقلة. والإطار الذي اقترح لتفسير اضمحلال الروسية يمكن تطبيقه هنا أيضاً. فقد كان عامل التهجين غائباً ما دام السكان فيما وراء البحار جميعاً قد أعيدوا إلى موطنهم بصورة جوهرية. ولم يكن هناك حنين للحياة الماضية تحت علم الشمس المشرقة، ولم تكن هناك أي رغبة في الحفاظ على الوحدة مع الناطقين باليابانية. بل إن الذكريات المريرة التي تركتها السنوات القليلة من السيطرة اليابانية كانت مؤلمة إلى درجة أنه حتى عندما برزت أسباب عولمية لتجديد الصلات الاقتصادية من خلال اللغة، فقد تم تجاهل هذه الأسباب. وبذلك يتضح أن الانتشار الدائم للغة لا يمكن تحقيقه عن طريق التخطيط، أو القوة العارية السافرة.

12
عالم صغير أم مرآة مشوشة؟ سيرة اللغة الإنكليزية

لن نتوقف عن الاستكشاف
وستكون نهاية اكتشافنا
هي الوصول إلى حيث بدأنا
ومعرفة المكان لأول مرة.

ت. س. إليوت: 'ليتل غيدنغ'[1]

إن سيرة حياة الإنكليزية، مثل معظم لغات العالم الكبرى، كثيراً ما يعاد سردها على الناطقين بها أنفسهم، ونادراً ما تروى بدون عنصر من الزهو بالانتصار. فأمجاد أي مجتمع لغوي يصعب على الناطق ـ الوطني أن يقاومها. وقليلون هم الذين لديهم أي تصور حقيقي صحيح عن عصور غير عصرهم.

ولكن حتى من منظور هذا الكتاب، لا يزال هناك إحساس بأن الإنكليزية تستحق موقعاً خاصاً بين اللغات العالمية. صحيح أنه يصادف أنها أوسع اللغات انتشاراً عند كتابة هذه السطور. وفي هذا العصر صار العالم مجتمعاً واحداً مترابطاً باتصالات فورية، مما يجعل الإنكليزية متوفرة بشكل فريدٍ. ولكن الحقيقة المادية الماثلة أمامنا هي أن الإنكليزية لغة ذات تاريخ شديد التنوّع بصورة لافتة للنظر: وهذا التاريخ قصير. فالإنكليزية كلغة محددة لا يزيد عمرها على ألف وخمسمئة عام. وقد تغيرت مادتها تغيراً جذرياً عند حوالي منتصف عمرها

القصير. ولكنها حشدت في فترتها القصيرة هذه تشكيلة متنوعة من الأزمات والمحصلات التي لا يمكن التنبؤ بها بحيث يمكن النظر إليها تقريباً كخلاصة شخصية لمغامرات أسلافها السابقين الذين يرجع تاريخهم كل المسافة إلى ممفيس، وباتنا، وتشانغ-آن، وبابل.

إن إحدى فوائد النظر إلى الإنكليزية على ضوء مثل هذا العدد الكبير من النظائر هي الكشف عن الغرابة الجوهرية لتطورات كثيرة تعتبر في العادة من البديهيات المسلّم بها. وقد لاحظنا نجاح الأنغلو ـ ساكسون الجرمان والفريزلنديين في زرع لغتهم، وهذا إنجاز مدهش عند مقابلته مع إنجاز الغزاة الجرمان الآخرين، وفي مقدمتهم معاصروهم من الفرنجة والقوط الذين استقروا في أجزاء أخرى من الإمبراطورية الرومانية الغربية. وبعد ذلك بأكثر من ألف عام، أسس المستوطنون الإنكليز في أمريكا الشمالية بصورة عفوية مجتمعاً شعبياً حاشداً ناطقاً بالإنكليزية، بينما كان التاج الفرنسي يضطر إلى إرسال فتيات للزواج، لمنع المستوطنين الشباب من التحول إلى هنود وإنشاء عائلات بدون اللغة الفرنسية. وبعد ذلك بقرن، أدت أنشطة شركة الهند الشرقية الإنكليزية إلى نشر لغتها الإنكليزية، بينما لم تنجح شركة الهند الشرقية الهولندية في الفترة نفسها إلا في نشر لغة مشتركة سابقة هي الملايوية. وهناك ثلاث حالات فقط أسهم فيها نوع معين من الأوضاع في توزع الإنكليزية ولكن لم يكن هناك له أثر مماثل على اللغات الأخرى. إن الانتشار التاريخي للغة شيءٌ يصعب تفسيره تفسيراً كاملاً. ولكن إبقاء سلسلة من اللغات في أذهاننا قد يساعدنا على الأقل في تجنب بعض أنصاف الحقائق.

إن تاريخ اللغة الإنكليزية، على الأقل عند النظر إليه من بداية القرن الحادي والعشرين، يقع في فترتين غير متساويتين وشديدتي التباين: إحداهما هي فترة "التشكل"، من القرن الخامس إلى نهاية القرن السادس عشر. وأثناء هذه الفترة اتخذت اللغة شكلها، فنمت في جزيرة بريطاني؛ والفترة الثانية هي فترة "الانتشار"، من القرن السابع عشر إلى الوقت الحاضر. وفي هذه الفترة راحت تنتقل بالسفن فانتشرت في كل قارات العالم.

ولقد نظرنا في بداية فترة التشكل، عندما ظهر خليط من مجموعة من

اللهجات الجرمانية كجزء من الاضطراب عند نهاية إمبراطورية روما (انظر الفصل 7: 'ضد الأخطار ـ مجيء الإنكليزية'، ص 437). فعلى الرغم من انعدام الوحدة، ومن التهديد العسكري، كانت الإنكليزية عند حلول القرن التاسع قد تطورت إلى لغة أدبية كبرى. ومع ذلك فقد قُدِّر للغزاة الفرنسيين بعد ذلك بقرنين أن يخنقوا تعبيرها المكتوب. وبطريقة ما، في غضون القرنين التاليين، نجحت الإنكليزية في امتصاص المجتمع اللغوي المسيطر عليها، والعودة إلى الظهور كأبرز لغة في المملكة. وانتشرت جغرافياً كذلك في الفترة نفسها، فأقامت رؤوس جسور في كل مملكة في الجزر البريطانية، بين الويلزيين والاسكتلنديين والإيرلنديين. وكانت هناك فترة أخرى من الاضطراب، بين القرنين الرابع عشر والسادس عشر، عندما أهلك الطاعون نصف السكان، وأحدثت الحرب تمزقاً في التتابع الملكي، واهتزت الكنيسة بالاحتجاج والانشقاق، وأرهقت العملة بالتضخم. وأثناء هذا الوقت كله كانت الإنكليزية محكية ومكتوبة ولكن بدون مقياس وطني يوحد اللهجات المتنوعة. وجاء الاستقرار اللغوي في وقت الاستقرار السياسي نفسه إلى حد كبير، فتركز الاستقراران على لندن، وعلى قراءة الإنجيل بصورة جماعية مكثفة.

وفي فترة الانتشار والتعزيز، عندما بدأ الناطقون بالإنكليزية يسافرون ويستقرون في الخارج، صار مزاج الإنكليز، وبالترابط مزاج لغتهم أيضاً، دنيوياً أكثر بكثير، بالمعنيين الحقيقي والمجازي؛ وانفتح العالم للإنكليز، ولكن قبل كل شيء لمشاريعهم العملية والتجارية، بحيث تراجعت اهتمامات الحكومة والكنيسة كثيراً إلى المؤخرة. وهذه الفكرة عن 'الإنكليزية ـ صديقة رجل الأعمال' قد تكون هي الشيء المتميز في الحقيقة حول انتشار هذه اللغة، ولو أنه تعزز بتميز مماثل بالعلم والتكنولوجيا الناطقين بالإنكليزية. ومن المؤكد أن هذا الطابع التجاري والعلمي قد أفردها على حدة عن منافساتها الكبرى كالإسبانية والفرنسية والروسية. بل لقد صارت أكثر سيطرة في التاريخ الحديث جداً من القرن العشرين، عندما أصبحت مستعمرة وحيدة سابقة ناطقة بالإنكليزية هي أعظم قوة في العالم، وأصبحت الكفاءة في اللغة نفسها صناعة كبرى، وتسارع انتشار اللغة حتى تجاوز كثيراً نفوذ الدول التي تتكلمها بشكل أصلي كلغة أم.

ويقدر عدد الذين يستخدمون الإنكليزية لأنها مناسبة كلغة مشتركة بأنه قد يصل إلى ثلاثة أضعاف مجموع سكان الدول الناطقة بها كلغة أصلية. ولا يمكن لنفوذ اللغة أن يصل إلى أعلى من هذا بكثير.

إن هذا الاستقلال الذاتي الذي حصلت عليه الإنكليزية يعني أنه على عكس معظم اللغات التي ينظر فيها هذا الكتاب، فإنه ليس ممكناً حتى الآن تتبع بدايات الانحدار إلى الأسفل في استخدام اللغة، حتى ولو أن القوى السياسية والاقتصادية التي وضعت الإنكليزية هناك قد بلغت ذروتها إلى حد كبير. ولكن ذلك لن يعيقنا. فتاريخ حياة كثير من اللغات التي نظرنا فيها يظهر عوامل متنوعة يمكن أن تنهي عهد اللغة العالمية. وسيكون من المفيد أن ننهي روايتنا لسيرة حياة الإنكليزية باستخدام هذه العوامل للتكهن بالممرات الهابطة إلى الأسفل من ذرواتها الحالية العالية، رغم أنها تبدو غير قابلة للتعرض للهجوم.

اختبار تحمل: توديع الفرنسية النورمانية

في الليلة السابقة لخوض المعركة، سمعت أن الإنكليز كانوا سعداء جداً، وكثيري الضحك والمرح. وقد أخذوا يأكلون ويشربون طول الليل، فلم يخلدوا للنوم في تلك الليلة أبداً. وكان عليك أن تراهم مستمرين في الرقص والقفز والغناء وهم يهتفون، "نخب سعادتكم"، "في صحتكم"، و"ليأتِ ما هو كائن"، و"اشربوا بشهية"، و"اشربوا إلى الوراء"، و"اشربوا النصف"، و"اشربوا حتى الثمالة"(*). هكذا تصرف الإنكليز، بينما أمضى النورمان والفرنسيون الليلة في الصلاة وطلب الغفران والتوبة، والاعتراف بذنوبهم أمام القساوسة؛ أما الذين ليس لديهم قساوسة بالقرب منهم فيعترفون لجارهم ...... وسهر القساوسة في كنائسهم الصغيرة

(*) كانت كؤوس الخمر تدور فيما بينهم، وباللغة الإنكليزية القديمة، فإن هذه كلها أنخاب يهتفون بها، مع التبجح الصادر عن الإنكليز وهم منهمكون في قضاء الليل باحتفالهم الصاخب المخمور قبل معركة هاستنغز الحاسمة. وقد كتب جيوفري، راهب مونماوث في حوالى العام 1140 قائلاً: "... وحتى يومنا هذا فقد استمر التقليد في بريطانيا في الحفلات والمآدب حيث يقول الشارب للآخر "في صحتك!" وأما الذي يتلقى لكأس بعده فيرد عليه: "اشرب حتى الثمالة!"، (تاريخ مملكة بريطانيا: 100، المخطوط 568، بعد الصفحة 46v).

الحديثة التأسيس في صفوف الجيش طيلة تلك الفترة، يدعون الله ويصلون له، وهم يصومون ويتوبون، ويرتلون صلواتهم الخاصة، ويتلون "المزامير"، و"الترانيم"، والدعوات التي مطلعها "يا رب ارحمنا"، و"أبانا الذي في السموات" ... وغيرها من الصلوات والأدعية المناسبة لذلك اليوم(*). وكان ذلك لائقاً وفي محله تماماً، لأن ذلك اليوم كان يوم سبت.

ويس، قصة رو (**)III، 11: 7323_42، 7365_80

بهذا المعنى، كان الغزو النورماني لإنكلترا في منتصف القرن الحادي عشر مفارقة تاريخية وقعت في غير زمانها الصحيح، فهو آخر الغزوات الجرمانية التي هزت بلداً أوروبياً بعنف مزلزل، وقد تأخرت تلك الغزوة عن زمنها المناسب مدة قرنين(***).

فبعد كل شيء، كان النورمان بعيدين خمسة أجيال أو ستة فقط عن أسلافهم النرويجيين الذين كانوا معروفين باسم الفايكنغ. وكلمة "نورماني" ليست سوى ترجمة لكلمة "نورومين" اللاتينية، أي 'رجال الشمال'، التي لا تزال تطلق على النرويجيين في الشمال الآيسلندي (النورْس). وعند نهاية القرن التاسع، كان النورمان، تحت قيادة زعيمهم رولو، يعيشون بسيوفهم، ولكنهم

(*) إنها عناوين لاتينية لصلوات وأدعية مطالعها: 'يا روح الرب'، و'خلاص الناس'، و'تحية لك أيتها الأم المقدسة'، وعلى غرار الصيغ والأشكال الفرنسية مثل: 'أشفق علينا'، والإغريقية، مثل 'ارحمنا يا رب' و'يا أبانا'.

(**) روبرت ويس، نورماني من جيرزي. وقد كلفه الملك هنري الثاني في ستينيات القرن الثاني عشر بكتابة احتفال بتمجيد التاريخ الروماني، لتسميته على اسم البطرك رولو (أي رو). كي يكون نظيراً يضاهي كتابه الأسبق المعنون: "قصة بروت" عن تاريخ بريطانيا قبل النورمان (التي يفترض بالمثل أن بروتوس هو الذي أسسها). وهذا القسم يروي قصة التصرفات المختلفة للإنكليز والنورمان عشية الليلة السابقة لمعركة هيستينغز، في العام 1066، ولكنه يوضح ببراعة الأدوار المختلفة للغات الإنكليزية، والنورمانية، والفرنسية، واللاتينية في إنكلترا النورمانية.

(***) في هذا القسم، تشمل كلمة 'نورماني' الطبقة الحاكمة في إنكلترا وتوابعها من العام 1066 إلى العام 1399. وقد كانت لغتهم العامية الدارجة في البداية هي الفرنسية النورمانية، المعروفة أيضاً بالأنغلو نورمانية، ولكن بعد العام 1154 فإن تنويعات الفرنسية المحكية في البلاط صارت تقوم على أسس أوسع، إذ إن هنري الثاني وباروناته كانت لهجتهم تقوم على الأنجو، في جنوب غرب فرنسا. ومنذ ذلك الحين صارت السلالة تعرف باسم الأنجيفيين.

أبحروا إلى الجنوب، واستقروا فيما أصبح نورماندي، بعد أن أرغموا ملك الفرنجة تشارلس الثالث (البسيط) على إعطائهم حقاً بموجب معاهدة سانت كلير ـ سير ـ إيبت في حوالي العام 911. وهناك تخلوا عن عاداتهم في التجوال وشن الغارات، بما فيها لغة نُورْس الشمالية، ومثل الغزاة الجرمان النموذجيين تخلوا في غضون جيلين عن استعمال لغتهم، وأخذوا باللسان الرومانسي المحلي، الذي صار يعرف على شفاههم باسم اللغة الفرنسية النورمانية. وعندما قام سليل رولو، وليام النغل، بقيادة غزوته الناجحة لإنكلترا في العام 1066، أدخل لغته معه إلى إنكلترا.

الإنكليزية مغطاة بطبقات

ولكن الفتح النورماني لإنكلترا كان مختلفاً تماماً عن الغزوات الجرمانية السابقة لإنكلترا، في حجمها وفي عواقبها السياسية معاً.

فقد كان حجم هذه الغزوة صغيراً، على الأقل بالمقارنة مع سكان إنكلترا آنذاك. فقد جاء وليام مع حوالي خمسة آلاف فارس. وكان العدد الكلي 'للذين جاؤوا مع الفاتح' يصل على الأكثر إلى أربعة أضعاف ذلك العدد، أي عشرين ألفاً في مقابل سكان إنكليز عددهم المليون ونصف المليون[(2)]. وهكذا ففي أول جيل من حكم النورمان، ربما كان شخص واحد من كل مئة يتكلم الفرنسية النورمانية.

ومن حيث العواقب السياسية، لم تكن الغزوة النورمانية غارة، ولا هجرة جماعية، بل كانت فتحاً متفرداً متميزاً قائماً على سبب جدي للحرب ؛ فقد زعم وليام أن ملك إنكلترا مدين له بالولاء، ثم تابع ليثبت تأييد الله لحقه خلال المعركة. فكانت النتيجة تحولاً يكاد يكون فورياً لإنكلترا من مملكة ساكسونية إلى مملكة نورماندية. فالنورمان، على قلتهم، قطعوا بالنتيجة رأس النظام الإنكليزي.

والأثر اللغوي لهذا يبدو مدمراً، وخاصة بالنسبة لنا نحن الذين نقرأ سجله المدون بعد ألف عام من كتابته. فبعد أن أصبح الملك والنبلاء متكلمين

بالفرنسية صار هناك جمهور جديد للإنتاج الأدبي في إنكلترا؛ فتوقف الأدب الإنكليزي باللغة العامية الدارجة - الذي كان، مع الأدب الإيرلندي، هو أقدم ما ازدهر في أوروبا كلها، وحل محله أدب البلاط الخيالي العاطفي الأنغلو نورماني. ومنذ ذلك الحين فصاعداً، فإن القوانين، وأحكام المحاكم، والشهادات القانونية، صارت كلها بالفرنسية. وهذا تحول يظهر في السجلات بشكل صارخ؛ لأن الوثائق القانونية هي التي تضع القوانين بشكل متزايد للمجتمع النورماني، وتصبح هي الأهداف الرئيسية للنضال السياسي. وكان للنظام الجديد تأثير مادي ملموس أقل بين الرهبان ورجال الدين، لأن اللاتينية ظلت اللغة الأساسية لعملهم الفكري، ولكن إلى جانب الطقوس واللاهوت، فإن اللاتينية تولت أيضاً مهمات الاحتفاظ بالسجلات وكتابة التاريخ. فالتاريخ الزمني الأنغلو - ساكسوني، الذي تم الاحتفاظ به باستمرار منذ عهد ألفرد في القرن التاسع تلاشى في العام 1155. فعند منتصف القرن الثاني عشر، كان تقسيم الوظائف بين اللغات قد أصبح جامداً. ولم يبق للإنكليزية أي دور ظاهر يذكر، على الأقل بشكل مكتوب. ولكن هذا لا يعني أن استعمال اللغة كان مهدداً بالخطر: فرغم انخفاض ظهورها في السجلات، فليس هناك سبب للاعتقاد بأن التكلم بها قد تناقص أبداً بين الأغلبية الساحقة من الناس.

كان انتشار الفرنسية النورمانية سيصبح محدوداً جزئياً بسبب الجمود نفسه في التسلسل الهرمي الاجتماعي الذي يترأسه النورمان. وضمن النظام الإقطاعي، كانت مكانة كل إنكليزي وإنكليزية تتحدد عن طريق الولادة إلى حد كبير. وكانت الكنيسة تقدم الطريق الوحيد للتقدم من خلال الجدارة. وكان هذا الطريق محدوداً للغاية بسبب قيود الامتناع عن الزواج. ونتيجة لذلك فإن الناطقين بالفرنسية من النبلاء ظلوا مجتمعاً مغلقاً تقريباً - رغم أن دماً جديداً قد دخل إليهم، وبالتالي بعض اللغة الإنكليزية من طفولتهم بلا شك عن طريق زواج أولئك النبلاء بسيدات ساكسونيات - ولم يكن هناك مجال يذكر للناس لتحسين مستقبلهم عن طريق تقليد أسيادهم.

ففي إنكلترا الإقطاعية كان الناس يعرفون مقاماتهم وأماكنهم، لأنها كانت

في العادة محددة ضمن قرية. فلم تكن لديهم فرصة تذكر حتى للالتقاء بأناس ذوي آفاق أوسع.

نشر الرزمة الأنغلو ـ نورمانية

إن أي تحركات اجتماعية حدثت فعلاً في هذه القرون كانت أفقية أكثر منها عمودية، وكان سببها عائداً إلى بسالة النورمان في خوض الحروب ضد جيرانهم. فقد كان النورمان خيّالة رائعين، وكانوا في الحقيقة أول غزاة يجلبون معهم مطاياهم عبر القنال الإنكليزي(*). غير أنهم كانوا عند كسب معاركهم في ميدان القتال، يبادرون إلى تعزيز قوتهم ببناء القلاع والمعاقل المحصنة الدائمة إلى درجة أن كثيراً منها لا يزال ماثلاً إلى يومنا هذا. فكانت هي تجديدهم الابتكاري الرئيسي. فقد سارع النورمان إلى توحيد دولة الساكسون التي كان التنسيق فيها رخواً إلى حدٍ ما، ثم تابعوا عملهم بدفع حدودها إلى الوراء لتوسيعها. ففيما وراءهم كانت تقع مناطق ناطقة بالكلتية، في شمال الجزر البريطانية وغربها. فقد كانت كورنويل جزءاً من الرخاء الأنغلو ـ ساكسوني، ولكن النورمان قاموا بتغلغلات جادة في كل من كامبريا، وويلز، واسكتلندا، وإيرلندا.

فكامبريا كانت مسرحاً لصراع استغرق من العام 1092 إلى العام 1157. واستغرقت ويلز أكثر. فقد تم الاستيلاء على غْوِينتْ في الجنوب الشرقي في العام 1087. ولكن رغم إقامة 'مقاطعات حدودية' عبر جنوب ويلز كلها معتمدة على الملك النورماني بعد ذلك بوقت قصير، فإن المقاومة لم تضمحل. ففي القرن الثاني عشر، أعاد معظم البلد تأكيد استقلاله عدا الساحل الجنوبي والحدود الغربية. وكانت هناك فترة قبول بالأمر الواقع "لسلطة ويلزية" محلية محاطة "بمقاطعات حدودية" نورمانية .ولم يتم استكمال غزو ويلز إلا في العام 1283 على يد

(*) كانت هذه رصيداً لثقافتهم الأدبية مثلما هي رصيد لسياستهم. ورغم أن آرثر قد جاء من أسطورة كلتية، فقد كان الأدب الأنغلو - نورماني هو الذي خلق الصورة المثالية للفارس الشهم في درعه اللامع. فكلمة *chevaler* تعني في الأصل 'الفارس'. أما في اللغة الإنكليزية القديمة فإن كلمة *Knight* كانت تعني فقط 'الفتى'، وبالتالي الشخص الشاب القادر على القتال، دون ظلال من المعاني التي تشير إلى الخيالة، دع عنك شهامة أخلاق الفرسان.



توسع الرزمة الأنغلو نورمانية من القرن الحادي عشر إلى القرن الرابع عشر

الملك الأنجيفيني إدوارد الأول. ومع ذلك حدث تمردان ويلزيان، بعد ذلك بعشرة أعوام، ثم بعد ذلك بقرن(*).

(*) بعد التمرد الأول، كان من المفروض أن إدوارد عرض على الويلزيين في العام 1301 أن يعطيهم أميراً ويلزياً 'مولوداً في ويلز، ولا يعرف أي كلمة من الإنكليزية' ـ ثم قدم لهم ابنه، المولود حديثاً في مقر

وكان اختراق اسكتلندا، الناطقة باللغة الغيلية Gaelic إلى حد كبير، أقل اتصافاً بالحرب. فمدينة لوثيان في الجنوب الشرقي كانت ناطقة بالإنكليزية منذ أن استولى الإنكليز على أدنبره في العام 638. وكان الملك مالكولم الثالث(*)، الجالس على العرش وقت الغزو النورماني لإنكلترا، محباً للأنغل بصورة استثنائية. فقد أمضى جزءاً من شبابه في إنكلترا، وكان 'يعرف الإنكليزية كما يعرف لغته تماماً'، وقد تزوج الأميرة الإنكليزية مارغريت، التي فتحت البلاط الاسكتلندي (الذي كان عندئذ لا يزال في بيرث) كسوق للسلع الكمالية الفاخرة من إنكلترا. وإذن فلم يكن مالكولم حليفاً لقوة نورمانية متقدمة، بل إنه أمضى جزءاً كبيراً من عهده في غزوات عدوانية داخل نورثمبريا. ورغم ذلك فإن حلفاءه، ولا سيما ديفيد الأول (1124 ـ 1153) كانوا منحازين كثيراً للنفوذ النورماني: فقد أصبحت الأنغلو ـ نورمانية لغة البلاط، بحيث إن الإنكليزي والتر من كوفنتري أبدى ملاحظة في القرن الثالث عشر قال فيها: 'إن ملوك اسكتلندا الحديثين يعلنون أنفسهم فرنسيين، في العرق وفي العادات، وفي اللغة والثقافة، وبعد أن هبطوا بالاسكتلنديين [أي الغيل] إلى مستوى الخدمة المتدنية تماماً، صاروا لا يقبلون إلا الفرنسيين لصداقتهم وخدمتهم'(3).

ولكن النبلاء الناطقين بالفرنسية جلبوا أتباعاً ناطقين بالإنكليزية. ومن أجل الإبقاء على طريقة حياتهم، انضمت إليهم مجتمعات من مواطني المدن، ناطقة بالإنكليزية، كانت تستفيد من التجارة عبر الحدود. فتضخم التأثير عبر الحدود، وبدأ الناس يشيرون إلى لغتهم باسم 'إنكليز'، وفيما بعد باسم 'سكوتيس' (بطريقة مساوية ـ لأنها كانت نوعاً متميزاً من الإنكليزية). وليس مهماً أن التاجين الاسكتلندي والإنكليزي كانا في حالة حرب متقطعة في أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر.

وفي إيرلندا، قبل النورمان في العام 1166 دعوة من ديارميت ماك

قيادة الحملة في كايرنارفون. غير أن هذه القصة تعود إلى القرن السادس عشر فقط، وكان من الممكن أن تكون أكثر مصداقية لو أن إدوارد كان ناطقاً بالإنكليزية بدل الفرنسية. وكان ابنه قد ولد في العام 1284.

(*) كان يلقب 'ذا الرأس الكبير'. وكان عهده في الحكم من العام 1059 إلى العام 1093. وكان هو مالكولم الشهير الذي أطاح بمكبث وقتله.

مورتشادا، ملك لينستر المخلوع حديثاً، كي يتدخلوا لصالحه ضد الملك الإيرلندي العالي. وكان ذلك عملاً انتهازياً من جانب الملك الإنكليزي هنري الثاني - بدعم من أمر رسمي بابوي متقن، مكّنه من توجيه شيء من الروح الحيوانية لحكام المقاطعات الحدودية الباحثين عن غزوات جديدة فيما وراء ويلز. فكانت النتيجة مستوطنة من النورمان حول دبلن، سرعان ما توسعت باتجاه الشمال والغرب، فصار ذلك أحد ملامح المشهد على الأراضي الإيرلندية، وتوسع في آخر الأمر ليعطي التاج البريطاني سيطرة على الجزيرة كلها بشكل متقطع.

وفي كل هذه التوسعات للممتلكات النورمانية، جلب النفوذ النورماني النظام اللغوي المعقد نفسه: الفرنسية للحكام، والإنكليزية لأتباعهم، واللاتينية للدعم التقني. وعلى المدى الطويل أثبت الرأس الإنكليزي لهذا المثلث أنه الأكثر تأثيراً، رغم أنه من الناحية الوظيفية كان الأكثر مجانية، ففي كل هذه الأراضي، بعد كل شيء، كان من الضروري فرض الإنكليزية على سكان خاضعين يتكلمون لغة أخرى، مثل الكامبرية، أو الويلزية، أو (في اسكتلندا وإيرلندا) الغيلية، وكانت اللغة الغيلية تملك تقليداً أدبياً يعادل الإنكليزية في قوتها.

ولم تكن اللغة موضوعاً صريحاً في الأيام المبكرة، قبل أن تتاح للسيطرة الأجنبية فرصة إبراز تأثيرها على الأجيال. ولكنها عندما فعلت كانت الإنكليزية، والإنكليزية فقط هي التي تلقت الفائدة من التعزيز الرسمي. وهكذا فعندما شعرت السلطات النورمانية في العام 1366 بأنها مهددة بعودة بروز نفوذ الغيلية في إيرلندا مما يسبب استخدام تلك اللغة في نطاق النفوذ الإنكليزي، كان ردها هو إصدار تشريع كيلكني (باللغة الفرنسية)، الذي عبر عن القلق على حرية الكنيسة وطالب بفصل صارم لقضايا "الزواج، والعرابة، وتبني الأطفال، واقتناء العشيقات أو المحظيات"، وكان من الغريب أن يبرز قلقاً على اللغة بتهذيب لائق:

> iii. ومن المأمور به والمثبت أيضاً أن يستخدم كل إنكليزي اللغة الإنكليزية، ويتسمى باسم إنكليزي، ويتخلى كلياً عن الأسماء التي يستخدمها الإيرلنديون، وأن يستخدم كل إنكليزي العادات، والأساليب وطرق الركوب واللبس المناسبة لمكانته. وإذا استخدم أي إنكليزي، أو إيرلندي يعيش بين

الإنكليز، اللغة الإيرلندية فيما بينهم، خلافاً لهذا القانون فسوف يجرد من أراضيه وبيوته إن كان يملك أياً منها، فتصادر وتوضع في أيدي سيده المباشر إلى أن يأتي إلى أحد أماكن مولانا الملك، ويجد ضمانة كافية بأن يتبنى استخدام اللغة الإنكليزية ... كما أن الناس الخيرين التابعين للكنيسة المقدسة والذين يعيشون بين الإنكليز سوف يستعملون اللغة الإنكليزية، وإن لم يفعلوا تصادر ممتلكاتهم ومصادر دخلهم حتى يستعملوا اللغة الإنكليزية بالطريقة الموصوفة أعلاه، وسوف يمنحون فترة لتعلم اللغة الإنكليزية، وليقدموا سروجاً للخيل فيما بين هذا الوقت وعيد القديس مايكل القادم[4].

وفيما بعد، فإن استمرار استعمال واحدة من هذه اللغات الكلتية لم يعتبر تهديداً لبقاء اللغة الإنكليزية في الخارج بقدر اعتباره علامة على ولاء مشكوك فيه. وهكذا فإن هنري الثامن، رغم أنه ابن ملك استولى على السلطة بدعم من أهل ويلز وكورنويل، فقد ضمن ما يلي في قانون الاتحاد للعام 1536 (الذي قدم عندئذ بالإنكليزية):

وليتم سن التشريع بأن جميع القضاة، والمفوضين، ومخاتير البلدات، والمحققين في الوفيات المشتبه بأمرها، والمسؤولين عن مواريث الدولة، والموظفين الماليين، ونوابهم المساعدين، وجميع الموظفين ومنفذي القوانين، سيحافظون على الجلسات، والمحاكم، والجموع، والمحاكم البلدية وغيرها باللسان الإنكليزي، وأيمان المحلفين، والمحققين، وكل الإفادات الأخرى، والأحكام، والمراهنات القانونية يجب أن تتم باللسان الإنكليزي، ومن الآن فصاعداً فإن كل من يستعملون الكلام الويلزي أو اللغة الويلزية لن يحصلوا على أي مناصب أو أجور ضمن مملكة إنكلترا أو ويلز أو ممتلكات الملك الأخرى تحت طائلة تجريدهم من تلك المناصب أو الأجور إلى أن يستخدموا الكلام أو اللسان الإنكليزي[5].

وفي العام نفسه، كان الملك هنري يكتب إلى سكان غالواي في غرب إيرلندا ليحثهم بأن 'على كل ساكن ضمن جانب المدينة أن يبذل جهده ليتكلم بالإنكليزية، وأن يعمل حسب الطريقة الإنكليزية، وخاصة أن يضع كل واحد منكم

طفله في المدرسة ليتعلم التكلم بالإنكليزية»[6].

ولكن بعد ذلك بخمسة أعوام، كانت هناك لائحة قانون تعلن هنري الثامن ملكاً لإيرلندا تنتظر تقديمها لمجلس العموم ومجلس اللوردات في إيرلندا[7]. ورغم أن الغزو النورماني قد جعل استخدام الإنكليزية ينتشر في جميع أجزاء الجزر البريطانية، فإنه لم يحذف بذلك استخدام لغات أخرى.

تلاشي الفرنسية النورمانية

لو احتفظ الملكان النورماني والأنجيفي بممتلكاتهما التوأمية على جانبي القنال الإنكليزي، لكان من الممكن عند نقطةٍ ما أن توجد مرونة كافية في النظام الاجتماعي تسمح للغة النفوذ، الفرنسية، أن تنزل إلى الأسفل بالتدريج لتنتشر في كل أنحاء ممتلكاتهما. ولكن ذلك لم يحدث. إذ إن المملكة الفرنسية لم تستطع أبداً أن تراعي استقلال ملوك النورمان الذين كانوا أتباعها في الأصل. وفي العام 1204، انتهز الملك فيليب الثاني الفرصة لدحر واحد منهم (الملك جون) في المعركة، وبذلك ينهي سيطرتهم على نورماندي. وضمن صرامة النظام الإقطاعي، كان من المستحيل على البارونات أن يحافظوا على ولاء منقسم: ومن هنا فقد كان عليهم أن يعلنوا الولاء إما لملك إنكلترا أو لملك فرنسا، وأن يتخلوا عن أي أراض قد يملكونها في المملكة الأخرى. وكان ملحق ذلك أن البارونات الإنكليز صاروا إنكليزاً عن تصميم. وكما أظهرت شروط أوكسفورد في العام 1258، فسرعان ما اتخذ إجراء تم نشره لأول مرة بالإنكليزية والفرنسية معاً - بأنهم لن يتسامحوا مع فرط النفوذ من فرنسا، حتى ولو جاء من بقية أتباع الملك في أنجو.

> إننا نأمر رعايانا كلهم، بموجب الولاء الذي يدينون به لنا، أن يحافظوا، وأن يحلفوا بأن يحافظوا ويحموا الأوامر الصادرة والتي ستصدر من قبل المستشارين المذكورين أو من قبل أغلبيتهم، كما هو وارد أعلاه[8]....

ففي إنكلترا، بسبب نقص الممارسة اليومية، صارت الفرنسية موضوعاً يتم تعلمه في المدارس، ولم تعد اللغة الحية للنخبة.

وفي السابق، عند محاولتنا تفسير التأثير اللغوي اللافت للنظر للأنغلو - ساكسون، تكهنا بأن الإنكليزية في الأصل قد رسخت نفسها في بريطانيا في أعقاب وباء كبير في القرن الخامس الميلادي (انظر الفصل 7: 'السقوط: حالات تقدم الألمانية والسلافية'، ص 439). ولكن عندما يتعلق الأمر بطاعون الموت الأسود، فليس التكهن ضرورياً. فقد وصل ذلك الطاعون إلى إنكلترا لأول مرة في العام 1348، وعاد إليها مرتين أخريين قبل أن ينتهي ذلك القرن. فلم يبق أي قسم من المجتمع سليماً. ولكن المرض بطبيعته - تنقله البراغيث في البشر أو الفئران - كانت سمومه أكثر فتكاً في المناطق المزدحمة بالسكان، ومنها المدن وقصور البلاط، والأديرة. فهلك نصف سكان إنكلترا، وكانت العاقبة الاقتصادية أن قيمة الشخص الصافية تضاعفت. فحتى الذين لم يكن لديهم أي رصيد سوى صحتهم - أو بقائهم أحياء - استفادوا، لأن العمل أصبح مورداً نادراً بالنسبة لكمية الأرض التي ظلت ثابتة. فكانت النتيجة تمزقاً شديداً كثيفاً للنظام الإقطاعي وشمل ذلك ارتفاعاً في الدخل عند الجانب المنخفض، وزيادة في قابلية التحرك والتنقل الشخصي، وخاصة من الريف إلى المدينة، لأن الرجال صاروا بالنتيجة أحراراً في البحث عن حظوظهم بعيداً عن بيوتهم. ومن الناحية اللغوية، تقلصت مكانة النبلاء الناطقين بالفرنسية. وصارت المهن في المجتمع كله مفتوحة بشكل متزايد لذوي الجدارة. ولكن بشكل متزايد أيضاً صار كل ما يحتاج إليه أي شخص لتأمين حياة مهنية عملية هو في الحقيقة معرفة القراءة والكتابة باللاتينية والإنكليزية. وكان من علامات تلك الأيام التشريع الخاص بالتقاضي للعام 1362: حيث صارت إجراءات المحاكم منذ ذلك الحين تتم بالإنكليزية حتى ولو كانت 'مدرجة باللاتينية'.

وكان جون دي ترافيز راعي أبرشية وزميلاً في أكسفورد، فعلق على الوضع في العام 1385 أثناء اعتراضه على نص كان يترجمه. كان راندولف هيغدن قد ذكر في كتابه ("التاريخ العالمي" *Polychronicon*) في منتصف القرن الرابع عشر أن هناك سببين للفساد الذي رآه في لغة معظم الناس، وهما أن الأطفال كانوا يعلمون كيفية تفسير (أي ترجمة) اللاتينية إلى الفرنسية، وليس

إلى لغتهم الخاصة، وأن الناس الريفيين كانوا يجهدون أنفسهم ليظنهم الناس لطفاء فيتصنعون التحدث بالفرنسية. وبعد أن ترجم ترافيز ذلك، أضاف يقول:

> هذه الطريقة كانت مستخدمة كثيراً قبل الموت الأكبر [أي الموت الأسود]. ولكنها تغيرت منذ ذلك الحين. فالسيد جون كورنويل، أستاذ القواعد، غيّر العادة في مدارس القواعد في نقل تركيب الفرنسية إلى الإنكليزية. ويستخدم مدراء المدارس الآخرون الطريقة نفسها، فيتركون الفرنسية كلها في المدارس ويستخدمون جميع التراكيب بالإنكليزية، حيث يملكون ميزة تعلم قواعدهم بشكل أسرع. ويحرمون من تعلم الفرنسية، وهذا يضرّ الذين يريدون التظاهر بأنهم أناس لطفاء يعلمون أطفالهم التحدث بالفرنسية[9].

وعند حلول القرن الرابع عشر إذن، أُسقِطت الفرنسية كأداة للتعليم في إنكلترا، باعتبارها حاجزاً لا حاجة إليه أمام فهم عامة الناس للغتهم الدارجة. فلم يعد هناك أي افتراض بأن الأطفال سوف ينشؤون مع اللغة الفرنسية. فأصبحت لغة غير مفيدة إلا عند السفر إلى الخارج، إن كان فيها أي فائدة على الإطلاق، ولكن ظل هناك شعور بأن أي إنسان لطيف ومصقول حقاً ينبغي عليه أن يضمن أن أبناءه يملكون أرضية محترمة في معرفة هذه اللغة(*).

وفي القرن الذي أعقب الموت الأسود، توقفت حتى الأسر المالكة عن استخدام الفرنسية. وقد أظهر ريتشارد الثاني، في تعامله البارع مع ثورة الفلاحين في العام 1381، أنه قادر تماماً على التأثير في حشود الناس باللغة الإنكليزية. وبعد أن أطاح به هنري الرابع، ألقى خطاب تتويجه بالإنكليزية أيضاً في العام 1399 ـ فكان الأول من نوعه، كما كانت رسائل ولده هنري الخامس بالإنكليزية من حملة آجينكورت في العام 1415(**). وهكذا فقد النورمان

(*) إن هذا كله يذكر باللهجة العاطفية البائسة نسبياً والمليئة بالحنين إلى الماضي في الدفاع عن تعلم اللاتينية نفسها، عندما كانت تقدم في مدارس إنكلترا الثانوية في منتصف القرن العشرين.

(**) بما أن القانون محافظ بصورة نموذجية، فقد استمر أطول فترة. ولم تختفِ اللغة القانونية من المحاكم نهائياً حتى تم إلغاؤها بلائحة برلمانية في العام 1733. وحسب مقياس استعادة الماضي والحفاظ عليه، فإن ولع المترافعين القانونيين بالشَّعر المستعار والرداء الفضفاض ظل صامداً بعد ذلك قرناً كاملاً.

فرنسيتهم في آخر الأمر كذلك، تماماً كما كانوا قد فقدوا لغتهم الشمالية Norse قبل ذلك بأربعمئة عام. فاختفت اللغة كآخر شبح فيه تذكير بهويتهم السابقة، لأنه عند حلول القرن الخامس عشر لم يعد هناك نورمان في أي مكان.

ترسيخ استقرار اللغة

ورغم أنه كان للإنكليز أيضاً منذ البداية طريقتهم في الكلام في شمال البلاد وجنوبها ووسطها المستمدة من طريقة الشعب الألماني، فإنهم مع ذلك قد اتصلوا وتداخلوا أولاً مع الدانمركيين وبعد ذلك مع النورمان. وقد أُفْسِدَتْ لغة البلد في أشياء كثيرة. فبعضهم يتكلم بهذيان غير واضح، وبلغو مرتجف، وبزمجرة غاضبة، ودمدمة مبهمة، وصرير بالأسنان.

جون دي ترافيز، كتاب التاريخ العالمي لراندولف هيغدن، الجزء الأول، ص 59.
النص الأصلي (كورنويل، 1385)، نسخة وليام كاكستون (لندن، 1482).

لقد تعمد هذا الكتاب أن يتجنب الإكثار من الحديث عن لهجات متميزة. فليست هناك لغة متجانسة التكوين بصورة كلية، وكل اللغات الواسعة الانتشار لها تنويعاتها الإقليمية. ولكن اللهجات بطبيعتها لها هوية أكثر غموضاً من اللغات الكاملة: فهي لا تحدد حدود المجتمعات اللغوية ككل، بل تحدد هويات إقليمية ضمنها. وبما أن اللهجات تنقصها هوية جماعية واضحة، فإنها تميل إلى التداخل، وحتى إلى الاندماج عند الحافات، وكثيراً ما يجد اللغويون أن من الأسهل عليهم أن يتحدثوا عن ملامح متميزة، مثل الطريقة غير الدائرية للفظ حرف u، وانتهاء الفعل بالحرفين *en* للدلالة على الجمع، وتأخير الأفعال إلى نهاية العبارة، والطريقة الخاصة في اختيار الكلمات، مثل *eyren* بدلاً من *eggs*، ورسم ذلك كله على خريطة منطقة اللغة ككل، فذلك أسهل من محاولة وصف كل لهجة إقليمية كشبه لغة منفصلة لها طريقة لفظها المنفصلة وقواعدها النحوية ومفرداتها الخاصة بها. فتعداد اللغات أسهل بكثير من تعداد اللهجات ضمن لغة واحدة.

إن الصياغة 'القياسية' الفصحى من لغةٍ ما هي من وجهة النظر الرسمية، مجرد واحدة من اللهجات، واختيار الملامح المفضلة من بين جميع البدائل

المستعملة في مكانٍ ما من أراضي المجتمع اللغوي. ومع ذلك فليس من السهل دائماً التوصل إلى اتفاق حول اللهجة التي ينبغي أخذها كمعيار قياسي. فالإيرلندية الحديثة المبكرة مثلاً كان لها قانون متميز للاستعمال الأدبي واستعمالات البلاط الصقيلة المهذبة، ولكنه فُقِد عند الإطاحة بالسيادة الغيلية عند نهاية القرن السادس عشر. وكان من الصعب جداً أن يعاد بناؤه من الأنواع الرئيسية الثلاثة من اللغة الإيرلندية المتداولة في القرن العشرين. وفي تاريخ اللغة الإنكليزية، لا يزال الجدل قائماً حول مدى اقتراب اللغة من الحصول على مقياس وطني في القرنين العاشر والحادي عشر، قبل سيطرة النورمان، ولكن من الواضح أنه في فترة عودتها للظهور في القرنين الرابع عشر والخامس عشر كان من الصعب على أي شخص أن يقرر ما نوع اللغة التي ينبغي تكريمها بلقب 'الإنكليزية الفضلى'. وفي بادئ الأمر لم يتخذ أي قرار. فالأدب الذي بقي يميل إلى إظهار أسلوب الكلام والمفردات للكاتب في مجموعات من خصوصية البنية التي تحدد هويته في العادة كشخص من المنطقة الوسطى، أو من لندن، أو من مقاطعة كِنْت، أو من الجنوب، أو من الشمال، أو من اسكتلندا. وعندما كانت الكتابة كلها في مخطوطات، والكتابة الهامة كلها باللاتينية على أي حال، فلعله لم يكن من المهم أن الكتب باللهجة الدارجة كان من الصعب قراءتها خارج منطقتها المحلية. فإذا كانت هناك حاجة لقراءة كتاب جيد على نطاق أوسع، فقد كان بوسع شخصٍ ما أن يحول لهجته، كما فعل مؤلف *Cursor Mundi* [قصيدة بالإنكليزية الشمالية الوسطى لمؤلف مجهول في أوائل القرن الرابع عشر عن تاريخ الإنجيل منذ بدء الخليقة جعلت التعليم الديني شعبياً] في تحويل قصة رفع مريم العذراء إلى السماء بعد موتها:

لقد رُسمت بالإنكليزية الجنوبية
وأنا حولتها إلى لغتنا
الخاصة بنا نحن أهل الشمال
الذين لا نعرف إنكليزية أخرى(10).

ولكن غياب المقياس الموحد أصبح مشكلة في مجالين كبيرين من مجالات

استعمال اللغة، هما المجال الرسمي والمجال الأدبي. فعندما يتكلم العاهل وبلاطه ومحاكمه بالإنكليزية، يجب أن تكون هي الإنكليزية السائدة البارزة. ولكن كيف ينبغي عليهم التعبير عن أنفسهم في القوانين والإعلانات الرسمية لكي يمكن نشرها، وفهمها، والعمل بموجبها في جميع أنحاء البلاد؟ فإنكلترا ليست حكومة فقط، بل هي أمة تشعر بشكل متزايد أن لها شخصية متميزة، ودوراً تلعبه في العالم، وهي بحاجة إلى صوت متميز وواضح. فليس هناك شيء لافت للنظر في التسمية الناعمة للغة 'باللسان الإنكليزي'. ولكن عندما يقرر مؤلف أن يجلس ليكتب، فما هي نوعية الكلمات والتصاريف الإنكليزية المتاحة له والتي يجب أن تسود في الكتب التي ستعرف أكثر فأكثر بأنها من الأدب الإنكليزي؟ لقد أصبح هذا السؤال أكثر إلحاحاً عندما بدأت المطابع تنتج الكتب بالجملة بأعداد ضخمة في أواخر القرن الخامس عشر. فمنذ ذلك الحين صارت النسخ المتشابهة من كتاب واحد يحتمل توقع وصولها إلى جميع أنحاء المملكة: فما شكل اللغة التي ينبغي أن تظهر فيها من أجل الاستفادة الكاملة من اقتصاديات الحجم الجديدة؟

وليس هذا سؤالاً مصطنعاً للمؤرخين مطروحاً لإبراز ورطة تواجه المجتمع كي يظهر له جواب بشكل أعمى. بل إن هذا السؤال بالنسبة لبعض الناس قد طرح نفسه بشكل واضح تماماً. فالشاعر جيوفري تشوسر، وفي المقطع الأخير من قصيدته "ترويلوس وكريسيدا"، المكتوب بالإنكليزية اللندنية في ثمانينيات القرن الرابع عشر، يضيف هذه الأبيات:

وبما أنه توجد شدة عظيمة
في الإنكليزية والكتابة بلساننا،
فإنني أدعو الله أن لا يخطئ أحد في كتابتك،
أو يسيء وزن إيقاعك بسبب جهل في اللغة.
وحيثما تتم قراءتك أو التغني بك،
فإنني أرجو الله أن تكوني مفهومة،
وبالمعنى المقصود في كلماتي السابقة[11].

فهو هنا يبدو شديد القلق من تحريف النص الذي قد ينجم عن النقل من لهجة

إلى أخرى، بقدر قلقه على القارئ أو المستمع المسكين الذي يحاول التوصل إلى معنى النص ليفهمه(*).

ويبدو أن أحد الحلول التي لم تطرح نفسها في إنكلترا أبداً كان هو أن تصبح اللهجات المختلفة معياراً قياسياً لأنماط الكتابة المختلفة، رغم أننا قد رأينا أن هذا هو ما حدث في الأيام المبكرة من الأدب اليوناني، وإلى حدٍ ما في إيبيريا أيضاً، عندما طورت البرتغالية دوراً لها كأداة للشعر الغرامي، حتى في إسبانيا. فقد كان يمكن تصورها مثلاً في نجاح 'البوم والبلبل'، و'الثعلب والذئب'، وهما حواران للحيوانات بالشعر في القرن الثالث عشر، مما كان يمكن أن يجعل الإنكليزية الجنوبية هي اللغة المفضلة لهذا النمط من التخيل. ولكن لم يحدث شيء من هذا القبيل أبداً. وبدلاً من ذلك صارت لهجة واحدة هي المفضلة لدى الجميع.

وهذه المشكلة واجهها بأقسى أشكالها وليام كاكستون، أول طابع وناشر إنكليزي، وكان ذا أثر كبير في حلها. ويمكننا أن نتنبأ بالجواب: فكما سنرى (في الفصل الثالث عشر، ص 718-719)، فإن اللهجة المحكية في العاصمة هي التي أصبحت بأغلبية ساحقة معياراً قياسياً للغة الوطنية. وقبل أن يعلن كاكستون سياسته، أشار إلى هذا المأزق فعلاً:

> من المؤكد أنه يصعب إرضاء كل إنسان بسبب التنوع والتغير في اللغة، لأن كل إنسان له سمعة في هذا المجال في هذه الأيام سوف يمارس اتصاله حول هذه القضايا بطريقة ومصطلحات لا يفهمها إلا قليلون. وكان معي بعض الكتّاب الشرفاء والعظام ورغبوا أن أكتب أغرب المصطلحات التي أستطيع العثور عليها. وهكذا أقف متحيراً بين السهل، والجلف، والغريب. ولكنْ، حسب رأيي فإن المصطلحات الشائعة الاستعمال يومياً

(*) من وجهة نظر أخرى، كانت لهجات الإنكليزية نعمة لمؤلفٍ ذي أسلوب طبيعي مثل تشوسر، الذي كان أول من استعملها ليعطي واقعية للحوار. ففي "قصص كانتربري"، فإن مأمور التنفيذ، الموصوف بأنه من نورفولك، يروي قصة جون وألين، الطالبين من كمبريدج، والواضح أنهما فتيان من الشمال، والحاجب والراهب يستمران في التحول إلى النطق باللهجة الإنكليزية الشمالية الواضحة المتحررة (روبنسون 1957، ص 686، 688، 704 -705).

> هي أسهل فهماً من الإنكليزية القديمة. ومعظم هذا الكتاب ليس للجاهل ولا البعيد كي يتعب في محاولة قراءته بل هو للكاتب والرجل اللطيف الذي يشعر به ويفهمه في الحقيقة بمحبة وفروسية نبيلة، ولذا فهو وسيلة بين ما نقلته وترجمته إلى إنكليزيتنا، دون أن يكون ساذجاً ولا غريباً ولكن بمصطلحات يمكن فهمها بفضل الله حسبما هو وارد في نسختي(12).

إذن فإن كاكستون يزعم أنه يتبع سياسة إنكليزية كلاسيكية من التسوية التوفيقية المعقولة. ولكن ما كان يفعله في الحقيقة هو تحويل النصوص إلى إنكليزية لندنية. وهذا واضح على سبيل المثال من المقطع المقتبس في أول هذا القسم، حيث يوضع النص الأصلي الذي كتبه جون دي ترافيز فوق النسخة التي طبعها كاكستون بعد ذلك بقرن. وعند فحصه بدقة نجد أن فيه مجموعة من التغييرات الطفيفة ـ فيستخدم هنا كلمة *they* بمعنى *hy*، ويحذف نهاية الفعل بحرفي *ep* عند الجمع، ويضع الحرفين th وgh بدل p وz في مجمل النص. ولكن يبقى مدهشاً مدى الفرق الحاصل عند إيصال النص إلى نطاق قدرة الناطق بالإنكليزية الحديثة على قراءته، حتى الآن، بعد خمسمئة عام. فالإنكليزية القياسية، كما نعرفها الآن، لا تزال تحمل علامة تلك القرارات التي اتخذها كاكستون ومعاصروه.

وعند اتخاذ هذا القرار، فإن التوفر المتزايد للأدب المطبوع، بالانسجام مع قوة التعليم المتنامية عند عامة الناس، أعطى تعزيزاً قوياً للهجة المعينة التي يتم طبعها. وجاءت مساعدة أخرى من أن مصادر تأليف الكتب بالإنكليزية، أكسفورد وكمبريدج، كانت تقع في منطقة اللهجة الواسعة نفسها، التي كانت تعرف غالباً بجنوب غرب الأراضي الوسطى(*). وعندما صار عدد كافٍ من الناس قادرين

(*) كانت الملامح اللغوية الرئيسية لهذه المنطقة هي: استخدام الحرف ō وليس ā في كلمات مثل *go, stone, woe* – وفي شمال الهمبر احتفظوا بالصوت ā من الإنكليزية القديمة، باستخدام الحرف y (أي الحرف u الفرنسي) ثم الحرف i فيما بعد، كما في الكلمات *mice, Fire, sin, hill*- وفي كنت وإيست أنغليا استخدموا الحرف ē- وهذا يفسر معظم حالات وجود الحرف y الذي يظهر أنه بلا مبرر في تهجئة كاكستون؛ واستخدم فعل التصريف المساعد *shall* في مقابل *sal* بلغة نورثمبريا، واستخدام الضمائر *theyr, them, they, she* في مقابل الضمائر *here, hem, hy, heo* المستخدمة في غرب البلد وجنوبه. وفي الأفعال، فإن اسم الفاعل والمصدر، المعممة في الجنوب والأراضي الوسطى باستعمال اللاحقة *ynge*- في

على القراءة وبدؤوا يقرؤون فعلاً أصبحت الطباعة الوسيلة الإعلامية الأولى، مع استقطاب مقولة 'الفائز يأخذ كل شيء' ذات الآثار المألوفة الآن من ثقافة التلفزيون. فالناس يتعلمون حتماً من قراءة الكتب كيف يجب أن تكتب الإنكليزية. وبذلك فقد أصبحت إنكليزية الملك هي إنكليزية الشعب أيضاً، على الصفحة على الأقل. وهكذا فللمرة الأولى تم إعطاء تعريف محدد لعبارة 'اللسان الإنكليزي'.

ولم تقتصر العملية على الإنكليزية. فقد كانت تجري عمليات من تعريف اللغة تكاد تشبهها تماماً في لغات أوروبية أخرى في الوقت ذاته، ولا سيما الفرنسية، والإسبانية، والألمانية، التي كانت في الكلام المحكي مقسمة إلى لهجات كالإنكليزية على الأقل. ففي النصف الأول من القرن السادس عشر، بدأ الطابعون الفرنسيون يعطون قواعد للتهجئة واستعمال النبرات، وبدؤوا مهمة - لم تكتمل أبداً - هي تشذيب الأعداد الهائلة من الحروف الصامتة التي يكتبها المتشددون ولكنها لا تلفظ أبداً بتلك اللغة. أما الإسبانية، التي جرت فيها تغييرات أقل لأنها كانت لاتينية فكان بوسعها أن تكون لفظية في تهجئتها بصورة أكثر صرامة، ولكن وجود كتاب نبريجا عن قواعد القشتالية في العام 1492 كان أساساً لاستبعاد صيغ وأشكال تميزت بها اللهجات الأخرى، وخاصة لهجة أراغون.

وتبين المقارنة أن التوحيد السياسي لم يكن بأي حال جوهرياً لتحديد لغة وطنية في هذا العصر من ولادة الأدب المطبوع. أما الأراضي التي كانت الألمانية محكية فيها فلم تكن لها حكومة واحدة. ومع ذلك، فإن مارتن لوثر، المواطن من سكسونيا المنخفضة وثورينجيا، أصدر في العام 1522 ترجمته للعهد الجديد إلى لغته الألمانية، متطلعاً طيلة الوقت إلى جعله 'مفهوماً لدى سكان ألمانيا العليا والدنيا'. ثم أضاف ترجمته للعهد القديم في العام 1534. وعن طريق شعبية

مقابل اللاحقة الشمالية ande-، وحرفا الجمع *en* كما في *we speken* أو لا شيء، كما في *they use* في مقابل عبارتي we speketh وhy useth في جنوب البلد. والواقع أن الفعل المضارع يصبح عرضة لكثير من الخلط ما دامت هذه اللاحقة eth- تستخدم أيضاً للضمير الثالث المفرد في الجنوب، كما أنها مستعملة كثيراً عند شكسبير وفي إنجيل الملك جيمس *the wind bloweth, he goeth*. وفي آخر الأمر تم تبديل هذه ولكن باللاحقة es- التي كانت مستعملة لكل الضمائر عدا الضمير الأول المفرد في الشمال: فنقول *I here,* ولكن مع باقي الضمائر كلها نقول *heres* (جمعت هذه التفاصيل من موسيه 1962، الذي يورد كثيراً غيرها).

أعماله (وامتيازها)، نجح في تأسيس الألمانية القياسية الموحدة في صورة لهجته المحلية. وطبعت نسخ محلية من الإنجيل في أجزاء أبعد من المناطق الناطقة بالألمانية، في بال، وستراسبورغ، وأوغسبرغ، ونورمبرغ، ولكنها كانت محلية فقط إلى درجة إضافة مسارد لمعاني مصطلحات لوثر الغربية الأكثر تميزاً؛ ولأول مرة، بدئ بكتابة قواعد نحوية كلية للغة الألمانية، مبينة بصراحة على طريقة استخدام لوثر لها[13]. وهكذا تم تحديد اللغة الألمانية العليا.

وكان الإنجيل أساسياً أيضاً في تحديد الإنكليزية. ومن الواضح أن التوسع الانفجاري في معرفة القراءة والكتابة بعد اختراع الطباعة، وفي أوائل القرن السادس عشر، كان دعماً كبيراً للأفكار البروتستانتية التي كانت تهز المسيحية الغربية في هذا الوقت بالضبط. فبعد كل شيء، كان تحديد لوثر للغة الألمانية ناتجاً عرضياً فقط لاهتمامه العاطفي الشديد بإتاحة كلمة الله بشكل مباشر للجميع، وليس للمتعلمين فقط. وكان القراء الإنكليز متلهفين على هذه النعمة بالدرجة نفسها، بل إن مثل هذه الحماسة كانت تعود إلى العام 1382، عندما وضعت ترجمة جون ويكليف في التداول عن طريق مجلدات مكتوبة باليد، ولكنها كتبت بقسوة في 1407 ـ 1409: وهناك دائماً طرف يؤمن أن البركات العظيمة يجب أن لا يتم توزيعها إلا تحت إشراف دقيق. وقد ظل هذا الرأي سائداً حتى نهاية القرن الخامس عشر.

وقد خرجت سلسلة من الأناجيل مطبوعة باللغة الإنكليزية في القرن السادس عشر، ابتداءً بترجمة وليام تندال للعهد الجديد في العام 1525[14]. فكانت في بادئ الأمر وثائق تعتبر مثيرة للفتنة والتمرد بالطبع، ومع ذلك كانت لها شعبية. وعند مجيء الملكة أليزابيث للحكم (1558 ـ 1603)، ترسخ بثبات حق الناس في قراءة الإنجيل بالإنكليزية(*). وترسخ معه، وربما أهم منه، نص كان الجميع يقرؤونه، وهو كتاب الصلوات العامة. ثم في العام 1611 ظهر إنجيل الملك جيمس، الذي أنتجته لجنة مالية قامت بترسيخ النص المحدد للإنجيل

(*) بل وبالويلزية كذلك: فقد سمحت أليزابيث أيضاً بنشر الإنجيل باللغة الويلزية، فطبع في لندن في العام 1588، وانضم إلى الترجمة الويلزية لكتاب الصلوات في الكنائس الويلزية.

بالضبط كما يجب أن يقرأ باللغة الإنكليزية طيلة القرون الثلاثة التالية لذلك التاريخ. فكان عملاً وحيداً شاع بين المسيحيين الناطقين بالإنكليزية على مدى عشرة أجيال.

وقد برر مثل هذا النص اتساع نطاق معرفة القراءة والكتابة بشكل متزايد[15]، وأنجز تلك المعرفة بحيث صار الناطقون بالإنكليزية يملكون أكثر فأكثر فكرة واضحة ومتميزة عنها، بل ونموذجاً ملموساً وحيداً عن اللغة الإنكليزية أثناء الاستعمال. وسرعان ما انتقل هذا النموذج إلى أقاصي أنحاء الكرة الأرضية[*].

ما نوع اللغة؟

ما نوع اللغة الذي أصبحت عليه الإنكليزية؟ لقد قدر لهذا السؤال أن يصير محمّلاً بمعانٍ ضمنية عالمية. ولكن الناطق الأصلي العادي باللغة يجد صعوبة خاصة في تقديره. فتركيب اللغة خفي غير مرئي. وسبب خفائه هو السبب نفسه الذي يجعل الخدمة المدبرة مضللة: فبحكم قوة العادة فإن انتباه كل إنسان يتركز على العمل الظاهر بين يديه، وليس على وسيلة تنفيذه. وحتى عند إفراد

(*) هناك مجموعة كاملة من النصوص تذكر في العادة مع إنجيل الملك جيمس ولها مكانة تعادل مكانته في التحديد النصي للغة الإنكليزية. وهذه المجموعة هي أشعار وليام شكسبير. وهذان العملان يكادان يكونان متعاصرين تماماً. 'فالترجمة المرخصة' للإنجيل تم تجميعها من العام 1604 إلى العام 1611، وكتابات شكسبير من العام 1590 إلى العام 1611. ولكن على عكس الإنجيل، فإن كتابات شكسبير (التي ظهرت طبعتها الكاملة الأولى في العام 1623) لم تصبح على الفور نصاً أيقونياً للغة الإنكليزية. فقد تنامت سمعته عبر القرن السابع عشر إلى أن تم تمجيدها بشكل كامل على يد صاموئيل جونسون في القرن الثامن عشر.

إن ظاهرة شكسبير تذكرنا بمكانة هوميروس في تاريخ اللغة اليونانية. فقد كان كل منهما شاعراً له مجال موسوعي، ومواصفات لا يتحداها أحد، ولكن هويتهما مبهمة غامضة، عند أو قرب تأسيس التقليد الرئيسي للغة في أعمالهما الأدبية الكلاسيكية العريقة. وقد حصل كل منهما كما يبدو على مكانته بعد قرن على الأقل من حياته الفعلية ومؤلفاته. واستمر ذلك لكل منهما حتى صار له دور غالب متفوق في تراث لغته. وراح النقاد ومعلمو المدارس يكيلون لهما المديح بصورة لا تنتهي، بل ويستمدون منهما أفكاراً تقليدية عن تاريخ المجتمع اللغوي. ولعل أفضل تفسير لذلك هو التأكيد على أن كلاً منهما كان مديناً أكثر من معظم الآخرين لتقليد قديم وغني. فهوميروس كان مديناً للشاعر الرحالة، أو "أوديوس"، وشكسبير كان مديناً للممثل الجوال. وكان ذلك أقل روعة ولفتاً لأنظار معاصريهما الذين كانوا يرونهما في سياق حياتهما. ولكن مع مرور الزمن تشكل شعور بأن أعمالهما تلخص التقليد الأدبي، وهكذا حلت محله في الذاكرة.

الوسيلة وإبرازها عندما يصف الشاعر حرفته، أو عندما يلفت الناقد الأنظار إلى تركيب النص، يبقى هناك ميل لأخذ الصلات بين الأصوات والكلمة، وبين العبارة والشيء، والنطق والفكرة على أنها واضحة بحيث لا حاجة لذكرها، أو غامضة غموضاً كلياً. فإذا كان عقل اللغة له أسبابه، فإن قلبها الأدبي لا يعرف عنها شيئاً يذكر، بل ولا يهتم بها أصلاً. فالناطقون والكتاب، والمستمعون والقراء يتعاملون بذكاء وبراعة، وغالباً بالحدس، مع النتائج التي يقبلونها ويدركونها جميعاً، وفي واسطة غير محللة إلى حد كبير، تماماً كما يتنفسون، ويهضمون، وتنظم أجسامهم درجة حرارتها(*).

ومع ذلك فإن للغة الإنكليزية خصائص تجعلها هي اللغة الحالية القائمة لا غيرها. وكانت معظم هذه الخصائص موجودة فعلاً في القرن السادس عشر. ومن وجهة نظر الوفرة في العالم، فهي لغة فيها سلسلة واسعة من حروف العلة العادية والطويلة والمزدوجة (مثل الكلمات التالية في الإنكليزية القياسية: *mat, met, mitt, motte, mutt, put, mart, mate, meet, might, moat, moot, mute, mouth, moist, mere, mire, flower, moor, immure*)، وفيها أيضاً سلسلة أقل تقييداً من أصوات الحروف الصامتة، (مثل: *bun, pun, spun, dun, ton, stun, con, gone, scone, chin, gin, hun, train, drain, son, shin, led, red, bum, bun, bung,* وقد أضيفت إليها فيما بعد: *zoom, leisure*). وقد أصبحت هذه أكثر تحدياً عندما أُخِذَتْ في الحسبان التراكيب المسموح بها: تأمل

(*) هناك ملاحظات أكثر من اللازم تقدم كتعليقات على طبيعة اللغة الإنكليزية، وخاصة تلك التي يقدمها الكتاب، وهي مديح مقنع بقناع خفيف لتقاليد الناطقين بها وتطلعاتهم. وتأمل كلمات السير آرثر كويلر - كاوتش في مقدمته لكتاب أكسفورد للشعر الإنكليزي: 'إن آباءنا، على مر القرون، قدموا لهذه المملكة ومستعمراتها والمناطق الواسعة التابعة لها كلاماً مطواعاً ومتكيفاً كلغة الأتيك اليونانية، وجليلاً مبجلاً كاللاتينية، وفيه فحولة ولكنه متحرر من الألفاظ الحلقية التيوتونية، وقابلاً للدقة كالفرنسية، وعذباً سائغاً كالإيطالية، ورناناً كالإسبانية، وقادراً على قيادة هذه الامتيازات لخدمته'. أو كلمات والت ويتمان: 'إن اللغة الإنكليزية عند النظر إليها بتحرر هي التنامي المتعاظم لكل لهجة، وعرق، ومجال زمني، وهي منتقاة ومؤلفة منها جميعاً. ومن وجهة النظر هذه فهي تمثل اللغة بأوسع معانيها، وهي في الحقيقة أعظم الدراسات' ('العامية الدارجة في أمريكا'، مجلة نورث آميركان ريفيو، 41، 1885). ومثل هذه الثقة قد تكون مفيدة طبعاً في استخدام اللغة ببلاغة. وإن أي لغة تحمل شبكة واسعة من الارتباطات بالماضي وتنمو قوتها مثل قوة ذلك الماضي ستكون مذكورة غير منسية.

الكلمات التالية: *scourged, widths, strengths, fifths, sixths, sevenths, eighths, shrinks, mostly, thrust, scripture, contemptibly, constraints, spindly, adze,stupid*. إن بعض قواعد نظامها الصوتي تأتي كمفاجأة للناطقين الأصليين بها، لأنها لا تملك دوراً في التهجئة، ولذلك فإنها نادراً ما تذكر في المدارس. فطول حرف العلة مثلاً له كل العلاقة مع الحروف الصامتة الأخيرة في مقطعٍ ما، ولا علاقة له مع حرف العلة نفسه، فالكلمات: *mate, mace, mitt, right, rot, lout, motes, route, kilt, health, Alf,* فيها كلها حروف علة قصيرة، بينما: *mad, maze, mid, ride, rod, loud, modes, rude, killed, delve, pals* فيها كلها حروف علة طويلة ؛ أو أن نفخة الهواء الحاسمة التي تميز كلمة *pin* عن كلمة *bin* وكلمة *tab* عن كلمة *dab* هي مفقودة في كلمتي *spin* و*stab* ـ وهكذا فمن وجهة النظر اللفظية يمكن تبرير كتابة هاتين الكلمتين على شكل *sbin, sdab*. إن قواعد التشديد في الإنكليزية معقدة، ولكنها ضرورية لفهم الكلام الفصيح، وأنماط النبرات لجملة كاملة شديدة التنوع كذلك.

إن تركيب الكلمات الإنكليزية واضح وبسيط ومباشر. وإن نظام النبرات التصريفية في الإنكليزية القديمة، الذي يذكرنا باللاتينية أو الإغريقية، قد فقد منذ زمن طويل، فمعظم الكلمات إما أنها بسيطة، أو مركبة بوضوح من جذع، مع حروف قليلة من السوابق أو اللواحق(*). وإن الشذوذ في قواعد اللغة يخص على الأغلب كيفية تطبيق اللواحق على كلمات معينة (فجمع كلمة man ليس man مضافاً إليها s ولكن *men*، وماضي الفعل strike ليس striked ولكن *struck*). والأفعال الرئيسية قد تظهر ملحقة مع أفعال أصغر تدع الأفعال المساعدة والخاصة بصيغة الفعل، وهي *(be, have, do, shall, will, can, may, must)*، ويمكن أن تنعكس صورتها في ظروف معقدة مثل: *(He has been taken for a ride, **hasn' t he**? They **have** too, **haven' t they**? but Everybody **seems to have, don' t they?**)*. وهناك أهمية حساسة

(*) عليّ أن أطمئن اللغويين الذين يقرؤون هذا أنني أتعمد تجاهل التركيب الكامن في الكمية الهائلة من المفردات المستعارة من اللاتينية، والفرنسية، واليونانية، أو المركبة منها.

لترتيب الكلمات. فهي في الجملة البسيطة ثابتة جامدة على شكل الفاعل ـ الفعل ـ المفعول به (أنت رأيت نمراً) ولكن مجموعة من التنويعات والفوارق الدقيقة تبرز في صيغ الأسئلة أو الجمل الأكثر تعقيداً. فالترتيب في جملة من رأى نمراً؟ لا يزال هو الفاعل ـ الفعل ـ المفعول به. ثم تبدأ الغرابة في صيغة: يا له نمراً أنا رأيت! فالترتيب هنا صار (المفعول به ـ الفاعل ـ الفعل)، و: هل أنت رأيت نمراً؟ (الفعل المساعد ـ الفاعل ـ الفعل ـ المفعول به)، وماذا أنت رأيت؟ (المفعول به ـ الفعل المساعد ـ الفاعل ـ الفعل) وماذا أنت تعتقد أنه رآك؟ (الفاعل ـ الفعل المساعد ـ الفاعل ـ الفعل ـ المفعول به). إن هذا التلاعب بترتيب الكلمات، رغم أنه مألوف في اللغات الجرمانية، فإنه يقع خارج مدارك القواعد النحوية كما طورها اليونان والرومان، وبالتالي كما تم تدريسها في أوروبا العصور الوسطى والحديثة. والواقع أن اللغويين النظريين لم يعثروا على وسيلة مناسبة لتحليل ترتيب الكلمات إلا في خمسينيات القرن العشرين. فلم يكن من المدهش أن اللغة لم تصبح موضوعاً أساسياً للغويين النظريين إلا في ذلك الوقت.

وإذا قارنا الإنكليزية باللغات الأخرى التي حققت مكانة عالمية، فسنجد أن أشبه اللغات بها هي الصينية والملايوية. وبالطبع فإننا نحتاج إلى أن نسقط من الحساب المصادر الرئيسية لمفرداتها: فقد كانت الإنكليزية طيلة حياتها القصيرة على اتصال وثيق بالفرنسية واللاتينية، ومنذ العام 1500 صار تعليم الكثيرين من نخبة الناطقين بها يشمل اليونانية أيضاً. ونتيجة لذلك، فإن هذه اللغات الثلاث قدمت الغالبية العظمى من الكلمات التي دخلت إلى الإنكليزية، سواء بالاستعارة أم بالاختراع. ولكن عندما نضع جانباً أصول كلماتها ـ وبالتالي مظهرها المكتوب على الصفحة ـ فإن الحقيقة المذهلة التي تظهر هي أن أقرب اللغات شبهاً بالإنكليزية لا تأتي من أوروبا، بل من أقصى شرق آسيا.

(*) حسب علمي، فإن تقليد "كانبون" الياباني الذي يقرأ نصاً صينياً تقليدياً كلاسيكياً كأنه مكتوب باليابانية تماماً كان هو التقليد الوحيد الذي يملك من الجرأة المتهورة والثقة بالنفس ما جعله يستغني عن هذه العادة الأساسية المتبعة.

فالصينية والملايوية، مثل الإنكليزية، يأتي ترتيب الكلمات في جملها على شكل: الفاعل ـ الفعل ـ المفعول به، وبدون أي تغير يذكر في تصريف الأفعال أو الأسماء. فالكلمات بسيطة، والمعاني المعقدة تنتج من تصفيفها معاً بشكل متسلسل. وعلى عكس ذلك، فإن كل اللغات الأخرى التي نظرنا فيها لديها درجة عالية من التغيرات الصرفية، رغم أن البرتغالية، بالشكل الذي ترسخت به في آسيا، قد ألغت هذه التغيرات وتخلصت منها.

والنظام المحافظ إلى حد غريب، والمعادي للصيغة اللفظية بشكل متزايد، هو جانب آخر في الإنكليزية يشبه الصينية (ولكنه لا يشبه الملايوية في جميع صيغ الكتابة المستعملة لتمثيلها). وكما حدث في اللغة الصينية (وفي المصرية طبعاً)، فإن حياة الإنكليزية المحكية كان ارتباطها بتقاليد اللغة المكتوبة ارتباطاً رخواً فقط. صحيح أن الكلمات لا تزال تكتب بالترتيب الذي تحكى فيه(*). ولكن تهجئتها قد أعيد النظر فيها لتتمشى مع التغيرات في اللفظ: ومن هنا فإن بقايا مجموعة الحروف مثل *gh* لا تزال موجودة في كثير من الكلمات ولكنها لم تعد تحتفظ بلفظها الأصلي، مثل الحرف [x]، والحرفين *ch* في الكلمة الاسكتلندية *loch*، ومن هنا تأتي التهجئة الغريبة لحروف العلة الإنكليزية المشددة التي نراها في الكلمات *mate*، *meet*، *mite*، *mote*، *mouth*، *mute*، ولكنها كانت سوف تكتب على شكل *meit*، *miit*، *mait*، *mout*، *mauth*، *miuwt*، لو أن الحروف لا تزال تستعمل بالقيم الغامضة التي كانت تملكها حتى القرن الخامس عشر، وهي قيم تم الاحتفاظ بها إلى حد كبير في كل لغة أخرى تستخدم الأبجدية الرومانية. ونتيجة لتعقد العلاقة بين التهجئة ولفظ الصوت، فإن نسبة كبيرة من مهنة التعليم الابتدائي، في إنكلترا على الأقل، كانت ترى حتى وقت قريب أن علم الأصوات وطريقة اللفظ يثير الخلط والارتباك بدلاً من أن يساعد عند تعليم الأطفال القراءة والكتابة. ومن هنا جاءت طريقة التعليم السيئة الصيت التي تقول للطفل: 'انظر والفظ'، وهي طريقة تعامل كل كلمة كما لو أنها كانت بحروف صينية.

وكما هي الحال في اللغة الصينية، فإن المرء يستطيع أن يقول إن اللغة

الإنكليزية بالنسبة للمتعلمين المبتدئين كانت معروفة القراءة والكتابة لفترة أطول من اللازم.

إلى الغرب هيّا!

إن اللغة التي تعلمتها في هذه الأعوام الأربعين،
لغتي الإنكليزية الأم، يجب أن أتخلى عنها الآن:
ولم يعد لساني أكثر فائدة لي
من كمان أو قيثارة بلا أوتار؛
أو آلة جذابة، محجوزة في علبة مغلقة،
أو تنفتح في يدي شخص
لا يعرف ضبط النغم بلمسته:
لقد حبستم لساني في فمي،
وحجزتموه بشكل مضاعف في أسناني وشفتي؛
وصار الجهل الغبي العقيم الفاقد الإحساس
هو سجاني الذي يحرسني.
وأنا أكبر عمراً من أن أتودد إلى ممرضة،
وقد تقدمت سني أكثر من أن أصبح تلميذاً الآن:
فما هو حكمكم إذن، سوى الموت الصامت،
الذي يحرم لساني من أن ألتقط نفساً بلغتي الأم؟

الدوق نورفلك، حول نفيه

شكسبير، ريتشارد الثاني، الفصل الأول المشهد الثالث

تبدو كلمات نورفولك هذه كأنها أول مثال على يأس رجل إنكليزي، يكاد يكون تقليدياً الآن، بخصوص إمكانية اضطراره لتعلّم لغة أخرى: فهل يمكن للنفي أن يتضمن رعباً أعظم من هذا؟ كانت الإنكليزية عندئذٍ هي اللغة المحكية حصراً ضمن حدود الجزر البريطانية. وعندما كتبت هذه الكلمات، على الأرجح في العام 1595، لم يكن هناك سوى مستعمرة واحدة ناطقة بالإنكليزية خارج الجزر

البريطانية، هي مستعمرة رالي في رونوك، 'فرجينيا'، منذ العام 1586، ولم يكن أحد في إنكلترا آنذاك يعرف أنها لا تزال موجودة(*).

وشيئاً فشيئاً، صار من غير الضروري للمسافرين من بريطانيا أن يتعلموا لغة أخرى، لأن الناطقين بالإنكليزية راحوا عندئذٍ ينشرون مستوطنات جديدة حول العالم. وكثير من تلك المستوطنات كانت ستتوسع، لتصبح - مع بريطانيا - من بين أكبر أمم الأرض وأغناها، وأقواها. وكانت دوافع المستوطنات على مدى ثلاثة قرون متنوعة: فمنها مجد المملكة، والمكاسب من القرصنة، وتأسيس مدن مثالية فاضلة جديدة، والإثراء من الزراعة والتعدين والتجارة، والمجد الشخصي، وتحرك الواجب لنشر التبشير الديني بسيرة السيد المسيح، والاستراتيجية العامة، والكسب المفاجئ من غنائم الانتصارات العسكرية، بل وفي النهاية شيء من الإحساس بالالتزام بواجب تثقيف السكان الأصليين. وفي هذا كان الإنكليز مختلفين عن كبار أسلافهم، البرتغاليين والإسبان والهولنديين والفرنسيين، الذين كان يحركهم واحدٌ أو عدد قليل من هذه الدوافع. وبهذا المعنى، كان البريطانيون هم الأنصار العالميون للاستعمار الأوروبي(**). وكان من الممكن المجادلة بأن تنوع الدوافع بحد ذاته هو ادعاء بعدم وجود دافع على الإطلاق. ففي العام 1883، اشتهر السير جون سيلي، الخبير في الشؤون العامة أنه ادعى ما يلي: 'يبدو أننا غزونا نصف العالم وملأناه بالسكان في نوبة من شرود الذهن'[16]. وهذا شيء مناسب جداً لتصور البريطانيين أنفسهم عن براءتهم العفيفة الطاهرة.

قراصنة وزارعون

إن الامتدادات الأولى للغة الإنكليزية عبر المحيط الأطلسي تذكرنا بتحركات

(*) إن هذه المستعمرة، وجزيرة كروتون التي نزحت إليها وعسكرت فيها بصورة مشهورة ولكنها غامضة، كانتا في الحقيقة على ساحل نورث كارولاينا الحديثة. والباقون القليلون الذين اندمجوا مع الناطقين المحليين بلغة آلغونكيان قدر لهم أن يتخلوا عن إنكليزيتهم في القرن السابع عشر. ولكن الإنكليزية بقيت في المستعمرة اللاحقة في جيمستاون، التي انتقلت عاصمتها فيما بعد إلى وليامسبرغ.

(**) من المثير للاهتمام أن نلاحظ أن واحداً من الدوافع الكبرى لروما وروسيا، وهو دافع تأمين الحدود عن طريق غزو الجيران، كان غائباً إلى حد كبير.

السنسكريتية عبر خليج البنغال قبل ذلك بألف وخمسمئة عام، عندما كان التمييز غير ممكن تقريباً بين قراصنة "ساهاسيك" الفاتنين وتجار "سادهاف" البارزين (انظر الفصل الخامس: 'انتشار السنسكريتية'، ص 286). فقد كانت بريطانيا هي الأخيرة من بين القوى التي واجهت الأطلسي بحثاً عن حظ جديد في الغرب. ولم تكن هذه في بداية الأمر لعبةً يسهل الدخول فيها. ففي القرن السادس عشر، عندما كانت إسبانيا تستخرج أرباحاً هائلة من مناجمها في المكسيك وبيرو، وكانت البرتغال ترقع تجارة المحيط الهندي، وحتى فرنسا كانت تستكشف امتداد نهر سانت لورانس، كان ملكا إنكلترا هنري الثامن وأليزابيث الأولى قد دعما رحلاتٍ استكشافيةً قليلة جداً عبر شمال الأطلسي فلم ينتج عنها شيء، ولا حتى رؤية الأرض اليابسة. ولكن فرانسيس دريك كان قد اكتشف خطأً يمكن أن يكون مربحاً عُرِف بطريقة مجازية مخففة باسم 'أخذ الجوائز'. وفي غضون خمسة عشر عاماً من العام 1573، عاد وحده بعد مزيج من الغارات على الموانئ الإسبانية، ونهب لسفن إسبانية وبرتغالية في أعالي البحار، ومتاجرة في جزر الهند الشرقية ومعه غنائم قيمتها ثلاثة أرباع مليون جنيه، أي ضعف عائدات الضرائب السنوية في ذلك الوقت. وكانت حصة أليزابيث كافية لتسديد الديْن الوطني في العام 1581، ولتقديم اثنين وأربعين ألف جنيه أخرى لتأسيس شركة الشرق (التي استمرت لتصبح الأساس المالي لشركة الهند الشرقية نفسها)[17]. ولم يكن فرانسيس دريك وحده. فمن العام 1585 إلى العام 1604 كانت مئة سفينة على الأقل تبحر سنوياً لتنهب البحر الكاريبي، وتعود بمئتي ألف جنيه إسترليني كل عام[18].

ولكن أحد الأشياء التي أظهرتها الرحلات الأليزابيثية هو أن خطوط التموين

(*) هذا المصطلح في غير أوانه، ولكن المفهوم ليس كذلك. فقد نظم هاكليوت الوثيقة بعنوان "خطاب حول الزرع الغربي"، وجعل كل محتواه الغريب على الصفحة الثانية، بعناوين للفصول تكشف كل شيء:

> خطاب خاص عن الضرورة الكبرى والسلع المتعددة المحتمل أن تنمو لمملكة إنكلترا هذه من الاكتشافات الغربية التي جرت محاولاتها مؤخراً. كتبه في العام 1584 ريتشارد هاكليوت من أكسفورد بناء على طلب وتوجيه من السيد المبجل تماماً والتر رالي، وهو الآن فارس، قبل أن يعود إلى وطنه مع مركبيه الشراعيين. والخطاب مقسوم إلى واحد وعشرين فصلاً، عناوينها تتبع على الصفحة التالية.

هي أعظم نقاط الضعف في أي حملة طويلة. فحتى القرصنة تتطلب على المدى الطويل قاعدة آمنة، يمكن الدفاع عنها، ويمكنها تموين نفسها، وتكون قريبة من موقع العمل والنشاط. وكان هذا بارزاً في الأساس المنطقي المقدم في النشرة التمهيدية للمستثمرين المحتملين في مستعمرة رالي المزروعة حديثاً في فرجينيا آنذاك، والتي كتبها ريتشارد هاكليوت في العام 1584. وفي الخلاصة التنفيذية(*)، بعد التعابير عن التقوى بخصوص 'نشر سيرة السيد المسيح'، والتهديد الإسباني 'للتجارة الإنكليزية المحترمة ... وهو تهديد يزداد حقارة أو خطورة'، يقدم وعداً بأن 'هذه الرحلة الغريبة سوف تعطينا كل بضائع أوروبا، وأفريقيا، وآسيا'، وعلى وجه الخصوص، '5: فإن هذه الرحلة ستكون لجاماً عظيماً لكبح شركات جزر الهند التابعة لملك إسبانيا، ووسيلة لاستيلائنا حسبما نريد في غضون عشرة أسابيع أو ثلاثة أشهر من كل عام على مئة أو مئتين من أشرعة سفن رعاياه في ميناء الصيد في نيوفاوندلاند'.

ومن حيث خطط الأعمال التجارية، لم يحدث الأمر على هذا النحو بالضبط. ففي بادئ الأمر عانت المستعمرة صعوبة حتى في إنتاج غذائها، وفي النجاة من اهتمامات الهنود. ولم تكن تملك أي طاقة، بل ولا سفناً لمضايقة الإسبان بالغارات. ولكن مصطلح "الزرع" الذي استخدمه هاكليوت في الأصل مجرد تعبير مجازي أنيق يعني 'المستعمرة'، وقد صار بالنتيجة لائقاً جداً: فمستعمرة فرجينيا عندما أعيد تأسيسها في جيمستاون، وجدت ما يقيم أودها من خلال مزارع التبغ التجارية. ورغم أن الرعاية الملكية الإنكليزية للقرصنة انتهت عندما اعتلى جيمس الأول العرش، فلم تكن هي قاعدة القرصنة الوحيدة التي نجحت في آخر الأمر عن طريق الزراعة التجارية. وقد تنامت قوة الأسطول البريطاني أثناء القرن السابع عشر، فاستطاعت بريطانيا أن تستولي على بعض جزر الكاريبي الذي كان حتى ذلك الحين بحيرة إسبانية في الحقيقة: وكان الشيء الأهم هو الاستيلاء على جامايكا في العام 1655. وفي البداية، فإن القرصنة التي استهدفت الإسبان بقيت هي النشاط البريطاني الأكبر في المنطقة. ولكن البريطانيين كانوا يلاحظون بشكل متزايد إمكانية إنتاج السكر، وهو

محصول آسيوي كان البرتغاليون رواد إنتاجه في البرازيل. فهنري مورغان، أشهر القراصنة جميعاً، استثمر أرباح قرصنته في نيكاراغوا وكوبا وفنزويلا لشراء أرض في جامايكا. وانتهى به الأمر كواحد من أقطاب إنتاج السكر، وحصل فوق ذلك على لقب فارس(19).

وهكذا فإن امتلاك الأرض، المستولى عليها لأي سبب، قد جعل من الممكن زراعة محاصيل تجارية غريبة للسوق الأوروبية. لم يكن هناك ذهب أو فضة في الممتلكات البريطانية. ولكن إمداد المستهلكين بدلاً من الصيارفة قد أثبت أنه عمل تجاري أفضل بكثير. وكانت زراعة المحاصيل تعني أيضاً الحاجة إلى قوة عاملة: فإذا كان هؤلاء عمالاً مستأجرين بعقود من بريطانيا (كما كان معظمهم في أول الأمر، وخاصة في أمريكا الشمالية)، فسوف يستمرون بتكلم الإنكليزية طبعاً: وإذا كانوا عبيداً تم شراؤهم من سواحل إفريقيا الغربية، فسيتعلمون الإنكليزية عند وصولهم، ما داموا قد فقدوا كل الصلات بموطنهم. وهكذا فإن العائدات من السكر، ومن الكاكاو فيما بعد في جزر البحر الكاريبي، ومن أنواع التبغ، ثم من النيلة والأقطان بعد ذلك، في قارة أمريكا الشمالية صارت أقوى أسس المجتمعات الدائمة المعيلة لنفسها والناطقة بالإنكليزية عبر الأطلسي.

أرض شخص آخر

يطلقون على إنكلترا القديمة اسم **آكاومينوكيت**، التي معناها "الأرض التي على الجانب الآخر". فلا يربون على الاعتقاد بأن الماء يبعد أكثر من ثلاثة آلاف ميل إنكليزي.

تشاكوك: السكين، ومن هنا فإنهم يطلقون على الإنكليز اسم **تشاكواكوك**، أي "رجال السكاكين". فقد كان الحجر في السابق يحل محل السكاكين، والنصال، والبلطات، والمجارف.

وونوموايين: إن كان يقول الصدق. إن كانونيكوس، الحاكم العجوز لخليج ناروغانسيت، أمير حكيم ومسالم. وقد استعمل هذه الكلمة ذات مرة في مخاطبته لي بشكل جاد، وقال: 'لم آمر بإيقاع أي ظلم على الإنكليز منذ نزولهم، ولن أفعل'. وكثيراً ما كان يكرر عبارة: '**إن كان الإنكليزي يقول**

الصدق فسأذهب عندئذٍ إلى قبري بسلام، وآمل أن يعيش الإنكليز مع ذريتي بمحبة وسلام'. فرددت عليه بأنني آمل أن لا يكون له سبب للشك في صدق الإنكليز، و"إخلاصهم" بناءً على تجربته الطويلة مع مودتهم وكونهم موثوقين. فأخذ عصاً وكسرها إلى عشر قطع، وروى عشر حالات، واضعاً قطعة لكل حالة كانت لديه فيها أسباب تثير خشيته.

...

وكثيراً ما كان يوجه إلي هذا السؤال: 'لماذا جاء الإنكليز إلى هنا؟' ويقيسون الآخرين كما يقيسون أنفسهم 'لأنهم يريدون الإحراق'، فبعد إحراقهم الخشب كله في مكان ما، يبحثون عن أماكن جافة ليجلبوا إليها الخشب. فهم يتبعون الخشب بسرور وينتقلون إلى مكان جديد من أجل الخشب.

روجر وليامز، مفتاح للغة أمريكا، 1643[20]

لقد تحقق نمو الإنكليزية في البحر الكاريبي دون أي احتكاك يذكر. فلم يبق إلا قليلون جداً من السكان الآراواك والكاريب بعد الاستيلاء الإسباني في القرن السادس عشر. وهكذا فإن القراصنة والمزارعين الإنكليز، والعبيد الذين استوردوهم، كانوا يدخلون إلى ممتلكات مفرغة. وكان الوضع على البر الرئيسي في أمريكا الشمالية مختلفاً جداً.

ففي فرجينيا وماساشوستس، كانت الجسور الأولى للمستوطنين الإنكليز لا تزال عدداً كبيراً من السكان الأصليين. وقد اختلط هؤلاء السكان مع صيّادي سمك القد والرحّالة المستكشفين، فكانوا على معرفة بالأوروبيين إلى حد ما(*). فكان ذلك من حسن حظ المستوطنين لأنهم ما كانوا قادرين على البقاء في هذين المكانين في السنوات الأولى بدون مساعدة فعالة من أولئك الجيران ذوي المعرفة. ففي العام 1612 تزوج جون رولف، مؤسس زراعة التبغ في فيرجينيا، من بوكاهونتاس، الابنة المتحمسة لبوهاتان رئيس قبائل واهونسوناكوك(**).

(*) كان خليج تشيسابيك، موقع مستعمرة فرجينيا، هو في الحقيقة الحد الشمالي لأنشطة اليسوعيين الإسبان في فلوريدا. ومن العام 1565 كان هذا يشمل مستوطنات في جورجيا الحديثة وكارولاينا وفيرجينيا. ولكن المنطقة كلها تم هجرها في العام 1572 بعد مقتل ثمانية مبشرين في تشيسابيك.

(**) كانت بوكاهونتاس امرأة استثنائية بطرق كثيرة. فقبل ذلك بسبعة أعوام، بينما كانت لا تزال فتاة

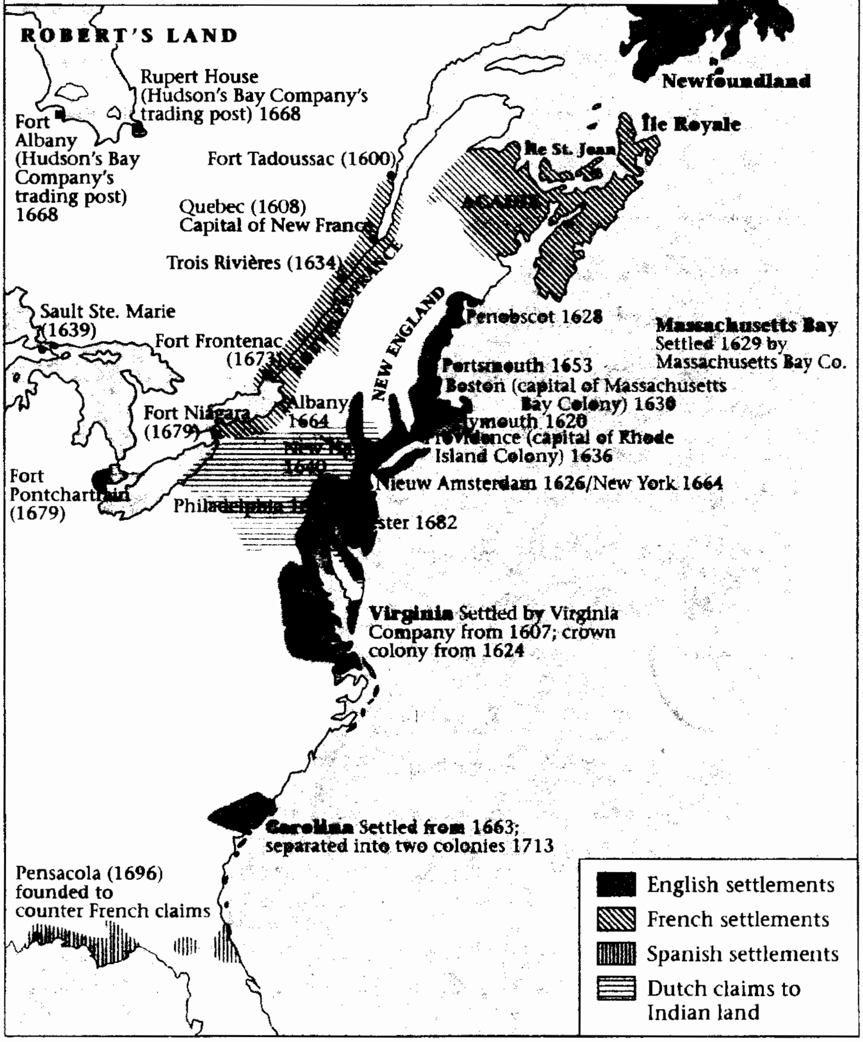
فأدى ذلك إلى بقاء العلاقات مع البوهاتان حلوة حتى العام 1622، ففي العام 1616، قاد الزوجان فريقاً من الفرجينيين إلى لندن، حيث تم تقديمهم إلى الملك جيمس الأول. وفي ماساشوسيتس، تلقى المستعمرون مساعدة حاسمة في السنوات القليلة الأولى من شخصين من الأهالي الأصليين ذوي اللغة الثنائية، وهما ساموسيت الذي كان قد تعلم شيئاً من الإنكليزية من صيّادي سمك القد، وتيسقانتوم، الذي كان يتكلم الإنكليزية بطلاقة تامة، إذ إنه كان قد عبر المحيط الأطلسي ست مرات، وأمضى تسعة أعوام في إنكلترا وأربعة في إسبانيا، وعاماً آخر في رسم خريطة ساحل نيو إنغلاند، وعاد إلى موطنه قبل عام تماماً من وصول المستوطنين الإنكليز في تشرين الثاني/نوفمبر 1620.

كانت المهمة التي واجهت المستعمرين الإنكليز شديدة الشبه بالتحدي الذي واجهه كورتيز والإسبان الذين غزوا المكسيك قبل ذلك بقرن، لترسيخ أنفسهم كسادة في وسط بلد شخص آخر. ولكن الدوافع الإنكليزية للوجود في أمريكا كانت مختلفة. فلم يكن الإنكليز يبحثون عن الذهب، أو عن متنصرين، أو حتى عن ممتلكات، بل كانوا يبحثون عن الأراضي. فكان هذا الاحتمال هو الإغراء الرئيسي للمتطوعين، منذ نشرة همفري جيلبرت التمهيدية للحملة الفاشلة الأولى في العام 1583. وبالنسبة للإنكليز، المصممين على تأسيس 'إنكلترا الجديدة'، فقد كان قصدهم هذا حرفياً تماماً. وقد أظهر كثيرون منهم جديتهم بجلب زوجاتهم وأطفالهم الصغار معهم.

وبما أنه لم يكن لديهم اهتمام بالسكان الأصليين إلا كمساعدين في العمل غير موثوق بهم ويمكن الاستغناء عنهم، فإنه لم يكن مهماً عندهم عدم وجود سيد كبير جديرٍ بالغزو في ذلك الجزء من أمريكا الذي أبرزوا أنفسهم فيه، وقد تصادف أن اللغة التي ينطق بها الأهالي الأصليون الذين قابلوهم لأول مرة لم

تدخلت عند والدها لإنقاذ حياة مغامر إنكليزي آخر من الرواد، واسمه القبطان جون سميث، الذي بقي حتى أصبح أول حاكم لمستعمرة جيمستاون. وعندما فاز جون رولف بيدها للزواج، كانت محجوزة رغم إرادتها على سفينة إنكليزية على نهر بوتوماك. وفيما بعد أصبحت من المعتنقين الأوائل للمسيحية البروتستانتية.

المستعمرات الأوروبية في شرقي أمريكا في القرن السابع عشر



تكن واسعة الانتشار هناك، ولا على مبعدة فيما وراء ذلك المكان. وقد أذهلهم أن اللغة التي واجهوها كانت شديدة الانقسام إلى لهجات. فكان معنى ذلك أنه حتى القليلون منهم الذين بذلوا جهداً لتعلم النطق بها لم يكد أحد يفهمهم عندما يبتعدون عن ذلك المكان.

لقد سافرت مرة إلى جزيرة هي الأكثر وحشة وغرابة في ممتلكاتنا ....
وكنت الوحيد في مركبي، وكانت الريح معاكسة، فلم أستطع أن أجعل

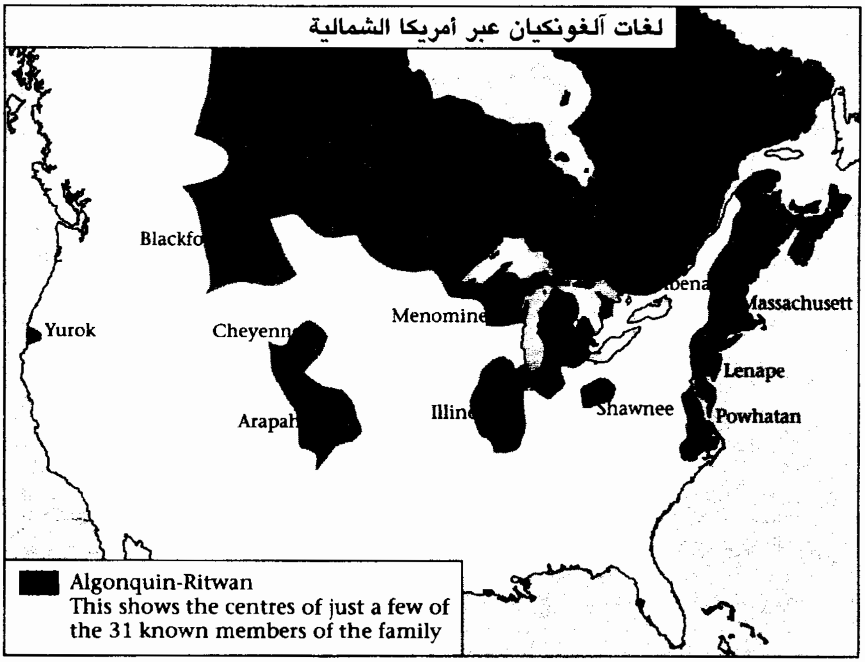
الأهالي يفهمون حديثي، وخاصة بسبب اختلاف لهجتهم وطريقة كلامهم، ومع ذلك فقد تكلمت بعون الله كثيراً ... بحيث قال لي كثير منهم عند مغادرتي: 'آه، متى ستعود مرة أخرى وتأتينا بمزيد من الأخبار عن هذا الإله؟'

...

آنوم، أي "الكلب" ... إن اختلاف لهجاتهم وطريقة كلامهم ضمن ثلاثين أو أربعين ميلاً كان كبيراً جداً، كما يظهر من تلك الكلمة، فهي "**آنوم**" بلهجة كوويسيت، **وآبيم** بلهجة ناروغانسيت، **وآروم** بلهجة كونيبيكوك، **وآلوم** بلهجة نيبموك[(21)].

ولم يكن أحد يعرف في ذلك الوقت أن مكان وجود أفراد الأسرة اللغوية كان يمتد على طول شريط متواصل بلا انقطاع تقريباً لمسافة 2500 كيلومتر عبر التخوم الوسطى والشمالية للقارة الأمريكية الشمالية حتى سفوح جبال روكي الصخرية، من بوهاتان إلى شوني إلى ميامي إلى إيلينوي إلى آراباهو إلى شايان، ومن ماساشوستس إلى أبيناكي إلى ألغونكين[(*)] إلى أوجيبوا إلى مينوميني إلى كري إلى بلاكفوت. وفيما بين بوهاتان وماساشوستس يوجد ناطقون بلغةٍ أخرى ذات صلة هي لغة لينيب. وكانت هذه اللغات مختلفة جداً عن الإنكليزية. فكلماتها متعددة المقاطع إلى حد كبير، مع فيض من الحروف السابقة واللاحقة. ولكنها كانت شديدة التشابه، كما يظهر من أسماء عدد قليل من الحيوانات. فالأيل الأمريكي (moose) هو'"موز" بلهجة آبيناكي، و"موزوا" بلهجة ميامي، و"مونز" بلهجة أوجيبوا، و"موسْ" بلهجة مينوميني. والفقمة (seal) هي "آهكيكي" بلهجة آبيناكي، و"آسكيك" بلهجة أوجيبوا، "وآهكيك" بلهجة كري. والثور الأمريكي (bison) هو "بيسيهكو" أو "يسيهكو" بلهجة آبيناكي "وبسيهكيوْ" بلهجة مينوميني، "وبيشيكي" بلهجة أوجيبوا "وبيسيهكيو" بلهجة كري. وطائر الحجل الصغير (bobwhite) هو "بوهبوهكيس" بلهجة لينيب "وبوهبوسيسيا" بلهجة

(*) لقد تصادف أن الفرنسيين كانوا قد درسوا لغة ألغونكين عندما كانوا يستكشفون وادي نهر أوتاوا في العام 1541.



ميامي. وفي ترجمة ماساشوستس للإنجيل فإن الكلمة المستخدمة لطائر السلوى (quails) هي "بوهبوكويتيه"[22]. ومن الأشياء ذات الدلالة أنه في واحد فقط من هذه الأمثلة الأربعة استعيرت الكلمة الهندية فعلاً إلى الإنكليزية: فالمستوطنون لم يسبق لهم أن رأوا ثور الوحش ("البيسيهكو") من قبل أبداً، ولكنهم مع ذلك فضلوا أن يتمسكوا بعالمهم اللغوي الخاص بهم، وأن يطلقوا الاسم على شيء شبيه يعرفونه بالفعل.

وكان موقف المستوطنين من الهنود الحمر هو محاولة التعايش معهم سلمياً إلى أن يحتاج المستوطنون إلى سلب ممتلكاتهم للحصول على مزيد من الأرض لمجتمعهم الآخذ في التوسع، فلم تكن هناك مساكنة تذكر، لأن الحروب كانت تندلع عاجلاً أم آجلاً. وفي آخر الأمر تلاشى سكان نيو إنغلاند الأصليون تماماً وبصورة أسرع من تلاشي سكان المكسيك أو بيرو. ومع ذلك فإن الإنكليز لم يضطلعوا بإخضاع البلد كله عسكرياً، كما كان الإسبان يفعلون على الفور في كل منطقة جديدة يستكشفونها. ونتيجة لذلك فإن السلطات البريطانية لم تشعر أبداً بأنها مسؤولة عن الهنود الحمر بالطريقة التي كان الإسبان يشعرون بها،

فكان الجهد الإنكليزي لتنصيرهم أقل بكثير. وكان الإنكليزي الاستثنائي فقط هو الذي يبذل جهداً للوصول إلى الأهالي الأصليين روحياً أو يهتم ببناء تضامن معهم. وكان هناك اثنان من هؤلاء الاستثنائيين، هما روجر وليامز، خريج كمبريدج (1603؟ ـ 1683)، وجون إليوت (1604 ـ 1690) الذي تعلم لغتهم المحلية ونشر كتباً عنها. فكتب وليامز دراسة عنوانها: 'مفتاح إلى لغة أمريكا'، وكتب إليوت 'مبادئ قواعد اللغة الهندية، أو مقالة لإخضاع اللغة الهندية للقواعد، لمساعدة الراغبين في تعلمها لترويج التبشير بالمسيحية بينهم'[23]. وكان وليامز أميل إلى النشاط السياسي، فقد تم طرده من ماساشوستس بسبب آرائه، وكان يعمل أيضاً كمفاوض عن الناراغانسيت أثناء الحروب، ودراسته 'المفتاح' مليئة بملاحظات عن كون السلوك الطبيعي للأهالي الأصليين في أغلب الحالات له جودة تعادل على الأقل جودة سلوك المسيحيين المجاهرين بعقيدتهم. أما إليوت فكان أميل إلى التبشير. فقد كان يعظ في ماساشوستس منذ العام 1646، وترجم الإنجيل كله إلى هذه اللغة بحلول العام 1663[24]. وفي غضون ثلاثين عاماً كانت هناك حلقة من المدن حول بوسطن مأهولة 'بالهنود المصلين'. ولكن في الجيل التالي عندما اقترحت شركة ترويج التبشير التي مقرها في لندن نشر طبعة جديدة من الإنجيل، لقيت مقاومة فعالة من السلطات الاستعمارية. وكتب كاهن لاهوتي متطهر متزمت رداً على ذلك:

> إن الهنود أنفسهم منقسمون في رغباتهم بشأن هذه القضية. فرغم أن بعض عجائزهم متشددون في التمسك بهنديتهم (ولا عجب في ذلك أبداً)، فإن فيهم آخرين يرغبون في تحويل شعبهم إلى إنكليز بأسرع وقت ممكن، وأسبابهم لذلك ذات وزن ثقيل، فمن بينها أن لسانهم الهندي فقير جداً (رغم أن كلماتهم طويلة بما فيه الكفاية!)، والأشياء العظيمة في ديننا المقدس التي تصل إليهم بلغتهم لا تكاد تكون مفهومة لديهم وكأنها تصل بلغة إنكليزية كلياً. ولكن اللسان الإنكليزي سوف يعطيهم على الفور مفتاحاً لكل كنوزنا، ويمكنهم من إتقان نوع آخر من الكتب أفضل من أي شيء مكتوب بلغتهم البربرية ..[25].

ولكن الناطقين بلغة ماساشوسيت كانوا قليلين. فقبائلهم الرئيسية كانت قد دمرت في 'حرب الملك فيليب' (1675 ـ 1676)، التي كانت آخر عمل مقاومة قام به هنود ماساشوسيت ضد توسع الرجل الأبيض، وكان الهنود المصلون هم الذين تلقوا أقسى الضربات، فلم يحصلوا على مكافأة لولائهم للبيض سوى النفي لمدة عامين إلى جزيرة دير (Deer Island) القاحلة والباردة، في ميناء بوسطن.

إن مستعمرات فرجينيا، وماساشوسيتس (وكونيكتيكوت) انضمت إليها في العام 1670 مستعمرة رابعة هي كارولاينا، التي أقامها ثمانية لوردات إنكليز بموجب لائحة من الملك تشارلز الثاني. وكان الغرض منها في الأصل غريباً وهو الإصرار على إنتاج الحرير، ولكنها في آخر الأمر قبلت أن تقوم بزراعة الرز والنيلة.

مصير ظاهر

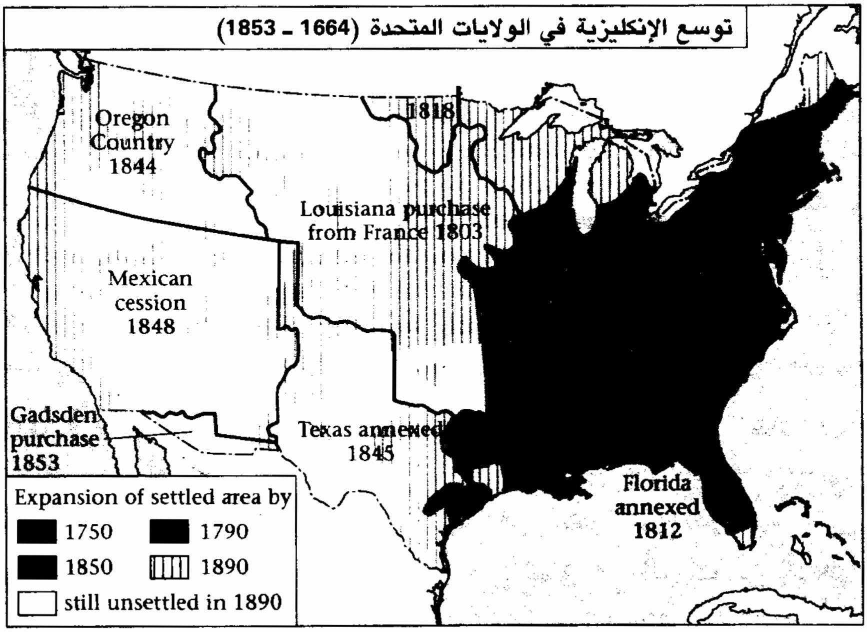
> تكساس لنا الآن. فقبل كتابة هذه الكلمات، صادق مؤتمرها بلا شك على قبول كونغرسها لدعوتنا المقدمة إليها للانضمام إلى الاتحاد، ... وقد اضطلعت أمم أخرى بالتدخل فيها، بيننا وبين الأطراف الحقيقية في القضية بروح عدوانية ضدنا، بغرض إحباط سياستنا وعرقلة قوتنا، والحد من عظمتنا، وإيقاف تنفيذ مصيرنا الظاهر للانتشار على القارة التي خصصتها العناية الإلهية للتنمية الحرة لملايينا المتكاثرة سنوياً ... فمن غير الصحيح كلياً، ومن الظلم لأنفسنا أن نتظاهر بأن ضمها كان إجراءً فاسداً وغير صحيح وغير محق، وأنه غزو عسكري تحت أشكال من السلام والقانون، وتوسيع للأراضي على حساب العدالة، وعدالة مستحقة بقداسة مزدوجةٍ للضعفاء. إن هذا الرأي في المسألة لا أساس له كلياً ...
>
> جون ل. سوليفان، مجلة *United States Magazine and Democratic Review*، المجلد 17 (تموز / يوليو ـ آب / أغطس 1845).

وهكذا رسخ المستوطنون الإنكليز وجودهم في مجتمعات زراعية على الساحل الشرقي لأمريكا الشمالية. ولم يأتِ التحدي التالي من السكان الأصليين بقدر ما

أتى من زملاء الإنكليز ونظرائهم الأوروبيين. ففي القرن السابع عشر لم يكن الإنكليز يملكون الساحل الشرقي لأنفسهم، بل كانوا مضطرين لتقاسمه مع مستعمرين من فرنسا إلى الشمال، وإسبان في فلوريدا إلى الجنوب (انظر الخريطة على الصفحة 567). وحتى الوسط لم يكن يخلو من منازعة، لأنه كانت هناك أراض هولندية، وحتى سويدية، متداخلة بين مزارع بريطانيا في ماساشوسيتس وفرجينيا. وفي كل هذه الحالات، تم إخلاء الميدان بحروب في المصالح الاستراتيجية للوطن الأم. فتم طرد الهولنديين بسرعة شديدة من هولندا الجديدة (أي بنسلفانيا، ونيوجيرسي، وديلاوير، والنصف الجنوبي من ولاية نيويورك(*)) في العام 1664. وبعد قرن من الحروب، تم طرد الفرنسيين من فرنسا الجديدة (أي كندا الشرقية) ولويزيانا إلى الشرق من نهر المسيسبي في العام 1763. وحصل الإنكليز لوقت قصير على الحق في فلوريدا من إسبانيا، في مقابل هافانا، التي كانت بريطانيا قد احتلتها في العام 1762، وفقدتها مرة أخرى بعد حرب العام 1812. كانت هذه عائدات الصراعات العالمية بين القوى الأوروبية، ولكنها رغم ذلك فتحت الأراضي لاستيطان الناطقين بالإنكليزية.

وكان الحدث الأكبر التالي هو الحرب من العام 1775 إلى العام 1783 التي استقلت فيها المستعمرات الناطقة بالإنكليزية عن حكومة موطنها في لندن، وهي الثورة الأمريكية التي خلقت الولايات المتحدة، فكانت ذات أهمية سياسية عليا في أنها شكلت مصدراً مستقلاً للتعبير للمستعمرات الإنكليزية في القارة، ومنذ ذلك الحين صارت القوة الرئيسية الناطقة بالإنكليزية في أمريكا الشمالية دولة 'ذات إمبراطورية مبنية في داخلها'[26]، وكما حدث، فإن حدودها الغربية راحت تتمدد باستمرار حتى وصلت إلى خط ساحل المحيط الهادئ. ثم إن الشكل الاتحادي للحكومة الذي تم استنباطه في العام 1777 أثبت انه مناسب جداً لهذه الإمبراطورية ذات الحدود المتحركة، عندما راحت المكتسبات الجديدة تتقدم من المكانة الإقليمية إلى مكانة 'الولاية'. ولكن الشكل الاتحادي كانت له أيضاً تأثيرات لغوية

(*) إن الحضور السويدي على ساحل المحيط الأطلسي لم يدم سوى فترة قصيرة (1638 - 1655)؛ فمستوطنتهم في ديلاوير أخلاها الهولنديون بسرعة.



خارج الولايات المتحدة. وهاجر إلى كندا في الشمال كثيرون لم يقبلوا الحكم الجديد، وبذلك خلقوا مجتمعاً هاماً ناطقاً بالإنكليزية في أونتاريو. وفي القرن الحالي قدر لهذا المجتمع أن يجتذب تدفقات رئيسية من الهجرة إلى داخل أمريكا الشمالية، وبذلك تم تعزيز السكان الناطقين بالإنكليزية، بمعزل تام عن الولايات المتحدة.

وعند حلول العام 1783، أي بعد أقل من قرنين على إقامة أول مستعمرة إنكليزية في رونوك، كانت الإنكليزية هي اللغة الرسمية في كل مستوطنة في شرق أمريكا الشمالية. وعند تلك النقطة، كانت ثلاثة أرباع ما هي الآن الولايات المتحدة القارية (أي الولايات الثمان والأربعون السفلى) لا تزال تحت السيطرة الاسمية لقوى أجنبية، هي فرنسا وإسبانيا، وإلى الشمال الغربي من إقليم أوريغون بريطانيا العظمى. ولكن ما إن مضى جيلان بعد ذلك، أي عند حلول العام 1853، حتى كانت الولايات المتحدة قد استولت على المنطقة بكاملها(*).

(*) في العام 1867 تم الحصول على ألاسكا أيضاً، بشرائها من روسيا.

وبالإضافة إلى ذلك، فبعد حلول العام 1890 كان المستوطنون قد أقاموا مدن مزارع في كل جزء من المنطقة. وإلى الشمال من نهري ريو غراند وجيلا لم يبق أي مكان لازدهار أي مجتمع لغوي مستقل ومهم.

وقد حدث هذا كله بسهولة كبيرة، في بضع جرعات دستورية كبيرة فقط. فالرئيس توماس جيفرسون استغل فرصة تفوّق نابليون في فرنسا لفترة قصيرة لشراء الامتداد الباقي من أمريكا الفرنسية، في لويزيانا، في العام 1803؛ فأدى ذلك وحده إلى مضاعفة مساحة الولايات المتحدة الأمريكية. وقام جيمس ماديسون وجيمس مونرو بضم فلوريدا من إسبانيا، وصادقا على العملية في العام 1821، فتبين أن إزاحة قبائل السمينول من الهنود الحمر أصعب من إبعاد الإسبان عنها، فاستمرت الحروب مع تلك القبائل من العام 1817 إلى العام 1842. وتم الاستيلاء على معظم الباقي من البلد أثناء إدارة رئيس واحد فقط، هو جيمس نوكس بولك. ففي العام 1845 قُبِلَ انضمام تكساس، التي كانت قد فصلت نفسها عن المكسيك ـ التي كانت آنئذٍ حديثة عهد بالاستقلال عن إسبانيا. وفي العام 1846، اقتسم الفرق مع بريطانيا لكي ينهي صراعاً طويلاً حول ملكية إقليم أوريغون، وبذلك أوجد الحدود الغربية الحالية بين الولايات المتحدة وكندا عند خط العرض التاسع والأربعين شمالاً. وأدى ضم تكساس وفرض تعويضات حربية إلى حرب مع المكسيك، فكسبتها الولايات المتحدة على الفور، واحتلت مدينة المكسيك في العملية. ولكنها في العام 1848 أعلنت اكتفاءها باستيعاب كاليفورنيا وباقي الغرب[27]. وكان بوسعها أن تحتفظ بباقي المكسيك كلها، ولكنها قررت في آخر الأمر أنها مزدحمة أكثر من اللازم بالسكان الأجانب. وحسب رأي السناتور جون ج. كالهون ـ في تحدٍ مذهل لقرنين من التاريخ الأمريكي ـ فإن 'ضم المكسيك سيكون المثل الأول تماماً على .... ضم عرق هندي أحمر، لأن أكثر من نصف المكسيكيين هنود حمر، والنصف الآخر مكون بشكل رئيسي من قبائل مختلطة. وإنني لأحتج على اتحاد كهذا! فحكومتنا ... هي حكومة عرق أبيض'[28].

وكانت كل الأراضي التي تم كسبها بهذه الاندفاعة السريعة مأهولة بالطبع

منذ زمن طويل، ولكنها لم تكن مأهولة من قبل القوى الأوروبية التي أُخذت منها. فالناس الذين كانوا هناك ـ وهم حوالي مئتي مجتمع لغوي منفصل في أمريكا الناطقة بالإنكليزية، وأكثر من خمسين في كاليفورنيا وحدها ـ وجدوا أن الاتصال مع المستوطنين يتبع مساراً متوقعاً يسهل التنبؤ به. ففي بادئ الأمر، وحتى قبل ظهور المستوطنين، تُبْتْلَىَ القبيلة بأمراض غامضة ومميتة. ثم عندما يأتي الرجل الأبيض للالتقاء مع أبناء القبيلة شخصياً، تجري محاولة للمصالحة ربما تؤدي إلى معاهدة بين أمتين مستقلتين، هما الولايات المتحدة، أو (حكومة صاحب الجلالة) والقبيلة، ترسم الحدود والالتزامات المتبادلة. وقد يمر جيل من التعايش السلمي، ولكن فيما بعد، ومع وصول المزيد والمزيد من الناس البيض، وبدء اعتدائهم على الأراضي القبلية، تكتشف القبائل أن استعداد البيض لفرض الاتفاقية على شعبهم محدود جداً، فتجد القبائل أن أراضيها عرضة للانتهاك، وأن سبل معيشتها يتم تدميرها. وهذا قد يعني الحرب. ولكن القبائل تخسرها على الدوام. فأعداد البيض أكثر من اللازم، وهم أفضل تسليحاً بكثير. وفي أغلب الحالات تكون المرحلة الأخيرة عملاً أحادي الجانب على أيدي البيض، فيحصرون القبائل أو يطردونها إلى معسكرات محمية قد تكون على بعد آلاف الأميال. كانت هذه هي الطريقة الإنكليزية مع السكان الأصليين في أمريكا، وقد تكررت مرة بعد أخرى.

كان ذلك ممارسة في الإبعاد والطرد بصورة جوهرية. ورغم أن القانون الأمريكي قد اعترف بالقبائل كأمم منفصلة، فلم تكن هناك خطة لإيوائهم واستيعابهم أو ضمهم بهذه الصفة ضمن دستور الجمهورية. وإن كانت هناك خطة، فهي لإعطاء أبناء القبائل، كأفراد أو كعائلات، الجنسية ليصبحوا مواطنين وأصحاب بيوت في الجمهورية. وقد زعم توماس ل. مكيني، الذي كان مسؤولاً عن الشؤون الهندية في العام 1816: 'نريد أن نجعل منهم مواطنين'، وكان جزء من هذه العملية هو تحويل لغتهم إلى الإنكليزية، 'التي هي الرافعة التي يرفعون بها أنفسهم إلى مستوى الامتياز الفكري والمعنوي والأخلاقي'[29]. وفي الثالث من آذار/مارس من العام 1819، أقر الكونغرس الأمريكي قانوناً لتقديم التعليم لهم 'ومنع المزيد من تدهور القبائل الهندية واندثارها ... عن طريق تعليمهم

الزراعة المناسبة لوضعهم، وتعليم أطفالهم القراءة والكتابة والحساب'. وزاد الإنفاق من عشرة آلاف دولار في العام 1819 إلى مئتين وأربعة عشر ألف دولار في العام 1842، عندما كانت هناك سبع وثلاثون مدرسة وخمسة وثمانون معلماً. وكانت القاعدة 41 من نظام المدارس الداخلية في الأراضي المحجوزة للهنود الحمر (1881) تنص على ما يلي: 'يجب أن يكون التعليم كله باللغة الإنكليزية. ويجب إرغام التلاميذ على التحدث فيما بينهم بالإنكليزية. ويجب توبيخهم بشكل كاف ومعاقبتهم على الإصرار على انتهاك هذه القاعدة. ويجب بذل كل جهد لتشجيعهم على التخلي عن لغتهم القبلية'[30].

غير أن النيّة الرسمية لإلغاء أسلاف أهالي أمريكا الشمالية الأصليين ككيانات منفصلة لم تتحقق في آخر الأمر. والواقع أن رقّاص الأهالي قد بدأ ينعطف عائداً باتجاههم مرة أخرى. ففي العام 1999 كان عدد الأهالي الأصليين للولايات المتحدة (من الهنود، والإسكيمو، والأليوت)، يقدر بـ 2.4 مليون نسمة بعد أن كانوا 1.4 مليون نسمة في العام 1980 وكنسبة مئوية مجموع السكان، فإن هذا يمثل زيادة من 0.6 بالمئة إلى أقل بقليل من واحد في المئة[31]. ولكن عند النظر إلى السياسات الرسمية كوسيلة لنشر الإنكليزية، فإن هذه السياسات يجب اعتبارها فعالة، وقلب توجهها أصعب من مجرد خسارة الأرقام. فقد صارت المعرفة السلبية بالإنكليزية الآن شاملة في العالم كله تقريباً. وعلاوة على ذلك فإن أرقام الإحصائيات تظهر أنه عند حلول العام 1990 كان أقل من ربع الهنود الأمريكيين الحمر يتكلمون لغة غير الإنكليزية في بيوتهم. وحتى في الأماكن التي كانت اللغة الأصلية تظهر فيها أفضل صمود، في معسكر نافاجو في الجنوب الغربي، ارتفع عدد الأشخاص في سن المدرسة من بين السكان الذين يتكلمون الإنكليزية فقط، وذلك في الفترة نفسها التي شهدت تنامي أعداد الهنود من 11.8 بالمئة في العام 1980 إلى 28.4 بالمئة في العام 1990[32]. وهناك الآن تقرير يذكر أن أقل من نصف أطفال نافاجو لا يزالون يتكلمون لغتهم[33]. وفي الوضع الحالي، فإن إمكانية البقاء الطويل الأمد لأي واحدة من لغات أمريكا الشمالية، حتى في تعايش مع الإنكليزية، تبدو كئيبةً وقاتمة.

طرق للفوز

إذا سألت هؤلاء الحجاج عما يتوقعونه عند وصولهم إلى كنتكي فإن الجواب هو الأرض. وإن سألت: ألديك شيء منها؟ أجابك: كلا، ولكنني أتوقع الحصول عليها. وإن سألته: ألديك أي شيء تدفعه ثمناً للأرض؟ أجاب: كلا، وإن سألته: وهل رأيت البلد في وقت من الأوقات؟ فسيجيب: كلا، ولكن الجميع يقولون إنها أرض طيبة ....

موسى أوستن، 1796[34]

'إن الأرض هي المكان الوحيد في العالم الذي تصل قيمته إلى أي شيء'. هكذا صرخ، بينما كانت يداه السميكتان القصيرتان تصدران إشارات استنكار واسع: 'لأنها هي الشيء الوحيد الذي يستمر ويدوم في هذا العالم. فلا تنس هذا! إنها الشيء الوحيد الجدير بأن يقاتل المرء من أجله، ويستحق أن يموت المرء من أجله'.

فقالت ابنته باشمئزاز: 'آه يا أبي، إنك تتكلم كأنك إيرلندي!'

مارغريت ميتشيل: ذهب مع الريح، 1936

عند هذه النقطة، وقد استكملت الإنكليزية انتشارها عبر أمريكا الشمالية، يجدر بنا التوقف لحظة للتأمل في هذا التطور الرهيب. فعند حلول العام 1890 كانت الإنكليزية هي اللغة المفروض أنها صارت عامة على مدى 9,303,000 كيلومتر مربع من الأراضي، أي أكبر من مساحة الجزر البريطانية بثلاثين مرة. فكانت أكثر بكثير من كونها اللغة المشتركة المناسبة للرطانة التجارية، إذ إنها بالنسبة لمعظم الناطقين بها كانت هي لغتهم الأولى، وبالنسبة للباقين، كانت آتية بسرعة لتحل محل أي لغة أخرى يعرفونها، سواء في القبائل الأصلية أم بين فرق المهاجرين الحديثة الوصول. ففي غضون قرن واحد كانت ثقافة أحادية اللغة قد نمت حتى سحقت الكثرة الوافرة التي زادت على مئتي لغة مختلفة مبعثرة بشكل خفيف هنا وهناك. والتوسع الوحيد الشبيه بهذا في فجائيته وتغلغله الجذري العميق هو نشر المسلمين للغة العربية عبر الشرق الأوسط وشمال إفريقيا. والحالات الأخرى التي تخطر بالبال ـ كانتشار اليونانية عبر الإمبراطورية الفارسية على يد الإسكندر، أو انتشار الفرنسية عبر شمال إفريقيا ووسطها في

القرن التاسع عشر ـ كانت مفاجئة بالمثل، ولكنها أقل تغلغلاً بكثير، كما أن التقدم العميق والدائم للاتينية خلال أوروبا الغربية، أو للصينية عبر سهول آسيا الشرقية وجبالها قد استغرق حدوثه قروناً كثيرة طويلة. فكيف صار ممكناً هذا الانفجار الأول للمجتمع الناطق بالإنكليزية؟

لإعطاء جواب شافٍ، يستحسن تقسيم هذا السؤال إلى سؤالين: كيف أمكن للغة أوروبية وحيدة أن تستولي على أمريكا الشمالية كلها؟ ولماذا كانت الإنكليزية هي وحدها التي توسعت من بين المتنافسين جميعاً؟ وليس اللغات الأوروبية الأخرى التي كانت مترسخة في مكانها قبل الإنكليزية أصلاً؟

إن دوافع المستعمرين الإنكليز الأوائل للقدوم إلى أمريكا كانت نتاج تضليل وهمي مخادع. فقد كان مؤيدو رحلات الاستكشاف والاستيطان المبكرة منجذبين إلى الاحتمالات المغرية لاكتشاف الممر الشمالي الغربي لتمكينهم من المتاجرة مع الصين والهند، والحصول على ممتلكات عقارية، وقواعد آمنة لاستمداد الثروة من صيد الأسماك والقرصنة. ولم يكن أحد يتوقع العائدات الفعلية لرأس المال المستثمر التي ستأتي من تجارة الفراء، ومن زراعة محاصيل مثل التبغ والنيلة. ولكن من وجهة النظر اللغوية لم يكن المهم هو رأس المال، بل العمل. وبعد أن ترسّخ وجود المستعمرات كانت هناك أسباب أخرى جعلت الناس يذهبون للعيش هناك. وكانوا في أغلب الحالات يائسين اقتصادياً، وذهبوا بموجب عقود كعمال مستأجرين يخدمون فترات من أربع سنوات أو خمس قبل أن يصبحوا أحراراً بالاستيطان. وجاء آخرون لتأسيس مجتمع جديد بناءً على مبادئ مثالية: فهكذا كان الحجاج الانفصاليون المشهورون الذين جاؤوا إلى ماساشوستس في العام 1620 وتبعهم متطهرون كثيرون في العقود التالية، عندما كان موطنهم يعاني آلام الحرب الأهلية، والكومونويلث وإعادة الملكية. ولكن الذي عثر عليه الكثيرون عندما وصلوا كان سلسلة من المستوطنات الإنكليزية تتوفر فيها أرض زراعية جيدة لا تزال غير مزروعة إلى حد كبير. فكانت المحاصيل عند زراعتها تزدهر، وهناك أسواق طيبة للحصاد. وبشكل تدريجي كسبت المستعمرات سمعة بالوفرة، وصارت الهجرة أكبر جاذبية للذين يواجهون مستقبلاً غير مؤكد في بريطانيا.

فتوجهوا غرباً وجلبوا معهم زوجاتهم وأطفالهم في أغلب الحالات. ولم تكن الحكومات قمعية أو ظالمة في المستعمرات أبداً. ولكن بعد حرب الاستقلال التي كانت سائدة في العام 1783، صار هناك منار جديد للحرية السياسية يمكن إضافته إلى جاذبية الإثراء الجاهز المعروض.

إن هذا الإدخال للزراعة الواسعة النطاق، من مئات الألوف من المزارع الجديدة، هو الذي يفسر انتشار المستوطنين البيض على حساب الأهالي الأصليين. فقد أعطاهم ذلك حيثيات إقامة أسر كبيرة، أكبر بكثير مما يحتاجون إليه لتعويض قوتهم في الجيل التالي. وبدلاً من ذلك، فإن العدد الفائض سيتوجه إلى مبعدة إلى الغرب. وقد تضاعف عدد سكان هذه المستعمرات الإنكليزية أربع مرات في الجيلين بين العامين 1650 و1700. وقد استمر هذا التكاثر بلا هوادة لمدة ثلاثة قرون من العام 1600: فكانت هناك خصوبة مذهلة، مشفوعة بتدفق لا يتوقف من المتطوعين الجدد من أوروبا.

وبالنسبة لاختيار اللغة، فقد اتضح بأن الشيء الحاسم هو أن الهجرة في النصف الأول من هذه الفترة كانت من الجزر البريطانية على الأغلب. فقد هاجر مئتان وعشرون ألفاً أثناء القرن السابع عشر، وربما ضعف هذا العدد في القرن الثامن عشر. وهذه أرقام صغيرة، بالمقارنة مع الأربعين مليوناً الذين أتوا إلى أمريكا في القرنين التاليين لذلك. ولكن التأثير اللغوي للمهاجرين الأوائل كان حاسماً. إذ جاءت غالبيتهم الساحقة من بريطانيا وإيرلندا، وكانوا ناطقين بالإنكليزية، ولكن ليس بشكل حصري. ففي بداية القرن الثامن عشر، كان حوالي 8 بالمئة من السكان من أصل ألماني. ومع ذلك ففي العام 1794، رفض طلب المزارعين الناطقين بالألمانية في مقاطعة أوغستا بفرجينيا من مجلس النواب الأمريكي أن تترجم القوانين إلى الألمانية. وقد تصادف أن رئيس المجلس في ذلك الحين، وهو ف. آ. ك. موهلنبرغ كان هو نفسه ألمانياً، ولكنه رفض دعم الطلب(*).

(*) وقد تحول ذلك إلى الأسطورة الزاعمة بأنه عند إحدى النقاط كادت الألمانية تعلن لغة رسمية للولايات المتحدة الأمريكية.

فقد ظلت الألمانية ثاني أكبر لغة للمهاجرين (بنسبة 25 في المئة) أثناء القرنين التاسع عشر

ومنذ العام 1820، كان الناطقون بالإنكليزية أقلية بين المهاجرين، بنسبة 43 بالمئة(*). ولكن رغم أن المهاجرين قد أنشؤوا هنا وهناك مجتمعات يستطيع الكثيرون فيها أن يفهموا لغة أجنبية معينة، فإن الولايات المتحدة كبلد - ولعلها قد استمدت ذلك من الموقف البريطاني التقليدي - حافظت بتصميم على أحادية لغتها الإنكليزية. وعلى الرغم من الفرصة الكبيرة لتأسيس بلدات ومدن جديدة حتى نهاية القرن التاسع عشر تماماً، فقد ظلت الإنكليزية مقبولة في كل مكان كلغة عامة في هذه المجتمعات الجديدة عند نشوئها عندما كان المستوطنون يتجهون إلى الغرب.

فلماذا إذن جاءت الأغلبية الساحقة من مستعمري أمريكا الشمالية من بريطانيا في هذين القرنين الأولين؟ فبعد كل شيء، لم تكن بريطانيا هي الأولى في تأسيس موطئ قدم على السواحل الأمريكية الشرقية: فإن كيبك قد تأسست كعاصمة لفرنسا الجديدة في العام 1608، في وقت تأسيس جيمس تاون في فيرجينيا تقريباً. وكانت هولندا الجديدة قد بدأت في قلعة فورت ناسو في أعالي نهر الهدسون في العام 1617، قبل ثلاثة أعوام من استقرار الحجاج في ماساشوستس. ولمدة سبعة عشر عاماً (1638 - 1655) كانت هناك مستوطنة حتى للسويديين أطلقوا عليها اسم السويد الجديدة في خليج ديلاوير، في المنطقة التي ادعى ملكيتها الهولنديون.

إن الذي ميز البريطانيين هو رغبتهم في الاستقرار. فمنذ البداية كانوا يبحثون عن ملكية فردية للأرض يستطيعون العيش عليها وتنشئة أسرة. فمهما

والعشرين. وكانت هناك موجة من المهاجرين الناطقين بالالمانية في أوائل القرن التاسع عشر، وكانوا يميلون في وقت مبكر إلى التجمع في بنسلفانيا. ووصلت الموجة إلى ذروتها في سبعينيات ذلك القرن عندما قيل بأن ستمئة ألف من سكان الولاية الأربعة ملايين كانوا يتكلمون الالمانية في حياتهم اليومية، ومعهم مئة وخمسون ألفاً آخرون خارج الولاية. ولكن الاستخدام الشعبي للألمانية بشكل علني في الأماكن العامة تضرر كثيراً بنشوب الحرب العالمية الأولى. وهي باقية اليوم في مجتمعات طائفية صغيرة فقط مثل المينونايت والآميش (آدامز 1990، الفصل السابع).

(*) كانت هذه النسبة تتألف من 14 بالمئة من المملكة المتحدة، و13 بالمئة من إيرلندا، و12 بالمئة من كندا، و4 بالمئة من الفليبين وواحد بالمئة من جامايكا. وبعد الألمانية التي كانت نسبة الناطقين بها 25 بالمئة، كانت اللغة التالية هي الروسية (10 بالمئة) فالهنغارية (4 بالمئة) والصينية (3 بالمئة) (وزارة العدل الأمريكية، كتاب الإحصاء السنوي للعام 1998، مقتبساً في كتاب رايت المنشور في العام 2000، ص 291).

كان بعد مسافة أسفارهم، فإنهم كانوا يتطلعون إلى ذلك بموجب الشروط نفسها والعقائد الدينية نفسها التي قبلوها في موطنهم الأصلي. وكان من شأن العوائل الكبيرة الناتجة عن ذلك أن تنمو لتكرر هذه الدائرة. وهكذا كان الحافز ثم القدرة المثبتة على القيام بذلك بعد أول جيلين، عندما نشأت المنافسة مع قوى أوروبية أخرى، معناها أن البريطانيين كانوا حاضرين دائماً بأعداد أكبر؛ فترجم ذلك إلى جيوش منتصرة، ولكن ذلك كان يعني أيضاً أنهم سرعان ما يحتلون أي مكاسب إقليمية يحصلون عليها.

وجاءت الصدمة مع الهولنديين بعد خمسين عاماً (انظر الفصل الحادي عشر: 'المتطفلون الهولنديون'، ص 543). ففي ذلك الوقت، كانت شركة الهند الغربية الهولندية قد استمرت من ثقافة تبادل المراكز التجارية بفراء القندس عن طريق دعم البنية التحتية للمزارع، إلى تقديم إيجارات شبه إقطاعية لرجال الأعمال الأغنياء تسمى النزل - وهذا نظام مصمّم لجلب مستعمرين في إرساليات من مجموعات مكونة من خمسين شخصاً. ولم تنطلق المستوطنات إلا بعد إلغاء هذه المعاملة التفضيلية للأثرياء وعندما بدأت الشركة تقدم للميكانيكيين والمزارعين حرية المرور لأنفسهم ولأسرهم، فارتفع عدد المهاجرين من ألفين في العام 1648 إلى عشرة آلاف في العام 1660. ولكن الأوان كان قد فات. فقد كان المستوطنون بطيئين في الاستجابة لتحريض الشركة لهم على حماية ممتلكاتهم وتعزيزها، وظل الجيران البريطانيون متفوقين عددياً على الهولنديين بنسبة أربعة إلى واحد[35]. وفي العام 1664، عندما وصل العقيد نيقول مع أربع سفن حربية في إحدى عمليات الحرب الإنكليزية - الهولندية على نطاق عالمي، استسلمت هولندا الجديدة بدون قتال. فتغير مالكوها مرة أخرى بعد ذلك بتسعة أعوام، ولكنها عادت إلى ملكية بريطانيا في العام 1674 للمرة الأخيرة. وفي المفاوضات التجارية المحضة التي أنهت الحروب، فإن مستعمرة أمريكية شمالية مشهورة بشكل رئيسي بأحزمة فراء القندس كانت أقل قيمة من مزارع قصب السكر في سورينام، ومزارع جوزة الطيب في رون آيلاند بجزر الهند الشرقية.

ومن المؤكد أن العلاقة الفرنسية مع أمريكا الشمالية كانت جوزة يصعب

كسرها أكثر من ذلك. فالسياسة الفرنسية كانت لها بداية تختلف عن السياسة الإنكليزية تماماً. فقد كانت هناك قيادة قوية من الملك الفرنسي وبلاطه لتأسيس المستوطنات، ومع ذلك كان لها نهج يميل إلى حرية العمل التجاري في حياة المستوطنين عند وصولهم، ما دامت شحنات الفراء مستمرة في الوصول إلى فرنسا. فكانت النتيجة اختلافاً فارقاً في البروز الاجتماعي، بحيث صار الشباب العازبون يذهبون وحدهم إلى فرنسا الجديدة ليصبحوا رجال حدود متوحشين، ويستقروا - إذا استقروا فعلاً - لتأسيس بيوت مع النساء المحليات، فينجبون أطفالاً هجناء لن يعتبروا أنفسهم فرنسيين على الإطلاق، وقد لا يتكلمون اللغة أصلاً. وهذا نهج جعل الفرنسيين أكثر شعبية لدى هنود أمريكا الحمر، الذين كانوا في أغلب الأحوال يقفون إلى جانبهم في الحروب مع الهولنديين والبريطانيين. ولكن هذا اتضح أنه لم يكن الدعم الذي يحتاج إليه الفرنسيون. كما أن التركيز الاقتصادي على أرباح الصيد - من الفراء - لم يعوض عن الاستقرار الواسع النطاق على الأرض وتدجينها، والاعتماد على العرائس المحليات، وبالتالي حرمان عدد من الرجال الأصليين من الذرية طبعاً - مما يعني أن عدد الأهالي الأصليين لم يكن يزيد. وقد حاولت الحكومة الفرنسية أن تتدخل في العملية في سبعينيات القرن السابع عشر بتقديم بنات فرنسيات للزواج، مع شيء من النجاح (انظر الفصل الحادي عشر: 'الفرانكوفونية'، ص 568). ولكن حتى هذا التدخل لم يستطع أن ينافس مع النمو الطبيعي للبريطانيين المتعطشين إلى الأرض.

وفي آخر الأمر كانت شروط السلام بعد حوالي قرن من الحرب العالمية، في معاهدة باريس في العام 1763، التي أنهت التدخل الفرنسي المباشر في أمريكا. ولكن لو كانت أمريكا الشمالية وحدها هي ميدان القتال وهي الجائزة لكان من الواضح منذ زمن طويل من الذي سيفوز. ففي ذلك الوقت كان هناك عشرون بريطانياً في مقابل كل فرنسي واحد(*). ولو كانت هناك حاجة للبرهنة على أهمية الرجال على الأرض لجاءت هذه البرهنة من المتمردين الإنكليز بعد

(*) أكثر من 1.2 مليون بريطاني، في مقابل خمسة وخمسين ألف فرنسي.

ذلك بعشرين عاماً في الولايات الثلاث عشرة، فهم الذين دحروا الجيش البريطاني كما لم يستطع الفرنسيون أن يفعلوا على الإطلاق. وكنتيجة نهائية، فإن تَشَرّبَ الأرض الكندية بالموالين الإنكليز بسبب الحرب ومعه الهجرة اللاحقة التي استبعدت فرنسا كان معناه أن الرعايا البريطانيين والناطقين بالإنكليزية قد جعلوا الفرنسيين أقلية بشكل مباشر تماماً فيما كان مستعمرة خاصة بالفرنسيين.

وجاءت آخر عقبة تعيق سيطرة الناطقين بالإنكليزية في أمريكا الشمالية من الداخل الأول إلى المنافسة الاستعمارية، وهو إمبراطورية إسبانيا. ورغم أن إسبانيا وإنكلترا كانتا على خط تصادم ملكي أثناء القرن السادس عشر، فإن القراصنة الإنكليز قد تابعوا هذا الصدام بشكل غير رسمي في البحر الكاريبي أثناء القرن السابع عشر. فقد كانت الحكومتان البريطانية والفرنسية قد أعطت كل منهما الأخرى مجالاً واسعاً أثناء القرنين السابع عشر والثامن عشر. وتبادلتا السيطرة على فلوريدا جيئة وذهاباً فيما بين العامين 1763و1783. وكانت المحاسبة ستأتي بين الدولتين اللتين خلفتاهما وهما: الولايات المتحدة الأمريكية، وجمهورية المكسيك، بشأن تكساس.

ومرة أخرى فقد كانت نزعة الإنكليز إلى الاستقرار هي التي أدت إلى نشوء المشاكل. فعندما اكتشف موسى أوستن ترسّبات من الرصاص حصل من إسبانيا على إذن بجلب ثلاثمئة عائلة أمريكية إلى أراضيه، التي كانت حتى ذلك الحين منطقة عقيمة قفراء ـ وذلك في العام 1820، قبيل منح إسبانيا الاستقلال للمكسيك. وبحلول العام 1832، بلغ عدد سكان مستعمراته حوالي ثمانية آلاف نسمة، مع آخرين أوصلوا عدد السكان الإنكليز إلى عشرين ألفاً. وفي العام 1833 حدث انقلاب في المكسيك أوصل أنطونيو لوبيز دي سانتا آنّا إلى الحكم، وأدى إلى انقلاب السياسة المكسيكية إزاء تكساس: فرد الإنكليز على ذلك بإعلان استقلالهم. وبينما كانوا يصدون المحاولات المكسيكية لاستعادة السيطرة على الإقليم، استنجدوا بالعمّ سام. واضطروا إلى الانتظار طيلة حكم إدارتين غير متعاطفتين، ولكن في العام 1845 وافق الرئيس بولك على ضم تكساس. فحصل بولك على الحرب التي أرادها. فتمكن من الحصول بقوة السلاح على ما كان قد

حُرِمَ من الحصول عليه بالشراء، وهو امتداد شريحة من الأرض المكسيكية على المحيط الهادئ إلى الشمال من نهر جيلا، بما في ذلك كاليفورنيا. وهكذا برمية جبارة امتدت حدود الولايات المتحدة 'من البحر إلى البحر اللامع' [أي من الأطلسي إلى الهادئ] ثم إن موجة جديدة من الاستيطان الأنغلوساكسوني الجماعي الكثيف رسخت المكسب، ولو أن الدافع في هذه المرة كان بإمكان الإسبان أن يقدروه كثيراً: فالمستوطنون في هذه المرة لم يكونوا مزارعين، بل باحثين عن الذهب في الاندفاعة الكبيرة في العام 1849.

إن كون مثل هذه المنطقة الشاسعة - أي جوهرياً ما هو الآن الغرب الأمريكي كله - يمكن أن يتبدل أصحابها بهذه البساطة والخفة، تظهر مدى سطحية وجود الإسبان في قرون سيطرتهم الثلاثة على هذه الأراضي. ومثلما كان الفرنسيون قد توصلوا إلى تسوية بدون تدخل مفروض مع الأهالي الأصليين من خلال تجارة الفراء في كندا ولويزيانا، كذلك أقام الإسبان أخف أنواع الاتصال مع رعايا الملك الإسباني في كاليفورنيا من خلال قيامهم في آخر الأمر بزرع سلسلة من بعثات التبشير الكاثوليكية على طول الساحل من العام 1769 إلى العام 1823. ومع ذلك فإن الزراعة، وتربية المواشي، مع تجارة هامة لتصدير الجلود، والقرون والشحوم الحيوانية قد ازدهرت فترة قصيرة بإشراف "آباء الكنيسة". وفي السنوات الأخيرة تماماً، بعد استقلال المكسيك في العام 1821، كانت هناك حركة لاستيطان أكثر تجذراً، ومن العام 1834، كانت هناك موجة من منح الأراضي للمكسيكيين الذين صاروا يعرفون باسم "الكاليفورنيين"، وهم مستوطنون غير دينيين سرعان ما اكتسبوا سمعة وحشية. أما من الناحية السياسية، فإن التحول إلى السيطرة الإنكليزية كان فورياً تقريباً.

ومن الناحية اللغوية، تبين أن الوضع كان أكثر ازدواجية. إذ يبدو أن أولئك "الآباء الكنسيين والكاليفورنيين" كان لهم تأثير كبير. واليوم، بعد قرن ونصف قرن من الاستيلاء على فلوريدا، وتكساس، وشمال المكسيك، لا يزال عشرون مليون مواطن أمريكي، أي 7.3 بالمئة من سكان الولايات المتحدة يعتبرون الإسبانية لغتهم "الأولى" وليست الثانية[36]. وبما أن كل هؤلاء تقريباً يعيشون

في واحدة من الولايات التسع(*) التي كانت مناطق إسبانية بشكل جزئي على الأقل (ومجموع سكانها 83 مليون نسمة)، فإن الوضع اللغوي هناك هو أن شخصاً واحداً من كل أربعة لا يزال أسعد الناس عندما يتحدث بالإسبانية. صحيح أن المستوطنين الإنكليز الوافدين طيلة خمسة أجيال أو ستة قد رسخوا سيطرة الإنكليزية، ولكن المجتمع الناطق بالإسبانية ليس آخذاً بالتلاشي، بل إنه ينمو.

منظور متغير ـ الإنكليزية في الهند

إن اللسان الذي هو مفتاح كنوز القلب والعقل، والذي يعمل كوسيط لتقوية روابط المجتمع، وكذلك كعضو يكشف عن أسرار القلب، يبدو أنه محروم من وظيفته بين الهندوستانيين والإنكليز. فمعظم السادة الإنكليز لا يفهمون لغة رعاياهم، ولا أحد من الرعايا يفهم كلمة من الإنكليزية. ويتبع ذلك طبعاً أنه عندما يكون هناك جماعة من الهنود لهم عمل مع حكامهم الإنكليز، فإنهم يظهرون مثل عدد الصور الموضوعة على الجدار ...

سيد غلام حسين خان، 1789[37].

ليست لي معرفة بالسنسكريتية أو العربية. ولكنني عملت ما أستطيع لتشكيل تقدير صحيح لقيمتهما. فقرأت ترجمات لأشهر الأعمال العربية والسنسكريتية. وتحدثت هنا وفي الوطن مع رجال متميزين بإتقانهم الألسنة الشرقية. وأنا مستعد لأخذ الثقافة الشرقية حسب تقييم المستشرقين أنفسهم. ولم أجد أحداً منهم يستطيع أن ينكر أن رفاً واحداً من مكتبة أوروبية جيدة هو أكثر قيمة من الأدب المحلي للهند والجزيرة العربية كليهما، بل إن التفوق المتأصل في الأدب الغربي يعترف به اعترافاً كاملاً كل أعضاء المجتمع المؤيدين لخطة الثقافة الشرقية(**).

توماس بابينغتون مكولي (في الخامسة والثلاثين من عمره)، 1835[38]

(*) هذه الولايات هي أريزونا، وكاليفورنيا، وكولورادو، وفلوريدا، ونيفادا، ونيومكسيكو، وتكساس، ويوتاه، ووايومينغ.

(**) [ليس وراء مثل هذا الحكم القاطع الشامل الكاسح سوى التعصب الأعمى والجهل المطبق ـ المترجم]

مشروع مغامرة تجارية

هناك صدفة عميقة ومثيرة للاهتمام تجمع بين الإنكليزية والبرتغالية. فقد حظيت كل منهما بانتشار واسع ودائم كلغة يومية للمستعمرين في الأمريكتين. ولكن كلاً منهما قد توسعت حول آسيا الجنوبية كذلك. فصارت تستخدم بين الأهالي المحليين أكثر من استخدامها من قبل البحارة والتجار والجنود القلائل نسبياً، الذين جاؤوا إلى هناك من أوروبا. ولقد رأينا أن الخصائص الجوهرية لانتشار اللغة في الأمريكتين كانت هي رغبة الناطقين بها بالاستقرار وإنشاء عائلات كبيرة، وبالتالي إزاحة الأهالي الأصليين، الذين كانوا منتشرين بشكل رقيق غير كثيف، والذين كانوا أقل تقدماً من الناحية التقنية. ولا بد أن هناك شيئاً آخر قد ثبتت دلالته في جنوبي آسيا، التي كانت موطناً لسكان شديدي الازدحام معتادين على التجار الأجانب منذ زمن طويل، وحيث لم يكن أحد سوى القلة من القادمين يستقر بشكل دائم. بالنسبة للإنكليز على وجه الخصوص فإن الهند ومستعمراتهم الأخرى كانت دائماً أماكن لمستقبلهم المهني، وليس لمعيشتهم - أي أنها أماكن لمناصبهم وليس لموطن عائلاتهم. فقد ظلوا متحفظين، وبعيدين في سيطرتهم أكثر من الغزاة الآخرين. ومع ذلك فإن المفارقة هي أن البريطانيين قد تركوا أثرهم على هذه الأجزاء من آسيا في لغتهم بشكل دامغ لا يمحى كما يظهر حتى الآن، أكثر من أي غازٍ معروف من سابقيهم.

غير أن التشابه مع البرتغالية ينتهي عند النظر في أدوار اللغات في التجارة. فعندما حصلت شركة الهند الشرقية الإنكليزية على قواعدها الحاسمة الأهمية في الهند - مدراس (1654)، وبومباي (1668)، وكلكتا (1690) -(*) كانت اللغة المشتركة الفعالة لا تزال هي البرتغالية إلى حد كبير، 'وهي اللغة التي يتعلمها معظم الأوروبيين أولاً لتأهيلهم للتحدث فيما بينهم بصورة عامة، ومع مختلف سكان الهند الأصليين'[39]. فقد خزنت الشركة مئتي معجم برتغالي.

(*) وبصدفة مثيرة للاهتمام، فإن المدن التي نمت حولها، واستمرت حتى صارت مراكز الحكومة الأولى في الهند البريطانية وقد أعيدت تسميتها في تسعينيات القرن العشرين فأصبحت تدعى تشيناي، ومومباي وكولكاتا، على التوالي.

وكان في مكتب كل فرع أو 'معمل' خبير لغوي مختص بالبرتغالية، حتى ولو كتب المدراء في لندن إلى بومباي يطلبون ترجمة محلية للأعمال الورقية، لأن 'البرتغالية المحكية في الهند كانت تختلف كثيراً عن تلك المحكية في البرتغال'[40]. وبشكل غير رسمي، وفإن كثيراً من الأعمال التجارية كانت تتم بلغة يسميها الهنود 'الفرنجية'، وهي رطانة غير رسمية من خليط من اللغات الأوروبية. فعند نهاية القرن السابع عشر كان للبرتغالية، والدانمركية، والفرنسية والهولندية، والإنكليزية معامل ضمن دائرة نصف قطرها عشرة أميال في منطقة البنغال. وكانت الإنكليزية في ذلك الحين قابلة للاستعمال بين وكلاء الشركة فقط، فلم تصبح أبداً لغة مشتركة للتجارة. ومن الناحية العملية، فإن الأعمال التجارية كانت تتم عادة عن طريق توسط تاجر ثنائي اللغة يعرف باسم "بانيان" في كلكتا وبومباي، وباسم "دوباش" في مدراس(*).

ومن الواضح أيضاً أنه حتى القرن التاسع عشر كانت المعاملات ذات المستوى الأعلى مع السلطات الهندية، وقبل كل شيء مع الحكومة المغولية، كانت تتم بالفارسية(**). وكان باستطاعة وكلاء الشركة أن يكتسبوا الطلاقة بها، رغم احتفاظهم بخدمات "المنشئ"(***)، وهو الذي يجمع بين وظائف المترجم الفوري، والمترجم العادي، وأمين السر، ومدرس اللغة الخصوصي. وكان المثال النموذجي لهذه الخبرة هو أنطوان - لويس هنري بولييه، وهو الفرنسي المستخدم في الشركة الإنكليزية، وصديق وارن هيستينغز الذي نشر مراسلاته

(*) بلغة غوجارات فانييان، أي 'التجار'، وبالهندي دوبهاشيا، أي 'ثنائي اللغة' (يول وبورنيل 1986 [1903]).

(**) كان المغول قد جاؤوا باللغة الفارسية إلى الهند في القرن السادس عشر كلغة للثقافة، رغم أن مجنديهم السباهيين الهنود العاديين كانوا يتكلمون التركية. وهناك شيء غريب يشبه الغزو النورماني لإنكلترا هنا، حيث تؤدي الفارسية في الهند دور النورمانية في إنكلترا، بينما تقوم لغة دلهي العامية الدارجة والتي تطورت إلى 'الأوردو' تحت تأثير الفارسية، بدور اللغة الإنكليزية. وبهذا المعنى فإن الأوردو، التي تعني حرفياً 'لغة المعسكر' كانت صناعة لغوية متميزة أوجدها المغول في الهند. وكانت هي، وليس الإنكليزية، التي قدر لها أن تصبح اللغة الكبرى، في الجيش البريطاني في الهند (انظر الفصل الخامس: 'السنسكريتية لم تعد وحدها'، ص 318).

(***) الكلمة عربية معناها 'المعلم، والمؤلف' (يول وبورنيل 1986 [1903]).

الفارسية في أواخر القرن الثامن عشر. وقد أظهره ذلك باعتباره شخصاً شديد الكفاءة في أسلوب البلاط الذي كان مستعملاً مع تلك اللغة[41].

وعلى هذا الأساس، فإن السؤال الحقيقي هو: كيف انتشرت الإنكليزية في الهند على الإطلاق فيما وراء مجتمع 'الكُتابّ' (أي الموظفين) المستخدمين في شركة الهند الشرقية، والأفواج الإنكليزية التي تخدم في البلد؟ فبعد كل شيء، كان الوضع متطابقاً تقريباً مع وضع شركة الهند الشرقية الهولندية، حيث قامت الفارسية بدور يشبه دور اللغة الملايوية، والأوردو بدور يشبه دور لغة جاوة، وظلت البرتغالية بدورها نفسه. وكما رأينا، فبعد أن قام الهولنديون بمحاولة نصف جادة لتعليم لغتهم، اكتفوا بالأمر الواقع اللغوي كما هو. فلم يأخذ أحد باللغة الهولندية سوى الحكام الاستعماريين في شركة الهند الشرقية الهولندية (انظر الفصل الحادي عشر: 'المتطفلون الهولنديون'، ص 543). ولو تم اتباع هذا النمط، لبقيت الفارسية هي اللغة العامة المشتركة المفضلة في الهند حتى يومنا هذا.

وكان هناك حافز آخر في أذهان البريطانيين جفّف أي حماسة لاستخدام لغتهم الأم بشكل أوسع في الهند. وكما قال عضو في البرلمان البريطاني في العام 1793: 'لقد فقدنا مستعمراتنا في أمريكا بإضعاف تعليمنا هناك، فلسنا بحاجة إلى عمل ذلك في الهند أيضاً'،[42]. فقد كانت تلك الخسارة ما تزال طازجة في الذاكرة في أواخر القرن الثامن عشر: وكان اللورد كورنواليس هو نفسه القائد الذي استسلم لجورج واشنطن في العام 1781، وقد تابع عمله بعد ذلك ليصبح حاكماً عاماً للبنغال من العام 1786 إلى العام 1793. فمجتمعات المستوطنين الأوروبيين إذا صارت مترسخة فقد تتبع المثال الأمريكي، وتبحث عن الاستقلال وفق شروطها الخاصة بها. وحسب هذه المجادلة بالحجج، يجب أن تبقى الهند بلداً أجنبياً، رغم إبقائه مفتوحاً للأعمال التجارية البريطانية بشكل يعتمد عليه، ويجب أن لا تكون موطناً بريطانياً جديداً. فإن ريتشارد ولزلي الحاكم العام من العام 1797، كتب إلى رئيس مجلس السيطرة في العام 1799:

... وفيما يتعلق بسلطات طرد الأوروبيين من الممتلكات البريطانية في الهند ... فإن تلك السلطات تبدو لي ما تزال محدودة أكثر من اللازم.

إن عدد الأشخاص [غير العاملين في خدمة الشركة] المقيمين في هذه المقاطعات، وكذلك في جميع أجزاء الإمبراطورية البريطانية في الهند، يتزايد يومياً. وبين هؤلاء يوجد كثير من الشخصيات اليائسة من البؤس، أو من عار سلوكهم في أوروبا. وحياتهم المهنية بشكل رئيسي ... هي في كلكتا، أقل فروع القانون، في إقامة الدكاكين والحانات، أو أماكن المتعة العامة، أو في رئاسة تحرير الصحف ... ومن بين جميع هؤلاء الأشخاص، وخاصة قبيلة محرري الصحف، كانت تسود أقوى وأجرأ روح يعقوبية ... [نسبة إلى الجماعة السياسية الإرهابية المتطرفة التي عرفت باسم اليعاقبة خلال الثورة الفرنسية].

وفي مدراس، فإن الشر الناتج من الأوروبيين غير العاملين في خدمة الشركة كان أعظم من ذلك. فمستشارو الحاكم الإقليمي المغولي، وكذلك أدواته الرئيسية في معارضته للحكومة البريطانية، وفي قمعه لرعاياه أنفسهم كانوا من بين هذه الطبقة من الأوروبيين بشكل حصري تقريباً[43].

فالاستيطان البريطاني في الهند إذن، عدا عن الأنشطة التي تشرف عليها الشركة مباشرة، لم تكن السلطات البريطانية تنظر إليه حتى على أنه مرغوب فيه. فمن العام 1757 إلى العام 1865 تابعت "شركة الصاحب" (حسبما كانت تُعْرفَ) عمليات توسيع سيطرتها المالية، والسياسية، والعسكرية، عبر البنغال إلى دلهي أولاً، ثم عبر هضبة الدكن، وأخيراً إلى معظم ما يسمى الآن الهند، وباكستان، وسريلانكا وبورما. وكان الشيء الوحيد الذي لم تكد الشركة تنشره على الإطلاق هو هيئة من الناطقين بلغة مدرائها أنفسهم.

البروتستانتية والربح، والتقدم

وفي آخر الأمر، فإن نشر الإنكليزية الواسع لم تبدأ به شركة الهند الشرقية، بل المبشرون البروتستانت البريطانيون(*). فقد كانت الشركة بشكل عام تشك في

(*) إن مقارنة هذا مع دور المبشرين في نشر اللغة الإسبانية يشير إلى مفارقة أخرى. فكما هو ملاحظ

تورط المبشرين في ممتلكاتها، وللأسباب نفسها التي جعلت الشركة تتجنب الأوروبيين الآخرين ـ وبناءً على أدلة أفضل. فالتمرد الدامي لقوتها الهندية في فيلور، قرب مدراس، كان مرتبطاً بالتصرفات العنيفة الصاخبة لشخص يدعى كلوديوس بوكانان ضد عدم المبالاة الهندوسية بالمسيحية ومطالبته باستخدام 'كل وسيلة لقهر روح الاحتقار هذه لدى رعايانا من الأهالي الأصليين'، وفي العام 1808، اضطرت الشركة بسرعة إلى كبت منشور أصدرته مطبعة البعثة التبشيرية المعمدانية في سيرامبور، قرب كلكتا 'موجه إلى الهندوس والمحمديين'[44]. فقد كانت الهند دائماً منطقة خطرة للضغط لتوكيد نقطة دينية، وكانت الشركة حساسة لهذا الخطر، الذي يمكن أن يكون شديد الخطر على التجارة.

ومع ذلك، فقد كان هناك رجال كنيسة في مستوطنات الشركة منذ أول أيامها. وفي وقت مبكر، كانوا مضطرين للعمل باللغة البرتغالية، مثل الجميع، وهذا مطلب ظهر بصراحة في تجديد لائحة الشركة في العام 1698[45]. ولكن الشركة سرعان ما راحت تؤسس مدارس باللغة الإنكليزية، للأطفال بالدرجة الأولى ـ وكانوا في الغالب أيتاماً ـ من نسل موظفي الشركة ومستخدميها: في مدراس في العام 1715، وفي بومباي في العام 1719، وفي كلكتا في العام 1731. وقد تزايد عدد طلبة تلك المدارس، ثم تكاثر وتضاعف. فصارت مراكز لاكتساب الإنكليزية، وألحقت بها مطابع ومكتبات. وصار واضحاً للجميع أن تأثير الإنكليزية وقوتها ينموان بشكل كثيف طيلة القرن الثامن عشر: فلم يكن غريباً أن تزداد محاولات الآباء الهنود لتمكين أطفالهم من الحصول على معرفة باللغة الإنكليزية ليشتركوا في هذا النمو. وفي حوالي العام 1780 قام المهراجا في رامناد (راماناتابورام) بإرسال ابنه إلى مدرسة شوارتز التبشيرية في تانجور (ثانجافور) إلى الجنوب من مدراس. وكانت مدارس شوارتز تتلقى دعماً من

في الفصل العاشر ('الحل الكنسي: اللغات العامة'، ص 503)، فإن البعثات التبشيرية الإسبانية قد عملت على تأخير انتشار الإسبانية، بينما كانت الدولة تميل إلى تشجيع نشرها. وفي البرازيل، كان شيء مشابه قد حدث (انظر الفصل الحادي عشر: 'رواد البرتغالية' ص 540). ولكن في الهند البريطانية كانت تأثيرات الكنيسة والدولة - أو احتكار الدولة - على عكس ذلك تماماً.

جميع القوى الرئيسية في المنطقة: من الشركة الإنكليزية، ومن المسلم حيدر علي، ومن نائب آركوت، ومن مهراجا تانجور الهندوسي[46].

وسرعان ما استجاب السوق. فعند نهاية القرن الثامن عشر، كانت المدارس تتكاثر وتنمو في جميع مراكز القوى الإنكليزية، ولكن حول كلكتا بشكل خاص. وقد شارك في ذلك المعلمون، بمن فيهم 'الجندي المحطّم، والتاجر المفلس، والمبذّر المدمّر'[47]، من أجل الحصول على المال في أغلب الحالات، ولكن كان من بين المشاركين سيدات بريطانيات محترمات، مثل السيدة ميدلتون من دينابور، خارج مدينة باتنا، وحتى المبشر المعمداني المشهور وليام كاري من سيرامبور. وكانت المدارس تستهدف الهنود الأثرياء، وكانت أجور التعليم فيها عالية. ومع ذلك كانت مواقف المعلمين أبوية. وقد كتب الأب المبجّل د. ماكينون، في اليوم الأول من سنة 1801، رسالة إلى ضابط عسكري كشف فيها دوافعه:

> ... لم أستطع أن أكتشف ذرة من الذوق الكلاسيكي، أو من معرفة حقيقية في علم الرياضيات، أو مبدأ أخلاقي أو ديني أصيل في أي صف، أو عند أي فرد من الجنس البشري مولود ومتعلم في هندوستان أو حتى في آسيا كلها. ويبدو لي أن هذا العرق الداكن مدفون في الظلام، ويتحرك كآلية صرفة وخالية تماماً من تلك العواطف التي ترفع كرامة جنسنا وتعطيه نبلاً يعطينا الحق في ادعاء القرب من الآلهة.
>
> وقد انحصرت كل تكهناتي في آخر الأمر في اقتراحين بسيطين:
>
> 1 ـ إن أهالي الهند الأصليين لا يمكن تنويرهم عن طريق لغاتهم، ولا بالكتب الموجودة الآن بتلك اللغات.
>
> 2 ـ ولذا فيجب تنويرهم باكتساب لغات أخرى، وبقراءة كتب قادرة على تشكيل ذوقهم وتعليمهم معرفة مفيدة وثابتة، وكذلك مبادئ أخلاقية ودينية أصيلة.
>
> ومنذ العام 1787، بعد أن قدّمت موعظة في عيد الميلاد على ميدان معركة كدجاه ... قررت بشكل جدي أن أجرب تأثير محاولاتي الضعيفة. فجمعت قواعد نحوية للغة الإنكليزية كتبت قواعدها وتعليماتها باللغة الفارسية وحروفها الأبجدية. ونشر الكتاب في العام 1791 على نفقة مالكي مجلة

> كلكتا، السادة هارنغتون وموريس الذين تحملوا المخاطر. وتحملت أيضاً الصعوبة والنفقات لطبع نسخة من القواعد بلغة البنغال، ولكن تلك النسخة لم تطبع.
>
> وسوف تبتسم عندما أذكر لك أنني عندما قررت بذل ذلك الجهد قدمت طلباً رسمياً للحكومة للسماح لي بإدخال ضوء النهار إلى أهالي هذا البلد. ولكنني أذكر ذلك كي ألاحظ وأشهد مع الامتنان والعرفان أنني في كل طلباتي العامة والخاصة من الحكومة والأفراد لقيت بالتأكيد تشجيعاً واستحساناً.
>
> وصحيح تماماً أن هذه الجهود لم تنتج أثراً مرئياً حتى الآن رغم أنني أستطيع إعطاء أمثلة على أفراد من الأهالي حصلوا على معرفة كفوءة باللغة الإنكليزية بمساعدة كتابي ..[48].

وعندما تم إخضاع أعمال شركة الهند الشرقية أكثر فأكثر لتدقيق لندن وسيطرتها، أصبحت هذه المواقف قوة دافعة للسياسة ـ وهي مواقف شارك فيها مصلحون مؤثرون بارزون مثل تشارلز غرانت، ووليام ويلبرفورس، وجيمس ملْ. وفي العام 1813 قرر مجلس العموم 'أنه من واجب هذا البلد تعزيز مصالح السكان الأصليين للممتلكات البريطانية في الهند وسعادتهم، وأنه ينبغي اتخاذ إجراءات لإدخال معرفة مفيدة في صفوفهم، وتحسين ديني وأخلاقي'[49].

وفي القرن التاسع عشر، عندما توسعت وتصلبت السيطرة السياسية البريطانية في الهند، فإن أخلاقية حرية العمل التجاري في التعامل مع الأهالي الأصليين، التي كان يتبعها احترام قوي متبادل راح يحل محلها على نحو متزايد اعتقاد لا حياء فيه بالتفوق الأوروبي، مشفوعاً بجهدٍ يرى أن من الواجب إخراج هذا 'الجنس الداكن' من الظلمات برفعه إلى المستوى الأخلاقي والفكري للبريطاني الذي يخاف الله(*).

وتضمن قانون لائحة شركة الهند الشرقية البريطانية للعام 1813 نصاً على 'تخصيص مبلغ لا يقل عن مئة ألف روبية سنوياً لإنفاقها على إحياء الأدب

(*) [لاحظ أيها القارئ العزيز هذه النظرة العنصرية الاستعلائية ـ المترجم].

وتحسينه وتشجيع أهالي الهند المتعلمين، وعلى إدخال وتحسين معرفة العلوم بين سكان الأراضي البريطانية في الهند...' ولكن عدم ثقة الشركة بأولويات المبشرين كانت لا تزال فعالة في هذه المرحلة. فالتمويل كان يهدف بصراحة إلى 'تعزيز العلم الشرقي والغربي... كثقل مقابل يعتمد عليه كموضع خلفي منعزل للحماية من طوفان المشاريع التبشيرية'[50]. وقد اتضح أن قرار كيفية صرف هذا المبلغ الصغير كان حاسماً بالنسبة لتاريخ اللغة في شبه القارة الهندية.

فقد كانت رغبة المبشرين في إعطاء الأولوية للغة الإنكليزية تحشد طيلة الوقت دعماً من الحكومة البريطانية، ومن الهنود أنفسهم في آخر الأمر. وفي أواخر القرن الثامن عشر كانت الشركة قد استجابت للتحريض الشعبي وأسست عدداً من الكليات المتنفذة لتمكين الهنود من التحصيل التعليمي: للمسلمين في كلكتا ومدراس في العام 1781، وللهندوس في كلية بنارس السنسكريتية في العام 1791، وللإداريين المدنيين القادمين من بريطانيا في كلية فورت وليام بكلكتا في العام 1800. وكان فيها جميعاً صفوف يجري التعليم فيها بالإنكليزية: فكلية فورت وليام لم يكن فيها أي شيء آخر. وفي أوائل القرن التاسع عشر، أقيمت مؤسسات تلقائية أيضاً على أيدي مواطنين بارزين، وخاصة الكلية الهندسية في كلكتا في العام 1817 'لرعاية اللغتين البنغالية والإنكليزية على وجه الخصوص، ويلي ذلك اللسان الهندوستاني ....؛ ثم الفارسية، إذا توفرت الرغبة فيها، كواجب زخرفي لله'[51]. وكان رام موهان روي، الذي يعتبر رئيسها العبقري، أستاذاً باحثاً في السنسكريتية والعربية، ولكنه صاحب الصوت في دعواته لزيادة الوصول بشكل أكبر للغة الإنكليزية:

> ...إننا نفهم أن الحكومة في إنكلترا قد أمرت بتخصيص مبلغ سنوي كبير يكرس لتعليم رعاياها الهنود. ونحن ممتلئون بآمال متفائلة بأن هذا المبلغ سيصرف على استخدام سادة إنكليز ذوي موهبة وثقافة لتعليم أهالي الهند الرياضيات، والفلسفة الطبيعية، والكيمياء، والتشريح وغيرها من العلوم المفيدة التي أوصلها أهالي أوروبا إلى درجة من الكمال رفعتهم

> فوق سكان أجزاء العالم الأخرى ... ونحن نجد الآن أن الحكومة تقوم بتأسيس مدرسة سنسكريتية تحت إشراف معلمين هنود لإعطاء معرفة كالتي من الواضح أنها سائدة في الهند[52].

وتم تأسيس عدة كليات حكومية أيضاً، لفروع العلم الشرقية على الأغلب، ولكن تحت ضغط من لندن تم تقديم مغريات متنوعة للكليات الشرقية لتحسين تعليم اللغة الإنكليزية فيها. ثم في أوائل ثلاثينيات القرن التاسع عشر جاءت الانخفاضات الكارثية في التسجيل لدراسة كل المواضيع غير الإنكليزية. وفي المقابل تزايد اندفاع التسجيل للدراسة بالإنكليزية، وفي العام 1834 عقد اجتماع عام للاحتجاج ضد رعاية اللغات الكلاسيكية، ولصالح تفضيل الإنكليزية واللغات العامية الدارجة[53].

وفي هذا السياق، فإن اللجنة العامة للتعليم العام اتخذت قرارها الذي طال تأخيره حول كيفية صرف الشركة لمبلغ المئة ألف روبية سنوياً لتعزيز الأدب والمعرفة. فعملت على عكس تفضيلها السابق للتعليم بلغة الأهالي الأصليين (وترجمة النصوص العلمية الأوروبية إلى السنسكريتية، والعربية والفارسية)، والذي كانت تتبع فيه تلميحات اللائحة، فقررت في 7 آذار/مارس 1835 'أن الهدف الأعظم للحكومة البريطانية ينبغي أن يكون ترويج العلوم والآداب الأوروبية بين أهالي الهند، وأن كل الأموال المخصصة لأغراض التعليم من الأفضل أن تستخدم في التعليم الإنكليزي وحده'[54].

ورغم أن هذا القرار كان ما يزال مثار نزاع وخلاف آنذاك، فقد ثبت أنه مصيري(*). ذلك أن عدد مدارس الحكومة التي تعلم بالإنكليزية قد زاد بأكثر من

(*) كانت هذه هي الفترة نفسها التي خطت فيها الدراسات الأكاديمية البريطانية لتاريخ الهند خطوات عملاقة. فبين العامين 1835و1837، نجح جيمس برينسيب، مدير دار آساي لسك العملة وأمين سر جمعية البنغال الآسيوية، في فك رموز الكتابة البرهمية لمخطوطات الإمبراطور آسوكا التي تعود إلى القرن الثالث قبل الميلاد، وبذلك كشف مغاليق القصة المركزية لسلالة موريا (انظر الفصل الخامس 'شخصية اللغة السنسكريتية'، ص 270). وكان شقيق جيمس هنري طوبي، الذي كان آنئذٍ أمين سر الحكومة، قد تكلم ببلاغة ضد محضر وقائع جلسة ماكولي، بل لعله قد سربها، مما قدم أساساً لعريضةٍ من ثمانية آلاف مسلم وعريضة أخرى من الهندوس. وقام جيمس في مقال افتتاحي في مجلة الجمعية الآسيوية بشجب 'إجراء معادٍ للهند كلها سحب تعاطف الحكومة مع الأهالي الأصليين المثقفين في البلد، وأصدر حكماً بإدانة أدبها والتخلي عنه' (آلن 2002، ص 166-167).

الضعف في غصون ثلاث سنوات من صدور قانون تعليم الإنكليزية[55]. وكانت تلك هي البداية فقط. فعندما تأسست الجامعات في المدن البريطانية التقليدية الكلاسيكية الثلاث، بومباي وكلكتا ومدراس في العام 1857، كانت الإنكليزية هي لغة التعليم فيها. وكان هذا التفضيل التعليمي قد فرض في الوقت نفسه في العام 1835 بتعليمات بإحلال الإنكليزية محل الفارسية كلغة رسمية للدولة، ووسيلة التعبير في محاكم القانون العليا، مع استخدام المحاكم الأدنى للغة المحلية الدارجة[56]. وحتى ذلك الحين كانت السنسكريتية والعربية والفارسية تحتفظ بقيمة نصف عملية، بالمقارنة مع بقاء اللاتينية في أوروبا في بواكير العصر الحديث. ومثلما حدث للاتينية في عصر التنوير، فإن هذه اللغات الثلاث انحصرت في مكانة كلاسيكية صرفة، كرموز للتراث وليس كأدوات للتعليم والبحث. أما الإنكليزية، التي لم تكن أكثر من رمز للطبقة الأجنبية الحاكمة، فقد راحت تعمل كوسيلة لفتح شبه القارة كلها لتقاليد ثقافية خارجية.

وهكذا تم التوصل إلى توازن لغوي أساسي، فاستمرت الإنكليزية في الهند حتى استقلالها العام 1947. ومن الناحية العملية، فعلى الرغم من أن الإنكليزية مصنفة الآن كلغةٍ رسمية مشاركة في الهند، بمكانة هي من الناحية النظرية أدنى من مكانة اللغات الهندية الدارجة الثماني عشرة، فقد ظلت ثابتة صامدة حتى يومنا هذا. فالإنكليزية عالمية شائعة في جنوب آسيا كلغة مشتركة للمثقفين. ومن الصعب معرفة عدد الناس الذين يعرفونها في الحقيقة. فالتقديرات على مدى الأعوام العشرين الماضية تتراوح من ثلاثة بالمئة إلى ثلاثين بالمئة من الهنود، ولكن أقل من ذلك في بلدان المنطقة الأخرى[57].

ومن التأثيرات الطويلة الأمد التي كانت لصالح الإنكليزية، وخاصة في الجنوب، غياب أي لغة مشتركة أخرى مفيدة: فممتلكات بريطانيا كانت دائماً تشمل جنوب البلاد، وقد استمرت لتشمل شبه القارة كلها، ولكن الفارسية والأوردو الهندية لم تكونا مقبولتين أبداً إلى الجنوب من الحدود المغولية القديمة. فإذا كان للهند، ولا سيما الهند الديمقراطية، أن تبقى موحدة، فإنها بحاجة إلى لغة مشتركة تبدو محايدة، أو على الأقل قامعة للغات الأخرى بصورة متساوية.

النجاح، رغم أفضل النوايا

رغم أن بريطانيا بالتأكيد لم تغزُ جنوب آسيا 'في نوبة شرود الذهن' كما قال سيلي، فإن انتشار لغة بريطانيا الذي أعقب الغزو كان عفوياً تقريباً.

فقد حدث نجاح الإنكليزية هنا بعمليات مختلفة كلياً عن العمليات التي جرت في أمريكا الشمالية. وكانت تلك العمليات مختلفة حتى عن تلك التي جعلت البريطانيين والهنود على اتصال في المقام الأول. ففي أمريكا الشمالية، انتشرت الإنكليزية مع بقائها منفصلة تماماً عن الأهالي المحليين، إذ أزاحتهم ببساطة مع مرور الوقت وتزاحم الأعداد والاحتشاد بكثرة ساحقة في المستوطنات. أما في جنوب آسيا فقد انتشرت الإنكليزية بتجنيد النخب المحلية. ورغم مخاوف الشركة المبكرة، فإن المهاجرين الناطقين بالإنكليزية لم يصبحوا كثيرين أبداً، ولم يبقوا طويلاً أبداً، وقد غادروا على وجه العموم.

وكان من القوى الجوهرية الدافعة للتجنيد النفوذ الثقافي المتميز، الذي كان من الخواص البريطانية على وجه التحديد عند حلول القرن التاسع عشر. فجاذبيات هذا النفوذ كانت تصل إلى أبعد من الحوافز المبكرة للحصول على الأفضلية في الحكومة أو في الأعمال التجارية. ومع ذلك فلم يكن النفوذ الثقافي هو الذي جعل الهند بريطانية، بل حيوية الشباب في رجال شركة الهند الشرقية. وكانت النقطة الوحيدة التي توقف عندها هؤلاء المغامرون الخياليون(*) بخط أحمر هي الامتناع عن التفكير بالتدخل في الديانات المحلية، أو في أدوار اللغات التي كانت تبدو وثيقة الارتباط بها. فالمبشرون البروتستانت، رغم كثرة شكوكهم ووساوسهم، لم تكن لهم هذه النقطة. وحول هذه النقطة بالذات كسبوا الجدل تدريجياً في بلدهم الأم. واضطر رجال الشركة في آخر الأمر إلى المغامرة بخط إرشادي توجيهي لتثقيف الأهالي. وتخيل دهشتهم عندما اكتشفوا أن هذا الخط لا يسبب الشغب، بل أثبت أن له شعبية بين عامة الناس (المفكرين). فقد وجد الباحثون الهنود أن الإنكليزية تقدم لهم بالفعل وصولاً إلى عالم من الفكر يتجاوز

(*) الشعار: 'فتاة ومئة ألف روبية كل يوم' (دالريمبل 2002، ص 33).

التقليد الهندي في مجال القانون، والعلوم الفيزيائية والاجتماعية، والسياسة، والأدب، وحتى الدين، هنا وهناك.

والواقع أن خيبة الأمل الوحيدة شعر بها المبشرون البروتستانت الذين فازوا بالمجادلة اللغوية والثقافية، وقبلوا الشعبية السارة والمرضية للتعليم باللغة الإنكليزية، ومع ذلك فشلوا في العثور على كثير من المعتنقين لعقيدتهم بين الناطقين بالإنكليزية الجدد. وعلى وجه العموم، فإن المحتوى الدنيوي للثقافة الأوروبية الحديثة قد أثبت أنه جذاب للهنود تحت الحكم البريطاني أكثر بكثير من أي وصول جديد وسهل إلى البروتستانتية. وبهذا المعنى فإن المبشرين الذين تنبؤوا بثقةٍ كبيرة بأن 'التعليم الإنكليزي الكامل سوف يخرب العقيدة الهندوسية كلياً'،[58] كانوا مخدوعين.

وقد بقيت الإنكليزية في جميع أنحاء المنطقة، حتى بعد زمنٍ طويل من تفكك الغزو الذي جعل حضورها ممكناً. ومن المحتمل أن تستمر الإنكليزية بالانتشار هنا، أو بالأحرى تشتد كثافتها، مع نمو التعليم العالي (وغيره من المؤثرات الثقافية، كما سنرى). ولهذا السبب، فإن نمو الإنكليزية في الهند وباقي آسيا الجنوبية يقدم نموذجاً لأي انتشار محتمل للغة في المستقبل أفضل بكثير مما يقدمه تاريخ الإنكليزية في أمريكا الشمالية.

العالم تجتاحه عاصفة

'أمريكا الشمالية تتكلم الإنكليزية'.

جواب منسوب للمستشار الألماني بسمارك
عندما سأله صحفي في العام 1898 أن يعرّف الحدث المحدّد لعصره

اكتمال الإمبراطورية

إن هاتين الوسيلتين لنشر الإنكليزية ـ أي ما يمكن أن نسميه الإزاحة الأمريكية للهنود الحمر وإعادة تثقيف الهنود ـ قُدّر لواحدة منهما أو الأخرى أن تطبق عبر

الإمبراطورية البريطانية كلها عندما راحت تتوسع حتى شملت ربع الكرة الأرضية. ومما له دلالة أن الطريقة المختارة لنشر اللغة كانت لها علاقة بالمناخ بقدر ما لها علاقة بالسكان: فالمستوطن النموذجي - والأكثر تأثيراً ونفوذاً في آخر الأمر - هو المزارع. والمزارعون الأوروبيون في الحقيقة لا يعرفون سوى محاصيل المنطقة المعتدلة. ففي المستعمرات المعتدلة، في أستراليا ونيوزيلندا قبل كل شيء، أصبح المستوطنون البريطانيون على المدى الطويل هم أغلبية السكان، وهكذا صارت الإنكليزية هي اللغة الرئيسية. أما في المناطق الاستوائية، حيث كانت الأنشطة البريطانية محصورة في الحكومة والتجارة والاستغلال التجاري، فقد كان انتشار الإنكليزية أكثر سطحية، فأثر على النخب المحلية وعلى الذين كانوا على اتصال بمراكز القوى البريطانية، عن طريق التعليم المدرسي والتجنيد التدريجي للأهالي المحليين في الحكومة والمشاريع البريطانية: فكان هذا هو النمط في معظم المستعمرات الآسيوية - بورما، وهونغ كونغ، والملايو، وسنغافورة، وساراواك، وبروني، وصباح.

وفي بلدان الإزاحة جانباً(*)، كان النشاط متركزاً في القرن التاسع عشر. فكان من المقدر أن أستراليا كانت تؤوي ثلاثمئة ألف نسمة (يتكلمون مئتي لغة) عندما بدأ الإنكليز يصلون إليها في تسعينيات القرن الثامن عشر. وما إن حل العام 1890 حتى كان عدد الأهالي الأصليين قد هبط إلى خمسين ألفاً (مع بقاء 150 لغة). وكانت تجمعاتهم مركزة دائماً في الجنوب الشرقي، تماماً كالناطقين بالإنكليزية اليوم، أي حيث يوجد الماء. وفي الفترة نفسها، تزايد الناطقون بالإنكليزية من أربعمئة ألف في العام 1850 إلى أربعة ملايين عند حلول العام 1900[59]. وكما في الأمريكتين، فإنه بعد السنوات القليلة الأولى، لم تبذل أي محاولة جادة لإيواء الأهالي الأستراليين الأصليين، دع عنك تعلم أي واحدة من لغاتهم، وحتى المبشرون لم ينجحوا في إقامة اتصال غير مدمر معهم.

وفي نيوزيلندا، فرغم أن البريطانيين وجدوا في العام 1770 أنه كان فيها

(*) إن القانون الإنكليزي، خاصة كما هو مطبق في أستراليا، له معنى شبه مرادف لهذه الحالة، وهو ما يطلق عليه باللاتينية اسم "تيرانوليوس"، التي تعني حرفياً: 'الأرض التي لا يملكها أحد'.

شعب واحد يتكلم لغة واحدة هي الماوري، فقد كانت هناك في آخر الأمر قصة مماثلة. وبعد عقد معاهدة ويتانجي بين الماوري وبريطانيا في العام 1840، انطلقت الهجرة البريطانية فتضاعفت اثنتي عشرة مرة في غضون السنوات العشر التالية، من ألفي مهاجر إلى خمسة وعشرين ألفاً عند حلول العام 1850. وفي نصف القرن التالي تضاعف عددهم ثلاثين مرة أخرى، وصارت لديهم أسر كبيرة وطوفان لا يتوقف من المستوطنين الجدد. وبحلول العام 1900 كان العدد قد وصل إلى سبعمئة وخمسين ألفاً. وفي القرن التاسع عشر نفسه، انخفض عدد الماوري من مئة ألف إلى اثنين وأربعين ألفاً. وربما كانت لديهم ميزة معرفة البلد لمدة ألف عام قبل وصول البريطانيين، ولكنهم لم يستطيعوا مقاومة الأمراض الأوروبية، وقبل كل شي فإن إنتاجية حيوانات المزارع الأوروبية من الخراف والأبقار تطورت وازدهرت على مراعي المنطقة المعتدلة. وقد قاتل الماوري بضراوة مريرة، ولكنهم أزيحوا جانباً، كما أزيح أهالي أستراليا الأصليون(60).

وقد عاود الأستراليون الأصليون وسكان الماوري النهوض في أواخر القرن العشرين، ولكن نسبتهم في مواطنهم نفسها ظلت ضئيلة. فهناك مئة وسبعون ألفاً من الأستراليين الأصليين أي أقل قليلاً من واحد بالمئة (منهم سبعة وأربعون ألفاً - أي 0.03 بالمئة - لديهم بعض الإلمام بلغتهم الأصلية)، وهناك الآن ثلاثمئة وعشرة آلاف من الماوري - أي ثمانية بالمئة من سكان نيوزيلندر - منهم سبعون ألفاً يتكلمون لغة الماوري، أي 1.8% من السكان. وهم ببساطة مطوقون بالناطقين بالإنكليزية في أستراليا (18.5 مليوناً) ونيوزيلندا (3.8 ملايين)، وهم لا يزالون يصارعون من أجل البقاء(61).

وعلى مبعدة إلى الشمال، فإن الناطقين بالإنكليزية لم يبدؤوا بالمجيء بشكل جدي إلى جنوب شرق آسيا إلا في العام 1786، عندما حصلت شركة الهند الشرقية الإنكليزية على بينانغ، وهي جزيرة صغيرة على مبعدة من كيده، لاستخدامها إلى حد كبير كقاعدة من أجل إصلاح السفن(*). وكان اللورد كورنواليس لا يزال حاكماً

(*) كانت الشركة قد حاولت في وقت مبكر (1612-1622) أن تقيم وكالات لتجارة التوابل في باتاني (في

عاماً في ذلك الوقت، وكان شديد الحرص ـ كعادته دائماً ـ على تجنب الاستيطان، وعلى تجنب الانخراط في السياسة قبل كل شيء. ولكن كل شيء أدى إلى شيء آخر. فأشفق البريطانيون على الهولنديين وأخذوا يدبرون لهم أمور إمبراطوريتهم من العام 1795 إلى العام 1814، بينما كان الفرنسيون يحتلون عاصمتهم. وفي تلك الأثناء حصلت بينانغ على حياة تجارية خاصة بها، فكسفت مركز توزيع السلع التجاري القديم في ملقا. ذلك أن السير ستامفورد رافلز، نائب الحاكم البريطاني، الذي كان يعارض إعادة المستعمرات الهولندية، قد شعر بأن بينانغ، الواقعة خارج المضايق، لم تكن مناسبة تماماً لحماية التجارة المزدهرة بسرعة (بالأفيون إلى حد كبير) بين الهند والصين. وعن طريق عمل دبلوماسي من الخداع والشعوذة، نصّب هناك سلطاناً ملايوياً كان الهولنديون قد أهانوه واستخفوا به، وبذلك تمكن من الحصول على سنغافورة لبريطانيا في العام 1819. وكانت عندئذ مستوطنة صغيرة نسبياً. ولكن سكانها ازدادوا فوراً إلى خمسة آلاف، وبدأت سنغافورة تنمو لتصبح مركزاً جديداً كبيراً لتوزيع السلع.

وتلت ذلك مؤامرات وحروب اضطلع بها البريطانيون دائماً وعيونهم على الفرصة التجارية الرئيسية، فنجم عن ذلك امتداد السيطرة البريطانية إلى بورما كلها (1853 ـ 1886)، والملايو (1883 ـ 1895) والمنطقة الشمالية من بورنيو (1888). ولتتويج الكعكة بطبقة أخرى، حصلت بريطانيا على قاعدتها الخاصة بها في الصين، وهي هونغ كونغ (1848، مع توسيعها في العامين 1860 و1898). وكانت النتيجة اللغوية هي توسيع استخدام الإنكليزية في مجال القانون والإدارة في جميع هذه الأنحاء من جنوب شرق آسيا وشرق آسيا. وسرعان ما رأى الآخرون إلى أي اتجاه تهب الرياح اللغوية، فبدأت صحيفة "ستريت تايمز" في سنغافورة تطبع في العام 1845 (بتوزيع 386,000 نسخة على سكان وطنيين عددهم ثلاثة ملايين) وكذلك "ساوث تشاينا مورنينغ بوست" في هونغ كونغ في العام 1903 (بتوزيع مئتي ألف نسخة على سكان تعدادهم ستة ملايين).

هالماهيرا وفي أقصى شرق أندونيسيا) وآيوتهايا، عاصمة سيام آنذاك، ولتجارة القصدير في العام 1669 في كيده في شبه جزيرة الملايو، ولكن الهولنديين كانوا يطردونهم دائماً في كل مرة.

وفي هذه الأيام، فإن معرفة الإنكليزية لا تزال هي علامة النخبة في جميع الدول التي خلفت المستعمرات البريطانية. وكثيراً ما يكون من الصعب معرفة نسبة الناس الناطقين بها. وقد صارت مكانتها مثاراً لخلافات ونزاعات سياسية في الملايو منذ استقلالها في العام 1957؛ فهناك سياسة فعالة لجعل الملايوية لغة التعليم القياسية الموحدة. ولكن ـ كما هي الحال في الهند ـ فإن الإنكليزية لها شعبية عند الأقليات الكبيرة، وهي هنا الناطقة بالصينية والتاميلية، والشاعرة بأن تلك الشعبية تهددها. وفي بورما (أو ميانمار ـ كما هو اسمها القديم) فإن استعمال الإنكليزية اليوم لا تعترف به المصادر الحكومية. ومستقبل الإنكليزية غامض في هونغ كونغ التي أعيدت إلى أرض البر الصيني منذ العام 1997، ولكن استطلاعاً جرى في العام 1992 أشار إلى أن أكثر من ربع السكان لديهم شيء من الإتقان للإنكليزية. وفي سنغافورة أجري استطلاع في العام 1975 فكانت نتيجته أن ما يقدر بـ27 بالمئة من الذين تجاوزت أعمارهم أربعين عاماً يتقنونها، ولكن نسبة متقنيها تصل إلى 87 بالمئة من الشباب بين سن الخامسة عشرة والعشرين[62].

وفي إفريقيا، لم تكن هناك مستوطنات أوروبية كبرى حتى القرن التاسع عشر، عدا مستوطنات الهولنديين والبرتغاليين. ولكن عندما أدى التنافس المندفع للحصول على مستعمرات إلى نفاد الأراضي المتاحة، فإن انتشار الإنكليزية في الممتلكات البريطانية قد تبع نمط إعادة التثقيف بدلاً من إزاحة الأهالي جانباً. كما أن الأجزاء المعتدلة المناخ من جنوب إفريقيا اجتذبت بالفعل أعداداً كبيرة من المستوطنين البيض، ولكن الأعداد أخذت بالتلاشي حالما امتدت المنطقة البريطانية إلى الشمال. كما أن السكان من البانتو، الذين كانوا حديثي عهد بالوصول، تمسكوا بأرضهم جيداً. ونتيجة لذلك نجد 3.5 ملايين من الناطقين بالإنكليزية في جنوب إفريقيا، أي 9.1 بالمئة من السكان. ولكن حتى تجميع الإنكليز والأفريكان معاً، حيث إن مليوناً منهم مزدوجو اللغة بشكل متبادل، لن يجعل نسبتهم تزيد على 22 بالمئة. وعلى مبعدة إلى الشمال، فإن نسبة الناطقين الأصليين بالإنكليزية ـ وهم المواطنون البيض بصورة جوهرية ـ هي أقل من ذلك بكثير، فهم 3 بالمئة في زيمبابوي، و0.5 بالمئة في زامبيا. والإنكليزية كلغة

ثانية لها أهمية أكبر في شرق إفريقيا، فهناك عدد قليل من متكلميها الأصليين، ولكن 5 بالمئة من التانزانيين، والكينيين، والأوغنديين يستخدمونها، رغم توفر السواحيلية كلغة مشتركة بديلة. وهذا بالطبع رقم شديد الشبه ببلدان آسيا التي قبلت إعادة التثقيف: وفي جميع هذه البلدان، كما في كثير من البلدان الآسيوية، تبقى الإنكليزية كلغة رسمية.

والمنطقة الكبرى الأخرى من المستعمرات البريطانية القديمة في إفريقيا هي غربها، من الكاميرون على امتدد الساحل إلى نيجيريا، وغانا، وسيراليون، وغامبيا. وفي هذه المنطقة أيضاً هناك ليبيريا، وهي بلد آخر له ارتباطات مع النطق بالإنكليزية، ولكن في هذه الحالة عن طريق تأسيس هذا البلد كمكان احتياطي للعبيد المحررين من الولايات المتحدة الأمريكية. ولهذه البلدان كلها تواريخ مختلفة ولكنها تتشارك في أن مناخاتها كانت دائماً لا تشجع استيطان البيض. وهي كلها تحدد الإنكليزية كلغة رسمية. ولكن يظهر أنه لا تتكلمها فعلاً إلا أقلية صغيرة نسبياً من سكانها، في حدود 5 بالمئة، مرة أخرى. وبما أن هذه البلدان كلها متعددة اللغات إلى حد كبير، فإن هناك وسيلة أخرى للتواصل على نطاق واسع هي اللغات الهجينة المختلطة ذات الأساس الإنكليزي، مثل النيجيرية المبسّطة الدارجة في نيجيريا، والكريو في سيراليون، والإنكليزية الليبيرية في ليبيريا[63].

وكانت آخر منطقة كبرى لامتداد الإنكليزية هي الجزر المتناثرة عبر المحيط الهادئ. وقد جاء الاستعمار الإنكليزي إلى هذه المنطقة متأخراً بعد الاستعمار الفرنسي (انظر الفصل الحادي عشر: 'الفرانكوفونية'، ص 571) وهذه الجزر تشمل: فيجي في العام 1874، وجزر جيلبرت وإيليس في العام 1892، وجزر سولومون في العام 1893، وتونغا في العام 1900. وكان النصف الغربي من غينيا الجديدة محجوزاً للهولنديين، ولكن ألمانيا وأستراليا ادعتا ملكية الجزء الباقي منها في العام 1884. ومثل العديد من المستعمرات الألمانية في إفريقيا، فإن هذه المستعمرة وقعت في الأيدي البريطانية بعد هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الأولى. ولكن الأيدي في هذه الحالة كانت استرالية بالذات. وفي الوقت

نفسه فإن النصف الألماني (الغربي) من جزر ساموا كان من حصة نيوزيلندا. وفي جزر نيوهابريديس (فانواتو) تقاسم المبشرون الإنكليز والزارعون الفرنسيون السيطرة من العام 1887.

ولم يكن لدى الاستراتيجيين الاستعماريين البريطانيين كبير اهتمام بأي من هذه المناطق، عدا شيء من التنافس الوطني مع النفوذ الفرنسي. فقد تُرك أهل هذه الجزر عموماً للرحمة المتقبلة لصيادي الحيتان والرخويات البحرية، وقاطعي أخشاب الصندل، وزارعي قصب السكر، والقطن، وجوز الهند، والمبشّرين طبعاً. وكانت إحدى النتائج هي التجنيد المؤقت لعصابات كبيرة من جزر البحار الجنوبية للعمل في المزارع في كوينزلاند وفيجي وساموا حيث تعلموا التواصل بإنكليزية مختلطة دارجة. وكانت النتيجة الأخرى موجة واسعة من الهنود إلى داخل فيجي للانخراط في زراعة قصب السكر واستخراجه، بحيث صار ما يقرب من نصف السكان يتكلمون لهجة هندية. ولكن النتيجة الطويلة الأمد لزحف كل هؤلاء العمال المستأجرين هي تحول جنوب المحيط الهادئ إلى منطقة أساسية للغات المختلطة الهجينة ذات الأساس الإنكليزي، وهناك اثنتان منها مقبولتان الآن كلغتين رسميتين، إذ إن توك بيسين هي لغة بابوا غينيا الجديدة، التي استقلت منذ العام 1975. وبيسلاما هي لغة فانواتو (التي كان اسمها ذات مرة نيوهابريديز) المستقلة منذ العام 1980. وهذه اللهجات الهجينة المختلطة مختلفة جداً عن الإنكليزية التي نشرها المبشرون. وعلى أية حال، فإن المجتمعات الناطقة بهذه الإنكليزية هي أقليات صغيرة جداً في بلدانها، كما يتوقع المرء في الأماكن التي انتشرت فيها اللغة بإعادة التثقيف.

وقد جاءت الإنكليزية إلى جزر المحيط الهادئ أيضاً من الاتجاه المعاكس. فمنذ أوائل القرن التاسع عشر كانت هاواي ميناءً شتوياً لصيادي الحيتان. ومن العام 1820 صارت بؤرة اهتمام لخمس عشرة مجموعة من المبشرين من نيو إنغلاند. وكان رجال الأعمال الأمريكيون نشيطين هناك أيضاً على نحو متزايد ولعلهم كانوا يبحثون عن حدود جديدة لتطبيق 'المصير الظاهر' لبلدهم؛ وكانوا هم المستفيدين الرئيسيين من تقسيم الأراضي الذي تم تنظيمه بين العامين

1848 و1850. وقد صمد استقلال هاواي لفترة قصيرة، متوازناً بين المصالح المتنافسة لبريطانيا، وفرنسا، والولايات المتحدة الأمريكية. ولكن الضغط الأمريكي لم ينحسر. وقد تم التوصل إلى اتفاقية خاصة للتبادل في العام 1875. وأسقط النظام الملكي في العام 1893، وفي العام 1898 قامت الولايات المتحدة الأمريكية بضم أرخبيل جزر هاواي بكامله.

وفي العام 1896 كان أحد القوانين الأولى لجمهورية هاواي، التي تشكلت لوقت قصير بعد سقوط النظام الملكي، يتطلب استخدام الإنكليزية كوسيلة للتعليم لمدة لا تقل عن نصف اليوم المدرسي، ولكن من الناحية العملية لم يعد يسمح باستخدام لغة هاواي على الإطلاق. وفي ذلك الجيل توقف انتقال تلك اللغة من الأب إلى أطفاله توقفاً تاماً. وقالت جدة لحفيدتها قبل أول يوم لها في المدرسة:

> تعلمي جيداً لغة البيض. ولا تعتمدي على لغتنا، فليس فيها أي قيمة. إن مستقبل رفاهية المرء يعتمد على إتقان لغة الناس الأجانب(64).

ويبدو هذا عملية إعادة تثقيف شديدة القسوة على نحو خاص. ولكن الواقع هو أن هاواي ينطبق عليها نموذج الإزاحة جانباً: فعند حلول العام 1996، عندما كان عدد السكان مليونين ومئتي ألف نسمة، لم يكن فيهم من أهل هاواي الأصليين سوى 18.8 بالمئة، ونصف هؤلاء كان لديهم خمسون بالمئة من الأسلاف من أهل هاواي الأصليين. وفيما عدا جزيرة نيهو الصغيرة، فإن كل شخص على الجزر هو ثنائي اللغة على الأقل في الإنكليزية. والغالبية الساحقة لا تعرف أي لغة أخرى.

وفي العام 1898 نفسه، انتزعت الولايات المتحدة الفليبين وغوام بالقوة من إسبانيا في فورة من العربدة الاستعمارية (انظر الفصل العاشر: 'القانون: عبر المحيط الهادي'، ص 519)، وبعد ذلك بعام، فرض الأمريكيون أيضاً حلهم الخاص بهم لنزاع طال أمده على ساموا، فاستولوا على النصف الشرقي من ذلك الأرخبيل. وتبع ذلك أربعون عاماً من الراحة اعتادت فيها هذه المناطق الجديدة على صوت الإنكليزية. ولكن في السابع من كانون الأول/ديسمبر من

العام 1941 أدى هجوم على بيرل هاربور، في هاواي الأمريكية، إلى اندلاع حرب المحيط الهادئ مع اليابان. وفي نهاية الحرب، بعد أن تعرفت أمريكا على جانب غير منعش بالتأكيد من هذه الجزر كميدان قتال، وجدت الولايات المتحدة نفسها مالكة لكل المستعمرات اليابانية في ميكرونيزيا. ورغم أنها لم تعد مستعمرات بعد سبعينيات القرن العشرين، فقد أبقت كلها على علاقات وثيقة مع الولايات المتحدة. وأصبحت الإنكليزية هي اللغة المشتركة في المحيط الهادئ. ولكن الإنكليزية ليست لغة الأغلبية في أي مكان آخر خارج هاواي، وأستراليا، ونيوزيلندا.

عجب فوق عجب

إن هذا الفصل، مثل كل الفصول التي سبقته، قد ركز بشكل رئيسي حتى الآن على التطورات السياسية التي نشرت اللغة. ولكن هناك شيئاً آخر كان يعمل لصالح الإنكليزية، في القرنين الأخيرين على الأقل، وبصورة متزايدة مع مرور عقد وراء عقد من السنين. وقد شوهدت لمحة من هذا الشيء في ملاحظة رام موهان روي في العام 1823 التي طالب فيها بالوصول إلى التعليم بالإنكليزية. '... فالعلوم المفيدة، التي أوصلها أهالي أوروبا إلى درجة من الكمال رفعتهم فوق سكان الأجزاء الأخرى من العالم....'.

إن الذي حمل المشروع البريطاني، وبالتالي لغته بشكل مباشر أو غير مباشر، حول العالم لم يكن هو فقط العدوان الواثق بنفسه، أو التفوق في القوة النارية، أو الوصول إلى رأس المال بلا منافس. فهذه الأشياء كلها لعبت دوراً، ولكنها نبعت من المكانة المذهلة لبريطانيا باعتبارها مركز الثورة الصناعية ومصدرها، وتعززت من هذه المكانة. وفي القرن التاسع عشر، عندما قبل الناس بحماسة إعادة التثقيف بالإنكليزية في جميع أنحاء العالم كما رأينا، كان من الواضح أن بريطانيا هي أغنى بلدان العالم وأكثرها حيوية في الحركة. وعلى حد قول أحد المؤرخين في خلاصة:

بين العامين 1760 و1830، كانت المملكة المتحدة مسؤولة عن ثلثي نمو إنتاج أوروبا الصناعي (ـ ب. بيروخ 1982)، وقد قفزت حصتها من إنتاج العالم الصناعي من 1.9 بالمئة إلى 9.5 بالمئة. وفي السنوات الثلاثين التالية، فإن التوسع الصناعي البريطاني دفع ذلك الرقم إلى 19.9 بالمئة، برغم انتشار التكنولوجيا الجديدة إلى بلدان أخرى في الغرب: 'إن المملكة المتحدة التي فيها 2 بالمئة من سكان العالم، أي 10 بالمئة من سكان أوروبا، يبدو أن لديها إمكانية في الصناعات الحديثة تعادل 40ـ45 بالمئة من إمكانية العالم، أي 55ـ60 بالمئة من إمكانية أوروبا (ـ ف. كروسيه 1982). كما أن استهلاكها للطاقة من المصادر الحديثة (الفحم، وفحم اللغنايت الحجري، والنفط) كان في العام 1860 خمسة أضعاف استهلاك الولايات المتحدة أو بروسيا/ألمانيا، وستة أضعاف استهلاك فرنسا، و155 ضعف استهلاك روسيا! وكانت وحدها مسؤولة عن خُمس تجارة العالم، ولكن عن خمسي تجارة البضائع المصنعة'[(65)].

ومع الغوص في حالة مثل هذه الحقيقة المذهلة ـ حتى ولو لم تكن الإحصائيات الكاملة متاحة آنذاك ـ فإنه ليس عجيباً أن الطلبة الهنود قد أعجبتهم الفوائد المادية للطرق البريطانية أكثر من المكافآت التي لا تفنى التي كان المبشرون البروتستانت يعدون بها. فنفوذ الإنكليزية في القرن التاسع عشر قد ارتفع إلى السماوات عن طريق العملية نفسها التي جعلت الفرنسية اللغة القيادية للثقافة الأوروبية طيلة العصور الوسطى وأوائل العصر الحديث. وكانت الفكرة عند الجذور هي: 'إذا كنت غنياً فكيف يمكنك أن لا تكون ذكياً؟'.

كان لدى فرنسا منحة طبيعية جيدة من الأرض الزراعية الخصبة وعمل وفير يمكن البناء عليه، ولكن بريطانيا كان لها رأسمال أولي متواضع تماماً. وفي أوائل القرن السابع عشر، عندما ظهر البريطانيون لأول مرة في جزر الهند الشرقية، وحاولوا أن ينخرطوا في تجارة التوابل، كانت مشكلتهم الرئيسية هي نقص البضائع التي يوجد عليها طلب محلي. أما الآن، بعد قرنين من التجارة، والخداع، وبناء السفن، والحروب، فإن رأسمالهم ونفوذهم أعطياهم وصولاً إلى أي شيء قد يرغبون فيه، وكما تبجح الاقتصادي ستانلي جيفونز في العام 1865:

> إن سهول أمريكا الشمالية وروسيا هي حقول حبوبنا، وشيكاغو وأوديسا هي أهراؤنا، وكندا والبلطيق هي غابات أخشابنا؛ وأستراليا تحتوي على مزارع خرافنا، وفي الأرجنتين والبراري الغربية لأمريكا الشمالية قطعان ثيراننا، وبيرو ترسل فضتها، وذهب جنوب إفريقيا وأستراليا يتدفق إلى لندن، والهنود والصينيون يزرعون الشاي لنا، ومزارع قهوتنا، وسكّرنا، وتوابلنا كلها في جزر الهند الشرقية والغربية ...[66].

إن بريطانيا، باعتبارها قوة، كانت ستكتشف أن بعض هذه القوى الأخرى، ولا سيما أمريكا الشمالية، لديها ميل إلى تحويل الشروط التجارية ضدها؛ ولكن ذلك لم يكن خسارة للمجتمع اللغوي الإنكليزي. بل إنه إذا حقق أي شيء، فقد كان ذلك الشيء كسباً صافياً عندما بدأ سكان أمريكا الناطقون بالإنكليزية يبحثون فيما وراء ممتلكاتهم ويستخدمون مواردهم في حقول خصبة، ومناجم منتجة، وسكان ذوي ثقافة عالية وكثيفة، لتنفيذ خطط من استنباطهم.

ووسط التباهي العام اللافت للأنظار بخلق ثروات متعاظمة بسرعة، كان هناك تزايد في قوة الاتصالات وسرعتها. فقد شهد القرنان التاسع عشر والعشرون تقدماً لم يسمع به من قبل، في مجال الاختراع أولاً، ثم في التطبيق السريع لأنظمة نقل الناس والبضائع إلى جميع أنحاء العالم. ولعل مما يثير الإعجاب أكثر هو التقدم الموازي الذي حصل باستخدام الإلكترونيات إلى حد كبير في أنظمة لنقل كل أنواع المعلومات وتخزينها. فالسنوات المئة والخمسون التي تلت العام 1830 تأخذنا من أول قاطرة سكة حديدية عبر القارب البخاري إلى أسواق النقل الجوي الكبيرة بالجملة، ومن البرق عبر الهاتف إلى الإذاعات العالمية بالراديو والتلفزيون، وكذلك إلى حالات الاقتراب من شبكات الحاسوب الفعالة. وفي الفترة نفسها، عثر على وسيلة لتخزين كل أنواع الأصوات، والوصول إليها واستعادتها في أي وقت، بما فيها الكلام، والموسيقى، والمشاهد المرئية والصور، ووجهات النظر في الأحداث والأعمال أثناء وقوعها. إن أي واحد من هذه الأشياء كان فيه إمكانية تحويل العالم في عصر أسبق؛ ولكن في هذا العصر، عندما تحققت أحلام الإنسانية بالقوى السحرية، فإن هذه الأشياء كلها جاءت معاً.

إن كل واحدة من هذه التقنيات تقريباً اخترعها ناطق بالإنكليزية ـ ستيفنسون، فولتن، رايت، بل، بيرد، إديسون ـ أو ربما ناطق بلغة أخرى اضطر إلى العمل في العالم الناطق بالإنكليزية، مثل ماركوني ورويتر. وحتى عندما لم يكن المخترعون ناطقين بالإنكليزية، فقد كان المطوِّرون والناطقين بها، مثل هنري فورد، أو صانعو الأفلام في هوليود، هم الذين أظهروا ما الذي يمكن عمله بالوسيلة الجديدة على نطاق واسع حقيقي. لنتأمل في ماكينة بنز الألمانية للاحتراق الداخلي، أو التصوير الضوئي الفرنسي والصور المتحركة، المنسوبين إلى روّاد طليعيين مثل داغير ولوميير. وكان هذا يعني حتماً أن الحديث الهام عن هذه المنجزات وعما يمكن عمله بها كان يجري بالإنكليزية قبل كل شيء. فبالنسبة للعلماء والمهندسين، ولكن بالنسبة لرجال الأعمال بشكل حاسم، كانت الإنكليزية هي اللغة التي تصاغ بها معرفة العالم. ومنذ أن أعطى الخط المسماري اللغة الأكادية وظيفة اللغة الدبلوماسية في الشرق الأدنى والأوسط لم تكن التكنولوجيا أبداً شديدة الفعالية إلى هذه الدرجة في نشر أي لغة. (انظر الفصل الثالث: 'الأكادية ـ تقنية تتغلب على العالم: نموذج من معرفة القراءة والكتابة»، ص 99).

إن جميع هذه الانتصارات فيما يسمى 'الاتصالات' تميل إلى تقليل آثار المسافات التي تستغرق وقتاً وتكلف جهوداً في العالم. ولكنها تميل أيضاً إلى تقليل الفوارق بين العالم عند تقديمه إلى أناس بعيدين في مناطق نائية. وبصورة حرفيه تماماً فإنها تجعل أوصافاً معينة للتجربة 'عامة ومشتركة' لأعداد من الناس متزايدة أكثر فأكثر. وهي تجعل الأعمال التجارية الإقليمية والدولية شيئاً روتينياً، وتتيح للاتصالات الدولية أن تشمل أعلى مستوىً من الموظفين، وتحوّل المقاصد البعيدة جداً إلى مواقع لزيارات قصيرة، بل لقضاء إجازات العطلة. ولكنها أيضاً توجد الصور والعبارات التي يحملها الناس في ذاكراتهم، من الإعلانات عبر الإمتاع إلى التعليم والتثقيف؛ ففي هذه الأيام لم يعد هناك نصوص كلاسيكية وأعمال فنية نتعلم أن نقدرها فحسب، بل صار هناك أيضاً سجعات كلاسيكية مقفاة، وإعلانات كلاسيكية، ومواد أدبية وفنية كلاسيكية متدنية

المستوى لا نستطيع إخراجها من رؤوسنا من أحد أطراف البلد أو العالم كله إلى الطرف الآخر: ومن المرجح تماماً أن تكون الكلمات التي نتذكرها بالإنكليزية، حتى ولو كنا من هنغاريا، أو بالي، أو جنوب إفريقيا، أو منغوليا.

وقد أتاحت تقنيات الاتصال الجديدة أيضاً إيجاد مؤسسات جديدة، مؤسسات توجد قبل كل شيء لصياغة الكلمات وتزيينها ونقلها. وهي تشمل الصحف، والمجلات، واستديوهات الأفلام، ودور السينما، وناشري الأغاني، وشركات التسجيل، ومحطات الإذاعة، وشركات الإنتاج التلفزيوني، ومصممي المواقع على الشبكات: ولا شك أن القائمة سوف تستمر لمدة طويلة في المستقبل. وضمن كل وسيلة هناك الإعلان، وهو الإنتاج الأعلى في أجهزة الإعلام اللغوية، الذي يعمل كنوع من التخصيب أو هرمون النمو، فيعزز التوزيع والمبيعات لكل هذه المنتجات اللغوية عن طريق محتواه الواضح الصريح، حتى عندما تؤدي مدفوعاته للقنوات الفضائية إلى تمكين وسائل الاتصال من تخفيض أسعارها والوصول إلى أماكن أبعد، كما أن الإعلان في الوقت نفسه هو منتج كبير للمادة اللغوية بحد ذاته. وليست أي واحدة من مؤسسات القرنين التاسع عشر والعشرين هذه قاصرة على اللغة الإنكليزية، ولكنها أصبحت متاحة بالإنكليزية أولاً. وقد بقيت الإنكليزية هي المنتج الأكبر.

وكما اكتشف البرتغاليون عندما اكتسبوا أول الأمر سمعة تجارية في المحيط الهندي، فإن اللغة الوطنية لا حاجة بها إلى البقاء محصورة بين مواطنيها. فالبرتغالية أصبحت لغة مشتركة للتجارة الدولية - بل وللكنيسة المسيحية - في جنوب وجنوب شرق آسيا طوال عشرة أجيال وأكثر، بعد زمن طويل من تراجع البرتغال نفسها أمام نفوذ الهولنديين والبريطانيين. وقد حدث الشيء نفسه للإنكليزية، ولكن على نطاق العالم كله وليس على نطاق أحد محيطاته فقط. وقد اكتشف أناس كثيرون في مختلف أنحاء العالم أنهم بحاجة إلى التعامل مع الناطقين بالإنكليزية إلى درجة أن تعاملاتهم راحت تتداخل. بل إن الذين ليست الإنكليزية لغتهم الأم، وحتى الذين ليست لهم أي علاقة مباشرة مع الناطقين بالإنكليزية، بدؤوا يستخدمونها فيما بينهم، لأنهم وجدوها مناسبة

لهم بطريقة صرفة. وحسبما يقول المثل الإنكليزي فإنه 'لا شيء ينجح كالنجاح نفسه'. وليس انتشار اللغة مستثنىً من هذا المثل. ففي القرن العشرين، حلت الإنكليزية محل الفرنسية كلغة المؤتمرات المعتادة. ولغة المرور الجوي كانت دائماً (شكلاً محدداً) من الإنكليزية - وليس هذا مدهشاً أو عجيباً، ربما لأن الطيران اختراع أمريكي. ولكن الإنكليزية صارت دائماً هي اختيار العالم كلغة دولية. وفي العام 1996 كانت التقديرات تقول إن 85 بالمئة من الروابط الدولية تستخدم الإنكليزية بصورة رسمية، و33 بالمئة منها لا تستخدم أي شيء آخر سوى الإنكليزية. وفي آسيا والمحيط الهادئ، فإن 90 بالمئة من المنظمات الدولية تعمل بالإنكليزية فقط(67).

ثم إن العالم الناطق بالإنكليزية، مع عينه الباحثة بصورة نموذجية عن فرص الأعمال التجارية، قد حوّل ذلك إلى مشروع يدر أموالاً. فتعليم اللغة الإنكليزية لم يعد مجالاً للتثقيف فقط، بل صار أيضاً صناعة خدمية وتجارة قائمة بحد ذاتها - كما كان الحال في تلك الأيام المبكرة في البنغال. وهذا التعليم يزدهر في كل بلدان العالم تقريباً. فإذا كانت اللغة في المحيط العام هي الإنكليزية، فلا بد أنها مكان جيد للطلاب للحصول على كثير من التدريب والممارسة. وإذا لم تكن كذلك فلا بد أن إتقانها مهارة بارزة من المرغوب فيه الحصول عليها. وقد لاحظ الفيلسوف البارز جيمس ملْ (1773 - 1836) ذات مرة أن الخدمة المدنية الإمبراطورية لم تكن أكثر من 'نظام هائل لراحة الطبقات العليا في بريطانيا العظمى في الهواء الطلق': ومن الممكن اعتبار تعليم اللغة الإنكليزية جواباً جديداً على المشكلة نفسها، ولو أن المؤهلات في الأرضية الخلفية، والجنسية الوطنية ليست الآن أقل قسوة ومتطلبات مما كانت عليه آنذاك.

إن رسم خريطة جغرافية لهذا الانتشار للإنكليزية أصعب من رسم خريطة توسع المستعمرات البريطانية. فهذا الانتشار في روحه نابع في تحدر مباشر من سياسة إعادة التثقيف التي أدخلها البريطانيون إلى الهند. ولكن الآلية تكاد تكون امتداداً تلقائياً محضاً، ما دامت اللغة - على عكس ما حدث في الهند - قد انتقلت مع حضور ضئيل جداً من أبنائها المحليين الناطقين بها كلغة أم. ولعلها أفضل

مثال على انتشار لغةٍ ما بسبب النفوذ المحض للثقافة المرتبطة بها. وقد أظهرت أمثلتنا السابقة هذه الإمكانية من حيث المبدأ، وكما في حالة المراسلة باللغة الأكادية بين البلاط المصري والبلاط الحثي في القرن الرابع عشر قبل الميلاد، واختيار الكمبوديين والجاويين زخرفة معابدهم بنصوص أدبية سنسكريتية في القرن الخامس الميلادي. أو عندما اجتاح المغول الهند من أفغانستان ففضلوا الفارسية كلغة لبلاطهم على لغتهم الأم التركية، في القرن السادس عشر. كما أن الرّواج الشعبي للفرنسية في أوروبا الشرقية في القرنين السابع عشر والثامن عشر ينبغي رؤيته تحت هذا الضوء. ولكن انتشار الإنكليزية كان أول مرة تصبح فيها لغة ما وثقافتها مرغوباً بهما في الوقت نفسه لدى شعوب في جميع أنحاء العالم، وهذا حدث فريد من نوعه فعلاً.

وبطريقة ما، فإن روايتنا لهذه العملية قد اختلفت عن الرواية العادية، وذلك بانعدام التركيز على دور الولايات المتحدة الأمريكية.

إن الأخذ بالإنكليزية على نطاق عالمي في القرن العشرين، ولا سيما في نصفه الأخير بعد الحرب العالمية الثانية، يعزى إلى حد كبير إلى تأثير الولايات المتحدة، بجيوشها وأساطيلها المتموضعة حول العالم، وامتداد وصول مشاريعها التجارية، والحضور الظاهر في كل مكان لأفلامها، وموسيقاها الشعبية وعروضها التلفزيونية وأجهزتها الأخبارية، وبرمجياتها الحاسوبية. ومن المؤكد أن كل هذه الأشياء كانت هامة، والحماسة الجماعية الكثيفة لثقافة اللغة الإنكليزية تتركز الآن على منتجات الولايات المتحدة الأمريكية. وبين الناطقين بالإنكليزية كلغة أم فإن أكبر مجموعة فردية هي الولايات المتحدة بوضوح. فسكانها البالغ تعدادهم 231 مليوناً هم أربعة أضعاف سكان المملكة المتحدة الستين مليوناً، وهم وحدهم يشكلون ثلثي المجموع العالمي للناطقين بالإنكليزية[68]. ومن الممكن المجادلة بأن نوعية الإنكليزية المفضلة الآن ـ إذا حكمنا من اللهجات الشائعة في خارج مناطقها ـ هي اللهجة الأمريكية العامة، وتجاورها الإنكليزية العامية الدارجة بين الأمريكيين الأفارقة؛ وعلى عكس ذلك، فإن إنكليزية المملكة المتحدة المفضلة المتداولة في الإذاعة، والمسماة ’إنكليزية

مصب النهر'، وهي بديل موجه من لندن 'للفظ أوكسبريدج التقليدي المتوارث'، ليست سوى ذوق محلي إلى حد كبير(*).

ولكن اهتمامنا في هذا الكتاب كان دائماً منصباً على انتشار المجتمعات اللغوية، وهي هيئات الناس الذين يستطيعون أن يتفاهموا فيما بينهم عن طريق لغة معينة. وبهذا المعنى فإن تميزات اللهجة ليست لها علاقة إلى أن تهدد التفاهم المتبادل. وعند النظر إليها تاريخياً فإن من الواضح تماماً أن منصة الوثوب التي قفزت منها الإنكليزية إلى مكانة عالمية كان اعتمادها على منجزات العم سام الحديثة أقل من اعتمادها على مغامرات جون بول على مدى الثلاثمئة وخمسين عاماً الماضية.

وعلينا أن ننظر في نمو الناطقين بالإنكليزية كلغة ثانية، ما داموا هم الذين سيطروا على توسع استخدام الإنكليزية في القرن العشرين؛ فعند حلول خمسينياته، فإن كل البلدان الكبيرة المستخدمة للإنكليزية كلغة أولى كانت قد أبطأت نمو سكانها. وبالنسبة للناطقين بها كلغة ثانية، فإن التقدير الجيد، أو سلسلة التقديرات المقدمة في مقالة ديفيد غرادول للعام 1999 والمعنونة بـ 'أفول الناطق باللغة الأم'. فهو يحدد النمو الحديث في أمريكا اللاتينية، وفي إفريقيا جنوب الصحراء، وفي جنوب آسيا، وهو نمو يكاد يكون من المؤكد أنه سيؤدي إلى جعل الناطقين بالإنكليزية كلغة ثانية يفوق عدد المتكلمين بها كلغة أمّ في غضون نصف القرن القادم إن كانوا لم يزيدوا عليهم بعد.

إن مستوى الناطقين بالإنكليزية في المستعمرات البريطانية السابقة والباقين الصامدين يتراوح بين 2 بالمئة و5 بالمئة، ولكنهم في العادة يقدرون

(*) وحتى في يومنا هذا، فإن الموقع في المملكة المتحدة يقدم أفضل نقطة وسطى يتم منها فهم الناطقين بالإنكليزية من جميع أنحاء العالم. فالتنويعات الأمريكية، والجنوبية-الإفريقية، والكاريبية، والهندية، والسنغافورية، والأسترالية، كثيراً ما تسمع في أجهزة الإعلام البريطانية، ومع سلسلة من اللهجات الإقليمية في المملكة المتحدة (وخاصة لهجات اسكتلندا، وإيرلندا الشمالية، ونيوكاسل، وليفربول، ويوركشاير، وبرمنغهام، وكوكني في أحياء لندن الفقيرة)، وكلها مفروض أنها مفهومة لدى المستمعين البريطانيين. وعلى عكس ذلك، فإن الولايات المتحدة تطبق منذ ثلاثين عاماً الدبلجة أو الترجمة على الأفلام الناطقة بإنكليزية أستراليا.

بما يقرب من 200 مليون. غير أن هناك تقديرات حديثة تعطي معدلاً أعلى من ذلك بكثير، يصل إلى 20 بالمئة في الهند وباكستان، و10 بالمئة في بنغلادش[69]. فإن كانت هذه الأرقام صحيحة، فإن العدد الإجمالي يكون قد وصل إلى 395 مليوناً. وقارن ذلك مع أمريكا اللاتينية وإفريقيا جنوب الصحراء حيث يتضح أن معرفة الإنكليزية آخذة بالنمو، ولكن حيث يقدر غرادول أن النسب المئوية الحالية لا تزيد على 1 بالمئة من السكان (73 مليوناً، 43 مليوناً). وفي الأماكن القليلة جداً من العالم التي فيها استعمال هام للإنكليزية ناجم عن النفوذ الأمريكي بشكل مباشر، فإن نسب الناس الذين يعرفونها هي 50 بالمئة في الفليبين (أي 36 مليوناً)، و85 بالمئة في ليبيريا (أي مليونان، رغم أنهم يمثلون الناطقين بإنكليزية هجينة مختلطة). وبشكل عام، فإن هذه المناطق الناطقة بالإنكليزية من أصل غير بريطاني قد تمثل مجموعاً قدره 152 مليون نسمة.

وإذن ففي هذا الجزء من العالم الإنكليزي الناطق بها كلغة ثانية، يبدو أن نمو الإنكليزية ذات الأصل البريطاني يبقى أهم من التأثيرات الجذرية للنفوذ الأمريكي. ولكن هذا يخرج من الحساب ما يمكن اعتباره أسرع منطقة لنمو الإنكليزية كلغة ثانية، أي أوروبا[*]. وإن تعريف الإنكليزية الأوروبية كلغة أجنبية أم كمنطقة لغة ثانية هو قضية تحديد، ولكن من الواضح أنها أصبحت لغة عمل كبرى في الاتحاد الأوروبي، بالإضافة إلى استخدامها على نطاق واسع في التجارة، والصناعة، وعالم الثقافة الجامعية الأكاديمية في البلدان الأوروبية الشمالية، ولا سيّما في اسكندنافيا. وإن تحليل غرادول للمسوح الاستطلاعية لمقياس الضغوط والتغييرات الأوروبية في الاتحاد الأوروبي من العام 1990 إلى العام 1998 يشير إلى أن إتقان الإنكليزية في أوروبا كان عالياً، ولكنه ظل ساكناً عند نسبة أقل من 20

(*) من الصعب عزْوُ ذلك إلى أيٍ من النفوذين البريطاني أو الأمريكي، فقد كانت الإنكليزية مستخدمة على نطاق واسع كلغة عمل (محايِدة آنذاك) في الأسرة الأوروبية قبل انضمام المملكة المتحدة إليها في العام 1971. ولكن الإنكليزية البريطانية تبقى خيار الأغلبية عند تدريس هذه اللغة في القارة الأوروبية.

بالمئة حتى عام 1980، ثم نشط وانتعش، وبدأ ينطلق كالشهاب منذ العام 1990. فعدد الذين يتقنونها الآن يقف عند 100 مليون نسمة، أي ما يقرب من ثلث سكان الاتحاد الأوروبي(*).

الإنكليزية بين مثيلاتها

آه لو أن قوة تعطينا الموهبة
لنرى أنفسنا كما يرانا الآخرون.
إنها ستحررنا من أخطاء كثيرة
وأفكار حمقاء.
وستبتعد عنا الكبرياء المصطنعة في ملابسنا وخطواتنا
وحتى في ولائنا وتقوانا.

روبرت بيرنز: 'إلى قملة'، 1798

إن لغة تربط معاً أفراد مجتمع بكلامها، حتى ولو كان هائلاً مثل الجموع العالمية التي تفكر وتتكلم بالإنكليزية، تكتسب طابعها ليس عن طريق لفظها وعباراتها، بل بصورة أكبر عن طريق أنماط الارتباط التي تراكمت على كلماتها أثناء انتقالها نازلة بين الأجيال. فاللغة تنم عن تاريخ - وبالطبع عن تاريخ الذين تكلموا بها - وهذا هو الخالق الرئيسي لسمعتها في الخارج، كما هو خالق جاذبياتها لمن قد يرغبون في تعلمها، وبذلك ينضمون إلى مجتمعها. وهذا أحد الأسباب التي جعلت دراسة لغةٍ ما تركز على أدبها لفترة طويلة، 'أي أفضل ما قيل وخطر في الفكر'(**) باستعمال تلك اللغة كما اختاره تقليدها نفسه. ولكن الكتابات الجيدة ربما لم تقدس كل التجارب التي مرت في ذاكرة اللغة الطويلة.

(*) إن عدد الأوروبيين القادرين على المشاركة في محادثة بالإنكليزية كان 42 مليوناً في العام 1950 ولكنه تزايد على مدى ثلاثين عاماً فاصبح 60 مليوناً في العام 1980 (أي 18 بالمئة من مجموع سكان الاتحاد الأوروبي. وعند حلول العام 1990 كان الرقم قد وصل إلى 80 مليوناً (أي 21 بالمئة). ثم وصل إلى 105 ملايين (أي 21 بالمئة) بحلول العام 2000. وعندما أخذ في الحسبان الفرق في الإتقان بين ذوي الأعمار المختلفة - في العام 1994، كان 10 بالمئة ممن تجاوزوا الخامسة والخمسين يعرفون شيئاً من الإنكليزية، ولكن 55 بالمئة ممن هم بين الخامسة عشر والرابعة والعشرين يتقنونها. ويتوقع غرادول أن يصل عدد الأوروبيين الناطقين بالإنكليزية إلى ذروة قدرها حوالي 190 مليوناً في العام 2030.

(**) هذه إشارة إلى ملاحظة شهيرة لماثيو أرنولد في مقدمة كتابه "الأدب والعقيدة"، بأن 'الثقافة هي

وعند النظر إلى الوراء في تاريخ الإنكليزية كمشكّل لطابعها وسمعتها الحاليين، فإن في وسع الذاكرة أن تكون انتقائية تماماً. فالماضي الذي سبق الإصلاح الديني في القرن السادس عشر وبداية التوسع الاستعماري يبدو أنه لم يترك سوى أخف الآثار الباهتة. ولكن منذ تلك الفترة فصاعداً، فإن أنواع المغامرات التي نشرت الإنكليزية، والتي حظيت بأعلى تقدير من كثير من الناطقين بها، فيها تماسك معين ثابت بالفعل. فالإنكليزية مرتبطة بالبحث عن الثراء وبالحصول المتعمد على الثروة، وغالباً بمخططات واسعة الخيال ولم يسبق لها مثيل أبداً. وقد اضطر هذا البحث أحياناً إلى التصارع مع الضمير الديني والمدني، ومع أمجاد الوطنية، ولكنه استطاع أن يجندها إلى جانبه إلى حد كبير. وعلى وجه العموم، فقد كان هذا البحث حليفاً لحرية الفرد، وليس منافساً لها. فقد كانت الإنكليزية، قبل كل شيء، لغةً دنيوية[70].

ولم يبق في الإنكليزية شيء يذكر من الفترة السابقة لوصول اللهجات الجرمانية التي قدر لها أن تمتزج بالأنغلو ساكسونية: وربما بقي اسم 'بريطانيا' نفسه، من اصطلاح يفترض أنه من بلاد الغال لوصف البريطانيين القدامى، ومعناه 'ذوو القامات المرسومة' ("بريطانوي" - و"بريد" *pryd* باللغة الويلزية، و"كروث" *cruth* - أي الشكل - بالإيرلندية القديمة)، بسبب عادتهم في تلوين أجسامهم بالدهان. وربما كان اسم 'آلبيون' أقدم من الاسم 'بريطانيا'. فقد استخدمه الإغريق في حوالي العام 300 ق.م. وهو لا يزال مستخدماً بلغة الغيليك Gaelic للإشارة إلى اسكتلندا، "آلبا". والأصل التاريخي الوحيد المقترح لهذه الكلمة يعود إلى ما قبل اللغة الهندية - الأوروبية، مما يجعله قريب النسب من "الألب" ومن مدينتين رومانيتين قديمتين حملتا اسم "آلبا"، وهي كلمة قديمة حقاً تعني 'المرتفعات'[71]. ومن المحتمل تماماً أن بعض الملامح المشاهدة في الإنكليزية الإيرلندية، مثل عبارة: 'أنا بعد انتهاء عملي' و'رأيت توماس وهو جالس بجانب النار'، والمستوردة من صياغة إيرلندية نموذجية، هي

معرفة أفضل ما قيل وما تم التفكير به في العالم'. ولكننا الآن أقل التزاماً من آرنولد (وماكولي) بالرأي القائل بأن لغة واحدة تستطيع أن تقدم وصولاً متميزاً متنفذاً لامتداد الثقافة الإنسانية كله.

ملامح يتصادف أنها تعود إلى اللغة المحكية هنا حتى قبل وصول الكلت إلى هنا. فبعد كل شيء هناك صيغٌ مماثلةٌ موجودة في اللغتين المصرية والسامية على التوالي، وإن إحدى الفرضيات لتفسير ذلك، وكثير غيره، هو أنه كانت هناك تجارة بين هذه المناطق في عصور ما قبل التاريخ[72].

ونستطيع أن نستعيد باختصار الألفية الأولى من وجود الإنكليزية. فعندما ترسخت اللغة في بريطانيا في القرن الخامس، وجدت نفسها مطوقة بالكلتية من الغرب والشمال. فلم يستطع الكلت أن يقفوا ضد تقدمها بقوة السلاح. ولكن قوى مصممة على تنصير الناطقين بالإنكليزية تجمعوا وتكاثروا عليها تدريجياً من الشمال الغربي والجنوب الشرقي، وأخيراً اجتمعوا وأنهوا التنافس في مجمع ويتبي الكنسي في العام 644، عندما حكم الملك أوزوي لصالح التقليد الروماني. وقد استجابت الإنكليزية جيداً للمبشّرين المحنكين بالمسيحية الرومانية، الذين صاروا مثقفين فعالين بترجماتهم من اللاتينية، وكذلك بشعر الإنكليزية ونثرها المدوّن في الكتب. ولكن عندما غُطّيت الإنكليزية بطبقات من الفرنسية في القرن الحادي عشر تعرضت حياتها الأدبية لنكسة، ولكنها استفادت من نفوذ الغزاة العسكري في أنها بدأت تتوسع متمددة إلى داخل المناطق الكلتية الباقية في كل من بريطانيا وإيرلندا. ولعل حياتها تحت السيطرة الفرنسية يمكن مقارنتها بالسنوات المبكرة للغة الآرامية، التي أغرقت عسكرياً بالناطقين بالأكادية من آشور ولكنها حلت محل الآرامية بالتدريج عندما واجه نخبة الإمبراطورية الآرامية أزمات هزّت هيكل قوتها. (انظر الفصل الثالث: 'الأكادية ـ تقنية تتغلب على العالم: نموذج من معرفة القراءة والكتابة'، ص 107). وبالنسبة لقصص المغامرات الفروسية الخيالية باللغة الفرنسية النورمانية فإن الأزمات التي مزقتها جاءت من الطاعون الدبلي الذي ضربها مراراً وتكراراً في القرن الرابع عشر، وخاصة في المدن والأديرة، ومن الانقطاع العسكري لإنكلترا وويلز عن فرنسا الجنوبية. وفي إدارة الحكم الجديد، حيث انحلّت الروابط الإقطاعية وتركزت السياسة بشكل ثابت في شمال القنال الإنكليزي، عادت اللغة الإنكليزية إلى انتعاشها كلغة موحدة للمملكة.

وهذه الفترة الطويلة التي امتدت ألف سنة كاملة، أوجدت مادة اللغة الإنكليزية كما نعرفها. ولكنها من الناحية الاجتماعية كانت شديدة الاختلاف عن الحياة البرجوازية التي جاءت بعد ذلك إلى درجة أنها لم تسهم بشيء يذكر في طابع اللغة وشخصيتها الحديثة. وفي القرن السادس عشر بدأ حكام إنكلترا يتصورون البلد كوكالة مستقلة عن أي قوة في أوروبا، ومعادلة لها من حيث المبدأ، سواء أكانت قوة دنيوية أم دينية. وفي هذه الفترة أيضاً تم إرساء أساس الوحدة الرسمية مع الأجزاء النائية من الجزر البريطانية، أي اسكتلندا وإيرلندا. وفي الوقت نفسه، ومع مجيء الكتب المطبوعة، تم توحيد تهجئة الإنكليزية وقواعدها النحوية. وبذلك صارت إنكلترا، والإنكليزية، في موضع الانطلاق للنمو.

وكان هذا النمو، عندما جاء، مبنياً على القوة البحرية والقيمة التجارية الموثوق بها. وعلى مدى القرنين السابع عشر والثامن عشر صارت قوة الأسطول الملكي ومدينة لندن غلاّبة لا يستطيع أحد تحديها أو الانتقاص منها. ومكنت هاتان القوتان اللغة الإنكليزية من عرض نفسها حول العالم. وبصفتها اللغة التي جلبها المستوطنون إلى أمريكا الشمالية صمدت الإنكليزية ببساطة وراحت تنتشر: وكان لدى المستعمرات اكتفاء ذاتي، فراحت تنمو على حساب جيرانها. ولذلك لم يكن عجيباً أنها عندما اغتنت صارت أكثر ثقة بنفسها وأكثر غطرسة، ولم يكن لديها أبداً أي سبب جدي لمراجعة مواقفها المبكرة المبجلة لذاتها، خاصة وأن تلك المستعمرات لم تفشل في أن تلاحظ أنها كلما جابهت معارضة محلية أم من قوة استعمارية أخرى فإنها كانت تتغلب عليها. ولذلك صار إيمانها 'بمصيرها الظاهر' يكاد يعتبر درساً من التجربة.

وفي مشروع كبير آخر فيما وراء البحار أدى إلى نشر الإنكليزية، برزت الفطنة التجارية إلى الواجهة عند شركة الهند الشرقية الإنكليزية، التي تأسست - مثل مستعمرة فرجينيا - في بداية القرن السابع عشر. ولم يكن هذا المشروع مشغلاً من قبل أناس يائسين أو متطلعين يكرسون له حياتهم، بل من قبل أغنياء يلتزمون فيه بتشغيل جزء من رأسمالهم. ولكن - كما كانت الحال في المستعمرات الأمريكية - فإن روح المغامرة لدى المضطلعين بهذا المشروع أدت

إلى نجاحه. ومع ذلك فإنه لم يبدأ بنشر اللغة الإنكليزية طيلة القرنين الأولين من تأسيسه. فلم يبدأ تأسيس المدارس بشكل فعال لنشر الفوائد غير الملموسة من الجنسية البريطانية، بدءاً من اللغة، إلا بعد أن بدأت تسود في داخل بريطانيا روح أكثر جدية، وعندما صارت المستعمرات المستولى عليها من أجل الربح تعتبر موجبة للمسؤولية عن رفع مستوى الناس الأقل حظاً.

وعند حلول هذا الوقت بدأت سلسلة أخرى تزدهر من مشاريع قائمة على أساس اللغة الإنكليزية عن طريق أساليب للحصول على الربح من أنواع الوقود الأحفوري ومن الإبداع الخالص الداخل تحت اسم الثورة الصناعية. وهذه الثورة نفسها بدأت بتقليص العالم، مع زيادة توفر الأخبار عن منجزات تتحقق في أماكن بعيدة. ومنذ ذلك الحين لم تعد الإنكليزية مرتبطة فقط بالمستوطنين المتعجرفين والحكام الذين يعتبرون أنفسهم على حق، بل صارت مرتبطة أيضاً بالمبادرين الرياديين المغامرين المخترعين المبجلين لأنفسهم، وهكذا صارت تعتبر جواز سفر نحو تحسين الذات للأشخاص الطموحين في جميع أنحاء العالم.

إن هذا التقدم للإنكليزية يتناقض بطرق كثيرة مع سيرة حياة لغات أخرى في العالم.

فبمقارنة الإنكليزية مع زميلاتها المعاصرة لها من اللغات الأوروبية الإمبراطورية، كان تقدم الإنكليزية غير رسمي بشكل لافت للنظر. وباستثناء اللائحة الأولى التي أعدتها الدولة للاحتكار التجاري لشركة الهند الشرقية، وإلى أن بدأ البرلمان البريطاني يهتم بالسياسة في القرن التاسع عشر، كان هناك إحساس بوجوب الاعتماد على النفس لعمل الأشياء. فصارت المحافظة على الأسطول الملكي مسؤولية الدولة بعد انتهاء الأيام المجيدة من القرصنة المربحة في حوض الكاريبي. ولكن النشاط الفعلي لنشر الاستيطان الإنكليزي، والأعمال التجارية البريطانية، وكذلك كلمة الله الأنغليكانية حول العالم، تُرِكتْ للمبادرة الخاصة الفردية.

وهذا يتناقض بشكل تام مع طريقة إسبانيا والبرتغال في العمل، حيث قد

يفتح الغازي الفرد الطريق، ولكن الدولة تورط نوابها، ويأتي جهاز الدولة والكنيسة كله بعد ذلك على الفور. فحتى ثورات القرن التاسع عشر، كانت مستعمرات إسبانيا والبرتغال تخضع لحكام يرسلون من أوروبا مباشرة. وأدى ذلك إلى علاقات متوترة، وانعدام التضامن بين حكومة الموطن والأشخاص ذوي الدم الإسباني الخالص الناجحين في تأسيس أنفسهم في الخارج. فالمستوطنون الناطقون بالرومانسية لم يكونوا في الحقيقة ممثلين موثوقاً بهم لأصحاب الجلالة الكاثوليكية. ففي الأيام الأولى، كان تخصيص الأراضي عن طريق توكيلهم بإدارتها يعني أنهم في أفضل الأحوال مستأجِرون من الملك. وكما رأينا، فإن كثيرين من نسل المستوطنين في بيرو قد أخذوا بلغة قيشوا ليؤكدوا انفصالهم عن المؤسسة الأوروبية (انظر الفصل العاشر: 'الحل الكنسي: اللغات العامة'، ص 503). وفي هذه الظروف، فإن من الصعب أن يقول المرء ماذا صارت اللغتان الإسبانية والبرتغالية تمثلان فيما وراء البحار: ربما صارتا تمثلان العلاقة المستمرة مع الكنيسة الكاثوليكية أكثر من أي شيء آخر - وهذه مفارقة تثير السخرية عندما نتذكر كيف أن سياسة الأنظمة الدينية قد أخرت انتشار الإسبانية والبرتغالية في أمريكا اللاتينية لمئات السنين.

وبالنسبة لفرنسا أيضاً، كان التوسع فيما وراء البحار تحت سيطرة الحكومة، منذ أن قام الملك فرانسوا الأول بإرسال جاك كارتييه للبحث عن الممر الشمالي الغربي في العام 1534. وفي القرن السابع عشر، كان كولبير قلقاً من عدم توسع الفرنسية. ولكن بعد ذلك بقرن كان اهتمام الفرنسيين ضئيلاً جداً باستكشافات لاسال على طول وادي المسيسيبي، ناهيك عن الاحتلال الفعلي لتلك المكتشفات، إلى درجة أن نابليون تطوع ببيعها إلى الولايات المتحدة دون رؤية للموقع على الأرض. إن كل المستعمرات التي حصلت عليها فرنسا في القرن التاسع عشر، من الجزائر إلى الهند الصينية، تم الاستيلاء عليها بالسلاح الفرنسي من أجل مجد فرنسا: فقد ظل "المجد" دافعاً فعالاً(*). وفي الوقت نفسه، كان من الواضح أن فرنسا لا تزال قوة كبرى في الحضارة العلمية التي

(*) [احتلال البلدان الأخرى بالمذابح وحشية مخزية وليس "مجداً" - المترجم]

تروج لها، بحيث كان يمكن اعتبار اللغة الفرنسية قناةً مؤدية إلى الحداثة. فقد دخل المستوطنون فعلاً على الجزائر. ولكن في أماكن أخرى كانت الحكومة المركزية هي التي جعلت المستعمرات حقيقة - ومعها انتشار استخدام اللغة الفرنسية. فعدا الجزائر والهند الصينية، كان هذا النهج المركزي يعني أن سحب السيطرة الفرنسية عندما جاء في ستينيات القرن العشرين كان سريعاً وغير مؤلم إلى حد مدهش. وكان الذي كثيراً ما يبقى هو عاطفة تجاه اللغة الفرنسية، كرمز "للحضارة الفرنسية"، عقلانية في تطلعها، وطنية في مشاعرها.

وبما أن اللغة الروسية قد انتشرت على مدى ثلاثة قرون، بدلاً من نشرها كعلامة على قوة إمبراطورية القيصر بشكل سافر - فإن جاذبيتها محدودة للذين ليسوا مقبولين كروس -، كما أن المحاولة التي جرت في القرن العشرين لتحويلها إلى لغة دارجة 'للاشتراكية العلمية' انهارت مع انهيار الاتحاد السوفييتي في العام 1991. وفي اللغة الروسية شيء من مشكلة الصورة. فاليد الثقيلة التي أكدت بها ماديتها كانت تناقض اللمسة الخفيفة للعقلانية الفرنسية، واليد المتوازية للفلسفة العملية الذرائعية البريطانية، واليد المفتوحة للنزعة الاستهلاكية الأمريكية. كما أن ارتباطات اللغة الروسية بالجهد الجماعي والتقشف الاقتصادي تكاد تكون نقيضاً لتجميع الإنكليزية لمبادرات الأفراد وابتكاراتهم المؤدية إلى الإثراء عن طريق المشاريع.

فالإنكليزية، بصفتها مثالاً جوهرياً على اللسان 'العالمي'، يمكن وضعها أيضاً إزاء أجواء اللغات العالمية من ماضٍ أبعد. فالصينية والمصرية، بل واليونانية والرومانية في العالم القديم، كانت كلها أدوات لحضارات تؤكد على قيمة ما هو موجود هنا والآن. وكانت في أفضل حالاتها قادرة على تقديم مستوى معيشة عالٍ لمواطنيها، مع درجة من السلم والأمن كذلك. وعلى عكس ذلك، فإن اللغتين العربية والسنسكريتية، مثل اليونانية والرومانية في عصر المسيحية، كانت تحركهما بشكل أكبر حضارات عن العالم الآخر، تركز على تطلعات الناطقين بهما على أهداف روحية وترى في مدى نجاحهم المرئي أو الشعور بالرضا في حياتهم اليومية جزءاً صغيراً فقط مما هو مهم بصورة حقيقية فعلاً(*).

(*) إن الفينيقية والعبرية، رغم أنهما لم تحققا توسعاً كبيراً، وكانتا لغتين متشابهتين كثيراً، هما حالتان

إن فرق ثقافة اللغة في عصرنا هذا واضح جداً. ففي مطلع القرن الحادي والعشرين، فإن التطلع لتعلم الإنكليزية أو العربية صار مميزاً لكثير من الشبان في جميع أنحاء العالم. وفي بلدان غرب آسيا وشمال إفريقيا صار تدريس اللغة العربية صناعة خدمية تبحث عن زبائن أجانب، تماماً مثل تدريس اللغة الإنكليزية في أجزاء كثيرة أخرى من العالم. فالإنكليزية والعربية متشابهتان ببعض النواحي إلى حد لافتٍ للنظر: فلكل منهما تاريخ مكتوب يمتد حوالي ألف وخمسمئة عام. وقد انتشرتا حول العالم على أيدي ناطقين كانوا على الأغلب لا يعرفون أي لغة أخرى. ولهما كتلتان من الأدب تحملانهما ارتباطات عمرها قرون عديدة. ولكن نادر هو الشاب الذي يكافح لتعلم العربية لدراسة فلسفة ابن سينا، أو قصص ألف ليلة وليلة، أو روايات نجيب محفوظ: بل وأندر منه الشاب الذي يتصارع مع الإنكليزية على أمل أن يقرأ إنجيل الملك جيمس، أو كتاب الصلوات العامة. إن العربية في عصرنا هذا بالنسبة لمتعلميها الأجانب هي لغة القرآن. والإنكليزية هي لغة الأعمال التجارية الحديثة والثقافة الشعبية العالمية.

تقليديتان كلاسيكيتان لمجتمعين لغويين على الجانبين المتعاكسين لخط الانقسام. أما بالنسبة للغات مثل الأكادية أو الآرامية، والناحواتل أو القيشوا، فإن ما نعرفه عن المجتمعات المعاصرة لها ضئيل إلى درجة أنه لا يمكننا من وضعها في هذا الإطار.

القسم الرابع

اللغات اليوم وغداً

واهٍ يا من هناك، ها هو ذا، كتابي.
وقد وصلنا الآن إلى صفحاته الأخيرة.
وأنتم تريدون الاستمرار،
فلا يمكن إيقافكم عند الصفحة الأخيرة،
كأنما لم يستغرق موضوعكم وينتهِ كله
كما انتهى في البداية.
فالقارئ يتذمر ويفتر،
وحتى الناسخ يقول:
'واه يا من هناك، هذا يكفي، ها هو ذا، كتابي'.

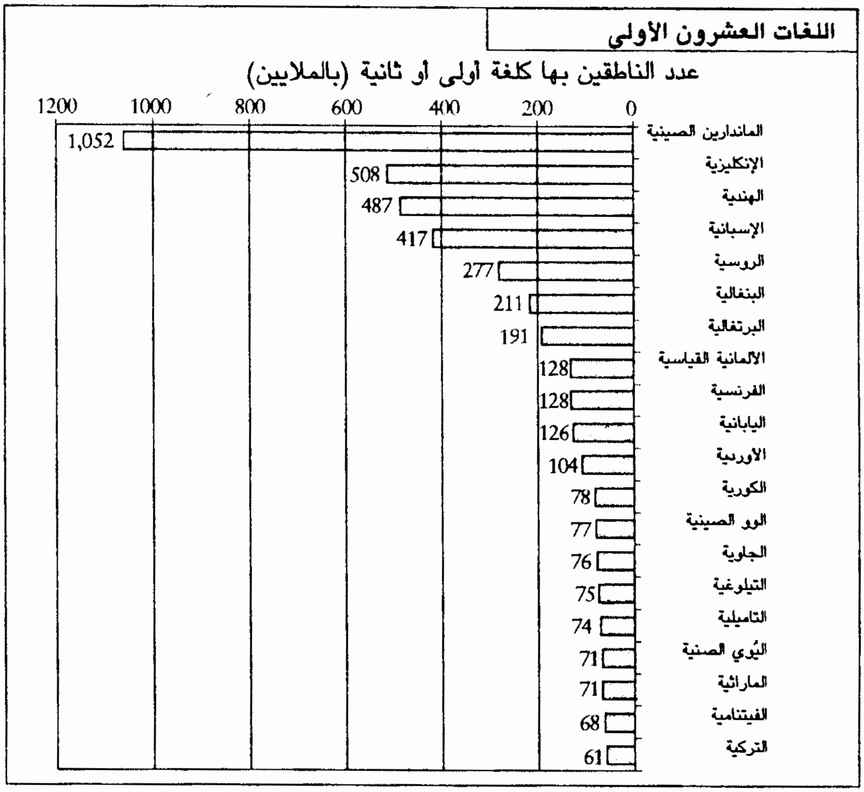
مارشيال: مقاطع ختامية مختصرة، 4 ـ 89 (كانون الأول/ديسمبر، 88م)[1]

13

اللغات العشرون الأولى في الوقت الراهن

إن أبسط معيار حيوي لنجاح مجتمع لغوي ما، هو عدد مستعملي اللغة. وعند وضع الحدود لمثل هذا المجتمع فإن خطٍ التوجيه الرئيسي لدى اللغوي هو 'الفهم المتبادل': إذ إن المجتمع، بعد كل شيء، هو مجموعة من الناس الذين يستطيع كل منهم أن يفهم الآخر باستعمال اللغة.

وهذا التحديد يثير صعوبات كثيرة. فهناك صعوبات عملية لها علاقة باستحالة إجراء اختبار فعلي لمعرفة ما إذا كان الناس قادرين على أن يفهم كل منهم الآخر وجهاً لوجه. وكم من الفهم يُعْتَبَرُ معرفةً باللغة؟ وماذا إن كان الناس بصورة نموذجية يعرفون لغة جيرانهم، وبذلك يستطيعون أن يفهموهم حتى عندما يتكلمون لغة مختلفة؟ وهذا وضع شائع عند سكان أستراليا الأصليين، ولكنه شائع أيضاً في أجزاء أخرى كثيرة ثنائية اللغة من العالم. ثم هناك صعوبات سياسية لها علاقة بعضوية الناس المرغوبة أو المتخيلة في مجتمع لغوي وليس في مجتمع آخر، وميل المعلومات والبيانات الإحصائية للخلط بين أعضاء مجموعة عرقية وأعضاء مجموعة أخرى من الناطقين بلغتها التقليدية. وهناك بالطبع صعوبات نظرية كثيرة. فمن الأسئلة الهامة: كم لغة يجب عدها عندما تتلاشى عند تخوم اللغة التالية، كما يحدث كثيراً عند تداخلهما. فالناطقون باللغة (آ) يستطيعون أحياناً أن يتحدثوا إلى الناطقين باللغة (ب). كما يستطيع الناطقون باللغة (ب) أن يتحدثوا إلى الناطقين باللغة (ج)، ولكن الناطقين باللغة



(آ) لا يستطيعون التحدث إلى الناطقين باللغة (ج). وهذا وضع شائع في سهول الباكستان والهند الشمالية. ويمتد حتى يصل إلى داخل نيبال، حيث تندمج البنجابية بالهندية ثم بالنيباليه. ويستطيع الناطقون باللغة (آ) أحياناً أن يفهموا الناطقين باللغة (ب) ولكن العكس غير صحيح، كما في الحالة السيئة الصيت بين البرتغالية والإسبانية. فالفهم ليس متبادلاً على الدوام.

وتأتي صعوبة أخرى عند النظر في اللغات من الناحية التاريخية. فمما لا شك فيه أن الفهم المتبادل كان دائماً مضموناً في كل جيل كما بين الأب وطفله. ولكن هذا ليس كافياً لضمان بقاء اللغة كما هي عبر القرون. فنحن لا نستطيع أن نفهم بسهولةٍ ما كتب بالإنكليزية قبل القرن السادس عشر. ولو كنا نستطيع أن نسمع كلامهم فقد نجد صعوبة مع أسلافنا في القرن الثامن عشر. والواقع

أن اللغات - حتى المنطوقة في أكثر المجتمعات توحيداً وسعة انتشار - آخذة في التغير دائماً. فهل يجب أن يؤثر ذلك على تقييمنا لهوية اللغة، وبالتالي على نجاح لغة ما عبر العصور؟

تأمل مثلاً في حالة اللاتينية. فهل يجب اعتبارها لغة ميتة، وتقليداً نبيلاً انتهى مع الأسف لأنه ليس لها متكلمون بها كلغة أم كلماتها قريبة مما نجده في نصوص الإمبراطورية الرومانية؟ أم هل يجب اعتبارها قد ماتت وصعدت إلى سماء اللغات في العالم الآخر؟ فنصوصها من كل فترة لا تزال مقروءة، وأشكالها وصيغها الحديثة التي يطلق عليها بشكل جماعي اسم اللغات الرومانسية - وهي الإسبانية، والبرتغالية، والفرنسية، والإيطالية، والرومانية، والقطلانية، والأوسيتانية وكثير غيرها - هي محكية على نطاق العالم من قبل أناس مجموعهم 660 مليوناً، مما يجعلها حتى الآن ثاني أنجح اللغات في العالم (بعد لغة الماندارين الصينية). "آه يا أيها الموت، أين لَدْغَتك"؟

ومع ذلك يمكن تركيب جدول لفئات أوسع اللغات انتشاراً في العالم كما هي محكية اليوم، حتى ولو كان من الضروري اتخاذ بضع قرارات اعتباطية للقيام بذلك. وهذا الجدول، عند الكشف عنه، يعطي لمحات مفيدة عن العوامل الكامنة وراء الكتل الكبيرة من الناس الذين يتكلمون اللغة نفسها. وهو أيضاً مصحح مفيد للتميز اللغوي الذي يميل إلى خلقه اعتمادنا المعتاد على الوسائل الأوروبية المركزية.

وهذه الأرقام[2] مبنية على استعمال اللغة كلغة أولى أو ثانية، أي ليس الناطقين الأصليين بها فقط، ولكن أيضاً الناس الذين اكتسبوا اللغة لغرض آخر وهم يستخدمونها بصورة فعالة. ومن الواضح أن مثل هؤلاء الناطقين 'الثانويين' بها جزء من مجتمعها اللغوي ولكن علينا أن نكون حذرين بخصوص الأرقام، وبالتالي ترتيب التصنيفات بالتفصيل. فالأرقام هنا مبنية في آخر الأمر على نتائج إحصاء السكان، التي قد تتعرض لتشويهات ذات مقصد سياسي. وللإنكليزية على وجه الخصوص ذيل طويل من متعلميها 'كلغة أجنبية' وهم يتقنونها بكفاءة تامة ويستخدمونها كثيراً، حتى ولو كانت لا تلعب دوراً رسمياً

في بلدانهم، وقد لا تكون مسجلة في الأرقام الإحصائية(3). غير أن هوية اللغات الكبرى ليست محط نزاع أو خلاف من الناحية العملية. وفي وقت حديث جداً دخلت الملايوية (لغة باهاسا إندونيسيا/ماليزيا) قائمة اللغات العشرين الأولى.

كما أن توزيع أحجام لغات العالم هو درس بحد ذاته. فعند جمع المجتمعات الأصلية الناطقة بهذه اللغات العشرين الأولى يصبح لدينا 57 بالمئة من سكان العالم. بل إن اللغات الاثنتي عشرة الأولى وحدها 50 بالمئة من العالم، مما يشير إلى مدى ضآلة عدد السكان الناطقين بمعظم اللغات الستة آلاف وخمسمئة الأخرى التي لا تزال محكية.

وفي لغات العالم العشرين الأولى، فإن أصولها جميعاً تعود إلى جنوب آسيا، أو شرقها، أو إلى أوروبا. فليست فيها واحدة من الأمريكتين، أو من أوقيانوسيا، أو من إفريقيا(*) (وهو ما يثير دهشة شديدة). وعلى عكس ذلك، فإن من الطبيعي تماماً أن هذه المناطق الغائبة هي بالذات الأماكن التي تتركز فيها تشكيلات العالم اللغوية المتنوعة الباقية.

ويمكن تقسيم اللغات إلى مجموعتين هما: اللغات التي نمت 'عضوياً' وتلك التي وضعت معاً عبر عمليات 'اندماج واكتساب'. والنمو العضوي يأتي بشكل رئيسي عن طريق زيادة السكان في منطقة الأصل، ولكنه يمكن أن يشمل أيضاً اقتحام مناطق مجاورة. أما الاندماج والاكتساب فينشران لغةً ما إلى مناطق غير

(*) إن أول لغة من أصل إفريقي هي في الحقيقة العربية المصرية، التي يتكلم بها 46 مليون ناطق، وهذا لا يضعها أعلى من المرتبة الثالثة والعشرين. وإن 'اللهجات' المختلفة للعربية، التي يوجد منها خمس وعشرون، تقيم حاجزاً صلباً تماماً أمام الفهم المتبادل، وهكذا فإنها مدرجة في هذه القائمة كلغات منفصلة متميزة. فإذا تركزت كمجتمع لغوي عالٍ وحيد ويوحّده استخدام النخب فيه للعربية الفصحى كلغة مشتركة، فسيصل مجموعه إلى أكثر من 205 ملايين نسمة، مما يضعهم في مرتبة تصنيفية بين اللغتين البنغالية والبرتغالية. والذين يعرفون العربية الفصحى عددهم حوالي 100 مليون. (والسلف البعيد للعربية، مثل كل اللغات السامية، يقع في إفريقيا. انظر الفصل الثالث: 'الأكادية - تقنية تتغلب على العالم: نموذج من معرفة القراءة والكتابة، ص 99).. واللغة الإفريقية الكبرى التالية هي الهاوسا، التي يتكلمها 39 مليوناً كلغة أصلية أم وكلغة ثانوية).

[لا يخفى على القارئ ما في هذا الكلام من مغالطات تهدف إلى استبعاد العربية من اللغات العشرين الأولى. فالناطقون بها كلغة أولى وثانية أكثر من 400 مليون. وأصلها من جزيرة العرب والهلال الخصيب وليس من إفريقيا: المترجم].

متصلة من العالم، وبشكل رئيسي عن طريق الغزو المحمول بحراً والاستيطان. وإن جميع اللغات التي انتشرت بهذه الطريقة الأخيرة، وهي الإنكليزية، والإسبانية، والبرتغالية، والفرنسية، كانت أصولها من أوروبا الغربية، وهي فعلاً لغات من بنات اللاتينية أو متأثرة بها تأثراً عميقاً. ورغم أن اللغات الأوروبية الثلاث الأخرى في القائمة، وهي الروسية والألمانية والإيطالية، ليست معروفة في التاريخ الحديث بتعلق حكوماتها بالطرق السلمية في توسيع ممتلكاتها، فإن نموها من الناحية العملية كان في غالبيته عضوياً. ومن الجدير بالملاحظة، كجرعة مبكرة مضادة لأي افتراضات عسكرية عن أسباب النمو اللغوي، أنه في خارج نشاطات المستعمرين الأوروبيين في النصف الثاني من الألفية الثانية بعد الميلاد، ليس هناك شيء يذكر من نمو هذه اللغات العملاقة في قائمة العشرين الأولى يمكن عزوه إلى عدوان استعماري(*).

فما الذي يفسر نموها، إذن؟ من الملاحظ أن عدداً كبيراً من اللغات (تسعاً من بين عشرين) تتكلم بها حضارات تعيش على الرز كمحصول رئيسي ثابت (وهي البنغالية، واليابانية، والكورية، واللغتان الصينيتان وو ويوي(**)، والجاوية، والتاميلية، والماراثية، والفيتنامية). ومن الواضح أن الرز قادر على إعالة سكان كثيفين وواسعين، وأن زراعته، عن طريق الفيضانات المسيطر عليها، تتطلب مستوى عالياً من التنظيم. واللغات الأخرى التي ليست في غالبيتها في منطقة الرز محكية في مناطق مجاورة فرضت سيطرتها السياسية على مناطق الرز (وهي الصينية البارزة الماندارينية، والهندية، والأوردية، التي هي لغوياً في استمرارية لهجية إن كانت متميزة على الإطلاق). ومما لا مهرب منه أنه خارج اللغات الأوروبية تتشكل القائمة في غالبيتها من لغات العملاقين الثقافيين في آسيا: الصين والهند.

(*) هناك استثناء آخر هو تقدم العرب والأتراك في حملات تحركت في اتجاهات متعاكسة من القرن السابع إلى القرن الثاني عشر. ورسخت لغتيهما العربية والتركية في مكان لغات الشرق الأوسط وبلاد الأناضول. والمفاجئ في هذه الإحصائيات أن العربية لا تنجح في الوصول إلى قائمة اللغات العشرين الأولى، بينما تنجح التركية في ذلك ولا تكاد. غير أن عدد الناطقين بالتركية 61 مليوناً، وعندما تضاف إليها جميع اللغات التركية (المفهومة بشكل متبادل) يصبح مجتمعها اللغوي 147 مليوناً، مما يجعلها بوضوح عضواً في اللغات العشر الأولى.

(**) هاتان اللغتان معروفتان في الغرب بشكل أفضل تحت اسمين هما: لغة شانغهاي ولغة كانتون.

وعند النظر نزولاً إلى أسفل القائمة (إلى اللغات الخمسين الأولى) تتكرر كثير من الأنماط نفسها: فهناك مزيد من تنويعات الصينية (جينيو، كسيانغ، هاكا، مين، غان) ومزيد من لغات الأقليات الهندية (غوجراتي، كانادا، مالايالام، أوريا، بنجابي، بهوجبوري، أوادهي، سندي)، واقتصادات رز أخرى (البورمية، والسوندانية في جاوة الغربية، والتايلاندية)، ومزيد من اللغات الأوروبية الكبيرة، التي نمت عضوياً (البولندية، والصربوكرواتية)، ورغم وجود ماض استعماري - في حالة واحدة - هي (الهولندية).

ومن الناحية السياسية، فإن من الجدير بالملاحظة أن جميع هذه اللغات تقريباً كانت تحت سلطة مركزية لمدة ألف عام على الأقل. فاللغات ذات النطاق الواسع لا تزدهر في مناطق ذات وحدات سياسية ضيقة النطاق، رغم أن من الغريب أن اللغات التي نمت عضوياً في أوروبا الغربية، أي الإيطالية والألمانية، مستثناة من ذلك. ومن الواضح أن تاريخ إيطاليا الأطول أمداً يقدم لذلك شيئاً من التفسير: فقد كانت هناك وحدة سياسية بقيت حتى انهيار الإمبراطورية الرومانية الغربية في القرن الخامس الميلادي؛ والاتحاد السياسي الذي تحقق في القرنين الأخيرين، وأساس وحدتها اللغوية الظاهرة اليوم يعود إلى تلك الفترة الذهبية. وبالمثل فإن الألمانية هي نتاج صنع سياسة القرنين الأخيرين، ولكن بقاء الناطقين باللهجات الألمانية المتنوعة متقاربين بشكل وثيق على مدى الألفي عام الماضية بحيث تقبلوا معياراً أدبياً موحداً هو شيء مدهش ومثير للإعجاب، لأنه لم تكن هناك وحدة سياسية شاملة في المراحل المبكرة من تاريخ ذلك المجتمع اللغوي (انظر الفصل الحادي عشر: 'غير مؤثرة بشكل غريب - الطموحات الألمانية'، ص 611).

وهناك سؤال آخر يتعلق باختيار اللغة التي تنتشر في هذه البيئات المؤاتية: هل هناك معيار يتنبأ بأي لغة في مجموعة سوف تنتشر لتكسف جيرانها؟ إن هذا كثيراً ما يكون مسألة سياسية في مملكة مركزية، عن وعي وقصد أو عن غير وعي وقصد. ولذلك فليس عجيباً أن يكون المقياس المنتقى للترقية والترويج هو في العادة النوع المستخدم في العاصمة الوطنية. ومن هنا

فإن الصينية الماندارينية هي تاريخياً صيغة اللغة المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بمدينة بيجينغ[4]، كارتباط اليابانية بطوكيو[5]. وفي الإنكليزية الوسطى، كانت اللهجة التي سيطرت ورسمت المعيار القياسي هي لهجة لندن[6]. ومن بين اللهجات الهندية الوسطى المتنوعة، كانت الهندية/الأوردية مختصة بمنطقة دلهي[7]. والروسية حسب الأصل هي النوعية الموسكوفية من السلافونية الشرقية [8]، والفيتنامية مبنية على منطقة هانوي [9]، والفرنسية هي كلام باريس الرومانسي [10]. وفي بعض الأحيان تنتقل العاصمة الوطنية: وهكذا فالإسبانية القياسية المعتمدة مستمدة من كلام طليطلة، عاصمة مملكة قشتالة في منتصف القرن الثالث عشر[11]. ويعتقد أن أصل اللغة الكورية من منطقة سيلا في جنوب شبه الجزيرة الكورية، التي كانت مسيطرة من القرن السابع إلى القرن العاشر[12].

وإذن فإن المرء على وجه العموم يستطيع أن يزعم أنه في الاقتصاد السياسي للغات من المفيد أن تكون اللهجة السائدة هي لهجة المدينة التي ستصبح عاصمة وطنية، ومن المفيد أن يكون المرء في سهل استوائي، وخاصة إذا كان منتجاً للرز، وقبل كل شيء فإن من المفيد أن يكون المرء في شرق آسيا أو في جنوبها. ولكن لكل هذه المعايير استثناءات. فالإنكليزية في الواقع بدأت بدون أي واحدة من هذه الميزات. وكما هي الحال في الأعمال التجارية، فإن من الواضح أن الاندماج والاكتساب يمكن أن يتجاوزا النمو العضوي.

إن بناء ملاحظاتنا على أساس خصائص أوسع لغات العالم انتشاراً كما هي اليوم بالصدفة ينطوي على أضرار، منها أن قائمة العشرين الأولى لا تعطي أي إحساس جوهري بتحركات نمو اللغة: مثل ما هي الكلمات التي دخلت إليها حديثاً؟ وما هي اللغات الصاعدة إلى أعلى؟ والنازلة إلى أسفل؟ وكيف كانت القائمة ستبدو قبل قرن من الآن؟ وكيف ستبدو بعد قرن من الآن؟

للإجابة على هذه الأسئلة نحتاج إلى الجمع بين المعلومات السكانية وبين الإحساس بنفوذ اللغة عندما ينمو وعندما يخبو.

فالقضايا السكانية هي مسالة معروفة عامة: فاللغات الآسيوية في القائمة،

التي كان نموها عضوياً سوف تستمر في النمو باستثناء الصين (بسبب سياستها المتعمدة) واليابان (من خلال انخفاض الخصوبة الطبيعية). واللغات الآسيوية موجودة في القائمة بسبب العدد الهائل لسكان بلدانها، التي بطبيعتها ذاتها لم يتطور نموها بين ليلة وضحاها. ولذا يجب أن تكون مدرجة على القائمة بشكل دائم، إلا إذا أظهر هؤلاء السكان ميلاً لتغيير لغتهم (مثل الأخذ بلهجة وطنية محلية لتحل محل كلامهم الإقليمي نفسه)، أو إذا أصابتهم كارثة ضخمة ذات حجم هائل مخيف بحيث يمكن مقارنتها بالأوبئة التي دمرت الأمريكتين بعد مجيء الأوروبيين من القرن السادس عشر[13].

ومن المحتمل أن يحدث شيء من المناورة وإعادة التوازن بين اللغات في الصين وفي شبه القارة الهندية في الخمسين سنة القادمة: ذلك أن معدل الخصوبة لكل امرأة في الصين في الفترة من العام 1995 إلى العام 2000 كانت 1.8، وفي اليابان 1.4، بينما كانت 3.1 في الهند وبنغلادش، و5 في الباكستان. وحسب هذه الاتجاهات فإن من المتوقع أن يتجاوز مجموع سكان الهند سكان الصين عند حلول العام 2050؛ وفي الفترة نفسها فإن الباكستان (التي لغة الأغلبية فيها هي البنجابية، التي يتكلمها حوالي ثلث السكان) مرشحة لتصبح ثالث أكثر البلدان في العالم ازدحاماً بالسكان (متجاوزةً الولايات المتحدة)، ولكن بنغلادش (الناطقة بالبنغالية) ستحتفظ بمركزها (كثامن أكثر البلدان سكاناً). وإن تطبيق النسب المئوية للنمو السكاني على هذه اللغات سيكون أثره الأساسي قفزة في عدد الناطقين بالأوردية والبنجابية، بينما لغات الهند الإقليمية: التيلوغو، والماراثي، والتاميل، قد تتجاوز الشكلين الإقليميين من الصينية: أي لهجة وو ولهجة يوي. أما الصينية الماندارينية فهي متقدمة جداً في الطليعة (حيث تملك ثلاثة ناطقين بها في مقابل كل ناطق واحد بالإنكليزية، أو الهندية - الأوردية، أو الإسبانية اليوم) إلى درجة أنها ستظل أوسع اللغات انتشاراً في العالم، ولو أنها في غضون خمسين عاماً ستكون فقط ضعف حجم أقرب المنافسين إليها. وستنضم إلى هذه المجموعة أيضاً لغة بهاسا (إندونيسيا/ماليزيا).

إن معدلات الولادات عالية عبر الأقطار الناطقة بالعربية، ولذا فإن سكانها

قد يزيدون على الضعف في غضون نصف القرن القادم. وهذا سيكون كافياً للحفاظ على موقع العربية كخامس أكبر اللغات، ولكن سيبقى من الضروري إضافة ما هو بالنتيجة خمس وعشرون لغة محكية منفصلة - فليس هناك اتجاه لمقياس موحد خارج استخدام النخبة(*). ومعظم الأجزاء الأبعد إلى الجنوب في إفريقيا تنمو بصورة تتجاوز المعدل العالمي بكثير: وهكذا يمكننا أن نتوقع صعود لغاتها إلى الأعلى في جدول المجموعات: فإذا استمرت معدلاتها متمشية مع إيقاع سكان نيجيريا ككل، فإن أكبر لهجتين، وهما الهاوسا واليوروبا سيتضاعف عدد الناطقين الأصليين بهما ثلاث مرات عند حلول العام 2050، فترتفع المرتبتان من الثامنة والثلاثين والتاسعة والأربعين إلى الحادية والعشرين والثالثة والعشرين. غير أنه حتى مع هذا النمو، فإن لغات إفريقيا جنوب الصحراء ستظل خارج قائمة العشرين لغة الأولى طيلة الخمسين عاماً القادمة.

وليس من المدهش أن تكون اللغات الأوروبية على القائمة في وضع أشد هشاشة بكثير. فالألمانية والإيطالية مدينتان بأعدادهما الكبيرة إلى النمو العضوي لسكان موطنيهما. ومن حيث معدلات الخصوبة فإنها مرشحة للهبوط بنسبة قد تصل إلى 10 بالمئة في الخمسين عاماً القادمة. وسيكون ذلك كافياً لإنزال مرتبة الألمانية نحو قاع قائمة العشرين لغة الأولى، وإبعاد الإيطالية منها تماماً. ولكن أي نقص في أي من هذين البلدين من المحتمل أن تعوضه الهجرة المتزايدة، فتتم بالنتيجة المحافظة على المجتمعات الناطقة من خلال التجنيد الخارجي.

والروسية في حالة هبوط أيضاً. فبعد ازدياد نموها العضوي في أوروبا الشرقية، كان لها دور كلغة مشتركة في إمبراطورية شاسعة ضمت في أوجها كل

(*) [العربية هي اللغة الوحيدة التي يعاملها المؤلف هكذا بفصل لهجاتها عنها واعتبارها لغات مستقلة! فلا يعامل الإنكليزية أو أي لغة أوروبية بهذه الطريقة - والهدف هو منع وصول العربية إلى قائمة العشرين الأولى: والعربية هي الوحيدة التي يتجاهل المؤلف حساب عدد متكلميها كلغة ثانية في العالم الإسلامي كله - المترجم]

آسيا الشمالية في هلال هائل من القفقاس إلى بحر اليابان. غير أن السكان الآن آخذون بالتقلص في جميع الأجزاء الباقية من روسيا الكبرى، وحيث لا يتقلصون في دول آسيا الوسطى الحديثة الاستقلال، فإنهم يستيقظون ثانية على حقيقة أن لديهم لغة مشتركة سابقة لاستعمالها مع جيرانهم في لغاتهم التركية الوثيقة التقارب وذات الفهم المتبادل. فإن لم تكن هذه كافية، فإن الناس صاروا يعتقدون بصورة متزايدة أيضاً أن صِلاتهم العالمية يمكن خدمتها بشكل أفضل عن طريق الأخذ بالإنكليزية بدلاً من الروسية كلغة لاتصالاتهم الواسعة. ورغم كل هذه الأسباب، فإن مستقبل اللغة الروسية لا يبدو وردياً.

ثم إن اللغات الأوروبية الكبرى الأخرى: الإنكليزية، والإسبانية، والبرتغالية، والفرنسية، كلها مدينة بمكانتها لإمبراطورياتها الاستعمارية التي سيطرت على الأرض في النصف الثاني من الألفية الميلادية الثانية. فهي لغات السكان الاستعماريين الذين تمكنوا من النمو الجماعي الكثيف في مواطنهم الجديدة التي انتقلوا إليها، فأضافوا قوة المهاجرين إلى زيادتهم الطبيعية، وتمكنوا أيضاً من الانتشار على حساب اللغات المحلية السابقة في الأراضي التي استعمروها: وبهذه الطريقة فإن اللغات ذات الاتصال الأوسع كثيراً ما انتهى بها الأمر إلى احتكار كل الاتصال.

وباستثناء اللغة الفرنسية، فإن أكثر المستعمرات السابقة ازدحاماً بالسكان يفوق تعدادها تعداد سكان المواطن الأم لكل تلك اللغات: فسكان الولايات المتحدة هم أكثر من أربعة أضعاف سكان المملكة المتحدة، وسكان المكسيك ثلاثة أضعاف سكان إسبانيا تقريباً، وسكان البرازيل سبعة عشر ضعف سكان البرتغال. ويصعب جداً التنبؤ بمرتباتهم بين أوسع لغات العالم انتشاراً بعد خمسين سنة من الآن. وينبغي أن تحتفظ الإسبانية والبرتغالية بحصتيهما في البلدان التي لا تزال تنمو بقوة؛ فالمكسيك والبرازيل مثلاً يتوقع أن يضيفا 50 بالمئة إلى سكانهما في هذه الفترة. ولن تكون المستعمرات الأخرى في الأمريكتين وإفريقيا مختلفة عن ذلك كثيراً. وفي هذه الأثناء، قد تزيد الولايات المتحدة سكانها بمقدار ربعهم، ورغم أن هذا

قد يفيد مجتمع اللغة الإنكليزية، فإن المهم أن النمو سيكون بين الناطقين بالإسبانية بصورة رئيسية.

والواقع أن أصعب شيء هو التنبؤ بمستقبل الفرنسية والإنكليزية. فهاتان هما اللغتان اللتان يمكن اعتبارهما أداتين للعولمة. فكل منهما بطريقتها لغة مشتركة للاتصال بالعالم الأوسع. فالناطقون الأصليون بهما هم سكان البلدان الذين استقر عددهم وربما كانوا آخذين بالتناقص، وهذا يشير إلى أن إمكانيات نموهم في المستقبل محدودة. غير أن تلك البلدان نفسها هي الأكثر نفوذاً وتأثيراً في العالم، اقتصادياً، وثقافياً، وعسكرياً. ونتيجة لذلك يكتسب الناس الإنكليزية والفرنسية بشكل واسع كلغات ثانية في جميع أنحاء العالم، لأسباب تجارية وثقافية لها كل العلاقة بنفوذ هاتين اللغتين. وفي حالة الفرنسية على وجه الخصوص، فإن مكانة اللغة مضمونة سياسياً، لأن كثيراً من مستعمرات فرنسا السابقة، وخاصة في إفريقيا الوسطى، قد أخذت بها كلغة رسمية. (انظر الفصل الحادي عشر: 'الفرانكوفونية'، ص 576). أما بالنسبة للإنكليزية، فإن نفوذها في بعض الأحيان ليس له علاقة تذكر بالصِلات التاريخية، وتشهد على ذلك الموجة الحالية من الاهتمام بتعلم الإنكليزية في حوض بحر البلطيق، المنطقة التي لم تكن لها أبداً معاملات مع بريطانيا أو أمريكا. وبصورة عامة أكثر، فإن كتلة الثقافة التي مركزها الولايات المتحدة تتمتع الآن بشعبية عالمية. ولكن التأثير اللغوي لذلك على المدى الطويل قد يكون مؤقتاً بشكل يدعو للدهشة (انظر أيضاً الفصل الرابع عشر: 'طريق الانطلاق'، ص 736).

إن ميزان المستقبل بين اللغات على صعيد العالم كله هو الآن موضع نزاع إلى حد كبير. فمن الناحية السكانية، فإن دور اللغات الأوروبية، وخاصة الإنكليزية، كان يمكن توقع تضاؤله بينما ينمو باقي العالم بشكل مطلق ومن حيث الثروة النسبية (وقد تم المرور بإحدى معالم الطريق الهامة مؤخراً، عندما زادت المحتويات العابرة على شبكة الإنترنت الدولية باللغات الأخرى مجتمعة عن كمية ما هو وارد على تلك الشبكة باللغة الإنكليزية). ولكن مع زيادة هذه الثروة، يظهر أن هناك زيادة على طلب تعلم تلك اللغات الأوروبية واستعمالها، لأنها لم

تعد تعتبر رموزاً للسيطرة الاستعمارية، بل صارت تعتبر مفاتيح حاسمة للوصول إلى النظام العالمي. وبمعنى ما، فإن أهمية اللغات في دور اللغة المشتركة، وكرموز للالتزام بطريقة حياة تتجاوز المصالح المحلية، تعمل ضد تضاؤل سيطرتها كلغات أولى.

إن التوتر بين النمو الداخلي والخارجي، وبين الأهمية المتزايدة للغة أمٍّ مع نمو السكان الناطقين بها والشعبية المرافقة لكونها لغة مشتركة تعتبر تطويراً للعلاقات مع العالم الأوسع، هو توتر لا يقتصر الشعور به على هذا الصعيد العالمي فقط. ومن ناحية المبدأ، ليس في هذا شيء جديد: فالتوتر نفسه له تاريخ طويل في الصراعات لتجاوز الاحتكاكات القبلية والمجتمعية من أجل بناء أمم متحدة.

ومن الملاحظ أن أكبر لغتين في إندونيسيا، وهما الجاوية (75 مليوناً) والسندانية (27 مليوناً) المحكيتان في جزيرة جاوة المكتظة بالسكان، قد استوعبتا مؤخراً تحولاً جماعياً كثيفاً إلى اللغة الوطنية، وهي لغة بهاسا إندونيسيا (التي ينطق بها الآن أكثر من 200 مليون نسمة، ولو كلغة ثانية بصورة رئيسية). وهي ليست سوى الملايوية، اللغة المشتركة في جزر الهند الشرقية. وبهذه الصفة فإنها محكية ليس في إندونيسيا فقط، بل أيضاً في ماليزيا، وبروني، وسنغافورة، بحيث يصل مجموع الناطقين بها إلى حوالي 220 مليوناً(*). ويبدو أن الحياة المحلية واتصالاتها في إندونيسيا تشعر في آخر الأمر بوطأة تطلعات أوسع.

وبالمثل، فإن اللغة المشتركة في شرق إفريقيا هي السواحيلية. وهذه اللغة أصلها من البانتو، ولكنها تحولت عن طريق الاتصال التجاري باللغة العربية (انظر الفصل الثالث: "العربية ـ البلاغة والمساواة: انتصار 'التسليم'"، ص 160)، والمجموع الكلي للناطقين بها 30 مليوناً، ولكن 5 ملايين منهم فقط هم

(*) ومع ذلك فإن ارتباطها باندونيسيا كان قوياً بما يكفي لإلغائها بقوة كلغة رسمية في دولة تيمور الشرقية الجديدة التي جعلها الحنين إلى الماضي تختار بدلاً من ذلك العودة إلى لغة القوة الاستعمارية القديمة: البرتغالية.

الذين اكتسبوها بشكل طبيعي كلغة أولى. ومع ذلك فإنها اللغة الرسمية في تانزانيا، وأوسع اللغات تكلماً في كينيا المجاورة وفي كثير من البلدان الأخرى في المنطقة. وفي كل مكان، هناك عدد من الناطقين بها أقل من أكبر لغات تلك البلدان.

ولعدة أغراض، فإن عدد الناس الموجودين في مجتمع لغويٍ ما أقل أهمية من معرفة من هم هؤلاء الناس، ومدى جودة توزّعهم.

14
التطلع إلى الأمام

ما هو قديم

إن أوضح حكم يبرز من مسحنا الاستطلاعي العالمي هو أن هجرة الشعوب، التي هي أول قوة نشرت اللغات في التاريخ، تسيطر حتى يومنا هذا. فهجرة الفلاحين جلبت اللغة الصينية جنوباً إلى ضفاف نهر يانغتسي كيانغ وما وراءها. وهجرة البدو واللاجئين جلبت الآرامية شرقاً من سوريا، نزولاً عبر وادي الفرات إلى بابل. وهجرة التجّار جلبت اللغة البونية عبر البحر الأبيض المتوسط من صور إلى قرطاجة وشمال إفريقيا. والهجرات المنظمة سياسياً كمستعمرات للدول، ومع ذلك تجتذب متطوعين، زرعت اللاتينية بين أهالي بلاد الغال في شمال إيطاليا وجنوب فرنسا في القرنين الثاني والأول قبل الميلاد، كما زرعت الإنكليزية على طول السواحل الشرقية لأمريكا الشمالية في القرن السابع عشر الميلادي، وعلى طول سواحل أستراليا في القرن التاسع عشر. وحتى الآن فإن التحرك شبه التلقائي لهجرة الناطقين بالإسبانية شمالاً عبر نهر ريو غراندي هو أكبر تحدٍ للسيطرة الإنكليزية الكاملة في الولايات المتحدة.

ويبدو أنه حتى مجيء التطورات المثيرة للاهتمام التي تعرضت لها الإنكليزية في الهند في القرن التاسع عشر، كانت الغزوات الأجنبية لا تؤدي إلى تحول لغوي إلا إذا تلت الغزو هجرةُ عدد كبير من الناس الناطقين بلغة الغزاة

من الأصل. وبهذا المعنى، فإن الهجرة ـ وليس الغزو ـ هي الكامنة في الجذور عندما يظهر أن الغزو العسكري قد نشر لغته في مناطق جديدة.

إن أهمية اجتذاب المهاجرين قد تفسر فرقاً كبيراً كالذي لاحظناه بين الإمبراطوريتين اليونانية والرومانية. فتكلم اليونانية لم يتبع غزوات الإسكندر إلاّ سطحياً في مقاطعات الإمبراطورية الفارسية المترامية الأطراف، رغم أن السيطرة اليونانية كانت آمنة سياسياً. وفي فارس نفسها، ألغيت اليونانية بعد خمسة أجيال أو ستة، عندما أعادت اللغة البارثية تأكيد سيطرتها المحلية، وحتى في سوريا وفلسطين ومصر، حيث استمرت الإدارة الإغريقية تحت حكم الرومان، وهكذا بقيت اللغة اليونانية ألف عام. وبقيت اللغة الشعبية طيلة ذلك الوقت كله هي الآرامية (مع المصرية في مصر). وعندما تولى العرب الإدارة في القرن السابع، ألغيت اللغة اليونانية كلياً في غضون جيلين، حتى بعد بقائها ألف عام. وعلى عكس ذلك، فإن الغزوات الرومانية على القارة الأوروبية الغربية أثبتت أنها دائمة في تأثيراتها اللغوية. وحتى حيث لم تكن هناك مستعمرات واضحة (وقد رأينا كيف أن هذه المستعمرات فتحت الطريق للاتينية في شمال إيطاليا ـ انظر الفصل السابع: 'الرون: البروز المندفع للكلت'، ص 413)، فإن الجيش الروماني قدّم في جميع أنحاء الإمبراطورية مصدراً مستمراً للمستوطنين، فكثيراً ما كان المحاربون القدامى يستقرون ويحرثون الأرض التي أدوا فيها خدمتهم العسكرية[1].

وبالمثل، فإن الخطوة الكبيرة المبكرة من هجرة الناطقين بالإنكليزية إلى أمريكا الشمالية كانت مؤثرة في تعزيز الإنكليزية وتغليبها على جميع اللغات الاستعمارية الأخرى في القرنين السابع عشر والثامن عشر (انظر الفصل الثاني عشر: 'إلى الغرب هيا!'، ص 654). وكان الشذوذ الذي يثبت القاعدة هو أن الفرنسية رسخت نفسها في كندا وازدهرت من خلال سياسة متعمدة من مساعدة هجرة النساء الناطقات بالفرنسية (انظر الفصل الحادي عشر: 'الفرانكوفونية'، ص 568). وكانت الهجرة الكثيفة اللاحقة بعد ذلك إلى أمريكا الشمالية استثناءً بمعنىً آخر: فهي لم تنتقص من الأخذ باللغة الإنكليزية التي

كانت قد استقرت وترسخت في القارة، لأن المهاجرين على وجه العموم لم ينتقلوا أو يستقروا مع آخرين من ذوي اللغة نفسها، ونتيجة لذلك فإن هؤلاء المهاجرين اللاحقين كانوا يميلون في معظم الحالات إلى اكتساب الإنكليزية بدلاً من فرض لغاتهم الخاصة بهم على جيرانهم الجدد. ورغم كثير من الصلات المجتمعية، فقد ساد هذا الاتجاه.

إن الهجرة هي البذرة الأساسية لانتشار اللغة، ولكن نزوع القادمين الجدد إلى الاستيطان، وبالتالي إزاحة السكان القدامى ذوي اللغات المختلفة، تضاف إليه وتعززه الخصوبة الأكبر للقادمين الجدد. فعندما يجدون أنفسهم مع ميزة تقويهم على الأهالي الأصليين يصبحون ذوي أُسَر أكبر، وبالتالي ففي غضون أجيال قليلة يصبحون أكثر عدداً من السكان الأصليين. ومن المحتمل جداً أن يكون ذلك مصحوباً بهجرة واسعة النطاق - وبدون أي نوع من الميزة، سواء في الصحة، أم في الثروة، أم حتى في قبول أجور منخفضة، فإن من الصعب رؤية كيف يمكن لأي سكان مهاجرين أن يرسخوا وجودهم على حساب المستقرين قبلهم - ولكن ذلك كان واضحاً بشكل خاص في التاريخ المبكر لكل من الولايات المتحدة وأستراليا ونيوزيلندا، حيث كان النمو كبيراً وسريعاً وموثقاً بإحصائيات النفوس. ففي كل هذه الحالات كان المهاجرون يدخلون معهم محاصيل المناطق المعتدلة وحيواناتها. وعلى أي حال فإن المرء يستطيع أن يخمن أن هناك عوامل مماثلة لا بد أنها كثيراً ما لعبت دورها في الماضي، على سبيل المثال، لصالح الناطقين بالسامية في كثير من أجزاء آسيا الغربية، عندما أدخلوا لأول مرة المحاصيل القابلة للزراعة في مناطق جديدة لم تكن في السابق تعرف سوى الصيادين والقاطفين الملتقطين والرعاة. والأسر الكبيرة تعني طلباً متزايداً على الأرض، ولكنها تعني أيضاً جيوشاً أكبر لأخذ الأرض والدفاع عنها. وهذا كله يفيد اللغة التي يتكلمها المهاجرون المزارعون. والواقع أن هذا ليس سوى 'النمو الطبيعي' الذي وجدناه مسؤولاً عن مجتمعات لغوية كبيرة كثيرة في الفصل الثالث عشر.

وهناك عامل كثيراً ما يعزى إليه الفضل في انتشار اللغة وجدنا أنه ليس

له أثر يذكر على المدى القصير. هذا العامل هو التجارة. وبالطبع فإن العلاقات التجارية الرسمية قديمة جداً، كقدم اللغة المكتوبة على الأقل (وقد رأينا أن اللغة المكتوبة في وادي الرافدين يعود أصلها إلى إعادة تفسير الرموز التجارية (الفصل الثالث: 'السومرية ـ اللغة التقليدية الأولى: الحياة بعد الموت'، ص 87). ولكن ليس هناك مجتمع مشهور بتخصصه في التجارة مرر لغته كلهجة دارجة بصورة دائمة، أو حتى كلغة مشتركة إلى زبائنه. ففي أقصى الحالات يميل هذا النشاط إلى تغلغل اللغة، وحتى انتشارها، لأن حالات إقامة التجار كلها كمهاجرين داخل مجتمع زبائنهم هي حالات نادرة. فقرطاجة، التي حملت لغة التجار الفينيقية أو البونية إلى جزء كبير من شمال إفريقيا، هي إحدى هذه الحالات النادرة. وبصورة عامة، فإن لغات التجار هذه ـ ومن الأمثلة الأخرى عليها اللغة الصغدية على طريق الحرير، والعربية ومن بعدها البرتغالية في المحيط الهندي ـ لا تحقق القفزة من الاستعمال التجاري المحدود. فعندما يختفي السوق، أو يدخل آخرون بقوتهم، فإن اللغة تسقط أيضاً. وهكذا فإن هناك حاجة للتشكك في الاقتراحات القائلة بأن الإنكليزية في هذه الأيام تستفيد من موقعها كلغة للأعمال التجارية العالمية: فقد تكون الإنكليزية هي التفضيل العملي الذرائعي اليوم، ولكن أنماط التجارة تتغير مع مرور الزمن. والعلاقة التجارية وحدها لن تضمن وجود مجتمع لغوي.

غير أن التجار لا يجلبون دائماً السلع وحدها عند زيارتهم لمواقع غريبة. ففي بعض الأحيان يجلبون معهم عقيدة جديدة، فيعملون إما كمبشرين بها بأنفسهم، أو يجلبون مبشرين محترفين معهم. ويمكن أن تكون هذه البعثات التبشيرية أدوات للغة جديدة، إذا كان للعقيدة مثل هذا الارتباط. فالسنسكريتية والبالية اللتان وصلتا إلى جنوب شرقي آسيا في الألف الميلادي الأول جاءتا مع التجار أو القراصنة الهنود والبوذيين؛ وبعد ذلك بألف عام، كان تجار آخرون من الهند يجلبون الإسلام، بينما كان التجار الأوروبيون الأوائل، ومعظمهم برتغاليون، يعرضون عليهم المسيحية الكاثوليكية. ومن بين هذه الأديان الأربعة، التي كانت مع كل منها لغة مرافقة، فإن المسيحية وحدها هي التي يبدو أنها عرضت لغتها

كلغة دارجة ـ رغم أنها كانت أقل الأديان وعياً باللغة، بينما بقيت السنسكريتية والبالية والعربية لغات محصورة بالعبادة وأصبحت البرتغالية بالفعل اللغة الأولى لكثير من المتنصرين، وهي باقية حتى اليوم بأشكال وصيغ شعبية هجينة مختلطة من الهند والملايو. ثم إن شركة الهند الشرقية الإنكليزية، التي جاءت إلى الهند بحثاً عن الربح فقط، بقيت مدة كافية لتمكين المبشرين من بناء قوتهم بحيث انتهى بهم الأمر إلى تعليم السكان الإنكليزية أيضاً.

ولكن المبشرين ليسوا دائماً تجاراً ذوي دافع آخر خفي. ذلك أن البعثات التبشيرية نفسها قد تقدم دافعاً كبيراً للسفر إلى أماكن نائية: ومثل هؤلاء المبشرين الحجاج نشروا لغات كثيرة، وخاصة في آسيا. ففي القرن الميلادي الأول طاف كهنة بوذيون حول جبال الهمالايا وعبر أفغانستان وجبال البامير لإيصال الحقائق النبيلة الأربع إلى الصينيين، ومعها اللغة السنسكريتية المقدسة. وفي القرن الثامن وصل النساطرة قادمين عبر الطريق كله من سوريا عن طريق فارس إلى مدخل طريق الحرير نفسه، ومن خلاله جلبوا النصرانية ـ والآرامية لوقت قصير على الأقل ـ إلى قلب البر الصيني. وكانوا قد أخذوها إلى طرف الهند الجنوبي (انظر الفصل الثالث: 'الفترة الفاصلة الثانية: درع الإيمان'، ص 140). وجاء المسلمون أيضاً على الطريق نفسه عبر آسيا لنشر عقيدتهم، الباقية حتى يومنا هذا، وخاصة على سواحل الصين، ولا يمكن التفكير في الإسلام بدون اللغة العربية. وفي وقت حديث، في القرن التاسع عشر، قامت البعثات المسيحية البروتستانية بجلب أول الكلمات بالإنكليزية إلى إفريقيا الوسطى، ومعظم جزر المحيط الهادئ. (انظر الفصل الثاني عشر: 'العالم تجتاحه عاصفة'، ص 670 وما يليها).

ومن المحزن أن الدوافع التبشيرية ليست سلمية هكذا دائماً. وبعبارة أخرى فإن الناس المسيطرين يشعرون أحياناً بحافز يتصورون أنه واجبهم لفرض عقيدتهم على ضحاياهم المهزومين من أجل 'تنويرهم'. وفي الحالات المتطرفة ـ وهي ليست نادرة في الألف الميلادي الثاني ـ فإن الواجب يزداد حدة فيصبح عدواناً يرى نفسه على حق: أي أن على المؤمنين أن يحاولوا دحر جيرانهم وببساطة من أجل فرض العقيدة عليهم.

ويبدو أن هذا الحافز 'التبشيري' كان على نحو خاص من خصائص العقائد المستمدة من الوحي، وهي اليهودية والمسيحية والإسلام. وهو حافز كان مخففاً عند اليهود لأنهم كانوا بشكل دائم تقريباً في قوة أصغر بكثير من أعدائهم أو جيرانهم، ومن هنا فإنهم يؤيدون المذهب فقط بنزعة الحنين إلى الماضي، مستذكرين القصص التوراتية عن غزواتهم المبكرة. وبالنسبة للمسلمين فقد كان هناك دائماً المذهب القائل بأن أهل الكتاب ـ اليهود، والنصارى، والزرادشتيين، مع المسلمين أنفسهم ـ يستحقون تسامحاً خاصاً، وهكذا فقد عوملوا باعتدال معين عند هزيمتهم. وبقي للنصارى أن يجربوا الشدائد الكاملة لشن حروب عدوانية واستعمارية باسم الدين.

وقد صيغ هذا المذهب في الحروب الصليبية ضد الإسلام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، عندما لم تكن لدى المسيحيين ميزة كافية لخلق سيطرة طويلة الأمد. ولكن عند طرد المغاربة من إسبانيا في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، وأكثر من ذلك في الأمريكتين، كانت القوى أقل تساوياً بكثير. فقد تلقى ملوك إسبانيا والبرتغال تفويضاً رسمياً لسلب ممتلكات الملوك الآخرين، وتأسيس إمبراطوريتهم من أجل غرض صريح هو توسيع ممتلكات العقيدة الكاثوليكية[2]. ولكن كانت إحدى أعظم مفارقات هذه المراجعة العالمية هي الاكتشاف بأن المجتمعات الدينية في جميع أنحاء أمريكا اللاتينية هي التي مالت إلى المحافظة على استخدام لغات أمريكا الأصلية: فلغات أوروبا لم تبدأ بمحق الآخرين إلا عندما تراجع الاهتمام بالأهالي الأصليين والقلق عليهم (انظر الفصل العاشر: 'حل الدولة: اعتماد الإسبانية'، ص 514). ومهما كانت نية المسيحيين الأصلية، فإن الذين نشروا اللغة كانوا هم المستوطنين، وليس المبشرين وعقيدتهم ذات الحرب الصليبية.

ما هو جديد

قد لا تتغير الطبيعة الإنسانية كثيراً. ولكن في الخمسمئة عام الماضية ـ وهي الفترة التي مثلناها باللغات في البحر ـ برزت بعض العوامل التي أثرت تأثيراً جذرياً على قدرة اللغات على الانتشار.

وأول هذه العوامل هي الملاحة العالمية. وكان الدافع لتطويرها تجارياً، وهو الطموح الأوروبي للحصول على السلع الآسيوية، ولا سيما التوابل، بطريقة أرخص. وسرعان ما تحقق هذا الطموح، ولكن كانت هناك نتيجة جانبية مباشرة عملت في الاتجاه المعاكس - وهي التأسيس التدريجي لمجتمعات لغوية من الأوروبيين في أماكن نائيةٍ في آسيا والأمريكتين. وهي مجتمعات سرعان ما كسبت بعض الأعضاء المحليين الجدد. فلم يعد من الضروري أن تكون مجتمعات الكلام متجاورة، أو متصلة عن طريق رحلات قصيرة عبر بحار مألوفة.

ومن الممكن الإشارة إلى بعض إرهاصات هذا الاختراق - مثل التجارة الصينية مع جنوب شرقي آسيا التي توسعت فترة قصيرة لتستوعب المحيط الهندي كله في أوائل القرن الخامس عشر (انظر الفصل الرابع: 'اللغة من هوانغ هي إلى يانغتسي'، ص 214)؛ وكذلك التجار العرب، والفرس، والهنود، الذين جعلوا المحيط الهندي ميداناً لنشاطهم في أوائل الألف الميلادي الأول، والملاحين البولينيزيين الذين جاؤوا قبل ذلك بكثير بقواربهم ذات الأذرع الطويلة في المحيط الهادئ، والذين تمكنوا من الوصول إلى جزيرة بعد جزيرة من كل كتلة أرض برية مأهولة هناك؛ بل والبحارة البدائيين الأقدمين الذين شقوا طريقهم قبل آلاف السنين من خلال جزر الهند الشرقية وعبر مضايق تورز إلى أستراليا. ولكن لم ينجح أحد من هؤلاء السابقين في رسم خريطة للعالم كله دفعة واحدة وتقديم جرد كامل لما هو موجود من الأراضي التي تنتظر الاكتشاف، وأين تقع. وفي القرن السادس عشر، تقلص العالم من نظام مفتوح إلى مجال كروي مغلقٍ ومحدد، وظل خطراً ولكنه صار من الممكن إدارته. فصار من الممكن عندئذٍ أن يقيم الناطقون بلغةٍ ما موطناً لهم على الطرف الآخر من المحيط، بل وعلى بعد محيطات كثيرة من بلدهم الأم: فقد يكون الوصول إليهم صعباً، ولكن عنوانهم صار معروفاً. ورغم أنهم مبعثرون حول العالم، إلا أنه صار من الممكن الإبقاء على الاتصال فيما بينهم.

وعند إقامة هذه الشبكة من المجتمعات غير المستمرة، التي يمكن الإبقاء

عليها عن طريق المرور البحري المنتظم، تغير نطاق العلاقات بين المجتمعات أيضاً. ففي الأمريكتين، أدى انتشار الأمراض الوبائية بسرعة شديدة إلى إعادة تعديل الحجم النسبي للمجتمعات الأصلية المستقرة من قبل والمجتمعات القادمة. وفي أمريكا اللاتينية أدى التزاوج المختلط وولاداته إلى محو الحدود وتلاشيها فيما بينهم، سواء أكانت حدوداً لغوية أم ثقافية. ونتيجة لذلك فإن مجتمعات المستوطنين أزاحت الأهالي الأصليين وحلت محلهم إلى حد كبير عن طريق دمجهم أو إبعادهم(*). ولم يكن في ذلك شيء جديد سوى النطاق القاري الواسع لما كان يحدث. فلا بد أن شيئاً مماثلاً قد حدث، على سبيل المثال، عندما غزا الرومان بلاد الغال، أو عندما استولى الساكسون على إنكلترا. ولكن في الهند وجزر الهند الشرقية لم يكن المجتمع الأصلي عرضة للعطب والتلاشي من الأمراض التي جاء بها الناس المهاجرون: بل بالعكس، فإن الأمراض الوبائية هناك أبقت عدد المهاجرين صغيراً. فكانت النتيجة مجتمع أقلية صغيرة باستمرار من الأجانب، الأوروبيين، الذين يعيشون على حافة أماكن استقرار الأهالي الأصليين، ولكنهم يؤثرون فيهم بشكل متزايد. فهذا كان هو الوضع الجديد ورد الفعل عليه. وكان انتشار لغة ما عن طريق إعادة التثقيف شيئاً جديداً أيضاً.

وبالنتيجة، فإن الأقلية الخارجية مرّرت لغتها ذات النفوذ المتميز إلى نخبة الأكثرية، ليس كلغة مشتركة بل كرمز لنوع من التجنيد الثقافي. وإن نوعية هذا التطور الجديد قد أكدتها حقيقة حدوثه في الهند البريطانية، ولكن ليس في شركة الهند الشرقية الهولندية الشديدة الشبه بها. ذلك أن الشركتين البريطانية والهولندية كليهما قد جلبتا لغة جرمانية إلى سوق تجارية قائمة منذ زمن طويل في جنوب آسيا. وكانتا قد نجحتا في إزاحة منافسيهما الأوروبيين، البرتغاليين والفرنسيين، واجتذبتا مبشرين بروتستانتيين من أتباع معسكرهما كانوا حريصين

(*) كان الوضع في كل مكان معقداً بتدفق استخدام أطراف ثالثة في الوقت نفسه، وهم على الأغلب الأفارقة المستوردون كعبيد إلى درجة أنهم، أو خليط منهم ومن السكان الأصليين، صاروا يمثلون مجتمعاً جديداً من الأقليات، حيث صار المهاجرون عندئذ هم الأغلبية. ولكن هذه الأقلية المرتبطة بالعبيد لم تكن منفصلة لغوياً عن مجتمع الأغلبية، إذ إنهم أصبحوا مجتمعاً بأنفسهم عن طريق الأخذ بصيغةٍ أو نسخةٍ من لغة مالكي العبيد.

على نقل نظرتهم الروحية للعالم إلى السكان المحليين. ولكن الهولنديين كانوا مقتنعين دائماً باستخدام اللغة المحلية المشتركة، وهي الملايوية، كلغة لدينهم ولإدارتهم. وكان عالمهم الخاص منفصلاً عن عالم مزوديهم المحليين ومستخدميهم، الذين صاروا رعاياهم في آخر الأمر، وظلوا كذلك. (انظر الفصل الحادي عشر: 'المتطفلون الهولنديون'، ص 543). وكان البريطانيون فقط هم الذين قدموا الوسيلة للتحول إلى لغتهم الخاصة، الإنكليزية. وعندما فعلوا ذلك كانوا يخضعون بالتأكيد للضغط من مبشريهم أنفسهم، ولكن أيضاً من سكان موطنهم ومن قسم كبير من رجال النخبة الهنود. ذلك أن الموقف الجديد من المستعمرة الذي كان آخذاً بالظهور لم يكن يتطلب أي شيء أقل من ذلك، إذ إنه لم يكن يعتبر الهند مجرد مكان للحصول على الربح، بل يعتبرها بريطانية يجب تطويرها كجزء من بريطانيا العظمى.

وقد ثبت أن هذه الخطوة قد فتحت الطريق للإنكليزية كلغةٍ عالمية، متاحة لكل الراغبين في المشاركة في الثورة الصناعية أينما كان مكان إقامتهم. وربما كانت الدوافع في ذلك الوقت تستذكر دوافع رئيس الأساقفة لورينـزانا، الذي كان يدعو في القرن الثامن عشر إلى استخدام اللغة الإسبانية في جميع أنحاء إمبراطورية إسبانيا، وليس أقل ما في ذلك واجب تثقيف الهنود. (انظر الفصل العاشر: 'حل الدولة: اعتماد الإسبانية'، ص 514). ولكنه كان يدعو إلى الإسبانية من أجل فرضها، وليس من أجل التنازل لها، وهكذا تم فرضها في آخر الأمر، عن طريق إهمال التعليم باللغات الأخرى إلى حد كبير. ولم تكن حالة الإنكليزية في الهند تنطوي على سحب رمزي لدعم الحكومة للغتين السنسكريتية والعربية، وقد أسهم تعميم استعمال الإنكليزية في إغلاق أذهان الناطقين بالإنكليزية عن اللغات الأجنبية. ('فبعد كل شيء، إنهم جميعاً يتكلمون الإنكليزية، أليس كذلك؟'). ولكن هذا النشر للغة على صعيد العالم كله في آخر الأمر عن طريق ما أسميناه إعادة التثقيف، لم يكن فرضاً لها أبداً؛ فقد بقيت الإنكليزية لغة أقلية صغيرة، وحتى بين الوطنيين الهنود كان هناك شعور بأن تحصيلها يشبه اكتساب فرصة. وكان ذلك تطوراً جديداً وهاماً في تاريخ انتشار اللغة. وقد تم الأخذ به فيما بعد كسياسة متعمدة من قبل قوة واحدة أخرى على

الأقل، وهم الفرنسيون في 'الرسالة الحضارية' التي تصوروها لإمبراطوريتهم. (انظر الفصل الحادي عشر: 'الإمبراطورية الثانية'، ص 571).

وكان الابتكار الآخر في نشر اللغة على مدى الخمسمئة عام الأخيرة، وخاصة القرنين الأخيرين هو دور التكنولوجيا المتنامي. فالحضارات بطبيعتها تدفعها التكنولوجيا، بل إن الحضارة حسب أحد التعاريف هي تراكم متميز للابتكارات التقنية. وكانت التكنولوجيا قد دفعت انتشار اللغة إلى الأمام من قبل: وتذكروا كيف أن توفر الأكادية في كتابات مسمارية على الطين قد جعلها لغة الدبلوماسية المشتركة في غرب آسيا (انظر الفصل الثالث: 'الأكادية ـ تقنية تتغلب على العالم: نموذج من معرفة القراءة والكتابة'، ص 99)، وكيف أن النظام الأبجدي الذي اخترعه الفينيقيون قدم الأساس ليس فقط لدور نخبوي للناطقين بالآرامية ككتاب في آشور وبابل، ولكن أيضاً للإدارة والتعليم في جميع أنحاء العالم في آخر الأمر، من آيسلندا إلى جزر الهند الشرقية.

ولكن انتشار اللغة في العصر الحديث قد تم قبل كل شيء عن طريق الإنتاج الكبير لنصوص لغوية، وبعد ذلك لوسائل نشرها بصورة فورية عبر أي مسافة. فقد جاءت الطباعة أولاً، وكانت قد بدأت في أوروبا في القرن الخامس عشر. فلعبت دوراً أساسياً في مواجهة أوروبا الغربية لكثير من اللغات المجهولة، وكذلك في نشر اللغات الأوروبية نفسها(*). وبعد ذلك بأربعمئة عام جاءت الاتصالات الإلكترونية، من نقطة إلى نقطةٍ في أول الأمر، وتلتها الإذاعة. فكان تأثيرها على نشر اللغة عميقاً. فصار من الممكن الحفاظ على المجتمعات اللغوية رغم الانفصال المادي(**). وقد يكون لهذا تأثير ـ غير معروف حتى الآن ـ على تطور اللغات نفسها؛ فالتكنولوجيا الإلكترونية، إذا أصبحت متغلغلة بصورة كلية، فإنها قد لا

(*) ومن النتائج الإضافية لذلك والتي لا يلاحظها أحد الاستخدام الأول للكتب المطبوعة لتعليم اللغة، وذلك بدءاً باللاتينية. وقد أدى هذا بدوره إلى تطور الدراسات اللغوية التبشيرية، في الأصل كمساعد على الوعظ في أماكن غريبة (أوستلر: 2004).

(**) يمكن توقع أن يؤدي ذلك بسرعة إلى إفادة المجتمعات اللغوية الصغيرة، وكذلك اللغات العظمى التي هي موضوع هذا الكتاب.

تؤدي فقط إلى 'موت المسافات' المعلن عنه على نطاق واسع، بل حتى إلى 'موت اللهجات'. ولكن التكنولوجيا قد أحدثت تأثيرات غير مباشرة. فانسحاب القوى الإمبراطورية الأوروبية بعد الحرب العالمية الثانية، وخاصة من إفريقيا، كان قبل كل شيء استجابة سياسية لسياسة جديدة انتشر الشعور بها على نطاق عالمي، وهي 'رياح التغيير' التي اشتهر عن رئيس الوزراء البريطاني هارولد ماكميلان أنه أحس بها في العام 1960. 'إن ريح التغيير تهب عبر القارة. وسواء أحببنا ذلك أم لا، فإن نمو الوعي الوطني حقيقة سياسية'،[3].

كانت النخب الأجنبية قد أخذت بالمغادرة، احتراماً لأصوات الأكثرية في العالم، ومن بينها أصوات الناس الذين حكمتهم تلك النخب. وهي أصوات صارت مسموعة عبر وسائل إعلام تلك النخب نفسها، بل وهي تتحدث بلغات تلك النخب نفسها أيضاً.

طريق الانطلاق

لا بد أننا نعمل شيئاً صحيحاً كي يستمر مئتي عام

هنري جيبسون: أغنية عنوانها 'مئتا عام"،[4].

لا يزال علينا أن نتأمل في ماهية المستقبل الذي قد ينتظر الإنكليزية.

إن الأربعمئة عام الماضية كانت بشكل سخيف ينافي العقل تقريباً مطمئنة للشعوب الناطقة بالإنكليزية بينما تلاحقت الانتصارات السياسية، والعسكرية، والثقافية. وقد توسع المجتمع اللغوي من إنكلترا إلى ما وراء البحار، أولاً بالتسلل خلسة في الشقوق الضئيلة، ثم بفرض نفسها على ممتلكاتها الإمبراطورية الآخذة في التوسع باطراد، وأخيراً بعد موت الاستعمار السافر الرديء عن طريق المديح الظاهر لها في السوق العالمية الواحدة. فهي أولاً مخلوق الملكة الاجتماعية الإنسانية لإيجاد لغة بين مجموعات متباينة تتشارك في إقليم واحد، ثم القدرة التي اكتشفها مجتمع تلك الجزيرة الواحدة لاستخدام قوة

أسطوله البحري لنشر مواطنيه ونفوذه السياسي أينما وجد نقاط ضعف في جميع أنحاء العالم، وفي العصر الحديث مؤخراً صارت الإنكليزية هي اللغة الجاهزة المتاحة عندما اكتشفت أوروبا وأمريكا الشمالية ثم العالم كله كيفية الاستفادة من أنواع الوقود الأحفوري، ومن العلم، ومن الأسواق الكبيرة. وهذا الحظ الهائل المستمر خلق للإنكليزية احتياطياً ضخماً من النفوذ ينعكس في الحماسة العالمية لثقافتها الشعبية. وكما أظهرت اللغة الفرنسية قبل خمسمئة عام، فإن الارتباط بالثروة والقوة شيء شديد الجاذبية.

ولكن الإنكليزية لا يمكنها أن تتوقع أن يستمر شيوع لغتها إلى الأبد. إن وجود لغة وحيدة للاتصال على صعيد العالم كله يساعد على الاستقرار، ويعطي لهذه اللغة مظهر كونها جزءاً محايداً من النظام العالمي، خارج سيطرة القوى العظمى وخارج سيطرة أي مجتمع واحد بالقدر نفسه. وبالمثل، فإن اللغة اللاتينية، التي عاشت ما يقرب من ألف عام بعد هلاك الإمبراطورية الرومانية في الغرب، أعطت أوروبا الغربية على الأقل، في تطورها المنفصل الطويل، سبباً وجيهاً للاعتقاد بأنها أصبحت لغة الفكر والحقيقة الدائمة والنقية. ولكن الطباعة، والملاحة البحرية لمسافات طويلة، ونشوء إمبراطوريات عالمية، قد غيرت ذلك كله. فالعالم يبقى مكاناً شديد الحركة والنشاط. وبالنسبة للغات، كما بالنسبة لأي مؤسسة إنسانية، فإنك عندما تكون على القمة، فإن هناك ـ عاجلاً أم آجلاً ـ اتجاهاً واحداً فقط لتحركك من هناك.

إن المكانة الحالية للإنكليزية تدعمها ثلاثة أعمدة رئيسية: السكان، والموقع، والنفوذ.

فأولاً، وقبل كل شيء، تملك الإنكليزية ناطقين كثيرين كأي لغة أخرى. فعندما يضاف الناطقون بها كلغة أمّ، والبالغ عددهم 350 مليوناً إلى العدد المماثل من الناطقين بها كلغة ثانية، وإلى الثلاثة أرباع المليار الذين تعلموها في المدارس أو في صفوف أخرى، يصبح من المعقول الزعم بأن ربع البشرية يعرفون الإنكليزية. وإن اللغة الوحيدة التي يمكن مقارنتها بها هي الصينية عندما يجتمع معاً كل المثقفين بالماندارين، ولكن معدل الدخل، والمكانة والموقع العالمي

للإنكليزية تجعلها متفوقة إلى حد كبير. فتعلّم الإنكليزية هو موضوع للأغلبية في جمهورية الصين الشعبية، وعلى عكس ذلك، فإن اللغة الصينية تظل بعيدة عن المناهج الدراسية في جميع مدارس البلدان الناطقة بالإنكليزية.

وثانياً، ليس هناك الآن لغة تضاهي الإنكليزية في الشمول العالمي. فللإنكليزية مكانة خاصة في بلدان كل قارة. وهي مكانة لا تشاركها فيها سوى الفرنسية. ولكن هناك أربعة ناطقين بالإنكليزية كلغة أولى - أو ثانية - في مقابل كل ناطق بالفرنسية. وإن رضا الناطقين بالإنكليزية عن أنفسهم واضح جلي. وبينما يستمر الناطقون بالإنكليزية بالتفوق في كل معايير الإنجاز التجاري والعلمي، يبقى المعيار السائد في كل بلد ناطق بالإنكليزية أن يظل الذين يكملون تعليمهم الإلزامي أحاديي اللغة بالإنكليزية. فالكفاءة الفعالة بأي لغة أجنبية تظل بعيدة عن الأغلبية الساحقة من ذوي الكفاءة في الأساس التقني للحضارة الحديثة. وهم يبقون كذلك طيلة حياتهم. ولكن الرضا عن النفس ليس محصوراً بأغلبية الناطقين بالإنكليزية فقط، بل إن المسألة هي أن العالم لم يفرض حتى الآن ثمناً لهذا الشعور. وإن كان قد حدث أي شيء، فهو أن العالم قد كافأ الناطقين بالإنكليزية على عدم ابتعادهم عن تقاليدهم ومصادر حكمتهم نفسها.

وأخيراً، فإن الإنكليزية مرتبطة عن وعي بالتقدم التقني والثقافة الشعبية في كل جزء من العالم. فهذا النوع من النفوذ العالي للغة يبدو أن له أساساً جيداً على نحو خاص لأنه لا يقوم على وحي روحي - فحالات الوحي محلية دائماً، حتى عندما تطالب لنفسها بشرعية عالمية صحيحة - ولا على التشوق إلى نظام معين يكون من شأنه ضمان الحرية أو العدالة الاجتماعية. بل إن هذا النفوذ مبني على أساس إدراك الثروة التي يمكن جعلها تتدفق من التقدم العلمي وتطبيقه العقلاني. وبما أن هذه هي التجربة الحديثة لكل البلدان الأغنى في العالم اليوم، فإن الحقيقة الموضوعية بمعنىً ما تقف إلى جانبها.

إن البشر العمليين مشهورون بقصر النظر، وهكذا فإن 'المال الذكي' (وهو بنفسه مفهوم إنكليزي جداً) يدعم بطبيعته الاعتقاد بأن المسار الحديث

للإنكليزية، وبالتالي مكانتها الحالية، سوف يستمران بلا حدود. ومثلما أمكن إقناع "المفكرين الجيدين" في تسعينيات القرن العشرين بالاعتقاد بـ 'نهاية التاريخ' لفترة قصيرة، وبالانتصار النهائي للنزعة الليبرالية والأسواق[5]، فإن كثيرين يجادلون اليوم بأن تقدم الإنكليزية ربما يكون قد تخطى نقطة عالمية هامة في تطور الاتصالات العالمية بحيث سبق أي منافس محتمل سبقاً دائماً، وقدم لجميع متعلمي اللغات رهاناً واحداً فقط. إن ديفيد كريستال معلق واسع المعرفة والتفهم للغات في العالم الحديث، وفي نهاية كتابه "الإنكليزية كلغة عالمية" استعرض العوامل التي قد تعرّض موقعها للخطر، وخاصة ردود الفعل السلبية الأجنبية، وتغير الميزان السكاني، واحتمالات انشقاق اللهجات. ولكن حتى هو لا يستطيع في النهاية إلا أن يتكهن بأن 'الإنكليزية، بشكل أو صيغة ما، قد تجد نفسها في خدمة المجتمع العالمي إلى الأبد'[6].

إن دراستنا للأرضية الخلفية لخمسة آلاف عام من اللغات العالمية تجعل أبدية هذا الاحتمال تبدو غير واردة. فالوضع اللغوي العالمي الحديث غير مسبوق. ولكن الناس لا يزالون هم الذين يكوّنون المجتمع اللغوي. وقبل كل شيء فإن الناس يستخدمون اللغة ليقيموا علاقات اجتماعية. والمجتمعات الإنسانية كانت لديها دائماً طريقة لتكثير اللغات.

فأولاً وقبل كل شيء، فإن معظم الناس في العالم لا يزالون ثنائيي اللغة. وهذا يشير إلى أن لغات العالم نادراً ما ترسخ نفسها كأي شيء سوى لغات ثانية، مفيدة كلغة مشتركة حيث يكون الاتصال عبر مسافات طويلة شيئاً هاماً، ولكنها ليست على نحو خاص وسائل مسيطرة للغة اليومية للجميع. وكانت الاستثناءات الكبرى لذلك تشمل انتشار اللاتينية على مستوى القاعدة في بلاد الغال وفوق اللغات الإيبيرية في أوروبا الغربية، وانتشار الصينية في جنوب شرق آسيا، حيث كانت المجتمعات اللغوية المتعلمة منتشرة فوق مناطق متجاورة، دون ملئها بالضرورة بمستوطنين من الناطقين الأصليين باللغة. فالإنكليزية، التي بدأت على جزيرة بدون رأس جسر أوروبي، لم تتمتع أبداً بهذا النوع من الانتشار المتجاور المتصل، وإن الطريقة الرئيسية لانتشارها اليوم، عن طريق التعليم،

وأجهزة الإعلام الإلكترونية والاتصال المتعلّم لا تؤدي إلى حلولها محل لغات المجتمع الأصلي في موطنها(*).

وثانياً، إن الإنكليزية ليست معتبرة في كل مكان كوسيلة محايدة للوصول إلى الثروة والثقافة العالمية. فبعض صنّاع السياسة، وبصورة نموذجية في المستعمرات البريطانية أو الأمريكية السابقة، قد رأوا من هذه اللغة ما هو 'أكثر من اللازم'، فيقاومونها، وكثيراً ما يجمعون الارتباطات التاريخية مع سياسة القوى المحلية. ففي العام 1948، قامت سيلان (سريلانكا الآن) باستبعاد الإنكليزية كلغة رسمية، وكان سبب ذلك جزئياً هو الاعتقاد بأن استمرار استعمالها سيفيد الأقلية التاميلية (التي كانت غالبيتها من الطبقة المتوسطة)، أما الحلقة التالية لذلك، بما فيها إقامة السنهالية كلغة رسمية وحيدة في العام 1956، فلم تكن سعيدة. فقد استمر استعمال الإنكليزية كثيراً. وفي العام 1967 تم تجريد الإنكليزية من مكانتها كلغة رسمية في كل من تانزانيا وماليزيا، وفي كينيا في العام 1974؛ وفي العام 1987 قامت الفليبين بترفيع لغتها الفليبينية (أي التاغالوغ) إلى مكانة متساوية مع الإنكليزية 'إلى أن ينص القانون على غير ذلك'. وهذه المقاومة قد تخبو في الأجيال اللاحقة، مع ذكريات التاريخ الاستعماري[7]، ولكن التدخلات الأمريكية، بالتحالف مع قوى أخرى ناطقة بالإنكليزية أحياناً، لا تظهر علامات تناقص في القرن الحادي والعشرين. وهي تدخلات ستفعل الكثير للحفاظ على وصف سهل للإنكليزية في بعض الأوساط بأنها لغة الامتياز العالمي المنتقاة.

وأخيراً، فحتى إذا صمدت الإنكليزية على صعيد العالم، فليس هناك ضمان بأنها ستبقى لغة موحّدة. فرغم أن العالم في مطلع الألف الميلادي الثالث مكان مختلف جداً عن أوروبا الغربية في مطلع الألف الميلادي الأول، فإن من الممكن

(*) غير أن طبيعة المجتمع المحلي من الأهالي الأصليين آخذة بالتغير تحت تأثير الإنكليزية جزئياً. فإن ارتفاع مستويات تعليم الإناث، وتزايد الإنكليزية شيئاً فشيئاً ضمن ذلك التعليم، وتوفر أجهزة الإعلام المحلية كالإذاعة والتلفزيون، معناه أن وضع 'اللغة الأم' لتعلم لغة أولى في الوطن سوف يشمل الإنكليزية على نحو متزايد.

جداً أن تتبع الإنكليزية مثال اللاتينية، فتعيد تشكيل نفسها بطرق مختلفة في مناطق لهجات مختلفة، وأخيراً - ولنقل في غضون بضعة قرون - قد تصبح عائلة من اللغات. وهذا محتمل بصورة خاصة حيثما رسخت اللغة نفسها كلهجة عامية دارجة، كما هي الحال في جامايكا أو سنغافورة، أو حيث يصبح تحويل معظم السكان ثنائيي اللغة، بحيث يصبح تحويل الرموز نموذجاً جذاباً للمحادثة، كما هي الحالة اليوم بين المثقفين الهنود مثلاً. ومن الواضح أن حدوث ذلك أقل احتمالاً، أو أنه سيتم إبطاؤه على الأقل، إذا بقيت المجتمعات التي تتكلم الإنكليزية على اتصال منتظم ذي اتجاهين بالهاتف وبالمراسلة، ويتلقى كل مجتمع منها أجهزة إعلام المجتمع الآخر. ولعل الإنكليزية لا تزال تحتفظ بأفضل موقع بين اللغات الكبيرة على صعيد العالم للإبقاء على وحدتها بالاتصال المتبادل. ومن بين الإشارات الدالة على ذلك أن المداولات الهاتفية تغلب عليها السيطرة الساحقة للمحادثات باللغة الإنكليزية(*). ولكن قد لا تلعب كل المجتمعات الناطقة بالإنكليزية دوراً كاملاً في المحادثة العالمية، وقد تصبح السيطرة للانشقاقات والمنافسات الطويلة الأمد - كما تنافست إسبانيا وفرنسا على النفوذ في إيطاليا عصر النهضة، بعد ألف عام فقط من كونهما جميعاً مقاطعات من إمبراطورية واحدة.

ومن الممكن إعطاء الخطوط الأساسية لسيناريوهات تحوّل في حظوظ الإنكليزية، وذلك باستمداد الإلهام من السنوات التي تلت كثيراً من اللغات المسيطرة في الماضي. فالإنكليزية، بصفتها لغة أولى لسكان كثيرين، وكلغة مشتركة عالمية، قد تجد بأن بذور تضاؤلها واضمحلالها قد تم زرعها بالفعل.

فباعتبارها لغة أولى، فإنها قد وصلت إلى الذروة في المجال السكاني الديموغرافي(**). وفي هذا فهي لا تختلف عن معظم اللغات الإمبراطورية من

(*) من بين أغزر التدفقات الهاتفية الثمانية والأربعين عبر القارات في العام 1994، كانت 46.9 بالمئة (أي 53 مليار دقيقة) بين الناطقين بالإنكليزية. كما كانت 50.4 بالمئة غيرها (أي 57 مليار دقيقة) بين الناطقين بالإنكليزية وبلدان ذات لغات أخرى (وهذه الأرقام مستقاة من شركة TeleGeography، كما يستشهد بها غرادول 1997: ص 37).

(**) انظر الفصل الثالث عشر، ص 722.

أوروبا. فالناطقون الأصليون بها لا تزال أعدادهم تنمو، ولكن بمعدل أبطأ بكثير من الناطقين ببعض اللغات الكبرى الأخرى. ونتيجة لذلك، فحسب أحد التقديرات الذكية[8]، فإن الإنكليزية، والأوردية الهندية، والإسبانية، والعربية، ستكون على قدم المساواة تماماً في العام 2050، وتتفوق الصين على كل واحدة منها بِضِعْفين ونصف الضِعْف. وفي هذا الوقت تقول التنبؤات إن عدد سكان العالم سوف يستقر فلا يزيد ولا ينقص. ولكن إرث نسب النمو المختلفة من الماضي سيكون فرقاً ضخماً بين معدل أعمار الناطقين بلغات مختلفة. وستكون الإنكليزية والصينية في العام 2050 لغتيْ أناس غالبيتهم الساحقة أكبر سناً، وستكون العربية لغة الشباب، والإسبانية والهندية الأوردية لغتين لمن أعمارهم وسط بين هاتين الفئتين. وليس هناك نبوءة عن معدلات الثروة للمجتمعات المختلفة، فقد تكون هذه المعدلات عنصراً حاسماً في تقرير علاقات القوة الآخذة بالتطور فيما بين المجتمعات، وكذلك جاذبية لغاتهم للأجانب ـ كما شهدنا في سيرة حياة اللغتين الإنكليزية والفرنسية. وقد تكون الإنكليزية ما تزال أوسع اللغات انتشاراً في العالم، بل وقد يكون للناطقين بها أعلى معدل للدخل في العالم. ولكنها لن تعود متمتعة بميزة موقعها الحالي، على الأقل فيما يتعلق بعدد الناطقين الأصليين بها. وإذا صارت الاقتصادات الناطقة بالإنكليزية تبدو أقل حركية ونشاطاً، فإن من الممكن كلياً أن تنتقل السيطرة اللغوية بعيداً عنها أيضاً.

وحتى في البلدان الكبيرة ذات الناطقين الأصليين، فإن الإنكليزية قد تضطر لإفساح المجال لحضور مجتمعات لغوية كبيرة أخرى ـ كالمجتمعات الناطقة بالإسبانية في الولايات المتحدة، وربما بعض لغات جنوب آسيا الكبرى في المملكة المتحدة، والفرنسية في كندا كما هي العادة دائماً، ولكن ربما لغة إينوكتيتوت أيضاً. كما أن التنويعات المختلفة من الإنكليزية ستكون تحت ضغوط محلية مختلفة جداً. وقد تصبح الثنائية مع لغة أخرى هامة. وقد تتباعد اللهجات عن بعضها بعضاً بشكل مطرد. ومثل لغة الهند الآرية في الألف الميلادي الأول، التي تنوعت إلى براكريت، ثم إلى لغات منفصلة، حتى عند الاحتفاظ بالسنسكريتية كلغة متداخلة معها، أو مثل مصير اللاتينية في أوروبا في الألف

الميلادي الأول، فإن الإنكليزية قد تجد نفسها منقسمة إلى أنواع من الصياغات المحلية بين ناطقيها الأصليين، بينما يستمر العالم في استخدام صيغة شائعة منها كلغة مشتركة.

ولكن الإنكليزية، حتى كلغة مشتركة، قد تواجه صعوبات. وتشهد على ذلك حالة لغة الصغد، التي كانت من القرن الثامن حتى القرن الخامس عشر للميلاد لغة التجارة والتبشير على طريق الحرير من الصين إلى سمرقند، أو مصير اللغة الفينيقية التي كانت هي الرطانة التجارية لحوض البحر الأبيض المتوسط كله طيلة الألف الأول قبل الميلاد، وكانت ناشرة بارزة لمعرفة القراءة والكتابة. أما اليوم فإن اللغتين الصغدية والفينيقية لم تعودا موجودتين. فاللغة المرتبطة بالأعمال التجارية سرعان ما تصبح مهجورة عندما ينتقل الأساس التجاري أو مصادر الثروة بعيداً عنها، فالمشهور عن رجال الأعمال أنهم ليسوا عاطفيين. وليس من المعقول التوقع بأن شدة انعدام التوازن في توزيع ثروات العالم سوف تستمر في محاباة أصحاب اللسان الإنكليزي بلا حدود في المستقبل. ذلك أن شروط التجارة ستصبح مختلفةً جداً ذات يوم. وبعد مجيء ذلك اليوم فإن موقع الإنكليزية سرعان ما يصبح شيئاً عتيقاً خارجاً عن المألوف إلى حد كبير.

وبالمثل، فإن ارتباط الإنكليزية بالعلم العالمي قد يعجز عن إنقاذها. فالبحث الهادئ غير العاطفي لم يكن أبداً نشاطاً يعجب الأغلبية، مهما اتسعت إتاحة التعليم وتوفير الثقافة. فالبحث الجاد يبقى نشاطاً للأقلية. وبما أنه محايد وموضوعي فإنه يحتاج دائماً إلى رعاية أبوية من آخرين راكموا ثروة وسلطة. ولكن تلك النخب السياسية، أو العسكرية، أو التجارية، أو الدينية، لا يمكن الوثوق بها، وخاصة إذا ظهر بأن نتائج البحث تميل إلى الوقوف بوضوح ضد سلطتهم، أو تعجز عن تعزيزها: وعندئذٍ فإنهم سيصدرون حكمهم لصالح التقليد، أو لصالح تجهيل عامة الناس. إن من السهل نسيان مدى اعتماد شعبية العلم المستمرة على استمراره في تقديم بيوض ذهبية جديدة، أو قنابل ذهبية جديدة. فعندما يتباطأ تدفق الأشياء اللذيذة والجذابة، كما قد يحدث ذات يوم، فإن متابعة

العلم سوف يعتبرها كثير من دافعي ثمنها في الصناعة والحكومة انغماساً في شهوة باهظة التكاليف.

وبالطريقة نفسها، فعندما يتمتع هؤلاء الكثيرون أنفسهم بقوة السوق، كما فعلوا إلى حد ما أثناء ثورة اختراع الطباعة والإصلاح الديني، وكما يفعلون غالباً الآن في عالم الأنغلوفون، فسوف يستخدمون أموالهم لطلب ما يفهمونه وما يعتقدون أنهم يحتاجون إليه. فهذه طريقة الأسواق. ولكن أحكامهم ستكون متأثرة بالتقاليد تأثراً شديداً. فنحن نستطيع أن نرى مذهب الإيمان بالخلق، والنهج النبوئي في مقاربة بعض نصوص المسيحية القديمة تزدهر في قلب أغنى بلد وأكثرها تقدماً تقنياً في العالم الناطق بالإنكليزية. فالولايات المتحدة هي التي تقدم الآن أعظم مصادر المعلومات والتعلّم في العالم. فإذا بدأت سلطاتها تلقي بثقلها الضاغط على مفكّريها الأحرار، فإن المرء يستطيع أن يتصور قيام الأجزاء الأخرى من العالم بحماية ثقافتها وراء عباءة لغاتها نفسها.

والواقع أن التقاليد الأكاديمية أيضاً لها سجل سيئ، حتى بحسب روايتها نفسها في مجال الإبقاء على الاهتمام بالانفتاح العقلي، فهناك دائماً إغراء اللجوء إلى السلطة والحصول على الحظوة لديها، والمبادئ المقررة 'للعلم الطبيعي' تستدعي إلى الذاكرة كيف أن التشكك والتنظير في اليونان في القرنين الثالث والرابع قد أدّيا إلى التصلب والنـزعة المحافظة في اللغة والفلسفة المدرسية، وكيف أن المجادلات والمناظرات المليئة بالحيوية الكامنة وراء قواعد اللغة السنسكريتية والمنطق البوذي قد تجمدت وتوقفت عن التطور في الهند في العصور الوسطى، وكيف أن العصر العباسي الذهبي في البحوث العلمية في العربية تلاشى عند ابن رشد في القرن الثاني عشر. فهناك مجال كبير للأسرة العلمية في العالم كي تصاب بالكسوف، ولو مؤقتاً على الأقل، وإذا تعثرت خطى التبادل العلمي العالمي، فإن الإنكليزية ستتعرض للخسارة كذلك. والموت الثاني للاتينية يرينا بوضوح كيف أن مثل هذا الشيء يمكن أن يحدث، وقد حدث فعلاً، على نطاق دولي.

وهناك مراكز جديدة محتملة للحضارة العالمية آخذة في النمو، ولها

خلفيات لغوية مختلفة. ففي شرق آسيا وجنوب شرقها نرى المجتمعات اللغوية الصينية تظهر بشكل متزايد كأساتذة متقنين للاستثمار، ويبدو أن من المحتمل أن يعملوا في آخر الأمر مع نظرائهم وزملائهم الصينيين بشكل منسق متناغم في جمهورية الصين الشعبية الآخذة في التطور بسرعة. (انظر الفصل الرابع: 'العلاقات الخارجية'، ص 234). وفي الشرق الأوسط، تنمو أعداد الناطقين بالعربية، مع شعورهم بالتضامن، كجزء من الأمة العالمية المترابطة معاً بقبولها للإسلام. وإن الأعمال المتشددة للأصوليين الإسلاميين، وعدم الإنصاف في توزيع الدخل والقوة بسبب سيطرة عائدات النفط في اقتصاداتهم، قد تبطئ اندماجهم الحقيقي. ولكن من الصعب الشك في أن هذه المجموعة الواعية الكبرى ستشكل قضية موحدة، حتى بدون قيادة سياسية من إحدى دول المنطقة، فهؤلاء الناس يشتركون في الدين وفي اللغة، وتتزايد قدرتهم على التواصل على جميع المستويات من خلال أجهزة الإعلام الحديثة.

وبشكل أقل بروزاً أيضاً، يمكننا أن نلاحظ أن ثلثي الناطقين بالتركية في العالم، البالغ عددهم 147 مليوناً، وخاصة الأتراك، والأوزبك، والتركمان، والقازاخستانيين، والقرغيزيين، هم الآن منظمون بشكل مستقل عن الأجانب لأول مرة منذ تغلغل الروس في آسيا الوسطى(*). وعند النظر إليهم كمجتمع كلي، فإن عددهم أكبر من عدد الناطقين بالألمانية، أو الفرنسية، أو اليابانية. ومع تحسن الاتصالات سيبدؤون بالشعور بأنهم وحدة واحدة، لأن معظم لغاتهم فيها فهم متبادل.

إن مثل هذه الحالات من إعادة التنظيم لن تشكل تهديداً مباشراً لاستخدام الإنكليزية في العالم، بل ولن تقلل من هذا الاستخدام في بادئ الأمر. ولكنها قد تقدم علامات مبكرة على أن توازن اللغات المستخدمة في الاتصال الدولي آخذ في التحول باتجاه مختلف.

(*) إن سبعة عشر بالمئة منهم (معظمهم أذربيجانيون) موجودون في إيران، وسبعة بالمئة في الصين (معظمهم إيغوريون)، وسبعة بالمئة في روسيا (ويتكونون من التتر، والشوباش، والبشكير، وتشكيلة متنوعة من المجموعات الصغيرة).

إن التنبؤ بتحول الصينية أو العربية إلى لغة دولية كبرى لا يتطلب شيئاً من الخيال: بل إن هذا التنبؤ يتبع استقراء التوجهات السكانية الحالية، مشفوعة بحقائق اقتصادية وسياسية معروفة جيداً. ولكن تاريخ لغات العالم في المستقبل يحتمل جداً أن ينطوي في الحقيقة على تطورات جديدة مفاجئة تغير التوازنات السكانية. فمن كان يستطيع التنبؤ بأن اكتشاف الذهب في البرازيل في تسعينيات القرن الثامن عشر سوف يجعل ذلك المكان يمتلئ فجأة بالبرتغاليين، عندما كانت البرتغال قد سيطرت على أرضه ثلاثة قرون بدون أي تأثير لغوي كبير؟ ففي بعض الأحيان تكفي حادثة واحدة لإطلاق إمكانية كانت محتملة زمناً طويلاً ولكن لم يُتَحْ لها أن تتحقق.

وحتى في القرن الحادي عشر، من كان يستطيع التنبؤ بأن توريد صناعة الورق إلى أوروبا (في القرن الثاني عشر) والبارود (في القرن الرابع عشر) والطباعة (في القرن الخامس عشر) سيؤدي أولاً إلى تثوير حياتها الدينية بالإصلاح، وإلى إرسال مغامريها إلى الخارج ليستوطنوا ويسيطروا على الآخرين في جميع أنحاء العالم غير المسيحي؟ فهذه الأشياء الثلاثة كانت معروفة في الصين منذ أوائل الألفية الميلادية الأولى، دون أن يكون لها أي تأثير ملحوظ في موطنها. وهكذا فحتى في النظام المغلق لا يمكن لأي تفاعل جديد أن يترك عواقب ثورية.

إن أحداثاً وتفاعلات كبرى، غير متوقعة حالياً، سوف تحدث خللاً واضطراباً وإعادة توجيه في المستقبل أيضاً. فليس في ذلك شك. وإن أسهل ما يمكن التنبؤ به - ولكني آمل أن لا يكون مؤكداً - هو حدوث محرقة عسكرية، وهذا شيء سهل جداً من الناحية التقنية في هذه الأيام. وهذا قد يحدث تغييراً عميقاً في توازن سكان العالم، مثلما أدى التقدم الأنغلوساكسوني عبر أمريكا الشمالية إلى انطفاء كل لغاتها الأصلية وتعريضها للخطر. وقد يحدث وباء يمكن أن يكون له تأثير شديد على التوازن - كما حدث في كل مكان في الأمريكتين عند مجيء الأوروبيين وربما مرتين في بريطانيا في سنوات غسق اللغة البريطانية الكلتية والفرنسية النورمانية - وخاصة في أوضاع تسود فيها ثنائية

لغوية سابقة. فالوباء المرعب فعلاً، حتى ولو كان محصوراً محلياً، يمكن أن يحدث تغييراً دائماً في الوضع اللغوي في ماليزيا أو في كندا.

وليس من الضروري أن تؤدي كل حادثة غير متوقعة إلى تغيير الوضع الراهن بحيث يضر باللغة الإنكليزية طبعاً. ولنتذكر الإمبراطور الفارسي دارا الذي أصدر مرسوماً يأمر باستخدام الآرامية في جميع أنحاء مملكته، رغم أنها كانت عندئذ لغة أجنبية، ليس لها ما يزكّيها سوى خلفية قوية جداً كأداة إدارية. فمن الممكن تماماً، حسب هذا المثال، أن تسارع حكومة عملية ذرائعية إلى نشر الإنكليزية في مكان من العالم لم تصل إليه حتى الآن - في منطقة البلطيق مثلاً، أو في آسيا الوسطى. والواقع أن شيئاً كهذا قد حدث عندما أمر لي كوان يو باستخدام الإنكليزية في مستعمرة سنغافورة الناطقة بالصينية إلى حد كبير في ستينيات القرن العشرين.

ومهما يحدث، فإن أي تغييرات تقع قد يكون لها أثر مقلق بشكل عجيب على الباقين من الناطقين بالإنكليزية. فقد استمرت حدود اللغة بالتوسع طيلة ثلاثة قرون حتى الآن. فالناطقون النموذجيون بها قد يفتخرون بنزعتهم العملية الذرائعية، ويرحبون بتحطم الحواجز اللغوية، لمصلحة التفاهم الأوسع والاتصال الأسهل. ولكن عندما تكون اللغة التي ستتعرض للتقلص هي لغتهم فلا بد من توقّع تسجيل عدم الارتياح. ففي العام 1984، أعلن 8 بالمئة من سكان الولايات المتحدة الأمريكية أن لغتهم الأولى كانت غير الإنكليزية. فكان ذلك كافياً لانطلاق برنامج تشريعي في أوائل التسعينيات 'للاعتراف بالإنكليزية في القانون باعتبارها اللغة الرسمية للعمل في الحكومة'[9]. وهناك الآن ضجة مستمرة من الاقتراحات والمناشدات حول الموضوع في الهيئات التشريعية لولايات كثيرة، ولكنها لا تزال غير حاسمة. فنحن لم نَرَ حتى الآن كيف سيكون رد فعل البلدان الأخرى الناطقة بالإنكليزية عندما لا تعود قادرة على الافتراض بسهولة أن اختيار الاتصال بالإنكليزية مفتوح دائماً. ولكن ليس هناك قانون ولا مرسوم في أي مكان على الإطلاق قد أوقف انحسار مدِ لغةٍ ما حتى الآن.

ثلاثة خيوط: الحرية، والنفوذ، وقابلية التعلم

ما لا يستطيع المرء أن يتكلم عنه، يجب أن يمر به بصمت.

لودفيغ ويتغينشتاين: تتبّع المنطق الفلسفي (1922)

الحرية

عند نقاط متنوعة في هذا السرد، كان هناك إغراء، يكاد يكون واجباً، للتحدث عن الحرية. فهناك تقاليد لغوية كثيرة تزعم على نحو خاص أنها تتكلم بها أو عنها. وحرية الكلام هي إحدى المثاليات الأساسية التي تلقى تأييداً في البيانات الحديثة الكبرى عن حقوق الإنسان، ولكنها مثار جدل ونزاعات لا تنتهي على صعيد الممارسة العملية. وبالنسبة لحضارات عديدة، فإن الحرية هي الفضيلة التي تعطي الكلام غرضه الرئيسي. ومع ذلك فإننا في آخر الأمر لم نقل عنها شيئاً يذكر. فلماذا؟

إن الحرية هي موضع اهتمام خاص لبعض أنواع الدول، وخاصة الجمهوريات. وبعض الشعوب التي عرضت الحرية بصورة خاصة كهدف مثالي شملت اليونان، والرومان، والبنادقة، والفرنسيين بعد ثورتهم في العام 1789، والبريطانيين (ولو بتحفظ) بعد 'ثورتهم الجليلة' في العام 1688 التي أكدت تفوق سيادة البرلمان على العاهل، والولايات المتحدة الأمريكية. ولكن رغم أن من المتفق عليه أن مصطلحات 'الحرية' بلغات هذه البلدان كلها هي ترجمات متعادلة، فإنه لم يوجد بينها اتفاق واسع الانتشار حول ماهية الشيء الذي يضمن حرية شخص، أو شعب، أو دولة - حتى في أنظمة الحكم هذه التي هي في تقليد مستمر وشديد الوعي بذاته للفلسفة السياسية الأوروبية(*). فهل هي الاستقلال عن السيادة الأجنبية، والحكم الذاتي المدني، وعدم الاعتراف بالحقوق الوراثية، أم الحق الشخصي في اختيار الدين، والموقع، ووسائل الدعم؟ إن كل هذه الأهداف المثالية تشير إلى طرق مختلفة لوجوب رفع القيود عن حق المرء في اختيار ما يقوله.

(*) كلمة ثاي (Thai) أيضاً معناها 'حر'؛ وكذا فإن هذا الهدف المثالي يمكن أن يوجد أيضاً خارج التقليد الأوروبي.

ومن وجهة نظرنا، فإن تبني كل هذه الأهداف - رغم أنها عزيزة عند الكثيرين - لم يحدث أي فرق مادي يذكر في بقاء أي مجتمع لغوي أو انتشاره. فثقافة اللغة اليونانية، كما نشرها الإسكندر وخلفاؤه بتفاخر في بلاد الشام، ومصر، وفارس، وأخذت بها نخبة الرومان، لم تكن تنطوي على شيء يذكر من الديمقراطية، بل كان أغلب محتواها هو الولاء للحكام المستبدين الذين نصبوا أنفسهم خلفاء شرعيين لملوك مقدونيا وفارس وفراعنة مصر. واستمرت روما في تزويد أنحاء إمبراطوريتها باللاتينية عندما وُضِعَتْ مؤسسات الجمهورية الحرة المدنية في أسر عائلة وحيدة تحظى بتأييد الجيش. وأصبحت الفرنسية لغة الثقافة الدولية المفضلة في أوروبا تحت رعاية ملكية آل بوربون المطلقة، وأبرزت الثورة الفرنسية شعار 'الحرية! والمساواة! والأخوة!' وجعلت فرنسا أكثر عدوانية من الناحية العسكرية. ولكنها لم تكن ذات تأثير يذكر على جاذبيات لغتها، ولم تبدأ شعبيتها بالتعثر إلا في أوائل القرن العشرين، بعد زمن طويل من إعادة الملكية الفرنسية وسقوطها للمرة الثانية. أما الحريات السياسية التي يقدرها الإنكليز والأمريكيون إلى هذا الحد، والتي جعلت الإنكليز يقطعون رأس أحد ملوكهم ويسقطون ابنه، ثم جعلت الأمريكيين يعلنون استقلالهم عن البريطانيين تماماً، فقد تبين أنها تتمشى تماماً مع احتقار لا رحمة فيه للحقوق الأمريكية للأمم الأولى كما هي ممنوحة بالضبط بموجب معاهدة، وتتمشى أيضاً مع استخدام القوة لبناء إمبراطورية عالمية من أراضي الشعوب الأخرى. وحتى 'التجارة الحرة' تبين أنها ليست عائقاً للتفضيلات الإمبراطورية ضمن الإمبراطورية البريطانية، أو عائقاً في أيامنا هذه لاستمرار تدفق أموال الدعم الكثيفة للمنتخبين المحليين. ولم يؤدِّ أي شيء من هذا إلى تقليص انتشار اللغة الإنكليزية، سواء عن طريق الإزاحة جانباً أم عن طريق إعادة التثقيف، في جميع أنحاء العالم.

إن حرية الكلام قد تكون حقيقة الآن، وليست فقط هدفاً مثالياً غير متحقق، في جميع المناطق الحالية لهذه اللغات. ولكن على مدى القرون وألوف السنين من تطورها، فإن الحرية، تحت أي تعريف، لم تكن لأي وقت طويل أبداً

أكثر من تَبَجّح أجوف، أو تطلع متفائل في أفضل الأحوال. فاستعراضنا لتاريخ هذه اللغات اختار التركيز بدلاً من ذلك على المعنى الحقيقي للحياة فيها.

النفوذ

إن النفوذ يتعلق بالارتباطات، وفي حالة اللغات، فإن جذور النفوذ هي الارتباطات بالثروة (وهذا في أوروبا قبل كل شيء)، ولكنها أيضاً الحكمة العملية، والاستمتاع، والتنوير الروحي.

إن جاذبيات اللغة الفرنسية في أوروبا في أوائل العصر الحديث كانت تنبع من الوفرة التي قدمها الاقتصاد الفرنسي. وهذا ينطبق إلى حد كبير على الإنكليزية اليوم. فالناطقون بها يشعرون بطريقة ما أنهم يشاركون في الثروة عن طريق تقبل اللغة. ولكن نفوذ اللاتينية، في سنوات النهضة الأوروبية وما بعدها، ونفوذ الإغريقية في أوج الإمبراطورية الرومانية، لم يأتيا من وفرة الثروة بقدر ما أتيا من الحكمة ـ ولعلها هي نفسها نتيجة ارتباطات إيجابية، لأنه لا يمكن تحمل نفقات الثقافة، التي هي نتاج الترف الكمالي، إلا عندما تكون هناك إمدادات جيدة من الثروة. فقد كان ذلك كامناً تحت جاذبية اللغتين الصينية والأكادية: فإن العجز المحض عن التوصل إلى الكفاءة الكتابية بهاتين اللغتين، المدفوع ثمنه من خلال عشر سنوات من الدراسة أو أكثر، قد أضاف كثيراً إلى نفوذهما، ومن هنا تأتي جاذبيتهما، رغم ما في ذلك من غرابة.

وهناك أنواع معينة من المعرفة تقدم أيضاً وصولاً أكبر للثروة: وهذا ما أظهره السفسطائيون الإغريق في القرن الخامس قبل الميلاد، بجعلهم قوة الإقناع متاحة لقاء أجر. والحكومات الحديثة تدفع ثمن الدافع نفسه عندما ترى أن الكفاءة بالإنكليزية هي الطريق إلى التنمية الاقتصادية.

> إن هذا أكبر قيمة من أكثر من عشرة آلاف متكلم:
> التزام الحجة الأضعف، ثم الفوز.
>
> أرسطوفانيس: الغيوم، المشهد الثاني: السطران 1041 ـ 42 (أثينا، 423 ق. م)

إن كل اللغات ذات النفوذ تعطي وصولاً إلى متعة خاصة، لأنها كلها تملك آداباً واسعة، والغرض الأول للأدب هو إمتاع الناس الذين يستطيعون أن يقدروه. وفي العادة، فإن معرفة عدم وجود كثير من الآخرين الذين يمكنهم المشاركة في التقدير هي جزء من المتعة. ولقد كانت هذه تعويذة سحرية للغات الكلاسيكية عبر العصور، من الملاحم الأكادية التي كانت تنشد في دار الألواح الطينية الحثية في القرن الثالث عشر قبل الميلاد إلى الشعر الفارسي المقتبس في الهند في القرن السابع عشر الميلادي، والقصص الفرنسية المقروءة في روسيا في القرن التاسع عشر. أما في العصر الحديث فإن سحر اللغة الإنكليزية ذات النفوذ قد انقلب إلى العكس نوعاً ما ـ ربما كنتيجة جانبية للسوق المعولمة الأولى في الثقافة. فالإنكليزية، وخاصة كما تروجها صناعة المتعة والتسلية الأمريكية، يقصد منها أن تنقل رسالة بأن ثقافتها يمكن الوصول إليها على نطاق عالمي، وأنها تطلق سراح الناس من تقاليد اللغات الأخرى وقيودها. وإن خلاصة فحوى علاقتها الخاصة بالحرية هي جزء من هذا، ولكن كما جادلنا للتوّ آنفاً، فإن من الصعب الإبقاء على ذلك كسياسة جادة. ومع ذلك، فإنك إن كنت غنياً، فإن من الأسهل عليك بكثير أن تكون حراً وغير مسؤول.

ورغم الشيوع الحالي للإنكليزية باعتبارها لغة الشباب والمتحررين ـ وكذلك المتعلمين والأغنياء ـ فإن ارتباط لغةٍ ما بحقيقة دينية عميقة في آخر الأمر هو الذي يكسب لها أخلص المتمسكين بها، ويخلق لها سمعة قد تبقى آلاف السنين. فهذا هو الأساس الوحيد لادعاء أي لغة بأن لها قيمة أعلى من مجرد الارتباط بشيء من النجاح التاريخي. فالسنسكريتية، والعبرية، والعربية، كلها تدعي قوة صوفية تذهب إلى أبعد من مجرد التعبير عن المعنى، أو تبادل المعلومات بين متكلميها(*). وبهذه الصفة، فإنها قد تختفي من الخطاب اليومي، ولكن لا يمكن أبداً الحط من شأنها باعتبارها عتيقة الطراز أو غير ذات صلة، ما دام هناك مؤمنون يبجلونها ويختزنونها كالكنز.

(*) هناك مفارقة في كون هذا الادعاء يأتي أيضاً من كثير من المجتمعات الأصلية الصغيرة التي تنسبه للغاتها، التي لم تنتشر على الإطلاق.

وتنتشر اللغات أحياناً بدون أي واحد من أشكال النفوذ هذه بالطبع. ولكن القوة العسكرية قد تكون قوية أيضاً. ومن الصعب رؤية أي جاذبية آسرة تنشأ من انتشار التركية إلى بلاد الأناضول، أو الإسبانية إلى بيرو، أو الروسية إلى سيبيريا، أو اليابانية إلى كوريا، أو حتى الإنكليزية إلى ماساشوستس. وليس معنى ذلك أن نقول إن الغزاة لم يجدوا سلوكهم نفسه مثيراً للإعجاب، وخاصة في مجتمعات ما قبل معرفة القراءة والكتابة، فقد يحتفلون بفتوحاتهم بالكلمة والأغنية. ومثل هذا الشعر البطولي جيد كأدب وطني أصلي، ولكنه ليس من المحتمل أن يعجب الناس الخارجيين، دع عنك أن يعجب ضحايا الغزو.

إن اللغة ذات النفوذ عموماً هي أي لغة أجنبية يتم تعلمها من أجل الفائدة والميزة الثقافية. وهذا ما كانت عليه اللغات السومرية، والأكادية، والصينية، والسنسكريتية، واليونانية، واللاتينية، والعربية، والتركية، والفارسية، والإيطالية، والفرنسية، والألمانية، والإنكليزية، كلها في أيام عزها. ولكن تلك الأيام لا تدوم إلى الأبد. فلكي تكون اللغة ذات نفوذ، يجب على الناطقين الأصليين بها ـ أو على السجلات المكتوبة التي تركوها ـ أن يثيروا الإعجاب بطريقة ما، وبذلك يجتذبون مقلدين لهم(*). وهذا التأثير يعتمد على مدى التطور الثقافي للمتلقين، وكذلك على قيمة المؤلفات الأصلية. ومع نمو المتلقين في مجالات الثروة، والمعرفة، والثقة بالنفس، وبدء تميزهم، تتقلص جاذبية النموذج الأجنبي في نظرهم. ولذلك فليس عجيباً أن مفاتن ما كان متاحاً في اللاتينية واليونانية تقلصت في القرن التاسع عشر بينما كان الناطقون بالإنكليزية يجتاحون العالم كالعاصفة بابتكاراتهم التقنية وإمبراطوريتهم العالمية التي تركت الإنجازات التقليدية الكلاسيكية منعزلة في الظل بعيداً عن الأضواء. وبالمثل فإن مفاتن الفرنسية وحتى الألمانية الحديثة النمو راحت تخبو أمام الناطقين بالإنكليزية الواثقين بأنفسهم.

(*) [حسب إحصائيات المكتب الثقافي لجامعة الدول العربية فإن عدد الكتب العربية في مكتبات العالم ومتاحفه ثلاثة ملايين كتاب، لا تمثل الحضارة العربية ـ الإسلامية كلها، بل بقاياها ونتفها وأشلاءها الممزقة ـ المترجم].

ما الذي يجعل لغةً ما قابلةً للتعلم

هناك ثلاثة طرق مختلفة يتم بها تعلم اللغات.

فكل لغة أصلية يتعلمها الأطفال الصغار بلا جهد تقريباً، من أسرهم وأقاربهم الأكبر منهم سناً. ولكي يحدث ذلك، يجب أن تكون هناك بيئة مستقرة على نحو معقول، حيث يتحدث المجتمع المحيط بالطفل باللغة المعنية.

فإذا غاب ذلك، بحيث لم يكن هناك الناس المحيطون بالطفل يتشاطرون لغة مشتركة، فإن اللغة قد يمكن تعلمها رغم ذلك، ولكنها ستكون صيغة جديدة، متميزة عن جميع اللغات التي يعرفها الكبار، فهي خليط منها معادٌ تركيبه على المبادئ الأولى. وعندما تتعلم مجموعة من الأطفال مثل هذه اللغة، تظهر إلى الدنيا لهجة مهجّنة. فإذا كان المتعلمون أكبر سناً، أو بالغين يبحثون عن وسيلة مشتركة للتواصل بموجب الأمر الواقع، فإن النتيجة ستكون رطانة مبسّطة.

والإمكانية الثالثة هي دراسة اللغة وتعلمها عمداً وعن وعي، إما عن طريق التعرض اليومي لها، أو عن طريق تلقيها بتعليم رسمي، ربما في المدرسة. وهذه العملية لا تعتمد على قدرة الأهالي الأصليين المحليين على تشكيل لغة فعّالة في أذهان الأطفال الصغار، بل يمكن تنفيذها مهما كان عمر المتعلم. وفي هذه الحالة لا بد أن يكون المتعلم ناطقاً بلغة أخرى، وأن يستخدمها - صراحة وضمنياً - في اكتساب لغة جديدة.

والطريقتان الأوليان لا تعتمدان أبداً على التركيب الهيكلي للغة التي يجري تعلمها. فاللغويون عموماً متفقون أن أي لغة طبيعية، مهما كان تركيبها، يستطيع أي طفلٍ طبيعيٍ أن يتعلمها - بغض النظر عن أسلافه أو خلفية والديه اللغوية. فبعض الأصوات، أو بعض التراكيب اللغوية قد يستغرق رسوخها وقتاً أطول من غيرها، ولكن كل شيء يأتي في أوانه. وتكاد هذه الحقيقة تكون تحديداً لماهية اللغة الطبيعية. أما بالنسبة لأصل اللهجات المختلطة، فإن القضية مثيرة للخلاف والجدل. ولكن يبدو أنها كلها تميل إلى أن يكون لها تركيب مشترك، يظهر بشكل طبيعي أثناء تشكل اللغة. وإن تراكيب اللغات الرافدة، التي من أجزائها يركّب

المتعلمون اللهجةَ المختلطةَ أو الهجينة ليس له أثر على تركيب اللغة الجديدة عندما تتجمع أجزاؤها معاً.

غير أن الحالة الثالثة، الشائعة عند انتشار اللغة إلى إقليم جديد عليها، قد تكون لها عواقب مثيرة للاهتمام في مجال تعاقب اللغات المحتمل. وفي هذه الحالة، فإن متعلمي لغةٍ ما سيحتفظون في أذهانهم بشيء من الخلفية التي تشكلت من اللغة أو اللغات التي كانوا يعرفونها من قبل، أي ما يسمى "الطبقة التحتية". وهذه الطبقة التحتية قد تفرض قيداً على نوع اللغة التي يمكن بعدئذٍ تعلمها بنجاح.

ومثل هذا القيد قد يكون من نوعين. فهو قد يجعل المتعلمين يخرجون بنسخة جديدة من اللغة، متأثرة بكلامهم القديم. فالإنكليزية المحكية في الهند قد فقدت حروف علتها الطويلة النموذجية. فالكلمتان *gate* و*boat* في إنكلترا تلفظان get وbot في الهند. وبالإضافة إلى ذلك فإن إيقاع الإنكليزية الذي يوقّته تشديد النبرات قد حلّت محله الخطوة الأسهل التي توقّتها المقاطع. ولكن القيد قد يعمل بصورة جذرية أكثر كعائق يمنع المتعلمين من اكتساب أي إتقان فعال للغة الجديدة. ويمكن رؤية مثال على ذلك في الفشل الواسع النطاق لتعليم اللغة الإنكليزية في اليابان لعدة عشرات من السنين بعد الحرب العالمية الثانية، رغم الجهود الجبارة من كل الأطراف لإعطاء الجيل التالي كفاءة في هذه المهارة الجديدة.

إن فكرة احتمال وجود هذا النوع من القيد التركيبي على الأخذ بلغةٍ ما هي مثار نزاع وجدل كبيرين. ويصعب إظهارها في حالة بعينها لأن هناك دائماً عدة أسباب غير لغوية تثبط الأخذ باللغة. ولكن منظور هذا الكتاب الذي استعرض النشاط الحركي اللغوي على مدى قرون، يعطي بعض الحجج الجديدة لإظهار أن هذا القيد قد يكون عاملاً حقيقياً يحدّ من انتشار لغاتٍ معينة في مناطق معينة، أو بالأحرى بين سكان معينين.

وإذن فتأمّل إعادة التمترس الغريبة في مجال اللغة العربية، التي بدت

وكأنها تنطوي متراجعة عن أبعد حدودها في الشرق والغرب بعد حوالي ثلاثة قرون من انتشارها الأول عقب وفاة محمد (انظر الفصل الثالث: 'العربية - البلاغة والمساواة: انتصار "التسليم"'، ص 146). فلم تستقر بشكل دائم إلا في المناطق التي كانت في السابق ناطقة بلغة أفرو - آسيوية، أي لغة قريبة في تركيبها من العربية نفسها. فأولاً وقبل كل شيء، استولت العربية على كل العالم الناطق بالآرامية، في سوريا والعراق الحديثتين. فهنا كان يمكن للعربية أن تحل محل الآرامية كلمة فكلمة تقريباً. فاجتاحت بلدان شمال إفريقيا بسرعة وتغلغلت فيها بعد ذلك، حيث كانت اللغتان الدارجتان فيها هما المصرية (المعروفة الآن بالقبطية)، والبربرية، رغم أن الانتشار في هذه الحالات كان أبطأ بكثير، ولم يكن كاملاً بأي حال - على الأقل في حالة الحلول محل البربرية. أما في فارس والأندلس (إسبانيا الجنوبية) فرغم سمعتهما المبكرة كمراكز للدراسات العربية، فقد تم طرد اللغة، باستثناء بقائها في الطقوس الدينية الإسلامية. وهذه بالذات هي البلدان التي كانت فيها لغة الطبقة التحتية هندية أوروبية، وهي على التوالي الفارسية والإسبانية. ولعله ليس سهلاً على الناطقين بلغة هندية أوروبية أن يلتقطوا لغةً أفرو - آسيوية(*). وبالتأكيد، فإن ناشري اللغة الذين جاؤوا بعد ذلك، وهم الأتراك، لم يلتقطوا اللغة العربية، رغم أنهم قبلوا الدين الإسلامي، بل ونشروه في داخل أوروبا. واللغة التركية أقل شبهاً بالعربية في تركيبها حتى من اللغات الهندية الأوروبية. وقد استمر الإسلام بالانتشار في الألف الميلادي الثاني إلى داخل الشرق الأقصى، ولكنه لم يحمل معه اللغة العربية خارج المساجد أبداً.

وتأمل في النجاح المختلف للغة اليونانية في غرب آسيا ومصر، بعد غزوات الإسكندر الكاسحة بين العامين 332 - 323 ق. م. فمن حيث المبدأ، تم تحويل الإدارة في كل مكان من الآرامية إلى اليونانية، وكانت هناك مستوطنات إغريقية في كل مكان، ضمن المدن الكبرى على الأقل، ولكن الإغريقية لم تتغلغل

(*) وعلى الجانب الآخر من قطعة النقد، فعندما يتم الأخذ بمثل هذه اللغة بنجاح، ولكنها تحذف بعد ذلك بلغة هندية-أوروبية أخرى، فإن الأدلة يمكن رؤيتها مع ذلك في بقاء ملامح شديدة الغرابة لمدة ثلاثة آلاف عام. فهذا ما اقترح لتفسير التقلبات الحادة للغة الكلتية البريطانية (انظر الفصل السابع: 'الرون: البروز المندفع للكلت'، ص 411).

إلا في آسيا الصغرى، في شبه جزيرة أناضوليا الكبرى (انظر الفصل السادس: 'ملوك آسيا: انتشار الإغريقية عن طريق الحرب'، ص 348 وما يليها). وبعبارة أخرى، كانت الإغريقية أنجح ما تكون في المملكة القديمة للغة الفريجية في الوسط (وقد عرف ذلك من نصوص لها علاقة وثيقة بها) وفي مناطق اللغة الليدية وغيرها من اللغات الأناضولية، وهي ألسنة هندية - أوروبية تركيبها قريب الشبه بالإغريقية. ولم تكن الإغريقية ناجحة إلا في المجتمعات المزروعة بالناطقين بها كلغة أصلية أمّ، في سوريا وفلسطين ووادي الرافدين (حيث كان الناس يتكلمون الآرامية)؛ وفي مصر (حيث كان الناس يتكلمون المصرية والآرامية)، وفي فارس (حيث كان الناس يتكلمون الآرامية والفارسية). ومن أكثر الأمور مدعاة للعجب أن تركيب الإغريقية لم يتجذر في فارس، مع أن الفارسية لغة هندية - أوروبية مماثلة (وقد اشتهر عن اليوناني العجوز تيميستوكليس أنه تعلمها في سنة - انظر النص المقتبس من بلوتارخ في الصفحة 31)، ولكن ربما كانت هناك أسباب غير لغوية للسخط على لغة غريبة بشكل خاص، ومقاومتها في قلب الأراضي الداخلية لما كان إمبراطورية مستقلة قوية لأكثر من قرنين.

والمثال الثالث الذي يبدو فيه أن التركيب اللغوي كان حاسماً في احتمالات حياة اللغة هو الغياب شبه الكامل للغة المغولية من آسيا الوسطى والغربية، ومن أوروبا منذ غزوات المغول البعيدة المدى بقيادة تيمورلنك عبر إيران في القرن الرابع عشر، وقبل ذلك بقيادة جنكيز خان وخلفائه في القرن الثالث عشر. فالجحفل الذهبي الذي نهب كييف في العام 1240 كان جيشاً مغولياً، وحتى سلالة بابور، التي سيطرت على الهند من القرن السادس عشر، كانت تفرح بتسمية 'الموغال'، أي المغول أو المونغول، رغم أن لغة بابور - كما رأينا - كانت تركية. (انظر الفصل الثالث: 'الفترة الفاصلة الثالثة: التركية والفارسية، المسلمون الخارجيون'، ص 168). ولم تتعرض أي من هذه الغزوات المغولية للإبطال أو الإرجاع إلى الوراء بعد وقت قصير: فما الذي حدث لكل هؤلاء المغول الناجحين؟

كان من الملامح الأساسية للغزوات لتي قادها المغول أنها استعادت

الغزوات التركية التي سبقتها (مثل غزوات الهون والخزر). وبالإضافة إلى ذلك، فإنها تمت على أيدي فرق من المحاربين الناطقين بالتركية. وحالياً أصبحت التركية والمغولية، حتى ولو لم تكن بينهما قرابة في أصولهما، شديدتي الشبه في تراكيبهما (انظر الفصل الرابع: 'التأثيرات الشمالية'، ص 210). ولذا فقد كان من السهل جداً على الناطق بالمغولية أن يلتقط التركية، كما يقال - وكثيراً ما كان ذلك يتم بسرعة شديدة وبصورة حرفية تماماً -. ففي خارج منغوليا، كان المغول أقلية، وهكذا فإن لغتهم قد غرقت في لغة حلفائهم الأتراك.

والمثال الرابع اقترحته طالبة دارسة للاستيلاء الروماني على بلاد الغال. وقد رأينا أن هذا قد أدى إلى انتشار اللاتينية السريع والكامل بشكل عجيب ومدهش لتحل محل لغة الغال. وتقدم بريجيت باور أدلة على أن اللغتين اللاتينية والغالية كانتا شديدتي التشابه في جوانب كثيرة[(10)]. وهذا التشابه أتاح للغة اللاتينية أن تحل محل الغالية كلمةً فكلمة، بطريقة تشبه ما افترضناه من انتشار العربية فوق الآرامية. وعلى عكس ذلك، فإن اللغة البريطانية - التي ربما كانت ما تزال تحمل تأثير طبقة تحتية لما قبل الكلتية - كان تركيبها مختلفاً، إذ كانت قبل كل شيء لغة تأتي الأفعال فيها أولاً في بداية الجملة. فكان البريطانيون يجدون صعوبة في التعبير عن أنفسهم باللاتينية أكثر من الصعوبة التي يجدها أهل بلاد الغال. وهذه الحقيقة العنيدة هي السبب الجذري وراء كون فرنسا تتكلم اليوم لغة رومانسية، وبريطانيا العظمى لا تفعل ذلك.

وعلى وجه العموم، فإنه يبدو أنه قد تكون هناك ظروف يمكن فيها لجوهر اللغة، أي تركيبها نفسه، أن يلعب دوراً في بقاء جدواها؛ رغم حكمة اللغويين المتوارثة على مدى قرنين أو أكثر والقائلة بعكس ذلك. ونحن نقترح أن من الأسهل على سكان جدد أن يتعلموا اللغات، ومن هنا فإنها تنتشر بصورة أسهل عندما تكون تراكيبها شبيهة باللغة القديمة لأولئك السكان. وليس هناك تركيب مفضل في هذه العملية، بل مجرد شبه الجديد بالقديم. وإلا فإن تعلم لغة جديدة هو صراع لصعود تل وعر، وقد يكون أصعب من اللازم على أولئك الذين تقدموا في السن.

أوسع من الإمبراطوريات

إن كان هناك شيء أظهره هذا الكتاب، فهو أن لغات العالم ليست مخلوقات أوجدتها القوى العالمية بشكل حصري. فاللغة لا تنمو من خلال تأكيد القوة، بل من خلال إيجاد مجتمع إنساني أكبر. ومن الواضح أن القوة العسكرية أو الاقتصادية يمكن أن تعمل كعناصر قوية لإحداث النمو المجتمعي. فجيوش روما التي لا تقاوم، وطليعيو إسبانيا، وأسطول بريطانيا الملكي، لعبوا جميعاً أدواراً أساسية في توسيع نشر اللاتينية والإسبانية والإنكليزية في مناطقهم.

ولكن حالات فشل الغزو السافر والتنمية التجارية في نشر اللغة كانت أكثر من أن نتجاهلها: فالنجاح السياسي للتركية والمغولية، ولغة المانشو في فرض سيادتها على الصين الشمالية، لم يوسع انتشار هذه اللغات. كما أن الهجمات الجرمانية على الإمبراطورية الرومانية لم تزحزح اللاتينية، بل ولم تقلصها. ثم إن نجاح هولندا التجاري لمدة قرنين في جنوب شرق آسيا لم يفعل شيئاً لصالح اللغة الهولندية. ولعل الفينيقيين كتجار عالميين في حوض الأبيض المتوسط، والصغد على طول طريق الحرير، قد نشروا مع بضائعهم مهارات معرفة القراءة والكتابة، ولكنهم لم يقنعوا زبائنهم باستعمال لغتهم على نطاق أوسع.

ويظهر أن الغزو العسكري أو السيطرة التجارية لن تنشر اللغة في العادة إلا إذا جاء الغزاة بأعداد ساحقة، إما عن طريق هجرات طويلة الأمد، وإما عن طريق انهيار السكان الأصليين. وهناك بديل أقل وحشية، وهو أن يقوم الغزاة بإقناع المغزوين بالانضمام إلى حضارتهم التي من الواضح أن لديها تقدماً تقنياً أكبر وإمكانية لإغنائهم، كما فعل الرومان في بلاد الغال، والبريطانيون في الهند.

ولكن هذا مجرد جانب آخر من النقطة الأساسية المتعلقة بانتشار اللغة، وهو أنه يعتمد على نمو المجتمع. فهكذا تمكنت السنسكريتية من الانتشار في جنوب شرق آسيا لمدة ألف عام بدون غزو، وتمكنت القيشوا من الاستيلاء على الممتلكات التي كانت في حوزة الإنكا؛ وبهذه الطريقة تم الأخذ بالفرنسية في الطرف الشرقي من أوروبا من قبل النخب التابعة لقوى أجنبية أرادت ببساطة أن

تقلد أعلى ثقافة تعرفها. كما أن الآرامية انتشرت عن طريق مجتمع من الكُتّاب المزدوجي اللغة مبعثرين على نطاق واسع، وقادرين على إنشاء الرسائل المكتوبة بالآرامية وترجمتها، حتى عندما كانت المجتمعات الناطقة بها تقتلع ويعاد توطينها في جميع أنحاء الإمبراطورية الآشورية. إن هناك طرقاً أخرى، بل طرقاً أكثر فاعلية من العنف لتكبير مجتمع ما. فاللغة المشتركة هي التي تمكّن مزيداً من الناس من المشاركة فيها. وكما قال أندرسون فإن 'الشيء الأهم من غيره بكثير في مجال اللغة هو قدرتها على توليد مجتمعات متخيلة، وبالتالي بناء "حالات من التضامن الخاص". فرغم كل شيء، فإن اللغات الإمبراطورية لا تزال "لغات دارجة"، وبالتالي فهي دارجة ومتداولة بشكل خاص بين أناس كثيرين'،[11].

إن كل مجتمع متميز بنهجه الخاص به. وكل مجتمع يكتسب طابعه من تقاليد ماضيه. وكثير منها أو معظمها منقولة بواسطة روايات وطقوس مشتركة بلغة المجتمع نفسها. وعلى عكس افتراض معظم الفلسفة الغربية في القرن العشرين، فإن اللغة ليست أبداً مجرد 'لغة' ببساطة: فكل لغة لها لونها الخاص بها ونكهتها. وفي هذا الكتاب، لمحنا بعض السمات المتميزة للتقاليد المختلفة، مثل نزعة الكبرياء والتقشف والمساواة في العربية، ونزعة احترام الذات الراسخة التي لا تتزعزع في الصينية والمصرية، والتصنيفات والسلاسل الهرمية الباذخة المترفة في السنسكريتية، والابتكار الواثق بالنفس والمؤدي إلى عشق الذات والتعالم في اللغة اليونانية، والإحساس المدني في اللاتينية، والجمود والتصلب والجشع والدقة في الإسبانية ؛ والإعجاب بالعقلانية في الفرنسية، والإعجاب بالفطنة التجارية في الإنكليزية. وهذه الصفات المتنوعة يمكن رؤيتها أحياناً في آداب اللغات. ولكنها تبرز عند ذكر تواريخ اللغات.

وإنها لظاهرة تبدو متناقضة أن هذا الكتاب، الذي روى قصص لغات امتدت إلى أبعاد مترامية على حساب لغات أخرى في كثير من الأحيان، هو فوق كل شيء حكاية تنوع. فبعد كل شيء، فإن أنواع التطورات المروية هنا هي التي أدت إلى الأزمة الحديثة الخاصة بتعرض اللغات إلى الخطر، وهو وضع خطير إلى درجة أن من المعقول الاعتقاد أنه بالنسبة لنصف لغات العالم، فإن آخر

الناطقين بها ربما يكونون هم الناس الذين على قيد الحياة اليوم [12] [أي أنها على وشك الانقراض]. ولكن لا يزال هناك أكثر من ستة آلاف لغة في العالم، رغم أن اللغات القليلة التي سُرِدت حكاياتها في هذا الكتاب تمثل حوالي خمسي المتكلمين في العالم.

ويجدر بنا أن نتساءل إن كان تنوع الوعي والهوية المتمثل في كل لغة قادراً على البقاء، أو يجب الإبقاء عليه، في العالم الحديث. إن الثورات الصناعية والعلمية السابقة تقدم الحجة القائلة بأن هناك طريقاً فريداً موحداً للمعرفة الصحيحة الأصيلة والتنظيم الصناعي. وتتفاخر هذه الثورات بعرض منجزات تبدو سحرية لإثبات ذلك. ومع ذلك، فحتى منتصف القرن التاسع عشر على الأقل، كان تفاعل البحوث في حفنة من اللغات المختلفة هو الذي حافظ على إيقاع خطوات التقدم الفكري. وحتى في يومنا هذا، فإن المراقب الثاقب النظرة لدور الإنكليزية في العالم الحديث يستطيع أن يلاحظ أنه: 'في غضون الخمسمئة عام القادمة ... إذا كانت [الإنكليزية] هي اللغة الوحيدة الباقية عندئذ ... فستكون تلك أعظم كارثة فكرية عرفها هذا الكوكب'[13].

ولكن ينبغي أن لا تتغلب علينا التنبؤات عن وحدة وشيكة. فقد قدّمت بضعة إيحاءات نفسها كحقائق عالمية في الألفين وخمسمئة عام الماضية، ومعظمها لا تزال في الصراع. وبالمثل فإن اللغات التي استعرض هذا الكتاب تواريخها مضى عليها ضعف هذه المدة وهي تنتشر في دوائر متزايدة. ورغم كل هذه المنافسة الشديدة المنفلتة، فإنها لا تزال كلها تقريباً موجودة - هي أو خليفاتها اللاحقة - في مطلع القرن الحادي والعشرين.

إن اللغة المشتركة شيء مناسب ومريح للناطقين كي ينقلوا رسالة عبر العالم بالتأكيد، ولكنها مناسبة أيضاً للمستمعين عندما يظهر أن أحد المجتمعات اللغوية يملك أكثر من حصته العادلة من المعرفة المفيدة، ولكن برغم أسطورة برج بابل وتفسيرها العامي الدارج كحكاية تحذيرية، فإن تنوع اللغات ليس عائقاً للجنس البشري. فمعظم الناس في العالم متعددو اللغات، ويستطيع كل شخص أن يكون كذلك. فلا أحد يتم استبعاده بقوة من المجتمع اللغوي لشخص آخر إلا

عن طريق نقص الوقت أو الجهد. فاللغات المختلفة تحمي ثقافات مختلفة وتغذي نموها، حيث يمكن اكتشاف طرق مختلفة للمعرفة الإنسانية. ومن المؤكد أن اللغات تجعل الحياة أغنى للذين يعرفون أكثر من لغة واحدة.

عند تأليف هذا الكتاب، كنت أضطلع عن وعي بنهج جديد ضمن المجال اللغوي. وبدلاً من النظر إلى الوضع الحالي للغات العالم الكبرى، فإنني اتبعت النظرة التاريخية. ولكن بدلاً من مقارنة الكلمات في اللغات المختلفة بصورة منهجية، بهدف إعادة تركيب ماضيها كما يفعل اللغوي التاريخي في العادة، أو مقارنة التراكيب العامة للغات المختلفة، مثل دارس رموز اللغة، فإنني قد بحثت في المكانة المتطورة لكل لغة على مدى قرون سيرة حياتها. وحيثما جرت محاولة للمقارنة، فإنها مقارنة سِيَرِ الحياة تلك. ومثل هذا النوع من العمل قد يمكن تسميته "ديناميكية حركية اللغة"(*). إنه نهج لم يتم فيه استكشاف ينكر في السابق لفهم المجتمعات الإنسانية: وكيف أن اللغة، بكل تنوعها المتطور لا تقتصر على تنظيم العقل البشري فقط، بل وأيضاً مجموعات كبيرة من العقول الإنسانية التي تجعل من نفسها مجتمعات تتواصل وتتفاعل، وتفكر وتتصرف كذلك.

ومن وجهة النظر هذه، فإن تركيزنا على اللغات الكبيرة كان قبل كل شيء طريقة مناسبة. فكل اللغات لها تاريخها، ولكن قليلاً منها موثق بشكل كافٍ لكشف الكثير عنها. فاللغات الكبيرة والشهيرة هي بصورة نموذجية التي تملك أكبر توثيق كاف ومناسب. وهذا ما كنا نحتاج إلى البدء منه، كي نضع الخطوط الأساسية في هذا المجال الجديد. وهذا ما فعلناه. ولكن نشاط حركيات اللغة يجب أن يشمل في آخر الأمر تاريخ اللغة البشرية بكل تنوعه.

هنا السلالة التي أنجبتها الشمس، وهنا عقلي الضعيف الموهبة:
فهل أستطيع بحماقة أن أعبر المحيط المستحيل بقاربي الصغير؟
كاليداسا: خط راغو، المشهد الأول، السطر الثاني

(*) أو بشكل أوضح وأكثر تقنية 'تطور اللغويات الاجتماعية'. وهناك مثل حديث آخر مركز على إفريقيا إلى حد كبير، وهو موفين (2001).

الحواشي

مقدمة: صدام اللغات

(1) وبهذه الصفة تم تسجيلها في عدة سجلات تاريخية معاصرة تقريباً. وبالنسبة لكلمات موتيكوهزوما بلغة الناحواتل، فإنني هنا اقتبس من الموسوعة المعاصرة لحضارة الأزتيك، المعنونة: التاريخ العام لشؤون إسبانيا الجديدة (المجلد 12، ص 16) التي جمعها الأب برناردينو دي ساهاغون. وأما كلمات كورتيز بالإسبانية فهي منقولة عن رواية شاهد عيان هو الجندي برنال دياز دي كاستيلو الذي خدم تحت إمرته، والواردة في كتاب التاريخ الحقيقي لغزو إسبانيا الجديدة (الفصل 89).

1 ـ بساط ثميستوكليس

(1) سايكس (2001، الفصلان السابع والعاشر)؛ ويل وشركاه (2002). وانظر الفصل السابع: 'ضد الأخطار: مجيء الإنكليزية'، ص 437.

(2) إن آندرسون (1991) دليل جيد إلى التاريخ القصير والمشحون لتاريخ مفهوم الأمة، وإعادة نقله وزرعه للاستخدام في جميع أنحاء العالم.

(3) ساهاغون، 4: 13.

(4) كارتونين (1990: ص 291 ـ 294).

(5) استشهادات من ثلاثة ناطقين بلغة الناحواتل، مقتبسة في كتاب كنغ (1994، ص 136 ـ137).

(6) اولوس جيليوس، الليالي الإغريقية، 17:17.

2 ـ ما تتطلبه اللغة لتكون عالمية؛ أو إنك لا تستطيع أن تخمن أبداً.

(1) مثلاً في كتاب ليبينسكي (1997: ص 46).

(2) فيرث (1964: ص 70ـ71). وهذه إعادة إصدار لأعمال نشرت في الأصل في العامين 1937 و1930.

(3) وابتفيلد (1999: ص 36).

3 ـ الصحراء تزهر: الابتكار اللغوي في الشرق الأوسط

(1) اللوح الثاني، 11: 36ـ48؛ نص من لامبرت (1960:ص 40). ترجمة: و.ج. لامبرت في كتاب بريتشارد (1969: ص 596ـ600)، مع تحوير بسيط.

(2) 11: 70ـ78؛ نص من لامبرت (1960:ص 148)؛ ترجمة: و.ج. لامبرت في كتاب بريتشارد (1969:ص 601).

(3) ليبينسكي (1997:ص 42 ـ 44).

(4) أمثال أحيقار، العمود 14، ص 208 ـ 223؛ نص من لندنبرغ (1983: ص 209).

(5) الدليل في نظام الضمائر باللغة العيلامية، وبعض ملامح التصريف للأسماء والأفعال؛ دياكونوف (1985: ص 3)؛ مكالبين (1981). ولكن نسبتها لا تزال موضع جدل وخلاف.

(6) لانسل (1997 ص 437).

(7) مثل هذه المستعمرات شملت سلوقيا على نهر دجلة، وسلوقيا على نهر يولايوس - وهي ليست سوى سوسه، العاصمة العيلامية والفارسية السابقة - وآي خانوم الحديثة في أقصى شرق بكتريان، أي أفغانستان الحديثة (ويزنهوفر 2001: ص 111 - 112).

(8) بريتشارد (1969: ص 56): نزول إينانا إلى العالم السفلي (ترجمة صاموئيل نوح كرامر).

(9) تسيريتيلي (1959 [1912]).

(10) مبسوط ومشروح في شماندت - بيسيرات (1997).

(11) هالو (1974: ص 185 - 186) ؛ والترنيمة لإينانا مترجمة في كتاب بريتشارد (1969: ص 579 - 582).

(12) بريتشارد (1969، ص 496): وأغنية الحب إلى ملك (ترجمة صاموئيل نوح كرامر)، مع تحوير طفيف.

(13) بريتشارد (1969: ص 652): وا - آوا، تهويدة سومرية لتنويم الأطفال (ترجمة صاموئيل نوح كرامر، مع تحوير طفيف. <www.etcsl.Orient.ox.ac.uk:/section2/c24214.htm>

(14) طومسن (1984: ص 293 - 294) مقتبس من محضر جلسة الجمعية الفلسفية الأمريكية 107 (4)، ص 1-12؛ (ترجمة صاموئيل نوح كرامر)، مع تحوير طفيف.

(15) بريتشارد (1969: ص 651): لعنة آغاد، ص 279 - 281 (ترجمة صاموئيل نوح كرامر). <www.etcsl.orient.ox.ac.uK:/section2/tr 215.htm>

(16) مكالبين (1981: ص 60).

(17) مالبران - لابات (1996، ص 56).

(18) ويزيهوفر (2001: ص 10).

(19) دياكونوف (1985: ص 24).

(20) هالو (1974: ص 184).

(21) كرامر (1979: ص 39).

(22) هذا تحليل مالبران - لابات 1996).

(23) روكس (1992: ص 276).

(24) سُويَرْ (1999: ص 14).

(25) أويد (1979) ؛ أوديد، مقتبس في غاريلي (1982: ص 438) وروكس (1992: ص 308).

(26) بريتشارد (1969: ص 284): من عرض نصوص من معرض عاصمة سرجون الثاني، خورساباد (دور شاروكين).

(27) تدمر (1982: ص 451).

(28) يزعم باربولا (1999) أن ذلك كان متعمداً تماماً: 'إن فرض اللغة الآرامية على آشور كان سياسة محسوبة تهدف إلى خلق وحدة وطنية وهوية من نوع لم يكن من الممكن تحقيقه لو أن الامبراطورية بقيت تجمعاً فضفاضاً لعدة أمم ولغات مختلفة'.

(29) غاريلي (1982: ص 442).

(30) كوفمان (1997: ص 114 - 115).

(31) ديتريخ (1967، ص 87 - 90).

(32) المصدر السابق: ص 90، مستشهداً بديتريخ (1979: البند 10).

(33) كوفمان (1974: ص 165 - 170). ويلاحظ باربولا غلطة للقلم في نسخة مكتبة آشور بانيبال من ملحمة جيلغامش (من منتصف القرن السابع ق.م) وهي غلطة لابد أن مرتكبها كان ناطقاً بالآرامية: فقد وضع الرمز المنقوش لكلمة 'السيد' (مارا بالآرامية) مكان كلمة 'الابن' (مارا بالاكادية).

(34) بريتشارد (1969: ص 317): الوثائق التاريخية 5،، أنطيوخوس سوتر (ترجمة ف.هـ. ويزباخ).

(35) المصدر السابق، ص 136: أشعار عن بعل وآنات fc (ترجمة هـ.ل. جينسبرغ).

(36) سفر التكوين: الإصحاح السابع والعشرون، 28 و39. وانظر أيضاً غوردن (1971: ص 122).

(37) سفر حزقيال: الإصحاح السابع والعشرون، 3 - 11، 25 - 26، 32.

(38) لانسل (1997، ص 357) ؛ كريب وشركاه (1999: ص 225، 227).
(39) اوغسطين: الرسائل، 17: 2 (رسالة إلى ماكسيموس مادوروس).
(40) بليني: التاريخ الطبيعي، 18: 22.
(41) مانو: بريبلوس (القوانين الملكية الإغريقية 398، الملفان 55r و56r).
(42) اوغسطين، المواعظ: 167: 4.
(43) بلوتوس، قصيدة بوينولوس ، الأبيات 930 ـ 1028.
(44) المصدر السابق، الأبيات 1002 ـ 1012، والترجمات من اللغة البونية تتبع زنيسر (1967: ص 141 ـ 143).
(45) ليفي، 28: 46، 16.
(46) كوفمان (1997: ص 115).
(47) غرينفيلد (1985: ص 708) ؛ بلوتسكي (1971).
(48) ثيوسيديديس، المجلد الرابع، ص 50.
(49) سفر دانيال، الإصحاح الاول، 4.
(50) ليمير ولوزاكميور (1996: في أماكن كثيرة).
(51) غرينفيلد (1985، ص 701، الحاشية رقم 2).
(52) بريتشارد (1969: ص 428): أمثال احيقار (ترجمة هـ.ل. جينسبرغ).
(53) المصدر السابق، ص 491: رسائل اليهود في إيليفانتاين (ترجمة هـ.ل.جينسبرغ).
(54) شلومبرغر وشركاؤه (1958).
(55) هينينغ (1949).
(56) هناك لوح لعنةٍ من القرن الرابع ق.م. اكتُشف مؤخراً في العاصمة المقدونية بيلا، يشير إلى أنها كانت نوعاً من اللهجة اليونانية، من النمط الشمالي الغربي (فوتيراس 1994).
(57) بروك (1989، ص 19).
(58) سايكي (1937).
(59) إن استخدامهم المتناقض للإنكليزية لحماية استخدام اللغة الألمانية موصوف في كتاب جونسون ـ واينر (1999).
(60) موصوف من وجهة نظر متعلم ويلزي من قبل بام بترو (بترو 1997: ص 259 ـ 319).
(61) حديث يوجد نزاع على صحته: التبريزي (1985: ورقمه 6006).
(62) محاولة مذكورة في ميقويل (1968) وبلانهول (1968).
(63) القرآن: سورة العلق (رقم 96) الآيتان 1 ـ 2. إن كلمة 'العلق' في أصلها الساميّ يبدو أنها تحمل أيضاً فكرة العلوق أو التعلق.
(64) برودل (1993: ص 72) اقتباس من المؤرخ العربي البلاذري.
(65) لويس (1995: ص 184 ـ 186).
(66) فراي (1993، ص 99).
(67) المصدر السابق، ص 123.
(68) نفسه، ص 169.
(69) نفسه، ص 113.
(70) نفسه، ص 169.
(71) غيتشارد (2000، ص 143) اقتباس من جان ـ بيير مولينات.
(72) كورينت (1992: ص 34).
(73) هدادو (1993: ص 87).
(74) ابن خلدون، اقتباس في كتاب إيلنغهام وشركائه (2001: ص 552) ؛ وقد كتب هذا المؤرخ الذي عاش في

القرن الثالث عشر تاريخاً للبربر أيضاً.

(75) ابن خلدون، المقدمة، اقتباس في آرمسترونغ (2000: ص 90).
(76) شو (1976: ص 5).
(77) شوف (1912).
(78) حوراني (1995: ص 92 ـ 97).
(79) دالبي (1998: ص 591 ـ 595).
(80) كلوسون (2002: ص 50، 183).
(81) عبد الغني (1929).
(82) مانغو (1999: ص 496).
(83) خولافي (1979، المجلد الثاني، ص 37).
(84) برودل (1993: ص 45).
(85) المصدر السابق، ص 112.
(86) نفسه، ص 41 ـ 42.

4 ـ انتصارات الخصوبة: المصرية والصينية

(1) ترجمة ليختايم (1973: ص 52).
(2) ترجمة سوتهيل (1910: ص 73 ـ 74).
(3) بريتشارد (1969: ص 415).
(4) إيرمان (1894، ص 544).
(5) المصدر السابق نفسه، ص 106.
(6) نفسه، ص 244.
(7) لوحظ من قبل لوبرينو (1995: ص 71).
(8) موران (1992، ص xx ـ xxi.
(9) باكيليديز (1961: ص 14 ـ 16)، المقطع 20ب ؛ وكذلك أوكسيرينكوس بابيروس 1361.
(10) غرينفيلد (1985: ص 701، الحاشية رقم 2).
(11) انظر لوبرينو (1995).
(12) جونسون (1999: ص 177) ؛ دودسون (2001، ص 90، 92).
(13) حسبما يقول المؤرخ العربي القاهري المقريزي (1365 ـ 1442)، كما هو مذكور في كتاب ليبينسكي (1997: ص 29).
(14) من قبل مكتب المترجمين في أواخر أيام الإمبراطورية: رمزي (1987: ص 32).
(15) بازين (1948).
(16) رمزي (1987: ص 102 ـ 103، 139 ـ 140، 236 ـ 237). وعلى وجه الدقة فإن لغة كانتون فيها تسع نغمات، بعد إضافة انشقاق آخر.
(17) يجادل هاشيموتو (1986) بشكل مفرط قليلاً في اليأس بان الصينية اكتسبت طابع آلطاي في الشمال، ولكن دليله محصور في حالات الاختلاط الهجينة المؤقتة للغة في بيجينغ، ولهجة منحرفة معاصرة في كنغهاي، حيث يحتمل أن الناطقين كانوا مزدوجي اللغة مع التيبتية.
(18) نورمان (1988: ص 20).
(19) وانغ (1992: ص 11).
(20) هول (1981: ص 212).
(21) كوديز (1968: ص 37). انظر الفصل الخامس: 'السنسكريتية في جنوب شرق آسيا'، ص 292.
(22) وانغ (1992: ص 16).

(23) غروسيه (1970: ص 66).
(24) موت (1999: ص 25، 980).
(25) الأرقام الخاصة بمصر مستمدة من دولينجر (2002)، والخاصة بالصين من باركلاف (1978: ص 80، 127). ويقترح ماكيفدي وجونز رقماً أقل لمصر في الأيام الرومانية، وهو 5 ملايين. وهما ببساطة يرفضان تقدير ديودوروس الصقلي (1ـ31) الذي يعطي 7 ملايين لمصر في العام 300 ق.م. باعتباره 'أعلى من اللازم'. وأما بالنسبة للصين فهما يشيران إلى أن أرقام الإحصاء السكاني للسنة 2م. هي في الحقيقة 11.8 مليون أسرة. ويقدران أن سكان الصين عندئذ ظلوا قريبين من 50 مليوناً حتى بداية الألف الميلادي الثاني، عندما بدؤوا يتزايدون مع الحضارة العظمى للرز في وادي يانغتسي حتى وصلوا إلى 115 مليوناً في العام 1200م. ثم عادوا إلى التناقص في الفترة المغولية، فلم يتعافوا منها حتى العام 1500. ولا شيء من هذا كله يؤثر على النقطة العامة الخاصة بكثافة سكان مصر والصين العالية بشكل استثنائي في العالم ما قبل الحديث.
(26) الأرقام مستمدة من راسل (1958).
(27) بريتشارد (1969: ص 415).
(28) آرنيت (1982: ص 45 ـ 47).
(29) ساليير 2، 9، 1= آناستاسي بابيري 7،4،6، مقتبس في كتاب إيرمان (1894: ص 328).
(30) آناستاسي بابيري 8،10،5 ومايليها، مقتبس في إيرمان (1894: ص 328).
(31) رمزي (1987: ص 121ـ123). انظر الفصل الخامس، ص 300.
(32) نورمان (1988: ص 257 ـ 263).
(33) ويلكينسون (2000: ص 735).
(34) مجلة الإيكونوميست، 9 آذار/مارس 1996، ص 4، مقتبسة في غرادول (1997: ص 37).
(35) كارلغرن (1954). والمبادئ موضوعة بشكل موجز ومحكم في كتاب نورمان (1988: ص 34 ـ 42).
(36) بريتشارد (1969: ص 440).
(37) ويلكينسون (2000، ص 723).
(38) ترجمة موت (1999: ص 156)، من لين تيانوي (1977).
(39) غاو (1991: ص 145).
(40) رمزي (1987: ص 224).

5 ـ شيء جذاب كنبات معترش: المستقبل الثقافي للسنسكريتية

(1) ريغ فيدا، 7: 103.
(2) المصدر السابق، 10: 34.
(3) مهابهاسيا، 1:1.
(4) اوجا، بهاراتيا براسينا ليبي مالا، 14، رقم 6، منسوبة إلى كاناكيا ـ نيتي.
(5) قيصر، بلاد الغال الجميلة، 6: 14.
(6) مارتن بريكتيل، اتصال شخصي.
(7) افلاطون، فيدروس 275A.
(8) مهابهاراتا، مقتبسة من قبل كيسافان (1992: ص 3).
(9) بروف (1968: ص 31).
(10) دشباند (1993: ص 24) نقلاً عن المهابهاسيا 1: ص 2.
(11) باتانجالي، مهابهاسيا ، عن بانيني 3:4: 109، ترجمة دشباند (1993: ص 62).
(12) مانو، المجلد الثاني، ص 18 ـ 22.
(13) دشباند (1993: ص 86).

(14) المصدر السابق، ص 16؛ راجاشيكارا كافياميمامسا، 4.
(15) سترابو 15: 1: 21.
(16) المصدر السابق، 15: 1: 64.
(17) ميليندابانها، 1: 9.
(18) فو- كوو- كي، ص xxxv (في بيل 1884، ص 1xxi).
(19) المصدر السابق (في بيل 1884؛ الجزء الأول، ص 1xxix).
(20) نفسه، ص 1× (في بيل 1884؛ الجزء الأول، ص .1xxxiii.
(21) كوديز (1968: ص 81 ـ 82).
(22) سي ـ يو ـ كي 9:2 (في بيل 1884، الجزء الأول، ص 77 ـ 78).
(23) جيدواني (1994).
(24) ريغ فيدا، 7:20:2.
(25) تشاترجي (1966: ص 78).
(26) سي ـ يو ـ كي 10: 9 ـ 11 (في بيل 1884: الجزء الثاني، ص 204 ـ 208).
(27) بانياكاتانترا، V: 31.
(28) كيث تايلور، في كتاب تارلينغ (1999: ص 195).
(29) كامارا وبودوكي وسوباتما، 'الكذب في الخصومة' اقتباس في كتاب باريبلوس على بحر إيرثرايا الذي يعود إلى القرن الأول الميلادي (الفصل 20). والاثنان الأولان منها يفترض أنهما عن دلتا نهر كافيري، وعند بودوتشري (المعروفة أفضل باسم بونديتشري).
(30) يول وبرونيل (1986: ص 456): 'إنها مقولة بلغة غوجيرات ـ "من يذهب إلى جاوه لا يعود أبداً. فإذا عاد بالصدفة فإنه يجلب معه أموالاً يعيش عليها لمدة جيلين ..."' راس مالا، 2: 82 (طبعة عام 1878: ص 418).
(31) ماجومدار (1975: ص 21).
(32) كوديز (1968: ص 26 ـ 27، 36، 275).
(33) المصدر السابق، ص 37، 276.
(34) ماجومدار (1975: ص 13).
(35) المصدر السابق، ص 19 ـ 20.
(36) نفسه، ص 48.
(37) مهابهاراتا، آرانياكابارفا، 173؛ ماجومدار (1975: ص 25 ـ 27).
(38) كوديز (1968: ص 369).
(39) فو ـ كوو ـ كي 1 × (في بيل 1884؛ الجزء 1، ص 1 xxxi).
(40) كوديز (1968: ص 17): بيشيرت وغومبريتش (1984: ص 147).
(41) رمزي (1987: ص 121 ـ 124).
(42) فيما يخص تفاصيل النص التبتي وأصله، اعتمدت على بِيَرْ (1992: ص 40 ـ 50).
(43) هناك بعض الأدلة على أن التبتيين كانوا يعرفون الكتابة في وقت أبكر من هذا، وهناك حوليات تاريخية معاصرة من الفترة من العام 650 إلى العام 747، وعن سنة 655 نجد ما يلي: 'أقام الملك في مير ـ خي، وقام رئيس الوزراء ستون ـ تسان بكتابة نص أوامره إلى نغور ـ تي'. وفي الحقيقة فإن مقدمة النص منسوبة بشكل تقليدي (أي في تاريخ من القرن الرابع عشر) إلى كاتب تبتي ووزير في الحكومة يدعى ثون ـ مي آنوي ـ بو، الذي يقال بأنه أُرسل في مهمة إلى الهند في منتصف القرن السابع. ولكن ثون ـ مي هذا قد يكون شخصيةً مخترعة، إذ إنه محذوف من السجلات القديمة الأصيلة للتبيت التي تم العثور عليها في آسيا الوسطى، بينما تنسب إليه أيضاً أقدم المؤلفات عن القواعد النحوية للغة التيبتية.
(44) بِيَرْ (1992: ص 36 ـ 37).

(45) حسب التخمين الوارد عند فان ليور (1955: ص 113)، ومناقش في كتاب هول (1981: ص 231 ـ 233).
(46) باشام (1967: ص 491).
(47) رانغاراجان (1992: ص 18 ـ 21).
(48) سي ـ يو ـ كي، ix (في بيل 1884: الجزء الثاني، ص 171ـ172).

6 ـ ثلاثة آلاف عام من الأنانة ـ مغامرات اللغة الإغريقية

(1) حكومة الأقلية القديمة، الدستور الآثيني.
(2) هيرودوتس، viii: 144 (مقتبس في ترويسة هذا الفصل)،
(3) المصدر السابق، iv: 183ـ184. وقد عاشوا على ساحل البحر الأحمر، حسبما يقول سترابو xvii، 1:2.
(4) أسخيلوس، أغاممنون، 1050ـ1051.
(5) ثوسيديديس ii، ص 35 ـ 46.
(6) المصدر السابق، ii: ص 41.
(7) ميناندر، المقطوعة 72، من تحرير كوك.
(8) هيراقليطس، المقطوعة 119.
(9) آريسطوفان، الفرسان ، 1169.
(10) هسيود، أصناف النساء (طبعة لُوِيْب، المقطوعة 4).
(11) ثوسيديديس iii: 38، 4.
(12) باك (1955: ص 10 ـ 14).
(13) سترابو vi: 1:2.
(14) سيفس 30: 1664و 20: 326 (نص بوذي آرامي ـ يوناني)، شلومبرغر وشركاؤه (1958). انظر الفصل الخامس: 'شخصية اللغة السنسكريتية'، ص 269، والفصل الثالث: 'الآرامية ـ أغنية الصحراء: تداخل لغات آسيا الغربية'، ص 134.
(15) سالومون (1998: ص 265ـ267). فكلمة هليودوروس تخرج مثل هليودورا، ولكن أنطيالكيداس تخرج مثل أمطاليكيتا، وذلك حسب تقليد آسوكا إلى حد كبير، فهي تحتوي على حالات حث على الفضيلة البوذية بلا مبرر. انظر الفصل الخامس: 'آراء أشخاص خارجيين'، ص 277.
(16) غيرشمان (1954: ص 229ـ230).
(17) مانغو (1980: الفصل الأول).
(18) بلوتارخ، مارك أنطوني .xxvii
(19) كتاب كمبريدج للتاريخ القديم، المجلد السابع، 1^2، ص 180.
(20) درو- بير وشركاؤه (1999).
(21) سترابو، iv: 1: 5.
(22) بلوتوس، إبيديكوس، iii: 3: 29.
(23) بوليبيوس، التواريخ، iii: 59.
(24) فيرجيل، الإينياد ، vi الأبيات 847ـ853.
(25) في قاموس سكتوس بومبونيوس فستوس من أواخر القرن الثاني الميلادي. والكلمة شائعة في بلوتوس، أعظم مكيّف للمسرحيات اليونانية للمستمعين الرومان في القرن الثاني الميلادي.
(26) سويَرْ (1999: ص 37).
(27) المصدر السابق، ص 35.
(28) المصدر سوفسطائي من آثينا هو فيلوستراتوس، الذي ألف كتاب حياة أبولونيوس من تيانا، بتكليف من زوجة الإمبراطور الروماني سبتيموس سيفيروس عند نهاية القرن الثاني الميلادي. وهو عمل من أعمال

الأدب الإيماني، ولذا فإن دقته صارت موضع شك ؛ ولكن وودكوك (1966: ص 130) يجادل بأن الآثار تظهر أن المؤلف كان جيد الاطلاع على تفاصيل هذه الأرض البعيدة عن روما المعاصرة وحوض الأبيض المتوسط.

(29) ويزيهوفر (2001: ص 122).
(30) المصدر السابق، ص 155.
(31) يوميات رحلة آثيرياي (تحرير هـ. بيتر، باريس 1948) xlvii 4-3 (مقتبس في كتاب مانغو 1980: ص 19).
(32) مانغو (1980: ص 25).
(33) دي ثيماتيبوس، مقدمة، طبعة برتوسي، 1952، مقتبس في كتاب موروكس (1997: ص 150).
(34) بروكوبيوس، التاريخ السري، xviii ص 20 ـ 21.
(35) الجزء الثالث من التاريخ الكنسي لجون أسقف إفيسوس، ترجمة ر. باين سميث (أكسفورد، 1860)، ص 423 ـ 424 (مقتبس في مانغو، 1980: ص24).
(36) ب. ليميرل، وقائع غير مدونة من مونمفازيا، منشورة في مجلة الدراسات البيزنطية ، المجلد 21 (1963)، ص 9 ـ 10 (مقتبس في مانغو 1980: ص 24). والكفيريون ربما كانوا معتنقين للإسلام. والثراسيون لم يكونوا من ثراسيا، ولكن من الموضوع التراسيسي في غرب الأناضول.
(37) ليو السادس، "التكتيك" في كتاب باترولوجيا غريقا، تحرير ج.ب. مين، cvii، 969A (مقتبس في مانغو 1980: ص 28).

7 ـ الصراع على أوروبا: الكلت، والرومان، والألمان، والسلاف

(1) هيرودوتس، 33.ii، iv 49. إن السينتيين، المعروفين أيضاً باسم السينيسان، ربما كان موقعهم الصحيح وراء أعمدة هرقل تماماً. لأن هذه المنطقة، وهي الغريف الحديثة يسميها سترابو iii: 1: 4 'كونيوس' ـ رغم أنه كان يعتقد أن اسمها هذا لاتيني مأخوذ من شكلها الذي يشبه الإسفين.
(2) جاكوبي (1923: العدد 70، المقطوعة 30).
(3) سترابو vii: 3: 8؛ آريان 1:4: 6 ـ 8.
(4) كتاب لينستر، التنقيح الثاني، 11: 4733 ـ 4736، ترجمة سيسيل أو راهيلي.
(5) قيصر: بلاد الغال الجميلة 1:1.
(6) ديودورس الصقلي، المجلد 5، ص 29 ـ 31.
(7) سترابو vii: 1: 2.
(8) ارسطو، المقطوعة 610؛ كتاب السياسة vii: 10.
(9) بليني iii: 57، نقلاً عن كليتاركوس، الذي كان هناك. أما آريان vii: 15: 5 ـ 6 فيميل إلى إهمال ذلك 'باعتبار أنه لم يكن هناك شعب آخر تسيطر عليه كراهية الاستبداد واسم الاستبداد نفسه مثل الرومان'.
(10) بوليبيوس، التواريخ ، 1:1: 5.
(11) المصدر السابق، vi: 52.
(12) نفسه، vi: 56.
(13) سترابو vi: 1: 2.
(14) بليني، التاريخ الطبيعي، 29: 1: 7، الحاشية 14.
(15) جوفينال vi: 455.
(16) أولوس جيليوس، الليالي الإغريقية، 17:17.
(17) سترابو V: 3: 6.
(18) كان تاسيتوس على حق في تصنيفه للفينيتي والفنّي على أنهم ليسوا من الألمان ولا من الصرماتيين (الذين كانوا بدواً فارسيين، قريبين من السكيثيين). ولكنه يتابع فيشبّه البيوسيين بالباستارنيين،

المعروفين بأنهم كانوا من الجرمان (سترابو 3:vii: 17).

(19) تاسيتوس، جرمانيا. xlvi.
(20) بطليموس، الجغرافيا، 5:3.
(21) سترابو vii: 3: 2، vii: 5: 2.
(22) لامبرت (1997: ص 123). وقد عثر على هذين الاثنين في منطقتي نيفر وأوتون في فرنسا. والأعداد الترتيبية لفرن الطيان في لاغروفنيسك على الصفحة 131.
(23) بوليبيوس، التواريخ، 17:ii؛ ليفي: v 34. قارن مع كنليف (1997: ص 71).
(24) مارشيال: الحكم المختصرة، 60:iv: 8.
(25) ليهمان (1987: ص 76 وما يليها).
(26) إيزيدور: أصول الكلمات، xiv : 6:6
(27) أفينوس، السواحل البحرية، 2 :108 - 116
(28) المصدر السابق، 2 :98 - 99
(29) كنليف (1997، الفصل الثامن) ؛ كنليف (2001، وخاصة الفصل السابع).
(30) مذكورة بتفصيل دقيق، ومقارنة عالمياً في جينسلر (1993).
(31) بوليبيوس، التواريخ، ii، 17.
(32) مذكور في كاري (1954: ص 180).
(33) جيلداس، هجرة البريطانيين، ص: 6.
(34) تاسيتوس، الحوارات الخطابية، x، 1 ـ 2.
(35) إيرنايوس، ضد الهرطقة، 1، المقدمة.
(36) دوميتيوس اولبيانوس، دايجست 1:xxxi: 11.
(37) صيدونيوس أبوليناريس، الرسائل الإنجيلية، iii: 3.
(38) بلوتارخ، ماريوس، النهاية.
(39) تاسيتوس، اغريكولا . xxi
(40) جوفينال، القصائد الساخرة، xv، ص 110 ـ 112.
(41) جاكسون (1994 [1953]: ص 107 ـ 110) ؛ سميث (1983).
(42) طوملين (1987).
(43) ميناندیز بیدال (1968: ص 19).
(44) هاريس (1989: ص 315 ـ 316).
(45) أوغسطين، العقيدة المسيحية، المقدمة 4.
(46) سيزاريوس آريلاتنسيس، المواعظ vi: 1ـ 2؛ 1:viii.
(47) كان يوترويبيوس قد كتب في القرن الرابع: 'بعد أن غزا تراجان داسيا، نقل إليها أعداداً غير محدودة من الناس من جميع أنحاء العالم الروماني للاهتمام بالحقول وبالمدن'. *Breviarium ab urbe condita*, *viii.6*.
(48) بورسيز (1967: ص 30، 135 ـ 137).
(49) الأدلة مسوقة بانتظام في كيز (1999: الفصول 13ـ16).
(50) ويل وشركاؤه، (2002).
(51) حسابات تيرينس كوفمان، باستخدام قائمة سواديش القياسية ذات المئتي كلمة الأساسية ومعانيها. طوماسون وكوفمان (1988: ص 365).

8 ـ الموت الأول للاتينية

(1) نصوص تاريخية ألمانية هامة، 1:1: 31: 14.

(2) هذا مستشهد به في رايت (1982: ص 109) كما في مكتبة فينا للمراجع الوطنية 795. وقد اتبعتُ مين (الذي يستشهد به رايت أيضاً) في تصحيح كلمة *sene* لتصبح *sine*.

(3) إنني أذكر هنا كحقيقة بسيطة مقولةً أسسها روجر رايت بجهد توثيقي كبير منذ العام 1982. والبديل سيكون هو الافتراض بأن اللفظ اللاتيني قد بقي ثابتاً طيلة القرون الأربعة الماضية، بدون أي تحريض خاص أو تعليم. وإن التجربة في إنكلترا منذ التحول العظيم في لفظ حروف العلة (في القرنين الخامس عشر والسادس عشر) تظهر أن الباحثين في لغة مكتوبة متميزة تماماً عن لغتهم لا يجهدون أنفسهم في إبقاء نظامها الصوتي منفصلاً عن النظام الذي يستخدمونه في لغتهم اليومية، فلا يفعلون ذلك بدون تحريض كبير وفير ومنازعات.

(4) *De dissensionbus filiorum Ludovici pii, iii,* الفصل الخامس، يرجعه ستودر ووترز (1924: ص 24) إلى الأعوام 841 ـ 843. والنص هناك مقتبس بكامله للاستشهاد به.

(5) رايت (1982: ص 124).

(6) مقتبس في كتاب رايت، ص 120، 122 من أحداث ألمانية تاريخية هامة، iii: 2: 1.

(7) ميناندير بيدال (1972: ص 24 ـ 25) ؛ مقتبس أيضاً في كتاب رايت (1982: ص 173).

(8) دانتي، بلاغة العامية الدارجة، 1:9 :8 11.

(9) دانتي، المأدبة 1: 2: 9.

الباب الثالث: اللغات في البحر

(1) محاورات بالإنكليزية والملايوية: أو أشكال معينة شائعة من الكلام، مكتوبة أولاً باللاتينية، والملايوية، والمدغشقرية عن طريق الجهد المثابر والمؤلم للسيد غوتاردوس آرثوسيوس، الباحث في أعمال دانتي، ومترجمة الآن بإخلاص إلى اللسان الإنكليزي من قبل أوغسطين سبولدنغ ميرتشانت، الذي سوف يسعده بعد ذلك أن يضطلع برحلة إلى جزر الهند الشرقية. طبعت في لندن من قبل فيلكس كنغستون، لصالح وليام وِلْبي، وسوف تباع في دكانه في باحة كنيسة بولص، عند علامة البجعة، 1614.

9 ـ الموت الثاني للاتينية

(2) رينولدز وويلسون (1968: ص 120).

(3) فيفر ومارتن (1976: ص 248 ـ 249).

(4) المصدر السابق، ص 289 ـ 295.

(5) اندرسون (1991: ص 39ـ 41).

10 ـ مغتصبو العظمة: الإسبانية في العالم الجديد

(1) هيرودوتس، iv: 106؛ سترابو، iv: 5: 4.

(2) كورتيز، رسالتان تتعلقان بغزو المكسيك، الرسالة الثانية (1982، مدريد: إسباسا كالب، الطبعة السابعة، ص 50).

(3) جوزيف دي آكوستا ، التاريخ الطبيعي والأخلاقي لجزر الهند الغربية، المجلد الأول، ص 160 (مقتبس في كروسبي 1972: ص 38).

(4) دي لاس كاساس (1957 [حوالي 1530]، i :46 : 163 وعند وصف هذا العمل بعد ذلك بخمسين عاماً، وجده دي لاس كاساس عملاً لا يغتفر، لأنه يرقى إلى الخطف.

(5) مثلاً في كتاب روزنبلات (1964: ص 192 ـ 193).

(6) إنكا غارسيلاسو، حسب رأي غوميز (1995: ص 82).
(7) إنكا غارسيلاسو، حسب رأي آبوت (1996: ص 685).
(8) الامر الملكي 20و29 آذار / مارس 1503، إلى نيقولاس أوفاندو في: مجموعة وثائق لم تنشر من أرشيف جزر الهند الغربية، xxxi، ص 163 ـ 164.
(9) إن هذا موصوف، على سبيل المثال، في آلفار (2000).
(10) هناك قائمة من القادة والكتاب البارزين من ذوي الأعراق الهجينة المختلطة، ولا سيما من المؤرخين، في كتاب روزنبلات (1964: ص 211).
(11) إن كلمات الأب بلاس فاليرا يقتبسها إنكا غارسيلاسو في تعليقات ملكية، القسم الاول، vii: 3.
(12) من آبوت (1996: ص 91).
(13) كلمات الأب بلاس فاليرا، مقتبسة من قبل إنكا غارسيلاسو في تعليقات ملكية، القسم الأول، vii:.3
(14) يقول ريكارد (1933[1966]: ص 23) انه في العام 1559 كان في المكسيك 380 راهباً فرانسيسكانياً و210 رهبان دومينيكانيين و212 راهباً أوغسطينياً. وكانوا منتشرين بشكل خفيف. فكان معدل عدد الموظفين الدينيين خمسة في كل دير. روزنبلات (1964: ص 210) يقدر عدد سكان المكسيك آنذاك بـ4.5 ملايين، منهم 6,464 رب عائلة إسباني.
(15) وتبعت ذلك لاباز (في بوليفيا) في العام 1610، وغواتيمالا في العام 1660. غير أن العواصم الكبرى الأخرى في الأمريكتين لم تبدأ بإنتاج الكتب المطبوعة حتى القرن الثامن عشر، مثل بوغوتا في العام 1737، وبونس آيريس في العام 1780 (كيليس 1992: ص 46 ـ 47). وهكذا فبالنسبة للغة تشيبتشا، رغم انها شكلت اللغة العامة رسمياً في غرناطة الجديدة (نيوغرانادا) فإن أول كتاب قواعد موجود لهذه اللغة اضطروا إلى طبعه في مدريد في العام 1619. فكانت هذه مشكلة خطيرة لمثل هذه المطبوعات التقنية بلغات أجنبية، لأن المؤلف، المقيم على بعد محيط كامل من المطبعة لن يستطيع تصحيح الأخطاء المطبعية في المسودات. وبالطبع فإن المتعلمين قد تضللهم تلك الأخطاء.
(16) فينيازا (1892). ويمكن مقارنة هذه الأشياء بتقدير معهد الصيف للدراسات اللغوية لعدد اللغات المتميزة في الامريكتين وهو 888، منها 408 لغات في أمريكا الجنوبية (هارمون 1995: ص 26 ـ 27).
(17) روزنبلات (1964: ص 191).
(18) شيرزر (1993: ص 251).
(19) لارا (1989: ص 99).
(20) يذكر لارا (1971: ص 14) مجموعة من المخطوطات بقلم بدرو آباريسيو من العام 1540 (فن، ومفردات، ومواعظ ... إلخ بلغة القيشوا)، وهو يلاحظ أنه في كتاب العلاقات القنصلية في ليما المطبوع في العام 1551 أن اللغة يشار إليها بانها القيشوا، اللغة العامة في بيرو.
(21) سيرون ـ بالومينو (1987: ص 35). ويجد تأكيداً لذلك في كلمات المؤرخين بدرو سيزا دي ليون (سيادة شعب الإنكا، 1550)، xxiv : 119، وبرنابي كوبو (تاريخ العالم الجديد، 1653)، xiv: 1: 235.
(22) في هذه الرواية، أنا أتبع هاردمان (1985) وهي مؤلفة تجعلها تجربة حياتها الطويلة في المنطقة دليلاً أفضل من معظم الأدلاء إلى هذه المنطقة المعتمة والمعقدة من التاريخ السابق لمجيء الإسبان. ومما يدعو إلى الاطمئنان أن سيرون ـ بالومينو (1987: ص 348) يؤيد أيضاً الأصل الساحلي للغة القيشوا. ويأتي إلهامهما الكبير من الفريدو توريرو (كما في كتابه المنشور في العام 1974 مثلاً).
(23) كلمات الأب بلاس فاليرا، مقتبسة من قبل إنكا غارسيلاسو، التعليقات الملكية، القسم الأول، vii: 3.
(24) المصدر السابق، vii: 2.
(25) تريانا إي آنتورفيزا (1987: ص 157).
(26) سيزا دي ليون، ص 296، مقتبساً في كتاب تريانا إي آنتورفيزا (1987: ص 157).
(27) من كادوغان (1959)، مقتبساً في كتاب فانايا (1986: ص 42).
(28) من غودوي (1982)، مقتبساً في كتاب فانايا (1986: ص 51).

(29) فانايا (1986: ص 6ـ7).
(30) فن القواعد الوفيرة في لغة الأيمارا، الأب لودوفيكو برتونيو اليسوعي (روما، 1603) ؛ قواعد اللغة العامة للمملكة الجديدة، بلهجة موسكا، الأب فراي برناردو دي لوغو الدومينكاني (مدريد 1619) ؛ فن لغة الغواراني ومفرداتها، الأب انطونيو رويز اليسوعي (مدريد 1640).
(31) كويفاس (1914: ص 159).
(32) مجموعة مونيوز، المجلد 86، الملف 54 V.
(33) كلمات الأب بلاس فاليرا، مقتبسة من قبل إنكا غارسيلاسو، التعليقات الملكية، القسم الأول : vii: 3.
(34) كويليس (1992: ص 64) ؛ روزنبلات (1964: ص 194).
(35) روزنبلات (1964: ص 193 ـ 195) ؛ كويليس (1992: ص 55).
(36) كارلوس الخامس، المرسوم الملكي، من بلد الوليد إلى نائب الملك في إسبانيا الجديدة، في 7 حزيران / يونيو 1550، مستنسخ مع بعض التغييرات إلى جميع أساقفة المكسيك الفرانسيسكان، والدومينيكان والاوغسطينيين، وإلى نائب الملك في بيرو، وجمهور المستمعين في ليما (روزنبلات 1964: ص 206).
(37) مقتبس في كتاب تريانا إي انتورفيزا (1987: ص 300). 'إن هذه المملكة'، مملكة غرناطة الجديدة، كان المفروض أن تكون تشيبتشا هي لغتها العامة، ولكن من الواضح أن رئيس الأساقفة وجدها غير مناسبة لبعثته. ولعلها لم تستخدم أبداً خارج مجال المنطقة الأصلية لسيطرة لغة تشيبتشا، وهي جزء صغير جداً من الكل.
(38) الأرقام مستقاة من روزنبلات (1964: ص 210 ـ 212)، وحسب رأيه، فإن الهجناء من الأعراق المختلطة كانوا يشكلون 27 بالمئة من سكان المكسيك في العام 1810.
(39) ينقل روزنبلات (1964) نص رسالة بهذا المعنى من دومينغو دي آلميدا، كتبها باسم أسقفية تشاركاس (في بيرو) وهي لا تطلب بصراحة أن يتوقف القساوسة عن تعلم لغة السكان الأصليين.
(40) آرثر ج.آ. آندرسون، ترانيم مسيحية (مدينة سولت ليك: مطبعة جامعة يوتاه، 1993)، ص 33.
(41) موتولينيا (1990[1541]: 1: 15).
(42) ليون بورتيلا (1992: ص 301).
(43) ترجمة فرانسيسكو كارتومان وجيلكا وارا سيسبيدس، تلالوكان ، المجلد التاسع (1982)، ص 119 ـ 127.
(44) الأب فرانسيسكو ميرسييه إي غوزمان، موعظة لجمعة الصوم الكبير، تموز/ يوليو 1765، مقتبسة في كتاب آلبو ولايم (1992: ص 40 ـ 41) ؛
(45) ديتريخ (1995: ص 289) ؛ توفار (1964: ص 249). ويقدم توفار أصلاً مختلفاً لكلمة المال هو (قطعة من نفاية الخبث).
(46) موتولينيا 1990[1541]: iii: 12: ص 389.
(47) لاسترا وهوركاسيتاس (1983: ص 267) ؛ كويليس (1992: ص 44).
(48) سيرون ـ بالومينو (1987: ص 343 ـ 344).
(49) المصدر السابق: 346، 67 ـ 75.
(50) رسائل ومراسيم رعوية، المكسيك، 1770، ص 47.
(51) روزنبلات (1964: ص 210).
(52) لورنزانا، رسائل ومراسيم المكسيك، 1770، مقتبسة في تريانا إي آنتورفيزا (1987: ص 504).
(53) النائب ماتيوس في العام 1910، مقتبس في كنغ (1994: ص 58).
(54) خوزيه ماريا موريلوس، عواطف الأمة، مقتبس في ترجمة إنكليزية في كنغ (1994: ص 57).
(55) كنغ (1994: ص 59).
(56) روزنبلات (1964: ص 212).
(57) غرايمز (2000: ص 100).

(58) روزنبلات (1964: ص 214).
(59) روبين (1985: ص 111 ـ 112).
(60) غرايمز (1996: ص 115).
(61) كويليس (1992: ص 46).
(62) المصدر السابق، ص 79 ـ 80.
(63) نفسه: ص 82.

11 ـ في أعقاب الإمبراطورية: لغات أوروبا في الخارج

(1) أوليفيرا ماركيوز (1972: ص 343).
(2) آنكيتيل دو بيرون (أول مترجم لكتابات زند آفيستا الفارسية القديمة المنسوبة لزرادشت)، في بحوث تاريخية وجغرافية عن الهند، المجلد الثاني، ص 12ـ13، مقتبس في لوبيز (1936: ص 60).
(3) سانتاريم (1958[1841]) والقاموس الوطني لسيَر الحياة، تحت كلمة ويندهام، توماس (الطبعة المختصرة، ص 2343).
(4) صاموئيل بورتشاس، بورتشاس وحجاجه، القسم الثاني، ص 345 (غلاسغو، 1905[1625])، مقتبس في لوبيز (1936: ص 32).
(5) ماندلسلو، رحلات مشهورة ورائعة قام بها بيرس إلى جزر الهند الشرقية، ص 33 (أمستردام، 1727)، مقتبس في لوبيز (1936: ص 38).
(6) الحج، xci (لشبونه، 1614) مقتبس في كراسات الرهبان: تاراكا فيراريا (1992: ص 432 ـ 433).
(7) هذا من لائحة شركة الهند الشرقية الهولندية المتحدة، لعام 1698، مقتبس من قبل المبجل فرانك بيني في كتاب الكنيسة في مدراس، المجلد الأول، ص 190 ـ 192(لندن، 1904)، ومقتبس من هناك من قبل لوبيز (1936: ص 47).
(8) جين برون، الدين الحقيقي للهولنديين (أمستردام، 1675)، ص 267، مقتبس في لوبيز (1936: ص 48).
(9) فرانسواز فالنتين (*Oud en nieuw Oost-Indien*) (امستردام، 1724 ـ 1726) ومقتبس في لوبيز (1936: ص 48).
(10) فاسكويز كويستا ومنديز دا لوز (1971: ص 151).
(11) غرايمز (2000)، ويكيبيديا: آنغولا، موزامبيق.
(12) باراكلاف (1978: ص 166).
(13) الاب انطونيو فيرا، موعظة عن الروح القدس (أوبورتو 1683)، مقتبسة في تاراتشا فريرا (1992: ص 480ـ484).
(14) فيرانيو كارديم، مستندات ملكية أراضي البرازيل وعبيدها، ص 121، مقتبسة في جونسون ونيزا دا سيلفا (1992: ص 481). وتقع ساو فيسنت على ساحل البرازيل الجنوبي، قرب ساوباولو.
(15) غرايمز (2000). ويقدر عدد الناطقين باللغة العامة القديمة في توبينامبا (المعروفة الآن باسم نهينغاتو) بخمسة آلاف فقط.
(16) إسرائيل (1995: ص 321).
(17) (*Nauwkeurige beschryving van de Guinese Goud-, Tand - en Slave-Kust*) (أمستردام 1704)، مقتبس في بوكسر (1969: ص 106)، 18 غرايمز (2000).
(18) غرايمز (2000).
(19) إسرائيل (1995: ص 941).
(20) فرانسواز فالنتين (*Oud en nieuw Oost-Indien*) 1:iii، ص 35 ـ 44 (أمستردام 1724 ـ 1726)، مقتبس في هوفمان (1979: ص 66).
(21) هوفمان (1979: ص 66 ـ 68).

(22) المصدر السابق، ص 70.
(23) خطاب ألقي في اجتماع جمعية الفنون والعلوم في باتافيا في اليوم الرابع والعشرين من نيسان/ إبريل 1813: *Verhandelingen van het [Koninklijk] Bataviaash Genootschap van kunsten en Wetenschappen*، 7، باتافيا 1814، ص 13؛ مقتبس في هوفمان (1979: ص 73).
(24) هوفمان (1979: ص 74 ـ 75).
(25) *Bijblad op het Staatsblad van Nederlandch-Indië, 1904*، رقم 5821، ص 78ـ79؛ تشارلز آدريان فان أفويجسين، ليدن، 1910. والسياق موصوف في هوفمان (1979: ص 87 ـ 92). وتم إصلاحه في العام 1947 وفي العام 1972، بإزالة معظم الفوارق بالتهجئة المستعملة في ماليزيا.
(26) جين، في ترجمته لبوثيوس. وكان في الحقيقة مواطناً في ميون على نهر اللوار، قرب أورليان.
(27) أوردونانس دي فيلرز ـ كوتريتس، الفن، ص 111.
(28) بيكوش ومارشيلو ـ نيزيا (1989: ص 29).
(29) تشوسر: قصص كانتربري: المقدمة، II 124 ـ 126.
(30) مقتبس في بيكوش ومارشيلو ـ نيزيا (1989: ص 143).
(31) ديكارت، مقالة حول الطريقة، القسم الثالث.
(32) المصدر السابق: القسم الرابع.
(33) بيكوش ومارشيلو ـ نيزيا (1989: ص 154).
(34) المصدر السابق، ص 150.
(35) لكليرك (2001: فرنسا الجديدة (*1534ـ1760*)، ص 2، 4) يعطي تقديراً لعدد الفرنسيين بأنهم كانوا 2500 في العام 1663، في مقابل ثمانين ألف إنكليزي وعشرة آلاف هولندي، حتى العام 1627. أما في العام 1745 فكانت أرقامه 69,000 فرنسي (55,000 في فرنسا الجديدة و10,000 في آكادي و4,000 في لويزيانا) مقابل مليون مستعمر إنكليزي، مع عبيدهم البالغ عددهم ثلاثمئة ألف.
(36) دوريون وموريسونو (1992).
(37) كان هو لو سيير دي باكفيل ودي لا بوثري. (لكليرك 2001: فرنسا الجديدة (*1534ـ1760*)، ص 4، 5).
(38) 'المواطنون الكنديون يتكلمون الفرنسية بشكل جيد جداً' (لكليرك 2001: فرنسا الجديدة (*1534ـ1760*)، ص 9).
(39) باراكلاف (1978: ص 208).
(40) بيكوش ومارشيلو ـ نيزيا (1989: ص 64).
(41) غرايمز (2000)، ورقم بونديشيري مستمد من كتاب لكليرك (2001، الدول التي تستعمل الفرنسية كلغة رسمية أو لغة رسمية مشاركة)<http://www.tlfq.ulaval.ca/ax/langues/2vitalinterfrancaisTABLO.htm> .
(42) لسوء حظهم، فإن الأكثرية المسلمة كانت تنمو أيضاً بمعدل مشابه، من مليونين إلى 8.7 ملايين في الفترة نفسها (بيكوش ومارشيلو ـ نيزيا 1989: ص 86، 104).
(43) ف.م. دوستويفسكي، الأعمال المجموعة، المجلد 21، في مذكرة الكاتب عن العام 1880ـ81، iii، ص 517 ـ 518. والأبجدية السلافية القديمة يتم تحديثها. وقد كتبت هذه الكلمات كرد فعل على انتصار محتفىً به للروس على التركمان في غوك تيب ('بلوهيل')، وعلق عليه أيضاً اللورد كرزون بقوله: 'إن أثر مثل هذه المذبحة المرعبة في جيوك تيب سوف يبقى لعدة أجيال' (روسيا في آسيا الوسطى في 1889 والمسألة الأنغلو ـ روسية، لندن: مؤسسة فرانك كاس، 1967، ص 386).
(44) هوسكنغ (1997: ص 5 ـ 6).
(45) المصدر السابق، ص 379.
(46) نفسه، ص 369.
(47) ليفين (2000: ص 334).

(48) هوسكنغ (1997: ص 18): الجنرال روستيسلاف فادييف، تبليسي، 1860، ص 9.
(49) هذه الأرقام محسوبة من تلك الواردة في غرايمز (2000). ومن الواضح أن الروسية معروفة بشكل واسع ومستخدمة كلغة ثانية في هذه البلدان (ومثلاً فإن غرايمز يقتبس 30 بالمئة من أرمينيا).
(50) روي (2000: ص 30 ـ 31).
(51) المصدر السابق: ص 32.
(52) هذا الرقم محسوب من الأرقام الواردة في غرايمز (2000).
(53) وهذا الرقم محسوب من الأرقام الواردة في غرايمز أيضاً.
(54) رئيس القساوسة آفاكوم، مقتبس في هوسكنغ (1997: ص 69).
(55) ليفين (2000: ص 255، 435، 278، و437) ؛ وهو يعتمد بقوة على أطروحة الدكتوراه لفودرون بيرسون من جامعة لندن في العام 1999، وهي بعنوان: الجيش الروسي والحروب الخارجية: 1859ـ1871.
(56) هوسكنغ (1997: ص 187).
(57) المصدر السابق: ص 36، مقتبساً من إيريك آمبرغر، ص 502 ـ 519، وكذلك والتر لاكير، روسيا وألمانيا (1965)، ص 40 ـ 41.
(58) هوسكنغ (1997: ص 309 ـ 310).
(59) المصدر السابق، ص 402؛ وكومري (1981: ص 28).
(60) هوسكنغ (1997: ص 311)، مقتبساً من جفري بروكس، عندما تعلمت روسيا القراءة: معرفة القراءة والكتابة والثقافة الشعبية، 1985.
(61) فيشر (1978: ص 100 ـ 104).
(62) كومري (1981: ص 28).
(63) المصدر السابق نفسه، ص 1.
(64) م.آ. إيسابييف، اللغات القومية في الاتحاد السوفييتي: مشاكل وحلول، 1977، ص 300 ـ 301، مقتبس في كومري (1981: ص 36 ـ 37).
(65) روي (2000: ص 169).
(66) باراكلاف (1978: ص 140).
(67) تسورومي (1984: ص 277).
(68) تشين (1984: ص 242)، مقتبساً من كتاب كين إيشي كوندو، عنوانه: "كوريا وتايوان أثناء حرب المحيط الهادي"، طوكيو، 1961.
(69) تسورومي (1984: ص 303)، إعادة صياغة نص من آوياجي تسوناتا رو كيجو (سيؤول)، كوريا الجديدة، 1925.
(70) انظر مياواكي (2002) ؛ وهو يلاحظ زوجين في ميكرونيزيا، لا يزالان يستعملان اليابانية كوسيلة اتصال مناسبة لا يفهمها أطفالهما.

12 ـ عالم صغير أم مرآة مشوشة؟ سيرة اللغة الإنكليزية

(1) ت.س. إليوت، أربع رباعيات (1942)، 'ليتل غيدنغ'، القسم الثاني.
(2) براندت (1969: ص374).
(3) سميث (2000: ص 164).
(4) كراولي (2000: ص 15). والنص الأصلي بالفرنسية النورمانية.
(5) قانون الاتحاد 1536، القسم 17، كما هو مقتبس في كتاب إيفانز (1992: ص 298).
(6) شرطة سواحل هنري الثامن لمدينة غالواي 1536، كما في كتاب إيفانز (1992: ص 296).
(7) كراولي (2000: ص 19).
(8) إعلان هنري الثالث، 18 تشرين الأول/ اكتوبر 1258؛ بيتانت رولز، 42 هنري الثالث م: 1: ن: 1، مكتب

السجل العام، لندن؛ كما هو مستنسخ في موسيه (1962: ص 234).

(9) تريفيزا، إشارة إلى Polychronicon Ranulphi Higden، المجلد الأول، ص 59. والنص معطى بالشكل الذي طبعه فيه وليام كاكستون في لندن في العام 1482.

(10) Cursor Mundi، رفع السيدة العذراء إلى السماء II، ص 51_54.

(11) تشوسر: ترويلوس وكريسيدا V، II، الأبيات 1793 ـ 1799.

(12) من وليام كاكستون، مقدمة لإينيدوس، 1490.

(13) كان الأشهر كتاب جوهان كلاجوس: قواعد اللغة الألمانية ، لايبزغ، 1578. وهاتان الفقرتان الأخيرتان تعتمدان كثيراً على فيبفر ومارتن (1958: ص 481 ـ 491).

(14) إنها مدرجة في نيكولسون (2003: ص 247 ـ 250)، مع كثير من الأعمال القارية المعاصرة لها، بدءاً بأول إنجيل مطبوع بالتشيكية في العام 1488.

(15) عند حلول عشرينيات القرن السابع عشر، كان كل الرجال النبلاء قادرين على القراءة، وبحلول أربعينيات ذلك القرن، كان 45 بالمئة من الخدم وصغار الملاك، وخمسة بالمئة من العمال قادرين على القراءة أيضاً. وكانت معرفة القراءة والكتابة أعلى في الرجال مما هي في النساء، وأعلى في لندن مما هي عليه في المقاطعات (نيكولسن 2003: ص 122).

(16) سير جون سيلي، توسع إنكلترا، المحاضرة الأولى.

(17) كينز (1930: ص 156_157).

(18) فيرغسون (2003: ص 11).

(19) المصدر السابق، ص 13.

(20) وليامز (1643؛ الفصول 1و6و8). والعنوان الكامل هو: 'مفتاح إلى لغة أمريكا، أو مساعدة للغة الأهالي الأصليين في ذلك الجزء من أمريكا الذي يدعى نيو إنغلاند، مع ملاحظات مختصرة عن عاداتهم، وطرائقهم، وعباداتهم ... إلخ في السلم والحرب، وفي الحياة والموت. وتضاف إلى ذلك كله ملاحظات روحية، عامة وخاصة، للمؤلف وللاستخدام الرئيسي والخاص، لجميع الإنكليز القاطنين في تلك الأنحاء، ومع ذلك فهي ممتعة ومفيدة لرأي الناس جميعاً". وقد طرد المؤلف من ماساشوسيتس بسبب آرائه المتحررة، ولكنه تابع عمله فقام بتأسيس بروفيدانس، في رود آيلاند.

(21) وليامز (1643؛ الفصلان الثالث والسابع عشر).

(22) أمثلة مستقاة من سيلفر وميلر (1997، ص 319). ولغة بنوبسكوت المشار إليها هناك، هي تنويع من لغة أبيناكي.

(23) إليوت (1666). ورغم أنه كتاب قواعد رسمي، فإنه لا يفوّت الفرصة النادرة لإعطاء تعليقات تحسينية. ففي الصفحة السابعة مثلاً نجده يقول:" ومن هنا ياتي القول الحكيم بأن المسيحي يجب أن يتزين بعدد من الصفات يساوي عدد الظروف: ويجب عليه كذلك ان يفعل الخير وان يكون خيّراً. وعندما تتزين أعمال الرجل الفاضلة بالظروف، فإن كل شخص سوف يستنتج بأن الرجل مزدان بصفات فاضلة".

(24) إليوت (1663): وهذه الترجمة تمتاز بأنها أول ترجمة للإنجيل في الأمريكتين، رغم أن الإسبان، بنهجهم الكاثوليكي في المسيحية، كانوا يطبعون وينشرون الصلوات والاعترافات باللغات الأمريكية منذ العام 1539. انظر الفصل العاشر: 'الشقوق الأولى في حاجز اللغة: المترجمون، وثنائيو اللغة، والنحاة'، ص 375.

(25) كوتون ماثر (1663 ـ 1728)، مقتبس (بشكل غير مباشر) في كتاب بيلي (1992: ص 73).

(26) باراكلاف (1978: ص 221).

(27) تم رسم الحدود مع المكسيك بشكل نهائي بعد ذلك بوقت قصير، بشراء غادسدن في العام 1853، مما أضاف شريحة جنوبية لولايتي أريزونا ونيومكسيكو الحديثتين، فأتاح تمديد طريق جديدة لسكة حديد المحيط الهادي الجنوبية.

(28) مقتبس في ميلنر وشركاه (1994: ص 168). وقد ترسخ كسب الغرب على الفور باكتشاف الذهب في سوترز ميل في كاليفورنيا الشمالية في كانون الثاني من العام 1848 وحدوث أشهر اندفاعٍ في العالم

للحصول على الذهب. فأدى ازدياد السكان المفاجئ إلى حصول كاليفورنيا على صفة الولاية في غضون عامين فقط، فكان ذلك رقماً قياسياً جديداً.

(29) مقتبس في المصدر السابق، ص 146.

(30) مقتبس في كتاب شارون غانجيتانو: لغة الهنود [الحمر]. <http://www.sonoma.edu/depts/amcs/upstream/Indian.html>

(31) مكتب إحصاء النفوس الامريكي. مقتبس في رايت (2000: ص 266).

(32) مكتب إحصاء النفوس الامريكي 1989، 1994، مقتبس في كروفورد (1998).

(33) سليت (2001: ص 391).

(34) مذكرة رحلة م. أوستن، 1796ـ1797، مجلة أميركان هستوريكال ريفيو، المجلد الخامس، ص 518 ـ 542.

(35) ولينغ (2001).

(36) مكتب إحصاء النفوس الامريكي، مقتبس في رايت (2000، ص 490) ؛ وسكان الولاية بالمثل، ص 169ـ201.

(37) غلام حسين خان (1902 [1789]: iii، ص 191ـ192).

(38) توماس بابنغتون ماكولي، محضر اجتماع، 2 شباط / فبراير 1835حول تعليم الهنود، (معاد طبعه في يونغ 1957: ص 721 ـ 724). وهذا مثال مليء بالخبث على نحو خاص بالنيابة عن الإنكليز في مجال التعصب الشوفيني الثقافي. ولقد لعب دوراً كبيراً في إيقاف دعم التعليم بالسنسكريتية في الهند. غير أن ماكولي لم يكن يفكر في ثقافة اللغة الإنكليزية نفسها بشكل حصري، بل في اعتقاده بأن الإنكليزية يمكنها أن تقدم وصولاً إلى كل جانب من الثقافة العالمية (عن طريق النصوص المترجمة إلى الإنكليزية عند الضرورة). ولكن تأكيده بسهولة أن الهنود يمكنهم أن يهملوا تقاليدهم نفسها هو نصب تذكاري لنوع الثقة المفرطة بالنفس التي يولدها نجاح الاستعمار.

(39) ج.ج. كامبوس، تاريخ البرتغاليين في البنغال (1919)، ص 173، مستشهد به في سينها (1978: ص 3).

(40) هولدن فوربر، رئاسة بومباي في منتصف القرن الثامن عشر، (1965)، ص 2، مستشهد به في سينها (1978: ص 6).

(41) بولير (2001). وهذا العمل عنوانه "الإعجاز الارسلاني"، إشارة إلى العنوان الفارسي الذي وضعه له المؤلف، فأعطاه الإمبراطور المغولي شاه علم نفسه لقب 'أسد المعركة'، (ص 9). وفي المقدمة (ص 70) يشير المترجمون المحدثون إلى نهج بولير إزاء نزاع بين زوجتيه الهنديتين، بتهديد إحدى حماتَيْه، وتحريضها للشعور بالعار بشأن ابنتها. وقد تزوج بولير زوجة ثالثة بعد عودته إلى فرنسا في العام 1788.

(42) س.ن. مُخَرْجِي، تاريخ التعليم في الهند (1961)، ص 30، مستشهد به في سينها (1978: ص 27).

(43) إنغرام (1969: ص 235 ـ 236).

(44) سينها (1978: ص 28).

(45) 'كل الوزراء ملزمون بتعلم اللغة البرتغالية في غضون سنة من وصولهم وأن يعكفوا على تعلم اللغة الاصلية للبلد الذي سيقيمون فيه، لتتحسن قدرتهم على تقديم التعليم للأهالي الذين سيكونون موظفي الشركة أو عبيدها، أو لوكلائهم، في الديانة البروتستانتية' (ج.و. كاي، إدارة شركة الهند الشرقية (1853)، ص 626. مستشهد به في سينها (1978: ص 10).

(46) سينها (1978: ص 13) ؛ كاتشرو (1983: ص 21).

(47) و.هـ. كاري، الأيام الجميلة الماضية لشركة الشريف جون (1906، ص 397)، مستشهد به في سينها (1978: ص 10).

(48) المكتبة البريطانية، المخطوطات الإضافية، المخطوطة رقم 13828، ص r308-v306. ويتابع ماكينون فيقترح إقامة معهد عالٍ لتدريس الإنكليزية واليونانية الكلاسيكية في لوكنو، على أساس وجود مكتبة للكتب الكلاسيكية.

(49) مناقشة البرلمان (1813)، 26: ص 562 ـ 563.
(50) مختارات من السجلات التعليمية، المجلد الأول (هـ. شارب، 1920)، ص 22، والمجلد الثاني (ج.أ.ريتشلي)، ص 152؛ مستشهد به في سينها (1978: ص 32).
(51) رسالة السير هايد إيست إلى ج. هارنغتون، في 18 أيار/ مايو 1816، مستشهد بها في سينها (1978: ص 36).
(52) رسالة رام موهان روي إلى اللورد أمهيرست في 11 كانون الأول/ ديسمبر 1823، مستشهد بها في كاتشرو (1983: ص 60).
(53) ساماخار داربان، 23 نيسان/ إبريل 1834، مستشهد بها في سينها (1978: ص 41).
(54) دوف (1837: ص 3). وقد ترك عضو اللجنة المثل لمصلحة القانون، توماس بابنغتون ماكولي، انطباعاً خاصاً. والاستشهادات المدينة له من محضر الجلسة حول التعليم الهندي الذي قبلته اللجنة تظهر في ترويسة هذا القسم، وفي حاشية من حواشي الفصل الثاني.
(55) دوف (1837؛ الملحق، ص 2).
(56) سبير (1965: ص 127).
(57) كريستال (2003: ص 46). وفي ملخصه عن السكان الناطقين بالإنكليزية في العالم، يؤكد كريستال بقوة أن 19 بالمئة منهم من الهنود (أي 200 مليون) ولكن 12بالمئة من الباكستانيين (أي 17مليوناً)، و10بالمئة من السريلانكيين (أي 1.9مليون) وفقط 3 بالمئة من بنغلادش (أي 3.5 ملايين).
(58) كلمات الكساندر دوف في كتيب آخر في العام 1837 بعنوان: دفاع عن بعثات كنيسة اسكتلندا إلى الهند، ص 27.
(59) فلانري (1994: ص 326) ؛ كريستال (2003: ص 41) ؛ ديكسون (1980:ص 1).
(60) فلانري (1994: ص 338) ؛ كريستال (2003: ص 41).
(61) غرايمز (2000).
(62) كريستال (2003: ص 57).
(63) المصدر السابق، ص 62 ـ 65 يقدم تقديرات مدهشة لبعض هذه البلدان، مقترحاً أن 45 بالمئة من النيجيريين، و84 بالمئة من الليبيريين يتكلمون الإنكليزية. وهذه ربما كانت تعكس عدد الذين تلقوا شيئاً من التعليم باللغة الإنكليزية، لأن مستويات معرفة القراءة والكتابة عالية في هذه البلدان. ولكن سبب كريستال الصريح هو توفر اللهجات الهجينة والمختلطة القائمة على أساس الإنكليزية.
(64) ساره ناقوا: "إكليل اللؤلؤ المنحرف" (1979)، ص 19، مستشهد به في وارنر (1999: ص 71).
(65) كيندي (1988: ص 151) ؛ ومقال ب. بيروتش (1982) عنوانه 'مستويات التصنيع الدولية من 1750 إلى 1980'، في مجلة التاريخ الاقتصادي الأوروبي، العدد 11؛ وكتاب ف. كروزيه (1982) هو الاقتصاد الفكتوري (لندن).
(66) و.س.ج. جيفونز، مسألة الفحم (لندن: دار مكملان، 1865).
(67) كريستال (2003: ص 88). كانت الفرنسية هي الثانية من حيث الاستعمال الرسمي، فكانت نسبة مستعمليها 49 بالمئة. وفيما عدا ذلك، فإن العربية والإسبانية والألمانية فقط حققت نسبة تزيد على عشرة بالمئة.
(68) المصدر السابق: ص 65.
(69) الهند اليوم، عدد 18 آب/ أغسطس 1997: 'على عكس أسطورة إحصائية النفوس الزاعمة بأن الإنكليزية هي لغة أقلية مجهرية، فإن الاستطلاع يشير إلى أن ما يقرب من واحد في كل ثلاثة هنود يدعي أنه يفهم الإنكليزية، ولو أن أقل من 20 بالمئة واثقون بأنهم يستطيعون التكلم بها'. مستشهد به في غيدول (1999: ص 64).
(70) إن 'دنيويّة' اللغة الإنكليزية هذه هي موضوع كبير في عمل بنيكوك (1994)، وخاصة كما تظهر هذه الصفة في ماليزيا وسنغافورة. ومعانيها الإضافية سياسية كما هي اقتصادية. ويطور فيليبسون

وجهة نظر في تدريس اللغة الإنكليزية باعتبارها شيئاً خبيثاً، ويصفها بأنها استعمار لغوي.

(71) غيلارت (1998: ص 22 ـ 23).

(72) جويس (1977[1910]: ص 33، 85) ؛ جينسلر (1993: ص 235 ـ 242)؛ وانظر الفصل السابع ʼ:الرون: البروز المندفع للكلتʻ، ص 409.

الباب الرابع: اللغات اليوم وغداً

(1) في أعقاب التاريخ الذي أعطاه ماريو سيتروني في هورنبلوَرْ وسبوفورث (1999)، فإن مارشيال يشير بالطبع ليس إلى جزء من كتاب حديث، بل يشير إلى الحبال السُّرّية التي التفت حولها المخطوطة. وكلمة لايبراريوس *Librarius* تعني الناسخ أو بائع الكتب وليس الناشر.

13 ـ اللغات العشرون الأولى في الوقت الراهن

(2) إن المصدر الرئيسي لهذه الأرقام هو الطبعة الرابعة عشرة من إثنولوغ (غرايمز 2000)، التي هي نفسها تجميع لأرقام من مصادر متنوعة. وإن أحجام السكان الناطقين الأصليين والثانويين باللغات الكبرى مستقاة من كتاب فونك وواغنول: التقويم العالمي.

(3) يمكن العثور على شيء من البحث في كيفية اختلاف الأرقام الإنكليزية الصحيحة بشكل جذري عن هذه الأرقام في كريستال (2003)، وغرادول (1997) وغرادول (1999).

(4) ويلكينسون (2000، ص 27) ؛ نورمان (1988: ص 48 ـ 49، 187).

(5) ميلر (1967: ص 144).

(6) باف وكيبل (2002: ص 194).

(7) ماسيكا (1991: ص 27 ـ 28).

(8) إينتويسيل وموريسون (1949: ص 288).

(9) دالبي (1998: ص 668).

(10) بورسيز (1967: 287).

(11) المصدر السابق، ص 397.

(12) دالبي (1998: ص 328) ؛ وبالنسبة للغة الكورية، فإن من المستحيل عملياً تتبع آثار اي تغير في اللهجة قبل نظام الكتابة اللفظي في القرن الخامس عشر.

(13) إن مصدر إحصائيات السكان هو صندوق الأمم المتحدة للسكان، حالة سكان العالم في العام 2000، وإدارة المعلومات الاجتماعية وتحليل السياسة التابعة للأمم لمتحدة، قسم السكان: سكان العالم في العام 1996، كما أورد ذلك رايت (2000: ص 468 ـ 472).

14 ـ التطلع إلى الأمام

(1) باور (1996: ص 27).

(2) الأمر البابوي للبابا الكسندر السادس Inter Caetera (3 أيار/ مايو 1493): ʼ... نحن إذن نزكي بقوة للرب مولانا هدفك المقدس والجدير بالمدح، ونأمل أن يصل إلى نهايته المستحقة، وأن يدخل اسم مخلصنا إلى تلك المناطق. ونحثكم بكل قوة بتلقي العماد الذي نحن بموجبه مرغمون على إطاعة الأوامر الرسولية، وبمحتويات رحمة مخلصنا السيد المسيح أن تتابعوا تنفيذ مهمتكم بروح مشبعة بالحماس للعقيدة الصحيحة لإقناع الشعب القاطن في تلك الجزر باعتناق العقيدة المسيحية، دون أن تجبنوا أمام الجهود والأخطار، ومع الأمل الصلب والثقة بأن الله العلي القدير سيرافق مجهوداتكم...ʻ.

(3) هارولد مكميلان، خطاب أمام برلمان جنوب إفريقيا، في 3 شباط/ فبراير 1960.

(4) مؤلفة من أجل فلم روبرت آلتمان "ناشفيل" المنتج في العام 1975 ومغنّاة في هذا الفلم، (والموسيقى من

تاليف ريتش وباسكين).

(5) فوكوياما (1992).

(6) كريستال (2003: ص 191).

(7) كما كان سلمان رشدي، وهو من كبار عارضي الإنكليزية بنفسه، يعتقد في العام 1981: 'إن الجدل حول مناسبة الإنكليزية في هند ما بعد بريطانيا لا يزال محتدماً منذ العام 1947؛ ولكنني أجد اليوم أن هذا الجدل لم يعد له معنى إلاّ عند الجيل الأكبر سناً. فأطفال الهند المستقلة لا يبدو أنهم يعتقدون أن الإنكليزية لا خلاص لها من التلوث بأصلها الاستعماري. فهم يستعملونها كلغة هندية، كواحدة من الأدوات الجاهزة في أيديهم'. 'لا وجود أدب الكومونويلث' في كتاب: الأوطان الخيالية (لندن: دار غرانتا، 1991).

(8) نموذج الإنغكو المعروض في غرادول (1997: ص 26).

(9) إن الناطقين بالإنكليزية كلغة أولى في الولايات المتحدة كان عددهم يقدر بـ210 ملايين في العام 1984 (غرايمز 2000). وفيما بين العامين 1980و1990 ازداد عدد سكان الولايات المتحدة من 226,542,203 إلى 248,709,873 (مكتب إحصاء النفوس الأمريكي، 1980، وقد تمت مراجعة الرقم لأول مرة في العام 1987؛ مستشهد به في رايت 2000، ص 264). والاقتباس مأخوذ من ملخص لائحة بيل إيمرسون المعنونة 'تمكين اللغة الإنكليزية'، التي قدمت إلى مجلس النواب الامريكي في 4 كانون الثاني/ يناير 1995، كما هو مستشهد به من قبل كريستال (2003: ص 130). ولم يتم اعتماد شرط كهذا كقانون، لغاية شهر أيلول/ سبتمبر من العام 2004.

(10) باور (1996: ص 33 ـ 40).

(11) اندرسون (1991: ص 133 ـ 134).

(12) كراوس (2001: ص 19).

(13) كريستال (2003: ص 191).

المصادر والمراجع

Abbott, Don Paul (1996), *Rhetoric in the New World*, Columbia: University of Southern Carolina Press.

'Abd al-Ghani, Muhammad (1929), *A History of Persian Language & Literature at the Mughal Court. With a brief survey of the growth of Urdu language, etc.*, Allahabad: Indian Press.

Adams, Willi Paul (1990), *The German Americans: an Ethnic Experience* (US ed., trans. Lavern J. Rippley and Eberhard Reichmann from *Die Deutschen im Schmelztiegel der USA*), Indianapolis: Max Kade German Center, <www.ulib.iupui.edu/kade>.

Ainger, A. C. and H.G. Wintle (1891), *An English–Latin Gradus or Verse Dictionary*, London: John Murray.

Albó, Xavier and Félix Layme (eds) (1992), *Literatura Aymara, I. Prosa*, La Paz: CIPCA (Centro de Investigación y Promoción del Campesinado).

Allen, Charles (2002), *The Buddha and the Sahibs*, London: John Murray.

Al-Tabrizi (1985), *Mishkat al-Masābih*, Beirut and Damascus: Al-Maktab al-Islami.

Alvar, Manuel (2000), *América la lengua*, Universidad de Valladolid.

Anderson, Benedict (1991), *Imagined Communities*, London and New York: Verso.

Armstrong, Karen (2000), *Islam: a Short History*, London: Phoenix Press.

Arnett, William S. (1982), *The Predynastic Origin of Egyptian Hieroglyphs*, Washington, DC: University Press of America.

Bacchylides (1961), *Carmina cum fragmentis* (ed. Bruno Snell), Leipzig: B. G. Teubner.

Bailey, Richard W. (1992), *Images of English*, Cambridge University Press.

Barraclough, Geoffrey (ed.) (1978), *The Times Atlas of World History*, London: Times Books.

Basham, A. L. (1967), *The Wonder that was India*, London: Sidgwick and Jackson.

Bauer, Brigitte L. M. (1996), 'Language Loss in Gaul : Socio-Historical and Linguistic Factors in Language Conflict', *Southwest Journal of Linguistics* xv(1–2): 23–44.

Baugh, Albert C. and Thomas Cable (2002), *A History of the English Language* (5th edn), London: Routledge.

Bazin, Louis (1948), 'Un texte proto-turc du IVe siècle: le distique hiong-nou du Tsin-chou', *Oriens* I, pp. 208–19.

Beal, Samuel (1884) (reprinted 1995), *Si-Yu-Ki: Buddhist Records of the Western World*, Delhi: D. K. Publishers.

Bechert, Heinz and Richard Gombrich (eds) (1984), *The World of Buddhism*, London: Thames and Hudson.

Beyer, Stephan V. (1992), *The Classical Tibetan Language*, Albany, NY: SUNY.

Black, Jeremy, Andrew George and Nicholas Postgate (2000), *Concise Dictionary of Akkadian*, Wiesbaden: Harassowitz.

Blake, Robert and Christine Stephanie Nicholls (eds) (1990), *Dictionary of National Biography*, Oxford University Press.

Bourciez, Édouard (1967), *Éléments de linguistique romane*, Paris: Klincksieck.

Bousquet, G. H. (1940), *A French View of the Netherlands Indies* (trans. Philip E. Lilienthal), Oxford University Press.

Boxer, Charles Ralph (1969), *The Portuguese Seaborne Empire*, London: Hutchinson.

Brandt, Rolf (1969), 'The Linguistic Situation in England from the Norman Conquest to the Loss of Normandy', in Roger Lass (ed.), *Approaches to English Historical Linguistics*, New York: Holt, Rinehart and Winston, pp. 369–91.

Braudel, Fernand (1993), *A History of Civilizations* (*Grammaire de civilisations*, trans. Richard Mayne), New York and London: Penguin.

Braudel, Fernand (2001), *The Mediterranean in the Ancient World* (trans. of *Les Mémoires de la Méditerranée*), London: Allen Lane.

Braun, T. F. R. G. (1982), 'The Greeks in the Near East', Article 36a, in *Cambridge Ancient History* (2nd edn), vol. III, pt 3.

Briquel-Chatonnet, Françoise (ed.) (1996), *Mosaïque de langues mosaïque culturelle: le bilingüisme dans le Proche-Orient ancien*, Paris: Jean Maisonneuve.

Brock, S. P. (1989), *Spirituality in the Syriac Tradition*, Kerala: Mōrān 'Ethō Series no. 2.

Brooks, E. Bruce, and Taeko Brooks (2002), 'The Nature and Historical Context of the Mencius', in Alan Ko Lo Chan (ed.), *Contexts and Interpretations*, Hawaii.

Brough, John (1968), *Poems from the Sanskrit*, Harmondsworth: Penguin.

Buck, Carl Darling (1955), *The Greek Dialects*, University of Chicago Press.

Cadogan, León (1959), *Ayvu Rapyta. Textos míticos de los Mbyá-Guaraní del Guairá*, University of São Paulo, Faculty of Philosophy, Sciences and Letters, Bulletin 27, Anthropology no. 5.

Caplice, Richard (1988), *Introduction to Akkadian*, Rome: Biblical Institute Press.

Cary, M. (1954), *A History of Rome down to the Reign of Constantine*, London: Macmillan.

Cavalli-Sforza, Luigi Luca (2001), *Genes, Peoples and Languages*, London: Penguin.

Cerrón-Palomino, Rodolfo (1987), *Lingüística Quechua*, Cuzco: Centro de estudios rurales andinos Bartolomé de Las Casas.

Chatterji, S. K. (1966), *The People, Language, and Culture of Orissa*, Bhubaneshwar: Oriya Sahitya Akademi.

Chen, Edward I-Te (1984), 'The Attempt to Integrate the Empire: Legal Perspectives', in Myers and Peattie (1984: 240–74).

Clauson, Gerard (2002 [1962]), *Studies in Turkic and Mongol Linguistics* (2nd edn), London: RoutledgeCurzon.

Coedès, Georges (1968), *The Indianized States of Southeast Asia* (ed. Walter F. Vella, trans. Sue Brown Cowing), Honolulu: University of Hawaii and East–West Center Press.

Comrie, Bernard (1981), *The Languages of the Soviet Union*, Cambridge University Press.

Cook, B. F. (1987), *Greek Inscriptions*, London: British Museum.

Corriente, Federico (1992), *Arabe andalusí y lenguas romances*, Madrid: Mapfre.

Crawford, James (1998), 'Endangered Native American Languages: What Is to Be Done, and Why?', in Ricento and Burnaby (eds), *Language and Politics in the US and Canada*, Mahwah, NJ: Lawrence Erlbaum Associates.

Cribb, Joe, Barrie Cook and Ian Carradice (1999), *The Coin Atlas*, London: Little, Brown.

Crosby, Alfred W. (1972), *The Columbian Exchange*, Westport, CT: Greenwood Press.

Crowley, Tony (2000), *The Politics of Language in Ireland 1366–1922: a Sourcebook*, London: Routledge.
Crystal, David (2003), *English as a Global Language* (2nd edn), Cambridge University Press.
Cuevas, Mariano (1914), *Documentos inéditos del siglo XVI para la historia de México*, Mexico City: Porrua.
Cunliffe, Barry (1997), *The Ancient Celts*, Oxford University Press.
Cunliffe, Barry (2001), *Facing the Ocean: the Atlantic and Its Peoples*, Oxford University Press.
Dalby, Andrew (1998), *A Dictionary of Languages*, London: Bloomsbury.
Dalrymple, William (2002), *White Mughals*, London: HarperCollins.
De Las Casas, Fray Bartolomé (1957 [c.1530], *Historia de las Indias* (vols. 95–6 of Biblioteca de Autores Españoles), Madrid: Ediciones Atlas.
Deshpande, Madhav (1993), *Sanskrit and Prakrit: Sociolinguistic Issues*, Delhi: Motilal Banarsidass.
Diakonoff, Igor M. (1968), *Predistoriya Armyanskogo Naroda*, Yerevan, trans. (1984) Lori Jennings as *Pre-history of the Armenian People*, Delmar, NY: Caravan Books.
Diakonoff, Igor M. (1985), 'Elam.', in Gershevitch (1985: 1–24).
Dietrich, Manfried (1967), *Neue Quellen zur Geschichte Babyloniens. (I), Die Welt des Orients*, iv, pp. 61–103.
Dietrich, Manfried (ed.) (1979), *Cuneiform Texts from Babylonian Tablets in the British Museum*, part 54 ('Neo-Babylonian letters from the Kuyunjik Collection'), London: British Museum Publications.
Dietrich, Wolfgang (1995), *La importancia de los diccionarios guaraníes de Montoya para el estudio comparativo del las lenguas tupí-guaraníes de hoy*, Paris: Association d'Ethnolinguistique Amérindienne, Amerindia, 19/20, pp. 287–99.
Dixon, R. M. W. (1980), *The Languages of Australia*, Cambridge University Press.
Dodson, Aidan (2001), *The Hieroglyphs of Ancient Egypt*, London: New Holland.
Dollinger, André (2002), *The People of Ancient Egypt*, <http://nefertiti.iwebland.com/people>.
Dorion, Henri and Christian Morissonneau (1992), 'Autour du 500e anniversaire de Christophe Colomb: l'Amérique francophone, une Amérique retrouvée', *L'Année francophone internationale* 36: 24–35.
Drew-Bear, Thomas, Christine M. Thomas and Melek Yildizturan (1999), *Phrygian Votive Steles*, Ankara: Museum of Anatolian Civilisations.
Duff, Alexander (1837), *New Era of the English Language and Literature in India*, Edinburgh: John Johnstone.
Electronic Text Corpus of Sumerian Literature, Oxford University, <www-etcsl.orient.ox.ac.uk>.
Elimam, Abdeljlil (1977), *Le maghribi, langue trois fois millénaire*, Algiers: ANEP.
Eliot, John (1663), *Mamusse Wunneetupanatamwe Up-Biblum God naneeswe Nukkone Testament kah wonk Wusku Testament* [The Bible in Massachusett], Cambridge, MA: Samuel Green and Marmaduke Johnson.
Eliot, John (1666), *The Indian Grammar Begun*, Cambridge, MA: Marmaduke Johnson.
Ellingham, Mark, Don Grisbrook and Shaun McVeigh (2001), *Rough Guide to Morocco*, London: Rough Guides.
Entwistle, W. J. and W. A. Morison (1949), *Russian and the Slavonic Languages*, London: Faber.

Erman, Adolf (1894), *Life in Ancient Egypt* (*Aegypten*, trans. H. M. Tirard), London: Macmillan.
Evans, Gwynfor (1992), *Land of My Fathers*, Talybont, Ceredigion: Y Lolfa.
Febvre, Lucien and Henri-Jean Martin (1958), *L'apparition du livre*. Paris: Albin Michel.
Febvre, Lucien and Henri-Jean Martin (1976), *The Coming of the Book* (trans. of Febvre and Martin 1958), London: New Left Books.
Feng, Shengli (1998), 'Prosodic structure and compound words in Classical Chinese', in Packard (1998: 197–260).
Ferguson, Niall (2003), *Empire: How Britain made the modern world*, London: Allen Lane.
Firth, J. R. (1964), *The Tongues of Men & Speech*, Oxford University Press.
Fisher, Alan (1978), *The Crimean Tartars*, Stanford, CA: Hoover Institution Press.
Fitzgerald, C. P. (1986), *China: a Short Cultural History*, London: Century Hutchinson.
Flannery, Tim (1994), *The Future Eaters*, Sydney: Reed Books Australia.
Franklin, Simon and Jonathan Shepard (eds) (1996), *The Emergence of Rus 750–1200*, London: Longman.
Frye, Richard N. (1993), *The Golden Age of Persia*, London: Weidenfeld and Nicolson.
Fukuyama, Francis (1992), *The End of History and the Last Man*, Harmondsworth: Penguin.
Gao, Yuan (1991), *Luring the Tiger out of the Mountains*, London: Piatkus.
Gardiner, Sir Alan (1957), *Egyptian Grammar*, Oxford University Press.
Garelli, Paul (1982), 'Importance et Rôle des Araméens dans l'Administration de l'Empire Assyrien', in Nissen and Renger (1982: 437–47).
Gensler, Orin David (1993), *A typological evaluation of Celtic/Hamito-Semitic syntactic parallels*, PhD dissertation, University of California, Berkeley.
Gershevitch, Ilya (ed.) (1985), *The Cambridge History of Iran*. Volume 2: *Median and Achaemenian periods*, Cambridge University Press.
Ghirshman, Roman (1954), *Iran. From the Earliest Times to the Islamic Conquest*, Harmondsworth: Penguin.
Gholam Hossein Khan, Sied (1902 [1789]), *The Seir Mutaqherin: or Review of Modern Times: Being an History of India, From the Year 1118 to 1194*, Calcutta.
Gidwani, Bhagwan S. (1994), *Return of the Aryans*, New Delhi: Penguin, India.
Godoy, Lucio (1982), 'Textos Aché. Ciclo Mberendy', Asunción: *Suplemento Antropológico* xvii, June.
Gómez Mango de Carriquiry, Lidice (1995), *El encuentro de lenguas en el « Nuevo Mundo »*, Córdoba: Cajasur.
Gordon, Cyrus H. (1971), *Forgotten Scripts: the Story of Their Decipherment*, Harmondsworth: Penguin.
Gordon, Cyrus H. (1997), 'Amorite and Eblaite', in Hetzron (1997: 100–13).
Gordon, E. V. (1957), *Introduction to Old Norse* (2nd edn. rev. A. R. Taylor), Oxford University Press.
Gorrochategui, Joaquín (1995), 'The Basque Language and Its Neighbours in Antiquity', in Hualde, Lakarra and Trask (eds), *Towards a History of the Basque Language*, Amsterdam: John Benjamins, pp. 31–64.
Graddol, David (1997), *The Future of English?*, London: British Council.
Graddol, David (1999), 'The decline of the native speaker', in Graddol and Meinhof (1999: 57–68).

Graddol, David and Ulrike H. Meinhof (eds) (1999), *English in a Changing World*, Milton Keynes: Catchline, and *AILA Review* 13.

Greenfield, J. C. (1985), 'Aramaic in the Achaemenian Empire', ch. 15 in Gershevitch (1985: 698–713).

Grimes, Barbara (ed.) (2000), *Ethnologue: Languages of the World* (14th edn), Dallas, TX: Summer Institute of Linguistics.

Grimm, Jakob (1876), *Deutsche Mythologie* (4th edn), Berlin: Dümmler.

Grousset, René (1970), *The Empire of the Steppes*, Paris: Payot; New Brunswick: Rutgers.

Guichard, Pierre (2000), *Al-Andalus 711–1492*, Paris: Hachette.

Guilarte, Alex (1998), 'Alba? What do you mean?', in Celtic League: *Carn* 101 (spring): 22–3.

Haddadou, M. A. (1993), *Guide de la Culture et de la Langue Berbères*, Paris: ENAL-ENAP.

Hall, D. G. E. (1981), *A History of South-East Asia*, London: Macmillan.

Hallo, William W. (1974), 'Toward a History of Sumerian Literature', in Lieberman (1974).

Hamilton, A. W. (1987), *Malay Proverbs*, Singapore: Times Books International.

Hardman de Bautista, Martha (1985), 'The Imperial Languages of the Andes', in Wolfson and Manes (1985: 182–93).

Harmon, David (1995), 'The Status of the World's Languages as Reported in Ethnologue', *Southwest Journal of Linguistics* 14(1–2): 1–28.

Harris, William V. (1989), *Ancient Literacy*, Cambridge, MA: Harvard University Press.

Hashimoto, Mantaro (1986), 'The Altaicization of Northern Chinese', *Contributions to Sino-Tibetan Studies*, Brill, pp. 76–97.

Hawks, Francis L. (1954), *Narrative of the Expedition of an American Squadron to the China Seas and Japan* (ed. M. Wallach), London: Macdonald.

Henning, W. B. (1949), 'The Aramaic Inscription of Asoka found at Lampaka', *Bulletin of School of Oriental and African Studies* xiii: 82.

Hetzron, Robert (ed.) (1997), *The Semitic Languages*, New York and London: Routledge.

Hoffman, John (1979), 'A foreign investment: Indies Malay to 1901', Cornell Modern Indonesia Project: *Indonesia* 27 (April): 65–92.

Hornblower, Simon and Antony Spawforth (eds) (1999), *The Oxford Classical Dictionary*, Oxford University Press.

Horrocks, Geoffrey (1997), *Greek: a History of the Language and its Speakers*, Harlow: Longman.

Hosking, Geoffrey (1997), *Russia: People and Empire*, London: HarperCollins.

Hourani, George F. (1995), *Arab Seafaring*, Princeton University Press.

Ingram, Edward (ed.) (1969), *Two Views of British India: the private correspondence of Mr Dundas and Lord Wellesley: 1798–1801*, Bath: Adams & Dart.

Israel, Jonathan I. (1995), *The Dutch Republic: its Rise, Greatness, and Fall 1477–1806*, Oxford University Press.

Jackson, Kenneth (1994 [1953]), *Language and History in Early Britain*, Dublin: Four Courts Press [Edinburgh University Press].

Jacoby, Felix (1923), *Fragmente der griechischen Historiker*, Berlin.

Johnson, Harold and Maria Beatriz Nizza da Silva (eds) (1992), *O Império Luso-Brasileiro 1500–1620*, Lisbon: Editorial Estampa.

Johnson, Paul (1999), *The Civilization of Ancient Egypt*, London: Weidenfeld and Nicolson.

Johnson-Weiner, Karen (1999), 'Educating in English to Maintain Pennsylvania German: the Old Order Parochial School in the Service of Cultural Survival', in Ostler (1999: 31–7).

Joyce, P. W. (1977 [1910]), *English as We Speak It in Ireland*, Tokyo: Shinkosha [Dublin].

Kachru, Braj B. (1983), *The Indianization of English: the English language in India*, Delhi: Oxford University Press.

Karlgren, Bernhard (1954), 'Compendium of Phonetics in Ancient and Archaic Chinese', *Bulletin of the Museum of Far Eastern Antiquities* 12: 1–471.

Karttunen, Frances (1990), 'Conventions of Polite Speech in Nahuatl', *Estudios de Cultura Nahuatl* 20: 281–96.

Kaufman, Stephen A. (1974), 'The Akkadian Influences on Aramaic', University of Chicago: *Assyriological Studies* 19.

Kaufman, Stephen A. (1997), 'Aramaic', ch. 7 in Hetzron (1997).

Kennedy, Paul (1988), *The Rise and Fall of the Great Powers*, London: Unwin Hyman.

Kesavan, B. S. (1992), *The Book in India*, Delhi: National Book Trust.

Keynes, John Maynard (1930), *A Treatise on Money*, London: Macmillan.

Keys, David (1999), *Catastrophe: an Investigation into the Origins of the Modern World*, London: Century.

Khaulavi, P. N. (1979), *History of the Persian Language* (trans. N. H. Ansari), New Delhi: Mohammad Arhad for Idarah-i-Adabiyat-i Delli.

King, Linda (1994), *Roots of Identity: Language and Literacy in Mexico*, Stanford University Press.

Kramer, Samuel Noah (1979), *From the Poetry of Sumer: Creation, Glorification, Adoration*, Berkeley/Los Angeles: University of California.

Krauss, Michael (2001), 'Mass Language Extinction, and Documentation: the Race against Time', in Osamu Sakiyama (ed.), *Lectures on Endangered Languages*, 2, Kyoto: ELPR, pp. 19–40.

Lambert, Pierre-Yves (1997), *La langue gauloise*, Paris: Éditions Errance.

Lambert, W. G. (1960), *Babylonian Wisdom Literature*, Oxford: Clarendon Press.

Lancel, Serge (1997), *Carthage: a history*, Oxford: Blackwell.

Lara, Jesús (ed.) (1971), *Diccionario Qhëshwa–Castellano Castellano–Qhëshwa*, La Paz and Cochabamba, Bolivia: Los Amigos del Libro.

Lara, Jesús (ed.) (1989), *Tragedia del fin de Atawallpa*, Buenos Aires: Ediciones del Sol; Cochabamba, Bolivia: Los Amigos del Libro.

Lastra de Suárez, Yolanda and Fernando Horcasitas (1983), 'La lengua nahuatl de México', in Bernard Pottier (ed.), *América Latina en sus lenguas indígenas*, Caracas: UNESCO and Monte Avilá, pp. 263–81.

Leclerc, Jacques (2000), *Langues du monde*, <www.tlfq.ulaval.ca/axl/Languages/acces languesmonde.htm>.

Leclerc, Jacques (2001), 'Histoire du français au Québec', in Quebec: TLFQ, Université Laval, *L'aménagement linguistique dans le monde*, <www.tlfq.ulaval.ca/axl/franco phonie/histfrnqc.htm>.

Lehmann, Winfred P. (1987), 'Linguistic and archaeological data for handbooks of proto-languages', in Festschrift for Maria Gimbutas, Washington, DC.

Lejeune, Michel (1974), *Manuel de la langue vénète*, Heidelberg: Carl Winter.

Lemaire, André and Hélène Lozachmeur (1996), 'Remarques sur le plurilinguisme en Asie Mineure à l'époque perse', in Briquel-Chatonnet (1996: 91–124).

León-Portilla, Miguel (1992), *Literaturas indígenas de México*, Mexico: Editorial Mapfre.

Lewis, Bernard (1995). *The Middle East*, London: Phoenix Press.
Lichtheim, Miriam (1973). *Ancient Egyptian Literature*, Vol. I: *The Old and Middle Kingdoms*, Berkeley and Los Angeles: University of California Press.
Lieberman, Stephen J. (ed.) (1974). 'Sumerological Studies in Honour of Thorkild Jacobsen', University of Chicago: *Assyrological Studies* 20.
Lieven, Dominic (2000), *Empire: the Russian Empire and Its Rivals*, London: John Murray.
Lindenberger, James M. (1983), *The Aramaic Proverbs of Ahiqar*, Baltimore, MD: Johns Hopkins University Press.
Lipiński, Edward (1997), *Semitic Languages: Outline of a Comparative Grammar*, Leuven: Uitgeverij Peeters.
Lopes, David (1936), *A Expansão da Língua Portuguesa no Oriente durante os séculos XVI, XVII e XVIII*, Barcelos: Portucalense Editora.
Loprieno, Antonio (1995), *Ancient Egyptian*, Cambridge University Press.
Luft, Ulrich (1992), 'Νειλος. Eine Anmerkung zur kulturellen Begegnung der Griechen mit den Ägyptern', in *The Intellectual Heritage of Egypt*, Budapest: Studies Kákosy, pp. 403–10.
Mackey, William F. (1998), 'The foundations', ch. 1 in John Edwards (ed.), *Language in Canada*, Cambridge University Press.
Majumdar, Ramesh Chandra (1975), *Study of Sanskrit in South-East Asia*, Calcutta: Sanskrit College.
Malbran-Labat, Florence (1996), 'Akkadien, bilingues et bilinguisme en Élam et à Ougarit', in Briquel-Chatonnet (1996: 33–62).
Mango, Andrew (1999), *Atatürk*, London: John Murray.
Mango, Cyril (1980 [1994]), *Byzantium: the Empire of the New Rome*, London: Weidenfeld and Nicolson. References are to the 1994 edn reissued by Phoenix.
Markoe, Glenn E. (2000), *Phoenicians*, London: British Museum Press.
Masica, Colin P. (1991), *The Indo-Aryan Languages*, Cambridge University Press.
McAlpin, David (1981), 'Proto-Elamo-Dravidian: the evidence and its implications', Philadelphia: *Transactions of the American Philosophical Society* 71(3).
McClure, Erica (2001), 'The role of language in the construction of ethnic identity on the Internet: the case of Assyrian activists in diaspora', in Moseley et al. (2001: 68–75).
McCrum, Robert, William Cran and Robert MacNeil (1987), *The Story of English*, London: Faber and BBC.
McEvedy, Colin and Richard Jones (1978), *Atlas of World Population History*, Harmondsworth: Penguin.
Menéndez Pidal, R. (1968), *Manual de Gramática Histórica Española* (13th edn), Madrid: Espasa Calpe.
Menéndez Pidal, R. (1972), *Origenes del español* (7th edn), Madrid: Espasa Calpe.
Miller, Roy (1967), *The Japanese Language*, University of Chicago Press.
Milner, Clyde A., Carol A. O'Connor and Martha A. Sandweiss (eds) (1994), *The Oxford History of the American West*, New York: Oxford University Press.
Milner-Gulland, Robin (1997), *The Russians*, Oxford: Blackwell.
Miquel, André (1968), *L'islam et sa civilisation (VIIe–XXe)*, Paris: Armand Colin.
Miyawaki, Hiroyuki (2002), *Colonial Language Policies and Their Effects*, Barcelona: World Congress on Language Policies, <www.linguapax.org/congres/taller/taller1/miyawaki.html>.

Moran, William L. (ed.) (1992), *The Amarna Letters* (trans. of *Les lettres d'el-Amarna*, 1987), Baltimore: Johns Hopkins University Press.

Moseley, Christopher, Nicholas Ostler and Hassan Ouzzate (eds) (2001), *Endangered Languages and the Media*, Bath: Foundation for Endangered Languages.

Mossé, Fernand (ed.) (1962), *Manuel de l'anglais du Moyen Age: II Moyen-anglais*, Paris: Aubier Montaigne.

Mote, F. W. (1999), *Imperial China 900–1800*, Cambridge, MA: Harvard University Press.

Motolinía (Fray Toribio de Benavente) (1990 [1541]), *Historia de los Indios de la Nueva España* (5th edn), Mexico: Editorial Porrua.

Moule, C. F. D. (1959), *An Idiom-book of New Testament Greek*, Cambridge University Press.

Mufwene, Salikoko S. (2001), *The Ecology of Language Evolution*, Cambridge University Press.

Muhly, J. D., R. Maddin and V. Karageorghis (eds) (1982), *Early metallurgy in Cyprus, 4000–500 BC*, Nicosia: Pierides Foundation.

Myers, Ramon H. and Mark R. Peattie (eds) (1984), *The Japanese Colonial Empire 1895–1945*, Princeton University Press.

Nicolson, Adam (2003), *Power and Glory: Jacobean England and the Making of the King James Bible*, London: HarperCollins.

Nissen, Hans-Jörg and Johannes Renger (eds) (1982), *Mesopotamien und seine Nachbarn*, Berlin: D. Reimer.

Norman, Jerry (1988), *Chinese*, Cambridge University Press.

Oded, Bustenay (1979), *Mass Deportation and Deportees in the Neo-Assyrian Empire*, Wiesbaden: Dr Ludwig Reichert Verlag.

Oliveira Marques, A. H. de (1972), *History of Portugal—volume I : from Lusitania to Empire*, New York: Columbia University Press.

Ostler, Nicholas (ed.) (1999), *Endangered Languages and Education*, Bath: Foundation for Endangered Languages.

Ostler, Nicholas (2004), 'The Social Roots of Missionary Linguistics', in Hovdhaugen and Zwartjes (eds), *Proceedings of the First International Conference on Missionary Linguistics*, Oslo, 13–16 March 2003, pp. 33–46.

Packard, Jerome L. (ed.) (1998), *New Approaches to Chinese Word Formation*, Berlin: De Gruyter.

Parpola, Simo (1999), 'Assyrians after Assyria', *Journal of Assyrian Academic Studies* xiii(2).

Pedersen, Holger (1972), *The Discovery of Language* (5th edn), Bloomington: Indiana University Press.

Pennycook, A. (1994), *The Cultural Politics of English as an International Language*, Harlow: Longman.

Peremans, Willy (1964), 'Über die Zweisprachigkeit im Ptolemäischen Ägypten', in *Studien zur Papyrologie und antiken Wirtschaftsgeschichte. Friedrich Oertel zum achtigsten Geburtstag gewidmet*, Bonn, pp. 49–60.

Pertusi, A. (1952), *Constantine Porphyrogenitus: de thematibus*, Vatican.

Petro, Pamela (1997), *Travels in an Old Tongue*, London: HarperCollins Flamingo.

Phillipson, Robert (1992), *Linguistic Imperialism*, Oxford University Press.

Picoche, Jacqueline and Christiane Marchello-Nizia (1989), *Histoire de la langue française*, Paris: Nathan.

Planhol, Xavier de (1968), *Les fondements géographiques de l'histoire de l'Islam*, Paris: Flammarion.
Polier, Antoine-Louis Henri (2001), *A European Experience of the Mughal Orient: the* I'jāzi Arsalānī *(Persian Letters, 1773–1779)* (trans. Muzaffar Alam and Seema Alavi), New Delhi: Oxford University Press.
Polotsky, Hans Jacob (1971), 'Aramäisch *prš* und das „Huzvaresch"', in E. Y. Kutscher (ed.), *Collected Papers*, Jerusalem: Magna Press, Hebrew University, pp. 631–43.
Price, Glanville (ed.) (2000), *Languages in Britain and Ireland*, Oxford: Blackwell.
Pritchard, James B. (ed.) (1969), *Ancient Near Eastern Texts Relating to the Old Testament* (3rd edn with supplement), Princeton University Press.
Prokosch, E. (1938), *A Comparative Germanic Grammar*, Baltimore, MD: Linguistic Society of America.
Pym, Dora and Nancy Silver (1952), *Alive on Men's Lips*, Slough: Centaur.
Quilis, Antonio (1992), *La lengua española en cuatro mundos*, Madrid : Editorial Mapfre.
Ramsey, S. Robert (1987), *The Languages of China*, Princeton University Press.
Rangarajan, L. N. (ed. and trans.) (1992), *Kautilya: the Arthashastra*, New Delhi: Penguin, India.
Reynolds, L. D. and N. G. Wilson (1968), *Scribes and Scholars*, Oxford University Press.
Ricard, Robert (1933), *The Spiritual Conquest of Mexico* (trans. Lesley Bird Simpson, 1966), Berkeley: University of California Press.
Robinson, F. N. (ed.) (1957), *The Complete Works of Geoffrey Chaucer*, Boston, MA: Houghton Mifflin.
Rosenblat, Angel (1964), 'La Hispanización de América: el castellano y las lenguas indígenas desde 1492', in *Presente y futuro de la lengua española : Actas de la Asamblea de Filología del I Congreso de Instituciones Hispánicas*, Madrid, pp. 189–216.
Roux, Georges (1992), *Ancient Iraq* (3rd edn), Harmondsworth: Penguin.
Roy, Olivier (2000), *The New Central Asia: the Creation of Nations*, London and New York: I. B. Tauris.
Rubin, Joan (1985), 'The Special Relation of Guarani and Spanish in Paraguay', in Wolfson and Manes (1985: 111–20).
Russell, J. C. (1958), 'Late Ancient and Medieval Population', Philadelphia, PA: *Transactions of the American Philosophical Society*, New Series 48(3).
Saeki, P. Y. (1937), *The Nestorian Documents and Relics in China*, Tokyo: Maruzen.
Sale, Kirkpatrick (1990), *The Conquest of Paradise*, New York: Knopf .
Salomon, Richard (1998), *Indian Epigraphy*, New York: Oxford University Press.
Santarém, Visconde de (1958 [1841]), *Memória sobre a prioridade dos descobrimentos portugueses na Costa da África Ocidental*, Paris; reissued Lisbon: Comissão Executiva das Comemoracões do Quinto Centenário da Morte do Infante D. Henrique, 1958.
Sawyer, John F. A. (1999), *Sacred Languages and Sacred Texts*, London: Routledge.
Schlumberger, Daniel, Louis Robert and André Dupont-Sommer (1958), 'Une bilingue gréco-araméenne d'Asoka', *Journal asiatique* ccxlvi.
Schoff, W. H. (1912), *The Periplus of the Erythraean Sea: Travel and Trade in the Indian Ocean by a Merchant of the First Century*, London, Bombay and Calcutta.
Schmandt-Besserat, Denise (1997), *How Writing Came About*, Austin: University of Texas.
Shaw, Stanford J. (1976), *History of the Ottoman Empire and Modern Turkey*, vol. 1, Cambridge University Press.

Sherzer, Joel (1993), 'A Richness of Voices', in Alvin M. Josephy (ed.), *America in 1492*, New York: Random House, pp. 251–75.
Silver, Shirley and Wick R. Miller (1997), *American Indian Languages: Cultural and Social Contexts*, Tucson: University of Arizona Press.
Sinha, Surendra Prasad (1978), *English in India*, Patna: Janaki Prakashan.
Sinor, Denis (ed.) (1990), *The Cambridge History of Early Inner Asia*, Cambridge University Press.
Sircar, D. C. (1971), *Studies in the Geography of Ancient and Medieval India*, Delhi: Motilal Banarsidass.
Slate, Clay (2001), 'Promoting Advanced Navajo Language Scholarship', in Hinton and Hale (eds), *The Green Book of Language Revitalization in Practice*, San Diego, CA: Academic Press, pp. 389–410.
Smith, Colin (1983), 'Vulgar Latin in Roman Britain: epigraphic and other evidence', in Temporini and Haase (1983: 893–948).
Smith, Jeremy J. (2000), 'Scots', in Price (2000: 159–70).
Soothill, William Edward (1910), *Confucius: the Analects*, Edinburgh: Oliphant, Anderson & Ferrier (reissued: Dover, 1995).
Spear, Percival (1965), *A History of India*, vol. 2, Harmondsworth: Penguin.
Stephens, Susan A. and John J. Winkler (1995), *Ancient Greek Novels: The Fragments*, Princeton University Press.
Strange, John (1980), 'Caphtor/Keftiu; a new investigation', *Acta Theologica Danica* 14, Leiden: E. J. Brill.
Studer, Paul and E. G. R. Waters (1924), *Historical French Reader: Medieval period*, Oxford University Press.
Sykes, Bryan (2001), *The Seven Daughters of Eve*, London: Bantam.
Sznycer, Maurice (1967), *Les passages puniques en transcription latine dans le 'Poenulus' de Plaute*, Paris: C. Klincksieck.
Sznycer, Maurice (1996), 'Le bilinguisme en Afrique du Nord à l'époque romaine', in Briquel-Chatonnet (1996).
Tadmor, Hayyim (1982), 'The Aramaization of Assyria: Aspects of the Western Impact', in Nissen and Renger (1982: 449–70).
Tarling, Nicholas (ed.) (1999), *Cambridge History of Southeast Asia, volume 1, part 1. From early times to c.1500*, Cambridge University Press.
Tarracha Ferreira, Maria Ema (1992), *Literatura dos Descobrimentos e da expansão portuguesa*, Lisbon : Biblioteca Ulisseia.
Temporini, H. and W. Haase (eds) (1983), *Aufstieg und Niedergang der Römischen Welt*, 2, Berlin and New York: Principat.
Thomason, Sarah and Terrence Kaufman (1988), *Language Contact, Creolization, and Genetic Linguistics*, University of California Press.
Thomsen, Marie-Louise (1984), *The Sumerian Language: an Introduction to its History and Grammatical Structure*, Copenhagen: Akademisk Forlag.
Tomlin, R. S. O. (1987), 'Was ancient British Celtic ever a written language? Two texts from Roman Bath', Cardiff: *Bulletin of the Board of Celtic Studies* 34: 18–25.
Torero, Alfredo (1974), *El quechua y la historia social andina*, Lima: Universidad Ricardo Palmá.
Tovar, Antonio (1964), 'Español y lenguas indígenas. Algunos ejemplos', in *Presente y futuro de la lengua española: Actas de la Asamblea de Filología del I Congreso de Instituciones Hispánicas*, Madrid, pp. 245–57.

Triana y Antorveza, H. (1987). *Las lenguas indígenas en la historia social del Nuevo Reino de Granada*, Bogotá: Instituto Caro y Cuervo.
Tsereteli, Mikheil (1959 [1912]), 'Das Sumerische und das Georgische', Paris: *Revue de Kartvelologie*, nos. 32–33. Original in Georgian ('Sumerian and Georgian') in *Tbilisi Collection* 'Gvirgvini' ('Crown').
Tsurumi, E. Patricia (1984), 'Colonial Education in Korea and Taiwan', in Myers and Peattie (1984: 275–311).
Van Leur, Jacob Cornelis (1955), *Indonesian Trade and Society*, The Hague: W. van Hoeve.
Vanaya, Marta (1986), *Mitos y Leyendas Guaraníes*, Buenos Aires: Jamkana Libros.
Vásquez Cuesta, Pilar and Maria Albertina Mendes da Luz (1971). *Grámatica da Língua Portuguesa*, Lisbon: Edições 70.
Viñaza, Conde de la (1892), *Bibliografía de Lenguas Indígenas de América*, Madrid : Ediciones Atlas.
Voutyras, E. (1994), 'Bulletin épigraphique', in *Revue d'Études Grecques* 413.
Wang Gungwu (1992), *Community and Nation: China, Southeast Asia and Australia* (2nd edn), ch. 2, 'A Short History of the Nanyang Chinese, St Leonards', Kensington, NSW: Asian Studies Association of Australia in association with Allen and Unwin.
Warner, Sam L. No'eau (1999), '*Kuleana*: The Right, Responsibility, and Authority of Indigenous People to Speak and Make Decisions for Themselves in Language and Cultural Revitalization', *Anthropology and Education Quarterly* 30(1): 68–93.
Weale, Michael E., Deborah A. Weiss, Rolf F. Jager, Neil Bradman and Mark G. Thomas (2002), 'Y chromosome evidence for Anglo-Saxon mass migration', *Molecular Biology & Evolution* 19(7): 1008–21.
Welling, George M. (2001), *The United States of America and the Netherlands*, University of Groningen: Dept Alfa-informatica, <http://grid.let.rug.nl/~usa/E/newnetherlands/nlxx.htm>.
Whitelock, Dorothy (1967), *Sweet's Anglo-Saxon Reader*, Oxford University Press.
Whitfield, Susan (1999), *Life along the Silk Road*, London: John Murray.
Wiesehöfer, Josef (2001), *Ancient Persia*, London: I. B. Tauris.
Wilkinson, Endymion (2000), *Chinese History: a Manual Revised and Enlarged*, Cambridge, MA: Harvard University Asia Center.
Williams, Roger (1643), *A Key into the Language of America*, London: Gregory Dexter.
Woodcock, George (1966), *The Greeks in India*, London: Faber.
Wolfson, Nessa and Joan Manes (1985), *Language of Inequality*, Berlin: Walter de Gruyter.
World Almanac and Book of Facts (1995), Mahwah, NJ: Funk & Wagnalls.
Wright, John W. (ed.) (2000, 2001), *New York Times Almanac*, Harmondsworth: Penguin.
Wright, Roger (1982), *Late Latin and Early Romance in Spain and Carolingian France*, Liverpool: Francis Cairns.
Young, G. M. (ed.) (1957), *Macaulay, Prose and Poetry*, Cambridge, MA: Harvard University Press.
Yule, Henry and Arthur Burnell (1986 [1903]), *Hobson-Jobson: a glossary of colloquial Anglo-Indian words and phrases*, New Delhi: Rupa & Co.

إمبراطوريّات الكلمة

تاريخ للّغات في العالم

إن تاريخ اللغات هو أيضاً تاريخ الناطقين بها، تنعكس من خلاله قوة مستخدميها وثقافاتهم وفتوحاتهم ومستوى مقاماتهم، وأحياناً أقدارهم. فمن خلال دراسة لغاتهم، يتكشف لنا تاريخ العالم بأدق تفاصيله.

«**إمبراطوريات الكلمة**» هو الكتاب الأول والوحيد الذي يسرد لنا القصة الرائعة للتنوع في العالم. فهو يبين لنا الابتكارات المذهلة التي حصلت في حقول التعليم والثقافة والديبلوماسية في الشرق الأوسط، ويقدم لنا مسحاً دقيقاً للمرونة المدهشة للغة الصينية على امتداد عشرين قرناً من الغزوات والحروب، ويضع خرائط لتقدم اللغة السنسكريتية من شمال الهند إلى جاوة واليابان، ويصف الصراع الذي أدى إلى ولادة لغات جديدة في أوروبا الحديثة، ويقيس الانتشار العالمي للغة الإنكليزية، كما أنه يبين لنا أن لغات المستقبل، مثلها مثل لغات الماضي، سوف تكون مليئة أيضاً بالمفاجآت...

علي مولا

9 789953 279145